المفسّرون والقرآن
(١)

المفسّرون والتفسير التحليلي للقرآن

عرض وتهذيب لما ورد في تفاسير المدارس الإسلامية حول المعاني القرآنية



أ. د. نور الدين أبو لحية

دار الأنوار للنشر والتوزيع

هذا الكتاب

يحاول هذا الكتاب التعرف على ما ذكره المفسّرون ـ بحسب مدارسهم المختلفة، وبحسب التسلسل التاريخي ـ من المعاني التي فُسّرت بها آيات القرآن الكريم ـ وبحسب الترتيب المصحفي ـ من خلال:

١. التعرف على معاني مفرداتها، وما تحتمله من معان.

٢. أو من خلال تراكيبها النحوية، وما تحتمله كذلك من المعاني.

٣. أو ما قد ترشد إليه علوم البلاغة من البيان والمعاني ونحوها من المعاني القرآنية.

وبذلك، فإنه يحاول استيعاب كل ما ذكره المفسّرون من الوجوه التي تحتملها كل لفظة أو آية قرآنية، من خلال تحليلها اللغوي، وبجوانبه المختلفة، بالإضافة إلى علاقة ذلك بما ورد في الأحاديث والآثار، أو بما يتبناه المفسّر من رؤية عقدية أو فقهية أو ثقافة علمية.

ولهذا اعتمدنا ما ورد في المصادر التفسيرية الكبرى للطوائف المختلفة، وفي العصور المختلفة ـ ابتداء من العصر الأول إلى هذا العصر ـ وقد انتقيناها من خلال الرجوع لكل التفاسير المعروفة، والتي رأينا أغلبها يكرر ما سبق ذكره، أو يختصر الكلام في الآيات الكريمة، ولذلك رأينا أن ما انتقيناه منها قد يغني عن غيرها.

وهذا الانتقاء مؤسّس على الاهتمام بطائفة المفسر، وعصره، وأسلوبه في تفسيره، ومدى اهتمام طائفته أو الأمّة به، ومدى توسعه في تناول المواضيع المختلفة، ولذلك استبعدنا التفاسير المختصرة جدا إلا تلك التي قد نرى من خلالها رؤية طائفة معينة.

وقد رتبنا التفاسير بحسب التسلسل الزمني، لنرى مدى تأثر بعضها ببعض، بالإضافة إلى التعرف على الجدل الحاصل بينها، فالكثير من التفاسير المتأخرة تتناول بالعرض أو النقد أو التفصيل التفاسير السابقة لها.

وأهم ما حاولنا القيام به في هذا الكتاب ـ كما في السلسلة جميعا ـ هو تبسيط وتيسير الوصول إلى المعلومة من هذه المصادر التفسيرية، وذلك من خلال اعتماد المناهج الحديثة من التفكيك والترتيب وضم النظير إلى نظيره، ونحو ذلك.

المفسّرون

والتّفسير التحليلي للقرآن

عرض وتهذيب لما ورد في تفاسير المدارس الإسلامية حول المعاني القرآنية

الجزء ٣٩

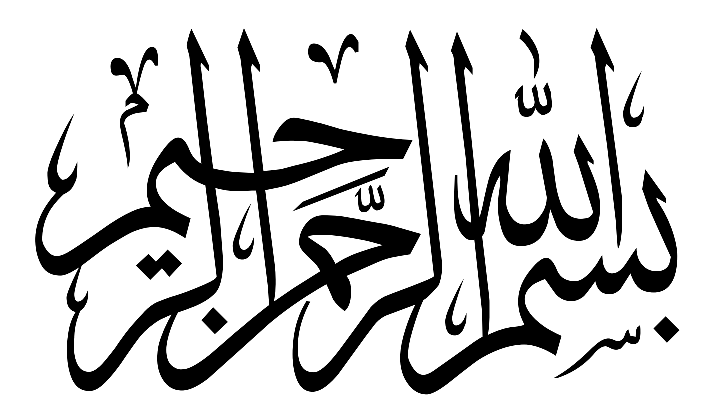
أ. د. نور الدين أبو لحية

www.aboulahia.com

الطبعة الأولى

١٤٤٦ . ٢٠٢٥

دار الأنوار للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

٦. المستهزئون بالرسل وعاقبتهم

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٦] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١٠ ـ ١١]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

الضحاك:

روي عن الضحاك بن مزاحم (ت ١٠٢ هـ) أنّه قال: ﴿فَحَاقَ﴾: أحاط[١].

عطاء:

روي عن عطاء بن أبي رباح (ت ١١٤ هـ) أنّه قال: ﴿فَحَاقَ﴾: حلّ[٢].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) أنّه قال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾، بئس ـ والله ـ ما كان عاقبة المكذّبين، دمّر الله عليهم، وأهلكهم، ثم صيّرهم إلى النار[٣].

السّدّيّ:

روي عن إسماعيل السّدّيّ (ت ١٢٧ هـ) أنّه قال: ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ﴾ من الرّسل ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يقول: وقع بهم العذاب الذي استهزءوا به[٤].

الربيع:

---

(١) تفسير الثعلبي ٤/ ١٣٦.

(٢) تفسير الثعلبي ٤/ ١٣٦.

(٣) ابن جرير ٩/ ١٦٧.

(٤) ابن جرير ٩/ ١٦٦.

روي عن الربيع بن أنس (ت ١٣٩ هـ) أنّه قال: ﴿فَحَاقَ﴾ نزل[١].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾، وذلك أنّ مكذبي الأمم الخالية أخبرتهم رسلهم بالعذاب، فكذّبوهم بأنّ العذاب ليس بنازل بهم، فلمّا كذّب كفار مكة النبي ﷺ بالعذاب حين أوعدهم استهزءوا منه؛ فأنزل الله يعزّي نبيه ﷺ ليصبر على تكذيبهم إياه بالعذاب[٢].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يا محمد، كما استهزئ بك في أمر العذاب، ﴿فَحَاقَ﴾ يعني: فدار ﴿بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ﴾ يعني: من الرسل ﴿مَا كَانُوا بِهِ﴾ يعني: بالعذاب ﴿يَسْتَهْزِئُونَ﴾ بأنّه غير نازل بهم[٣].

٣. روي أنّه قال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ بالعذاب، كان عاقبتهم الهلاك، يحذّر كفار مكة بمثل عذاب الأمم الخالية[٤].

ابن إسحاق:

روي عن محمد بن إسحاق (ت ١٥١ هـ) أنّه قال: مرّ رسول الله ﷺ ـ فيما بلغني ـ بالوليد بن المغيرة، وأميّة بن خلف، وأبي جهل بن هشام، فهمزوه، واستهزءوا به، فغاظه ذلك؛ فأنزل الله: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[٥].

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٦]:

١. ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يصبر

---

(١) تفسير الثعلبي ٤/ ١٣٦.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥١.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥١.

(٤) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥١.

(٥) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٦٧.

(٦) تأويلات أهل السنة: ٤/ ٣٠.

رسوله على تكذيب قومه ليعلم أنه ليس هو أول مكذب، ولكن قد كذب الرسل الذين من قبلك، ويخبره أنه يلحق هَؤُلَاءِ بتكذيبك كما لحق أُولَئِكَ بتكذيبهم الرسل.

٢. ﴿فَحَاقَ﴾ قال أبو عَوْسَجَةَ: (حاق) أي: رجع، يقال: حاق يحيق حيقًا، أي: رجع عليهم، وقال الكيساني: حاق بهم أي: أحاط بهم ونزل.

٣. ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ ليس على الأمر بالسير في الأرض، ولكن على الاعتبار والتفكر فيما نزل بأُولَئِكَ بتكذيبهم الرسل؛ لأنه عز وجل أراهم آيات عقلية وسمعية، فلم ينفعهم ذلك، فأراد أن يريهم آيات حسية ليمنعهم ذلك عن التكذيب والعناد.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. لما أخبر الله تعالى أنه لو أنزل الآيات التي اقترحوها وامتنعوا عند ذلك من الإقرار بالله وتصديق نبيه اقتضت المصلحة استئصالهم كما اقتضت المصلحة استئصال من تقدم من الأمم الماضية عند نزول الآيات المقترحة، كما فعل بقوم صالح وغيرهم من أمم الأنبياء، قال ذلك تسلية لنبيه عليه السلام من استمرارهم على الكفر.

٢. ومعنى (الحيق) ما يشتمل على الإنسان من مكروه فعله كما قال: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إلا بِأَهْلِهِ﴾ أي لا ترجع عاقبة مكروهه إلا عليهم، والمعنى فحاق بالساخرين منهم: ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من وعيد أنبيائهم بعاجل العقاب في الدنيا نحو ما نزل بقوم عاد وثمود وغيرهم من الأمم، وقال أبو علي: حاق وحق بمعنى واحد، والمعنى أنه لما نزل بهم العذاب حق بذلك الخبر عندهم: الخبر الذي كان أخبرهم به النبي ﷺ.

٣. ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أمر الله تعالى في هذه الآية نبيه عليه السلام أن يأمر هؤلاء الكفار أن يسيروا في الأرض لينظروا إلى آثار تلك الأمم فإنها مشهورة ومتواتر خبرها معلوم مساكنها وأراد بذلك زجر هؤلاء الكفار عن تكذيب محمد عليه السلام والتحذير لهم من

---

(١) تفسير الطوسي: ٤/ ٨٦.

أن ينزل بهم من العذاب ما نزل بالمكذبين للرسل من قبلهم.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. حاق وحَقَّ يجريان مجرى واحدًا، والعرب تزيل التضعيف في كثير من الكلام إلى إحدى بنات الياء والواو والهمزة، من ذلك ذل وذال، والذم والذام تقول: ذممت فلانًا وذأمته بالهمز، ومنه ﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا﴾ ومعنى حاق: حَلَّ، يقال: حاق يحيق حَيْقًا وحَيَقَانًا، وفي أصله وجهان:

- الأول: حلول مكروه فعل الإنسان، عن الزجاج.
- الثاني: أن أصله حق بهم المكروه إلا أن المضاعف قلب إلى حرف العلة على ما بَيَّنَّا.

٢. ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ هذا تسلية لرسول الله ﷺ، أي لا تَعْجب منهم إن كفروا بك، فقد استهزئ برسل من قبلك كما فعل هَؤُلَاءِ بك، وإنما كان ذلك تسلية؛ لأن الشركة في المحنة تخفف وتسلي.

٣. ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ﴾:

أ. أي حل بهم، عن عطاء والأصم.

ب. وقيل: حق بهم ووجب.

ج. وقيل: أحاط، عن الضحاك.

٤. ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾:

أ. يعني حل بهم العذاب الذي كانوا يوعدون به، وهم يستهزئون به، وهو عذاب الاستئصال.

ب. وقيل: حاق بهم عاقبة استهزائهم.

ج. وقيل: جزاء استهزائهم ووباله.

٥. ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ فانظروا إلى آثار الأمم الهالكة ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أي عاقبة من كذب الرسل نحو عاد وثمود وقوم نوح وقَوم فرعون وأخبارهم مشهورة،

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/ ٤٩٢.

وآثارهم بينة.

٦. في الآيات تحذير عن العصيان، وأن ينزل بهم ما نزل بالأمم قبلهم.

٧. مسائل لغوية ونحوية:

أ. اللام في قوله: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ﴾ لام القسم؛ لأنها تدخل على الماضي كما تدخل ﴿قَدْ﴾

ب. الفاء في قوله: ﴿فَحَاقَ﴾ قيل: عطف فعل ماضٍ على فعل ماض، وفيه معنى الجواب؛ لأن الثاني جزاء على الأول، وهذا يبين أنها قد تكون في العطف على معنى الجواب.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. الحيق: ما يشتمل على الإنسان من مكروه فعله، يقال حاق بهم، يحيق، حيقا، وحيوقا، وحيقانا، بفتح الياء.

٢. قال سبحانه على سبيل التسلية لنبيه من تكذيب المشركين إياه واستهزائهم به ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يقول: لقد استهزأت الأمم الماضية برسلها، كما استهزأ بك قومك، فلست بأول رسول استهزئ به، ولا هم أول أمة استهزأت برسولها.

٣. ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ﴾:

أ. أي: فحل بالساخرين منهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من وعيد أنبيائهم بعاجل العقاب في الدنيا.

ب. وقيل: معنى حاق بهم: أحاط بهم، عن الضحاك، وهو اختيار الزجاج، أي: أحاط بهم العذاب الذي هو جزاء استهزائهم:

• فهو من باب حذف المضاف إذا جعلت ما في قوله: ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ عبارة عن القرآن والشريعة.

• وإن جعلت ﴿مَا﴾ عبارة عن العذاب الذي كان يوعدهم به النبي، إن لم يؤمنوا، استغنيت عن

---

(١) تفسير الطبرسي: ٤/ ١٠.

تقدير حذف المضاف، ويكون المعنى: فحاق بهم العذاب الذي كانوا يسخرون من وقوعه.

٤. خاطب سبحانه نبيه ﷺ فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: سافروا فيها ﴿ثُمَّ انْظُرُوا﴾: والنظر: طلب الإدراك بالبصر، وبالفكر، وبالاستدلال، ومعناه هنا: فانظروا بأبصاركم وتفكروا بقلوبكم.

٥. ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ المستهزئين، وإنما أمرهم بذلك، لأن ديار المكذبين من الأمم السالفة، كانت باقية، وأخبارهم في الخسف والهلاك، كانت شائعة، فإذا سار هؤلاء في الأرض، وسمعوا أخبارهم، وعاينوا آثارهم، دعاهم ذلك إلى الإيمان وزجرهم عن الكفر والطغيان.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا﴾ أي: أحاط، قال الزّجاج: الحيق في اللغة: ما اشتمل على الإنسان من مكروه فعله، ومنه: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إلا بِأَهْلِهِ﴾؛ أي: لا ترجع عاقبة مكروهه إلا عليهم، قال السّدّيّ: وقع بهم العذاب الّذي استهزءوا به.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. بعض الأقوام الذين كانوا يقولون إن رسول الله ﷺ يجب أن يكون ملكا من الملائكة كانوا يقولون هذا الكلام على سبيل الاستهزاء، وكان يضيق قلب الرسول ﷺ عند سماعه فذكر ذلك ليصير سببا للتخفيف عن القلب لأن أحدا ما يخفف عن القلب المشاركة في سبب المحنة والغم، فكأنه قيل له إن هذه الأنواع الكثيرة من سوء الأدب التي يعاملونك بها قد كانت موجودة في سائر القرون مع أنبيائهم، فلست أنت فريدا في هذا الطريق.

٢. ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ﴾ الآية، ونظيره قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إلا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣] في تفسيره وجوه كثيرة لأهل اللغة وهي بأسرها متقاربة:

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٢/ ١٣.

(٢) التفسير الكبير: ١٢/ ٤٨٨.

أ. قال النضر: وجب عليهم.

ب. قال الليث (الحيق) ما حاق بالإنسان من مكر أو سوء يعمله فنزل ذلك به، يقول أحاق الله بهم مكرهم وحاق بهم مكرهم.

ج. وقال الفرّاء: (حاق بهم) عاد عليهم، وقيل (حاق بهم) حل بهم ذلك.

د. وقال الزجاج (حاق) أي أحاط، قال الأزهري: فسّر الزجاج (حاق) بمعنى أحاط وكان مأخذه من الحوق وهو ما استدار بالكمرة.

٣. في لفظة (ما) في قوله: ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فيها قولان:

أ. الأول: أن المراد به القرآن والشرع وهو ما جاء به محمد ﷺ، وعلى هذا التقدير فتصير هذه الآية من باب حذف المضاف، والتقدير فحاق بهم عقاب ما كانوا به يستهزئون.

ب. الثاني: أن المراد به أنهم كانوا يستهزئون بالعذاب الذي كان يخوفهم الرسول بنزوله وعلى هذا التقدير فلا حاجة إلى هذا الإضمار.

٤. ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ كما صبّر الله تعالى رسوله ﷺ بالآية الأولى، فكذلك حذر القوم بهذه الآية، وقال لرسوله: قل لهم لا تغتروا بما وجدتم من الدنيا وطيباتها ووصلتم إليه من لذاتها وشهواتها، بل سيروا في الأرض لتعرفوا صحة ما أخبركم الرسول عنه من نزول العذاب على الذين كذبوا الرسل في الأزمنة السالفة، فإنكم عند السير في الأرض والسفر في البلاد لا بدّ وأن تشاهدوا تلك الآثار، فيكمل الاعتبار، ويقوي الاستبصار.

٥. سؤال وإشكال: ما الفرق بين قوله: ﴿فَانْظُرُوا﴾ [آل عمران: ١٣٧] وبين قوله: ﴿ثُمَّ انْظُرُوا﴾؟ والجواب:

أ. قوله: ﴿فَانْظُرُوا﴾ يدل على أنه تعالى جعل النظر سببا عن السير، فكأنه قيل: سيروا لأجل النظر ولا تسيروا سير الغافلين.

ب. وأما قوله: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا﴾ فمعناه إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع، وإيجاب النظر في آثار الهالكين، ثم نبّه الله تعالى على هذا الفرق بكلمة (ثم) لتباعد ما بين الواجب والمباح.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. قال الله تعالى مؤنسا لنبيه ﷺ ومعزيا: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ﴾ أي نزل بأممهم من العذاب ما أهلكوا به جزاء استهزائهم بأنبيائهم، حاق بالشيء يحيق حيقا وحيوقا وحيقانا نزل، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إلا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر]

٢. ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿بِمَا كَانُوا﴾ بمعنى الذي وقيل: بمعنى المصدر أي حاق بهم عاقبة استهزائهم.

٣. ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين المستسخرين المكذبين: سافروا في الأرض فانظروا واستخبروا لتعرفوا ما حل بالكفرة قبلكم من العقاب وأليم العذاب وهذا السفر مندوب إليه إذا كان على سبيل الاعتبار بآثار من خلا من الأمم وأهل الديار، والعاقبة آخر الأمر، والمكذبون هنا من كذب الحق وأهله لا من كذب بالباطل.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿وَلَقَدُ اسْتُهْزِئَ﴾ أَكَّدَ الله جلَّ وعلا بالقسم واللام و(قَدْ)، تسليةَ رسوله ﷺ على استهزاء قومه، كأبي جهل والنضر والوليد وأميَّة، وأن يصبر كما صبر الرُّسل الذين استَهزأَ بهم أقوامُهم، أي: والله لقد استهزئ ﴿بِرُسُلٍ﴾ كثير عظام فصبروا فاصبر مثلهم أو أكثر ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ نعت لـ (رُسُلٍ)، أو متعلِّق بـ (اسْتُهْزِئَ)

٢. ﴿فَحَاقَ﴾ أي: نزل، ولا يستعمل إلا في الشرِّ ﴿بِالَّذِينَ﴾ أي: بالأقوام الذين ﴿سَخِرُواْ﴾ استهزَءُوا، وكلاهما بمعنى الاحتقار، إلا أنَّه يقال استهزأ به بالباء لا بـ (مِنْ)، ويقال: سخر منه وبه، بالباء أو بـ (مِنْ) كما قال هنا، ﴿مِنْهُم﴾ من الرسل، وهذا وعيد لأهل مكَّة أن يحيق بهم على استهزائهم برسولهم ما نزل على الأمم لاستهزائهم برسلهم، كإغراق قوم نوح، وإحصاب قوم هود، وإرسال الريح عليهم، والحجارة على قوم لوط، والصيحة على نمرود وقوم شعيب.

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/ ٣٩٤.

(٢) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/ ٢٠٤.

٣. وهو العقاب المذكور بقوله تعالى: ﴿مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: العذاب الذي كانوا يستهزئون به، ويكذِّبون الإخبار بإتيانه إن لم يتوبوا، أو حاق بهم جزاء ما استهزؤوا به من الكتب والمعجزات، أي: الجزاء الذي يستَحقُّونه باستهزائهم بذلك، والاستهزاء بالكتب والمعجزات استهزاء بالرسل، ولا حاجة إلى دعوى أنَّ المعنى: فحاق بالذين سخروا منهم جزاء الاستهزاء الذي استهزؤوا به، أي: الذي أوقعوه، ولا إلى دعوى ردِّ هاء (بِهِ) إلى الرَّسول بالإفراد والمراد به الحقيقة.

٤. ﴿قُلْ﴾ لقومك ﴿سِيرُواْ فِي الاَرْضِ﴾ إذا أردتم السير فيها لمصالحكم كالتجارة وزيارة أرحامكم وأصدقائكم، وتعلُّم الطبِّ والصنائع، بحسب ما اتَّفق من ذلك، أو أنشِئُوا السير لِمُجَرَّدِ النظر والاعتبار، ولو بلا قصد تجارة أو للتجارة أو نحوها وللاعتبار معًا.

٥. ﴿ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ من العذاب، ولْيَخَفْ قومك مثله، لتكذيبك، (ثُمَّ): تراخٍ في الزمان؛ لأن بين مكَّة التي يسيرون منها وبين مواضع هلاك الأمم مسافة بعيدة، والنظر في آثار الهالكين لا يمكن قبل وصولهم إليها، أو (ثُمَّ) لتراخي الرتبة، إذ رتبة النظر لوجوبها متراخية من رتبة التجارة ونحوها من المباحات، ولا يعدُّون زيارة الرحم عبادة لشركهم، أو: سيروا وجوبًا لقصد النظر، ثمَّ انظروا إذا وصلتم ورأيتم، فـ (ثُمَّ) لتفاوت ما بين الواجبين، والسير وجب لترتُّب النظر عليه، وللوسائل حكم المقاصد، والنظر أوجب منه؛ لأنَّه ذاتيٌّ، والسير للنظر وسيلة، وذلك كما وجب إعداد الدلو لمن لا يجد الماء للوضوء مثلاً إلا به، ويجوز أن تكون (ثُمَّ) لمطلق الجمع كالواو، وأمَّا قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الاَرْضِ فَانظُرُوا﴾ [النمل: ٦٩] فالسير فيه لأجل النظر، بدليل فاء السببيَّة، فهي دَلِيل، فلا تحكُّم في جعل السير فيه للإيجاب، وفي المقام للإباحة، [قلت] وعلى كُلِّ حال نهاهم عن سير الغافلين عن النظر، وأمرهم بتعرُّف أحوال الأمم الهلكى، والنظر نظر عين ليوصل إلى نظر القلب، أو المراد: نظر القلب.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ تسلية

(١) تفسير القاسمي: ٤/ ٣٢١.

لرسول الله ﷺ عما يلقاه من قومه، ووعد له وللمؤمنين به بالنصر والعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة، و(حاق) بمعنى نزل وحلّ، ولا يكاد يستعمل إلا في الشر، أي: فنزل بهم وبال استهزائهم، أو العذاب الذي كانوا يسخرون من التخويف به، إذ هلكوا في الدنيا على أقبح الوجوه، ثم ردوا إلى أفظع العذاب أبد الآبدين، وجعل الرسل في أعلى منازل القرب من رب العالمين.

٢. ثم أمر تعالى أن يصدعهم بالتجول في الأرض إن ارتابوا فيها تواتر، أو تعاموا عمّا رأوا، بقوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: سيروا في الأرض لتعرّف أحوال أولئك الأمم، وتفكروا في أنهم كيف أهلكوا لمّا كذبوا الرسل وعاندوا، فتعرفوا صحة ما توعظون به، وفي السير في الأرض، والسفر في البلاد، ومشاهدة تلك الآثار الخاوية على عروشها ـ تكملة للاعتبار، وتقوية للاستبصار، أي: فلا تغتروا بما أنتم عليه من التمتع بلذات الدنيا وشهواتها.

٣. وفي هذه الآية تكملة للتسلية، بما في ضمنها من العدة اللطيفة، بأنه سيحيق بهم مثل ما حاق بأضرابهم المكذبين، وقد أنجز ذلك يوم بدر أي إنجاز.

٤. وقع هنا ﴿ثُمَّ انْظُرُوا﴾، وفي النمل: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا﴾ [النمل: ٦٩]، وكذا في العنكبوت، فتكلف بعضهم لتخصيص ما هنا بـ (ثم)، كما هو مبسوط في (العناية)، مع ما عليه، ونقل عن بعضهم أن السير متحد فيهما، ولكنه أمر ممتد، يعطف بالفاء تارة، نظرا لآخرة، وب (ثم) نظرا لأوله، ولا فرق بينهما، وفي (الانتصاف): الأظهر أن يجعل الأمر بالسير في المكانين واحدا، ليكون ذلك سببا في النظر، فحيث دخلت الفاء، فلإظهار السببية، وحيث دخلت (ثم)، فللتنبيه على أن النظر هو المقصود من السير، وأن السير وسيلة إليه لا غير، وشتان بين المقصود والوسيلة.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بعد أن بين الله تعالى لخاتم رسله سنته في شبهات الكفار المعاندين على الرسالة، وإصرارهم الجحود والتكذيب بعد إعطائهم الآيات التي كانوا يقترحونها وعقابه تعالى إياهم على ذلك ـ بين له شأنا

(١) تفسير المنار: ٧/ ٢٦٧.

آخر من شؤون أولئك الكفار مع رسلهم وسنته تعالى في عقابهم عليه فقال: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

٢. ظاهر كلام نقلة اللغة أن الهزء (بضمتين وبضم فسكون) والاستهزاء بمعنى السخرية، وأن قولهم هزئ به واستهزأ به مرادف لقولهم سخر منه، ويفهم من كلام بعض المدققين أن الحرفين متقاربا المعنى ولكن بينهما فرقا لا بمنع من استعمال كل منهما حيث يستعمل الآخر كثيرا، قال الراغب: الهزؤ مزح في خفية (كذا ولعل صوابه في خفية) وقد يقال لما هو كالمزح فمما قصد به المزح قوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ٥٨]، ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ [الجاثية: ٩] ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُوًا﴾ [الفرقان: ٤١].. والاستهزاء ارتياد الهزؤ وإن كان قد يعبر به تعاطي الهزؤ، كالاستجابة في كونها ارتيادا للإجابة وإن كان قد يجري مجرى الإجابة إدالة الدولة.

٣. وقد كان جزاء المستهزئين بمن قبله من الرسل عذاب الخزي بالاستئصال، ولكن الله كفاه المستهزئين به فأهلكهم ولم يجعلهم سببا لهلاك قومهم، وامتن عليه بذلك في سورة الحجر إذ قال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥] والمشهور أنهم خمسة من رؤساء قريش هلكوا في يوم واحد.

٤. ولما كان كون أمر المستهزئين بالرسل إلى الهلاك بحسب سنة الله المطردة فيهم مما يرتاب فيه مشركو مكة الذين يجهلون التاريخ، ولا يأخذون خبر الآية فيه بالتسليم، أمر الله تعالى رسوله بأن يدلهم على الطريق الذي يوصلهم إلى علم ذلك بأنفسهم فقال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أي قل أيها الرسول للمكذبين بك من قومك ـ الذين قالوا: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ ـ سيروا في الأرض كشأنكم وعادتكم، وتنقلوا في ديار أولئك القرون الذين مكناهم في الأرض ومكنا لهم فيها ما لم نمكن لكم، ثم انظروا في أثناء كل رحلة من رحلاتكم آثار ما حل بهم من الهلاك، وتأملوا كيف كانت عاقبتهم بما تشاهدون من آثارهم، وما تسمعون من أخبارهم.

٥. وإنما قال: ﴿عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ ولم يقل (عاقبة المستهزئين) أو الساخرين ـ والكلام الأخير في هؤلاء لا في جميع المكذبين ـ لأن الله تعالى أهلك من القرون الأولى جميع المكذبين، وإن كان السبب المباشر للإهلاك اقتراح المستهزئين الآيات الخاصة على الرسل، فلما أعطوها كذب بها المستهزئون المقترحون

وغيرهم من الكافرين الذين كانوا مشغولين بأنفسهم ومعايشهم عن مشاركة كبراء مترفيهم بالاستهزاء والسخرية، وإذا كان المكذبون قد استحقوا الهلاك وإن لم يستهزئوا ولم يسخروا فكيف يكون حال المستهزئين والساخرين؟ لا ريب أنهم أحق بالهلاك وأجدر، ولذلك أهلك الله المستهزئين من قوم نبي الرحمة ولم يجبهم إلى ما اقترحوه لئلا يعم شؤمهم سائر المكذبين معهم، ومنهم المستعدون للإيمان الذين اهتدوا من بعد.

٦. ومن نكت البلاغة في الآية أنه قال فيها: ﴿ثُمَّ انْظُرُوا﴾ وقد ورد الأمر بالسير في الأرض والحث عليه في آيات أخرى من عدة سور، وعطف عليه الأمر بالنظر بالفاء (راجع ٩٩ من سورة النمل و٤٢ من سورة الروم و١٠٩ من سورة يوسف و٤٤ من سورة فاطر الخ):

أ. قال الزمخشري في نكتة الخلاف بين التعبيرين: فإن قيل: أي فرق بين قوله: (فانظروا) وقوله: (ثم انظروا) قلت: جعل النظر مسببا عن السير في قوله: (فانظروا) فكأنه قيل سيروا لأجل النظر ولا تسيروا سير الغافلين، وأما قوله: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا﴾ فمعناه إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع وإيجاب النظر في آثار الهالكين، ونبه على ذلك بثم لتباعد ما بين الواجب والمباح.

ب. وقال أحمد بن المنير في الانتصاف: وأظهر من هذا التأويل أن يجعل الأمر في المكانين واحدا ليكون ذلك سببا في النظر، فحيث دخلت الفاء فلإظهار السببية وحيث دخلت ثم فللتنبيه على أن النظر هو المقصود من السير، وأن السير وسيلة إليه لا غير، وشتان بين المقصود والوسيلة.

ج. وفي روح المعاني عن بعضهم أن التحقيق أنه سبحانه قال هنا: ﴿ثُمَّ انْظُرُوا﴾ وفي غير ما موضع ﴿فَانْظُرُوا﴾ لأن المقام هنا يقتضي (ثم) دونه في هاتيك المواضع، وذلك لتقدم قوله تعالى فيما نحن فيه ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٦] مع قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦] الأول يدل على أن الهالكين طوائف كثيرة، والثاني يدل على أن المنشأ بعدهم أيضا كثيرون، فيكون أمرهم بالسير دعاء لهم إلى العلم بذلك، فيكون المراد به استقراء البلاد، ومنازل أهل الفساد على كثرتها، ليروا الآثار في ديار بعد ديار، وهذا مما يحتاج إلى زمان ومدة طويلة تمنع من التعقب الذي تقتضيه الفاء، ولا كذلك في المواضع الآخر.

د. قال الألوسي بعد إيراده: (ولا يخلوا عن دغدغة، واختار غير واحد أن السير متحد هناك وهنا

ولكنه أمر ممتد يعطف النظر عليه بالفاء تارة نظرا إلى آخره، وبثم أخرى نظرا إلى أوله، وكذا شأن كل ممتد)، والظاهر في الأخير أن يكون العطف بالفاء نظرا إلى الأول وبثم نظرا إلى الآخر عكس ما ذكره فتأمل.

٧. ثم أقول: ولعل من يتأمل ما وجهنا به الكلام في تفسير الآية، قبل النظر في هذه النكت كلها يرى أنه هو المتبادر من النظم بغير تكلف، وأنه يشبه أن يكون مستنبطا من مجموع تلك النكت، مع زيادة عليها تقتضيها حال المخاطبين بالأمر بالسير هنا وهم كفار مكة المعاندون الكثيرو الأسفار للتجارة الغافلون عن شؤون الأمم والاعتبار بعاقبة الماضين وأحوال المعاصرين.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف مقترحاتهم على النبي ﷺ، وأنهم تارة يطلبون إنزال ملك مع الرسول ﷺ، وأخرى يطلبون إنزال ملك بالرسالة، وكان مبنى هذه المقالة الاستهزاء، وكان قلب الرسول يضيق بها درعا عند سماعه إياها ذكر هنا ما يخفف عنه ما يلاقيه منهم من سوء الأدب ومن الهزؤ والسخرية، فأبان له أنك لست ببدع من الرسل، فإن كثيرا منهم لاقوا من أقوامهم مثل ما لاقيت بل أشد من ذلك وأنكى، فأنزل الله بهم من العذاب ما يستحقونه كفاء أفعالهم الشنيعة وجرأتهم على من اصطفاهم ربهم من خلقه، ثم أمر هؤلاء المكذبين بأن يسيروا في الأرض ليروا كيف كانت عاقبة المكذبين لأنبيائه.

٢. ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أخبر الله رسوله بأن الكفار قد استهزءوا برسل كرام قبلك كما جاء في قوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فما تراه من استهزاء كفار قريش بك ليس ببدع منهم بل هم جروا فيه على آثار أعداء الرسل قبلك وقد حل بأولئك الساخرين العذاب الذي أنذرهم إياه أولئك الرسل جزاء على سوء صنيعهم.

٣. وفي الآية وجوه من العبرة:

أ. تعليم النبي ﷺ سنن الله في الأمم مع رسلهم.

ب. تسلية له عن إيذاء قومه له.

---

(١) تفسير المراغي ٧/ ٨٣.

ج. بشارة له بحسن العاقبة وما سيكون له من الغلبة والسلطان، وما سيحل بأولئك المستهزئين من الخزي والنكال، وقد أهلكهم الله وامتنّ على نبيه بذلك في سورة الحجر ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ والمشهور أنهم كانوا خمسة من رؤساء قريش هلكوا كلهم في يوم واحد.

٤. وخلاصة المعنى ـ هوّن عليك ما تلقى من هؤلاء المستخفين بحقك فيّ وفى طاعتي وامض لما أمرتك به من الدعاء إلى توحيدى والإذعان لطاعتى، فإنهم إن تمادوا في غيّهم نسلك بهم سبيل أسلافهم من سائر الأمم ونعجّل النقمة لهم وتحل بهم المثلات.

٥. ولما كان ما يحل بالمستهزئين بالرسل من الهلاك بموجب سنة الله المطردة فيهم، قد يكون موضعا للريبة والشك لديهم، إذ هم يجهلون التاريخ ولا يأخذون خبره بالتسليم أمر الله نبيه بأن يرشدهم إلى الطريق الذي يوصلهم إلى علم ذلك بأنفسهم فقال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أي قل لأولئك للمكذبين الجاحدين حقيقة ما جئتهم به: سيروا في الأرض كما هو دأبكم وعادتكم وتنقلوا في ديار أولئك القرون الذين مكناهم في الأرض ومكنا لهم ما لم نمكن لكم ثم انظروا في أثناء رحلاتكم آثار ما حل بهم من الهلاك، وتأملوا كيف كانت عاقبتهم بما تشاهدون من آثارهم وما تسمعون من أخبارهم، ثم اعتبروا إن لم تنهكم حلومكم ولم تزجركم حجج الله عليكم، واحذروا مثل مصارعهم واتقوا أن يحل بكم مثل ما حل بهم.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. تنتهي هذه الموجة بعرض ما وقع للمستهزئين بالرسل، ودعوة المكذبين إلى تدبر مصارع أسلافهم، والسير في الأرض لرؤية هذه المصارع؛ الناطقة بسنة الله في المستهزئين المكذبين: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾،

٢. إن هذه اللفتة ـ بعد ذكر إعراضهم عنادا وتعنتا؛ وبعد بيان ما في اقتراحاتهم من عنت وجهالة؛

(١) في ظلال القرآن: ٢/ ١٠٤٦.

وما في عدم الاستجابة لهذه المقترحات من رحمة من الله وحلم ـ لترمي إلى غرضين ظاهرين:

أ. الأول: تسلية رسول الله ﷺ والتسرية عنه، مما يلقاه من عناد المعرضين، وعنت المكذبين؛ وتطمين قلبه ﷺ إلى سنة الله سبحانه في أخذ المكذبين المستهزئين بالرسل؛ وتأسيته كذلك بأن هذا الإعراض والتكذيب ليس بدعا في تاريخ الدعوة إلى الحق، فقد لقي مثله الرسل قبله؛ وقد لقي المستهزئون جزاءهم الحق وحاق بهم ما كانوا يستهزئون به من العذاب، ومن غلبة الحق على الباطل في نهاية المطاف..

ب. الثاني: لمس قلوب المكذبين المستهزئين من العرب بمصارع أسلافهم من المكذبين المستهزئين: وتذكيرهم بهذه المصارع التي تنتظرهم إن هم لجوا في الاستهزاء والسخرية والتكذيب، وقد أخذ الله ـ من قبلهم ـ قرونا كانت أشد منهم قوة وتمكينا في الأرض؛ وأكثر منهم ثراء ورخاء، كما قال لهم في مطلع هذه الموجة؛ التي ترج القلوب رجا بهذه اللفتات الواقعية المخيفة.

٣. ومما يستدعي الانتباه ذلك التوجيه القرآني: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾، والسير في الأرض للاستطلاع والتدبر والاعتبار؛ ولمعرفة سنن الله مرتسمة في الأحداث، والوقائع؛ مسجلة في الآثار الشاخصة، وفي التاريخ المروي في الأحاديث المتداولة حول هذه الآثار في أرضها وقومها.. السير على هذا النحو، لمثل هذا الهدف، وبمثل هذا الوعي.. أمور كلها كانت جديدة على العرب؛ تصور مدى النقلة التي كان المنهج الإسلامي الرباني ينقلهم إليها من جاهليتهم إلى هذا المستوي من الوعي والفكر والنظر والمعرفة.

٤. لقد كانوا يسيرون في الأرض، ويتنقلون في أرجائها للتجارة والعيش، وما يتعلق بالعيش من صيد ورعي.. أما أن يسيروا وفق منهج معرفي تربوي.. فهذا كان جديدا عليهم، وكان هذا المنهج الجديد يأخذهم به؛ وهو يأخذ بأيديهم من سفح الجاهلية، في الطريق الصاعد، إلى القمة السامقة التي بلغوا إليها في النهاية.

٥. ولقد كان تفسير التاريخ الإنساني وفق قواعد منهجية كهذه التي كان القرآن يوجه إليها العرب؛ ووفق سنن مطردة تتحقق آثارها كلما تحققت أسبابها ـ بإذن الله ـ ويستطيع الناس ملاحظتها؛ وبناء تصوراتهم للمقدمات والنتائج عليها؛ ومعرفة مراحلها وأطوارها.. كان هذا المنهج برمته في تفسير التاريخ شيئا جديدا على العقل البشري كله في ذلك الزمان، إذ كان قصارى ما يروى من التاريخ وما يدون من

الأخبار، مجرد مشاهدات أو روايات عن الأحداث والعادات والناس؛ لا يربط بينها منهج تحليلي أو تكويني يحدد الترابط بين الأحداث، كما يحدد الترابط بين المقدمات والنتائج، وبين المراحل والأطوار.. فجاء المنهج القرآني ينقل البشرية إلى هذا الأفق؛ ويشرع لهم منهج النظر في أحداث التاريخ الإنساني.. وهذا المنهج ليس مرحلة في طرائق الفكر والمعرفة، إنما هو (المنهج).. هو الذي يملك وحده إعطاء التفسير الصحيح للتاريخ الإنساني.

٦. والذين يأخذهم الدهش والعجب للنقلة الهائلة التي انتقل إليها العرب في خلال ربع قرن من الزمان على عهد الرسالة المحمدية، وهي فترة لا تكفي إطلاقا لحدوث تطور فجائي في الأوضاع الاقتصادية، سيرتفع عنهم الدهش ويزول العجب، لو أنهم حولوا انتباههم من البحث في العوامل الاقتصادية؛ ليبحثوا عن السر في هذا المنهج الرباني الجديد، الذي جاءهم به محمد ﷺ من عند الله العليم الخبير.. ففي هذا المنهج تكمن المعجزة، وفي هذا المنهج يكمن السر الذي يبحثون عنه طويلا عند الإله الزائف الذي أقامته المادية حديثا.. إله الاقتصاد.. وإلا فأين هو التحول الاقتصادي المفاجئ في الجزيرة العربية؛ الذي ينشئ من التصورات الاعتقادية ونظام الحكم، ومناهج الفكر، وقيم الأخلاق، وآماد المعرفة، وأوضاع المجتمع، كل هذا الذي نشأ في ربع قرن من الزمان!؟

٧. إن هذه اللفتة: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾، إلى جانب اللفتة التي جاءت في صدر هذه الموجة من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾، إلى جانب أمثالها في هذه السورة وفي القرآن كله لتؤلف جانبا من منهج جديد جدة كاملة على الفكر البشري، وهو منهج باق، ومنهج كذلك فريد..

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/ ١٣٧.

يَسْتَهْزِئُونَ﴾ هو مواساة للنبيّ الكريم، وعزاء له، مما يلقى من المشركين من عناد، وما يساق إليه منهم من ضر وأذى.. فتلك هي سبيل حملة الهدى من عباد الله.. فكم لقى رسل الله من أقوامهم من عنت وبلاء، حتى لقد قتل بعضهم، ومثّل به أشنع تمثيل.. ولكن العاقبة للحق والخير، والنصر لدعوة الحق والخير.. والويل والخذلان والخزي لأولئك الذين كذّبوا برسل الله وسخروا منهم واستهزءوا بهم.. ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي أحاط بهم واشتمل عليهم استهزاؤهم وسخريتهم، فهذا الاستهزاء هو الذي أوردهم موارد الهالكين في الدنيا، وأنزلهم منازل أصحاب النار في الآخرة.

٢. فإن شك هؤلاء المكذبون، المستهزئون بآيات الله وبرسول الله.. إن شك هؤلاء في المصير الذي هم صائرون إليه، فلينظروا فيما كان لأمثالهم، الذين كذبوا بآيات الله وبرسل الله، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ لقد أخذهم الله بكفرهم وعنادهم، وأرسل عليهم الصواعق، وصبّ عليهم البلاء، وإذا هم في لحظة خاطفة جثث هامدة، وأشلاء ممزقة.. وإذا هم صائرون إلى مصير يلقون فيه العذاب الأليم.. ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ عطف على جملة: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أنزل عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ لبيان تفنّنهم في المكابرة والعناد تصلّبا في شركهم وإصرارا عليه، فلا يتركون وسيلة من وسائل التنفير من قبول دعوة الإسلام إلا توسّلوا بها، ومناسبة عطف هذا الكلام على قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أنزل عَلَيْهِ مَلكٍ﴾ أنّهم كانوا في قولهم ذلك قاصدين التعجيز والاستهزاء معا، لأنّهم ما قالوه إلا عن يقين منهم أنّ ذلك لا يكون، فابتدئ الردّ عليهم بإبطال ظاهر كلامهم بقوله: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأمر﴾، ثم ثنّى بتهديدهم على ما أرادوه من الاستهزاء، والمقصود مع ذلك تهديدهم بأنّهم سيحيق بهم العذاب وأنّ ذلك سنة الله في كلّ أمّة استهزأت برسول له.

٢. فقوله: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يدلّ على جملة مطوية إيجازا، تقديرها: واستهزءوا

---

(١) التحرير والتنوير: ٦/٢٨.

بك ولقد استهزأ أمم برسل من قبلك، لأن قوله من ﴿قَبلَكَ﴾، لأن قوله من ﴿قَبلَكَ﴾ يؤذن بأنه قد استهزئ به هو أيضا وإلا لم تكن فائدة في وصف الرسل بأنّهم من قبله لأن ذلك معلوم، وحذف فاعل الاستهزاء فبنى الفعل إلى المجهول لأن المقصود هنا هو ترتّب أثر الاستهزاء لا تعيين المستهزئين.

٣. واللام للقسم، وقد للتحقيق، وكلاهما يدلّ على تأكيد الخبر، والمقصود تأكيده باعتبار ما تفرّع عنه، وهو قوله: ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا﴾، لأن حال المشركين حال من يتردّد في أنّ سبب هلاك الأمم السالفة هو الاستهزاء بالرسل، إذ لولا تردّدهم في ذلك لأخذوا الحيطة لأنفسهم مع الرسول ﷺ، الذي جاءهم فنظروا في دلائل صدقه وما أعرضوا، ليستبرءوا لأنفسهم من عذاب متوقّع، أو نزّلوا منزلة المتردّد إن كانوا يعلمون ذلك لعدم جريهم على موجب علمهم، واستهزاؤهم له أفانين، منها قولهم: ﴿لَوْلَا أنزل عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾

٤. ومعنى الاستهزاء تقدّم عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ في سورة البقرة، وهو مرادف للسخرية في كلام أئمّة اللغة، فذكر ﴿اسْتُهْزِئَ﴾ أولا لأنّه أشهر، ولمّا أعيد عبّر بـ ﴿سَخِرُوا﴾، ولمّا أعيد ثالث مرّة رجع إلى فعل ﴿يَسْتَهْزِئُونَ﴾، لأنّه أخفّ من (يسخرون)، وهذا من بديع فصاحة القرآن المعجزة، و﴿سَخِرُوا﴾ بمعنى هزءوا، ويتعدّى إلى المفعول بـ ﴿مِنَ﴾، قيل: لا يتعدّى بغيرها، وقيل: يتعدّى بالباء، وكذا الخلاف في تعدية هزأ واستهزأ، والأصحّ أنّ كلا الفعلين يتعدّى بحرف (من) والباء، وأنّ الغالب في (هزأ) أن يتعدّى بالباء، وفي سخر أن يتعدّى بمن، وأصل مادّة سخر مؤذن بأنّ الفاعل اتّخذ المفعول مسخّرا يتصرف فيه كيف شاء بدون حرمة لشدّة قرب مادّة سخر المخفّف من مادّة التسخير، أي التطويع فكأنّه حوّله عن حقّ الحرمة الذاتية فاتّخذ منه لنفسه سخرية.

٥. وفعل ﴿فَحَاقَ﴾ اختلف أئمّة اللغة في معناه، فقال الزجّاج: هو بمعنى أحاط، وتبعه الزمخشري، وفسّره الفرّاء بمعنى عاد عليه، وقال الراغب: أصله حقّ، أي بمعنى وجب، فأبدل أحد حرفي التضعيف حرف علّة تخفيفا، كما قالوا تظنّي في تظنّن، أي وكما قالوا: تقضّى البازي، بمعنى تقضّض، والأظهر ما قاله أبو إسحاق الزجّاج، واختير فعل الإحاطة للدلالة على تمكّن ذلك منهم وعدم إفلاته أحدا منهم.

٦. وإنما جيء بالموصول في قوله: ﴿بِالَّذِينَ سَخِرُوا﴾ ولم يقل بالساخرين للإيماء إلى تعليل الحكم،

وهو قوله: ﴿فَحَاقَ﴾، و﴿مِنْهُمْ﴾ يتعلّق بـ ﴿سَخِرُوا﴾، والضمير المجرور عائد إلى الرسل، لزيادة تقرير كون العقاب لأجلهم ترفيعا لشأنهم، و﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ موصولة، والباء في ﴿بِهِ﴾ لتعدية فعل الاستهزاء، ووجود الباء مانع من جعل ﴿مَا﴾ غير موصولة، وهو ما أطال التردّد فيه الكاتبون.

٧. والمراد بـ ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ما أنذرهم الرسل به من سوء العاقبة وحلول العذاب بهم، فحصل بذلك فائدة أخرى، وهي أنّ المستهزئين كانوا يستهزئون بالرسل وخاصّة بما ينذرونهم به من حلول العذاب إن استمرّوا على عدم التصديق بما جاءوا به، فاستهزاؤهم بما أنذروا به جعل ما أنذروا به كالشخص المهزوء به إذا جعلنا الباء للتعدية، أو استهزاؤهم بالرسل بسبب ما أنذروهم به إذا جعلت الباء للسببية.

٨. ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ هذه الجملة وزانها وزان البيان لمضمون الجملة التي قبلها ولذلك فصلت، فإن الجملة التي قبلها تخبر بأنّ الذين استهزءوا بالرسل قد حاق بهم عواقب استهزائهم، وهذه تحدوهم إلى مشاهدة ديار أولئك المستهزئين، وليس افتتاح هذه الجملة بخطاب النبي ﷺ منافيا لكونها بيانا لأنّه خوطب بأن يقول ذلك البيان، فالمقصود ما بعد القول، وافتتاحها بالأمر بالقول لأنّها واردة مورد المحاورة على قولهم ﴿لَوْلَا أنزل عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ١]

٩. وهذه سلسلة ردود وأجوبة على مقالتهم المحكية آنفا لتضمّنها التصميم على الشرك وتكذيب الرسالة، فكانت منحلّة إلى شبه كثيرة أريد ردّها وتفنيدها فكانت هاته الردود كلّها مفتتحة بكلمة ﴿قُلْ﴾ عشر مرات.

١٠. ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي الرتبي، كما هو شأنها في عطف الجمل، فإن النظر في عاقبة المكذّبين هو المقصد من السير، فهو ممّا يرتقى إليه بعد الأمر بالسير، ولأنّ هذا النظر محتاج إلى تأمّل وترسّم فهو أهمّ من السير.

١١. والنظر يحتمل أن يكون بصريا وأن يكون قلبيا، وعلى الاحتمالين فقد علّقه الاستفهام عن نصب مفعوله أو مفعوليه، و﴿كَيْفَ﴾ خبر لـ ﴿كَانَ﴾ مقدّم عليها وجوبا.

١٢. والعاقبة آخر الشيء ومآله وما يعقبه من مسبّباته، ويقال: عاقبة وعقبى، وهي اسم كالعافية والخاتمة.

١٣. وإنما وصفوا بـ ﴿الْمُكَذِّبِينَ﴾ دون المستهزئين للدلالة على أنّ التكذيب والاستهزاء كانا خلقين من أخلاقهم، وأنّ الواحد من هذين الخلقين كاف في استحقاق تلك العاقبة، إذ قال في الآية السابقة ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]، وقال في هذه الآية ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾، وهذا ردّ جامع لدحض ضلالاتهم الجارية على سنن ضلالات نظرائهم من الأمم السالفة المكذّبين.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ في هذا النص الكريم تسلية للنبي ﷺ، فيما كان فيه من بلاء وابتلاء، لقد ابتلى من المشركين بالإنكار والمعاندة، وطلب آيات، ولا يقصدون إلا المهاترة، وقد سبق إنكارهم كل دليل يساق إليهم، ساق لهم القرآن دليلا، وتحداهم أن يأتوا بسورة منه، فطلبوا آيات أخرى، وجاءهم بدليل حسى يدل على أنه مبعوث من رب العالمين، وهو الإسراء والمعراج فاتخذوه سبيلا للإنكار، ولم يتخذوا منه حجة للإثبات، وابتلاه ﷺ باستهزائهم والسخرية منه، واتخاذهم القرآن مهجورا، فبين سبحانه أن ذلك شأن الدعاة إلى الحق المجاهدين في سبيله فهم ينالهم الاستهزاء وتواليهم أسباب الإيذاء، فلا ينتظر أن يجيب الأقوام بمجرد دعوتهم، بل ينالهم والمؤمنين أسباب الإيذاء المتوالي والاستهزاء المستمر، وكذلك الشأن في كل دعوة جديدة، فليس محمد رسول الله ﷺ بدعا من الرسل فيما يلقاه، فكلهم استهزئ بدعوته.

٢. وقد أكد سبحانه الاستهزاء بهم في قوله: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أكده سبحانه بـ (قد) وبـ (اللام)

٣. وإن الله لا يترك الظالمين يعيثون في الأرض فسادا ويؤذون أهل الإيمان ولذلك لا بد أن ينزل بهم عقاب هذه السخرية في الدنيا والآخرة؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، (الفاء) هنا فاء السببية، أي بسبب هذا الاستهزاء نزل ما نزل من عذاب بأمر الله وبأيدى

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/ ٢٤٤٥.

المؤمنين.

٤. وقال الراغب الأصفهاني: إن (حاق) مأخوذة من (حقّ) قلبت فيها إحدى القافين حرفا لينا كالتظنن تقلب إحدى النونات ياء، فيقال: (التظنى) وهذا المعنى يشير إلى أن ما يحيق بهم من نتائج السخرية هو حق عليهم يؤخذون به، والأكثرون من علماء اللغة: على أن حاق بمعنى أحاط، ولا تكون إلا في الشر، والمعنى أحاط بهم الأثر المؤلم لهم لسخريتهم.

٥. وهنا إشارتان بيانيتان:

أ. أولاهما:أن الله ذكر أنه يحيق بالذين سخروا ولم يقل بالساخرين للإشارة إلى أن ما يصابون به من العذاب إنما هو بسبب سخريتهم؛ لأن التعبير بالموصول يفيد أن الصلة هي علة الحكم، وللإشارة إلى أن العذاب نتيجة السخرية.

ب. ثانيتهما: أنه تعالى قال: ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وإنما الذى حاق هو العذاب لا ذات السخرية، ويقول العلماء: إن ذلك مجاز علاقته السببية، فهو عبر بالسبب وأراد المسبب، وإن ذلك يفيد أن العذاب ملازم لهذه السخرية لا ينفصل عنها، فحيث كانت كان عذابها لا محالة.

٦. والعذاب الذى ينزله الله تعالى بالساخرين قسمان:

أ. عذاب بهلاك أو بآفات سماوية، كما أرسل على فرعون وقومه الجراد والقمّل والضفادع والدم آيات مفصلات.

ب. والآخر بأن يمن على أولئك الذين يسخر منهم بالقوة والنصر والتأييد، على كل من المستهزئين الساخرين، كما كان الأمر بالنسبة للمشركين الذين كفروا برسالة محمد ﷺ.

٧. ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾، أمر الله تعالى نبيه بأن يذكرهم بحال من سبقوهم، وأن يروا آثارهم حسا، ثم يتدبروا فيها فكرا، ليعرفوا أين ذهب هؤلاء، فيستفيدوا من ذلك ثلاث فوائد:

أ. الأولى: أن يعرفوا أن هذه الحياة التي يعيشون فيها ليس لها دوام، بل إن لها انتهاء، وأنها لا تبقى فيها باقية.

ب. الثانية: أن أولئك الأقوام قد مكن لهم في الأرض بما لم يمكّن لهم، وما منعهم ملكهم الواسع،

وقوتهم الظاهرة من أن يؤخذوا كما يؤخذ أضعف الضعفاء، وأن النهاية واحدة لا فرق فيها، فالدنيا عرض زائل.

ج. الثالثة: أن الله عذبهم بالإهلاك في الدنيا بسبب طغيانهم؛ لأن الله تعالى لم يرد أن يجعل منهم حماة لشريعة خالدة، فسيجدون في سيرهم أرض ثمود، وأرض عاد وما فيهما من بنيان قوّض عليهم، وأرض قوم لوط، وقد جعل الله تعالى عاليها سافلها، فإذا كانوا يطلبون من النبي ﷺ أن يستعجل لهم العذاب مستهزءين، فها هي ذي المثلات، والعبر، فليعتبروا، وإلا فهم قوم بور، لا يتعظون ولا يعتبرون.

٨. وفى النص بحوث لفظية:

أ. أولها: أن الله أمر نبيه أن يخاطبهم هو؛ لأنهم يستهزئون به ﷺ فكانت المجاوبة منه لهم، وطلب السير، من قبيل الطلب المندوب، أو اللازم، والنظر كذلك من قبيل الطلب، والمراد النظر بالرؤية والإبصار ثم بالتدبر والتفكير، فليس إبصارا مجردا، ولكنه إبصار وتفكير، ولو كان إبصارا مجردا لكان مقيدا بالغاية منه وهو التفكير والتدبر.

ب. ثانيها: الحكمة في العطف بـ (ثم) بدل (الفاء)، والمقام مقام (الفاء) كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل] فإن السياق هنالك يجعل النظر مسببا عن السير، ومترتبا عليه، أما هنا فالسير مطلوب في ذاته، ويجيء النظر المطلوب أيضا كأنه غير مقصود من السير، وكأنه أمر بدهى هو نتيجة للسير، ولم يربط بالسببية بينهما فكان التعبير بـ (ثم) المفيدة للتراخي وهذا تصريف الله تعالى في آياته: ﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف]

ج. ثالثها: معنى (كيف) هنا (حال)، أي انظر حال عاقبة المكذبين بعد موتهم أين البطش الذى كانوا يبطشونه والجبروت الذى كانوا يطغون به، وأين المال والبنون وما كانوا يغترون به؟

٩. وذكر الله تعالى: ﴿عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾، ولم يقل تعالت كلماته عاقبة المستهزئين؛ لأن التكذيب هو الأصل الذى ترتب عليه الاستهزاء وذكر السبب يتضمن ذكر المسبب.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، أي هوّن عليك يا محمد ما تلقى من استخفاف قومك، فإن الاستخفاف بالأنبياء والمصلحين ليس وليد الساعة، بل كان موجودا منذ القديم، والله سبحانه قد عاقب المستهزئين بأنبيائهم، وسيحل بمن استهزأ بك ما حل بمن كان قبلهم، وفعل فعلهم.. وهكذا كان، فإن الله سبحانه قد أهلك من سخر بمحمد ﷺ، وامتنّ الله عليه بهلاكهم، حيث خاطبه بقوله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾

٢. ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾، تقدم تفسيره في الآية ١٣٧ من آل عمران.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ إلى آخر الآيتين، الحيق الحلول والإصابة، وفي مفردات الراغب: (قيل وأصله حق فقلب نحو زل وزال، وقد قرئ: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ فأزالهما، وعلى هذا ذمه وذامه)

٢. وقد كان استهزاؤهم بالرسل بالاستهزاء بالعذاب الذي كانوا ينذرونهم بنزوله وحلوله فحاق بهم عين ما استهزءوا به، وفي الآية الأولى: تطييب لنفس النبي ﷺ، وإنذار للمشركين، وفي الآية الثانية: أمر بالاعتبار وعظة.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٣]:

١. ﴿اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ كما استهزأ قومك بقولهم: ﴿لَوْلَا أنزل عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ استهزاءً وسخرية لا لطلب معرفة الحق ﴿فَحَاقَ﴾ فأحاط بالأولين ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من الآيات والرسل

---

(١) التفسير الكاشف: ٣/ ١٦٦.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ٧/ ٢٥.

(٣) التيسير في التفسير: ٢/ ٤١٨.

أي سببت لهم العذاب العاجل، وفي هذه تأكيد لكلام (صاحب الصحاح) في تفسيره الإستهزاء بالسخرية، وقوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ﴾ أي سخروا من الرسل المذكورين.

٢. ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد لقومك: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ لتروا آثار المكذبين الذين أهلكهم الله بذنوبهم ﴿ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ فكروا كيف كانت ﴿عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ الهلاك على سوء الحال وغضب الجبار والمؤدي إلى النار والشقوة الدائمة، لتعتبروا بهم، وتحذروا مثل ما حل بهم.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. يحسم القرآن في الآية الأخيرة الموقف، فليس الأسلوب الذي يواجه النبيّ به أساليب سخرية الكافرين جديدا في ساحة الرسالات، بل هو الأسلوب المتكرر مع كل رسالة، ومع كل رسول: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وفي هذا السياق يندرج سؤال المعاندين للحقيقة ـ حسب الآية ـ النبي أن ينزل عليهم كتابا في قرطاس ليلمسوه بأيديهم، حيث إن هذا الطلب لا معنى له، لأنهم لا يملكون معرفة الكتاب النازل من السماء أو الكتاب الذي يكتب في الأرض ليميزوا هذا عن ذاك.. ثم إن الآية تؤكد أن اقتراحهم ليس إلا من باب الاستهزاء والتسويق والمماطلة، ذلك أن النبي لو استجاب لهم وجاء بكتاب يملك المواصفات السماوية المميزة، لقالوا إنه سحر مبين، لأن الأسلوب الذي يتحركون فيه هو الأسلوب الذي يريد الانتقال من طلب إلى طلب دون الوقوف عند حدّ معين، إذ ينقلون إلى إنزال الملك عليه، والسؤال هنا: هل يحل ذلك المشكلة، أو أنهم يميّعون المسائل بطروحات لن يقبلوا بها حتى لو استجاب الله لهم فيها؟

٢. إن مشكلة هؤلاء هي أنهم يتهمون النبي ﷺ بالسحر فيهزءون منه وهم مطمئنون إلى أن النتائج سوف تكون في صالحهم لأنهم قادرون على هزيمة الموقف النبوي، ولكن الله يحدد له النتيجة بأن الله الذي أرسل النبي سوف ينزل بهم العذاب الذي يحول حياتهم إلى جحيم في نار جهنم، ويندمون حينها على ما

---

(١) من وحى القرآن: ٩/ ٣٧.

سلف من أيامهم وعلى ما سخروا به من النبي والحقيقة والرسالة.

٣. إن استيحاء هذا الأمر، يفرض على العاملين في خط الدعوة إلى الله أن يواجهوا أمر أمثال هؤلاء بوعي ويقظة ليعرفوا كيف يسقطون سخريتهم ويتغلبون على كل أساليبهم غير المسؤولة، لأن القضية في حركة الدعوة هي قضية دراسة الخلفيات النفسية والحركية والواقعية التي تحكم سلوك هؤلاء الناس في تعاملهم مع حركة الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله من منطلق الخلفيات الكامنة في العقل والروح والحياة.

٤. ولكن، مهما امتدت أساليب السخرية وتنوّعت، فإن الله سينزل بكل هؤلاء العقوبة التي تحوّل سخريتهم إلى مصير أسود يلاقونه في الدنيا والآخرة وبئس المصير.

٥. ثم يوجه الخطاب إلى النبي أن يقول لهؤلاء الذين يريدون تكرار موقف الكافرين، أن يسيروا في الأرض ويدرسوا حال الأمم السابقة الكافرة لينظروا كيف كان مصيرها، وكيف كان عاقبة كفرها وتكذيبها للأنبياء.. وسيشاهدون العجائب من نقمة الله وعقابه.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. في الختام يهون الله تعالى الأمر على رسوله ويقولون له: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ هذه الآية في الواقع تسلية لرسول الله ﷺ يطلب الله فيها منه أن لا تزعزعه الزعازع، ويهدد في الوقت نفسه المخالفين والمعاندين ويطلب منهم أن يتفكروا في عاقبة أمرهم المؤلمة.

٢. (حاق) بمعنى أحاط به وحل به، و(ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) أي ما كانوا يستهزئون به من تهديد وإنذار يسمعونه من أنبياء الله مثل إنذار نوح وقومه بوقوع الطوفان، فكان قومه من عبدة الأصنام يسخرون من ذلك، وعليه فلا ضرورة لتقدير كلمة (جزاء) كما يقول بعضهم، إذ يكون المعنى: العقوبات التي كانوا يستهزئون بها حلت بهم.

٣. ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ لكي يوقظ القرآن هؤلاء

---

(١) تفسير الأمثل: ٤/ ٢٢٠.

المعاندين المغرورين يسلك في هذه الآية سبيلا آخر فيأمر رسوله أن يوصيهم بالسياحة في أرجاء الأرض ليروا بأعينهم مصائر أولئك الذين كذبوا بالحقائق، فلعل ذلك يوقظهم من غفلتهم ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾

٤. لا شك أنّ لرؤية آثار السابقين والأقوام التي هلكت بسبب إنكارها الحقائق تأثيرا أعمق من مجرّد قراءة كتب التّأريخ، لأن هذه الآثار تجسد الحقيقة ناطقة ملموسة، ولهذا استعمل جملة (أنظروا) ولم يقل (تفكروا)

٥. ولعل استعمال (ثم) لعاطفة التي تفيد عادة التراخي الزمني يراد منه أن لا يتعجلوا في سيرهم وفي اطلاق أحكامهم، عليهم أن يمعنوا النظر في تلك الآثار التي خلفتها الأقوام السالفة ويفكروا فيها ثمّ يأخذوا منها العبر ويروا عاقبة أعمال تلك الأمم.

٧. الربوبية والرحمة والمعاد والجزاء

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٧] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١٢ ـ ١٣]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

سلمان:

روي عن سلمان الفارسي (ت ٣٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: (إنّ الله خلق يوم خلق السماوات والأرض مائة رحمة، كلّ رحمةٍ طباق ما بين السماء والأرض، فجعل منها في الأرض رحمة، فبها تعطف الوالدة على ولدها، والوحش والطير بعضها على بعض، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة[١].

٢. روي أنّه قال: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾، إنّا نجده في التوراة عطيفتين؛ إن الله خلق السماوات والأرض، ثم جعل مائة رحمة قبل أن يخلق الخلق، ثم خلق الخلق، فوضع بينهم رحمة واحدة، وأمسك عنده تسعا وتسعين رحمة، فيها يتراحمون، وبها يتعاطفون، وبها يتباذلون، وبها يتزاورون، وبها تحنّ الناقة، وبها تنتج البقرة، وبها تيعر[٢]،الشاة، وبها تتابع الطير، وبها تتابع الحيتان في البحر، فإذا كان يوم القيامة جمع تلك الرحمة إلى ما عنده، ورحمته أفضل وأوسع[٣].

كعب:

روي عن أبي المخارق زهير بن سالم، قال: قال عمر لكعب الأحبار (ت ٣٤ هـ): ما أول شيءٍ ابتدأه الله من خلقه؟ فقال كعب الأحبار: كتب الله كتابا لم يكتبه بقلم ولا مداد، ولكن كتبه بإصبعه، يتلوها

---

(١) مسلم ٤/ ٢١٠٩.

(٢) تيعر: أي: تصيح.

(٣) عبد الرزاق ١/ ٢٠٣.

الزّبرجد واللؤلؤ والياقوت: أنا الله، لا إله إلا أنا، سبقت رحمتي غضبي[1].

أبو هريرة:

روي عن أبي هريرة (ت ٥٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: لّما قضى الله الخلق كتب كتابا، فوضعه عنده فوق العرش: إنّ رحمتي سبقت غضبي[2].

٢. روي أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: لّما خلق الله الخلق كتب كتابا بيده على نفسه: إنّ رحمتي تغلب غضبي[3].

٣. روي أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: (إنّ الله كتب كتابا بيده لنفسه قبل أن يخلق السماوات والأرض، فوضعه تحت عرشه، فيه: رحمتي سبقت غضبي[4].

٤. روي أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا فرغ الله من القضاء بين الخلق أخرج كتابا من تحت العرش: إنّ رحمتي سبقت غضبي، وأنا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة أو قبضتين، فيخرج من النار خلق كثير لم يعملوا خيرا، مكتوب بين أعينهم: عتقاء الله[5].

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) أنّه قال: سئل رسول الله ﷺ عن الوقوف بين يدي رب العالمين، هل فيه ماء؟ قال: والذي نفسي بيده، إنّ فيه لماء، إنّ أولياء الله ليردون حياض الأنبياء، ويبعث الله تعالى سبعين ألف ملك في أيديهم عصي من نار، يذودون الكفار عن حياض الأنبياء[6].

١. روي أنّه قال:إنّ كفار مكة أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد، إنّا قد علمنا أنّه إنّما يحملك على ما تدعونا إليه الحاجة، فنحن نجعل لك نصيبا في أموالنا حتى تكون أغنانا رجلا، وترجع عمّا أنت عليه،

---

(١) ابن جرير ٩/ ١٧١.

(٢) البخاري ٩/ ١٢٥.

(٣) البخاري ٩/ ١٢٠.

(٤) أحمد ١٥/ ٨٢.

(٥) أبو القاسم الختلي في كتاب الديباج ص ١٠٥.

(٦) ابن مردويه كما في تفسير ابن كثير ٣/ ٢٤٣.

فنزلت هذه الآية[1].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، يقول: ما استقرّ في الليل والنهار[2].

ابن عمرو:

روي عن ابن عمرو بن العاص (ت ٧٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: إنّ لله مائة رحمة، فأهبط منها رحمة واحدة إلى أهل الدنيا، يتراحم بها الجنّ والإنس، وطائر السماء، وحيتان الماء، ودوابّ الأرض وهوامّها، وما بين الهواء، واختزن عنده تسعا وتسعين رحمة، حتى إذا كان يوم القيامة اختلج[3]،الرحمة التي كان أهبطها إلى أهل الدنيا، فحواها إلى ما عنده، فجعلها في قلوب أهل الجنة، وعلى أهل الجنة[4].

٢. روي أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: (كيف بكم إذا جمعكم الله كما يجمع النّبل في الكنانة خمسين ألف سنة، لا ينظر إليكم[5].

عكرمة:

روي عن عكرمة (ت ١٠٥ هـ) أنّه قال: (إنّ الله تبارك وتعالى يوم القيامة يخرج من النار مثل أهل الجنة ـ قال الحكم: لا أعلمه إلا أنه قال مثلا أهل الجنة، فأما مثل فلا أشك ـ، مكتوب ها هنا ـ وأشار الحكم إلى نحره ـ: عتقاء الله، فقال رجل: يا أبا عبد الله، أفرأيت قول الله تبارك وتعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧]؟ قال: ويلك، أولئك هم أهلها الذين هم أهلها[6].

طاووس:

روي عن طاووس بن كيسان (ت ١٠٦ هـ) أنّه قال: إنّ الله لمّا خلق الخلق لم يعطف شيء منه على

---

(١) أسباب النزول للواحدي، ص ٣٦٧.
(٢) ابن جرير ٩/ ١٧٤.
(٣) أصل الخلج: الجذب والنّزع، النهاية (خلج.
(٤) ابن جرير ٩/ ١٧٠.
(٥) الطبراني في الكبير ١٣/ ٣٧.
(٦) عبد الرزاق ٢/ ٢٠٤.

شيءٍ حتى خلق مائة رحمة، فوضع بينهم رحمة واحدة، فعطف بعض الخلق على بعض[1].

السّدّيّ:

روي عن إسماعيل السّدّيّ (ت ١٢٧ هـ) أنّه قال: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، يقول: ما استقرّ في الليل والنهار[2].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: قل لكفار مكة: ﴿لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الخلق؟ فردّوا عليه في الرعد، قالوا: (الله) ـ في قراءة أبي بن كعب وابن مسعود[3].

٢. روي أنّه قال: فأنزل الله في تكذيبهم بالبعث: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أنتم، والأمم الخالية[4].

٣. روي أنّه قال: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ يعني: لا شكّ فيه، يعني: في البعث بأنّه كائن، ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا﴾ يعني: غبنوا ﴿أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: لا يصدّقون بالبعث بأنّه كائن[5].

٤. روي أنّه قال: ثم عظّم نفسه لكي يوحّد، فقال: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ﴾ يعني: ما استقر في الليل والنهار من الدواب والطير في البر والبحر، فمنها ما يستقرّ بالنهار وينتشر ليلا، ومنها ما يستقرّ بالليل وينتشر نهارا، ثم قال: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لما سألوا من العذاب، ﴿الْعَلِيمُ﴾ به[6].

الهادي إلى الحق:

---

(١) عبد الرزاق ١/ ٢٠٤.

(٢) ابن جرير ٩/ ١٧٤.

(٣) يشير إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ﴾، في تكذيبهم بالبعث قالوا: الله، ﴿قُلْ للهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ في تأخير العذاب عنهمتفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥١.

(٤) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥١.

(٥) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥١.

(٦) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٢.

ذكر الإمام الهادي إلى الحق (ت ٢٩٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. سؤال وإشكال: إن سأل سائل عما ذكر الله الكريم في القرآن من قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٣٧، الأنعام:١٣، ١١٥، الأنبياء: ٤، العنكبوت: ٥، ٦٠]، فقال: ما معنى السميع عندكم، وما معناه في أصل قولكم؟ والجواب: قيل له: يخرج ذلك على معان أربعة معلومة، معروفة عند جميع العرب مفهومة:

أ. فأولهن: أن يكون معنى سميع هو: عليم؛ والحجة في ذلك: قول الرحمن الرحيم: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ [الزخرف: ٨٠]، والسر هو: ما انطوت عليه الضمائر ولم يبد، فذلك أسر السرائر، والنجوى هو: ما يتسار به ويخفيه المتناجون، من الكلام والمحاورة فيما يخفون ويكتمون؛ والسر الذي في القلوب فلن يسمع؛ لأنه مستجن لم يبن فيشرح ويسمع، وإنما يسمع ما ترجمه اللسان، وباح به ضمير الإنسان.. وإنما أراد ذو الجلال، بما قال في ذلك من المقال: التوبيخ لهم والإخزاء، والتوقيف لهم على ما يأتون به من الخطأ؛ إذ يتوهمون أن الله تخفى عليه خافية، سرا كانت أو علانية، فقال: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ [الزخرف: ٨٠]، يقول: لا نعلم ولا نحفظ من أمرهم، ما يكتمونه من سرهم، ويكنونه في غيابات ضمائرهم.

ب. والمعنى الثاني، في اسم الواحد الباريء: أن يكون السميع هو: المجيب للداعين، ممن دعاه من عباده المؤمنين؛ والحجة في ذلك: فما حكى الواحد الكريم، عن نبيه زكريا وخليله إبراهيم، حين يقول زكريا: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨]، وقول خليله إبراهيم الأواه الحليم: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، يعني: إن ربي لمجيب لمن يشاء من الأنام؛ وفي ذلك ما تقول العرب، لمن سأل من الله أو طلب: (سمع الله دعاك)، أي: أجاب الله طلبتك ونداك.

ج. والوجه الثالث: قول القائل من الراكعين المصلين: سمع الله لمن حمده، ومعناه: أي قبل الله ممن حمده، وأثاب على شكره من شكره.. فهذه الثلاثة الوجوه اللواتي يجوز أن يوصف بهن الرحمن، وهن واضحات عند من عرف العربية والبيان.

(١) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/ ٣٧٢.

د. والوجه الرابع: فلن يجوز على الواحد الجليل، في شيء من الأقاويل، وهو موجود في المخلوقين، متعال عنه رب العالمين، وهو: الإصغاء بالأذان، والإنصات لجولان دواخل الأصوات، ومستقر مفهوم القالات؛ فتعالى عن ذلك المهيمن الكريم، المتقدس الواحد الفرد العظيم.

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. قوله عز وجل: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ يحتمل وجهين:

أ. أحدهما: أن يخرج مخرج البيان لهم وأنه ليس على الأمر؛ لأنه لو كان على الأمر لكان يذكر سؤاله لهم، ولم يذكر وإن سألهم، لا يحتمل إلا يخبروه بذلك، فلما لم يذكر سؤاله لهم عن ذلك، ولا يحتمل أن يأمره بالسؤال ثم لا يسأل، أو يسأل هو ولا يخبرونه ـ فدل أنه على البيان خرج لا على الأمر.

ب. الثاني: على أمر سبق؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾، وكقوله: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، إلى قوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾، وقوله: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ونحوه، كان على أمر سبق، فسخرهم عز وجل حتى قالوا: الله؛ كقوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ ذلك تسخير منه إياهم حتى قالوا: الله، وفي حرف ابن مسعود، وأبي بن كعب ما ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ هذا يدل على أنه كان على أمر سبق.

ج. وقال بعضهم: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: سلهم، فإن أجابوك فقالوا: لله، وإلا فقل لهم أنت: لله.

د. وقال قائلون: فإن سألوك لمن ما في السماوات والأرض؟ قل لله.

٢. ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾:

أ. قال الحسن: كتب على نفسه الرحمة للتوابين إن شاء أن يدخلهم الجنة، لا أحد يدخل الجنة بعمله، إنما يدخلون الجنة برحمته، وعلى ذلك جاء الخبر عن نبي الله ﷺ قال: لا يدخل أحد الجنة بعمله، قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته.

---

(١) تأويلات أهل السنة: ٤/ ٣٠.

ب. وقيل: كتب على نفسه الرحمة أن يجمعهم إلى يوم القيامة، أي: من رحمته أن يجمعهم إلى يوم القيامة، حيث جعل للعدو عذابًا، وللولي ثوابًا، أي: من رحمته أن يجمعهم جميعًا، يعاقب العدو ويثيب الولي.

ج. وقيل: أي: من رحمته أن جعل لهم الجمع، فأوعد العاصي العذاب، ووعد المطيع الثواب؛ ليمنع العاصي ذلك عن عصيانه، وليرغب المطيع في طاعته، وذلك من رحمته.

د. وقال قائلون: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ لأمة مُحَمَّد إلا يعذبهم عند التكذيب، ولا يستأصلهم، كما عذب غيرهم من الأمم، واستأصلهم عند التكذيب، فالتأخير الذي أخرهم إلى يوم القيامة من الرحمة التي كتب على نفسه.

٣. ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾:

أ. قيل: ﴿إِلَى﴾ صلة، ومعناه: ليجمعنكم يوم القيامة.

ب. وقيل: ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي: ليوم القيامة، كقوله: ﴿لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾

ج. وقال قائلون: قوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ في القبور ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ثم يجمعكم يوم القيامة والقرون السالفة.

٤. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا ريب في الجمع والبعث بعد الموت عند من يعرف أن خلق الخلق للفناء خاصة، لا للبعث والإحياء بعد الموت للثواب والعقاب، ليس لحكمة.

٥. ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ قد ذكرناه.

٦. ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾:

أ. في الآية إنباء أن الخلق كلهم تحت قهر الليل والنهار وسلطانها، مقهورين مغلوبين؛ إذ لم يكن لأحد من الجبابرة، والفراعنة الامتناع عنهما، ولا صرف أحدهما إلى الآخر، بل يدركانهم، شاءوا أو أبوا، وسلطانهما جار عليهم ليعلموا أن لغير فيهما تدبيرا، وأن قهرهما الخلق وسلطانهما كان بسلطان من له التدبير والعلم، ثم جريانهما على سنن واحد ومجرى واحد يدل على أن منشئهما واحد، ومدبرهما عليم حكيم.

ب. وقال بعض أهل التأويل: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، ما استقر في الليل والنهار، من الدواب والطير، في البر والبحر، فمنها ما يستقر نهارًا وينتشر ليلا، ومنها ما يستقر بالليل وينتشر بالنهار.

ج. وعن ابن عباسٍ قال: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ وذلك أن كفار أهل مكة أتوا رسول الله ﷺ وقالوا: يا مُحَمَّد، إنا قد علمنا أنه ما يحملك على هذا الذي تدعو إليه إلا الحاجة، فنحن نجعلك في أموالنا حتى تكون أغنانا رجلا، وترجع عما أنت عليه؛ فنزلت: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ﴾؛ لمقالة أُولَئِكَ، ﴿الْعَلِيمُ﴾ من أين يرزقهم، لكن الوجه فيه ما ذكرنا آنفًا أن الخلق كلهم تحت قهرهما وسلطانهما.

٧. وفيهما وجوه من الحكمة:

أ. أحدها: بعض ما ذكرنا ليعلم أن مدبرهما واحد، وفيه نقض قول الفلاسفة؛ لأنهم يقولون: الظلمة كثافة ستارة، والنور دقيق دراك.

ب. وفيهما ما ذكر من المنافع بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ وغيره من المنافع.

٨. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لمن دعا له، ﴿الْعَلِيمُ﴾: بمصالح الخلق وحاجتهم.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ للهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي قل للمشركين لمن الذي في السماوات والأرض من الخلق؟ قل لهم: هو لله، ومعنى ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي أوجب على نفسه الرحمة لعباده، ونفسه عز وجل هي ذاته.

٢. ثم قال عز وجل مخبراً لعباده: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي ليجمعنكم في يوم لا ريب فيه، ولكن إلى قامت مقام في، ويمكن والله أعلم أن يكون أراد ليجمعنكم بالتكثير لكم إلى يوم القيامة، ثم حشركم وبعثكم بعد الموت ونشركم.

٣. ثم قال: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ على سبيل الاختصار، والمعنى في ذلك: الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون أنذرهم، ولكنه اختصر ولم يتم الكلام.

---

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/ ١٨٤.

ثم قال عز وجل: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي له وملكه وخلقه، كل ما حَلَّ ورحل في الليل والنهار، وهو من السكون والحلول، وليس يعني السكون الذي هو ضد الحركة[1].

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[2]:

١ . ٢ . ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ يعني أنه مالك لما يسكن في الليل والنهار من الحيوان لأن في الحيوان ما يسكن ليلاً وفي الحيوان ما يسكن نهاراً وقيل سكن ولم يقل تحرك لأن نعمة السكون أكثر من نعمة الحركة.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[3]:

١ . ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي أوجبها ربكم على نفسه، وفيها أربعة أوجه:

أ. أحدها: أنها تعريض خلقه لما أمرهم به من عبادته التي تفضي بهم إلى جنته.

ب. الثاني: ما أراهم من الآيات الدالة على وجوب طاعته.

ج. الثالث: إمهالهم عن معالجة العذاب واستئصالهم بالانتقام.

د. الرابع: قبوله توبة العاصي والعفو عن عقوبته.

٢ . ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وهذا توعد منه بالعبث والجزا أَخرجَه مَخْرَج القسم تحقيقاً للوعد والوعيد، ثم أكده بقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[4]:

١ . ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي الَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ من أجسام الحيوان، لأن من الحيوان ما يسكن ليلاً، ومنه ما

---

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/ ١٨٥.

(٢) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/ ٢٣٦.

(٣) تفسير الماوردي: ٢/ ٩٧.

(٤) تفسير الماوردي: ٢/ ٩٨.

يسكن نهاراً.

٢. سؤال وإشكال: لم قال: ﴿مَا سَكَنَ﴾ ولم يقل ما تحرك؟ والجواب: لأمرين:

أ. أحدهما: أن ما يَعُمُّه السكون أكثر مما يَعُمُّه الحركة.

ب. الثاني: لأن كل متحرك لا بد أن تنحل حركته سكوناً، فصار كل متحرك ساكناً، وقد قال الكلبي: معناه وله ما استقر في الليل والنهار، وهما الزمان كله، لأنه لا زمان إلا ليل أو نهار، ولا فصل بينهما يخرج عن واحد منهما.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء الكفار مقرعا لهم وموبخاً على كفرهم ﴿لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ثم أمره عليه السلام أن يقول لهم أن ذلك ﴿لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ واللام لام القسم وتقديره والله ليجمعنكم ولذلك نصب (لام) ليجمعنكم، لأن معنى كتب اليمين، وقال الزجاج يجوز أن يكون (ليجمعنكم) بدلا من الرحمة مفسرا لها، لأنه لما قال كتب على نفسه الرحمة، فسر رحمته بأنه يمهلهم إلى يوم القيامة، وقال الفراء: يجوز أن يكون قوله: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ غاية ثم استأنف قوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾.. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ تمام.

٢. معنى ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي كتب على نفسه إلا يستأصلكم ولا يعجل عقوبتكم بل يعذر وينذر ويجمع آخركم إلى أولكم قرناً بعد قرن إلى يوم القيامة، وهو الذي لا ريب فيه.

٣. في قوله تعالى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ احتجاج على من أنكر البعث والنشور فقال ليجمعنكم إلى اليوم الذي أنكرتموه كما تقول: جمعت هؤلاء إلى هؤلاء، أي ضممت بينهم في الجمع.

٤. ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ قال الأخفش (الذين) بدل من الكاف والميم، والمعنى ليجمعن هؤلاء المشركين الذين خسروا أنفسهم إلى هذا اليوم الذي يجحدونه ويكفرون به، وقال الزجاج: هو في موضع رفع على الابتداء وخبره ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأن ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ مشتمل على سائر الخلق على الذين

---

(١) تفسير الطوسي: ٤/ ٨٧.

خسروا أنفسهم وغيرهم.

٥. ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي ما اشتمل عليه الليل والنهار فجعل الليل والنهار كالمسكن لما اشتملا عليه، لأنه ليس يخرج منهما شيء فجمع كل الأشياء بهذا اللفظ القليل الحروف، وهذا من أفصح ما يكون من الكلام، وقال النابغة:

فإنك كالليل الذي هو مدركي وان خلت أن المنتأي عنك واسع

فجعل الليل مدركا إذ كان مشتملا عليه.

٦. وفي هذه الآية وفي التي قبلها إحتجاج على الكفار الذين عبدوا من دون الله تعالى، فقال تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؟ وكانوا لا يشركون بالله في خلق السماوات والأرض وما بينهما أحداً وإنما كانوا يشركون في العبادة، ويقولون: آلهتهم تقربهم إلى الله زلفى، لا أنها تخلق شيئاً، ثم قال: (قل لله) فإنهم لا ينكرون ذلك، وهو كقوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ فذكرهم ما هم به مقرون ليتنبهوا ويشهدوا بالحق ويتركوا ما هم عليه.

٧. ومعنى ﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أهلكوها باستحقاق المصير إلى العذاب الأليم الدائم، الذي لا ينتفعون معه بنفوسهم إذ كانوا لا يؤمنون، ومن أهلك نفسه فقد خسره.

٨. وإنما قال: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ لأن في الحيوان ما يسكن في الليل، وفيه ما يسكن بالنهار وخص السكون بالذكر، لأن الساكن أكثر من المتحرك، ولأن الآية العجيبة في قيام الساكن بلا عمد أعظم.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. كَتَبْتُ الكتاب أكتبه، وهو من الجمع، والكتاب: القدر، قال الجعدي:

يَا بِنْتَ عَمّي كتابُ الله أَخْرَجني عَنْكُمْ وهَلْ أَمْنَعنَّ اللهَ مَا فَعَلا

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/ ٤٩٦.

والكَتْبُ: الخَرْزُ؛ لأنه يجمع واحدها: كُتْبَة، ومنه قيل للقطعة المجتمعة من الجيش: كتيبة.

ب. الخُسْر والخسران: ذهاب رأس المال، نحو: كفر وكفران، وخسرت الشيء وأخسرته: نقصته، وخسرت في البيع.

ج. السكون: أصله من سكن يسكن سكونًا، والسَّكْن بسكون الكاف: أهل الدار؛ لأنهم يسكنون فيها، والسَّكَن بفتح الكاف: كل ما سكن الله، ومنه السكنى، ومنه: السكين؛ لأنه يسكن حركة المذبوح، والسكون والحركة من جنس الأكوان عند أبي هاشم وغيره يقول: هما جنسان.

٢. عاد الكلام إلى الوعد والوعيد والدلالة على قدرته تعالى على ذلك، فقال سبحانه: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهَؤُلَاءِ الكفار ﴿لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وملكها وخلقها وحفظها ﴿قُلْ لِلَّهِ﴾ يعني إن لم يجبك هَؤُلَاءِ فقل أنت: لله؛ أي ملكها له، والتصرف كيف يشاء، فنبه بأن العبادة تحق لمن له ملكها وخلقها.

٣. سؤال وإشكال: أي فائدة أن يسأله أولاً ثم يجيب هو أيضًا؟ والجواب: لأن السؤال يحث النفس على الطلب، فيكون الجواب بعده أشد تقريرًا في النفس.

٤. ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ كتب: أوجب، واختلفوا في معنى الرحمة:

أ. فقيل: معاشهم عن الأصم؛ لأنه يرزقهم أطاعوا أم عصوا.

ب. وقيل: نِعَمُهُ بالخلق والإحياء والحواس والتمكين والشهوات والمشتهيات.

ج. وقيل: الرحمة يوم القيامة على المؤمنين والتوابين.

د. وقيل: كلف وكتب بذلك الرحمة على نفسه لينتفعوا به، فإن كفروا فمن قِبَلِ أنفسهم أُتُوا.

هـ. وقيل: كتب لمن آمن بمحمد ﷺ إلا يعذبه بعذاب الاستئصال وإن عصى، ولو كان يمهلهم إلى يوم القيامة.

و. وقيل: كتب الرحمة بألّا يستأصل عباده، ولا يعجل بالعقوبة حتى يبلغوا القيامة، عن الأصم.

٥. ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾:

أ. قيل ﴿إِلَى﴾ صلة، والمعنى: ليجمعنكم يوم القيامة.

ب. وقيل ﴿إِلَى﴾ بمعنى ﴿فِي﴾؛ أي يجمعنكم في يوم القيامة.

ج. وقيل: فيه حذف: أي إلى المحشر يوم القيامة؛ لأن الجمع يكون إلى مكان.

د. وقيل: ليجمعنكم في الدنيا قرنًا بعد قرن إلى يوم القيامة.

٦. سؤال وإشكال: إذا لم يصدقوا أنه كلام الله، فكيف حذرهم بالبعث؟ والجواب:

أ. ذكر عقيب الدلالة.

ب. وقيل: هو الدوام.

ج. وقيل: هو خطاب للمؤمنين.

٧. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا شك يعني في البعث.

٨. سؤال وإشكال: أليس يرتاب فيه الكافر؟ والجواب:

أ. الحق حق وإن ارتاب فيه المبطل.

ب. وقيل: الدلائل أزالت الشك، ولأن نعم الدنيا تعم المحسن والمسيء فلابد من دار تميز، ولأن التكليف يتضمن الثواب فإذا لم يكن في الدنيا فلا بد من دار، ولأن التمكين من الظلم من غير انتصاف في العاجل وإنزال الأمراض من غير استحقاق ولا إيفاء عوض في العاجل يوجب لمن يدبر دارًا فيها تُوَفَّى الأعواض، وينتصف للمظلوم من الظالم.

٩. ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي أهلكوها بارتكاب الكفر والفسق ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يصدقون بالحق، ولما ذكر ملك السماوات والأرض لأن الأول يجمع المكان، والثاني الزمان، وهما طرفان لكل موجود، فكأنه أراد الأجسام والأعراض.

١٠. ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ﴾:

أ. للاستراحة وتحرك في النهار للمعيشة.

ب. وقيل: وله ما استقر، عن الأصم.

ج. وقيل: ما وسع الليل والنهار، حكاه عن الأصم.

١١. سؤال وإشكال: لم ذكر الساكن دون المتحرك؟ والجواب: فيه وجوه:

أ. قيل: لأنه أعم وأكثر، ولأن عاقبة التحرك إلى السكون.

ب. وقيل: نعمه في السكون أكثر والراحة فيه أعم، ولأن الثقيل سكونُه حتى لا يهوي أعجب في

القدرة من الهوي بخروجه عن الحالة الطبيعية.

ج. وقيل: أراد الساكن والمتحرك، إلا أن العرب قد تذكر أحد وجهي الشيء وتحذف الآخر؛ لأن الأول نبه على المحذوف، كقوله: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ والمراد الحر والبرد.

١٢. سؤال وإشكال: لماذا ذكر السكون والحركة من بين سائر المخلوقات؟ والجواب: لما فيه من التنبيه على حدث الأجسام وإثبات الصانع وصفاته؛ لأن كل جسم لا يخلو من الحركة والسكون، وهما محدثان، فلا بد من مسكن ومحرك لاستواء الوجهين في الجواز.

١٣. ولما نبه على إثبات الصانع عقبه بذكر الصفة فقال: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ السميع الذي على صفة يصح أن يسمع المسموع إذا وجد، وهو كونه حيًّا لا آفة به، وذلك يوصف به لم يَزَلْ، والعليم بوجوه التدابير في خلقه، وبكل شيء من المعلومات.

١٤. تدل الآية الكريمة على:

أ. قوله تعالى: ﴿لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يدل على أنه لا يستحق العبادة سواه من حيث هو الخالق المالك الرازق المدبر.

ب. يدل قوله: ﴿كَتَبَ﴾ أنه أوجب الرحمة، فيبطل قول من يقول: لا يجب عليه شيء ويدل على أنه بها فعل التزم الرحمة.

ج. ما نقوله بأنه بالتكليف التزم التمكين والإلطاف والإنابة، وتكفل برزق الأحياء.

د. يدل قوله: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ﴾ على عظم نعمه بالسكون وبالليل والنهار.

هـ. أنه يملك تصريف كل ذي قدرة ومتصرف؛ لأنه الموصوف بأنه يسكن في الليل والنهار.

و. حدث العالم وإثبات الصانع وصفاته على ما ذكرتم لأن قوله: ﴿وَلَهُ﴾ يدل على أنه الصانع، و﴿مَا سَكَنَ﴾ يدل على حدث العالم، و﴿السَّمِيعُ﴾ يدل علي كونه حيًّا مدركًا، و﴿الْعَلِيمُ﴾ على كونه عالمًا، سؤال وإشكال: كيف وجه الاستدلال؟ والجواب: لأن كل جسم لا يخلو من حركة أو سكون، وهما محدثان، وما لم يتقدم الْمُحْدَث مُحْدَث، فإذا ثبت حدوث الأجسام فلا بد لها من محدث كسائر المحدثات، فعلم أن له صانعًا، وتعلقه بالمقدور يحيل عدمه، فثبت وجوده، فإذا كنا نحن لا نقدر على فعلها؛ لأنا قادرون بقدرة، كذلك كل جسم، فلا بد من صانع، إذا ثبت أن كل محدَث لا بد له من محدِث، فإذا ثبت أنه

الصانع، والصنع لا يوجد من غير قادر ثبت أنه قادر، ونظام فعله يدل على كونه عالمًا، والعالم لا يكون إلا حيًّا، وكل حي لا آفة به مدرك للمدركات، ولو كان محدَثًا لشارك المحدثات في الحاجة إلى محدِث، فثبت أنه قديم، ولو كان يشبه الموجودات لما صح منه إيجاد الأجسام، فيعلم أنه لا يشبه الأجسام والأعراض، فإذا انتفى كونه جسمًا انتفت الحاجة والمكان والأعضاء، وما يختص به الأجسام والأعراض، فإذا انتفى الحاجة والجهل لم يبق داع إلى فعل القبيح، فكل أفعاله حسنة، وكل قبيح منتف عنه، فلا يخلق الظلم ولا يريده، وإذا كلف يزيح العلة، فيعلم أن الاستطاعة قبل الفعل، وإذا أوعد ووعد لا يجوز عليه الكذب، فلا بد أن يفعل كذلك، وبالتكليف يضمن الثواب، فوجب عليه لإيجابه على نفسه، وإذا كلف وجب إزاحة العلة بالتمكين والبيان والإلطاف، فقد يكون من لطفه البعثة والشرائع فلا بد أن يبعث ويبين الشرائع، ففي الآية تنبيه على أصل إذا حققته حصل لك معرفة التوحيد والعدل وجميع ما يلزم المكلف، ولهذا قال ﷺ: (أوتيت جوامع الكلم) فسبحانه سبحانه.

١٥. مسائل لغوية ونحوية:

أ. اللام في قوله: ﴿لِمَنْ﴾ لام الملك، وفي قوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ لام القسم، والنون فيه نون التأكيد.

ب. ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾: لا موضع له من الإعراب على تقدير الاستئناف، وقد يكون موضعه نصبًا بـ ﴿كَتَبَ﴾ كأن في قوله: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾، وذلك أنه تفسير الرحمة بالإمهال إلى يوم القيامة، عن الزجاج.

ج. ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا﴾:

- قيل: محله نصب على البدل من الضمير في ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ عن الأخفش.
- وقيل: موضعه رفع بالابتداء، وخبره ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنه يجمع الجميع إلى يوم القيامة، عن الزجاج.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

---

(١) تفسير الطبرسي: ٤/ ١١.

١. ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار ﴿لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: الله الذي خلقهما أم الأصنام؟ فإن أجابوك فقالوا: الله، وإلا فـ ﴿قُلْ﴾ أنت ﴿لِلَّهِ﴾ أي: ملكهما وخلقهما، والتصرف فيهما كيف يشاء له.

٢. ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾:

أ. أي: أوجب على نفسه الإنعام على خلقه.

ب. وقيل: معناه أوجب على نفسه الثواب لمن أطاعه.

ج. وقيل: أوجب على نفسه الرحمة بإنظاره عباده، وإمهاله إياهم ليتداركوا ما فرطوا فيه، ويتوبوا عن معاصيهم.

د. وقيل: أوجب على نفسه الرحمة لأمة محمد بأن لا يعذبهم عند التكذيب، كما عذب من قبلهم من الأمم الماضية، والقرون الخالية، عند التكذيب، بل يؤخرهم إلى يوم القيامة، عن الكلبي.

٣. ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾:

أ. أي: ليؤخرن جمعكم إلى يوم القيامة، فيكون تفسيرا لـ ﴿الرَّحْمَةَ﴾، على ما ذكرناه أن المراد به إمهال العاصي ليتوب.

ب. وقيل: إن هذا احتجاج على من أنكر البعث والنشور، ويقول: ليجمعنكم إلى اليوم الذي أنكرتموه، كما تقول: جمعت هؤلاء إلى هؤلاء، أي: ضممت بينهم في الجمع، يريد بجمع آخركم إلى أولكم، قرنا بعد قرن، إلى يوم القيامة وهو الذي ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾

ج. وقيل: معناه ليجمعن هؤلاء المشركين الذين خسروا أنفسهم إلى هذا اليوم الذي يجحدونه، ويكفرون به، عن الأخفش.

٤. سؤال وإشكال: كيف يحذر المشركين بالبعث، وهم لا يصدقون به؟ والجواب: إنه جار مجرى الإلزام، وأيضا فإنه تعالى إنما ذكر ذلك عقيب الدليل.

٥. سؤال وإشكال: كيف نفى الريب مطلقا، فقال: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ والكافر مرتاب فيه؟ والجواب: إن الحق حق، وإن ارتاب فيه المبطل، وأيضا فإن الدلائل تزيل الشك والريب، فإن نعم الدنيا تعم المحسن والمسيء، فلا بد من دار يتميز فيه المحسن من المسيء، وأيضا فقد صح أن التكليف تعريف للثواب، وإذا لم يمكن إيصال الثواب في الدنيا، لأن من شأنه أن يكون صافيا من الشوائب، فلا يكون

مقترنا بالتكليف، لأن التكليف لا يعرى من المشقة، فلا بد من دار أخرى، وأيضا فإن التمكين من الظلم، من غير انتصاف في العاجل، وإنزال الأمراض من غير استحقاق ولا إيفاء عوض في العاجل، توجب قضية العقل في ذلك أن يكون دار أخرى توفى فيها الأعواض، وينتصف من المظلوم للظالم.

٦. ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: أهلكوها بارتكاب الكفر والعناد ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يصدقون بالحق.

٧. ولما ذكر تعالى ملك السماوات والأرض، عقبه بذكر ما فيهما، فقال: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ﴾:

أ. أي: وله كل متمكن ساكن ﴿فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ خلقا، وملكا، وملكا، وإنما ذكر الليل والنهار هنا، وذكر السماوات والأرض فيما قبل، لأن الأول يجمع المكان، والثاني يجمع الزمان، وهما ظرفان لكل موجود، فكأنه أراد الأجسام والأعراض، وعلى هذا فلا يكون السكون في الآية ما هو خلاف الحركة، بل المراد به الحلول كما قال ابن الأعرابي: إنه من قولهم: فلان يسكن بلد كذا أي: يحله، وهذا موافق لقول ابن عباس: وله ما استقر في الليل والنهار من خلق.

ب. وقيل: معناه ما سكن في الليل للاستراحة، وتحرك في النهار للمعيشة، وإنما ذكر الساكن دون المتحرك، لأنه أعم وأكثر، ولأن عاقبة التحرك السكون، ولأن النعمة في السكون أكثر، والراحة فيه أعم.

ج. وقيل: أراد الساكن والمتحرك، وتقديره وله ما سكن، وتحرك، إلا أن العرب قد تذكر أحد وجهي الشيء وتحذف الآخر، لأن المذكور ينبه على المحذوف كقوله تعالى: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ والمراد: الحر والبرد.

٨. سؤال وإشكال: لماذا ذكر السكون والحركة من بين سائر المخلوقات؟ والجواب: لما في ذلك من التنبيه على حدوث العالم، وإثبات الصانع، لأن كل جسم لا ينفك من الحوادث التي هي الحركة والسكون، فإذا لا بد من محرك ومسكن لاستواء الوجهين في الجواز.

٩. ولما نبه على إثبات الصانع، عقبه بذكر صفته، فقال: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾:

أ. والسميع: هو الذي على صفة يصح لأجلها أن يسمع المسموعات، إذا وجدت، وهو كونه حيا لا آفة به، ولذلك يوصف به فيما لم يزل.

ب. والعليم: هو العالم بوجوه التدابير في خلقه، وبكل ما يصح أن يعلم.

١٠. وإنما جعل الليل والنهار في هذه الآية كالمسكن، لما اشتملا عليه، لأنه ليس يخرج منهما شيء فجمع كل الأشياء بهذا اللفظ القليل الحروف، وهذا من أفصح ما يمكن، كما قال النابغة:

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

فجعل الليل مدركا له، إذ كان مشتملا عليه.

١١. ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾: قال الأخفش: بدل من الكاف والميم في ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾، وقال الزجاج: هو في موضع رفع على الابتداء وخبره ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأن ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ مشتمل على سائر الخلق الذين خسروا أنفسهم وغيرهم، قال واللام في ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ لام قسم، فجائز أن يكون تمام الكلام ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ ثم استأنف فقال: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ والمعنى: والله ليجمعنكم،وجائز أن يكون ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ بدلا من ﴿الرَّحْمَةُ﴾ مفسرا لها، لأنه لما قال كتب ربكم على نفسه الرحمة، فسر رحمته بأنه يمهلهم إلى يوم القيامة ليتوبوا.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ المعنى: فإن أجابوك، وإلا فـ ﴿قُلْ لله كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ قال ابن عبّاس: قضى لنفسه أنّه أرحم الراحمين، قال الزّجّاج: ومعنى كتب: أوجب ذلك إيجابا مؤكّدا، وجائز أن يكون كتب في اللّوح المحفوظ؛ وإنما خوطب الخلق بما يعقلون، فهم يعقلون أنّ توكيد الشّيء المؤخّر أن يحفظ بالكتاب، وقال غيره: رحمته عامّة؛ فمنها تأخير العذاب عن مستحقه، وقبول توبة العاصي.

٢. ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ اللّام: لام القسم، كأنّه قال والله ليجمعنّكم إلى اليوم الذي أنكرتموه، وذهب قوم إلى أنّ (إلى) بمعنى: (في) ثم اختلفوا، فقال قوم: في يوم القيامة، وقال آخرون: في قبوركم إلى يوم القيامة.

٣. ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: بالشّرك، ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، لما سبق فيهم من القضاء، وقال

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٢/ ١٣.

ابن قتيبة: قوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ مردود إلى قوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ الذين خسروا.

٤. ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ سبب نزولها أنّ كفار مكّة قالوا للنبي ﷺ: قد علمنا أنّه إنّما يحملك على ما تدعونا إليه الحاجة؛ فنحن نجعل لك نصيبا في أموالنا حتّى تكون من أغنانا رجلا، وترجع عمّا أنت عليه، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عبّاس.

٥. في معنى ﴿سَكَنَ﴾ قولان:

أ. أحدهما: أنّه من السّكنى، قال ابن الأعرابي: (سكن) بمعنى حلّ.

ب. الثاني: أنه من السّكون الّذي يضادّ الحركة، قال مقاتل: من المخلوقات ما يستقرّ بالنّهار، وينتشر باللّيل؛ ومنها ما يستقرّ باللّيل، وينتشر بالنّهار.

٦. سؤال وإشكال: لم خصّ السّكون بالذّكر دون الحركة؟ والجواب: عنه ثلاثة أجوبة:

أ. أحدها: أنّ السكون أعمّ وجودا من الحركة.

ب. الثاني: أنّ كلّ متحرّك قد يسكن، وليس كلّ ساكن يتحرّك.

ج. الثالث: أنّ في الآية إضمارا؛ والمعنى: وله ما سكن وتحرّك؛ كقوله تعالى: ﴿تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ أراد: والبرد؛ فاختصر.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. المقصود من تقرير هذه الآية تقرير إثبات الصانع، وتقرير المعاد وتقرير النبوّة، وبيانه أن أحوال العالم العلوي والسفلي يدل على أن جميع هذه الأجسام موصوفة بصفات كان يجوز عليها اتصافها بأضدادها ومقابلاتها، ومتى كان كذلك، فاختصاص كل جزء من الأجزاء الجسمانية بصفته المعينة لا بدّ وأن يكون لأجل أن الصانع الحكيم القادر المختار خصّه بتلك الصفة المعينة، فهذا يدل على أن العالم مع كل ما فيه مملوك لله تعالى، وإذا ثبت هذا، ثبت كونه قادرا على الإعادة والحشر والنشر، لأن التركيب الأول إنما حصل لكونه تعالى قادرا على كل الممكنات، عالما بكل المعلومات، وهذه القدرة والعلم يمتنع زوالها،

(١) التفسير الكبير: ١٢/ ٤٨٩.

فوجب صحة الإعادة ثانيا، وأيضا ثبت أنه تعالى ملك مطاع، والملك المطاع من له الأمر والنهي على عبيده، ولا بد من مبلغ، وذلك يدل على أن بعثة الأنبياء والرسل من الله تعالى إلى الخلق غير ممتنع، فثبت أن هذه الآية وافية بإثبات هذه المطالب الثلاثة، ولما سبق ذكر هذه المسائل الثلاثة، ذكر الله بعدها هذه الآية لتكون مقررة لمجموع تلك المطالب من الوجه الذي شرحناه.

٢. ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ سؤال، وقوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ﴾ جواب فقد أمره الله تعالى بالسؤال أولا ثم بالجواب ثانيا:

أ. وهذا، إنما يحسن في الموضع الذي يكون الجواب قد بلغ في الظهور إلى حيث لا يقدر على إنكاره منكر، ولا يقدر على دفعه دافع، ولما بينا أن آثار الحدوث والإمكان ظاهرة في ذوات جميع الأجسام وفي جميع صفاتها، لا جرم كان الاعتراف بأنها بأسرها ملك لله تعالى وملك له ومحل تصرفه وقدرته لا جرم أمره بالسؤال أولا ثم بالجواب ثانيا، ليدل ذلك على أن الإقرار بهذا المعنى مما لا سبيل إلى دفعه ألبتة.

ب. وأيضا فالقوم كانوا معترفين بأن كل العالم ملك لله، وملكه وتحت تصرفه وقهره وقدرته بهذا المعنى كما قال: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [لقمان: ٢٥]

٣. ثم إنه تعالى لما بيّن بهذا الطريق كمال إلهيته وقدرته ونفاذ تصرفه في عالم المخلوقات بالكلية، أردفه بكمال رحمته وإحسانه إلى الخلق فقال: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ فكأنه تعالى قال إنه لم يرض من نفسه بأن لا ينعم ولا بأن يعد بالإنعام، بل أبدا ينعم وأبدا يعد في المستقبل بالإنعام ومع ذلك فقد كتب على نفسه ذلك وأوجبه إيجاب الفضل والكرم.

٤. اختلفوا في المراد بهذه الرحمة:

أ. فقال بعضهم: تلك الرحمة هي أنه تعالى يمهلهم مدة عمرهم ويرفع عنهم عذاب الاستئصال ولا يعاجلهم بالعقوبة في الدنيا.

ب. وقيل إن المراد أنه كتب على نفسه الرحمة لمن ترك التكذيب بالرسل وتاب وأناب وصدقهم وقبل شريعتهم، وجاءت الأخبار الكثيرة في سعة رحمة الله تعالى:

• عن النبي ﷺ أنه قال: (لما فرغ الله من الخلق كتب كتابا أن رحمتي سبقت غضبي)، سؤال وإشكال: الرحمة هي إرادة الخير، والغضب هو إرادة الانتقام، وظاهر هذا الخبر يقتضي كون إحدى

الإرادتين سابقة على الأخرى، والمسبوق بالغير محدث، فهذا يقتضي كون إرادة الله تعالى محدثة، والجواب: المراد بهذا السبق سبق الكثرة لا سبق الزمان.

• وعن سلمان أنه تعالى (لما خلق السماء والأرض خلق مائة رحمة، كل رحمة ملء ما بين السماء والأرض، فعنده تسع وتسعون رحمة، وقسم رحمة واحدة بين الخلائق، فبها يتعاطفون ويتراحمون، فإذا كان آخر الأمر قصرها على المتقين)

٥. ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (اللام) في قوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ لام قسم مضمر، والتقدير: والله ليجمعنكم، واختلفوا في أن هذا الكلام مبتدأ أو متعلق بما قبله:

أ. فقال بعضهم أنه كلام مبتدأ، وذلك لأنه تعالى بيّن كمال إلهيته بقوله: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ ثم بيّن تعالى أنه يرحمهم في الدنيا بالإمهال ودفع عذاب الاستئصال، وبيّن أنه يجمعهم إلى يوم القيامة، فقوله: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أنه يمهلهم وقوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أنه لا يمهلهم بل يحشرهم ويحاسبهم على كل ما فعلوا.

ب. الثاني: أنه متعلق بما قبله والتقدير: كتب ربكم على نفسه الرحمة، وكتب ربكم على نفسه ليجمعنكم إلى يوم القيامة، وقيل: إنه لما قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ فكأنه قيل: وما تلك الرحمة؟ فقيل: إنه تعالى ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وذلك لأنه لولا خوف العذاب يوم القيامة لحصل الهرج والمرج ولارتفع الضبط وكثر الخبط، فصار التهديد بيوم القيامة من أعظم أسباب الرحمة في الدنيا، فكان قوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ كالتفسير لقوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾

٦. ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ كلام ورد على لفظ الغيبة، وقوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ كلام ورد على سبيل المخاطبة، والمقصود منه التأكيد في التهديد، كأنه قيل: لما علمتم أن كل ما في السموات والأرض لله وملكه، وقد علمتم أن الملك الحكيم لا يهمل أمر رعيته ولا يجوز في حكمته أن يسوي بين المطيع والعاصي وبين المشتغل بالخدمة والمعرض عنها، فهلا علمتم أنه يقيم القيامة ويحضر الخلائق ويحاسبهم في الكل؟

٧. في كلمة ﴿إِلَى﴾ في قوله: ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أقوال:

أ. قيل: إنها صلة والتقدير: ليجمعنكم يوم القيامة.

ب. وقيل: ﴿إِلَى﴾ بمعنى في أي ليجمعنكم في يوم القيامة.

ج. وقيل: فيه حذف أي ليجمعنكم إلى المحشر في يوم القيامة، لأن الجمع يكون إلى المكان لا إلى الزمان.

د. وقيل: ليجمعنكم في الدنيا بخلقكم قرنا بعد قرن إلى يوم القيامة.

٨. في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قولان:

أ. الأول: أن قوله: ﴿الَّذِينَ﴾ موضعه نصب على البدل من الضمير في قوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ والمعنى ليجمعن هؤلاء المشركين الذين خسروا أنفسهم وهو قول الأخفش.

ب. الثاني: وهو قول الزجاج، أن قوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ رفع بالابتداء، وقوله: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خبره، لأن قوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ مشتمل على الكل، على الذين خسروا أنفسهم وعلى غيرهم (والفاء) في قوله: ﴿فَهُمْ﴾ يفيد معنى الشرط والجزاء، كقولهم: الذي يكرمني فله درهم، لأن الدرهم وجب بالإكرام فكان الإكرام شرطا والدرهم جزاء.

٩. سؤال وإشكال: ظاهر اللفظ يدل على أن خسرانهم سبب لعدم إيمانهم، والأمر على العكس، والجواب: هذا يدل على أن سبق القضاء بالخسران والخذلان، هو الذي حملهم على الامتناع من الايمان، وذلك عين مذهب أهل السنّة.

١٠. ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أحسن ما قيل في نظم هذه الآية:

أ. ما ذكره أبو مسلم، فقال: (ذكر في الآية الأولى: السموات والأرض، إذ لا مكان سواهما، وفي هذه الآية ذكر الليل والنهار إذ لا زمان سواهما، فالزمان والمكان ظرفان للمحدثات، فأخبر سبحانه أنه مالك للمكان والمكانيات، ومالك للزمان والزمانيات، وهذا بيان في غاية الجلالة)

ب. وهاهنا دقيقة أخرى، وهو أن الابتداء وقع بذكر المكان والمكانيات، ثم ذكر عقيبه الزمان والزمانيات، وذلك لأن المكان والمكانيات أقرب إلى العقول والأفكار من الزمان والزمانيات، لدقائق مذكورة في العقليات الصرفة، والتعليم الكامل هو الذي يبدأ فيه بالأظهر فالأظهر مترقيا إلى الأخفى فالأخفى، فهذا ما يتعلق بوجه النظم.

١١. ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ يفيد الحصر والتقدير: هذه الأشياء له لا لغيره، وهذا هو

الحق لأن كل موجود فهو إما واجب لذاته، وإما ممكن لذاته، فالواجب لذاته ليس إلا الواحد، وما سوى ذلك الواحد ممكن، والممكن لا يوجد إلا بإيجاد الواجب لذاته، وكل ما حصل بإيجاده وتكوينه كان ملكا له، فثبت أن ما سوى ذلك الموجود الواجب لذاته فهو ملكه ومالكه فلهذا السبب قال: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾

١٢. في تفسير هذا السكون قولان:

أ. الأول: أن المراد منه الشيء الذي سكن بعد أن تحرك، فعلى هذا، المراد كل ما استقر في الليل والنهار من الدواب، وجملة الحيوانات في البر والبحر وعلى هذا التقدير: قالوا في الآية محذوف والتقدير: وله ما سكن وتحرك في الليل والنهار كقوله تعالى: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] أراد الحر والبرد فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر لأنه يعرف ذلك بالقرينة المذكورة، كذلك هنا حذف ذكر الحركة، لأن ذكر السكون يدل عليه.

ب. الثاني: أنه ليس المراد من هذا السكون ما هو ضد الحركة، بل المراد منه السكون بمعنى الحلول، كما يقال: فلان يسكن بلد كذا إذا كان محله فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٥] وعلى هذا التقدير: كان المراد، وله كل ما حصل في الليل والنهار، والتقدير: كل ما حصل في الوقت والزمان سواء كان متحركا أو ساكنا، وهذا التفسير أولى وأكمل، والسبب فيه أن كل ما دخل تحت الليل والنهار حصل في الزمان فقد صدق عليه أنه انقضى الماضي وسيجيء المستقبل، وذلك مشعر بالتغير وهو الحدوث، والحدوث ينافي الأزلية والدوام، فكل ما مرّ به الوقت ودخل تحت الزمان فهو محدث وكل حادث فلا بدّ له من محدث، وفاعل ذلك الفعل يجب أن يكون متقدما عليه والمتقدم على الزمان يجب أن يكون مقدما على الوقت والزمان فلا تجري عليه الأوقات ولا تمر به الساعات ولا يصدق عليه أنه كان وسيكون.

١٣. ثم لما بيّن الله تعالى فيما سبق أنه مالك للمكان وجملة المكانيات ومالك للزمان وجملة الزمانيات، بين أنه سميع عليم يسمع نداء المحتاجين ويعلم حاجات المضطرين، والمقصود منه الرد على من يقول الإله تعالى موجب بالذات، فنبّه على أنه وإن كان مالكا لكل المحدثات لكنه فاعل مختار يسمع ويرى ويعلم السر وأخفى.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هذا [أيضا] احتجاج عليهم، المعنى قل لهم يا محمد: ﴿لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإن قالوا لمن هو؟ فقل: هو ﴿لِلَّهِ﴾ المعنى: إذا ثبت أن له ما في السماوات والأرض وأنه خالق الكل إما باعترافهم أو بقيام الحجة عليهم، فالله قادر على أن يعاجلهم بالعقاب ويبعثهم بعد الموت.

٢. ولكنه ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي وعد بها فضلا منه وكرما فلذلك أمهل وذكر النفس هنا عبارة عن وجوده وتأكيد وعده، وارتفاع الوسائط دونه.

٣. ومعنى الكلام الاستعطاف منه تعالى للمتولين عنه إلى الإقبال إليه، وإخبار منه سبحانه بأنه رحيم بعباده لا يعجل عليهم بالعقوبة، ويقبل منهم الإنابة والتوبة، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (لما قضى الله الخلق كتب في كتاب على نفسه فهو موضوع عنده أن رحمتي تغلب غضبي) أي لما أظهر قضاءه وأبرزه لمن شاء أظهر كتابا في اللوح المحفوظ أو فيما شاءه مقتضاه خبر حق ووعد صدق (إن رحمتي تغلب غضبي) أي تسبقه وتزيد عليه.

٤. ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ اللام لام القسم، والنون نون التأكيد، وقال الفراء وغيره: يجوز أن يكون تمام الكلام عند قوله: ﴿الرَّحْمَةُ﴾ ويكون ما بعده مستأنفا على جهة التبيين، فيكون معنى ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ ليمهلنكم وليؤخرن جمعكم، وقيل: المعنى ليجمعنكم أي في القبور إلى اليوم الذي أنكرتموه، وقيل: ﴿إِلَى﴾ بمعنى في، أي ليجمعنكم في يوم القيامة، وقيل: يجوز أن يكون موضع ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ نصبا على البدل من الرحمة، فتكون اللام بمعنى ﴿أَنْ﴾ المعنى: كتب ربكم على نفسه ليجمعنكم، أي أن يجمعكم، وكذلك قال كثير من النحويين في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ﴾ [يوسف] أي أن يسجنوه، وقيل: موضعه نصب بـ ﴿كَتَبَ﴾، كما تكون ﴿أَنْ﴾ في قوله تعالى ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾ [الأنعام] وذلك أنه مفسر للرحمة بالإمهال إلى يوم القيامة، عن الزجاج.

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/ ٣٩٥.

٥. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شك فيه، ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ابتداء وخبر، قاله الزجاج، وهو أجود ما قيل فيه، تقول: الذي يكرمني فله درهم، فالفاء تتضمن معنى الشرط والجزاء، وقال الأخفش: إن شئت كان ﴿الَّذِينَ﴾ في موضع نصب على البدل من الكاف والميم في ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ أي ليجمعن المشركين الذين خسروا أنفسهم، وأنكره المبرد وزعم أنه خطأ، لأنه لا يبدل من المخاطب ولا من المخاطب، لا يقال: مررت بك زيد ولا مررت بي زيد لأن هذا لا يشكل فيبين، قال القتبي: يجوز أن يكون ﴿الَّذِينَ﴾ جزاء على البدل من ﴿الْمُكَذِّبِينَ﴾ الذين تقدم ذكرهم، أو على النعت لهم، وقيل: ﴿الَّذِينَ﴾ نداء مفرد،

٦. ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي ثبت، وهذا احتجاج عليهم أيضا، وقيل: نزلت الآية لأنهم قالوا: علمنا أنه ما يحملك على ما تفعل إلا الحاجة، فنحن نجمع لك من أموالنا حتى تصير أغنانا، فقال الله تعالى: أخبرهم أن جميع الأشياء لله، فهو قادر على أن يغنيني.

٧. ﴿سَكَنَ﴾ معناه هدأ واستقر، والمراد ما سكن وما تحرك، فحذف لعلم السامع، وقيل: خص الساكن بالذكر لأن ما يعمه السكون أكثر مما تعمه الحركة، وقيل المعنى ما خلق، فهو عام في جميع المخلوقات متحركها وساكنها، فإنه يجري عليه الليل والنهار، وعلى هذا فليس المراد بالسكون ضد الحركة بل المراد الخلق، وهذا أحسن ما قيل، لأنه يجمع شتات الأقوال.

٨. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأصواتهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأسرارهم.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هذا احتجاج عليهم وتبكيت لهم، والمعنى: قل لهم هذا القول، فإن قالوا فقل: للهّ، وإذا ثبت أنّ له ما في السموات والأرض إما باعترافهم، أو بقيام الحجّة عليهم فالله قادر على أن يعاجلهم بالعقاب، ولكنه كتب على نفسه الرّحمة: أي وعد بها فضلا منه وتكرّما، وذكر النفس هنا عبارة عن تأكّد وعده وارتفاع الوسائط دونه، وفي الكلام ترغيب للمتولّين عنه إلى الإقبال إليه

(١) فتح القدير: ٢/ ١١٩.

وتسكين خواطرهم؛ بأنه رحيم بعباده لا يعاجلهم بالعقوبة، وأنه يقبل منهم الإنابة والتوبة، ومن رحمته لهم إرسال الرسل، وإنزال الكتب، ونصب الأدلّة.

٢. ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ﴾ اللام جواب قسم محذوف، قال الفراء وغيره: يجوز أن يكون تمام الكلام عند قوله: ﴿الرَّحْمَةَ﴾ ويكون ما بعدها مستأنفا على جهة التبيين فيكون المعنى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ ليمهلنكم وليؤخرنّ جمعكم، وقيل المعنى: ليجمعنكم في القبور إلى اليوم الذي أنكرتموه، وقيل: إلى بمعنى في: أي ليجمعنكم في يوم القيامة، وقيل: يجوز أن يكون موضع ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ النصب على البدل من الرحمة، فتكون اللام بمعنى أن، والمعنى: كتب ربكم على نفسه الرحمة أن يجمعنكم، كما قالوا في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الْآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ﴾ أي أن يسجنوه، وقيل: إن جملة لَيَجْمَعَنَّكُمْ مسوقة للترهيب بعد الترغيب، وللوعيد بعد الوعد؛ أي إن أمهلكم برحمته فهو مجازيكم بجمعكم ثم معاقبة من يستحق عقوبته من العصاة.

٣. الضمير في ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ لليوم أو للجمع.

٤. ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾، قال الزجاج: إنّ الموصول مرتفع على الابتداء، وما بعده خبره كما تقول: الذي يكرمني فله درهم، فالفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط.

٥. وقال الأخفش: إن شئت كان ﴿الَّذِينَ﴾ في موضع نصب على البدل من الكاف والميم في ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ أي ليجمعنّ المشركين الذين خسروا أنفسهم، وأنكره المبرد وزعم أنه خطأ، لأنه لا يبدل من المخاطب ولا من المخاطب، لا يقال مررت بك زيد ولا مررت بي زيد؛ وقيل: يجوز أن يكون الَّذِينَ مجرورا على البدل من المكذبين الذين تقدّم ذكرهم أو على النعت لهم؛ وقيل: إنه منادى وحرف النداء مقدّر.

٦. ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي لله، وخص الساكن بالذكر، لأن ما يتصف بالسكون أكثر مما يتصف بالحركة وقيل المعنى: ما سكن فيهما أو تحرك فاكتفى بأحد الضدين عن الآخر، وهذا من جملة الاحتجاج على الكفرة.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالَارْضِ﴾ أي: الأرضين، لِمَنْ أجزاؤهما وما حلَّ فيهما؟ ومَن خالقُ ذلك ومَن مالكه؟ وَلَا بُدَّ أن يقولوا: ذلك لله تعالى، كما قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالَارْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، وقال: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨]

٢. ولَمَّا كان ذلك حجَّة قاطعة لا يقدرون على التخلُّص منها وعدم الإقرار بها، ولا جواب لهم سواها أمر الله جلَّ وعلا رسوله أن يبادر إلى الإقرار بها فقال: ﴿قُل لِّلهِ﴾ كما أنَّهم يقولون: (لله) لَا بُدَّ، أو يقال: قل (لله) إن لم يقولوه، والأول أولى لأنَّهم قالوه في مواطن، وليس مِمَّا يُنتظَرُ جوابه لأنَّه متعيِّن، بل هو مِمَّا يقال: إنَّ فلانًا قاله، ولو لم يقله، إذا كان لَا بُدَّ من اعترافه به؛ فلك أن تقول: قل عنهم: (لله)، وقيل: الآية على أنَّه كأنَّهم تثاقلوا عن الجواب فأمره ﷺ أن يجيب عنهم، وذلك أنَّ الموجودات منها ما شوهد حدوثه، ومنها ما لم يشاهد حدوثه، والكلُّ عليه أثر الحدوث من عجز وتركيب وحاجة وغير ذلك، ولا بدَّ لها من صانع حكيم؛ لأنَّها صنعة بديعة الإتقان، والحكيم لا يعبث، فإنَّما خلقها لعاقبة محمودة لمن لم يَتَخَلَّف عنها، وذلك يستدعي إرسال الرُّسل وإنزال الكتب تكليفا لعباده.

٣. وحبَّبهم إلى نفسه وإلى الإذعان إلى الرُّسل بقوله: ﴿كَتَبَ﴾ وعد وقضى ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ تفضُّلاً وإحسانًا في الدُّنيا والآخرة، والدين على الناس كُلِّهم، ومن ذلك تسهيل الشرع وإنزاله وبيانه، ونصب الدلائل عليه، والتوفيق إليه علمًا وعملاً، وإمهال الكافر.

٤. وفي الآية إطلاق النفس على الله بمعنى الذَّات، وهو جائز لهذه الآية ونحوها بلا مشاكلة، ولو وجدت المشاكلة في قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، ودعوى تقدير المشاكلة هكذا: (وكتب على أنفسكم الذنب) بعيدٌ، فليس كما قيل: لا يطلق على الله - ولو بمعنى الذَّات - إلا لمشاكلة، وَأَنَّهَا لا تطلق إلا على الحيوان أو إلا على غير الله تعالى.

٥. والآية ردٌّ على من قال: يجب على الله الأصلح والصلاح ولو بلا وعد، فإنه لا واجب على الله، ولكن لا يُخْلِف الوعدَ والوعيدَ؛ فلا بدَّ من وقوع ما قاله؛ لأن إخلافه نقص لا لوجوبٍ عليه، روى مسلم

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/ ٢٠٥.

عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ (لَمَّا قضى الله الخلق كتب كتابًا فهو عنده فوق العرش: إنَّ رحمتي غلبت غضبي) ثمَّ رأيته للبخاري أيضًا، وروى الترمذيُّ عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : (لَمَّا خلق الله تعالى الخلق كتب كتابا عنده بيده على نفسه: إنَّ رحمتي تغلب غضبي) وفي ابن مردويه: روى أبو هريرة عنه ﷺ : (إنَّ الله تعالى كتب كتابًا لنفسه قبل أن يخلق السماوات والأرض فوضعه تحت عرشه فيه: رحمتي سبقت غضبي) ومعنى (كتبه بيده): كتبه بقدرته، والمراد: التكوين، وأنَّه لم يكتبه ملك، ومعنى سَبْقِ رحمته كمالُها على الغضب وقوَّتها، وقال سلمان عن رسول الله ﷺ : (إنَّ الله تعالى خلق يوم خلق السماوات والأرض مائة رحمة، كلُّ رحمة طباق ما بين السماوات والأرض، فجعل منها في الأرض رحمة، فَبِهَا تعطف الوالدة على ولدها، والطير والوحش بعضها على بعض، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة) رواه مسلم، قال عبد الله بن عمرو بن العاصي: (إنَّ لله تعالى مائة رحمة، أهبط منها واحدة إلى أهل الدنيا، يتراحم بها الجنُّ والإنس، وطير السماء وحيتان الماء، ودوابُّ الأرض وهوامُّها، وما بين الهواء، واختزن عنده تسعًا وتسعين رحمةً حتَّى إذا كان يوم القيامة حوَّلها إلى ما عنده، فجعلها في قلوب أهل الجنَّة وعلى أهل الجنَّة)

٦. ﴿لَيَجْمَعَنَّكُم﴾ أيها الناس كُلّكم، وقيل: أيها المشركون، كما أنَّ الكلام فيهم ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فيجازيكم، أي: والله لَيَجْمَعَنَّكُم، أو جواب لقوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾؛ لأن معناه التأكيد، والتأكيد قَسَمٌ، وعلى هذا فلا يُقَدَّرُ: (والله)، ويجوز أن يُقَدَّرُ: (والله لَيجمعنَّكم) بدلاً من (الرَّحْمَةَ) بَدَلَ البعضِ، ولا يحتاج لربط لأنَّه جملة أو كلٌّ، وعليه فتكون الرحمة إمهالَ أهل الشرك وإمدادَهم بالرزق عن معاجلة العذاب قبل يوم القيامة، إذ لو شاء لبعثهم قبل يوم القيامة وأدخلهم النار، ولو شاء لعجَّل العذاب في الدنيا، وَلَعَلَّهُم يتوبون كقوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ﴾ الآية [الأنعام: ٥٤] إلا أنَّ المتبادر من الرحمة أن لا تحمل على ذلك الإمهال خاصَّة، وإن جعلناها رحمة الآخرة للكفرة قدَّرنا: إن أسلمتم، وفيه تعسُّف.

٧. والكلام وعيدٌ على الإشراكِ وإهمالِ النظر، أو ذكرٌ للرحمة بالإمهال كما رأيت، ومعنى الجمعِ إلى يوم القيامة الجمعُ لهم في القبور، وما ينزل منزلتها، أي: لا يزال يجمعهم إلى يوم القيامة فإذا جاء وقت القيامة بعثهم، فلم يتكلَّم على البعث إلا بذكر القيامة، أو معنى جمعهم إلى حساب يوم القيامة، أو معناه إنهاؤهم وإبلاغهم فيها إلى ذلك الوقت، أو (إلى) بمعنى (في)، أي: يجمعهم في يوم القيامة، [قلت] ولا

بأس بتفسير حرف بمعنى حرف آخر لداع ولو كان ذلك المعنى غير مقيس فيه، أو المعنى: يجمعهم لأجل ذلك اليوم، كظاهر قوله تعالى: ﴿جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ﴾ إلخ [آل عمران: ٩]

٨. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شبهة فيه، ولو جحد من جحد مع علمه، وشكَّ من شَكَّ، والهاء للجمع المعلوم من (يَجْمَع)، أو لـ (يَوْمِ الْقِيَامَةِ)، والجملة حال مؤكِّدة من اليوم، والضمير لليوم، أو نعت لمصدر محذوف عاد إليه الضمير، أي: جمعًا لا ريب فيه.

٩. ﴿الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ﴾ أجسامَهم، وخسرانُها أن تكون في النَّار، وفي العذاب قبل النَّار أيضًا، وذلك بتضييع الإسلام الذي ولدوا عليه، وإهمال العقل عن النظر، أي: ذمَّ الله الذين خسروا أنفسهم، أو هم الذين خسروا أنفسهم، أي: هؤلاء القائلون: (إِنْ هَذَا إلا سِحْرٌ مُّبِينٌ)، (لَوْلَآ أنزل) إلخ هم الذين خسروا أنفسهم، فالجملة بعد ذلك معطوفة بالفاء، أو مبتدأٌ خبرُه قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُومِنُونَ﴾، فالفاء في خبر المبتدأ لشبهه باسم الشرط، وعلى كُلِّ حال هي سببيَّة، لكن باعتبار ما حصل به الخسران وهو التضييع والإهمال المذكوران فإن انتفاء الإيمان سبب عنهما، أو باعتبار القضاء بالخسران فإن القضاء به سبب لانتفاء الإيمان، وإلا فظاهر اللفظ أنَّ الخسران نفسه سبب لانتفاء إيمانهم، مع أنَّ المراد غير ذلك، وأجاز الأخفش إبدال الظاهر من ضمير الخطاب، فيكون (الَّذِينَ) بدلاً من الكاف، وهو ضعيف في بدل كُلٍّ، وإن قيل: الكافُ للعموم والبدلُ بدلُ بعضٍ لَزِمَ تفكيك الضمائر.

١٠. ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ بالأقوال ﴿الْعَلِيمُ﴾ بالأفعال والأحوال، وذلك وعيد لأهل الشرك، وهذا آخر المحكيِّ بـ (قُلْ) الأخير، أمر الله جلَّ وعلا رسوله ﷺ أن يخاطبهم بقوله: ﴿قُل لِّلهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ﴾ إلخ غير داخل، أو ﴿كَتَبَ﴾ إلى ﴿الْعَلِيمُ﴾ غير داخل، وعلى الأول يكون: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ﴾ عطفًا على (لله) مع هو المُقَدَّر قبله، وعلى كُلِّ حال تكون هذه الآية تقريرًا لقوله: ﴿قُل لِّلهِ﴾

١١. ومعنى (سَكَنَ): ثبت، فإنه يجوز أن تقول: سكنتُ في العام، أو الشهر أو غير ذلك، كما تقول: سكنتُ في الدار على المجاز المرسل التبعيِّ، لعلاقة الإطلاق والتقييد، أو على الاستعارة، فشمل التحرُّك فهو من السكنى، مثل ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٥]، أو لزم الجمع بين الحقيقة والمجاز، أو عموم المجاز، أو معناه: لم يتحرَّك، فهو من السكون، فيقدَّر محذوف، وَهَذَا الحذفُ

لظهوره لِكُلِّ أحد لا ينافي أنَّ المقام للبسط، أي: ما سكن وما تَحرَّك.

١٢. واقتصر اللفظ على السكون، في هذا الوجه لأن الساكن أكثر من المتحرِّك؛ ولأنَّ عاقبة كُلِّ متحرِّك السكون، ولأنَّ السكون نعمة غالبًا، ولأنَّ الأصل السكون والتحرُّك طارئ، والمتحرِّك يسكن غالبًا، وليس الغالب أن يتحرَّك الساكن، ويجوز أن لا يُقَدَّرَ لمعنى أنَّ ما يتحرَّك يسكن غالبًا، فيرجع إلى قسم الساكن، أو الساكن: جميع المخلوقات؛ لأن المتحرِّك ساكن في حال حركاته بين كُلِّ حركتين سكون خفيف لا يظهر لخفَّته جدًّا يتمكَّن به لحركةٍ تَعقُبُه، تختلف الحركات سرعة وبطءًا، لقلَّة السكنات المتخلِّلة وكثرتها.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خلقا وملكا، وهو سؤال تبكيت وتقريع، ﴿قُلْ لِلَّهِ﴾ تقرير للجواب، نيابة عنهم، أي: هو الله، لا خلاف بيني وبينكم، ولا تقدرون أن يضيفوا شيئا منه إلى غيره، ففيه تنبيه على تعينه للجواب اتفاقا، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، ومن المقرر أن أمر السائل بالجواب إنما يحسن في موضع يكون فيه الجواب قد بلغ من الظهور إلى حيث لا يقدر على إنكاره منكر، ولا على دفعه دافع، كما هنا، قيل: وفيه إشارة إلى أنهم تثاقلوا في الجواب، مع تعينه، لكونهم محجوجين.

٢. ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ جملة مستقلة داخلة تحت الأمر، ناطقة بشمول رحمته الواسعة لجميع الخلق، شمول ملكه وقدرته للكل، مسوقة لبيان أنه تعالى رؤوف بعباده، لا يعجل عليهم بالعقوبة، ويقبل منهم التوبة والإنابة، وأن ما سبق ذكره، وما لحق من أحكام الغضب، ليس من مقتضيات ذاته تعالى، بل من جهة الخلق، كيف لا؟ ومن رحمته أن خلقهم على الفطرة السليمة، وهداهم إلى معرفته وتوحيده، بنصب الآيات الأنفسية والآفاقية، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب المشحونة بالدعوة إلى موجبات رضوانه، والتحذير عن مقتضيات سخطه، وقد بدلوا فطرة الله تبديلا، وأعرضوا عن الآيات بالمرة، وكذبوا

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/ ٣٢٢.

بالكتب، واستهزءوا بالرسل، ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦]، ولولا شمول رحمته لسلك بهؤلاء أيضا مسلك الغابرين، ومعنى: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أنه تعالى أوجبها وقضاها بطريق التفضل والإحسان على ذاته المقدسة، بالذات، لا بتوسط شيء أصلا، وفي التعبير عن (الذات) بـ (النفس) حجة على من ادعى أن لفظ (النفس) لا يطلق على الله تعالى، وإن أريد به الذات، إلا مشاكلة، لما ترى من انتفاء المشاكلة هاهنا ـ أفاده أبو السعود ـ.

٣. ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ جواب قسم محذوف، والجملة استئناف مسوق للوعيد، على إشراكهم وإغفالهم النظر، لأنه لما بين كمال إلهيته، بقوله: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ للهِ﴾، ثم أخبر بأنه يرحمهم في الدنيا بالإمهال، ودفع عذاب الاستئصال، أعلم أنه يجمعهم لذلك اليوم، ويحاسبهم على كل ما فعلوا، لأن الملك الحكيم لا يهمل أمر رعيته، ولا يسوغ في حكمته أن يسوي بين المطيع والعاصي قيل: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ جواب لقوله: ﴿كَتَبَ﴾، لأنه يجري مجرى القسم، وقيل: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ بدل من الرحمة، بدل البعض.

٤. قال المهايمي: كمال الرحمة في الجزاء، إذ بدونه تضيع مشاق المعارف الإلهية، والأعمال الصالحة، وتضيع المظالم، ولا جزاء في دار الدنيا، لأنه فرع التكليف، ودار التكليف لا تكون دار الجزاء، لأن مشاهدته مانعة من التكليف.

٥. و(إلى) بمعنى اللام، كقوله: ﴿إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٩]، أي في اليوم، أو في الجمع.

٦. ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: بتضييع رأس مالهم، وهو الفطرة الأصلية، والعقل السليم، والاستعداد القريب الحاصل من مشاهدة الرسول ﷺ، واستماع الوحي، وغير ذلك من آثار الرحمة.

٧. ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يصدقون بالمعاد، ولا يخافون شر ذلك اليوم، قال أبو السعود: والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط، والإشعار بأن عدم إيمانهم بسبب خسرانهم، فإن إبطال العقل باتباع الحواس، والانهماك في التقليد، وإغفال النظر، أدى بهم إلى الإصرار على الكفر، والامتناع من الإيمان والجملة تذييل مسوق من جهته تعالى، لتقبيح حالهم، غير داخل تحت الأمر.

٨. ﴿وَلَهُ﴾ أي: ولله عز وجل، ﴿مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي ما استقر وحلّ، من (السكنى)

بمعنى (الحلول)، كقوله تعالى: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٥]، والمعنى: له تعالى كل ما حصل في الليل والنهار، مما طلعت عليه الشمس أو غربت، شبه الاستقرار بالزمان، بالاستقرار في المكان، فاستعمل استعماله فيه، أو (سكن) من (السكون)، مقابل الحركة، أي: ما سكن فيهما وما تحرك، فاكتفى بأحد الضدين عن الآخر، كما في قوله: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، لأن ذلك يعرف بالقرينة، وعليه، فإنما اكتفى بالسكون عن ضده دون العكس، لأن السكون أكثر وجودا، والنعمة فيه أكثر.

٩. قال بعضهم: لا حاجة لدعوى الاكتفاء، فإن ما سكن يعم جميع المخلوقات، إذ ليس شيء منها غير متصف بالسكون، حتى المتحرك، حال حركته، على ما حقق في الكلام: من أن تفاوت الحركات بالسرعة والبطء لقلة السكنات المتخللة وكثرتها.

١٠. قال أبو مسلم الأصفهانيّ: ذكر تعالى في الآية الأولى: السموات والأرض، إذ لا مكان سواهما، وفي هذه الآية ذكر الليل والنهار، إذ لا زمان سواهما، فالزمان والمكان ظرفان للمحدثات، فأخبر سبحانه أنه مالك للمكان والمكانيات، ومالك للزمان والزمانيات، وهذا بيان في غاية الجلالة.

١١. وقال الرازيّ: هاهنا دقيقة أخرى، وهو أن الابتداء وقع بذكر المكان والمكانيات، ثم ذكر عقيبه الزمان والزمانيات، وذلك لأن المكان والمكانيات أقرب إلى العقول والأفكار من الزمان والزمانيات، لدقائق مذكورة في العقليات الصرفة، والتعليم الكامل هو الذي يبدأ فيه بالأظهر فالأظهر مترقيا إلى الأخفى فالأخفى، وهذا من سر نظم الآية مع ما قبلها.

١٢. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ يسمع كل مسموع، ويعلم كل معلوم، فلا يخفى عليه شيء مما يشتمل عليه الملوان.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بين تعالى في الآيات السابقة أصول الدين وما يدل عليها، وشبهات الكفار على الرسالة مع ما يدحضها، وهدى رسوله إلى سنته في الرسل وأقوامهم لتسليته وتثبيت قلبه، المعين له على المضي في تبليغ

(١) تفسير المنار: ٧/ ٢٧١.

دعوة ربه، ثم قفى سبحانه على ذلك بتلقينه في هذه الآيات أسلوبا آخر من إقامة الحجج على قومه، وهو أسلوب السؤال والجواب، في موضع فصل الخطاب، وإن كان تكرارا لمعنى سبق أو اشتمل على التكرار، وحكمة ذلك أن التنويع في الاحتجاج والتفنن في أساليبه من ضروريات الدعوة إلى الدين - وإلى غير الدين من المقاصد البشرية أيضا - لأن التزام دليل واحد على المطلوب الذي لا بد من تكرار ذكره أو إيراد عدة أدلة بأسلوب واحد قد يفضي إلى سآمة الداعي من التكرار على رغبته في الدعوة وتفانيه في نشرها وإثباتها، فكيف يكون تأثيره في المدعوين الكارهين له ولها، إذا لم يعقلوا الدليل الأول أو لم تتوجه قلوبهم إلى تدبر الأسلوب الواحد المشتمل على عدة أدلة؟ لا جرم أنهم يكونون في منتهى السآمة والضجر من سماع ذلك، وفي غاية النفور منه، كيف وقد كان المعاندون منهم ينهون عن هذا القرآن وينأون عنه على ما امتاز به في مقام التفنن والتنويع، والبلاغة المعجزة في كثرة الأساليب.

٢. ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي قل أيها الرسول لقومك الجاحدين لرسالتك المعرضين عما جئتهم به من أمر التوحيد والبعث والجزاء: لمن هذه المخلوقات في العالم كله علويه وسفليه؟

أ. السؤال تمهيد لحجة جديدة، وقد بينا في تفسير الآيات السابقة أن العرب كانت تؤمن بأن الله تعالى هو خالق السماوات والأرض وأن كل ما فيهما ومن فيهما ملك وعبيد له، ولفظ (ما) يشمل العقلاء مع غيرهم،

ب. وجزم في الكشاف بأن السؤال للتبكيت وأن قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ﴾ تقرير لهم، أي هو لله لا خلاف بيني وبينكم في ذلك ولا تقدرون أن تضيفوا شيئا منه إلى غيره.

ج. وقال غيره: تقرير للجواب نيابة عنهم أو إلجاء لهم إلى الإقرار.

د. وقال الرازي أمره بالسؤال أولا ثم بالجواب ثانيا، وهذا إنما يحسن في الموضع الذي يكون الجواب فيه قد بلغ في الظهور إلى حيث لا يقدر على إنكاره منكر، ولا يقدر على دفعه دافع، ثم بين أن هذا من هذا، واحتج على أن كل ذلك لله بما في العالم المادي من آثار الحدوث والإمكان، على طريقة المتكلمين في الاستدلال.

هـ. ونقول: إن إتيان السائل بالجواب يحسن في غير الموضع الذي حصر الرازي الحسن فيه، وهو أن يكون ما يأتي به عين ما يعتقده المسؤول وما يجيب به إن أجاب، وإنما يسبقه إليه ليبني عليه شيئا آخر من

لوازمه هو مما يجهله المسؤول أو يغفل عنه أو ينكره لجهله أو غفلته عن كونه لازما لما يعرفه ويعتقده، ليس المسؤول عنه هنا مما لا يقدر على إنكاره منكر ولا على دفعه دافع، فقد أنكره أهل الإلحاد والتعطيل.

٣. فالظاهر أن يقال إن الله تعالى أمره بالجواب وأن يبدأه بما كانوا يجيبون به كما علم من آيات أخرى ليبني عليه قوله: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، والمعنى أن الله تعالى الذي تقرون معي بأن له ما في السماوات وما في الأرض قد أوجب على ذاته العلية الرحمة بخلقه كما يعلم ذلك من إفاضة نعمه عليهم ظاهرة وباطنة، ومن مقتضى هذه الرحمة أن يجمعكم إلى يوم القيامة حال كونه لا ريب فيه ـ أو جمعا لا ريب فيه ـ أي ليس من شأنه أن يرتاب فيه من تدبر دلائل رحمة الله وحكمته، فإن هذا الجمع لأجل الحساب والجزاء فهو رحمة بالمكلفين ينافي الفوضى والإهمال واستباحة الظلم، والعلم به رحمة أيضا، لأنه وازع نفسي لا يتم تهذيب النفس بدونه، بل الرحمة أعم من ذلك، فمن رحمته تعالى بالناس ما منحهم من هدايات الحواس والوجدان والعقل وهداية الدين المقوم لما يجنونه على تلك الهدايات باستعمالها فيما يضرهم ولا ينفعهم، والمساعدة لهم على تكميل فطرتهم وتزكية أنفسهم.

٤. بيان ذلك أن من أصول دينه القويم ـ الذي هو مظهر رحمته العليا الموافق لفطرته التي فطر الناس عليها ـ أن لأعمال البشر جزاء فطريا هو أثر لازم للعمل بحسب سنته تعالى في تأثير الأعمال النفسية والبدنية في إصلاح الأنفس أو إفسادها، وجزاءا آخر وضعيا أو شرعيا تابعا له هو إنشاء فضل أو عدل منه عز وجل:

أ. فالأول، وهو الأصل ـ ما يترتب على تزكية النفس بالعقائد الصحيحة والعلوم الثابتة والأخلاق الكريمة التي تطبعها فيها عبادة الله تعالى وحسن المعاملة مع خلقه من هناء المعيشة في الدنيا بالجمع بين لذة الحياء العقلية والروحية ولذة الحياة الجسدية المعتدلة وهو أدنى الجزاءين وأقلهما وغير المطرد منهما ـ وما يترتب على ذلك من النعيم المقيم في الآخرة ـ وهو الكامل المطرد ـ وما يترتب على تدسية النفس وإفساد فطرتها بالعقائد الباطلة كخرافات الوثنية وأوهامها أو بسفساف الأخلاق والملكات الرديئة التي تطبعها فيها تلك الأوهام السخيفة والأعمال القبيحة والعبادات الوثنية من شقاء المعيشة في الدنيا وعذاب الآخرة وكل منهما من لوازم تلك العقائد والأخلاق والأعمال، فهي كالأعمال الضارة والوساوس العصبية (الهستيرية) التي تترتب عليها الأمراض المعضلة والأدواء القاتلة، كما أن ما تقدم من مقابلها يشبه الأعمال

البدنية والنفسية التي يرتاض بها البدن والعقل حتى يبلغ بهما المرء من الصحة والاعتدال، ما هو مقدر له من الكمال، فعلى هذا تكون هداية الدين للعقائد الصحيحة والفضائل والآداب والعبادات وزجره عن الوثنية والخرافات والرذائل والشرور ـ كل ذلك كبث الوصايا الصحية والعلوم الطبية في الناس، ليكون لهم وازع من أنفسهم يتقون به ما يضرهم ويقبلون على ما ينفعهم ـ وتلك رحمة عظيمة بهم، ولا ينافي كون ذلك من الرحمة ما يترتب على الباطل والشر من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة، لأنه جناية منهم على أنفسهم، فمثلهم فيه كمثل المريض يخالف أوامر الطبيب ونواهيه الخاصة ويخالف الوصايا الصحية العامة فيزداد أمراضا وأسقاما، ولا ينافي ذلك كون تلك الوصايا رحمة بالناس ونعمة عليهم.

ب. وأما الجزاء الثاني الذي هو إنشاء من مقتضى الفضل أو العدل فهو مترتب على الجزاء الأول وتابع له وهو قسمان:

- أحدهما: ما يزيد الله المحسنين من الكرامة والنعيم بفضله، على ما استحقوه بإيمانهم وأعمالهم الصالحة بحسب وعده، ولما كانت الرحمة أعم وأوسع وأعظم كان هذا النوع من الجزاء خاصا بالمحسنين من عباده، فهو رحمة خاصة نسأله تعالى أن يجعلنا من خيار أهلها.

- ثانيهما: القصاص في الحقوق وإن قلت وما يقتص به تعالى في الآخرة للمظلومين من الظالمين بحسب عدله، ولما كان مقتضى الرحمة والفضل، أعم وأسبق من مقتضى العدل، كان جزاء الظالمين المسيئين على قدر استحقاقهم، ومنهم من يعفو الله عنهم، فالجزاء على الإساءة قد ينقص منه بالعفو والمغفرة، ولكن لا يزاد فيه شيء قط، وإنما الزيادة في الجزاء على الإحسان: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إلا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٧٣] وبيان الدين لهذا النوع من الجزاء رحمة أيضا فهو كبيان الحكومة العادلة للأمة ما تؤاخذ عليه من الأعمال الضارة، وما ينال المحسنين من الأمن والعز والترقي في خدمة الدولة، روى الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (إن الله لما خلق الخلق كتب كتابا عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي) وفي رواية (إن رحمتي سبقت غضبي) وإنما السبق والغلب في أثري الرحمة والغضب وتعلقهما لا في الصفات أنفسها، وسنزيد هذا البحث بيانا في تفسير ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ

﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] من سورة الأعراف إن أحيانا الله تعالى.

٥. أما تعلق جميع الناس إلى يوم القيامة بكتابة الرحمة من جهة نظم الكلام وإعرابه فقيل إن كتابة الرحمة تأكيد لها في معنى القسم وجملة ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ جواب لقسم محذوف حل محله ما في معناه، وقيل إن الجملة استئناف بياني، كأنه قيل وما مقتضى هذه الرحمة، وما موقعها من موضوع دعوة الرسالة؟ فقيل إنه تعالى أقسم ليجمعنكم، إذ لو لم يجمعكم للحساب والجزاء لظل كثير من المحسنين منكم مغبونين محرومين، وكثير من المظلومين مهضومين، وكثير من الظالمين المسيئين غير مؤاخذين، ذلك بأن ما يترتب على الأعمال الحسنة في الدنيا من حسن الأثر وعلى الأعمال السيئة من قبح الأثر ليس عاما مطردا في جميع الأفراد كما تقدم آنفا وهو يعلم من الاختيار ومن سنن الله الاجتماعية والكونية، وذلك ينافي الرحمة، كما ينافي العدل والحكمة، فمن مقتضى كتابته سبحانه الرحمة على نفسه أن يجمع الناس للفصل بينهم وجزاء كل منهم بما يقتضيه العدل في الكل والفضل في البعض، والجمع بمعنى الحشر ويتعديان بإلى، يقال: جمعهم إليه وحشرهم إليه، وجمع الناس إلى يوم القيامة معناه حشرهم إلى موقفه أو حسابه، أو معناه ليجمعنكم منتهين إلى ذلك اليوم، وقيل إن (إلى) صلة وقيل إنها بمعنى في، وكلاهما ضعيف.

٦. وأما قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فمعناه:

أ. أخص هؤلاء ممن يجمعون إلى يوم القيامة بالذكر أو التذكير أو بالذم والتوبيخ فإنهم لخسرانهم أنفسهم في الدنيا لا يؤمنون بالآخرة، ولا شك في أن هؤلاء أولى بأن يتمتعوا بالتذكير، أو بالذم المفضي إلى التفكير.

ب. وقيل إن المعنى ليجمعنكم إلى يوم القيامة أنتم أيها الذين خسروا أنفسهم الخ خاطبهم كافة ثم أبدل من الكل بعضه الأجدر بالخطاب الأحوج إليه ـ أو وصف أولئك المخاطبين بهذا الوصل الدال على أنه هو مناط الإنذار والوعيد، وقيل إن الجملة مستقلة معناها أن الذين خسروا أنفسهم لا يؤمنون بهذا الجمع ولا ينتفعون بخبره.

٧. الأول أقوى وأظهر، وخسارة الأنفس عبارة عن إفساد فطرتها وعدم اهتدائها بما منحها الله تعالى من الهدايات التي أشرنا إليه آنفا، فالمقلدون قد خسروا أنفسهم لأنهم حرموا أنفسهم من استعمال أشرف النعم الغريزية وهو العقل، وحرموا على أنفسهم أفضل الفضائل الكسبية وهو العلم والفهم.

٨. وإذا كان بعض الأئمة قد صرح بأن المجتهد المخطئ أفضل من المقلد لمجتهد مصيب، فكيف يكون حال المقلد في الشرك والكفر والعياذ بالله تعالى، والحرمان من مضاء العزيمة وقوة الإرادة خسران للنفس يضاهي خسرانها بفقد العلم الاستدلالي، فإن ضعيف الإرادة إن أوتي حظا من العلم لا يقوم بحقه ولا يعمل به كما يجب، لأن ما يهدي إليه العلم الصحيح من وجوب نصر الحق وخذل الباطل ومجاهدة الأهواء الرديئة وعمل الخير والتعاون على البر ـ كل ذلك لا يخلو من مشقة لا يحملها إلا ذو العزيمة الصادقة، والإرادة الثابتة.

٩. فمن خسر نفسه بالتقليد لا ينظر ولا يستدل حتى يهتدي إلى الإيمان ومن خسر نفسه بوهن الإرادة قلما ينظر ويستدل أيضا، فإن هو نظر وظهر له الحق بما قام من البرهان عليه قعد به ضعف الإرادة عن احتمال لوم اللائمين، واحتقار الأهل والمعاشرين، لمن ترك دين آبائه وأجداده، وصبا إلى حزب أعدائهم وأعدائه، هذا ما يقال في مثل حال المشركين في عهد نزول هذه السورة، وإن ضعف الإرادة ليصد صاحبه في كل زمان ومكان عن الواجبات وسائر الأعمال التي لا بد فيها من احتمال مشقة بدنية أو نفسية وإن كانت من أعمال الإيمان ومصالح الأمة والوطن، ولو بحثت عن خسران الأفراد المعلمين الذين يعرفون الحقوق والواجبات لكرامة أنفسهم، وخسران الجماعات والأمم التي تولي زعامتها أمثال هؤلاء الأفراد لاستقلالها وصلاح أمرها ـ لرأيت سبب هذا وذاك وهن العزيمة وذبذبة الإرادة، فالفوز والفلاح في الدين والدنيا لا يتم إلا بالعلم الصحيح والعزيمة الحافزة إلى العمل بالعلم، فمن خسر إحدى الفضيلتين يصدق عليه أنه خسر نفسه سواء كان فردا أو أمة، فما بال من خسرهما كلتيهما والعياذ بالله تعالى.

١٠. وقد لمح الزمخشري إلى خسران النفس في الآخرة فأورد على الآية إشكالا وأجاب عنه على طريقة المتكلمين جوابا في غير محله، قال: (فإن قلت) كيف جعل عدم إيمانهم مسببا عن خسرانهم والأمر على العكس؟ (قلت) معناه الذين خسروا أنفسهم في علم الله لاختيارهم الكفر فهم لا يؤمنون.

١١. ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ الظاهر المختار أن هذا عطف على ما قبله، أي لله ما في السماوات وما في الأرض، وله ما سكن في الليل والنهار، واستظهر أبو حيان أنه استئناف أخبار غير مندرج تحت السؤال والجواب، وسكن من السكنى، أو من السكون ضد الحركة، وفيه اكتفاء بما ذكر عما يقابله، أي له ما سكن وما تحرك، على حد قوله: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] أي

والبرد، ويجوز الجمع بين المعنيين على مذهب من يجوز ذلك في المشترك بما يحتمله المقام، والحكمة في ذكر هذا الملك الخاص على دخوله في عموم ما في السماوات والأرض: التذكير بتصرفه تعالى بهذه الخفايا فإن السكنى والسكون من دواعي خفاء الساكن، فإذا كان في الليل كان أشد خفاء، ولذلك قدم ذكر الليل، لأن ما يسكن فيه هو المقصود بالذات وعطف النهار عليه تكميل.

١٢. ولما ذكرنا تعالى بأنه المالك لما ذكر المتصرف فيه بقدرته بما يشاء كما هو شأن الربوبية الكاملة ـ ذكرنا بأنه هو السميع العليم أي المحيط سمعه بكل ما من شأنه أن يسمع مهما يكن خفيا عن غيره، فهو يسمع دبيب النملة في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، (وكل سميع غيره يصم عن لطيف الأصوات ويصمه كبيرها ويذهب عنه ما بعد منها) كما قال أمير المؤمنين على المرتضى كرم الله وجهه، وهو المحيط علمه بكل شيء ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩] وإذا كان كذلك فلا يمكن أن تدق عن سمعه دعوة داع، أو تغرب عن علمه حاجة محتاج، حتى يخبره بها الأولياء، أو يقنعه بها الشفعاء، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]

١٣. بعد كتابة ما تقدم راجعت التفسير الكبير فإذا فيه من نكت البلاغة في الآية ما نقله الرازي عن أبي مسلم الأصفهاني وقال إنه أحسن ما قيل في نظمها وهو: ذكر في الآية الأولى السماوات والأرض إذ لا مكان سواهما، وفي هذه الآية ذكر الليل والنهار إذ لا زمان سواهما، فالزمان والمكان ظرفان للمحدثات، فأخبر سبحانه أنه مالك للمكان والمكانيات، والزمان والزمانيات، (قال الرازي) وهذا بيان في غاية الجلالة، وأقول: ههنا دقيقة أخرى وهو أن الابتداء وقع بذكر المكان والمكانيات، ثم ذكر عقبيه الزمان والزمانيات، وذلك لأن المكان والمكانيات، أقرب إلى العقول والأفكار من الزمان والزمانيات، لدقائق مذكورة في العقليات الصرفة، والتعليم الكامل هو الذي يبدأ فيه بالأظهر فالأظهر مترقيا إلى الأخفى فالأخفى.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

---

(١) تفسير المراغي ٧/ ٨٤.

١ . ذكر سبحانه في الآية السابقة أصول الدين الثلاثة: التوحيد والبعث والجزاء ورسالة محمد ﷺ، ثم ذكر شبهات الكافرين على الرسالة وبين ما يدحضها، ثم أرشد إلى سننه تعالى في أقوام الرسل المكذبين، وأن عاقبتهم الهلاك والاستئصال والخزي والنكال، تسلية لرسوله ﷺ وتثبيتا لقلبه وإعانة له على المضيّ في تبليغ رسالته، ثم ذكر هنا هذه الأصول الثلاثة بأسلوب آخر: أسلوب السؤال والجواب، بهرهم فيه بالحجة، ودلهم على واضح المحجة، تفنّنا في الحجاج في المواضع الهامة، فإن الأدلة إذا تضافرت على مطلوب واحد كان لها في النفس قبول أيّما قبول، وكذلك أساليب الحجاج إذا تنوعت دفعت عن السامع السأم وجعلته ينشط لسماع ما يلقى إليه، فهو إذا لم يعقل الدليل الأول أو عمى عليه أسلوبه رأى في الدليل الثاني ما ينير له طريق المطلوب أو رأى في الأسلوب الثاني ما يكفيه مئونة البحث في الدليل الأول فهو في غنى بما يكون أمامه عن أن يبحث عن فائت أو يلجأ إلى غائب، ومن ثم نرى الخطباء المفلقين والعلماء المبرّزين ينوّعون أساليب حجاجهم ويكثرون البرهانات على المطلوب الواحد، ليكون ذلك أدعى إلى الإقناع وأقرب إلى الاقتناع.

٢ . ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي قل أيها الرسول لقومك الجاحدين لرسالتك المعرّضين عن دعوتك: لمن هذه المخلوقات علويّها وسفليّها؟ وقد كانت العرب تؤمن بأن الله خالق السموات والأرض وأن كل ما فيهما ملك وعبيد له، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾، والمقصود من السؤال التبكيت والتوبيخ.

٣ . ﴿قُلْ للهِ﴾ هذا تقرير للجواب نيابة عنهم، أو إلجاء لهم إلى الإقرار بأن الكل له سبحانه ولا خلاف بيني وبينكم في ذلك ولا تقدرون أن تضيفوا شيئا آخر إليه، وإتيان السائل بالجواب يحسن إذا كان ما يأتي به هو عين ما يعتقده المسئول وما يجيب به إن أجاب، وإنما يسبقه إليه ليبني عليه شيئا من لوازمه مما يجهله المسئول أو يغفل عنه أو ينكره لجهله أو غفلته عن كونه لازما لما يعرفه ويعتقده.

٤ . ثم ذكر من صفاته ما يرغب في طاعته فقال: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي إن الله الذي تقرون معي بأنه مالك السموات والأرض قد أوجب على ذاته العلية الرحمة بخلقه، إذ أفاض عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، ومن مقتضى هذه الرحمة أن يجمعكم إلى يوم القيامة، ذلك اليوم الذي لا شك في مجيئه لوضوح أدلته وسطوع براهينه، للحساب والجزاء على الأعمال، إذ أنه وازع

نفسى لا يتم تهذيب النفوس إلا به فهو يمنع الظلم وهضم الحقوق وإيذاء الناس وارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن، خوفا من هول ذلك اليوم الذي تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها.

٥. ولما كان مقتضى الرحمة والفضل أعم وأسبق من مقتضى العدل كان جزاء الظالمين المسيئين على قدر استحقاقهم، ومنهم من يعفو الله عنه، فالجزاء على الإساءة قد ينقص منه بالعفو والمغفرة ولا يزاد فيه، وإنما الزيادة في الجزاء على الإحسان: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إلا مِثْلَهَا﴾

٦. وبيان الدين لهذا النوع من الجزاء رحمة أيضا، فما مثله إلى مثل الحكومة العادلة تبيّن للأمة ما تؤاخذ عليه من الأعمال الضارة وما تكافئ به من يصدق في خدمتها ويرقى إلى سماء العزة والكرامة.

٧. روى الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (إن الله لما خلق الخلق كتب كتابا عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي) والمراد بالسبق هنا كثرة الرحمة وشمولها كما يقال غلب على فلان الكرم والشجاعة إذا كثرا منه.

٨. والخلاصة - إنه لما قال كتب على نفسه الرحمة، فكأنه قيل وما تلك الرحمة؟ فقيل ليجمعنكم إلى يوم القيامة، ذلك أنه لولا خوف العذاب يوم القيامة لحصل الفساد في الأرض واختلّت نظم الاجتماع وأكل القوى الضعيف ولا وازع ولا زاجر، فصار التهديد بهذا اليوم من أسباب الرحمة.

٩. ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خسارة الأنفس إفساد فطرتها وعدم اهتدائها بما منحها الله من أنواع الهدايات، فالمقلدون خسروا أنفسهم لأنهم حرموها استعمال نعمتي العقل والعلم، أي أخصّ هؤلاء الذين خسروا أنفسهم بالتذكير والذم والتوبيخ بين من يجمعون إلى يوم القيامة، إذ هم لخسرانهم أنفسهم في الدنيا لا يؤمنون بالآخرة، فهم قلما ينظرون ويستدلون، وإن هم فعلوا قعد بهم ضعف الإرادة عن احتمال لوم اللائمين واحتقار الأهل والمعاشرين.

١٠. والخلاصة - إن الفوز والفلاح في الدين والدنيا لا يتم إلا بالعلم الصحيح والعزيمة الحافزة إلى العمل بالعلم، فمن خسر إحدى الفضيلتين فقد خسر نفسه، فردا كان أو أمة، فما بال من خسرهما معا.

١١. ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي لله ما في السموات وما في الأرض،

وله ما سكن في الليل والنهار، وخص هذا بالذكر وإن كان داخلا في عموم ما في السموات والأرض، تنبيها إلى تصرفه تعالى بهذه الخفايا ولا سيما إذا جنّ الليل وهدأ الخلق.

١٢. وبعد أن ذكر سبحانه تصرفه في الخلق دقيقه وجليله كما يشاء كما هو شأن الربوبية الكاملة، ذكر أنه هو السميع العليم أي المحيط سمعه بكل ما من شأنه أن يسمع مهما يكن خفيا عن غيره، فهو يسمع دبيب النملة في الليلة الظلماء، والمحيط علمه بكل شيء ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾، والخلاصة ـ إنه تعالى لا تدق عن سمعه دعوة داع، أو تعزب عن علمه حاجة محتاج، حتى يخبره بها الأولياء، أو يقنعه بها الشفعاء.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. هذه الموجة الجديدة ذات المد العالي والإيقاع الرهيب، تجيء في أعقاب الحديث عن التكذيب والإعراض والسخرية والاستهزاء؛ وما ختم به هذا الحديث وما تخلله من التهديد المخيف؛ مع توجيه الأنظار والقلوب إلى الاعتبار بمصارع المكذبين المستهزئين.. كما أنها تجيء بعد موجة الافتتاح السابقة للحديث عن المكذبين؛ والتي عرضت حقيقة الألوهية في المجال الكوني العريض؛ وفي المجال الإنساني العميق، وهي كذلك تعرض حقيقة الألوهية في مجالات أخرى، بإيقاعات جديدة؛ ومع مؤثرات كذلك جديدة.. فيقع الحديث عن التكذيب بين موجة الافتتاح وهذه الموجة؛ ويبدو أمره في غاية النكارة وفي غاية البشاعة!

٢. ولقد عرضت الموجة الأولى: حقيقة الألوهية ممثلة في خلق السماوات والأرض، وجعل الظلمات والنور، وخلق الإنسان من طين، وقضاء الأجل الأول لعمره، وتسمية الأجل الثاني لبعثه، مقررة شمول ألوهية الله للسماوات وللأرض، وإحاطة علمه بسر الناس وجهرهم وما يكسبونه في السر والجهر.. كل أولئك لا لمجرد التقرير اللاهوتي أو الفلسفي النظري السلبي، ولكن لتقرير مقتضيات هذه الحقائق في الحياة الإنسانية، من إسلامها بجملتها لله وحده، لا تعدل به أحدا، ولا تمتري في هذه الوحدانية، ومن

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/ ١٠٤٨.

إقرارها بشمول الألوهية لشئون الكون ولشئون الحياة الإنسانية في السر والجهر، ومن ترتيب النتائج الطبيعية لهذه الحقائق في الاستسلام لحاكمية الله وحده في شئون الحياة الأرضية كالاستسلام لهذه الحاكمية في الشئون الكونية..

٣. فأما هذه الموجة الجديدة فتستهدف كذلك إبراز حقيقة الألوهية، ممثلة في الملك والفاعلية، وفي الرزق والكفالة؛ وفي القدرة والقهر؛ وفي النفع والضر.. كل ذلك لا لمجرد التقرير اللاهوتي أو الفلسفي النظري السلبي.. ولكن لتقرير مقتضيات هذه الحقائق من توحيد الولاية والتوجه؛ وتوحيد الاستسلام والعبودية.. واعتبار الولاية والتوجه مظهر الاستسلام والعبودية، فإذا أمر رسول الله ﷺ أن يستنكر أن يتخذ غير الله وليا؛ بين أن هذا الاستنكار قائم أولا على أن الله يطعم ولا يطعم؛ وقائم ثانيا على أن تولي غير الله نقض لما أمر به من الإسلام وعدم الشرك أيضا.

٤. ويصاحب عرض حقيقة الألوهية، في هذه الصورة ولهذا الغرض، جملة مؤثرات قوية تخلخل القلوب، تبدأ بعرض حقيقة الملكية لكل شيء وحقيقة أن الله هو الذي يطعم ولا يطعم، وعرض العذاب الرعيب الذي يعد مجرد صرفه رحمة من الله وفوزا عظيما، وعرض القدرة على الضر والخير، وعرض الاستعلاء والقهر، وعرض الحكمة والخبرة.. ثم الإيقاع الرهيب المزلزل، المتمثل في الأمر العلوي الهائل: قل، قل، قل.

٥. فإذا تم هذا العرض بكل مؤثراته العميقة، جاء الختام بالإيقاع العالي المجلجل.. إيقاع الإشهاد على التوحيد، وإنكار الشرك، والمفاصلة الحاسمة؛ مصحوبا كذلك بالأمر العلوي في كل فاصلة: ﴿قُلْ أيّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾، ﴿قُلِ اللهُ﴾، ﴿قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾، ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾.. مما يضفي على الجو كله رهبة غامرة؛ ويضفي على الأمر كله طابع جد مرهوب!

٦. ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ للهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ إنه موقف المواجهة للبيان والتقرير، ثم المفاصلة.. ومن ثم يبدأ بتوجيه الرسول ﷺ لهذه المواجهة، مواجهة المشركين ـ الذين يعرفون أن الله هو الخالق ثم يعدلون به من لا يخلق؛ فيجعلون له شركاء مع الله في تصريف حياتهم ـ مواجهتهم بالسؤال عن الملكية ـ بعد الخلق ـ لكل ما في السماوات والأرض، مستقصيا بهذا السؤال

حدود الملكية في المكان: ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، مع تقرير الحقيقة التي لم يكونوا هم يجادلون فيها؛ والتي حكى القرآن في مواضع أخرى إقرارهم الكامل بها: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ للهِ﴾

٧. ولقد كان العرب في جاهليتهم ـ على كل ما في هذه الجاهلية من ضلال في التصور ينشأ عنه انحطاط في الحياة ـ أرقى ـ في هذا الجانب ـ من الجاهلية (العلمية) الحديثة، التي لا تعرف هذه الحقيقة، والتي تغلق فطرتها وتعطلها دون رؤية هذه الحقيقة! كانوا يعرفون ويقررون أن لله ما في السماوات والأرض، ولكنهم ما كانوا يرتبون على هذه الحقيقة نتائجها المنطقية؛ بإفراد الله سبحانه بالحاكمية فيما يملك، وعدم التصرف فيه إلا بإذن الله وحده وشرعه.. وبهذا اعتبروا مشركين، وسميت حياتهم بالجاهلية! فكيف بمن يخرجون الحاكمية في أمرهم كله من اختصاص الله سبحانه؛ ويزاولونها هم بأنفسهم!؟ بما ذا يوصفون وبما ذا توصف حياتهم؟ لا بد من إعطائهم صفة أخرى غير الشرك.. فهو الكفر والظلم والفسق كما يقرر الله سبحانه.. أيا كانت دعواهم في الإسلام وأيا كانت الصفة التي تعطيها لهم شهادات الميلاد!

٨. ونعود إلى الآية، لنجد السياق يلحق بهذا التقرير لملكية الله سبحانه لما في السماوات وما في الأرض، أنه ـ سبحانه: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾، فهو سبحانه المالك، لا ينازعه منازع، ولكنه ـ فضلا منه ومنة ـ كتب على نفسه الرحمة، كتبها بإرادته ومشيئته؛ لا يوجبها عليه موجب؛ ولا يقترحها عليه مقترح؛ ولا يقتضيها منه مقتض ـ إلا إرادته الطليقة وإلا ربوبيته الكريمة ـ وهي ـ الرحمة ـ قاعدة قضائه في خلقه، وقاعدة معاملته لهم في الدنيا والآخرة.

٩. والاعتقاد إذن بهذه القاعدة يدخل في مقوّمات التصور الإسلامي، فرحمة الله بعباده هي الأصل، حتى في ابتلائه لهم أحيانا بالضراء، فهو يبتليهم ليعد طائفة منهم بهذا الابتلاء لحمل أمانته، بعد الخلوص والتجرد والمعرفة والوعي والاستعداد والتهيؤ عن طريق هذا الابتلاء؛ وليميز الخبيث من الطيب في الصف، وليعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه؛ وليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة.. والرحمة في هذا كله ظاهرة.

١٠. على أن تلمس مواضع رحمة الله ومظاهرها يستغرق الأعمار والأجيال، فما من لحظة إلا وتغمر العباد فيها الرحمة.. إنما ذكرنا الرحمة في الابتلاء بالضراء، لأن هذه هي التي قد تزيغ فيها القلوب والأبصار!

ولن نحاول نحن أن نتقصى مواضع الرحمة الإلهية أو مظاهرها - وإن كنا سنشير إشارة مجملة إلى شيء من ذلك فيما يلي - ولكننا سنحاول أن نقف قليلا أمام هذا النص القرآني العجيب: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾، وقد تكرر وروده في السورة في موضع آخر سيأتي: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾

١١. إن الذي يستوقف النظر في هذا النص هو ذلك التفضل الذي أشرنا من قبل إليه.. تفضل الخالق المالك ذي السلطان القاهر فوق عباده.. تفضله سبحانه بأن يجعل رحمته بعباده في هذه الصورة.. مكتوبة عليه.. كتبها هو على نفسه؛ وجعلها عهدا منه لعباده.. بمحض إرادته ومطلق مشيئته.. وهي حقيقة هائلة لا يثبت الكيان البشري لتمليها وتأملها وتذوق وقعها؛ حين يقف لتدبرها في هذه الصورة العجيبة.. كذلك يستوقف النظر مرة أخرى ذلك التفضل الآخر الذي يتجلى في إخباره لعباده بما كتبه سبحانه على نفسه من رحمته، فإن العناية بإبلاغهم هذه الحقيقة هي تفضل آخر، لا يقل عن ذلك التفضل الأول! فمن هم العباد حتى تبلغ العناية بهم أن يبلغوا ما جرت به إرادة الله في الملأ الأعلى؟ وأن يبلغوا بكلمات منه سبحانه يحملها إليهم رسوله؟ من هم؟ إلا أنه الفضل العميم، الفائض من خلق الله الكريم!؟

١٢. إن تدبر هذه الحقيقة على هذا النحو ليدع القلب في عجب وفي دهش؛ كما يدعه في أنس وفي روح لا تبلغ الكلمات أن تصور جوانبه وحواشيه! ومثل هذه الحقائق، وما تثيره في القلب من مشاعر؛ ليس موكولا إلى التعبير البشري ليبلغ شيئا في تصويره؛ وإن كان القلب البشري مهيا لتذوقه، لا لتعريفه! وتمثل هذه الحقيقة في التصور الإسلامي يكوّن جانبا أساسيا من تصور حقيقة الألوهية، وعلاقة العباد بها.. وهو تصوّر جميل مطمئن ودود لطيف، يعجب الإنسان معه لمناكيد الخلق الذين يتقولون على التصور الإسلامي في هذا الجانب، لأنه لا يقول ببنوة أحد من عباد الله لله! - على نحو ما تقول التصورات الكنسية المحرفة - فالتصور الإسلامي إذ يرتفع على هذه التصورات الصبيانية الطفولية، يبلغ في الوقت ذاته من تصوير العلاقة الرحيمة بين الله وعباده هذا المستوي الذي يعجز التعبير البشري عن وصفه، والذي يترع القلب بحلاوة مذاقه، كما يروعه بجلال إيقاعه..

١٣. ورحمة الله تفيض على عباده جميعا؛ وتسعهم جميعا؛ وبها يقوم وجودهم، وتقوم حياتهم، وهي تتجلى في كل لحظة من لحظات الوجود أو لحظات الحياة للكائنات، فأما في حياة البشر خاصة فلا نملك أن نتابعها في كل مواضعها ومظاهرها؛ ولكننا نذكر منها لمحات في مجاليها الكبيرة:

أ. إنها تتجلى ابتداء في وجود البشر ذاته، في نشأتهم من حيث لا يعلمون، وفي إعطائهم هذا الوجود الإنساني الكريم؛ بكل ما فيه من خصائص يتفضل بها الإنسان على كثير من العالمين.

ب. وتتجلى في تسخير ما قدر الله أن يسخره للإنسان، من قوى الكون وطاقاته، وهذا هو الرزق في مضمونه الواسع الشامل، الذي يتقلب الإنسان في بحبوحة منه في كل لحظة من لحظات حياته.

ج. وتتجلى في تعليم الله للإنسان، بإعطائه ابتداء الاستعداد للمعرفة؛ وتقدير التوافق بين استعداداته هذه وإيحاءات الكون ومعطياته.. هذا العلم الذي يتطاول به بعض المناكيد على الله، وهو الذي علمهم إياه! وهو من رزق الله بمعناه الواسع الشامل كذلك.

د. وتتجلى في رعاية الله لهذا الخلق بعد استخلافه في الأرض، بموالاة إرسال الرسل إليه بالهدى، كلما نسي وضل؛ وأخذه بالحلم كلما لج في الضلال؛ ولم يسمع صوت النذير، ولم يصغ للتحذير، وهو على الله هين، ولكن رحمة الله وحدها هي التي تمهله، وحلم الله وحده هو الذي يسعه.

هـ. وتتجلى في تجاوز الله سبحانه عن سيئاته إذا عمل السوء بجهالة ثم تاب، وبكتابة الرحمة على نفسه ممثلة في المغفرة لمن أذنب ثم أناب.

و. وتتجلى في مجازاته عن السيئة بمثلها، ومجازاته على الحسنة بعشر أمثالها، والمضاعفة بعد ذلك لمن يشاء، ومحو السيئة بالحسنة.. وكله من فضل الله، فلا يبلغ أحد أن يدخل الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله برحمته.

١٤. حتى رسول الله ﷺ كما قال عن نفسه، في معرفة كاملة بعجز البشر وفضل الله، والإقصار منا عن متابعة رحمة الله في مظاهرها، وإعلان القصور والعيّ عنها، هو أجدر وأولى، وإلا فما نحن ببالغين من ذلك شيئا! وإن لحظة واحدة يفتح الله فيها أبواب رحمته لقلب العبد المؤمن؛ فيتصل به؛ ويعرفه؛ ويطمئن إليه سبحانه ويأمن في كنفه؛ ويستروح في ظله.. إن لحظة واحدة من هذه اللحظات لتعجز الطاقة البشرية عن تمليها واستجلائها، فضلا على وصفها والتعبير عنها، فلننظر كيف مثل رسول الله ﷺ لهذه الرحمة بما يقرّبها للقلوب شيئا ما: أخرج الشيخان ـ بإسناده عن أبي هريرة ـ قال: (قال رسول الله ﷺ لما قضى الله الخلق ـ وعند مسلم: لما خلق الله الخلق ـ كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي).. وعند البخاري في رواية أخرى: (إن رحمتي غلبت غضبي).، وأخرج الشيخان ـ بإسناده عنه قال: قال

رسول الله ﷺ: (جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءا واحدا، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه).. وأخرج مسلم - بإسناده عن سلمان الفارسي قال قال رسول الله ﷺ -: (إن لله مائة رحمة، فمنها رحمة يتراحم بها الخلق بينهم، وتسعة وتسعون ليوم القيامة).. وله في أخرى: (إن الله تعالى خلق يوم خلق السماوات والأرض مائة رحمة، كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض، فجعل منها في الأرض رحمة واحدة، فيها تعطف الوالدة على ولدها، والوحش والطير بعضها على بعض، فإذا كان يوم القيامة أكملها الله تعالى بهذه الرحمة)

١٥. وهذا التمثيل النبوي الموحي، يقرب للإدراك البشري تصور رحمة الله تعالى.. ذلك إذ ينظر إلى رحمة الأمهات بأطفالها في الخلائق الحية ويتملاها ويعجب لها، وإلى رحمة القلوب البشرية بالطفولة والشيخوخة، والضعف والمرض؛ وبالأقرباء والأوداء والأصحاب؛ وبرحمة الطير والوحش بعضها على بعض - ومنها ما يدعو إلى الدهش والعجب - ثم يرى أن هذا كله من فيض رحمة واحدة من رحمات الله سبحانه.. فهذا مما يقرب إلى إدراكه تصور هذه الرحمة الكبرى شيئا ما!

١٦. وكان رسول الله ﷺ لا يني يعلم أصحابه ويذكرهم بهذه الرحمة الكبرى: عن عمر بن الخطاب قال: قدم على رسول الله ﷺ بسبي، فإذا امرأة من السبي تسعى قد تحلب ثديها، إذ وجدت صبيا في السبي، فأخذته، فألزقته ببطنها فأرضعته، فقال ﷺ: (أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟) قلنا: لا والله وهي تقدر على إلا تطرحه، قال: (فالله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها)، وكيف لا، وهذه المرأة إنما ترحم ولدها، من فيض رحمة واحدة من رحمات الله الواسعة؟

١٧. ومن تعليم رسول الله ﷺ لأصحابه هذه الحقيقة القرآنية، بهذا الأسلوب الموحي، كان ينتقل بهم خطوة أخرى؛ ليتخلقوا بخلق الله هذا في رحمته، ليتراحموا فيما بينهم وليرحموا الأحياء جميعا؛ ولتتذوق قلوبهم مذاق الرحمة وهم يتعاملون بها، كما تذوقتها في معاملة الله لهم بها من قبل، قال رسول الله ﷺ (الراحمون يرحمهم الله تعالى، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء).. (أخرجه أبو داوود والترمذي)، وعن جرير قال قال رسول الله ﷺ: (لا يرحم الله من لا يرحم الناس).. (أخرجه الشيخان والترمذي)، وفي رواية لأبي داوود والترمذي عن أبي هريرة: قال ﷺ: (لا تنزع الرحمة إلا من شقي)، وعن أبي هريرة كذلك، قال: (قبل رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس، فقال الأقرع: إن لي عشرة من

الولد ما قبلت منهم أحدا! فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: (من لا يرحم لا يرحم).. (أخرجه الشيخان)

١٨. ولم يكن ﷺ يقف في تعليمه لأصحابه عند حد الرحمة بالناس، وقد علم أن رحمة ربه وسعت كل شيء وأن المؤمنين مأمورون أن يتخلقوا بأخلاق الله؛ وأن الإنسان لا يبلغ تمام إنسانيته إلا حين يرحم كل حي تخلقا بخلق الله سبحانه، وكان تعليمه لهم بالطريقة الموحية التي عهدناها: عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ (بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئرا، فنزل فيها فشرب، ثم خرج، وإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر، فملأ خفه ماء، ثم أمسكه بفيه حتى رقي، فسقى الكلب، فشكر الله تعالى له فغفر له)، قالوا: يا رسول الله وإن لنا في البهائم لأجرا؟ قال: (في كل كبد رطبة أجر).. (أخرجه مالك والشيخان)، وفي أخرى: إن امرأة بغيا رأت كلبا في يوم حار يطيف ببئر، قد أدلع (أي أخرج) لسانه من العطش فنزعت له موقها (أي خفها) فغفر لها به، وعن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه قال كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فرأينا حمرة (طائر) معها فرخان لها فأخذناهما، فجاءت الحمرة تعرّش (أو تفرش) ـ (أي ترخي جناحيها وتدنو من الأرض) فلما جاء رسول الله ﷺ قال: (من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها)، ورأى قرية نمل قد أحرقناها فقال: من أحرق هذه؟ قلنا: نحن، قال إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار).. (أخرجه أبو داود) وهكذا علم رسول الله ﷺ أصحابه هدى القرآن، ليتذوقوا رحمة الله من خلال مزاولتهم للرحمة.. أليس أنهم إنما يتراحمون برحمة واحدة من رحمات الله الكثيرة!؟

١٩. وبعد فإن استقرار هذه الحقيقة في تصور المسلم لينشئ في حسه وفي حياته وفي خلقه آثارا عميقة؛ يصعب كذلك تقصيها؛ ولا بد من الاكتفاء بالإشارة السريعة إليها، كيلا نخرج من نطاق الظلال القرآنية، إلى قضية مستقلة! إن الشعور بهذه الحقيقة على هذا النحو ليسكب في قلب المؤمن الطمأنينة إلى ربه ـ حتى وهو يمر بفترات الابتلاء بالضراء، التي تزيغ فيها القلوب والأبصار ـ فهو يستيقن أن الرحمة وراء كل لمحة، وكل حالة، وكل وضع؛ وأن ربه لا يعرضه للابتلاء لأنه تخلى عنه، أو طرده من رحمته، فإن الله لا يطرد من رحمته أحدا يرجوها، إنما يطرد الناس أنفسهم من هذه الرحمة حين يكفرون بالله ويرفضون رحمته ويبعدون عنها! وهذه الطمأنينة إلى رحمة الله تملأ القلب بالثبات والصبر، وبالرجاء والأمل، وبالهدوء والراحة.. فهو في كنف ودود، يستروح ظلاله، ما دام لا يبعد عنه في الشرود! والشعور بهذه الحقيقة على

هذا النحو يستجيش في حس المؤمن الحياء من الله، فإن الطمع في المغفرة والرحمة لا يجرّئ على المعصية ـ كما يتوهم البعض ـ إنما يستجيش الحياء من الله الغفور الرحيم، والقلب الذي تجرئه الرحمة على المعصية هو قلب لم يتذوق حلاوة الإيمان الحقيقة! لذلك لا أستطيع أن أفهم أو أسلم ما يجري على ألسنة بعض المتصوفة من أنهم يلجون في الذنب ليتذوقوا حلاوة الحلم، أو المغفرة، أو الرحمة.. إن هذا ليس منطق الفطرة السوية في مقابلة الرحمة الإلهية! كذلك فإن الشعور بهذه الحقيقة على هذا النحو يؤثر تأثيرا قويا في خلق المؤمن، وهو يعلم أنه مأمور أن يتخلق بأخلاق الله سبحانه وهو يرى نفسه مغمورا برحمة الله مع تقصيره وذنبه وخطئه ـ فيعلمه ذلك كله كيف يرحم، وكيف يعفو، وكيف يغفر.. كما رأينا في تعليم الرسول ﷺ لأصحابه؛ مستمدا تعليمه لهم من هذه الحقيقة الكبيرة..

٢٠. ومن مواضع رحمة الله التي تقررها الآية الكريمة: أن الله كتب ليجمعنهم إلى يوم القيامة: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لله كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، فمن هذه الرحمة المكتوبة، ذلك الجمع الذي لا ريب فيه.. ذلك الجمع الذي يشي بما وراءه من عناية الله سبحانه بعباده من الناس؛ فقد خلقهم لأمر؛ واستخلفهم في هذه الأرض لغاية، ولم يخلقهم عبثا، ولم يتركهم سدى، ولكن يجمعهم إلى يوم القيامة ـ فهذا اليوم هو نهاية المطاف الذي يفيئون إليه كما يفيء الراحل إلى وجهته ـ فيعطيهم جزاء كدحهم إليه، وينقدهم أجر عملهم في دار الدنيا، فلا يضيع عليهم كدح ولا أجر؛ إنما يوفون أجورهم يوم القيامة.. وفي هذه العناية تتجلى الرحمة في مظهر من مظاهرها.. كما أن ما يتجلى من فضل الله في جزاء السيئة بمثلها، والحسنة بعشرة أمثالها، والإضعاف لمن يشاء، والتجاوز عما يشاء لمن يشاء.. كل أولئك من مظاهر الرحمة التي تتجلى في هذا الجمع أيضا.

٢١. ولقد كان العرب في جاهليتهم ـ قبل أن يمن الله عليهم بهذا الدين ويرفعهم إلى مستواه الكريم ـ يكذبون بيوم القيامة ـ شأنهم في هذا شأن أهل الجاهلية (العلمية) الحديثة! لذلك جاء التعبير في هذه الصيغة المؤكدة بشتى التوكيدات، لمواجهة ذلك التكذيب: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾

٢٢. ولن يخسر في هذا اليوم إلا الذين لم يؤمنوا في الدنيا.. وهؤلاء لن يخسروا شيئا ويكسبوا شيئا.. هؤلاء خسروا كل شيء.. فقد خسروا أنفسهم كلها، فلم يعودوا يملكون أن يكسبوا شيئا، أليس أن الإنسان إنما يكسب لنفسه؟ فإذا خسر نفسه ذاتها فماذا يكسب؟ ولمن يكسب!؟ ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ

فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، لقد خسروا أنفسهم وفقدوها؛ فلم تعد لهم نفس تؤمن!.. وهو تعبير دقيق عن حالة واقعة.. إن الذين لا يؤمنون بهذا الدين ـ مع عمق ندائه وإيحائه للفطرة بموجبات الإيمان ودلائله ـ هؤلاء لا بد أن يكونوا قد فقدوا قبل ذلك فطرتهم! لا بد أن تكون أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية في كيانهم معطلة مخربة؛ أو محجوبة مغلفة، فهم في هذه الحالة قد خسروا أنفسهم ذاتها، بفقدانهم أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية الحية في كيانها، ومن ثم فهم لا يؤمنون.. إذ أنهم لم يعودوا يملكون أنفسهم التي بها يؤمنون..

٢٣. وهذا هو التفسير العميق لعدم إيمانهم مع توافر دلائل الإيمان وموحياته من حولهم.. وهذا هو الذي يحدد مصيرهم في ذلك اليوم، وهو الخسارة الكبرى المترتبة على خسارتهم من قبل لنفوسهم!

٢٤. بعد ذلك يمضي السياق يستقصي الخلائق في الزمان ـ كما استقصاها في الآية السابقة في المكان ـ ليقرر تفرد الله سبحانه بملكيتها؛ وعلمه سبحانه وسمعه المحيطين بها: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.. وأقرب تأويل لقوله: (ما سكن) أنه من السكنى ـ كما ذكر الزمخشري في الكشاف ـ وهو بهذا يعني كل ما اتخذ الليل والنهار سكنا؛ فهو يعني جميع الخلائق؛ ويقرر ملكيتها لله وحده، كما قرر من قبل ملكية الخلائق كلها له سبحانه، غير أنه في الآية الأولى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ قد استقصى الخلائق من ناحية المكان، وفي هذه الآية الثانية: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، قد استقصى الخلائق من ناحية الزمان.. ومثله معروف في التعبير القرآني حين يتجه إلى الاستقصاء.. وهذا هو التأويل الذي نطمئن إليه في الآيتين من بين شتى التأويلات.

٢٥. والتعقيب بصفتي السمع والعلم يفيد الإحاطة بهذه الخلائق، وبكل ما يقال عنها كذلك من مقولات المشركين الذين يواجههم هذا النص.. ولقد كانوا مع إقرارهم بوحدانية الخالق المالك، يجعلون لأربابهم المزعومة جزءا من الثمار ومن الأنعام ومن الأولاد ـ كما سيجيء في نهاية السورة ـ فهو يأخذ عليهم الإقرار هنا بملكية كل شيء ليواجههم بها فيما يجعلونه للشركاء بغير إذن من الله، كما أنه يمهد بتقرير هذه الملكية الخالصة لما سيلي في هذه الفقرة من ولاية لله وحده، بما أنه هو المالك المتفرد بملكية كل شيء في كل مكان وفي كل زمان، الذي يحيط سمعه وعلمه بكل شيء وبكل ما يقال عن كل شيء كذلك!

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هو سؤال من الحق جلّ وعلا، على لسان نبيّه الكريم، وهو سؤال وارد على خاطر كل ذي لبّ.. فهذا الوجود بما فيه من عجائب وغرائب، لا يمر عاقل على آية من آياته، إلا وقف عندها، ونظر فيها، واجتهد في التعرف على أسرارها.. ثم سأل نفسه أو سألته نفسه، عن صانعها: من هو؟ وأين هو؟ وكيف هو؟ وما تزال هذه الأسئلة تلحّ عليه حتى ينسب هذا الوجود إلى صانع عظيم قدير، ليس كمثله شيء لا يسأل عنه: بأين؟ ولا كيف؟. إذ هو فوق كل أين، وغير كل كيف..

٢. وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ﴾ هو جواب قاطع، لا جواب غيره، عن هذا السؤال، الذي مطلوب من كل عاقل أن يسأله نفسه، وأن يجيب عليه.. وسيهديه نظره وعقله إلى هذا الجواب الذي أجاب به الحق سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ﴾ ـ فالمالك لهذا الوجود، القائم على كل موجود، هو الله رب العالمين، لا شريك له في سلطانه.

٣. وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي الذي كتب على نفسه الرحمة، ـ وتلك صفة من صفات الله ـ هو الذي له ما في السموات وما في الأرض.. ومعنى كتب على نفسه الرحمة، أي أوجبها سبحانه وتعالى على نفسه، حيث اقتضتها حكمته، واستدعاها فضله.. فالملك الذي بين يدى المالك سبحانه وتعالى، هو من آثار رحمة الله.. تلك الرحمة العامة الشاملة التي تمسّ كل مخلوق، وتنال البرّ والفاجر، والمؤمن والكافر.. ولولا هذه الرحمة لما تنفس الكافر نفسا في هذه الحياة، ولما أمهل في محادّته لله، وعدوانه على رسله، ولكن رحمة الله التي وسعت كل شيء لم يحرم الكافر نصيبه منها، فأفسح الله له في الحياة، ليرجع إليه، ويصلح من أمره ما أفسده، فإذا مضى الكافر على كفره، ثم أخذ بذنبه، كان من رحمة الله أن يؤدب وأن يعاقب، ففي هذا العقاب إصلاح لنفسه التي فسدت، وصقل لمعدنه الذي أكله الصدأ!

٤. وقوله تعالى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ في توكيد الفعل (ليجمعنكم) بالقسم وبنون التوكيد، إشارة إلى أن البعث أمر كتبه الله سبحانه وتعالى على نفسه، كما كتب الرحمة، وأن البعث هو رحمة من رحمة الله، إذ هو إعادة الحياة التي ذهب بها الموت، والحياة نعمة من نعم الله، ورحمة من رحمته..

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/ ١٣٨.

إنها نعمة تستوجب الشكر، والحمد لله رب العالمين: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إليه تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨]، وفي تعدية الفعل (ليجمعنكم) بحرف الجرّ (إلى) إشارة إلى أن الجمع هو استدعاء من جهات شتى، ودعوة قاهرة إلى مكان معلوم، تصبّ فيه وفود المدعوين، وتجتمع إليه.. فمعنى الجمع، هو السّوق، أي ليسوقنكم إلى يوم القيامة، إذ كان يوم القيامة هو موعد اللقاء الذي يلتقى عنده الموتى، المبعوثون من القبور.. ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]

٥. وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي أن الفساد الذي اشتملت عليه نفوس أهل الضلال، هو الذي حجبهم عن الإيمان وصار بهم إلى طريق الكفر والضلال.. وهذا يعنى أن في الكافرين ـ قبل كفرهم ـ نفوسا مهيأة لهذا الكفر، مستعدة له، لما فيها من فساد، وهذا الفساد من شأنه أن يرفض الطيّب، ويقبل الخبيث الفاسد، الذي يلائمه، ويتفاعل معه.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ فهذه قلوب لا تقبل خيرا، ولا تمسك به، ولهذا ختم الله عليها، فلم يسمعها كلماته، ولو أنها سمعت كلمات الله ما قبلتها ولا استجابت لها.

٦. وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ هو استكمال للجواب الذي أجيب به على قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فكأنه قيل: قل لله ما في السموات وما في الأرض، وله كذلك ما سكن في اللّيل والنهار، أي ما اشتمل عليه الليل والنهار من موجودات.، فكل ما طلع عليه النهار، واستولى عليه سلطان الضوء، وكل ما غشيه الليل، واستولى عليه سلطان الظلام، هو في ملك الله، وتحت سلطان علمه وسمعه.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. جملة ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تكرير في مقام الاستدلال، فإن هذا الاستدلال

---

(١) التحرير والتنوير: ٦/ ٣١.

تضمّن استفهاما تقريريا، والتقرير من مقتضيات التكرير، لذلك لم تعطف الجملة، ويجوز أن يجعل تصدير هذا الكلام بالأمر بأن يقوله مقصودا به الاهتمام بما بعد فعل الأمر بالقول على الوجه الذي سنبيّنه عند قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أو أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ في هذه السورة [٤٠]، والاستفهام مستعمل مجازا في التقرير.

٢. والتقرير هنا مراد به لازم معناه، وهو تبكيت المشركين وإلجاؤهم إلى الإقرار بما يفضي إلى إبطال معتقدهم الشرك، فهو مستعمل في معناه الكنائي مع معناه الصريح، والمقصود هو المعنى الكنائي.

٣. ولكونه مرادا به الإلجاء إلى الإقرار كان الجواب عنه بما يريده السائل من إقرار المسئول محقّقا لا محيص عنه، إذ لا سبيل إلى الجحد فيه أو المغالطة، فلذلك لم ينتظر السائل جوابهم وبادرهم الجواب عنه بنفسه بقوله: ﴿لِلهِ﴾ تبكيتا لهم، لأن الكلام مسوق مساق إبلاغ الحجّة مقدّرة فيه محاورة وليس هو محاورة حقيقية، وهذا من أسلوب الكلام الصادر من متكلّم واحد.

٤. فهؤلاء القوم المقدّر إلجاؤهم إلى الجواب سواء أنصفوا فأقرّوا حقّيّة الجواب أم أنكروا وكابروا فقد حصل المقصود من دمغهم بالحجّة، وهذا أسلوب متّبع في القرآن، فتارة لا يذكر جواب منهم كما هنا، وكما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ﴾ [الرعد: ١٦]، وقوله: ﴿قُلْ مَنْ أنزل الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ إلى قوله: ﴿قُلِ اللهُ﴾ [الأنعام: ٩١]، وتارة يذكر ما سيجيبون به بعد ذكر السؤال منسوبا إليهم أنّهم يجيبون به ثم ينتقل إلى ما يترتّب عليه من توبيخ ونحوه، كقوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لله قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ - إلى قوله - ﴿قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩]

٥. وابتدئ بإبطال أعظم ضلالهم، وهو ضلال الإشراك، وأدمج معه ضلال إنكارهم البعث المبتدأ به السورة بعد أن انتقل من ذلك إلى الإنذار الناشئ عن تكذيبهم الرسول ﷺ، ولذلك لمّا كان دليل الوحدانية السالف دالا على خلق السماوات والأرض وأحوالها بالصراحة، وعلى عبودية الموجودات التي تشملها بالالتزام، ذكر في هذه الآية تلك العبودية بالصراحة فقال: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلهِ﴾

٦. وقوله: ﴿لِلهِ﴾ خبر مبتدأ محذوف دلّ عليه ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾، إلخ، ويقدّر المبتدأ مؤخّرا عن

الخبر على وزان السؤال لأن المقصود إفادة الحصر.

٧. واللام في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ للملك؛ دلّت على عبودية الناس لله دون غيره، وتستلزم أنّ العبد صائر إلى مالكه لا محالة، وفي ذلك تقرير لدليل البعث السابق المبني على إثبات العبودية بحقّ الخلق، ولا سبب للعبوديّة أحقّ وأعظم من الخالقية، ويستتبع هذا الاستدلال الإنذار بغضبه على من أشرك معه.

٨. وهذا استدلال على المشركين بأنّ غير الله ليس أهلا للإلهيّة، لأن غير الله لا يملك ما في السماوات وما في الأرض إذ ملك ذلك لخالق ذلك، وهو تمهيد لقوله بعده ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، لأن مالك الأشياء لا يهمل محاسبتها.

٩. وجملة: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ معترضة، وهي من المقول الذي أمر الرسول بأن يقوله، وفي هذا الاعتراض معان:

أ. أحدها: أنّ ما بعده لمّا كان مشعرا بإنذار بوعيد قدّم له التذكير بأنه رحيم بعبيده عساهم يتوبون ويقلعون عن عنادهم، على نحو قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فإنه غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤]، والشرك بالله أعظم سوء وأشدّ تلبّسا بجهالة.

ب. الثاني: أنّ الإخبار بأنّ لله ما في السماوات وما في الأرض يثير سؤال سائل عن عدم تعجيل أخذهم على شركهم بمن هم ملكه، فالكافر يقول: لو كان ما تقولون صدقا لعجّل لنا العذاب، والمؤمن يستبطئ تأخير عقابهم، فكان قوله: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ جوابا لكلا الفريقين بأنه تفضّل بالرحمة، فمنها رحمة كاملة: وهذه رحمته بعباده الصالحين، ومنها رحمة موقّتة وهي رحمة الإمهال والإملاء للعصاة والضّالّين.

ج. الثالث: أنّ ما في قوله: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ من التمهيد لما في جملة ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ من الوعيد والوعد، ذكرت رحمة الله تعريضا ببشارة المؤمنين وبتهديد المشركين.

د. الرابع: أنّ فيه إيماء إلى أنّ الله قد نجّى أمّة الدعوة المحمدية من عذاب الاستئصال الذي عذّب به الأمم المكذّبة رسلها من قبل، وذلك ببركة النبي محمد ﷺ إذ جعله رحمة للعالمين في سائر أحواله بحكم قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وإذ أراد تكثير تابعيه فلذلك لم يقض على

مكذّبيه قضاء عاجلا بل أمهلهم وأملى لهم ليخرج منهم من يؤمن به، كما رجا رسول الله ﷺ، ولذلك لمّا قالوا: ﴿اللهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]، وقد حصل ما رجاه رسول الله ﷺ فلم يلبث من بقي من المشركين أن آمنوا بالله ورسوله بعد فتح مكة ودخلوا في دين الله أفواجا، وأيّد الله بهم بعد ذلك دينه ورسوله ونشروا كلمة الإسلام في آفاق الأرض، وإذ قد قدّر الله تعالى أن يكون هذا الدين خاتمة الأديان كان من الحكمة إمهال المعاندين له والجاحدين، لأن الله لو استأصلهم في أول ظهور الدين لأتى على من حوته مكة من مشرك ومسلم، ثم يحشرون على نيّاتهم، كما ورد في الحديث لمّا قالت أمّ سلمة لرسول الله ﷺ: (أنهلك وفينا الصالحون، قال نعم، إذا كثر الخبث ثم يحشرون على نيّاتهم)، فلو كان ذلك في وقت ظهور الإسلام لارتفع بذلك هذا الدين فلم يحصل المقصود من جعله خاتمة الأديان، وقد استعاذ رسول الله ﷺ لمّا نزل عليه ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ فقال: أعوذ بسبحات وجهك الكريم.

١٠. معنى ﴿كَتَبَ﴾ تعلّقت إرادته، بأن جعل رحمته الموصوف بها بالذات متعلّقة تعلّقا عامّا مطّردا بالنسبة إلى المخلوقات وإن كان خاصّا بالنسبة إلى الأزمان والجهات، فلما كان ذلك مطّردا شبّهت إرادته بالإلزام، فاستعير لها فعل (كتب) الذي هو حقيقة في الإيجاب، والقرينة هي مقام الإلهية، أو جعل ذلك على نفسه لأن أحدا لا يلزم نفسه بشيء إلا اختيارا وإلا فإن غيره يلزمه، والمقصود أنّ ذلك لا يتخلّف كالأمر الواجب المكتوب، فإنّهم كانوا إذا أرادوا تأكيد وعد أو عهد كتبوه.

١١. فالرحمة هنا مصدر، أي كتب على نفسه أن يرحم، وليس المراد الصفة، أي كتب على نفسه الاتّصاف بالرحمة، أي بكونه رحيما، لأن الرحمة صفة ذاتية لله تعالى واجبة له، والواجب العقلي لا تتعلّق به الإرادة، إلا إذا جعلنا ﴿كَتَبَ﴾ مستعملا في تمجّز آخر، وهو تشبيه الوجوب الذاتي بالأمر المحتّم المفروض، والقرينة هي هي إلا أنّ المعنى الأول أظهر في الامتنان، وفي المقصود من شمول الرحمة للعبيد المعرضين عن حقّ شكره والمشركين له في ملكه غيره.

١٢. جملة ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ واقعة موقع النتيجة من الدليل والمسبّب من السبب، فإنه لمّا أبطلت أهلية أصنامهم للإلهية ومحّضت وحدانية الله بالإلهية بطلت إحالتهم البعث بشبهة تفرق أجزاء

الأجساد أو انعدامها، ولام القسم ونون التوكيد أفادا تحقيق الوعيد، والمراد بالجمع استقصاء متفرّق جميع الناس أفرادا وأجزاء متفرّقة، وتعديته بـ ﴿إِلَى﴾ لتضمينه معنى السوق، وقد تقدّم القول في نظيره عند قوله تعالى: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إلا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ في سورة النساء [٨٧]

١٣. وضمير الخطاب في قوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ مراد به خصوص المحجوجين من المشركين، لأنّهم المقصود من هذا القول من أوله؛ فيكون نذارة لهم وتهديدا وجوابا عن أقلّ ما يحتمل من سؤال ينشأ عن قوله: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ كما تقدّم.

١٤. وجملة ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأظهر عندي أنّها متفرّعة على جملة ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وأنّ الفاء من قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ للتفريع والسببية، وأصل التركيب: فأنتم لا تؤمنون لأنّكم خسرتم أنفسكم في يوم القيامة؛ فعدل عن الضمير إلى الموصول لإفادة الصلة أنّهم خسروا أنفسهم بسبب عدم إيمانهم، وجعل ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: أنتم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون، ونظم الكلام على هذا الوجه أدعى لإسماعهم، وبهذا التقدير يستغنى عن سؤال (الكشاف) عن صحّة ترتّب عدم الإيمان على خسران أنفسهم مع أنّ الأمر بالعكس، وقيل: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ مبتدأ، وجملة: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خبره، وقرن بالفاء لأن الموصول تضمّن معنى الشرط على نحو قوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾ [النساء: ١٥]، وأشرب الموصول معنى الشرط ليفيد شموله كلّ من اتّصف بمضمون الصلة، ويفيد تعليق حصول مضمون جملة الخبر المنزّل منزلة جواب الشرط على حصول مضمون الصلة المنزّلة منزلة جملة الشرط، فيفيد أنّ ذلك مستمرّ الارتباط والتعليل في جميع أزمنة المستقبل التي يتحقّق فيها معنى الصلة، فقد حصل في هذه الجملة من الخصوصيات البلاغية ما لا يوجد مثله في غير الكلام المعجز.

١٥. معنى: ﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أضاعوها كما يضيّع التاجر رأس ماله، فالخسران مستعار لإضاعة ما شأنه أن يكون سبب نفع، فمعنى ﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ عدموا فائدة الانتفاع بما ينتفع به الناس من أنفسهم وهو العقل والتفكير، فإنه حركة النفس في المعقولات لمعرفة حقائق الأمور، وذلك أنّهم لمّا أعرضوا عن التدبّر في صدق الرسول ﷺ فقد أضاعوا عن أنفسهم أنفع سبب للفوز في العاجل والآجل، فكان ذلك سبب أن لا يؤمنوا بالله والرسول واليوم الآخر، فعدم الإيمان مسبّب عن حرمانهم الانتفاع بأفضل

نافع، ويتسبّب عن عدم الإيمان خسران آخر، وهو خسران الفوز في الدنيا بالسلامة من العذاب، وفي الآخرة بالنجاة من النار، وذلك يقال له خسران ولا يقال له خسران الأنفس، وقد أشار إلى الخسرانين قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ [هود: ٢١، ٢٢]

١٦. ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ جملة معطوفة على ﴿لِلَّهِ﴾ من قوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢] الذي هو في تقدير الجملة، أي ما في السماوات والأرض لله، وله ما سكن.

١٧. والسكون استقرار الجسم في مكان، أي حيّز لا ينتقل عنه مدّة، فهو ضدّ الحركة، وهو من أسباب الاختفاء، لأن المختفي يسكن ولا ينتشر، والأحسن عندي أن يكون هنا كناية عن الخفاء مع إرادة المعنى الصريح، ووجه كونه كناية أنّ الكلام مسوق للتذكير بعلم الله تعالى وأنّه لا يخفى عليه شيء من أعمالكم ومحاسبكم عليها يوم يجمعكم إلى يوم القيامة، فهو كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾إلى أن قال: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾ [الرعد: ٨ ـ ١٠]، فالذي سكن بالليل والنهار بعض ما في السماوات والأرض، فلمّا أعلمهم بأنه يملك ما في السموات والأرض عطف عليه الإعلام بأنه يملك ما سكن من ذلك لأنّه بحيث يغفل عن شمول ما في السماوات والأرض إيّاه، لأن المتعارف بين الناس إذا أخبروا عن أشياء بحكم أن يريدوا الأشياء المعروفة المتداولة، فهذا من ذكر الخاصّ بعد العامّ لتقرير عموم الملك لله تعالى بأنّ ملكه شمل الظاهرات والخفيّات، ففي هذا استدعاء ليوجّهوا النظر العقلي في الموجودات الخفيّة وما في إخفائها من دلالة على سعة القدرة وتصرّفات الحكمة الإلهية.

١٨. ﴿فِي﴾ للظرفية الزمانية، وهي ظرف مستقرّ، لأن فعل السكون لا يتعدّى إلى الزمان تعدية الظرف اللغو كما يتعدّى إلى المكان لو كان بمعنى حلّ واستقرّ وهو ما لا يناسب حمل معنى الآية عليه، والكلام تمهيد لسعة العلم، لأن شأن المالك أن يعلم مملوكاته وتخصيص الليل بالذكر لأن الساكن في ذلك الوقت يزداد خفاء، فهو كقوله: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وعطف النهار عليه لقصد زيادة الشمول، لأن الليل لمّا كان مظنّة الاختفاء فيه قد يظنّ أنّ العالم يقصد الاطّلاع على الساكنات فيه بأهميّة ولا يقصد إلى الاطّلاع على الساكنات في النهار، فذكر النهار لتحقيق تمام الإحاطة بالمعلومات.

١٩. وتقديم المجرور للدلالة على الحصر، وهو حصر الساكنات في كونها له لا لغيره، أي في كون

ملكها التامّ له، كما تقدّم في قوله: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢]

٢٠. وقد جاء قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ كالنتيجة للمقدمة، لأن المقصود من الإخبار بأنّ الله يملك الساكنات التمهيد لإثبات عموم علمه، وإلا فإن ملك المتحرّكات المتصرّفات أقوى من ملك الساكنات التي لا تبدي حراكا، فظهر حسن وقع قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ عقب هذا، والسميع: العالم العظيم بالمسموعات أو بالمحسوسات، والعليم: الشديد العلم بكلّ معلوم.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن ينبههم إلى خلق السموات والأرض ومن فيهن، والمجاوبة بينهم وبين النبي ﷺ فيمن خلقهم، ومن يملك من فيهن ومن له السلطان، وقد نقلهم من أمر حسى يستطيعون أن يروه، ويعتبروا به إلى أمر فكرى هو ثمرة للتفكير في الإنسانية كلها، والاستفهام يتضمن معنيين:

أ. أولهما: التنبيه إلى أن الله تعالى يملك السموات والأرض ومن فيهن من أقوياء وضعفاء، ومن إنس وجن، ومن ملائكة أطهار لا يعصون الله تعالى ويفعلون ما يؤمرون، ومن أخيار في الأرض وأشرار، فالجميع في قبضة يده سبحانه وتعالى، ولا أحد فوق سلطانه، والمعنى.

ب. الثاني: تبكيتهم، وبيان أنهم ومن هم أقوى منهم في قبضة يده سبحانه.

٢. ونميل إلى أن الاستفهام للتنبيه، فإنه من أمثل الطريق لتقرير الحقائق، السؤال ثم الإجابة؛ ولذلك كانت الإجابة بأمر الله تعالى نبيه أن يقول: ﴿قُلْ لِلَّهِ﴾ فكانت هذه الإجابة تقريرا للحقيقة الثابتة التي يدركها العقل السليم، وهي مما يوجبه الإيمان وتقرره الفطرة وبداهة العقول.

٣. وقد ذكر الله تعالى عدله ثم ذكر رحمته من بعد، وأشار إلى أن العدل والرحمة متلازمان، فقال سبحانه: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ومعنى كتب الله تعالى على نفسه أنه أوجب تفضلا وتكرما من غير إلزام من أحد ألزمه الرحمة بعباده، فهو الذى يمدهم بنعمه محسنهم

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/ ٢٤٤٨.

ومسيئهم، وخيّرهم وشرّيرهم، وهو الذى يكلؤهم بالليل والنهار، ولقد روى الشيخان عن أبى هريرة أن النبي ﷺ قال: (لما قضى الله تعالى الخلق كتب كتابا فوضعه عنده فوق العرش إن رحمتي سبقت غضبى) ولهذه الرحمة لم يسارع بإنزال الهلاك على العصاة ممن بعث إليهم محمدا ﷺ، عسى أن يخرج من ذرية المشركين من يعبد الله سبحانه وتعالى، ويخلص في إيمانه.

٤. ومن مظاهر رحمته أن يعاقب المسيء ويثيب المحسن، فإن ذلك هو العدل وفيه رحمة، فحيث كان العدل كانت الرحمة، فهل يستوى الذين يعملون والذين لا يعملون، وهل تستوى الظلمات والنور، وهل يستوى الأخيار والأشرار، إن عقاب العاصي رحمة بالعموم، وإن لم يكن رحمة بذات العاصي فهو لا يستحق الرحمة؛ ولذا قال النبي ﷺ: (من لا يرحم لا يرحم)

٥. ولقد ذكر سبحانه أن من مقتضى رحمته أن يجمع الناس يوم القيامة ليوم لا ريب فيه، يجازى فيه المحسن بإحسان، ويعاقب فيه المسيء فقال تعالت كلماته: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فهذه الجملة استئنافية لبيان نوع من العدل، وهو أن يثاب المحسن، ويعاقب المسيء ويحاسب كل على ما قدم من عمل في هذه الدنيا، إذ هو رحمة بالخلق، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى أن القصاص فيه رحمة كبيرة، فقال تعالت كلماته: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة] والقصاص بكل ضروبه فيه حياة ورحمة.

٦. وهنا بعض إشارات بيانية:

أ. الأولى: أن الله أكد جمع الناس يوم القيامة، وذلك بـ (اللام) الدالة على قسم مطوي في القول، وبنون التوكيد الثقيلة.

ب. الثانية: تعدية الجمع بـ (إلى) دون (في)؛ للإشارة إلى أن الجمع نهايته تكون يوم القيامة، فهم يحشرون في القبور، والجمع مستمر في ذلك.

ج. الثالثة: إثبات أن ذلك اليوم لا شك فيه عند أهل الدراية والمعرفة ومن يشك فيه فهو ليس ذا إدراك سليم، وإذا كان بعض الناس يشك فيه، فليس ذلك إلا من سقم الإدراك، وفساد الفطرة، وينبغي إلا يشك فيه مدرك، فالبديهة تقول إن الله تعالى لم يخلق الكون عبثا، ولم يخلق الإنسان عبثا، بل خلقه ليفنى ثم ليبقى من بعد ذلك، ومن خلق في الابتداء قادر على الإعادة في الانتهاء، وبين سبحانه بعد ذلك الحال الواقعة للذين يكفرون بالله وبالرسالة وباليوم الآخر، وأن شرهم متكاثف يردف بعضه بعضا.

٧. ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، عبر عن الكفار بالرسالة المحمدية، والوحدانية واليوم الآخر بالذين خسروا أنفسهم، وجعل الكفر نتيجة للخسران، فالخسران يبتدئ، والكفر نهايته، أو هما متلازمان، فالخسران سابق ولا حق لأنه يترتب على الكفر خسران متضافر:

أ. والخسران الذى يسبق الكفر، وهو خسران الفطرة، فلا يكفر بالدليل القاطع إلا من يخسر فطرته.

ب. وخسران الإدراك السليم؛ لأنه لا يكفر بوجود الله إلا من ينسى أن كل أثر له مؤثر، وكل موجود له موجد.

ج. وخسروا عقولهم إذ سيطرت الأوهام عليهم، فأشركوا مع الله أحجارا تحطم، وأوثانا تصنع، ونجوما تأفل.

د. وخسروا نفوسهم فصارت معوجة.

هـ. وخسروا قلوبهم فصارت مظلمة.

٨. وإذا كانت كل مداركهم قد سدت فهم لا يؤمنون؛ لأن الإيمان يحتاج إلى قلب مخلص، وعقل مدرك، وإذعان للحق إذا بدت معالمه، وظهرت أماراته، وإنهم بعد الكفر يزيدون خسرانا، إذ كل إنكار للحق خسران في ذاته؛ لأنه نزول عن مرتبة الإنسانية السامية.

٩. وقد قال تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وعبر بالمضارع للإشارة إلى أنهم لا يكون الإيمان شأنا من شئونهم، ذلك لأن من امتلأت نفسه بالأوهام وصارت عشا لها، وضلت عقولهم لا يمكن أن تذعن لشيء، بل هي دائما مضطربة حائرة تنتقل من ضلال إلى ضلال، ومن متاهة إلى مثلها، كمن يضل في بيداء كلما أوغل زاد ضلالا ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ [آل عمران]

١٠. ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ بين سبحانه وتعالى في الآيات السابقة سلطانه في خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور، وإحاطة علمه سبحانه ومعرفته للسر والجهر، وتلقى المشركين لبيان تلك الحقائق مع الإعجاز الدال على صدق الأخبار النبوية بالتكذيب والاستهزاء، والإعراض عن البينات من الآيات، وطلبهم آيات أخرى، وبين سبحانه أنه ما دام الإعراض، وما دام الجحود مستوليا على نفوسهم، فلن تجدى معهم آية؛ لأن ما سيق إليهم كاف، ولأنهم يكذبون

حسهم ما دام إنكارهم سابقا لتلقيهم، وقد ضرب لهم سبحانه الأمثال بما وقع للسابقين، ونبههم سبحانه إلى ملكيته لكل ما في السموات والأرض، وفى الآيات التي نتكلم في معناها بيان لسلطانه وعلمه الكامل بكل ما فيها، وما ينبغي أن يكون أثرا لعلمه سبحانه وتعالى بذلك، فقال تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

١١. (سكن) هنا من السكون بمعنى الاستقرار، والمعنى ولله سبحانه وتعالى كل ما استقر وأقام في السموات وفى الأرض من حيوان وجن وما احتويا من نبات وجماد وبحار وجبال ووهاد ومعادن ولآلئ، والتعبير بـ (ما) في قوله: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ﴾ للدلالة على العموم.

١٢. وقد يراد السكون الذى هو ضد الحركة، لأنه لا سكون إلا معه حركة، إذ إن السكون معنى نسبى لا يتحقق إلا إذا كان معه حركة، وإذا كان الله تعالى، يعلم السكون لكل ما في السماوات والأرض فهو سبحانه يعلم الحركة والسكون، وأنه لا مانع من أن يراد المعنيان معا، إذ يعلم سبحانه كل ما استقر في السموات والأرض، ويعلم حركاتها وسكناتها.

١٣. ويعلم ذلك في الليل والنهار، ويملك كل ذلك، فالنص الكريم يدل على ملكية الله تعالى لكل ما في السموات والأرض عامة، بلا استثناء ويعلم ما في كل الأماكن، وفى عموم الأزمان، بلا استثناء ليل ولا نهار.

١٤. وهو مع هذه الملكية الكاملة يديرها بعلم كامل، ويهيمن عليها بقدرة قاهرة، وإرادة مسيطرة، وعلم دقيق لذلك قال سبحانه: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي أنه سبحانه وتعالى يسمع دبيب النمل من غير أذن، ويعلم كل ما كان أو سيكون من غير مشابهة في سمعه وعلمه للمخلوقات ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى]، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

١٥. وفى هذا النص الكريم إشارة إلى أنه سبحانه وتعالى يملك الناس وما حولهم لا يخرجون عن قدرته، وهو المهيمن عليهم، إن شاء خسف بمن يخالفه، وأهلكهم، ولم يجعل من الكافرين ديّارا، وأنه عليم بما يكون من الطائعين، فيجزيهم ويهديهم، وما يكون من العصاة، فيعاقبهم ويرديهم، وفيه إنذار للمشركين.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١ . ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾، أمر الله نبيه الأكرم ﷺ أن يسأل مشركي العرب: من يملك السموات والأرض؟، ثم أمره أن يجيب عنهم بأن الله وحده هو مالك الملك، وجاز أن يكون هو السائل والمجيب لأن كلا من المسئول والسائل متفقان على الجواب.. فإن مشركي العرب كانوا يؤمنون بأن الله خالق الكون ومالكه: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾

٢ . سؤال وإشكال: ما دام الأمر كذلك فأي جدوى من السؤال؟ والجواب: أن القصد من السؤال وجوابه استدراج الخصم إلى الاعتراف بإمكان النشر والحشر، واقامة الحجة عليه، لأن الله سبحانه إذا كان هو خالق الكون ومالكه فهو ـ إذن ـ قادر على التصرف فيه فناء وإعادة.

٣. ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾، وأعاد سبحانه هذه الجملة في الآية ٥٤ من هذه السورة، قال المفسرون: أوجب الله على نفسه الرحمة إيجاب فضل وكرم.. ونحن نؤمن بأن الله ذو فضل وكرم، وفي الوقت نفسه نؤمن بأن رحمته نتيجة حتمية لغناه في ذاته عن كل شيء وافتقار كل شيء إليه تعالى، لأن المخلوق مفتقر بطبعه إلى عناية الخالق ورحمته افتقار المعلول إلى علته، والمسبب إلى سببه.. فرحمة الله بعباده لا تنفك عن ذاته وكماله، وعلى هذا يكون معنى ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أن رحمته حتم لذاته القدسية، تماما كالقدرة والعلم.

٤ . ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، وهذا الجمع حتم أيضا، ولذا وصفه جل ثناؤه بقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، لأن فيه يقتص للمظلوم من الظالم، ويجازى المسيء على السيئة بمثلها، والمحسن على الحسنة بأضعاف مضاعفة من أمثالها، ولولا هذا اليوم لذهب الحق هدرا، وكان الأقدر هو صاحب الأمر والنهي، وليس خالق الكون ومالكه.

٥ . ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، قال الزمخشري: لقد اختار الكافرون الخسران، فهم لذلك غير مؤمنين، والزمخشري من أهل الاعتزال القائلين: الإنسان مخير، لا مسير، وقال الرازي: إن الله

---

(١) التفسير الكاشف: ٣/ ١٦٧.

هو الذي قضى بخسرانهم، ولهذا امتنعوا عن الايمان، والرازي من الأشاعرة القائلين: الإنسان مسير، لا مخير، وقال آخرون: امتنع الكفار عن الايمان تقليدا لآبائهم، وفي تصورنا أن الآية تشير إلى حقيقة الإنسان، وأنها تتكون من نفسه وجسمه، وأن كلا منهما جزء متمم للآخر، وأن الإنسان لا يحيا حياة صحيحة إلا إذا عمل لهما معا، وان من عمل للروح دون المادة، أو للمادة دون الروح فقد خسر كيانه من الأساس، ومن خسر كيانه لا يكون من الإيمان في شيء.

٦. ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، أي أنه تعالى هو المالك لكل شيء، سؤال وإشكال: لقد دل على هذا المعنى قوله تعالى في الآية المتقدمة: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ فما هو الوجه لهذا التكرار؟ والجواب: أجاب المفسرون بأن الآية الأولى: استقصت الخلق من حيث الزمان، والثانية: من حيث المكان، وهما ظرفان لكل موجود ماديا كان، أو معنويا، فحصل العموم والشمول بالآيتين جميعا، وعقّب سبحانه بصفتي السمع والعلم تأكيدا لهذه الاحاطة، وتقدم أكثر من مرة أن التكرار في القرآن غير عزيز، ولكن المفسرين يحاولون أن يأتوا بشيء وإن لم تدع الحاجة إليه.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. فريق من الآيات تحتج على المشركين في أمر التوحيد والمعاد فالآيتان الأوليان تتضمنان البرهان على المعاد، وبقية الآيات وهي خمس مسوقة للتوحيد تقيم البرهان على ذلك من وجهين على ما سيأتي.

٢. ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ شروع في البرهنة على المعاد، ومحصله أن الله تعالى مالك ما في السماوات والأرض جميعا له أن يتصرف فيها كيف شاء وأراد، وقد اتصف سبحانه بصفة الرحمة وهي رفع حاجة كل محتاج وإيصال كل شيء إلى ما يستحقه وإفاضته عليه وعدة من عباده ومنهم الإنسان صالحون لحياة خالدة مستعدون لأن يسعدوا فيها فهو بمقتضى ملكه ورحمته سيتصرف فيهم بحشرهم وإعطائهم ما يستحقونه البتة.

٣. فقوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، يتضمن إحدى مقدمات الحجة وقوله:

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٧/ ٢٦.

﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ يتضمن مقدمة أخرى، وقوله: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، مقدمة أخرى ثالثة بمنزلة الجزء من الحجة:

أ. فقوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾:

• يأمر النبي ﷺ أن يسألهم عمن يملك السماوات والأرض وله التصرف فيهما بما شاء من غير مانع يمنعه، وهو الله سبحانه من غير شك لأن غيره حتى الأصنام وأرباب الأصنام التي يدعوها المشركون هي كسائر الخلقة ينتهي خلقها وأمرها إليه تعالى فهو المالك لما في السماوات والأرض جميعا.

• ولكون المسئول عنه معلوما بينا عند السائل والمسئول جميعا والخصم معترف به لم يحتج إلى صدور الجواب عن الخصم واعترافه به بلسانه، وأمر النبي ﷺ أن يذكر هو الجواب ويتكفل ذلك لتتم الحجة من غير انتظار ما لجوابهم.

• والسؤال عن الخصم، ومباشرة السائل بنفسه الجواب كلاهما من السلائق البديعة الدائرة في سرد الحجج، يقول المنعم لمن أنعم عليه فكفر بنعمته: من الذي أطعمك وسقاك وكساك؟ أنا الذي فعل ذلك بك ومن بها عليك وأنت تجازيني بالكفر.

• وبالجملة ثبت بهذا السؤال والجواب أن الله سبحانه هو المالك على الإطلاق فله التصرف فيها بما شاء من إحياء ورزق وإماتة وبعث بعد الموت من غير أن يمنعه من ذلك مانع كدقة في العمل وموت وغيبة واختلال وغير ذلك، وبهذا تمت إحدى مقدمات الحجة فألحقها المقدمة الأخرى وهي قوله: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾

ب. قوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾:

• الكتابة هو الإثبات والقضاء الحتم، وإذ كانت الرحمة ـ وهي إفاضة النعمة على مستحقها وإيصال الشيء إلى سعادته التي تليق به ـ من صفاته تعالى الفعلية صح أن ينسب إلى كتابته تعالى، والمعنى: أوجب على نفسه الرحمة وإفاضة النعم وإنزال الخير لمن يستحقه، ونظيره في نسبة الفعل إلى الكتابة ونحوها قوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، وقوله: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات: ٢٣] وأما صفات الذات كالحياة والعلم والقدرة فلا تصح نسبتها إلى الكتابة ونحوها البتة لا يقال: كتب على نفسه الحياة والعلم والقدرة.

• ولازم كتابة الرحمة على نفسه ـ كما تقدم ـ أن يتم نعمته عليهم بجمعهم ليوم القيامة ليجزيهم بأقوالهم وأعمالهم فيفوز به المؤمنون ويخسر غيرهم، ولذلك ذيل بقوله وهو كالنتيجة في الحجة: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فأكد المعنى بأبلغ التأكيد: لام القسم ونون التأكيد وقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾

• ثم أشار إلى أن الربح في هذا اليوم للمؤمنين والخسران على غيرهم فقال: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

• والحجة التي أقيمت في هذه الآية على المعاد غير ما أقيمت من الحجتين عليه في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨] فإن الآيتين تقيمان الحجة على المعاد من جهة أن فعله تعالى ليس بباطل بل له غاية، ومن جهة أن التسوية بين المؤمن والكافر والمتقي والفاجر ظلم لا يليق به تعالى، وهما في الدنيا لا يتميزان فلا بد من نشأة أخرى يتميزان فيها بالسعادة والشقاوة، وهذا غير ما في هذه الآية من السلوك إلى المطلوب من طريق الرحمة.

ج. قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾:

• السكون في الليل والنهار هو الوقوع في ظرف هذا العالم الطبيعي الذي يدبر أمره بالليل والنهار، ويجري نظامه بغشيان النور الساكب من شمس مضيئة، وعمل التحولات النورية فيه بالقرب والبعد والكثرة والقلة والحضور والغيبة والمسامتة وغيرها، فالليل والنهار هما المهد العام يربى فيه العناصر الكلية ومواليدها تربية تسوق كل جزء من أجزائها وكل شخص من أشخاصها إلى غايته التي قدرت له، وتكملها روحا وجسما.

• وكما أن للمسكن عاما وخاصا دخلا تاما في كينونة الساكن كالإنسان مثلا يسكن أرضا فيطوف بها في طلب الرزق، ويرتزق مما يخرج منها من حب وفاكهة وما يتربى فيها من حيوان، ويشرب من مائها، ويستنشق من هوائها، ويفعل وينفعل من كيفيات منطقتها، وينمو جميع أجزاء جسمه على حسب تقديرها كذلك الليل والنهار لهما الدخل التام في تكون عامة ما يتكون فيهما.

• والإنسان من الأشياء الساكنة في الليل والنهار تكون بمشية الله من ائتلاف أجزاء بسيطة ومركبة

على صورة خاصة يمتاز وجوده حدوثا وبقاء بحياة تقوم على شعور فكري وإرادة يتهيئان له من قوى له باطنية عاطفية تأمره بجذب المنافع ودفع المضار، وتدعوه إلى إيجاد مجتمع متشكل فيه ما نراه من تفاصيل التفاهم باللغات والتباني على اتباع السنن والقوانين والعادات في المعاشرات والمعاملات، واحترام الآراء والعقائد العامة في الحسن والقبح والعدل والظلم والطاعة والمعصية والثواب والعقاب والجزاء والعفو.

• وإذا كان الله سبحانه هو الخالق لليل والنهار وما سكن فيهما المتفرد بإيجادها فله ما سكن في الليل والنهار، وهو المالك الحق لجميع الليل والنهار وسكانهما وما يستعقب وجودها من الحوادث والأفعال والأقوال، وله النظام الجاري فيها على عجيب سعته فهو السميع لأقوالنا من أصوات وإشارات، والعليم بأعمالنا وأفعالنا بما لها من صفتي الحسن والقبح، والعدل والظلم والإحسان والإساءة، وما تكتسبه النفوس من سعادة وشقاء.

• وكيف يمكنه الجهل بذلك وقد نشأ الجميع في ملكه وبإذنه؟ ونحو وجود هذا النوع من الأمور أعني الحسن والقبح والعدل والظلم والطاعة والمعصية، وكذا اللغات الدالة على المعاني الذهنية كل ذلك أمور علمية لا تحقق لها في غير ظرف العلم، ولذلك نرى أن الفعل لا يقع منا حسنا ولا قبيحا ولا طاعة ولا معصية، والصوت المؤلف لا يسمى كلاما إلا إذا علمنا به وقصدنا وجهه.

• وكيف يمكن أن يملك شيء علمي في نفسه من حيث كونه كذلك ثم يجهله مالكه ولا يعلم به؟ (أجد التأمل فيه)، والله سبحانه هو الذي أوجد هذا العالم على عجيب سعته في أجزائه البسيطة والعنصرية والمركبة على نظام يدهش اللب، ثم خلقنا وأسكننا الليل والنهار ثم كثرنا وأجرى بيننا نظام الاجتماع الإنساني ثم هدانا إلى وضع اللغات، واعتبار السنن ووضع الاعتبارات، ولم يزل يصاحبنا ويصاحب سائر الأسباب خطوة خطوة، ويجارينا وإياها في مسير الليل والنهار لحظة لحظة، وساق حوادث لا نحصيها حادثة بعد حادثة.

• حتى تكلم الواحد منا بكلام فوضع المعنى في قلبه بإلهامه، وأجرى اللفظ في لسانه بتعريفه، وأسمع الصوت لمخاطبه بإسماعه، وسار بمعناه إلى ذهنه بحفظه، وفهم المعنى لمفكرته بتعليمه، ثم بعثه لموافقة ما ألقاه إليه المتكلم أو صده عن ذلك بإرادة باعثة له إليه أو كراهة دافعة له عنه، وهو في جميع هذه المراحل التي تعجز عن الانعقاد عليها أنامل العد والإحصاء قائد وسائق وهاد وحفيظ ورقيب! فكيف

يسع لقائل إلا أن يقول: إنه تعالى سميع عليم، وما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم.

• وكذا إذا عمل الواحد منا بعمل حسنة كان أو سيئة فهو مولود من أب وأم يولدانه تحت مراقبة الاختيار والإرادة، وقد انتقل إليهما بعد ما قطع طريقا بعيدا وأمدا مديدا في أصلاب أسباب فاعله، وأرحام علل أخرى منفعلة إلى أن ينتهي بما الله أعلم به، ولم يزل سبحانه ينقله بإرادته من حجر إلى حجر، والأرض قبضته والسماوات بيمينه حتى نزل منزل الاختيار فصاحبه منزلا بعد منزل بإذنه حتى طلع من أفق العين، وأخذ موضعه من مسكن الليل والنهار ثم لا يزال يجري فيما يتأثر منه من أجزاء الكون كأحد الأسباب الجارية، والله سبحانه عليه شهيد وبه محيط فكيف يمكن أن يغفل سبحانه عما هذا شأنه؟ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير.

• ومما تقدم يظهر أن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ بمنزلة النتيجة لقوله: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، والسمع والعلم وإن كانا معدودين من صفاته تعالى الذاتية التي هي عين الذات المتعالية من غير أن يتفرع على أمر غيرها لكن من العلم وكذا السمع والبصر ما هو صفة فعلية خارجة عن الذات وهي التي يتوقف ثبوتها على تحقق متعلق غير الذات المقدسة كالخلق والرزق والإحياء والإماتة المتوقفة على وجود مخلوق ومرزوق وحي وميت.

• والأشياء لما كانت بأنفسها وأعيانها مملوكة محاطة له تعالى فهي إن كانت أصواتا سمع ومسموعة له تعالى، وإن كانت أنوارا وألوانا بصر ومبصرة له تعالى، والجميع كائنة ما كانت علم ومعلومة له تعالى، وهذا النوع من العلم من صفاته الفعلية التي تتحقق عند تحقق الفعل منه تعالى لا قبل ذلك، ولا يلزم من ثبوتها بعد ما لم تكن تغير في ذاته تعالى وتقدس لأنها لا تعدو مقام الفعل، ولا يدخل في عالم الذات فالآية في استنتاجها العلم من الملك تريد إثبات العلم الفعلي، فافهم ذلك.

• والآية أعني قوله: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، كإحدى مقدمات الحجة المبينة بالآية السابقة فإن الحجة على المعاد وإن تمت بقوله: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لله كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ لكن النظر الابتدائي الساذج ربما غفل عن كون ملكه تعالى للأشياء مستلزما لعلمه بها وسمعه بها

يسمع منها كالأصوات والأقوال، ولذلك نبه عليه بتكرار ملك السماوات والأرض، وتفريع السمع والعلم عليه فقال: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ ـ وهو في معنى قوله: (له ما في السماوات والأرض ـ وهو السميع العليم) فكانت هذه الآية لذلك بمنزلة مقدمة متممة للحجة المسرودة في الآية السابقة.

٤ . والآية ـ على أنا لم نستوف حقها ولن يستوفي ـ من أرق الآيات القرآنية معنى وأدقها إشارة وحجة، وأبلغها منطقا.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١ . ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من حي وجماد ﴿قُلْ لِلَّهِ﴾ فهو رب من في السموات ومن في الأرض، فهو إلههم وحده ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ فكيف يدعو المشكرون من دونه شركاء، لا يملكون ولا ينفعون، والله هو ربهم الرحيم بهم الذي هو رازقهم ومطعمهم وساقيهم وشافي مرضاهم، وبيده الخير ومنه الخير، ومن كرمه ﴿كَتَبَ﴾ وأوجب على نفسه ﴿الرَّحْمَةُ﴾ فهو لا يعاجل العاصين، وهو يدعو إلى التوبة ويعد قبولها، ويحذر عباده نفسه، ولذلك أرسل الرسل رحمة للعالمين.

٢ . ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ إلى موقف العرض على الله يوم القيامة وإلى ما يكون في يوم القيامة من الحساب والجزاء، فالجمع ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ جمعهم إلى ما فيه، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن:٩]

٣ . ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): (﴿الَّذِينَ﴾ موضعه نصب على البدل من الضمير في قوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ والمعنى: (ليجمعن هؤلاء المشركين الذين خسروا أنفسهم) وهذا عندي أحسن الأقوال فيها، فأول الآية احتجاج عليهم وآخرها تسجيل عليهم بالخذلان، وأنهم بسبب تمردهم وعنادهم قد خسروا أنفسهم، بأن فوتوا عليها سبيل السلامة، وسببوا لها الخذلان المؤدي إلى الخسارة الدائمة، فأول خسارتهم أنفسهم: بُعْدهم عن قبول الحق بقسوة قلوبهم وكراهتهم للحق وتكبرهم عن قبوله، حتى لم يبقَ لهم صلاحية لقبوله وصاروا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ

---

(١) التيسير في التفسير: ٢/ ٤١٨.

الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إلا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ فلذلك كانوا قد خسروا أنفسهم بوقوعهم في سبب الخسارة الدائمة بدخول النار، وترتب أنهم لا يؤمنون على خسارة أنفسهم بوقوعها في الخذلان الشديد والضلال البعيد.

٤. ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ وهذا يعم الأرض كلها، والآية الماضية تشمل ما في الأرض وما في السموات، ويحتمل: أن الليل والنهار يكونان شاملين للسموات والأرض.

٥. وقوله تعالى: ﴿مَا سَكَنَ﴾ إما من السكنى، فيكون التعبير به لفائدة الليل والنهار لما اشتملا عليه لنفع الشمس فيما تظهر عليه، ثم نفع الليل فيما يأتي عليه بعد الشمس، فكانا للجماد وغيره بمنزلة المسكن الذي ينتفع به ساكنوه، وإما من السكون وهو بعيد؛ لأن الراجح: أن الأرض تتحرك جملتها بما فيها وإن كان أهلها لا يحسّون حركتها.

٦. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فهو الحقيق بالعبادة؛ لأنه رب كل شيء ولأنه الذي يسمع الداعي ويعلم عبادة من عبده، وهو الذي إليه يرجع العباد في الآخرة لأنه ربهم وحده ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بهم وبأعمالهم ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه:٥٢] وكل من في السموات والأرض عباده ليس لهم من الأمر شيء وهو جامع عبادَه يوم القيامة ﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ [طه:١٥] لأنه ربهم فما في الآيتين دال على هذه المعاني كلها.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. جاء في أسباب النزول ـ للواحدي ـ في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ قال الكلبي عن ابن عباس: إن كفار مكة أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد إنا علمنا أنه إنما يحملك على ما تدعو إليه الحاجة، فنحن نجعل لك نصيبا في أموالنا حتى تكون أغنانا رجلا وترجع عما أنت عليه فنزلت هذه الآية.. ونلاحظ على ذلك:

أ. أن سياق الآية ـ قبلها وبعدها ـ لا يوحي بهذا الجو، فإن الظاهر منها ورودها في مقام الاحتجاج

(١) من وحي القرآن: ٩/ ٣٩.

على التوحيد في مقابل الشرك، للتأكيد على عظمة الله في خلقه ومسئولية الإنسان في عبادته وطاعته بعيدا عن الدوافع الذاتية للرسول في دعوته مما يتوهمونه من حاجاته أو مما ينطلق به ـ في نفسه ـ من إخلاصه للرسالة، الأمر الذي يوحي أن ذلك اجتهاد من ابن عباس في مناسبة الآية لما ذكره.

ب. هذا بالإضافة إلى أن سورة الأنعام قد نزلت دفعة واحدة لا على سبيل التفريق بين الآيات ليكون لكل آية سبب مستقل للنزول.

ج. وعلى أي حال، فإن الرواية ـ لو صحت ـ أو كانت القضية في حديث المشركين مع النبي ﷺ في تفسيرهم لدعوته وحركته في مواجهة عقيدة الشرك، فإن هذا يدل على أن هؤلاء القوم لا يفكرون بإمكانية انطلاق الإنسان الداعية من قاعدة الإيمان بما يدعو إليه، والإخلاص لله في إقباله عليه، بل يتصورون أن أية دعوة مضادة لعقائد الواقع الاجتماعي تمثل وسيلة من وسائل الحصول على نتائج مادية لحساب الذات عبر إثارة الاهتمام حولها، أو الوصول إلى مواقع متقدمة للقوة ولتحصيل المكاسب المادية، ولذلك كان عرضهم ماديا في مقابل تنازل النبي ﷺ عن الدعوة، وهذا ما رفضه النبي محمد ﷺ في أكثر من مرّة معلنا لهم أن حركة رسالته تنطلق من إيمانه بالله وإخلاصه لدوره الرسالي في الدعوة في مواجهة كل حالات القهر والاضطهاد والتشويه والتهويل، وهذا ما ينبغي للدعاة إلى الله أن يفهموه ويقتدوا به ويعيشوه في وعيهم للموقف والدور والتحدي الكبير.

٢. ونستوحي من ذلك المنهج القرآني الاستقرائي الذي يوجّه الإنسان إلى متابعة الواقع في مظاهره السلبية من أجل الوصول إلى استنتاج صحيح في المسألة التاريخية الإنسانية في حساب المقدمات والنتائج، مما يعني أن الإسلام يركز على الاستقراء الواقعي كوسيلة من وسائل المعرفة في كل القضايا التي يمكن للواقع الخارجي أن يكشف عنها، وهذا مما يجعلنا نتبع ذلك في دراسة الظواهر المتحركة في المعرفة الاجتماعية والنفسية والتاريخية لنخرج بالقواعد الحاكمة للسلوك الإنساني كله، فلا تبقى المعرفة أسيرة التأمّل العقلي المجرّد، بل تتحرك في عملية التزاوج بين العقل والتجربة، لأن ذلك هو الوسيلة الواقعية السليمة لحركة المعرفة لدى الإنسان.

٣. يتابع القرآن في هذه السورة الحديث عن قصة الإيمان بالله، فيبدأ حديثه بإثارة حالة التأمّل الذاتي التي تدفع الإنسان إلى اكتشاف ما في داخل أعماقه من أفكار وقناعات حول الإيمان ليستعيد بذلك

جزءا من نفسه ضاع بين الأجواء اللاهية، والأوضاع المنحرفة، والضجيج الذي يشغله عن حياته، فيستسلم لما يوحيه إليه الآخرون من دون وعي أو انتباه.. وذلك بأسلوب فريد من نوعه.. مما كان القرآن يثيره في الداخل من أساليب متنوّعة، فيطرح سؤالا، ليثير في النفس تساؤلا، ويحرك التفكير في هذا الاتجاه أو ذاك لأن المشكلة عند كثير من الناس أنهم لا يفكرون، لأنهم لا يتساءلون، وإذا تساءلوا كان السؤال مجرّد صيحة ضائعة في النفس، فلا يبحثون عن جواب له من داخل الذات أو من خارجها، لأنهم يواجهون كثيرا من القضايا، مواجهة اللامبالاة.

٤. إن الإنسان يبدأ دائما بالتفكير من خلال إثارة علامات الاستفهام من حوله، ولهذا نلاحظ أن الطفل يبدأ عملية التفكير عندما يبدأ في التطلع إلى الأشياء من حوله بنظرة استفهام وتساؤل.. فيبدأ بطرح الأسئلة حول هذا وذاك، مما يوحي بأنه قد بدأ يفكر بجدّية.. وهذا ما أشار إليه القرآن في أكثر من مرة، في التأكيد على أن المشكلة الأساس في قضية الكافرين، هي أنهم يواجهون قضايا العقيدة بموقف اللامبالاة، فلا يفكرون في تفاصيلها ليتخذوا موقف السلب والإيجاب على أساس ذلك.

٥. وهكذا طرح القرآن في الآية الأولى السؤال: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؟ وتولّى هو الجواب للإيحاء بأنه يمثل بديهة من بديهيات التفكير الذي يبعث السائل على أن يجيب دون أن ينتظر جواب المسؤول: ﴿قُلْ لِلَّهِ﴾

٦. ثم يفيض في الحديث عن الله من جديد من خلال ارتباط الإيمان به والالتزام بعبوديته وبقضية المصير، ليجتمع إليه الفكر في نطاق الحقيقة الموضوعية، بالفكر في نطاق علاقته بمصير الإنسان، وهذا من أساليب القرآن في تربية الدوافع الفكرية لدى الإنسان، فقد تكون بعض الأشياء من حقائق الحياة التي لا علاقة لها بالمصير الإنساني في حركة المسؤولية، كما في المعادلات الرياضية التي تتصل بالحقائق الموضوعية لمواردها، وقد تكون بعض الأشياء مرتبطة بالحياة من جهة وبالمصير من جهة أخرى:

أ. ففي الحالة الأولى، لا مشكلة كبيرة أمام الإنسان في قضية عدم الاعتراف بتلك الأشياء الفكرية المجرّدة، لأنها لا تتصل بحركة الحياة إلا من خلال علاقتها بالمعرفة العامة، أو ببعض جوانب الحياة المادية المحدودة.

ب. أما في الحالة الثانية، فإن القضية تتخذ أهميّة كبري في شخصية الإنسان وفي علاقة الفكر

بالمصير والحياة، فتتحول السلبيّة فيها إلى عملية ابتعاد عن المنهج السليم الذي يقود الإنسان نحو السلامة العامة والخاصة، كما هي الحال في قضية الإيمان لارتباطها بالنظرة العامة إلى الكون والحياة، وبالقيادات المتحركة في الكون، والدور الذي يمثله ارتباط الإنسان بها من قريب أو من بعيد، الأمر الذي يجعل منها حقيقة عملية، بالإضافة إلى ما تمثله من حقيقة موضوعية.

٧. والله سبحانه وتعالى، من سنخ هذه الحقائق التي لا بد من أن يفكر فيها الإنسان من الجهتين، أي بوصفها حقيقة موضوعية وحقيقة عملية تؤثر تأثيرا عميقا على مصير الإنسان، بل كان المصير الإنساني يتوقف عليها، من هنا، فإن الله إذا كان حقيقة موضوعية في الكون ـ كما هو معنى الإيمان ـ فإن ذلك يتدخل في طبيعة الفكر والسلوك والهدف، بينما يختلف واقع الإنسان كله إذا ما انتفى ذاك الوجود، وهكذا جاءت الآيات القرآنية التي عالجت موضوع الإيمان بالله لربط الفكر بالمصير، وربط الإيمان بحركة الحياة بين يدي الله، وذلك لإعطاء الفكر نوعا من الحيوية والحركية بشكل مميز.. وهذا ما نستوحيه من هذه الآية التي دفعت الجواب إلى الواجهة لتثبت وجود الله موضوعيا لجهة ارتباط خلق الكون به باعتباره المبرّر لوجوده.

٨. ترق الصورة، وتنساب بالحنان ليعيش معها الإنسان إحساسا بالجو الحميم الآمن المطمئن، فقد ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ لأن الخلق لم ينطلق من شعور، بل من موقع الحكمة التي تحرك الوجود في اتجاه غاية عظيمة تفيض بالرحمة على الأشياء لتصل بها إلى غايتها، ولذلك كانت الرحمة في حركة الوجود، وفي حيويّة الحياة، وما فيها من نعم وألطاف، وكانت أيضا في تنظيم حياة الإنسان على أساس المسؤولية ليحميه من نفسه ويحمي غيره منه.. وبذلك كان البعث للحساب لونا من ألوان الرحمة التي لا تعني العاطفة، بل تعني مصلحة الإنسان في وجوده وذلك لجزاء المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته، ولذلك أتبع الرحمة التي كتبها على نفسه بقوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فذلك يحقق للوجود غايته في مواجهة نتائج العمل في الدنيا، وهو الذي يحقق للإيمان قوّته، عندما يتحول إلى حركة مستقيمة تربط النتائج بمقدماتها، وتشير إلى النهاية من خلال انطلاقة البداية.

٩. وهناك يقف الناس جميعا يوم القيامة بين يدي الله، ليواجهوا حساب المسؤولية بدقة، وليأملوا الحصول على رحمته الواسعة، إلا فريقا من هؤلاء الذي لا يتعلّقون برحمته بشيء وهم الذين لا يؤمنون به ولا يعترفون بتوحيده، فهؤلاء ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وأيّ خسارة أعظم من خسارة

الإنسان نفسه، وذلك بخسرانه الأساس الوحيد لخلاصه وهو رحمة ربّه المرتبطة بخط الإيمان في الحياة!؟ وهكذا يربط القرآن بين عدم الإيمان بالله وبين خسارة الإنسان نفسه.. وقد يفهم الإنسان منها أن القضية لا تعيش في النطاق الأخروي فقط، بل تمتد إلى النطاق الدنيويّ لما يفرضه ذلك من ظلمة في التصوّر والرؤية والعمل، في مقابل ما يحصل عليه المؤمن من إشراق الروح في ذلك كله.

١٠. وتقترب الصورة من حياة الإنسان لجهة ما يحيط به من موجودات ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ فإذا بنا نلتقي بالليل والنهار كما لو كانا كونين للأحياء وللأشياء، وما يهبط أو يصعد، وما يغفو أو يستيقظ، وما يتحرك أو يسكن، وما يختزن الأفكار والمشاعر أو يبدعها ويحركها ويفجّرها ينابيع فكر وعاطفة وحياة، وما يسترخي استرخاء الجمود الصامت أمام كل عوامل الحركة والحياة، فلا يحركه شيء من هذا أو ذاك.. ولكنها تلتقي جميعا في خضوعها الإرادي والتكويني لله الذي يملكها ويملك منها ما لا تملكه من أنفسها، ولذلك فهي تتعبّد له بوجودها إن لم تتعبّد له بإحساسها وتعبيرها، فهو الذي خلقها وأودع فيها السنن الحكيمة المبدعة التي تحفظ لها سر وجودها.

١١. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ الذي يسمع كل همساتها وتجاوبها، ونبضات قلوبها، وخفقات مشاعرها، وخطرات وجدانها، وحركات كيانها، ويحيط بها بعلمه، فلا يعزب عنه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. يواصل القرآن مخاطبة المشركين، ففي الآيات السابقة دار الكلام حول التوحيد وعبادة الله الأحد وهنا يدور الحديث عن المعاد، وبالإشارة إلى مبدأ التوحيد يواصل القول عن المعاد بطريقة رائعة، هي طريقة السؤال والجواب، والسائل والمجيب كلاهما واحد، وهو من الأساليب الأدبية الجميلة.

٢. يتكون الاستدلال هنا على المعاد من مقدمتين:

أ. أوّلا: يقول: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ثمّ يقول مباشرة: أجب أنت بلسان فطرتهم

---

(١) تفسير الأمثل: ٤/ ٢٢٣.

وروحهم: ﴿قُلْ لِلَّهِ﴾، فبموجب هذه المقدمة يكون كل عالم الوجود ملكا لله وبيده وتدبيره.

ب. ثانيا: إنّ الله هو وحده مصدر كل رحمة، وهو الذي أوجب على نفسه الرحمة، ويفيض بنعمه على الجميع: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾

٣. أيمكن لربّ هذا شأنه أن يقطع سلسلة حياة البشر نهائيا بالموت فيوقف التكامل واستمرار الحياة؟ أيتفق هذا مع مبدأ كون الله (فياضا) و(ذا رحمة واسعة)؟ أيمكن أن يكون قاسيا على عباده بهذا الشكل، وهو مالكهم ومدبر شؤونهم، بحيث أنّهم بعد مدّة يفنون ويتبدلون إلى لا شيء طبعا لا، إذ أنّ رحمته الواسعة توجب عليه أن يسير بالكائنات ـ وخاصة البشر ـ في طريق التكامل، بمثل ما يجعل برحمته من البذرة الصغيرة الزهيدة شجرة ضخمة قوية، أو يحيلها إلى شجيرة ورد جميلة، كما أنّه بفيض رحمته يبدل النطفة التافهة إلى إنسان كامل، هذه الرحمة نفسها توجب أن يرتدي الإنسان ـ الذي عند امكانية الخلود ـ لباس حياة جديدة بعد موته في عالم أوسع، تدفعه يد الرحمة في سيره التكاملي الأبدي، لذلك يقول بعد هاتين المقدمتين: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾

٤. إنّ الآية تبدأ بالاستفهام التقريري الذي يراد به انتزاع الإقرار من السامع، ولمّا كان هذا الأمر مسلما به بالفطرة، كما كان المشركون يعترفون بأنّ مالك عالم الوجود ليس الأصنام، بل الله، فإن الجواب يرد مباشرة، وهذا أسلوب جميل في عرض مختلف المسائل.

٥. في مواضع أخرى من القرآن يستدل على المعاد بطرق أخرى، بطريق قانون العدالة، وقانون التكامل، والحكمة الإلهية، ولكن الاستدلال بالرحمة استدلال جديد جاءت به هذه الآية.

٦. في نهاية الآية إشارة إلى مصير المشركين المعاندين وعاقبتهم، فهؤلاء الذين أضاعوا رأس مال وجودهم في سوق تجارة الحياة، لا يؤمنون بهذه الحقائق: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، ما أعجب هذا التعبير! فقد يخسر المرء أحيانا ثروته أو مركزه أو أي نوع آخر من أنواع رأس المال، ففي هذه الحالات يكون قد خسر شيئا، ولكن هذا الشيء الذي خسره لا يكون جزءا من وجوده، أي أنّه خارج وجوده، أمّا أعظم الخسائر التي هي في الواقع الخسارة الحقيقية، فهي عندما يخسر الإنسان أصل وجوده.

٧. إنّ أعداء الحقيقة والمعاندين يخسرون تماما رأس مال العمر ورأس مال الفكر والعقل والفطرة وجميع المواهب الروحية والجسمية التي كان ينبغي لهم أن يستخدموها في طريق الحقّ للوصول إلى مرحلة

التكامل، وعندئذ لا يبقي رأس المال ولا صاحبه.

٨. لقد ورد هذا التعبير في عدد من آيات القرآن الكريم، وهي تعبيرات مرعبة عن المصير المؤلم الذي ينتظر منكري الحقيقة والمذنبين الملوثين.

٩. سؤال وإشكال: قد يقال: إنّ الحياة الأبدية تكون مصداقا للرّحمة بالنسبة للمؤمنين فقط، أمّا لغيرهم فهي لا تعدو أن تكون شقاء وتعاسة، والجواب: لا شك أنّ الله هو الذي يوفر فرص الرحمة، فهو الذي خلق الإنسان، ووهب له العقل، وأرسل له الأنبياء لقيادته وهدايته، ومنحه مختلف أنواع النعم، وفتح أمامه طريقا للحياة الخالدة، فهذه كلّها ألوان من الرحمة، والإنسان في غضون مسيرته للوصول إلى ثمرات هذه الرحمة إذا انحرف عن طريق وحول هذه الرحمة إلى عذاب وشقاء، فإن ذلك لا يخرجها عن كونها رحمة، بل الإنسان هو الملوم على الانحراف عنها وتبديلها إلى عذاب وألم.

١٠. الآية الثّانية تكمل في الواقع الآية السابقة، فالآية السابقة تشير إلى أنّ الله مالك كلّ شيء يستوعبه ظرف (المكان): ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أمّا هذه الآية فتشير إلى ملكية الله لما يستوعبه ظرف (الزمان) الوسيع، وتقول: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾

١١. في الواقع، عالم المادة هذا يتحدد بالزمان والمكان، فكل الكائنات التي تقع ضمن ظرف المكان والزمان ـ أي عالم المادة كله ـ ملك لله، وليس الليل والنهار مختصين ـ طبعا ـ بالمنظومة الشمسية، فإن لجميع كائنات السماوات والأرض ليلا ونهارا، بعضها له نهار دائم بلا ليل، ولبعضها ليل بلا نهار، ففي الشمس ـ مثلا ـ نهار دائم، فهناك ضوء دائم بلا ظلام، وفي بعض الكواكب الخامدة، التي لا نور فيها ولا تجاوز النجوم، ليل دائم سرمدي، وهذه كلّها مشمولة بالآية المذكورة.

١٢. لا بدّ هنا أن نلاحظ أنّ (سكن) والسكونة تعني التوقف والاستقرار في مكان ما، سواء أكان ذلك الموجود الساكن في حالة حركة أو سكون، نقول مثلا: فلان (ساكن) في المدينة الفلانية، أي أنّه مستقر هناك، مع أنّه يمكن أن يكون متحركا في شوارعها، كما يحتمل أن تقابل (السكون) في هذه الآية (الحركة)، ولمّا كان السكون والحركة من الحالات النسبية، فإن ذكر أحدهما يغنينا عن ذكر الآخر، وعليه يصبح معنى الآية هكذا: كل ما هو كائن في الليل والنهار وظرف الزمان ساكنا كان أم متحركا، ملك لله.

١٣. وبهذا يمكن أن تكون الآية إشارة إلى أحد أدلة التوحيد، لأن (الحركة) و(السكون) حالتان

عارضتان وحادثتان طبعا، فلا يمكن أن تكونا قديمتين أزليتين، لأن الحركة تعني وجود الشيء في مكانين مختلفين خلال زمانين، والسكون يعني وجود الشيء في مكان واحد خلال زمانين، وعليه فإن الالتفات إلى الحالة السابقة كامن في ذات الحركة والسكون، ونحن نعلم أنّ الشيء إذا كانت له حالة سابقة لا يمكن أن يكون أزليا.

١٤. نستنتج من هذا الكلام أنّ الأجسام لا تخلو من الحركة والسكون، وأنّ ما لا يخلو من الحركة والسكون لا يمكن أن يكون أزليا، وعليه فكل جسم حادث، وكل حادث لا بدّ من محدث (خالق) ولكن الله ليس جسما، فلا حركة له ولا سكون، ولا زمان ولا مكان، ولذلك فهو أبدي أزلي.

١٥. وفي نهاية الآية، وبعد ذكر التوحيد، تشير الآية إلى صفتين بارزتين في الله فتقول: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، أي أنّ اتساع عالم الوجود، والكائنات في آفاق الزمان والمكان لا تحول أبدا دون أن يكون الله عليما بأسرارها، بل إنّه يسمع نجواها، ويعلم حركة النملة الضعيفة على الصخرة الصمّاء في الليلة الظلّماء في أعماق واد سحيق صامت، وإنّه ليدرك حاجاتها وحاجات غيرها، ويعلم ما تفعل.

٨. قيومية الله والولاية والإسلام

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٨] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهَّ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

أبو هريرة:

روي عن أبي هريرة (ت ٥٨ هـ) أنّه قال: دعا رجل من الأنصار النبي ﷺ، فانطلقنا معه، فلما طعم النبي ﷺ وغسل يده قال: (الحمد لله الذي يطعم ولا يطعم، ومنّ علينا فهدانا، وأطعمنا وسقانا، وكلّ بلاءٍ حسنٍ أبلانا، الحمد لله غير مودّعٍ ربّي، ولا مكافأ، ولا مكفور، ولا مستغنى عنه، الحمد لله الذي أطعمنا من الطعام، وسقانا من الشّراب، وكسانا من العريّ، وهدانا من الضلال، وبصّرنا من العمى، وفضّلنا على كثيرٍ من خلقه تفضيلا، الحمد لله ربّ العالمين[١].

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، بديع السماوات والأرض[٢].

٢. روي أنّه قال:كنت لا أدري ما ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، يقول: أنا ابتدأتها[٣].

٣. روي أنّه قال: ﴿أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾: أوّل المصدّقين[٤].

---

(١) ابن حبان ١٢/ ٢٢.

(٢) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٦٩.

(٣) أبو عبيد في فضائله ص ٢٠٦.

(٤) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٧٠.

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) أنّه قال: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، قال خالق السماوات والأرض[(١)].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) أنّه قال: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ معناه مبتدئ خلقها.. والفطور: الصّدوع[(٢)].

السّدّيّ:

روي عن إسماعيل السّدّيّ (ت ١٢٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾، أما الوليّ فالذي يتولّاه ويقرّ له بالربوبية[(٣)].

٢. روي أنّه قال: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، خالق السماوات والأرض[(٤)].

٣. روي أنّه قال: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾، يرزق ولا يرزق[(٥)].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ﴾ وذلك أنّ كفار قريش قالوا: يا محمد، ما يحملك على ما أتيتنا به، ألا تنظر إلى ملّة أبيك عبد الله، وملّة جدك عبد المطلب، وإلى سادات قومك يعبدون اللات والعزّى ومناة! فتأخذ به، وتدع ما أنت عليه، وما يحملك على ذلك إلّا الحاجة، فنحن نجمع لك من أموالنا، وأمروه بترك عبادة الله؛ فأنزل الله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فعظّم نفسه ليعرف توحيده بصنعه[(٦)].

---

(١) عبد الرزاق ١/ ٢٠٨.

(٢) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٣.

(٣) ابن جرير ٩/ ١٧٥.

(٤) ابن جرير ٩/ ١٧٦.

(٥) ابن جرير ٩/ ١٧٦.

(٦) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٢.

٢. روي أنّه قال: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾، وهو يرزق ولا يرزق؛ لقولهم: نجمع لك من أموالنا ما يغنيك[١].

٣. روي أنّه قال: ﴿إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ يعني: أول من أخلص من أهل مكة بالتوحيد، ثم أوحى إلى النبي ﷺ، فقال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ لقولهم للنبي عليه السلام: ارجع إلى ملّة آبائك[٢].

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٣]:

١. ﴿قُلْ أَغَيْرَ الله أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ﴾ وفي حرف ابن مسعود: ربا؛ كأن هذا صلة قوله: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ للهِ﴾ فإذا أقررتم أن ذلك كله لله فكيف تتخذون له شركاء فتعبدون غير الله وهو فاطر السماوات والأرض ومنشئهما ومنشئ ما فيهما، كيف صرفتم العبادة إلى غير الله؟

٢. ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ قال أهل التأويل: هو يرزق ولا يرزق، ليس كمن له عبيد في الشاهد يرزق بعضهم بعضًا، الموالي من العبيد، والعبيد من السادات، ينتفع بعضهم من بعض، فأما الله سبحانه وتعالى خلق الخلق لا لمنفعة نفسه؛ لأنه غني بذاته، والخلق فقراء إليه؛ كقوله تعالى: ﴿أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾

٣. ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوّل مَنْ أسلم﴾ قال الحسن: أول من أسلم من قومه، وأصله: ﴿إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوّل مَنْ أسلم﴾ أي: أُمرت أن أسلم وأخضع أنا أولا، ثم آمركم بذلك.

٤. واحتج بعض الناس بظاهر هذه الآية أن الإسلام لا يلزم إلا بالأمر والدعاء إليه، وقالوا: إن من مات قبل أن يؤمر به، وقبل أن يدعي إليه ـ فإنه لا شيء عليه، وعلى ذلك من مات في وقت الفترة وانقطاع الرسل والوحي؛ لأنّه قال: ﴿إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوّل مَنْ أسلم﴾ أخبر أنه أمر بذلك، وإذا لم يكن ثَمَّ أمر لم يلزم، لكن الوجه في الآية ما ذكرنا، أي: أمرت أن أسلم وأخضع أولا ثم آمر غيري، فإذا كان

---

(١) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٢.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٢.

(٣) تأويلات أهل السنة: ٤/ ٣٤.

التأويل هذا بطل أن يكون في ذلك حجة لهم.

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ يعني إلهاً يتولاني ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني خالق السماوات والأرض ومبتديها ويقال: فطرت البئر أي ابتدأت حفرها والفطر الشق وقوله: ﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ [الملك]، أي من شقوق.

٢. ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أي يرزق ولا يرزق وقرئ لا يطعم أي لا يأكل ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ من أمته ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ هذا خطاب للنبي ﷺ والمراد به أمته.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(٢):

١. ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ يعني إلهاً يَتولاّنِي، ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي خالق السموات والأرض ومبتدئها، قال ابن عباس: كنت لا أدري ما فاطر حتى اختصم إليّ أعرابيان في بئر، فقال أحدهما لصاحبه: أنا فَطَرْتُهَا، أي ابتدأتها، وأصل الفطر الشق، ومنه ﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣] أي شقوق.

٢. ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ معناه يَرْزُقُ ولا يُرْزَق، قرأ بعضهم ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ معناه على هذه القراءة: وهو يطعم خلقه ولا يأكل.

٣. ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أوّل مَنْ أسلم﴾ يعني من أمته، وفي إسلامه هذا ثلاثة أوجه:

أ. أحدها: استسلامه لأمر الله، ومثله قول الشاعر:

طال النهار على من لقاح له ... إلا الهديّة أو ترك بإسلام

أي باستسلام.

ب. الثاني: هو دخوله في سِلْمِ الله وخروجه من عداوته.

ج. الثالث: دخوله في دين إبراهيم كقوله تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إبراهيم هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾

(١) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/ ٢٣٦.

(٢) تفسير الماوردي: ٢/ ٩٨.

[الحج: ٧٨] ويكون المراد به أول من أسلم من قريش، وقيل: من أهل مكة.

٤. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾:

أ. يحتمل أن يكون هذا خطاباً من الله لنبيه يَنْهَاهُ به عن الشرك.

ب. ويُحْتَمَل أن يكون المراد به جميع أمته، وإن توجه الخطاب إليه.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. أجمع القراء على ضم الياء وفتح العين من قوله: (ولا يطعم) وقرئ في الشواذ بفتح الياء والعين معا، فمن ضم الياء أراد أن غيره لا يطعمه في مقابلة قوله: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ﴾، ومن فتح الياء أراد أنه نفسه لا يطعم، والمعنى هو يرزق الخلق ولا يرزقه أحد، والطعمة والطعم والإطعام الرزق، قال امرؤ القيس:

مطعم للصيد ليس له ... غيرها كسب على كبره

وقال علقمة بن عدي:

ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمة ... أنى توجه والمحروم محروم

إلا ترى أنه وضع الحرمان في مقابلة الإطعام، كما يوضع أبداً مقابلا للرزق، وقيل: إنه ذكر الإطعام، لأن حاجة العباد إليه أشد، ولأن نفيه عن الله أدل على نفي شبهه بالمخلوقين، لأن الإطعام لا يجوز إلا على الأجسام.

٢. والاختيار في (فاطر) الخفض لأنه من صفة (الله)، والرفع، والنصب جائزان على المدح، فمن رفع فعلى إضمار (هو)، وتقديره: هو فاطر السماوات والأرض، وهو يطعم ولا يطعم، ومن نصب فعلى معنى: اذكروا عني.

٣. ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خالقهما، كما قال: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي خلقني، قال ابن عباس: ما كنت أدري ما معنى (فاطر) حتى اختصم الي أعرابيان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها أي ابتدأتها، وأصل الفطر الشق، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ أي انشقت، ومعنى

---

(١) تفسير الطوسي: ٤/ ٨٨.

﴿فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ خلقهما خلقا قاطعا، والانفطار، والفطور تقطع وتشقق.

٤. وفي الآية دلالة وحجة على الكفار، لأن من خلق السماوات والأرض وأنشأ ما فيهما، وأحكم تدبيرهما، وأطعم من فيهما هو الذي ليس كمثله شيء وأن الخلق فقراء إليه وهو الغني القادر القاهر، فلا يجوز لمن عرف ذلك أو جعل له السبيل إلى معرفته أن يعبد غيره.

٥. ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوّل مَنْ أسلم﴾ معناه أن أكون أول من خضع، وآمن وعرف الحق من قومي، وأن أترك ما هم عليه من الشرك، ومثله قوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أوّل الْعَابِدِينَ﴾ بأنه لم يكن للرحمن ولد، يعني من هذه الأمة، لأنه قد عبد الله النبيون والمؤمنون قبله، ومثله قوله: ﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أوّل الْمُؤْمِنِينَ﴾ ممن سألك أن تريه نفسك ـ بأنك لا ترى، وقول السحرة: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أوّل الْمُؤْمِنِينَ﴾ بأن هذا ليس بسحر، وأنه الحق، أي أول المؤمنين من السحرة، ومعنى الولي ـ ها هنا ـ الإله الذي أعبده ليتولاني، ويحفظني.

٦. ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أوّل مَنْ أسلم وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي أمرت بالأمرين معاً: أن أكون أول من أسلم من هذه الأمة، وإلا أكون من المشركين، والمعنى أمرت بذلك ونهيت عن الشرك، لأن الأمر لا يتناول إلا يكون الشيء لأنه لا يكون أمرا إلا بإرادة المأمور، والارادة لا تتعلق بألا يكون الشيء وإنما المراد ما قلناه: أنه كره مني الشرك.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. ﴿الْوَلِيُّ﴾ ينصرف على وجوه: منها: ولي المسلم الذي يلزمه القيام بحقه عند الحاجة إليه، والولي: الحليف المعاقد، وولي المرأة القائم بتزويجها، وولي المقتول: من له حق المطالبة بدمه، والولي: الناصر، والولي: المتولي، وكل من ولي من أحد فهو وليه، وأصل الباب: القُرْب، وهو الولي والولي: المطر الذي يجيء بعد الوَسْمِيِّ، سمي وليًّا؛ لأنه يلي الوَسمِيَّ، والولي أقرب إليه يسمى وليًّا، وفلان أولى بهذا الأمر أقرب، ومنه:

(١) التهذيب في التفسير: ٣/ ٥٠١.

المولى، ومعنى قوله: (أولى له) أي: قاربه ما يهلكه.

ب. الفَطْر: الشَّقُّ، فطر ناب البعير: إذا انشق فخرج، وفطره الله يفطره فطرًا وفطورًا، ومنه ﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ أي شقوق وصدوع، ومنه: الفطرة؛ لأنه تعالى خلق الخلق عليها، وأحسن ما قيل في قوله ﷺ: كل مولود يولد على الفطرة) أي للفطرة، كأنه تعالى خلقهم للعبادة والإسلام، وعن ابن عباس: كنت لا أدري ما فاطر حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما: (أنا فطرتها) أي: ابتدأتها.

٢. مما روي في سبب نزول الآية الكريمة: إن أهل مكة قالوا لرسول الله ﷺ: يا محمد تركت ملة سادة قومك، إن كان بك حاجة إلى النساء لنزوجنك، وإن كان بك جنون لنداوينك، وإن كان بك فقر لنجمعن لك مالاً، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

٣. مما ذكر في علاقة الآية الكريمة بما قبلها:

أ. تتصل بقوله: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقديره: قل يا محمد لهَؤُلَاءِ المشركين: لمن السماوات والأرض؟ فإذا قالوا: لله، قل: أفغير الله أتخذ وليًّا.

ب. وقيل: أمره أن يقول للكفار الَّذِينَ تقدم ذكرهم كيف أدعو غير الله إلهًا، وهو الخالق المدبر!؟ عن أبي مسلم.

٤. ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَغَيْرَ الله أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾:

أ. قيل: مالكًا، عن أبي مسلم.

ب. وقيل: ناصرًا.

ج. وقيل: إلهًا أعبده.

٥. ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي خالقهما ومبدؤهما ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾:

أ. يعني: يرزق العباد ويستغني عن الرزق؛ لأَنَّهُ ليس بجسم، فلا يجوز عليه ذلك.

ب. وقيل: معناه: خلقكم فقراء إلى ما تعيشون به، ثم أعطاكم ذلك، وهو مستغن عما أفقركم إليه، ومن الواجب عبادة الخالق الغني، لا المخلوق المحتاج.

٦. ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنِّي أُمِرْتُ﴾ أي أمرني ربي ﴿أَنْ أَكُونَ أوّل مَنْ أسلم﴾:

أ. أي أول مخلص من أمتي، وأول من آمن بالقرآن والشرائع.

ب. وقيل: أمرت إلى البدار إلى الإيمان بذلك، عن أبي مسلم.

ج. وقيل: أمرت أن أكون أول من استسلم لأمر الله، وانقاد لرسوله ورضي بحكمه.

د. وقيل: أول من دخل في الحنيفية ملة إبراهيم.

هـ. وقيل: أول قومي وأمتي أسلم بعد القترة، عن الحسن، والمراد به الشرعيات، وإنما كان أول؛ لأنه خص بالوحي فلزمه قبل أن يلزم غيره.

٧. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي أمرني ربي إلا أشرك به شيئًا.

٨. تدل الآية الكريمة على:

أ. أنه ﷺ ترك المعصية حذرًا وخوفا خلاف ما يقوله بعضهم: إنه كالممنوع، وخلاف قول الْمُجْبِرَةِ: إنه لم يخلق فيه، سؤال وإشكال: أليس عندكم أن الخوف ظن المضرة، وهو يعلم يقينًا أنه لا يعاقَب ولا يَعْصِي، فكيف يخاف؟ والجواب: المراد بالخوف الحذر؛ لأنه علق الخوف بوقوع المعصية.

ب. أن لا معصية إلا ويُسْتَحَق بها العقاب، فلذلك أطلقه، سؤال وإشكال: كيف يستحق على الصغائر؟ والجواب: أما عند أبي هاشم فيستحق، ثم يسقط ويسقط ما يقابله من الثواب، وعند أبي علي يسقطه الثواب ولا يسقط معه، فالاستحقاق ثابت في الوجهين.

ج. أن المكلف إذا سقط العقاب عنه فهو من أهل الثواب، وذلك لأنه إنما يسقط بالتوبة فيستحق الثواب عليها خلاف ما تقوله المرجئة، أنه يكون مكلفًا لا يستحق الثواب ولا العقاب، سؤال وإشكال: الرحمة المراد بها الغفران؟ والجواب: إذا حمل على زيادة فائدة دون التكرار كان أولى.

د. سؤال وإشكال: الآية تدل على أن أحدًا لا يدخل الجنة إلا برحمته دون عمله، والجواب: جميع ما يستحقه المكلف فهو من جهته تعالى؛ لأن منها ما هو تفضل، ومنها ما حصل له؛ لأنه عرضه لتلك المنزلة، ومنها لأنه أعانه عليه ومكنه ولطف له، وأزاح العلة، وتضمن الثواب.

هـ. سؤال وإشكال: هل يدخل في الآية غير المكلف؟ والجواب: لا؛ لأن المراد من يصرف عنه العذاب المستحق فقد رحمه، وذلك يختص المكلف.

٩. قراءة العامة ﴿يُطْعِمُ﴾ بكسر العين ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾ بفتح العين على معنى أنه يعطي الطعام والرزق، ولا يُرْزَق، وهو يتعالى عن ذلك، وعن أشهب العقيلي: كلاهما بكسر العين، ومعناه إنه يطعم من

يشاء ولا يطعم من يشاء، يعني أنه قادر على أن يُطْعِم ولا يُطْعِم، وقيل: معناه يطعم ولا يستطعم، وقيل: يطعمه الله، والولي لا يطعمه، وقرأ بعضهم ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾ معناه: ولا يطعم البتَّة.

١٠. قرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحفص عن عاصم ﴿يُصْرَفْ﴾ بضم الياء وفتح الراء على ما لم يسم فاعله، وقرأ أبو بكر عن عاصم وحمزة والكسائي ﴿يُصْرَفْ﴾ بفتح الياء وكسر الراء على أن الضمير يرجع إلى اسم الله تعالى أي يصرفه هو، والأول يرجع إلى العذاب المصروف، والصارف هو الله تعالى والملائكة بأمره.

١١. مسائل لغوية ونحوية:

أ. ﴿وَلِيًّا﴾ نصب لأنه مفعول، و﴿غَيْرُ﴾، بدل عنه، تقديره: أتخذ وليًّا غير الله.

ب. ﴿فَاطِرُ﴾ كسر لأنه من نعت الله، وقرئ برفع الراء من ﴿فَاطِرُ﴾، قيل: ابتداء، وقيل: خبر ابتداء بتقدير: هو فاطر.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿فَاطِرِ﴾ الفطرة: ابتداء الخلقة، قال ابن عباس: ما كنت أدري معنى (الفاطر) حتى احتكم إلي أعرابيان في بئر، فقال أحدهما، أنا فطرتها أي: ابتدأت حفرها،وأصل الفطر: الشق، ومنه: (إذا انفطرت السماء) أي: انشقت، قال الزجاج: فإن قال قائل: كيف يكون الفطر في معنى الخلق، والانفطار في معنى الانشقاق؟ قيل: إنهما يرجعان إلى شيء واحد، لأن معنى فطرهما، خلقهما خلقا قاطعا.

٢. ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين سبق ذكرهم ﴿أَغَيْرَ الله أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ أي: مالكا، ومولى، وولي الشيء مالكه الذي هو أولى من غيره،والمعنى: لا أتخذ غير الله وليا، إلا أن اخراجه على لفظ الاستفهام أبلغ من سائر ألفاظ النفي.

٣. ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما ومنشئهما من غير احتذاء على مثال ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أي: يرزق ولا يرزق، والمراد: يرزق الخلق، ولا يرزقه أحد، وقيل: إنما ذكر الإطعام، لأن

(١) تفسير الطبرسي: ٤/ ١٣.

حاجة العباد إليه أشد، ولأن نفيه عن الله أدل على نفي شبهه بالمخلوقين، لأن الحاجة إلى الطعام لا تجوز إلا على الأجسام، واحتج سبحانه بهذا على الكفار، لأن من خلق السماوات والأرض، وأنشأ ما فيهما، وأحكم تدبيرهما، وأطعم من فيهما، وهم فقراء إليه، معلوم أنه الذي ليس كمثله شيء وهو القادر، القاهر، الغني، الحي، فلا يجوز لمن عرف ذلك أن يعبد غيره.

٤. ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنِّي أُمِرْتُ﴾ أي: أمرني ربي ﴿أَنْ أَكُونَ أَوّل مَنْ أسلم﴾:

أ. أي: استسلم لأمر الله ورضي بحكمه.

ب. وقيل: معناه أمرت أن أكون أول من أخلص العبادة من أهل هذا الزمان، عن الكلبي.

ج. وقيل: أول من أسلم من أمتي، وآمن بعد الفترة، عن الحسن، وإنما كان أول، لأنه خص بالوحي.

د. وقيل: معناه أن أكون أول من خضع، وآمن، وعرف الحق من قومي، وأن أترك ما هم عليه من الشرك، ونظيره قول موسى عليه السلام: ﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوّل الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بأنك لا ترى ممن سألك أن تريه نفسك، وقول السحرة: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوّل الْمُؤْمِنِينَ﴾ بأن هذا ليس بسحر، وانه الحق أي: أول المؤمنين من السحرة.

٥. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ المعنى: أمرت بالأمرين جميعا أي: أمرت بالإيمان، ونهيت عن الشرك، وتقديره وقيل لي: لا تكونن من المشركين، وصار ﴿أُمِرْتَ﴾ بدلا من ذلك، لأنه حين قال: ﴿أُمِرْتَ﴾ أخبر أنه قيل له ذلك، فقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ معطوف على ما قبله في المعنى.

٦. روي في الشواذ قراءة عكرمة والأعمش ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾ بفتح الياء، ومعناه: ولا يأكل.

٧. ﴿غَيْرَ﴾ نصب لأنه مفعول، ﴿أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ مفعول ثان.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾، ذكر مقاتل أن سبب نزولها، أنّ كفّار قريش قالوا: يا محمد، إلا ترجع

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٢/ ١٤.

إلى دين آبائك؟ فنزلت هذه الآية.

٢. هذا الاستفهام معناه الإنكار؛ أي: لا أتّخذ وليّا غير الله أتولّاه، وأعبده، وأستعينه.

٣. ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الجمهور على كسر راء (فاطر)، وقرأ ابن أبي عبلة برفعها، قال أبو عبيدة: الفاطر، معناه: الخالق، وقال ابن قتيبة: المبتدئ، ومنه (كل مولود يولد على الفطرة) أي: على ابتداء الخلقة، وهو الإقرار بالله حين أخذ العهد عليهم في أصلاب آبائهم، وقال ابن عباس: كنت لا أدري ما فاطر السّماوات والأرض، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر؛ فقال أحدهما: أنا فطرتها، أي: أنا ابتدأتها، قال الزّجاج: إن قيل: كيف يكون الفطر بمعنى الخلق؛ والانفطار الانشقاق في ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ فالجواب: إنما يرجعان إلى شيء واحد، لأن معنى (فطرهما): خلقهما خلقا قاطعا، والانفطار، والفطور: تقطّع وتشقّق.

٤. ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ قرأ الجمهور بضمّ الياء من الثّاني؛ ومعناه: وهو يرزق ولا يرزق، لأن بعض العبيد يرزق مولاه، وقرأ عكرمة والأعمش (ولا يطعم) بفتح الياء، قال الزّجاج: وهذا الاختيار عند البصراء بالعربية، ومعناه: وهو يرزق ويطعم ولا يأكل.

٥. ﴿إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّل مَنْ أسلم﴾ أي: أول مسلم من هذه الأمة؛ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ قال الأخفش: معناه: وقيل لي: لا تكوننّ، فصارت: أمرت، بدلا من ذلك؛ لأنه حين قال أمرت، قد أخبر أنه قيل له.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

لما قرر الله تعالى المعاني السابقة قال: ﴿قُلْ أَغَيْرَ الله أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾، وفرق بين أن يقال: ﴿أَغَيْرَ الله أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ وبين أن يقال: أتخذ غير الله وليا لأن الإنكار إنما حصل على اتخاذ غير الله وليا، لا على اتخاذ الولي، وقد عرفت أنهم يقدمون الأهم فالأهم الذي هم بشأنه أعنى فكأن قوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ الله أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ أولى من العبارة الثانية، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ الله تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ﴾ [الزمر: ٦٤]، وقوله تعالى: ﴿آللهُ أَذِنَ

---

(١) التفسير الكبير: ١٢/ ٤٩٢.

لَكُمْ﴾ [يونس: ٥٩]

١. ثم قال: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وقرئ ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ﴾ بالجر صفة لله وبالرفع على إضمار (هو) والنصب على المدح، وقرأ الزهري فطر السماوات وعن ابن عباس: ما عرفت ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ﴾ حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها أي ابتدأتها وقال ابن الأنباري: أصل الفطر شق الشيء عند ابتدائه، فقوله: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يريد خالقهما ومنشئهما بالتركيب الذي سبيله أن يحصل فيه الشق والتأليف عند ضم الأشياء إلى بعض، فلما كان الأصل الشق جاز أن يكون في حال شق إصلاح وفي حال أخرى شق إفساد، ففاطر السموات من الإصلاح لا غير، وقوله: ﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣] و﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الإنفطار: ١] من الإفساد، وأصلهما واحد.

٢. ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أي وهو الرازق لغيره ولا يرزقه أحد.

٣. سؤال وإشكال: كيف فسرت الإطعام بالرزق؟ وقد قال تعالى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٧] والعطف يوجب المغايرة، والجواب: لا شك في حصول المغايرة بينهما، إلا أنه قد يحسن جعل أحدهما كناية عن الآخر لشدة ما بينهما من المقاربة والمقصود من الآية: أن المنافع كلها من عنده، ولا يجوز عليه الانتفاع.

٤. قرئ ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾ بفتح الياء، وروى ابن المأمون عن يعقوب ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ على بناء الأول للمفعول الثاني للفاعل، وعلى هذا التقدير: فالضمير عائد إلى المذكور في قوله: ﴿أَغَيْرَ اللهِ﴾ وقرأ الأشهب وهو يطعم ولا يطعم على بنائهما للفاعل، وفسر بأن معناه: وهو يطعم ولا يستطعم، وحكى الأزهري: أطعمت بمعنى استطعمت، ويجوز أن يكون المعنى: وهو يطعم تارة ولا يطعم أخرى على حسب المصالح كقوله: وهو يعطي ويمنع، ويبسط ويقدر، ويغني ويفقر.

٥. المذكور في صدر الآية هو المنع من اتخاذ غير الله تعالى وليا، واحتج عليه بأنه فاطر السموات والأرض وبأنه يطعم ولا يطعم، ومتى كان الأمر كذلك امتنع اتخاذ غيره وليا:

أ. أما بيان أنه فاطر السموات والأرض، فلأنا بينا أن ما سوى الواحد ممكن لذاته، والممكن لذاته لا يقع موجودا إلا بإيجاد غيره، فنتج أن ما سوى الله فهو حاصل بإيجاده وتكوينه، فثبت أنه سبحانه هو الفاطر لكل ما سواه من الموجودات.

ب. وأما بيان أنه يطعم ولا يطعم فظاهره لأن الإطعام عبارة عن إيصال المنافع، وعدم الاستطعام عبارة عن عدم الانتفاع، ولما كان هو المبديء تعالى وتقدس لكل ما سواه، كان لا محالة هو المبديء لحصول جميع المنافع، ولما كان واجبا لذاته كان لا محالة غنيا ومتعاليا عن الانتفاع بشيء آخر فثبت بالبرهان صحة أنه تعالى فاطر السموات والأرض، وصحة أنه يطعم ولا يطعم.

ج. وإذا ثبت هذا امتنع في العقل اتخاذ غيره وليا لأن ما سواه محتاج في ذاته وفي جميع صفاته وفي جميع ما تحت يده، والحق سبحانه هو الغني لذاته الجواد لذاته، وترك الغني الجواد، والذهاب إلى الفقير المحتاج ممنوع عنه في صريح العقل.

٦. سبق في هذا الكتاب بيان أن الولي معناه الأصلي في اللغة: هو القريب، وقد ذكرنا وجوه الاشتقاقات فيه، فقوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ الله أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ يمنع من القرب من غير الله تعالى، فهذا يقتضي تنزيه القلب عن الالتفات إلى غير الله تعالى، وقطع العلائق عن كل ما سوى الله تعالى.

٧. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوّل مَنْ أسلم﴾ والسبب أن النبي ﷺ سابق أمته في الإسلام لقوله: ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوّل الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٣] ولقول موسى: ﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوّل الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]

٨. ثم قال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ومعناه أمرت بالإسلام ونهيت عن الشرك.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿قُلْ أَغَيْرَ الله أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ مفعولان، لما دعوه إلى عبادة الأصنام دين آبائه أنزل الله تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿أَغَيْرَ الله أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ أي ربا ومعبودا وناصرا دون الله.

٢. ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بالخفض على النعت لاسم الله، وأجاز الأخفش الرفع على إضمار مبتدأ، وقال الزجاج: ويجوز النصب على المدح، أبو علي الفارسي: ويجوز نصبه على فعل مضمر كأنه قال أترك فاطر السماوات والأرض؟ لأن قوله: ﴿أَغَيْرَ الله أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ يدل على ترك الولاية له، وحسن إضماره

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/ ٣٩٧.

لقوة هذه الدلالة.

٣. ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ كذا قراءة العامة، أي يرزق ولا يرزق، دليله قوله تعالى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات] وقرأ سعيد بن جبير ومجاهد والأعمش: وهو يطعم ولا يطعم، وهي قراءة حسنة، أي أنه يرزق عباده، وهو سبحانه غير محتاج إلى ما يحتاج إليه المخلوقون من الغذاء، وقرى بضم الياء وكسر العين في الفعلين، أي إن الله يطعم عباده ويرزقهم والولي لا يطعم نفسه ولا من يتخذه، وقرى بفتح الياء والعين في الأول أي الولي.

٤. ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾ بضم الياء وكسر العين، وخص الإطعام بالذكر دون غيره من ضروب الإنعام، لأن الحاجة إليه أمس لجميع الأنام.

٥. ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوّل مَنْ أسلم﴾ أي استسلم لأمر الله تعالى، وقيل: أول من أخلص أي من قومي وأمتي، عن الحسن وغيره.

٦. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي وقيل لي: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ الاستفهام للإنكار، قال لهم ذلك لما دعوه إلى عبادة الأصنام، ولما كان الإنكار لاتخاذ غير الله وليا، لا لاتخاذ الولي مطلقا، دخلت الهمزة على المفعول لا على الفعل. والمراد بالولي هنا: المعبود: أي كيف أتخذ غير الله معبودا؟

٢. ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مجرور على أنه نعت لاسم الله، وأجاز الأخفش الرفع على إضمار مبتدأ، وأجاز الزجاج النصب على المدح، وأجاز أبو علي الفارسي نصبه بفعل مضمر كأنه قيل: أترك فاطر السموات والأرض.

٣. ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ قرأ الجمهور بضم الياء وكسر العين في الأول، وضمها وفتح العين في الثاني: أي يرزق ولا يرزق، وقرأ سعيد بن جبير ومجاهد والأعمش بفتح الياء في الثاني وفتح العين،

---

(١) فتح القدير: ٢/ ١٢٠.

وقرئ بفتح الياء والعين في الأول وضمها وكسر العين في الثاني على أن الضمير يعود إلى الولي المذكور، وخص الإطعام دون غيره من ضروب الإنعام لأن الحاجة إليه أمس.

٤. ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أمره سبحانه بعد ما تقدم من اتخاذ غير الله وليا أن يقول لهم: إنه مأمور بأن يكون أول من أسلم وجهه لله من قومه، وأخلص من أمته، وقيل: معنى أسلم استسلم لأمر الله.

٥. ثم نهاه الله عز وجل أن يكون من المشركين. والمعنى: أمرت بأن أكون أول من أسلم ونهيت عن الشرك أي يقول لهم هذا.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿قُل﴾ لهم: ﴿اَغَيْرَ الله أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ الاستفهام إنكارٌ، والمراد مطلق الوليّ، وليٌّ معبود أو غير معبود، نفى أن يتَّخذ غير الله وليًّا، وأثبت أنَّ وليَّه الله وحده، فالمنكر اتِّخَاذ غير الله وَلِيًّا، لا اتِّخَاذ الوليِّ مطلقًا، ولذلك قَدَّمَ المفعول الثاني وهو (غَيْرَ)، وأولاه الهمزة كما أولى لفظ (غَيْرَ) الهمزةَ في قوله تعالى: ﴿قُلَ اَغَيْرَ الله أَبْغِي رَبًّا﴾ [الأنعام: ١٦٦] إذ كان المنكر غير الله، ومعنى اتِّخَاذ غيرِ الله [وَلِيًّا] عبادةُ غيره، ويجوز أن تكون العبادة في لفظ (وَلِيًّا) لا في (أَتَّخِذُ)، أي: أَتَّخِذُ معبودًا، وذلك أنَّ الإنكار في الآية ردٌّ على من دعا رسول الله ﷺ إلى الإشراك، إذ قالوا له: إنَّما تركت دين قومك لفقرك، فارجع إليهم نجمع لك ما تكون به أغنانا، لا يقال الردُّ عليهم بأن يقال: اتَّخذ غير الله وَلِيًّا، لأن المشرك لم يخصَّ عبادته بغير الله تعالى، لأنَّا نقول: من أشرك بالله تعالى غيره لم يتَّخذ الله معبودًا، لأنَّه لا تجتمع عبادته سبحانه مع عبادة غيره، قلت:

لَمَنْ صافى عدوَّك أو يعادي ... صديقك في معاداةٍ عَرِيقُ
ومن صافى صديقك أو ... يعادي عدوَّك أو عدوَّه صديقُ

ولام لَمَن للابتداء، وهاء (عدوَّه) للصديق، ولو أدخل الإنكار على (أَتَّخِذُ) وقال: أأَتَّخِذُ غير الله وليًّا

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/ ٢١١.

لحصل المقصود من إنكار اتِّخَاذ غير الله وليًّا، لكن لَمَّا كان متعلّق الإنكار غير الله كان تقديم غير الله أهمَّ، وقيل: (وَلِيًّا) بمعنى نصير، فإذا انتفى اتِّخَاذ غير الله ناصرًا فأولى أن ينتفي اتِّخَاذه معبودًا، ويجوز أن يكون الكلام من الإخراج على خلاف مقتضى الظاهر لإِمحَاضِ النصح، كقوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرجَعُونَ﴾ [يس: ٢٢]

٢. ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾ نعت للفظ الجلالة لأنَّه للماضي، فليست (السَّمَاوَات) مفعولاً به لفظًا ولا تقديرًا، فالإضافة محضة تفيد التعريف، كما أنَّ المنعوت معرفة، ولا يَضُرُّ الفصل بينهما بجملة (أَتَّخِذُ)؛ لأنَّها غير أجنبيَّة، إذ عمل فعلها في عامل الموصوف، ولا يترجَّح البدل بكون فصله أسهل؛ لأنَّه يقابل بكون البدل بالمشتقِّ ضعيفًا، عن ابن عبَّاس: ما عرفتُ معنى (فَاطِر) حتَّى اختصم إليَّ أعرابيَّان في بئر، فقال أحدهما: (أنا فطرتها)، أي: ابتدأتها، ومعنى فطرةِ الله: ما أبدع في الناس من معرفته، والفَطْرُ: الإيجاد على غير مثال، كما يفعل الله، وعلى مثال كما في كلام ابن عبَّاس، ولا يختصُّ بالأَوَّلِ كما قيل.

٣. ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ﴾ غيرَه مأكولاً ومشروبًا، ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فإنه مِنِّي﴾ [البقرة: ٢٤٩]، ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾ لا يرزقه غيرُه مأكولاً ولا مشروبًا؛ لأنَّه لا يوصف بالأكل والشرب، ولا يحتاج إلى شيء، قال تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ يُّطْعِمُونِ إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات: ٥٧ ـ ٥٨]، وعبَّر بالخاصِّ ـ وهو الإطعام ـ عن العامِّ ـ وهو مطلق الرزق الشامل لِكُلِّ منفعة ـ على المجاز المرسل التبعيِّ، واشتقَّ منه (يُطْعِمُ) بمعنى يرزق، وحكمة ذلك أنَّ الأكل والشرب أعظم الرزق وأعظم ما يحتاج إليه منه قلَّ أو كثر.

٤. ﴿قُلِ اِنِّيَ أُمِرْتُ أَنَ اَكُونَ أَوّل مَنَ أسلم﴾ اِنقَادَ من هذه الأمة، وذلك أنَّ كلَّ نبيء أوّل أمته في الإيمان بما أوحي إليه، لأنَّه يعلم قبل غيره بما أوحي إليه، وتتبعه أمته فيه أو تكفر، وَأَوَّل من آمن به من هذا الإيحاء ولو أوحي أيضًا قبله، وآمن غيره لنزوله قبل فهو موحى إليه بأن يسلم كغيره، ويؤمن بنبوءة نفسه ورسالته، وكأنَّه أرسل إلى نفسه، وينبغي لِكُلِّ آمر بشيء أن يسبق إلى عمله إن كان مِمَّا له عمله؛ لأنَّه أَدْعَى إلى الامتثال، كما قال موسى: ﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، أو ذلك تحريض، كما يأمر الملك الرعيَّة بشيء، ويقول: أنا أوّل من يفعل، ليمتثلوا، ولا يلزم من الأمر بشيء أن يكون المأمور قد امتنع منه، وهو ﷺ لم يمتنع، فلا إشكال، لَكِنَّ الحمل على هذا خلاف الأصل.

٥. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ عطف على (قُلْ) عطف نهيٍ على أمر، و(لا) ناهيةٌ، كقولك: (كلْ ولا تَشربْ)، كلَّفه الله تعالى بأَن يقول: (إِنِّي أُمِرْتُ،،،) وبأن لا يكون من المشركين، ولا حاجة إلى تقدير: (وقيل لي: لا تكوننَّ من المشركين)، ولا إلى دعوى الالتفات من التَّكَلُّم إلى الخطاب، وأنَّ الأصل: (ولا أكونن) عطفًا على (أُمِرْتُ)، وأنَّ (لا) نافية، وأنَّه ساغ التوكيد لأن المراد النهي، ولا إلى دعوى تأويل (أُمِرْتُ) بـ (قيل لي)، فيكون العطف على (أَنَ اَكُونَ)، و(لا) ناهيةٌ.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿قُلْ﴾ أي لكفار مكة المبكّتين بما تقدم: ﴿أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ أي معبودا، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أيها الْجَاهِلُونَ﴾، والمعنى: لا أتخذ وليّا إلا الله وحده.

٢. ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق، بالجر، صفة للجلالة، موكدة للإنكار.

٣. ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أي: يرزق ولا يرزق، أي: المنافع كلها من عنده، ولا يجوز عليه الانتفاع، أي: فيجب اتخاذه وليّا ليعبد شكرا على إنعامه، وكفايته الحوائج بلا طلب عوض، قيل: المراد بالطعم الرزق، بمعناه اللغويّ، وهو كل ما ينتفع به، بدليل وقوعه مقابلا له في قوله تعالى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٧]، فعبر بالخاص عن العام مجازا، لأنه أعظمه وأكثره، لشدة الحاجة إليه، واكتفى به عن العام، لأنه يعلم، من نفي ذلك، نفي ما سواه.

٤. ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوّل مَنْ أسلم﴾ أي: وجهه لله مخلصا له، لأصير متبوعا للباقين، كقوله: ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أوّل الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٣]، وكقول موسى: ﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوّل الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]

٥. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: وقيل لي: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾، فهو معطوف على ﴿أُمِرْتَ﴾ بمعنى: أمرت بالإسلام، ونهيت عن الشرك صريحا مؤكدا، بعد النهي في ضمن الأمر، ونهي المتبوع نهي

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/ ٣٢٦.

التابعين، ويجوز عطفه على ﴿قُلْ﴾، وفي الآية إرشاد إلى أن كل آمر ينبغي أن يكون عاملا بما أمر به، لأنه مقتداهم، قيل: هذه الآية للتحريض، كما يأمر الملك رعيته بأمر، ثم يقول: وأنا أول من يفعل ذلك، ليحملهم على الامتثال.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. بعد هذا القول الذي أمر الله به رسوله للتذكير بأنه الرب المالك لكل شيء المتصرف بالفعل والتدبير في كل شيء حتى دقائق الأشياء والأمور وخفاياها، وأن تصرفه هذا عن علم محيط لا يعزب عنه مثال ذرة ولا دبيب نملة، أمره بقول آخر بين فيه ما يستلزمه ما قبله من وجوب ولايته تعالى وحده والتوجه إليه دون سواه في كل ما هو فوق كسب البشر، والاعتماد على توفيقه فيما هو من كسبهم، ولا يتم به المراد بمحض سعيهم فقال: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾، الولي الناصر ومتولي الأمر المتصرف فيه، والاستفهام هنا لإنكار اتخاذ غير الله وليا لا لإنكار اتخاذ الولي مطلقا ولهذا لم يقل: أأتخذ وليا غير الله، ولا: أأتخذ غير الله وكيلا، ومثله ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤] وإنما يتحقق اتخاذ غير الله وليا في صورة واحدة وهو أن يطلب من غيره النصر أو غير النصر من ضروب التصرف في النفع والضر فعلا ومنعا فيما هو فوق كسب ذلك الغير وتصرفه الذي منحه الله لأبناء جنسه، ولذلك فسر الولي بالمعبود في هذا المقام، وأما تناصر المخلوقين وتولي بعضهم لبعض فيما هو من كسبهم العادي فلا يدخل في عموم اتخاذ غير الله وليا أو اتخاذهم أولياء من دون الله، فقد أثنى الله تعالى على المؤمنين بأن بعضهم أولياء بعض، وبين أيضا أن الكفار بعضهم أولياء بعض، وقد تقدم بيان هذا من قبل.

٢. وقد كان المشركون من الوثنيين ومن طرأ عليهم الشرك من أهل الكتاب يتخذون معبوداتهم وأنبياءهم وصلحائهم أولياء من دون الله تعالى بمعنى أنهم بندائهم ودعائهم والتوجه إليه والاستغاثة بهم يشفعون لهم عند الله تعالى في قضاء حاجتهم من نصر على عدو وشفاء من مرض وسعة في رزق وغير ذلك، فكان هذا عبادة منهم لهم وجعلهم شركاء لله باعتقاد كون حصول المطلوب من غير أسبابه العادية

---

(١) تفسير المنار: ٧/ ٢٧٦.

التي مضت بها السنن الإلهية العامة قد كان بمجموع إرادة هؤلاء الأولياء وإرادة الله تعالى، فمقتضى هذا الاعتقاد أن إرادة الله تعالى ما تعلقت بفعل ذلك المطلب إلا بالتبع لإرادة الولي الشافع أو المتخذ وليا شفيعا، والحق أن إرادة الله تعالى أزلية لا يمكن أن تؤثر فيها المحدثات، كما تقدم تقريره مرارا بشواهد الآيات القرآنية.

٣. ثم وصف الله تعالى بما ينافي اتخاذ غيره وليا فقال: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مبدعهما أي مبدئهما على غير مثال سابق، وروي عن ابن عباس أنه قال: ما عرفت ما فاطر السماوات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها، أي ابتدعتها، وأصل الفطر الشق، ومنه ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١] بمعنى ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١] وقيل للكمأة فطر لأنها تفطر الأرض فتخرج منها، وإيجاد البئر إنما يبتدأ بشق الأرض بالحفر، وقد كانت المادة التي خلق الله منها السماوات والأرض كتلة واحدة دخانية، ففتق رتقها وفصل منها أجرام السماوات والأرض، وذلك ضرب من الفطر والشق ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠] الرؤية هنا علمية..

٤. وصف الله تعالى بفاطر السماوات والأرض ـ وهو لا نزاع فيه ـ يؤيد إنكار اتخاذ غيره وليا يستنصر ويستعان به أو يتخذ واسطة للتأثير في الإرادة الإلهية، فإن من فطر السماوات والأرض بمحض إرادته من غير تأثير مؤثر ولا شفاعة شافع يجب أن يتوجه إليه وحده بالدعاء، وإياه يستعان في كل ما وراء الأسباب، وأكد هذا بقوله: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أي يرزق الناس الطعام ولا يحتاج إلى من يرزقه ويطعمه لأنه منزه عن الحاجة إلى الطعام وغيره غني بنفسه عن كل ما سواه، وقرأ أبو عمرو (ولا يطعم) بفتح الياء، أي لا يأكل، وهذه الجملة حالية مؤيدة لإنكار اتخاذ ولي غير الله، وفيها تعريض بمن اتخذوا أولياء من دونه من البشر بأنهم محتاجون إلى الطعام لا حياة لهم ولا بقاء إلى الأجل المحدود بدونه، وإن الله تعالى هو الذي خلق لهم الطعام فهم عاجزون عن البقاء بدونه وعاجزون عن خلقه وإيجاده فكيف يتخذون أولياء مع الغني الحميد، الرزاق الفعال لما يريد، كما قال في الاحتجاج على النصارى في عبادة المسيح وأمه عليهما السلام ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] وأما الأولياء المتخذة من غير البشر كالأصنام، فهي أضعف وأعجز من البشر، لاتفاق عقلاء

الأمم كلها على تفضيل الحيوان على الجماد، وتفضيل الإنسان على جميع أنواع الحيوان.

٥. ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوّل مَنْ أسلم﴾ أي قل أيها الرسول بعد إيراد هذه الآيات والحجج على وجوب عبادة الله وحده وعدم اتخاذ غيره وليا: إني أمرت من لدن ربي الموصوف بما ذكر من الصفات أن أكون أول من أسلم إليه وانقاد لدينه من هذه الأمة التي بعثت فيها، فلست أدعو إلى شيء لا آخذ به، بل أنا أول مؤمن وعامل بهذا الدين.

٦. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي وقيل لي بعد هذا الأمر بالسبق إلى إسلام الوجه له: لا تكونن من المشركين الذين اتخذوا من دونه أولياء يزعمون أنهم يقربونهم إليه زلفى، فأنا أتبرأ من دينكم ومنكم، وحاصل المعنى أنني أمرت بالإسلام ونهيت عن الشرك، كذا قيل، والأولى أن يقال: إن حاصله الجمع بين الإسلام والبراءة من الشرك وأهله.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. بعد هذا القول الذي أمر رسوله للتذكير بأنه المالك لكل شيء والمدبر لكل شيء إذ هو سميع لكل شيء ولا يعزب عن علمه شيء ـ أمره هنا بقول آخر لازم لما سبق، وهو وجوب ولايته تعالى وجده والتوجه إليه دون سواه في كل ما هو فوق كسب البشر، والاعتماد على توفيقه فيما هو من كسبهم فقال: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ أي قل لهم: لا أطلب من غيره نفعا ولا ضرا، لا فعلا ولا منعا، فيما هو فوق كسبه وتصرفه الذي منحه الله لأبناء جنسه، أما تناصر المخلوقين وتولّي بعضهم بعضا فيما هو من كسبهم العادي، فلا يدخل في عموم الإنكار الذي يفهم من الآية، فقد أثنى الله على المؤمنين بأن بعضهم أولياء بعض، وقد كان المشركون من الوثنيين ومن طرأ عليهم الشرك من أهل الكتاب يتخذون معبوداتهم وأنبياءهم وصلحاءهم أولياء من دون الله، يتوجهون إليهم بالدعاء ويستغيثون بهم ويستشفعون بهم عند الله في قضاء حاجاتهم من نصر على عدو وشفاء من مرض وسعة في رزق إلى نحو أولئك، وهذا بلا شك عبادة وشرك بالله لاعتقادهم أن حصول المطلوب من غير أسبابه العادية قد كان بمجموع إرادة هؤلاء

---

(١) تفسير المراغي ٧/ ٨٩.

الأولياء وإرادة الله، ويلزم هذا أن إرادة الله ما تعلقت بفعل ذلك المطلب إلا تبعا لإرادة الولي الشافع أو المتّخذ وليا وشفيعا.

٢. ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي إنه تعالى أوجدهما على غير مثال سابق، وقد روى عن ابن عباس أنه قال ما عرفت ما فاطر السموات والأرض؟ حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها أي ابتدعتها، وقد كانت المادة التي خلقت منها السموات والأرض كتلة واحدة دخانية، ففتق رتقها وفصل منها أجرام السموات والأرض، وهذا ولا شك ضرب من الفطر والشق، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾، وفى ذلك تعريض بأن من فطر السموات والأرض بمحض إرادته بدون تأثير مؤثر ولا شفاعة شافع ينبغي إلا يتوجّه إلى غيره بالدعاء ولا يستعان بسواه في كل ما وراء الأسباب.

٣. وقد أكد هذا المعنى وزاده تثبيتا بقوله: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أي إنه يرزق الناس الطعام وليس هو بحاجة إلى من يرزقه ويطعمه، لأنه منزه عن الحاجة إلى كل ما سواه، أيا كان نوعها، وفى هذا إيماء إلى أن من اتخذوا أولياء من دونه من البشر محتاجون إلى الطعام ولا حياة لهم بدونه، وأن الله هو الذي خلق لهم الطعام فهم عاجزون عن خلقه، وعاجزون عن البقاء بدونه فأحرى بهم إلا يتّخذوا أولياء مع الغنىّ الرّزاق الفعال لما يريد، وإذا كان الإنكار توجه إلى البشر فأولى به أن يتوجه إلى الأصنام والأوثان لأنها أضعف من البشر إذ قد اتفق العقلاء على تفضيل الحيوان على الجماد والإنسان على جميع أنواع الحيوان.

٤. ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أوّل مَنْ أسلم﴾ أي قل لهم بعد أن استبانت لديكم الأدلة على وجوب عبادة الله وحده وعدم اتخاذ غيره وليا: إني أمرت من ربى الموصوف بجليل الصفات أن أكون أول من أسلم إليه وانقاد لديه من تلك الأمة التي بعثت فيها، فلا أدعو إلى شيء إلا كنت أول مؤمن به سائر على نهجه.

٥. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي وقيل لي بعد إسلام الوجه له: لا تكونن من المشركين الذين اتخذوا من دونه أولياء ليقربوهم إليه زلفى، وخلاصة ذلك ـ إني أمرت بالإسلام ونهيت عن الشرك.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١][٢]:

١. الآن، وقد تقرر أن الله وحده هو الخالق، وأن الله وحده هو المالك.. يجيء الاستنكار العنيف للاستنصار بغير الله، والعبودية لغير الله، والولاء لغير الله، ويتقرر أن هذا مناقض لحقيقة الإسلام لله، وأنه هو الشرك الذي لا يجتمع مع الإسلام، وتذكر من صفات الله سبحانه: أنه فاطر السماوات والأرض، وأنه الرازق المطعم، وأنه الضار النافع، وأنه القادر القاهر، كما يذكر العذاب المخوف المرهوب.. فتجلل الموقف كله ظلال الجلال والرهبة، في إيقاع مدوّ عميق.

٢. إن هذه القضية.. قضية اتخاذ الله وحده وليا، بكل معاني كلمة (الولي)، أي اتخاذه وحده ربا ومولى معبودا يدين له العبد بالعبودية ممثلة في الخضوع لحاكميته وحده؛ ويدين له بالعبادة فيقدم له شعائرها وحده، واتخاذه وحده ناصرا يستنصر به ويعتمد عليه، ويتوجه إليه في الملمات.. إن هذه القضية هي قضية العقيدة في صميمها، فإما إخلاص الولاء لله ـ بهذه المعاني كلها ـ فهو الإسلام، وإما إشراك غيره معه في أي منها، فهو الشرك الذي لا يجتمع في قلب واحد هو والإسلام! وفي هذه الآيات تقرر هذه الحقيقة بأقوى عبارة وأعمق إيقاع.

٣. إنه منطق الفطرة القوي العميق.. لمن يكون الولاء ولمن يتمحض؟ لمن إن لم يكن لفاطر السماوات والأرض الذي خلقهما وأنشأهما؟ لمن إن لم يكن لرازق من في السماوات والأرض الذي يطعم ولا يطلب طعاما؟

٤. ﴿قُلْ أَغَيْرَ الله أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾، وهذه صفاته سبحانه.. أي منطق يسمح بأن يتخذ غير الله وليا؟ إن كان يتولاه لينصره ويعينه، فالله هو فاطر السماوات والأرض، فله السلطان في السماوات والأرض، وإن كان يتولاه ليرزقه ويطعمه، فالله هو الرازق المطعم لمن في السماوات ومن في الأرض، ففيم الولاء لغير صاحب السلطان الرزاق؟

٥. ثم.. ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوّل مَنْ أسلم وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، والإسلام وعدم الشرك معناهما المتعين إلا أتخذ غير الله وليا، فاتخاذ غير الله وليا ـ بأي معنى ـ هو الشرك، ولن يكون الشرك

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/ ١٠٥٥.

(٢) في ظلال القرآن: ٢/ ١٠٥٥.

إسلاما.. قضية واحدة محددة، لا تقبل لينا ولا تميعا.. إما إفراد الله سبحانه بالتوجه والتلقي والطاعة والخضوع والعبادة والاستعانة؛ والإقرار له وحده بالحاكمية في كل أمر من هذه الأمور ورفض إشراك غيره معه فيها؛ وولاء القلب والعمل، في الشعيرة والشريعة له وحده بلا شريك.. إما هذا كله فهو الإسلام.. وإما إشراك أحد من عباده معه في شيء من هذا كله فهو الشرك، الذي لا يجتمع في قلب واحد مع الإسلام.

٦. لقد أمر رسول الله ﷺ أن يعلن هذا الاستنكار في وجه المشركين الذين كانوا يدعونه إلى الملاينة والمداهنة؛ ليجعل لآلهتهم مكانا في دينه، مقابل أن يدخلوا معه في هذا الدين، وليترك لهم بعض خصائص الألوهية يزاولونها إبقاء على مكانتهم وكبريائهم ومصالحهم.. أولها: تقاليد التحريم والتحليل.. في مقابل أن يكفوا عن معارضته، وأن يجعلوه رئيسا فيهم؛ ويجمعوا له من مالهم، ويزوجوه أجمل بناتهم! لقد كانوا يرفعون يدا للإيذاء والحرب والتنكيل، ويمدون يدا بالإغراء والمصالحة واللين.. وفي وجه هذه المحاولة المزدوجة أمر رسول الله ﷺ أن يقذف بهذا الاستنكار العنيف، وبهذا الحسم الصريح، وبهذا التقرير الذي لا يدع مجالا للتمييع.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ استفهام إنكاري وكأنه ينكر على نفسه أن تدعوه إلى أن يتخذ من دون الله وليّا ومعينا، أو ينكر على غيره أن يدعوه إلى تلك الدعوة المنكرة.. والمعنى: إني لا أتخذ وليّا ومعتمدا أعتمد عليه، وأستعين به، غير الله، ذي الحول والطول، وذي القدرة التي لا يعجزها شيء.. تلك القدرة التي كان من صنعتها هذا الوجود كلّه، في سماواته وأرضه، أوجدهما سبحانه ابتداء على غير مثال ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

٢. وهذا الاستفهام الإنكاريّ، أقوى قوة، في إظهار الولاء الخالص للهّ، والثبات عليه ـ من الخبر التقريريّ بالولاء، إذ فيه إنكار لموالاة غير الله أولا، ثم إقبال على موالاته سبحانه، ثانيا، وفي هذه العملية

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/ ١٤١.

إثارة للعقل وتحريك للوجدان، ومواجهة لمن يدعوهم الدّاعون أن يتخذوا أولياء من دون الله.. حتى إذا أنكرهم العقل ولفظهم الشعور، أقبل المرء على الله، وقد صفّى حسابه مع هذه الضلالات القائمة على طريقه إلى الله، فيلقى ربّه بكيانه كله، ويلقى إليه بولائه خالصا..

٣. ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أي فالله المستحقّ لأن يتخذه الناس وليّا، ومعتمدا، هو الذي فطر السموات والأرض، وهو الذي يقوت المخلوقات ويطعمها، ويمدّها بما يحفظ وجودها، دون أن يكون لهذا مقابل.. وإنما هو فضل وكرم من ربّ العالمين، المستغنى عن كلّ عون، الغنيّ عن كل مخلوق.. وكيف لمن كان مصدر العطاء أن يكون محتاجا إلى عطاء؟ وكيف لمن يستمدّ منه العون أن يكون محتاجا إلى معين؟ تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا.

٤. ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوّل مَنْ أسلم﴾ هذا ما أمر به النبيّ من ربّه، وهو أن يكون أول من أسلم وجهه لله، وأول من ألقى بنفسه بين يديه، ووالاه.. إذ كان ﷺ ـ هو مفتتح دعوة الإسلام، وحامل رسالتها إلى المسلمين، فكان أول من آمن بها، واستقام على هديها.. وذلك بعد أن استدلّ على خالقه بتفكيره في خلقه، وأنكر أن يتخذ وليّا من دونه، وهو الذي فطر السموات والأرض.. وهو الذي يطعم ولا يطعم، فإذا جاءت دعوة الله تعالى إليه صادفت تلك الدعوة قلبا مستقبلا لها..

٥. والأمر هنا، هو الدعوة إلى الإيمان بالله، من الله، وإلى نبي الله، وليس في هذا الأمر إلزام ولا قهر، ولكن النبيّ الكريم في استجابته لربّه، وفي مبادرته إلى الاستجابة، واحتفائه بها، وشدّ نفسه إليها، وعقد قلبه عليها كل أولئك قد جعل الدّعوة الإلهية أمرا يتلقّاه النبيّ بكيانه كله، ويعطيه كل ما قدر عليه من قوة وعزم.

٦. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ هو عطف على الأمر المفهوم من قوله تعالى: ﴿أُمِرْتَ﴾ أي أن الله سبحانه وتعالى أمرني بأن أكون أول من أسلم، فقال لي كن أول من أسلم، ونهانى عن أن أشرك به فقال لي ولا تكوننّ من المشركين.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾، استئناف آخر ناشئ عن جملة: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ للهِّ﴾ [الأنعام: ١٢]

٢. وأعيد الأمر بالقول اهتماما بهذا المقول، لأنّه غرض آخر غير الذي أمر فيه بالقول قبله، فإنه لّما تقرّر بالقول، السابق عبودية ما في السماوات والأرض لله وأنّ مصير كلّ ذلك إليه انتقل إلى تقرير وجوب إفراده بالعبادة، لأن ذلك نتيجة لازمة لكونه مالكا لجميع ما احتوته السماوات والأرض، فكان هذا التقرير جاريا على طريقة التعريض إذ أمر الرسول ﷺ بالتبري من أن يعبد غير الله، والمقصود الإنكار على الذين عبدوا غيره واتّخذوهم أولياء، كما يقول القائل بمحضر المجادل المكابر (لا أجحد الحقّ) لدلالة المقام على أنّ الرسول ﷺ لا يصدر منه ذلك، كيف وقد علموا أنّه دعاهم إلى توحيد الله من أول بعثته، وهذه السورة ما نزلت إلا بعد البعثة بسنين كثيرة، كما استخلصناه ممّا تقدّم في صدر السورة.

٣. وقد ذكر ابن عطية عن بعض المفسّرين أنّ هذا القول أمر به الرسول ﷺ ليجيب المشركين الذين دعوه إلى عبادة أصنامهم، أي هو مثل ما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أيها الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤]، وهو لعمري ممّا يشعر به أسلوب الكلام وإن قال ابن عطية: إنّ ظاهر الآية لا يتضمّنه كيف ولا بدّ للاستئناف من نكتة.

٤. والاستفهام للإنكار، وقدّم المفعول الأول لـ ﴿اتَّخَذَ﴾ على الفعل وفاعله ليكون مواليا للاستفهام لأنّه هو المقصود بالإنكار لا مطلق اتّخاذ الوليّ، وشأن همزة الاستفهام بجميع استعمالاته أن يليها جزء الجملة المستفهم عنه كالمنكر هنا، فالتقديم للاهتمام به، وهو من جزئيات العناية التي قال فيها عبد القاهر أن لا بدّ من بيان وجه العناية، وليس مفيدا للتخصيص في مثل هذا لظهور أنّ داعي التقديم هو تعيين المراد بالاستفهام فلا يتعيّن أن يكون لغرض غير ذلك، فمن جعل التقديم هنا مفيدا للاختصاص، أي انحصار إنكار اتّخاذ الولي في غير الله كما مال إليه بعض شرّاح (الكشاف) فقد تكلّف ما يشهد الاستعمال والذوق بخلافه، وكلام (الكشاف) بريء منه بل الحقّ أنّ التقديم هنا ليس إلا للاهتمام

(١) التحرير والتنوير: ٦/ ٣٧.

بشأن المقدّم ـ ليلي أداة الاستفهام فيعلم أن محلّ الإنكار هو اتّخاذ غير الله وليّا، وأما ما زاد على ذلك فلا التفات إليه من المتكلم.

٥. ولعلّ الذي حداهم إلى ذلك أنّ المفعول في هذه الآية ونظائرها مثل ﴿أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ﴾ [الزمر: ٦٤] ﴿أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠] هو كلمة ﴿غَيْرُ﴾ المضافة إلى اسم الجلالة، وهي عامّة في كلّ ما عدا الله، فكان الله ملحوظا من لفظ المفعول فكان إنكار اتّخاذ الله وليّا لأن إنكار اتّخاذ غيره وليّا مستلزما عدم إنكار اتّخاذ الله وليّا، لأن إنكار اتّخاذ غير الله لا يبقى معه إلا اتّخاذ الله وليّا؛ فكان هذا التركيب مستلزما معنى القصر وائلا إليه وليس هو بدالّ على القصر مطابقة، ولا مفيدا لما يفيده القصر الإضافي من قلب اعتقاد أو إفراد أو تعيين، ألا ترى أنّه لو كان المفعول خلاف كلمة (غير) لما صحّ اعتبار القصر، كما لو قلت: أزيدا أتتّخذ صديقا، لم يكن مفيدا إلا إنكار اتّخاذ زيد صديقا من غير التفات إلى اتّخاذ غيره، وإنما ذلك لأنّك تراه ليس أهلا للصداقة فلا فرق بينه وبين قولك: أتتّخذ زيدا صديقا، إلا أنّك أردت توجّه الإنكار للمتّخذ لا للاتّخاذ اهتماما به، والفرق بينهما دقيق فأجد فيه نظرك.

٦. ثم إن كان المشركون قد سألوا من النبي ﷺ أن يتّخذ أصنامهم أولياء كان لتقديم المفعول نكتة اهتمام ثانية وهي كونه جوابا لكلام هو المقصود منه كما في قوله: ﴿أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أيها الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤]، وقوله: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا﴾ [الأعراف: ١٢]، وأشار صاحب (الكشاف) في قوله: ﴿أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ الآتي في آخر السورة إلى أنّ تقديم ﴿غَيْرُ اللهِ﴾ على ﴿أَبْغِي﴾ لكونه جوابا عن ندائهم له إلى عبادة آلهتهم، قال الطيبي: لأن كل تقديم إمّا للاهتمام أو لجواب إنكار.

٧. والوليّ: الناصر المدبّر، ففيه معنى العلم والقدرة، يقال: تولّى فلانا، أي اتّخذه ناصرا، وسمّي الحليف وليّا لأن المقصود من الحلف النصرة، ولمّا كان الإله هو الذي يرجع إليه عابده سمّي وليّا لذلك، ومن أسمائه تعالى الولي.

٨. والفاطر: المبدع والخالق، وأصله من الفطر وهو الشقّ، وعن ابن عباس: ما عرفت معنى الفاطر حتى اختصم إليّ أعرابيات في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، وإجراء هذا الوصف على اسم الجلالة دون وصف آخر استدلال على عدم جدارة غيره لأن يتّخذ وليّا، فهو ناظر إلى قوله: في أول السورة ﴿الْحَمْدُ

لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، وليس يغني عنه قوله قبله ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ للهِّ﴾ [الأنعام: ١٢] لأن ذلك استدلال عليهم بالعبودية لله وهذا استدلال بالافتقار إلى الله في أسباب بقائهم إلى أجل.

٩. وقوله: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ﴾ جملة في موضع الحال، أي يعطي الناس ما يأكلونه ممّا أخرج لهم من الأرض: من حبوب وثمار وكلإ وصيد، وهذا استدلال على المشركين بما هو مسلّم عندهم، لأنّهم يعترفون بأنّ الرازق هو الله وهو خالق المخلوقات وإنما جعلوا الآلهة الأخرى شركاء في استحقاق العبادة، وقد كثر الاحتجاج على المشركين في القرآن بمثل هذا كقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤]

١٠. وأمّا قوله: ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾ - بضم الياء وفتح العين - فتكميل دالّ على الغنى المطلق كقوله تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٧]، ولا أثر له في الاستدلال إذ ليس في آلهة العرب ما كانوا يطعمونه الطعام، ويجوز أن يراد التعريض بهم فيما يقدّمونه إلى أصنامهم من القرابين وما يهرقون عليها من الدماء، إذ لا يخلو فعلهم من اعتقاد أنّ الأصنام تنعم بذلك.

١١. ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أوّل مَنْ أسلم وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، استئناف مكرّر لأسلوب الاستئناف الذي قبله، ومثار الاستئنافين واحد ولكن الغرض منهما مختلف، لأن ما قبله يحوم حول الاستدلال بدلالة العقل على إبطال الشرك، وهذا استدلال بدلالة الوحي الذي فيه الأمر باتّباع دين الإسلام وما بني عليه اسم الإسلام من صرف الوجه إلى الله، كما قال في الآية الأخرى ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للهِّ﴾ [آل عمران: ٢٠]، فهذا إبطال لطعنهم في الدين الذي جاء به المسمّى بالإسلام، وشعاره كلمة التوحيد المبطلة للإشراك، وبني فعل ﴿أُمِرْتَ﴾ للمفعول، لأن فاعل هذا الأمر معلوم بما تكرّر من إسناد الوحي إلى الله.

١٢. ومعنى ﴿أوّل مَنْ أسلم﴾:

أ. أنّه أول من يتّصف بالإسلام الذي بعثه الله به، فهو الإسلام الخاصّ الذي جاء به القرآن، وهو زائد على ما آمن به الرسل من قبل، بما فيه من وضوح البيان والسماحة، فلا ينافي أنّ بعض الرسل وصفوا بأنّهم مسلمون، كما في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم ويعقوب: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا

تَمُوتُنَّ إلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ وقد تقدّم بيان ذلك عند ذكر تلك الآية في سورة البقرة [١٣٢]

ب. ويجوز أن يكون المراد أول من أسلم ممّن دعوا إلى الإسلام.

ج. ويجوز أن يكون الأول كناية عن الأقوى والأمكن في الإسلام، لأن الأول في كلّ عمل هو الأحرص عليه والأعلق به، فالأوليّة تستلزم الحرص والقوة في العمل، كما حكى الله تعالى عن موسى قوله: ﴿وَأَنَا أوّل الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فإن كونه أوّلهم معلوم وإنما أراد: أنّي الآن بعد الصعقة أقوى الناس إيمانا، وفي الحديث: (نحن الآخرون الأولون يوم القيامة)، وقد تقدّم شيء من هذا عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا أوّل كَافِرٍ بِهِ﴾ في سورة البقرة [٤١]

د. والمقصود من هذا على جميع الوجوه تأييس المشركين من عوده إلى دينهم لأنّهم ربّما كانوا إذا رأوا منه رحمة بهم ولينا في القول طمعوا في رجوعه إلى دينهم وقالوا إنّه دين آبائه.

١٣. وقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ عطف على قوله: ﴿قُلْ﴾، أي قل لهم ذلك لييأسوا، والكلام نهي من الله لرسوله مقصود منه تأكيد الأمر بالإسلام، لأن الأمر بالشيء يقتضي النهي عن ضدّه، فذكر النهي عن الضدّ بعد ذلك تأكيد له، وهذا التأكيد لتقطع جرثومة الشرك من هذا الدين.

١٤. و﴿مِنَ﴾ تبعيضية، فمعنى ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي من جملة الذين يشركون، ويحتمل أنّ النهي عن الانتماء إلى المشركين، أي هو أمر بالبراءة منهم فتكون ﴿مِنَ﴾ اتّصالية ويكون ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾ بالمعنى اللقبي، أي الذي اشتهروا بهذا الاسم، أي لا يكن منك شيء فيه صلة بالمشركين، كقول النّابغة: (فإنّي لست منك ولست منّي)، والتأييس على هذا الوجه أشدّ وأقوى.

١٥. وقد يؤخذ من هذه الآية استدلال للمأثور عن الأشعري: أنّ الإيمان بالله وحده ليس ممّا يجب بدليل العقل بل تتوقّف المؤاخذة به على بعثة الرسول، لأن الله أمر نبيّه ﷺ أن ينكر أن يتّخذ غير الله وليّا لأنّه فاطر السماوات والأرض، ثم أمره أن يقول ﴿إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أوّل مَنْ أسلم﴾ ثم أمره بما يدلّ على المؤاخذة بقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ [الأنعام: ١٥، ١٦]

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. إذا كان الله سبحانه وتعالى وهو الذى يملك كل من في السموات والأرض من إنس وجن وملائكة وغير ذلك، وهو المسيطر عليها ليلا ونهارا، وهو الذى فطر السموات والأرض، وأنشأهما على غير مثال، فإن الله سبحانه هو الحق والنصير، وهو المعبود، وإن أولئك المشركين يريدونك أن تعدل عن اتخاذ الله تعالى وليا ونصيرا، ومعاضدا، ومؤيدا، وأن تتخذ أحجارا لا تسمع ولا تبصر، ولا تضر ولا تنفع، ولذلك أمر الله تعالى نبيه أن يخاطبهم مستنكرا ما هم فيه من اتخاذهم غير الله أولياء، وجاعلا الاستنكار منه ﷺ، والاستنكار بالنسبة لرسول الله ﷺ استنكارا للوقوع فهو بمعنى النفي عنه ﷺ، أي لا يمكن أن يقع منه ﷺ، وبالنسبة لهم استنكار لما يقع منهم فهو توبيخ، والاستنكار لأعمالهم واقع ضمنا، في استنكار النبي ﷺ على نفسه أن يقع منه ذلك، والنبي ﷺ ينفى وقوعه منه، ويوبخ من عملوا ذلك.

٢. والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء الذين أشركوا بالله غيره في العبادة وادعوا أن الأوثان تقربهم إلى الله تعالى زلفى ـ أنا لا أتخذ غير الله وليا، وقدم في الاستفهام كلمة ﴿أَغَيْرَ اللهِ﴾ لأن ذلك موضع الشناعة عليهم في الاستنكار؛ إذ إنه موضع الغرابة أن يكون غير الله متخذا وليا، فكان ذات الاتخاذ غريبا في ذاته، والإشراك في ذاته ترك لعبادة الله وعدم اتخاذه وحده وليا ونصيرا؛ لأن الولاية الحق هي لله وحده، فاتخاذ أي ولى معه ترك لولاية الله تعالى، والولي يطلق بمعنى النصير، وبمعنى المعبود، وبمعنى الصديق الحميم، وهو هنا بمعنى النصير المعبود، فلا يستنصر إلا الله، ولا يعبد سواه.

٣. وقد ذكر سبحانه على لسان نبيه الكريم عملين له سبحانه يوجبان أن ينفرد وحده بالعبادة:

أ. أحدهما: ما ذكر سبحانه وتعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي منشئهما على غير مثال سبق، ابتداء حيث لم تكونا من قبل، وقد قال مجاهد التابعى تلميذ ابن عباس: (سمعت ابن عباس يقول: كنت لا أدرى ما فاطر السموات والأرض، حتى أتاني أعرابيان يختصمان إلى في بئر، فقال أحدهما لصاحبه: أنا فطرتها، يقول: أنا ابتدأتها ـ أي ابتدأ ـ بشقها)، ونقول: إنه ليس بمعقول أن يكون ابن عباس جاهلا بالمعنى المفهوم من السياق، ولكن لعله كان لا يعلم أصلها في اللغة، وكيف كانوا يستعملونها؛ حتى التقى

(١) زهرة التفاسير: ٥/ ٢٤٥٣.

بالأعرابيين، فوضح لديه أصل الاستعمال، وفطر السموات والأرض يوجب أن تكون الولاية لله وحده؛ لأنه الخالق لهذا الوجود والذين يشركونهن معه، لا يملكن لأنفسهن ضرا ولا نفعا، فكيف نتصور ولاية لهن بجوار ولاية الله الخالق المنشئ.

ب. الثاني: أن الله لا يحتاج، وغيره يحتاج، فهو يطعم كل من في هذا الوجود، ويمده بأسباب الحياة والنماء ولا يطعمه أحد، وهذا على قراءة ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾ بالبناء للمجهول، وهناك قراءة بالبناء للمعلوم، والمعنى فيها أنه يطعم من يشاء بالرزق الموفور، ولا يطعم من يشاء بالتقتير عليه في الرزق.

٤. ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوّل مَنْ أسلم وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، كما أمر الله تعالى نبيه بأن يستنكر أن يتخذ غير الله وليا، وهو الذى أبدع ذلك الوجود، وكل ما فيه يحتاج إليه، وهو لا يحتاج إلى أحد، وكنى عن هذا الاحتياج بإطعام غيره إذ أشد الحاجة تكون إلى الطعام، بعد هذا أمر الله تعالى نبيه بأن يقول إنه أمر أن يكون أول من أسلم، وفى ذلك بيان أن الإسلام مطلوب من الجميع وأن النبي ﷺ أول من يؤمر بالإذعان لله تعالى والخضوع له، وفى بيان أمر النبي ﷺ بذلك مع أنه بالبداهة أول من خوطب بالإسلام، وأمر بما اشتمل عليه، كان أمر النبي ﷺ بذلك؛ ليكون أسوة حسنة لهم، كما قال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب]، ولأن الاقتداء دعوة حسية، ولأن في الإنسان نزوعا إلى التقليد، واتباع المهتدين.

٥. والتعبير بقوله تعالى: ﴿أَنْ أَكُونَ أَوّل مَنْ أسلم﴾ تعبير بالحال الواقعة من النبي ﷺ، بأن يكون في حال أول من ينشئ الإسلام ويذعن لله سبحانه وتعالى، وكأنه يقول لهم: أنا منكم، وأمرت أن أكون أول من يخترق الحجزات لأذعن لله الواحد الأحد الفرد الصمد.

٦. ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي أنه كما أمر أن يكون أول المذعنين لأوامر الله تعالى المخلصين له، نهى أن يكون من المشركين، بأن يكون في صفوف المشركين الذين يجعلون مع الله تعالى غيره معبودا، وأن أخرج من صفوف المشركين وإن كانوا قومي وعشيرتى، وفيهم الأقربون.

٧. سؤال وإشكال: كيف تعطف الجملة الإنشائية على الجملة الخبرية، إذ إن الأولى: أمرت، والثانية: ولا تكونن من المشركين؟ والجواب: أجاب عن ذلك العلماء بإجابات مختلفة، والذى نراه أن الجملة الأولى: ظاهرها إخبارية، ولكن لتضمنها معنى الأمر كانت في معنى الجملة الطلبية الإنشائية، فإن

نسق الكلام هكذا (كن أول من أسلم ولا تكونن من المشركين)

٨. سؤال وإشكال: لماذا كان النهى عن الشرك بعد الأمر بأن يكون أول مذعن لمطالب الإيمان بالوحدانية؟ والجواب: أن النهى هو عن أن يكون من المشركين بأن يتبرأ منهم، ومن إشراكهم، ويخرج من صفوفهم، ولو كانوا قومه وعشيرته القربى، وإذا خرج من صفوف أهل الكفر كان في حزب الله، وحزب الله تعالى هم المفلحون.

٩. سؤال وإشكال: لماذا كان الالتفات من الإخبار الظاهر في قوله تعالى: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أوّل مَنْ أسلم﴾ إلى الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾؟ والجواب: أن الخطاب فيه توكيد معنى النهى عن الشرك، وكلتا الجملتين للخطاب كما خرجنا في الأمر الأول، والله تعالى هو وحده الذى يملك الأمر والنهى.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿قُلْ أَغَيْرَ الله أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾؟ وكيف استعين بغيره، وهو﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾، ومن دونه لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا.

٢. ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أوّل مَنْ أسلم﴾، لأن محمدا ﷺ هو الداعي الأول إلى الإسلام، فيكون هو المسلم الأول من أمته، وإلا كان من الذين يأمرون ولا يأتمرون.. حاشا من اصطفاه الله لرسالته، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، ومحال أن يكون منهم، وإنما صح هذا النهي لأنه موجه من الأعلى إلى من هو دونه، كما قلنا أكثر من مرة.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿قُلْ أَغَيْرَ الله أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ شروع في الاحتجاج على وحدانيته تعالى وأن لا شريك له، والذي يتحصل من تاريخ الوثنية واتخاذ الأصنام والآلهة أنهم كانوا

---

(١) التفسير الكاشف: ٣/ ١٦٩.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ٧/ ٣١.

إنما دانوا بذلك وخضعوا للآلهة لأحد أمرين:

أ. إما أنهم وجدوا أنفسهم في حاجة إلى أسباب كثيرة في إبقاء الحياة كالتغذي بالطعام واللباس والمسكن والأزواج الأولاد والعشيرة ونحو ذلك، وعمدتها الطعام الذي حاجة الإنسان إليه أشد من حاجته إلى غيره بحسب النظر الساذج، وقد اعتقدوا أن لكل صنف من أصناف هذه الحوائج تعلقا بسبب هو الذي يجود لهم بالتمتع من وسيلة رفع تلك الحاجة كالسبب الذي يمطر السماء فينبت المرعى والكلأ لدوابهم ويمنع بالخصب لأنفسهم، والسبب الذي يدبر أمر السهل والجبل أو يلقي بالمحبة والألفة أو إليه أمر البحر والسفائن الجارية فيه، ثم وجدوا أن قوتهم لا تفي بالتسلط على تلك الحاجة أو الحوائج الضرورية فاضطروا إلى الخضوع إلى السبب المربوط بحاجتهم واتخاذه إلها ثم عبادته.

ب. وإما لأنهم وجدوا هذا الإنسان الأعزل غرضا لسهام الحوادث محصورا بمكاره وشرور عامة عظيمة لا يقاومها كالسيل والزلزلة والطوفان والقحط والوباء، وبلايا ومحن أخرى جزئية لا يحصيها كالأمراض والأوجاع والسقوط والفقر والعقم والعدو والحاسد والشانئ وغير ذلك، ثم وضعوا لها أسبابا قاهرة هي المرسلة لها إليهم، والقاصمة بها ظهورهم، والمكدرة لصفوة عيشهم، وهي مخلوقات علوية كأرباب الأنواع وأرواح الكواكب والأجرام العلوية فاتخذوها آلهة خوفا من سخطهم وعذابهم، وعبدوها ليستميلوها بالعبادة ويرضوها بالخضوع والاستكانة فيخلصوا بذلك عن المكاره والرزايا ويأمنوا شرورها والمضار النازلة منها إليهم.

٢. والآية ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾، والآيات التالية لها تحتج على المشركين بقلب حجتيهم بعينهما إليهم أي تسلم أصل الحجة وتعدها حقة لكن تبين أن لازمها أن يعبد الله سبحانه وحده، وينفى عنه كل شريك موضوع، فقوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ إشارة إلى الحجة من المسلك الأول، وهو مسلك الرجاء أن يعبد الإله لأنه منعم فيكون عبادته شكرا لإنعامه سببا لمزيده، أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يبين لهم في صورة الاستفهام والسؤال أن الله سبحانه وحده هو الولي للنعمة التي يتنعم بها الإنسان وغيره لأنه هو الرازق الذي لا يحتاج إلى أن يرزقه غيره يطعم ولا يطعم، والدليل عليه أنه تعالى هو الذي فطر السماوات والأرض، وأخرجها من ظلمة العدم إلى نور الوجود، وأنعم عليها بنعمة التحقق والثبوت، ثم أفاض عليها بنعم لا يحصيها إلا هو لإبقاء وجودها،

ومنها الإطعام للإنسان وغيره فإن جميع هذه النعم المعدة لبقاء وجود الإنسان وغيره، والأسباب التي تسوق تلك النعم إلى محال الاستحقاق كل ذلك ينتهي إلى فطرة وإيجاده الأشياء والأسباب ومسبباتها جميعا من صنعه، فإليه سبحانه يرجع الرزق الذي من أهم مظاهره عند الإنسان الإطعام فيجب أن يعبد الله وحده لأنه هو الذي يطعمنا من غير حاجة إلى إطعام من غيره.

٣. فظهر بما بيناه:

أ. أولا: أن التعبير عن العبودية والتأله باتخاذ الولي في قوله: ﴿أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ إنما هو لكون الحجة مسوقة من جهة إنعامه تعالى بالإطعام.

ب. وثانيا: أن التعلق بقوله: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إنما هو لبيان سبب انحصار الإطعام به تعالى كما تقدم تقريره، وربما استفيد ذلك من التعريض الذي في قوله: ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾ فإن فيه تعريضا بكون سائر من اتخذوهم آلهة محتاجين كعيسى وغيره إلى إطعام أو ما يجري مجراه، ومن الممكن أن يستفاد من ذكره في الحجة أنه إشارة إلى مسلك آخر في إقامة الحجة على توحيده تعالى هو أشرف من المسلكين جميعا، ومحصله أن الله سبحانه هو الموجد لهذا العالم، وإلى فطرة ينتهي كل شيء فيجب الخضوع له، ووجه كون هذا المسلك أشرف: هو أن المسلكين الآخرين وإن كانا أنتجا توحيد الإله من جهة أنه معبود لكنهما لا يخلوان مع ذلك من شيء وهو أنهما ينتجان وجوب عبادته طمعا في النعمة أو خوفا من النقمة فالمطلوب بالذات هو جلب النعمة أو الأمن من النقمة دونه تعالى وتقدس، وأما هذا المسلك فإنه ينتج وجوب عبادة الله لأنه الله سبحانه.

ج. وثالثا: أن اختصاص الإطعام من بين نعمه تعالى على كثرتها بالذكر إنما العناية فيه كون الإطعام بحسب النظر الساذج أوضح حوائج الحيوان العائش ومنه الإنسان.

٤. ثم أمر سبحانه بعد تمام الحجة نبيه ﷺ أن يذكر لهم ما يؤيد به هذه الحجة العقلية، وهو أن الله أمره من طريق الوحي أن يجري في اتخاذ الإله على الطريق الذي يهدي إليه العقل وهو التوحيد، ونهاه صريحا أن يتخطاه إلى أن يلحق بالمشركين فقال: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أوّل مَنْ أسلم﴾ ثم قال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

٥. بقي هنا أمران:

أ. أحدهما: أن قوله: ﴿أوّل مَنْ أسلم﴾ إن كان المراد أول من أسلم من بينكم فهو ظاهر فقد أسلم ﷺ قبل أمته، وإن كان المراد به أول من أسلم من غير تقييد كما هو ظاهر الإطلاق كانت أوليته في ذلك بحسب الرتبة دون الزمان.

ب. ثانيهما: أن نتيجة الحجة لما كانت هي العبودية وهي نوع خضوع وتسليم كان استعمال لفظة الإسلام في المقام أولى من لفظة الإيمان لما فيه من الدلالة على غرض العبادة، وهو الخضوع.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ ﴿وَلِيًّا﴾ يتولى أموري ويرعاني ويدبر مصالحي ويدفع عني، ولا يكون هكذا إلا الله العالم بأحوالي، القادر على إصلاح أمري، السميع لدعائي، فأما غيره فإنه يجهل ويعجز ويبخل، فكيف أتخذ غير الله ولياً!؟ قال الشرفي في (المصابيح): (وإنما أولى غير الله (همزة الاستفهام دون الفعل الذي هو﴿اتَّخَذَ﴾ لأن الإنكار في اتخاذ غير الله ولياً لا في اتخاذ الولي) يعني أن محط الإنكار غير الله كيف يتخذ ولياً مع وجود ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ القادر على كل شيء العليم بكل شيء الذي ﴿يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ فهو الوهاب الكريم، الغني الذي لا يحتاج، فهو الذي ينفع من اتخذه إلهاً يدعوه ويرجوه لرعاية مصالحه.

٢. ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أوّل مَنْ أسلم﴾ فلا بدَّ لي من إسلام وجهي لله قبل الناس كلهم، وهذا دليل على أهمية الإسلام لله ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فهم أعداء الله عباد الشيطان، فلا تكونن واحداً منهم، وفي هذا زجر للمشركين عن الشرك، حيث نهى أن يكون واحداً منهم، ولم يقل: ولا تشرك.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ وهل يصلح غيره للولاية، وهل يمكن أن يتولى الولاية من لا يملك من أمره شيئا، وهو المخلوق الذي يحتاج في وجوده إلى الخالق، وفي استمرار حياته إلى من يغذيه ويطعمه

---

(١) التيسير في التفسير: ٢/ ٤٢٠.

(٢) من وحى القرآن: ٩/ ٤٦.

وينميه ويرعاه، وكيف يمكن أن يتولّى رعاية المحتاج الضعيف محتاج ضعيف مثله؟

٢. إن الولاية تمثل الإشراف والرعاية والاحتواء في كل ما يحتاجه الإنسان من شؤون القوة والحركة والحياة، مما يفرض القدرة التي تتحرك في أكثر من اتجاه، وتلتقي بأكثر من مجال، وتواجه كل المواقف بما يناسبها أمام كل التحديات المباشرة وغير المباشرة.. وهل هناك غير الله ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الذي أبدعها بكل ما فيها من مخلوقات حيّة وجامدة، فهو الغني عن كل شيء فيها، إذ لا شيء في الوجود إلا خلقه!؟

٣. ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ﴾ فمنه كل غذاء الإنسان والحياة والنبات والجماد، ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾ لأنه ليس جسما يحتاج إلى التغذية والتنمية، بل هو الذي خلق الغذاء والنمو في داخل حركة الجسم.

٤. وهكذا تتمثل الولاية من الله واقعا حيّا يعيشه الإنسان كهاجس في الشعور الداخلي، وكطاعة في ممارسته لحركة الإيمان وها هو يواجه الكون كله بالطاعة للأمر الإلهي بالإسلام لله بأن يكون أول من أسلم: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوّل مَنْ أسلم﴾ وذلك هو مظهر العبودية الحقة؛ أن لا يكون لك موقف أو كلام أو انتماء خارج نطاق أمر الله ونهيه، بل أن يكون كيانك كله لله في استسلام خاضع خاشع حتى الانسحاق أمامه، وإذا كان الحديث في الآية للرسول ﷺ فيما يناجي به نفسه، فإنه يمتد إلى كل موجود حيّ عاقل بأن يتمثل الموقف في إسلام الأمر لله في الفكر والشعور والحياة، فلا ينتظر من الآخرين أن يسبقوه، بل يحاول أن يكون هو الذي يتسلم زمام المبادرة لتسليمه بالحقيقة الواضحة التي تفرض نفسها عليه.

٥. وينتقل الحديث من أسلوب الغيبة في الحديث عن الله إلى الخطاب، ليتمثل الله بكل حضوره العظيم الضاغط على الكون، وهو يحذّر الإنسان من الشرك الذي يرهق حسّ الصفاء الروحي للوحدانية في الفكر والشعور: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. من المفسّرين من يذكر أنّ سبب نزول الآية هو أنّه جاء جمع من أهل مكّة إلى رسول الله ﷺ

---

(١) تفسير الأمثل: ٤/ ٢٢٨.

وقالوا: يا محمّد، إنّك تركت دين قومك، ولم يكن ذلك إلا بسبب فقرك، فاقبل منّا نصف أموالنا تكن غنيا على أن نترك آلهتنا وشأنها وتعود إلى ديننا، فنزلت هذه الآية ترد عليهم.

٢. سبق أن قلنا: إنّ آيات هذه السورة نزلت مرّة واحدة في مكّة، كما جاء في الأخبار المروية، لذلك لا يمكن أن يكون لكل منها سبب نزول خاص، غير أنّ أحاديث كانت قد جرت قبل نزول هذه السورة بين رسول الله ﷺ والمشركين وبعض هذه الآيات تشير إلى تلك الأحاديث، لذلك ليس ثمّة ما يمنع أن تكون أحاديث من هذا القبيل أيضا قد جرت بين رسول الله ﷺ والمشركين، فيشير القرآن في هذه الآيات إلى أحاديثهم ويرد عليهم.

٣. على كلّ حال، الهدف من نزول هذه الآيات هو إثبات التوحيد ومحاربة الشرك وعبادة الأصنام فالمشركون، وإن اعتقدوا أنّ الله هو خالق العالم، كانوا يتخذون من الأصنام ملجأ لأنفسهم، ولربّما اتخذوا صنما لكل حاجة معينة، فلهم إله للمطر، وإله للظلام، وإله للحرب والسلم، وإله للرزق، وهذا هو تعدد الأرباب الذي ساد اليونان القديم.

٤. ولكي يزيل القرآن هذا التفكير الخاطئ، يأمر رسول الله ﷺ أن ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ فإذا كان هو خالق عالم الوجود كله دون الاستناد إلى قدرة أخرى، وهو الذي يرزق مخلوقاته، فما الذي يدعو الإنسان إلى أن يتخذ من دونه وليا وربّا؟ وإنّ كل الأشياء غيره مخلوقات وهي بحاجة إليه في كل لحظات وجودها، فكيف يمكن لها أن تقضي حاجة الآخرين؟

٥. هذه الآية تستعمل كلمة (فاطر) في حديثها عن خالق السموات والأرض، وأصل (الفطر) و(الفطور) هو الشق، يروى عن ابن عباس أنّه قال: ما عرفت معنى فاطر السموات والأرض إلا عندما رأيت اعرابيين يتنازعان على بئر قال أحدهما: (أنا فطرتها) أي أنا أحدثتها وأوجدتها.

٦. ولكننا اليوم أقدر من ابن عباس على معرفة معنى (فاطر) بالاستعانة بالعلوم الحديثة، أنّه تعبير ينسجم مع أدق النظريات العلمية الحديثة عن تكون العالم، لقد أظهرت دراسات العلماء أنّ العالم الكبير (الكون) والعالم الصغير (المنظومة الشمسية) كانت كلها كتلة واحدة تشققت على أثر الإنفجارات المتتالية، وتكونت المجرات والمنظومات والكرات، وفي الآية من سورة الأنبياء بيان أوضح لهذا الأمر: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾

٧. والنقطة الأخرى التي ينبغي ألا نغفل عنها في هذه الآية هو أنّها تقتصر على توكيد اتصاف الله بإطعام مخلوقاته ورزقهم، ولعل ذلك إشارة إلى أنّ أقوى حاجات الإنسان في حياته المادية هي حاجته إلى (لقمة العيش) كما يقال، وهذه اللقمة هي التي تحمل الناس على الخضوع لأصحاب المال والقوّة، وقد يصل خضوعهم لأولئك حدّ العبودية، ففي هذا يقرر القرآن رزق الناس بيد الله لا بيد هؤلاء ولا بيد الأصنام، فأصحاب المال والقوّة هم أنفسهم محتاجون إلى الطعام، وأنّ الله هو وحده الذي يطعم الناس ولا يحتاج إلى طعام.

٨. وفي آيات أخرى نرى القرآن يؤكّد مالكية الله ورزاقيته بإنزال الأمطار وإنبات النباتات، وذلك لكي يزيل من أذهان البشر كليا فكرة اعتمادهم على مخلوقات مثلهم.

٩. ثمّ للردّ على أولئك المشركين الذين كانوا يدعون رسول الله إلى الانضمام إليهم، يؤكّد القرآن على ضرورة رفض دعوة هؤلاء انطلاقا من مبدأ نهي الوحي الإلهي عن ذلك، إضافة إلى نهي العقل: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أوّل مَنْ أسلم وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

١٠. جملة ﴿إِنِّي أُمِرْتُ﴾ من قبيل الخطاب غير المباشر، وجملة ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ خطاب مباشر، ولعل هذا الانتقال يقصد به القول بأنّ الابتعاد عن الشرك واستنكاره أهم بكثير من أن يكون المرء أول المسلمين، ولذا جاء موضوع تجنب الشرك في خطاب مباشر ومؤكد بنون التوكيد الثقيلة.

١١. لا شك أنّ أنبياء الله والصالحين من أقوامهم سبقوا النّبي الخاتم في استسلامهم لأمر الله وعليه فإن قوله تعالى: ﴿إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أوّل مَنْ أسلم﴾ يعني أوّل مسلم من أمّة الرسالة الخاتمة.

١٢. كما أنّ هذا إشارة إلى أمر تربوي مهم أيضا، وهو أنّ كل قائد ينبغي أن يكون في تطليق تعاليم دينه قدوة وطليعة، عليه أن يكون أوّل المؤمنين برسالته، وأوّل العاملين بها، وأكثر الناس اجتهادا فيها، وأسرعهم إلى التضحية في سبيلها.

٩. المعاد والتكليف وصفات الله

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٩] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٥ ـ ١٨]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿عَذَابٍ﴾، يقول: نكال[١].

٢. روي أنّه قال:أهدي للنبي ﷺ بغلة؛ أهداها له كسرى، فركبها بحبلٍ من شعرٍ، ثم أردفني خلفه، ثم سار بي مليّا، ثم التفت فقال: (يا غلام) قلت: لبيك يا رسول الله، قال: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرّف إلى الله في الرّخاء يعرفك في الشّدّة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، قد مضى القلم بما هو كائن، فلو جهد النّاس أن ينفعوك بما لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه، ولو جهد النّاس أن يضرّوك بما لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، فإن استطعت أن تعمل بالصّبر مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع فاصبر، فإنّ في الصّبر على ما تكره خيرا كثيرا، واعلم أنّ مع الصّبر النّصر، واعلم أنّ مع الكرب الفرج، واعلم أنّ مع العسر اليسر[٢].

أبو العالية:

روي عن أبي العالية الرّياحيّ (ت ٩٣ هـ) أنّه قال: ﴿الْحَكِيمُ﴾، الحكيم في أمره[٣].

---

(١) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٧٠.

(٢) الحاكم ٣/ ٦٢٣، قال الحاكم: هذا حديث كبير عال.

(٣) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٧٠.

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) أنّه قال: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ﴾، من يصرف عنه العذاب[(١)].

السّدّيّ:

روي عن إسماعيل السّدّيّ (ت ١٢٧ هـ) أنّه قال: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾، يقول: بعافية[(٢)].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: قل لهم يا محمد: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ إن رجعت إلى ملّة آبائي ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني بالعظيم: الشديد؛ يوم القيامة[(٣)].

٢. روي أنّه قال: نسخت ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ [الفتح: ١] قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[(٤)].

٣. روي أنّه قال: من يصرف الله عنه العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ﴾ الصرف، يعني: صرف العذاب ﴿الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ يعني: النجاة العظيمة المبينة[(٥)].

٤. روي أنّه قال: خوّف سبحانه النبي ﷺ؛ ليتمسّك بدين الله تعالى فقال: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ﴾ يعني: يصبك الله بضرّ، يعني: بلاء وشدة؛ ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ يقول: لا يقدر أحد من الآلهة ولا غيرهم كشف الضرّ إلا الله[(٦)].

٥. روي أنّه قال: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ يعني: يصبك بفضل وعافية[(٧)].

---

(١) عبد الرزاق ١/ ٢٠٨.

(٢) نسبه السيوطي إلى أبي الشيخ.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٢.

(٤) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٢.

(٥) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٣.

(٦) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٣.

(٧) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٣.

٦. روي أنّه قال: ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من ضرّ، وخير[١].

٧. روي أنّه قال: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ﴾ لخلقه ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ قد علاهم، وقهرهم[٢].

٨. روي أنّه قال: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في أمره، ﴿الْخَبِيرُ﴾ بخلقه[٣].

ابن إسحاق:

روي عن محمد بن إسحاق (ت ١٥١ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي: لا يقدر على هذا غيرك بسلطانك وقدرتك[٤].

٢. روي أنّه قال: ﴿الْحَكِيمُ﴾، الحكيم في عذره وحجّته إلى عباده[٥].

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٦]:

١. ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾:

أ. قال ابن عباسٍ: قل يا مُحَمَّد لكفار أهل مكة: ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾، أي أعلم ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ فعبدت غيره، ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هذا التأويل صحيح إن كان ما ذكر من سؤالهم رسول الله ﷺ وعرضهم المال عليه ليعود ويرجع إلى دينهم، فيخرج هذا على الجواب لهم.

ب. وقال بعضهم: قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ وعلى الخوف، سؤال وإشكال: لكن لقائل أن يقول: كيف خاف عذاب يوم عظيم وقد أخبر أنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر!؟ وكيف قال: ﴿إِنْ عَصَيْتُ﴾ وقد أخبر أنه عصمه وغفر له؟ والجواب: قيل: يحتمل أن تكون المغفرة له على شرط الخوف غفر له ليخاف عذابه.

٢. ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ قال بعض المعتزلة: الرحمة هاهنا: الجنة؛ لأن الله تعالى جعل

---

(١) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٣.
(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٣.
(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٣.
(٤) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٧٠.
(٥) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٧١.
(٦) تأويلات أهل السنة: ٤/ ٣٨.

في الآخرة دارين؛ إحداهما: النار، سماها سخطًا، والأخرى: الجنة، سماها رحمة، وإنما حملهم على هذا أنهم لا يصفون الله بالرحمة في الأزل، فعلى قولهم يكون قول رسول الله ﷺ: (إلا أن يتغمدني الله برحمته)، أي: يثيبني الجنة، ولكن سميت الجنة رحمة عندنا لما برحمته يدخلون الجنة، لا بأعمالهم؛ لما روينا عن رسول الله ﷺ حيث قال: (لا يدخل أحد الجنة بعمله) قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: (ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته)، وعلى هذا يخرج ما سمي المطر رحمة لما برحمته ينزل، وكذلك كل ما سمي رحمة في الشاهد يخرج على ما ذكرنا.

٣. ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ﴾:

أ. قيل: من يصرف عنه العذاب يومئذ فقد رحمه، وكذلك روي في حرف حفصة: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾، وفي حرف ابن مسعود: (من يصرف عنه شر ذلك اليوم فقد رحمه)

ب. ويحتمل أن يكون قوله: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ صلة قوله: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وكذلك روي عن ابن عباسٍ قال في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ﴾: قل لكفار أهل مكة حين دعوه إلى دينهم، على ما ذكر في بعض القصة: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾

٤. ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ وذلك الصرف ـ يعني: صرف العذاب ـ الفوز المبين، وإنما ذكره فوزا مبينًا؛ لأنه فوز دائم، لا زوال له، وليس كفوز هذه الدنيا يكون في وقت ثم يزول عن قريب، ولا كذلك فوز الآخرة.

٥. ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إلا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيه إخبار أن ما يصيب العبد من الضرّ والخير إنما يصيب به، ثم الضر المذكور في الآية لا يخلو من أن يراد به سقم النفس، أو ضيق العيش، أو شدة وظلم يكون من العباد لا يخلو من هذه الأوجه الثلاثة، فإذا كان كذلك فدل إضافة ذلك إلى الله تعالى على أن لله فيه فعلا، وهو أن خلق فعل ذلك منهم، فهو على كل شيء قدير من كشف الضر له، والصرف عنه، هاصابة الخير لا يملك ذلك غيره.

٦. ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ في هذه الآية والآية الأولى: ذكر أهل التوحيد؛ لأنه أخبر أن ما يصيب العباد من الضر والشدة لا كاشف لذلك إلا هو، ولا يدفع ذلك عنهم ولا يصرفه

إلا الله، وأن ما يصيبهم مق الخير إنما يصيبهم بذلك الله، وأخبر أنه على كل شيء قدير.

٧. وفي قوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ وإخبار أنه قاهر يقهر الخلق، عزيز، قادر، وله سلطان عليهم، وأنهم أذلاء تحت سلطانه.

٨. وفي قوله: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ إخبار بالعلوية، والعظمة، وبالتعالي عن أشباه الخلق، ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾: يضع كل شيء موضعه، ﴿الْخَبِيرُ﴾: بما يسرون وما يعلنون، إخبار إلا يخفى عليه شيء وأنه يملك وضع كل شيء موضعه، وأن ما يصيبهم من الضر والشدة إنما يكون به، لا يملك أحد صرفه، وأن ما ضر أحد أحدًا في الشاهد، أو نفع أحد أحدًا إنما يكون ذلك بالله في الحقيقة.

٩. وفي هذه الأحرف: إخبار عن أصل التوحيد وما يحتاج إليه لما ذكرنا من الوصف له بالقدرة والقهر، والوصف له بالعلو والعظمة، والتعالي عن أشباه الخلق، والوصف له بالحكمة في جميع أفعاله، والعلم بكل ما كان ويكون.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:.

١. معنى قوله عز وجل: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ أي فقد رحمه الله ولكنه اختصر[٢].

٢. ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ أي هو القادر على عباده، قال علي بن الحسين صلوات الله عليه:

مليك عزيز لا يرد قضاؤه　　　حكيم عليم نافذ الأمر قاهرُ

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٣]:

١. ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ وفوق صلة زائدة وتقدير الكلام هوالقاهر لعباده وأنه بقهره لهم مستعل عليهم.

الماوردي:

---

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/ ١٨٥.

(٢) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/ ١٨٤.

(٣) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/ ٢٣٦.

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إلا هُوَ﴾ فيه وجهان:

أ. أحدهما: معناه إن أَلْحَقَ الله بك ضُراً، لأن المس لا يجوز على الله.

ب. الثاني: معناه وإن جعل الضُرَّ يمسك، وكذلك قوله: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾

٢. وفي الضُرِّ والخير وجهان:

أ. أحدهما: أن الضُرَّ السُقْمُ، والخير العافية.

ب. الثاني: أن الضُرَّ الفقر، والخير الغنى.

٣. ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ فيه قولان:

أ. أحدهما: أن معناه القاهر لعباده، وفوق صلة زائدة.

ب. الثاني: أنه بقهره لعباده مستعلٍ عليهم، فكان قوله فوق مستعملاً على حقيقته كقوله تعالى: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] لأنها أعلى قوة.

ج. ويحتمل ثالثاً: وهو القاهر فوق قهر عباده، لأن قهره فوق كل قهر.

٤. وفي هذا القهر وجهان:

أ. أحدهما: أنه إيجاد المعدوم.

ب. الثاني: أنه لا راد لأقداره ولا صَادَّ عن اختياره.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. أمر الله تعالى نبيه ﷺ بهذه الآية أن يقول لهؤلاء الكفار: إنه يخاف ـ إن عصاه ـ عذابه وعقوبته في يوم عظيم وهو يوم القيامة، ومعنى العظيم ـ ها هنا ـ أنه شديد على العباد، وعظيم في قلوبهم.

٢. وفي الآية دلالة على أن من زعم أن من علم الله أنه لا يعصى فلا يجوز أن يتوعده بالعذاب، وعلى من زعم أنه لا يجوز أن يقال فيها قد علم الله أنه لا يكون أنه لو كان لوجب فيه كيت وكيت، لأنه كان

---

(١) تفسير الماوردي: ٢/ ١٠٠.

(٢) تفسير الطوسي: ٤/ ٩٠.

المعلوم لله تعالى أن النبي ﷺ لا يعصي معصية يستحق بها العقاب يوم القيامة، ومع هذا فقد توعده به.

٣. ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ قرأ أهل الكوفة إلا حفصاً، ويعقوب (من يصرف) بفتح الياء وكسر الراء، الباقون بضم الياء وفتح الراء، وفاعل (يصرف) هو الضمير العائد إلى (ربي) من قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾، ويكون حذف الضمير العائد إلى العذاب، والمعنى من يصرف الله عنه، وكذلك هو في قراءة أبي، قال أبو علي: وليس حذف الضمير بالسهل لأنه ليس بمنزلة الضمير الذي يحذف من الصلة إذا عاد إلى الموصول، نحو﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولًا﴾ و﴿سَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللهُ﴾ أي بعثهم الله واصطفاهم، ولا يعود الضمير المحذوف ـ ها هنا ـ إلى موصول ولا إلى (من) التي الجزاء، وإنما يرجع إلى العذاب من قوله: ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، وليس هذا بمنزلة قوله: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ﴾ لأن هذا فعل واحد قد تكرر وعدي الأول فيهما إلى المفعول، فعلم بتقدير الأول أن الثاني بمنزلته، حيز الجزاء، وكان ما في حيزه في أنه لا يتسلط على الموصول، حسن حذف الهاء منه كما حسن حذفها من الصلة، ومن ضم الياء فالمسند إليه الفعل المبني للمفعول ضمير العذاب المتقدم ذكره، ويقوي ذلك قوله: ﴿إلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ إلا ترى أن الفعل بني للمفعول، وفيه ضمير العذاب، وقال الزجاج: التقدير من يصرف الله عنه العذاب فيمن فتح الياء، ومن ضم الياء، فتقديره من يصرف عنه العذاب.

٤. ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إلا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ معنى الآية الأولى أنه لا يملك النفع والضرر إلا الله تعالى أو من يملكه الله ذلك، فبين تعالى أنه مالك السوء من جهته ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إلا هُوَ﴾ ولا يملك كشفه سواه مما يعبده المشركون ولا أحد سوى الله، وأنه إن ناله بخير فهو على ذلك قادر.

٥. وقوله: (يمسسك بضر أو بخير)، معناه يمسك ضره أو خيره، فجعل المس لله على وجه المجاز، وهو في الحقيقة الخير والضر، وهو مجاز في الخير والضر أيضاً، لأنهما عرضان لا تصح عليهما المماسة، وأراد تعالى بذلك الترغيب في عبادته وحده، وترك عبادة سواه، لأنه المالك للضر والنفع دون غيره، وأنه القادر عليهما.

٦. والقاهر هو القادر على أن يقهر غيره، فعلى هذا يصح وصفه فيما لم يزل بأنه قاهر، وفي الناس

من قال: لا يسمى قاهرا إلا بعد أن يقهر غيره، فعلى هذا لا يوصف تعالى فيما لم يزل بذلك.

٧. ومثل قوله: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ قوله: ﴿يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ والمراد أنه أقوى منهم، وأنه مقتدر عليهم، لأن الارتفاع في المكان لا يجوز عليه تعالى، لأنه من صفات الأجسام، فإذاً المراد بذلك أنه مستعل عليهم، مقتدر عليهم، وكل شيء قهر شيئاً فهو مستعل عليه، ولما كان العباد تحت تسخيره وتذليله وأمره ونهيه، وصف بأنه فوقهم.

٨. ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ معناه أنه مع قدرته عليهم لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة، ولا يفعل ما فيه مفسدة، أو وجه قبح لكونه عالماً بقبح الأشياء وبأنه غني عنها.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الصرف: الذهاب عن الشيء صرفه يصرفه صرفًا فهو صارف، وانصرف انصرافًا.

ب. الضُّرُّ بالضم: الهزال، وبالفتح: ضد النفع، وبالكسر: تزوج المرأة على ضرة، والفرق بين الضُّر والضَّر أن الضَّر بالفتح مصدر ضره يضره ضرًّا، فيقع على القليل والكثير؛ لأنه مصدر جاء على فعله، كالصفة الجارية، وأما الضُّر بالضم فهو كالصفة المعدولة للمبالغة.

ج. المس: مصدر مَسِسْتُ أَمَسُّ، وقيل: مَسَسْت أَمُسُّهُ، والممسوس: الذي به مس جن، والممسوس من المياه ما نالته الأيدي، كأنه مسته الأيدي، والمس من صفات الأجسام، فلا يجوز عليه تعالى، ومعنى يمسسك: يصبك وينزل بك.

د. الكشف: مصدر كشفت الثوب وغيرَه أَكْشِفُهُ.

هـ. القهر: القدرة على الغلبة، والقاهر: الغالب، وقهر: غلب، وأقهره: صيره في حال ذل، قهره قهرًا فهو مقهور أي مغلوب، ويوصف الله تعالى بأنه قاهر لم يَزَلْ، بمعنى قادر، وهو تعالى قادر لم يزل لذاته على ما لا نهاية له من الأعداد من كل جنس.

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/ ٥٠٥.

و. الخبر: أصله من الخبرة، وهو المعرفة بما يصح أن يخبر له، والخبير: العالم.

٢. ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾:

أ. قيل: معناه: أوقن وأعلم.

ب. وقيل: هو من الخوف.

٣. ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني: يوم يعظم فيه الثواب والعقاب، ﴿مَنْ يُصْرَفْ﴾ يعني العذاب ﴿عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾:

أ. يعني: من غفر له، تنبيه لا محالة؛ لأنه لا مكلف إلا وهو مثاب أو معاقب، فنبه أنه متى أسقط العقاب بالتوبة يوجب له الثواب.

ب. وقيل: إنه تذكير بتلك المنزلة، أي مِنْ رحمته أن يصرف عنه عذاب ذلك اليوم.

٤. ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ الظفر بالبغية والمطلوب، المبين الظاهر.

٥. ثم لما دعا الله تعالى فيما تقدم إلى عبادته، ونهى عن عبادة غيره بَيَّنَ أنه المالك للضر والنفع والنعمة والنقمة مرغبًا في الانقطاع إليه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ﴾ أي يُنْزِل بك ويحل:

أ. وقيل: الخطاب للنبي ﷺ والمراد العموم.

ب. وقيل: أراد إن يمسسك أيها السامع أو أيها الإنسان.

٦. ﴿بِضُرٍّ﴾ أي بمصيبة في نفس أو مال، كنقص من الأموال والأنفس والأمراض والفقر ونحوها ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَا هُوَ﴾ أي لا مزيل له غير الله.

٧. سؤال وإشكال: إذا كان في الضر ما يزيله غيره فكيف أطلق؟ والجواب: فيه أقوال:

أ. قيل: لأنه ينكشف إما به، أو بسبب من جهته أو بلطفه، أو بأمره أو بهدايته.

ب. وقيل: أراد ضرًّا يريد إدامته، ولا يقدر على كشفه أحد.

ج. وقيل: أراد عموم المضار، وهذا لا يقدر على كشفه غيره تعالى.

٨. ﴿وَإِن﴾ يُرِدْكَ ﴿بِخَيْرٍ﴾:

أ. قيل: فإن أراد أن ينفعك، والخير: النفع الحسن.

ب. وقيل: أراد: إن يَنَلْكَ بخير، وهذا على طريقة من لا يثبت الإرادة صفة للقديم سبحانه.

٩. ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يعني القادر على كل شيء من خير ونفع أو ضر خلاف ما يعبدونه.

١٠. سؤال وإشكال: لماذا فرق بين الخير والضر، والجميع خير عندكم؟ والجواب:

أ. هو خير في دينه، ولكن ينفر الطبع منه، وفرق بينهما لهذا، وهذا كما تقول: أَكْلُ الحلوى نفع، وأكل الأدوية أيضًا نفع، وإن كان طبعه ينفر عنه.

ب. وقيل: إنه عد نعمته في أحدهما الكشف، وفي الأخرى الإصابة، ولذلك فرق.

١١. ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ﴾ القادر الغالب علي قهر كل شيء ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ قدير أي عال عليهم بالقهر والقدرة، وهي مبالغة في صفته بالقدرة، ولا يقال: إنه أراد الجهة؛ لأن الجهات لا تجوز عليه لأنه ليس بجسم.

١٢. ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ يعني مع كونه قاهرًا لا يفعل إلا ما تدعو إليه الحكمة، ولا يفعل القبيح، وهذا نهاية المدح، فإنه مع قدرته على كل شيء لا يفعل إلا الحسن الجميل بخلاف أحوال أهل الدنيا، ﴿الْخَبِيرُ﴾ العالم بكل شيء فإذا علم القبيح وعلم غناه عنه أبدًا لا يفعله لحكمته، وقيل: قهرهم بتصريف الأحوال كالحياة والموت، والمرض والصحة، والغنى والفقر.

١٣. تدل الآية الكريمة على:

أ. وجوب الانقطاع إليه تعالى؛ لأنه القادر على نعم الدين والدنيا، على النفع والدفع.

ب. أنه قاهر للخلق، وأن أحدًا لا يقدر على منعه.

ج. أنه حكيم، وليس في الحكمة أن يخلق سَبَّه، وقتل أنبيائه وأوليائه، ويخلق عبادة الصنم، ويمنع عن عبادته والائتمار لأمره، فَمِنْ هذا الوجه تدل على بطلان قولهم في المخلوق.

١٤. مسائل لغوية ونحوية:

أ. سؤال وإشكال: ما موضع ﴿أَنْ﴾ من قوله: ﴿إِنْ عَصَيْتُ﴾ من الإعراب؟ والجواب: فيه قولان:

- الأول: لا موضع له؛ لأنه اعتراض بكلام تام كالاعتراض بالأقسام.
- الثاني: موضعه نصب في موضع الحال، كأنه قيل: إني أخاف عاصيًا ربي عذاب يوم عظيم، والجواب محذوف على القولين جميعًا..

ب. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بني على الكسر لإضافة الوقت إليه، كقولك: حينئذ وساعتئذ.

ج. سؤال وإشكال: لم جاز الجواب بالفاء وإنما أصلها العطف؟ والجواب: لأن حالها في الجواب كحالها في العطف في أنها نزلت الثاني بعد الأول، وهكذا يحسن التصريف للكلمة على طريقة الأصول الدائرة.

د. محل ﴿بِضُرٍّ﴾ نصب، والعامل فيه ﴿يَمْسَسْكَ﴾

الطَبرِسي:

ذكر الفضل الطَبرِسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. مما روي في سبب نزول الآية الكريمة: قيل: إن أهل مكة، قالوا لرسول الله: (يا محمد! تركت ملة قومك، وقد علمنا أنه لا يحملك على ذلك إلا الفقر، فإنا نجمع لك من أموالنا حتى تكون من أغنانا)، فنزلت الآية.

٢. ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾:

أ. قيل: معناه أوقن، وأعلم.

ب. وقيل: هو من الخوف.

٣. ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾:

أ. بترك أمره، وترك نهيه.

ب. وقيل: بعبادة غيره.

ج. وقيل: باتخاذ غيره وليا.

٤. ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: يعني يوم القيامة، ومعنى العظيم هنا: أنه شديد على العباد، وعظيم في قلوبهم.

٥. ﴿مَنْ يُصْرَفْ﴾ العذاب ﴿عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ الله، يريد: من غفر له فإنه يثيبه الله لا محالة، وذكر سبحانه الرحمة مع صرف العذاب، لئلا يتوهم أنه ليس له إلا صرف العذاب عنه فقط.

---

(١) تفسير الطبرسي: ٤/ ١٤.

٦. ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ﴾ أي: الظفر بالبغية ﴿الْمُبِينِ﴾ الظاهر البين، ويحتمل أن يكون معنى الآية: إنه لا يصرف العذاب عن أحد إلا برحمة الله، كما روي أن النبي ﷺ قال: (والذي نفسي بيده! ما من الناس أحد يدخل الجنة بعمله)، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: (ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل)، ووضع يده على فوق رأسه وطول صوته، رواه الحسن في تفسيره.

٧. ثم بيّن سبحانه أنه لا يملك النفع والضر إلا هو، فقال: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ﴾ أي: إن يمسك بفقر، أو مرض، أو مكروه، ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ﴾ أي: لا مزيل ولا مفرج له عنك، إلا هو، ولا يملك كشفه سواه، مما يعبده المشركون.

٨. ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ أي: وإن يصبك بغنى، أو سعة في الرزق، أو صحة في البدن، أو شيء من محاب الدنيا ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الخير والضر ﴿قَدِير﴾: ولا يقدر أحد على دفع ما يريده لعباده من مكروه، أو محبوب.

٩. سؤال وإشكال: إن المس من صفات الأجسام، فكيف قال إن يمسسك الله؟ والجواب: الباء للتعدية، والمراد إن أمسسك الله ضرا أي: جعل الضر يمسك، فالفعل للضر، وإن كان الظاهر قد أسند إلى اسم الله تعالى، والضر اسم جامع لكل ما يتضرر به من المكاره، كما أن الخير اسم جامع لكل ما ينتفع به.

١٠. ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ﴾: ومعناه القادر على أن يقهر غيره ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ معنى فوق ههنا: قهره واستعلاؤه عليهم، فهم تحت تسخيره وتذليله بما علاهم به من الاقتدار الذي لا ينفك منه أحد، ومثله قوله تعالى: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾: يريد أنه أقوى منهم، وقال بعضهم: لا يسمى قاهرا إلا بعد أن يقهر غيره، فعلى هذا يكون من صفات الأفعال، فلا يصح وصفه فيما لم يزل به.

١١. ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ معناه: إنه مع قدرته عليهم، لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والخبير العالم بالشيء وتأويله: إنه العالم بما يصح أن يخبر به، والخبر: علمك بالشيء تقول: لي به خبر أي علم، وأصله من الخبر، لأنه طريق من طرق العلم، فإذا كان القاهر، على ما ذكرناه، بمعنى القادر، صح وصفه سبحانه فيما لم يزل بأنه قاهر.

١٢. قرأ حمزة، والكسائي، وخلف، ويعقوب، وأبو بكر، عن عاصم ﴿مَنْ يُصْرَفْ﴾ بفتح الياء وكسر الراء، والباقون ﴿يُصْرَفْ﴾ بضم الياء وفتح الراء.. قال أبو علي: فاعل ﴿يُصْرَفْ﴾ الضمير العائد

إلى ﴿رَبِّي﴾، وينبغي أن يكون حذف الضمير العائد إلى ﴿الْعَذَابَ﴾، والمعنى: من يصرفه عنه، وكذلك في قراءة أبي فيما زعموا، وليس حذف هذا الضمير بالسهل، وليس بمنزلة الضمير الذي يحذف من الصلة، لأن ﴿مِنْ﴾ جزاء، ولا يكون صلة، على أن الضمير إنما يحذف من الصلة، إذا عاد إلى الموصول، نحو ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولًا﴾ ﴿وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ أي: بعثهم واصطفاهم، ولا يعود الضمير المحذوف هنا إلى موصول، ولا إلى ﴿مِنْ﴾ التي للجزاء، وإنما يرجع إلى العذاب في قوله: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، وليس هذا بمنزلة قوله: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ لأن هذا فعل واحد قد تكرر، وعدي الأول منهما إلى المفعول، فعلم بتعدية الأول أن الثاني بمنزلته، وأما قراءة من قرأ ﴿يُصْرَفْ﴾: فالمسند إليه الفعل المبني للمفعول ضمير العذاب المتقدم ذكره، والذكر العائد إلى المبتدأ الذي هو﴿مِنْ﴾ في القراءتين جميعا، الضمير الذي في ﴿عَنْهُ﴾، ومما يقوي قراءة من قرأ ﴿يُصْرَفْ﴾ بفتح الياء أن ما بعده من قوله: ﴿فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ مسند إلى ضمير اسم الله تعالى، فقد اتفق الفعلان في الإسناد إلى هذا الضمير، ومما يقوي ذلك أيضا: أن الهاء المحذوفة من يصرفه، لما كانت في حيز الجزاء، وكان ما في حيزه في أنه لا يتسلط على ما تقدمه بمنزلة ما في الصلة، في أنه لا يجوز أن يتسلط على الموصول، حسن حذف الهاء منه، كما حسن حذفها من الصلة.

١٣. ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ فيه وجهان:

أ. أحدهما: إنه اعتراض بين الكلام، كما يكون الاعتراض بالأقسام، فعلى هذا لا موضع له من الإعراب.

ب. والآخر: إنه في موضع نصب على الحال، فكأنه قيل: إني أخاف عاصيا ربي عذاب يوم عظيم، ويكون جواب الشرط محذوفا على الوجهين جميعا.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ زعم بعض المفسّرين أنّه كان يجب عليه أن

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٢/ ١٥.

يخاف عاقبة الذّنوب، ثمّ نسخ ذلك بقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، والصّحيح أنّ الآيتين خبر، والخبر لا يدخله النسخ، وإنما هو معلّق بشرط، ومثله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾

٢. ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص عن عاصم ﴿مَنْ يُصْرَفْ﴾ بضم الياء وفتح الرّاء، يعنون: العذاب، وقرأ حمزة والكسائيّ وأبو بكر عن عاصم (يصرف) بفتح الياء وكسر الرّاء؛ الضّمير قوله: ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾؛ وممّا يحسّن هذه القراءة قوله تعالى: ﴿فَقَدْ رَحِمَهُ﴾، فقد اتّفق إسناد الضّميرين إلى اسم الله عزّ وجلّ، ويعني بقوله: يصرف العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، يعني: يوم القيامة، ﴿وَذَلِكَ﴾ يعني: صرف العذاب.

٣. ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ﴾ الضر: اسم جامع لكلّ ما يتضرّر به الإنسان، من فقر ومرض وغير ذلك؛ والخير: اسم جامع لكلّ ما ينتفع به الإنسان، وللمفسرين في الضّر والخير قولان:

أ. أحدهما: أنّ الضّر السّقم؛ والخير: العافية.

ب. الثاني: أنّ الضّرّ: الفقر، والخير: الغنى.

٤. ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ القاهر: الغالب، والقهر: الغلبة، والمعنى: أنّه قهر الخلق فصرفهم على ما أراد طوعا وكرها؛ فهو المستعلي عليهم، وهم تحت التّسخير والتذليل.

الرّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. لما بيّن الله تعالى كون رسوله مأمورا بالإسلام ثم عقبه بكونه منهيا عن الشرك قال بعده: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ والمقصود أني إن خالفته في هذا الأمر والنهي صرت مستحقا للعذاب العظيم.

٢. سؤال وإشكال: قوله: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يدل على أنه ﷺ كان يخاف على نفسه من الكفر والعصيان، ولولا أن ذلك جائز عليه لما كان خائفا، والجواب: أن الآية لا تدل على أنه خاف على نفسه، بل الآية تدل على أنه لو صدر عنه الكفر والمعصية فإنه يخاف، وهذا القدر لا

---

(١) التفسير الكبير: ١٢/ ٤٩٤.

يدل على حصول الخوف، ومثاله قولنا: إن كانت الخمسة زوجا كانت منقسمة بمتساويين، وهذا لا يدل على أن الخمسة زوج ولا على كونها منقسمة بمتساويين.

٣. ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ قرأ ابن كثير ونافع أني بفتح الياء، وقرأ أبو عمرو والباقون بالإرسال.

٤. ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم وحمزة والكسائي ﴿يُصْرَفْ﴾ بفتح الياء وكسر الراء، وفاعل الصرف على هذه القراءة والضمير العائد إلى ربي من قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ [الأنعام: ١٥] والتقدير: من يصرف هو عنه يومئذ العذاب، وحجة هذه القراءة قوله: ﴿فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ فلما كان هذا فعلا مسندا إلى ضمير اسم الله تعالى وجب أن يكون الأمر في تلك اللفظة الأخرى على هذا الوجه ليتفق الفعلان، وعلى هذا التقدير: صرف العذاب مسندا إلى الله تعالى، وتكون الرحمة بعد ذلك مسندة إلى الله تعالى، وأما الباقون فإنهم قرؤوا ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ على فعل ما لم يسم فاعله، والتقدير من يصرف عنه عذاب يومئذ وإنما حسن ذلك لأنه تعالى أضاف العذاب إلى اليوم في قوله: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٥] فلذلك أضاف الصرف إليه، والتقدير: من يصرف عنه عذاب ذلك اليوم.

٥. ظاهر الآية يقتضي كون ذلك اليوم مصروفا وذلك محال، بل المراد عذاب ذلك اليوم، وحسن هذا الحذف لكونه معلوما.

٦. دلّت الآية على أن الطاعة لا توجب الثواب، والمعصية لا توجب العقاب لأنه تعالى قال: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ أي كل من صرف الله عنه العذاب في ذلك اليوم فقد رحمه، وهذا إنما يحسن لو كان ذلك الصرف واقعا على سبيل التفضل أما لو كان واجبا مستحقا لم يحسن أن يقال فيه إنه رحمه ألا ترى أن الذي يقبح منه أن يضرب العبد، فإذا لم يضربه لا يقال إنه رحمه، أما إذا حسن منه أن يضربه ولم يضربه فإنه يقال إنه رحمه، فهذه الآية تدل على أن كل عقاب انصرف وكل ثواب حصل، فهو ابتداء فضل وإحسان من الله تعالى وهو موافق لما يروى أن النبي ﷺ قال: (والذي نفسي بيده ما من الناس أحد يدخل الجنة بعمله، قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته) ووضع يده فوق رأسه، وطول بها صوته.

٧. قال القاضي: (الآية تدل على أن من لم يعاقب في الآخرة ممن يصرف عنه العقاب، فلا بد من أن

يثاب وذلك يبطل قول من يقول: إن فيمن يصرف عنه العقاب من المكلفين من لا يثاب، لكنه يتفضل عليه).. هذا الاستدلال ضعيف جدا وضعفه ظاهر فلا حاجة فيه إلى الاستقصاء، سؤال وإشكال: أليس من لم يعاقبه الله تعالى ويتفضل عليه فقد حصل له الفوز المبين وذلك يبطل دلالة الآية على قولكم؟ والجواب: هذا الذي ذكرتموه مدفوع من وجوه:

أ. الأول: أن التفضل يكون كالابتداء من قبل الله تعالى، وليس يكون ذلك مطلوبا من الفعل والفوز هو الظفر بالمطلوب، فلا بدّ وأن يفيد أمرا مطلوبا.

ب. الثاني: أن الفوز المبين لا يجوز حمله على التفضل بل يجب حمله على ما يقتضي مبالغة في عظم النعمة، وذلك لا يكون إلا ثوابا.

ج. الثالث: أن الآية معطوفة على قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٥] والمقابل للعذاب هو الثواب، فيجب حمل هذه الرحمة على الثواب.

٨. ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إلا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

هذا دليل آخر في بيان أنه لا يجوز للعاقل أن يتخذ غير الله وليا، وتقريره:

أ. أن الضر اسم للألم والحزن والخوف وما يفضي إليها أو إلى أحدها، والنفع اسم للذة والسرور وما يفضي إليهما أو إلى أحدهما، والخير اسم للقدر المشترك بين دفع الضر وبين حصول النفع، فإذا كان الأمر كذلك فقد ثبت الحصر في أن الإنسان إما أن يكون في الضر أو في الخير لأن زوال الضر خير سواء حصل فيه اللذة أو لم تحصل، وإذا ثبت هذا الحصر فقد بيّن الله تعالى أن المضار قليلها وكثيرها لا يندفع إلا بالله، والخيرات لا يحصل قليلها وكثيرها إلا بالله.

ب. والدليل على أن الأمر كذلك، أن الموجود إما واجب لذاته وإما ممكن لذاته أما الواجب لذاته فواحد فيكون كل ما سواه ممكنا لذاته والممكن لذاته لا يوجد إلا بإيجاد الواجب لذاته، وكل ما سوى الحق فهو إنما حصل بإيجاد الحق وتكوينه فثبت أن اندفاع جميع المضار لا يحصل إلا به، وحصول جميع الخيرات والمنافع لا يكون إلا به، فثبت بهذا البرهان العقلي البين صحة ما دلّت الآية عليه.

٩. سؤال وإشكال: قد نرى أن الإنسان يدفع المضار عن نفسه بماله وبأعوانه وأنصاره، وقد يحصل الخير له بكسب نفسه وبإعانة غيره، وذلك يقدح في عموم الآية، وأيضا فرأس المضار هو الكفر فوجب أن

يقال إنه لم يندفع إلا بإعانة الله تعالى، ورأس الخيرات هو الإيمان فوجب أن يقال أنه لم يحصل إلا بإيجاد الله تعالى، ولو كان الأمر كذلك لوجب أن لا يستحق الإنسان بفعل الكفر عقابا ولا بفعل الإيمان ثوابا، وأيضا فإنا نرى أن الإنسان ينتفع بأكل الدواء ويتضرر بتناول السموم، وكل ذلك يقدح في ظاهر الآية، والجواب: عن الأول: أن كل فعل يصدر عن الإنسان فإنما يصدر عنه إذا دعاه الداعي إليه لأن الفعل بدون الداعي محال، وحصول تلك الداعية ليس إلا من الله تعالى، وعلى هذا التقدير فيكون الكل من الله تعالى وهكذا القول في كل ما ذكرتموه من السؤالات.

١٠. ذكر الله تعالى إمساس الضر وإمساس الخير، إلا أنه ميّز الأول عن الثاني بوجهين:

أ. الأول: أنه تعالى قدم ذكر إمساس الضر على ذكر إمساس الخير، وذلك تنبيه على أن جميع المضار لا بدّ وأن يحصل عقيبها الخير والسلامة.

ب. الثاني: أنه قال في إمساس الضر: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إلا هُوَ﴾ وذكر في إمساس الخير ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فذكر في الخير كونه قادرا على جميع الأشياء وذلك يدل على أن إرادة الله تعالى لا يصال الخيرات غالبة على إرادته لا يصال المضار، وهذه الشبهات بأسرها دالة على أن إرادة الله تعالى جانب الرحمة غالب، كما قال: (سبقت رحمتي غضبي)

١١. ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ صفات الكمال محصورة في القدرة والعلم، سؤال وإشكال: كيف أهملتم وجوب الوجود؟ والجواب: ذلك عين الذات لا صفة قائمة بالذات لأن الصفة القائمة بالذات مفتقرة إلى الذات والمفتقر إلى الذات مفتقر إلى الغير فيكون ممكنا لذاته واجبا بغيره فيلزم حصول وجوب قبل الوجوب وذلك محال فثبت أنه عين الذات، وثبت أن الصفات التي هي الكمالات حقيقتها هي القدرة والعلم:

أ. فقوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ إشارة إلى كمال القدرة.

ب. وقوله: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ إشارة إلى كمال العلم.

ج. وقوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ﴾ يفيد الحصر ومعناه أنه لا موصوف بكمال القدرة وكمال العلم إلا الحق سبحانه وعند هذا يظهر أنه لا كامل إلا هو، وكل من سواه فهو ناقص:

- أما دلالة كونه قاهرا على القدرة فلأنا بينا أن ما عدا الحق سبحانه ممكن بالوجود لذاته، والممكن

لذاته لا يترجح وجوده على عدمه ولا عدمه على وجوده إلا بترجيحه وتكوينه وإيجاده وإبداعه فيكون في الحقيقة هو الذي قهر الممكنات تارة في طرف ترجيح الوجود على العدم، وتارة في طرف ترجيح العدم على الوجود ويدخل في هذا الباب كونه قاهرا لهم بالموت والفقر والإذلال ويدخل فيه كل ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦] إلى آخر الآية.

• وأما كونه حكيما، فلا يمكن حمله هاهنا على العلم لأن الخبير إشارة إلى العلم فيلزم التكرار أنه لا يجوز، فوجب حمله على كونه محكما في أفعاله بمعنى أن أفعاله تكون محكمة متقنة آمنة من وجوه الخلل والفساد والخبير هو العالم بالشيء المروي، قال الواحدي: وتأويله أنه العالم بما يصح أن يخبر به قال والخبر علمك بالشيء تقول: لي به خبر أي علم وأصله من الخبر لأنه طريق من طرق العلم.

١٢. المشبهة استدلوا بهذه الآية على أنه تعالى موجود في الجهة التي هي فوق العالم وهو مردود ويدل عليه وجوه:

أ. الأول: أنه لو كان موجودا فوق العالم لكان إما أن يكون في الصغر بحيث لا يتميز جانب منه من جانب وإما أن يكون ذاهبا في الأقطار متمددا في الجهات، والأول: يقتضي أن يكون في الصغر والحقارة كالجوهر الفرد فلو جاز ذلك فلم لا يجوز أن يكون إله العالم بعض الذرات المخلوطة بالهباءات الواقعة في كوة البيت وذلك لا يقوله عاقل، وإن كان الثاني كان متبعضا متجزئا، وذلك على الله محال.

ب. الثاني: أنه إما أن يكون غير متناه من كل الجوانب فيلزم كون ذاته مخالطا للقاذورات وهو باطل أو يكون متناهيا من كل الجهات وحينئذ يصح عليه الزيادة والنقصان، وكل ما كان كذلك كان اختصاصه بمقداره المعين لتخصيص مخصص، فيكون محدثا أو يكون متناهيا من بعض الجوانب دون البعض، فيكون الجانب الموصوف بكونه متناهيا غير الجانب الموصوف بكونه غير متناه وذلك يوجب القسمة والتجزئة.

ج. الثالث: إما أن يفسر المكان بالسطح الحاوي أو بالبعد والخلاء، فإن كان الأول: فنقول أجسام العالم متناهية فخارج العالم لا خلا ولا ملا ولا مكان ولا حيث ولا جهة، فيمتنع حصول ذات الله تعالى فيه، وإن كان الثاني فنقول الخلاء متساوي الأجزاء في حقيقته وإذا كان كذلك، فلو صحّ حصول الله في جزء من أجزاء ذلك الخلاء لصح حصوله في سائر الأجزاء، ولو كان كذلك لكان حصوله فيه بتخصيص

مخصص، وكل ما كان واقعا بالفاعل المختار فهو محدث، فحصول ذاته في الجزء محدث، وذاته لا تنفك عن ذلك الحصول وما لا ينفك عن المحدث فهو محدث، فيلزم كون ذاته محدثة وهو محال.

د. الرابع: أن البعد والخلاء أمر قابل للقسمة والتجزئة، وكل ما كان كذلك فهو ممكن لذاته ومفتقر إلى الموجد ويكون موجده موجودا قبله فيكون ذات الله تعالى قد كانت موجودة قبل وجود الخلاء والجهة والحيث والحيز، وإذا ثبت هذا: فبعد الحيز والجهة والخلاء وجب أن تبقى ذات الله تعالى كما كانت وإلا فقد وقع التغيير في ذات الله تعالى وذلك محال، وإذا ثبت هذا وجب القول بكونه منزها عن الأحياز والجهات في جميع الأوقات.

هـ. الخامس: أنه ثبت أن العالم كرة، وإذا ثبت هذا فالذي يكون فوق رؤوس أهل الري يكون تحت أقدام قوم آخرين، وإذا ثبت هذا، فإما أن يقال: إنه تعالى فوق أقوام بأعيانهم، أو يقال: إنه تعالى فوق الكل، والأول: باطل، لأن كونه فوقا لبعضهم يوجب كونه تحتا لآخرين، وذلك باطل، والثاني: يوجب كونه تعالى محيطا بكرة الفلك فيصير حاصل الأمر إلى أن إله العالم هو فلك محيط بجميع الأفلاك وذلك لا يقوله مسلم.

و. السادس: هو أن لفظ الفوقية في هذه الآية مسبوق بلفظ وملحوق بلفظ آخر، أما أنها مسبوقة فلأنها مسبوقة بلفظ القاهر، والقاهر مشعر بكمال القدرة وتمام المكنة، وأما أنها ملحوقة بلفظ فلأنها ملحوقة بقوله: ﴿عِبَادِهِ﴾ وهذا اللفظ مشعر بالمملوكية والمقدورية، فوجب حمل تلك الفوقية على فوقية القدرة لا على فوقية الجهة، سؤال وإشكال: ما ذكرتموه على الضد من قولكم إن قوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ دل على كمال القدرة، فلو حملنا لفظ الفوق على فوقية القدرة لزم التكرار، فوجب حمله على فوقية المكان والجهة، والجواب: ليس الأمر كما ذكرتم لأنه قد تكون الذات موصوفة بكونها قاهرة للبعض دون البعض وقوله: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ دل على أن ذلك القهر والقدرة عام في حق الكل.

ز. السابع: وهو أنه تعالى لما ذكر هذه الآية ردا على من يتخذ غير الله وليا، والتقدير: كأنه قال إنه تعالى فوق كل عباده، ومتى كان الأمر كذلك امتنع اتخاذ غير الله وليا، وهذه النتيجة إنما يحسن ترتيبها على تلك الفوقيات كان المراد من تلك الفوقية، الفوقية بالقدرة والقوة، أما لو كان المراد منها الفوقية بالجهة فإن ذلك لا يفيد هذا المقصود لأنه لا يلزم من مجرد كونه حاصلا في جهة فوق أن يكون التعويل عليه في

كل الأمور مفيدا وأن يكون الرجوع إليه في كل المطالب لازما، أما إذا حملنا ذلك على فوقيه القدرة حسن ترتيب هذه النتيجة عليه فظهر بمجموع ما ذكرنا أن المراد ما ذكرناه، لا ما ذكره أهل التشبيه.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ أي بعبادة غيره أن يعذبني، والخوف توقع المكروه، قال ابن عباس: ﴿أَخَافُ﴾ هنا بمعنى أعلم.

٢. ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ أي العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ أي فاز ونجا ورحم، وقرأ الكوفيون ﴿مَنْ يُصْرَفْ﴾ بفتح الياء وكسر الراء، وهو اختيار أبي حاتم وأبي عبيد، لقوله: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ ولقوله: ﴿فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ ولم يقل رحم على المجهول، ولقراءة أبي (من يصرفه الله عنه) واختار سيبويه القراءة الأولى: قراءة أهل المدينة وأبي عمروقال سيبويه: وكلما قل الإضمار في الكلام كان أولى، فأما قراءة من قرأ ﴿مَنْ يُصْرَفْ﴾ بفتح الياء فتقديره: من يصرف الله عنه العذاب، وإذا قرئ ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ فتقديره: من يصرف عنه العذاب.

٣. ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ أي النجاة البينة.

٤. ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ المس والكشف من صفات الأجسام، وهو هنا مجاز وتوسع، والمعنى: إن تنزل بك يا محمد شدة من فقر أو مرض فلا رافع وصارف له إلا هو، وإن يصبك بعافية ورخاء ونعمة.

٥. ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من الخير والضر روى ابن عباس قال كنت رديف رسول الله ﷺ فقال لي: يا غلام ـ أو يا بني ـ إلا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن)؟ فقلت: بلى، فقال: (احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده أمامك تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله فقد جف القلم بما هو كائن فلو أن الخلق كلهم جميعا أرادوا أن يضروك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه واعمل الله بالشكر واليقين واعلم أن في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا وأن النصر مع الصبر وأن

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/ ٣٩٧.

الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا) أخرجه أبو بكر بن ثابت الخطيب في كتاب الفصل والوصل) وهو حديث صحيح، وقد خرجه الترمذي، وهذا أتم.

٦. ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ القهر الغلبة، والقاهر الغالب، وأقهر الرجل إذا صير بحال المقهور الذليل، قال الشاعر:

تمنى حصين أن يسود جذاعه　　　فأمسى حصين قد أذل وأقهرا

وقهر غلب.

٧. ومعنى ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ فوقية الاستعلاء بالقهر والغلبة عليهم، أي هم تحت تسخيره لا فوقية مكان، كما تقول: السلطان فوق رعيته أي بالمنزلة والرفعة، وفي القهر معنى زائد ليس في القدرة، وهو منع غيره عن بلوغ المراد.

٨. ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في أمره ﴿الْخَبِيرُ﴾ بأعمال عباده، أي من اتصف بهذه الصفات يجب إلا يشرك به.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

أمره الله تعالى أن يقول: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي إن عصيته بعبادة غيره أو مخالفة أمره أو نهيه، والخوف: توقع المكروه، وقيل: هو هنا بمعنى العلم، أي إني أعلم إن عصيت ربي أن لي عذابا عظيما.

١. ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ قرأ أهل المدينة وأهل مكة وابن عامر على البناء للمفعول: أي من يصرف عنه العذاب، واختار هذه القراءة سيبويه، وقرأ الكوفيون على البناء للفاعل وهو اختيار أبي حاتم، فيكون الضمير على هذه القراءة لله، ومعنى يومئذ يوم العذاب العظيم فقد رحمه الله أي نجاه وأنعم عليه وأدخله الجنة، والإشارة بذلك إلى الصرف أو إلى الرحمة؛ أي فذلك الصرف أو الرحمة. ﴿الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ أي الظاهر الواضح، وقرأ أبيّ: (من يصرف الله عنه)

---

(١) فتح القدير: ٢/ ١٢٠.

٢. ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ﴾ أي إن ينزل الله بك ضرا من فقر أو مرض ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إلا هُوَ﴾ أي لا قادر على كشفه سواه ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ من رخاء أو عافية ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومن جملة ذلك المسّ بالشرّ والخير.

٣. ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ القهر: الغلبة، والقاهر: الغالب، وأقهر الرجل: إذا صار مقهورا ذليلا، ومنه قول الشاعر:

تمنّى حصين أن يسود جذاعه فأمسى حصين قد أذلّ وأقهرا

٤. ومعنى ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ فوقية الاستعلاء بالقهر والغلبة عليهم، لا فوقية المكان كما تقول: السلطان فوق رعيته: أي بالمنزلة والرفعة، وفي القهر معنى زائد ليس في القدرة، وهو منع غيره عن بلوغ المراد ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في أمره ﴿الْخَبِيرُ﴾ بأفعال عباده.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلِ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بشرك أو ما دونه ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هو يوم القيامة، وفيه تعريض لقومه بأنّهم استحقُّوا ذلك العذاب لعصيانهم، ومبالغة بأنه لو عصى أي معصية لَعُذِّب، فكيف هم وقد أشركوا!؟ و(عَذَابَ) مفعول (أَخَافُ) وجواب (إِنْ) محذوف، أي: إن عصيت ربِّي لَحِقَني، و(عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) في نيَّة التقديم على (إِنْ عَصَيْتُ)، فقوله: (إِنِّي أخاف عذاب يوم عظيم) إجمال فَصَّله بقوله: ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾، و(أَخَافُ) للحال، وإن جعلناه مستقبلاً لم نحتج إلى ذلك، بل يغني عن الجواب: (إِنِّيَ أَخَافُ)، أي: إن عصيت ربِّي بعد حالي هذه فإنِّي أخاف حال المعصية وبعدها عذابَ يوم عظيم.

٢. والمعنى: إن عصيت إلا إنَّه قضى الله أن لا أعصي، وأمَّا ما قيل: إنَّ خوف المعصوم من المعصية لا ينافي العصمة لعلمه بأنَّ الله سبحانه ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، وأنَّه لا يجب عليه شيء، فلا يجوز جوابًا؛ لأن الله تعالى لا يُخَالِفُ ما قضى ولا يتركه، كما قال: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [ق: ٢٩]، وذلك

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/ ٢١٤.

حكمة وكمال بوفاء الوعد لا وجوب شيء عليه، ومعنى قوله تعالى لموسى عليه السلام : (لا تأمن مكري حتَّى تدخل الجنَّة): كن في الخضوع والحذر على صورة من لم يعلم أنَّه معصوم، وكان ﷺ يخاف قيام الساعة إذا عصفت الريح ويدخل ويخرج قلقًا، بمعنى أنَّه يفعل ذلك ذهولاً لشدَّة هولها، وقد أخبره الله تعالى أنَّ الساعة بعد عيسى والدجَّال وطلوع الشمس من مغربها، أو كان يفعل ذلك قبل أن يعلم أنَّ القيامة مسبوقة بما ذُكر، وصلَّى التراويح أوّل رمضان وتكاثر الناس رغبة فلم يخرج إليهم، وقال: (خفت أن تفرض عليكم) مع علمه من ليلة الإسراء أن لا فرض من الصلوات إلا الخمس، ومعنى خوفه من فرض التراويح أن يلتزمها الناس التزام الفرائض أو التزام السنن المؤكَّدة فيشقَّ الأمر عليهم، أو خاف أن يكون حصر الوجوب في الخمس مشروطًا بشرطٍ، وخاف وقوع الشرط الذي لم يدرِ به وهو التزام التراويح، وأمَّا أن يزيد على الخمس وقد قُضِي أن لا يزيد فلا يجوز في حقِّه.

٣. ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ (مَنْ) والشرطُ والجوابُ نعتٌ لـ (عَذَابَ)، [قلت] وهو وجه حسن، ولا وجه لمنعهم إِيَّاهُ، وضمير (يُصْرَفْ) للعذاب، وهو رابط النعت، وهاء (عَنْهُ) لـ (مَنْ) ويجوز العكس، والأول أولى لأن أصل الصرف أن يطلق على المتوجّه إلى غيره، وهو هنا العذاب، وتنوين (إِذٍ) عوض عن جملة: (بُعِثَ) أو (قام من قبره)، ومعنى (فَقَدْ رَحِمَهُ): حقَّق الله له إدخال الجَنَّة، أو أراد له في الأزل أن يُرحم بصرف العذاب عنه، وأنعم عليه بنجاته منه، أو رحمه الرحمة العظمى، كقولهم: (من أدرك مرعى الصمان فقد أدرك)، أي: أدرك المرعى التامَّ، من صرف المطلق إلى الكامل، ويضعف أن يكون المعنى: أنَّه لا يبقى بلا جَنَّة.

٤. ﴿وَذَالِكَ﴾ المذكور من صرف العذاب ومن الرحمة، وهذا أولى من رجوع الإشارة إلى أحدهما فقط، ووجه ردِّها إلى الرحمة تأويلها بالمذكور، أو إلى الرُّحْم بإسكان الحاء وضمِّ الراء أو ضمِّها بلا تاء، إلا أنَّ الرحم بلا تاء قليل، ﴿الفَوْزُ﴾ النجاة من المكروه والظفر بالمحبوب ﴿الْمُبِينُ﴾ الواضح ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]

٥. ﴿وَإِنْ يَّمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ﴾ في النفس بِقِلَّة العلم والفضل، أو في البدن كعدم جارحة ونقص ومرض، أو في حالة ظاهرة كقلَّة مال وجاه، الضُّر مساو للشرِّ المقابل للخير، وقيل: أخصُّ، ويناسبه أنَّه قابل به الخير، وفي ذكر الضُّرِّ تهويل، وفي ذكر الخير تنشيط، ﴿فَلَا كَاشِفَ﴾ لا مزيل ﴿لَهُ إلا هُوَ﴾ فكيف

يَتَّخذ أحد وليًّا سواه؟ وهو بدل من ضمير في موجودٍ المُقَدَّرِ خَبَرٌ لِـ (لا)، أو مِن (لا كاشف)، لأن (لا) واسمها المبنيَّ بمنزلة المبتدإ لا خبر، لأن (لا) غير عاملة في المعرفة.

٦. ﴿وَإِنْ يَّمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ ضدِّ الضُّر المذكور، ككثرة العلم والفضل والعفَّة، وكمال الجوارح، والصحَّة، وغنى، واحترام، قال ابن عبَّاس: قال لي ﷺ وأنا رديفه: (يا غلامُ، اِحفظ اللهَ تعالى تجدْه أمَامَك، وإذا سألْتَ فاسألِ اللهَ، وإذا استَعَنْتَ فاستَعِن بالله، جَفَّ القلمُ بما هو كائنٌ، ولو جَهَدَ العباد أن ينفعوك بشيءٍ لم يَقْضِهِ اللهُ ٤ لك لم يَقْدِروا عليه، ولو جَهَدوا أن يَضُرُّوك بِشَيْءٍ لم يقْضِهِ اللهُ تَعَالَىٰ عليك لم يقْدِروا عَلَيْهِ، فإن استطعتَ أن تعملَ للهِ تَعَالَىٰ بالصدقِ في اليقينِ فاعملْ، فإن لم تستطعْ فإن في الصبرِ على ما تكرهُ خيرًا كثيرًا)

٧. ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ علَّة للجواب، أي: وإن يمسسك بخير فلا رادَّ له، لأنَّه قدير على كلِّ شيء، وكقوله تعالى: ﴿وإِنْ يُّرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]، ويضعف جعله تعليلاً لهذا المقدَّر ولقوله تعالى: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إلا هُوَ﴾ معًا، كما أنَّه لو كان التعليل باللام لم يَصِحَّ بإعادة التعليل، أو بتقدير قولك: ذلك لأن الله على كلِّ شيء قدير، ولأنَّ الثاني متغلِّب على العلَّة لأنَّها دليله، بخلاف الجواب الأول فإنه مذكور، ويجوز أن يكون: (هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ) جوابًا، أي: فهو قادر على إدامته كسائر الأشياء.

٨. ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ لا يعجز عن شيء، كلُّ ما سواه مغلوب له، وذليل له، والفوقيَّة علوُّ شأن لا حِسٍّ، تعالى الله عن الجهة، والجملة استعارة تمثيليَّة لعلوِّ شأنه تعالى، والاستعارة في (فَوْقَ) بأن شبَّه الغلبة بمكان محسوس، وقيل: كنَّى عن القهر والعلوِّ بالغلبة، و(فَوْقَ) متعلِّق بـ (قَاهِر)، أو حال من ضميره، أو خبر ثان، وذلك عبارة عن كمال القدرة، كما أنَّ قوله تعالى: ﴿وَهُو الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ عبارة عن كمال العلم، فإن الحكيم لا يكون إلا عالِمًا في تدبيره وأمرِه محقِّقًا، والخبير العليم ببواطنهم كظواهرهم سواء، قال الجيلاني: (من أراد السلامة في الدُّنيا والآخرة فعليه بالصبر والرضى، وترك الشكوى إلى خلقه، وإنزال حوائجه بربِّه تعالى، ولزوم طاعته، وانتظار الفرج منه تعالى، والانقطاع إليه، فحرمانه عطاءٌ، وعقوبته نعماء، وبلاؤه دواءٌ، ووعدُهُ حالٌّ، وقوله فعل، وكلُّ أفعاله حسنةٌ وحكمةٌ ومصلحةٌ، غير أنَّه ٨ طوَى علم المصالح عن عباده وتفرَّد به، فليس لك إلا الاشتغال بالعبوديَّة من أداء الأوامر واجتناب

النواهي، والتسليم في القدر، وترك الاشتغال بالربوبيَّة، والسكوت عن لِمَ؟ وكيف؟ ومتى؟)

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ أي: بمخالفة أمره ونهيه أي عصيان، فيدخل فيه ما ذكر دخولا أوليّا، ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني: عذاب يوم القيامة، الذي تظهر فيه عظمة القهر الإلهيّ.

٢. وفي الآية مبالغة أخرى في قطع أطماعهم، وتعرض لهم بأنهم عصاة مستوجبون للعذاب العظيم، ووجه التعريض إسناد ما هو معلوم الانتفاء، بـ (إن) التي تفيد الشك تعريضا، وجيء بالماضي إبرازا له في صورة الحاصل على سبيل الفرض، تعريضا بمن صدر عنهم ذلك، وحيث كان تعريضا لهم، والمراد تخويفهم إذا صدر منهم ذلك ـ لم يكن فيه دلالة على أنه يخاف هو ﷺ على نفسه المعصية، مع أنه معصوم، كما لا يتوهم مثله في قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وحينئذ فلا حاجة إلى ما أجيب عن ظاهر دلالته على ما ذكر، بأن الخوف تعلق بالعصيان الممتنع الوقوع امتناعا عاديّا، فلا يدل إلا على أنه يخاف لو صدر عنه العصيان، وهذا لا يدل على حصول الخوف، قال بعضهم: لا يقال على تقدير العصيان، يكون الجواب هو استحقاق العذاب، لا الخوف، لأنا نقول: لا منافاة بينهما، فالخوف إما على حقيقته، أو كناية عن الاستحقاق.

٣. ﴿مَنْ يُصْرَفْ﴾ بالبناء للمفعول، أي العذاب، ﴿عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ أي نجاه وأنعم عليه، أو أدخله الجنة، لقوله: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقوله تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ [الشورى: ٨]، والجملة مستأنفة، مؤكدة لتهويل العذاب.

٤. ﴿وَذَلِكَ﴾ أي الصرف أو الرحمة، ﴿الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ أي: الظاهر.

٥. ثم ذكر تعالى دليلا آخر، في أنه لا يجوز للعاقل أن يتخذ وليا غير الله تعالى، بقوله: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ﴾ أي ببلية، كفقر ومرض ونحوهما، و(الضر): اسم جامع لما ينال الإنسان من مكروه، ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ﴾ أي: فلا يقدر على دفعه إلا هو وحده، ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ من عافية ورخاء

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/ ٣٢٦.

ونحوهما: و(الخير) اسم جامع لما ينال الإنسان من محبوب له.

٦. ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: ومن جملته ذلك، فيقدر عليه، فيمسك به، ويحفظه عليك من غير أن يقدر على دفعه أو رفعه أحد، كقوله تعالى: ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]، وكقوله سبحانه: ﴿مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢]

٧. ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ أي: هو الغالب بقدرته، المستعلي فوق عباده، يدبر أمرهم بما يريد، فيقع في ذلك ما يشق عليهم ويثقل ويغم ويحزن، فلا يستطيع أحد منهم ردّ تدبيره، والخروج من تحت قهره وتقديره، قال أبو البقاء: في (فوق) وجهان:

أ. أحدهما: في موضع نصب على الحال من الضمير في (القاهر) أي: مستعليا وغالبا.

ب. الثاني: في موضع رفع على أنه بدل من (القاهر) أو خبر ثان.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. بعد هذا القول المبين لأصل الدعوة وأساس الدين وكون الداعي إليه مأمورا به كغيره ـ أمر الله رسوله بقول آخر في بيان جزاء من خالف ما ذكر من الأمر والنهي آنفا وأنه عام لا هوادة فيه ولا شفاعة تحول دونه فقال: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

٢. قدم ذكر الخوف على شرطه الذي شأنه أن يتقدمه لأنه هو الأهم المقصود بالذكر، وشرط (إن) لا يقتضي الوقوع، فالمعنى إن فرض وقوع العصيان مني لربي فإنني أخاف أن يصيبني عذاب يوم عظيم، وهو يوم القيامة، وصف بالعظم لعظمة ما يكون فيه من تجلي الرب سبحانه ومحاسبته للناس ومجازاته لهم، وحكمة هذا التعبير ما أشرنا إليه من أن هذا الدين دين الله الحق لا محاباة فيه لأحد مهما يكن قدره عظيما في نفسه، وأن يوم الجزاء لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ـ بالمعنى المعروف عند المشركين ـ ولا سلطان لغير الله تعالى فيتكل عليه من يعصيه، ظنا أنه يخفف عنه أو ينجيه، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩] وإذا كان خوف النبي ﷺ من العذاب على المعصية منتفيا لانتفائها بالعصمة فخوف

---

(١) تفسير المنار: ٧/ ٢٧٨.

الإجلال والتعظيم ثابت له دائما.

٣. ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ أي من يصرف ويحول عن ذلك العذاب في ذلك اليوم العظيم حتى يكون بمعزل عنه، أو من يصرف عنه ذلك العذاب في ذلك اليوم ـ فقد رحمه الله بإنجائه من الهول الأكبر، وبما وراء النجاة من دخول الجنة، لأن من لا يعذب يومئذ يكون منعما حتما، وذلك الجمع بين النجاة من العذاب والتمتع بالنعيم في دار البقاء هو الفوز المبين الظاهر، وقد حققنا في تفسير آخر السورة السابقة (المائدة) أن الفوز إنما يكون بمجموع الأمرين السلبي والإيجابي، ولا ينافي ذلك ما قيل في أهل الأعراف على ما يأتي تحقيقه في سورتها.

٤. وقد استدلت الأشعرية بالآية على أن الطاعة لا توجب الثواب والمعصية لا توجب العقاب، لأنها ناطقة بأن ذلك من رحمة الله تعالى وفعل الواجب لا يسمى رحمة، وضربوا لذلك الأمثال في أفعال البشر، والحق أن من أفعال الرحمة البشرية ما هو واجب ومن الواجب على الناس ما هو رحمة أي واجب لأنه رحمة، وأما الخالق عز وجل فلا يوجب عليه أحد شيئا إذ لا سلطان فوق سلطانه، وله أن يوجب على نفسه ما شاء، وقد كتب على نفسه الرحمة أي أوجبها كما نص عليه كتابه في هذا السياق، فهذه كتابة مطلقة، وسيأتي في سورة الأعراف كتابتها للمتقين المزكين من مؤمني هذه الأمة، ولو لم يكتب الرب على نفسه الرحمة لجاز أن لا يرحم أحدا وأن لا يكون رحيما بخلقه، وإذا أجاز بعض المتكلمين هذا فكتاب الله لا يجيزه ولما بين سبحانه أن صرف العذاب والفوز بالنعيم بعده من رحمته في الآخرة بين أن الأمر كذلك في الدنيا وأن التصرف فيه لله الولي الحميد وحده فقال.

٥. ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إلا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ المس أعم من اللمس في الاستعمال، يقال مسه السوء والكبر والعذاب والتعب والضراء والضر والخير، أي أصابه ذلك ونزل به، ويقال مسه غيره بذلك أي أصابه به، وقد وردت هذه المعاني كلها في القرآن، ولكن المس بالخير ذكر هنا في مقابل المس بالضر مسندا إلى الله تعالى، وفي سورة المعارج في مقابل المس بالشر غير مسند إلى الله تعالى.

٦. والضر بالضم والفتح ـ لغتان أو الضر بالفتح مصدر وبالضم اسم مصدر، والاستعمال فيه أن يضم إذا ذكر وحده ويفتح إذا ذكر مع النفع، وهو ما يسوء الإنسان في نفسه أو بدنه أو عرضه أو ماله أو

غير ذلك من شؤونه، ويقابله النفع، وقال الرازي: الضر اسم للألم والحزن والخوف وما يفضي إليهما أو إلى أحدهما، والنفع اسم للذة والسرور وما يفضي إليهما أو إلى أحدهما، والخير اسم للقدر المشترك من دفع الضر وحصول الخير، وقال الراغب: الخير ما يرغب فيه الكل كالعقل مثلا والعدل والفضل والشيء النافع وضده الشر، وأقول: إن الخير ما كان فيه منفعة أو مصلحة حاضرة أو مستقبلة، فمن الضار المكروه الذي يسوء ما يكون خيرا بحسن أثره أو عاقبته، والشر ما لا مصلحة ولا منفعة فيه البتة أو ما كان ما ضره أكبر من نفعه، قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقال في النساء ﴿فإن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩] والشر لا يسند إلى الله تعالى ولكنه مما يبتلي به الناس ويختبرهم، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ [يونس: ١٠] ليس من هذا الإسناد شيء وفي الحديث (الخير كله بيديك والشر ليس إليك)

٧. ومن دقائق بلاغة القرآن المعجزة تحري الحقائق بأوجز العبارات وأجمعها لمحاسن الكلام مع مخالفة بعضها في بادي الرأي لما هو الأصل في التعبير كالمقابلة هنا بين الضر والخير، وإنما مقابل الضر النفع ومقابل الخير الشر، فنكتة المقابلة أن الضر من الله تعالى ليس شرا في الحقيقة بل هو تربية واختبار للعبد يستفيد به من هو أهل للاستفادة أخلاقا وآدابا وعلما وخبرة، وقد بدأ بذكر الضر لأن كشفه مقدم على نيل مقابله، كما أن صرف العذاب في الآخرة مقدم على النعيم فيها، وهذه الآية مقابلة لما قبلها كما تقدم، ثم ذكر الخير في مقابل الضر دون النفع فأفاد أن ما ينفع الناس من النعم إنما يحسن إذا كان ذلك النفع خيرا لهم بعدم ترتب شيء من الشر عليه فكأنه قال إن أصابك أيها الإنسان ضر كمرض وتعب وحاجة وحزن وذل اقتضته سنة الله تعالى فلا كاشف له أي لا مزيل له ولا صارف يصرفه عنك إلا هو دون الأولياء الذين يتخذون من دونه ويتوجه إليهم المشرك لكشفه، فهو إما أن يكشفه عنك بتوفيقك للأسباب الكسبية التي تزيله، وإما أن يكشفه بغير عمل منك ولا كسب، ولطفه الخفي لا حد له فله الحمد، وإن يمسسك بخير كصحة وغنى وقوة وجاه فهو قادر على حفظه عليك كما أنه قادر على إعطائك إياه لأنه على كل شيء قدير، وأما أولئك الأولياء الذين اتخذوا من دونه فلا يقدرون على مسك بخير ولا ضر.

٨. فالآية كما قال الرازي دليل آخر على أنه لا يجوز للعاقل أن يتخذ غير الله وليا، وقد تبين بها وبما

قبلها أن كل ما يحتاج إليه المرء في الدنيا والآخرة من كشف ضر وصرف عذاب أو إيجاد خير ومنح ثواب فإنما يطلب من الله تعالى وحده، والطلب من الله تعالى نوعان: طلب بالعلم ومراعاة الأسباب، التي تقتضيها سننه تعالى في خلقه، وطلب بالتوجه والدعاء اللذين ندبت إليهما آياته تعالى في كتابه وأحكامه الشرعية.

٩. هذا ما فتح الله به، وبعد كتابته راجعنا كتاب روح المعاني فوجدنا فيه نقلا في نكتة البلاغة في المقابلة بين الضر والخير أحببنا نقلها إتماما للفائدة قال: (وفسروا الضر (بالضم) بسوء الحال في الجسم (وبالفتح) بضد النفع وعدل عن الشر المقابل للخير إلى الضر على ما في البحر لأن الشر أعم، فأتى بلفظ الأخص مع الخير الذي هو عام رعاية لجهة الرحمة، وقال ابن عطية إن مقابلة الخير بالضر مع أن مقابله الشر وهو أخص منه من خفي الفصاحة للعدول عن قانون الصنعة وطرح رداء التكلف وهو أن يقرن بأخص من ضده ونحوه لكونه أوفق بالمعنى وألصق بالمقام كقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ [طه: ١١٨ ـ ١١٩] فجيء بالجوع مع العري وبالظمأ مع الضحو وكان الظاهر خلافه، ومنه قول امرئ القيس:

كأني لم أركب جوادا للذة ... ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

ولم أسبأ الزق الروي ولم أقل ... لخيلي كري كرة بعد إجفال

وإيضاحه أنه في الآية قرن الجوع الذي هو خلو الباطن بالعري الذي هو خلو الظاهر، والظمأ الذي فيه حرارة الباطن بالضحى الذي فيه حرارة الظاهر، وكذلك قرن امرؤ القيس علوه على الجواد بعلوه على الكاعب لأنهما لذتان في الاستعلاء، وبذل المال في شراء الراح، ببذل الأنفس في الكفاح، لأن في الأول سرور الطرب وفي الثاني سرور الظفر، وكذا هنا أوثر الضر لمناسبته ما قبله من الترهيب، فإن انتقام العظيم عظيم، ثم لما ذكر الإحسان أتى بما يعم أنواعه، والآية من قبيل اللف والنشر، فإن مس الضر ناظر إلى قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ الخ ومس الخير ناظر إلى قوله سبحانه: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ الخ.

١٠. ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ فسر أهل اللغة القهر بالغلبة والأخذ من فوق وبالإذلال، وقال الراغب: (القهر الغلبة والتذليل معا ويستعمل في كل واحد منهما)

١١. وقد جاءت هذه الآية بعد إثبات كمال القدرة لله تعالى فيما قبلها تثبت له جل وعلا كمال

السلطان والتسخير لجميع عباده والاستعلاء عليهم مع كمال الحكمة والعلم المحيط بخفايا الأمور، ليرشدنا إلى أن من اتخذ منهم وليا من دونه، فقد ضل ضلالا بعيدا لإشراكه ومقارنته بين الرب القاهر العلي الكبير الحكيم الخبير، وبين العبد المربوب المقهور المذلل المسخر الذي لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فإذا كان هكذا شأن الرب وهذه صفاته فلا ينبغي للمؤمن به أن يتخذ وليا من عباده المقهورين تحت سلطان عزته، المذللين لسننه التي اقتضتها حكمته وعلمه بتدبير الأمر في خلقه، لأن أفضل المخلوقات وأكملهم مساوون لغيرهم في العبودية لله والذل له، وكونهم لا حول لهم ولا قوة بأنفسهم، ولم يجعل من خصائص أحد منهم أن يشاركه في التصرف في خلقه ولا في كونه يدعى معه ولا وحده لكشف ضر ولا جلب نفع ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إليه إِنْ شَاءَ﴾ [الأنعام: ٤١] ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦] الخ.

١٢. وقد فسر ابن جرير الآية بقوله: (والله الغالب عباده المذل لهم العالي عليهم بتذليله لهم وخلقه إياهم فهو فوقهم بقهره إياهم وهم دونه، وهو الحكيم في علوه على عباده وقهره إياهم بقدرته وسائر تدبيره، الخبير بمصالح الأشياء ومضارها، الذي لا تخفى عليه عواقب الأمور وبواديها، ولا يقع في تدبيره خلل، ولا يدخل حكمته دخل)

١٣. وذهبت المعتزلة والأشاعرة إلى أن قوله تعالى: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ تصوير لقهره وعلوه بالغلبة والقهر، صرح بذلك الزمخشري وتبعه بعض الأشاعرة (كالبيضاوي) بنقل عبارته بنصها، وبعضهم (كالرازي) بنقلها وإطالة الدلائل النظرية بإثبات مضمونها، ومنع إرادة فوقية الذات وإطلاق صفة العلو على الله، إذ جعل ذلك قولا بتحيز الباري في جهة معينة وأطال في سرد الدلائل النظرية على استحالة ذلك، ولفظ الآية لا يأبى ما فسره به الزمخشري وأمثاله، لأن له نظيرا ذكروه في تفسيرها وهو قوله تعالى حكاية عن فرعون ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] وبديهي أنه يعني فوقية المكانة المعنوية لا المكان، ولو اكتفوا بهذا لكان حسنا لأنه في معنى ما نقل عن مفسري السلف كابن جرير ولكن منهم من شنع على السلف الصالحين وسماهم حشوية لعدم تأويلهم الآيات والأحاديث الصحيحة الناطقة بإثبات صفة العلو المطلق لله تعالى، فسلف الأمة يمرون هذه الآيات بغير تأويل، ويقولون إن الله مستو على عرشه فوق

السماوات وفوق العالم كله، وإنه بائن من خلقه، وإنه مع ذلك ليس كمثله شيء فليس بمحدود ولا محصور ولا متحيز، فهذه اللوازم التي يبني عليها الجهمية وتلاميذهم تأويل صفة العلو مبنية كلها على قياس الخالق على المخلوق والقديم على المحدث.

١٤. ومن المعلوم أن جميع ما أطلق على الله تعالى من الصفات حتى العلم والقدرة والإرادة فإنما وضع في أصل اللغة لصفات البشر وهي مباينة لصفات الله تعالى، فلماذا يخصون بعضها بالتأويل دون بعض، فالحق الذي مضى على سلف الأمة أن الله تعالى يوصف بكل ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ وإن جميع تلك الصفات تطلق عليه مع تنزهيه عن مشابهة من تطلق عليهم ألفاظها من الخلق، فعلم الله وقدرته وكلامه وعلوه وسائر صفاته شؤون تليق به لا تشبه علم المخلوقين وقدرتهم وكلامهم وعلو بعضهم على بعض، وقد انتهى سخف بعض المتكلمين في التأويل إلى جعل صفات الباري تعالى سلبية، وقد تقدم شيء من هذا البحث وسنعود إليه إن شاء الله تعالى.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. بعد أن أمره الله تعالى بهذا القول المبيّن لأساس الدين، وبين أنه مأمور به كغيره أمره بقول آخر فيه بيان لجزاء من خالف الأمر والنهى السالفين فقال: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي قل لهم إن فرض وقوع العصيان منى فإننى أخاف أن يصيبنى عذاب ذلك اليوم العظيم وهو يوم القيامة الذي يتجلى فيه الرب على عباده ويحاسبهم الحساب العسير على أعمالهم ويجازيهم بما يستحقون.

٢. وفى الآية إشارة إلى أن هذا يوم لا محاباة فيه لأحد مهما كان عظيما، وأنه لا تنفع فيه شفاعة الشافعين، بل الأمر يومئذ لله، فلا سلطان لغيره يتكل عليه من يعصيه، ظنا منه أنه يخفف عنه العذاب أو ينجيه، وإذا كان خوف النبي ﷺ من العذاب على المعصية منتفيا لوجود العصمة، فخوف الإجلال والتعظيم ثابت له في جميع الأحوال.

٣. ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ أي من يحوّل عنه هذا العذاب، في ذلك

(١) تفسير المراغي ٧/ ٩١.

اليوم فقد رحمه الله، إذ أنجاه من الهول الأكبر، ومن نجا منه فقد دخل الجنة، والنجاة من العذاب والتمتع بالنعيم في دار البقاء هو الفوز المبين الظاهر الذي لا فوز أعظم منه، وقد سبق أن قلنا: إن الفوز إنما ينال بحصول مطلوبين:

أ. أحدهما سلبي وهو النجاة من العذاب.

ب. الثاني إيجابي وهو الظفر بالنعيم المقيم في الجنة.

٤. وبعد أن بين أن صرف العذاب والفوز بالنعيم من رحمته في الآخرة ـ بيّن أن الأمر كذلك في الدنيا وأن التصرف فيها له وحده: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي وإن يصبك أيها الإنسان ضر كمرض وفقر وحزن وذل اقتضته سنة الله فلا كاشف له ولا صارف يصرفه عنك إلا هو، دون الأولياء الذين يتّخذون من دونه، ويتوجه إليهم المشرك بكشفه ـ وهو إما أن يكشفه عنك بتوفيقك للأسباب الكسبية التي تزيله، وإما أن يكشفه بغير عمل منك، بل بلطفه وكرمه، فله الحمد على نعمه المتظاهرة التي لا حدّ لها ـ وإن يمسسك بخير كصحة وغنى وقوة وجاه فهو قادر على حفظه عليك كما قدر على إعطائه إياك، وهو القدير على كل شيء أما أولئك الأولياء الذين اتخذوا من دونه فلا يقدرون على مسّك بخير ولا ضرّ، فعلى المؤمن الصادق في إيمانه إلا يطلب شيئا من أمور الدنيا والآخرة من كشف ضر وصرف عذاب أو إيجاد خير ومنح ثواب ـ إلا من الله تعالى وحده دون غيره من الشفعاء الأولياء الذين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا.

٥. وهذا الطلب إما طلب بالعمل ومراعاة الأسباب التي اقتضتها سنته في الخلق ودل عليها الشرع وهدى إليها العقل، وإما بالتوجه إليه ودعائه كما ندب إلى ذلك كتابه الكريم وسنة نبيه ﷺ، قال تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾

٦. وبعد أن أثبت عز اسمه لنفسه كمال القدرة أثبت لها كمال السلطان والتسخير لجميع عباده والاستعلاء عليهم، مع كمال الحكمة والعلم المحيط بخفايا الأمور، ليرشدنا إلى أن من اتخذ الأولياء فقد ضلّ ضلالا بعيدا فقال: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ أي إن الرب من شأنه العزة والسلطان والعلو والكبرياء وهو الحكيم الخبير، فلا ينبغي للمؤمن أن يتخذ وليا من عباده المقهورين تحت سلطان عزته، المذلّلين لسنته التي اقتضتها حكمته وعلمه بتدبير الأمر في خلقه، وهو جلت قدرته لم يجعل

من خلقه شريكا له في التصرف ولا في كونه يدعى معه ولا وحده لكشف ضر ولا جلب نفع كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾ وقال: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)(٢)]:

١. أمر كذلك أن يقذف في قلوبهم بالرعب والترويع؛ في الوقت الذي يعلن فيه تصوره لجدية الأمر والتكليف ولخوفه هو من عذاب ربه، إن عصاه فيما أمر به من الإسلام والتوحيد: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾،

٢. إنه تصوير لحقيقة مشاعر الرسول ﷺ تجاه أمر ربه له؛ وتجسيم لخوفه من عذابه، العذاب الذي يعتبر مجرد صرفه عن العبد رحمة من الله وفوزا مبينا، ولكنه في الوقت ذاته حملة مزلزلة على قلوب المشركين في ذلك الزمان، وقلوب المشركين بالله في كل زمان، حملة مزلزلة تصور العذاب في ذلك اليوم العظيم؛ يطلب الفريسة، ويحلق عليها، ويهجم ليأخذها، فلا تصرفه عنها إلا القدرة القادرة التي تأخذ بخطامه فتلويه عنها! وإن أنفاس القارئ لهذا التصوير لتحتبس ـ وهو يتمثل المشهد ـ في انتظار هذه اللقطة الأخيرة!

٣. ثم إنه لماذا يتخذ غير الله وليا، ويعرض نفسه للشرك الذي نهى عنه وللمخالفة عن الإسلام الذي أمر به، ولما يعقب المعصية من هذا العذاب الهائل الرعيب؟. ألعل ذلك رجاء جلب نفع أو دفع ضر في هذه الحياة الدنيا؟ رجاء نصرة الناس له في الضراء؛ ورجاء نفع الناس له بالسراء؟. إن هذا كله بيد الله؛ وله القدرة المطلقة في عالم الأسباب؛ وله القهر كذلك على العباد؛ وعنده الحكمة والخبرة في المنع والعطاء: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ وهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾..

٤. إنه تتبع هواجس النفس ووساوس الصدر؛ وتتبع مكامن الرغائب والمخافات، ومطارح الظنون والشبهات وتجلية هذا كله بنور العقيدة، وفرقان الإيمان ووضوح التصور، وصدق المعرفة بحقيقة

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/ ١٠٥٥.

(٢) في ظلال القرآن: ٢/ ١٠٥٦.

الألوهية، ذلك لخطورة القضية التي يعالجها السياق القرآني في هذا الموضع، وفي جملة هذا القرآن.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هو بيان لبعض دواعي الإيمان بالله في نفس النبيّ وفي نفس كل مؤمن بالله، وهو أن الخوف من عذاب الله يوم القيامة، وطلب النجاة من هول هذا اليوم، هو داع صارخ يدعو الإنسان إلى أن يهرب من هذا البلاء، إلى الإيمان بالله، واستجابة دعوته التي يدعو بها عباد الله.. فمن أبى، وعصى أن يستجيب لله ويؤمن بالله، فهذا يوم الحساب أمامه، والنار مثواه.

٢. ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ أي أن من ينجو من عذاب هذا اليوم، ويسلم من الوقوع تحت وطأته ـ فهذا من فضل الله عليه، ورحمته به، وذلك بتوفيقه إلى الإيمان بالله، والولاء له، والامتثال لأمره.. ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ إذ لا فوز بعد هذا الفوز، ولا ربح أعظم من هذا الربح.. حيث خلص الإنسان بنفسه من العذاب، ثم لم يقف به الأمر عند هذا الحدّ من الفوز والفلاح، بل أخذ بيده بعد هذا إلى جنات النعيم، وإذا هو فيمن رضى الله عنهم، وأفاض عليهم الجزيل من عطاياه ومننه.. ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾

٣. ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إلا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ عرض لقدرة الله سبحانه وتعالى، وأنه سبحانه هو الذي بيده النفع والضرّ، وأن أقسى ما يصيب الإنسان من ضرّ هو لمسة خفيفة، محفوفة برحمة الله ولطفه، ولولا ذلك لما احتملها بشر.. وكذلك ما ينال الإنسان من خير، هو قطرة من فضل الله، محفوفة بحكمته وتقديره، ولولا ذلك لفاضت فملأت على الإنسان دنياه، ولما وجد لنفسه متنفّسا فيها.

٤. فإذا مسّ الإنسان ضرّ فهو من الله سبحانه، ولا يرجى لكشف هذا الضرّ غيره.. لأنه مما قضى به، ولا رادّ لقضائه الذي قضاه، إلا ما كان من لطفه ورحمته اللذين يحفّان بقضائه، فيمضي على ما قضاه، ولكن تقوم إلى جانب ذلك في كيان الإنسان مشاعر تستقبل هذا القضاء برضى، وتحتمله في صبر، حتى

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/ ١٤٣.

يأذن الله برفع هذا الضرّ، وكشفه.. وهذا هو بعض اللطف في القضاء.

٥. وإذا مسّ الإنسان خير، فهو كذلك مما قضى الله به، وأراده، ويسرّ الإنسان له.. وفي تقديم الشر على الخير هنا ما يملأ مشاعر الإنسان خوفا من الله، وتعلقا به، واتجاها إليه، فإن الإنسان في الخير كثيرا ما يذهل عن الله، ويغفل عن ذكره.. ولكنه في حال الشدّة والضرّ يذكر الله ويهتف به، ويمدّ يده إليه كما يقول سبحانه: ﴿وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾ [الزمر: ٨]، وكما يقول: ﴿وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ كانَ يَؤُساً﴾ [الإسراء: ٨٣].. فما أقلّ أولئك الذين يجدون في نعم الله طريقا يصلهم إلى الله، ويقرّبهم منه، ويقيمهم على الشكر والحمد، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] أما في البلاء، وأما في الشدة، فإن الناس جميعا، مؤمنهم وكافرهم، يذكرون الله، ويهتفون به، حتى فرعون فإنه حين أدركه الغرق، قال آمنت! وهكذا الناس.. تدنيهم الشدائد من الله، وتقربهم منه.. وإنها لنعمة تلك الشدائد، التي توجّه الإنسان إلى الله، لو أنه استقام على طريقه إلى الله، ولم يكن من الخائنين لنفسه، الذين يمكرون بآيات الله..

٦. ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ أي أنه ذو السلطان القائم فوق عباده، يملكهم ولا يملكونه، ويقضي عليهم ولا يقضون عليه، ويعطي ويمنع، ويعزّ ويذل: ﴿قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وليس سلطان الله سبحانه، القائم فوق عباده، الآخذ على جوارحهم ومشاعرهم ومدركاتهم ـ ليس بالسلطان المستبدّ الجهول، تعالى عن ذلك علوّا كبيرا.. وإنما هو سلطان قائم بالعدل، والحكمة، والعلم والقدرة، وما كان كذلك، فهو سلطان الرحمة والإحسان..

٧. في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ إشارة إلى هذا السلطان القاهر الغالب، وأنه بيد حكيم خبير، يضع كل شيء موضعه، بحكمة الحكيم، وخبرة الخبير، فيأخذ مكانه الذي هو له، في أحسن وضع، وأكمل صورة، في ملك الله: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣]

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ هذا استئناف مكرّر لما قبله، وهو تدرّج في الغرض المشترك بينها من أنّ الشرك بالله متوعّد صاحبه بالعذاب وموعود تاركه بالرحمة، فقوله: ﴿أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ [الأنعام: ١٤] الآية رفض للشرك بالدليل العقلي، وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أوّل مَنْ أسلم﴾ [الأنعام: ١٤] الآية، رفض للشرك امتثالا لأمر الله وجلاله، وقوله هنا: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ﴾ الآية تجنّب للشرك خوفا من العقاب وطمعا في الرحمة، وقد جاءت مترتّبة على ترتيبها في نفس الأمر.

٢. وفهم من قوله: ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ أنّ الأمر له بأن يكون أول من أسلم والناهي عن كونه من المشركين هو الله تعالى، وفي العدول عن اسم الجلالة إلى قوله: ﴿رَبِّي﴾ إيماء إلى أنّ عصيانه أمر قبيح لأنّه ربّه فكيف يعصيه.

٣. وأضيف العذاب إلى ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ تهويلا له لأن في معتاد العرب أن يطلق اليوم على يوم نصر فريق وانهزام فريق من المحاربين، فيكون اليوم نكالا على المنهزمين، إذ يكثر فيهم القتل والأسر ويسام المغلوب سوء العذاب، فذكر ﴿يَوْمَ﴾ يثير من الخيال مخاوف مألوفة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩] ولم يقل عذاب الظلّة أنّه كان عذابا عظيما، وسيأتي بيان ذلك مفصّلا عند قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ في سورة التغابن [٩]، وبهذا الاعتبار حسن جعل إضافة العذاب إلى اليوم العظيم كناية عن عظم ذلك العذاب، لأن عظمة اليوم العظيم تستلزم عظم ما يقع فيه عرفا.

٤. وقوله: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ جملة من شرط وجزاء وقعت موقع الصفة لـ ﴿عَذَابٍ﴾، و﴿يُصْرَفْ﴾ مبني للمجهول في قراءة الأكثر، على أنّه رافع لضمير العذاب أو لضمير ﴿مِنَ﴾ على النيابة عن الفاعل، والضمير المجرور بـ (عن) عائد إلى ﴿مِنَ﴾ أي يصرف العذاب عنه، أو عائد إلى العذاب، أي من يصرف هو عن العذاب، وعلى عكس هذا العود يكون عود الضمير المستتر في قوله:

---

(١) التحرير والتنوير: ٦/ ٤١.

﴿يُصْرَفْ﴾، وقرأه حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، ويعقوب، وخلف ﴿يُصْرَفْ﴾ ـ بالبناء للفاعل ـ على أنّه رافع لضمير ﴿رَبِّي﴾ على الفاعلية، أمّا الضمير المستتر في ﴿رَحِمَهُ﴾ فهو عائد إلى ﴿رَبِّي﴾، والمنصوب عائد إلى ﴿مِنَ﴾ على كلتا القراءتين.

٥. ومعنى وصف العذاب بمضمون جملة الشرط والجزاء، أي من وفّقه الله لتجنّب أسباب ذلك العذاب فهو قد قدّر الله له الرحمة ويسّر له أسبابها.

٦. والمقصود من هذا الكلام إثبات مقابل قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ كأنّه قال: أرجو إن أطعته أن يرحمني ربّي، لأن من صرف عنه العذاب ثبتت له الرحمة، فجاء في إفادة هذا المعنى بطريقة المذهب الكلامي، وهو ذكر الدليل ليعلم المدلول، وهذا ضرب من الكناية وأسلوب بديع بحيث يدخل المحكوم له في الحكم بعنوان كونه فردا من أفراد العموم الذين ثبت لهم الحكم.

٧. ولذلك عقّبه بقوله: ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾، والإشارة موجّهة إلى الصرف المأخوذ من قوله: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ أو إلى المذكور، وإنما كان الصرف عن العذاب فوزا لأنّه إذا صرف عن العذاب في ذلك اليوم فقد دخل في النعيم في ذلك اليوم، قال تعالى: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، و﴿الْمُبِينِ﴾ اسم فاعل من أبان بمعنى بان.

٨. ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ عطف على الجمل المفتتحة بفعل ﴿قُلْ﴾ [الأنعام: ١٥] فالخطاب للنبي ﷺ، وهذا مؤذن بأنّ المشركين خوّفوا النبي ﷺ أو عرّضوا له بعزمهم على إصابته بشرّ وأذى فخاطبه الله بما يثبّت نفسه وما يؤيس أعداءه من أن يستزلّوه، وهذا كما حكي عن إبراهيم عليه السلام ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ [الأنعام: ٨١]، ومن وراء ذلك إثبات أنّ المتصرّف المطلق في أحوال الموجودات هو الله تعالى بعد أن أثبت بالجمل السابقة أنّه محدث الموجودات كلّها في السماء والأرض، فجعل ذلك في أسلوب تثبيت للرسول ﷺ على عدم الخشية من بأس المشركين وتهديدهم ووعيدهم، ووعده بحصول الخير له من أثر رضى ربّه وحده عنه، وتحدّي المشركين بأنّهم لا يستطيعون إضراره ولا يجلبون نفعه، ويحصل منه ردّ على المشركين الذين كانوا إذا ذكّروا بأنّ الله خالق السماوات والأرض ومن فيهن أقرّوا بذلك، ويزعمون أنّ آلهتهم تشفع عند الله وأنّها تجلب الخير وتدفع الشرّ، فلمّا

أبطلت الآيات السابقة استحقاق الأصنام الإلهية لأنّها لم تخلق شيئا، وأوجبت عبادة المستحقّ الإلهية بحقّ، أبطلت هذه الآية استحقاقهم العبادة لأنّهم لا يملكون للناس ضرّا ولا نفعا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [المائدة: ٧٦]، وقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أو يَنْفَعُونَكُمْ أو يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٧٣]

٩. وقد هيّأت الجمل السابقة موقعا لهاته الجملة، لأنّه إذا تقرّر أنّ خالق الموجودات هو الله وحده لزم من ذلك أنّه مقدّر أحوالهم وأعمالهم، لأن كون ذلك في دائرة قدرته أولى وأحقّ بعد كون معروضات تلك العوارض مخلوقة له، فالمعروضات العارضة للموجودات حاصلة بتقدير الله لأنّه تعالى مقدّر أسبابها، واضع نظام حصولها وتحصيلها، وخالق وسائل الدواعي النفسانية إليها أو الصوارف عنها.

١٠. والمسّ حقيقته وضع اليد على شيء وقد يكون مباشرة وقد يكون بآلة، ويستعمل مجازا في إيصال شيء إلى شيء فيستعار إلى معنى الإيصال فيكثر أن يذكر معه ما هو مستعار للآفلة، ويدخل عليه حرف الآلة وهو الباء كما هنا، فتكون فيه استعارتان تبعيتان إحداهما في الفعل والأخرى في معنى الحرف، كما في قوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ [الأعراف: ٧٣]، فالمعنى: وإن يصبك الله بضرّ، أو وإن ينلك من الله ضرّ.

١١. والضرّ ـ بضم الضاد ـ هو الحال الذي يؤلم الإنسان، وهو من الشرّ، وهو المنافر للإنسان، ويقابله النفع، وهو من الخير، وهو الملائم، والمعنى إن قدّر الله لك الضرّ فهلّا يستطيع أحد كشفه عنك إلا هو إن شاء ذلك، لأن مقدّراته مربوطة ومحوطة بنواميس ونظم لا تصل إلى تحويلها إلا قدرة خالقها.

١٢. وقابل قوله: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ﴾ بقوله: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ مقابلة بالأعمّ، لأن الخير يشمل النفع وهو الملائم ويشمل السلامة من المنافر، للإشارة إلى أنّ المراد من الضرّ ما هو أعمّ، فكأنّه قيل: إن يمسسك بضرّ وشرّ وإن يمسسك بنفع وخير، ففي الآية احتباك، وقال ابن عطية: ناب الضرّ في هذه الآية مناب الشرّ والشرّ أعمّ وهو مقابل الخير، وهو من الفصاحة عدول عن قانون التكلّف والصنعة، فإن من باب التكلّف أن يكون الشيء مقترنا بالذي يختصّ به ونظّر هذا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ إلا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ [طه: ١١٨، ١١٩]

١٣. وقوله: ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ جعل جوابا للشرط لأنّه علّة الجواب المحذوف والجواب

المذكور قبله، إذ التقدير: وإن يمسسك بخير فلا مانع له لأنّه على كلّ شيء قدير في الضرّ والنفع، وقد جعل هذا العموم تمهيدا لقوله بعده ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨]

١٤. ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ هذه الجملة معطوفة على جملة ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ﴾ [الأنعام: ١٧] الآية، والمناسبة بينهما أنّ مضمون كلتيهما يبطل استحقاق الأصنام العبادة، فالآية الأولى: أبطلت ذلك بنفي أن يكون للأصنام تصرّف في أحوال المخلوقات، وهذه الآية أبطلت أن يكون غير الله قاهرا على أحد أو خبيرا أو عالما بإعطاء كل مخلوق ما يناسبه، ولا جرم أنّ الإله تجب له القدرة والعلم، وهما جماع صفات الكمال، كما تجب له صفات الأفعال من نفع وضرّ وإحياء وإماتة، وهي تعلّقات للقدرة أطلق عليها اسم الصفات عند غير الأشعري نظرا للعرف، وأدخلها الأشعري في صفة القدرة لأنّها تعلّقات لها، وهو التحقيق.

١٥. ولذلك تتنزّل هذه الآية من التي قبلها منزلة التعميم بعد التخصيص لأن التي قبلها ذكرت كما تصرّفه في المخلوقات وجاءت به في قالب تثبيت الرسول ﷺ كما قدّمنا، وهذه الآية أوعت قدرته على كلّ شيء وعلمه بكلّ شيء وذلك أصل جميع الفعل والصنع.

١٦. والقاهر الغالب المكره الذي لا ينفلت من قدرته من عدّي إليه فعل القهر، وقد أفاد تعريف الجزأين القصر، أي لا قاهر إلا هو، لأن قهر الله تعالى هو القهر الحقيقي الذي لا يجد المقهور منه ملاذا، لأنّه قهر بأسباب لا يستطيع أحد خلق ما يدافعها، وممّا يشاهد منها دوما النوم وكذلك الموت، سبحان من قهر العباد بالموت.

١٧. و﴿فَوْقَ﴾ ظرف متعلّق بـ ﴿الْقَاهِرُ﴾، وهو استعارة تمثيلية لحالة القاهر بأنه كالذي يأخذ المغلوب من أعلاه فلا يجد معالجة ولا حراكا، وهو تمثيل بديع ومنه قوله تعالى حكاية عن فرعون ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، ولا يفهم من ذلك جهة هي في علوّ كما قد يتوهّم، فلا تعدّ هذه الآية من المتشابهات.

١٨. والعباد: هم المخلوقون من العقلاء، فلا يقال للدوابّ عباد الله، وهو في الأصل جمع عبد لكن الاستعمال خصّه بالمخلوقات، وخصّ العبيد بجمع عبد بمعنى المملوك.

١٩. ومعنى القهر فوق العباد أنّه خالق ما لا يدخل تحت قدرهم بحيث يوجد ما لا يريدون

وجوده كالموت، ويمنع ما يريدون تحصيله كالولد للعقيم والجهل بكثير من الأشياء، بحيث إنّ كلّ أحد يجد في نفسه أمورا يستطيع فعلها وأمورا لا يستطيع فعلها وأمورا يفعلها تارة ولا يستطيع فعلها تارة، كالمشي لمن خدرت رجله؛ فيعلم كلّ أحد أنّ الله هو خالق القدر والاستطاعات لأنّه قد يمنعها، ولأنّه يخلق ما يخرج عن مقدور البشر، ثم يقيس العقل عوالم الغيب على عالم الشهادة، وقد خلق الله العناصر والقوى وسلّط بعضها على بعض فلا يستطيع المدافعة إلا ما خوّلها الله.

٢٠. والحكيم: المحكم المتقن للمصنوعات، فعيل بمعنى مفعل، وقد تقدّم في قوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ في سورة البقرة [٢٠٩] وفي مواضع كثيرة.

٢١. والخبير: مبالغة في اسم الفاعل من (خبر) المتعدّي، بمعنى (علم)، يقال: خبر الأمر، إذا علمه وجرّبه، وقد قيل: إنّه مشتقّ من الخبر لأن الشيء إذا علم أمكن الإخبار به.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، هذا أمر ثالث من الله سبحانه وتعالى لنبيه الأمين ﷺ أن يبين حالا من أحواله ﷺ، يكون فيها تنبيه لهم، وتحذير من أن يبقوا على الشرك، ويستمروا على عصيان الله تعالى، فيأمره تعالى بأن يقول لهم: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ﴾ فذكر هذه الحال من النبي ﷺ تنبيه لهم إلى أنهم في مقام من يخاف عذاب يوم عظيم.

٢. ففي هذا النص إنذار لهم بأن عذاب يوم عظيم ينتظرهم، وأنه يجب أن يخافوه، ويتقوه، بأن يقلعوا عما هم فيه من الوقوع في أسبابه، وهو العصيان، وأكبر العصيان الشرك، وأنذروا بأدق تعبير، وأنصف تصوير، وأبلغ بيان إذ جعلت حال النبي ﷺ من الخوف من عذاب الله إن عصى منبهة إلى الاقتداء، والتفتيش عما هم فيه من معصية.

٣. وفى الموضع كلام في عصيان الأنبياء أيتصور وقوعه؟ ونقول إن الأنبياء معصومون عن العصيان، ولكن الخوف من العصيان يعتريهم؛ لأنهم لفرط إحساسهم بعظمة الله وإيمانهم بحسابه وعقابه

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/ ٢٤٥٧.

وثوابه، ورقابتهم النفسية لله يكونون دائما في خوف ووجل، لا لتوقع العصيان، ولكن رهبة من الديان.

٤ . ولأن العصيان الجلى غير متوقع عبر بـ (إن) التي لا تدل على الوقوع، فقال: ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ وهنا فوق التعبير بـ (إن) التعبير بـ (ربي) فإنه يستبعد عصيان الرب الخالق المنمى الكالىء، الذى هو فوق كل شيء واليوم العظيم هو يوم القيامة، وكان عظيما، بما فيه من أمور، من تجلى الله سبحانه وتعالى، وحسابه وعقابه، والتنكير للتعظيم، فهو ذو عظمة متكررة.

٥ . ولعظمة ذلك اليوم وعذابه قال تعالى: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾، الضمير الذى يعتبر نائب فاعل يعود على عذاب يوم القيامة العظيم، وهناك قراءة بالبناء للفاعل، ويكون المفعول محذوفا، والضمير يعود إلى ربي أو إلى الله المذكور تعالى في قوله: ﴿أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾، إلى آخره، ويكون المعنى على هذه القراءة من يصرف الله تعالى عنه هذا العذاب العظيم في ذلك اليوم فقد رحمه، وعلى أي حال فالضمير في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ يعود على الله، ولهذا اختار ابن جرير الطبري قراءة البناء للفاعل، إذ يكون الصارف الدافع للعذاب هو الرحيم، فالنسق يكون واضحا.

٦ . ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ من إضافة الوقت إلى الوقت أي ذلك في يوم ذلك الوقت وهو يوم القيامة، وكان ذلك رحمة من الله لأن العذاب يكون عظيما، وذهاب العذاب ودفعه رحمة، ومع ذلك فهناك الجنات التي تجرى من تحتها الأنهار، والنعيم المقيم، فالرحمة إيجابية وسلبية، فالسلبية دفع العذاب، والإيجابية الهداية؛ فإنها في ذاتها رحمة، ثم ما يعقبها من جزاء، ثم ما هو فوق ذلك وهو رضوان الله تعالى، وذلك كله من الرحمة المتنوعة المتعددة وهو الفوز المبين الواضح الذى لا يمارى فيه إلا جهول.

٧ . ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ﴾، المس يطلق على ما ينزل بالإنسان من ضر، مثل قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ [آل عمران]، وقوله تعالى: ﴿مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ﴾ [البقرة] ومثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ﴾ [يونس] والضر هو الأمر المؤلم الذى ينزل بالمرء من ضيق في الرزق، أو مرض في الجسم، أو هزيمة في حرب أو نحو ذلك، فإذا مسّك أيها النبي ﷺ ضر من هذا النوع الذى تتأثر به في دعوتك، فلا يكشف عنك هذا الضر ـ لتستمر في تبليغ رسالته ـ إلا الله تعالى، بعد أن تتخذ الأسباب، وظاهر هذا الكلام أن الخطاب يكون للنبي ﷺ ويكون لتقويته في تبليغ دعوته، وتأكيد ولايته، واستعانته به سبحانه وتعالى وحده.

٨. ويصح أن يكون الخطاب لكل مؤمن قارئ للقرآن، أو لكل من هو أهل للخطاب، وفيه بيان أن الناس جميعا في سلطان الله، فما يصيبهم من نفع فبتقديره، وما يصيبهم من ضر فبتقديره وإرادته، وهو الكاشف لهذا الضر إن أراد ذلك كله مع الأخذ بالأسباب؛ لأن الأسباب لا تعمل وحدها، إنما لا بد معها من إرادة الله تعالى والتوكل عليه؛ ولذلك كان الله تعالى يأمر بالتوكل عليه بعد الأخذ بالأسباب؛ لأنها وحدها لا تعمل إلا مع التفويض، كما أن النوم والتواكل لا يجديان، والتوكل في هذه الحال تواكل وليس اعتمادا على الله سبحانه وتعالى.

٩. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيه المقابلة بين الخير والضر، وأن الأول يكشفه الله، والثاني بقدرة الله تعالى، والتعبير بالمس في الأمرين من قبيل التشاكل اللفظي والكل تحت سلطان الله تعالى وقدرته، والخطاب للنبي ﷺ أو لكل من هو أهل للخطاب الذى يتلو القرآن الكريم، أو يستطيع تلاوته، وكشف الضر: إزالته، ومس الخير: نفعه.

١٠. سؤال وإشكال: لماذا عبر الله تعالى عن الضر بأن الله كاشفه، وعن مس النفع بقدرة الله تعالى؟ والجواب: إن من نزل به ضر يكون إحساسه بزواله، فعبر عن زواله بكشف الله تعالى، وأما النفع فإنه يكون صاحبه في حال تستوجب الحمد والثناء وطلب البقاء فيناسبه إثبات قدرة الله تعالى.

١١. وإن كشف الضر والنفع كله بقدرة الله تعالى، ولقد قال النبي ﷺ: (لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت) وقال الله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر]

١٢. ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾، معاني هذه الآية الكريمة جامعة لكل سلطان الله على عباده في السماء والأرض، فهو الغالب على كل شيء لا إرادة لأحد مع إرادته، وإرادته، فوق كل إرادة، فهو المسيطر سيطرة كاملة على عباده، والفوقية المذكورة في النص الكريم هي فوقية سلطان لا فوقية مكان، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، فلا جبار له إرادة عند سلطانه سبحانه، ولقد قال ابن كثير في معنى النص جملة رائعة، فقد قال: (يقول تعالى: إنه مالك الضر والنفع، وإنه المتصرف في خلقه بما يشاء لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه وهو القاهر فوق عباده، أي هو الذى خضعت له الرقاب، وذلت له الجبابرة، وعنت له الوجوه، وقهر كل شيء ودانت له الخلائق)

١٣. وإنه بهذا السلطان القاهر يدبر كل شيء بحكمته، وعلمه الدقيق المحيط، الذى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فبحكمته الظاهرة وبعلمه المحيط وقدرته القاهرة يسير الكون وما فيه ومن فيه إنه على ما يشاء قدير.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، المعصية من النبي محال لمكان العصمة، ولكن فرض المحال ليس بمحال.. والغرض تقرير أو تأكيد مبدأ المساواة بين الناس جميعا أمام الله، وانه خلق تعالى الجنة لمن أطاعه ولو كان عبدا حبشيا، والنار لمن عصاه ولو كان سيدا قرشيا.. ويأتي الخوف من الله سبحانه على قدر العلم بعظمته: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ وبالأولى: الأنبياء.

٢. ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾، كل من يخاف الهول الأكبر يرى النجاة منه رحمة كبرى، وفوزا لا شيء أعظم منه.

٣. ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ﴾ تدل هذه الآية على أن الضر كالفقر والمرض ونحوهما من صنع الله، لا من صنع الناس، وكذا كشفهما والخلاص منهما، سؤال وإشكال: إذن، لماذا السعي والعمل؟ والجواب:

أ. أولا: أن السعي واجب عقلا ونقلا، أما العقل فلأن الحياة لا تتم إلا بالعمل، وأما النقل فقد تجاوز حد التواتر، من ذلك قوله تعالى: ﴿فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾، وفي الحديث: (سافروا تغنموا.. تداووا فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء)، وعليه، فمن قصر في السعي، ومسه الضر فهو المسئول، ومن سعى من غير تقصير ومسه الضر تقع المسئولية على مجتمعه الفاسد في أوضاعه وأحكامه، وإن كان المجتمع الذي يعيش فيه صالحا فقد تضرر بقضاء الله وقدره.

ب. ثانيا: إن الله سبحانه لا يريد الضرر لأحد من عباده، كيف؟ وهو القائل: ﴿وَما أَنَا بِظَلَّامٍ

---

(١) التفسير الكاشف: ٣/ ١٦٩.

لِلْعَبِيدِ﴾، والقائل: ﴿وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ﴾، وفي الحديث: (إن الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها)، وعلى هذا يكون المراد بالضر في الآية ما يجازى به العبد على عمله، أو امتحانا لمصلحته وما إلى ذلك مما لا يتنافى مع عدل الله ورحمته، وتكلمنا عن الرزق مفصلا عند تفسير الآية ١٠٠ من سورة المائدة.

٤. ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي لا رادّ لخيره وفضله، قال الرازي: ذكر الله في الخير أنه على كل شيء قدير، وفي الضر أنه لا كاشف له إلا هو، ذكر ذلك للدلالة على أن إرادة الله لإيصال الخيرات غالبة على إرادته لإيصال المضار.

٥. ﴿وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾، والقاهر يشير إلى قدرة الله والخبير إلى علمه، وقهر الله عباده بإيجادهم دون إرادة منهم، وقهرهم أيضا بالموت والفناء، قال ابن العربي في الفتوحات المكية: إن الله سبحانه قهر عباده لأنهم نازعوه وخاصموه في مخالفتهم لأحكامه، ومن خاصم الله فهو مقهور ومغلوب لا محالة.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هذا هو المسلك الثاني من المسلكين اللذين تقدم أن المشركين تعلقوا بهما في اتخاذ الآلهة، وهو أن عبادة آلهتهم يؤمنهم من شمول سخطها ونزول عذابها، وقد أخذ سبحانه في الحجة أخوف ما يجب أن يخاف منه من أنواع العذاب وأمره وهو عذاب الساعة التي ثقلت في السماوات والأرض كما أخذ في الحجة الأولى أحوج ما يحتاج إليه الإنسان بحسب بادئ النظر من النعم، وهو الإطعام.

٢. وقد قيل: ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ دون أن يقال: إن أشركت بربي إشارة إلى ما في قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ من نهيه ﷺ عن الشرك فأدت الآية أن من الواجب علي عقلا أن أعبد الله وحده لأومن مما أخاف من عذاب يوم عظيم، وهذا الذي دل عليه العقل دلني عليه الوحي من ربي.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٧/ ٣٤.

٣. وبهذا تناظر هذه الآية الآية السابقة من جهة إقامة الحجة العقلية أولا ثم تأييده بالوحي من الله سبحانه فافهم ذلك، وهذا من لطائف إيجاز القرآن الكريم فقد اكتفى في إفادة هذا المعنى على سعته بمجرد وضع قوله: ﴿عَصَيْتُ﴾ موضع أشركت.

٤. ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾، المعنى ظاهر الآية متممة للحجة المسرودة في الآية السابقة فظاهر الآية السابقة بحسب النظر البسيط إقامة النبي ﷺ الحجة في وجوب التوحيد على نفسه بأن الله نهاه عن الشرك فيجب عليه توحيده ليؤمن عذاب الآخرة، فيلوح لنظر المغفل غير المتدبر أن يرد عليه الحجة بأن النهي لما كان مختصا بك كما تدعيه يختص الخوف ثم وجوب التوحيد أيضا بك فلا تقتضي الحجة وجوب التوحيد ونفي الشريك على غيرك، وتصير الحجة عليك لا على غيرك، فأفاد بقوله: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ أن عذابه مشرف على الجميع محيط بالكل لا مخلص عنه إلا برحمته فعلى كل إنسان أن يخاف من عذاب يومئذ على نفسه ما يخافه النبي ﷺ على نفسه فالحجة عامة قائمة على جميع الناس لا خاصة به ﷺ.

٥. ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ إلى آخر الآية، قد كانت الحجتان المذكورتان في الآيات السابقة أخذتا أنموذجا مما يرجوه الإنسان وهو الإطعام وأنموذجا مما يخافه وهو عذاب يوم القيامة، وتمتا بهما البيان، ولم تتعرضا لسائر أنواع الضر وأقسام الخير التي يمس الله سبحانه بهما الإنسان، والكل من الله عز اسمه، فالآية توضح بالتصريح أن هناك من الضر ما هو غير عذاب يوم القيامة يمس الله سبحانه به الإنسان يجب أن يتوجه إليه تعالى في كشفه، وأن من الخير ما يمس الله به الإنسان ولا راد لفضله ولا مانع يمنع من إفاضته لقدرته على كل شيء ورجاء الخير يوجب على الإنسان أن يتخذه سبحانه إلها معبودا.

٦. ولما أمكن أن يتوهم أن كونه تعالى يمس الإنسان بضر أو بخير إنما يقتضي أن يتخذ معبودا، والخصم لا ينكر ذلك، وأما قصر الألوهية والمعبودية فيه تعالى فلا لأن ما اتخذوه من الآلهة هي أسباب متوسطة وشفعاء أقوياء لها تأثيرات في الكون من شر أو خير يوجب على الإنسان أن يتقرب إليها خوفا من شرها أو رجاء لخيرها دفعه بأن الله سبحانه هو القاهر فوق عباده لا يفوقه منهم أحد ولا يعادله فهم أنفسهم تحت قهره، وكذا أفعالهم وآثارهم لا يعملون عملا من خير أو شر إلا بإذنه ومشيته غير مستقلين

بأمر البتة ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا غير ذلك، فما يطلع من أفق ذواتهم من أثر خيرا أو شرا ينتهي إلى أمره ومشيته وإذنه يستند إليه على ما يليق بساحة قدسه وعزته من الاستناد.

٧. فالآيتان جميعا تتمان معنى واحدا، وهو أن ما يصيب الإنسان من خير أو شر فمن الله على ما يليق بساحته من الانتساب، فالله سبحانه هو المتوحد بالألوهية، والمتفرد بالمعبودية لا إله غيره، ولا معبود سواه.

٨. وقد عبر عن إصابة الضر والخير بالمس الدال على الحقارة في قوله: ﴿إِنْ يَمْسَسْكَ﴾ ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ﴾ ليدل به على أن ما يصيب الإنسان من ضر أو من خير شيء يسير مما تحمله القدرة غير المتناهية التي لا يقوم لها شيء ولا يطيقها ولا يتحملها مخلوق محدود.

٩. وكأن قوله تعالى في جانب الخير: ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وضع موضع نحو من قولنا: فلا مانع يمنعه، ليدل على أنه تعالى قدير على كل خير مفروض كما أنه قدير على كل ضر مفروض، وتنكشف به علة قوله: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لو كشف غيره تعالى شيئا مما مس به من ضر دفع ذلك قدرته عليه، وكذلك قدرته على كل شيء تقتضي أن لا يقوى شيء على دفع ما يمس به من خير، وتخصيص ما يمس به من ضر أو خير بالنبي ﷺ في هذه الآية نظير التخصيص الواقع في قوله: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، ويفيد قوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ من التعميم نظير ما أفاد قوله: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾

١٠. ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ القهر هو نوع من الغلبة، وهو أن يظهر شيء على شيء فيضطره إلى مطاوعة أثر من الغالب يخالف ما للمغلوب من الأثر طبعا أو بنحوه من الافتراض كالماء يظهر على النار فيقهرها على الخمود، والنار تقهر الماء فتبخره أو تجفف رطوبته، وإذ كانت الأسباب الكونية إنما أظهرها الله سبحانه لتكون وسائط في حدوث الحوادث فتضع آثارها في مسبباتها، وهي كائنة ما كانت مضطرة إلى مطاوعة ما يريده الله سبحانه فيها وبها، يصدق عليها عامة أنها مقهورة لله سبحانه فالله قاهر عليها.

١١. فالقاهر من الأسماء التي تصدق عليه تعالى كما تصدق على غيره، غير أن بين قهره تعالى وقهر غيره فرقا، وهو أن غيره تعالى من الأشياء إنما يقهر بعضها بعضا وهما مجتمعان من جهة مرتبة وجودهما

ودرجة كونهما بمعنى أن النار تقهر الحطب على الاحتراق والاشتعال، وهما معا موجودان طبيعيان يقتضي أحدهما بالطبع خلاف ما يقتضيه الآخر لكن النار أقوى في تحميل أثرها على الحطب منه من النار فهي تظهر عليه في تأثيرها بأثرها فيه، والله سبحانه قاهر لا كقهر النار الحطب، بل هو قاهر بالتفوق والإحاطة على الإطلاق بمعنى أنا إذا نسبنا إحراق جسم وإشعاله كالحطب مثلا إلى الله سبحانه فهو سبحانه قاهر عليه بالوجود المحدود الذي أوجده به، قاهر عليه بالخواص والكيفيات التي أعطاها له وعبأه بها بيده، قاهر عليه بالنار التي أوقدها لإحراقه وإشعاله، وهو المالك لجميع ما للنار من ذات وأثر، قاهر عليه بقطع عطية المقاومة للحطب، ووضع الاحتراق والاشتعال موضعه فلا مقاومة ولا تعصي ولا جموح ولا شبه ذلك قبال إرادته ومشيته لكونها من أفق أعلى، فهو تعالى قاهر على عباده لكنه فوقهم لا كقهر شيء شيئا وهما متزاملان، وقد صدق القرآن الكريم هذا البحث بنتيجته فذكره اسما له تعالى في موضعين من هذه السورة وهما هذه الآية وآية.

١٢. وقيد الاسم في كلا الموضعين بقوله: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ والغالب في المحفوظ من موارد استعمال القهر هو أن يكون المغلوب من أولي العقل بخلاف الغلبة، ولذا فسره الراغب بالتذليل، والذلة في أولي العقل أظهر، ولا يمنع ذلك من صحة صدقه في غير مورد أولي العقل بحسب الاستعمال أو بعناية.

١٣. والله سبحانه قاهر فوق عباده يمسهم بالضر وبالخير ويذللهم لمطاوعته وقاهر فوق عباده فيما يفعلونه ويؤثرون به من أثر لأنه المالك لما ملكهم والقادر على ما عليه أقدرهم.

١٤. ولما نسب في الآيتين إليه المس بالضر والخير، وقد ينسبان إلى غيره، ميز مقامه من مقام غيره بقوله في ذيل الآية: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ فهو الحكيم لا يفعل ما يفعل جزافا وجهلا، الخبير لا يخطئ ولا يغلط كغيره.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ الذي أمرني أن أكون

(١) التيسير في التفسير: ٢/ ٤٢٠.

أول من أسلم ونهاني أن أكون من المشركين نهياً مؤكداً فإني أخاف إن عصيته في ذلك أو غيره ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ بسبب معصيته فالشرك قبيح من حيث هو اتخاذ غير الله ولياً، ومن حيث هو معصية لله، وفي هذا تحذير للمشركين، كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ الآية [الزمر:٦٥] ووصف اليوم بأنه عظيم لما فيه من الأمور العظيمة.

٢. ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ عذاب اليوم العظيم يوم إذ يأتي ذلك العذاب ﴿فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ الله الرحمة العظمى؛ لأن النجاة من النار أهم ما يكون يومئذٍ ﴿وَذَلِكَ﴾ أي صرف عذاب ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أو رحمة الله له هو﴿الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ قال في (مفردات الراغب): (الفوز: الظفر بالخير مع حصول السلامة)

٣. و﴿الْمُبِينِ﴾ البيِّن، فهو ظفر بالخير عظيم بنفسه من غير شرط أن يصير إلى الجنة، إن كان قوله تعالى: ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ إشارة إلى صرف العذاب، فأما إن كان إشارةً إلى رحمة الله، فيحتمل: أن جعله من أهل الجنة بعض هذه الرحمة.

٤. ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إلا هُوَ﴾ وهذا دليل على أن شركاء المشركين لا تفيد شيئاً، وأن الله هو الذي يفعل ما يشاء، فهي لا تشفي مريضاً، ولا تؤمِّن خائفاً، ولا تنصر مقاتلاً.

٥. ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا راد لفضله، وهذه الآية تدعو إلى: عبادة الله وحده، والتوكل عليه، ورجائه وحده لكشف الضر وإبقاء الخير، وتشير إلى بطلان الشرك كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ الله إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أو أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر:٣٨] ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا ممسك لما أعطى.

٦. ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ قال الراغب في تفسير (المفردات): (القهر: الغلبة والتذليل معاً، ويستعمل في كل واحد منهما)، وفي (الصحاح): (قهره قهراً: غلبه، وفيه: وقُهِر غُلِب)

٧. ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ لأنه مالكهم ومالك قواهم، وله الملك عليهم وعلى كل المخلوقات، وهو المحيط بقدرته وعلمه على كل قدرة وعلى كل معلوم، فقهره لعباده من حيث أنه فوقهم بملكه وملكوته ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في قهره فلا يظلم ولا يقهر قهراً يعارض مقتضى الحكمة ﴿الْخَبِيرُ﴾ فلا يغلط في قهره، بل

قهره مطابق لمقتضى علمه ببواطن الأمور وحقائق الأشياء وبمقتضى الحكمة.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. يتحرك خط الإيمان الوجل الخائف من موقع الإحساس بالعظمة الموحية، إلى الشعور بالمسؤوليّة، فلا بد من أن يسلم الإنسان أمره إلى الله في كل شيء ويطيعه في كل ما أمر وشرع، لأن الانحراف عن ذلك يعرّض الإنسان إلى العذاب العظيم الذي ينتظره في اليوم العظيم، يوم القيامة.

٢. ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وفي هذا الجو المسؤول، يتجسّم الأمل الكبير في نفس المؤمن في أن يصرف عنه عذاب الله برحمته، لأن من علامات الرحمة، أن يبتعد به عن آلام العذاب ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾، وأيّ فوز أعظم من فوز الإنسان برحمة الله ورضوانه والبعد عن عذابه!؟

٣. ويتصاعد الإيحاء القرآني للإنسان بالحاجة إلى الله، ليحس بذلك في حياته اليومية، فيما يصادفه من مشاكل وآلام وأضرار، وليرجع إليه ويستعين به في إيمان عميق مستغرق في عظمته، صادق في مشاعره، واثق بأن الله هو الذي يكشف عنه الضر الذي يصيبه من خلال طوارئ الحياة المسيّرة بقدرته، المتحركة بحكمته، فلا كاشف له إلا هو.

٤. ثم يتطلع إلى كل مواقع الخير في الحياة، في داخل ذاته وخارجها، ويتلفّت إلى كل من يقومون بأعمال الخير فيما يعطون، وفي ما يمنعون، وفي ما يقومون به من أعمال وخدمات، ثم يحدّق في الآفاق الرحبة للروح فيجد أنهم لا يمثّلون أيّة استقلالية في حياتهم وفي نشاطهم، بل كل ما هناك، أنهم أدوات بيد الله يسخرها كيف يشاء، فلا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرّا إلا بإرادته، وبذلك كانت أجواء الخير بيد الله، فلا يملكها إلا هو كما لا يكشف الضر إلا هو: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إلا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

٥. وما يجدر ملاحظته هنا، هو أن الله تحدّث في مواقع الضرّ عن أنه الوحيد القادر على كشفه، بينما

---

(١) من وحى القرآن: ٩/ ٤٧.

تحدّث في مواقع الخير عن قدرته المطلقة، وربما كان السبب في ذلك أن تطلعات الإنسان في حالات الضرّ تتجه نحو الخلاص، وذلك بقصد من يملك بيده سبيل الخلاص، أمّا في حالات الخير فإنه يتطلع إلى الزيادة والاستمرار فيما يعيشه من هناء وراحة، فيناسب ذلك الحديث عن القدرة التي تملأ نفسه بالثقة بالمستقبل الخيّر في ظلال القدرة التي تملك أمر ذلك كله.

٦. ويخشع الوجود بكل قواه، وبكل مظاهره، وينطلق في رحاب الله، فلا يجد إلا الضعف المطلق أمام القوة المطلقة، المهيمنة عليه، القاهرة له، فكل ما في الوجود مملوك له، محتاج إليه، فلا يملك مع الله شيئا في قليل أو في كثير، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ ويلاحظ استعمال كلمة ﴿فَوْقَ﴾ للإيحاء بالهيمنة والسيطرة تماما ككل شيء فوق أي شيء آخر، وذلك بدلا من كلمة (القاهر لعباده) لأنها لا تعطي مثل هذا الإيحاء الذي تفرضه طبيعة الحاجة إلى حشد الجو النفسي بالسيطرة المطلقة لله، ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ فلا يتصرف في قدرته القاهرة من موقع السيطرة، بل من موقع الحكمة التي يحيط بمواقعها ومصادرها في الحياة وفي الإنسان، لأنه الخبير بما خلق ومن خلق، تعالى شأنه عن كل المخلوقين.

٧. ومن الطريف أن البعض ممن لا يفهمون أساليب البلاغة في التعبير حاولوا أن يستفيدوا من هذه الفقرة: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ الفوقية المكانية التي توحي بالتجسد لله، باعتبار أنه يجلس في المكان الأعلى الفوقي بالنسبة إلى عباده، ولكن التأمل الفنّي البلاغي يدل دلالة واضحة على أن الآية واردة في مقام تأكيد السلطة المطلقة لله على العباد من خلال هذه الفوقية المعنوية السلطوية التي تمثل القاهرية الشاملة، تماما كما هي قاهرية (الفوق) على (التحت) من خلال إشرافه وتسلّطه عليه بما يملكه من قدرة الإطباق، وهو ظاهر.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. الآية الكريمة فيها توكيد أشدّ لهذا النهي الإلهي عن إتّباع المشركين: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي يأمر الله رسوله أن يقول بأنه ليس مستثنى من القوانين الإلهية، وأنّه يخاف ـ إن

---

(١) تفسير الأمثل: ٤/ ٢٣١.

ركن إلى المشركين ـ عذاب يوم القيامة، ومن هذه الآية نفهم أيضا أنّ شعور الأنبياء بالمسؤولية يفوق شعور الآخرين بها.

٢. ولكي يتّضح أنّ النّبي ﷺ لا يستطيع شيئا بغير الاستناد إلى لطف الله ورحمته، فكل شيء بيد الله وبأمره، وحتى رسول الله ﷺ نفسه يترقب بعين الرجاء رحمة الله الواسعة، ومنه يطلب النجاة والفوز: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾

٣. هذه الآيات تبيّن منتهي درجات التوحيد، وترد على الذين كانوا يرون للأنبياء سلطانا مستقلا عن ارادة الله، كما فعل المسيحيون عندما جعلوا من المسيح عليه السّلام المخلّص والمنقذ، فتقول لهم: إنّ الأنبياء أنفسهم يحتاجون إلى رحمة الله مثلكم.

٤. ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إلا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ قلنا إنّ هدف هذه السّورة هو استئصال جذور الشرك وعبادة الأصنام، وهاتان الآيتان تواصلان تحقيق ذلك.

٥. فالقرآن يتساءل أوّلا: لماذا تتوجهون إلى غير الله، وتلجأون إلى معبودات تصطنعونها لحل مشاكلكم ودفع الضر عن أنفسكم واستجلاب الخير لها؟ بينما لو أصابك أدنى ضرر فلا يرفعه عنك غير الله، وإذا أصابك الخير والبركة والفوز والسعادة فما ذلك إلا بقدرة الله، لأنّه هو القادر القوي: ﴿وَإِنْ يَمَسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إلا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

٦. في الواقع إنّ سبب الاتجاه إلى غير الله إمّا لتصورهم أنّ ما يتجهون إليه مصدر الخيرات، وإمّا لاعتقادهم بقدرته وأنّه يدرأ عنهم المصائب ويحل لهم مشاكلهم، والخضوع إلى حد العبادة لذوي السلطان والمال والقوة ينشأ من أحد هذين الدافعين، هذه الآية تبيّن أنّ إرادة الله حاكمة على كل شيء فإذا منع عن أحد نعمة، أو منح أحدا نعمة، فما من قدرة في العالم تستطيع أن تغير ذلك، فلماذا إذن يطأطئون رؤوسهم خضوعا لغيره؟

٧. إنّ استعمال (يمسسك) في الخير والشر، وهي من (مسّ)، تشير إلى أنّ الخير والشر ـ مهما قلّ ـ لا يكون إلا بإرادته وقدرته.

٨. ثمّ إنّ الآية المذكورة تدحض فكرة (الثنويين) القائلين بمبدأي (الخير) و(الشر) وعبادتهما،

وتقول إنّ الإثنين كليهما من جانب الله، ولكننا سبق أن قلنا أن ليس ثمّة شيء اسمه (الشر المطلق) وعليه فعند ما ينسب الشر إلى الله فإنّما يقصد به على الظاهر (سلب النعمة) وهو بحدّ ذاته (خير)، فهو إمّا أن يكون للإيقاظ والتربية والتعليم وكبح حالات الغرور والطغيان والذاتية، أو لمصالح أخرى.

٩. وفي الآية التي تليها إكمال للبحث، فيقول: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ (القاهر) و(الغالب) وإن كانا بمعنى واحد، إلا أنّهما من جذرين مختلفين، (القهر) يطلق على ذلك النصر الذي يتحقق دون أن يتمكن الطرف المقهور من إبداء أية مقاومة، وفي كلمة (الغلبة) لا يوجد هذا المعنى، وقد تحصل بعد المقاومة، وبعبارة أخرى: القاهر يقال لمن يكون تسلطه على الطرف الآخر من الشمول بحيث إنّه لا يستطيع المقاومة مطلقا كصبّ سطل من الماء على جذوة صغيرة من النّار فيطفؤها فورا.

١٠. يرى بعض المفسّرين أنّ (القهر) تستعمل حيث يكون المقهور كائنا عاقلا، ولكن (الغلبة) أوسع منها وتشمل النصر على الكائنات غير العاقلة أيضا، وعليه إذا كانت الآية السابقة تشير إلى شمول قدرة الله إزاء المعبودات الزائفة الأخرى وأصحاب القوّة، فذلك لا يعني أنّه مضطر إلى الدخول مدّة في صراع مع تلك القوى كي يتغلب عليها، بل يعني أنّ قدرته قاهرة، وقد جاء تعبير ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ لتأكيد هذا المعنى.

١١. وعلى هذا، كيف يمكن لإنسان واع أن يعرض عن ربّ العالمين ويتجه إلى كائنات وأشخاص لا يملكون بذواتهم أية قدرة، وما يملكونه من قوّة زهيدة إنّما مصدرها الله أيضا.

١٢. ولإزالة كل وهم قد يخطر لأحدهم بأنّ الله قد يسيء استعمال قدرته غير المتناهية كما هو الحال في ذوي القدرة من البشر، يقول القرآن: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ أي أنّه صاحب حكمة وكل أعماله محسوبة، لأنه خبير وعالم ولا يخطئ في استعمال قدرته أبدا.

١٣. ونقرأ في حالات (فرعون) أنّه عندما هدد بقتل بني إسرائيل، قال: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ أي أنّه اتّخذ من قدرته القاهرة ـ وإن تكن ضعيفة ـ وسيلة للظلم وغمط حقوق الآخرين، إلا أنّ الله الحكيم الخبير بتلك القدرة القاهرة منزّه عن أن يظلم حتى أصغر مخلوقاته.

١٤. ومن نافلة القول أنّ تعبير ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ هو التفوق في المقام لا في المكان، إذ ليس لله مكان محدد، ومن العجيب جدا أنّ بعض ذوي العقول المتحجرة اتّخذ من هذه الآية دليلا على تجسيم الله سبحانه،

على الرغم من عدم وجود أي شك في أنّ هذا التعبير معنوي يدل على تفوق الله من حيث القدرة على عبيده وحتى فرعون ـ مع كونه بشرا ذا جسم ـ يستعمل الكلمة نفسها لإظهار تفوقه السلطوي، لا تفوقه المكاني.

١٠. الله والشهادة والقرآن

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [١٠] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

أُبيّ:

روي عن أبيّ بن كعب (ت ٢٢ هـ) أنّه قال: أتي رسول الله ﷺ بأسارى، فقال لهم: (هل دعيتم إلى الإسلام؟)، قالوا: لا، فخلّى سبيلهم، ثم قرأ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾، ثم قال: خلّوا سبيلهم حتى يأتوا مأمنهم؛ من أجل أنهم لم يدعوا[١].

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: جاء النّحام بن زيد، وقردم بن كعب، وبحريّ بن عمرو، فقالوا: يا محمد، ما تعلم مع الله إلها غيره؟ فقال رسول الله ﷺ: (لا إله إلا الله، بذلك بعثت، وإلى ذلك أدعو)، فأنزل الله في قولهم: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ الآية[٢].

٢. روي أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: (من بلغه القرآن فكأنّما شافهته به)، ثم قرأ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾[٣].

٣. روي أنّه قال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ﴾ يعني: أهل مكة، ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ يعني: من

---

(١) البيهقي في الكبرى ٩/ ١٠٧.

(٢) ابن جرير ٩/ ١٨٥.

(٣) الخطيب في تاريخه ٢/ ٣٨٥.

بلغه هذا القرآن من الناس فهو له نذير[1].

أنس:

روي عن أنس بن مالك (ت ٩٣ هـ) أنّه قال: لمّا نزلت هذه الآية: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ﴾ كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى، وقيصر، والنجاشي، وكلّ جبّار، يدعوهم إلى الله عز وجل، وليس بالنجاشي الذي صلّى عليه[2].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) أنّه قال: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ أمر محمد ﷺ أن يسأل قريشا: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾؟ ثم أمره أن يخبرهم فيقول: ﴿اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾[3].

١. عن حسن بن صالح، قال سألت ليثا: هل بقي أحد لم تبلغه الدعوة؟ قال: كان مجاهد يقول: حيثما يأتي القرآن فهو داعٍ، وهو نذير، ثم قرأ: ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾[4].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ﴾ العرب، ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ العجم[5].

الباقر:

روي عن الإمام الباقر (ت ١١٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ وذلك أن مشركي أهل مكة قالوا: يا محمد، ما وجد الله رسولا يرسله غيرك!؟ ما نرى أحدا يصدقك بالذي تقول، وذلك في أول ما دعاهم، وهو يومئذ بمكة قالوا: ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى، فزعموا أنه ليس لك ذكر عندهم، فأتنا بمن يشهد أنك رسول الله، قال رسول الله ﷺ: الله شهيد بيني وبينكم[6].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ يعني الأئمة من بعده، وهم

---

(١) ابن جرير ٩/ ١٨٣.
(٢) الطبراني في الأوسط ٢/ ١٥٠.
(٣) تفسير مجاهد، ص ٣٢٠.
(٤) ابن جرير ٩/ ١٨٣.
(٥) تفسير مجاهد، ص ٣٢٠.
(٦) تفسير القمي ١/ ١٩٥.

ينذرون به الناس[1].

٣. روي أنه قيل له: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ حقيقة أي شيء عنى بقوله: ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ فقال: من بلغ أن يكون إماما من ذرية الأوصياء، فهو ينذر بالقرآن كما أنذر به رسول الله ﷺ[2].

٤. روي أنّه قال: ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ علي عليه السلام ممن بلغ[3].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾، إنّ النبي ﷺ كان يقول: (بلّغوا عن الله، فمن بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله[4].

٢. روي أنّه قال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾، اليهود، والنصارى، يعرفون رسول الله ﷺ في كتابهم كما يعرفون أبناءهم[5].

٣. روي أنّه قال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾، يعرفون أنّ الإسلام دين الله، وأنّ محمدا رسول الله، يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل[6].

القرظي:

روي عن محمد بن كعب القرظي (ت ١٢٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾، من بلغه القرآن فكأنّما رأى النبي ﷺ، وفي لفظٍ: من بلغه القرآن حتى يفهمه ويعقله كان كمن عاين رسول الله ﷺ، وكلّمه[7].

---

(١) تفسير العيّاشي ١/ ٣٥٦.

(٢) تفسير العيّاشي ١/ ٣٥٦.

(٣) تفسير العيّاشي ١/ ٣٥٦.

(٤) عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٤٤.

(٥) عبد الرزاق ٢/ ٢٠٦.

(٦) ابن جرير ٩/ ١٨٧.

(٧) آدم بن أبي إياس كما في تفسير مجاهد، ص ٣٢٠.

٢. روي أنّه قال: كأنّ الناس لم يسمعوا القرآن قبل يوم القيامة حين يتلوه الله عليهم[(١)].

السّدّيّ:

روي عن إسماعيل السّدّيّ (ت ١٢٧ هـ) أنّه قال: ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾، أمّا ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ فمن بلغه القرآن فهو له نذير[(٢)].

الربيع:

روي عن الربيع بن أنس (ت ١٣٩ هـ) أنّه قال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾، فحقّ على من اتّبع رسول الله ﷺ أن يدعو كالذي دعا رسول الله ﷺ، وأن ينذر كالذي أنذر، فلم يكن رسول الله ﷺ يقاتل أحدا من الناس حتى يدعوه إلى الإسلام، فإذا أبوا ذلك نبذ إليهم على سواء[(٣)].

الكلبي:

روي عن محمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦ هـ) أنّه قال: إنّ رؤساء مكة قالوا: يا محمد، ما نرى أحدا يصدّقك بما تقول من أمر الرسالة، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى، فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة، فأرنا من يشهد لك أنّك رسول كما تزعم؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية[(٤)].

الصادق:

روي عن الإمام الصادق (ت ١٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ من بلغ أن يكون إماما من آل محمد ﷺ فهو ينذر بالقرآن كما أنذر به رسول الله ﷺ[(٥)].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ الإمام منا ينذر بالقرآن كما أنذر رسول الله ﷺ[(٦)].

---

(١) نسبه السيوطي إلى أبي الشيخ.

(٢) ابن جرير ٩/ ١٨٤.

(٣) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٧٢.

(٤) أسباب النزول للواحدي ص ٣٦٧.

(٥) الكافي ١/ ٣٤٤.

(٦) بصائر الدرجات: ١٨/٥٣١.

٣. روي أنّه سئل عن قول الله عز وجل: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ فقال: بكل لسان[١].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾، وذلك أنّ كفار قريش قالوا للنبي ﷺ: أما وجد الله رسولا غيرك!؟ ما نرى أحدا يصدّقك بما تقول، وقد سألنا عنك أهل الكتاب، فزعموا أنّه ليس لك عندهم ذكر، فمن يشهد لك أنّ الله هو الذي أرسلك؟ فقال الله للنبي ﷺ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾[٢].

٢. روي أنّه قال: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ قالوا: الله أكبر شهادة من غيره، فقال الله: قل لهم يا محمد: ﴿اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ بأنّي رسول، وأنّه أوحي إليّ هذا القرآن من عند الله[٣].

٣. روي أنّه قال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ من عند الله ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ﴾ يعني: لكي أنذركم بالقرآن، يا أهل مكة، ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ القرآن من الجن والإنس فهو نذير لهم، يعني: القرآن إلى يوم القيامة[٤].

٤. روي أنّه قال: قال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى﴾؟ قالوا: نعم، نشهد، قال الله للنبي ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿لَا أَشْهَدُ﴾ بما شهدتم، ولكن أشهد ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾، قل لهم: ﴿وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ به غيره[٥].

ابن زيد:

روي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢ هـ) أنّه قال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾، يقول: من بلغه القرآن فأنا نذيره، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، فمن بلغه القرآن فرسول الله ﷺ نذيره[٦].

---

(١) علل الشرائع: ١٢٥/ ٣.
(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٣.
(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٣.
(٤) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٣.
(٥) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٣.
(٦) ابن جرير ٩/ ١٨٤.

الرضا:

روي عن الإمام الرضا (ت ٢٠٣ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

أ. عن هشام المشرقي، قال: قال العباسي: قلت له يعني الإمام الرضا: جعلت فداك أمرني بعض مواليك أن أسألك عن مسألة، قال: ومن هو؟ قلت: الحسن بن سهل، قال: في أي شيء المسألة؟ قال: قيل: في التوحيد قال وأي شيء من التوحيد؟ قال: يسألك عن الله جسم أو لا جسم؟ قال: فقال لي: إن للناس في التوحيد ثلاثة مذاهب: مذهب إثبات بتشبيه، ومذهب النفي، ومذهب إثبات بلا تشبيه. فمذهب الإثبات بتشبيه لا يجوز، ومذهب النفي لا يجوز، والطريق في المذهب الثالث إثبات بلا تشبيه[(١)]

ب. عن محمّد بن عبد اللهّ الخراساني خادم الرضا عليه السلام قال: قال بعض الزنادقة لأبي الحسن عليه السلام: هل يقال للهّ: إنّه شيء، فقال نعم وقد سمّى نفسه بذلك في كتابه فقال: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً قُلِ اللهُّ شَهِيدٌ بَيْنِي وبَيْنَكُمْ﴾ فهو شيء ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[(٢)]

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٣)]:

١. ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾:

أ. كأن في الآية إضمارًا أي ﴿قُلْ﴾ يا مُحَمَّد ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾، فيقولون: الله؛ لأنهم كانوا يقرون أنه خالق السماوات والأرض، وأنه أعظم من كل شيء لكنهم يشركون غيره في عبادته، ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾، وإلا كانوا يقرون بالعظمة له والجلال، فإذا سئلوا: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾، فيقولون: الله.

ب. ويحتمل ـ أيضًا ـ أن يقول لنبيه ﷺ إنهم إذا سألوا: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾؟ قل: الله، فإنك إذا قلت لهم ذلك يقولون هم أيضًا.

٢. ﴿قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾:

---

(١) التوحيد، ص١٠٠

(٢) بحار الأنوار، ٣/ ٢٦٠

(٣) تأويلات أهل السنة: ٤/ ٣٩.

أ. في كل اختلاف بيننا وبينكم في التوحيد، والبعث بعد الموت، ونحوه.

ب. ويحتمل: ﴿قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ وفي كل حجة وبرهان أتاهم الرسول به.

٣. وفي قوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ﴾: دلالة أنه يقال له شيء لأنه لو لم يجز أن يقال له شيء لم يستثن الشيء منه، وكذلك في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أنه شيء لأن (لا شيء) في الشاهد، إنما يقال إما للنفي أو للتصغير، ولا يجوز في الغائب النفي ولا التصغير؛ فدل أنه إنما يرادب (الشيء) الإثبات لا غير وبالله العصمة.

٤. ذكر في بعض القصة في قوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ أن رؤساء مكة أتوا رسول الله، فقالوا: يا مُحَمَّد، أما وجد الله رسولا يرسله غيرك، ما ترى أحدًا يصدقك بما تقول، ولقد سالنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أنه ليس لك عندهم ذكر، ولا صفة، ولا مبعث، فأرنا من شهد لك أنلث رسول الله كما تزعم، فقال الله تعالى: يا مُحَمَّد، قل لهم: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾، يقول: أعظم شهادة؛ يعني: البرهان، مُحَمَّد حجة وبرهان، فإن أجابوك فقالوا: الله، وإلا فقل لهم: اللهُ أَكْبَرُ شهادة من خلقه أني رسوله، والله شهيد بيني وبينكم في كل اختلاف بيننا وبينكم، في التوحيد، وإثبات الرسالة، والبعث، وكل شيء وذكر في هذه القصة أنهم لما قالوا: من يشهد أن الله رسلك رسولا، قالوا: فهلا أنزل إليك ملك، فقال الله لنبيه: قل لهم: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾؛ فقالوا: اللهُ أَكْبَرُ شهادة من غيره، فقال الله:، قل لهم يا مُحَمَّد: الله شهيد بيني وبينكم أني رسول الله، وأنه ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ﴾، ومن بلغه القرآن من الجن والإنس فهو نذير له.

٥. ثم قال لهم: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى﴾، قالوا: نعم، نشهد، فقال الله لنبيّه: قل لهم: لا أشهد بما شهدتم، ولكن أشهد أنما هو إله واحد، وإنني بريء مما تشركون.

٦. ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾، كأنه قال أوحي إليَّ هذا القرآن الذي تعرفون أنه من عند الله جاء؛ لأنه قال لهم: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾، فعجزوا عن إتيان مثله، فدل عجزهم عن إتيان مثله أنهم عرفوا أنه جاء من عند الله.

٧. ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾: لا ينذر بالقرآن ولكن ينذر بما في القرآن؛ لأنه فيه أنباء ما حل بأشياعهم بتكذيبهم الرسل، وما يحل بهم من العذاب في الآخرة بتكذيبهم الرسل، وإلا فظاهر القرآن ليس

مما لنذر به، ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ كأنه قال وأوحي إليَّ هذا القرآن لأنذركم به، وأنذر من بلغه القرآن، صار رسول الله نذيرًا ببلوغ القرآن لمن بلغه، فإذا صار نذيرًا به لمن بلغه وإن كان هو في أقصى الدنيا يصير هو نذيرًا في أقصى الزمان، في كل زمان، وهو كقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ ورسول الله هاد لقومه إلى يوم القيامة.

٨. وفي الآية دلالة أن البشارة والنذارة يكونان ببعث آخر يبشر أو ينذر، وهو دليل لقول أصحابنا: إن من حلف: أيُّ عبدٍ من عبيدي بَشَّرَنِي بكذا فهو حرّ، فبشره برسول أو بكتاب، يكون بشارة.

٩. ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى﴾ هذا في الظاهر استفهام، ولكنه في الحقيقة إيجاب أنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى، بعد ما ظهر عندكم آيات وحدانيته، وحجج ربوبيته لما عرفتم أنه خالقكم وخالق السماوات والأرض، به تعيشون وبه تحيون، وبه تموتون، مع ما ظهر لكم هذا أشركتم مع الله آلهة أخرى، وليس ذلك مما تشركون في عبادته وألوهيته، وأنا لا أشهد، وإنما أشهد أنه إله واحد وإنني بريء مما تشركون في ألوهيته وربوبيته.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ أي لأحذركم من العذاب، ومن بَلَغَ من جميع الناس، وصدق عز وجل أنه نذير لهم ولكل من بلغ من غيرهم.

الشريف المرتضى:

ذكر الشريف المرتضى (ت ٤٣٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(٢):

١. ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾:

أ. يوصف تعالى بأنه (شيء) من حيث صحّ أن يعلم ويخبر عنه، وقد سمّى تعالى نفسه بذلك، والأولى أن يجرى عليه تعالى الوصف لشيء من جهة اللغة واقتضاؤها الاجراء هذا الاسم، بخلاف ما ذهب إليه قوم من اجرائها عليه تعالى سمعا وشرعا؛ لأنها ليست بلقب وهي مفيدة في الأصل، وإنّما لأجل وقوع اشتراك مسمّياتها في فائدتها خرجت من الافادة، فلأمر يرجع إلى غيرها لم يفد، واللقب لا يفيد لشيء

---

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/ ١٨٥.

(٢) نفائس التأويل: ٢/ ٢٦٠

يرجع إلى وصفه؛ والدليل على أنها مفيدة أنه لا يجوز تغييرها وتبديلها، واللغة على ما هي عليه، ويجوز ذلك في الألقاب.

ب. وقيل: إنه غير ممتنع أن تكون مفيدة من حيث ميزت ما يتعلّق العلم به ممّا الذوات ممّا لا يتعلّق العلم به من الأكوان والصفات، وهذه فائدة معقولة.

ج. وتجري هذه اللفظة على القديم والمحدث، والموجود والمعدوم؛ لأنهم يقولون: علمت شيئا موجودا، وعلمت شيئا معدوما، وفعلت شيئا بالأمس، وسأفعل شيئا غدا، وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ وسبب ذلك أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ من يشهد لك بالنبوة فأنزل الله تعالى هذه الآية يأمره فيها أن يقول: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ ثم أجابه على ذلك: ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي بصدقي ونبوتي.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(٢):

١. ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ الآية، في سبب نزول ذلك قولان:

أ. أحدهما: أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: من يشهد لك النبوة، فأنزل الله تعالى هذه الآية يأمره فيها أن يقول لهم: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾، ثم أجابه عن ذلك فقال: ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ يعني: بصدقي وصحة نبوتي وهي أكبر الشهادات، قاله الحسن.

ب. الثاني: أن الله تعالى أمره أن يشهد عليهم بتبليغ الرسالة إليهم فقال ذلك ليشهده عليهم.

٢. ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ فيه وجهان:

أ. أحدهما: لأنذركم يا أهل مكة ومن بلغه القرآن من غير أهل مكة.

---

(١) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/ ٢٣٦.

(٢) تفسير الماوردي: ٢/ ١٠١.

ب. الثاني: لأنذركم به: أيها العربُ ومن بُلِّغ من العَجَم.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. قراءات ووجوه: اختلفوا في الهمزتين إذا كانت الأولى مفتوحة، والثانية: مكسورة من كلمة واحدة نحو (أإنك) و(أإذا) و(أأنا) و(أإفكا) فقرأ ابن عامر وأهل الكوفة وروح بتحقيق الهمزتين حيث وقع إلا في قوله ﴿أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾ ها هنا، وفي الأعراف ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ و﴿قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ و(أأما) حيث وقع، و﴿أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ و﴿أَإِذَا مَا مِتُّ﴾ وفي العنكبوت ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ و﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ في الواقعة، والاستفهامين في الرعد، وبني إسرائيل، والمؤمن، والنحل، وسجدة لقمان، والصافات، والواقعة، والنازعات، وسنذكر الخلاف فيها في مواضعها، والباقون بتحقيق: الأولى وتليين الثانية، وفصل بينهما بألف أهل المدينة، إلا ورشاً، وأبو عمرو، والحلواني عن هشام، وافقهم الداجوني عن هشام على الفصل في قوله ﴿أَإِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا﴾، و﴿أَإِذَا مِتْنَا﴾ في (ق)، وأما قوله: (أإنكم)، ها هنا فقرأه ابن عامر وأهل الكوفة إلا الكسائي عن أبي بكر وروح بتحقيق الهمزتين إلا أن الحلواني عن هشام يفصل بينهما بألف الباقون بتحقيق الأولى وتليين الثانية، وفصل بينهما بألف أهل المدينة إلا ورشاً وأبو عمرو والكسائي عن أبي بكر، وقد روي عن الكسائي عن أبي بكر أنه لا يفصل.

٢. أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء الكفار: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ لأنهم كانوا مقرين بأنه لا شيء أكبر شهادة من الله، وإذا أقروا بأنه الله حينئذ أمره أن يقول لهم هو الشهيد بيني وبينكم على ما بلغتكم ونصحتكم وقررت عندكم من أن إلهكم إله واحد، وعلى براءتي من شرككم، والوقوف على قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ وقف تام.

٣. في الآية دلالة على من قال لا يوصف تعالى بأنه شيء لأنه لو كان كما قال لما كان للآية معنى كما أنه لا يجوز أن يقول القائل: أي الناس أصدق؟ فيجاب بـ (جبرائيل) لما لم يكن من جملة الناس بل كان من الملائكة.

---

(١) تفسير الطوسي: ٤/ ٩٣.

٤. سؤال وإشكال: قوله: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ تمام، وقوله: ﴿قُلِ اللهُ﴾ ابتداء، وليس بجواب، ولو كان جواباً كان ما بعده من قوله: ﴿شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ لا ابتداء له ولا معنى له!؟ والجواب: لسنا ننكر ذلك ـ إلا أن هذا وإن كان هكذا لولا أنه متقرراً عند السائل والمسئول ـ أن الله شهيد ـ ما كان للكلام معنى، ولكان قوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ لغواً وحشواً، وذلك منزه عن كلامه تعالى.

٥. ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ وقف تام، أي من بلغه القرآن الذي أنذرتكم به، فقد أنذرته كما أنذرتكم، وهو قول الحسن رواه عن النبي ﷺ: أنه قال: (من بلغه أني أدعو إلى لا إله إلا الله، فقد بلغه)، يعني بلغته الحجة، وقامت عليه، وقال مجاهد ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ﴾ يعني أهل مكة، ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ من أسلم من العجم وغيرهم.

٦. ﴿آلِهَةً أُخْرَى﴾ ولم يقل أُخَر، لأن الآلهة جمع والجمع يقع على التأنيث، كما قال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ و﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ ولم يقل الأول.

٧. والشاهد: هو المبين لدعوى المدعي، قال الحسن: قال المشركون لرسول الله ﷺ: من يشهد لك؟ فنزلت هذه الآية، وهي قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ﴾ أي إني أخوفكم به، لأن الإنذار هو الإعلام على وجه التخويف.

٨. ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ يعني القرآن و(من) في موضع نصب بالإنذار، ثم قال موبخاً: ﴿أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى﴾ ثم قال لنبيه: قل أنت يا محمد: لا أشهد بمثل ذلك بل أشهد أنه إله واحد ﴿وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ بعبادته مع الله واتخاذه إلهاً.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الأكبر أفعل من الكبير.

ب. الشهادة: الإخبار بها قد شوهد، يقال: شاهد وشهيد، والجمع: شهود، والشهيد: القتيل في

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/ ٥٠٨.

سبيل الله؛ لأن الملائكة تشهده أي تحضره، كقوله: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ أي تشهده ملائكة الليل والنهار، وقيل: سمي بذلك لسقوطه بالأرض، والأرض الشاهدة، وشهد بمعنى بَيَّنَ.

ج. الإنذار: التخويف، وهو الإعلام بموضع المخافة.

٢. اختلف في سبب نزول الآية الكريمة:

أ. قيل: قال المشركون للنبي ﷺ: من يشهد لك؟ فنزلت الآية، عن الحسن.

ب. وقيل: هم أهل مكة قالوا: ما نرى أحدًا يصدقك، ولقد سألنا اليهود والنصارى عنك، فزعموا أنه ليس لك عندهم ذِكْرٌ، فأرنا من يشهد لك؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية، عن الكلبي.

٣. أمر تعالى نبيه بمحاجتهم، فقال سبحانه: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾:

أ. يعني: أن الشهادة أعظم وأصدق حتى آتيكم به وأدلكم به على أني صادق.

ب. وقيل: أي شيء أكبر شهادة حتى يشهد لي بالبلاغ وعليكم بالتكذيب، عن أبي علي.

ج. وقيل: المراد بالشهادة البيان والحجة.

٤. ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ والقرآن الدال على صدقي لكونه معجزًا أنزله الله تصديقًا وشاهدًا لي ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ﴾:

أ. قيل: لأدلكم به، وأنذركم أخوفكم ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ يعني بلغه القرآن.

ب. وقيل: لأنذر الحاضرين، ومن بلغه: الغائبين إلى يوم القيامة.

ج. وقيل: لأنذر العرب، ومن بلغه: الروم والعجم والترك.

٥. ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾ يعني قل يا محمد لهم ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى﴾ وإنما قال: ﴿أُخْرَى﴾، ولم يقل آخرين؛ لأن الجمع يلحقها التأنيث كقوله تعالى: ﴿وَللهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾

٦. ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: إن شهدتم أنتم بذلك فلا أشهد أنا معكم، ﴿قُلْ﴾ لمن شهد ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ يعني مَنْ تدعونه إلهًا مع الله.

٧. تدل الآية الكريمة على:

أ. أنه تعالى يُسَمَّى شيئًا خلاف ما يقوله بعضهم، والخلاف فيه على ثلاثة أوجه:

- عندنا يسمى شيئًا وغيره أيضًا يسمى شيئًا، والاشتراك في اسم لا يوجب التماثل، ألا ترى الجوهر

والبياض والسواد يسمى شيئًا، وبعضها مخالف لبعض، ومعنى الشيء ما يصح أن يعلم ويُخْبَر عنه، وبكونه معلومًا لا يقع التماثل..

- وقالت الباطنية: لا يسمى شيئًا، وغيره يسمى بذلك.
- وقال الناشئ: هو يسمى شيئًا وغيره منشأ.

ب. يدل قوله: ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ﴾ أن الإنذار يقع بالقرآن، وهو الذي أوحى به، وكله من صفات الحدث.

ج. يدل قوله: ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ أنه خاتم الأنبياء، ومبعوث إلى الكافة؛ لأنه أوجب على كل من بلغه حكم القرآن.

د. أن الدعوة إلى الشرع لا تلزم إلا بالبلوغ.

هـ. لزوم العرض لمن وقف على الدليل، وإنْ لم يستدل؛ لأن من بَلَغَهُ القرآن قد يعرض عن الاستدلال، وتلزمه الحجة.

و. أنه لا يفعل القبيح لوجهين:

- لأنه إن كان يفعل القبائح ويخلقها ويعِّذب بغير ذنب لأوجب ذلك تهمة في الشهادة.
- الثاني: أنه لا يكون أكبر الشهادات.

٨. مسائل لغوية ونحوية:

أ. نصب ﴿شَهَادَةً﴾ على التميز والألف في قوله: ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ ألف استفهام، والمراد الإنكار، كما يقال: أنت ملحد؟ نعوذ بِالله من الإلحاد.

ب. ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ كتب بالياء لأن الهمزة التي قبلها ألف تخفف بأن يُجْعل بين بين، فإذا كانت مكسورة فهي بين الهمزة والياء، فكتبت بالياء.

ج. ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ تقديره، ومن بلغه فحذف الهاء، قال الفراء: والعرب تضمر الهاء في صلات ﴿الَّذِي﴾ و﴿مِنْ﴾ و﴿مَا﴾، نحو: الذي أَخَذْتُ مالُك، ومَن أكرمتُ أبوك، وما أخذتُ ثوبُك، قال تعالى: ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ﴾ يعني كلمه الله.

الطَبرِسي:

ذكر الفضل الطَبرِسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. مما روي في سبب نزول الآية الكريمة: قال الكلبي: أتى أهل مكة رسول الله ﷺ فقالوا: أما وجد الله رسولا غيرك، ما نرى أحدا يصدقك فيما تقول، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى، فزعموا أنه ليس لك عندهم ذكر، فأرنا من يشهد أنك رسول الله كما تزعم؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

٢. ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾:

أ. أي: أعظم ﴿شَهَادَةً﴾، وأصدق، حتى آتيكم به، وأدلكم بذلك على أني صادق.

ب. وقيل معناه: أي شيء أكبر شهادة حتى يشهد لي بالبلاغ، وعليكم بالتكذيب، عن الجبائي.

ج. وقيل: معناه أي شيء أعظم حجة، وأصدق شهادة، عن ابن عباس.

٣. فإن قالوا: الله، والا ف ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾:

أ. يشهد لي بالرسالة والنبوة.

ب. وقيل: معناه يشهد لي بتبليغ الرسالة إليكم، وتكذيبكم إياي.

٤. ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ أي: أنزل إلي حجة، أو شهادة على صدقي ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ﴾ أي: لأخوفكم به من عذاب الله تعالى: ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾:

أ. أي: ولأخوف به من بلغه القرآن إلى يوم القيامة.

ب. وروى الحسن في تفسيره عن النبي ﷺ أنه قال: (من بلغه أني أدعو إلى أن لا إله إلا الله، فقد بلغه)، يعني بلغته الحجة، وقامت عليه.

ج. وقال محمد بن كعب: (من بلغه القرآن، فكأنما رأى محمدا وسمع منه)

د. وقال مجاهد: حيث ما يأتي القرآن، فهو داع ونذير، وقرأ هذه الآية.

هـ. وفي تفسير العياشي: قال أبو جعفر، وأبو عبد الله عليه السلام: (من بلغ، معناه من بلغ أن يكون إماما من آل محمد، فهو ينذر بالقرآن كما أنذر به رسول الله ﷺ) وعلى هذا: فيكون قوله: ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ في موضع رفع عطفا على الضمير في ﴿أُنْذِرَ﴾

______

(١) تفسير الطبرسي: ٤/ ١٧.

٥. في الآية دلالة على أن الله تعالى يجوز أن يسمى شيئا، لأن قوله: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ جاء جوابه ﴿قُلِ اللَّهُ﴾، ومعنى الشيء إنه ما يصح أن يعلم ويخبر عنه، فالله سبحانه شيء لا كالأشياء بمعنى أنه معلوم لا كالمعلومات التي هي الجواهر والاعراض، والاشتراك في الاسم لا يوجب التماثل.

٦. في قوله: ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ دلالة على أنه خاتم الأنبياء، ومبعوث إلى الناس كافة.

٧. ثم قال سبحانه، موبخا لهم: قل يا محمد لهم ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى﴾: هذا استفهام معناه الجحد والإنكار، وتقديره: كيف تشهدون أن مع الله آلهة أخرى بعد وضوح الأدلة، وقيام الحجة بوحدانية الله تعالى؟

٨. إنما قال: ﴿أُخْرَى﴾، ولم يقل آخر، لأن الآلهة جمع، والجمع مؤنث، فهو كقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾، وقوله: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾، ولم يقل الأول.

٩. ثم قال سبحانه لنبيه ﴿قُلْ﴾ أنت يا محمد ﴿لَا أَشْهَدُ﴾ بمثل ذلك، وإن شهدتم بإثبات الشريك لله، بعد قيام الحجة بوحدانية الله تعالى، والشاهد هو المبين لدعوى المدعي، ثم قال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لمن شهد أن معه آلهة أخرى: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ به وبعبادته من الأوثان وغيرها، ولهذا قال أهل العلم: يستحب لمن أسلم ابتداء، أن يأتي بالشهادتين، ويتبرأ من كل دين سوى الاسلام.

١٠. مسائل لغوية ونحوية:

أ. ﴿شَهَادَةً﴾ نصب على التمييز.

ب. ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ في محل نصب بالإنذار، والعائد إلى الموصول محذوف.

ج. ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ كتب بالياء، لأن الهمزة التي قبلها همزه تخفف، بأن تجعل بين بين، فإذا كانت مكسورة تجعل بين الهمزة والياء، فكتب بالياء.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. سبب نزولها: أنّ رؤساء مكّة أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد، ما نرى أحدا يصدّقك بما

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٢/ ١٥.

تقول، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى، فزعموا أنّه ليس لك عندهم ذكر ولا صفة، فأرنا من يشهد أنّك رسول الله؛ فنزلت هذه الآية؛ رواه أبو صالح عن ابن عبّاس.

٢. معنى الآية:

أ. قل لقريش: أي شيء أعظم شهادة؟ فإن أجابوك، وإلّا فقل: الله، وهو شهيد بيني وبينكم على ما أقول.

ب. وقال الزّجّاج: أمره الله تعالى أن يحتجّ عليهم بأنّ شهادة الله عزّ وجلّ في نبوّته أكبر شهادة، وأنّ القرآن الذي أتى به، يشهد له أنّه رسول الله، وهو قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ﴾ ففي الإنذار به دليل على نبوّته، لأنّه لم يأت أحد بمثله، ولا يأتي؛ وفيه خبر ما كان وما يكون؛ ووعد فيه بأشياء، فكانت كما قال.

٣. قرأ عكرمة، وابن السّميفع، والجحدريّ (وأوحى إليّ) بفتح الهمزة والحاء (القرآن) بالنّصب؛ فأمّا (الإنذار)، فمعناه: التّخويف.

٤. معنى ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ أيّ من بلغ إليه هذا القرآن، فإني نذير له، قال القرطبيّ: من بلغه القرآن فكأنّما رأى النبي ﷺ، وكلّمه، وقال أنس بن مالك: لمّا نزلت هذه الآية، كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى وقيصر وكلّ جبّار يدعوهم إلى الله عزّ وجلّ.

٥. ﴿أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرى﴾ هذا استفهام معناه الإنكار عليهم، قال الفرّاء: وإنّما قال: (أخرى) ولم يقل: (آخر) لأنّ الآلهة جمع؛ والجمع يقع عليه التأنيث، كما قال: ﴿وَللهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾، وقال: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. تدل الآية الكريمة على أن أكبر الشهادات وأعظمها شهادة الله تعالى، ثم بيّن أن شهادة الله حاصلة إلا أن الآية لم تدل على أن تلك الشهادة حصلت في إثبات أي المطالب، فيمكن أن يكون المراد

---

(١) التفسير الكبير: ١٢/ ٤٩٨.

حصول شهادة الله في ثبوت نبوّة محمد ﷺ، ويمكن أن يكون المراد حصول هذه الشهادة في ثبوت وحدانية الله تعالى:

أ. أما الاحتمال الأول: فقد روى ابن عباس أن رؤساء أهل مكة قالوا يا محمد ما وجد الله غيرك رسولا وما نرى أحدا يصدقك وقد سألنا اليهود والنصارى عنك فزعموا أنه لا ذكر لك عندهم بالنبوّة فأرنا من يشهد لك بالنبوّة فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقال: قل يا محمد أي شيء أكبر شهادة من الله حتى يعترفوا بالنبوّة، فإن أكبر الأشياء شهادة هو الله سبحانه وتعالى فإذا اعترفوا بذلك فقل إن الله شهيد لي بالنبوة لأنه أوحي إليّ هذا القرآن وهذا القرآن معجز، لأنكم أنتم الفصحاء والبلغاء وقد عجزتم عن معارضته فإذا كان معجزا، كان إظهار الله إياه على وفق دعواي شهادة من الله على كوني صادقا في دعواي، والحاصل: أنهم طلبوا شاهدا مقبول القول يشهد على نبوّته فبين تعالى أن أكبر الأشياء شهادة هو الله، ثم بيّن أنه شهد له بالنبوّة وهو المراد من قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ فهذا تقرير واضح.

ب. وأما الاحتمال الثاني: وهو أن يكون المراد حصول هذه الشهادة في وحدانية الله تعالى، وهذا يجب أن يكون مسبوقا بمقدمة، وهي أن المطالب على أقسام ثلاثة:

- منها ما يمتنع إثباته بالدلائل السمعية، فإن كل ما يتوقف صحة السمع على صحته امتنع إثباته بالسمع، وإلا لزم الدور.
- ومنها ما يمتنع إثباته بالعقل وهو كل شيء يصح وجوده ويصح عدمه عقلا، فلا امتناع في أحد الطرفين أصلا، فالقطع على أحد الطرفين بعينه لا يمكن إلا بالدليل السمعي.
- ومنها ما يمكن إثباته بالعقل والسمع معا، وهو كل أمر عقلي لا يتوقف على العلم به، فلا جرم أمكن إثباته بالدلائل السمعية.
- فقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ في إثبات الوحدانية والبراءة عن الشركاء والأضداد والأنداد والأمثال والأشباه، ثم قال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ أي إن القول بالتوحيد هو الحق الواجب، وأن القول بالشرك باطل مردود.

٢. نقل عن جهم أنه ينكر كونه تعالى (شيئا)، ولا ينازع في كونه تعالى ذاتا موجودا وحقيقة إلا أنه

ينكر تسميته تعالى بكونه شيئا، فيكون هذا خلافا في مجرد العبارة، واحتج الجمهور على تسمية الله تعالى بالشيء بهذه الآية وتقريره أنه قال أي الأشياء أكبر شهادة ثم ذكر في الجواب عن هذا السؤال قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ وهذا يوجب كونه تعالى شيئا، كما أنه لو قال أي الناس أصدق؛ فلو قيل: جبريل، كان هذا الجواب خطأ لأن جبريل ليس من الناس فكذا هاهنا.

٣. سؤال وإشكال: قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ كلام تام مستقبل بنفسه لا تعلق له بما قبله لأن قوله: ﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ، وقوله: ﴿شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ خبره، وهو جملة تامة مستقلة بنفسها لا تعلق لها بما قبلها، والجواب: فيه وجهان:

أ. الأول: أن نقول قوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ لا شك أنه سؤال ولا بدّ له من جواب: إما مذكور، وإما محذوف، فإن قلنا: الجواب مذكور: كان الجواب هو قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ وهاهنا يتم الكلام، فأما قوله: ﴿شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فههنا يضمر مبتدأ، والتقدير: وهو شهيد بيني وبينكم، وعند هذا يصح الاستدلال المذكور، وأما إن قلنا: الجواب محذوف فنقول: هذا على خلاف الدليل، وأيضا فبتقدير أن يكون الجواب محذوفا، إلا أن ذلك المحذوف لا بدّ وأن يكون أمرا يدل المذكور عليه ويكون لائقا بذلك الموضع.

ب. والجواب اللائق بقوله: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ هو أن يقال: هو الله، ثم يقال بعده ﴿اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ وعلى هذا التقدير فيصح الاستدلال بهذه الآية أيضا على أنه تعالى يسمى باسم الشيء فهذا تمام تقرير هذا الدليل.

ج. وفي المسألة دليل آخر وهو قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] والمراد بوجهه ذاته، فهذا يدل على أنه تعالى استثنى ذات نفسه من قوله: ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ والمستثنى يجب أن يكون داخلا تحت المستثنى منه، فهذا يدل على أنه تعالى يسمى باسم الشيء.

٤. احتج جهم على فساد هذا الاسم بوجوه:

أ. الأول: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] والمراد ليس مثل مثله شيء وذات كل شيء مثل مثل نفسه فهذا تصريح بأن الله تعالى لا يسمى باسم الشيء ولا يقال الكاف زائدة، والتقدير: ليس مثله شيء لأن جعل كلمة من كلمات القرآن عبثا باطلا لا يليق بأهل الدين المصير إليه إلا عند الضرورة الشديدة.

ب. الثاني: قوله تعالى: ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦] ولو كان تعالى مسمى بالشيء لزم كونه خالقا لنفسه وهو محال، لا يقال: هذا عام دخله التخصيص لأنا نقول: إدخال التخصيص إنما يجوز في صورة نادرة شاذة لا يؤبه بها ولا يلتفت إليها، فيجري وجودها مجرى عدمها، فيطلق لفظ الكل على الأكثر تنبيها على أن البقية جارية مجرى العدم ومن المعلوم أن الباري تعالى لو كان مسمى باسم الشيء لكان هو تعالى أعظم الأشياء وأشرفها، وإطلاق لفظ الكل مع أن يكون هذا القسم خارجا عنه يكون محض كذب ولا يكون من باب التخصيص.

ج. الثالث: التمسك بقوله: ﴿وَللهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] والاسم إنما يحسن لحسن مسماه وهو أن يدل على صفة من صفات الكمال نعت من نعوت الجلال ولفظ الشيء أعم الأشياء فيكون مسماه حاصلا في أحسن الأشياء وفي أرذلها ومتى كان كذلك لم يكن المسمى بهذا اللفظ صفة من صفات الكمال ولا نعتا من نعوت الجلال فوجب أن لا يجوز دعوة الله تعالى بهذا الاسم لأن هذا الاسم لما لم يكن من الأسماء الحسنى والله تعالى أمر بأن يدعى بالأسماء الحسنى وجب أن لا يجوز دعاء الله تعالى بهذا الاسم وكل من منع من دعاء الله بهذا الاسم قال إن هذا اللفظ ليس اسما من أسماء الله تعالى ألبتة.

د. الرابع: أن اسم الشيء يتناول المعدوم، فوجب أن لا يجوز إطلاقه على الله تعالى بيان الأول: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ [الكهف: ٢٣] سمى الشيء الذي سيفعله غدا باسم الشيء في الحال والذي سيفعله غدا يكون معدوما في الحال فدل ذلك على أن اسم الشيء يقع على المعدوم، وإذا ثبت هذا فقولنا: إنه شيء لا يفيد امتياز ذاته عن سائر الذوات بصفة معلومة ولا بخاصة متميزة ولا يفيد كونه موجودا فيكون هذا لفظا لا يفيد فائدة في حق الله تعالى البتة، فكان عبثا مطلقا، فوجب أن لا يجوز إطلاقه على الله تعالى.

٥. الجواب عن هذه الوجوه أن يقال: لما تعارضت الدلائل، فنقول: لفظ الشيء أعم الألفاظ، ومتى صدق الخاص صدق العام، فمتى صدق فيه كونه ذاتا وحقيقة وجب أن يصدق عليه كونه شيئا وذلك هو المطلوب.

٦. ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ المراد أنه تعالى أوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم

به، وهو خطاب لأهل مكة، وقوله: ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾:

أ. عطف على المخاطبين من أهل مكة أي لأنذركم به، وأنذر كل من بلغه القرآن، من العرب والعجم، وقيل من الثقلين، وقيل: من بلغه إلى يوم القيامة، وعن سعيد بن جبير: من بلغه القرآن، فكأنما رأى محمدا ﷺ، وعلى هذا التفسير فيحصل في الآية حذف، والتقدير: وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به، ومن بلغه هذا القرآن إلا أن هذا العائد محذوف لدلالة الكلام عليه، كما يقال الذي رأيت زيد، والذي ضربت عمرو.

ب. وفي تفسير قوله: ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ قول آخر، وهو أن يكون قوله: ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ أي ومن احتلم وبلغ حد التكليف، وعند هذا لا يحتاج إلى إضمار العائد إلا أن الجمهور على القول الأول.

٧. ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرى﴾ قرأ ابن كثير: (أينكم) بهمزة وكسرة بعدها خفيفة مشبهة ياء ساكنة بلا مدة، وأبو عمرو وقالون عن نافع كذلك إلا أنه يمد والباقون بهمزتين بلا مد، وهذا استفهام معناه الجحد والإنكار، قال الفرّاء: ولم يقل آخر لأن الآلهة جمع والجمع يقع عليه التأنيث كما قال: ﴿وَللهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ [طه: ٥١] ولم يقل الأول ولا الأولين وكل ذلك صواب.

٨. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ وهذا الكلام دال على إيجاب التوحيد والبراءة عن الشرك من ثلاثة أوجه:

أ. أولها: قوله: ﴿قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ أي لا أشهد بما تذكرونه من إثبات الشركاء.

ب. ثانيها: قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ وكلمة ﴿إِنَّمَا﴾ تفيد الحصر، ولفظ الواحد صريح في التوحيد ونفي الشركاء.

ج. ثالثها: قوله ﴿وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ وفيه تصريح بالبراءة عن إثبات الشركاء فثبت دلالة هذه الآية على إيجاب التوحيد بأعظم طرق البيان وأبلغ وجوه التأكيد.

٩. قال العلماء: المستحب لمن أسلم ابتداء أن يأتي بالشهادتين ويتبرأ من كل دين سوى دين الإسلام، ونص الشافعي على استحباب ضم التبري إلى الشهادة لقوله: ﴿وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ عقيب التصريح بالتوحيد.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١ . ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ ذلك أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: من يشهد لك بأنك رسول الله فنزلت الآية، عن الحسن وغيره.

٢ . لفظ ﴿شَيْءٍ﴾ هنا واقع موقع اسم الله تعالى، المعنى الله أكبر شهادة أي انفراده بالربوبية، وقيام البراهين على توحيده أكبر شهادة وأعظم، فهو شهيد بيني وبينكم على أني قد بلغتكم وصدقت فيما قلته وادعيته من الرسالة.

٣. ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ أي والقرآن شاهد بنبوتي، ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ﴾ يا أهل مكة، ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ أي ومن بلغه القرآن، فحذف (الهاء) لطول الكلام، وقيل: ومن بلغ الحلم، ودل بهذا على أن من لم يبلغ الحلم ليس بمخاطب ولا متعبد، وتبليغ القرآن والسنة مأمور بهما، كما أمر النبي ﷺ بتبليغهما، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة]، وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ: بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار، وفي الخبر أيضا، من بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله أخذ به أو تركه، وقال مقاتل: من بلغه القرآن من الجن والإنس فهو نذير له، وقال القرظي: من بلغه القرآن فكأنما قد رأى محمدا ﷺ وسمع منه.

٤ . ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى﴾ استفهام توبيخ وتقريع، وقرئ ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ بهمزتين على الأصل، وإن خففت الثانية: قلت: ﴿أَيِنَّكُمْ﴾، وروى الأصمعي عن أبي عمرو ونافع (ءائنكم)، وهذه لغة معروفة، تجعل بين الهمزتين ألف كراهة لالتقائهما، قال الشاعر:

أيا ظبية الوعساء بين جلاجل وبين النقا ءا أنت أم أم سالم

ومن قرأ ﴿إِنَّكُمْ﴾ على الخبر فعلى أنه قد حقق عليهم شركهم.

٥ . وقال: ﴿آلِهَةً أُخْرَى﴾ ولم يقل: ﴿آخَرَ﴾، قال الفراء: لأن الآلهة جمع والجمع يقع عليه التأنيث، ومنه قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [طه]، وقوله: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ [طه] ولو قال

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/ ٣٩٩.

الأول والآخر صح أيضا.

٦. ﴿قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ أي فأنا لا أشهد معكم فحذف لدلالة الكلام عليه ونظيره ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ [الانعام]

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ أيّ مبتدأ، وأكبر: خبره، وشهادة: تمييز، والشيء: يطلق على القديم والحادث، والمحال والممكن، والمعنى: أيّ شهيد أكبر شهادة، فوضع شيء موضع شهيد؛ وقيل إن ﴿شَيْءٍ﴾ هنا موضوع موضع اسم الله تعالى، والمعنى: الله أكبر شهادة؛ أي انفراده بالربوبية، وقيام البراهين على توحيده، أكبر شهادة وأعظم فهو شهيد بيني وبينكم؛ وقيل إن قوله: ﴿اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ هو الجواب، لأنه إذا كان الشهيد بينه وبينهم كان أكبر شهادة له ﷺ، وقيل: إنه قد تمّ الجواب عند قوله: ﴿قُلِ اللهُ﴾ يعني الله أكبر شهادة، ثم ابتدأ فقال: ﴿شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي هو شهيد بيني وبينكم.

٢. ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ أي أوحى الله إليّ هذا القرآن الذي تلوته عليكم لأجل أن أنذركم به وأنذر به من بلغ إليه؛ أي كلّ من بلغ إليه من موجود ومعدوم سيوجد في الأزمنة المستقبلة، وفي هذه الآية من الدلالة على شمول أحكام القرآن لمن سيوجد كشمولها لمن قد كان موجودا وقت النزول ما لا يحتاج معه إلى تلك الخزعبلات المذكورة في علم أصول الفقه، وقرأ أبو نهيك ﴿وَأُوحِيَ﴾ على البناء للفاعل، وقرأ ابن عدي على البناء للمفعول.

٣. ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع على قراءة من قرأ بهمزتين على الأصل أو بقلب الثانية، وأما من قرأ على الخبر فقد حقّق عليهم شركهم.

٤. إنما قال: ﴿آلِهَةً أُخْرَى﴾ لأنّ الآلهة جمع؛ والجمع يقع عليه التأنيث، كذا قال الفرّاء، ومثله قوله تعالى: ﴿وَللهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ وقال: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾

٥. ﴿قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ أي فأنا لا أشهد معكم، فحذف لدلالة الكلام عليه، وذلك لكون هذه

---

(١) فتح القدير: ٢/ ١٢١.

الشهادة باطلة، ومثله ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾

٦. (ما) في ﴿مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ موصولة أو مصدرية؛ أي من الأصنام التي تجعلونها آلهة، أو من إشراككم بالله.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. سبب النزول: لمَّا قال أهل مكَّة: يا محمَّد أرنا من يشهد أنَّك رسول الله، فإنَّا لا نرى أحدًا يصدِّقك، ولقد سألنا اليهود والنصارى فأنكروك، وقالوا: ليس لك عندهم ذكر ولا صفة، نزلت الآية الكريمة.

٢. ﴿قُلَ اَيُّ شَيْءٍ اَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ أيُّ موجودٍ من الموجودات، فإنَّ الشيء يطلق على من وجد وفني أو بقي، أو سيوجد لا على غير ذلك، وأصله: مصدر شاء، أي: ما شاء الله وجوده، أو ما شِيءَ وجودُه.

٣. ﴿قُلِ اللهُ﴾ أي: هو الله، أي: إنَّ الشيء الأكبر شهادةً هو الله، أو الله هو، أي: اللهُ ذلك الأكبر شهادة، لا محيد لهم عن أن يقولوا: هو الله، فقُله أنت؛ أو قُله إن لم يقولوه على حدِّ ما مَرَّ في: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالَارْضِ قُل لِّلهِ﴾ [الأنعام: ١٢]، وذلك هو الجواب.

٤. ﴿شَهِيدُم بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ خبر لمحذوف، أي: هو شهيد بيني وبينكم، وهو تقرير لقوله: ﴿قُلِ اللهُ﴾ وبيان لمتعلَّق الشهادة بعد إجمالها، سألهم عن الأكبر شهادة في مطلق الإخبار وأجاب بـ (اللهُ) إجمالاً، وفصَّل بهذا بأنَّه تعالى شهيد بينه وبينهم بالرسالة لنبيه محمَّد ﷺ، ويجوز أن يكون (اللهُ شَهِيدٌ) مبتدأ وخبر، كجوابٍ من حيث المعنى؛ لأنَّه إذا كان الله شهيدٌ فهو الأكبر شهادة عندهم أيضًا الذي سألوا عنه، أو أجاب بما هو أليق بالسؤال عنه، ويسمَّى الأسلوب الحكيم.

٥. وشهادة الله تعالى إخبارٌ بأنَّه رسوله ﷺ، واقتصر على ذلك في الجواب لأنَّه حقٌّ واضح لا محيد عنه، مفهوم عند بعضهم مجحود، وسهل الإدراك لمن استعمل نظره، والقرآن معجز أيضًا لم يقدروا على معارضته، أو شهادةُ الله تعالى: معجزاتُه، فإنَّ الإعجاز كما يكون بالقول يكون بالفعل؛ لأنَّ حقيقته ما بَيَّن

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/ ٢١٩.

به المدَّعَى، بل بيانه بالفعل أقوى منه بالقول، لعروض الاحتمال في القول؛ لأنَّه من باب العيان، والقول من باب الإخبار، ولو كان القول في التشريع أقوى من الفعل، لأنَّه يَعْدُو القائلَ، فالاحتجاج بقول عالم أقوى منه بفعله، وكرَّر (بَيْنَ) لتحقيق المقابلة، ولو شاء لقال: (بيننا)

٦. وفي الآية تسمية الله شيئًا؛ لأنَّه في جواب ﴿أَيِّ شَيْءٍ﴾، لكن يقال: شيء لا كالأشياء، أو لا كسائر الأشياء، والحقُّ أنَّ الشيء يطلق على ما وُجد في الحال أو في الماضي أو المستقبل، وما ليس من ذلك لا يطلق عليه الشيء إلَّا مجازًا، وكذا في قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ اِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] دلالة على أنَّ الله تعالى شيء لا كالأشياء، وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ اِنِّي فَاعِلٌ ذَالِكَ غَدًا اِلَّآ أَنْ يَّشَآءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣ ـ ٢٤]، فالإطلاق فيه على تقدير وجوده، كما أطلق عليه بالجزم بالوجود في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ اِذَآ أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾، وقيل: لا يطلق الشيء على ما لم يوجد وسيوجد أو وُجد وفني إلَّا مجازًا، وقيل: حقيقةً ولو في المستحيل، كما روي عن أمِّ سلمة ومعاذ بن جبل أنَّه سأل رجلٌ رسول الله ﷺ عن شيء تحدِّثني نفسي به لو تكلَّمت به لأحبطت أجري، فأجابه بأنَّه (لا يقول سؤالك هذا إلَّا مؤمن)، وقال الله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩]، وظاهره أنَّه قبل الخلق ليس شيئًا، الجواب أنَّه أُريدَ: ﴿لَمْ تَكُ﴾ شيئًا موجودًا بل شيء سيوجد.

٧. ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم﴾ يا أهل مكَّة وغيرهم كذلك، أو الخطاب لِكُلِّ من وُجد حال النزول، ﴿بِهِ﴾ ناطقًا بالحجَّة زائدة على ما رأيتم من المعجزات المحسَّات، والتقدير: لأنذركم به ولأبشِّركم إن آمنتم به، واقتصر اللفظ على الإنذار لأنَّ الكلام مع الكفَّار، والإيحاء إليه ﷺ حجَّة احتَجَّ بها عليهم، قرَّر بها شهادة الله في قوله: ﴿شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُم﴾

٨. ﴿وَمَن بَلَغَ﴾ عطف على الكاف، وضمير (بَلَغَ) للقرآن، أي: ولأنذر به من بلغه إلى يوم القيامة، أو من بلغ الحلم، أو عطف على المستتر في (أُنذِر) للفصل بالمفعول به، أي: ولينذر من بلغه القرآن بعدي من عاصره، ومَن بَلَغَه القرآنُ فكأنَّه رأى النبيء ﷺ وسمع منه، كما قال محمَّد بن كعب القرظي، قال ابن جرير: من بلغه القرآن فكأنَّما رأى محمَّدًا ﷺ ، وأخرج أبو نعيم عن ابن عبَّاس عنه ﷺ : (من بلغه القرآن فكأنَّما شافهته)

٩. وأحكام القرآن تَعُمُّ كلَّ من بلغه، ولا يؤخذ بها من لم تبلغه إن كان على دين نبيء، والآية دَلِيل

على أنَّ أحكامه تَعُمُّ من يأتي إلى يوم القيامة، فقالت الحنابلة: ذلك بطريق العبارة في الكلِّ، وقالت الحنفيَّة: بالإجماع في غير الموجودين حال النزول، وروى أبيُّ بن كعب أنَّه أُتِيَ ﷺ بأسارى فقال: (هل دُعيتم إلى الإسلام) فقالوا: لا، فخلَّى سبيلهم.

١٠. سبب النزول: وقال النحام بن زيد وقردم بن كعب وبحري بن عمرو: يا محمَّد ما نعلم مع الله إلهًا غيره، فقال ﷺ : (لا إله إلَّا الله بذلك بعثت وإلى ذلك أدعو)، فنزل قوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ ءَالِهَةً اخْرَىٰ﴾ إنكار لِصِحَّةِ الشهادة وتصريح ببطلانها، وذلك تقريع لهم واستبعاد وتوبيخ وإلجاء إلى الإقرار بأنَّهم أشركوا، ولا يجدون إنكار الإشراك.

١١. ﴿قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾ بأنَّ مع الله آلهة أخرى، ولا إلهيْنِ معه، ولا إله معه، أي: لا أشهد بالشركة، فإنَّ المعبود لا يتعدَّد، وإنَّما ذكر الله سبحانه تعدُّد الآلهة لأنَّه معتقدُهم.

١٢. ﴿قُلِ اِنَّمَا هُوَ﴾ أي: الله ﴿إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ لا إله معه، و(إِنَّمَا) للحصر، و(مَا) كافَّةٌ، ويجوز أن تكون موصولة، أو موصوفة بجملة: (هو إله)، فيكون خبر (إنَّ) هو قوله: ﴿وَاحِدٌ﴾، أي: إنَّ الشيء الذي هو إله هو واحدٌ لا مُتَعَدِّد، أو إنَّ شيئًا هو إلهٌ هو واحدٌ لا مُتَعَدِّدٌ، ومع ضعف الوجهين ورجحان كون (مَا) للحصر كما هو المتعيِّن في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [النساء: ١٧١] قد يكونان أليق بها قبلُ؛ لأنَّ فيهما مساق الحجَّة والبرهان، أي: لا أشهد، لأنَّ ما استحقَّ الأُلُوهِيَّة لا يقبل التعدُّد.

١٣. ﴿وإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أي: من إشراككم، أو من أُلُوهَةِ ما تشركونه من الأصنام، ويستحبُّ لمن أسلم أوَّلاً أو كرَّر الشهادة أن يقول عقب ذلك: (وَإِنَّنِي بريء من الإشراك ومن كُلِّ دين سوى دين الإسلام)

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ أي بحيث لا يمكن معارضته بما يساويه ﴿قُلِ اللهُ﴾ أي: أكبر شهادة، إذ لا احتمال لطروّ الكذب في خبره أصلا، جل شأنه، وأمره ﷺ بأن يتولى الجواب بنفسه، إما

(١) تفسير القاسمي: ٤/ ٣٢٩.

للإيذان بتعينه، وعدم قدرتهم على أن يجيبوا بغيره، أو لأنهم ربما يتلعثمون فيه، لا لترددهم في أنه تعالى أكبر من كل شيء بل في كونه شهيدا في هذا الشأن.

٢. ﴿شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ خبر لمحذوف، أو خبر عن لفظ الجلالة، ودل على جواب (أي) من طريق المعنى، لأنه إذا كان تعالى هو الشهيد بينه وبينهم، كان أكبر شيء شهادة، شهيدا له، فيكون من الأسلوب الحكيم، لأنه عدل عن الجواب المتبادر ـ إليه، ليدل على أن أكبر شهادة شهيد للرسول، فإن الله أكبر شيء شهادة، والله شهيد له، فينتج الأكبر شهادة شهيد له، والقياس المذكور من الشكل الثالث، لأن الحد الأوسط موضوع في المقدمتين، لا من الثاني، كما وقع للشهاب في (العناية) وهو من بديهيات الميزان.

٣. قال بعضهم: الغرض من السؤال بـ ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ أن شاهدي أكبر شهادة، فقوله: ﴿شَهِيدٌ﴾ تنصيص له، والسؤال المذكور لا يحتاج إلى جواب، لكونه معلوما بيّنا عند الخصم، فحاصله أن الله الذي هو أكبر شهادة، شهد بذلك.

٤. معنى (شهيد) مبالغ في الشهادة على نبوتي، بحيث يقطع النزاع بيني وبينكم، إذ شهد سبحانه بالقول في الكتب التي أنزلها على الأولين، وبالفعل فيما ظهر على يديّ من المعجزات، لا سيما معجزة القرآن، كما قال تعالى:

٥. ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ أي: الجامع للعلوم التي يحتاج إليها في المعارف والشرائع، في ألفاظ يسيرة، في أقصى مراتب الحسن والبلاغة، معجزة شاهدة بصحة رسالتي، لأنكم أنتم الفصحاء والبلغاء، وقد عجزتم عن معارضته ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ﴾ أي بما فيه من الوعيد، ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ عطف على ضمير المخاطبين، أي: لأنذركم به، يا أهل مكة! وسائر من بلغه من الناس كافة، فهو نذير لكل من بلغه، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]

٦. ﴿أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى﴾ تقرير لهم مع إنكار واستبعاد، ﴿قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ بما تشهدون، ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي: بل أشهد أن لا إله إلا هو، لا يشارك في إلهيته، ولا في صفات كماله ﴿وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ يعني: الأصنام.

٧. استدلّ الجمهور بقوله تعالى: ﴿قُلِ اللهُ﴾ في جواب ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ على جواز إطلاق (الشيء) عليه تعالى، وكذا بقوله سبحانه وتعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]:

أ. فإن المستثنى يجب أن يدخل تحت المستثنى منه، وذلك لأن الشيء أعم العامّ ـ كما قال سيبويه ـ لوقوعه على كل ما يصح أن يعلم ويخبر عنه، واختار الزمخشري شموله حتى للمستحيل، وصرح كثير من المحققين بأنه يختص بالموجود، وضعفوا من أطلقه على المعدوم، بأنه محجوج بعدم استعمال العرب ذلك، كما علم باستقراء كلامهم، وبنحو، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، إذ المعدوم لا يتصف بالهلاك، وبنحو: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]، إذ المعدوم لا يتصور منه التسبيح:

ب. قال الناصر في (الانتصاف): هذه المسألة معدودة من علم الكلام باعتبار مّا، وأما هذا البحث فلغويّ، والتحاكم فيه لأهل اللغة، وظاهر قولهم: غضبت من لا شيء إذا رأى غير شيء ظنه رجلا أن الشيء لا ينطلق إلا على الموجود، إذ لو كان الشيء كل ما يصح أن يعلم، عدما كان أو وجودا، أو ممكنا أو مستحيلا، لما صدق على أمر ما أنه ليس بشيء والأمر في ذلك قريب.

ج. هذا، وتمسك من منع إطلاقه عليه تعالى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، والاسم إنما يحسن لحسن مسماه، وهو أن يدل على صفة من صفات الكمال، ونعت من نعوت الجلال، ولفظ (الشيء) أعمّ الأشياء، فيكون مسماه حاصلا في أحسن الأشياء وفي أرذلها، ومتى كان كذلك، لم يكن المسمى بهذا اللفظ صفة من صفات الكمال، فوجب أن لا يجوز دعوة الله بهذا الاسم، لأنه ليس من الأسماء الحسنى، وقد أمر تعالى بأن يدعى بها، وأجيب: بأن كونه ليس من الأسماء الحسنى، لكونها توقيفية، وكونه لا يدعى به لعدم وروده ـ لا ينافي شموله للذات العلية، شمول العامّ، والمراد بإطلاقه عليه تعالى: (فيما تقدم) شموله، لا تسميته به، وبالجملة، فلا يلزم أن كونه ليس من الأسماء الحسنى، أن لا يشمل الذات المقدسة شمولا كليا، كيف؟ وهو الموضوعات العامة، والتحاكم للغويين في ذلك ـ كما قدمنا ـ.

٨. ما أسلفناه من أن المعنيّ بالشهادة هو شهادته تعالى في ثبوت النبوة له ﷺ، هو الذي جنح إليه الأكثر، وكأن مشركي مكة طلبوا منه ﷺ شاهدا على نبوته، فقيل لهم: أكبر شيء شهادة هو الله تعالى، وقد شهد لي بالنبوة، لأنه أوحى إليّ هذا القرآن، وتحدّاكم بمعارضته، فعجزتم، وأنتم أنتم في مقام البلاغة، وإذ كان معجزا، كان إظهاره تعالى إياه على وفق دعواي، شهادة منه على صدقي في النبوة، ولبعضهم وجه آخر، وهو أن المعني، شهادته تعالى في ثبوت وحدانيته، وتنزهه عن الأنداد والأشباه، ويرشحه تتمة الآية، وهو قوله: ﴿أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾ إلخ، وقوله: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨]، وقوله تعالى:

﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٠]، مما يدل على أن الشهادة إنما عنى بها، في موارد التنزيل، ثبوت الوحدانية، والقرآن يفسر بعضه بعضا.

٩. إنما اقتصر على الإنذار في قوله: ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ﴾ لكون الخطاب مع كفار مكة، وليس فيهم من يبشّر، أو اكتفى به عن ذكر البشارة على حدّ ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]

١٠. استدلّ بقوله تعالى: ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ على أنه ﷺ مبعوث إلى الناس كافة، وإلى الجن.

١١. استدلّ به أيضا على أن أحكام القرآن تعمّ الموجودين يوم نزوله، ومن سيوجد بعد إلى يوم القيامة، خلا أن ذلك بطريق العبارة في الكل ـ عند الحنابلة ـ وبالإجماع عندنا في غير الموجودين، وفي غير المكلفين يومئذ أفاده أبو السعود.

١٢. روى ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب في قوله: ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾: من بلغه القرآن، فكأنما رأى النبيّ ﷺ وكلمه، ورواه ابن جرير عنه بلفظ: من بلغه القرآن فقد أبلغه محمد ﷺ، وروى عبد الرزاق عن قتادة في هذه الآية: أن رسول الله ﷺ قال بلغوا عن الله، فمن بلغته آية من كتاب الله، فقد بلغه أمر الله، وقال الربيع بن أنس: حقّ على من اتبع رسول الله ﷺ، أن يدعو كالذي دعا رسول الله ﷺ، وأن ينذر بالذي أنذر.

١٣. دلّ قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾، وقوله: ﴿وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ على إثبات التوحيد بأعظم طرق البيان، وأبلغ وجوه التأكيد، لأن (إنما) تفيد الحصر، و(الواحد) صريح في نفي الشركاء، ثم صرّح بالبراءة عن إثبات الشركاء، وقد استحب الشافعيّ لمن أسلم بعد إتيانه بالشهادتين، أن يتبرأ من كل دين سوى دين الإسلام، لقوله: ﴿وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ عقب التصريح بالتوحيد.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ختم الله تعالى هذه الأقوال أو الأوامر القولية المبينة لحقيقة الدين ودلائله بشهادته لرسوله وشهادة رسوله له فقال: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾[٢]

---

(١) تفسير المنار: ٧/ ٢٨٢

(٢) ذكر ما ورد في سبب النزول الذي سبق ذكره،

٢. معنى الآية هو أن الله تعالى أمر رسوله ﷺ أن يسأل كفار قريش: أي شيء أكبر شهادة وأعظمها وأجدر بأن تكون أصحها وأصدقها؟ ثم أمره بأن يجيب هو عن هذا السؤال بأن أكبر الأشياء شهادة الذي لا يجوز أن يقع في شهادته كذب ولا زور ولا خطأ هو الله تعالى وهو شهيد بيني وبينكم، و﴿أوحي إلي هذا القرآن﴾ من لدنه ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ﴾ عقابه على تكذيبي بما جئت به مؤيدا بشهادته سبحانه، وأنذر من بلغه هذا القرآن إذ كل من بلغه فهو مدعو إلى اتباعه حتى تقوم الساعة.

٣. شهادة الشيء حضوره ومشاهدته، والشهادة به الإخبار به عن علم ومعرفة واعتقاد مبني على المشاهدة بالبصر أو البصيرة، أي العقل والوجدان، ومنه الشهادة بالتوحيد وإثبات الشيء بالدليل والبرهان شهادة به، وشهادة الله بين الرسول وبين قومه قسمان: شهادته سبحانه برسالة الرسول ﷺ وشهادته بما جاء به، وشهادته عز وجل برسالة رسوله ثلاثة أنواع:

أ. الأول: إخباره بها في كتابه بمثل قوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِّ﴾، وقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، وقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِّ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ فهذه شهادات وردت بغير لفظ الشهادة وهو غير شرط في صحتها خلافا لبعض الفقهاء، ولا يقتضي التلفظ به حقيقتها، فقد حكى الله عن إخوة يوسف أنهم قالوا: ﴿إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ [يوسف: ٨١] وهم لم يقولوا: نشهد أن ابنك سرق، وقد سموا قولهم شهادة لأنه عن علم بما ثبت عليه عند عزيز مصر، وإن كان ذلك الإثبات مصنوعا، وقال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِّ وَاللهُّ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُّ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ فإنهم صرحوا بلفظ الشهادة، ولما كانوا غير مؤمنين بها شهد الله تعالى بكذبهم فيها، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللهِّ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ وهي بمعنى هذه الآية التي نفسرها.

ب. الثاني: تأييده بالآيات الكثيرة وأعظمها القرآن وهو الآية العلمية العقلية الدائمة بما ثبت بالفعل من عجز البشر عن الإتيان بسورة من مثله وبما اشتمل عليه من الآيات الكثيرة كأخبار الغيب ووعد الرسول والمؤمنين بنصره تعالى لهم وإظهارهم على أعدائهم، وغير ذلك مما ثبت بالفعل عند أهل عصره ونقل إلينا بالتواتر ومنها غير القرآن من الآيات الحسية والأخبار النبوية بالغيب التي ظهر بعضها

في زمنه وبعضها بعد زمنه ﷺ، كقوله في سبطه الحسن وهو طفل: (ابني هذا سيد، ولعل الله يصلح به بين فئتين من المسلمين) وقوله في عمار بن ياسر: (تقتله الفئة الباغية) وقوله: (صنفان من أهل النار لم أرهما بعد، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رءوسهن كأسنمة البخت) الحديث وكلها صحيحة.

ج. الثالث: شهادة كتبه السابقة له وبشارة الرسل الأولين به، ولا تزال هذه الشهادات والبشائر ظاهرة فيما بقي عند اليهود والنصارى من تلك الكتب وتواريخ أولئك الرسل عليهم السلام على ما طرأ عليها من التحريف، وقد تقدم بيان ذلك في تفسير السورة السابقة ولا سيما المائدة، ولا تنس هنا أخذه تعالى العهد على الرسل وقوله لهم: ﴿أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾

٤. وأما شهادته تعالى لما جاء به رسوله من التوحيد والبعث وهو ما كانوا ينكرونه دون الآداب والفضائل والأحكام العملية فهو ثلاثة أنواع:

أ. (أحدها) شهادة كتابه معجزة الخلق بذلك كقوله: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾ وقوله: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾

ب. (ثانيها) ما أقامه من الآيات البينات في الأنفس والآفاق على توحيده واتصافه بصفات الكمال وفي بيان ذلك من هذه السورة ما ليس في غيرها.

ج. (ثالثها) ما أودعه جل شأنه في الفطرة البشرية من الإيمان الفطري بالألوهية وبقاء النفس، وما هدى إليه العقول السليمة من تأييد هذا الشعور الفطري بالدلائل والبراهين ولعلنا نشرح معنى الإيمان الفطري الذي بيناه من قبل بيانا موجزا في تفسير آية العهد الإلهي الذي أخذه على بني آدم وهي قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية.

٥. علم مما بيناه أن شهادته تعالى هي شهادة آياته في القرآن وآياته في الأكوان، وآياته في العقل والوجدان اللذين أودعهما في نفس الإنسان، وهذه الآيات قد بينها القرآن وأرشد إليها فهو الدعوى والبينة، والشاهد المشهود له، وكفى به ظهورا بالحق وإظهارا له أنه لا يحتاج إلى شهادة غيره له، على أن

الشهود والأدلة على حقيقته كثيرة، وجملة ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ معطوفة على جملة ﴿اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ مصدرة بالفعل المبني للمفعول، لأن المراد بنصها بيان أن القرآن هو موضوع الدعوة والرسالة المقصود منها بالذات، وتدل بموضعها دلالة إيماء على أنه أعظم شهادة لله تعالى.

٦. ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ نص على عموم بعثة خاتم الرسل ﷺ، أي لأنذركم به يا أهل مكة أو يا معشر قريش أو العرب وجميع من بلغه ووصلت إليه دعوته من العرب والعجم في كل مكان وزمان إلى يوم القيامة، قال البيضاوي: (وهو دليل على أن أحكام القرآن تعم الموجودين وقت نزوله ومن بعدهم وأنه لا يؤاخذ بها من لم تبلغه) يعني أن العبرة في دعوة الإسلام بالقرآن، فمن لم يبلغه القرآن لا يصدق عليه أنه بلغته الدعوة، وحينئذ لا يكون مخاطبا بهذا الدين، ومفهومه أن الحجة لا تقوم بتبليغ دعوة الإسلام بالقواعد الكلامية والدلائل النظرية التي بني عليها ذلك العلم، أي إلا أن ينص فيها على أصوله وأحكامه، وإننا نرى المسلمين قد تركوا دعوة القرآن وتبليغه بعد السلف الصالح، وتركوا العلم به، وبما بينه من السنة إلى تقليد المتكلمين والفقهاء، والقرآن حجة عليهم وإن جعلوا أنفسهم غير أهل للحجة.

٧. مما روي في الآية:

أ. ما أخرجه ابن مردويه وأبو نعيم والخطيب عن ابن عباس مرفوعا قال: (من بلغه القرآن فكأنما شافهته به) ثم قرأ ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ وذلك أن القرآن لما كان متواترا بلفظه ومعناه كان من بلغه بعده ﷺ كمن سمعه منه وإن كثرت الوسائط لأنه هو الذي بلغه بلا زيادة ولا نقصان، وليس للأحاديث المروي كثيرها بالمعنى هذه المزية فهي موضع اجتهاد،

ب. وأخرج أبو الشيخ عن أبي بن كعب قال: أتي رسول الله ﷺ بأسارى فقال لهم: هل دعيتم إلى الإسلام؟ قالوا: لا، فخلى سبيلهم ثم قرأ ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ ثم قال: (خلوا سبيلهم حتى يأتوا مأمنهم من أجل أنهم لم يدعوا)

٨. ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالشهادة له بالوحدانية التي جحدها المشركون وبالبراءة من قولهم وشهادتهم بالشرك فقال ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ قالوا: إن الاستفهام هنا للتقرير مع الإنكار والاستبعاد، وقد أمره تعالى أن يجيب بأنه لا يشهد كما يشهدون ثم أمره أمرا آخر بأن يشهد بنقيض ما يزعمون ويتبرأ منه وهو أن يصرح بأن الإله

لا يكون إلا واحدا، ويتبرأ مما يشركون به من الأصنام وغيرها أو من إشراكهم مهما يكن موضوعه، وإنما قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ فأعاد الأمر ولم يعطف المأمور به على ما قبله لإفادة أن الإقرار بالوحدانية مقصود بذاته لا يغني عنه نفي الشهادة بالشرك.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. خلاصة المعنى - إنه تعالى هو الغالب لعباده، العالي عليهم بتذليله لهم، وخلقه إياهم، فهو فوقهم بالقهر وهم دونه، وهو الحكيم في تدبيره، الخبير بمصالح الأشياء ومضارها ولا تخفى عليه خوافي الأمور ولا بواديها، ولا يقع في تدبيره خلل، ولا في حكمته دخل وقد ختم سبحانه هذه الأوامر القولية المبينة لحقيقة الدين وأدلته بشهادة الله لرسوله وشهادة رسوله له فقال: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ أمر الله رسوله ﷺ أن يسأل كفار قريش: أي شيء شهادته أكبر شهادة وأعظمها، وأجدر أن تكون أصحها وأصدقها؟ ثم أمره بأن يجيب عن هذا السؤال بأن أكبر الأشياء شهادة هو من لا يجوز أن يقع في شهادته كذب ولا زور ولا خطأ وذلك هو الله تعالى، وهو الشهيد بيني وبينكم وقد أوحى إلىّ هذا القرآن من لدنه لأنذركم به عقابه على تكذيبى فيما جئت به مؤيدا بشهادته سبحانه، وأنذر من بلغه هذا القرآن، إذ كل من بلغه فهو مدعو إلى اتباعه حتى تقوم القيامة.

٢. وشهادة الله بين الرسول وقومه ضربان: شهادته برسالة الرسول، وشهادته بصدق ما جاء به:

أ. الأول أنواع ثلاثة:

• إخباره بها في كتابه بنحو قوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ﴾، وقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾

• تأييده بالآيات الكثيرة التي من أعظمها القرآن، فهو المعجزة الدائمة بما ثبت من عجز البشر عن الإتيان بسورة من مثله، وبما اشتمل عليه من أخبار الغيب ووعد الرسول والمؤمنين بنصر الله وإظهارهم على أعدائهم.

---

(١) تفسير المراغي ٧/ ٩٣.

• شهادة كتبه السابقة له، وبشارة الرسل السابقين به، ولا نزال هذه الشهادة في كتب اليهود والنصارى.

ب. الثاني ثلاثة أنواع أيضا:

• شهادة كتبه بذلك كقوله: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾

• ما أقامه من الآيات في الأنفس والآفاق مما يدل على توحيده واتصافه بصفات الكمال ما أودعه جل شأنه في الفطرة البشرية من الإيمان بإله واحد له صفات الكمال وببقاء النفس.

٣. والخلاصة ـ إن شهادته تعالى هي شهادة آياته في القرآن، وآياته في الأكوان، وآياته في العقل والوجدان، اللذين أودعهما في نفس الإنسان.

٤. ثم أمر سبحانه رسوله ﷺ بالشهادة له بالوحدانية وبالبراءة من قولهم وشهادتهم بالشرك فقال: ﴿أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرى قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ بدأ الجملة بالاستفهام الدال على الإنكار والاستبعاد لما تضمنته، ثم أمر نبيه أن يجيب بأنه لا يشهد كما يشهدون، ثم أمره بأمر آخر: بأن يشهد بنقيض ما يزعمون وبتبرأ مما يزعمون، فيصرح بأن الإله لا يكون إلا واحدا، ويتبرأ مما يشركون به من الأصنام والأوثان وغيرهما.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. أخيرا تجيء قمة المد في هذه الموجة؛ ويجيء الإيقاع المدوي العميق؛ في موقف الإشهاد والإنذار والمفاصلة والتبرؤ من المشاركة في الشرك.. كل ذلك في رنة عالية، وفي حسم رهيب: ﴿قُلْ أي شيء أَكْبَرُ شَهادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وبَيْنَكُمْ وأُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ ومَنْ بَلَغَ أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرى قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّما هُوَإِلهٌ واحِدٌ وإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾.، إن تتابع المقاطع والإيقاعات في الآية الواحدة عجيب؛ وإن هذا التتابع ليرسم الموقف لحظة لحظة، ومشهدا مشهدا، ويكاد ينطق بملامح

(١) في ظلال القرآن: ٢/ ١٠٥٦.

الوجوه فيه وخلجات الصدور.. فها هو ذا رسول الله ﷺ يؤمر من ربه هذا الأمر.. ثم ها هو ذا يواجه المشركين الذين يتخذون من دون الله أولياء؛ يجعلون لهم بعض خصائص الألوهية مع الله؛ ويدعون رسول الله ﷺ أن يقرهم على هذا الذي هم فيه ليدخلوا هم فيما جاءهم به! كأن ذلك يمكن أن يكون! وكأنه يمكن أن يجتمع الإسلام والشرك في قلب واحد على هذا النحو الذي كانوا يتصورونه؛ والذي لا يزال يتصوره ناس في هذا الزمان، من أنه يمكن أن يكون الإنسان مسلما لله؛ بينما هو يتلقى من غير الله في شئون الحياة؛ وبينما هو يخضع لغير الله ويستنصر بغير الله، ويتولى غير الله!

٢. ها هو ذا رسول الله ﷺ يواجه هؤلاء المشركين، ليبين لهم مفرق الطريق بين دينه ودينهم، وبين توحيده وشركهم، وبين إسلامه وجاهليتهم، وليقرر لهم: أنه لا موضع للقاء بينه وبينهم، إلا أن يتخلصوا هم من دينهم ويدخلوا في دينه، وأنه لا وجه للمصالحة في هذا الأمر؛ لأنه يفترق معهم في أول الطريق! وها هو ذا يبدأ معهم مشهد الإشهاد العلني المفتوح المكشوف: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾، أيّ شاهد في هذا الوجود كله هو أكبر شهادة؟ أي شاهد تعلو شهادته كل شهادة؟ أي شاهد تحسم شهادته في القضية فلا يبقى بعد شهادته شهادة؟

٣. وللتعميم المطلق، حتى لا يبقى في الوجود كله (شيء) لا يستقصى وزنه في مقام الشهادة: يكون السؤال: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾

٤. وكما يؤمر رسول الله ﷺ بالسؤال، فهو يؤمر كذلك بالجواب، ذلك أنه لا جواب غيره باعتراف المخاطبين أنفسهم، ولا جواب غيره في حقيقة الأمر والواقع: ﴿قُلِ اللهُ﴾، نعم! فالله ـ سبحانه وتعالى ـ هو أكبر شهادة.. هو الذي يقص الحق وهو خير الفاصلين.. هو الذي لا شهادة بعد شهادته، ولا قول بعد قوله، فإذا قال فقد انتهى القول، وقد قضي الأمر.

٥. فإذا أعلن هذه الحقيقة: حقيقة أن الله سبحانه هو أكبر شهادة، أعلن لهم أنه سبحانه هو الشهيد بينه وبينهم في القضية: ﴿شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، على تقدير: هو شهيد بيني وبينكم، فهذا التقطيع في العبارة هو الأنسب في جو المشهد: وهو أولى من الوصل على تقدير: ﴿قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾

٦. فإذا تقرر المبدأ: مبدأ تحكيم الله سبحانه في القضية، أعلن إليهم أن شهادة الله سبحانه، تضمنها هذا القرآن، الذي أوحاه إليه لينذرهم به؛ وينذر به كل من يبلغه في حياته ﷺ ـ أو من بعد، فهو حجة عليهم

وعلى من يبلغه غيرهم؛ لأنه يتضمن شهادة الله في هذه القضية الأساسية؛ التي تقوم عليها الدنيا والآخرة، ويقوم عليها الوجود كله والوجود الإنساني ضمنا: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾، فكل من بلغه هذا القرآن من الناس، بلغة يفهمها، ويحصل منها محتواه، فقد قامت عليه الحجة به، وبلغه الإنذار، وحق عليه العذاب، إن كذب بعد البلاغ.. (فأما من يحول عدم فهمه للغة القرآن دون فهمه لفحواه، فلا تقوم عليه الحجة به؛ ويبقى إثمه على أهل هذا الدين الذين لم يبلغوه بلغته التي يفهم بها مضمون هذه الشهادة.. هذا إذا كان مضمون القرآن لم يترجم إلى لغته)..

٧. فإذا أعلن إليهم أن شهادة الله سبحانه متضمنة في هذا القرآن، أعلن إليهم مضمون هذه الشهادة في صورة التحدي والاستنكار لشهادتهم هم، المختلفة في أساسها عن شهادة الله سبحانه، وعالنهم بأنه ينكر شهادتهم هذه ويرفضها؛ وأنه يعلن غيرها ويقرر عكسها ويشهد لربه بالوحدانية المطلقة والألوهية المتفردة؛ وأنه يفاصلهم على هذا عند مفرق الطريق؛ وأنه يتبرأ من شركهم في صيغة التشديد والتوكيد: ﴿أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرى قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّما هُوَإِلهٌ واحِدٌ وإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾..

٨. والنصوص القرآنية بمقاطعها هذه، وبإيقاعاتها هذه، تهز القلوب بها لا يملك البيان البشري أن يفعل، فلا أريد أن أوقف تدفقها وانسكابها في القلب بأي تعليق، ولكني أريد أن أتحدث عن القضية التي تضمنها هذا المقطع، وجرت بها هذه الموجة.. إن هذه القضية التي عرضها السياق القرآني في هذه الآيات.. قضية الولاء والتوحيد والمفاصلة.. هي قضية هذه العقيدة؛ وهي الحقيقة الكبرى فيها، وإن العصبة المؤمنة اليوم لخليقة بأن تقف أمام هذا الدرس الرباني فيها وقفة طويلة.. إن هذه العصبة تواجه اليوم من الجاهلية الشاملة في الأرض، نفس ما كانت تواجهه العصبة التي تنزلت عليها هذه الآيات، لتحدد على ضوئها موقفها، ولتسير على هذا الضوء في طريقها؛ وتحتاج ـ من ثم ـ أن تقف وقفة طويلة أمام هذه الآيات، لترسم طريقها على هداها.

٩. لقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء هذا الدين إلى البشرية؛ وعادت البشرية إلى مثل الموقف الذي كانت فيه يوم تنزل هذا القرآن على رسول الله ﷺ ويوم جاءها الإسلام مبنيا على قاعدته الكبرى: (شهادة أن لا إله إلا الله).. شهادة أن لا إله إلا الله بمعناها الذي عبر عنه ربعي بن عامر رسول قائد

المسلمين إلى رستم قائد الفرس، وهو يسأله: (ما الذي جاء بكم؟) فيقول: (الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام).. وهو يعلم أن رستم وقومه لا يعبدون كسرى بوصفه إلها خالقا للكون؛ ولا يقدمون له شعائر العبادة المعروفة؛ ولكنهم إنما يتلقون منه الشرائع، فيعبدونه بهذا المعنى الذي يناقض الإسلام وينفيه؛ فأخبره أن الله ابتعثهم ليخرجوا الناس من الأنظمة والأوضاع التي يعبد العباد فيها العباد، ويقرون لهم بخصائص الألوهية ـ وهي الحاكمية والتشريع والخضوع لهذه الحاكمية والطاعة لهذا التشريع ـ (وهي الأديان).. إلى عبادة الله وحده وإلى عدل الإسلام.

١٠ . لقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء هذا الدين إلى البشرية بلا إله إلا الله، فقد ارتدت البشرية إلى عبادة العباد، وإلى جور الأديان؛ ونكصت عن لا إله إلا الله، وإن ظل فريق منها يردد على المآذن: (لا إله إلا الله)؛ دون أن يدرك مدلولها، ودون أن يعني هذا المدلول وهو يرددها، ودون أن يرفض شرعية (الحاكمية) التي يدعيها العباد لأنفسهم ـ وهي مرادف الألوهية ـ سواء ادعوها كأفراد، أو كتشكيلات تشريعية، أو كشعوب، فالأفراد، كالتشكيلات، كالشعوب، ليست آلهة، فليس لها إذن حق الحاكمية.. إلا أن البشرية عادت إلى الجاهلية، وارتدت عن لا إله إلا الله، فأعطت لهؤلاء العباد خصائص الألوهية، ولم تعد توحد الله، وتخلص له الولاء..

١١ . البشرية بجملتها، بما فيها أولئك الذين يرددون على المآذن في مشارق الأرض ومغاربها كلمات: (لا إله إلا الله) بلا مدلول ولا واقع.. وهؤلاء أثقل إثما وأشد عذابا يوم القيامة، لأنهم ارتدوا إلى عبادة العباد ـ من بعد ما تبين لهم الهدى ـ ومن بعد أن كانوا في دين الله! فما أحوج العصبة المسلمة اليوم أن تقف طويلا أمام هذه الآيات البينات! ما أحوجها أن تقف أمام آية الولاء: ﴿قُلْ أَغَيْرَ الله أَتَّخِذُ وَلِيًّا فاطِرِ السَّماواتِ والْأَرْضِ وهُوَيُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ولا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.. ذلك لتعلم أن اتخاذ غير الله وليا ـ بكل معاني (الولي).. وهي الخضوع والطاعة، والاستنصار والاستعانة.. يتعارض مع الإسلام، لأنه هو الشرك الذي جاء الإسلام ليخرج منه الناس.. ولتعلم أن أول ما يتمثل فيه الولاء لغير الله هو تقبل حاكمية غير الله في الضمير أو في الحياة.. الأمر الذي تزاوله البشرية كلها بدون استثناء، ولتعلم أنها تستهدف اليوم إخراج الناس جميعا من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده؛ وأنها تواجه

جاهلية كالتي واجهها رسول الله ﷺ والجماعة المسلمة حين تلقي هذه الآيات.. وما أحوجها أن تستصحب في مواجهتها للجاهلية تلك الحقائق والمشاعر التي تسكبها في القلب المؤمن الآيات التالية: ﴿قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وذلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ وإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَوإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَعَلى كُلِّ شيء قَدِيرٌ وهُوَالْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وهُوَالْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾..

١٢. فما أحوج من يواجه الجاهلية بطاغوتها وجبروتها، وبإعراضها وعنادها، وبالتوائها وكيدها، وبفسادها وانحلالها.. ما أحوج من يواجه هذا الشر كله، أن يستصحب في قلبه هذه الحقائق وهذه المشاعر.. مخافة المعصية والولاء لغير الله، ومخافة العذاب الرعيب الذي يترقب العصاة.. واليقين بأن الضار والنافع هو الله، وأن الله هو القاهر فوق عباده فلا معقب على حكمه ولا راد لما قضاه، إن قلبا لا يستصحب هذه الحقائق وهذه المشاعر لن يقوى على تكاليف (إنشاء) الإسلام من جديد في وجه الجاهلية الطاغية.. وهي تكاليف هائلة تنوء بها الجبال! ثم ما أحوج العصبة المؤمنة ـ بعد أن تستيقن حقيقة مهمتها في الأرض اليوم؛ وبعد أن تستوضح حقيقة العقيدة التي تدعو إليها ومقتضياتها من إفراد الله سبحانه بالولاء بكل مدلولاته؛ وبعد أن تستصحب معها في مهمتها الشاقة تلك الحقائق والمشاعر.. ما أحوجها بعد ذلك كله إلى موقف الإشهاد والقطع والمفاصلة والتبرؤ من الشرك الذي تزاوله الجاهلية البشرية اليوم كما كانت تزاوله جاهلية البشرية الأولى، وأن تقول ما أمر رسول الله ﷺ أن يقوله؛ وأن تقذف في وجه الجاهلية، بما قذف به في وجهها الرسول الكريم، تنفيذا لأمر ربه العظيم:

١٣. إنه لا بد أن تقف العصبة المسلمة في الأرض، من الجاهلية التي تغمر الأرض، هذا الموقف، لا بد أن تقذف في وجهها بكلمة الحق هذه عالية مدوية، قاطعة فاصلة، مزلزلة رهيبة.. ثم تتجه إلى الله تعلم أنه على كل شيء قدير، وأنه هو القاهر فوق عباده، وأن هؤلاء العباد ـ بما فيهم الطواغيت المتجبرون ـ أضعف من الذباب، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه! وأنهم ليسوا بضارين من أحد إلا بإذن الله؛ وليسوا بنافعين أحدا إلا بإذن الله، وأن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون، ولا بد أن تستيقن العصبة المسلمة كذلك أنها لن تنصر ولن يتحقق لها وعد الله بالتمكين في الأرض، قبل أن تفاصل الجاهلية على الحق عند مفترق الطريق، وقبل أن تعلن كلمة الحق في وجه الطاغوت، وقبل أن تشهد على

الجاهلية هذا الإشهاد، وتنذرها هذه النذارة، وتعلنها هذا الإعلان، وتفاصلها هذه المفاصلة، وتتبرأ منها هذه البراءة..

١٤. إن هذا القرآن لم يأت لمواجهة موقف تاريخي؛ إنما جاء منهجا مطلقا خارجا عن قيود الزمان والمكان، منهجا تتخذه الجماعة المسلمة حيثما كانت في مثل الموقف الذي تنزل فيه هذا القرآن، وهي اليوم في مثل هذا الموقف تماما؛ وقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء هذا القرآن لينشئ الإسلام في الأرض إنشاء.. فليكن اليقين الجازم بحقيقة هذا الدين، والشعور الواضح بحقيقة قدرة الله وقهره، والمفاصلة الحاسمة مع الباطل وأهله.. لتكن هذه عدة الجماعة المسلمة.. والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين..

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ هو استدعاء لهؤلاء المكابرين المعاندين، الذين ينظرون إلى هذا الوجود على أنه لهم وحدهم، وأن كل ما فيه تبع لأهوائهم: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].. فإذا سمع هؤلاء المكابرون هذا النّداء، وقيل لهم: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ عندكم، تأخذون بشهادتهم عليكم، في الحكم بيني وبينكم فيما أدعوكم إليه، من الإيمان بالله، وأنى رسول الله إليكم، أحمل إليكم كلمته، وأوجه وجوهكم وقلوبكم إليه؟ ما الشاهد الذي تكبرون شهادته، وتنزلون على ما يشهد به؟

٢. ولا يمهلهم الله أن يجيبوا، لأنهم لا يجيبون إلّا ضلالا، ولا يقولون إلا زورا وبهتانا، بل يلقاهم بالشاهد الذي إن لم يقبلوا شهادته اختيارا قبلوها قسرا واضطرارا، لأنه الشاهد الذي يحكم ولا معقب لحكمه، والقاضي الذي يقضى ولا راد لقضائه.. إنه هو الله ربّ العالمين، ﴿قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، هذا هو الشاهد، والحكم بيني وبينكم، فردّوا عليه شهادته إن استطعتم!

٣. ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ تلك هي القضية التي بيني وبينكم، وقد أدليت بشهادتى فيها، بين يدى أحكم الحاكمين.. ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ من ربّ العالمين ﴿لِأُنْذِرَكُمْ

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/ ١٤٦.

بِهِ﴾ وأحذركم من عذاب يوم عظيم، إن أنتم لم تصدقوا برسالتى، ولم تؤمنوا بما بين يدىّ مما أوحى إلىّ، ولست رسولا إليكم وحدكم، بل إن رسالتى إليكم وإلى كل من تبلغه، وتصل إليه بلساني، أو بلسان من يدعو بها، فهي رسالة عامة للناس جميعا، فمن بلغته ولم يؤمن بها، فقد حقّ عليه ما حقّ على الكافرين منكم ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾

٤. وفي عطف قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ على قوله تعالى: ﴿اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ تفويت على أولئك المكابرين المعاندين أن يجدوا فسحة من الوقت يردّون بها الشاهد الذي أشهده الرسول عليهم، وإلغاء لكل شاهد يقيمونه في هذا الموقف غير الله سبحانه وتعالى، وقطع للجاجهم وعنادهم، وإمساك بآذانهم أن تنحرف عن هذا الموقف الذي هم فيه.

٥. ﴿أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرى﴾ هو تقرير لهم من الرسول، وهم في هذا الموقف، بعد أن أوقفهم بين يدى الله، وأشهده عليهم..

٦. ومع هذا، فإن العناد لا يزال مستوليا عليهم، وإن اللجاج لا يزال يضرب بأمواجه فوقهم.. ولهذا، فإن الرسول الكريم، لا ينتظر جوابهم، إذ كان جوابا منحرفا عن الحق، بعيدا عن الهدى.. فليتركهم وشأنهم، وبين أيديهم دعوة الحق، وأمامهم طريق الهدى، فإن أطاعوا فقد اهتدوا، وإن تولّوا فإنما هم في ضلال وخسران.. أما الرسول الكريم، فعلى الطريق الذي أقامه الله عليه.. ﴿قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ أن مع الله آلهة أخرى، ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾

٧. في قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ تثبيت للنبي من ربّه، ووضع للكلمة التي ينبغي أن يقولها، على لسانه وفي قلبه.. يتلقاها من الله، فتلتقى مع الكلمة التي يريد أن يقولها، فإذا هي نور في قلبه، وقوة في عزمه، وطمأنينة في صدره، ولطف عظم من ألطاف ربه.. وفي تكرار (قل) مع كل قول من الله تعالى لهم، كمال عناية، وتمام رعاية من الله سبحانه (للنبى) حيث يجد مع كل نفس يتنفّسه، وحي السماء يقول له: قل.. قل.. قل.. وبهذا يشتدّ عزمه، وتثبت في لقاء الكافرين قدمه.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿قُلْ أي شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً﴾، جاء في بعض الروايات: أن مشركي مكة قالوا للنبي ﷺ: إن اليهود والنصارى لا يشهدون لك بالنبوة، فأرنا من يشهد لك بها، فأنزل سبحانه ﴿قُلْ أي شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً﴾، أي سلهم يا محمد من هو الذي تعلو شهادته كل شهادة، ثم أمره تعالى بالجواب عنهم ﴿قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، ولا جواب في الواقع غير هذا الجواب باعتراف الخصوم، وهو أن الشاهد بيننا هو الله.

٢. ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾، القرآن هو الشهادة من الله على نبوة محمد، وهو يتحداهم جميعا أن يأتوا بسورة من مثله ويدعوا من شاءوا، وقد حاولوا وعجزوا، وهذا العجز أكبر شهادة على صدق النبي في رسالته.

٣. ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ معناه أن الله سبحانه أوحى إليّ القرآن لأنذركم به يا أهل مكة، وأنذر به كل من بلغه إلى يوم يبعثون.. قال بعض الصحابة: من بلغه القرآن فكأنه رأى رسول الله ﷺ، وتدل هذه الآية على أن من لم تبلغه دعوة محمد ﷺ فهو معذور في ترك الإسلام، وتكلمنا عن ذلك مفصلا عند تفسير الآية ١١٥ من آل عمران، فقرة حكم تارك الإسلام.

٤. ﴿أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرى﴾، الاستفهام هنا للإنكار والاستبعاد والمعنى كيف تجعلون مع الله إلها آخر بعد وضوح الأدلة على وحدانيته جل وعز، ثم أمر الله نبيه أن يجيب بأنه لا يشهد كما يشهدون: ﴿قُلْ لا أَشْهَدُ﴾، ثم أمره بأمر آخر: ﴿قُلْ إِنَّما هُوَ إِلَهٌ واحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ بعبادة الأصنام وغيرها.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. في الآية الكريمة انتقال من الاستدلال على إثبات ما يليق بالله من الصفات، إلى إثبات صدق رسالة محمد ﷺ وإلى جعل الله حكما بينه وبين مكذّبيه، فالجملة استئناف ابتدائي، ومناسبة الانتقال ظاهرة.

---

(١) التفسير الكاشف: ٣/ ١٧٢.

(٢) التحرير والتنوير: ٦/ ٤٥.

٢. روى الواحدي في (أسباب النزول) عن الكلبي: أنّ رؤساء مكّة قالوا: يا محمد ما نرى أحدا مصدّقك بما تقول، وقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس عندهم ذكرك ولا صفتك فأرنا من يشهد أنّك رسول الله، فنزلت هذه الآية.

٣. وقد ابتدئت المحاورة بأسلوب إلقاء استفهام مستعمل في التقرير على نحو ما بيّنته عند قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٢] ومثل هذا الأسلوب لإعداد السامعين لتلقّي ما يرد بعد الاستفهام.

٤. ﴿أَيُّ﴾ اسم استفهام يطلب به بيان أحد المشتركات فيما أضيف إليه هذا الاستفهام، والمضاف إليه هنا هو﴿شَيْءٍ﴾ المفسّر بأنّه من نوع الشهادة.

٥. ﴿شَيْءٍ﴾ اسم عامّ من الأجناس العالية ذات العموم الكثير، قيل: هو الموجود، وقيل: هو ما يعلم ويصحّ وجوده، والأظهر في تعريفه أنّه الأمر الذي يعلم، ويجري عليه الإخبار سواء كان موجودا أو صفة موجود أو معنى يتعقّل ويتحاور فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٢، ٣]، وقد تقدّم الكلام على مواقع حسن استعمال كلمة (شيء) ومواقع ضعفها عند قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ في سورة البقرة [١٥٥]

٦. ﴿أَكْبَرُ﴾ هنا بمعنى أقوى وأعدل في جنس الشهادات، وهو من إطلاق ما مدلوله عظم الذات على عظم المعنى، كقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، وقوله: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ وقد تقدّم في سورة البقرة [٢١٧]، وقوة الشهادة بقوة اطمئنان النفس إليها وتصديق مضمونها.

٧. ﴿شَهَادَةً﴾ تمييز لنسبة الأكبرية إلى الشيء فصار ما صدق الشيء بهذا التمييز هو الشهادة، فالمعنى: أيّة شهادة هي أصدق الشهادات، فالمستفهم عنه بـ ﴿أَيٍّ﴾ فرد من أفراد الشهادات يطلب علم أنّه أصدق أفراد جنسه، والشهادة تقدّم بيانها عند قوله تعالى: ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ في سورة المائدة [١٠٦]، ولمّا كانت شهادة الله على صدق الرسول ﷺ غير معلومة للمخاطبين المكذّبين بأنّه رسول الله، صارت شهادة الله عليهم في معنى القسم على نحو قوله تعالى: ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النور: ٨] أي أن تشهد الله على كذب الزوج، أي أن تحلف على ذلكبسم الله، فإنّ لفظ (أشهد الله) من صيغ القسم إلّا أنّه إن لم يكن معه معنى الإشهاد يكون مجازا مرسلا، وإن كان معه معنى

الإشهاد كما هنا فهو كناية عن القسم مراد منه معنى إشهاد الله عليهم، وبذلك يظهر موقع قوله: ﴿اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، أي أشهده عليكم، وقريب منه ما حكاه الله عن هود ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ﴾ [هود: ٥٤]

٨. ﴿قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ جواب للسؤال، ولذلك فصلت جملته المصدّرة بـ ﴿قُلْ﴾، وهذا جواب أمر به المأمور بالسؤال على معنى أن يسأل ثم يبادر هو بالجواب لكون المراد بالسؤال التقرير وكون الجواب ممّا لا يسع المقرّر إنكاره، على نحو ما بيّنّاه في قوله: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ للهِ﴾ [الأنعام: ١٢]

٩. وقع قوله: ﴿اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ جوابا على لسانهم لأنّه مرتّب على السؤال وهو المقصود منه فالتقدير: قل شهادة الله أكبر شهادة، فالله شهيد بيني وبينكم، فحذف المرتّب عليه لدلالة المرتّب إيجازا كما هو مقتضى جزالة أسلوب الإلجاء والجدل، والمعنى: أنّي أشهد الله الذي شهادته أعظم شهادة أنّني أبلغتكم أنّه لا يرضى بأن تشركوا به وأنذرتكم.

١٠. وفي هذه الآية ما يقتضي صحة إطلاق اسم (شيء) على الله تعالى لأنّ قوله: ﴿اللهُ شَهِيدٌ﴾ وقع جوابا عن قوله: ﴿أَيُّ شَيْءٍ﴾ فاقتضى إطلاق اسم (شيء) خبرا عن الله تعالى وإن لم يدلّ صريحا، وعليه فلو أطلقه المؤمن على الله تعالى لما كان في إطلاقه تجاوز للأدب ولا إثم، وهذا قول الأشعرية خلافا لجهم بن صفوان وأصحابه.

١١. معنى: ﴿شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أنّه لمّا لم تنفعهم الآيات والنذر فيرجعوا عن التكذيب والمكابرة لم يبق إلّا أن يكلهم إلى حساب الله تعالى، والمقصود: إنذارهم بعذاب الله في الدنيا والآخرة.

١٢. ووجه ذكر ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أنّ الله شهيد له، كما هو مقتضى السياق، فمعنى البين أنّ الله شهيد للرسول ﷺ بالصدق لردّ إنكارهم رسالته كما هو شأن الشاهد في الخصومات.

١٣. ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ عطف على جملة ﴿اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، وهو الأهمّ فيما أقسم عليه من إثبات الرسالة، وينطوي في ذلك جميع ما أبلغهم الرسول ﷺ وما أقامه من الدلائل، فعطف ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ من عطف الخاصّ على العامّ، وحذف فاعل الوحي وبني فعله للمجهول للعلم بالفاعل الذي أوحاه إليه وهو الله تعالى.

١٤. الإشارة بـ ﴿هَذَا الْقُرْآنَ﴾ إلى ما هو في ذهن المتكلّم والسامع، وعطف البيان بعد اسم الإشارة بيّن المقصود بالإشارة.

١٥. اقتصر على جعل علّة نزول القرآن للنذارة دون ذكر البشارة لأنّ المخاطبين في حال مكابرتهم التي هي مقام الكلام لا يناسبهم إلّا الإنذار، فغاية القرآن بالنسبة إلى حالهم هي الإنذار، ولذلك قال: ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ﴾ مصرّحا بضمير المخاطبين، ولم يقل: لأنذر به، وهم المقصود ابتداء من هذا الخطاب وإن كان المعطوف على ضميرهم ينذر ويبشّر، على أنّ لام العلّة لا تؤذن بانحصار العلّة في مدخولها إذ قد تكون للفعل المعدّى بها علل كثيرة.

١٦. ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ عطف على ضمير المخاطبين، أي ولأنذر به من بلغه القرآن وسمعه ولو لم أشافهه بالدعوة، فحذف ضمير النصب الرابط للصلة لأنّ حذفه كثير حسن، كما قال أبو علي الفارسي، وعموم ﴿مَنْ﴾ وصلتها يشمل كلّ من يبلغه القرآن في جميع العصور.

١٧. ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾، جملة مستأنفة من جملة القول المأمور بأن يقوله لهم، فهي استئناف بعد جملة ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾، خصّ هذا بالذكر لأنّ نفي الشريك لله في الإلهية هو أصل الدعوة الإسلامية فبعد أن قرّرهم أنّ شهادة الله أكبر شهادة وأشهد الله على نفسه فيما بلّغ، وعليهم فيما أعرضوا وكابروا؛ استأنف استفهاما على طريقة الإنكار استقصاء في الإعذار لهم فقال: أتشهدون أنتم على ما أصررتم عليه أنّ مع الله آلهة أخرى كما شهدت أنا على ما دعوتكم إليه، والمقرّر عليه هنا أمر ينكرونه بدلالة المقام.

١٨. إنّما جعل الاستفهام المستعمل في الإنكار عن الخبر الموكّد بـ (إنّ) ولام الابتداء ليفيد أنّ شهادتهم هذه ممّا لا يكاد يصدّق السامعون أنّهم يشهدونها لاستبعاد صدورها من عقلاء، فيحتاج المخبر عنهم بها إلى تأكيد خبره بمؤكّدين فيقول: إنّهم ليشهدون أنّ مع الله آلهة أخرى، فهنالك يحتاج مخاطبهم بالإنكار إلى إدخال أداة الاستفهام الإنكاري على الجملة التي من شأنها أن يحكى بها خبرهم، فيفيد مثل هذا التركيب إنكارين: أحدهما صريح بأداة الإنكار، والآخر كنائي بلازم تأكيد الإخبار لغرابة هذا الزعم بحيث يشكّ السامع في صدوره منهم.

١٩. معنى ﴿لَتَشْهَدُونَ﴾ لتدّعونا دعوى تحقّقونها تحقيقا يشبه الشهادة على أمر محقّق الوقوع،

فإطلاق ﴿لَتَشْهَدُونَ﴾ مشاكلة لقوله: ﴿قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾

٢٠. ﴿آلِهَةً﴾ جمع إله، وأجري عليه الوصف بالتأنيث تنبيها على أنّها لا تعقل فإنّ جمع غير العاقل يكون وصفه كوصف الواحدة المؤنّثة.

٢١. ﴿قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ جواب للاستفهام الذي في قوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾ لأنّه بتقدير: قل أئنّكم ووقعت المبادرة بالجواب بتبرّي المتكلّم من أن يشهد بذلك لأنّ جواب المخاطبين عن هذا السؤال معلوم من حالهم أنّهم مقرّون به فأعرض عنهم بعد سؤالهم كأنّه يقول: دعنا من شهادتكم وخذوا شهادتي فإنّي لا أشهد بذلك، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥]

٢٢. جملة: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ بيان لجملة ﴿لَا أَشْهَدُ﴾ فلذلك فصلت لأنّها بمنزلة عطف البيان، لأنّ معنى لا أشهد بأنّ معه آلهة هو معنى أنّه إله واحد، وأعيد فعل القول لتأكيد التبليغ.

٢٣. كلمة ﴿إِنَّمَا﴾ أفادت الحصر، أي هو المخصوص بالوحدانية: ثم بالغ في إثبات ذلك بالتبري من ضدّه بقوله: ﴿وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾، وفيه قطع للمجادلة معهم على طريقة المتاركة.

٢٤. (ما) في قوله: ﴿مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ يجوز كونها مصدرية، أي من إشراككم، ويجوز كونها موصولة، وهو الأظهر، أي من أصنامكم التي تشركون بها، وفيه حذف العائد المجرور لأنّ حرف الجرّ المحذوف مع العائد متعيّن تقديره بلا لبس، وذلك هو ضابط جواز حذف العائد المجرور، كقوله تعالى: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ [الفرقان: ٦٠] أي بتعظيمه، وقوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي بالجهر به، وظاهر كلام (التسهيل) أنّ هذا ممنوع، وهو غفلة من مؤلّفه اغترّ بها بعض شرّاح كتبه.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. في الآيات السابقة بين الله تعالى أنه خالق السموات والأرض، وفاطرها على غير مثال سابق، وكيف خالف المشركون الفطرة الإنسانية، والعقل المستقيم، وأشركوا بأحجار في عبادة الله لا تنفع ولا تضر، وبين سلطانه تعالى، ثم ذكرهم سبحانه بنوازل تنزل بهم، فهو الذى يكشف الضر إن نزل، وهو الذى

(١) زهرة التفاسير: ٥/ ٢٤٦١.

يسوق الخير بفضل قدرته ومنته، وفى هذه الآيات يذكرهم سبحانه بإشراكهم مع قيام المعجزة القاطعة بأنه سبحانه وتعالى هو الله وحده، فالآيات السابقة كانت في الآيات الكونية المثبتة للوحدانية، والآيات اللاحقة تثبت الوحدانية بالدلائل السمعية المثبتة للوحدانية والتي ثبت صدقها بالمعجزة القاطعة، وهي القرآن الكريم.

٢. ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، فرض النص الكريم أن خصومة بين محمد ﷺ، وهو الداعي إلى الوحدانية، والمشركين الذين يرتعون في الوثنية، وأن هذه الخصومة تحتاج إلى شاهد يشهد، وأنه لا بد من شاهد يفصل، وحاكم يحكم ويقضى، فأمر الله تعالى نبيه في بيان رائع حكيم، أن يسأل المشركين عن أي شيء في هذا الوجود أكبر وأعظم وأقوى وأزكى شهادة بحيث تقبل شهادته ولا ترد، وكان الكلام في صيغة الاستفهام تنبيها إلى جلال الشاهد، وتنبيها إلى سلامة دعوى محمد ﷺ ليدركوا حقه وضلالهم.

٣. ثم نبههم إلى الإجابة السليمة للسؤال التنبيهى التي لا تقبل مراء ولا جدلا، وهو أن أكبر شهادة هي شهادة الله سبحانه وتعالى، الذى خلق الكون وهو الذى يحوط كل ما فيه بالحياطة الكاملة، والتهذيب والتربية، فقال تعالت كلماته: ﴿قُلِ اللهُ شَهِيدٌ﴾ في هذه الخصومة التي فرضتموها، هي خصومة الباطل اللجلج مع الحق الأبلج، وقد تكلم الزمخشري في بيان لفظي بلاغي فذكر أن في النص الكريم توجيهين:

أ. أحدهما: أن الإجابة تنتهي عند قوله: ﴿اللهُ﴾ وأن ما بعد ذلك تقرير للشهادة، فـ ﴿شَهِيدٌ﴾ يكون جملة جديدة؛ لأنه خبر لمبتدإ محذوف، ويكون المعنى على هذا التخريج قل الله ذو الجلال والإكرام، والعزة وصاحب الإنعام في هذا الوجود، وهو كاف، وهو أكبر شهادة، ولا شهادة بعد شهادته، وهو يشهد بالحق وبالوحدانية، يشهد بما جاء في القرآن بعد أن شهد بما خلق وأنشأ، ثم بين أنه هو شهيد في هذه الخصومة.

ب. الثاني: أن الإجابة تكون في نهايتها عند ﴿شَهِيدٌ﴾، فالمعنى قل إن الله تعالى شهيد، فـ ﴿شَهِيدٌ﴾ تكون خبرا للفظ الجلالة ابتداء، وكلاهما توجيه ليؤكد معنى الشهادة في النص القرآني ولماذا كانت شهادة الله تعالى أكبر شهادة؟ لأنها التي تتفق مع العقل، ولأنه المنشئ، ولأنه الباقي وكل شيء هالك إلا وجهه.

٤. سؤال وإشكال: ما الدليل على شهادة الله تعالى؟ والجواب: هي بيناته، وهي التي ينطق به بها القرآن الذى قام الدليل على أنه من عند الله تعالى العزيز الحكيم؛ ولذلك جاء ذكر القرآن الناطق بالحق،

فقال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾

٥. هذا النص فيه المعجزة التي تدل على صدق الرسول ﷺ، وهو يشتمل على شهادة الله القولية بأنه واحد أحد ليس بوالد ولا ولد، وأنه القادر على كل شيء وأنه القاهر فوق عباده، وهو أمر حسى يتلى عليهم ليلا نهارا، ويقرأ عليهم جهارا، وكان معجزا ببلاغته، وما فيه من علم، وما فيه من قصص صادق، وما فيه من شرائع منظمة للعلاقات بين الناس في أسرهم ومعاملاتهم، واجتماعهم، وعلاقات الإنسانية بعضها ببعض، ولقد قال ﷺ في إثبات أنه المعجزة التي تحدى بها الناس أن يأتوا بمثلها فعجزوا عجزا مبينا: (ما من نبي إلا أوتى ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحى به إلىّ، وإني لأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة)

٦. سؤال وإشكال: لماذا كانت معجزة النبي ﷺ قرآنا يتلى، وتولى سبحانه حفظه من التحريف والتبديل إلى يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر]، والجواب: أن معجزات الأنبياء السابقين كانت تقع ولا يعلم بها على اليقين إلا الذين عاينوها وشاهدوها، والذين من بعدهم لا يعلمونها إلا بالخبر الذى لا شك فيه، أما شريعة محمد ﷺ فإنها باقية خالدة إلى يوم الدين فلا بد أن تكون معجزاتها قائمة حاملة معنى الإعجاز والتحدي ما دامت الشريعة قائمة خالدة، فلا بد أن يكون القرآن الكريم حجتها خالدا بخلودها.

٧. والنص القرآني الذى نتكلم فيه اشتمل على أمور ثلاثة:

أ. أولها: بيان أنه المعجزة المثبتة لصدق النبي ﷺ وقد ذكر ذلك بالإشارة، إذ قال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ وقد ثبت بالتحدى عجزهم عن أن يأتوا بمثله.

ب. ثانيها: أنه مشتمل على الإنذار للمشركين والمخالفين والعصاة إن استمروا على غيهم، ولم يستجيبوا لنداء ربهم، ودعوة نبيهم إلى الوحدانية والفضيلة، وتكون مجتمع سليم نقى.

ج. ثالثها: أن النص يتضمن أن القرآن حجة وإنذار لكل من بلغه سواء خاطبه النبي ﷺ أم بلغه، وقد بين ذلك قوله تعالى: ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ أي أن من بلغ القرآن فهو مخاطب به، سواء أكان من العرب أم كان من العجم، وكأنه خاطبه النبي ﷺ، ولقد روى أنه ﷺ قال: (بلغوا عن الله تعالى، فمن بلغته آية من كتاب الله تعالى فقد بلغه أمر الله)، وروى عن جمع من التابعين أنهم كانوا يقولون: (من بلغه القرآن

فقد أبلغه محمد ﷺ)، وإن هذا النص يستفاد منه أمران:

• أولهما: أن من لم يبلغه القرآن ولا يعلم عنه شيئا، فإنه لا يعتبر قد بلغته الدعوة الإسلامية، وإثمه على الذين تقاصروا عن تبليغها وبيانها.

• ثانيهما: أنه لا معذرة لمن يعرف القرآن، في الكفر بالحقائق الإسلامية.

٨. سؤال وإشكال: لكن كيف التبليغ بالقرآن، والعجمة سائدة في هذا الوجود سواء أكانت إنجليزية أو فرنسية أو غيرهما؟ والجواب: أنه يجب في سبيل الدعوة إلى الإسلام؛ التي هي فرض كفاية على المسلمين؛ يأثم المسلمون جميعا إن لم يكن دعاة إلى الإسلام - يجب عليهم أن تفسر طائفة مخلصة مؤمنة فاهمة القرآن تفسيرا موجزا تبين معانيه، ويترجم ذلك التفسير إلى كل لغة أعجمية.

٩. ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾، شهادة الله التي فصل بها في القضية، ونطق بها القرآن الكريم؛ ولذا أحيل بيانها إلى القرآن في قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ وفى هذا النص السامي يقابل بينها وبين شهادتهم وما يتبعه النبي ﷺ أيتبع الله تعالى العلى الحكيم أم يتبع أهواءهم!؟ معاذ الله أن يتبع الهوى بل إنه يتبع الهدى.

١٠. والاستفهام هنا إنكاري لإنكار الواقع، فهم وقع منهم ذلك، وتأكد وقوعه ولم ينكروه؛ ولذلك كان تأكيد وقوعهم بأن قال تعالت كلماته: ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ فهو إنكار لهذا الأمر الواقع منهم وقوعا مؤكدا، وإنكار الواقع توبيخ، فالاستفهام هنا يتضمن معنى تقرير ما وقع منهم وتوبيخهم عليه، وعبر بتشهدون للإشارة إلى قوة الضلال في نفوسهم إذ إنهم مع ضلال الفكرة الوثنية يعتقدونها أشد الاعتقاد؛ لأن الشهادة لا تكون إلا بالعلم اليقيني فهم يؤمنون بـ (تشهدون) بالشرك أي بأن مع الله آلهة أخرى، وتسمية الأوثان التي يشركون بها مع الله تعالى آلهة؛ لأن ذلك في زعمهم، فليست آلهة ولا يمكن أن تكون آلهة، إذ هي أوثان أو أشياء أو أشخاص لا يكون منها نفع ولا ضرر، وليست مفيدة في ذاتها، وهم يعبدونها، فهي بزعمهم آلهة.

١١. ووصفت بـ ﴿أُخْرَى﴾ مع أنها جمع، وكان الظاهر أن توصف (بأخر) ليوصف الجمع بالجمع، ولكن لأنها مشتركة في وصف جامع وهو أنها أحجار فهي في المعنى شيء واحد؛ لذا وصفت، فهي في المعنى واحد، وكذا وصفت بما يوصف به الواحد لا بما يوصف به العدد، والوصف بـ (أخرى) فيه إشارة

إلى بطلان عبادتها.

١٢. وإنه من المبالغة في التوبيخ والتنديد أن يأمر الله تعالى نبيه بألا يشهد بما يشهدون، بل يشهد بشهادة الحق، فيقول تعالى: ﴿قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾

١٣. وفى أمر الله تعالى له بالقول مع التنديد لهم والتوبيخ لهم ما يدعو إلى الاقتداء والتأسي به ﷺ وهو العاقل الصادق الأمين المعروف بذلك بينهم جاهلية وإسلاما، وإن ذهبت اللجاجة ببعضهم إلى إنكار المعروف بلسانه لا بقلبه.

١٤. ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾، هذا تقرير وتأكيد لمعنى الجملة السابقة وهي لا أشهد وتحتمل أن تكون داخلة في مقول القول، ويكون مقول القول لا أشهد وإنما هو إله واحد، ويحتمل أن تكون جملة مبتدأة، والفصل في الأول يكون لأنها بيان لما قبلها، وفى الثانية يكون لابتداء الكلام، وإن كان في المعنى فيه تقرير لما سبقه، والضمير (هو) يعود على الله تعالى، وهذا النص السامي تضمن أمرين:

أ. أولهما: وحدة الله تعالى، وقد نص عليه بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ وهذا يفيد قصر الألوهية على الله تعالى فلا يعبد سواه سبحانه، ويفيد مع ذلك أنه لا يتصور أن يكون المعبود بحق غير واحد؛ لأن المنشئ المكون المدبر واحد، ولا يتصور بمقتضى النظر إلا أن يكون المعبود واحدا.

ب. الثاني: التصريح ببراءة النبي ﷺ مما يعبدون من أوثان يشركون بها مع الله تعالى: ﴿وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾، في هذا النص تنديد شديد بعبادة الأوثان؛ لأن الرجل العاقل يتبرأ منها، ولا يليق أن يعبدها، وقد أكد براءته بـ (إن)، وبالوصف ﴿بَرِيءٌ﴾ وبأن ذلك انتحال منهم، وليس ألوهية في شيء.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. احتجاج على الوحدانية من طريق الوحي فإن وحدة الإله وانتفاء الشريك عنه وإن كانت مما يناله العقل بوجوه من النيل فلا مانع من إثباته من طريق الوحي الصريح الذي لا مرية فيه، فالمطلوب هو

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٧/ ٣٨.

اليقين بأنه تعالى إله واحد لا شريك له، وإذا فرض حصوله من طريق الوحي الذي لا يداخله ريب في كونه وحيا إلهيا كالقرآن المتكئ على التحدي فلا مانع من الاستناد إليه.

٢. ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أمر نبيه أن يسألهم عن أكبر الأشياء من حيث الشهادة، والشهادة هي تحمل الخبر عن نوع من العيان كالإبصار ونحوه، وأداء ما تحمل كذلك بالإخبار والإنباء، وإذ كان التحمل والأداء ـ وخاصة التحمل ـ مما يختلف بحسب إدراك المتحملين وبحسب وضوح الخبر الذي تحمله المتحمل، وبحسب قوة المؤدى بيانا وضعفه اختلافا فاحشا، فليس المتحمل الذي يغلب على مزاجه السهو والنسيان أو الغفلة كالذي يحفظ ما يعيه سمعه ويقع عليه بصره، وليس الصاحي كالسكران ولا الخبير الأخصائي بأمر كالأجنبي الأعزل، وإذا كان الأمر على ذلك فلا يقع ريب في أن الله سبحانه هو أكبر من كل شيء شهادة فإنه هو الذي أوجد كل ما دق وجل من الأشياء، وإليه ينتهي كل أمر وخلق، وهو المحيط بكل شيء ومع كل شيء لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات والأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر لا يضل ولا ينسى.

٣. ولكون الأمر بينا لا يقع فيه شك لم يحتج إلى إيراد الجواب في اللفظ بأن يقال: قل الله أكبر شهادة، كما قيل: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ أو يقال: سيقولون الله، كما قيل: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٥]، على أن قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ يدل عليه ويسد مسده، وليس من البعيد أن يكون قوله: ﴿شَهِيدٌ﴾ خبرا لمبتدإ محذوف هو الضمير العائد إلى الله، والتقدير: (قل الله هو شهيد بيني وبينكم) فتشتمل الجملة على جواب السؤال وعلى ما استؤنف من الكلام.

٤. وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ على أنه يشتمل على إخباره ﷺ بشهادة الله تعالى هو بنفسه شهادة لمكان قوله: ﴿قُلْ﴾ إذ أمره بأن يخبرهم بشهادته تعالى بالنبوة لا ينفك عن الشهادة بذلك، وعلى هذا فلا حاجة إلى التشبث بأنواع ما وقع في القرآن الكريم من شهادة الله تعالى على نبوته ﷺ وعلى نزول القرآن من عنده كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ [المنافقون: ١] أو قوله: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦] وغير ذلك من الآيات الدالة على ذلك تصريحا أو تلويحا بلفظ الشهادة أو بغيره.

٥. وتقييد شهادته تعالى بقوله: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ يدل على توسطه تعالى بين طرفين متخاصمين هما النبي ﷺ وقومه، والنبي لم ينعزل عنهم ولم يتميز منهم في جانب إلا في دعوى النبوة والرسالة ودعوى نزول القرآن لكن نزول القرآن بالوحي قد ذكر بعد في قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ فالمراد بشهادته تعالى بينه وبينهم شهادته بنبوته، ويؤيده أيضا قوله في الآية التالية: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ على ما سيجيء إن شاء الله.

٦. ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ من مقول القول وهو معطوف على قوله: ﴿اللهُ شَهِيدٌ﴾، وجعل الإنذار غاية لنزول القرآن الكريم أخذ بمسلك الخوف في الدعوة النبوية، وهو الأوقع في أفهام عامة الناس فإن مسلك الرجاء والوعد وإن كان أحد الطريقين في الدعوة، وقد استعمله الكتاب العزيز في الجملة لكن رجاء الخير لا يبعث إلى طلبه بعثا إلزاميا وإنما يورث شوقا ورغبة بخلاف الخوف لوجوب دفع الضرر المحتمل عقلا.

٧. ولأن دعوة الإسلام إنما هي إلى دين الفطرة، وهو مخزون مكنوز في فطرة الناس وإنما حجبهم عنه ما ابتلوا به من الشرك والمعصية مما يوجب عليهم غلبة الشقوة ونزول السخط الإلهي فالأقرب إلى الحكمة والحزم في دعوتهم أن تبدأ بالإنذار، ولهذا كله ربما حصر شأن النبي ﷺ في الإنذار كما في قوله: ﴿إِنْ أَنْتَ إلا نَذِيرٌ﴾: (الفاطر ـ ٢٣) وقوله: ﴿وإنما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [العنكبوت: ٥٠]

٨. هذا في عامة الناس وأما الخاصة من عباد الله، وهم الذين يعبدونه حبا له لا خوفا من نار ولا طمعا في جنة فإنهم يتلقون من الدعوة بالخوف والرجاء أمرا آخر فإنهم يتلقون من النار أنها دار بعد وسخط فيخافونها لذلك، ومن الجنة أنها ساحة قرب ورضوان فيشتاقون إليها لذلك.

٩. وظاهر قوله: ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ أنه خطاب لمشركي مكة أو لقريش أو للعرب عامة إلا أن التقابل بين ضمير الخطاب وبين من بلغ ـ والمراد بمن بلغ هو من لم يشافهه النبي ﷺ بالدعوة في زمن حياته أو بعده ـ يدل على أن المراد بالمخاطبين في قوله: ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ﴾ هم الذين شافههم النبي ﷺ بالدعوة ممن تقدم دعاؤه على نزول الآية أو قارنه أو تأخر عنه، فقوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ يدل على عموم رسالته ﷺ بالقرآن لكل من سمعه منه أو سمعه من غيره إلى يوم القيامة، وإن شئت فقل: تدل الآية على كون القرآن الكريم حجة من الله وكتابا له ينطق بالحق على أهل الدنيا من لدن نزوله

إلى يوم القيامة.

١٠. وقد قيل: ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ﴾ ولم يقل: لأنذركم بقراءته فالقرآن حجة على من سمع لفظه وعرف معناه واهتدى إلى مقاصده، أو فسر له لفظه وقرع سمعه بمضامينه فليس من شرط كتاب مكتوب إلى قوم أن يكون بلسانهم بل أن تقوم عليهم حجته وتشملهم مضامينه، وقد دعا ﷺ بكتابه إلى مصر والحبشة والروم وإيران ولسانهم غير لسان القرآن، وقد كان فيمن آمن به في حياته وقبل إيمانهم سلمان الفارسي وبلال الحبشي وصهيب الرومي وعدة من اليهود ولسانهم عبري هذا كله مما لا ريب فيه.

١١. ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾) إلى آخر الآية، لما ذكر شهادة الله وهو أكبر شهادة على رسالته ولم يرسل إلا ليدعوهم إلى دين التوحيد، وليس لأحد بعد شهادة الله سبحانه على أن لا شريك له في ألوهيته أن يشهد أن مع الله آلهة أمر نبيه أن يسألهم سؤال متعجب منكر: هل يشهدون بتعدد الآلهة، وهذا هو الذي يدل عليه تأكيد المسئول عنه بأن واللام، كأن النفس لا تقبل أن يشهدوا به بعد أن سمعوا شهادة الله تعالى.

١٢. ثم أمره أن يخالفهم في الشهادة فينفي عن نفسه الشهادة بما شهدوا به فقال: ﴿قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ أي بما شهدتم به بقرينة المقام، ثم قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ وهو شهادة على وحدانيته تعالى، والبراءة مما يدعون له من شركاء.

١٣. في تفسير البرهان، عن ابن بابويه بإسناده عن محمد بن عيسى بن عبيد قال: قال لي أبو الحسن عليه السلام: ما تقول إذا قيل لك: أخبرني عن الله عز وجل أشيء أم لا شيء؟ قال قلت: قد أثبت الله عز وجل نفسه شيئا ـ حيث يقول: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ وأقول: إنه شيء لا كالأشياء ـ إذ في نفي الشيئية عنه نفيه وإبطاله: قال لي: صدقت وأحسنت، قال الرضا عليه السلام: (للناس في التوحيد ثلاثة مذاهب: نفي، وتشبيه، وإثبات بغير تشبيه ـ فمذهب النفي لا يجوز، ومذهب التشبيه لا يجوز ـ لأن الله تبارك وتعالى لا يشبهه شيء والسبيل في الطريقة الثالثة إثبات بلا تشبيه)، المراد بمذهب النفي نفي معاني الصفات عنه تعالى كما ذهبت إليه المعتزلة، وفي معناه إرجاع الصفات الثبوتية إلى نفي ما يقابلها كالقول بأن معنى القادر أنه ليس بعاجز، ومعنى العالم أنه ليس بجاهل إلا أن يرجع إلى ما ذكره عليه السلام من المذهب الثالث، والمراد بمذهب التشبيه أن يشبهه تعالى بغيره ـ وليس كمثله شيء ـ أي أن

يثبت له من الصفة معناه المحدود الذي فينا المتميز من غيره من الصفات بأن يكون قدرته كقدرتنا وعلمه كعلمنا، وهكذا، ولو كان ما له من الصفة كصفتنا احتاج كاحتياجنا فلم يكن واجبا تعالى عن ذلك، والمراد بمذهب الإثبات من غير تشبيه أن يثبت له من الصفة أصل معناه وتنفى عنه خصوصيته التي قارنته في الممكنات المخلوقة أي تثبت الصفة وينفي الحد.

١٤. وفي تفسير القمي: في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ وذلك أن مشركي أهل مكة قالوا: يا محمد ما وجد الله رسولا أرسله غيرك؟ ما نرى أحدا يصدقك بالذي تقول ـ ذلك في أول ما دعاهم وهم يومئذ بمكة ـ قالوا: ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى ـ فزعموا أنه ليس لك ذكر عندهم، فأتنا بمن يشهد أنك رسول الله، قال رسول الله ﷺ: ﴿اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾

١٥. وفي تفسير العياشي، عن بكير عن محمد عن أبي جعفر عليه السلام: في قول الله: ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ قال: (علي عليه السلام ممن بلغ)، ظاهره أن ﴿مَنْ بَلَغَ﴾) معطوف على ضمير ﴿بَيْنَكُمْ﴾، ولقد ورد في بعض الروايات أن المراد بمن بلغ هو الإمام، ولازمه عطف ﴿مَنْ بَلَغَ﴾) على فاعل ﴿لِأُنْذِرَكُمْ﴾ المقدر، وظاهر الآية هو الأول.

١٦. في تفسير البرهان، عن ابن بابويه بإسناده عن يحيى بن عمران الحلبي عن أبيه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سئل عن قول الله عز وجل: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ قال: بكل لسان، قد مر وجه استفادته من الآية.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ملاحظات حول سبب النزول:

أ. جاء في أسباب النزول ـ للواحدي ـ في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ الآية، قال الكلبي: إن رؤساء مكة قالوا: يا محمد، ما نرى أحدا يصدقك بها تقول من أمر الرسالة، ولقد سألنا عنك

(١) من وحي القرآن: ٩/ ٥٠.

اليهود والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة، فأرنا من يشهد لك أنك رسول كما تزعم؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

ب. ونلاحظ أن سياق الآية لا يوحي بذلك، فإن القضية المطروحة بين النبي والمشركين هي قضية التوحيد والشرك، وهذا ما أثاره النبي ـ في الأسلوب القرآني ـ في الشهادة بهذه القضية، وهي: أن مع الله آلهة أخرى فيرفض النبي ﷺ ذلك بقوله ـ في إيحاء الله له ﴿قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ ويؤكد التوحيد بقوله: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾

ج. وقد انطلقت الآية لتقدم أكبر شهادة على التوحيد من خلال الدلائل الواضحة المتناثرة في آفاق الكون وفي أنفسهم، وهي الشهادة الأكبر، لأنها منطلقة من الله الذي يؤمنون به من حيث المبدأ، ولكنهم يشركون به غيره.

د. ومن خلال هذه الشهادة الإلهية يتحدث النبي ﷺ عن مسئوليته في إنذارهم بالقرآن ليبتعدوا عن الشرك الذي يؤدي بهم إلى الهلاك ليكون ذلك وسيلة من وسائل الضغط على تفكيرهم بما تثيره من الخوف على المصير، الأمر الذي يجعل القضية بعيدة عن الترف الفكري والجدل العقيم الذي يثيرونه أمام الدعوة بأساليبهم الخاصة.

هـ. ولا ينافي ما ذكرناه في الملاحظة ما جاء في الآية من الحديث عن معرفة أهل الكتاب بالنبي، أو بالقرآن، لأنها متصلة بالحديث معهم لا مع المشركين ليكون ـ كما يقول سبب النزول ـ أنه إثبات لما نفوه من عدم شهادتهم برسالة النبي ﷺ، لأن معرفتهم التي لا تتحول إلى إقرار لا تصلح حجة على المشركين الذين طلبوا الشهادة ـ حسب الرواية ـ والله العالم.

٢. هذا أسلوب من أساليب القرآن في مواجهة المشركين من ناحية نفسية للتأثير على مشاعرهم، من خلال ما يؤمنون به من قضايا، ثم إعطاء المؤمن موقع الحسم في رفض كل الأفكار الإشراكيّة المضادّة.

٣. فتبدأ هذه الآية في إثارة التساؤل: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ لتستثير الإيمان بالله الكامن في أعماقهم فيما يعيشونه من تعظيم لله، وذلك لأن إشراكهم في الغالب ليس شركا عقيديا بل هو شرك عبادي باعتبار قرب هذه الآلهة من الله مما يجعلها تمنحهم القرب منه، بحكم العلاقة الوثيقة بينها وبينه.. فإذا كانوا لا يريدون الوصول إلى القناعة من خلال الفكر، فإن هناك طريقة أخرى لإثبات القناعة وهي الشهادة فيما

يمكن أن يكون للحس طريق إليه، ممن يملك إمكانيّة الاطلاع على الموضوع بشكل دقيق واسع، ومن هو الشاهد الأكبر الذي يحيط بالأشياء كلها، ويعرف كل أسرارها ودقائقها؟

٤. ولا تنتظر الآية جوابا من هؤلاء، بل تبادر إلى الجواب الذي يمثّل الحقيقة الكامنة في وعيهم: ﴿قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فهو الذي يمثّل في قوله الحقيقة المشرقة الواضحة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وهو الذي أنزل هذا القرآن لينذركم ويحملكم المسؤولية فيما تعتقدون وما تعملون، ويحمّلها للناس الآخرين الذين يبلغهم هذا القرآن من الأجيال القادمة، فلا بد لهم من دراسة هذا القرآن فكرا وشريعة وأسلوب حياة، ليعرف الإنسان منه معنى التوحيد وحركة النبوّة في الحياة، وهكذا يحاصرهم هذا الأسلوب، ليحيط بهم من بين أيديهم ومن خلفهم، لأنه يطرح أمامهم شهادة الله من خلال القرآن، ليفكروا في ذلك كله.

٥. ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ أي: من بلغه القرآن في حركة الدعوة الموجهة إلى الإنسان كله في كل زمان ومكان ممن تنطلق الرسالة لتصل إليه بالطريقة التي يفهمها، وبالوسائل التي تلتقي عند ظروفه، وباللسان الذي يتكلم به كما جاء في حديث الإمام جعفر الصادق عليهم السّلام ـ في رواية الحلبي عن أبيه عنه ـ قال: سئل عن قول الله عز وجل: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ قال بكل لسان.

٦. وهذا ما يفرضه القرآن على الدعاة إلى الله أن يبلّغوا رسالاته ويخشوه في حركتهم التبليغية بالوعي لما يبلغونه والصدق فيه من أجل أن تقوم الحجة به على الناس، لأن الذين لا تبلغهم الدعوة لا حجة لله عليهم وهذا ما جاءت به الرواية: أخرج أبو الشيخ عن أبيّ بن كعب قال: أتي رسول الله ﷺ بأسارى، فقال لهم: هل دعيتم إلى الإسلام قالوا: لا، فخلى سبيلهم ثم قرأ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ ثم قال خلّوا سبيلهم حتى يأتوا مأمنهم لأنهم لم يدعوا.

٧. وقد انطلقت كلمة الإنذار انسجاما مع موقف العناد الذي اتخذه المشركون من الرسول والرسالة أو الذي يمكن أن تتخذه القوى المضادة أمام الدعوة الإسلامية، وربما كان هذا ما أبعد كلمة (التبشير) إلى جانب الإنذار، وقد يكون ذلك من جهة أن الإنذار في الموقف الجاحد يوحي بالتبشير في الموقف الإيماني، مما جعل المسألة تتحرك لمعالجة الموقف الفعلي الذي يراد من خلاله الضغط على هؤلاء

ليتراجعوا عن جحودهم وشركهم بما يتضمنه الإنذار من العذاب الأخروي كمحاولة لتحطيم حالة الجمود الفكري لديهم، ولكنهم لا يسمعون ولا يعقلون ويصرّون على عنادهم فيتركون شهادة الله، ليشهدوا شهادة مضادة لها، لأن هذا النهج هو نهج الآباء والأجداد، بعيدا عن عالم الفكر والروح.

٨. ويتساءل، لينكر عليهم هذا الأمر: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى﴾ وكأنه يوحي لهم بأن ذلك أمر لا يرتكز على أساس، ولذلك فإنه يقف في الموقع القوي الرافض في المجابهة بين شهادة الحق وشهادة الباطل: ﴿قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ فذلك هو الذي يفرضه العقل ويلتقي به الوجدان.. وتتأكد معه القناعات وينطلق من خلاله الرفض الحاسم للشهادة المضادة، والاعتراف الواضح بالحقيقة الثابتة بوحدانية الله والإعلان الصارخ للبراءة من كل هذه الأصنام التي تتجسّد فيها رموز الشرك وخطوطه ومناهجه.

٩. وربما كان من الضروري للعاملين في سبيل الله، استيحاء هذا الأسلوب في المواقف التي قد لا تسمح بالكثير من الجدل الفكري، حيث ينتهي فيها الحوار إلى طريق مسدود، بالحواجز النفسية المتنوّعة التي تجرد الحديث المنطلق من القلب المفتوح من تأثيره، فقد يكون من المفيد الدخول في حالة اقتحام نفسي على المواقف الحاشدة بالإشارة إلى الشهادات التي يلتقي فيها أهل الحوار من دون انتباه للنتائج التي تنتهي إليها، ليكون الحوار منطلقا جيدا للوصول إلى تلك النتائج الحاسمة من أقرب طريق.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمشركين المكذبين ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ أي شيء أصدق وأحق وأنفع شهادة!؟ وجواب هذا السؤال، وهو أن الله ﴿أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ جواب لا ينازِع فيه خصومهُ الذين بلغهم آيات الله الدالة على صدقه وصدق إنذاره وصدق كل ما بلغهم عن الله، فالله شهيد لَه بإقامة الحجة عليهم، وقيامه بواجبه، وشهيد عليهم بالتمرد بعد بيان الحق من الله ربهم ﴿قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فراقبوه واتركوا الشرك والتكذيب وآمنوا.

---

(١) التيسير في التفسير: ٢/ ٤٢٣.

٢. ﴿لِأُنْذِرَكُمْ﴾ بما في القرآن من كلام الله ووعيده فاحذروا ما أُنْذِرْتُم، ولأنذر به من بلغه من العالمين، كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١]

٣. ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ سؤال توبيخ على هذه الشهادة الكاذبة الآثمة ﴿قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ كما تشهدون.

٤. ﴿قُلْ إِنَّمَا﴾ الإله ﴿إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ هو الله، أما غيره فليس بإله ﴿وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا﴾ تشركونه في الإلهية أنفي إلاهيتهم، وأبرأ من عبادتهم، ولا صلة بيني وبينهم، بل هم عدو لي.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. يذكر جمع من المفسّرين أنّ عددا من مشركي مكّة جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا: كيف تكون نبيّا ولا نرى أحدا يؤيدك؟ وحتى اليهود والنصارى الذين سألناهم، لم يشهدوا بصحة أقوالك بحسب ما عندهم في التّوراة والإنجيل، فهات من يشهد لك على رسالتك، والآيتان المذكورتان تشيران إلى هذه الواقعة.

٢. في مواجهة هؤلاء المخالفين المعاندين الذين يغمضون أعينهم عن رؤية كل تلك الدلائل على صدق الرسالة، ويطلبون مزيدا من الشواهد، يؤمر النّبي ﷺ أن: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾

٣. أهناك شهادة أعظم من شهادة ربّ العالمين؟ ﴿قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ وهل هناك دليل أكبر من هذا القرآن؟: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ﴾، هذا القرآن الذي لا يمكن أن يكون وليد فكر بشري، خاصّة في تلك الظروف الزّمانية والمكانية، هذا القرآن الذي يضمّ مختلف الشواهد على إعجازه، فألفاظه معجزة، ومعانيه معجزة، أليس هذا الشاهد الكبير وحده كاف لأن يكون تصديقا إلهيا للدعوة!.. يستفاد من هذه العبارة أيضا أنّ القرآن أعظم معجزة وأكبر شاهد على صدق دعوة رسول الله ﷺ.

٤. ثمّ يشير إلى هدف نزول القرآن ويقول: ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ أي أنّ القرآن قد نزل عليّ لكي أنذركم، وأنذر جميع الذين يصل إليهم ـ عبر تاريخ البشر، وعلى امتداد الزمان وفي أرجاء العالم كافة ـ كلامي، وأحذرهم من عواقب عصيانهم.

---

(١) تفسير الأمثل: ٤/ ٢٣٦.

٥. يلاحظ هنا أنّ الكلام مقتصر على الإنذار مع أنّ خطابات القرآن تجمع غالبا بين الإنذار والبشرى، والسبب في ذلك يعود إلى أنّ الكلام موجه هنا إلى أفراد معاندين مصرين على المكابرة، ولا يمكن أن نتصور في الواقع عبارة أوجز وأشمل لبيان المقصود من هذه العبارة، وما فيها من دقّة وسعة يزيل كل إيهام في عدم اختصاص دعوة القرآن بالعرب أو بزمان أو مكان معينين.

٦. بعض العلماء استدلوا بهذا التعبير وأمثاله على ختم النّبوة برسول الله ﷺ، فهذه الجملة تعني أنّ الرّسول قد بعث إلى جميع الذين تصلهم دعوته، وهذا يشمل جميع الذين يردون الحياة حتى نهاية العالم.

٧. تفيد الأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام أنّ مفهوم إبلاغ القرآن لا يعني مجرّد وصول نصوصه إلى الأقوام الأخرى فحسب، بل إنّ المفهوم يشمل وصول ترجماته بمختلف اللغات إلى تلك الأقوام، جاء عن الإمام الصّادق عليه السّلام أنّه عندما سئل عن هذه الآية قال: (بكل لسان)، كما أنّ من أصول الفقه المسلم بها هو مبدأ (قبح العقاب بلا بيان) وهذا ما تفيده الآية المذكورة، فقد ثبت في أصول الفقه أنّه ما دام الحكم لم يبلغ شخصا، فإنّه لا يتحمل مسئولية تنفيذه (إلّا إذا كان مقصرا في استيعاب الحكم)، فهذه الآية تقول بأنّ الذين تصلهم الدعوة يتحملون مسئوليتها، أمّا الذين لم تصلهم الدعوة، بدون تقصير، فلا مسئولية عليهم، وفي تفسير (المنار) رواية عن أبيّ بن كعب قال أتي رسول الله ﷺ بأسارى فقال لهم: هل دعيتم إلى الإسلام؟ قالوا: لا، فخلى سبيلهم، ثمّ قرأ ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾، ثمّ قال: خلوا سبيلهم حتى يأتوا مأمنهم من أجل أنّهم لم يدعوا.

٨. ومن هذه الآية نفهم ـ أيضا أنّ إطلاق كلمة (شيء) على الله جائز، إلّا أنّه شيء لا كالأشياء المخلوقة المحدودة، بل هو خالق ولا تحده حدود.

٩. ثمّ أمر الله رسوله أن يسألهم: ﴿أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرى﴾، ويأمره أن: ﴿قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ذكر العبارات الأخيرة في الآية له هدف نفسي هام، وهو أنّ المشركين قد يتصورون حدوث تزلزل في نفس النّبي ﷺ على أثر كلامهم، فيتركون المجلس آملين، ويبشرون أصحابهم بإمكان أن يعيد محمّد ﷺ النظر في دعوته، فهذه الجمل الصريحة الحاسمة تقضي على أمل المشركين وتحيله إلى يأس، وتبيّن لهم أنّ الأمر أعظم ممّا يظنون، وأنّه لم يداخله أدنى شك في دعوته، ولقد دلت التجارب على أنّ ذكر أمثال هذه العبارات الجازمة والحاسمة في ختام كل بحث له أثر عميق في

تحقيق الهدف النهائي.

١١. المعرضون عن الكتاب والخسارة

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [١١] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٢٠]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) أنّه قال: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ معناه غشّوا أنفسهم[(١)].

السّدّيّ:

روي عن إسماعيل السّدّيّ (ت ١٢٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾، يعني: يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم؛ لأنّ نعته معهم في التوراة[(٢)].

٢. روي أنّه قال: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنهم كفروا به بعد المعرفة[(٣)].

خصيف:

روي عن خصيف بن عبد الرحمن (ت ١٣٩ هـ) أنّه قال: يعرفون النبي ﷺ وصفته كما يعرفون أبناءهم[(٤)].

الصادق:

روي عن الإمام الصادق (ت ١٤٨ هـ) أنّه قال: نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة والإنجيل ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ يعني

---

(١) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٣.

(٢) نسبه السيوطي إلى أبي الشيخ.

(٣) نسبه السيوطي إلى أبي الشيخ.

(٤) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٧٣.

رسول الله ﷺ لأن الله جل وعز قد أنزل عليهم في التوراة والإنجيل والزبور صفة محمد ﷺ وصفة أصحابه ومبعثه ومهاجره، وهو قوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ فهذه صفة رسول الله ﷺ وصفة أصحابه في التوراة والإنجيل، فلما بعثه الله عز وجل عرفه أهل الكتاب كما قال الله جل جلاله(١).

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: أنزل في قولهم: لقد سألنا عنك أهل الكتاب، فزعموا أنّه ليس لك عندهم ذكر، فقال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾(٢).

٢. روي أنّه قال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ أي: صفة محمد ﷺ في كتبهم ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ إنّ عبد الله بن سلام قال: لأنا أعرف بمحمد ﷺ منّي بابني؛ لأنّي لا أعلم ما أحدثت فيه أمّه(٣).

٣. روي أنّه قال: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ يعني: غبنوا أنفسهم، ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: لا يصدّقون بمحمد ﷺ بأنّه رسول الله(٤).

ابن جريج:

روي عن ابن جريج (ت ١٥٠ هـ) أنّه قال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾، يعني: النبي ﷺ، زعم أهل المدينة عن أهل الكتاب ممّن أسلم أنهم قالوا: والله، لنحن أعرف به من أبنائنا؛ من أجل الصفة والنعت الذي نجده في الكتاب، وأما أبناؤنا فلا ندري ما أحدث النساء(٥).

المرتضى:

---

(١) تفسير القمّي ١/ ٣٢.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٤.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٤.

(٤) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٤.

(٥) ابن جرير ٩/ ١٨٧.

ذكر الإمام المرتضى بن الهادي (ت ٣١٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. سألت: عن قول الله سبحانه: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ والجواب: الذين أوتوا الكتاب هم: اليهود والنصارى، وهم يعرفون محمدا صلوات الله عليه وآله، ويثبتون صفته، ويقفون على صحة أمره، وما أمروا به من طاعته، كما يعرفون أبناءهم، مشروح ذلك في كتبهم، مبين لهم؛ ولكن جحدوا ما عرفوا، وأنكروا ما علموا، فضلوا وخسروا؛ ذلك هو الخسران المبين.

الناصر:

ذكر الإمام الناصر بن الإمام الهادي (ت ٣٢٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[2]:

١. ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ يعني: يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم؛ لأن نعته معهم في التوراة، ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنهم كفروا به بعد المعرفة.

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[3]:

١. قيل: نزلت سورة الأنعام في محاجة أهل الشرك، إلا آيات نزلت في محاجة أهل الكتاب، إحداها هذه.

٢. جائز أن يكون أهل الشرك يعرفون أنه رسول كما يعرفون أبناءهم، ويكون الكتاب هو القرآن ـ هاهنا ـ لما قرع أسماعهم هذا القرآن، وأمروا أن يأتوا بمثله، فعجزوا عنه، وبما كانوا يختلفون إلى أهل الكتاب، ويسألونهم عن نعته وصفته، ويخبرونهم، فعرف أهل الشرك أنه رسول، كما عرف أهل الكتاب بوجود نعته وصفته في كتابهم.

٣. روي عن عمر بن الخطاب أنه قال لعبد الله بن سلام: إن الله قد أنزل على نبيه ﷺ بمكة: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾، فكيف يا عبد الله المعرفة؟ فقال عبد الله: يا عمر، لقد عرفته فيكم حين رأيته كما أعرف ابني إذا رأيته مع الصبيان يلعب، وأنا أشد معرفة بمُحَمَّد مني لابني، فقال:

(١) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/ ٣٧٣.
(٢) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/ ٣٧٤.
(٣) تأويلات أهل السنة: ٤/ ٤٣.

كيف ذلك؟ فقال: أنا أشهد أنه رسول الله حق من الله، ولا أدري ما صنع النساء، أو ما أحدث النساء، وقد نعت في كتابنا، فقال له عمر: صدقت وأصبت.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. معنى قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ أي الذين آتيناهم الكتاب يعرفون هذا القرآن كما يعرفون أولادهم، لأن الله ذكره في التوراة لهم، وبشرهم به على لسان نبيهم.

٢. ثم قال عز وجل: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني الذين يعرفون الكتاب مع ذلك ويخفونه، ثم يعادون مع ذلك رسول الله ويجحدونه.

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ يعني أصحاب الكتب من التوراةوالإنجيل وغيرها من كتب الله عز وجل ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ لأن صفته موجودة في كتبهم، وروينا أن ابن سلام سئل بعد إسلامه فقيل له: ما هذه المعرفة التي تعرفون بها النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم؟ قال والله لأنا به إذا رأيته أعرف منه بابني وهو يلعب مع الصبيان وإني لا أشك أنه محمد وأشهد أنه حق.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٣)]:

١. قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ فيه قولان:

أ. أحدهما: أنه التوراة والإنجيل، قاله الحسن، وقتادة، والسدي، وابن جريج.

ب. الثاني: أنه القرآن.

٢. ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ فيه قولان:

---

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/ ١٨٥.

(٢) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/ ٢٣٧.

(٣) تفسير الماوردي: ٢/ ١٠١.

أ. أحدهما: يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم، لأن صفته موجودة في كتابهم، قاله الحسن، وقتادة، ومن زعم أن الكتاب هو التوراة والإنجيل.

ب. الثاني: يعرفون الكتاب الدال على صفته، وصدقه، وصحة نبوته، وهذا قول من زعم أن الكتاب هو القرآن.

٣. وعنى بقوله: ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ تثبيتاً لصحة المعرفة، وحكى الكلبي والفراء: أن عمر بن الخطاب قال لعبد الله بن سلام حين أسلم: ما هذه المعرفة التي تعرفون بها محمداً ﷺ كما تعرفون أبناءكم؟ قال: والله لأنا به إذا رأيته أعرف مني بابني وهو يلعب مع الصبيان، لأني لا أشك أنه محمد، وأشهد أنه حق، ولست أدري ما صنع النساء في الابن.

٤. ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ فيه تأويلان:

أ. أحدهما: أنهم خسروا بالكفر منازلهم وأزواجهم في الجنة، لأنه ليس أحد من مؤمن ولا كافر إلا وله منازل وأزواج، فإن أسلموا كانت لهم، وإن كفروا كانت لمن آمن من أهلهم، وهو معنى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١١]، قاله الفراء.

ب. الثاني: معناه غبنوها فأهلكوها بالكفر والتكذيب، ومنه قول الأعشى:

لا يأخذ الرِّشْوَةَ في حُكْمِهِ ... ولا يُبالي خُسْرَ الخاسر

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ رفع بالابتداء، وقوله: ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ خبر، وقوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أيضا رفع، ويحتمل رفعه وجهين: أحدهما: أن يكون نعتاً لـ (الذين) الأولى، ويحتمل أن يكون رفعا على الابتداء وخبره ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، فإن حملته على النعت كان المعني به أهل الكتاب وإن حملته على الابتداء يتناول جميع الكفار.

٢. قال بعض المفسرين: ما من كافر إلا وله منزلة في الجنة وأزواج فإن أسلم وسعد صار إلى منزله

(١) تفسير الطوسي: ٤/ ٩٥.

وأزواجه، وإن كفر صار منزله وأزواجه إلى من أسلم، فذلك قوله: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

٣. ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ هذه الآية لا بد أن تكون مخصوصة بجماعة من أهل الكتاب، وهم الذين عرفوا التوراة والإنجيل فعرفوا صحة نبوة محمد ﷺ بما كانوا عرفوه من صفاته المذكورة، ودلائله الموجودة في هذين الكتابين كما عرفوا أبناءهم في أنها صحيحة لا مرية فيها ولم يرد أنهم عرفوا بنبوته اضطراراً، كما عرفوا أبناءهم ضرورة على أن أحدا لا يعرف أن من ولد على فراشه ابنه على الحقيقة، لأنه يجوز أن يكون من غيره، وإن حكم بأنه ولده لكونه مولوداً على فراشه، فصار معرفتهم بالنبي ﷺ آكد من معرفتهم بابنائهم لهذا المعني، ولم يكن جميع أهل الكتاب كذلك، فلذلك خصصنا الآية.

٤. سؤال وإشكال: كيف يصح ـ على مذهبكم في الموافاة ـ أن يكونوا عارفين بالله، وبنبيه ثم يموتون على الكفر!؟ والجواب: عنه جوابان:

أ. أحدهما: أن لا يكونوا عارفين بذلك بل يكونوا معتقدين اعتقاد تقليد، ويعتقدون مع ذلك أنهم عالمون به، فقال الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ في اعتقادهم، لا أنهم يعرفونه على الحقيقة كما قال: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ يعني عند نفسك، وقومك.

ب. الثاني: أن يكونوا عرفوا ذلك على وجه لا يستحق به الثواب، لأنهم يكونون نظروا في الأدلة لا لوجه وجوب ذلك عليهم، فولد ذلك المعرفة لكن لا يستحق بها الثواب، وقد بينا مثل ذلك في عدة مواضع فيما مضى فسقط السؤال.

٥. ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ يعني بكفرهم بمحمد ﷺ على وجه المعاندة ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وخسرانهم أنفسهم إهلاكهم لها بهذا الكفر، وتصييرهم لها إلى أن لا ينتفعون بها، ومن جعل نفسه بحيث لا ينتفع بها فقد خسر نفسه.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/ ٥١٠.

١. المعرفة والدراية والعلم نظائر، وحَدُّ المعرفة ما يوجب سكون النفس إلى ما يعتقده، وسمي عرفات؛ لأن جبريل قال لإبراهيم لما أراه المناسك: (عرفت عرفت)، فسمى اليوم: عرفة، والمكان: عرفات، وقيل: إن آدم وحواء التقيا به وتعارفا.

٢. اختلف في سبب نزول الآية الكريمة:

أ. قيل: نزلت الآية في المشركين، عن الأصم.

ب. وقيل: نزلت في أهل الكتاب.

ج. وقيل: لما قدم النبي ﷺ المدينة قال عمر لعبد الله بن سلام: إن الله تعالى أنزل ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ فكيف هذه المعرفة؟ فقال: يا عمر قد عرفته حين رأيته كما أعرف ابني، ولأنا أشد معرفة بمحمد مني بابني؛ لأن الله تعالى بعثه في كتابنا، عن الكلبي.

٣. مما ذكر في علاقة الآية الكريمة بما قبلها:

أ. قيل: لما تقدم وصف الكفار بين عقيبه أنهم معاندون في حججه، عن أبي مسلم.

ب. وقيل: اتصل بما قبله اتصال المعنى؛ إذ قال إنه شاهد بصحة أمره وكل من نظر واستدل.

ج. وقيل: اتصال تصنيف أهل الذم؛ لأنهم بين جاهل ومعاند، عن علي بن عيسى.

٤. ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ﴾ أعطيناهم ﴿الْكِتَابِ﴾:

أ. التوراة والإنجيل، وهم اليهود والنصارى، ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ يعني يعلمون النبي، ﷺ، وأنه نبي بما يجدونه مكتوبًا عندهم من صفته، عن الحسن وقتادة وابن جريج والسدي.

ب. وقيل: الكتاب القرآن، يعني أن المستدل به يعرف صحته فيشهدون له بما يعرفون.

ج. وقيل: يعرفون محمدا ونبوته، عن الحسن وقتادة والزجاج وأبي علي.

د. وقيل: يعرفون الكتاب وما يدل عليه.

٥. ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ يعني يعرفون صحته من غير شك كما يعرفون أبناءهم من غير شك، والمراد مَن انتسب إليه، ووُلد على فراشه، وإنما جمع بينهما في المعرفة واليقين، وإن كان أحدهما ضروريا، والآخر مكتسبًا تشبيهًا به في سكون النفس، كما يقال: بينت لك كالشمس.

٦. ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا﴾ أي أهلكوا ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾ بالكفر ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وقيل: خسروا لأنه لا

مكلف إلا وله موضع في الجنة وموضع في النار، فإذا آمن واحد وكفر آخر أعطى المؤمن المكانين في الجنة، والكافر المكانين في النار.

٧. تدل الآية الكريمة على:

أ. صحة المحاجة في الدين؛ لأنه تعالى أمر نبيه أن يحاجهم.

ب. أن في أهل الكتاب من هو معاند، وأنه عارف صحة نبوة محمد، ﷺ.

ج. أن المعارف مكتسبة؛ لذلك خص هَؤُلَاءِ الجماعة بأنهم يعرفون، ولو كان ضروريا لا يتخصص كالمشاهدات ونحوها.

د. أن فِعْلَهم حادث من جهتهم.

هـ. أن معرفتهم به لا تخرجهم من أن يكونوا من أهل الكتاب، كما لا تخرجهم من أنْ يكونوا من أهل الشرك.

٨. عامل الإعراب في قوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا﴾:

أ. قيل: هو صفة الَّذِينَ الأولى: فيكون عاملهما واحدًا، فيكون على وعيد المعاندين الَّذِينَ يعرفون ويجحدون.

ب. وقيل: ابتداء، وخبره ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فمحله رفع، والمعنى على وعيد الجاهل والمعاند، ذكر الوجهين الزجاج في الإعراب.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ذكر سبحانه أن الكفار بين جاهل ومعاند فقال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾: وهذا مفسر في سورة البقرة ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مفسر في هذه السورة، فإن حملته على أنه صفة للذين الأولى، فالمعني به أهل الكتاب، وإن حملته على الابتداء، فإنه يتناول جميع الكفار.

---

(١) تفسير الطبرسي: ٤/ ١٨.

٢. قال أبو حمزة الثمالي: لما قدم النبي ﷺ المدينة، قال عمر لعبد الله بن سلام: إن الله تعالى أنزل على نبيه ﷺ إن أهل الكتاب ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾، كيف هذه المعرفة؟ قال عبد الله بن سلام: نعرف نبي الله بالنعت الذي نعته الله إذا رأيناه فيكم، كما يعرف أحدنا ابنه إذا رآه بين الغلمان، وأيم الله الذي يحلف به ابن سلام، لأنا بمحمد أشد معرفة مني بابني! فقال له: كيف؟ قال عبد الله: عرفته بما نعته الله لنا في كتابنا، فأشهد أنه هو، فأما ابني فإني لا أدري ما أحدثت أمه، فقال: قد وفقت، وصدقت، وأصبت.

٣. مسائل لغوية ونحوية:

أ. ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ رفع بالابتداء، و﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ خبره.

ب. ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ رفع بكونه نعتا ﴿لِلَّذِينَ﴾ الأولى، ويجوز أن يكون رفعا بالابتداء.

ج. قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خبره.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. في الكتاب في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ قولان:

أ. أحدهما: أنّه التّوراة والإنجيل؛ وهذا قول الجمهور.

ب. الثاني: أنّه القرآن.

٢. في هاء ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: أنّها ترجع إلى النّبيّ ﷺ، قاله السّدّيّ، وروي عن عمر بن الخطّاب أنّه قال لعبد الله بن سلام: إنّ الله قد أنزل على نبيّه بمكّة ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾، فكيف هذه المعرفة؟ فقال: لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابني، ولأنا أشدّ معرفة بمحمّد ﷺ منّي بابني، فقال عمر: وكيف ذاك؟ فقال: إنّي أشهد أنه رسول الله حقا، ولا أدري ما يصنع النساء.

ب. الثاني: أنّها ترجع إلى الدّين والنّبي، فالمعنى: يعرفون الإسلام أنّه دين الله عزّ وجلّ، وأنّ محمدا رسول الله، قاله قتادة.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٢/ ١٦.

ج. الثالث: أنّها ترجع إلى القرآن، فالمعنى: يعرفون الكتاب الدال على صدقه؛ ذكره الماوردي.

٣. في ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ قولان:

أ. أحدهما: أنّهم مشركو مكّة.

ب. الثاني: كفّار أهل الكتابين.

الرّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. روينا في الآية السابقة: أن الكفار سألوا اليهود والنصارى عن صفة محمد ﷺ فأنكروا دلالة التوراة والإنجيل على نبوّته، فبيّن الله تعالى فيها: أن شهادة الله على صحة نبوّته كافية في ثبوتها وتحققها، ثم بيّن في هذه الآية أنهم كذبوا في قولهم أنا لا نعرف محمدا ﷺ، لأنهم يعرفونه بالنبوّة والرسالة كما يعرفون أبناءهم لما روي أنه لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قال عمر لعبد الله بن سلام: أنزل الله على نبيّه هذه الآية فكيف هذه المعرفة، فقال: يا عمر لقد عرفته فيكم حين رأيته كما أعرف ابني ولأنا أشد معرفة بمحمد مني يا بني لأني لا أدري ما صنع النساء وأشهد أنه حق من الله تعالى.

٢. سؤال وإشكال: ظاهر هذه الآية يقتضي أن يكون علمهم بنبوّة محمد ﷺ مثل علمهم بأبنائهم وفيه سؤال وهو أن يقال: المكتوب في التوراة والإنجيل مجرد أنه سيخرج نبي في آخر الزمان يدعو الخلق إلى الدين الحق، أو المكتوب فيه هذا المعنى مع تعين الزمان والمكان والنسب والصفة والحلية والشكل، فإن كان الأول فذلك القدر لا يدل على أن ذلك الشخص هو محمد ﷺ، فكيف يصح أن يقال: علمهم بنبوّته مثل علمهم بنبوّة أبنائهم، وإن كان الثاني وجب أن يكون جميع اليهود والنصارى عالمين بالضرورة من التوراة والإنجيل بكون محمد ﷺ نبيا من عند الله تعالى، والكذب على الجمع العظيم لا يجوز لأنا نعلم بالضرورة أن التوراة والإنجيل ما كانا مشتملين على هذه التفاصيل التامة الكاملة، لأن هذا التفصيل إما أن يقال: إنه كان باقيا في التوراة والإنجيل حال ظهور الرسول ﷺ أو يقال: إنه ما بقيت هذه التفاصيل في التوراة والإنجيل في وقت ظهوره لأجل أن التحريف قد تطرف إليهما قبل ذلك، والأول باطل لأن إخفاء

---

(١) التفسير الكبير: ١٢/ ٥٠١.

مثل هذه التفاصيل التامة في كتاب وصل إلى أهل الشرق والغرب ممتنع، والثاني أيضا باطل، لأن على هذا التقدير لم يكن يهود ذلك الزمان، ونصارى ذلك الزمان عالمين بنبوّة محمد ﷺ علمهم بنبوّة أبنائهم، وحينئذ يسقط هذا الكلام، والجواب[1]: عن الأول: أن يقال المراد بـ ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ اليهود والنصارى، وهم كانوا أهلا للنظر والاستدلال، وكانوا قد شاهدوا ظهور المعجزات على الرسول ﷺ، فعرفوا بواسطة تلك المعجزات كونه رسولا من عند الله، والمقصود من تشبيه إحدى المعرفتين بالمعرفة الثانية: هذا القدر الذي ذكرناه.

٣. في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قولان:

أ. الأول: أن قوله: ﴿الَّذِينَ﴾ صفة للذين الأولى، فيكون عاملها واحدا ويكون المقصود وعيد المعاندين الذين يعرفون ويجحدون.

ب. الثاني: أن قوله الذين خسروا أنفسهم ابتداء، وقوله: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خبره.

٤. في قوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا﴾ وجهان:

أ. الأول: أنهم خسروا أنفسهم بمعنى الهلاك الدائم الذي حصل لهم بسبب الكفر

ب. الثاني: جاء في التفسير أنه ليس من كافر ولا مؤمن إلا وله منزلة في الجنة، فمن كفر صارت منزلته إلى من أسلم فيكون قد خسر نفسه وأهله بأن ورث منزلته غيره.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[2]:

١. ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾، يريد اليهود والنصارى الذين عرفوا وعاندوا وقد تقدم معناه في البقرة)، و﴿الَّذِينَ﴾ في موضع رفع بالابتداء، ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ في موضع الخبر:

أ. أي يعرفون النبي ﷺ، عن الحسن وقتادة، وهو قول الزجاج.

ب. وقيل: يعود على الكتاب، أي يعرفونه على ما يدل عليه، أي على الصفة التي هو بها من دلالته على صحة أمر النبي ﷺ وآله.

---

(١) اكتفى هنا بالجواب المختصر العام

(٢) تفسير القرطبي: ٦/ ٤٠٠.

٢. ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ في موضع النعت، ويجوز أن يكون مبتدأ وخبره ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ الكتاب: للجنس فيشمل التوراة والإنجيل وغيرهما؛ أي يعرفون رسول الله ﷺ، قال به جماعة من السلف، وإليه ذهب الزجاج؛ وقيل: إن الضمير يرجع إلى الكتاب: أي يعرفونه معرفة محققة بحيث لا يلتبس عليهم منه شيء.

٢. ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ بيان لتحقق تلك المعرفة وكمالها وعدم وجود شك فيها، فإن معرفة الآباء للأبناء هي البالغة إلى غاية الإتقان إجمالا وتفصيلا.

٣. ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ في محل رفع على الابتداء، وخبره ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ودخول الفاء في الخبر لتضمن المبتدأ معنى الشرط؛ وقيل: إن الموصول خبر مبتدأ محذوف؛ وقيل: هو نعت للموصول الأوّل، وعلى الوجهين الأخيرين يكون ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ معطوفا على جملة ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾، والمعنى على الوجه الأوّل: أن الكفار الخاسرين لأنفسهم بعنادهم وتمرّدهم لا يؤمنون بما جاء به رسول الله ﷺ، وعلى الوجهين الأخيرين: أن أولئك الذين آتاهم الله الكتاب هم الذين خسروا أنفسهم بسبب ما وقعوا فيه من البعد عن الحقّ وعدم العمل بالمعرفة التي ثبتت لهم، فهم لا يؤمنون.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. سبب النزول: لَمَّا أنكر اليهود والنصارى أن يكون لِرَسُولِ الله ﷺ ذكرٌ أو وصفٌ في التوراة والإنجيل ولا غيرهما بالنبوءة وأنكروه، نزلت الآية الكريمة.

٢. ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ أي: يعرفون رسول الله ﷺ في التوراة والإنجيل بأسمائه وصفاته ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُم﴾ أنّهم أبناؤهم بمعاينة الولادة، أو المعاشرة والشبه بهم، ولَمَّا قدم رسول الله ﷺ المدينة قال عمر لعبد الله بن سلَام : أنزل الله هذه الآية، فما هذه المعرفة؟ فقال: يا عمر لقد عرفتُه فيكم

---

(١) فتح القدير: ٢/ ١٢١.

(٢) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/ ٢٢٢.

حين رأيتُه كما أعرف ابني، ولأَنَا أَشَدُّ معرفة بمحمَّد ﷺ منِّي بابني؛ لأنِّي لا أدري ما صنعت النساء - ويروى: (ما أحدثت أمُّه)، ويروى: (ما فعلت اليهوديَّة) - وأشهد أنَّه حقٌّ مرسل من الله تعالى.

٣. يجوز عود هاء (يَعْرِفُونَهُ) للقرآن لتقدُّم ذكره، وعودها للتوحيد المعلوم من قبل، فيكون فيه تعريض بشرك أهل الكتاب، بإنكار نبوءة رسول الله ﷺ وإنكار القرآن، كما أشركت النصارى بالمسيح وأمِّه، واليهود بعزير وغير ذلك، وعودها إلى كتابهم، أو إلى ذلك كُلِّه بتأويل ما ذكر، والمتبادر ما مَرَّ أوَّلاً، ولا سيما أنَّ تشبيه الإنسان بالإنسان أولى من تشبيه غير الإنسان بالإنسان.

٤. ﴿الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ﴾ من أهل الكتاب وغيرهم، مبتدأٌ خبرُه قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُومِنُونَ﴾، زيد فيه الفاء لشبه (الذين) باسم الشرط؛ أو نعت لـ (الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ)؛ أو يقدَّر: هم الذين، أو أَذُمُّ الذين؛ وعلى الثلاثة الأخيرة الفاء عاطفة على الجملة الاسميَّة قبلُ، ولا سببيَّة في الفاء، وهو قليل، وإن عطفنا على (خَسِرَ) فوجه السببيَّة أنَّ (خَسِرُوا) بمعنى: ضيَّعوا النظر بعقولهم، أو: قضي عليهم بتضييع ما لهم في الجنَّة، فانتفى إيمانهم، وهذا الوجه هو وجه السببيَّة فيما إذا جعلنا الجملة خبرًا لـ (الذِينَ)

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ يعني: اليهود والنصارى ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ أي: يعرفون رسول الله ﷺ بحليته ونعته الثابت في الكتابين ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ بحلاهم ونعوتهم، لا يخفون عليهم، ولا يلتبسون بغيرهم:

أ. قال المهايمي: لأنه ﷺ ذكر في الكتاب نعته، وهو، وإن لم يفد تعيّنه باللون والشكل والزمان والمكان، تعيّن بقرائن المعجزات، فبقاء الاحتمال البعيد فيه، كبقائه في الولد، بأنه يمكن أن يكون غير ما ولدته امرأته، أو يكون من الفجور، مع دلالة القرائن على براءتها من التزوير والفجور، فهو، كما يعرفون أبناءهم في ارتفاع الاحتمال البعيد بالقرائن على براءتها.

ب. قال الزمخشري: وهذا استشهاد لأهل مكة بمعرفة أهل الكتاب، وبصحة نبوّته.

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/ ٣٣٢.

٢. ثم بيّن تعالى أن إنكاره خسران لما عرفوه، ولما أمروا بالتدين به بقوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: من المشركين ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: بهذا الأمر الجليّ الظاهر الذي بشرت به الأنبياء، وتوهّت به، لأنه مطبوع على قلوبهم.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. روي أن قريشا أرسلت إلى المدينة من سأل اليهود عن النبي ﷺ ورجعوا إلى مكة فزعموا أن اليهود قالوا: ليس له عندنا ذكر، فلما صار لهم عهد باليهود كان مما رد الله تعالى به عليهم في هذه السورة قوله بعد ما تقدم من الحجج: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ أي يعرفون محمدا النبي الأمي خاتم الرسل ﷺ كما يعرفون أبناءهم لأن نعته في كتبهم واضح ظاهر، وقد تقدم نص هذه الجملة في سورة البقرة كآيات أخرى في معناها وبينا في تفسيرها ما يؤيدها من شواهد التوراة والإنجيل.

٢. ثم بين تعالى علة إنكار المكابرين منهم لما يعرفونه من أمر نبوته ﷺ فقال: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قيل: إن (الذين) هنا بيان للذين الأولى أو بدل منها ويجوز أن يكون مبتدأ، أي الذين خسروا أنفسهم منهم فهم لا يؤمنون به بل يكفرون كبرا وعنادا فهم لذلك ينكرون ما يعرفون، وقد بينا قريبا معنى هذه الجملة إذ وردت بنصها في الآية الثانية عشرة من هذه السورة وموقعها هنا أن علة إنكار من أنكر نبوة محمد ﷺ من علماء اليهود كعلة إنكار من أنكرها من المشركين بعد ظهور آياتها وأنكر ما هو أعظم منها وأظهر وهو وحدانية الله تعالى، وهي أنهم خسروا أنفسهم فهم يؤثرون ما لهم من الجاه والمكانة والرياسة في قومهم على الإيمان بالرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم، لعلمهم بأن هذا الإيمان يسلبهم تلك الرياسة ويجعلهم مساوين لسائر المسلمين في جميع الأحكام، وكذلك كان بعض رؤساء قريش يعز عليه أن يؤمن فيكون مرءوسا وتابعا (ليتيم أبي طالب) فكيف وهو يكون بعد ذلك مساويا لبلال الحبشي وصهيب الرومي وغيرهم من فقراء المسلمين فخسران هؤلاء الذين نزلت فيهم هذه الآية لأنفسهم هو من قبيل ضعف الإرادة لا من نوع فقد العلم والمعرفة لأن الله تعالى أخبر أنهم على معرفة

---

(١) تفسير المنار: ٧/ ٢٨٦

صحيحة في هذا الباب، وروي أن خسران النفس هنا عبارة عن خسرانها في الآخرة فقط بخسران أمكنتهم التي كانت معدة لهم في الجنة لو آمنوا بالرسول وإعطائها للمؤمنين.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١ . بين سبحانه في الآية السابقة أن شهادة الله على صحة نبوة رسوله كافية في تحققها، وذكر هنا كذبهم في ادعائهم أنهم لا يعرفون محمدا ﷺ فهم يعرفون نبوته ورسالته كما يعرفون أبناءهم، روي أن الكفار سألوا اليهود والنصارى عن صفة محمد ﷺ فأنكروا أن في التوراة والإنجيل شيئا يدل على نبوته، وروي أنه لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قال عمر لعبد الله بن سلام: أنزل الله على نبيه هذه الآية فكيف هذه المعرفة؟ قال يا عمر: لقد عرفته فيكم حين رأيته كما أعرف ابني، ولأنا أشد معرفة بمحمد منّى بابني، لأنى لا أدرى ما صنع النساء، وأشهد أنه حق من الله.

٢ . ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ أي إن اليهود والنصارى يعرفون أن محمدا النبي الأمي خاتم الرسل كما يعرفون أبناءهم، لأن نعته في كتبهم واضح ظاهر فلا يشكون فيه على حال.

٣. ثم بين السبب في إنكار هؤلاء المنكرين فقال: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي إن علة إنكار من أنكروا نبوة محمد ﷺ من علماء اليهود كعلة من أنكروا ذلك من المشركين بعد ظهور آياتها، بل أنكروا ما هو أظهر منها وهي وحدانية الله تعالى ـ أنهم خسروا أنفسهم فهم يؤثرون ما لهم من الجاه والمكانة والرئاسة في قومهم على الإيمان بالرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم، علما منهم بأنهم إذا آمنوا سلبوا الرئاسة، وجعلوا مساوين لسائر المسلمين في سائر الأحكام والمعاملات، وكذلك كان بعض رؤساء قريش يعزّ عليه أن يؤمن فيكون تابعا ومرؤوسا ويكون مثله مثل بلال الحبشي وصهيب الرومي وغيرهما من فقراء المسلمين، فهؤلاء الذين نزلت فيهم هذه الآية خسروا أنفسهم لضعف إرادتهم لا لفقدان العلم والمعرفة، لأن الله أخبر عنهم أنهم على علم ومعرفة.

---

(١) تفسير المراغي ٧/ ٩٥.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. هذه الجولة ـ أو هذه الموجة ـ عودة إلى مواجهة المشركين المكذبين بالقرآن الكريم، المكذبين بالبعث والآخرة.. ولكنها لا تواجههم بتصوير تعنتهم وعنادهم؛ ولا تواجههم بمصارع الغابرين من المكذبين من أسلافهم ـ كما سبق في سياق السورة ـ إنما تواجههم بمصيرهم في يوم البعث الذي يكذبون به؛ وبجزائهم في الآخرة التي ينكرونها.. تواجههم بهذا الجزاء وبذلك المصير في مشاهد حية شاخصة.. تواجههم به وهم محشورون جميعا، مسئولون سؤال التبكيت والتأنيب، وسؤال التشهير والتعجيب: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ وهم في رعب وفزع، وفي تضعضع وذهول يقسمون بالله ويعترفون له وحده بالربوبية: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾!.. وتواجههم به وهم موقوفون على النار، محبوسون عليها، وهم في رعب وفزع، وفي ندم وحسرة يقولون: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾!.. وتواجههم به وهم موقوفون على ربهم، وهم يتذاوبون من الخجل والندم، ومن الروع والهول؛ وهو ـ جل جلاله ـ يسألهم سبحانه: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ فيجيبون في استخذاء وتذاؤب: (بلى وربنا)، فلا يجديهم هذا الاعتراف شيئا: ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، ويواجهون به وهم قد خسروا أنفسهم وخسروا كل شيء إذن؛ وجاءوا يحملون أوزارهم على ظهورهم؛ وهم يجأرون بالحسرة على تفريطهم في الآخرة، وأخذهم للصفقة الخاسرة! مشهد وراء مشهد، وكل مشهد يزلزل القلوب، ويخلخل المفاصل، ويهز الكيان، ويفتح العين والقلب ـ عند من يشاء الله أن يفتح عينه وقلبه ـ على الحق الذي يواجههم به رسول الله ﷺ ـ والكتاب الذي يكذبون به؛ بينما الذين أوتوا الكتاب من قبلهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم! ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

٢. لقد تكرر في القرآن الكريم ذكر معرفة أهل الكتاب ـ وهم اليهود والنصارى ـ لهذا القرآن؛ أو لصحة رسالة محمد ﷺ وتنزيل هذا القرآن عليه من عند الله.. تكرر ذكر هذه الحقيقة سواء في مواجهة أهل الكتاب أنفسهم، عندما كانوا يقفون من النبي ﷺ ومن هذا الدين وقفة المعارضة والإنكار والحرب

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/ ١٠٦١.

والعداء (وكان هذا غالبا في المدينة) أو في مواجهة المشركين من العرب؛ لتعريفهم أن أهل الكتاب، الذين يعرفون طبيعة الوحي والكتب السماوية، يعرفون هذا القرآن، ويعرفون صدق رسول الله ﷺ في أنه وحي أوحى به ربه إليه كما أوحى إلى الرسل من قبله.

٣. وهذه الآية ـ كما رجحنا ـ مكية، وذكر أهل الكتاب فيها على هذا النحو ـ إذن ـ يفيد أنها كانت مواجهة للمشركين بأن هذا القرآن الذي ينكرونه، يعرفه أهل الكتاب كما يعرفون أبناءهم؛ وإذا كانت كثرتهم لم تؤمن به فذلك لأنهم خسروا أنفسهم، فهم لا يؤمنون، شأنهم في هذا شأن المشركين، الذين خسروا أنفسهم، فلم يدخلوا في هذا الدين! والسياق قبل هذه الآية وبعدها كله عن المشركين، مما يرجح مكيتها كما قلنا من قبل في التعريف بالسورة..

٤. وقد جرى المفسرون على تفسير مثل هذا التقرير: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾، على أنهم يعرفون أنه منزل من عند الله حقا؛ أو على أن النبي ﷺ رسول من عند الله حقا، يوحى إليه بهذا القرآن، وهذا جانب من مدلول النص فعلا، ولكنا نلمح ـ باستصحاب الواقع التاريخي وموقف أهل الكتاب من هذا الدين فيه ـ أن هناك جانبا آخر من مدلول النص؛ لعل الله سبحانه أراد أن يعلمه للجماعة المسلمة، ليستقر في وعيها على مدار التاريخ، وهي تواجه أهل الكتاب بهذا الدين.. إن أهل الكتاب يعرفون أن هذا الكتاب حق من عند الله؛ ويعرفون ـ من ثم ـ ما فيه من سلطان وقوة؛ ومن خير وصلاح؛ ومن طاقة دافعة للأمة التي تدين بالعقيدة التي جاء بها؛ وبالأخلاق التي تنبثق منها؛ وبالنظام الذي يقوم عليها، ويحسبون كل حساب لهذا الكتاب وأهله؛ ويعلمون جيدا أن الأرض لا تسعهم وتسع أهل الدين!.. إنهم يعرفون ما فيه من حق، ويعرفون ما هم فيه من باطل.. ويعرفون أن الجاهلية التي صاروا إليها، وصارت إليها أوضاع قومهم وأخلاقهم وأنظمتهم، لا يمكن أن يهادنها هذا الدين، أو يبقي عليها.. وأنها ـ من ثم ـ معركة لا تهدأ حتى تجلو الجاهلية عن هذه الأرض، ويستعلي هذا الدين، ويكون الدين كله للهّ.. أي أن يكون السلطان في الأرض كله للهّ؛ وأن يطارد المعتدون على سلطان الله في الأرض كلها، وبذلك وحده يكون الدين كله للهّ..

٥. إن أهل الكتاب يعلمون جيدا هذه الحقيقة في هذا الدين.. ويعرفونه بها كما يعرفون أبناءهم.. وهم جيلا بعد جيل يدرسون هذا الدين دراسة دقيقة عميقة؛ وينقبون عن أسرار قوته؛ وعن مداخله إلى

النفوس ومساربه فيها؛ ويبحثون بجد: كيف يستطيعون أن يفسدوا القوة الموجهة في هذا الدين؟ كيف يلقون بالريب والشكوك في قلوب أهله؟ كيف يحرفون الكلم فيه عن مواضعه؟ كيف يصدون أهله عن العلم الحقيقي به؟ كيف يحولونه من حركة دافعة تحطم الباطل والجاهلية وتسترد سلطان الله في الأرض وتطارد المعتدين على هذا السلطان، وتجعل الدين كله لله.. إلى حركة ثقافية باردة، وإلى بحوث نظرية ميتة، وإلى جدل لاهوتي أو فقهي أو طائفي فارغ؟ كيف يفرغون مفهوماته في أوضاع وأنظمة وتصورات غريبة عنه مدمرة له، مع إيهام أهله أن عقيدتهم محترمة مصونة!؟ كيف في النهاية يملئون فراغ العقيدة بتصورات أخرى ومفهومات أخرى واهتمامات أخرى، ليجهزوا على الجذور العاطفية الباقية من العقيدة الباهتة!؟

٦. إن أهل الكتاب يدرسون هذا الدين دراسة جادة عميقة فاحصة؛ لا لأنهم يبحثون عن الحقيقة ـ كما يتوهم السذج من أهل هذا الدين! ـ ولا لينصفوا هذا الدين وأصله ـ كما يتصور بعض المخدوعين حينما يرون اعترافا من باحث أو مستشرق بجانب طيب في هذا الدين! ـ كلا! إنما هم يقومون بهذه الدراسة الجادة العميقة الفاحصة، لأنهم يبحثون عن مقتل لهذا الدين! لأنهم يبحثون عن منافذه ومساربه إلى الفطرة ليسدوها أو يميعوها! لأنهم يبحثون عن أسرار قوته ليقاوموه منها! لأنهم يريدون أن يعرفوا كيف يبني نفسه في النفوس ليبنوا على غراره التصورات المضادة التي يريدون ملء فراغ الناس بها! وهم من أجل هذه الأهداف والملابسات كلها يعرفونه كما يعرفون أبناءهم! ومن واجبنا نحن أن نعرف ذلك.. وأن نعرف معه أننا نحن الأولى بأن نعرف ديننا كما نعرف أبناءنا!

٧. إن الواقع التاريخي من خلال أربعة عشر قرنا ينطق بحقيقة واحدة.. هي هذه الحقيقة التي يقررها القرآن الكريم في هذه الآية: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾، ولكن هذه الحقيقة تتضح في هذه الفترة وتتجلى بصورة خاصة.. إن البحوث التي تكتب عن الإسلام في هذه الفترة تصدر بمعدل كتاب كل أسبوع؛ بلغة من اللغات الأجنبية.. وتنطق هذه البحوث بمدى معرفة أهل الكتاب بكل صغيرة وكبيرة عن طبيعة هذا الدين وتاريخه، ومصادر قوته، ووسائل مقاومته، وطرق إفساد توجيهه! ومعظمهم ـ بطبيعة الحال ـ لا يفصح عن نيته هذه؛ فهم يعلمون أن الهجوم الصريح على هذا الدين كان يثير حماسة الدفاع والمقاومة؛ وأن الحركات التي قامت لطرد الهجوم المسلح على هذا الدين ـ الممثل في الاستعمار ـ إنما كانت ترتكز على قاعدة من الوعي الديني أو على الأقل العاطفة الدينية؛ وأن

استمرار الهجوم على الإسلام - ولو في الصورة الفكرية - سيظل يثير حماسة الدفاع والمقاومة! لذلك يلجأ معظمهم إلى طريقة أخبث.. يلجأ إلى إزجاء الثناء لهذا الدين، حتى ينوم المشاعر المتوفزة، ويخدر الحماسة المتحفزة، وينال ثقة القارئ واطمئنانه.. ثم يضع السم في الكأس ويقدمها مترعة.. هذا الدين نعم عظيم.. ولكنه ينبغي أن يتطور بمفهوماته ويتطور كذلك بتنظيماته ليجاري الحضارة (الإنسانية) الحديثة! وينبغي ألا يقف موقف المعارضة للتطورات التي وقعت في أوضاع المجتمع، وفي أشكال الحكم، وفي قيم الأخلاق! وينبغي - في النهاية - أن يتمثل في صورة عقيدة في القلوب، ويدع الحياة الواقعية تنظمها نظريات وتجارب وأساليب الحضارة (الإنسانية) الحديثة! ويقف فقط ليبارك ما تقرره الأرباب الأرضية من هذه التجارب والأساليب.. وبذلك يظل دينا عظيما..! وفي أثناء عرض مواضع القوة والعمق في هذا الدين - وهي ظاهريا تبدو في صورة الإنصاف الخادع والثناء المخدر - يقصد المؤلف قومه من أهل الكتاب؛ لينبههم إلى خطورة هذا الدين، وإلى أسرار قوته؛ ويسير أمام الأجهزة المدمرة بهذا الضوء الكشاف، ليسددوا ضرباتهم على الهدف، وليعرفوا هذا الدين كما يعرفون أبناءهم! إن أسرار هذا القرآن ستظل تتكشف لأصحابه؛ جديدة دائما؛ كلما عاشوا في ظلاله؛ وهم يخوضون معركة العقيدة؛ ويتدبرون بوعي أحداث التاريخ؛ ويطالعون بوعي أحداث الحاضر، ويرون بنور الله، الذي يكشف الحق، وينير الطريق..

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ هو استدعاء لأهل الكتاب، من اليهود والنصارى، لأخذ شهادتهم في هذا الكتاب الذي بين يدىّ النبيّ والذي يواجه به المشركين من العرب، فيلقونه بالتكذيب والاستهزاء.. وأهل الكتاب هؤلاء يعرفون صدق الرسول، وصدق ما جاء به، معرفة محققة مستيقنة، كما يعرفون أبناءهم، حيث لا تختلط على أحدهم وجوه أبنائه بغيرهم.. ولو أنهم كانوا مؤمنين بالله، وبالكتاب الذي معهم، لآمنوا بمحمد وبالكتاب الذي معه، ولكنهم كتموا شهادة الحقّ.. بغيا وحسدا.. فخرسوا، ولم ينطقوا، أو نطقوا كذبا وبهتانا..

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/ ١٤٨.

٢. إنهم ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالرسول وبما معه من كلمات الله، ولا يؤمنون بكتابهم الذي في أيديهم، وذلك خسران بعد خسران، وضلال فوق ضلال.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمُ﴾، الذين آتاهم الله الكتاب هم اليهود والنصارى، وضمير يعرفونه عائد إلى محمد ﷺ، والآية تجابه علماء أهل الكتاب بأنهم يعرفون خاتم الأنبياء حق المعرفة، تماما كما يعرفون أبناءهم، ولكنهم يكتمون ما يعرفون وقد تكرر هذا المعنى في العديد من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، وقوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾، ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ﴾

٢. وليس من الضروري ليعرف أهل الكتاب صدق محمد ﷺ أن يجدوا اسمه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل.. فكل من درس الإسلام دراسة جادة وفاحصة يؤمن إيمانا لا يشوبه ريب بأنه الحق والصدق، وانهما جوهر الإسلام وركيزته وهدفه من كلمة لا إِلهَ إِلَّا اللهُ التي تعني المساواة بين الناس إلى تقييم الإنسان على أساس العمل والإخلاص، لا على أساس المال والجاه والنسب، ومن التكافل الاجتماعي ومسؤولية كل راع عن رعيته إلى دعوة الأمن والسلام، والتقدم والرخاء، إلى ما لا نهاية.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ جملة مستأنفة انتقل بها أسلوب الكلام من مخاطبة الله المشركين على لسان الرسول ﷺ إلى إخبار عامّ كسائر أخبار القرآن، أظهر الله دليلا على صدق الرسول فيما جاء به بعد شهادة الله تعالى التي في قوله: ﴿قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩]، فإنّه لمّا جاء ذكر القرآن هنالك وقع هذا الانتقال للاستشهاد على

---

(١) التفسير الكاشف: ٣/ ١٧٢.

(٢) التحرير والتنوير: ٦/ ٤٩.

صدق القرآن المتضمّن صدق من جاء به، لأنّه هو الآية المعجزة العامّة الدائمة.

٢. وقد علمت آنفا أنّ الواحدي ذكر أنّ رؤساء المشركين قالوا للنبي ﷺ قد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس عندهم ذكرك ولا صفتك إلى آخره؛ فإذا كان كذلك كان التعرّض لأهل الكتاب هنا إبطالا لما قالوه أنّه ليس عندهم ذكر النبي ولا صفته، أي فهم وأنتم سواء في جحد الحقّ، وإن لم تجعل الآية مشيرة إلى ما ذكر في أسباب النزول تعيّن أن تجعل المراد بـ ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ بعض أهل الكتاب، وهم المنصفون منهم مثل عبد الله بن سلام ومخيريق، فقد كان المشركون يقدرون أهل الكتاب ويثقون بعلمهم وربما اتّبع بعض المشركين دين أهل الكتاب وأقلعوا عن الشرك مثل ورقة بن نوفل، فلذلك كانت شهادتهم في معرفة صحّة الدين موثوقا بها عندهم إذا أدّوها ولم يكتموها، وفيه تسجيل على أهل الكتاب بوجوب أداء هذه الشهادة إلى الناس.

٣. فالضمير المنصوب في قوله: ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ عائد إلى القرآن الذي في قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ [الأنعام: ١٩]، والمراد أنّهم يعرفون أنّه من عند الله ويعرفون ما تضمّنه ممّا أخبرت به كتبهم، ومن ذلك رسالة من جاء به، وهو محمد ﷺ، لما في كتبهم من البشارة به، والمراد بالذين أوتوا الكتاب علماء اليهود والنصارى كقوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣]

٤. والتشبيه في قوله: ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ تشبيه المعرفة بالمعرفة، فوجه الشبه هو التحقّق والجزم بأنّه هو الكتاب الموعود به، وإنّما جعلت المعرفة المشبّه بها هي معرفة أبنائهم لأن المرء لا يضلّ عن معرفة شخص ابنه وذاته إذا لقيه وأنّه هو ابنه المعروف، وذلك لكثرة ملازمة الأبناء آباءهم عرفا، وقيل: إنّ ضمير ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ عائد إلى التوحيد المأخوذ من قوله: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [الأنعام: ١٩] وهذا بعيد، وقيل: الضمير عائد إلى النبي ﷺ مع أنّه لم يجر له ذكر فيما تقدّم صريحا ولا تأويلا، ويقتضي أن يكون المخاطب غير الرسول ﷺ وهو غير مناسب على أنّ في عوده إلى القرآن غنية عن ذلك مع زيادة إثباته بالحجّة وهي القرآن.

٥. ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ استئناف لزيادة إيضاح تصلّب المشركين وإصرارهم، فهم المراد بالذين خسروا أنفسهم كما أريدوا بنظيره السابق الواقع بعد قوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء: ٨٧]، فهذا من التكرير للتسجيل وإقامة الحجّة وقطع المعذرة، وأنّهم

مصرّون على الكفر حتى ولو شهد بصدق الرسول أهل الكتاب، كقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [الأحقاف: ١٠]، وقيل: أريد بهم أهل الكتاب، أي الذين كتموا الشهادة، فيكون ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا﴾ بدلا من ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾، الذين آتاهم الله سبحانه وتعالى الكتاب هم اليهود والنصارى أوتوا التوراة والإنجيل، وهم بما عندهم من الأخبار والأنباء عن المرسلين يعرفون محمدا ﷺ ورسالته، وبعثه وصفته ومهجره، ويؤمنون بالله تعالى ويوحدونه، ولا يشركون، يعرفون هذه الحقائق كما يعرفون أبناءهم الذين هم من أصلابهم فهو عندهم بمرتبة اليقين، وقد وردت الآثار بذلك، ويروى في ذلك أن كفار مكة قالوا للنبي ﷺ: ما نرى أحدا يصدقك فيما تقول، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أنه ليس لك عندهم ذكر فأرنا من يشهد أنك رسول الله، وروى ابن جرير بسنده عن ابن عباس أنه قال جاء النحال بن زيد وقردم بن كعب فقالوا: يا محمد! ما نعلم مع الله إلها غيره، فقال رسول الله ﷺ: (لا إله إلا الله تعالى، بهذا بعثت وإلى ذلك أدعو)، فهذا النص الكريم ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ شهادة ثابتة بعد شهادة الله تعالى التي حكاها النبي ﷺ عنه جل جلاله، وبعد شهادته ﷺ، وهي شهادة النبيين السالفين أجمعين.

٢. سؤال وإشكال: الضمير في ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ على من يعود؟ والجواب: قال الأكثرون من المفسرين: إنه يعود إلى النبي ﷺ، ويؤيد ذلك سبب النزول المذكور أولا، وهو المروى عن النبي ﷺ عن طريق الكلبى، وهو يؤيد الوحدانية ويؤكد الشهادة بها من قبل تأييد النبي ﷺ في صدق رسالته، وجوز ابن جرير الطبري عودة الضمير على الله تعالى، ويؤيده أنه أقرب ظاهر مذكور في الآية، كما يؤيده رواية ابن عباس في شهادة أهل الكتاب الذين شهدوا بالتوحيد، وهو ظاهر، وإن كان لا يظفر بالكثرة التي يظفر بها الرأي الأول.

٣. ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، ختم الله تعالى النص ببيان خسارتهم لأنفسهم،

(١) زهرة التفاسير: ٥/ ٢٤٦٦.

وإركاسهم أنفسهم في الفساد، ويترتب فقد الإيمان وعلى هذه الخسارة الفادحة التي فقدوا بها أنفسهم كأناس لهم إدراك وفهم في ربط للمسببات المنطقية باسمها، وإن المشركين كانوا يؤيدون نحلتهم بتكاثر معتنقيها، فذكر لهم القرآن الكريم أن الله تعالى يشهد ببطلان كلامهم وقام الدليل على صدق شهادة الله ـ تعالى ـ بالكتاب الموحى به، والذى قام الدليل على صدقه بالتحدى به، وعجزهم عن أن يأتوا بمثله، وشهادة النبي ﷺ وقد علموا أنه الصادق الأمين وإن لجّ قادتهم في الخصومة حتى فجروا فيها، وشهدت الكتب السابقة والذين يعتنقون ما فيها، فلماذا يكذّبون ويشركون فماذا بعد الحق إلا الضلال، وأي خسارة نفسية أكثر من الفجر في الخصومة، واللجاجة في البهتان حتى أصبحوا لا يتصور الإيمان منهم.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ وهذا إخبار عما شهد به الله سبحانه في الكتب المنزلة على أهل الكتاب، وعلمه علماء أهل الكتاب مما عندهم من كتب الأنبياء من البشارة بعد البشارة بالنبي ﷺ ووصفه بما لا يعتريه شك ولا يطرأ عليه ريب، فهم بما استحضروا من نعته ﷺ يعرفونه بعينه كما يعرفون أبناءهم، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ الله وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]

٢. ولما كان بعض علمائهم يكتمون ما عندهم من بشاراته ونعوته ﷺ ويستنكفون عن الإيمان به بين الله تعالى خسرانهم في أمرهم فقال: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

٣. تقدم بعض الكلام في تفسير نظيرة الآية من سورة البقرة (آية ١٤٦) وبينا هناك وجه الالتفات من الحضور إلى الغيبة وسيأتي تمام الكلام في سورة الأعراف (آية ١٥٦) إن شاء الله تعالى.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٧/ ٤١.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. هل كان أهل الكتاب يجهلون النبي محمد ﷺ ليحتاجوا في معرفة نبوته إلى برهان، وليثيروا حوله جدلا عقيما يتناوله كإنسان، ويتناول صفته كرسول وموقعه كداعية إلى الله؟ إن القرآن ينفي ذلك، لأن التوراة تحدثت عن صفاته، والتاريخ الذي يتداولونه كان يؤكد لهم ظهوره أو خروجه للأجيال اللاحقة، ولهذا كانوا يستفتحون به على الكافرين قبل ظهور أمره.

٢. ويثير القرآن القضية على أساس وضوحها الكامل الذي يجعل من الاقتناع بها أمرا غير قابل للجدل، فأهل الكتاب يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم من حيث الذات والصفة، فلذلك لا يمكن لمن يحترم نفسه منهم إلا أن يعرفه كما يعرف أولاده: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

٣. ولكنهم لم يلتقوا مع أنفسهم في خطّ هذا الوضوح المشرق للحقيقة، بل ركنوا إلى العقد النفسية المظلمة التي تحكّمت في داخلهم على أساس الأطماع والشهوات، وبذلك خسروا أنفسهم، لأن قضية الربح والخسارة في الحياة لا تخضع لمقاييس الامتيازات الذاتية الطارئة التي تذوب وتزول فيما يذهب من أوضاع الحياة الفانية، لأنها لا تمثّل هدفا للحياة بقدر ما تمثل حاجات عادية لها، ولهذا، فإنها لا تصل إلى مستوى القيمة التي يضع الإنسان نفسه في موازينها، بل إن قضية الربح والخسارة تحددها المبادئ الأساسية التي تحكم مسيرة الحياة في جوانبها المادية والمعنوية، وتمثل ـ في طبيعتها ـ حركة الرسالة، فتفتح للإنسان، نافذة على الدنيا المسؤولة من جهة، ونافذة على الآخرة المطمئنة من جهة أخرى، وهذا ما عبّر عنه القرآن في دعوته الحاسمة في قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]

٤. ولن يحصل الإنسان على ذلك كله إلا بالإيمان بالله، الذي هو بداية كل خير، ومنطلق كل صلاح وإصلاح، والمنهج الذي يجمع له الدنيا والآخرة في ميزان واحد، من دون أن يطغى جانب منه على جانب، لأن ذلك هو معنى التوازن في إنسانية الإنسان وواقعية الحياة، ولهذا فرّع القرآن عدم الإيمان على

---

(١) من وحي القرآن: ٩/ ٥٥.

الخسارة، أو اعتبره مظهرا لها، فإذا فقد الإيمان فقد النور الذي يشرق في فكره وقلبه، والهدى الذي يفتح عيونه على الصراط المستقيم، والنهج الصالح الذي يخطط له الحاضر والمستقبل، وهكذا كان الموقف المتعنّت لهؤلاء فيما رفضوه من حقيقة المعرفة للرسول خسارة لهم في داخل حياتهم وخارجها، لما تمثله خسارة الإيمان من ضلال وضياع في ظلمات التيه.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١ . ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ يعرفون (القرآن) أنه من الله أوحاه إلي، أو يعرفون أنه أوحي إلي هذا القرآن ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ تحقيق للمعرفة التي في قلوبهم، قال الشرفي في (المصابيح): قال المرتضى عليه السلام: (الذين أوتوا الكتاب فهم اليهود والنصارى، وهم يعرفون محمداً ﷺ، ويثبتون صفته، ويقفون على صحة أمره وما أمروا به من طاعته كما يعرفون أبنائهم مشروحٌ ذلك في كتبهم مبيَّنٌ لهم، ولكن جحدوا ما عرفوا، وأنكروا ما علموا فضلوا وخسروا، ذلك هو الخسران المبين)

٢ . عبر عنهم سبحانه وتعالى بقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ لأن الكتاب الذي آتاهم الله ـ جلَّ جلاله ـ هو سبب معرفتهم للرسول وما أنزل إليه أنه من الله تعالى، ويظهر أن القرآن يجعل القرآن والرسول كالشيء الواحد؛ لأن الإيمان بأن القرآن أوحاه الله إلى محمد يستلزم الإيمان بأن محمداً رسول الله، ولعله هو السر في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ﴾ [الطلاق:١٠ ـ ١١]، وفي (سورة البقرة): ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾قيل كانوا يستفتحون يطلبون الفتح من الله أي الحكم بينهم وبين الذين كفروا بالنبي الذي يتوقع ظهوره، وفي آية في (سورة البقرة): ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [آية:١٠١] وكتاب الله هنا: (التوراة) أو (الإنجيل) أو هما، كأنهم لا يعلمون ما في كتاب الله وما في نبذه وراء ظهورهم، فهي كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة:٨٩]، وإذا جعلنا الضمير في قوله تعالى:

(١) التيسير في التفسير: ٢/ ٤٢٤.

﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ لإيحاء القرآن إلى محمد ﷺ فلا التفات فيه، أما إذا جعلناه للرسول ففيه التفات من التكلم إلى الغيبة أو من الخطاب إلى الغيبة، لابتداء الكلام بقوله تعالى: ﴿قُلِ اللهُ شَهِيدٌ﴾ وهذا أظهر.

٣. ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ حقت على أنفسهم كلمة العذاب؛ لأنهم ﴿نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الحشر:١٩] ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم قد خذلوا وسلطت عليهم الشياطين وكرهوا الحق وكرهوا النظر النافع وأعرضوا، فصار بينهم وبين الإيمان مسافات بعيدة، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ [الزمر:١٩] فخسارتهم أنفسهم فسادها ومصيرها بحيث لا تصلح أبداً وحقت عليها كلمة العذاب، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا﴾ الراجح: أنه خبر لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ والمراد به: كفارهم المعاندون.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. أمّا الذين قالوا: إنّ أهل الكتاب لم يشهدوا لنبي الإسلام ﷺ، فإنّ الآية التي بعدها ترد عليهم وتقول: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ أي أن معرفتهم به لا تقتصر على مبدأ ظهوره ودعوته فحسب، بل إنّهم يعرفون حتى التفاصيل والخصائص وعلاماته الدقيقة أيضا، وعليه، إذ قال جمع من أهل مكّة: إنّهم رجعوا إلى أهل الكتاب فلم يجدوا عندهم علما بالنّبي، فإنّهم إمّا أن يكونوا قد كذبوا ولم يتحققوا من الأمر، أو أنّ أهل الكتاب قد أخفوا عنهم الحقائق ولم يطلعوهم عليها، وهذا الكتمان تشير إليه آيات أخرى من القرآن (لمزيد من التوضيح انظر المجلد الأوّل من هذا التّفسير في ذيل الآية من سورة البقرة)

٢. والآية تعلن في آخر مقاطعها النتيجة النهائية: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي أنّ الذين لا يؤمنون بالنّبي ـ مع كل ما تحيطه من دلائل وعلامات واضحة ـ هم فقط أولئك الذين خسروا كل شيء في تجارة الحياة.

---

(١) تفسير الأمثل: ٤/ ٢٣٩.

١٢. المفترون الكذب على الله ومصيرهم

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [١٢] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢١ ـ ٢٤]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

علي:

روي عن الإمام علي (ت ٤٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. عن أبي معمر السعدي، قال: أتى الإمام علي رجل فقال: يا أمير المؤمنين، إني شككت في كتاب الله المنزل، فقال له علي عليه السلام: (ثكلتك أمك، وكيف شككت في كتاب الله المنزل؟) فقال له الرجل: لأني وجدت الكتاب يكذب بعضه بعضا، وينقض بعضه بعضا، فقال: (هات الذي شككت فيه؟)، فقال: لأن الله يقول: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ ويقول حيث استنطقوا، قال الله: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ويقول: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ ويقول: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ ويقول: لا ﴿تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ ويقول: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فمرة يتكلمون، ومرة لا يتكلمون، ومرة ينطق الجلود والأيدي والأرجل، ومرة لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا، فأنى ذلك يا أمير المؤمنين؟فقال له علي عليه السلام: إن ذلك ليس في موطن واحد، وهي في مواطن في ذلك اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة، فجمع الله الخلائق في ذلك اليوم في موطن يتعارفون فيه، فيكلم بعضهم بعضا، ويستغفر بعضهم لبعض، أولئك الذين بدت منهم الطاعة من الرسل والاتباع، وتعاونوا على البر والتقوى في دار الدنيا، ويلعن أهل المعاصي بعضهم بعضا من الذين بدت منهم المعاصي وتعاونوا على الظلم والعدوان في دار الدنيا، والمستكبرون منهم والمستضعفون يلعن بعضهم بعضا ويكفر بعضهم بعضا، ثم

يجمعون في موطن يفر بعضهم من بعض، وذلك قوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ إذا تعاونوا على الظلم والعدوان في دار الدنيا ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾، ثم يجمعون في موطن يبكون فيه، فلو أن تلك الأصوات بدت لأهل الدنيا لأذهلت جميع الخلائق عن معايشهم، وصدعت الجبال، إلا ما شاء الله، فلا يزالون يبكون حتى يبكون الدم، ثم يجتمعون في موطن يستنطقون فيه، فيقولون ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ولا يقرون بما عملوا، فيختم على أفواههم وتستنطق الأيدي والأرجل والجلود، فتنطق، فتشهد بكل معصية بدت منهم، ثم يرفع عن ألسنتهم الختم، فيقولون لجلودهم وأيديهم وأرجلهم: ﴿لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ فتقول: ﴿أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، ثم يجمعون في موطن يستنطق فيه جميع الخلائق، فلا يتكلم أحد إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا، ويجتمعون في موطن يختصمون فيه، ويدان لبعض الخلائق من بعض، وهو القول، وذلك كله قبل الحساب، فإذا أخذ بالحساب، شغل كل امرئ بما لديه[1].

٢. عن سليم بن قيس الهلالي أنّه قال: قال الإمام علي: أما الفرقة المهدية المؤمنة، المسلمة الموفقة المرشدة، فهي المؤمنة بي، المسلمة لأمري، المطيعة لي، المتولية، المتبرئة من عدوي، المحبة لي، المبغضة لعدوي، التي قد عرفت حقي وإمامتي وفرض طاعتي من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، ولم ترتب، ولم تشك لما قد نور الله في قلوبها من معرفة حقنا، وعرفها من فضلنا، وألهمها، وأخذ بنواصيها فأدخلها في شيعتنا حتى اطمأنت قلوبها واستيقنت يقينا لا يخالطه شك أن الأوصياء بعدي إلى يوم القيامة هداة مهتدون، الذين قرنهم الله بنفسه ونبيه في آي من القرآن كثيرة، وطهرنا، وعصمنا، وجعلنا الشهداء على خلقه، وحجته في أرضه وخزانه على علمه، ومعادن حكمه وتراجمة وحيه، وجعلنا مع القرآن والقرآن معنا، لا نفارقه ولا يفارقنا حتى نردعلى رسول الله ﷺ حوضه، كما قال ﷺ، فتلك الفرقة الواحدة من الثلاث والسبعين فرقة، هي الناجية من النار ومن جميع الفتن والضلالات والشبهات، وهم من أهل الجنة حقا، وهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب، وجميع تلك الفرق الاثنين والسبعين فرقة هم المتدينون بغير الحق، الناصرون لدين الشيطان، الآخذون عن إبليس وأوليائه، هم أعداء الله تعالى، وأعداء رسوله، وأعداء المؤمنين،

---

(١) تفسير العيّاشي ١/ ٣٥٧.

يدخلون النار بغير حساب، برآء من الله ورسوله، ونسوا الله ورسوله، وأشركوا بالله ورسوله، وكفروا به وعبدوا غير الله من حيث لا يعلمون، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، يقولون يوم القيامة: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾[1].

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾، معذرتهم[2].

٢. روي أنّه قال: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾، قولهم[3].

٣. روي أنّه قال: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ الآية، فهو كلامهم، قالوا: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[4].

٤. روي أنّه قال: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾، حجتهم[5].

٥. روي أنّه قال: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ يعني: المنافقين المشركين، وإنما سمّاهم الله منافقين لأنهم كتموا الشرك، وأظهروا الإيمان، فقالوا وهم في النار: هلموا فلنكذب هاهنا فلعله أن ينفعنا كما نفعنا في الدنيا، فإنا كذبنا في الدنيا فنفعنا، حقنا دماءنا وأموالنا، فقالوا: يا ربنا ما كنا مشركين[6].

٦. روي أنّه قال: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، ثم قال: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢] بجوارحهم[7].

٧. روي أنّه قال: قال الله: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ في القيامة، ﴿مَا كَانُوا

---

(١) تفسير العيّاشي ١/ ٣٥٧.
(٢) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٧٣.
(٣) ابن جرير ٩/ ١٩١.
(٤) ابن جرير ٩/ ١٩١.
(٥) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٧٣.
(٦) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٧٤.
(٧) ابن جرير ٩/ ١٩٤.

﴿يَفْتَرُونَ﴾ يكذبون في الدنيا[1].

بن جبير:

روي عن سعيد بن جبير (ت ٩٥ هـ) أنّه قال: قوله تعالى: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، لمّا أمر بإخراج رجال من النار من أهل التوحيد قال من فيها من المشركين: تعالوا نقل: لا إله إلا الله، لعلّنا نخرج مع هؤلاء، قال فلم يصدّقوا، قال فحلفوا: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، قال فقال الله: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[2].

عكرمة:

روي عن عكرمة (ت ١٠٥ هـ) أنّه قال: قال النّضر ـ وهو من بني عبد الدار ـ: إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزّى، فأنزل الله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[3].

الضحاك:

روي عن الضحاك بن مزاحم (ت ١٠٢ هـ) أنّه قال: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾، يعني: كلامهم[4].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قول أهل الشرك حين رأوا الذنوب تغفر؛ ولا يغفر الله لمشرك، ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ بتكذيب الله إيّاهم[5].

٢. عن سليمان بن مهران الأعمش أنّه قال: سمعتهم يذكرون عن مجاهد: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾، قال الحشر: الموت[6].

---

(١) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٧٥.

(٢) ابن جرير ٩/ ١٩١.

(٣) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٧٣.

(٤) ابن جرير ٩/ ١٩١.

(٥) تفسير مجاهد، ص ٣٢٠.

(٦) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٧٣.

الباقر:

روي عن الإمام الباقر (ت ١١٤ هـ) أنّه قال: قوله عز وجل: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ يعنون بولاية علي عليه السلام[١].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾، مقالتهم[٢].

٢. روي أنّه قال: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ اعتذارهم بالباطل والكذب[٣].

٣. روي أنّه قال: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ باعتذارهم بالباطل والكذب، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ما كانوا يشركون به[٤].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) أنّه قال: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ معناه معذرتهم[٥].

عطاء:

روي عن عطاء بن دينار (ت ١٢٦ هـ) أنّه قال: أمّا ﴿لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ فلم تكن بليّتهم حين ابتلوا ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[٦].

الصادق:

روي عن الإمام الصادق (ت ١٤٨ هـ) أنّه قال: إن الله يعفو يوم القيامة عفوا لا يخطر على بال

---

(١) الكافي ٨/ ٢٨٧.

(٢) عبد الرزاق ٢/ ٢٠٦.

(٣) ابن جرير ٩/ ١٩١.

(٤) ابن جرير ٩/ ١٩٥.

(٥) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٣.

(٦) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٧٣.

أحد، حتى يقول أهل الشرك ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[1].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ يقول: فلا أحد أظلم ﴿مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ بأنّ معه شريكا، لقولهم: إنّ مع الله آلهة أخرى، ثم قال: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ يعني: بالقرآن أنّه ليس من الله، ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ يعني: المشركين في الآخرة، يعيبهم، نظيرها في يونس[2].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾، وذلك أنّ المشركين في الآخرة لما رأوا كيف يتجاوز الله عن أهل التوحيد؛ فقال بعضهم لبعض: إذا سئلنا قولوا: كنّا موحّدين، فلمّا جمعهم الله وشركاءهم قال لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ في الدنيا بأنّ مع الله شريكا؟[3].

٣. روي أنّه قال: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ يعني: معذرتهم إلا الكذب حين سئلوا، فتبرءوا من ذلك، فقالوا: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[4].

٤. روي أنّه قال: قال الله: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ في الآخرة ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من الشرك في الدنيا، فختم على ألسنتهم، وشهدت الجوارح بالكذب عليهم والشرك[5].

المرتضى:

ذكر الإمام المرتضى بن الهادي (ت ٣١٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[6]:

١. ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ معنى قوله عز وجل: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمْ﴾: تبكيت لهم وتقريع، وإذلال عندما تنقطع بهم الأسباب، ويعاينوا ما كذبوا به من أليم العذاب؛ لأنهم كانوا يساوون الله عز وجل بخلقه، ويعبدون الأصنام، ويوقدون النيران،

---

(١) تفسير العيّاشي ١/ ٣٥٧.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٤.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٥.

(٤) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٥.

(٥) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٥.

(٦) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/ ٣٧٤.

ويرون ذلك عندهم حسنا جائزا.. ومن الشركاء أيضا: طاعة الجبارين، الظلمة المتمردين، فيشركونهم ويجعلون لهم من الطاعة ما لله عز وجل، فيبتغون منهم الرضا، ويتبعون في ذلك الغي والهوى، ويتركون عيانا رشدهم، مصدقون لهم في كفرهم، مستمعون من كلامهم، حتى ضلوا وهلكوا، وعن سبيل الحق يقينا عدلوا، فأصبحوا من المعذبين، وعن الله سبحانه من الهالكين.

٢. ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣]، فيقولون عندما يرون العذاب: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ [الأحزاب:٦٧]، وقالوا: ﴿رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ [فصلت:٢٩]، وكل ذلك ندم وأسف على ما فاتهم من التعلق بالحق، والميل في طريق الصدق، بغرور ما كانوا يعبدون، وخديعة ما كانوا يطيعون.

٣. وأما قولهم: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]، فإنما ذلك كذب منهم، وكلام عند معاينة العذاب، يرجون به ما لا ينالون، جهلا منهم وإيقانا بالعذاب، وتقطعا من الأسباب؛ لقبيح ما عاينوا في الآخرة من المآب، جهنم يصلونها فبئس المهاد.

الناصر:

ذكر الإمام الناصر بن الإمام الهادي (ت ٣٢٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾، والفتنة تخرج في كتاب الله جل ثناؤه على عشرة وجوه في القرآن:

أ. الأول: يعني به الشرك، وذلك قوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ للهِ﴾ [البقرة:١٩٣]، نظيرها في الأنفال حيث يقول: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، يقول: حتى لا يكون شرك ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، وقال سبحانه في البقرة: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾، يعني: الشرك بالله أعظم جرما عند الله من القتل في الشهر الحرام، ونحوه كثير.

ب. الثاني: فتنة يعني بها الكفر، وذلك قوله عز وجل في آل عمران: ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾، يعني: الكفر، وكقوله سبحانه: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾، يعني: الكفر، وكقوله تبارك اسمه في سورة النور: ﴿فَلْيَحْذَرِ

(١) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/ ٣٧٥.

الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾، يعني: كفرا، وكقوله عز وجل في سورة الحديد: ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾، يقول: كفرتم وشبهتم على أنفسكم، وكذلك كل فتنة في المنافقين واليهود.

ج. الثالث: يعني به: بلاء، وهو المحنة، فذلك قوله تبارك وتعالى في العنكبوت: ﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، يعني: ولقد ابتلينا الذين من قبلهم، وقال لموسى صلى الله عليه: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾، يعني: ابتليناك؛ لأن الله عز وجل لا يفتن نبيه، وإنما يريد بالفتنة للنبي صلى الله عليه: المحنة، وفي حم الدخان: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، يعني: ولقد امتحنا الذين من قبلهم، يعني: قوم فرعون.

د. الرابع: يعني به: العذاب، وذلك قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ﴾ يعني: جعل عذاب الناس في الدنيا كعذاب الله في الآخرة، نزلت في عباس بن ربيعة، أخي أبي جهل لعنه الله؛ الآية نظيرها في النحل، حيث يقول: ﴿ثم إن ربك للذين هاجروا من بعدما فتنوا﴾، يعني: من بعد ما عذبوا في الدنيا.

هـ. الخامس: يعني به: الإحراق بالنار في الدنيا، فذلك قوله في السماء ذات البروج: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، يعني: الذين حرقوا المؤمنين والمؤمنات في الدنيا، وقال في سورة الذاريات: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾، يعني: يعذبون ويحرقون بالنار في الآخرة، ﴿ذوقوا فتنكم﴾، يعني: حريقكم بالنار؛ والآخرة ليس فيها فتن مثل فتن الدنيا، وهذا دليل لمن عقل.

و. السادس: يعني به القتل، وذلك قوله سبحانه في سورة النساء: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، يقول: إن خفتم أن يقتلكم الذين كفروا، وكقوله في سورة يونس صلى الله عليه: ﴿على خوف من فرعون وملائه أن يفتنهم﴾، أي: يقتلهم.

ز. السابع: الصد، وذلك قوله في سورة المائدة: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ﴾، يقول: أن يصدوك عن بعض ما أنزل الله إليك، وقال في سورة بني إسرائيل: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، يعني: ليصدونك.

ح. الثامن: يعني به الضلالة، فذلك قوله عز وجل في سورة الصافات: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ﴾، يعني: ما أنتم عليه بمضلين من أحد، ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾، يعني: إلا من

عمل عملا يصلى به الجحيم، وقال في سورة المائدة: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ﴾، يقول: من يرد الله ضلالته ﴿فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾، والله عز وجل لا يضل به إلا من استحق الضلال، وذلك قوله عز وجل: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾، وقوله: ﴿وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ﴾، ويخرج الضلال على: الحكم والتسمية، لا على الجبر والقسر.

ط. التاسع: يعني به المعذرة، وذلك قوله عز وجل في سورة الإنعام: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾، يعني: ثم لم تكن معذرتهم، ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾

ي. العاشر: قوله عز وجل في الأعراف: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾، يقول: إن هي إلا محنتك.

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ قال أهل التأويل: لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبا، لكن هذا ـ في الحقيقة ـ كأنه سؤال واستفهام؛ كأنه قال من أظلم من الظالمين، قال من افترى على الله كذبًا، يقال: من فعل هذا؟ قال فلان، أو من قال هذا؟ قال فلان، فهو ـ والله أعلم ـ على السؤال والاستفهام، ثم قيل الذين افتروا على الله كذبًا: إن معه شريكًا كقولهم: إن مع الله آلهة أخرى.

٢. ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾:

أ. قيل: مُحَمَّد ﷺ.

ب. وقيل: القرآن.

٣. ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾:

أ. قال بعضهم: إنه لا يفلح الظالمون بظلمهم.

ب. لكن عندنا قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ ما داموا في ظلمهم.

ج. أو نقول: لا يفلح الظالمون إذا ختموا وماتوا على الظلم والكفر.

---

(١) تأويلات أهل السنة: ٤/ ٤٤.

٤. ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾، المطيع والعاصي، والكافر والمؤمن، ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، ذكر ـ هاهنا ـ شركاءهم، أضاف ذلك إليهم؛ لأنهم كانوا من جنسهم وجوهرهم، يفنون كما يفنون هم، وذكر في آية أخرى: ﴿شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، أنهم شركائي.

٥. ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾:

أ. قال الحسن: الآية نزلت في المنافقين، وذلك أنهم كانوا يكذبون في الدنيا فيما بينهم، فظنوا أن يتروج كذبهم في الآخرة كما كان يتروج في الدنيا، وسماهم مشركين؛ لأنهم كانوا مشركين لأنهم أشركوا في السر، فقالوا: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

ب. وقال غيره من أهل التأويل: الآية نزلت في أهل الشرك من العرب؛ وذلك أنهم كانوا يشركون مع الله آلهة، وكانوا ينكرون البعث بعد الموت، وينكرون الرسالة، فلما أن عاينوا ذلك أنكروا أن يكونوا أشركوا غيره في ألوهيته وربوبيته.

٦. ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾، أي: لم يكن افتتانهم في الدنيا بافترائهم على الله الكذب وإشراك غيره معه، وتكذيبهم آيات الله، إلا أن قالوا في الآخرة: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

٧. وذكر في بعض القصة أن المشركين في الآخرة لما رأوا كيف يتجاوز الله عن أهل التوحيد، قال بعضهم لبعض: إذا سئلنا فقولوا: إنا كنا موحدين، فلما جمعهم الله وشركاءهم فقال: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ في الدنيا بأنهم معي شريك.

٨. ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾، قال أهل التأويل: معذرتهم وجوابهم إلا الكذب حين سئلوا فقالوا: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ تبرءوا من ذلك.

٩. ثم قال الله: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ في الآخرة، ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾: من الشرك في الدنيا، وقيل: لما أنكروا أن يكونوا مشركين في الدنيا ختم الله على ألسنتهم، وشهدت الجوارح عليهم بالشرك، وقيل: انظر كيف كذبوا على أنفسهم، يقول: كيف صار وبال كذبهم عليهم!؟.

١٠. ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ قيل: واشتغل عنهم، ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يقول: يكذبون، وأصله: أنه يذكر نبيه شدة تعنتهم وسفههم أنهم كيف يكذبون عند معاينة العذاب، فإذا كانوا بنأي منه وبعد كانوا أشدّ تكذيبا وأكثر تعنتًا؛ لأنهم يطلبون الرد إلى الدنيا بقولهم: ﴿فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾،

فقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١).:

١. معنى قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ هذا سؤال التقرير والتبكيت والتوبيخ والتوقيف والتعريف.

٢. ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ يريد عز وجل أن الشركاء لم تكن ضلاله لهم عن الصدف إلا بأن جحدوهم، وقالوا والله ربنا ما كنا مشركين.

٣. ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾، يريد اعلم وافهم كيف كذبوا على ﴿أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي وذهب عنهم الذي كانوا يخدعون، ويصنعون من المحال ويبتدعون.

الشريف المرتضى:

ذكر الشريف المرتضى (ت ٤٣٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(٢):

١. سؤال وإشكال: كيف يقع من أهل الآخرة نفي الشرك عن أنفسهم، والقسم بالله تعالى عليه وهم كاذبون في ذلك؛ مع أنّهم عندكم في تلك الحال لا يقع منهم شيء من القبيح لمعرفتهم بالله تعالى ضرورة؛ ولأنّهم ملجؤون هناك إلى ترك جميع القبائح، وكيف قال من بعد: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فشهد عليهم بالكذب؛ ثمّ علّقه بما لا يصحّ فيه معنى الكذب وهو التمنّي؛ لأنّهم تمنّوا ولم يخبروا!، والجواب:

أ. أوّل ما نقوله: إنّه ليس في ظاهر الآية ما يقتضي أنّ قولهم: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ إنّما وقع في الآخرة دون الدنيا؛ وإذا لم يكن ذلك في الظاهر جاز أن يكون الإخبار يتناول حال الدنيا، وسقطت المسألة؛ وليس لأحد أن يتعلّق في وقوع ذلك في الآخرة بقوله تعالى قبل الآية: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ وأنّه عقّب ذلك بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾؛ فيجب أن يكون الجميع مختصا بحال الآخرة؛ لأنّه لا يمنع أن يكون الآية تتناول ما يجرى في الآخرة، ثمّ تتلوها

---

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/ ١٨٦.

(٢) نفائس التأويل: ٢/ ٢٦١

آية تتناول ما يجرى في الدنيا؛ لأنّ مطابقة كل آية لما قبلها في مثل هذا غير واجبة، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ لا تدلّ أيضا على أنّ ذلك يكون واقعا بعد ما خبّر تعالى عنه في الآية الأولى؛ فكأنّه تعالى قال على هذا الوجه: إنّا نحشرهم في الآخرة ونقول: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون؟ وما كان فتنتهم وسبب ضلالهم في الدنيا إلّا قولهم: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

ب. وقد قيل في الآية ـ على تسليم أنّ هذا القول يقع منهم في الآخرة ـ: إنّ المراد به أنّا ما كنا عند نفوسنا وفي اعتقادنا مشركين؛ بل كنّا نعتقد أنّا على الحقّ والهدى، وقوله تعالى من بعد: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ لم يرد هذا الخبر الذي وقع منهم في الآخرة؛ بل إنّهم كذبوا على أنفسهم في دار الدنيا بإخبارهم أنّهم مصيبون محقّون غير مشركين؛ وليس في الظاهر إلّا أنّهم كذبوا على أنفسهم من غير تخصيص بوقت؛ فلم يحمل على آخرة دون دنيا.

ج. ولو كان للآية ظاهر يقتضي وقوع ذلك في الآخرة لحملناه على الدنيا؛ بدلالة أنّ أهل الآخرة لا يجوز أن يكذبوا لأنّهم ملجئون إلى ترك القبيح.

د. فأمّا قوله تعالى حاكيا عنهم: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فمن الناس من حمل الكلام كلّه على وجه التمني؛ فصرف قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ إلى غير الأمر الذي تمنّوه؛ لأن التمنّي لا يصحّ فيه معنى الصدق والكذب]؛ لأنّهما إنّما يدخلان في الأخبار المحضة؛ لأنّ قول القائل: ليت الله رزقني ولدا؛ وليت فلانا أعطاني مالا أفعل به كذا وكذا لا يكون كذبا ولا صدقا؛ وقع ما تمنّاه أو لم يقع؛ فيجوز على هذا أن يكون قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ مصروفا إلى حال الدنيا، كأنّه تعالى قال: وهم كاذبون فيما يخبرون به عن أنفسهم في الدنيا من الإضافة واعتقاد الحقّ؛ أو يريد أنّهم كاذبون أن خبّروا عن أنفسهم أنّهم متى ردّوا آمنوا ولم يكذبوا؛ وإن كان ما كان ممّا حكي عنهم من التمنّي ليس بخبر.

هـ. وقد يجوز أيضا أن يحمل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ على غير الكذب الحقيقيّ؛ بل يكون المراد والمعنى أنّهم تمنّوا ما لا سبيل إليه فكذب أملهم وتمنّيهم؛ وهذا مشهور في الكلام؛ لأنّهم يقولون لمن تمنى ما لا يدرك: كذب أملك، وأكدى رجاؤك؛ وما جرى مجرى ذلك؛ قال الشاعر:

كذبتم وبيت اللهّ لا تأخذونها   مراغمة ما دام للسّيف قائم

وقال آخر:

كذبتم وبيت اللهّ لا تنكحونها بنى شاب قرناها تصرّ وتحلب

ولم يرد الكذب في الأقوال؛ بل في التمنّي والأمل.

و. وليس لأحد أن يقول: كيف يجوز من أهل الآخرة مع معارفهم الضرورية، وأنّهم عارفون بأنّ الرجوع لا سبيل إليه أن يتمنّوه؛ وذلك أنّه غير ممتنع أن يتمنّى المتمنّي ما يعلم أنه لا يحصل ولا يقع؛ ولهذا يتعلّق التمني للشيء بألّا يكون ما قد كان. ولقوّة اختصاص التمنّي بما يعلم أنّه لا يكون غلط قوم فجعلوا إرادة ما علم المريد أنّه لا يكون تمنّيا؛ فهذا الذي ذكرناه وجه في تأويل الآية.

ز. وفي الناس من يجعل بعض الكلام تمنّيا وبعضه إخبارا، وعلّق تكذيبهم بالخبر دون ﴿لَيْتَنَا﴾ فكان تقدير الآية: يا ليتنا نرد ـ وهذا هو التمنّي ـ ثمّ قال من بعده: فإنّا ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فأخبروا بما علم اللهّ تعالى أنّهم فيه كاذبون؛ وإن لم يعلموا من أنفسهم مثل ذلك؛ فلهذا كذّبهم تعالى، وكلّ هذا واضح.

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ تبرأوا بذلك من شركهم.. فإن قيل: كيف كذبوا في الآخرة بجحود الشرك والآخرة لا يصح فيها الكذب لأمرين

أ. أحدهما: أن الكذب لا ينفعهم.

ب. الثاني: أنهم مصروفون عن القبائح ملجأون إلى تركها لإزالة التكليف عنهم ولو لم يلجأوا إلى ترك القبيح ويصرفوا عنه مع كمال عقولهم وجب تكليفهم وفي عدم تكليفهم دليل على إلجائهم إلى تركه.

٢. قيل: عن ذلك جوابان:

أ. أحدهما: أن قولهم: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ أي في الدنيا عند أنفسنا لاعتقادنا فيها أننا على الصواب وإن ظهر لنا خطأوه الآن فلم يكن ذلك منهم كذباً.

ب. وقيل: إن في الآخرة مواطن فموطن لا يعلمون ذلك فيه ولا يضطرون إليه وموطن يعلمون

---

(١) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/ ٢٣٧.

ذلك فيه ويضطرون إليه فقالوا ذلك في الموطن الأول.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ الآية، في الفتنة هنا ثلاثة أقاويل:

أ. أحدها: يعني معذرتهم، فسماها فتنة لحدوثها عن الفتنة، قاله قتادة.

ب. الثاني: عاقبة فتنتهم وهو شركهم.

ج. الثالث: يعني بَلِيَّتُهم التي ألزمتهم الحجة وزادتهم لائمة، قاله أبو عبيد القاسم بن سلام.

٢. ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ تبدأوا بذلك من شركهم.

٣. سؤال وإشكال: كيف كذبوا في الآخرة بجحود الشرك ولا يصح منهم الكذب في الآخرة لأمرين: أحدهما: أنه لا ينفعهم، والثاني: أنهم مصروفون عن القبائح ملجؤون إلى تركها لإزالة التكليف عنهم، ولو لم يلجؤوا إلى ترك القبيح ويصرفوا عنه مع كما عقولهم وجب تكليفهم ليقلعوا به عن القبيح، وفي عدم تكليفهم دليل على إلجائهم إلى تركه، والجواب: عن ذلك جوابان:

أ. أحدهما: أن قولهم ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ أي في الدنيا عند أنفسنا لاعتقادنا فيها أننا على صواب، وإن ظهر لنا خطؤه الآن، فلم يكن ذلك منهم كذباً، قاله قطرب.

ب. الثاني: أن الآخرة مواطن، فموطن لا يعلمون ذلك فيه ولا يضطرون إليه، وموطن يعلمون ذلك فيه ويضطرون إليه، فقالوا ذلك في الموطن الأول، قاله بعض متأخري المتكلمين، وهذا ليس بصحيح لأنه يقتضي أن يكونوا في الموطن الأول مكلفين لعدم الإلجاء والاضطرار، وفي الموطن الثاني غير مكلفين، وقد يعتل الجواب الأول بقوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ فأخبر عنهم بالكذب، وهم على الجواب الأول غير كاذبين.

ج. وقد أُجِيب عن هذا الاعتراض بجواب ثالث، وهو أنهم أنكروا بألسنتهم، فلما نطقت جوارحهم أقروا، وفي هذا الجواب دخل لأنه قد كذبوا نُطْقَ الجوارح.

---

(١) تفسير الماوردي: ٢/ ١٠٣.

٤. ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ فيه وجهان:

أ. أحدهما: بسوء كذبهم وجحودهم.

ب. الثاني: فضلت عنهم أوثانهم التي افتروا على الله بعبادتها، والافتراء: تحسين الكذب.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أخبر الله تعالى أن من افترى على الله الكذب فوصفه بخلاف صفاته، وأخبر عنه بخلاف ما أخبر به عن نفسه، وعن أفعاله أنه لا أحد أظلم لنفسه منه إذ كان بهذا الفعل قد أهلك نفسه وأوقعها في العذاب الدائم في النار، ثم أخبر أن الظالم لا يفلح أي لا يفوز برحمة الله وثوابه ورضوانه، ولا بالنجاة من النار، لأن الظلم ـ ها هنا ـ هو الكفر بنبوة محمد ﷺ وذلك لا يغفر بلا خلاف.

٢. قراءات ووجوه:

أ. ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ﴾ قرأ يعقوب (ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول) بالياء فيهما، الباقون بالنون فيهما من قرأ بالياء رده إلى الله تعالى في قوله: ﴿عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ وتقديره: يوم يحشرهم الله فيقول، ومن قرأ بالنون ابتدأ، وتقدير الآية اذكر يوم نحشرهم جميعا، يعني يوم القيامة، لأنهم يحشرون فيه جميعا من قبورهم إلى موضع الحساب، وأنه يقول ـ للذين أشركوا بالله، وعبدوا معه إلهاً غيره ـ في هذا اليوم: أين الذين كنتم تزعمون أنهم شركائي!؟ وأين شركائي في زعمكم!؟ وإنما يقول هذا توبيخا لهم وتبكيتا على ما كانوا يدعون أنهم يعبدونه من الأصنام والأوثان، ويعتقدون أنها شركاء لله، وأنها تشفع لهم، يوم القيامة، فإذا لم يجدوا لما كانوا يدعونه صحة، ولم ينتفعوا بهذه الأوثان ولا بعبادتهم، فيعلمون أنهم كانوا كاذبين في أقوالهم.

ب. ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي والعليمي، ويعقوب (ثم لم يكن) بالياء، الباقون بالتاء، وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وحفص الا ابن شاهين (فتنتهم) بالرفع، والباقون بالنصب.. من قرأ

(١) تفسير الطوسي: ٤/ ٩٧.

بالتاء ورفع الفتنة أثبت علامة التأنيث، وتكون (أن) في موضع نصب، وتقديره ثم لم تكن فتنتهم إلا قولهم، وقد روى شبل عن ابن كثير (تكن) بالتاء (فتنتهم) نصباً مثل قراءة نافع وأبي عمرو عن عاصم، ووجهه أنه أنَّث (أن قالوا) لما كان الفتنة في المعنى، كما قال: ﴿فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ فأنَّث لما كانت الأمثال في المعنى الحسنات، ومثله كثير في الشعر، قال أبو علي والأول أجود من حيث كان الكلام محمولا على اللفظ، ويقوي قراءة من قرأ: (فتنتهم) بالنصب أن قوله: (أن قالوا) أن يكون الاسم دون الخبر أولى لأن (أن) إذا وصلت لم توصف، فأشبهت بامتناع وصفها المضمر، فكما أن المضمر إذا كان مع المظهر كان (أن يكون) الاسم أحسن، كذلك إذا كانت (أن) مع اسم غيرها كانت (أن يكون) الاسم أولى.

ج. قرأ حمزة والكسائي وخلف (والله ربنا) بنصب الباء، والباقون بكسرها.. ومن قرأ (والله ربنا) ـ بكسر الباء ـ فعلى جعل الاسم المضاف وصفاً للمفرد، لأن قوله: (والله) جر بواو القسم، ولو أسقطت لقال: (الله) بالنصب ومثله قولهم: رأيت زيداً صاحبنا وبكرا جارك، ويكون قوله: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ جواب القسم، ومن نصب الباء يحتمل أمرين: أحدهما: أن ينصبه بفعل مقدر، وتقديره: أعني ربنا، والثاني: على النداء، ويكون قد فصل بالاسم المنادي بين القسم والمقسم عليه بالنداء، وذلك غير ممتنع، لأن النداء كثير في الكلام، وقد حال الفصل بين الفعل ومفعوله في قوله: ﴿إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾، والمعنى آتيتهم أموالا ليضلوا ولا يؤمنوا وقد جاء الفصل بين الصلة والموصول، وهو أشدها قال الشاعر:

ذاك الذي وأبيك يعرف مالك   والحق يدفع ترهات الباطل

وقال أبو عبيدة: من قرأ بالتاء المعجمة من فوقها ونصب (فتنتهم) أضمر في (يكن) اسما مؤنثاً ثم يجيء بالتاء لذلك الاسم، وإنما جعله مؤنثا لتأنيث (فتنة) قال لبيد:

فمضى وقدمها وكانت عادة   منه إذا هي عودت أقدامها

فأنث الأقدام لتأنيث (عادة)

٣. ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ أي لم تكن بليتهم التي ألزمتهم الحجة وزادتهم لائمة إلا قولهم.

٤. معنى الآية: أنه تعالى لما ذكر قصص هؤلاء المشركين الذين كانوا مفتنين بشركهم، أعلم النبي ﷺ أن افتتانهم بشركهم، وإقامتهم عليه لم يكن إلا أن تبرءوا منه، وقالوا إنهم ما كانوا مشركين، كما يقول

القائل إذا رأى إنسان إنساناً يحب غاوياً فإذا وقع في هلكة تبرأ منه فيقول له ما كانت محبتك لفلان إلا أن انتفيت منه.

٥. سؤال وإشكال: كيف قالوا وحلفوا أنهم ما كانوا مشركين ـ وقد كانوا مشركين ـ وهل هذا إلا كذب، والكذب قبيح ولا يجوز من أهل الآخرة أن يفعلوا قبيحا، لأنهم ملجؤون إلى ترك القبيح، لأنهم لو صح لم يكونوا ملجئين وكانوا مختارين، وجب أن يكونوا مزجورين عن فعل القبيح، وإلا أدى إلى إغرائهم بالقبيح وذلك لا يجوز، ولو زجروا بالوعيد عن القبائح لكانوا مكلفين ولوجب أن يتناولهم الوعد والوعيد، وذلك خلاف الإجماع، وقد وصفهم الله تعالى أيضا بأنهم كذبوا على أنفسهم، فلا يمكن جحد أن يكونوا كاذبين، فكيف يمكن أن يرفع ذلك؟ وما الوجه فيه؟ والجواب: من وجوه:

أ. أحدها: ما قاله البلخي: إن القوم كذبوا على الحقيقة، لأنهم كانوا يعتقدون أنهم على الحق، ولا يرون أنهم مشركون، كالنصارى ومن أشبههم، فقالوا في الموقف ذلك.

ب. وقيل: إن يقع بهم العذاب فيعلموا بوقوعه أنهم كانوا على باطل فيقولوا: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وهم صادقون عند أنفسهم وكذبهم الله في ذلك، لأن الكذب هو الإخبار بالشيء لا على ما هو به، علم المخبر بذلك أو لم يعلم، فلما كان قولهم ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ كذباً في الحقيقة جاز أن يقال لهم ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾، قال البلخي: ويدل على ذلك قوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي ذهب عنهم وأغفلوه، لأنهم لم يكونوا نظروا نظراً صحيحا ولم يجاروا في نظرهم الألف والعادة، فيعلموا في هذا الوقت أن قولهم شرك، ولو صاروا إلى العذاب لعلموا أنهم كانوا مشركين، واستغنوا بذلك، لكن هذا القول يكون عند الحشر.

ج. وقيل: الجزاء بدلالة أول الآية، وقال مجاهد: قوله: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ تكذيب من الله إياهم.

د. وقال الجبائي: قولهم ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ إخبار منهم أنهم لم يكونوا مشركين عند أنفسهم في دار الدنيا، لأنهم كانوا يظنون أنهم على الحق، فقال الله تعالى مكذبا لهم (انظر) يا محمد ﴿كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ في دار الدنيا، لا أنهم كذبوا في الآخرة، لأنهم كانوا مشركين على الحقيقة، وإن اعتقدوا أنهم على الحق، وقوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي ضلت عنهم أوثانهم التي كانوا يعبدونها

ويفترون الكذب بقولهم: إنها شفعاؤنا عند الله غدا، فذهبت عنهم في الآخرة فلم يجدوها، ولم ينتفعوا بها.

هـ. وقال قوم: إنه يجوز أن يكذبوا يوم القيامة للذهول والدهش، لأنهم يصيرون كالصبيان الذين لا تمييز لهم ولا تحصيل معهم ـ اختاره أحمد ابن علي بن الأخشاد، وأجاز النجار أن يكفروا في النار فضلا عن وقوعه قبل دخولهم فيها، وهذا بعيد، والوجهان الأولان أقرب.

و. وقيل فيه وجه آخر، وهو أنهم أملوا أملا فخاب أملهم ولم يقع الأمر على ما أرادوا، لأن من عادة الناس أنهم إذا عوقبوا بعقوبة فتكلموا واستعانوا وصاحوا فإن العذاب يسهل عليهم بعض السهولة، وظنوا أن عذاب الآخرة كذلك، فقالوا: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وقالوا ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ وقالوا ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ و﴿(رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانا مِنَ الجِنِّ والإِنسِ نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا﴾ فأملوا أن يخف عنهم العذاب بمثل هذا الكلام على عادة الدنيا، فلم يخف ولم يكن لهم فيه راحة، فقال الله ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أي خابوا فيما أملوا من سهولة العذاب وذلك مشهور في كلام العرب، قال الشاعر:

كذبتم وبيت الله لا تأخذونها مراغمة ما دام للسيف قائم

وقال آخر:

كذبتم وبيت الله لا تنكحونها بني شاب قرناها تصر وتحلب

أي كذبكم أملكم، وقال أبو داوود الأزدي:

قلت لما نصلا من فتنة كذب العير وإن كان برح

والمعنى أمل أنه يتخلص بشيء فكذبه أمله، لأنه ظن أنه إذا مرَّ بارحا وهو أن يأخذ في ناحية الشمال إلى ناحية اليمين لم يتهيأ لي طعنه، فلما قلب رمحه وطعنه قال كذب العير أي كذب أمله.

٦. اختلف في معنى (الفتنة) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾:

أ. قيل: معناها المعذرة ـ في قول قتادة ـ لأنها اعتذار عن الفتنة، فسميت باسم الفتنة.

ب. وقال قوم: هي المحنة.

ج. وقال قوم: تقديره عاقبة فتنتهم، وفتنتهم يجوز أن تكون بمعنى اغترارهم أي اغتروا بهذا الكذب وظنوا أنه سينجيهم، وكذبوا على أنفسهم لما رجعت مضرته إليهم صار عليهم وإن قصدوا أن

يكون لهم.

٧. في الآية دلالة على بطلان قول من قال المعارف ضرورية، لأن الله تعالى أخبر عنهم أنهم قالوا ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فلا يخلو أن يكونوا صادقين أو كاذبين، فإن كانوا صادقين لأنهم كانوا عارفين في دار الدنيا فقد كذبهم الله في ذلك بقوله: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا﴾ وإن كانوا كاذبين لأنهم كانوا عارفين، فقد وقع منهم القبيح في الآخرة، وذلك لا يجوز، ومعنى الآية على ما بيناه من أنهم أخبروا أنهم لم يكونوا مشركين عند أنفسهم في دار الدنيا وإن الله كذبهم وأنهم كانوا كاذبين على الحقيقة وإن اعتقدوا خلافه في الدنيا، فأما معارفهم في الآخرة فضرورية عند البصريين، وعند البلخي ومن وافقه، حاصلة على وجه هم ملجؤون إليها، فعلى الوجهين معا لا يجوز أن يقع منهم القبيح لا محالة.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الافتراء: افتعال من الفَرْيِ، وهو البَهْتُ.

ب. شاركت فلانًا في الشيء صرت شريكه، وأشركته جعلته شريكًا، ومنه ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ ومنه: (اللهم أشركنا في دعاء الصالحين) أي اجعلنا معهم في ذلك شركاء، والشركاء الأنداد التي عبدوها مع الله؛ لأنهم أشركوا بينهما في العبادة، والمشرك: من يقر بالصانع فيشرك معه غيره، فأما منْ ينفي الصانع فليس بمشرك في الاشتقاق، وإن جاز أن يقال: كافر ومشرك؛ لأن الشرع جعلهما اسمًا لكل كافر.

ج. الحشر: الجمع، ومنه ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ ومن أسمائه ﷺ: الحاشر؛ لأنه يحشر الناس في أيامه.

د. الفتنة: أصله الاختبار، وقيل: الخلاص، يقال: فتنت الذهب بالنار: امتحنته، وقيل: خلصته، يقال: فتنه وأفتنه، وأنكر الأصمعي أفتن، وقَلْبٌ فاتن؛ أي مفتون، وقال الخليل: الفتن: الإحراق، والفتان: الشيطان.

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/ ٥١٢.

هـ. النظر على وجهين: بالقلب وهو الفكر، وبالعين وهو تقليب الحدقة نحو المرئي التماسًا لرؤيته مع سلامة الحاسة، وفي الأول له ـ بكونه ناظرًا ـ حالة، ولا حالة بالثاني؛ لأنه فعل، وليس للفاعل بكونه فاعلاً حالة، والحد الجامع أنه طلب إدراك الشيء بوجه من وجوه الطلب إلا أنه ينتقض بطلب إدراك الحرارة والبرودة بمحل الحياة.

٢. بَيَّنَ تعالى عظيم خيانتهم وما يلزمهم من التوبيخ، فقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ أي لا ظلم أعظم مِنْ ظُلْم مَنْ يكذب على الله، ولا عقوبة أعظم من عقوبته:

أ. قيل: المراد به النبي ﷺ كيف يفتري على الله الكذب فيما شهد به وهو نبي، والافتراء أعظم الذنوب؟ عن أبي مسلم.

ب. وقيل: أراد الكفار الَّذِينَ كفروا؛ أي لا أحد أظلم منهم في افترائهم الكذب في جحد نبوته، والمفتري: قيل: من تعمد الكذب.

ج. وقيل: من أضاف إليه ما لا يليق به من الفواحش، وكلاهما يفتريان، فإنهم علموا أن محمدًا رسول الله، ثم لبسوا وجحدوا.

٣. ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾:

أ. قيل: حججه.

ب. وقيل: القرآن.

ج. وقيل: الدِّين، عن الحسن.

٤. سؤال وإشكال: المفتري والكاذب واحد فلم جمع بينهما؟ والجواب: أن المكذب بالآيات قد يكذب بالحجج، والمفتري من يكذب عنادًا.

٥. ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ يعني من ظلم نفسه بمعصية الله، فلا يظفر ببغية من الخير؛ لأنه يستحق العقوبة.

٦. ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي يوم القيامة يجمعهم:

أ. قيل: من تقدم ذكره من الكفار.

ب. وقيل: الخلق كلهم.

ج. وقيل: العابد والمعبودون.

٧. ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ على وجه التهجين والتوبيخ ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾:

أ. أنهم آلهة تعبدونها لا تغني عنكم شيئًا؟

ب. وقيل: أين شفاعة شركائكم الَّذِينَ كنتم تزعمون أنها تنفعكم، وإنما أضاف الشركاء إليهم؛ لأنهم أثبتوها شركاء، واعتقدوا على غير صحة.

ج. وقيل: لأنهم أثبتوا للأصنام ملكًا.

د. وقيل: لأنهم شاركوهم في أموالهم.

٨. ثم بَيَّن تعالى جواب القوم عند توجه التوبيخ عليهم فقال سبحانه: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾:

أ. قيل: خلاصهم، عن أبي مسلم يعني المحنة التي يتوهمون أنهم يتخلصون بها.

ب. وقيل: معذرتهم، عن قتادة وأبي علي، وسميت فتنة؛ لأنها عن الفتنة التي كانت في الدنيا.

ج. وقيل: عاقبة فتنتهم بالشركاء، كما يقال: لم تكن صحبتك لفلان إلا وبالاً، وتقديره: لم تكن فتنتهم إلا التبرؤ منها بهذا القول، عن الزجاج.

د. وقيل: لم يكن افتتانهم بالشركاء في الدنيا إلا انتفاءه عنهم في الآخرة، عن الأصم.

٩. ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾:

أ. قيل: أرادوا ما كنا مشركين عند أنفسنا، وكنا نظنهم أربابًا، فلم يكن اعتذارهم إلا هذا، عن أبي علي وهو الوجه، وقد جرت العادة أن من يوبخ على فعل فيقول: كنت أظنه حقًّا، ونحو ذلك.

ب. وقيل: إنهم كذبوا في جواب قوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي﴾

ج. وقيل: إنما قالوا ذلك لعظيم ما يعلمون من الأقوال، وما ينالهم من الدهش والذهول لا عن عمد، عن أبي بكر أحمد بن علي.

١٠. ﴿انْظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾:

أ. في الدنيا بقولهم: إنا مصيبون في قولنا: إنا غير مشركين عن أبي علي وهو الوجه؛ لأن أهل الآخرة مُلْجَؤُونَ إلى ترك الكذب.

ب. وقيل: كذبوا في الآخرة ومكنوا؛ لأنه حال ذهول ودهش كما يمكن الصبي، وليس يقع على الحد الذي يقع من العاقل المجتمع الذهن، عن أبي بكر أحمد بن علي.

ج. وقيل: قال: ﴿كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾، ولم يقل: كذبوا في خبرهم، فأراد أنهم أطمعوها في أماني كاذبة، ولم يكن من ذلك شيء فصاروا كاذبين عليها من جهة الحقيقة، لا من جهة الخبر؛ إذ لو كانوا كاذبين كانوا كذبوا على الأصنام لا على أنفسهم.

١١. ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾:

أ. قيل: هلك.

ب. وقيل: ذهب، عن أبي مسلم.

١٢. ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي يكذبون:

أ. قيل: يمترون بعبادته من الأصنام والأوثان، فلم تغن عنهم شيئًا، عن الحسن وأبي علي.

ب. وقيل: عزب عليهم افتراؤهم للحيرة التي لحقتهم.

١٣. اختلف في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾:

أ. قيل: نزلت الآية في المنافقين جَرْيًا على عادتهم في الدنيا، عن الحسن.

ب. وقيل: هو على عموم الكفار وهو الصحيح؛ لأنهم تبرؤوا مِن الشرك ظاهرًا وباطنًا.

١٤. سؤال وإشكال: لم لا يجوز أن ينسوا أحوال الدنيا؟ والجواب: لأنهم عند الإعادة تعود جميع معلوماتهم؛ ولذلك صح أن يُسأل، وصح أن يعترف، فلذلك قال: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا﴾ وإنما يصح النسيان في الأمور اليسيرة، فأما في الأمور العظام فلا يقع فيها النسيان، فمن اعتقد مذهبًا طول عمره، وتعصبوا لأجلها، وقاتلوا عليها، فلا يجوز على خلق عظيم أن ينسوها، وبهذا القول يبطل التناسخ إلا أن لهم أن يقولوا: الآخرة ليست بدار تكليف وعبادة، والنسيان فعل الله تعالى، إلا أن الصحيح أن يقال: السمع دل على أنهم يذكرون جميع أحوال الدنيا.

١٥. تدل الآية الكريمة على:

أ. أن الظلم غير مقصور على الإضرار بالغير، بل يكون الإضرار بنفسه ظلمًا، وتدل على أنه يَعْظُمُ

بحسب الضرر.

ب. يدل قوله: ﴿افْتَرَى﴾ على بطلان الجبر من وجوه:

- أحدها: أنه أثبتهم مفترين فدل أن الافتراء فِعْلُهُم.
- ثانيها: أنهم أضافوا كل فاحشة إلى خلقه وإرادته.

ب. أن من يطلق عليه اسم ظالم لا يظفر بالثواب.

ج. إثبات المعاد، وحشر جميع الخلائق.

د. أن العصاة يوبخون على رؤوس الخلائق، وفيه التحذير العظيم من العصيان واللطف للمخلوق في الإمساك لأمر الله تعالى.

هـ. أن في الآخرة تنجلي الشُّبَه؛ ويعرفون الحق ضرورة.

و. أن الاعتذار لا ينفع، ولا يقبل، واختلفوا هل يجوز في الآخرة أن يكذبوا؟ على ثلاثة أقوال:

- فقال مشايخنا: لا يجوز لأنها ليست بدار التكليف، وكلهم ملجؤون إلى فعل الحسن وترك القبيح.
- وقال بعضهم: يجوز ذلك لما يلحقهم من الدهش والحيرة في القيامة، فإذا استقروا في الجنة أو النار فحينئذ لا يجوز ذلك عليهم، وبه قال أبو بكر أحمد بن علي الإخشيد وأصحابه.
- وقال بعضهم: إنه يجوز في جميع الأحوال.
- وقال أبو مسلم: جحودهم لنسيانهم إياه لشدة ما عاينوا.

١٦. قراءات ووجوه:

أ. قرأ ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ بالياء ههنا، وفي الفرقان وسائر ما في القرآن بالنون يعقوب، وقرأ حفص عن عاصم في أول الأنعام بالنون وفي سائر القرآن بالياء، وقرأ أبو جعفر وابن كثير في الفرقان بالياء، وسائر الفرقان بالنون، وقرأ الباقون بالنون في جميع ذلك، فأما الياء كناية عن اسم الله تعالى والنون أفخم.

ب. قرأ أبو جعفر ونافع وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ﴾ بالتاء ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ بالنصب، وقرأ ابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم ﴿لَمْ يَكُنِ﴾ بالياء ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ بالرفع، وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب ﴿يَكُنْ﴾ بالياء ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ بالنصب، أما تاء ﴿تَكُنْ﴾ لأنه وقع على مؤنث، وهو الفتنة مع أنها أقرب إلى الفعل في اللفظ.. وقال الزجاج: يجوز أن تكون ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ في موضع إلا أن مقالتهم فتؤنث

لذلك، فأما الياء فوقعت على القول وهو مذكر، فأما ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ فمن نصب جعلها خبر ﴿كَانَ﴾، ومن رفع جعلها اسم ﴿كَانَ﴾، فالأول تقديره: ثم لم يكن قولهم فتنتهم إلا أن قالوا، كقولك: ما كان إلا قائمًا زيد، والنفي أولى بالخبر.

ج. وقرأ حمزة والكسائي ﴿وَاللهِ رَبِّنَا﴾ بنصب الباء على النداء؛ أي: والله يا ربنا على وجه الجواب، وكسر اسم الله على القسم، وقرأ الباقون بكسر الباء على أنه صفة لله تعالى، وعن عكرمة ﴿وَاللهِ رَبِّنَا﴾ برفع الباء، على الابتداء والخبر.

١٧. مسائل لغوية ونحوية:

أ. العامل في قوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ محذوف تقديره: واذكر يوم يحشرهم، وقيل: هو معطوف على محذوف بتقدير: لا يفلحون أبدًا ويوم، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ استفهام، والمراد الإنكار؛ أي لا أحد أظلم.

ب. العائد إلى ﴿الَّذِينَ﴾ في صلته محذوف بتقدير: كنتم تزعمونهم شركاء، فحذف المفعولين جميعًا؛ لأن التهجين بالاشتراك دل أنهم كانوا يزعمون معهم شركاء.

ج. ﴿انْظُرْ﴾ صيغته الأمر، والمراد التنبيه على حالهم، وعامل الإعراب في قوله: ﴿كَيْفَ﴾ قوله: ﴿كَذَّبُوا﴾، ولا يجوز أن يعمل فيه ﴿انْظُرْ﴾؛ لأن الاستفهام يعمل فيه ما بعده، ولا يعمل فيه ما قبله؛ لأن له صدر الكلام، فيقطع الخبر والاستخبار.

سؤال وإشكال: لم قيل ﴿كَذَّبُوا﴾ والمعنى يَكْذِبُون؟ والجواب:

- قيل: لأنه تصديق الخبر بمنزلة الواقع.
- وقيل: لأنه لما مضى الخبر به كان بمنزلة الواقع.

الطَبرِسي:

ذكر الفضل الطَبرِسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. بين سبحانه ما يلزمهم من التوبيخ، والتهجين، بالإشراك، فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ معناه: ومن أكفر ممن اختلق على الله كذبا فأشرك به الآلهة، عن ابن عباس، وهذا استفهام معناه

(١) تفسير الطبرسي: ٤/ ١٩.

الجحد أي: لا أحد أظلم منه، لأن جوابه كذلك، فاكتفى من الجواب بما يدل عليه ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أي: بالقرآن، وبمحمد ومعجزاته.

٢. ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: لا يفوز برحمة الله، وثوابه، ورضوانه، ولا بالنجاة من النار، الظالمون، والظالم، ههنا هو الكافر بنبوة محمد ﷺ، المكذب بآياته، الجاحد لها بقوله: ما نصب الله آية على نبوته.

٣. ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ عنى بهم من تقدم ذكرهم من الكفار، لأنه سبحانه يحشرهم يوم القيامة من قبورهم إلى موضع الحساب، ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ اختلف في وجه هذا السؤال:

أ. فقيل: إن المشركين إذا رأوا تجاوز الله تعالى عن أهل التوحيد، قال بعضهم لبعض: إذا سئلتم فقولوا إنا موحدون، فلما جمعهم الله قال لهم: أين شركاؤكم؟ ليعلموا أن الله يعرف أنهم أشركوا به في دار الدنيا، وأنه لا ينفعهم الكتمان، عن مقاتل.

ب. وقيل: إن المشركين كانوا يزعمون أن آلهتهم تشفع لهم عند الله، فقيل لهم يوم القيامة (أين شركاؤكم الذين تزعمون) أنها تشفع لكم، توبيخا لهم، وتبكيتا على ما كانوا يدعونه، عن أكثر المفسرين، وإنما أضاف الشركاء إليهم، لأنهم اتخذوها لأنفسهم.

٤. معنى ﴿تَزْعُمُونَ﴾: تكذبون، قال ابن عباس: (وكل زعم في كتاب الله كذب)

٥. في هذه الآية دلالة واضحة على بطلان مذهب الجبر، وعلى إثبات المعاد، وحشر جميع الخلق.

٦. ثم بين سبحانه جواب القوم عند توجه التوبيخ إليهم، فقال: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾، قال الأزهري: جماع الفتنة في كلام العرب: الامتحان، مأخوذ من قولك: فتنت الذهب والفضة: إذا أذبتهما بالنار وأحرقتهما، وقد فتن الرجل بالمرأة، وافتتن، وقد فتنته المرأة وأفتنته، قال الشاعر:

لئن فتنتني لهي بالأمس أفتنت عقيلا ... فأمسى قد قلى كل مسلم

٧. اختلف في معنى الفتنة هنا على وجوه:

أ. أحدها: إن معناه ثم لم يكن جوابهم لأنهم حين سئلوا اختبر ما عندهم بالسؤال، فلم يكن الجواب عن ذلك الاختبار إلا هذا القول.

ب. ثانيها: إن المراد لم يكن معذرتهم ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ عن ابن عباس، وقتادة، وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام، وهذا راجع إلى معنى الجواب أيضا.

ج. ثالثها: ما قاله الزجاج: إن تأويله حسن لطيف، لا يعرفه إلا من عرف معاني الكلام، وتصرف العرب في ذلك، والله عز وجل، ذكر في هذه الآية الأقاصيص التي جرت من أمر المشركين، وأنهم مفتتنون بشركهم، ثم أعلم أنه لم يكن افتتانهم بشركهم، وإقامتهم عليه، إلا أن تبرأوا منه، وانتفوا منه، فحلفوا أنهم ما كانوا مشركين، ومثل ذلك في اللغة أن ترى إنسانا يحب غاويا، فإذا وقع في هلكة، تبرأ منه، فتقول له: ما كانت محبتك فلانا، إلا أن افتتنت منه، فالفتنة هاهنا بمعنى الشرك، والافتتان بالأوثان، ويؤيد ذلك ما رواه عطا، عن ابن عباس قال: (فتنتهم يريد شركهم في الدنيا) وهذا القول في التأويل يرجع إلى حذف المضاف، لأن المعنى لم يكن عاقبة فتنتهم إلا البراءة منها بقولهم ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾

٨. سؤال وإشكال: كيف يجوز أن يكذبوا في الآخرة، ويحلفوا على الكذب والدار ليست بدار تكليف، وكل الناس ملجؤون فيها إلى ترك القبيح، لمشاهدة الحقائق، وزوال عوارض الشبه، والشكوك، ولمعرفتهم بالله سبحانه ضرورة؟ والجواب:

أ. إن معناه ما كنا مشركين في الدنيا عند أنفسنا، وفي اعتقادنا، وتقديرنا، وذلك أن المشركين في الدنيا يعتقدون كونهم مصيبين، فيحلفون على هذا في الآخرة، فعلى هذا يكون قولهم وحلفهم يقعان على وجه الصدق.

ب. وقيل أيضا: إنهم إنما يحلفون على ذلك لزوال عقولهم بما يلحقهم من الدهشة من أهوال القيامة، ثم ترجع عقولهم، فيقرون ويعترفون، ويجوز أن ينسوا إشراكهم في الدنيا بما يلحقهم من الدهشة عند مشاهدة تلك الأهوال.

٩. ﴿انْظُرْ﴾ المعنى يقول الله تعالى عند حلف هؤلاء: أنظر يا محمد ﴿كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ وهذا وإن كان لفظه لفظ الاستفهام، فالمراد به التنبيه على التعجيب منهم، ومعناه انظر إلى إخباري عن افترائهم، كيف هو، فإنه لا يمكن النظر إلى ما يوجد في الآخرة، وإنما كذبهم الله سبحانه في قولهم، وإن كانوا صادقين عند أنفسهم:

أ. لأن الكذب هو الإخبار بالشيء لا على ما هو به علم المخبر بذلك، أو لم يعلم، فلما كان قولهم

﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ كذبا في الحقيقة، جاز أن يقال كذبوا على أنفسهم.

ب. وقيل: معناه أنظر كيف كذبوا على أنفسهم في دار الدنيا، لا إنهم كذبوا في الآخرة، لأنهم كانوا مشركين على الحقيقة، وإن اعتقدوا أنهم على الحق، عن الجبائي.

١٠. ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾:

أ. أي: ضلت عنهم أوثانهم التي كانوا يعبدونها، ويفترون الكذب بقولهم: (هؤلاء شفعاؤنا عند الله غدا) فذهبت عنهم في الآخرة، فلم يجدوها، ولم ينتفعوا بها عن الحسن.

ب. وقيل: إنه عام في كل ما يعبد من دون الله تعالى، أنها تضل عن عابديها يوم القيامة، ولا تغني عنهم شيئا.

١١. واختلف أهل العدل في أن أهل الآخرة هل يجوز أن يقع منهم الكذب:

أ. فالأصح أنه لا يجوز على ما قلناه.

ب. وقال بعضهم: يجوز ذلك لما يلحقهم من الدهش والحيرة في القيامة، فإذا استقر أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، فحينئذ لا يجوز أن يقع منهم القبيح والكذب، ويكون جميعهم ملجئين إلى ترك القبيح، وبه قال أبو بكر بن الأخشيد وأصحابه.

ج. وقال بعضهم: إنه يجوز وقوعه منهم على جميع الأحوال.

١٢. قراءات ووجوه:

أ. ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ ﴿ثُمَّ يَقُولُ﴾ بالياء فيهما قراءة يعقوب وحده، وكذلك في الفرقان، وفي سبأ، وقرئ في سائر القرآن بالنون، وقرأ حفص هنا، وفي يونس بالنون، وفي سائر القرآن بالياء، وقرأ أبو جعفر، وابن كثير، في الفرقان بالياء، وفي سائر القرآن بالنون، وقرأ الباقون بالنون في جميع القرآن.. من قرأ بالياء: رده إلى الله في قوله: ﴿عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾، ومن قرأ بالنون ابتداء، والياء في المعنى كالنون

ب. قرأ أهل المدينة، وأبو عمرو، وأبو بكر، عن عاصم، وخلف ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ﴾ بالتاء، ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾: بالنصب، وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وحفص، عن عاصم ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ﴾ بالتاء أيضا، ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾: بالرفع، وقرأ حمزة، والكسائي، ويعقوب: (ثم لم يكن) بالياء ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ بالنصب، وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف ﴿وَاللهِ رَبِّنَا﴾ بالنصب، وقر أ الباقون بالجر، الحجة: من قر أ ﴿تَكُنْ﴾ بالتاء، ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾: بالنصب، فإنه

أنث ﴿أَنْ قَالُوا﴾ لما كان القول: الفتنة في المعنى، كما قال: ﴿فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ فأنث ﴿الْأَمْثَالُ﴾ لما كانت في المعنى: الحسنات، ومما جاء في الشعر، قول لبيد: فمضى وقدمها وكانت عادة منه إذا هي عردت إقدامها فأنث الإقدام لما كانت العادة في المعنى، قال الزجاج: ويجوز أن يكون تأويل ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ إلا مقالتهم، ومن قرأ ﴿لَمْ تَكُنْ﴾ بالتاء ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ رفعا، أثبت علامة التأنيث في الفعل المسند إلى الفتنة، والفتنة مؤنثة، وعلى هذه القراءة يكون قوله: ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ في موضع نصب بكونه خبر كان، ومن قرأ ﴿لَمْ يَكُنِ﴾ بالياء ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ نصبا، فعلى أن قوله: ﴿أَنْ قَالُوا﴾ اسم كان، والأولى: والأقوى أن يكون ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ نصبا، وأن قالوا الاسم، لأن أن إذا وصلت، لم توصف، فأشبهت بامتناع وصفها المضمر، فكما أن المضمر إذا كان مع المظهر كان، أن يكون المضمر الاسم أحسن، فكذلك ﴿أَنْ﴾ إذا كانت مع اسم غيرها كانت، أن يكون الاسم أولى، وأما من قرأ ﴿وَاللهِ رَبِّنَا﴾ فإنه جعل الاسم المضاف وصفا للمفرد، ومثل ذلك، رأيت زيدا صاحبنا، وقوله: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ جواب للقسم، ومن قرأ ﴿رَبَّنَا﴾ بالنصب: فصل بالاسم المنادى بين القسم والمقسم عليه، والفصل به لا يمتنع، وقد فصل بالنداء بين الصلة والموصول لكثرة النداء في الكلام، وذلك مثل قول الشاعر:

ذاك الذي وأبيك يعرف مالك والحق يدفع ترهات الباطل

ويجوز أن يكون نصبه على المدح بمعنى: أعني ربنا، وأذكر ربنا.

١٣. مسائل لغوية ونحوية:

أ. ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾: العامل فيه محذوف على معنى: واذكر يوم نحشرهم، وقيل: إنه معطوف على محذوف، كأنه قيل: لا يفلح الظالمون أبدا ويوم نحشرهم، والعائد إلى الموصول محذوف من ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ وتقديره: تزعمون أنهم شركاء، أو تزعمونهم شركاء، فحذف مفعولي الزعم، لدلالة الكلام، وحالة السؤال عليه

ب. العامل في ﴿كَيْفَ﴾ قوله: ﴿كَذَّبُوا﴾ ولا يجوز أن يعمل فيه ﴿انْظُرْ﴾ لأن الاستفهام له صدر الكلام، فلا يجوز أن يعمل فيه ما قبله.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ أي: اختلق على الله الكذب في ادّعاء شريك معه.

٢. في ﴿آيَاتِهِ﴾ قولان:

أ. أحدهما: أنّها محمّد والقرآن، قاله ابن السّائب.

ب. الثاني: القرآن، قاله مقاتل.

٣. المراد بالظّلم المذكور في هذه الآية: الشّرك.

٤. ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ انتصب (اليوم) بمحذوف تقديره: واذكر يوم نحشرهم، قال ابن جرير: والمعنى: لا يفلحون اليوم، ولا يوم نحشرهم، وقرأ يعقوب: (يحشرهم) (ثم يقول) بالياء فيهما، وفي الذين عنى قولان:

أ. أحدهما: المسلمون والمشركون.

ب. الثاني: العابدون والمعبودون.

٥. ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ﴾ سؤال توبيخ، والمراد بشركائهم: الأوثان؛ وإنّما أضافها إليهم لأنّهم زعموا أنّها شركاء لله، وفي معنى ﴿تَزْعُمُونَ﴾ قولان:

أ. أحدهما: يزعمون أنّهم شركاء مع الله.

ب. الثاني: يزعمون أنها تشفع لهم.

٦. ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر، وحفص عن عاصم: (ثم لم تكن) بالتّاء، (فتنتهم) بالرّفع، وقرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم: (تكن) بالتّاء أيضا، (فتنتهم) بالنّصب؛ وقد رويت عن ابن كثير أيضا، وقرأ حمزة، والكسائيّ: (يكن) بالياء، (فتنتهم) بالنّصب.

٧. في (الفتنة) أربعة أقوال:

أ. أحدها: أنّها بمعنى الكلام والقول، قال ابن عبّاس، والضّحّاك: لم يكن كلامهم.

ب. الثاني: أنّها المعذرة، قال قتادة، وابن زيد: لم تكن معذرتهم، قال ابن الأنباريّ: فالمعنى: اعتذروا

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٢/ ١٧.

بما هو مهلك لهم، وسبب لفضيحتهم.

ج. الثالث: أنّها بمعنى البليّة، قال عطاء الخراسانيّ: لم تكن بليّتهم، وقال أبو عبيد: لم تكن بليّتهم الّتي ألزمتهم الحجّة، وزادتهم لائمة.

د. الرابع: أنّها بمعنى الافتتان، والمعنى: لم تكن عاقبة فتنتهم، قال الزّجّاج: لم يكن افتتانهم بشركهم، وإقامتهم عليه، إلا أن تبرؤوا منه، ومثل ذلك في اللغة أن ترى إنسانا يحبّ غاويا، فإذا وقع في هلكة تبرّأمنه؛ فيقول: ما كانت محبّتك لفلان إلّا أن انتفيت منه، قال وهذا تأويل لطيف، لا يعرفه إلّا من عرف معاني الكلام، وتصرّف العرب في ذلك، وقال ابن الأنباري: المعنى: أنّهم افتتنوا بقولهم هذا، إذ كذبوا فيه، ونفوا عن أنفسهم ما كانوا معروفين به في الدنيا.

٨. ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: (والله ربنا) بكسر الباء، وقرأ حمزة، والكسائيّ، وخلف: بنصب الباء، وفي هؤلاء القوم الذين هذا وصفهم قولان:

أ. أحدهما: أنّهم المشركون.

ب. الثاني: المنافقون.

٩. متى يحلفون؟ فيه ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: إذا رأوا أنّه لا يدخل الجنّة إلّا من كان مسلما، قالوا: تعالوا نكابر عن شركنا، فحلفوا، قاله ابن عبّاس.

ب. الثاني: أنّهم إذا دخلوا النّار، ورأوا أهل التّوحيد يخرجون، فحلفوا واعتذروا، قاله سعيد بن جبير، ومجاهد.

ج. الثالث: أنّهم إذا سئلوا: أين شركاؤكم؟ تبرّؤوا، وحلفوا: ما كنا مشركين، قاله مقاتل.

١٠. ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: باعتذارهم بالباطل، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: ذهب ما كانوا يدّعون ويختلقون من أنّ الأصنام شركاء لله، وشفعاؤهم في الآخرة.

الرّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١ . لما حكم الله تعالى على أولئك المنكرين بالخسران في الآية السابقة، بيّن في هذه الآية سبب ذلك الخسران، وهو أمران:

أ. أحدهما: أن يفترى على الله كذبا، وهذا الافتراء يحتمل وجوها:

• الأول: أن كفار مكة كانوا يقولون هذه الأصنام شركاء الله، والله سبحانه وتعالى أمرهم بعبادتها والتقرب إليها، وكانوا أيضا يقولون الملائكة بنات الله، ثم نسبوا إلى الله تحريم البحائر والسوائب.

• ثانيها: أن اليهود والنصارى كانوا يقولون: حصل في التوراة والإنجيل أن هاتين الشريعتين لا يتطرق إليهما النسخ والتغيير، وأنها لا يجيء بعدهما نبي.

• ثالثها: ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨]

• رابعها: أن اليهود كانوا يقولون ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨] وكانوا يقولون ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]

• خامسها: أن بعض الجهال منهم كان يقول: إن الله فقير ونحن أغنياء، وأمثال هذه الأباطيل التي كانوا ينسبونها إلى الله كثيرة، وكلها افتراء منهم على الله.

ب. الثاني: من أسباب خسرانهم تكذيبهم بآيات الله، والمراد منه قدحهم في معجزات محمد ﷺ، وطعنهم فيها وإنكارهم كون القرآن معجزة قاهرة بينة، ثم إنه تعالى لما حكى عنهم هذين الأمرين قال: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي لا يظفرون بمطالبهم في الدنيا وفي الآخرة بل يبقون في الحرمان والخذلان.

٢ . ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ في ناصب قوله: ﴿وَيَوْمَ﴾ أقوال:

أ. الأول: أنه محذوف وتقديره ويوم نحشرهم كان كيت وكيت، فترك ليبقى على الإبهام الذي هو أدخل في التخويف.

ب. الثاني: التقدير اذكر يوم نحشرهم.

---

(١) التفسير الكبير: ١٢/ ٥٠٢.

ج. الثالث: أنه معطوف على محذوف كأنه قيل لا يفلح الظالمون أبدا ويوم نحشرهم.

٣. ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ المقصود منه التقريع والتبكيت لا السؤال، ويحتمل أن يكون معناه أين نفس الشركاء، ويحتمل أن يكون المراد أين شفاعتهم لكم وانتفاعكم بهم، وعلى كلا الوجهين: لا يكون الكلام إلا توبيخا وتقريعا وتقريرا في نفوسهم أن الذي كانوا يظنونه مأيوس عنه، وصار ذلك تنبيها لهم في دار الدنيا على فساد هذه الطريقة.

٤. العائد على الموصول من قوله: ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ محذوف، والتقدير: الذين كنتم تزعمون أنهم شفعاء، فحذف مفعول الزعم لدلالة السؤال عليه، قال ابن عباس: وكل زعم في كتاب الله كذب.

٥. ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قرأ ابن عامر وحفص عن عاصم ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ بالتاء المنقطة من فوق وفتنتهم بالرفع، وقرأ حمزة والكسائي ثم لم يكن بالياء وفتنتهم بالنصب:

أ. وأما القراءة بالتاء المنقطة من فوق ونصب الفتنة، فههنا قوله أن قالوا: في محل الرفع لسكونه اسم تكن، وإنما أنث لتأنيث الخبر كقوله من كانت أمك أو لأن ما قالوا: فتنة في المعنى، ويجوز تأويل إلا أن قالوا لا مقالتهم

ب. وأما القراءة بالياء المنقطة من تحت، ونصب فتنتهم، فههنا قوله أن قالوا: في محل الرفع لكونه اسم يكن، وفتنتهم هو الخبر.

ج. قال الواحدي: الاختيار قراءة من جعل أن قالوا الاسم دون الخبر لأن أن إذا وصلت بالفعل لم توصف فأشبهت بامتناع وصفها المضمر، فكما أن المظهر والمضمر، إذا اجتمعا كان جعل المضمر اسما أولى من جعله خبرا، فكذا هاهنا تقول كنت القائم، فجعلت المضمر اسما والمظهر خبرا فكذا هاهنا.

د. ونقول قراءة حمزة والكسائي: والله ربنا بنصب قوله ربنا لوجهين: أحدهما: بإضمار أعني وأذكر، والثاني: على النداء، أي والله يا ربنا، والباقون بكسر الباء على أنه صفة لله تعالى.

٦. ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قال الزجاج: تأويل هذه الآية حسن في اللغة لا يعرفه إلا من عرف معاني الكلام وتصرف العرب في ذلك، وذلك أن الله تعالى بيّن كون المشركين

مفتونين بشركهم متهالكين على حبه، فأعلم في هذه الآية أنه لم يكن افتتانهم بشركهم وإقامتهم عليه، إلا أن تبرؤا منه وتباعدوا عنه، فحلفوا أنهم ما كانوا مشركين، ومثاله أن ترى إنسانا يحب عاريا مذموم الطريقة فإذا وقع في محنة بسببه تبرأ منه، فيقال له ما كانت محبتك لفلان، إلا أن انتفيت منه فالمراد بالفتنة هاهنا افتتانهم بالأوثان، ويتأكد هذا الوجه بما روى عطاء عن ابن عباس أنه قال: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ معناه شركهم في الدنيا، وهذا القول راجع إلى حذف المضاف لأن المعنى ثم لم تكن عاقبة فتنتهم إلا البراءة، ومثله قولك ما كانت محبتك لفلان، إلا أن فررت منه وتركته.

٧. ظاهر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ يقتضي: أنهم حلفوا في القيامة على أنهم ما كانوا مشركين، وهذا يقتضي إقدامهم على الكذب يوم القيامة، وللناس فيه قولان:

أ. القول الأول: وهو قول أبي علي الجبائي، والقاضي: أن أهل القيامة لا يجوز إقدامهم على الكذب واحتجا عليه بوجوه من الحجج:

• الأولى: أن أهل القيامة يعرفون الله تعالى بالاضطرار، إذ لو عرفوه بالاستدلال لصار موقف القيامة دار التكليف، وذلك باطل، وإذا كانوا عارفين بالله على سبيل الاضطرار، وجب أن يكونوا ملجئين إلى أن لا يفعلوا القبيح بمعنى أنهم يعلمون أنهم لو راموا فعل القبيح لمنعهم الله منه لأن مع زوال التكليف لو لم يحصل هذا المعنى لكان ذلك إطلاقهم في فعل القبيح، وأنه لا يجوز، فثبت أن أهل القيامة يعلمون الله بالاضطرار، وثبت أنه متى كان كذلك كانوا ملجئين إلى ترك القبيح، وذلك يقتضي أنه لا يقدم أحد من أهل القيامة على فعل القبيح، سؤال وإشكال: لم لا يجوز أن يقال: إنه لا يجوز منهم فعل القبيح، إذا كانوا عقلاء إلا أنا نقول: لم لا يجوز أن يقال: إنه وقع منهم هذا الكذب لأنهم لما عاينوا أهوال القيامة اضطربت عقولهم، فقالوا: هذا القول الكذب عند اختلال عقولهم، أو يقال: إنهم نسوا كونهم مشركين في الدنيا، والجواب:

• عن الأول: أنه تعالى لا يجوز أن يحشرهم: ويورد عليهم التوبيخ بقوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ﴾ [الأنعام: ٢٢] ثم يحكي عنهم ما يجري مجرى الاعتذار مع أنهم غير عقلاء، لأن هذا لا يليق بحكمة الله تعالى، وأيضا فالمكلفون لا بد وأن يكونوا عقلاء يوم القيامة، ليعلموا أنهم بما يعاملهم الله به غير مظلومين.

• عن الثاني: أن النسيان: لما كانوا عليه في دار الدنيا مع كمال العقل بعيد لأن العاقل لا يجوز أن

ينسى مثل هذه الأحوال، وإن بعد العهد، وإنما يجوز أن ينسى اليسير من الأمور ولولا أن الأمر كذلك لجوزنا أن يكون العاقل قد مارس الولايات العظيمة دهرا طويلا، ومع ذلك فقد نسيه، ومعلوم أن تجويزه يوجب السفسطة.

• الثانية: أن القوم الذين أقدموا على ذلك الكذب إما أن يقال: إنهم ما كانوا عقلاء أو كانوا عقلاء، فإن قلنا إنهم ما كانوا عقلاء فهذا باطل لأنه لا يليق بحكمة الله تعالى أن يحكي كلام المجانين في معرض تمهيد العذر، وإن قلنا إنهم كانوا عقلاء فهم يعلمون أن الله تعالى عالم بأحوالهم، مطلع على أفعالهم ويعلمون أن تجويز الكذب على الله محال، وأنهم لا يستفيدون بذلك الكذب إلا زيادة المقت والغضب وإذا كان الأمر كذلك امتنع إقدامهم في مثل هذه الحالة على الكذب.

• الثالثة: أنهم لو كذبوا في موقف القيامة ثم حلفوا على ذلك الكذب لكانوا قد أقدموا على هذين النوعين من القبح والذنب وذلك يوجب العقاب، فتصير الدار الآخرة دار التكليف، وقد أجمعوا على أنه ليس الأمر كذلك، وأما إن قيل إنهم لا يستحقون على ذلك الكذب، وعلى ذلك الحلف الكاذب عقابا وذما، فهذا يقتضي حصول الاذن من الله تعالى في ارتكاب القبائح والذنوب، وأنه باطل، فثبت بهذه الوجوه أنه لا يجوز إقدام أهل القيامة على القبيح والكذب، وإذا ثبت هذا: فعند ذلك قالوا يحمل قوله: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ أي ما كنا مشركين في اعتقادنا وظنوننا، وذلك لأن القوم كانوا يعتقدون في أنفسهم أنهم كانوا موحدين متباعدين من الشرك، سؤال وإشكال: فعلى هذا التقدير: يكونون صادقين فيما أخبروا عنه لأنهم أخبروا بأنهم كانوا غير مشركين عند أنفسهم، فلماذا قال الله تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ والجواب: لنا أنه ليس تحت قوله: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أنهم كذبوا فيما تقدم ذكره من قوله: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ حتى يلزمنا هذا السؤال بل يجوز أن يكون المراد انظر كيف كذبوا على أنفسهم في دار الدنيا في أمور كانوا يخبرون عنها كقولهم: إنهم على صواب وإن ما هم عليه ليس بشرك والكذب يصح عليهم في دار الدنيا، وإنما ينفى ذلك عنهم في الآخرة، والحاصل أن المقصود من قوله تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ اختلاف الحالين، وأنهم في دار الدنيا كانوا يكذبون ولا يحترزون عنه وأنهم في الآخرة يحترزون عن الكذب ولكن حيث لا ينفعهم الصدق فلتعلق أحد الأمرين بالآخر أظهر الله تعالى للرسول ذلك وبين أن القوم لأجل شركهم كيف يكون حالهم في الآخرة عند الاعتذار مع أنهم كانوا في

دار الدنيا يكذبون على أنفسهم ويزعمون أنهم على صواب، هذا جملة كلام القاضي في تقرير القول الذي اختاره أبو علي الجبائي.

ب. القول الثاني: وهو قول جمهور المفسرين أن الكفار يكذبون في هذا القول قالوا: والدليل على أن الكفار قد يكذبون في القيامة وجوه:

• الأول: أنه تعالى حكى عنهم أنهم يقولون ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧] مع أنه تعالى أخبر عنهم بقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]

• الثاني: قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨] بعد قوله: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ﴾ [المجادلة: ١٤] فشبّه كذبهم في الآخرة بكذبهم في الدنيا.

• الثالث: قوله تعالى حكاية عنهم ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩] وكل ذلك يدل على إقدامهم في بعض الأوقات على الكذب.

• الرابع: قوله حكاية عنهم: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧] وقد علموا أنه تعالى لا يقضي عليهم بالخلاص.

• الخامس: أنه تعالى في هذه الآية حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وحمل هذا على أن المراد ما كنا مشركين في ظنوننا وعقائدنا مخالفة للظاهر، ثم حمل قوله بعد ذلك ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ على أنهم كذبوا في الدنيا يوجب فك نظم الآية، وصرف أول الآية إلى أحوال القيامة وصرف آخرها إلى أحوال الدنيا وهو في غاية البعد.

• سؤال وإشكال: أما قوله إما أن يكونوا قد كذبوا حال كمال العقل أو حال نقصان العقل والجواب: لا يبعد أن يقال إنهم حال ما عاينوا أهوال القيامة، وشاهدوا موجبات الخوف الشديد اختلت عقولهم فذكروا هذا الكلام في ذلك الوقت.

• سؤال وإشكال: كيف يليق بحكمة الله تعالى أن يحكى عنهم ما ذكروه في حال اضطراب العقول، فهذا يوجب الخوف الشديد عند سماع هذا الكلام حال كونهم في الدنيا ولا مقصود من تنزيل هذه الآيات إلا ذلك، وأما قوله ثانيا المكلفون لا بدّ أن يكونوا عقلاء يوم القيامة والجواب: اختلال عقولهم ساعة

واحدة حال ما يتكلمون بهذا الكلام لا يمنع من كمال عقولهم في سائر الأوقات، فهذا تمام الكلام في هذه المسألة.

٨. ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ فالمراد إنكارهم كونهم مشركين، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ عطف على قوله: ﴿كَذَّبُوا﴾ تقديره: وكيف ضل عنهم ما كانوا يفترون بعبادته من الأصنام فلم تغن عنهم شيئا وذلك أنهم كانوا يرجون شفاعتها ونصرتها لهم.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ ابتداء وخبر أي لا أحد أظلم ﴿مِمَّنِ افْتَرَى﴾ أي اختلق ﴿عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ يريد القرآن والمعجزات، ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾:

أ. قيل: معناه في الدنيا، ثم استأنف فقال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ على معنى (واذكر يوم نحشرهم)

ب. وقيل: معناه أنه لا يفلح الظالمون في الدنيا ولا يوم نحشرهم، فلا يوقف على هذا التقدير على قوله: ﴿الظَّالِمُونَ﴾ لأنه متصل.

ج. وقيل: هو متعلق بما بعده وهو﴿انْظُرْ﴾ أي انظر كيف كذبوا يوم نحشرهم، أي كيف يكذبون يوم نحشرهم؟

٢. ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ﴾ سؤال إفضاح لا إفصاح، ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي في أنهم شفعاء لكم عند الله بزعمكم، وأنها تقربكم منه زلفى، وهذا توبيخ لهم، قال ابن عباس: كل زعم في القرآن فهو كذب.

٣. ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ الفتنة الاختبار أي لم يكن جوابهم حين اختبروا بهذا السؤال، ورأوا الحقائق، وارتفعت الدواعي، ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ تبرءوا من الشرك وانتفوا منه لما رأوا من تجاوزه ومغفرته للمؤمنين:

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/ ٤٠٠.

أ. قال ابن عباس: يغفر الله تعالى لأهل الإخلاص ذنوبهم، ولا يتعاظم عليه ذنب أن يغفره، فإذا رأى المشركون ذلك، قالوا إن ربنا يغفر الذنوب ولا يغفر الشرك فتعالوا نقول إنا كنا أهل ذنوب ولم نكن مشركين، فقال الله تعالى: أما إذ كتموا الشرك فاختموا على أفواههم، فيختم على أفواههم، فتنطق أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون، فعند ذلك يعرف المشركون أن الله لا يكتم حديثا، فذلك قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَّ حَدِيثًا﴾

ب. وقال أبو إسحاق الزجاج: تأويل هذه الآية لطيف جدا، أخبر الله تعالى بقصص المشركين وافتتانهم بشركهم، ثم أخبر أن فتنتهم لم تكن حين رأوا الحقائق إلا أن انتفوا من الشرك، ونظير هذا في اللغة أن ترى إنسانا يحب غاويا فإذا وقع في هلكة تبرأ منه، فيقال: ما كانت محبتك إياه إلا أن تبرأت منه.

ج. وقال الحسن: هذا خاص بالمنافقين جروا على عادتهم في الدنيا، ومعنى ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ عاقبة فتنتهم أي كفرهم، وقال قتادة: معناه معذرتهم.

د. وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال: فيلقى العبد فيقول أي فل ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع فيقول بلى أي رب فيقول أفظننت أنك ملاقي فيقول لا، فيقول إني أنساك كما نسيتني ثم يلقى الثاني فيقول له ويقول هو مثل ذلك بعينه ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسولك وصليت وصمت وتصدقت ويثني بخير ما استطاع قال فيقال ها هنا إذا ثم يقال له الآن نبعث شاهدا عليك ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد علي فيختم على فيه ويقال لفخذه ولحمه وعظامه انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليعذر من نفسه وذلك المنافق وذلك الذي سخط الله عليه)

٤. ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ كذب المشركين قولهم: إن عبادة الأصنام تقربنا إلى الله زلفى، بل ظنوا ذلك وظنهم الخطأ لا يعذرهم ولا يزيل اسم الكذب عنهم، وكذب المنافقين باعتذارهم بالباطل، وجحدهم نفاقهم.

٥. ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾:

أ. أي فانظر كيف ضل عنهم افتراؤهم أي تلاشى وبطل ما كانوا يظنونه من شفاعة آلهتهم.

ب. وقيل: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي فارقهم ما كانوا يعبدون من دون الله فلم يغن

عنهم شيئا، عن الحسن.

ج. وقيل: المعنى عزب عنهم افتراؤهم لدهشهم، وذهول عقولهم.

٦. النظر في قوله: ﴿انْظُرْ﴾ يراد به نظر الاعتبار، ﴿كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾:

أ. قيل: كذبوا بمعنى يكذبون، فعبر عن المستقبل بالماضي، وجاز أن يكذبوا في الآخرة لأنه موضع دهش وحيرة وذهول عقل.

ب. وقيل: لا يجوز أن يقع منهم كذب في الآخرة، لأنها دار جزاء على ما كان في الدنيا ـ وعلى ذلك أكثر أهل النظر ـ وإنما ذلك في الدنيا، فمعنى ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ على هذا: ما كنا مشركين عند أنفسنا، وعلى جواز أن يكذبوا في الآخرة يعارضه قوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا﴾، ولا معارضة ولا تناقض، لا يكتمون الله حديثا في بعض المواطن إذا شهدت عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بعملهم، ويكذبون على أنفسهم في بعض المواطن قبل شهادة الجوارح على ما تقدم.

ج. وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قال: اعتذروا وحلفوا، وكذلك قال ابن أبي نجيح وقتادة: وروي عن مجاهد أنه قال لما رأوا أن الذنوب تغفر إلا الشرك بالله والناس يخرجون من النار قالوا: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾

د. وقيل: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ أي علمنا أن الأحجار لا تضر ولا تنفع، وهذا وإن كان صحيحا من القول فقد صدقوا ولم يكتموا، ولكن لا يعذرون بهذا، فإن المعاند كافر غير معذور.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ أي اختلق على الله الكذب فقال: إنّ في التوراة أو الإنجيل ما لم يكن فيهما.

٢. ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ التي يلزمه الإيمان بها من المعجزة الواضحة البيّنة، فجمع بين كونه كاذبا على الله ومكذّبا بما أمره الله بالإيمان به، ومن كان هكذا فلا أحد من عباد الله أظلم منه.

---

(١) فتح القدير: ٢/ ١٢٣.

٣. والضمير في ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ للشأن.

٤. ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ قرأ الجمهور بالنون في الفعلين، وقرئ بالياء فيهما، وناصب الظرف محذوف مقدّر متأخرا: أي يوم نحشرهم كان كيت وكيت.

٥. والاستفهام في ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ﴾ للتقريع والتوبيخ للمشركين، وأضاف الشركاء إليهم، لأنها لم تكن شركاء لله في الحقيقة، بل لما سموها شركاء أضيفت إليهم، وهي ما كانوا يعبدونه من دون الله أو يعبدونه مع الله.

٦. ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي تزعمونها شركاء، فحذف المفعولان معا، ووجه التوبيخ بهذا الاستفهام أن معبوداتهم غابت عنهم في تلك الحال أو كانت حاضرة ولكن لا ينتفعون بها بوجه من الوجوه، فكان وجودها كعدمها.

٧. ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قال الزجاج: (تأويل هذه الآية أن الله عزّ وجلّ أخبر بقصص المشركين وافتتانهم بشركهم، ثم أخبر أن فتنتهم لم تكن حين رأوا الحقائق إلا أن انتفوا من الشرك، ونظير هذا في اللغة أن ترى إنسانا يحب غاويا، فإذا وقع في هلكة تبرأ منه فتقول: ما كانت محبتك إياه إلا أن تبرأت منه)، فالمراد بالفتنة على هذا كفرهم: أي لم تكن عاقبة كفرهم الذي افتخروا به وقاتلوا عليه إلا ما وقع منهم من الجحود والحلف على نفيه بقوله: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وقيل: المراد بالفتنة هنا جوابهم: أي لم يكن جوابهم إلا الجحود والتبرّي، فكان هذا الجواب فتنة لكونه كذبا، وجملة ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ معطوفة على عامل الظرف المقدّر كما مرّ والاستثناء مفرّغ، وقرئ ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ بالرفع وبالنصب، ويكن وتكن والوجه ظاهر، وقرئ وما كان فتنتهم وقرئ: ربنا بالنصب على النداء.

٨. ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ بإنكار ما وقع منهم في الدنيا من الشرك ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي زال وذهب افتراؤهم وتلاشى وبطل ما كانوا يظنّونه من أن الشركاء يقرّبونهم إلى الله، هذا على أنّ ما مصدرية؛ وقيل: هي موصولة، عبارة عن الآلهة: أي فارقهم ما كانوا يعبدون من دون الله فلم يغن عنهم شيئا، وهذا تعجيب لرسول الله ﷺ من حالهم المختلفة ودعواهم المتناقضة؛ وقيل: لا يجوز أن يقع منهم كذب في الآخرة لأنها دار لا يجري فيها غير الصدق، فمعنى: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ نفي شركهم عند أنفسهم، وفي اعتقادهم ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا﴾

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَمَنَ اَظْلَمُ﴾ لا أظلم، وهو توبيخ ونفيٌ ﴿مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ قطع كذبًا على الله، أو افترى على الله افتراء، وعلى الوجهين: الافتراء إثبات الشريك لله، ودعوى بنوَّة الملائكة لله سبحانه، فهذا في مشركي العرب.

٢. ﴿اَوْ كَذَّبَ بِئَايَاتِهِ﴾ أي: القرآن والمعجزات، ووصف النبيء ﷺ بخلاف وصفه في التوراة والإنجيل، وبإنكار أنَّ الله أنزل في القرآن أنَّه مذكور بالرسالة في التوراة والإنجيل، وهذا في أهل الكتاب المنكرين لِرَسُولِ الله ﷺ .

٣. والآية في المشركين وأهل الكتاب، أي: لا أظلم مِمَّن افترى أو مِمَّن كذَّب، فكيف مَن جَمَعَ بين الافتراءِ بما هو باطل لا يثبته مَن أَعمَلَ عقلَه، وبين التكذيب بما هو ثابت بالحجَّة!؟ أو الافتراء والتكذيب كلاهما في المشركين، لأنَّهم أثبتوا الشريك، وكذَّبوا بالقرآن، أي: لا أظلم منهم لو اقتصروا على أحد الأمرين، فكيف وقد جمعوا بينهما؟، فذلك مفاد ولو لم نجعل (أو) بمعنى الواو إبقاءً على أصله.

٤. وحكمة إبقائها على أصلها إفادة أنَّ كلًّا من الأمرين وحده غاية الإفراط في الظلم، وبأنَّهم جمعوا بين أمرين متناقضين: أثبتوا المنفيَّ ونفوا الثابتَ، ومن شأن النقيضين أن لا يجتمعا، وأيضًا من نَفَى ما ثَبَت بالبرهان أولى بِنفْيِ ما لم يثبت، ومَن أثبتَ ما نُفِي بالبرهان أولى بإثبات ما لم يُنفَ، فالجمع بينهما جمع بين المتناقضين، والمراد: نفي أن يكون أحد أظلم مِمَّن فعل ذلك أو مساويًا، وذلك في الاستعمال، وأمَّا بالوضع فلا يدلُّ على نفي المساواة، وذلك أنَّ النسبة بين الشيئين تُتَصَوَّرُ غالبًا بالزيادة والنقص، فإذا لم يكن أحدهما أزيد تحقَّق النقص، وقيل: دلالة التركيب على نفي المساواة وَضْعِيَّةٌ، وإذا قلت: لا أفضل في البلد من زيد، فغير الأفضل مساوٍ أو ناقص فاستعمل في أحد فرديه، وذلك مِن قَصْرِ الشيءِ على بعض أفراده، واعترض بأنَّ هذا مشعر بالاستعمال.

٥. ﴿إِنَّهُ﴾ أي: الواقع الذي لا بدَّ منه وهو الشأن ﴿لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ لا يظفرون بمطلوب، ولا

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/ ٢٢٣.

يتخلَّصون من مكروه، وذلك في مطلق الظالم فكيف من لا أظلم منه!.

٦. ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ (جَمِيعًا) حالٌ، ويضعف كونه توكيدًا، و(يَوْمَ) منصوب بمحذوف تهويلاً يُقَدَّرُ بعد قوله: ﴿مُشْرِكِينَ﴾، أي: يكون كيت وكيت، أو يباشرون من السوء ما لا يكتنهه عقل، أو يُقَدَّرُ ماضيًا لتحقُّق الوقوع، أو نحشرهم يوم نحشرهم جميعًا، أو نحشرهم يوم نحشر الناسَ جميعًا، وهذا أبلغ تخويفًا، أو التقدير: لا يفلح الظالمون اليومَ ويومَ نحشرهم، وهو كُلِّيَّة، أي: إنَّه لا يفلح الظالمون اليوم ولا يوم نحشرهم، ويبعد تعليقه بـ (أُنظُرْ) لكثرة الفصل، أو اذْكُرْ يوم نحشرهم لِمَا يقع فيه من الهول والعذاب، أو احذروا يوم نحشرهم، أو اخشوا يوم نحشرهم، كقوله تعالى: ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا﴾ [لقمان: ٣٣]، والهاء للظالمين، أو للناس كما مَرَّ، أو للذين خسروا أنفسهم، أو لمشركي العرب، أو للمشركين وأصنامهم، كقوله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ [الصافَّات: ٢٢]، وإذا كانت للمشركين فقوله تعالى : ﴿ثُمَّ نَقُولُ﴾ ـ ولا ينافي هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ﴾ [البقرة: ١٧٤] لأنَّ المراد: لا يكلِّمهم كلام تشريف أو نفع، فقد كلَّم إبليس وهو شرٌّ منهم.

٧. ﴿لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ وضعٌ للظاهر موضع المضمر تنبيهًا على قبح شركهم، وأنَّه موجب التوبيخ والعذاب، و(ثُمَّ) لتراخي المعنى وعظمه، أو لتراخي الزمان، يبقون في غمِّ الموقف مدَّة طويلة وبعدها يقال لهم توبيخًا: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنَّهم آلهة؟ أو أنَّهم شركاء لله في العبادة، ولم أقدِّر: (تزعمونهم شركاء) لأنَّ الغالب والوارد في القرآن تسليط الزعم على (أنَّ) وما بعدها، وقلَّ مثلُ قولِه: (زعمتني شيخًا ولست بشيخ) فذلك أولى من تقدير: (تزعمونهم شركاء)

٨. وأضاف الشركاء إليهم لأنَّه لا نصيب لها في الشركة سوى تسميتهم، حتَّى جعلت غائبة، والإضافة من الإضافة لملابسة مَّا، وسُئلوا عن مكانها مع أنَّها حاضرة، كأنَّه قيل: أين شركتها التي ادَّعيتم ثبوتها ورجوتم نفعها حال الشدَّة؟ فإذا لم تحضر بالشفعة لهم فَكَأَنَّهَا لم تحضر بذاتها، كما تقول لمن تعمَّد على أحد في أمر فلم ينفعه: أين فلان؟ مع أنَّ فلانًا حاضر، ويجوز كونها غائبة بذاتها حيث يقال لهم: أين شركاؤكم؟ فتحضر بعد ذلك ولا تنفعهم، أو غابت بعدما أحضرت وعجزت عن النفع، فقيل: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؟، أو يُقَدَّرُ مضاف، أي: أين نفع شركائكم؟

٩. والزعم يستعمل في الحقِّ كما يقول سيبويه في شأن ما هو مرضيٌّ عنده: (زَعَمَ الخليلُ)، وفي

حديث ضمام بن ثعلبة لِرَسُولِ الله ﷺ (زعم رسولك) مع أنَّه مصدِّق بما قال رسوله، والمراد في الآية كنتم تجزمون أنَّها شركاء، وذكر ابن عبَّاس أنَّ كلَّ زعم في القرآن بمعنى الكذب؛ وقد ذكره بعض في شأن الله سبحانه للعلم الجازم إذ قال ـ وبئس قائلاً ـ :

تقول هلكنا إذ هلكت وإنَّما   على الله أرزاق العباد كما زعم

ولعلَّه بناه للمفعول لكن لا نعرف قبله بيتًا أو بعده أو هو بيت مفرد، والقوافي يدلُّ بعضها على بعض.

١٠. ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتَهُمُ إِلَّآ أَن قَالواْ وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (ثُمَّ) لتراخي الزمان، أو المعنى: أي: أعظم أحوالهم في العجز عن النجاة وإنكار الإشراك، والمصدر مِن (أنْ) والفعل بعدها بمنزلة العلم، وبذلك كان هو الاسم و(فِتْنَتَ) الخبرَ، كأنَّه قيل: لم يكن فتنةً إلَّا قولهم، وأنَّث القول بتاء (تَكُن) لتأنيث الخبر، والمراد بالفتنة: كفرهم باتِّخاذ غير الله وَلِيًّا، أي: لم يكن عاقبة شركهم إلَّا تبرُّؤهم منه، كقولك لمن رأيته يحِبُّ إنسانًا مذموم العاقبة: ما كان حبًّا منك له إلَّا أن فررت منه، كما تجعل عاقبة الشيء عينه ادِّعاء، أو يُقَدَّرُ: سبب فتنتهم، ولمَّا حذف المضاف أنَّث الفعل، وذلك أنَّهم تهالكوا على حبِّ الشرك، أو الفتنة: التخلُّص، كقولك: فتنتُ الذهبَ إذا أزلتَ رداءته بالنار، توهَّموا أنَّ قولهم: (وَاللهِ رَبِّنَا،،،) إلخ معذرة صارفة لهم، والفتنة ما يحِبُّ الإنسان ويعجب به، وكانوا يفتخرون بشركهم، أو الفتنة: الجواب، لأنَّهم قصدوا به الخلاص، أو لأنَّه كذب، فقد كذبوا في الآخرة كعادتهم في الدُّنيا، بل بنفي الشريك وتأكيد النفي بالقسم فذلك كذبان، وحينئذ يختم على أفواههم وتشهد جوارحهم، ففي موطن من مواطن الآخرة ﴿لَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، وفي موطن يكتمون بالكذب، وفي موطن يُسألون أجمعون، وفي موطن ﴿لَا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]

١١. والآية ناطقة بأنَّ الكفَّار يَكْذِبُونَ في الآخرة كالدنيا، وذلك قول الجمهور، وقال أبو عليٍّ الجبَّائي من المعتزلة والباقلَّاني: لا لظهور الأمر وكون الكذب لا ينفعهم، وأجابوا عن الآية بأنَّ المراد: ما كنَّا مشركين في اعتقادنا أنَّ عبادة الأصنام يتقرَّب بها إلى الله، لا عبادة بالذَّات، وبأنَّ معنى قوله: ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أنَّهم كذبوا في الدُّنيا بأمور يخبرون عنها بخلاف الواقع كقولهم: ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إلى اللهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، وأجاب الجمهور بأنَّهم يكذبون في الآخرة مع انكشاف الأمر وعدم الانتفاع

بالكذب للتحيُّر والدهش من شدَّة الأمر، حتَّى نسوا أو تعمَّدوا الكذب، وَبِأَنَّ حَمْلَ ﴿كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ على كذب الدُّنيا تعسُّفٌ؛ لأنَّ ما قبل هذا وما بعده في شأن الآخرة، وأيضًا قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨]، أي: في الدنيا لكم.

١٢. ﴿وَضَلَّ﴾ ذهب ﴿عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ أي: كونهم مفترين أو ما كانوا يفترونه من الآلهة، ولو حضرت لِذَهَابِ نفْعِها، وجُعلت نفسَ المفترَى مبالغة فإنَّ المفترى النفعُ، وهذا داخل في النظر، عطف على (كَذَبُوا)، كأنَّه قيل: (انظر كيف ضَلَّ عنهم،،،) إلخ؛ ويجوز عطفه على (نَقُولُ) أو (نَحْشُرُ) لأنَّ معناه الاستقبال، وإنَّما أتى بصيغة الماضي للتحقُّق، فلا يدخل في النظر.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ كقولهم: الملائكة بنات الله [الأنعام: ١٠٠]، وهؤلاء شفعاؤنا عند الله، قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨]

٢. ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أي: القرآن والمعجزات، حيث سموها سحرا، وإنما ذكر ﴿أَوْ﴾ مع أنهم جمعوا بين الأمرين، تنبيها على أن كلّا منهما وحده بالغ غاية الإفراط في الظلم على النفس، فكيف؟ وهم وقد جمعوا بينهما، فأثبتوا ما نفاه الله تعالى، ونفوا ما أثبته.

٣. ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: لا ينجون من مكروه، ولا يفوزون بمطلوب، وإذا كان حال الظالمين هذا، فكيف بمن لا أحد أظلم منه؟

٤. ما ذكرناه من كون الموصول كناية عن المشركين هو الظاهر، لأن السورة مكية، والخطاب مع مشركي أهلها، وجعله البيضاويّ لهم، ولأهل الكتاب، وقوفا مع عموم اللفظ، والمهايميّ؛ لأهل الكتاب خاصة، ربطا للآية بما قبلها، والظاهر الأول، لما قلنا، وعبارة المهايميّ: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بتفويت ما أوتوا من الكتاب، وما أمروا به، فهم لا يؤمنون، وكيف لا يخسرون، وهم ظالمون، وكل ظالم خاسر؟ وإنما قلنا: إنهم ظالمون، لأنهم يحرفون كتاب الله لفظا أو معنى، فيفترون على الله الكذب، ويكذبون آيات

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/ ٣٣٣.

الله من كتابهم، ومعجزات محمد ﷺ وكتابه، وقد يسترون بعض ما في كتابهم، وهو أيضا تكذيب، فعلوا جميع ذلك لأنه لا يتأتى لهم ترك الإيمان بمحمد ﷺ بدون أحد هذه الأمور.

٥. وقال في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ الآية: لأنهم بالتحريف يدّعون إلهية أنفسهم، وبالتكذيب يريدون تعجيز الله عن تصديقه الرسل، وينسبون إيجادها إلى غير الله، مع افتقارها إلى القدرة الكاملة، وإنما قلنا: كل ظالم خاسر، لأن كل ظالم لا يفلح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: لا يفلحون في الدنيا بانقطاع الحجة عنهم، وظهور المسلمين عليهم، وفيه إشارة إلى أن مدّعي الرسالة، لو كان كاذبا كان مفتريا على الله، فلا يكون مفلحا، فلا يكون سببا لصلاح العالم، ولا محلا لظهور المعجزات.

٦. ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ أي: الإنس والجن والشياطين، منصوب بمضمر تهويلا للأمر، ﴿جَمِيعًا﴾ ليفتضح من لا يفلح من الظالمين مزيد افتضاح، ويظهر المفلحون بكمال الإعزاز.

٧. ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أي مضوا على الشرك، بأن ماتوا عليه، وهم الشاهدون أن مع الله آلهة أخرى ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ﴾ أي الذين جعلتموهم شركاءنا، وهم شركاؤكم في العبودية ـ كذا قاله المهايميّ ـ وعليه، فالإضافة على بابها، وفي (العناية): الإضافة فيه لأدنى ملابسه، كما شار إليه القاضي بقوله: أي آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله، لأنه لا شركة بينهم، وإنما سموهم شركاء، فلهذه الملابسة أضيفوا إليهم.

٨. سؤال وإشكال: قوله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ يقتضي حضورهم معهم في المحشر، و(أين) يسأل بها عن غير الحاضر؟ والجواب: أجيب بأنه بتقدير مضاف، أي: أين نفعهم وشفاعتهم، أو أنهم بمنزلة الغيب، لعدم ما رجوا منهم من الشفاعة، وعلى كلّ، فالقصد من السؤال توبيخهم وتقريعهم، وأن يقرر في نفوسهم أن ما كانوا يرجونه مأيوس منه، وذلك تنبيه لهم في دار الدنيا على فساد هذه الطريقة.

٩. ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: تزعمونها شركاء من عند أنفسكم، أي: فقصدتم بذلك فعل الفاتنين في المملكة بجعلها لغير من هي له.

١٠. ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ أي: جواب ما اعترض به على فتنهم التي هي شهادة أن مع الله آلهة أخرى، وعبّر عن جوابهم بالفتنة، لأنه كذب ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ اعتذروا عن

أصنامهم بنفيها مؤكدا بالقسم بالاسم الجامع، مع نسبة الربوبية إليه تعالى، لا إلى ما سواه، مبالغة في التبرؤ من الإشراك، فكان هذا العذر ذنبا آخر مؤكدا لافترائهم بالإشراك الذي نفوه، كما قال تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

١١. ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: بنفي الإشراك عنها أمام علام الغيوب، بحضرة من لا ينحصر من الشهود ﴿وَضَلَّ﴾ أي: وكيف ضاع وغاب ﴿عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: من الشركاء، فلم تغن عنهم شيئا، ففقدوا ما رجوا من شفاعتها ونصرتها لهم، كقوله تعالى: ثم قيل لهم: ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ [الأعراف: ٣٧]، فـ (ما) موصولة، كناية عن الشركاء، وإيقاع الافتراء عليها، مع أنه في الحقيقة واقع على أحوالها من الإلهية، والشركة والشفاعة ونحوها ـ للمبالغة في أمرها، كأنها نفس المفتري.

١٢. ما ذكرناه من أنه عبر عن جوابهم بالفتنة هو الأظهر، فالمراد: الجواب بما هو كذب، لأنه سبب الفتنة، فتجوّز بها إطلاقا للمسبب على السبب، أو هو استعارة، وقيل: الفتنة بمعنى العذر، لأنها التخليص من الغش لغة، والعذر يخلّص من الذنب، فاستعيرت له، وقيل: بمعنى الكفر، لأن الفتنة ما تفتتن به ويعجبك، وهم كانوا معجبين بكفرهم مفتخرين به، ويظنونه شيئا، فلم تكن عاقبته إلا الخسران، والتبرؤ منه، وليس هذا على تقدير مضاف، بل جعل عاقبة الشيء عينه، ادّعاء، قال الزجاج: تأويل هذه الآية حسن في اللغة، لا يعرفه إلا من عرف معاني الكلام، وتصرف العرب في ذلك، وذلك أن الله تعالى بيّن كون المشركين مفتونين بشركهم، متهالكين على حبه، فأعلم في هذه الآية، أنه لم يكن افتتانهم بشركهم، وإقامتهم عليه، إلا أن تبرؤوا منه وتباعدوا عنه، فحلفوا أنهم ما كانوا مشركين، ومثاله: أن ترى إنسانا يحب غاويا مذموم الطريقة، فإذا وقع في محنة بسببه تبرأ منه، فيقال له: ما كانت محبتك لفلان إلا أن انتفيت منه، قال الخفاجيّ ـ بعد نقله ما ذكر ـ: وليس هذا من قبيل عتابك السيف، ولا من تقدير المضاف، وإن صح فاحفظه، فإنه من البدائع الروائع.

١٣. ما بينّاه من أن (ما) في قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ موصولة، كناية عن الشركاء، بمعنى عدم إغنائها عنهم ـ هو الموافق للآية الثانية: التي سقناها، وجوز كونها مصدرية، أي: انظر كيف ذهب وزال عنهم افتراؤهم من الإشراك، حتى نفوا صدوره عنهم بالكلية، وتبرؤوا منه بالمرة.

١٤. هذا، وجعل الناصر في (الانتصاف) ﴿ضَلَّ﴾ بمعنى سلبوا علمه، فكأنهم نسوه وذهلوه دهشا، وهو بعيد، لعدم ملاقاته للآية الأخرى، والتنزيل يفسر بعضه بعضا، وعبارته: في الآية دليل بيّن على أن الإخبار بالشيء على خلاف ما هو به، كذب، وإن لم يعلم المخبر مخالفة خبره بمخبره، ألا تراه جعل إخبارهم وتبرّيهم كذبا، مع أنه تعالى أخبر أنهم ضل عنهم ما كانوا يفترون، أي: سلبوا علمه حينئذ دهشا وحيرة، فلم يرفع ذلك إطلاق الكذب عليهم.

١٥. سؤال وإشكال: كيف يصح أن يكذبوا حين يطلعون على حقائق الأمور، وعلى أن الكذب والجحود لا وجه لمنفعته؟ والجواب: قال الزمخشريّ: (الممتحن ينطق بما ينفعه وبما لا ينفعه، من غير تمييز بينهما، حيرة ودهشا، ألا تراهم يقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧]؟ وقد أيقنوا بالخلود، ولم يشكوا فيه، ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ١٠٧]، وقد علموا أنه لا يقضي عليهم، وأما قول من يقول: معناه ما كنا مشركين عند أنفسنا، وما علمنا أنا على خطأ في معتقدنا، وحمل قوله: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ يعني في الدنيا ـ فتمحل وتعسف وتحريف لأفصح الكلام، إلى ما هو عيّ وإفحام، لأن المعنى الذي ذهبوا إليه، ليس هذا الكلام بمترجم عنه، ولا منطبق عليه، وهو ناب عنه أشد النبوّ، وما أدري ما يصنع، من ذلك تفسيره، بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨]، بعد قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فشبه كذبهم في الآخرة بكذبهم في الدنيا)، والقول المذكور، والحمل الذي ناقش فيه، أصله لأبي عليّ الجبائيّ والقاضي، فإنهما ذهبا إلى أن أهل القيامة لا يجوز إقدامهم على الكذب، واعتلا بوجوه واهية ساقها الرازيّ، فلتنظر ثمّت، فإنا لا نسوّد وجوه صحائفنا بما فيه تحكيم العقل على النقل.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. لما كان هذا الخسران أعظم ظلم ظلم به هؤلاء الكفار أنفسهم قال تعالى فيهم: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ

(١) تفسير المنار: ٧/ ٢٨٧

مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أي لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبا كزعم من زعم أن له ولدا أو شريكا، أو أن غيره يدعى معه أو من دونه ويتخذ وليا له يقرب الناس إليه زلفى ويشفع لهم عنده، أو زاد في دينه ما ليس منه أو كذب بآياته المنزلة كالقرآن المجيد، أو آياته الكونية الدالة على وحدانيته أو التي يؤيد بها رسله، وإذا كان كل من هذا التكذيب وذلك الكذب والافتراء يعد وحده غاية في الظلم ويطلق على صاحبه اسم التفضيل فيه فكيف يكون حال من جمع بينهما فكذب على الله وكذب بآياته المثبتة للتوحيد والمثبتة للرسالة؟

٢. ثم بين سوء عاقبة الظالمين فقال: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ هذا استئناف بياني وقع موقع جواب السؤال، أي الحال والشأن أن الظالمين عامة لا يفوزون في عاقبة أمرهم يوم الحساب والجزاء بالنجاة من عذاب الله تعالى، ولا بنعيم الجنة مهما يكن نوع ظلمهم فكيف تكون عاقبة من وصف بأنه لا أحد أظلم منه لافترائه على الله تعالى أو لتكذيبه بآياته أو عاقبة من جمع بين الأمرين فكان أظلم الظالمين؟

٣. الآية نزلت في الكافرين، فلهذا يغفل الناس عن صدقها على من كذب على الله تعالى وهو يسمي نفسه أو يسميه الناس مؤمنا أو مسلما، كأن يقول بقول أولئك المشركين فيتخذ غير الله وليا ويدعوه ليشفع عنده، أو يزيد في دين الله برأيه فيقول: هذا واجب وهذا حلال، وهذا حرام فيما لم ينزل الله به وحيا ولا كان مما بلغه رسوله ﷺ من دينه.

٤. ثم بين تعالى ما في نفي الفلاح من الإجمال فقال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي واذكر لهم أيها الرسول يوم نحشرهم جميعا على اختلاف درجاتهم في ظلم أنفسهم بأنواعه وظلم غيرها بأنواعه، ثم نقول للذين أشركوا منهم وهم أشدهم ظلما: أين الشركاء الذين كانوا يضافون إليكم لاتخاذكم إياهم أولياء فيكم الذين كنتم تزعمون في الدنيا أنهم شركاء لله يدعون ويستعانون كما يدعى ويستعان، وأنهم يقربونكم إلى الله زلفى ويشفعون لكم عنده؟ فأين ضلوا عنكم فلا يرون معكم؟ كما قال في آية أخرى: ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ وقد قرأ يعقوب ﴿يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ﴾ بالياء والمعنى ظاهر والاستفهام للتوبيخ والاحتجاج.

٥. ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر وحفص (لم

تكن فتنتهم) بالتاء والرفع، ونافع وأبو عمرو وأبو بكر عنه بالتاء والنصب والباقون (لم يكن فتنتهم) بالتاء والرفع، ونافع وأبو عمرو وأبو بكر عنه بالتاء والنصب والباقون (لم يكن فتنتهم) بالياء والنصب، ولا فرق بين هذه القراءات في المعنى، فإن بعضها يقدم اسم تكن عليها وبعضها يؤخره، وبعضهم يذكر الفعل وبعضهم يؤنثه، وكل ذلك جائز في العربية، وقرأ حمزة والكسائي (ربنا) بالفتح على النداء أي يا ربنا، والباقون بالجر على الصفة، والفتنة الاختبار، وفسرت هنا بالقولة والكلام والجواب وبالشرك وقدر بعضهم مضافا محذوفا فقال: إن المعنى ثم لم تكن عاقبة هذا الاختبار أو الشرك إلا إقسامهم بالله يوم القيامة أنهم ما كانوا مشركين.

٦. ظاهر الآية أنهم ينكرون في بعض مواقف الحشر شركهم بالله توهما منهم أن ذلك ينفعهم، ولكنهم يعترفون به في بعضها كما يعلم من آيات أخرى.

٧. استشكل بعض المفسرين هذا المعنى، واحتجوا بأن الإنكار في القيامة متعذر، وبأن اعترافهم بالشرك ثابت في بعض الآيات كقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك﴾ وقوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ وروي أن ابن عباس سئل عن الآية وعن قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ فقال: أما قوله: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فختم الله على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾، وذهب بعضهم إلى أن المعنى ما كنا مشركين في اعتقادنا لأننا ما كنا ندعو غيرك استقلالا بل توسلا إليك، ليكون من ندعوهم شفعاء لنا عندك يقربوننا إليك زلفى، لأننا كنا نستصغر أنفسنا أن تتسامى إلى دعائك كفاحا بلا واسطة وما هذا إلا تعظيم لك، وقد أورد على هذا التفسير أنه لا يلتئم مع قوله بعد هذه الحكاية عنهم: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ وأجيب عن الإيراد بأن المراد أنهم كذبوا على أنفسهم في دار الدنيا بزعمهم أنهم اتخذوا شفعاء يشفعون لهم عند الله وأن هذا تعظيم لله لا كفر به، ويرد هذا القول تصريح مشركي قريش بأن ما كانوا عليه شرك ولكن بعضهم كان يرى أنه لا بأس به لأنه بمشيئة الله، وهؤلاء كجبرية المسلمين، وقد أنكر القرآن عليهم هذه الشبهة في قوله من هذه السورة ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾، نعم إن كثيرا ممن يسمون مسلمين يدعون غير الله تعالى حتى في حال الشدة والضيق التي كان مشركو العرب يخلصون فيها الدعاء لله تعالى، ولكنهم لا يسمون هذا شركا كما كان يسميه المشركون، بل يسمونه توسلا أو استشفاعا أو

وساطة.

٨. وقوله تعالى هنا: ﴿انْظُرْ﴾ من النظر العقلي، وكذب الكفار في الآخرة ثابت بمثل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾، قال الزجاج: تأويل هذه الآية حسن في اللغة لا يعرفه إلا من وقف على معاني كلام العرب، وذلك أنه تعالى بين كون المشركين مفتونين بشركهم متهالكين في حبه، فذكر أن عاقبة كفرهم الذي لزموه أعمارهم وقاتلوا عليه وافتخروا به وقالوا إنه دين آبائنا لم تكن إلا الجحود والتبرؤ منه والحلف على عدم التدين به، ومثاله أن نرى إنسانا يحب شخصا مذموم الطريقة فإذا وقع في محنة بسببه تبرأ منه، فيقال له: ما كانت محبتك أي عاقبة محبتك لفلان إلا أن تبرأت منه وتركته، فعلى هذا تكون فتنتهم هي شركهم في الدنيا كما فسرها ابن عباس، ولكن لا بد من تقدير مضاف وهو العاقبة.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بعد أن ذكر الله تعالى أن إنكار نبوة محمد ﷺ خسران للنفس ـ ذكر أن الافتراء على الله ظلم لها، وقد خاب من افترى.

٢. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أي لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبا، كمن زعم أن له ولدا أو شريكا أو أن غيره يدعى معه أو من دونه أو يتّخذ وليا له يقرّبه إليه زلفى ويشفع للناس عنده، أو زاد في دينه ما ليس منه، أو من كذب بآياته المنزلة كالقرآن، أو آياته الكونية الدالة على وحدانيته أو التي يؤيد بها رسله، وإذا كان كل من التكذيب والكذب والافتراء قد بلغ غاية القبح وصاحبه يعدّ مفتريا ظالما، فما حال من جمع بينهما، فكذب على الله وكذب بآياته المثبتة للتوحيد والمثبتة للرسالة؟

٣. ثم بين سبحانه عاقبة الظالمين وسوء منقلبهم فقال: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي إن الظالمين عامة لا يفوزون في عاقبة أمرهم يوم الحساب والجزاء بالنجاة من عذاب الله ولا بنعيم الجنة، فكيف تكون عاقبة من افترى على الله الكذب وكذب بآياته فكان أظلم الظالمين.

---

(١) تفسير المراغي ٧/ ٩٦.

٤. ثم بين أن المفترين على الله الكذب يسألون يوم القيامة سؤال توبيخ وإنكار على ما اجترحوا فقال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي واذكر لهم أيها الرسول يوم نحشرهم جميعا على اختلاف درجاتهم في ظلم أنفسهم وظلم غيرها، ثم نقول للذين أشركوا منهم وهم أشدهم ظلما: أين الشركاء الذين كنتم تزعمون في الدنيا أنهم أولياؤكم من دون الله تستعينون بهم كما يستعان به ويدعون كما يدعى، وأنهم يقربونكم إليه زلفى ويشفعون لكم عنده، فأين ضلوا عنكم فلا يرون معكم؟ كما جاء في الآية الأخرى ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾

٥. ثم أخبر بأنهم يوم القيامة ينكرون ذلك الشرك فقال: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ الفتنة هنا الشرك أي ثم لم تكن عاقبة هذا الشرك إلا أن أقسموا بالله يوم القيامة أنهم ما كانوا مشركين، وظاهر الآيات يدل على أنهم كانوا ينكرون في بعض مواقف الحشر شركهم بالله توهما منهم أن ذلك ينفعهم كما جاء في هذه الآية، ويعترفون به في بعض آخر كما جاء في قوله: ﴿هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ﴾ وفي قوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا﴾، وروى عن ابن عباس أنه سئل عن هذه الآية وعن قوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا﴾ فقال: أمّا قوله: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فإنهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام قالوا تعالوا لنجحد ﴿قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فختم الله على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا﴾، وقال الزجاج: (تأويل هذه الآية حسن في اللغة لا يعرفه إلا من وقف على معاني كلام العرب، وذلك أنه تعالى بين كون المشركين مفتونين بشركهم متهالكين في حبه، فذكر أن عاقبة كفرهم الذي لزموه أعمارهم وقاتلوا عليه وافتخروا به وقالوا إنه دين آبائنا لم تكن إلا الجحود والتبرؤ منه والحلف على عدم التدين به، ومثاله أن ترى إنسانا يحب شخصا مذموم الطريقة، فإذا وقع في محنة بسببه تبرأ منه، فيقال له ما كانت محبتك (عاقبة محبتك) لفلان إلا أن تبرأت منه وتركته)، وعلى هذا فالفتنة هي شركهم في الدنيا كما فسرها ابن عباس، ويكون في الكلام تقدير مضاف هو كلمة (عاقبة) كما قدمنا ذلك.

٦. ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ هذا تعجب من كذبهم الصريح بإنكار صدور الإشراك عنهم في الدنيا.

٧. ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي انظر كيف كذبوا باليمين الفاجرة بإنكار صدور ما صدر عنهم؟ وكيف ذهب عنهم ما كانوا يفترونه من الإشراك حتى نفوا صدوره عنهم بتاتا وتبرءوا منه غاية البراءة؟

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. هذا استطراد في مواجهة المشركين بحقيقة ما يزاولونه، ووصف موقفهم وعملهم في تقدير الله سبحانه.. مواجهة تبدأ باستفهام تقريري لظلمهم بافتراء الكذب على الله؛ وذلك فيما كانوا يدعونه من أنهم على دينه الذي جاء به إبراهيم عليه السلام؛ ومن زعمهم أن ما يحلونه وما يحرمونه من الأنعام والمطاعم والشعائر ـ كالذي سيجيء في آخر السورة مشفوعا بقوله تعالى: (بزعمهم) ـ هو من أمر الله.. وليس من أمره.

٢. وذلك كالذي يزعمه بعض من يدعون اليوم أنهم على دين الله الذي جاء به محمد ﷺ ويقولون عن أنفسهم إنهم (مسلمون)! وهو من الكذب المفترى على الله، ذلك أنهم يصدرون أحكاما وينشئون أوضاعا، ويبتدعون قيما من عند أنفسهم يغتصبون فيها سلطان الله ويدعونه لأنفسهم، ويزعمون أنها هي دين الله؛ ويزعم لهم بعض من باعوا دينهم ليشتروا به مثوى في دركات الجحيم، أنه هو دين الله!..

٣. وباستنكار تكذيبهم كذلك بآيات الله، التي جاءهم بها النبي ﷺ فردوها وعارضوها وجحدوها، وقالوا: إنها ليست من عند الله، بينما هم يزعمون أن ما يزاولونه في جاهليتهم هو الذي من عند الله! وذلك كالذي يحدث من أهل الجاهلية اليوم.. حذوك النعل بالنعل.. يواجههم باستنكار هذا كله؛ ووصفه بأنه أظلم الظلم: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى الله كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾، والظلم هنا كناية عن الشرك، في صورة التفظيع له والتقبيح، وهو التعبير الغالب في السياق القرآني عن الشرك، وذلك حين يريد أن يبشع الشرك وينفر منه، ذلك أن الشرك ظلم للحق، وظلم للنفس، وظلم للناس، هو اعتداء على حق الله سبحانه في أن يوحد ويعبد بلا شريك، واعتداء على النفس بإيرادها موارد الخسارة والبوار،

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/ ١٠٦٣.

واعتداء على الناس بتعبيدهم لغير ربهم الحق، وإفساد حياتهم بالأحكام والأوضاع التي تقوم على أساس هذا الاعتداء.. ومن ثم فالشرك ظلم عظيم، كما يقول عنه رب العالمين، ولن يفلح الشرك ولا المشركون: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾

٤. والله سبحانه يقرر الحقيقة الكلية؛ ويصف الحصيلة النهائية للشرك والمشركين ـ أو للظلم والظالمين ـ فلا عبرة بما تراه العيون القصيرة النظر، في الأمد القريب، فلاحا ونجاحا.. فهذا هو الاستدراج المؤدي إلى الخسار والبوار.. ومن أصدق من الله حديثا؟ وهنا يصور من عدم فلاحهم موقفهم يوم الحشر والحساب، في هذا المشهد الحي الشاخص الموحي: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

٥. إن الشرك ألوان، والشركاء ألوان، والمشركين ألوان.. وليست الصورة الساذجة التي تتراءى للناس اليوم حين يسمعون كلمة الشرك وكلمة الشركاء وكلمة المشركين: من أن هناك ناسا كانوا يعبدون أصناما أو أحجارا، أو أشجارا، أو نجوما، أو نارا.. إلخ.. هي الصورة الوحيدة للشرك! إن الشرك في صميمه هو الاعتراف لغير الله سبحانه بإحدى خصائص الألوهية.. سواء كانت هي الاعتقاد بتسيير إرادته للأحداث ومقادير الكائنات، أو كانت هي التقدم لغير الله بالشعائر التعبدية والنذور وما إليها، أو كانت هي تلقي الشرائع من غير الله لتنظيم أوضاع الحياة.. كلها ألوان من الشرك، يزاولها ألوان من المشركين، يتخذون ألوانا من الشركاء! والقرآن الكريم يعبر عن هذا كله بالشرك؛ ويعرض مشاهد يوم القيامة تمثل هذه الألوان من الشرك والمشركين والشركاء؛ ولا يقتصر على لون منها، ولا يقصر وصف الشرك على واحد منها؛ ولا يفرق في المصير والجزاء بين ألوان المشركين في الدنيا وفي الآخرة سواء..

٦. ولقد كان العرب يزاولون هذه الألوان من الشرك جميعا: كانوا يعتقدون أن هناك كائنات من خلق الله، لها مشاركة ـ عن طريق الشفاعة الملزمة عند الله ـ في تسيير الأحداث والأقدار، كالملائكة، أو عن طريق قدرتها على الأذى ـ كالجن بذواتهم أو باستخدام الكهان والسحرة لهم ـ أو عن طريق هذه وتلك ـ كأرواح الآباء والأجداد ـ وكل أولئك كانوا يرمزون له بالأصنام التي تعمرها أرواح هذه الكائنات؛ ويستنطقها الكهان؛ فتحل لهم ما تحل، وتحرم عليهم ما تحرم.. وإنما هم الكهان في الحقيقة.. هم الشركاء!

وكانوا يزاولون الشرك في تقديم الشعائر لهذه الأصنام؛ وتقديم القربان لها والنذور ـ وفي الحقيقة للكهان ـ كما أن بعضهم ـ نقلا عن الفرس ـ كانوا يعتقدون في الكواكب ومشاركتها في تسيير الأحداث ـ عن طريق المشاركة لله ـ ويتقدمون لها كذلك بالشعائر (ومن هنا علاقة الحلقة المذكورة في هذه السورة من قصة إبراهيم عليه السلام بموضوع السورة كما سيأتي)، وكذلك كانوا يزاولون اللون الثالث من الشرك بإقامتهم لأنفسهم ـ عن طريق الكهان والشيوخ ـ شرائع وقيما وتقاليد، لم يأذن بها الله.. وكانوا يدعون ما يدعيه بعض الناس اليوم من أن هذا هو شريعة الله!

٧. وفي هذا المشهد ـ مشهد الحشر والمواجهة ـ يواجه المشركين ـ كل أنواع المشركين بكل ألوان الشرك ـ بسؤالهم عن الشركاء ـ كل أصناف الشركاء ـ أين هم؟ فإنه لا يبدو لهم أثر؛ ولا يكفون عن أتباعهم الهول والعذاب: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، والمشهد شاخص، والحشر واقع، والمشركون مسئولون ذلك السؤال العظيم.. الأليم: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، وهنا يفعل الهول فعله.. هنا تتعرى الفطرة من الركام الذي ران عليها في الدنيا.. هنا ينعدم من الفطرة ومن الذاكرة ـ كما هو منعدم في الواقع والحقيقة ـ وجود الشركاء؛ فيشعرون أنه لم يكن شرك، ولم يكن شركاء.. لم يكن لهذا كله من وجود لا في حقيقة ولا واقع.. هنا (يفتنون) فيذهب الخبث، ويسقط الركام ـ من فتنة الذهب بالنار ليخلص من الخبث والزبد ـ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾

٨. إن الحقيقة التي تجلت عنها الفتنة، أو التي تبلورت فيها الفتنة، هي تخليهم عن ماضيهم كله وإقرارهم بربوبية الله وحده؛ وتعريهم من الشرك الذي زاولوه في حياتهم الدنيا.. ولكن حيث لا ينفع الإقرار بالحق والتعري من الباطل.. فهو إذن بلاء هذا الذي تمثله قولتهم وليس بالنجاة.. لقد فات الأوان.. فاليوم للجزاء لا للعمل.. واليوم لتقرير ما كان لا لاسترجاع ما كان.. لذلك يقرر الله سبحانه، معجبا رسوله ﷺ من أمر القوم، أنهم كذبوا على أنفسهم يوم اتخذوا هؤلاء الشركاء شركاء، حيث لا وجود لشركتهم مع الله في الحقيقة، وأنهم اليوم غاب عنهم ما كانوا يفترونه، فاعترفوا بالحق بعد ما غاب عنهم الافتراء: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

٩. فالكذب منهم كان على أنفسهم؛ فهم كذبوها وخدعوها يوم اتخذوا مع الله شريكا، وافتروا

على الله هذا الافتراء، وقد ضل عنهم ما كانوا يفترون وغاب، في يوم الحشر والحساب! هذا هو التأويل الذي أستريح إليه في حلفهم بالله يوم القيامة وهم في حضرته: أنهم ما كانوا مشركين.

١٠. وفي تأويل كذبهم على أنفسهم كذلك، فهم لا يجرؤون يوم القيامة أن يكذبوا على الله، وأن يحلفوا أنهم ما كانوا مشركين عامدين بالكذب على الله ـ كما تقول بعض التفاسير ـ فهم يوم القيامة لا يكتمون الله حديثا.. إنما هو تعري الفطرة عن الشرك أمام الهول الرعيب؛ وانمحاء هذا الباطل الكاذب حتى لا أثر له في حسهم يومذاك، ثم تعجيب الله سبحانه من كذبهم الذي كذبوه على أنفسهم في الدنيا؛ والذي لا ظل له في حسهم ولا في الواقع يوم القيامة!.. والله أعلم بمراده على كل حال.. إنما هو احتمال..

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾، هو تهديد ووعيد للكافرين من أهل الكتاب هؤلاء، الذين افتروا على الله الكذب، فحرّفوا كلماته، وبدّلوا آياته، وقالوا في محمد وفي كتابه، غير ما عرفوه من كتاب الله عندهم، فإن لم يكن منهم في هذا تحريف ولا تبديل، فقد كان منهم تكذيب لآيات الله، بتأويلها تأويلا فاسدا، وحملها على مفاهيم منكرة، تحجب وجه الحق فيها في كتابهم من دلائل تدلّ على النبيّ وتحدد صفته، وصفة رسالته.

٢. ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ حكم على أهل الكتاب، الذين ظلموا الحقّ، وظلموا أنفسهم، فضلوا وأضلوا.. وذلك هو الخسران المبين.

٣. ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ومن هذا الموقف الذي دعي إليه المشركون وأهل الكتاب إلى مواجهة الرسول الكريم، وأخذ شهادتهم فيه، وفي الكتاب الذي بين يديه ـ من هذا الموقف ينتقل هؤلاء جميعا انتقالا سريعا إلى موقف آخر، هو موقف الحشر يوم القيامة.. وإذا هم يلقون الجزاء الذي يستحقونه، لكفرهم بالله، وتكذيبهم لرسول الله.

٤. ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؟ ويتلفت

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/ ١٤٨.

القوم إلى هؤلاء الشركاء الذين يسألهم الحقّ جلّ وعلا عنهم، فلا يجدون لهم أثرا، ويخيّل إليهم من ضلالهم أن جسم الجريمة قد اختفى، وأنهم لن يؤخذوا بهذا الجرم الذي لا يقوم شاهد على وجوده.. فيقولون كذبا، وبهتانا: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.. يقسمون بالله ويؤمنون به، ويدعونه ربّهم، إمعانا في الكذب، وتعلقا بالوهم، للفرار من هذا الموقف الرهيب!

٥. في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ إشارة إلى أن هذا القول الذي قالوه هو فتنة أخرى، إذ ما زالوا على ضلالهم القديم، وتصورهم الفاسد، وأنه تعالى لا يعلم ما قدّموا وما أخّروا، وما أسرّوا وما أعلنوا.. فسمّى سبحانه وتعالى هذا القول منهم فتنة.. ولم يقل سبحانه: ثم لم يكن قولهم، أو جوابهم.. إذ كان قولهم هذا، هو فتنة لهم وضلال مبين.

٦. في قوله تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ تشنيع عليهم، وفضح لسوء معتقدهم في الله، ودعوة للناس أن يروهم وهم متلبسون بهذا الضلال المبين.. وإنهم إذ قالوا هذا القول المفضوح، قد كذبوا على أنفسهم، وغذّوها بالخداع والضلال، أما الحقيقة فهي قائمة عليهم، ممسكة بهم، ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٤]

٧. قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ إشارة إلى أن ما كانوا يعبدونهم من دون الله، قد أخلوا أيديهم منهم، وتبرءوا من الصلة التي أقامها هؤلاء المشركون معهم، ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ (٤٠ ـ ٤١ سبأ).. ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِّ كَذِبًا﴾، المراد بالظلم هنا الكفر، لأن كل من افترى الكذب على الله فهو كافر.. لا فرق إطلاقا بين من جعل له شريكا، ومن حرف حكما من أحكامه عن عمد وعلم،

---

(١) التفسير الكاشف: ٣/ ١٧٤.

ومن ادعى النيابة عن المعصوم، أو الشفاعة للخلق عند الحق، وهو يعلم انه مفتر كذاب ـ كل هؤلاء كفرة فجرة اجماعا وكتابا وسنة.

٢. ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أشارت الجملة الأولى من الآية إلى من يختلق ما لا وجود له، كمن جعل لله شريكا أو ولدا، وتشير هذه الجملة إلى من ينكر الموجود، كمن يجحده من الأساس، وحكم الاثنين واحد، كل منهما ظالم، وما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع.

٣. ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، المؤمنون بالله على نوعين: منهم من يؤمن بألوهيته وتوحيده، ويسمون الموحدين، ومنهم من يؤمن بألوهيته وألوهية غيره، وهؤلاء أفسدوا ايمانهم بهذه الضميمة، وصاروا والجاحدين سواء، لأن جعل المثيل لله معناه في الواقع انكار الله من رأس، إذ المفروض أن الله سبحانه لا شبيه له ولا مثيل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيء وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ وسيواجه الله المشركين بهذا السؤال: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون، وتستعينون بهم كما تستعينون بالله، سيواجههم بهذا السؤال على سبيل التوبيخ والتقريع، لا على سبيل الحقيقة.

٤. سؤال وإشكال: لماذا قال تعالى: أين شركاؤكم، ولم يقل أين شركائي، مع العلم بأن الكافرين أضافوا الشركاء اليه، لا اليهم؟ والجواب: إن الاضافة تصح لأدنى مناسبة، والمشركون هم الذين ابتدعوا الشرك الذي لا عين له ولا أثر في حقيقة الأمر والواقع.

٥. ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا وَاللهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، المراد بالفتنة هنا شركهم وافتتانهم بالأوثان، والمعنى كانت عاقبة الشرك الذي ابتدعوه هي يمينهم الفاجرة انهم ما كانوا مشركين.

٦. سؤال وإشكال: إن قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَاللهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ يتنافى مع قوله: ﴿وَلا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً﴾، هذا، إلى أن المعروف أن الإنسان لا يستطيع الكذب يوم القيامة، والجواب: إن في القيامة العديد من المواقف، يستطيع الإنسان في بعضها الإنكار، حيث لم يشهد عليه في هذا الموقف يداه ورجلاه بما كان يعمل، وعلى هذا الموقف يحمل قوله تعالى: ﴿وَاللهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، وفي بعض المواقف يعترف بما كان منه، حيث لا مجال للإنكار، وعليه يحمل قوله: ﴿وَلا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً﴾، أما القول: إن الإنسان يعجز عن الكذب إطلاقا يوم القيامة فتكذبه الآية ١٨ من سورة المجادلة: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكاذِبُونَ﴾

٧. سؤال وإشكال: يتفرع من الجواب عن السؤال الأول، وهو إذا قدر الإنسان غدا على الكذب، بل والقسم عليه بالله أيضا، تماما كما هو شأنه في هذه الحياة، إذا كان الأمر كذلك فما هو الوجه لتسمية الآخرة بدار الصدق، وتسمية دارنا هذه بدار الكذب؟ والجواب: المراد بهذه التفرقة بين الدارين أن الكذب في هذه الدار قد يدفع عن صاحبه ضرا، أو يجلب له نفعا، أما في الدار الآخرة فلا يغنيه عن الصدق شيء.. وبكلمة أن العجز عن الكذب شيء والقدرة عليه مع عدم جدواه شيء آخر.

٨. ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾، الخطاب موجه للنبي ﷺ، والمراد به العموم، وهو تعجب من انكارهم الشرك، وقد ماتوا عليه.. وكل من أنكر ما هو فيه، أو ادعى ما ليس فيه عامدا متعمدا فقد كذب على نفسه وعلى الله والناس، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، وضل عنهم عطف على كذبوا، والمعنى انظر يا محمد كيف غاب عن المشركين ما كانوا يرجون نصرته وشفاعته.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ عطف على جملة ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [الأنعام: ٢٠]، فالمراد بهم المشركون مثل قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ وقد تقدّم نظيره في سورة البقرة [١١٤]، والمراد بافترائهم عقيدة الشرك في الجاهلية بما فيها من تكاذيب، وبتكذيبهم الآيات تكذيبهم القرآن بعد البعثة، وقد جعل الآتي بواحدة من هاتين الخصلتين أظلم الناس فكيف بمن جمعوا بينهما.

٢. جملة: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ تذييل، فلذلك فصلت، أي إذا تحقّق أنّهم لا أظلم منهم فهم غير مفلحين، لأنّه لا يفلح الظالمون فكيف بمن بلغ ظلمه النهاية، فاستغنى بذكر العلّة عن ذكر المعلول، وموقع (إنّ) في هذا المقام يفيد معنى التعليل للجملة المحذوفة، كما تقرّر في كلام عبد القاهر، وموقع ضمير الشأن معها أفاد الاهتمام بهذا الخبر اهتمام تحقيق لتقع الجملة الواقعة تفسيرا له في نفس السامع موقع الرسوخ.

---

(١) التحرير والتنوير: ٦/ ٥١.

٣. والافتراء الكذب المتعمّد، وقوله: ﴿كَذِبًا﴾ مصدر مؤكّد له، وهو أعمّ من الافتراء، والتأكيد يحصل بالأعم، كما قدّمناه في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ﴾ في سورة المائدة [١٠٣]، وقد نفى فلاحهم فعمّ كلّ فلاح في الدنيا والآخرة، فإنّ الفلاح المعتدّ به في نظر الدين في الدنيا هو الإيمان والعمل، وهو سبب فلاح الآخرة.

٤. ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ عطف على جملة: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٢١]، أو على جملة ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١]، فإنّ مضمون هذه الجمل المعطوفة له مناسبة بمضمون جملة ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ ومضمون جملة ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾، لأنّ مضمون هذه من آثار الظلم وآثار عدم الفلاح، ولأنّ مضمون الآية جامع للتهديد على الشرك والتكذيب ولإثبات الحشر ولإبطال الشرك.

٥. انتصب ﴿يَوْمَ﴾ على الظرفية، وعامله محذوف، والأظهر أنّه يقدّر ممّا تدلّ عليه المعطوفات وهي: نقول، أو قالوا، أو كذّبوا، أو ضلّ، وكلّها صالحة للدلالة على تقدير المحذوف، وليست تلك الأفعال متعلّقا بها الظرف بل هي دلالة على المتعلّق المحذوف، لأنّ المقصود تهويل ما يحصل لهم يوم الحشر من الفتنة والاضطراب الناشئين عن قول الله تعالى لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ﴾، وتصوير تلك الحالة المهولة، وقدّر في (الكشاف) الجواب ممّا دلّ عليه مجموع الحكاية، وتقديره: كان ما كان، وأنّ حذفه مقصود به الإبهام الذي هو داخل في التخويف، وقد سلك في هذا ما اعتاده أئمّة البلاغة في تقدير المحذوفات من الأجوبة والمتعلّقات، والأحسن عندي أنّه إنّما يصار إلى ذلك عند عدم الدليل في الكلام على تعيين المحذوف وإلّا فقد يكون التخويف والتهويل بالتفصيل أشدّ منه بالإبهام إذا كان كلّ جزء من التفصيل حاصلا به تخويف، وقدّر بعض المفسّرين: اذكر يوم نحشرهم، ولا نكتة فيه، وهنالك تقديرات أخرى لبعضهم لا ينبغي أن يعرّج عليها.

٦. الضمير المنصوب في ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ يعود إلى ﴿مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٢١] أو إلى ﴿الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١] إذ المقصود بذلك المشركون، فيؤذن بمشركين ومشرك بهم، وللتنبيه على أنّ الضمير عائد إلى المشركين وأصنامهم جيء بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ ليدلّ على قصد الشمول، فإنّ شمول الضمير لجميع المشركين لا يتردّد فيه السامع حتى يحتاج إلى تأكيده باسم الإحاطة والشمول، فتعيّن أنّ ذكر

﴿جَمِيعًا﴾ قصد منه التنبيه، على أنّ الضمير عائد إلى المشركين وأصنامهم، فيكون نظير قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ [يونس: ٢٨]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [الفرقان: ١٧] وانتصب ﴿جَمِيعًا﴾ هنا على الحال من الضمير، والمقصود من حشر أصنامهم معهم أن تظهر مذلّة الأصنام وعدم جدواها كما يحشر الغالب أسرى قبيلة ومعهم من كانوا ينتصرون به، لأنّهم لو كانوا غائبين لظنّوا أنّهم لو حصروا لشفعوا، أو أنّهم شغلوا عنهم بما هم فيه من الجلالة والنعيم، فإنّ الأسرى كانوا قد يأملون حضور شفائعهم أو من يفاديهم، قال النابغة: (يأملن رحلة نصر وابن سيّار)

٧. عطف ﴿نَقُولُ﴾ بـ ﴿ثُمَّ﴾ لأنّ القول متأخّر عن زمن حشرهم بمهلة لأنّ حصّة انتظار المجرم ما سيحلّ به أشدّ عليه، ولأنّ في إهمال الاشتغال بهم تحقيرا لهم، وتفيد ﴿ثُمَّ﴾ مع ذلك الترتيب الرتبي.

٨. صرّح بـ ﴿لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ لأنّهم بعض ما شمله الضمير، أي ثم نقول للذين أشركوا من بين ذلك الجمع.

٩. أصل السؤال بـ ﴿أَيْنَ﴾ أنّه استفهام عن المكان الذي يحلّ فيه المسند إليه، نحو: أين بيتك، وأين تذهبون، وقد يسأل بها عن الشيء الذي لا مكان له، فيراد الاستفهام عن سبب عدمه، كقول أبي سعيد الخدري لمروان بن الحكم حين خرج يوم العيد فقصد المنبر قبل الصلاة: أين تقديم الصلاة، وقد يسأل بأين عن عمل أحد كان مرجوّا منه، فإذا حضر وقته ولم يحصل منه يسأل عنه بأين، كأنّ السائل يبحث عن مكانه تنزيلا له منزلة الغائب المجهول مكانه؛ فالسؤال بأين هنا عن الشركاء المزعومين وهم حاضرون كما دلّت عليه آيات أخرى، قال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [الصافات: ٢٢]

١٠. الاستفهام توبيخي عمّا كان المشركون يزعمونه من أنّها تشفع لهم عند الله، أو أنّها تنصرهم عند الحاجة، فلمّا رأوها لا غناء لها قيل لهم: أين شركاؤكم، أي أين عملهم فكأنّهم غيّب عنهم.

١١. أضيف الشركاء إلى ضمير المخاطبين إضافة اختصاص لأنّهم الذين زعموا لهم الشركة مع الله في الإلهية فلم يكونوا شركاء إلّا في اعتقاد المشركين، فلذلك قيل: ﴿شُرَكَاؤُكُمُ﴾، وهذا كقول أحد أبطال العرب لعمرو بن معد يكرب لمّا حدّث عمرو في جمع أنّه قتله، وكان هو حاضرا في ذلك الجمع،

فقال له: (مهلا أبا ثور قتيلك يسمع)، أي المزعوم أنّه قتيلك.

١٢. وصفوا بـ ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ تكذيبا لهم؛ وحذف المفعول الثاني لـ ﴿تَزْعُمُونَ﴾ ليعمّ كلّ ما كانوا يزعمونه لهم من الإلهية والنصر والشفاعة؛ أمّا المفعول الأول فحذف على طريقة حذف عائد الصلة المنصوب.

١٣. الزعم: ظنّ يميل إلى الكذب أو الخطأ أو لغرابته يتّهم صاحبه، فيقال: زعم، بمعنى أنّ عهدة الخبر عليه لا على الناقل، وتقدّم عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآية في سورة النساء [٦٠]، وتأتي زيادة بيان لمعنى الزعم عند قوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾ في سورة التغابن [٧]

١٤. ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ عطف على جملة ﴿ثُمَّ نَقُولُ﴾ و(ثم) للترتيب الرتبي وهو الانتقال من خبر إلى خبر أعظم منه، والفتنة أصلها الاختبار، من قولهم: فتن الذهب إذا اختبر خلوصه من الغلث، وتطلق على اضطراب الرأي من حصول خوف لا يصبر على مثله، لأنّ مثل ذلك يدلّ على مقدار ثبات من يناله، فقد يكون ذلك في حالة العيش؛ وقد يكون في البغض والحبّ؛ وقد يكون في الاعتقاد والتفكير وارتباك الأمور، وقد تقدّم الكلام عليها عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ في سورة البقرة [١٠٢]

١٥. ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ هنا استثني منها ﴿أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، فذلك القول إمّا أن يكون من نوع ما استثني هو منه المحذوف في تفريغ الاستثناء، فيكون المستثنى منه من الأقوال الموصوفة بأنّها فتنة، فالتقدير: لم يكن لهم قول هو فتنة لهم إلّا قولهم ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، وإمّا أن يكون القول المستثنى دالا على فتنتهم، أي على أنهم في فتنة حين قالوه، وأيّا ما كان فقولهم: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ متضمّن أنّهم مفتونون حينئذ، وعلى ذلك تحتمل الفتنة أن تكون بمعنى اضطراب الرأي والحيرة في الأمر، ويكون في الكلام إيجاز، والتقدير: فافتتنوا في ماذا يجيبون، فكان جوابهم أن قالوا: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فعدل عن المقدّر إلى هذا التركيب لأنّه قد علم أنّ جوابهم ذلك هو فتنتهم لأنّه أثرها ومظهرها، ويحتمل أن يراد بالفتنة جوابهم الكاذب لأنّه يفضي إلى فتنة صاحبه، أي تجريب حالة نفسه، ويحتمل أن تكون أطلقت على معناها الأصلي وهو الاختبار، والمراد به السؤال لأنّ السؤال اختبار عمّا عند المسئول من العلم، أو من الصدق وضدّه، ويتعيّن حينئذ تقدير مضاف، أي لم يكن جواب فتنتهم، أي سؤالهم عن حال إشراكهم إلّا أن قالوا: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾

١٦. قراءات ووجوه:

أ. قرأ الجمهور ﴿لَمْ تَكُنْ﴾ ـ بتاء تأنيث حرف المضارعة ـ، وقرأه حمزة، والكسائي، ويعقوب ـ بياء المضارعة للغائبة ـ باعتبار أنّ ﴿قَالُوا﴾ هو اسم (كان)

ب. وقرأ الجمهور ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ ـ بالنصب ـ على أنّه خبر (كان)، فتكون (كان) ناقصة واسمها ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ وإنّما أخّر عن الخبر لأنّه محصور، وقرأه ابن كثير، وابن عامر، وحفص عن عاصم ـ بالرفع ـ على أنّه اسم (كان) و﴿أَنْ قَالُوا﴾ خبر (كان)، فتجعل (كان) تامّة، والمعنى لم توجد فتنة لهم إلّا قولهم: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، أي لم تقع فتنتهم إلّا أن نفوا أنّهم أشركوا، ووجه اتّصال الفعل بعلامة مضارعة للمؤنّث على قراءة نصب ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ هو أنّ فاعله مؤنّث تقديرا، لأنّ القول المنسبك من (أن) وصلتها من جملة الفتنة على أحد التأويلين، قال أبو علي الفارسي: وذلك نظير التأنيث في اسم العدد في قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، لأنّ الأمثال لّما كانت في معنى الحسنات أنّث اسم عددها.

ج. وقرأ الجمهور ﴿رَبِّنَا﴾ ـ بالجرّ ـ على الصفة لاسم الجلالة، وقرأه حمزة، والكسائي، وخلف ـ بالنصب ـ على النداء بحذف حرفه.

١٧. ذكرهم الربّ بالإضافة إلى ضميرهم مبالغة في التنصّل من الشرك، أي لا ربّ لنا غيره، وقد كذّبوا وحلفوا على الكذب جريا على سننهم الذي كانوا عليه في الحياة، لأنّ المرء يحشر على ما عاش عليه، ولأنّ الحيرة والدهش الذي أصابهم خيّل إليهم أنّهم يموّهون على الله تعالى فيتخلّصون من العقاب، ولا مانع من صدور الكذب مع ظهور الحقيقة يومئذ، لأنّ الحقائق تظهر لهم وهم يحسبون أنّ غيرهم لا تظهر له، ولأنّ هذا إخبار منهم عن أمر غائب عن ذلك اليوم فإنّهم أخبروا عن أمورهم في الدنيا، وفي (صحيح البخاري): أنّ رجلا قال لابن عباس: إنّي أجد في القرآن أشياء تختلف عليّ، فذكر منها قوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، وقوله: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، فقد كتموا في هذه الآية، فقال ابن عباس: إنّ الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم، فيقول المشركون تعالوا نقل: ما كنّا مشركين، فيختم على أفواههم فتنطق أيديهم، فعند ذلك عرفوا أنّ الله لا يكتم حديثا.

١٨. ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ جعل حالهم المتحدّث عنه بمنزلة المشاهد، لصدور عمّن لا خلاف في أخباره، فلذلك أمر سامعه أو أمر الرسول ﷺ بما يدلّ على النظر إليه كأنّه مشاهد حاضر.

١٩. الأظهر أنّ ﴿كَيْفَ﴾ لمجرّد الحال غير دالّ على الاستفهام، والنظر إلى الحالة هو النظر إلى أصحابها حين تكيّفهم بها، وقد تقدّمت له نظائر منها قوله تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ﴾ في سورة النساء [٥٠]، وجعل كثير من المفسّرين النظر هنا نظرا قلبيا فإنّه يجيء كما يجيء فعل الرؤية فيكون معلّقا عن العمل بالاستفهام، أي تأمّل جواب قول القائل: ﴿كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ﴾ تجده جوابا واضحا بيّنا.

٢٠. ولأجل هذا التحقّق من خبر حشرهم عبّر عن كذبهم الذي يحصل يوم الحشر بصيغة الماضي في قوله: ﴿كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾، وكذلك قوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

٢١. فعل (كذب) يعدّى بحرف (على) إلى من يخبّر عنه الكاذب كذبا مثل تعديته في هذه الآية، وقول النبي ﷺ: (من كذب عليّ معتمدا فليتبوّأمقعده من النار)، وأمّا تعديته إلى من يخبره الكاذب خبرا كذبا فبنفسه، يقال: كذبك، إذا أخبرك بكذب.

٢٢. (ضلّ) بمعنى غاب كقوله تعالى: ﴿ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠]، أي غيّبنا فيها بالدفن، و﴿مَا﴾ موصولة و﴿يَفْتَرُونَ﴾ صلتها، والعائد محذوف، أي يختلقونه وما صدق ذلك هو شركاؤهم، والمراد: غيبة شفاعتهم ونصرهم لأنّ ذلك هو المأمول منهم فلمّا لم يظهر شيء من ذلك نزّل حضورهم منزلة الغيبة، كما يقال: أخذت وغاب نصيرك، وهو حاضر.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾، الاستفهام هنا إنكاري للنفي وفيه توبيخ للمشركين، هو حكم على أمر واقع، ومعنى القول: لا أحد أظلم من الذى قصد إلى الفرية على الله تعالى، أو كذب الحجج القائمة، أو كذب ما جاء في القرآن الكريم من آيات بينات، ومعنى النص أن المشركين كذبوا على الله تعالى بكل عقائدهم، وبذلك بلغوا أقصى درجات الظلم الذى لا يوجد أعلى منه، إذ بلغوا أقصى غايات الكذب الذى يبهت العقلاء والأمناء الصادقين، وقد قال الزمخشري

(١) زهرة التفاسير: ٥/ ٢٤٦٨.

في بيان كذبهم على الله تعالى: (جمعوا بين أمرين متناقضين، فكذبوا على الله تعالى بما لا حجة عليه، وكذبوا بما ثبت بالحجة البينة والبرهان الصحيح، حيث قالوا: لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا، والله أمرنا بها، وقالوا: الملائكة بنات الله، وهؤلاء شفعاؤنا عند الله، ونسبوا إليه تحريم البحائر والسوائب، وذهبوا فكذبوا القرآن والمعجزات وسموها سحرا ولم يؤمنوا بالرسول ﷺ)

٢. هذه بعض أكاذيبهم على الله تعالى التي بلغوا بها أقصى درجات الكذب، وبها استحقوا أن يكونوا هم، ومن يشابهونهم أكثر الناس افتراء، وأظلم الناس في هذا الافتراء، وخلاصتها أنهم كذبوا على الله تعالى بأن ادعوا عليه سبحانه ما لم يكن، وكانوا في ذلك مرتكبين لأعظم بهتان، وكذبوا بآياته، والآيات قسمان: آيات هي المعجزات، ومنها التي تحدى بها الأنبياء، والآيات الكونية، وقد كذبوا الاثنين، وكفروا بآيات الله تعالى في آيات الكون الدالة على إبداع خلقه، وأنه سبحانه هو الخالق وحده، وهناك الآيات القرآنية قد كذبوا بها فلم يؤمنوا، ولا يمكن أن يفوزوا وهم على هذا الظلم.

٣. ولذلك ختم الله تعالى الآية بقوله تعالت كلماته: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ فالظلم وخصوصا ظلم الكذب يفسد النفس، ويفسد العقل ويفسد العمل.

٤. ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ الكلام هنا متصل بما قبله، ذلك أن ختام الآية السابقة هو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ وذلك يومئ إلى أن الله لا يوفقهم للخير في الدين؛ لأنهم خسروا أنفسهم ولم يؤمنوا، ولأنهم أظلم الناس بافترائهم على الله، وتكذيبهم لآيات الله، ويوم يحشرهم أي يجمع الناس جميعا لا يستثنى منهم أحد، يكون الخسران المبين، والعذاب الأليم، والحرمان من النعيم.

٥. والحشر مؤكد بكلمة ﴿جَمِيعًا﴾، وهذا التأكيد يمنع احتمال التخصيص، ويكون الضمير يعود على الناس أجمعين، وأن الذين يعاقبون ويحاسبون هم الذين أشركوا؛ ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ والعطف بـ (ثم) كان لتعدد الوقائع قبل هذا الخطاب الموجه للمشركين خاصة، والذين اختصوا بالخطاب فيه؛ لأنه لا شركاء يزعمونهم آلهة مع الله إلا عند الذين أشركوا، فهناك أمور تقع يوم القيامة قبل هذا الخطاب وكان تقدير القول هكذا: يوم نحشر يكون الحساب، وتحضر كل نفس ما كسبت، ويكون لكل امرئ كتابه، ويحصى عمله من خير وشر، ثم نقول للذين أشركوا: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ

تَزْعُمُونَ﴾ الشركاء هم الآلهة التي زعموها آلهة مع الله تعالى، فإضافة الشركاء إليهم لأدنى ملابسة، أي لمجرد العلاقة النفسية والفكرية التي نحلتها عقولهم السقيمة في إدراكها لهم، وهل كانوا غائبين عنهم، حتى يبحث عن مكانهم، لعل ذلك يكون، ولعل حالهم من أنهم لا قوة لهم، وليس لهم الشفاعة المقربة، ولا النصرة القادرة، يعتبرون كأنهم شيء معدوم يسألون عنه، وما كان سلطانهم إلا بزعمهم الفاسد في الدنيا، وقد رأوا الحقائق عيانا، وكشفت الأمور لهم، فغاب عنهم سلطان تلك الآلهة المزعومة.

٦. ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، أصل معنى الفتنة، إدخال المعدن النار ليزول عنه الخبث الذى يعلق به، وأخص المعادن الذهب، ففتنته إدخاله في النار لتعلم جودته، ثم أطلقت على الاختبار والعذاب والبلاء، والمصيبة والكفر والإثم والألم والضلال.

٧. فى النص الكريم قراءتان:

أ. إحداهما ـ ضم تاء (فتنتهم)، والمراد من الفتنة الاختبار الشديد بهول ما رأوا، والمعنى على هذه القراءة وهي قراءة حفص: وكان من أثر الاختبار والهول الشديد الذى رأوه يوم الحشر والحساب، أن نسوا ما كانوا عليه من شرك، وقالوا مقسمين: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ أي أنهم أقسموا بالله غير صادقين في الحقيقة، ونادوا الله بـ (ربنا) معترفين بربوبيته وحده، ويكون ذلك من فرط الهول والشدة وعظمة ما رأوا من صدق الحقائق، حتى كذبوا أنفسهم.

ب. الثانية: بفتح التاء وبالياء في يكن، ويعتبر اسم (يكن) هو﴿أَنْ قَالُوا﴾، وقد رجح هذه القراءة ابن جرير الطبري وقال في معناها: (ثم لم يكن فِتْنَتُهُمْ قيلهم عند فتنتنا إياهم اعتذارا مما سلف منهم من الشرك بالله إلا أن قالوا: والله ربنا ما كنا مشركين، فوضعت الفتنة موضع القول لمعرفة السامعين معنى الكلام، وإنما الفتنة الاختبار والابتلاء، ولكن لما كان الجواب من القوم غير واقع هنالك إلا عند الاختبار وضعت الفتنة التي هي الاختبار موضع الخبر عن جوابهم واعتذارهم)، وخلاصة المعنى الذى يقرره ابن جرير أن الفتنة الاختبار، وأنها بهذا المعنى هي السبب للقول، والقول هو المسبب ويكون التخريج هكذا لم يكن القول المتسبب عن الفتنة إلا أن قالوا إنا كنا مشركين، فعبر عن المسبب بالسبب لبيان شدة الهول وما يترتب عليه.

٨. ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، النظر هنا ليس هو نظر البصر،

ولكنه نظر القلب والتأمل والتفكير والاعتبار، والنظر القلبي إنما هو إلى حالهم وما كانوا عليه من فزع واضطراب بسبب يوم القيامة الذى تزلزل فيه: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج] فهذا التصوير لحالهم بعد رؤيتهم هول يوم القيامة، إذ قالوا غير ما كان منهم كاذبين اعتذارا عما كان أو إنكارا، أو نسيانا للهول الذى هم فيه إذ ساروا سكارى لا يعون، وهذا هو الذى نختاره فكذبهم بإخبارهم غير الواقع كان غفلة وذهولا؛ ولذا قال: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي غاب عن ذاكرتهم فنسبوا ما كانوا يفترونه من قول فيشركون مع الله غيره في العبادة، فـ (ما) اسم موصول بمعنى (الذى)، وما أنساهم إلا الهول حتى أخبروا بغير ما وقع منهم، اللهم نجنا من كرب يوم القيامة وما فيه.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. تعود الآيات إلى أصل السياق وهو الحضور فتلتفت إلى النبي ﷺ بالخطاب فتذكر له مظالم المشركين في أصول العقائد الطاهرة وهي التوحيد والاعتقاد بالنبوة والمعاد، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾، وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾، وقوله: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾، ثم تبين أن ذلك منهم أشد الظلم وإهلاك لأنفسهم وخسران لها، وتبين كيف تنعكس إليهم وتوافيهم هذه المظالم يوم القيامة فيكذبون على أنفسهم بإنكار ما قالوا في الدنيا ويتمنون الرجوع إلى الدنيا ليعملوا الصالحات، ويبدون التحسر على ما فرطوا في جنب الله سبحانه.

٢. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ الظلم من أشنع الذنوب بل التحليل الدقيق يقضي أن سائر الذنوب إنما هي شنيعة مذمومة بمقدار ما فيها من معنى الظلم، وهو الانحراف والخروج عن الوسط العدل، والظلم كما يكبر ويصغر من جهة خصوصيات من صدر عنه الظلم كذلك يختلف حاله بالكبر والصغر من جهة من وقع عليه الظلم أو أريد إيقاعه عليه فكلما جل موقعه وعظم شأنه كان الظلم أكبر وأعظم، ولا أعز قدرا وأكرم ساحة من الله سبحانه ولا من آياته الدالة عليه، فلا أظلم ممن ظلم هذه الساحة المنزهة أو ما ينتسب إليها بوجه، ولا يظلم إلا نفسه.

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٧/ ٤٥.

٣. وقد صدق الله سبحانه هذه النظرة العقلية بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أما افتراء الكذب عليه تعالى فبإثبات الشريك له، ولا شريك له، أو دعوى النبوة أو نسبة حكم إليه كذبا وابتداعا، وأما تكذيب آياته الدالة عليه فكتكذيب النبي الصادق في دعواه المقارنة للآيات الإلهية أو إنكار الدين الحق، ومنه إنكار الصانع أصلا.

٤. والآية تنطبق:

أ. على المشركين، وهم أهل الأوثان الذين إليهم وجه الاحتجاج من جهة أنهم أثبتوا لله سبحانه شركاء بعنوان أنهم شفعاء مصادر أمور في الكون، وإليهم ينتهي تدبير شئون العالم مستقلين بذلك، ومن جهة أنهم أنكروا آياته تعالى الدالة على النبوة والمعاد.

ب. وربما ألحق بعضهم بذلك القائلين بجواز شفاعة النبي ﷺ أو الطاهرين من ذريته أو الأولياء الكرام من أمته فقضى بكون الاستشفاع بهم في شيء من حوائج الدنيا أو الآخرة شركا تشمله الآية وما يناظرها من الآيات الشريفة، وكأنه خفي عليهم أنه تعالى أثبت الشفاعة إذا قارنت الإذن في كلامه من غير أن يقيده بدنيا أو آخرة، فقال عز من قائل: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ على أنه تعالى قال: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فأثبت الشفاعة حقا للعلماء الشهداء بالحق، والقدر المتيقن منهم الأنبياء ومنهم النبي ﷺ، وقد أثبت الله سبحانه شهادته بقوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] ونص على علمه حيث قال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٤] وهل يعقل نزول الكتاب الذي هو تبيان كل شيء على قلب من غير علم به، أو بعثه تعالى إياه شهيدا وليس بشهيد بالحق؟ وقال الله تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، وقال: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] فأثبت في هذه الأمة شهداء علماء ولا يثبت إلا الحق، وقال تعالى في أهل بيته عليه السلام: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] فبين أنهم مطهرون بتطهيره، ثم قال: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩] فعدهم العلماء بالقرآن الذي هو تبيان كل شيء والمطهرون هم القدر المتيقن من هذه الأمة في الشهادة بالحق التي لا سبيل للغو والتأثيم إليها.

٥. ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ الفلاح والفوز والنجاح والظفر والسعادة ألفاظ قريبة المعنى، ولهذا فسر الراغب الفلاح بإدراك البغية الذي هو معنى السعادة تقريبا، قال في المفردات: (الفلح: الشق، وقيل الحديد بالحديد يفلح أي يشق، والفلاح الأكار لذلك والفلاح الظفر وإدراك البغية، وذلك ضربان دنيوي وأخروي: فالدنيوي الظفر بالسعادات التي تطيب بها حياة الدنيا وهو البقاء والغنى والعز وإياه قصد الشاعر بقوله:

أفلح بما شئت فقد يدرك بالضعف وقد يخدع الأريب

وفلاح أخروي، وذلك أربعة أشياء: بقاء بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعز بلا ذل، وعلم بلا جهل)، فمن الممكن أن يقال: إن الفلاح هو السعادة سميت به لأن فيها الظفر وإدراك البغية بشق الموانع الحائلة دون المطلوب، وهذا معنى جامع ينطبق على موارد الاستعمال كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١]، وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩]، وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧] إلى غير ذلك من الموارد.

٦. فقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ ـ وقد أخذ الظلم وصفا ـ معناه أن الظالمين لا يدركون بغيتهم التي تشبثوا لأجل إدراكها بما تشبثوا به فإن الظلم لا يهدي الظالم إلى ما يبتغيه من السعادة والظفر بواسطة ظلمه، وذلك:

أ. أن السعادة لن تكون سعادة إلا إذا كانت بغية ومطلوبا بحسب واقع الأمر وخارج الوجود، ويكون حينئذ الشيء الذي يطلب هذه البغية والسعادة بحسب وجوده طبيعة كونه مجهزا بما يناسب هذه السعادة المطلوبة من الأسباب والأدوات كالإنسان الذي من سعادته المطلوبة أن يبقى بقاء بوضع البدل مكان ما تحلل من بنيته ثم هو مجهز بجهاز التغذي الدقيق الذي يناسب ذلك، والأدوات والأسباب الملائمة له، ثم في المادة الخارجية ما يوافق مزاج بنيته فيأخذها بالأسباب والأدوات المهيأة لذلك، ثم يصفيه ويبدل صورته إلى ما يشابه صورة المتحلل من بدنه ثم يلصقه ببدنه فيعود البدن تاما بعد نقصانه، وهذا حكم عام جار في جميع الأنواع الخارجية التي تناله حواسنا ويسعه استقراؤنا من غير تخلف واختلاف البتة.

ب. وعلى هذا يجري نظام الكون في مسيره فلكل غاية مطلوبة وسعادة مقصودة طريق خاص لا يسلك إليها إلا منه، ولو توصل إليها من غير سببه الذي يألفها النظام أوجب ذلك العطل في السبب

وبطلان الطريق، وفي عطله وبطلانه فساد جميع ما يرتبط ويتعلق به من الأسباب والعلائق كالإنسان الذي فرض توصله إلى إبقاء الوجود من غير طريق التناول والالتقام والهضم فإن ذلك يفضي إلى عطل قوته الغاذية، وفي عطله انحراف قوتيه المنمية والمولدة مثلا جميعا.

ج. وقد اقتضت العناية الإلهية في هذه الأنواع التي تعيش بالشعور والإرادة أن تعيش بتطبيق أعمالها على ما حصلته من العلم بالخارج فلو انحرفت عن الخارج لعارض ما كان في ذلك بطلان العمل، ولو تكرر ذلك بطلت الذات كالإنسان المريد للأكل إذا غلط وحسب السم غذاء أو الطين خبزا ونحو ذلك.

د. وللإنسان عقائد وآراء عامة متولدة من نظام الكون الخارجي يضعها أصلا ويطبق عمله عليها كالعائد الراجعة إلى المبدإ والمعاد، والأحكام العملية التي يجعلها مقاييس لأعماله من العبادات والمعاملات، وهذه طرق إلى السعادات الإنسانية بحسب طبعها لا طريق إليها دونها إذا سلكها الإنسان أدرك بغيته وظفر بسعادته، ولو انحرف عنها إلى غيرها ـ وهو الظلم ـ لم يوصله إلى بغيته ولئن أوصله إليه لم يثبت عليه، ولم يدم له ذلك فإن سائر الطرق والسبل مربوطة به فتنازعه في ذلك، وتخالفه وتضاده بجميع ما لها من الوسع والطاقة، ثم أجزاء الكون الخارجي الذي هو السبب لانتشاء هذه الآراء والأحكام لا توافقه في عمله، ولا تزال على هذا الحال حتى تقلب له الأمر، وتفسد عليه سعادته، وتنغص عليه عيشته.

هـ. فالظالم ربما دعته طاغية الشره إلى أن يستعمل ما له من العزة بالإثم والقدرة الكاذبة في الحصول على بغية وسعادة من غير طريقه المشروع، فيخالف الاعتقاد الحق لتوحيد الله سبحانه، أو ينازع الحقوق المشروعة فيتعدى إلى أموال الناس فيغصبها ظلما، أو إلى أعراض الناس فيهتك أستارهم عنوة، أو إلى دمائهم ونفوسهم فيتصرف فيها من غير حق أو يعصي في شيء من نواميس العبودية لله سبحانه بصلاة أو صوم أو حج أو غيرها، أو يقترف شيئا من الذنوب المتعلقة بذلك، كالكذب والفرية والخدعة ونحوها، يأتي بشيء من ذلك وربما أدرك ما قصده، وهو طيب النفس بما ظفر به من مطلوبه بحسب زعمه، وقد ذهب عن خسران صفقته وخيبة مسعاه في دنياه وآخرته.

• أما في دنياه فلأن ما سلكه من الطريق إنما هو طريق الهرج والمرج واختلال النظام إذ لو كان طريقا حقا لعم ولو عم أبطل النظام، ولو بطل النظام بطلت حياة المجتمع الإنساني فالنظام الذي يضمن

بقاء النوع الإنساني كائنا ما كان ينازعه فيما حازه بعمله غير المشروع، ولا يزال على المنازعة حتى يفسد عليه مقتضى عمله ونتيجة سعيه المشئوم عاجلا أو على مهل ولن يدوم ظلمه البتة.

• وأما في الآخرة فلأن ظلمه مكتوب في صحيفة عمله، وهو منقوش في لوح نفسه بما يورد عليها من الأثر ثم هو مجزي به عائش على وتيرته، ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾، قال الله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، وقال: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٦]، وقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [الحج: ١٠] إلى غير ذلك من الآيات وهي كثيرة، والآيات ـ كما ترى ـ تشمل المظالم الاجتماعية والفردية فهي تصدق ما تقدم من البحث، وأشملها مضمونا الآية المبحوث عنها: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾

٧. ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ إلى آخر الآيتين، الظرف متعلق بمقدر والتقدير: واذكر يوم، وقد تعلقت العناية في الكلام بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ للدلالة على أن العلم والقدرة لا يتخلفان عن أحد منهم، فالله سبحانه محيط بجميعهم علما وقدرة سيحصيهم ويحشرهم ولا يغادر منهم أحدا.

٨. والجملة في مقام بيان قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ كأنه لما قيل: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ سئل فقيل: وكيف ذلك؟ فقيل: لأن الله سيحشرهم ويسألهم عن شركائهم فيضلون عنهم ويفقدونهم فينكرون شركهم ويقسمون لذلك بالله كذبا، ولو أفلح هؤلاء الظالمون في اتخاذهم لله شركاء لم يضل عنهم شركاؤهم، ولم يكذبوا على أنفسهم بل وجدوهم على ما ادعوا من الشركة والشفاعة ونالوا شفاعتهم.

٩. ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾:

أ. قيل: المراد بالفتنة الجواب أي لم يكن جوابهم إلا أن أقسموا بالله على أنهم ما كانوا مشركين.

ب. وقيل: الكلام على تقدير مضاف والمراد: لم تكن عاقبة افتتانهم بالأوثان إلا أن قالوا.

ج. وقيل: المراد بالفتنة المعذرة، ولكل من الوجوه وجه.

١٠. ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ بيان لمحل الاستشهاد فيما

قص من حالهم يوم القيامة، والمراد أنهم سيكذبون على أنفسهم ويفقدون ما افتروا به، ولو أفلحوا في ظلمهم وسعدوا فيما طلبوا لم ينجر أمرهم إلى فقد ذلك وإنكاره على أنفسهم:

أ. أما كذبهم على أنفسهم فلأنهم لما أقسموا بالله أنهم ما كانوا مشركين أنكروا ما ادعوه في الدنيا من أن لله سبحانه شركاء، وهم كانوا يصرون عليه ويعرضون فيه عن كل حجة واضحة وآية بينة ظلما وعتوا، وهذا كذب منهم على أنفسهم.

ب. وأما ضلال ما كانوا يفترونه عنهم فلأن اليوم يوم ينجلي فيه عيانا أن الأمر والملك والقوة لله جميعا ليس لغيره من شيء إلا ذلة العبودية، والفقر والحاجة من غير أي استقلال قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لله جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابَ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقال: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لله الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [المؤمن: ١٦]، وقال: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لله﴾ [الانفطار: ١٩]

١١. فيشاهدون عندئذ مشاهدة عيان أن الألوهية لله وحده لا شريك له، ويظهر لهم أوثانهم وشركاؤهم وهم لا يملكون ضرا ولا نفعا لأنفسهم ولا لغيرهم، ووجدوا الأوصاف التي أثبتوها لهم من الربوبية والشفاعة وغيرهما إنما هي لله وحده، وقد كان اشتبه عليهم الأمر فتوهموها لغيره وضل عنهم ما كانوا يفترون، فإن استمدوا منهم ردوا عليهم ردا لا مطمع معه بعد قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ وَأَلْقَوْا إِلَى اللهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [الفاطر: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ فَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٣٠]

١٢. وبالتدبير في هذه الآيات يظهر أن المراد بضلال ما افتروا به هو ظهور حقيقة شركائهم فاقدة لوصف الشركة والشفاعة وتبينهم أن ما ظهر لهم من ذلك في الدنيا لم يكن إلا ظهورا سرابيا كما قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ [النور: ٣٩]

١٣. سؤال وإشكال: إن الآيات المتعرضة لوصف يوم القيامة ـ كما تقدم ـ ظاهرة في بروز الحقائق وخروجها عن مكمن الخفاء والالتباس الذي هو من لوازم النشأة الأولى الدنيوية كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ [المؤمن: ١٦] فأي نفع حينئذ لكذبهم؟ وكيف يكذبون وما أخبروا به من الكذب مشهود خلافه عيانا؟ وقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾ [آل عمران: ٣٠]، والجواب: كذبهم وحلفهم على الكذب يوم القيامة مما وقع في كلامه تعالى غير مرة، ومثل الآية قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨] وليس كذبهم وحلفهم عليه للتوصل به إلى الأغراض الفاسدة وستر الحق كما يتوصل إليها بالكذب في الدنيا فإن الآخرة دار جزاء لا دار عمل واكتساب، لكنهم لكونهم اعتادوا أن يتفصوا من المخاطرات والمهالك ويجلبوا المنافع إليهم بالأيمان الكاذبة والأخبار المزورة خدعة وغرورا رسخت في نفوسهم ملكة الكذب، والملكة إذا رسخت في النفس اضطرت النفس إلى إجابتها إلى ما تدعو إليه، وذلك كما أن البذي الفحاش إذا استقرت في نفسه ملكة السب لا يقدر على الكف عنه وإن عزم عليه والمستكبر اللجوج العنود لا يملك من نفسه أن يتواضع، وإن خضع في موقف المهلكة والذلة أحيانا فإنما يخضع ظاهرا وبلسانه، وأما باطنا وفي قلبه فهو على حاله لم يتغير ولن يتغير البتة، وهذا هو السر في كذبهم يوم القيامة لأنه يوم تبلى فيه السرائر والسريرة المعقودة على الكذب ليس فيها إلا الكذب فيظهر ما استقر فيه كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢] ونظيره التخاصم الدائر بين أهل الدنيا فإنه يظهر بعينه يوم القيامة بينهم، وقد قص الله سبحانه ذلك في مواضع كثيرة من كلامه، وأجمله في قوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: ٦٤] هذا في أهل العذاب وأما أهل المغفرة والجنة فيظهر منهم هناك ما كان في نفوسهم هاهنا من الصفا والسلامة، قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٦] فافهم ذلك.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ليست قضية الخسارة هنا مجرد خسارة ذاتية، ولكنها أفظع أشكال الظلم، وأيّ ظلم أعظم من أن يظلم الإنسان ربّه؟ لا ظلم القوّة، لأن الإنسان يمثّل الضعف كله أمام الله، ولكنه ظلم الافتراء والكذب، والإساءة إلى مقام الله الذي خلقه ورزقه وتعهّده في كل حياته، بالرحمة والرعاية التامّة، فيما ينسبه إليه من الباطل، وفي ما يكذّبه من آياته.. ثم هو الظلم الكبير للحياة وللإنسان، فيما يشوّهه من الحقائق، ويهدّمه من القضايا، ويضلّله من الخطوات، فليست الأكاذيب التي يفتريها هؤلاء مجرد كلمات تتحرك في الهواء، وليست المواقف التي يقفونها ضد شريعة الله مجرّد مواقف تتجمد في حياة أصحابها، ولكنها تتحول إلى شريعة من شرائع الباطل التي يدين بها الناس باسم الحق، أو سنّة يقتدي بها الناس فيما يقتدون به من سنن الأولين، لأن أصحابها يمثّلون انتماء دينيا، له قداسة الدين فيما يعتقده الناس، ويملكون موقعا كبيرا له احترامه العميق فيما يعيشه الناس من احترام المقامات الكبيرة، ولهذا كانت القضية تشكل خطرا مستقبليا على مستوى الفكر والعمل، مما جعل من ممارستها ممارسة لأكبر أنواع الظلم، لأنّ أيّ ظلم، غير هذا اللون من الظلم، يأخذ لنفسه حجما محدودا، ولا يستوعب الحياة التي تتحرك في مسيرتها صعودا وهبوطا من خلال مفاهيم الحق والباطل، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾

٢. ولكن هل يتصور هؤلاء أنهم قد ربحوا الجولة الأولى، وربحوا معها أنفسهم، وأفلحوا في الوصول إلى السعادة؟ إن الله يواجههم بالحقيقة المرّة الصارخة: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ فسيواجهون نتائج أعمالهم السيّئة في الدنيا والآخرة، وسيتبخر في الهواء كل ما بنوه من أحلام، وكل ما حصلوا عليه من امتيازات..

٣. وسيقفون غدا بين يدي الله، في وقفة حساب وحوار: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أين الآلهة التي كنتم تدعونها من دون الله، أو تعبدونها معه؟ ففي يوم القيامة فقط تتكشّف المواقف الحقيقية دون لفّ أو دوران، لأن كل إنسان ينزع عن نفسه أو ينزع عنه القناع الذي كان يلبسه لإخفاء شخصيته، على أساس ما يملك من مال أو جاه أو امتياز خاصّ أو

---

(١) من وحى القرآن: ٩/ ٥٨.

عامّ، ويقف عاريا لا يملك إلّا صفاته وأعماله.

٤. ويتحداهم السؤال في ضغط الموقف عندما يواجهون عذاب الله، فلا يجدون منفذا للخلاص، ولا مجالا للهرب إلا بالإنكار، ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ إنه الموقف الصعب، الذي يمثل فتنة واختبارا لصلابة القاعدة التي يخضع لها الإنسان مواقفه، فتبدو مجرّد رماد اشتدّت به الريح في يوم عاصف، فانهارت أمام ذلك كل القناعات التي كانوا يلتزمون بها في أوضاعهم الاستعراضية، فبينما كانوا يتبجّحون بالشرك في دنياهم، إذا بهم يهربون من مجرد نسبته إليهم في أخراهم، وذلك بتأكيد النفي بالحلف بالله ربّهم، كمظهر من مظاهر الضعف النفسي للمشركين أمام مواقف المواجهة الحاسمة.

٥. ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ويوجّه الله الخطاب إلى النبي محمد ﷺ أو إلى كل ناظر، ليستعرض بوعيه ما يمثله الشرك من ضعف أمام الحق، فيضطر أصحابه إلى الكذب، ومحاولة الهروب، فقد ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ وعاشوا حالة هروب من أنفسهم، وهروب من أفكارهم، وتلك هي الخسارة الكبرى، أن يفقد الإنسان نفسه وفكره، ليصبح مجرد شبح ضائع تتلاقفه ظلمات التيه من كل جانب، من دون أن يصل إلى أية نتيجة إيجابية على مستوى المصير.

٦. ونستوحي من ذلك أن على الناس الذين يستسلمون للرموز الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية التي قد تملك بعض مظاهر القوة أو بعض أوضاعها، فيطيعونهم في معصية الله، ويستغرقون في ذلك كله تماما كاستغراق العبيد بالآلهة، ثم تتبدل الأمور وتتغير ويتحول هؤلاء (الطواغيت) أو الأقوياء إلى أناس عاديين لا يملكون لأنفسهم ضرّا ولا نفعا، ويقف الناس الذين سقطوا أمامهم في عملية استسلام وانبطاح ليواجهوا الموقف الجديد في حالة الإحباط النفسي والاجتماعي، ليدخلوا في دائرة الاعتذار والتبرير، لأنهم لا يريدون أن يتحملوا المسؤولية بما عملوه وما تحركوا فيه، إن مثل هذا الاختلاف بين البداية والنهاية في الآخرة كما في الدنيا، يفرض على الإنسان الوعي لمواقفه على أساس حسابات العواقب، حتى لا يقف في نهاية المطاف الموقف الصعب الذي يواجه فيه دمار كل شيء بناه في ماضيه ليجد نتيجة ذلك في مستقبله.

٧. إن البدايات لا تمثل معنى حركة الإنسان في الحياة، لأنها قد تتحوّل إلى نهايات مأساوية، لذلك

لا بد للإنسان من أن يدرس طبيعة النهاية إذا أراد أن يبدأ طريقه في نقطة البداية.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ أي لا أظلم ممن وقع منه إحدى الجريمتين اختلاق الكذب على الله أي تعمد الكذب ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ وكلا الجريمتين وقعتا من المشركين في قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ وغير ذلك وكذبوا بآيات الله التي جاء بها رسول الله ﷺ.

٢. ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ لأن مصيرهم إلى العذاب وفوات كل خير، وهذا عام لكل ظالم، وقد يعجل للظالم بعض العقوبة في الدنيا، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف:١٥٢] وهذا يعم المفترين.

٣. ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ واذكر لبيان مصير المشركين ﴿يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ والضمير للمشركين والمكذبين والمفترين السابق ذكرهم، وقوله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ أي مجتمعين في موقف السؤال ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ وقد عاينوا أهوال الآخرة وعلموا أن لا ملجأ لهم نقول لهم يومئذ ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ﴾ تدَّعون أنهم شركاء لله، وذلك توبيخ لهم، وتنبيه على أنه قد ﴿ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ وضل عنهم ما كانوا به يشركون، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأحقاف:٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشعراء:٩٢ ـ ٩٣]

٤. ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ بعد توبيخهم وامتحانهم بسؤال الله لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص:٦٢] لم يؤدِّ هذا الإمتحان إلا إلى قولهم: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فالفتنة: الامتحان المذكور وكونه قولهم ﴿وَاللهِ رَبِّنَا﴾ تأديته إليه وتسبيبه له، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء:١٠]، وحاصل المعنى: لم يجدوا جواباً عن هذا

---

(١) التيسير في التفسير: ٢/ ٤٢٦.

الإمتحان الشديد إلا جحد الشرك، والقسم بالله والإعتراف بربوبيته، وذلك لشدة الهول عليهم وانقطاع حجتهم.

٥. ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿انْظُرْ﴾ في حالتهم التي صاروا إليها من الذلة وسوء الحال التي أدتهم إلى أن يقولوا: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ﴿وَ﴾ انظر كيف ﴿ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا﴾ في الدنيا يفترونه، من دعوى نصر شركائهم لهم وشفاعتهم لهم، ونحو ذلك من افترائهم، أي اختلاقهم وكذبهم المتعمد.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. تواصل هذه الآيات المنهج القرآني في مقارعة الشرك وعبادة الأصنام بشكل شامل، تقول الآية الاولى بصراحة وبصورة استفهام استنكاري: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ الجملة الأولى في الواقع ـ إشارة إلى إنكار التوحيد، والثّانية إشارة إلى إنكار النّبوة.. حقّا لا ظلم أكبر من أن يتخذ المرء قطعة جماد لا قيمة لها، أو إنسانا ضعيفا مثله شريكا لربّ لا تحدّه، حدود، وله الحكم على كل عالم الوجود، فهذا ظلم من جهات ثلاث: ظلم لذات الله بالقول بوجود شريك له، وظلم للشخص نفسه بالحط من قدره إلى حد السجود والخضوع لقطعة حجر أو خشب، وظلم بحق المجتمع الذي يسبب له الشرك والتشتت والتفرق والابتعاد عن روح الوحدة والتوحد، فلا شك إذن في أنّ أي ظالم ـ وعلى الأخص أولئك الذين لظلمهم جوانب متعددة ـ لا يمكن أن يرى السعادة والفلاح: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾

٢. إنّ لفظة (الشّرك) لم ترد صراحة في الآية، ولكن بأخذ الآيات السابقة واللّاحقة لها بنظر الاعتبار التي تدور حول الشرك، يتّضح أنّ القصد من كلمة (افتراء) هو القول بوجود شريك لله سبحانه.

٣. وممّا يلفت النظر أنّ القرآن يصف في خمسة عشر موضعا بعض الناس بأنّهم من أظلم الناس في سياق الاستفهام: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أو ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ وعلى الرغم من أنّ معظم تلك الآيات تتناول الشرك وعبادة الأصنام وإنكار آيات الله، أي أنّها تدور حول التوحيد، فإنّ بعضا آخر منها يدول حول أمور

(١) تفسير الأمثل: ٤/ ٢٤٠.

أخرى، مثل ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾، وقول سبحانه ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ﴾

٤. سؤال وإشكال: كيف يمكن أن تكون كل طائفة من هؤلاء أظلم الناس، في حين أنّ صفة (الأظلم) لا يمكن أن تنطبق إلّا على طائفة واحدة منها؟ والجواب: كل هذه الحالات تستقي ـ في الحقيقة ـ من منبع واحد، وهو الشرك والكفر والعناد، فمنع الناس من ذكر الله في المساجد والسعي في خرابها دليل على الكفر والشرك، وكتمان الشهادة أي كتمان الحقائق المؤدي إلى حيرة الناس وضلالهم، هو معلم من معالم الشرك وإنكار وحدانية الله.

٥. الآية التّالية تشير إلى مصير المشركين يوم القيامة مبيّنة أنّهم باعتمادهم على مخلوقات ضعيفة كالأصنام، لا هم حققوا لأنفسهم الراحة في هذا العالم، ولا هم ضمنوا ذلك في الحياة الآخرة، فتقول الآية: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، أين هم، لماذا لا يأتون اليوم لإنقاذهم؟ لماذا لا يظهر أي حول ولا يبدون أية قوّة؟ ألم تكونوا تتوقعون منهم أن يعينوكم على حل مشكلاتكم؟ فلماذا ـ إذن ـ لا نرى لهم أثرا؟

٦. فيستولي على هؤلاء الرعب والخوف ويبهتون ولا يحيرون جوابا، سوى أن يقسموا بالله إنّهم لم يكونوا مشركين، ظنا منهم أنّهم هناك أيضا قادرون على إخفاء الحقائق: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾

٧. حول معنى (فتنة) ثمّة كلام بين المفسّرين، منهم من قال إنّها بمعنى الاعتذار، وقال آخرون: إنّها بمعنى الجواب: وقالوا أيضا: إنّها الشرك، وهنالك احتمال آخر في تفسير هذه الآية، وهو القول بأنّ (الفتنة) من (الافتتان) أي الوله بالشيء فيكون المعنى أن افتتانهم بالشرك وعبادة الأصنام، بشكل يغشى عقولهم وأفكارهم، قد أدى إلى أن يدركوا يوم القيامة ـ يوم يزاح الستر ـ خطأهم الكبير، ويستقبحوا أعمالهم وينكروها تماما، يقول الراغب في (المفردات): أن أصل (الفتن) إدخال الذهب النّار لتظهر جودته من رداءته، فقد يكون هذا المعنى ممّا تفسر به الآية المذكورة، أي أنّهم عندما تحيط بهم شدّة يوم القيامة يستيقظون ويقفون على خطأهم، فينكرون أعمالهم طلبا للنجاة.

٨. الآية الثّالثة، ومن أجل أن يعتبر الناس بمصير هؤلاء الأفراد تقول: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى

﴿أَنْفُسِهِمْ﴾ وتنهار المساند التي اختاروا الاستناد عليها وجعلوها شريكة لله، وخابوا في مسعاهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، ولا شك أنّ المقصود بعبارة (انظر) هو النظر بعين العقل، لا بالعين الباصرة إذا لا يمكن أن ترى مشاهد يوم القيامة رأي العين في هذه الدنيا.

٩. قوله سبحانه: ﴿كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ إمّا أن يعني أنّهم خدعوا أنفسهم في الدنيا وخرجوا عن طريق الحقّ، وإمّا أن يراد منه يوم القيامة حيث يقسمون على أنّهم لم يكونوا مشركين، والحقيقة أنّهم بهذا يكذبون على أنفسهم، فقد كانوا مشركين فعلا.

١٠. سؤال وإشكال: الآية المذكورة تفيد أنّ المشركين ينكرون شركهم يوم القيامة مع أنّ ظروف يوم القيامة لا يمكن أن تسمح لأحد أن يجانب الصدق وهو يرى تلك الحقائق الحسية، كما لو كان أحد يريد أن يغطي على الشمس في رابعة النهار، ليقول كذبا: إنّ الدنيا ظلام، ثمّ إن هناك آيات أخرى تفيد بأنّهم يوم القيامة يعترفون صراحة بشركهم ولا يخفون أمرا: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا﴾ والجواب: يمكن أن نذكر لهذا السؤال جوابين:

أ. أوّلا: ليوم القيامة مراحل، ففي المراحل الأولى يظن المشركون أنّهم بالكذب يستطيعون التملص من عذاب الله الأليم، لذلك يرجعون إلى عادتهم القديمة في التوسل بالكذب، ولكن في المراحل التّالية يدركون أن لا مهرب لهم أبدا، فيعترفون بأعمالهم، يبدو أنّ الأستار يوم القيامة ترفع ـ بالتدريج ـ عن عين الإنسان، وفي البداية ـ عندما لا يكون المشركون قد درسوا ملفات أعمالهم جيدا بعد ـ يركنون إلى الكذب، ولكن في المراحل التّالية حيث ترتفع فيها الأستار أكثر ويرون كل شيء حاضرا، لا يجدون مندوحة عن الاعتراف تماما، مثل المجرمين الذين ينكرون كل شيء في بداية التحقيق، حتى معرفتهم بأصدقائهم.. ولكنّهم عندما يرون الأدلة المادية والمستندات الحيّة التي تفضح جريمتهم، يدركون أنّ الأمر من الوضوح بحيث لا يحتمل الإنكار، فيعترفون ويدلون بإفادة كاملة، وقد ورد هذا الجواب في حديث عن أمير المؤمنين علي عليه السّلام.

ب. وثانيا: إنّ الآية المذكورة تتحدث عمّن لا يرى نفسه مشركا مثل المسيحيين الذين قالوا بالآلهة الثلاثة واعتقدوا أنّهم موحدون، أو مثل الذين يدّعون التوحيد، لكن أعمالهم ملوثة بالشرك، لأنّهم كانوا يعرضون عن تعاليم الأنبياء، ويعتمدون على غير الله وينكرون ولاية أولياء الله.. هؤلاء يقسمون يوم

القيامة على أنّهم كانوا موحدين، ولكنّهم سرعان ما يدركون أنّهم في الباطن كانوا مشركين، هذا الجواب أيضا قد ورد في عدد من الرّوايات نقلا عن الإمام علي عليه السّلام والإمام الصادق عليه السّلام، وكلا الجوابين مقبولان.

١٣. موانع الاستماع للرسول

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [١٣] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ الآية، هم المشركون يجادلون المسلمين في الذبيحة، يقولون: أمّا ما ذبحتم وقتلتم فتأكلون، وأمّا ما قتل الله فلا تأكلون، وأنتم تتبعون أمر الله تعالى![١].

٢. روي أنّه قال: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، أحاديث الأولين[٢].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾، قريش[٣].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾، كالجعبة للنّبل[٤].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

---

(١) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٧٦.

(٢) ابن جرير ٩/ ١٩٩.

(٣) تفسير مجاهد، ص ٣٢٠.

(٤) ابن جرير ٢٠/ ٣٧٧.

١. روي أنّه قال: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، يسمعونه بآذانهم ولا يعون منه شيئا، كمثل البهيمة التي تسمع النداء ولا تدري ما يقال لها[1].

٢. روي أنّه قال: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، كذب الأوّلين، وباطلهم[2].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ معناه غطاء[3].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ معناه صمم[4].

٣. روي أنّه قال: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ معناه الأباطيل[5].

السّدّيّ:

روي عن إسماعيل السّدّيّ (ت ١٢٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾، الغطاء أكنّ قلوبهم أن يفقهوه، فلا يفقهون الحقّ[6].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، صمم[7].

٣. روي أنّه قال: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، أساجيع الأوّلين[8].

الكلبي:

روي عن محمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦ هـ) أنّه قال: اجتمع أبو سفيان بن حرب، وأبو جهل

---

(١) عبد الرزاق ١/ ٢٠٩.
(٢) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٧٦.
(٣) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٣.
(٤) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٣.
(٥) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٣.
(٦) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٧٥.
(٧) ابن جرير ٩/ ١٩٨.
(٨) ابن جرير ٩/ ٢٠١.

بن هشام، والوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأميّة وأبيّ ابنا خلف، والحارث بن عامر، يستمعون القرآن، فقالوا للنضر: يا أبا قتيلة، ما يقول محمد؟ قال ما أدري ما يقول، إلا أني أراه يحرك لسانه، ويقول أساطير الأولين، مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية، وكان النضر كثير الحديث عن القرون وأخبارها، فقال أبو سفيان: إني أرى بعض ما يقول حقّا، فقال أبو جهل: كلّا، لا نقرّ بشيء من هذا، وفي رواية: للموت أهون علينا من هذا، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾[1].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ يعني: كفار مكة ﴿مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ وأنت تتلو القرآن، يعني: النضر بن الحارث، إلى آخر الآية[2].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾، يعني: الغطاء على القلب؛ لئلّا يفقهوا القرآن[3].

٣. روي أنّه قال: ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، يعني: ثقلا؛ فلا يسمعوا، يعني: النضر[4].

٤. روي أنّه قال: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾، يعني: انشقاق القمر، والدخان، فلا يصدقوا بأنّها من الله عز وجل[5].

٥. روي أنّه قال: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ في القرآن بأنّه ليس من الله[6].

٦. روي أنّه قال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: النضر: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ القرآن ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ يعني: أحاديث الأولين، حديث رستم، وإسفنديار[7].

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ١٣٦.
(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٥.
(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٥.
(٤) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٥.
(٥) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٥.
(٦) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٥.
(٧) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٥.

الرسّي:

ذكر الإمام القاسم الرسي (ت ٢٤٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، الأكنة هي: الحجب، وهي مثل الطبع والختم.

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ وكانوا يستمعون إليه ليجادلوه، على ما ذكر، ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ دل هذا أنهم كانوا يستمعون إليه للمجادلة معه والخصومة، وقيل في بعض الحكايات: إن الناس كانوا ثلاث فرق في أخبار الرسل والأنبياء عليهم السلام:

أ. منهم من يستمع للجمع والاستكثار.

ب. ومنهم من يستمع ليأخذ عليهم سقطاتهم وما يجري على لسانهم من الخطأ.

ج. ومنهم من يستمع ليأخذ الحق منه ويترك الباقي، ولكن هَؤُلَاءِ كانوا يستمعون إليه ليخاصموه في ذلك وليجادلوه؛ ليعرف قومهم أنهم يستمعون إليه، ويعرفون ما يقول ليصدوا بذلك أتباعهم، والثاني: أنهم يستمعون ويحاجون في ذلك ليعرفوا أنهم أهل حجاج وعلم ليصدوهم عنه.

د. ثم يحتمل أن يكونوا أهل نفاق؛ لأنهم كانوا يرون ويظهرون الموافقة لرسول الله ﷺ، ويضمرون الخلاف له.

هـ. ويحتمل أن يكونوا أهل الشرك، أي: رؤساؤهم؛ ليستمعوا إليه، ويجادلوه فيما يستمعون إليه.

٢. ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، أخبر أن على قلوبهم أكنة وفي آذانهم وقرًا.

٣. ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾، نفى عنهم ذلك لما لم ينتفعوا بذلك كله، وإن لم يكونوا ـ في الحقيقة ـ صما، ولا بكما، ولا ما ذكر، لما لم ينتفعوا بما أنشأ فيهم من السمع والبصر والعقل، فنفى عنهم ذلك.

---

(١) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/ ٣٧٧.

(٢) تأويلات أهل السنة: ٤/ ٤٩.

٤. قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾، لا يخلو إضافة ذلك إلى نفسه من أن يكون خلق منهم فعل الكفر، أو خلق الظلمة التي في قلوبهم، يعني ظلمة الكفر؛ لأن ظلمة الكفر تستر وتغطي كل شيء ونور الإيمان ينير منه كل شيء فإضافة الفعل إليه لا تخلو من أحد هذين الوجهين، إما لخلق فعل الكفر منهم، ففيه دلالة خلق أفعالهم، وإما لخلق ظلمة الكفر في قلوبهم، وفيه ردّ قول المعتزلة لإنكارهم خلق فعل العباد.

٥. ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾:

أ. قيل: الوقر: هو الثقل في السمع، يقال: وقرت أذنه، توقر وقرا، فهي موقورة، وأما الوقر فهو الكفر في قلوبهم.

ب. وقال أَبُو عَوْسَجَةَ: الوقر: الصدع في العظم أيضًا.

٦. ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾:

أ. يحتمل كل آية: آية وحدانيته، وربوبيته، وقدرته على البعث، وآية رسالته ونبوته.

ب. ويحتمل: كل آية سألوا أن يأتي بها؛ يقول: وإن أوتيت بكل آية سألوك لا يؤمنون بك بعد ذلك أبدًا، كقولهم: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ ونحو ذلك مما سألوا من الآيات؛ يقول: إنك وإن جئت بما سألوك من الآيات لا يؤمنون بك، ولا يصدقونك.

٧. يقولون: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي ما هذا إلا أساطير الأولين، قيل: أحاديث الأوّلين، والأسطورة: الكتاب، يقولون ذلك تعنتًا منهم؛ لأنهم كانوا يعرفون أنه حق، وأنه ليس بكلام البشر؛ لأنهم عجزوا عن إتيان مثله، ولو كان هو مفترى على ما قالوا لقدروا هم على أن يأتوا بشيء مثله، حيث قيل لهم: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾، فعلموا بعجزهم عن إتيان مثله أنه ليس من كلام البشر، وأنه سماوي.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أي ومنهم من يصغي بسمعه إليك ويسمع كلامك ولا يقبل ما

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/ ١٨٦.

لديك.

٢. ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ هذا جعل تسمية لهم بالصمم والعمى، إذا لم يقبلوا ما أتى به من الحق والهدى، قال عز وجل: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ [الزخرف: ١٩]، أي سموهم، وليس يريد غير التسمية، فافهم ذلك.

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ قيل: إنهم كانوا يسمعون في الليل قراءة النبي ﷺ في صلاته ليعلموا مكانه فيؤذونه فصرفهم الله عن استماعه بإلقاء النوم عليهم وبأن جعل على قلوبهم أكنة أن يفقهوه، والأكنة الأغطية واحدها كنان يقال: كننت الشيء إذا غطيته وأكننته في نفسي إذا أخفيته.

٢. ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ والوقر الثقل ومنه الوقار ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ يعني بالآية علامة الإعجاز لما قد استحكم في أنفسهم من حسده وبغضه ولذلك صرفهم عن سماع القرآن لأنهم قصدوا بسماعه الأذى والافتراء.

٣. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي أحاديث الأولين التي كانوا يسطرونها في كتبهم.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ قيل إنهم كانوا يستمعون في الليل قراءة النبي ﷺ في صلاته، وفيه وجهان:

أ. أحدهما: يستمعون قراءته ليردوا عليه.

ب. الثاني: ليعلموا مكانه فيؤذوه، فصرفهم الله عن سماعه، بإلقاء النوم عليهم، بأن جعل على

---

(١) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/ ٢٣٧.

(٢) تفسير الماوردي: ٢/ ١٠٤.

قلوبهم أكنة أن يفقهوه.

٢. والأكنة الأغطية واحدها كِنان، يقال: كَنَنْتُ الشيء إذا غطيته، وأكننته في نفسي إذا أخفيته، وفي قراءة علي، وابن مسعود: على أعينهم غطاء، ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ﴾ والوقر: الثقل، ومنه الوَقَار إذا ثقل في المجلس.

٣. ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۖ﴾ يعني بالآية علامة الإعجاز لما قد استحكم في أنفسهم من حسده وبغضه، وذلك صرفهم عن سماع القرآن، لأنهم قصدوا بسماعه الأذى والافتراء.

٤. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ فيما كانوا يجادلون به النبي ﷺ قولان:

أ. أحدهما: أنهم كانوا يجادلونه بما ذكره الله تعالى من قوله عنهم: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، قال الحسن.

ب. الثاني: هو قولهم: تأكلون ما قتلتم ولا تاكلون ما قتل ربكم، قاله ابن عباس.

٥. معنى ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي أحاديث الأولين التي كانوا يسطرونها في كتبهم، وقيل: إن جادلهم بهذا النضر بن الحارث.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ﴾ قال مجاهد يعني قريشا، وقال البلخي: أي من أهل الكتاب والمشركين من يجالسك ويريد الاستماع منك والإصغاء إليك.

٢. ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً﴾ لأنهم لا يفقهوه، لألفهم الكفر وشدة عداوتهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾ أي حتى إذا صار الأمر إلى الجدال أظهروا الكذب وعاندوا.

٣. فقالوا: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي ليس هذا إلا أساطير الأولين، وقال قوم: نزلت في النضر بن الحارث بن كلدة، وقال الضحاك: معنى أساطير الأولين أحاديث الأولين وكل شيء في القرآن

---

(١) تفسير الطوسي: ٤/ ١٠٣.

أساطير، فهو أحاديث.

٤. ﴿أَكِنَّةً﴾ الأكنة جمع كنان ـ بكسر الكاف ـ وهو كالغطاء والأغطية ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي ثقلاً، والوقر ـ بكسر الواو ـ الحمل، يقال وقرت الأذن توقر قال الشاعر:

وكلام سيئ قد وقرت أذني منه وما بي من صمم

ونخلة موقرة وموقر، ونخيل مواقير، قال يونس سألت رؤبة، فقال: وقرت أذنه ـ بضم الواو وكسر القاف ـ يوقر ـ بفتح الياء والقاف ـ إذا كان فيها الوقر، وقال أبو زيد: سمعت العرب تقول: أذن موقرة ـ بضم الميم وفتح القاف ـ ومن الحمل يقال: أوقرت الدابة فهي موقرة، ومن السمع وقرت سمعه ـ بتشديد القاف ـ فهو موقر، قال الشاعر: ولي هامة قد وقر الضرب سمعها.

٥. أساطير واحدها أسطورة، وإسطارة، مأخوذ من سطر الكتاب، قال الراجز:

اني وأسطار سطرن سطرا لقائل يا نصر نصرا نصرا

وأسطار جمع سطر، ومن قال في واحده: سطر، قال في الجمع أسطر، وجمع الجمع أساطير، ومعناها الترهات البسابس يعني ليس له نظام، وقال الأخفش: أساطير جمع لا واحد له، نحو (مذاكير وأبابيل) وقال بعضهم: واحد الأبابيل إبيل ـ بتشديد الباء وكسر الألف ـ.

٦. معنى قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ قد مضى نظائره في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ أي منعناهم الألطاف التي تبسط المؤمنين وتبعثهم على الازدياد من الطاعة، لأن الله تعالى لما أزاح علتهم علله بالدعاء والبيان والإنذار والترغيب والترهيب فأبوا إلا كفراً وعناداً وتمرداً على الله وإعراضاً عنه وعما دعاهم إليه، فمنعهم ألطافه عقوبة لهم حيث علم أنهم لا ينتفعون بذلك ولا ينتهون إلى الحق، وألفوا الكفر وأحبوه حتى صاروا كالصم عن الحق وصارت قلوبهم كأنها في أكنة فجاز أن يقال في اللغة جعل على قلوبهم أكنة وفي آذانهم وقرا، كما يقول القائل لغيره أفسدت سيفك إذا ترك استعماله حتى يصدي، وجعلت أظافيرك سلاحاً إذا لم يقلمها، ويقال للرجل إذا آيس من عبده أو ولده بعد الاجتهاد في تأديبه فخلاه وأقصاه قد جعلته بحيث لا يفلح أبداً وتركته أعمى أصماً، وجعلته ثوراً وحماراً، وإن كان لم يفعل به شيئاً من ذلك ولم يرده بل هو مهموم به محب لخلافه، ولا يجوز أن يكون المراد بذلك أنه كلفهم ما لا يطيقونه، وذلك لا يليق بحكمته تعالى، ولكانوا غير ملومين في ترك الإيمان حيث لم يمكنوا منه، وكانوا

ممنوعين منه، وكانت الحجة لهم على الله تعالى دون أن تكون الحجة له، وذلك باطل، بل لله الحجة البالغة.

٧. ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ أي كل علامة ومعجزة تدلهم على نبوة النبي ﷺ لا يؤمنون بها لعنادهم، قال الزجاج ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ في موضع نصب لأنه مفعول له، والمعنى جعلنا على قلوبهم أكنة لكراهة أن يفقهوه فلما حذفت اللام نصب الكراهة، ولما حذفت الكراهة أنتقل نصبها إلى (أن)، قال أبو علي: كانوا إذا سمعوا القرآن من النبي آذوه ورجموه وشغلوه عن صلاته، فحال الله بينهم وبين استماع ذلك في تلك الحال التي كانوا عازمين فيها على ما ذكرناه بأن ألقى عليهم النوم إذا قعدوا يرصدونه فكانوا ينامون فلا يسمعون قراءته ولا يفقهون أنه قرآن، ولا يعرفون مكانه ليسلم النبي ﷺ من شرهم وأذاهم فجعل منعه إياهم عن استماع القرآن، وعن التعرف لمكان النبي ﷺ لئلا يرجموه ولا يؤذوه ﴿أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أنه قرآن وأن محمداً هو الذي يقرأه، وبين أن كل آية يرددها عليهم النبي ﷺ من قبل الله لا يؤمنون بها، فلهذا منعهم الله من استماع القرآن، لأنهم لم يكونوا يسمعونه ليستدلوا به على توحيد الله وصحة نبوة محمد ﷺ وإنما كانوا يريدون بذلك تعرف مكانه ليؤذوه ويرجموه، فلهذا منعهم الله من استماع القرآن وفهمه ولو كانوا ممن يؤمن ويقبل ما يردَّد عليه من الآيات من قبل الله ويستدلوا بها على نبوة محمد ﷺ ما كان الله يمنعهم من سماع ذلك وفهمه.

٨. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ يعني أنهم إذا دخلوا إليه بالنهار إنما يجيئون مجيء مخاصمين مجادلين رادين مكذبين، ولم يكونوا يجيئون مجيء من يريد الرشاد والنظر في الدلالة الدالة على توحيد الله ونبوة نبيه ﷺ وكانوا يريدون ذلك بأن يقولوا هذا أساطير الأولين، يعنون إنه من كلام الأولين وحوادثهم.

٩. في معنى هذه الآية قوله تعالى في بني إسرائيل: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ فمعنى الآيتين واحد وسبب نزولها واحد، وإنما أنزلت هذه الآيات لئلا يمتنع النبي من قراءة القرآن خوفاً من أذى الكفار فيفوت المؤمنين سماعه فيغتمون لذلك وتفوتهم مصلحته بل حثه الله على قراءته وضمن له المنع من أذاهم.

١٠. ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾:

أ. كالتعليل لجعله قلوبهم في أكنة، والوقر في آذانهم، فقال: إنما فعلت هذا لعلمي بأنهم لا يؤمنون وأنه ليس في سماعهم ذلك إلا تطرُّق الأذى به عليك منهم، وقولهم ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

ب. وتحتمل الآية وجهاً آخر وهو: أنه يعاقب الكفار الذين لا يؤمنون بعقوبات يجعلها في قلوبهم من نحو الضيق الذي ذكر أنه يخلقه فيها، ويجعل هذه العقوبات دلالة لمن شاهد قلوبهم واستماعهم من الملائكة، وشاهد منها هذه العقوبات، على أنهم لا يؤمنون من غير أن يكون ذلك حائلاً بينهم وبين الإيمان، ثم أخبر أنها بمنزلة الأكنة على قلوبهم عن فقه القرآن وبمنزلة الوقر في الآذان على وجه التمثيل له بذلك تجوزاً واستعارة، ووجه الشبه بينهما أن من كانت في نفسه هذه العقوبات معلوم أنه لا يؤمن كما أن من على قلبه أكنة لا يؤمن، وكما سمي الكفر عماً، سماه باسم العمى على وجه التشبيه.

ج. ويحتمل أيضاً أن يكون الكفر الذي في قلوبهم من جحد توحيد الله وجحد نبوة نبيه، سماه كنا تشبيهاً ومجازاً، وإعراضهم عن تفهم القرآن والإصغاء إليه على وجه الاستعارة وقراً توسعاً، لأن مع الكفر والإعراض لا يحصل الإيمان والفهم كما أن مع الكنّ والوقر لا يحصلان، ونسب هذا الجعل إلى نفسه، لأنه الذي شبه أحدهما بالآخر وذلك سائغ في اللغة كما يقول القائل لغيره ـ إذا أثنى على إنسان وذكر فضائله ومناقبه ـ جعلته فاضلاً خيراً عدلاً، وإن كان لم يفعل به ذلك، وبالعكس من ذلك إذا ذكر مقابحه ومخازيه وفسقه يحسن أن يقال له: جعلته فاسقاً شريراً، وإن لم يفعل في الحالين شيئاً من ذلك وكل ذلك مجاز، ومنه قولهم: جعل القاضي فلاناً عدلاً وجعله ثقة وجعله ساقطاً فاسقاً، كل ذلك يراد به الحكم عليه بذلك والإبانة عن حاله كما قال الشاعر:

جعلتني باخلاً كلاب ورب منى إني لأسمح كفاً منك في اللزب

أي سمتني باخلاً.

١١. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ كنى عنها بلفظ الواحد حملاً له على اللفظ، فلما قال: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ رده إلى المعنى فعامله معاملة الجمع، لأن لفظة (من) تقع على الواحد وعلى الجمع حقيقة.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/ ٥١٩.

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الْأَكِنَّةُ: جمع الكِنان، وهو الغطاء الذي يقي الأذى، ونظيره: عِنَان وأعِنَّة، ويقال: كَنَنْتُ الشيء أكنه: إذا غطيته، وأكننته في نفسي: أخفيته، ومنه ﴿بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ والكَنَّةُ: امرأة الابن والأخ؛ لأنها في كنة، واستكن الرجل من الحر وأكنن، ومنه الكانون للنار.

ب. الفقه: العلم بالشيء، فقهت الحديث أفقهه، وكل علم بشيء فهو فقه، ثم اختصبه بَعْض علم الشرع، فقيل: لكل عالم به فقيه.

ج. الوَقْر بفتح الواو: الثِّقَل في الأذن، والوِقْر بالكسر: الحمل، قال أبو زيد: وقِرَتْ أُذُنُه تَوْقَرُ وقرًا، وقال الكسائي: وقرت أذنه فهي موقرة، قال الشاعر:

وكَلاَمٍ سَيِّءٍ قَدْ وَقَرَتْ　　　أُذُني منه ومَا بِي صَمَمُ

ومنه: الوقار الوقور لسكونه وثقله في مجلسه، وأصل الباب: الثقل، ووقرته: وصفته بالوقار، ويُقال: وقر يقر وقارًا، وقوله: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ بالكسر من ﴿وَقْرٌ﴾، وبالفتح من قر يقر، عن علي بن عيسى، قال الأحمر: بالكسر ليس من الوقار، وإنما هو من الجلوس، يقال: وقرت [أقر وقرًا]: جلست، وقال أبو عبيد: هو عندي من الوقار، يقال: قِرْ، كما يقال: عِدْ.

د. السطر: الصف من الشيء كالكتاب والشجرة، وسطر فلان جاء بالأباطيل، والأساطير جمع واحدها إسطار وإسطورة، قال أبو عبيدة: واحدها أسطارة، وقال الأخفش: قال بعضهم: واحدها أسطورة نحو: أنكوحة، قال بعضهم أسطارة، قال وعندي أنه لم يستعمل واحد الأساطير، كعبابيد وأبابيل إلا أنك إذا سئلت فقيل: لو استعمل كيف كان يكون في القياس؟ قلت: يجوز أسطورة وأسطارة وإسطير؛ لأن كل هذا يجمع على أفاعيل، وأسطورة وأساطير كأحدوثة وأحاديث، وإسطير وأساطير كإكليل وأكاليل، وقال الزجاج: هو جمع أسطار كأبيات وأبابيت.

هـ. الجدال: الخصومة سمي بذلك لشدته، قال أبو مسلم: ولفظه مشتق من الجدالة، وهي الأرض، كأن أحدهما يلقى صاحبه على الأرض.

٢. مما روي في سبب نزول الآية الكريمة: قيل: اجتمع جماعة من قريش: أبو سفيان بن حرب، والوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وغيرهم، وقالوا: نسمع وننظر ما يقول

محمد، فقالوا للنضر: ما يقول؟ قال ما أدري، لكني أراه يحرك شفتيه، يتكلم بأساطير الأولين، كالذي كنت أحدثكم من أخبار القرون، وكان النضر يكثر الأحاديث عن الأمم الماضية، فقال أبو سفيان: إني لأرى بعض ما يقول حقًّا، فقال أبو جهل: كلا، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآيات.

٣. وصف تعالى حالهم عند الاستماع إلى النبي ﷺ ومجادلتهم معه ذمًّا لهم وتوبيخًا، فقال سبحانه: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي من الكفار الَّذِينَ تقدم ذكرهم من المشركين وأهل الكتاب ﴿مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ يعني: يستمعون إلى كلامك:

أ. قيل: استمعوا ليطعنوا فيه.

ب. وقيل: كانوا يرصدون قراءته ليقفوا على مكانه فيؤذوه.

٤. ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي غطاء ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أي يعلموه:

أ. قيل: كانوا إذا استمعوا أرادوا أن يؤذوه فألقى الله تعالى عليهم النعاس ليصدهم عن أذاه، عن أبي علي.

ب. وقيل: جعلها كذلك.

ج. وقيل: جعلها كذلك بأن وسمها بسمة وعلامة تَسْتَدِلُّ بها الملائكة أنهم منهم.

د. وقيل: جعلنا بالذم لهم عقوبة على معصيتهم لا يمنعهم منه.

هـ. وقيل: الإلف والعادة صار وقرًا على آذانهم.

و. وقيل: كُفْرهُم عند الاستماع مَنَعَهُم، فكان كالوقر، فشبه الكفر بالكَنِّ.

ز. وقيل: كفرهم وعادتهم في المعاصي منعهم من الألطاف التي يفعل الله بالمؤمنين، حتى صار ذلك كالكن على قلوبهم، والوقر في آذانهم، والصحيح ما قاله أبو علي؛ لأنه حمل الكلام على ظاهره.

٥. سؤال وإشكال: أيجوز أن يمنعهم عن الاستماع؟ والجواب: إذا علم استماعهم مفسدة جاز أن يمنعهم عنه، وقد حكى الله تعالى عنهم ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾

٦. سؤال وإشكال: كيف أضاف إلى نفسه؟ والجواب:

أ. على ما تأولنا هو الفاعل لها، وعلى ما تأوله المفسرون لأنه أظهر عند أمره ونهيه.

ب. وقيل: لأنه نسبهم إليه، وحكم به فيهم فلذلك أضافه إلى نفسه.

ج. ولا يقال: إنه فعل ذلك بهم ليمنعهم من الإيمان لاستحالة أن يأمر بالإيمان، وينهى عن تركه، ويعد ويوعد ويعظ، ثم يمنع ثم يعاقب، هذا خلاف الحكمة، ولأن القوم كانوا يسمعون ويفقهون فلا يصح حمله على ظاهره، ولأن الْمُجْبِرَة لا تُجوز تكليف من لا يعلم ولا يسمع ولا يبصر، فلا تعلق لهم بالظاهر، فأما على قول أبي علي فإنما منعهم في بعض الأوقات لما علم فيه من المفسدة..

٧. ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي ثقلاً ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ﴾ كل حجة ﴿لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ لا يصدقوا بأنها حجة ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ أي يخاصمونك:

أ. قيل: مجادلتهم قولهم ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، عن الحسن.

ب. وقيل: قالوا: تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل ربكم، فهو جدالهم عن ابن عباس.

٨. ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا﴾ يعني القرآن ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾:

أ. أحاديث الأولين، عن ابن عباس، التي كانوا يسطرونها أي يكتبونها.

ب. وقيل: أباطيل الأولين.

ج. وقيل: كَذِبُ الأولين، حكاه الأصم.

٩. سؤال وإشكال: كيف يكون المنع من الله تعالى؟ والجواب: بأحد وجهين: أحدهما مع زوال التكليف، والآخر مع بيانه:

أ. فالأول: أن يلقى عليه النوم كما يحكى في هذا الباب، أو يغمى عليه، ونحو ذلك.

ب. الثاني: أن يشغلهم بما يصرفهم عن تتبع أحوالهم له، فيدعوه الداعي إلى غيره، عن أبي علي.

١٠. تدل الآية الكريمة على:

أ. أن استماع للقرآن وكلام النبي ﷺ قد يكون مفسدة في بعض الأوقات، كما يكون مصلحة في بعضها؛ فلذلك منعوا من استماعه، وذلك المنع كان لطفًا لهم؛ لأنهم كانوا لا يؤذون النبي ﷺ، ولا يستهزئون بالقرآن، سؤال وإشكال: كيف يكون الحجة مفسدة؟ والجواب: إذا قامت الحجة فبعد ذلك قد يكون مفسدة، وقد يكون مزاح العلة، وذلك بأن يعلم أنه يفسد في بعض الأحوال عند سماعه عند ذلك يمنعون، ولهذا لم يأت الله تعالى بما اقترحوا من الآيات؛ لأنه بالمعجزات التي ظهرت زات العلة، وقامت الحجة، فبعد ذلك إنما يجب الإظهار إذا كانت مصلحة، فإذا علم كونه مفسدة لا تظهر، ولهذا منع الحائض

والجنب عن قراءة القرآن، ومس المصحف ودخول المسجد، وإن كانت هذه العبادات لطفًا وحجة في بعض الأوقات، ولكن هَؤُلَاءِ قد أزيح علتهم، وعلم أن لهم فيهم فسدة، فَمُنِعُوا.

ب. أن المعارف مكتسبة؛ فلذلك وصفهم بأنهم لا يعلمون.

ج. قبح الجدال بالباطل.

د. أن تلك الأقوال والأفعال من جهتهم؛ فيبطل قول الْمُجْبِرَةِ في المخلوق والاستطاعة.

١١. مسائل لغوية ونحوية:

أ. عامل الإعراب في ﴿أَنْ﴾ قوله: ﴿جَعَلْنَا﴾ على أنه مفعول له، وتقديره: كراهة أن يفقهوه إلا أنه حذفت الكراهة وعمل الفعل، عن الزجاج.

ب. ﴿وِقْرًا﴾ نصب بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ أي جعلنا في آذانهم وقرًا؟

ج. لم يُنَوَّنْ (أساطير)؛ لأن (أفاعيل) لا تنون، وهي ههنا مصروفة في المعنى؛ لأنها مضافة، وكل ما لا ينصرف إذا أضيف أو دخل عليه الألف واللام انصرف.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبرِسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الأكنة: جمع كنان، وهو ما وقى شيئا وستره مثل عنان وأعنة، قال الليث: كل شيء وقى شيئا فهو كنانه وكنه، والفعل منه كننت وأكننت، والكنة: امرأة الابن، أو الأخ، لأنها في كنه، واستكن الرجل من الحر، واكتن: استتر.

ب. الوقر: الثقل في الأذن، والوقر بكسر الواو: الحمل، قال أبو زيد: وقرت أذنه توقر وقرأ، وقال الكسائي: وقرت أذنه، فهي موقورة، قال الشاعر: وكلام سيئ قد وقرت أذني منه وما بي من صمم.

ج. أساطير: واحدتها أسطورة، وأسطارة مأخوذ من سطر الكتاب، وهو سطر وسطر، فمن قال سطر جمعه أسطارا، ومن قال سطر فجمعه في القليل أسطر، والكثير سطور، وقال رؤبة: إني وأسطار سطرا

---

(١) تفسير الطبرسي: ٤/ ٢٣.

لقائل يا نصر نصرا نصرا وجمع أسطار: أساطير، قال الزجاج: وتأويل السطر في اللغة: أن تجعل شيئا ممتدا مؤلفا، وقال الأخفش: أساطير جمع لا واحد له، نحو أبابيل، ومذاكير، وقال بعضهم: واحد الأبابيل: إبيل بالتشديد وكسر الألف، والجدال: الخصومة، سمي بذلك لشدته، وقيل: إنه مشتق من الجدالة: وهي الأرض، لأن أحدهما يلقي صاحبه على الأرض.

٢. مما روي في سبب نزول الآية الكريمة: قيل: إن نفرا من مشركي مكة، منهم النضر بن الحارث، وأبو سفيان بن حرب، والوليد بن المغيرة، وعتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة، وغيرهم، جلسوا إلى رسول الله ﷺ، وهو يقرأ القرآن، فقالوا للنضر: ما يقول محمد؟فقال: أساطير الأولين، مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية، فأنزل الله هذه الآية.

٣. وصف الله سبحانه حالهم، عند استماع القرآن، فقال: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: ومن الكفار الذين تقدم ذكرهم ﴿مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ يريد: يستمعون إلى كلامك، قال مجاهد: يعني قريشا.

٤. ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ قد ذكرنا الكلام فيه في سورة البقرة عند قوله: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾:

أ. وقال القاضي أبو عاصم العامري: أصح الأقوال فيه ما روي أن النبي ﷺ كان يصلي بالليل، ويقرأ القرآن في الصلاة جهرا، رجاء أن يستمع إلى قراءته إنسان، فيتدبر معانيه، ويؤمن به، فكان المشركون إذا سمعوه آذوه، ومنعوه عن الجهر بالقراءة، فكان الله تعالى يلقي عليهم النوم، أو يجعل في قلوبهم أكنة، ليقطعهم عن مرادهم، وذلك بعد ما بلغهم مما تقوم به الحجة، وتنقطع به المعذرة، وبعد ما علم الله سبحانه أنهم لا ينتفعون بسماعه، ولا يؤمنون به، فشبه إلقاء النوم عليهم، بجعل الغطاء على قلوبهم، وبوقر آذانهم، لأن ذلك كان يمنعهم من التدبر، كالوقر والغطاء، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾، وهو قول أبي علي الجبائي.

ب. ويحتمل ذلك وجها آخر وهو: إنه تعالى يعاقب هؤلاء الكفار الذين علم أنهم لا يؤمنون بعقوبات يجعلها في قلوبهم، تكون موانع من أن يفهموا ما يسمعونه.

ج. ويحتمل أيضا أن يكون سمى الكفر الذي في قلوبهم كنا، تشبيها ومجازا، وإعراضهم عن تفهم القرآن وقرا، توسعا لأن مع الكفر والإعراض، لا يحصل الإيمان والفهم، كما لا يحصلان مع الكن والوقر،

ونسب ذلك إلى نفسه، لأنه الذي شبه أحدهما بالآخر، كما يقول أحدنا لغيره، إذا أثنى على إنسان، وذكر مناقبه: جعلته فاضلا، وبالضد، إذا ذكر مقابحه وفسقه، يقول جعلته فاسقا، وكما يقال: جعل القاضي فلانا عدلا، وكل ذلك يراد به الحكم عليه بذلك، والإبانة عن حاله، كما قال لشاعر:

جعلتني باخلا كلا ورب منى إني لأسمح كفا منك في اللزب

ومعناه: سميتني باخلا.

٥. ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾:

أ. يريد: وإن يروا كل عبرة، لم يصدقوا بها، عن ابن عباس.

ب. وقيل: معناه وإن يروا كل علامة ومعجزة دالة على نبوتك، لا يؤمنوا بها لعنادهم، عن الزجاج.

٦. لو أجرى معنى الآية على ظاهرها، لم يكن لهذا معنى، لأن من لا يمكنه أن يسمع ويفقه، لا يجوز أن يوصف بذلك، وكان لا يصح أن يصفهم بأنهم كذبوا بآياته، وغفلوا عنها، وهم ممنوعون عن ذلك، والذي يزيل الإشكال أنه تعالى قال في وصف بعض الكفار ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾ الآية، ولو كان في أذنيه وقر مانع عن السماع، مزيل للقدرة، لكان لا معنى لقوله: ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾، ولكان لا يستحق المذقة لأنه لم يعط آلة السمع، فكيف يذم على ترك السمع.

٧. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ يعني أنهم إذا دخلوا عليك بالنهار، يجيئون مجئ مخاصمين مجادلين، رادين عليك قولك، ولم يجيؤوا مجئ من يريد الرشاد والنظر، في الدلالة الدالة على توحيد الله ونبوة نبيه ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا﴾ أي: ما هذا القرآن ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾:

أ. أي: أحاديث الأولين التي كانوا يسطرونها، عن الضحاك.

ب. وقيل: معنى الأساطير: الترهات والبسابس مثل حديث رستم وإسفنديار، وغيره، مما لا فائدة فيه، ولا طائل تحته، وقال بعضهم: إن جدالهم هذا القول منهم.

ج. وقيل: هو مثل قولهم: أتأكلون ما تقتلونه بأيديكم، ولا تأكلون ما قتله الله تعالى.

٨. مسائل لغوية ونحوية:

أ. ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ موضعه نصب على أنه مفعول له، المعنى: لكراهة أن يفقهوه، فلما حذفت اللام،

نصبت الكراهة، ولما حذفت الكراهة، انتقل نصبها إلى أن قاله الزجاج: يريد أنه حذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه.

ب. ﴿يُجَادِلُونَكَ﴾ في موضع نصب على الحال.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. سبب نزولها: أنّ نفرا من المشركين، منهم عتبة، وشيبة، والنّضر بن الحارث، وأميّة وأبيّ ابنا خلف، جلسوا إلى رسول الله ﷺ، واستمعوا إليه، ثمّ قالوا للنّضر بن الحارث: ما يقول محمّد؟ فقال: والّذي جعلها بنيّة، ما أدري ما يقول؟ إلّا أنّي أرى تحرّك شفتيه، وما يقول إلّا أساطير الأوّلين، مثلما كنت أحدّثكم عن القرون الماضية؛ وكان النّضر كثير الحديث عن القرون الأولى، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عبّاس.

٢. فأمّا (الأكنّة)، فقال الزّجّاج: هي جمع كنان، وهو الغطاء؛ مثل عنان وأعنّة.

٣. وأمّا: ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾، فمنصوب على أنّه مفعول له، المعنى: وجعلنا على قلوبهم أكنّة لكراهة أن يفقهوه، فلما حذفت اللّام، نصبت الكراهة؛ ولمّا حذفت الكراهة، انتقل نصبها إلى (أن)

٤. (الوقر): ثقل السّمع، يقال: في أذنه وقر، وقد وقرت الأذن توقر، قال الشاعر:

وكلام سيّئ قد وقرت ... أذني عنه وما بي من صمم

والوقر، بكسر الواو؛ أن يحمّل البعير وغيره مقدار ما يطيق، يقال: عليه وقر، ويقال: نخلة موقر، وموقرة، وإنّما فعل ذلك بهم مجازاة لهم بإقامتهم على كفرهم، وليس المعنى أنّهم لم يفهموه، ولم يسمعوه؛ ولكنّهم لمّا عدلوا عنه، وصرفوا فكرهم عمّا عليهم في سوء العاقبة، كانوا بمنزلة من لم يعلم ولم يسمع.

٥. ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ﴾ أي: كلّ علامة تدلّ على رسالتك، ﴿لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾

٦. ثمّ أعلم الله عزّ وجلّ مقدار احتجاجهم وجدلهم، وأنّهم إنّما يستعملون في الاحتجاج أن يقولوا: ﴿إِنْ هَذَا﴾، أي: ما هذا ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وفيها قولان:

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٢/ ١٨.

أ. أحدهما: أنّها ما سطّر من أخبارهم وأحاديثهم، روى أبو صالح عن ابن عبّاس قال أساطير الأولين: كذبهم، وأحاديثهم في دهرهم، وقال أبو الحسن الأخفش: يزعم بعضهم أنّ واحدة الأساطير: أسطورة، وقال بعضهم: أسطارة؛ ولا أراه إلّا من الجمع الّذي ليس له واحد، نحو عباديد ومذاكير وأبابيل، وقال ابن قتيبة: أساطير الأوّلين: أخبارهم وما سطر منها، أي: ما كتب، ومنه قوله تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي: يكتبون، واحدها سطر، ثم أسطار، ثم أساطير جمع الجمع، مثل قول، وأقوال، وأقاويل.

ب. الثاني: أنّ معنى أساطير الأوّلين: التّرّهات، قال أبو عبيدة: واحد الأساطير: أسطورة، وإسطارة، ومجازها مجاز التّرّهات، قال ابن الأنباريّ: التّرّهات عند العرب: طرق غامضة، ومسالك مشكلة، يقول قائلهم: قد أخذنا في ترّهات البسابس، يعني: قد عدلنا عن الطّريق الواضح إلى المشكل؛ وعمّا يعرف إلى ما لا يعرف، و(البسابس): الصّحاري الواسعة، والتّرّهات: طرق تتشعّب من الطريق الأعظم، فتكثر وتشكل، فجعلت مثلا لما لا يصحّ وينكشف.

٧. سؤال وإشكال: لم عابوا القرآن بأنّه أساطير الأوّلين، وقد سطر الأوّلون ما فيه علم وحكمة، وما لا عيب على قائله؟ والجواب: عنه جوابان:

أ. أحدهما: أنّهم نسبوه إلى أنّه ليس بوحي من الله.

ب. الثاني: أنّهم عابوه بالإشكال والغموض، استراحة منهم إلى البهت والباطل، فعلى الجواب الأوّل تكون (أساطير) من التّسطير، وعلى الثّاني تكون بمعنى التّرهات، وقد شرحنا معنى التّرّهات.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. لما بيّن الله تعالى أحوال الكفار في الآخرة أتبعه بما يوجب اليأس عن إيمان بعضهم فقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾

٢. مما روي في سبب نزول الآية الكريمة: قال ابن عباس: حضر عند رسول الله ﷺ أبو سفيان

(١) التفسير الكبير: ١٢/ ٥٠٥.

والوليد بن المغيرة والنضر بن الحرث وعقبة وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأمية وأبي ابنا خلف والحرث بن عامر وأبو جهل واستمعوا إلى حديث الرسول ﷺ، فقالوا للنضر ما يقول محمد فقال: لا أدري ما يقول لكني أراه يحرك شفتيه ويتكلم بأساطير الأولين كالذي كنت أحدثكم به عن أخبار القرون الأولى، وقال أبو سفيان إني لا أرى بعض ما يقول حقا فقال أبو جهل كلا فأنزل الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾

٣. ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ الأكنة جمع كنان وهو ما وقى شيئا وستره، مثل عنان وأعنة، والفعل منه كننت وأكننت، وأما قوله: ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ فقال الزجاج: موضع ﴿أَنْ﴾ نصب على أنه مفعول له والمعنى وجعلنا على قلوبهم أكنة لكراهة أن يفقهوه فلما حذفت (اللام) نصبت الكراهة، ولما حذفت الكراهة انتقل نصبها إلى (أن)

٤. ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ قال ابن السكيت: الوقر الثقل في الأذن.

٥. اختلف في الاستدلال بالآية الكريمة على أنه تعالى قد يصرف عن الإيمان ويمنع منه:

أ. احتج أهل السنة ـ ومن وافقهم ـ بهذه الآية على أنه تعالى قد يصرف عن الإيمان ويمنع منه ويحول بين الرجل وبينه، وذلك لأن هذه الآية تدل على أنه جعل القلب في الكنان الذي يمنعه عن الإيمان وذلك هو المطلوب.

ب. قال المعتزلة ـ ومن وافقهم ـ لا يمكن إجراء هذه الآية على ظاهرها ويدل عليه وجوه:

• الأول: أنه تعالى إنما أنزل القرآن ليكون حجة للرسول على الكفار لا ليكون حجة للكفار على الرسول، ولو كان المراد من هذه الآية أنه تعالى منع الكفار عن الإيمان لكان لهم أن يقولوا للرسول لما حكم الله تعالى بأنه منعنا من الإيمان فلم يذمنا على ترك الإيمان ولم يدعونا إلى فعل الإيمان.

• الثاني: أنه تعالى لو منعهم من الإيمان ثم دعاهم إليه لكان ذلك تكليفا للعاجز وهو منفي بصريح العقل وبقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]

• الثالث: أنه تعالى حكى صريح هذا الكلام عن الكفار في معرض الذم فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥]، وقال في آية أخرى ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٨٨] وإذا كان قد حكى الله تعالى هذا المذهب عنهم في معرض الذم لهم امتنع

أن يذكره هاهنا في معرض التقريع والتوبيخ، وإلا لزم التناقض.

• الرابع: أنه لا نزاع أن القوم كانوا يفهمون ويسمعون ويعقلون.

• الخامس: أن هذه الآية وردت في معرض الذم لهم على ترك الإيمان ولو كان هذا الصد والمنع من قبل الله تعالى لما كانوا مذمومين بل كانوا معذورين.

• السادس: أن قوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ يدل على أنهم كانوا يفقهون ويميزون الحق من الباطل.

٦. ذكر المعتزلة ـ ومن وافقهم ـ أنه لا بد من تأويل الآية الكريمة، وهو من وجوه:

أ. الأول: قال الجبائي إن القوم كانوا يستمعون لقراءة الرسول ﷺ ليتوسلوا بسماع قراءته إلى معرفة مكانه بالليل فيقصدوا قتله وإيذاءه فعند ذلك كان الله سبحانه وتعالى يلقي على قلوبهم النوم، وهو المراد من الأكنة، ويثقل أسماعهم عن استماع تلك القراءة بسبب ذلك النوم، وهو المراد من قوله: ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾

ب. الثاني: أن الإنسان الذي علم الله منه أنه لا يؤمن وأنه يموت على الكفر فإنه تعالى يسم قلبه بعلامة مخصوصة يستدل الملائكة برؤيتها على أنه لا يؤمن، فصارت تلك العلامة دلالة على أنهم لا يؤمنون، ولا يبعد تسمية تلك العلامة بالكنان والغطاء المانع، مع أن تلك العلامة في نفسها ليست مانعة عن الإيمان.

ج. الثالث: أنهم لما أصروا على الكفر وعاندوا وصمموا عليه، فصار عدولهم عن الإيمان والحالة هذه كالكنان المانع عن الإيمان فذكر الله تعالى الكنان كناية عن هذا المعنى.

د. الرابع: أنه تعالى لما منعهم الألطاف التي إنما تصلح أن تفعل بمن قد اهتدى فأخلاهم منها، وفوض أمرهم إلى أنفسهم لسوء صنيعهم لم يبعد أن يضيف ذلك إلى نفسه فيقول ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾

هـ. الخامس: أن يكون هذا الكلام ورد حكاية لما كانوا يذكرونه من قولهم ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥]

٧. أجاب أهل السنة ـ ومن وافقهم ـ عن الوجوه التي تمسك بها المعتزلة ـ ومن وافقهم ـ في بيان أنه لا يمكن حمل الكنان والوقر على أن الله تعالى منعهم عن الإيمان:

أ. بل البرهان العقلي الساطع قائم على صحة هذا المعنى، وذلك لأن العبد الذي أتى بالكفر إن لم يقدر على الإتيان بالإيمان، فقد صح قولنا إنه تعالى هو الذي حمله على الكفر وصده عن الإيمان.

ب. أما إن قلنا: إن القادر على الكفر كان قادرا على الإيمان فنقول: يمتنع صيرورة تلك القدرة مصدرا للكفر دون الإيمان إلا عند انضمام تلك الداعية، وقد عرفت في هذا الكتاب أن مجموع القدرة مع الداعي يوجب الفعل، فيكون الكفر على هذا التقدير من الله تعالى، وتكون تلك الداعية الجارة إلى الكفر كنانا للقلب عن الإيمان ووقرا للسمع عن استماع دلائل الإيمان فثبت بما ذكرنا أن البرهان العقلي مطابق لما دل عليه ظاهر هذه الآية.

ج. وإذا ثبت بالدليل العقلي صحة ما دل عليه ظاهر هذه الآية، وجب حمل هذه الآية عليه عملا بالبرهان وبظاهر القرآن.

٨. سؤال وإشكال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ ذكره بصيغة الإفراد ثم قال: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فذكره بصيغة الجمع، والجواب: إنما حسن ذلك لأن صيغة (من) واحد في اللفظ جمع في المعنى.

٩. ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ قال ابن عباس: وإن يروا كل دليل وحجة لا يؤمنوا بها لأجل أن الله تعالى جعل على قلوبهم أكنة.

١٠. هذه الآية ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ تدل على فساد التأويل الأول الذي نقلناه عن الجبائي:

أ. لأنه لو كان المراد من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ إلقاء النوم على قلوب الكفار لئلا يمكنهم التوسل بسماع صوته على وجدان مكانه لما كان قوله: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ لائقا بهذا الكلام.

ب. وأيضا لو كان المراد ما ذكره الجبائي لكان يجب أن يقال: وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يسمعوه، لأن المقصود الذي ذكره الجبائي إنما يحصل بالمنع من سماع صوت الرسول ﷺ أما المنع من نفس كلامه ومن فهم مقصوده، فلا تعلق له بما ذكره الجبائي فظهر سقوط قوله.

١١. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ هذا الكلام جملة أخرى مرتبة على ما قبلها و﴿حَتَّىٰ﴾ في هذا الموضع هي التي يقع بعدها الجمل، والجملة هي قوله: ﴿إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ يقول الذين كفروا،

ويجادلونك في موضع الحال وقوله: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تفسير لقوله: ﴿يُجَادِلُونَكَ﴾ والمعنى أنه بلغ بتكذيبهم الآيات إلى أنهم يجادلونك ويناكرونك.

١٢. وفسّر مجادلتهم بأنهم يقولون: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ قال الواحدي: وأصل الأساطير من السطر، وهو أن يجعل شيئا ممتدا مؤلفا ومنه سطر الكتاب وسطر من شجر مغروس، قال ابن السكيت: يقال سطر وسطر، فمن قال سطر فجمعه في القليل أسطر والكثير سطور، ومن قال سطر فجمعه أسطار، والأساطير جمع الجمع، وقال الجبائي: واحد الأساطير أسطور وأسطورة وأسطير وأسطيرة، وقال الزجاج: واحد الأساطير أسطورة مثل أحاديث وأحدوثة، وقال أبو زيد: الأساطير من الجمع الذي لا واحد له مثل عباديد:

أ. قال الجمهور: أساطير الأولين ما سطره الأولون.

ب. قال ابن عباس: معناه أحاديث الأولين التي كانوا يسطرونها أي يكتبونها.

ج. فأما قول من فسر الأساطير بالترهات، فهو معنى وليس مفسرا، ولما كانت أساطير الأولين مثل حديث رستم وإسفنديار كلاما لا فائدة فيه لا جرم فسرت أساطير الأولين بالترهات.

١٣. سؤال وإشكال: كان مقصود القوم من ذكر قولهم ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ القدح في كون القرآن معجزا فكأنهم قالوا: إن هذا الكلام من جنس سائر الحكايات المكتوبة، والقصص المذكورة للأولين، وإذا كان هذا من جنس تلك الكتب المشتملة على حكايات الأولين وأقاصيص الأقدمين لم يكن معجزا خارقا للعبادة، والجواب: أجاب القاضي عنه بأن قال هذا السؤال مدفوع لأنه يلزم أن يقال لو كان في مقدوركم معارضته لوجب أن تأتوا بتلك المعارضة وحيث لم يقدروا عليها ظهر أنها معجزة.

١٤. سؤال وإشكال: لقائل أن يقول: كان للقوم أن يقولوا نحن وإن كنا أرباب هذا اللسان العربي إلا أنا لا نعرف كيفية تصنيف الكتب وتأليفها ولسنا أهلا لذلك، ولا يلزم من عجزنا عن التصنيف كون القرآن معجزا لأنا بينا أنه من جنس سائر الكتب المشتملة على أخبار الأولين وأقاصيص الأقدمين، والجواب: عن هذا السؤال سيأتي في الآية المذكورة بعد ذلك.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾، أفرد على اللفظ يعني المشركين كفار مكة.

٢. ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي فعلنا ذلك بهم مجازاة على كفرهم، وليس المعنى أنهم لا يسمعون ولا يفقهون، ولكن لما كانوا لا ينتفعون بها يسمعون، ولا ينقادون إلى الحق كانوا بمنزلة من لا يسمع ولا يفهم، والأكنة الأغطية جمع كنان مثل الأسنة والسنان، والأعنة والعنان، كننت الشيء في كنه إذا صنته فيه، وأكننت الشيء أخفيته، والكنانة معروفة، والكنة (بفتح الكاف والنون) امرأة أبيك، ويقال: امرأة الابن أو الأخ، لأنها في كنه.

٣. ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أي يفهموه وهو في موضع نصب، المعنى كراهية أن يفهموه، أو لئلا يفهموه.

٤. ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ عطف عليه أي ثقلا، يقال منه: وقرت أذنه (بفتح الواو) توقر وقرا أي صمت، وقياس مصدره التحريك إلا أنه جاء بالتسكين، وقد وقر الله أذنه يقرها وقرا، يقال: اللهم قر أذنه، وحكى أبو زيد عن العرب: أذن موقورة على ما لم يسم فاعله، فعلى هذا وقرت (بضم الواو)، وقرأ طلحة بن مصرف ﴿وِقْرًا﴾ بكسر الواو، أي جعل في آذانهم ما سدها عن استماع القول على التشبيه بوقر البعير، وهو مقدار ما يطيق أن يحمل، والوقر الحمل، يقال منه: نخلة موقر وموقرة إذا كانت ذات ثمر كثير، ورجل ذو قرة إذا كان وقورا بفتح الواو، ويقال منه: وقر الرجل (بضم القاف) وقارا، ووقر (بفتح القاف) أيضا.

٥. ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ أخبر الله تعالى بعنادهم لأنهم لما رأوا القمر منشقا قالوا: سحر، فأخبر الله تعالى بردهم الآيات بغير حجة.

٦. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ مجادلتهم قولهم: تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله، عن ابن عباس، ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني قريشا، قال ابن عباس: قالوا للنضر بن الحرث [: ما يقول محمد؟ قال أرى تحريك شفتيه وما يقول إلا أساطير الأولين مثل ما أحدثكم عن القرون الماضية، وكان النضر صاحب قصص وأسفار، فسمع أقاصيص في ديار العجم مثل قصة رستم واسفنديار فكان يحدثهم، وواحد الأساطير أسطار كأبيات وأبابيت، عن الزجاج، قال الأخفش: واحدها أسطورة كأحدوثة

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/ ٤٠٤.

وأحاديث، أبو عبيدة: واحدها إسطارة، النحاس: واحدها أسطور مثل عثكول، ويقال: هو جمع أسطار، وأسطار جمع سطر، يقال: سطر وسطر، والسطر الشيء الممتد المؤلف كسطر الكتاب، القشيري: واحدها أسطير، وقيل: هو جمع لا واحد له كمذاكير وعباديد وأبابيل أي ما سطره الأولون في الكتب، قال الجوهري وغيره: الأساطير الأباطيل والترهات، قلت: أنشدني بعض أشياخي:

تطاول ليلي واعترتني وساوسي ... لآت أتى بالترهات الأباطيل

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ هذا كلام مبتدأ لبيان ما كان يصنعه بعض المشركين في الدنيا، والضمير عائد إلى الذين أشركوا: أي وبعض الذين أشركوا يستمع إليك حين تتلو القرآن.

٢. ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي فعلنا ذلك بهم مجازاة على كفرهم، والأكنة: الأغطية جمع كنان مثل الأسنة والسنان، كنت الشيء في كنه: إذا جعلته فيه، وأكننته أخفيته، وجملة ﴿جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ مستأنفة للإخبار بمضمونها، أو في محل نصب على الحال: أي وقد جعلنا على قلوبهم أغطية كراهة أن يفقهوا القرآن، أو لئلا يفقهوه، والوقر: الصمم؛ يقال: وقرت أذنه تقر وقرا: أي صمت، وقرأ طلحة بن مصرف وقرا بكسر الواو: أي جعل في آذانهم ما سدّها عن استماع القول على التشبيه بوقر البعير، وهو مقدار ما يطيق أن يحمله، وذكر الأكنة والوقر تمثيل لفرط بعدهم عن فهم الحق وسماعه كأن قلوبهم لا تعقل وأسماعهم لا تدرك.

٣. ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ أي لا يؤمنوا بشيء من الآيات التي يرونها من المعجزات ونحوها لعنادهم وتمرّدهم.

٤. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ حتى هنا: هي الابتدائية التي تقع بعدها الجمل، وجملة يجادلونك في محل نصب على الحال، والمعنى: أنهم بلغوا من الكفر والعناد أنهم إذا جاءوك مجادلين لم يكتفوا بمجرد عدم الإيمان بل يقولون: إن هذا إلا أساطير الأوّلين؛

---

(١) فتح القدير: ٢/ ١٢٤.

وقيل: حتى هي الجارة وما بعدها في محل جر، والمعنى: حتى وقت مجيئهم مجادلين يقولون: إن هذا إلا أساطير الأوّلين، وهذا غاية التكذيب ونهاية العناد.

٥. الأساطير: قال الزجاج: واحدها أسطار، وقال الأخفش: أسطورة، وقال أبو عبيدة: إسطارة، وقال النحاس: أسطور، وقال القشيري: أسطير، وقيل: هو جمع لا واحد له كعباديد وأبابيل، والمعنى: ما سطره الأوّلون في الكتب من القصص والأحاديث، قال الجوهري: الأساطير: الأباطيل والترهات.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ يَّسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ حين استمع له أميَّة بن خلف وأخوه أبيٌّ والوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث وعتبة وشيبة ابني ربيعة لعنهم الله، ومنهم أبو سفيان بن حرب ـ إلَّا أنَّه أسلم حين الفتح ـ اجتمعوا وقالوا للنضر وكان أعقلهم وأقربهم للإسلام ومات كافرًا: يا أبا قتيلة ما يقول محمَّد؟ فقال: ما أدري ما يقول غير أنِّي أراه يحرِّك لسانه ويذكر أساطير الأَوَّلِينَ، مثل ما كنت أذكر لكم عن القرون الماضية، وكان النضر كثير الأخبار عنها، فقال أبو سفيان: أرى بعض ما يقول حقًّا، فقال أبو جهل: كلَّا! لا تُقرَّ بشيء من هذا! المَوْتُ أحبُّ إلينا من هذا.

٢. روعي لفظ (مَن) فأفرد الضمير، لأنَّ المستمعين المرادين هنا قليل، كما أفرد في ﴿وَمِنْهُم مَّنْ يَّنظُرُ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٤٣] لقلَّة الناظرين إلى المعجزات، ورُعِيَ معناها فجمع في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ يَّسْتَمِعُونَ﴾ [يونس: ٤٢]، لأنَّ المراد الكفَّارُ كلُّهم.

٣. ﴿وَجَعَلْنَا﴾ صيَّرنا، أو خلقنا، أو ألقينا ﴿عَلَى قُلُوبِهِمُ أَكِنَّةً﴾ جمع كنان، وهو ما يغطِّي الشيء، ﴿أَنْ يَّفْقَهُوهُ﴾ متعلِّق بـ (أَكِنَّةً)؛ لأنَّ المعنى: وجعلنا على قلوبهم مانعًا عن أن يفقهوه، وهذا أولى من أن يقال: حذر أن يفقهوه، أو كراهة أن يفقهوه، أو لِئَلَّا يفقهوه، أي: يفهموه، والهاء للقرآن المعلوم من قوله: ﴿يَسْتَمِعُ﴾، ﴿وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ معنًى مانعًا عن سماع القبول والتدبُّر، تشبيهًا بثقل السمع حتَّى كأنَّهم لم يسمعوا.

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/ ٢٢٨.

٤. والأكنَّة والوقر عبارة عن الخذلان، وهو ترك التوفيق؛ أو عن أن يُحدِث في نفوسهم هيئةً تُمرِّنهم على استحباب الكفر والمعاصي، واستقباح الإيمان والطاعات لإهمالهم عقولهم عن النظر، وذلك عقوبة لهم على اختيارهم الكفر وإهمال النظر، لكنَّ هذا الاختيار مخلوق لله تعالى ، وليس ذلك الإحداث وخلق الاختيار إجبارًا، ولو كانا يُتخيَّل أنَّهما إجبار لعجز عقولنا عن فهم ذلك، أو نقول: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾، ولا حجَّة لِلكُفَّارِ إذ يقرُّون بالاختيار ضرورة، ولو أنكروه تارة، وأسند الجعل والطبع والختم إلى الله باعتبار خلقه الاختيار وترك التوفيق، وعوقبوا على الاختيار، والمعتزلة منعوا إسناد ذلك إلى الله، وقالوا: تمكَّن التقليد وإهمال النظر في قلوبهم حتَّى صارا كالطبيعة المسند خلقها إلى الله تعالى ، والحقُّ إسناد ذلك إلى الله تعالى بمعنى خلقه، ولا مانع، ويُسألون عن ذلك التمكُّن، فإن قالوا: بالطبع المجرَّد، فذلك شرك، وهم يقولون بخلقهم أفعالهم، وضلُّوا بذلك مع أنَّ التمكُّن ليس فعلاً لهم.

٥. ﴿وَإِنْ يَّرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ﴾ علامة مِمَّا يتلى وغير ما يتلى من المعجزات على وحدانيَّة الله تعالى، ونبوءة محمَّد ﷺ ورسالته، وقال ابن عبَّاس: المراد آيات القرآن، وقيل: التكوينيَّة، كانشقاق القمر ونبع الماء من بين الأصابع وتكثير الماء والطعام القليلين، وخصَّصها بعض بغير الملجئة لئلَّا يناقض قوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتَ اَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤]، قلت: الإيمان عند الآية الملجئة غير الإيمان الاختياريِّ.

٦. ﴿لَا يُومِنُواْ بِهَا﴾ يكذِّبون بها، ويقولون: سحرٌ أو افتراء وأساطير، أو لا يؤمنون بسببها بالوحدانيَّة والنبوءة والرسالة، ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَآءُوكَ﴾ (حَتَّى) للابتداء، ولا تخلو عن معنى الغاية، لأنَّها تفريع، ألا ترى أنَّ المفرَّع ينتهي إلى المفرَّع عليه وبالعكس، فإنَّ عنادهم انتهى بهم إلى قولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ ولو قلنا: جارَّة خرجت (إِذَا) عن الشرط والصدر، ولم يكن لها جواب، وهو وجه ضعيف.

٧. ﴿يُجَادِلُونَكَ﴾ حال من الواو مُقَدَّرة، أي: ينازعونك نزاعًا شديدًا، والجدال لا يخلو عن شِدَّة، أو نزاعًا شديدًا حتَّى كأنَّهم يريدون أن يلقوك على الجدالة وهي الأرض، وجواب (إِذَا) هو قوله: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فيما قيل، واعترض بأنَّ قول الذين كفروا هو نفس الجدال فلا فائدة، إلَّا أن تؤوَّل المجادلة بإرادتها أو بقصدها، والأصل خلاف التأويل.

٨. ﴿إِنْ هَذَآ إِلَّآ أَسَاطِيرُ الاَوَّلِينَ﴾ كلمات كتبها الأَوَّلُونَ أسطارًا تتلى عليك، أو جواب (إِذَا) (يُجَادِلُونَكَ)، و(يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا) مستأنفٌ في جواب سؤال مُقَدَّر، أو بدل مِن (يُجَادِلُونَكَ)، والمفرد: أسطورة ـ أفعولة ـ فيما يستعجب منه كأحدوثة وأضروبة، وهو أولى؛ ويليه أنَّه جمع أسطار، وأسطار جمع سَطر (بفتح الطاء وإسكانها)، وقيل: جمع أسطورة أو إسطارة أو أسطير، أو أسطور مفردات غير واردة؛ وقيل: وردت في كلام العرب، ولا يصحُّ ما قيل: أساطير جمع أسطار وإسطار جمع أسطر وإسطر جمع سطر، لأنَّ (أفعالاً) جمعٌ للثلاثيِّ لا للرباعيِّ، ولا ما قيل: إنَّه اسم جمع، لأنَّ نصوص النُّحَاة أنَّ ما على صيغة منتهى الجمع يقال له جمع، ولو لم يكن له مفرد من لفظه، كعباديد وشماطيط.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بيّن تعالى بعض ما كان يصدر من مشركي مكة، مما طبع على قلوبهم بسببه فقال سبحانه: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أي: يصغي حين تتلو القرآن، ولا يجزئ عنه شيئا، لأنه لا يتدبر فيه حتى يطّلع على إعجازه، ويؤثر فيه الإرشاد.

٢. ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي حجبا، جمع كنان، كغطاء وأغطية، لفظا ومعنى ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أي: كراهة أن يفهموا، ببواطن قلوبهم، بواطنه التي بها إعجازه وإرشاده، بإقامة الدلائل ورفع الشبه، ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: وجعلنا في آذانهم، التي هي طريق الوصول إلى بواطن القلوب، صمما مانعا من وصول السماع النافع، وقد مرّ في أول البقرة تحقيق ذلك، فتذكر!

٣. ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ إشارة إلى أنه لا يختص ما ذكر منهم بالقرآن، لرؤيتهم قصورا فيه، بل مهما يروا من الآيات والحجج مما يدل على صدق الرسول لا يؤمنوا بها، ويحملوها على السحر، لفرط عنادهم، واستحكام التقليد فيهم، فلا فهم عندهم ولا إنصاف، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣]

٤. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ أي: بلغ تكذيبهم الآيات إلى أنهم إذا جاءوك يحاجونك

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/ ٣٣٦.

ويناظرونك في الحق بالباطل، ثم فسر المجادلة بقوله: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: أباطيلهم وأحاديثهم التي لا نظام لها، وعدّ أحسن الحديث وأصدقه، من قبيل الأباطيل وهو الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ ـ رتبة من الكفر لا غاية وراءها.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. كان المشركون أصنافا متفاوتين في الفهم والعقل وفي الكفر وأسبابه، وقد بين الله أحوال كل فريق منهم في كتابه فمنهم أصحاب الذكاء واللوذعية الذين كانوا يسمعون هذا القرآن ويعقلون أنه لا يمكن أن يكون من كلام محمد ﷺ ولا هو بالذي يستطيع الإتيان بمثله في نظمه وفصاحته وبلاغته، ولا في علومه وحكمه ومعارفه إذ لو كان مثله مما تصل إليه قدرته لظهر على لسانه شيء من مثله أو ما يقرب منه فيما مضى من حياته وهو أربعون سنة ونيف وقد أمره الله تعالى أن يقيم عليهم هذه الحجة بقوله: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وما كان كفر أمثال هؤلاء إلا عن كبر وعناد ومكابرة للحق، ومنهم من كان يعرض عن سماع القرآن خشية أن يؤثر في قلبه، وينزعه من الدين الذي ألفه طول عمره، ومنهم من كان يصغي سمعه إلى القرآن بقصد الاكتشاف والاختبار، ولكنه لا يعقل المراد منه ولا يفقه حججه وبيناته، إما لعدم توجه ذهنه إلى ذلك لعراقته في التقليد والأنس بما درج عليه الآباء وهو الأكثر، وإما للبلادة وانحطاط الكفر عن التسامي إلى هذه المعارف العالية فيه، وكان هذا قليلا في العرب ولا سيما أهل مكة وهم أفصح قريش التي هي أفصح العرب.

٢. وقد بين الله تعالى حال هذا الفريق الذي لم يكن حظه من الاستماع إلى النبي ﷺ إلا كحظ النعم من سماع أصوات البشر فقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أيها الرسول إذا تلوت القرآن داعيا إلى توحيد الله منذرا يوم القيامة ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي وجعلنا على آلة الفهم والإدراك من أنفسهم وهي قلب الإنسان ولبه أغطية حائلة دون فقهه ونفوذ الأفهام إلى أعماق عمله، وفي آذانهم وقرا أي ثقلا أو صمما حائلا دون سماعه بقصد التدبر واستبانة الحق، ومعنى هذا الجعل ما مضت

---

(١) تفسير المنار: ٧/ ٢٨٩

به سنة الله تعالى في طباع البشر من كون التقليد الذي يختاره الإنسان لنفسه يكون مانعا له باختياره من النظر والاستدلال والبحث عن الحقائق، فهو لا يستمع إلى متكلم ولا داع لأجل التمييز بين الحق والباطل، وإذا وصل إلى سمعه قول مخالف لما هو دين له أو عادة لا يتدبره ولا يراه جديرا بأن يكون موضوع المقابلة والتنظير مع ما عنده من عقيدة أو رأي أو عادة، وجعل الأكنة على القلوب والوقر في الآذان في الآية من تشبيه الحجب والموانع المعنوية، بالحجب والموانع الحسية، فإن القلب الذي لا يفقه الحديث ولا يتدبره كالوعاء الذي وضع عليه الكن أو الكنان وهو الغطاء حتى لا يدخل فيه شيء، والآذان التي لا تسمع الكلام سماع فهم وتدبر كالآذان المصابة بالثقل أو الصمم لأن سمعها وعدمه سواء، والأكنة جمع كنان كالأسنة جمع سنان، والوقر بالفتح الثقل في السمع والصمم وبالكسر الحمل، يقال: وقر سمعه يقر فهو موقور، إذا كان لا يسمع، وأوقر الدابة فهي موقرة.

٣. ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ يقول الله تعالى في هؤلاء الذين لا يسمعون ما يتلو عليهم الرسول سماع تدبر ولا يفقهون كنه ما يدعو إليه، وإن يروا كل آية من الآيات الدالة على صحة نبوتك وصدق دعوتك وحقيقة ما تدعو إليه لا يؤمنوا بها، لأنهم لا يفقهونها ولا يدركون كنه المراد منها، لعدم التوجه أو لوقوف أسماعهم عند ظواهر الألفاظ.

٤. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ أي حتى إذ صاروا إليك أيها الرسول مجادلين لك في دعوتك ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي يقولون لإصرارهم على كفرهم وانتقاء فقههم: ما هذا القرآن إلا أساطير الأولين من الأمم، أي قصصهم وخرافاتهم، يعني أنهم لا يعقلون مما في القرآن من أنباء الغيب في قصص الأمم مع رسلهم إلا أنها حكايات وخرافات تسطر وتكتب كغيرها، فلا علم فيها ولا فائدة منها، وربما جعلوا القرآن كله من هذا القبيل قياسا لما لم يسمعوا على ما سمعوا، أو لغير القصص على القصص، وهكذا شأن من ينظر إلى الشيء نظرا سطحيا لا ليستنبط منه علما ولا برهانا، ومن يسمع الكلام جرسا لفظيا لا يتدبره ولا يفقه أسراره، فمثل هذا وذاك كمثل الطفل الذي يشاهد ألعاب الصور المتحركة يديرها قوم لا يعرف لغتهم، فكل حظه مما يرى من المناظر ومن المكتوبات المفسرة لها لا يعدو التسلية، ولو عقل هؤلاء المقلدون الغافلون قصص القرآن وتدبروا معانيها لكان لهم منها آيات بينة على صدق دعوة الرسول ﷺ ونذر عظيمة مما فيها من بيان سنن الله تعالى في الأمم، وعاقبة أمرهم مع الرسل،

وغير ذلك من الحكم والعبر.

٥. وإن في أهل هذا العصر من لا يكفر في إتيان الأمي الناشئ بين الأميين بخلاصة أخبار أشهر الرسل مع أقوامهم لأنه يرى أو يسمع أن ما في القرآن من ذلك يشبه ما في غيره من كتب اليهود والنصارى وكتب التاريخ، ولا يرى في هذا ما يبعثه إلى البحث في الفروق بين ما في القرآن وما في غيره، وهي كثيرة سبق بيانها في بحث الإعجاز وأهمها في باب إثبات نبوته ﷺ كونه ظهر على لسان رجل أمي لم يقرأ ولم يطلع على شيء من كتب الدين ولا كتب التاريخ، وقد احتج بهذا على قومه فلم يستطع أحد ممن انتصبوا لعداوته أن يرفع في الإنكار عليه رأسا أو ينبس في الرد عليه بكلمة: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾، فإذا كان في أهل هذا العصر من لا يفكر في هذه الآية البينة على نبوة محمد ﷺ وهي خاصة بقصص القرآن لما ذكرنا من السبب، ومن لا يفكر في إعجاز القرآن ببلاغته بعد أن عاش النبي ثلثي عمره قبله ولم يكن في كلامه ما هو معجز، فإن كفار قريش لم يكونوا يستطيعون إنكار كون محمد ﷺ كان أميا مثلهم، وأنه لم يكن يعرف شيئا من أخبار الرسل مع أقوامهم، ولا كان ممتازا بالبلاغة والفصاحة فيهم، ولكن كان بعضهم يجهل ما يعرفه أهل هذا العصر من كون تلك القصص كانت صحيحة لا من أساطير الأولين وأوضاعهم الخرافية التي لا يثبت لها أصل ولأجل هذا سأل بعضهم اليهود عنها، كما كان بعضهم يجهل ما فيها من الآيات والعبر لعدم تدبرها، قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: الأسطارة لغة: الخرافات والترهات وهي التي تجمع على أساطير، وقال الأخفش: واحد الأساطير أسطورة.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بعد أن بين سبحانه أحوال الكفار في الآخرة وذكر ما يكون منهم من تلجلج واضطراب، فتارة ينكرون شركهم بالله وأخرى يعترفون به وذكر ما يواجهون به من اللوم والتقريع على الشركاء الذين اتخذوهم أولياء وشفعاء، ذكر هنا ما يوجب اليأس من إيمان بعض منهم لوجود الموانع الصادّة عنه، فمهما

(١) تفسير المراغي ٧/ ٩٨.

توالت الآيات والنذر لا تجدى معهم شيئا، إذ الحجب كثيفة، والأغطية سميكة، فاختراقها عسير، والوصول إليها في حكم المستحيل، قال ابن عباس: حضر عند النبي ﷺ أبو سفيان والوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث والحارث بن عامر وأبو جهل في جمع كثير واستمعوا إلى النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن، فقالوا للنضر يا أبا قتيلة ما يقول محمد؟ فقال: والذي جعلها (الكعبة) بيته ما أدرى ما يقول إلا أنى أراه يحرك شفتيه ويتكلم بأساطير الأولين مثل ما كنت أحدثكم به عن القرون الماضية، وكان النضر كثير الحديث عن القرون الأولى: يحدّث قريشا بها يستملحونه، قال أبو سفيان: إني لأرى بعض ما يقول حقا، فقال أبو جهل: كلّا فأنزل الله الآية.

٢. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أي ومن أولئك الكافرين فريق يستمع إليك إذا أنت تلوت القرآن داعيا إلى توحيد الله مبشرا منذرا.

٣. ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي والحال أنا قد جعلنا على قلوبهم أغطية تحول دون فقهه وفهمه، وفى آذانهم ثقلا أو صمما يحول دون سماعه بقصد التدبر والوصول إلى ما فيه من الهداية والرشد، وفى هذا تشبيه للحجب والموانع المعنوية بالحجب والموانع الحسية، فالقلب الذي لا يفقه الحديث ولا يتدبره كالوعاء الذي وضع عليه الغطاء فلا يدخل فيه شيء والآذان التي لا تسمع الكلام سماع فهم وتدبر كالآذان المصابة بالثقل أو بالصمم، فسمعها وعدمه سواء، بيان هذا ـ أن الله جلت قدرته جعل التقليد الذي يختاره الإنسان لنفسه مانعا من النظر والاستدلال والبحث عن الحقائق، فالمقلد لا يستمع إلى متكلم ليميز الحق من الباطل، وإذا وصل إلى سمعه ما هو مخالف لما يدين به لا يتدبره ولا يراه جديرا بالموازنة بينه وبين ما عنده من عقيدة أو رأى ليختار أقربها إلى الصحة وأجدرهما بالصدق وأكثرهما هداية ورشادا؛ وأبعثهما إلى اطمئنان النفس الموصل لها إلى السعادة في الدنيا والآخرة.

٤. ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ أي وإن يروا كل آية من الآيات الدالة على صحة نبوتك وصدق دعوتك لا يؤمنوا بها، إذ هم لا يفقهونها ولا يدركون المراد منها لوقوف أسماعهم عند ظواهر الألفاظ فحظهم كحظ الصّمّ من سماع أصوات البشر.

٥. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي حتى إذا جاءوك مجادلين لك في دعوتك قالوا: ما هذا إلا أساطير الأولين وخرافاتهم، ذاك أنهم لم يعقلوا مما في

القرآن من أنباء الغيب إلا أنها حكايات وخرافات تسطّر وتكتب كغيرها من الأنباء والخرافات، فلا علم فيها ولا فائدة منها، وهذه حال من يسمع جرس الكلام ولا يتدبره ولا يفقه أسراره، أو من ينظر إلى الشيء نظرة جملية لا يستنبط منها علما، ولا يستفيد منها عقيدة ولا رأيا، وما مثلهما إلا مثل من يشاهد ألعاب الصور المتحركة (السينما) مفسرة بلغة هو لا يعرفها، فكل همه مما يرى من المناظر والكتابة لا يعدو التسلية وشغل الوقت، فلو عقل هؤلاء قصص القرآن وتدبروا معانيها لكان لهم من ذلك آيات بينات تدل على صدق الرسول ﷺ، وعبر ومواعظ ونذر تبين سنن الله في خلقه مع الأقوام الذين كذبوا الرسل وكان عاقبة أمرهم الدمار والنكال.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. يمضي السياق يصور حال فريق من المشركين؛ ويقرر مصيرهم في مشهد من مشاهد القيامة.. يصور حالهم وهم يستمعون القرآن معطلي الإدراك، مطموسي الفطرة، معاندين مكابرين، يجادلون رسول الله ﷺ وهم على هذا النحو من الاستغلاق والعناد، ويدعون على هذا القرآن الكريم أنه أساطير الأولين؛ وينأون عن سماعه وينهون غيرهم عنه أيضا.. يصور حالهم هكذا في الدنيا في صفحة، وفي الصفحة الأخرى يرسم لهم مشهدا كئيبا مكروبا؛ وهم موقوفون على النار محبوسون عليها، وهي تواجههم بهول المصير الرعيب؛ وهم يتهافتون متخاذلين؛ ويتهاوون متحسرين؛ يتمنون لو يردون إلى الدنيا فيكون لهم موقف غير ذلك الموقف، الذي انتهى بهم إلى هذا المصير، فيردون عن هذا التمني بالتصغير والتحقير: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾

٢. إنهما صفحتان متقابلتان: صفحة في الدنيا يرتسم فيها العناد والإعراض؛ وصفحة في الآخرة

(١) في ظلال القرآن: ٢/ ١٠٦٥.

يرتسم فيها الندم والحسرة.. يرسمها السياق القرآني، ويعرضها هذا العرض المؤثر الموحي؛ ويخاطب بها الفطر الجاسية؛ ويهز بها هذه الفطر هزا، لعل الركام الذي ران عليها يتساقط، ولعل مغاليقها الصلدة تتفتح، ولعلها تفيء إلى تدبر هذا القرآن قبل فوات الأوان.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾، والأكنة: الأغلفة التي تحول دون أن تتفتح هذه القلوب فتفقه؛ والوقر: الصمم الذي يحول دون هذه الآذان أن تؤدي وظيفتها فتسمع.. وهذه النماذج البشرية التي تستمع؛ ولكنها لا تفقه، كأن ليس لها قلوب تدرك؛ وكأن ليس لها آذان تسمع.. نماذج مكرورة في البشرية في كل جيل وفي كل قبيل، في كل زمان وفي كل مكان.. إنهم أناسي من بني آدم.. ولكنهم يسمعون القول وكأنهم لا يسمعونه، كأن آذانهم صماء لا تؤدي وظيفتها، وكأن إدراكهم في غلاف لا تنفذ إليه مدلولات ما سمعته الآذان!

٣. ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، فأعينهم ترى كذلك، ولكن كأنها لا تبصر، أو كأن ما تبصره لا يصل إلى قلوبهم وعقولهم! فما الذي أصاب القوم يا ترى؟ ما الذي يحول بينهم وبين التلقي والاستجابة، بينما لهم آذان ولهم عيون ولهم عقول؟ يقول الله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾، وهذا يعبر عن قضاء الله فيهم بألا يتلقى إدراكهم هذا الحق ولا يفقهه؛ وبألا تؤدي أسماعهم وظيفتها فتنقل إلى إدراكهم ما تسمع من هذا الحق فتستجيب له، مهما يروا من دلائل الهدى وموحيات الإيمان غير أنه يبقى أن نلتمس سنة الله في هذا القضاء.. إنه سبحانه يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، ويقول: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾، فشأن الله سبحانه أن يهدي من يجاهد ليبلغ الهدى؛ وأن يفلح من يزكي نفسه ويطهرها.. فأما هؤلاء فلم يتجهوا إلى الهدى ليهديهم الله؛ ولم يحاولوا أن يستخدموا أجهزة الاستقبال الفطرية في كيانهم، فييسر الله لهم الاستجابة.. هؤلاء عطلوا أجهزتهم الفطرية ابتداء؛ فجعل الله بينهم وبين الهدى حجابا؛ وجرى قضاؤه فيهم بهذا الذي جرى جزاء على فعلهم الأول ونيتهم الأولى.. وكل شيء إنما يكون بأمر الله، ومن أمر الله أن يهدي من يجاهد، وأن يفلح من يتزكى، ومن أمر الله أن يجعل على قلوب المعرضين أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها.. والذين يحيلون ضلالهم وشركهم

وخطاياهم على إرادة الله بهم، وعلى قضائه فيهم، إنما يغالطون في هذه الإحالة، والله سبحانه يجبههم بالحق، وهو يحكي أقوالهم في هذا الشأن ويسفهها: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾، فدل هذا على إنكار الله عليهم قولهم؛ وعلى أن الضلالة إنما حقت عليهم ـ بعد النذارة ـ بفعلهم..

٤. والذين أثاروا قضايا القضاء والقدر، والجبر والاختيار، وإرادة العبد وكسبه.. ليجعلوا منها مباحث لاهوتية، تخضع لما تتصوره عقولهم من فروض وتقديرات، إنما يجانبون منهج القرآن في عرض هذه القضية في صورتها الواقعية التقريرية البسيطة؛ التي تقرر أن كل شيء إنما يكون بقدر من الله؛ وأن اتجاه الإنسان على هذا النحو أو ذاك داخل في حدود فطرته التي خلقه الله عليها، والتي جرى بها قدر الله فكانت على ما كانت عليه؛ وأن اتجاهه على هذا النحو أو ذاك تترتب عليه نتائج وآثار في الدنيا والآخرة يجري بها قدر الله أيضا، فتكون.. وبهذا يكون مرجع الأمر كله إلى قدر الله.. ولكن على النحو الذي يرتب على إرادة الإنسان الموهوبة له ما يوقعه قدر الله به.. وليس وراء هذا التقرير إلا الجدل الذي ينتهي إلى المراء!

٥. والمشركون كانت معروضة عليهم أمارات الهدى ودلائل الحق وموحيات الإيمان في هذا القرآن، الذي يلفتهم إلى آيات الله في الأنفس والآفاق؛ وهي وحدها كانت كفيلة ـ لو اتجهت إليها قلوبهم ـ أن توقع على أوتار هذه القلوب، وأن تهز فيها المدارك الغافية فتوقظها وتحييها، لتتلقى وتستجيب.. إلا أنهم هم لم يجاهدوا ليهتدوا؛ بل عطلوا فطرتهم وحوافزها؛ فجعل الله بينهم وبين موحيات الهدى حجابا؛ وصاروا حين يجيئون إلى الرسول ﷺ لا يجيئون مفتوحي الأعين والآذان والقلوب؛ ليتدبروا ما يقوله لهم تدبر الباحث عن الحق؛ ولكن ليجادلوا ويتلمسوا أسباب الرد والتكذيب: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾

٦. والأساطير جمع أسطورة، وكانوا يطلقونها على الحكايات التي تتضمن الخوارق المتعلقة بالآلهة والأبطال في قصص الوثنيات، وأقربها إليهم كانت الوثنية الفارسية وأساطيرها، وهم كانوا يعلمون جيدا أن هذا القرآن ليس بأساطير الأولين، ولكنهم إنما كانوا يجادلون؛ ويبحثون عن أسباب الرد والتكذيب؛

ويتلمسون أوجه الشبهات البعيدة.. وكانوا يجدون فيما يتلى عليهم من القرآن قصصا عن الرسل وأقوامهم؛ وعن مصارع الغابرين من المكذبين، فمن باب التمحل والتماس أوهى الأسباب، قالوا عن هذا القصص وعن القرآن كله: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾!

٧. وإمعانا في صرف الناس عن الاستماع لهذا القرآن، وتثبيت هذه الفرية.. فرية أن هذا القرآن إن هو إلا أساطير الأولين.. كان مالك بن النضر، وهو يحفظ أساطير فارسية عن رستم وإسفنديار من أبطال الفرس الأسطوريين، يجلس مجلسا قريبا من رسول الله ﷺ وهو يتلو القرآن، فيقول للناس: إن كان محمد يقص عليكم أساطير الأولين، فعندي أحسن منها! ثم يروح يقص عليهم مما عنده من الأساطير، ليصرفهم عن الاستماع إلى القرآن الكريم!

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. من هذا الموقف الذي سيقوا فيه إلى يوم القيامة، وإلى الحساب والمساءلة، وقطع الحجة عليهم ـ من هذا الموقف ردّوا إلى موقفهم الأول، حين كانوا في مواجهة النبيّ وفي عنادهم له، وتصدّيهم لدعوته.. وكان الجدير بهم ـ لو عقلوا ـ أن تتأثر وجداناتهم بهذه الإثارات التي تتغيّر بها معالم الوجود في أعينهم، حين ينقلون من الدنيا إلى الآخرة، ثم يردّون من الآخرة إلى الدنيا.. ولكنهم ظلوا على حال واحدة، حتى لكأنهم أحجار لا تحسّ ولا تعقل.

٢. في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ استحضار لهؤلاء المشركين الضالين من موقف الحشر، الذي نقلتهم إليه الآيات القرآنية السابقة نقلا قاهرا، وأحضرتهم مشاهد المحاكمة والمساءلة ـ إلى ما كانوا فيه من مواجهة النبيّ وتحدّيه، وتكذيبه، والاستهزاء به.. فمن هؤلاء المشركين الضالين من يستمع إلى النبيّ وما يرتّل من كلمات الله، ولكنه استماع لا يحدث فيهم أثرا.. فلا تنفذ كلمات الله إلى آذانهم، ولا تبلغ مواطن الإحساس من قلوبهم، فقد أصمّ الله آذانهم، وأعمى قلوبهم..

٣. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ والأكنّة جمع كنان، مثل قناع وأقنعة،

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/ ١٥٠.

وزنا ومعنى، أي أنه ضرب على قلوبهم حجاز يقطع ما بينها وبين موارد العالم الخارجي، فلا تحسّ شيئا، ولا تنفعل لشيء، والوقر: الصمم يصيب حاسة السّمع، فقد ختم الله على قلوب هؤلاء القوم، وعلى سمعهم، فلا يسمعون خيرا، ولا يعقلونه، فهم ـ والحال كذلك ـ لن يهتدوا أبدا، ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾.. ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: ٤١]

٤. وختم الله على القلوب، هو تركها على ما هي عليه من ضلال وعمى.. دون أن يمدّها بأمداد لطفه، وعونه، إذ كانت هي لا تستجيب لخير، ولا تتقبل هدى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]

٥. قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ يكشف عن طبيعة هؤلاء القوم، وأنهم لا يتحركون إلا إلى الشرّ، ولا يعملون إلا لما هو شرّ.. فهم إذا جاءوا إلى النبيّ لم يجيئوا لطلب حق، أو تعرّف على خير، وإنما هم يجيئون للمجادلة، والسّفاهة، والاستهزاء.. إن الحال التي تتلبس بهم، وتستولى عليهم، وهم يسعون إلى لقاء النبي، والاستماع إليه ـ هي المجادلة، والمماحكة، ولا شيء غير هذا..

٦. قوله تعالى: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ هو بيان لما تكشفت عنه حالهم، وانتهى إليه أمرهم، من هذا الموقف الذي جاءوا فيه إلى النبي، مستمعين مجادلين، لا طلاب علم واستفادة.. والأساطير جمع أسطورة، وهي ما كان من واردات الخيالات والأوهام، وملفقات الأحاديث.. فهذا هو حكمهم على ما استمعوا إليه من كلام الله: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وتلك هي أسلحة المكابرين المعاندين في معركتهم الخاسرة مع الحق.. فحين تسقط من أيديهم كل حجة، يلقون بهذه الترهات وتلك الأباطيل، لتكون وقاية لهم مما لبسهم من خزى وما لحقهم من هزيمة..

٧. وفي وصفهم بالكفر، هكذا: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بدلا من أن يقال: (يقولون) هو حكم عليهم بالكفر، وإدانة لهم به، إذ قالوا عن القرآن الكريم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، خاطب الله نبيه بهذه الآية بعد ما أمره أن يقول للمعاندين ما تقوم به الحجة عليهم، وبعد أن تحدث عن أحوالهم يوم القيامة، والمعنى أن فريقا من هؤلاء الجاحدين يستمعون إلى النبي، وهو يتلو القرآن، ولكنهم لا ينتفعون به ولا بغيره من الدلائل والبينات، لأنهم صمموا منذ البداية على العناد والمكابرة، حتى أعمى هذا التصميم عقولهم عن رؤية الحق، وأصم آذانهم عن سماعه.

٢. سؤال وإشكال: إن الآية بظاهرها أن الله هو الذي أعمى قلوبهم، وأصم آذانهم، وعليه فلا يستحقون ذما ولا عقابا، لأنهم مسيرون غير مخيرين؟ والجواب: بما أن قلوب المعاندين لم تفقه القرآن، وتنتفع به، وآذانهم لم تستمع اليه سماع فهم وتدبر صح القول مجازا: أن على قلوبهم أغلفة، وفي آذانهم صمم، وبما أن الله سبحانه هو الذي خلق القلوب والآذان صحت نسبة الصمم والأغلفة اليه مجازا أيضا، أما بحسب الأمر والواقع فالمشركون هم المسئولون، لأنهم عاندوا الحق عن تصميم وارادة.

٣. تجدر الإشارة إلى أن هذه الآية تدل بوضوح على أن الإسلام لا يقيس الشيء بما هو في ذاته، بل بما هو في نتائجه وآثاره، فالسمع والبصر منفذان للعقل، والعقل مخطط للعمل، فإذا لم يتحقق العمل يكون وجود الحواس وعدمها سواء ظاهرة كانت أو غير ظاهرة، وبكلمة ليس في الإسلام داخلي وخارجي، ولا براني وجوّاني، فالكل وسيلة إلى منفعة الناس في تدبير معاشهم، وحل مشاكلهم، قال الإمام علي: (يدعي بزعمه انه يرجو الله، كذب والعظيم، ما باله لا يتبين رجاؤه في عمله، فكل من رجا عرف رجاؤه في عمله)

٤. ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾، كشف محمد ﷺ عن حقيقة المزيفين من أصحاب الجاه والمال، فاضطربوا وأحسوا بالخطر على مصالحهم، فلجئوا إلى الأكذوبة الكبرى، وقالوا عن آيات الله: أساطير الأولين، وهم على يقين أن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، ولكنهم كانوا يلتمسون أوجه الشبهات والمغالطات، ليصرفوا الناس عن أضاليلهم وأباطيلهم، تماما كما يفعل اليوم أرباب الأنظمة الفاسدة، والقوانين الجائرة.

---

(١) التفسير الكاشف: ٣/ ١٧٧.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَمِنْهُم مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ الضمير المجرور بمن التبعيضية عائد إلى المشركين الذين الحديث معهم وعنهم ابتداء من قوله: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، أي ومن المشركين من يستمع إليك، وقد انتقل الكلام إلى أحوال خاصّة عقلائهم الذين يربئون بأنفسهم عن أن يقابلوا دعوة الرسول ﷺ بمثل ما يقابله به سفهاؤهم من الإعراض التامّ، وقولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]، ولكن هؤلاء العقلاء يتظاهرون بالحلم والأناة والإنصاف ويخيّلون للدهماء أنّهم قادرون على مجادلة الرسول ﷺ وإبطال حججه ثم ينهون الناس عن الإيمان.

٢. روى الواحدي عن ابن عبّاس أنّه سمّى من هؤلاء أبا سفيان بن حرب، وعتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبا جهل، والوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث، وأمية وأبيّا ابني خلف، اجتمعوا إلى النبي ﷺ يستمعون القرآن فلمّا سمعوه قالوا للنضر: ما يقول محمد فقال: والذي جعلها بيته (يعني الكعبة) ما أدري ما يقول إلّا أنّي أرى تحرّك شفتيه فما يقول إلّا أساطير الأولين مثل ما كنت أحدّثكم عن القرون الماضية، يعني أنّه قال ذلك مكابرة منه للحقّ وحسدا للرسول ﷺ، وكان النضر كثير الحديث عن القرون الأولى، وكان يحدّث قريشا عن أقاصيص العجم، مثل قصة (رستم) و(إسفنديار) فيستملحون حديثه، وكان صاحب أسفار إلى بلاد الفرس، وكان النضر شديد البغضاء للرسول ﷺ وهو الذي أهدر الرسول ﷺ دمه فقتل يوم فتح مكّة، وروي أنّ أبا سفيان قال لهم: إنّي لأراه حقّا، فقال له أبو جهل: كلّا، فوصف الله حالهم بهذه الآية، وقد نفع الله أبا سفيان بن حرب بكلمته هذه، فأسلم هو دونهم ليلة فتح مكّة وثبتت له فضيلة الصحبة وصهر النبي ﷺ ولزوجه هند بنت عتبة بن ربيعة.

٣. الأكنة جمع كنان ـ بكسر الكاف ـ و(أفعلة) يتعيّن في (فعال) المكسور الفاء إذا كان عينه ولامه مثلين، والكنان: الغطاء، لأنّه يكنّ الشيء أي يستره، وهي هنا تخييل لأنّه شبّهت قلوبهم في عدم خلوص

---

(١) التحرير والتنوير: ٦/ ٥٦.

الحقّ إليها بأشياء محجوبة عن شيء وأثبتت لها الأكنّة تخييلا، وليس في قلب أحدهم شيء يشبه الكنان.

٤ . أسند جعل تلك الحالة في قلوبهم إلى الله تعالى لأنّه خلقهم على هذه الخصلة الذميمة والتعقّل المنحرف، فهم لهم عقول وإدراك لأنّهم كسائر البشر، ولكن أهواءهم تخيّر لهم المنع من اتّباع الحقّ، فلذلك كانوا مخاطبين بالإيمان مع أنّ الله يعلم أنّهم لا يؤمنون إذ كانوا على تلك الصفة، على أنّ خطاب التكليف عامّ لا تعيين فيه لأناس ولا استثناء فيه لأناس، فالجعل بمعنى الخلق وليس للتحويل من حال إلى حال، وقد مات المسمّون كلّهم على الشرك عدا أبا سفيان فإنّه شهد حينئذ بأنّ ما سمعه حقّ، فدلّت شهادته على سلامة قلبه من الكنان[١].

٥. الضمير المنصوب في ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ عائد إلى القرآن المفهوم من قوله: ﴿يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾، وحذف حرف الجرّ، والتقدير: من أن يفقهوه، ويتعلّق بـ ﴿أَكِنَّةً﴾ لما فيه من معنى المنع، أي أكنّة تمنع من أن يفهموا القرآن.

٦. الوقر ـ بفتح الواو ـ الصمم الشديد وفعله كوعد ووجد يستعمل قاصرا، يقال: وقرت أذنه، ومتعدّيا يقال: وقر الله أذنه فوقرت، والوقر مصدر غير قياسي لـ (وقرت) أذنه، لأنّ قياس مصدره تحريك القاف، وهو قياسي لـ (وقر) المتعدّي، وهو مستعار لعدم فهم المسموعات، جعل عدم الفهم بمنزلة الصمم ولم يذكر للوقر متعلّق يدلّ على الممنوع بوقر آذانهم لظهور أنّه من أن يسمعوه، لأنّ الوقر مؤذن بذلك، ولأنّ المراد السمع المجازي وهو العلم بما تضمّنه المسموع.

٧. قوله: ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾، وقوله: ﴿فِي آذَانِهِمْ﴾ يتعلّقان بـ ﴿جَعَلْنَا﴾، وقدّم كلّ منهما على مفعول ﴿جَعَلْنَا﴾ للتنبيه على تعلّقه به من أول الأمر.

٨. سؤال وإشكال: هل تكون هاته الآية حجّة للذين قالوا من علمائنا: إنّ إعجاز القرآن بالصّرفة، أي أعجز الله المشركين عن معارضته بأن صرفهم عن محاولة المعارضة لتقوم الحجّة عليهم، فتكون الصرفة من جملة الأكنّة التي جعل الله على قلوبهم، والجواب: لم يحتجّ بهذه الآية أصحاب تلك المقالة لأنّك قد علمت أنّ الأكنّة تخييل وأنّ الوقر استعارة وأنّ قول النضر (ما أدري ما أقول)، بهتان ومكابرة، ولذلك

(١) هذا غيب لا يمكن الجزم به، خاصة وأن أبا سفيان كان من أئمة الكفر، وأشد المعاندين قسوة.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾

٩. كلمة ﴿كُلِّ﴾ هنا مستعملة في الكثرة مجازا لتعذّر الحقيقة سواء كان التعذّر عقلا كما في هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾ [النساء: ١٢٩]، وذلك أنّ الآيات تنحصر أفرادها لأنّها أفراد مقدّرة تظهر عند تكوينها إذ هي من جنس عامّ؛ أم كان التعذّر عادة كقول النابغة:

بها كلّ ذيّال وخنساء ترعوي ‏ ‏ ‏ ‏ إلى كلّ رجّاف من الرّمل فارد

فإنّ العادة تحيل اجتماع جميع بقر الوحش في هذا الموضع، فيتعذّر أن يرى القوم كلّ أفراد ما يصحّ أن يكون آية، فلذلك كان المراد بـ ﴿كُلِّ﴾ معنى الكثرة الكثيرة، كما تقدّم في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ﴾ في سورة البقرة [١٤٥]

١٠. ﴿حَتَّى﴾ حرف موضوع لإفادة الغاية، أي أنّ ما بعدها غاية لما قبلها، وأصل ﴿حَتَّى﴾ أن يكون حرف جرّ مثل (إلى) فيقع بعده اسم مفرد مدلوله غاية لما قبل (حتّى)، وقد يعدل عن ذلك ويقع بعد (حتّى) جملة فتكون (حتّى) ابتدائية، أي تؤذن بابتداء كلام مضمونه غاية لكلام قبل (حتى)، ولذلك قال ابن الحاجب في (الكافية): إنّها تفيد السببية، فليس المعنى أنّ استماعهم يمتدّ إلى وقت تجيئهم ولا أنّ جعل الأكنّة على قلوبهم والوقر في آذانهم يمتدّ إلى وقت مجيئهم، بل المعنى أن يتسبّب على استماعهم بدون فهم، وجعل الوقر على آذانهم والأكنّة على قلوبهم أنّهم إذا جاءوك جادلوك، وسمّيت ﴿حَتَّى﴾ ابتدائية لأنّ ما بعدها في حكم كلام مستأنف استئنافا ابتدائيا، ويأتي قريب من هذا عند قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ الله حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ في هذه السورة [٣١]، وزيادة تحقيق لمعنى (حتّى) الابتدائية عند قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى الله كَذِبًا﴾ إلى قوله ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ في سورة الأعراف [٣٧]

١١. ﴿إِذَا﴾ شرطية ظرفية، و﴿جَاءُوكَ﴾ شرطها، وهو العامل فيها، وجملة ﴿يُجَادِلُونَكَ﴾ حال مقدّرة من ضمير ﴿جَاءُوكَ﴾ أي جاءوك مجادلين، أي مقدّرين المجادلة معك يظهرون لقومهم أنّهم أكفّاء لهذه المجادلة، وجملة ﴿يَقُولُ﴾ جواب ﴿إِذَا﴾

١٢. عدل عن الإضمار إلى الإظهار في قوله: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لزيادة التسجيل عليهم بالكفر، وأنّهم ما جاءوا طالبين الحقّ كما يدّعون ولكنّهم قد دخلوا بالكفر وخرجوا به فيقولون: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا

أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، فهم قد عدلوا عن الجدل إلى المباهتة والمكابرة.

١٣. الأساطير جمع أسطورة ـ بضم الهمزة وسكون السين ـ وهي القصّة والخبر عن الماضين، والأظهر أنّ الأسطورة لفظ معرّب عن الرومية: أصله إسطوريا ـ بكسر الهمزة ـ وهو القصّة، ويدلّ لذلك اختلاف العرب فيه، فقالوا: أسطورة وأسطيرة وأسطور وأسطير، كلّها ـ بضم الهمزة ـ وإسطارة وإسطار ـ بكسر الهمزة ـ، والاختلاف في حركات الكلمة الواحدة من جملة أمارات التعريب، ومن أقوالهم: (أعجميّ فالعب به ما شئت)، وأحسن الألفاظ لها أسطورة لأنّها تصادف صيغة تفيد معنى المفعول، أي القصّة المسطورة، وتفيد الشهرة في مدلول مادّتها مثل الأعجوبة والأحدوثة والأكرومة، وقيل: الأساطير اسم جمع لا واحد له مثل أبابيل وعباديد وشماطيط، وكان العرب يطلقونه على ما يتسامر الناس به من القصص والأخبار على اختلاف أحوالها من صدق وكذب، وقد كانوا لا يميّزون بين التواريخ والقصص والخرافات فجميع ذلك مرمي بالكذب والمبالغة.

١٤. فقولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، يحتمل أنّهم أرادوا نسبة أخبار القرآن إلى الكذب على ما تعارفوه من اعتقادهم في الأساطير، ويشتمل أنّهم أرادوا أنّ القرآن لا يخرج عن كونه مجموع قصص وأساطير، يعنون أنّه لا يستحقّ أن يكون من عند الله لأنّهم لقصور أفهامهم أو لتجاهلهم يعرضون عن الاعتبار المقصود من تلك القصص ويأخذونها بمنزلة الخرافات التي يتسامر الناس بها لتقصير الوقت، وسيأتي في سورة الأنفال أنّ من قال ذلك النضر لا الحارث، وأنّه كان يمثّل القرآن بأخبار (رستم) و(إسفنديار)

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. الكلام موصول في المشركين الذين تقوم لديهم الدلائل القاطعة على وحدانية الله تعالى، وسلطانه تعالى عليهم في الدنيا، وإثبات رسالة النبي ﷺ بالمعجزة التي تحدى العرب فيها أن يأتوا بمثلها، وبيان ظلمهم، ثم بين سبحانه بعض حالهم يوم القيامة، وكيف يغيب عنهم ما كانوا يفترونه، وفى هذه

(١) زهرة التفاسير: ٥/ ٢٤٧١.

الآيات يبين حالهم عند تلقى الدعوة المحمدية.

٢. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، الأكنّة جمع كنان، وهو الغطاء، والمعنى أنه لا يصل الحق إلى قلوبهم لوجود ذلك الغطاء الحاجز المانع من أن يصل نوره إلى قلوبهم، بل إنه لا يصل إلى مسمعهم، فقد جعل الله تعالى في آذانهم وقرا، والوقر، بفتح الواو ثقل السمع، وهذا النص كناية عن كمال الإعراض، فهم لا يصل إليهم القرآن، وقد تفاهموا فيما بينهم على الإعراض ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت]، وإذا وصل إلى سمعهم فهنالك غشاوة على قلوبهم تمنعهم من أن يشرق فيها نوره، وعلى ذلك لا يكون لاستماعهم جدوى وفائدة، وهنا يسأل سائل، إذا كان منع الهداية من الله تعالى بالغشاوة على قلوبهم والختم عليها، وبالوقر في آذانهم فلا يسمعون سماع تبصر، وطلب للهداية فماذا يكون عليهم من تبعة يحاسبون عليها حسابا عسيرا بالعذاب الأليم، والجواب عن ذلك أن الله سبحانه وتعالى يسير الأمور وفق حكمته العليا، فمن يسلك سبيل الهداية يرشده، وينير طريقه، ويثيبه، ومن يقصد إلى الغواية، ويسير في طريقه تجيئه النذر تباعا إنذارا بعد إنذار، فإن أيقظت النذر ضميره وتكشفت العماية عن قلبه فقد اهتدى وآمن بعد كفر، ومن لم تجد فيه النذر المتتابعة ولم توقظ له ضميرا، ولم تبصره من عمى، فقد وضع الله تعالى على قلبه غشاوة، وفى آذانه وقرا.

٣. وقوله: ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ المصدر المكون من (أن) وما بعدها مضاف إلى مصدر محذوف يقدر على ما يناسب المقام من وضع غلاف يمنع النور، ووقر يمنع السمع، فيكون التقدير كراهة أن يفقهوه أو لمباعدة أن يفقهوه، ومعنى يفقهونه أن يدركوه إدراكا عميقا، ينفذون فيه إلى لبابه، وغاياته، فليس المراد مجرد الفهم والمعرفة، بل المعرفة النافذة التي تصل إلى اللب وتستولى على القلب.

٤. وإن سبب ذلك كله هو الإعراض المطلق الذى سيطر على كبرائهم، وسبق الكفر إلى قلوبهم ومعارفهم، ومع هذا الإعراض، وبسببه يحكمون من غير أن يفقهوا فيقول ما حكاه الله عنهم.

٥. ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، والكافر بالحق المعرض عن الأدلة يسبق كفره إيمانه، فالكفر سابق على التثبت والاستدلال، فهو متجه إلى الإنكار ابتداء؛ ولذلك وصف الله تعالى الذين مردوا على الجحود والإنكار، وقال فيهم: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾

والآية الدليل المعجز على رسالة الرسول، فالآية كما يقول العلماء لعموم النفي أي أنهم لا يؤمنون بأي رسالة يرونها مهما تكن قوتها ظاهرة، ومهما تكن دلالتها قاهرة؛ لأن العناد والجحود يقهر كل حجة ويمنع سلطانها على القلب؛ إذا ختم عليه، حتى لا ينفذ النور إليه، فإذا كفروا بالقرآن فذلك شأن الذين طبع الله على قلوبهم، وجعل في آذانهم وقرا، وعلى قلوبهم أكنة، وعلى أبصارهم غشاوة؛ ولذلك قالوا في معجزة النبي ﷺ إذا جادلوا كما حكى الله تعالى عنهم: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾

٦. ويلاحظ هنا أن الله تعالى يقول: ﴿إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ فيه إشارة إلى أنهم كانوا بعداء عن النبي ﷺ من قبل ثم جاءوه، ولم يكن مجيئهم إذعانا لحق، ولا طلبا لحقيقة، ولكن كان تحديا للرسول ومبالغة في الإنكار، واستهانة بالقرآن الحكيم وهو الآية الكبرى؛ ولذا قال الذين كفروا: إن هذا إلا أساطير، والأساطير جمع أسطارة أو أسطورة، والمعنى ما هذا إلا أخبار الأقدمين، وهنا إشارتان:

أ. أولاهما:أنهم ما جاءوا يطلبون الحق، ولكن جاءوا يجادلون، تقال للتسلية، ومنها ما يكون غير صادق، والجدل في أكثر أحواله تمويه، وليس طلب حق.

ب. الثانية: أن الذين كفروا يقولون ما هي إلا أساطير الأولين بسبب كفرهم فكفرهم سابق لرفضهم المعجزة.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ إلى آخر الآية، الأكنة جمع كن بكسر الكاف وهو الغطاء الذي يكن فيه الشيء ويغطى، والوقر هو الثقل في السمع، والأساطير جمع أسطورة بمعنى الكذب والمين على ما نقل عن المبرد، وكان أصله السطر وهو الصف من الكتابة أو الشجر أو الناس غلب استعماله فيما جمع ونظم ورتب من الأخبار الكاذبة.

٢. وكان ظاهر السياق أن يقال: يقولون إن هذا إلا أساطير الأولين، ولعل الإظهار للإشعار

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٧/ ٥٢.

بالسبب في هذا الرمي وهو الكفر.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ملاحظات حول سبب النزول:

أ. جاء في أسباب النزول ـ للواحدي ـ قال ابن عباس في رواية أبي صالح: إن أبا سفيان بن حرب، والوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث، وعتبة وقيس ابني ربيعة، وأمية وأبيّا ابني خلف، استمعوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا للنضر: يا أبا قتيلة، ما يقول محمد؟ قال: والذي جعلها بيته، ما أدري ما يقول، إلا أني أرى يحرك شفتيه يتكلم بشيء وما يقول إلا أساطير الأولين مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية، وكان النضر كثير الحديث عن القرون الأولى وكان يحدث قريشا فيستملحون حديثه، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾

ب. ونلاحظ أن الآية تتحدث عن جدال بين النبي ﷺ وبينهم، وعن الآيات الدالّة على الإيمان التي قدمها النبي ﷺ إليهم، وعن أحاديث متنوّعة تتصل بقضايا الرسالة فكرة وتاريخا مما يجعلهم يستمعون إليه ويعونه ولكنهم لا يصدقونه، وليست المسألة ـ كما تقول الرواية ـ عن النضر أنه لم يسمع منه شيئا، كما أن ذلك يتنافى مع قوله: إنها أساطير الأولين، إلّا إذا كان يتحدث عما سمعه سابقا من أحاديث النبي ﷺ.

ج. إن الآية ـ حسب سياقها ـ تتحدث عن الأجواء التي كانوا يعيشونها من رفض الاستماع إلى الأفكار ومناقشتها من موقع المسؤولية الفكرية، فهم يواجهونها مواجهة اللامبالاة، كما لو كانت عقولهم مقفلة، وآذانهم مغلقة، مما يجعل كلمة الأساطير التي يلصقونها بحديث النبي مجرد كلمة استهلاكية للهروب من الحوار القائم على التفكير الجدّي المسؤول.

٢. هذه صورة حيّة من صور أولئك الناس الذين خسروا أنفسهم عندما تركوا الجدّية في مواجهة مسئوليتهم حيال قضايا الإيمان ودعوات الحق، فهم قد يقفون وقفة المستمع لكلام رسول الله ﷺ: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ فيما يتلوه من آيات الله، وما يدعو إليه من شريعته، ولكن دون أن يحملوا

(١) من وحى القرآن: ٩/ ٦١.

روحية من يريد الوصول إلى القناعة اليقينية من خلال ما يسمعه فيفكر ويحاور، لأنهم قرّروا مسبقا السير في خط التمرّد والتحرك من موقع السلبيّة الحاقدة، بشعارات جاهزة يواجهون بها الموقف لإثارة الضجيج والضوضاء بلا معنى.

٣. ومن هنا، كانت قلوبهم مغلقة عن فهم ما يسمعون، ووعي ما يدور حولهم من قضايا وأحداث، وكانت أسماعهم صمّاء عن ذلك كله.. فقد ربط الله بين وعي الأذن والقلب لما يسمعه الإنسان، وبين إرادته لذلك، لأن قضية السمع ليست قضية صدى يدوي، وصوت يرنّ.. وقضية الفكر ليست قضية معلومات تلقى، ولكنها قضية الإرادة الإنسانية التي تملأ هذا وتثير ذاك، في حركة المسؤولية في الذات المفكرة والسامعة من أجل الوصول إلى النتائج الحاسمة في الفكر والحياة والمصير.. وبذلك صحّت نسبة الفعل إلى الله في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ ويراد بالجعل هنا ـ وفي غيره من الموارد ـ الجعل التكويني في ربط المسبّبات بأسبابها مع كون السبب بيد الإنسان، وهكذا جاءت الفقرات الباقية لتوضح الصورة جيدا..

٤. ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ لأنهم لا يعيشون مسئولية الإيمان ولهذا فهم لا يلتفتون إلى ما في هذه الآية أو تلك من العناصر التي تثبت حقيقة المضمون الإيماني من ناحية فكرية وروحيّة.

٥. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ فهم لا يدخلون جوّ الجدال بروحية من يريد أن يناقش الفكرة، في إطار من التفكير المسؤول والحوار الهادف، بل يدخلونه ليؤكدوا صدور الدعوة عن أسباب تبخس من قيمتها لا ليناقشوا أمرها.. فهم يقولون عن كل هذا الحق الذي يدعو إليه الإسلام، إنه من أكاذيب الأولين وأساطيرهم، ولكن كيف اكتشفوا ذلك؟ وما هي الحجة على هذه الدعوى؟ ليس في ذلك أية مشكلة لديهم، لأنّ كل هدفهم هو إثارة الضباب وتشوية صورة الدعوة من خلال شعارات تتفاعل في نفوس البسطاء من الناس، فينفصلون عن خط الدعوة، ويبتعدون عن رسول الله ﷺ.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١ . ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ ومن المشركين من يستمع القرآن دانياً ﴿إِلَيْكَ﴾ يا محمد ليسمع لا رغبة في الحق، بل إما لحبِّ الاطلاع لينظر كيف هذا القرآن وهذا في أول استماع، وحبُّ الاطلاع من غرايز الإنسان، وإما للتعجب من فصاحته وحسن بيانه وجمال أسلوبه.

٢ . ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ قال الراغب: (والكنان: الغطاء الذي يكنّ فيه الشيء والجمع: أكنة) وهذا تمثيل كالختم؛ لما أفسدوا قلوبهم وقد خلقها الله قابلة للصلاح والفساد، وصاروا بذلك لا يؤمنون ولا يتفهمون القرآن من حيث دلالة آياته على الحق؛ لكراهتهم لما هو ضد اعتقادهم ودينهم الذي زين لهم وتزيينُ الشياطين لهم الإعراض عن الإهتداء بالقرآن، صاروا كأن بينهم وبين فقه غوامضه ودلالاته النافعة أكنة تحول بين قلوبهم وبين فقهه.

٣ . وفائدة نسبة ذلك إلى الله تعالى: الدلالة على أنهم مستحقون للخذلان؛ بتمردهم، مستاهلون لإرسال الشياطين عليهم عقوبة لهم على تمردهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥] فهو تعالى غير مبال بهم بل قد أراد خذلانهم، ولما كان خذلانهم كالسبب لبعدهم عن فقه القرآن بحيث أن قلوبهم حين خذلت تواردت عليها أسباب البعد عن الفهم حتى أشبهت ما عليه كنان حائل بينها وبين الفهم أقيم ذلك مقام الخذلان، فنسب إلى الله تعالى للدلالة على أنه غير مبال بهم، وعلى أنهم استحقوا الخذلان الذي صاروا من أجله لا يفقهون، والذي هو عقوبة لهم على تمردهم.

٤ . ونظيره ما يقال لمن أهمل ابنه وسهل لَه الحصول على ما يهواه وأهمله ولم يربِّه تربية الصلاح: أفسد ابنه، ومن فائدة هذه النسبة: تنزيه كلام الله عن مشابهة الشكوى، وأعظم من ذلك التحذير من الخذلان المؤدي إلى أن يصير القلب كأنه في كنان، وقد مرَّ في تفسير ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة:٧] نحو هذا.

٥ . ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي وجعلنا في آذانهم ﴿وِقْرًا﴾ أي ثِقلاً يمنع السمع وهذا من المجاز

(١) التيسير في التفسير: ٢/ ٤٢٧.

واضح؛ لأنهم يسمعون ولكن لا يصغون له إصغاء راغب في الحق، بل يسمعونه وهم له كارهون فشبهوا بمن لا يسمع كما قال الشاعر:

أصم عن الأمر الذي لا أريده　　　وأسمع خلق الله حين أُرِيْدُ

ولو كانوا لا يسمعونه حقيقة ما كان للأكنة على القلوب معنى، وقد قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [الحجر:١٢ ـ ١٣] فدلَّ على أنهم يسمعونه ويصل إلى قلوبهم، ولكنهم لا يقبلونه ولا يهتدون بهداه، فشبهوا بمن لا يفهم ولا يسمع، لحائل بينه وبين الفهم والسمع.

٦. ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ لأن قلوبهم فسدت وصارت لا تقبل الآيات، كما ترى الطبيعي الملحد تذكر لَه دلائل الخالق فلا يقبلها كأنها لا تعمل في قلبه شيئاً، والمراد بفساد القلوب: فقدانها لصلاحية الإهتداء بالآيات مع بقاء العقل والسمع والبصر؛ لأن نفوسهم تأباه وتردّه قبل أن ينتفع به القلب، مع بعده عن الإنتفاع بذهاب استعداده له.

٧. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿حَتَّى﴾ غاية لمدى بعدهم عن قبول الحق أنهم ﴿إِذَا جَاءُوكَ﴾ يا محمد وأنت مصدر الهدى جادلوك بشكل عجيب، هو مجرد الجحود وقول الزور الذي ليس له أي حجة، بل هو واضح البطلان؛ لأن القرآن مخالف لأساطير الأولين في المواضيع وأحكام المواضيع، حيث أنهم أرادوا بـ (أساطير الأولين) أكاذيب سطرها الأولون من المبطلين يتلهى بها السامعون ولا تفيدهم شيئاً.

٨. والقرآن ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢] آيات محكمات نافعات بأدلة صحيحة تعرفها العقول، وحِكَم وإنذار وتبشير، وعلوم تخرج من اهتدى بها من الظلمات إلى النور، وأساطير: جمع أسطورة، والجدال: المجادلة أي المغالبة بالقول، قال تعالى: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [الكهف:٥٦]

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

---

(١) تفسير الأمثل: ٤/ ٢٤٥.

١. في هذه الآية إشارة إلى الوضع النفسي لبعض المشركين، فهم لا يبدون أية مرونة تجاه سماع الحقائق، بل أكثر من ذلك ـ يناصبونها العداء، ويقذفونها بالتهم، فيبعدون أنفسهم وغيرهم عنها، عن هؤلاء تقول الآية: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، في الواقع كانت عقولهم وأفكارهم منغمسة في التعصب الجاهلي الأعمى، وفي المصالح المادية والأهواء، بحيث أصبحت وكأنّها واقعة تحت الأستار والحواجز، فلا هم يسمعون حقيقة من الحقائق، ولا هم يدركون الأمور إدراكا صحيحا.

٢. سبق أن قلنا مرارا أنّ نسبة هذه الأمور إلى الله، إنّما هو إشارة إلى قانون (العلة والمعلول) وخاصية (العمل)، أي أنّ أثر الاستمرار في الانحراف والإصرار على المعاندة والتشاؤم يظهر في اتصاف نفس الإنسان بهذه المؤثرات، وفي تحولها إلى مثل المرآة المعوجة التي تعكس صور الأشياء معوجة منحرفة، لقد أثبتت التجربة أنّ المنحرفين والمذنبين يحسون أوّل الأمر بعدم الرضا عن حالهم، ولكنّهم يعتادون ذلك بالتدريج، وقد يصل بهم الأمر إلى اعتبار أعمالهم القبيحة لازمة وضرورية، وبتعبير آخر: هذا واحد من أنواع العقاب الذي يناله المصّرون على العصيان ومعاداة الحقّ.

٣. وهؤلاء وصلوا حدّا تصفه الآية فتقول: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾، بل الأكثر من ذلك أنّهم عندما يأتون إليك، لا يفتحون نوافذ قلوبهم أمام ما تقول، ولا يأتون ـ على الأقل ـ بهيئة الباحث عن الحقّ الذي يسعى للعثور على الحقيقة والتفكير فيها، بل يأتون بروح وفكر سلبيين، ولا هدف لهم سوى الجدل والاعتراض: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ أنّهم عند سماعهم كلامك الذي يستقي من ينابيع الوحي ويجري على لسانك الناطق بالحقّ، يبادرون إلى اتهامك بأنّ ما تقوله إنّما هو خرافات اصطنعها أناس غابرون: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾

١٤. النهي والنأي عن الحق والهلاك

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [١٤] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٦]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ ينهون الناس عن محمدٍ أن يؤمنوا به، ﴿وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾: يتباعدون عنه[١].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾، يقول: لا يلقونه، ولا يدعون أحدا يأتيه[٢].

ابن الحنفية:

روي عن محمد بن الحنفية (ت ٨٠ هـ) أنّه قال: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾، كفار مكة، كانوا يدفعون الناس عنه، ولا يجيبون النبي ﷺ[٣].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) أنّه قال: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ قريش عن الذّكر، ﴿وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ يتباعدون[٤].

البصري:

روي عن الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) أنّه قال: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾: ينهون عن

---

(١) ابن جرير ٩/ ٢٠١.

(٢) ابن جرير ٩/ ٢٠٢.

(٣) ابن جرير ٩/ ٢٠١.

(٤) تفسير مجاهد، ص ٣٢١.

اتّباع محمد، ويتباعدون عنه[1].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾، جمعوا النهي والنأي، والنأي: التّباعد[2].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ ينهون عن القرآن، وعن النبي ﷺ، ﴿وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾: يتباعدون عنه[3].

القرظي:

روي عن محمد بن كعب القرظي (ت ١٢٠ هـ) أنّه قال: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ عن قتله، ﴿وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ قال لا يتّبعونه[4].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) أنّه قال: ﴿وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ معناه يتباعدون عنه[5].

عطاء:

روي عن عطاء بن دينار (ت ١٢٦ هـ) أنّه قال: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾، نزلت في أبي طالب، كان ينهى الناس عن رسول الله ﷺ، وينأى عمّا جاء به من الهدى[6].

السّدّيّ:

روي عن إسماعيل السّدّيّ (ت ١٢٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: نزلت في جملة كفار مكة[7].

---

(١) ذكره يحيى بن سلام كما في تفسير ابن أبي زمنين ٢/ ٦٣.

(٢) ابن جرير ٩/ ٢٠٢.

(٣) عبد الرزاق ١/ ٢٠٥.

(٤) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٧٧.

(٥) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٣.

(٦) عبد الله بن وهب في الجامع، تفسير القرآن ١/ ١٠٣.

(٧) تفسير الثعلبي ٤/ ١٤٢.

٢. روي أنّه قال: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ أن يتّبع محمد، ويتباعدون هم منه[(١)].

ابن أبي هلال:

روي عن سعيد بن أبي هلال (ت ١٣١ هـ) أنّه قال: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾، نزلت في عمومة النبي ﷺ، وكانوا عشرة، فكانوا أشدّ الناس معه في العلانية، وأشدّ الناس عليه في السّرّ[(٢)].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾، وذلك أنّ النبي ﷺ كان عند أبي طالب بن عبد المطلب يدعوه إلى الإسلام، فاجتمعت قريش إلى أبي طالب ليريدوا بالنبي عليه السلام سوءا، فسألوا أبا طالب أن يدفعه إليهم فيقتلوه، فقال أبو طالب: ما لي عنه صبر، قالوا: ندفع إليك من سبايانا من شئت مكان ابن أخيك، فقال أبو طالب: حين تروح الإبل فإن جاءت ناقة إلى غير فصيلها دفعته إليكم، وإن كانت الناقة لا تحنّ إلّا إلى فصيلها فأنا أحقّ من الناقة، فلمّا أبى عليهم اجتمع منهم سبعة عشر رجلا من أشرافهم ورؤسائهم، فكتبوا بينهم كتابا ألّا يبايعوا بني عبد المطلب، ولا يناكحوهم، ولا يخالطوهم، ولا يؤاكلوهم، حتى يدفعوا إليهم محمدا ﷺ فيقتلوه، فاجتمعوا في دار شيبة بن عثمان صاحب الكعبة، وكان هو أشد الناس على النبي ﷺ، فقال أبو طالب:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم... حتى أغيّب في التراب دفينا

فانفذ لأمرك ما عليك غضاضة ... أبشر وقرّ بذاك منك عيونا

ودعوتني وزعمت أنّك ناصحي ... فلقد صدقت وكنت ثمّ أمينا

وعرضت دينا قد علمت بأنه ... من خير أديان البريّة دينا

لولا الدمامة أو أخادن سبة ... لوجدتني سمحا بذاك مبينا

فأنزل الله في أبي طالب واسمه: عبد مناف بن شيبة، وهو عبد المطلب: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾، كان ينهى قريش عن أذى النبي ﷺ، ويتباعد هو عن النبي ﷺ، ولا يتبعه على دينه، ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ

---

(١) ابن جرير ٩/ ٢٠٢.

(٢) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٧٧.

إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني: أبا طالب[(١)].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، يعني: أبا طالب[(٢)].

ابن زيد:

روي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢ هـ) أنّه قال: ﴿وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ يبعدونه[(٣)].

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٤)]:

١. ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾:

ينهون الناس عن طريقته ومتابعته وينأون عنه، أي: يتباعدون عنه وينهون غيرهم عن اتباعه ويتباعدون هم.

ويحتمل ما ذكر في القصّة أن النبي ﷺ كان عند أبي طالب يدعوه إلى الإسلام، واجتمعت قريش عنده ليريدوا بالنبي سوءًا قال أبو طالب وأنشد فيه:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أوسد في التراب دفينا

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة ... وابشر وقرّ بذاك منك عيونا

فدعوتني وزعمت أنك ناصحي ... ولقد صدقت وكنت ثمَّ أمينا

وعرضت دينا قد علمت بأنه ... من خير أديان البرية دينا

لولا الملامة أو حذاري سُبَّة ... لوجدتني سمحًا بذاك مبينا

كان ينهى الناس عن أذى مُحَمَّد ﷺ ويتباعد هو عنه فلا يتبع دينه، فنزل هذا.

٢. ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي لا يشعرون، أنهم بذلك يسعون في هلاك أنفسهم.

---

(١) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٥.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٥.

(٣) ابن جرير ٩/ ٢٠٣.

(٤) تأويلات أهل السنة: ٤/ ٥١.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. معنى قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ معنى قوله: ينهون عنه أي يبعدون عنه ويبينون، قال الشاعر:

فمالي أراني وابن عمي مالكاً　　　متى أدنُ منه ينأ عني ويبعد

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ فيه ثلاثة أقاويل:

أ. أحدها: يَنْهَون عن اتباع محمد ﷺ، ويتباعدون عنه فراراً منه، قاله محمد ابن الحنفية، والحسن، والسدي.

ب. الثاني: يَنْهَون عن القرآن أن يُعْمَل بها فيه، ويتباعدون من سماعه كيلا يسبق إلى قلوبهم العلم بصحته، قاله مجاهد، وقتادة.

ج. الثالث: ينهون عن أذى محمد ﷺ، ويتباعدون عن اتباعه، قال ابن عباس: نزلت في أبي طالب كان ينهى المشركين عن أذى محمد ﷺ، ويتباعد عما جاء به، فلا يؤمن به مع وضوح صدقه في نفسه، واستشهد مقاتل بما دل على ذلك عن شعر أبي طالب بقوله:

ودعوتني وزَعَمْتَ أَنَّكَ ناصِحِي　　　فلقَدْ صَدَقْت وكُنْتَ ثَمَّ أميناً
وعرضتَ ديناً قد علِمْتُ بأنه　　　من خيْرِ أَدْيانِ البَرِيةِ دِيناً
لو لا الذَّمَامَةُ أو أُحَاذِرُ سُبَّةً　　　لَوَجَدْتَني سَمْحاً بذالك مُبِيناً
فاذهب لأمرك ما عليك غَضَاضَةٌ　　　وابشِرْ بذاك وقَرَّ مِنكَ عيوناً
والله لن يَصِلُوا إيك بِجَمْعِهِم　　　حتى أُوسَّدَ في التُّرابِ دَفِيناً

فنزلت هذه الآية، فقرأها عليه النبي ﷺ، فقال له أبو طالب: أما أن أدخل في دينك فلا، قال ابن

---

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/ ١٨٦.

(٢) تفسير الماوردي: ٢/ ١٠٥.

عباس: لسابق القضاء في اللوح المحفوظ، وبه قال عطاء، والقاسم.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ قوله: (وهم):

أ. كناية عن الكفار الذين تقدم ذكرهم عند أكثر المفسرين: الجبائي والبلخي وغيرهم.

ب. وقال قوم: نزلت في أبي لهب، لأنه كان يتبعه في المواسم فينهى الناس عن أذاه وينأى عن اتباعه، والأول أشبه بسياق الآية.

ج. وقيل: نزلت في أبي طالب، وهذا باطل عندنا، لأنه دل الدليل على إيمانه بما ثبت عنه من شعره المعروف وأقاويله المشهورة الدالة على اعترافه بالنبي ﷺ.

د. وقال مجاهد: نزلت في قريش.

٢. بين الله تعالى أن هؤلاء الكفار الذين ذكرهم كانوا ينهون عن اتباع القرآن، وقبوله والتصديق بنبوة نبيه، ويبعدون عنه، لأن معنى (ينأون) يبعدون إلى حيث لا يسمعونه خوفاً من أن يسبق إلى قلوبهم الإيمان به والعلم بصحته.

٣. ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ معناه ليس يهلكون إلا أنفسهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أنهم ما يهلكون بنهيهم عن قبوله، وبعدهم عنه ﴿إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ لأنهم لا يعلمون إهلاكهم إياها بذلك وإهلاكهم إياها هو ما يستحقون به الصيرورة إلى العذاب الأبدي في النار، وهل هناك هلاك أعظم من ذلك!؟

النأي: البعد (ينأون) أي يتباعدون عنه، تقول نأيت عن الشيء أنأى نأياً، إذا بعدت عنه، والنؤي حاجز يجعل حول البيت من الخوف لأن لا يدخله الماء من خارج يحفر حفرة حول البيت فيجعل ترابها على شفير الحفيرة، فيمنع التراب الماء أن يدخل من خارج، وهو مأخوذ من النأي، أي تباعد الماء عن البيت.

٤. وفي الآية دلالة على بطلان قول من قال معرفة الله ضرورة، وأن من لا يعرف الله ولا يعرف نبيه لا حجة عليه، لأن الله بين أن هؤلاء الكفار قد أهلكوا أنفسهم بنهيهم عن قبول القرآن وتباعدهم عنه

---

(١) تفسير الطوسي: ٤/ ١٠٧.

وإنهم لا يشعرون ولا يعلمون بإهلاكهم أنفسهم بذلك، فلو كان من لا يعرف الله ولا نبيه ولا دينه لا حجة عليه، لكانوا هؤلاء معذورين ولم يكونوا هالكين وذلك خلاف ما نطق به القرآن.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. النهي: الزجر عن الفعل، وهو قول القائل لمن دونه: لا تفعل، ويصير نهيًا بكراهة المنهي عنه، كما يصير الأمر أمرًا بإرادة المأمور به، وأصل النهي: النهاية، وهو آخر الحد، والنهي آخر عن تجاوز الحد، ومنه: النهي: الغدير، الذي ينتهي إليه السيل، والإنهاء: الإبلاغ؛ لأنه اتصال الشيء إلى نهايته، والنُّهية: العقل لأنه على نهاية الزجر عن القبيح، والجمع: النُّهى.

ب. النَّأْي: البعد، نأيت عنه أنأى نأْيًا، وأنأيته: باعدته، ويُقال: نأيته بمعنى نأيت عنه.

ج. الشعور: العلم بالمعنى من جهة المشاعر، ومنه سمي الشاعر يقال: شعر يشعر شعورًا، ولا يوصف الله تعالى بذلك، وإن وُصِفَ بكونه عالمًا كما لا يوصف بكونه فقيهًا وبأنه كَيِّسٌ، وإن كان المعنى صحيحًا إذا وصف بأنه عالم بذلك الشيء.

٢. اختلف في سبب نزول الآية الكريمة:

أ. قيل: نزلت الآية في كفار مكة، عن محمد بن الحنفية والسدي والضحاك.

ب. وقيل: نزلت في كفار قريش، عن مجاهد، كانوا يكذبونه، ويمنعون غيرهم من الإيمان به.

ج. وقيل: نزلت في أبي طالب كان يمنع الناس من أذى النبي، ﷺ، ولا يتبعه عن عطاء ومقاتل، وروي نحوه عن ابن عباس، قال مقاتل: كان النبي ﷺ عند أبي طالب يدعوه إلى الإسلام فاجتمعت قريش إلى أبي طالب يريدون سوءًا بالنبي ﷺ ويسألون أبا طالب مخالفته لهم ولآبائهم وتسليمه إليهم فأبى، وأنشأ يقول:

وَاللهِ لَن يَصِلوا إِلَيكَ بِجَمعِهِم ... حَتّى أُوَسَّدَ في التُرابِ دَفينا

(١) التهذيب في التفسير: ٣/ ٥٢٣.

فَاصدَع بِأَمرِكَ ما عَلَيكَ غَضاضَةٌ وَابشِر بِذاكَ وَقَرَّ مِنهُ عُيونا
وَدَعَوتَني وَزَعَمتَ أَنَّكَ ناصِحٌ وَلَقَد صَدَقتَ وَكُنتَ ثَمَّ أَمينا
وَعَرَضتَ ديناً قَد عَلِمتُ بِأَنَّهُ مِن خَيرِ أَديانِ البَرِيَّةِ دينا
لولا الغضاضةُ أو تكون مسبةُ لوجدتَنِي سمحًا بذاك مُبينا

فنزلت فيه هذه الآية، وهذا لا يصح لوجوه:

• منها: أنه عدول عن الظاهر، وما يقتضيه الكلام الأول؛ لأن نسق الكلام في ذمهم، وتهجينهم، ولأن قوله: ﴿هُمْ﴾ يرجع إلى من تقدم، ولأن أبا طالب كان يقرب منه ويخالطه وينصره ويقوم بنصرته والذب عنه ما هو المشهور، ولم ينأ عنه قط، سؤال وإشكال: فإن قالوا: عن دينه؟ والجواب: قلنا: فقد تركت الظاهر؛ لأن ظاهر الكلام أن الوصفين ذم وتهجين، وعلى ما يقولونه أحدهما مدحٌ.

• الثاني ذم، ولأن الروايات مختلفة منهم من يروي أنه لم يسلم، ومنهم من يروي أنه أسلم، وأهل البيت أجمعوا على الرواية بأنه أسلم، فإذا عاضد إحدى الروايتين إجماعهم كان أولى، فأما مشايخنا، فإنهم توقفوا فيه، ولم يقطعوا على شيء لاختلاف الروايات.

٣. بَيَّنَ تعالى أنهم مع مجادلتهم إياه بالباطل وتباعدهم عنه ينهون الناس عن اتباعه، فقال سبحانه: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾:

أ. قيل: إنما جادلوا لينفروا الناس عنه، عن الأصم، وعن النبي ﷺ بمعنى ينهون عن اتباعه.

ب. وقيل: جميع الكفار ممن تقدم ذكرهم لا يؤمن به، ويمنع الناس عن اتباعه، ويتباعدون عنه فرارًا منه، عن ابن عباس ومحمد بن الحنفية والحسن والسدي.

ج. وقيل: عن القرآن يتباعدون عن استماعه، وينهون عن ذلك لئلا يقع في قلوبهم صحته، عن قتادة ومجاهد وأبي علي.

د. وقيل: عنى به أبا طالب، يعني ينهى عن أذاه ولا يتبعه، عن عطاء والقاسم بن مخيمرة ومقاتل، وقد بينا أنه غير صحيح، معنى ﴿وَيَنْأَوْنَ﴾ قيل: عن استماعه.

هـ. وقيل: عن العمل بموجبه، عن أبي مسلم ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ لأن عاقبة فعلهم ووباله يعود عليهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ لا يعلمون ما عليهم في ذلك.

٤. تدل الآية الكريمة على:

أ. أن كل من عصى فإنما يسعى في هلاك نفسه.

ب. بطلان مذهب الجبر من وجوه:

- أحدهما: لو كان ذلك خلقًا لله تعالى لكان هو الذي يسعى في هلاكهم.
- ومنها: أنه أضاف إليهم النهي والنأي والإهلاك، فدل أنه فعلهم، ولأنه أوجب عليهم العقاب بذلك.

ب. أن منع الغير عن اتباع الحق معصية عظيمة بمنزلة ترك الاتباع؛ لذلك ذمهم على الأمرين.

ج. أن المعارف مكتسبة؛ لذلك وصفهم بأنهم لا يشعرون..

د. أن من لا يعرف الحق قد يكون محجوجًا، ومهلكا لنفسه إذا أمكنه الاستدلال، وتحصيل المعرفة.

الطَبرِسي:

ذكر الفضل الطَبرِسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. كنى الله تعالى عن الكفار الذين تقدم ذكرهم، فقال: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ النأي: البعد، يقال نأيت عنه أنأى نأيا، ومنه أخذ النؤي: وهو الحاجز حول البيت لئلا يدخله الماء:

أ. أي: ينهون الناس عن اتباع النبي ﷺ، يتباعدون عنه، فرارا منه، عن ابن عباس، ومحمد بن الحنفية، والحسن، والسدي.

ب. وقيل: معناه ينهون الناس عن استماع القرآن لئلا يقع في قلوبهم صحته، ويتباعدونهم عن استماعه، عن قتادة، ومجاهد، واختاره الجبائي.

ج. وقيل: عنى به أبا طالب بن عبد المطلب، ومعناه يمنعون الناس عن أذى النبي ﷺ، ولا يتبعونه، عن عطا ومقاتل، وهذا لا يصح، لأن هذه الآية معطوفة على ما تقدمها، وما تأخر عنها معطوف عليها، وكلها في ذم الكفار المعاندين للنبي ﷺ هذا وقد ثبت إجماع أهل البيت عليهم السلام على إيمان أبي طالب، وإجماعهم حجة، لأنهم أحد الثقلين اللذين أمر النبي ﷺ بالتمسك بهما بقوله: (إن تمسكتم بهما لن تضلوا)

---

(١) تفسير الطبرسي: ٤/ ٢٥.

ويدل على ذلك أيضا:

• ما رواه ابن عمر: ان أبا بكر جاء بأبيه أبي قحافة يوم الفتح إلى رسول الله ﷺ فأسلم، فقال ﷺ: ألا تركت الشيخ فآتيه وكان أعمى، فقال أبو بكر: أردت أن يأجره الله تعالى، والذي بعثك بالحق! لأنا كنت بإسلام أبي طالب، أشد فرحا مني بإسلام أبي، ألتمس بذلك قرة عينك، فقال ﷺ: صدقت.

• وروى الطبري بإسناده أن رؤساء قريش، لما رأوا ذب أبي طالب عن النبي ﷺ، اجتمعوا عليه، وقالوا: جئناك بفتى قريش جمالا وجودا وشهامة، عمارة بن الوليد، ندفعه إليك، وتدفع إلينا ابن أخيك الذي فرق جماعتنا، وسفه أحلامنا، فنقتله! فقال أبو طالب: ما أنصفتموني! تعطونني ابنكم فأغذوه، وأعطيكم ابني فتقتلونه، بل فليأت كل امرئ منكم بولده فأقتله، وقال:

منعنا الرسول رسول المليك ... ببيض تلالا كلمع البروق
أذود وأحمي رسول المليك ... حماية حام عليه شفيق

• وأقواله وأشعاره المنبئة عن إسلامه، كثيرة مشهورة لا تحصى:

● فمن ذلك قوله:

ألم تعلموا أنا وجدنا محمدا نبيا ... كموسى خط في أول الكتب
أليس أبونا هاشم شد أزره ... . وأوصى بنيه بالطعان وبالحرب

● وقوله من قصيدة:

وقالوا لأحمد أنت امرء ... خلوف اللسان ضعيف السبب
ألا إن أحمد قد جاءهم ... بحق، ولم يأتهم بالكذب

● وقوله في حديث الصحيفة، وهو من معجزات النبي ﷺ:

وقد كان في أمر الصحيفة عبرة ... متى ما يخبر غائب القوم يعجب
محا الله منها كفرهم، وعقوقهم ... . وما نقموا من ناطق الحق معرب
وأمسى ابن عبد الله فينا مصدقا ... على سخط من قومنا، غير معتب

● وقوله في قصيدة يحض أخاه حمزة على اتباع النبي، والصبر في طاعته:

صبرا أبا يعلى على دين أحمد . وكن مظهرا للدين، وفقت صابرا

فقد سرني إذ قلت إنك مؤمن فكن لرسول الله في الله ناصرا

• وقوله في قصيدة:

أقيم على نصر النبي محمد أقاتل عنه بالقنا والقنابل

• وقوله يحض النجاشي على نصر النبي:

تعلم مليك الحبش أن محمدا وزير لموسى، والمسيح بن مريم

أتى بهدى مثل الذي أتيا به وكل بأمر الله يهدي ويعصم

وإنكم تتلونه في كتابكم بصدق حديث، لا حديث المرجم

فلا تجعلوا لله ندا، وأسلموا . وإن طريق الحق ليس بمظلم

• وقوله في وصيته، وقد حضرته الوفاة:

أوصي بنصر النبي الخير مشهده عليا ابني، وشيخ القوم عباسا

وحمزة الأسد الحامي حقيقته . وجعفرا أن يذودوا دونه الناسا

كونوا فدى لكم أمي وما ولدت في نصر أحمد، دون الناس أتراسا

• في أمثال هذه الأبيات مما هو موجود في قصائده المشهورة، ووصاياه، وخطبه، يطول بها الكتاب.

• على أن أبا طالب لم ينأ عن النبي ﷺ قط، بل كان يقرب منه، ويخالطه، ويقوم بنصرته، فكيف يكون المعنى بقوله وينأون عنه.

٢. ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ معناه: ما يهلكون بنهيهم عن قبوله، وبعدهم عنه، إلا أنفسهم، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: وما يعلمون إهلاكهم إياها بذلك.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٢/ ١٩.

١. في سبب نزولها قولان:

أ. أحدهما: أنّ أبا طالب كان ينهى المشركين أن يؤذوا رسول الله ﷺ، ويتباعد عمّا جاء به، فنزلت فيه هذه الآية، رواه سعيد بن جبير عن ابن عبّاس، وهو قول عمرو بن دينار، وعطاء بن دينار، والقاسم بن مخيمرة، وقال مقاتل: كان رسول الله ﷺ عند أبي طالب يدعوه إلى الإسلام، فاجتمعت قريش إلى أبي طالب يريدون بالنبيّ ﷺ سوءا، فسألوا أبا طالب أن يدفعه إليهم، فيقتلوه، فقال: ما لي عنه صبر؛ فقالوا: ندفع إليك من شبابنا من شئت مكان ابن أخيك، فقال أبو طالب: حين تروح الإبل، فإن حنّت ناقة إلى غير فصيلها دفعته إليكم، وقال:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتّى أوسّد في التّراب دفينا

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة ... وابشر وقرّ بذاك منك عيونا

وعرضت دينا لا محالة أنّه ... من خير أديان البريّة دينا

لولا الملامة أو حذاري سبّة...لوجدتني سمحا بذاك مبيناé

فنزلت فيه هذه الآية.

ب. الثاني: أنّ كفّار مكّة كانوا ينهون النّاس عن اتّباع النّبيّ ﷺ، ويتباعدون بأنفسهم عنه، رواه الوالبيّ عن ابن عبّاس، وبه قال ابن الحنفية، والضّحّاك، والسّدّى.

ج. على القول الأول، يكون قوله تعالى: (وهم) كناية عن واحد؛ وعلى الثاني: عن جماعة.

٢. في هاء (عنه) قولان:

أ. أحدهما: أنّها ترجع إلى النّبي ﷺ، ثم فيه قولان:

• أحدهما: ينهون عن أذاه.

• الثاني: عن اتّباعه.

ب. الثاني: أنّها ترجع إلى القرآن، قاله مجاهد، وقتادة، وابن زيد.

٣. ﴿وَيَنْأَوْنَ﴾ بمعنى يبعدون، وفي هاء (عنه) قولان:

أ. أحدهما: أنها راجعة إلى النّبيّ ﷺ.

ب. الثاني: إلى القرآن.

٤. ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ﴾ أي: وما يهلكون ﴿إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالتّباعد عنه ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أنّهم يهلكونها.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. لما بيّن الله تعالى أنهم طعنوا في كون القرآن معجزا بأن قالوا: إنه من جنس أساطير الأولين وأقاصيص الأقدمين؛ بين في هذه الآية أنهم ينهون عنه وينأون عنه، وقد سبق ذكر القرآن وذكر محمد ﷺ، فالضمير في قوله ﴿عَنْهُ﴾ محتمل أن يكون عائدا إلى القرآن وأن يكون عائدا إلى محمد ﷺ، فلهذا السبب اختلف المفسّرون:

أ. فقال بعضهم: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ أي عن القرآن وتدبره والاستماع له.

ب. وقال آخرون: بل المراد ينهون عن الرسول.

٢. النهي عن الرسول ﷺ محال بل لا بدّ وأن يكون المراد النهي عن فعل يتعلق به ﷺ، وهو غير مذكور فلا جرم حصل فيه قولان:

أ. منهم من قال المراد أنهم ينهون عن التصديق بنبوّته والإقرار برسالته.. وهو أشبه لوجهين:

• الأول: أن جميع الآيات المتقدمة على هذه الآية تقتضي ذم طريقتهم، فكذلك قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ ينبغي أن يكون محمولا على أمر مذموم، فلو حملناه على أن أبا طالب كان ينهى عن إيذائه، لما حصل هذا النظم.

• الثاني: أنه تعالى قال بعد ذلك: ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ يعني به ما تقدم ذكره، ولا يليق ذلك بأن يكون المراد من قوله ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ النهي عن أذيته، لأن ذلك حسن لا يوجب الهلاك.

ب. وقال عطاء ومقاتل: نزلت في أبي طالب كان ينهى قريشا عن إيذاء النبي ﷺ، ثم يتباعد عنه ولا يتبعه على دينه.

٣. سؤال وإشكال: إن قوله: ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ يرجع إلى قوله: ﴿وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ لا إلى

---

(١) التفسير الكبير: ١٢، ص: ٥٠٨.

قوله: ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ لأن المراد بذلك أنهم يبعدون عنه بمفارقة دينه، وترك الموافقة له وذلك ذم فلا يصح ما رجحتم به هذا القول، والجواب: إن ظاهر قوله: ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ يرجع إلى كل ما تقدم ذكره لأنه بمنزلة أن يقال: إن فلانا يبعد عن الشيء الفلاني وينفر عنه ولا يضر بذلك إلا نفسه، فلا يكون هذا الضرر متعلقا بأحد الأمرين دون الآخر.

٤. أولئك الكفار كانوا يعاملون رسول الله ﷺ بنوعين من القبيح:

أ. الأول: إنهم كانوا ينهون الناس عن قبول دينه والإقرار بنبوته.

ب. الثاني: كانوا ينأون عنه، والنأي البعد يقال: نأى ينأى إذا بعد.

﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ﴾ قال ابن عباس، أي وما يهلكون إلا أنفسهم بسبب تماديهم في الكفر وغلوهم فيه وما يشعرون أنهم يهلكون أنفسهم ويذهبونها إلى النار بما يرتكبون من الكفر والمعصية.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ النهي الزجر، والنأي البعد:

أ. وهو عام في جميع الكفار أي ينهون عن اتباع محمد ﷺ، وينأون عنه، عن ابن عباس والحسن.

ب. وقيل: هو خاص بأبي طالب ينهى الكفار عن أذائه محمد ﷺ، ويتباعد عن الإيمان به:

• عن ابن عباس أيضا، وروى أهل السير قال كان النبي ﷺ قد خرج إلى الكعبة يوما وأراد أن يصلي، فلما دخل في الصلاة قال أبو جهل لعنه الله ـ: من يقوم إلى هذا الرجل فيفسد عليه صلاته، فقام ابن الزبعري فأخذ فرثا ودما فلطخ به وجه النبي ﷺ، فانفتل النبي ﷺ من صلاته، ثم أتى أبا طالب عمه فقال: (يا عم ألا ترى إلى ما فعل بي) فقال أبو طالب: من فعل هذا بك؟ فقال النبي ﷺ: عبد الله بن الزبعري فقام أبو طالب ووضع سيفه على عاتقه ومشى معه حتى أتى القوم، فلما رأوا أبا طالب قد أقبل جعل القوم ينهضون، فقال أبو طالب: والله لئن قام رجل جللته بسيفي فقعدوا حتى دنا إليهم، فقال: يا بني من الفاعل

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/ ٤٠٦.

بك هذا؟ فقال: عبد الله بن الزبعرى، فأخذ أبو طالب فرثا ودما فلطخ به وجوههم ولحاهم وثيابهم وأساء لهم القول، فنزلت هذه الآية ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ فقال النبي ﷺ: (يا عم نزلت فيك آية) قال وما هي؟ قال: (تمنع قريشا أن تؤذيني وتأبى أن تؤمن بي) فقال أبو طالب:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أوسد في التراب دفينا

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة ... وأبشر بذاك وقر منك عيونا

ودعوتني وزعمت أنك ناصحي ... فلقد صدقت وكنت قبل أمينا

وعرضت دينا قد عرفت بأنه ... من خير أديان البرية دينا

لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتني سمحا بذاك يقينا

فقالوا: يا رسول الله هل تنفع أبا طالب نصرته؟ قال نعم دفع عنه بذاك الغل ولم يقرن مع الشياطين ولم يدخل في جب الحيات والعقارب إنما عذابه في نعلين من نار في رجليه يغلي منهما دماغه في رأسه وذلك أهون أهل النار عذابا، وأنزل الله على رسوله ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف]

• وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ لعمه: (قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة) قال: لولا تعيرني قريش يقولون: إنما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص]

• وفي صحيح مسلم أيضا عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: (أهون أهل النار عذابا أبو طالب وهو منتعل بنعلين من نار يغلي منهما دماغه)

• أما عبد الله ابن الزبعري فإنه أسلم عام الفتح وحسن إسلامه، واعتذر إلى رسول الله ﷺ فقبل عذره، وكان شاعرا مجيدا، فقال يمدح النبي ﷺ، وله في مدحه أشعار كثيرة ينسخ بها ما قد مضى في كفره، منها قوله:

منع الرقاد بلابل وهموم ... والليل معتلج الرواق بهيم

مما أتاني أن أحمد لامني ... فيه فبت كأنني محموميا

خير من حملت على أوصالها ... عيرانة سرح اليدين غشوم

إني لمعتذر إليك من الذي ... أسديت إذ أنا في الضلال أهيم

أيام تأمرني بأغوى خطة ... سهم وتأمرني بها مخزوم
وأمد أسباب الردى ويقودني ... أمر الغواة وأمرهم مشئوم
فاليوم آمن بالنبي محمد ... قلبي ومخطئ هذه محروم
مضت العداوة فانقضت أسبابها ... وأتت أواصر بيننا وحلوم
فاغفر فدى لك والداي كلاهما ... زللي فإنك راحم مرحوم
وعليك من سمة المليك علامة ... نور أغر وخاتم مختوم
أعطاك بعد محبة برهانه ... شرفا وبرهان الإله عظيم
ولقد شهدت بأن دينك صادق ... حقا وأنك في العباد جسيم
والله يشهد أن أحمد مصطفى ... مستقبل في الصالحين كريم
قرم علا بنيانه من هاشم ... فرع تمكن في الذرى وأروم

ج. وقيل: المعنى ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أي هؤلاء الذين يستمعون ينهون عن القرآن ﴿وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾، عن قتادة، فالهاء على القولين الأولين في ﴿عَنْهُ﴾ للنبي ﷺ، وعلى قول قتادة للقرآن.

٢. ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ ﴿إِنْ﴾ نافية أي وما يهلكون إلا أنفسهم بإصرارهم على الكفر، وحملهم أوزار الذين يصدونهم.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ أي ينهى المشركون الناس عن الإيمان بالقرآن أو بمحمد ﷺ ويبعدون هم في أنفسهم عنه، وقيل: إنها نزلت في أبي طالب فإنه كان ينهى الكفار عن أذية النبيّ ﷺ ويبعد هو عن إجابته.

٢. ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي ما يهلكون بما يقع منهم من النهي والنأي إلا أنفسهم بتعريضها لعذاب الله وسخطه، والحال أنهم ما يشعرون بهذا البلاء الذي جلبوه على أنفسهم.

---

(١) فتح القدير: ٢/ ١٢٥.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١ . ﴿وَهُمْ﴾ أي: المشركون ﴿يَنْهَوْنَ﴾ الناس ﴿عَنْهُ﴾ عن القرآن عن أن يؤمنوا به، أو عن رسول الله ﷺ عن أن يؤمنوا به ﴿وَيَنْئَوْنَ﴾ يبعدون بأنفسهم ﴿عَنْهُ﴾ عن القرآن أو الرَّسول عن أن يؤمنوا به، أو هم ينهون عن رسول الله ﷺ أن يَضُرَّه أحد، و(يَنْأَوْنَ) يبعدون عنه، عن تصديقه، وذلك كأبي طالب يَرُدُّ السوء عن رسول الله ﷺ ولا يؤمن به، واجتمع إليه رؤساء قريش وقالوا له: خذ شابًّا من أَصْبَحِنَا وجهًا وادفع إلينا محمَّدًا، فقال: ما أنصفتموني، أدفع إليكم ولدي لتقتلوه وأربِّي ولدكم!، واجتهد النبيء ﷺ أن يؤمن وينطق بالشهادتين فيجادل له عند الله فأبى، واعترف أنَّه ﷺ على الحقِّ ولكن يخاف أن يسبَّه قريش، وقال في مرض موته: إنَّه يموت على دين الأشياخ، فمات عليه، وهو دين أشياخ قريش، وقال: لولا أن يعيِّرني قريش لأقررت عينك بما تحبُّ من الإيمان، ولكن أذبُّ عنك ما حييت، وقال:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتَّى أوسَّد في التراب دفينا

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة ... وأبشر بذاك وقرَّ منه عيونا

ودعوتني وزعمت أنَّك ناصح ... ولقد صدقت وكنت ثمَّ أمينا

وعرضت دينًا قد علمت بأنَّه ... من خير أديان البريَّة دينا

لولا الملامة أو حذار مسبَّة ... لوجدتني سمحًا بذاك مبينا

٢ . والوجه الأوَّل أولى، وهو أنَّهم ينهون عن تصديقه غيرهم ويبعدون عن تصديقه، وأمَّا الثاني أنَّهم ينهون عن ضرِّه ويبعدون أنفسهم عن تصديقه والإيمانِ به فيضعف بأنَّ فاعل ذلك أبو طالب، ولا يحسن جمعه تعظيمًا له لفعل ما لا يستقلُّ به وحده كما قيل به، وقيل: هو وتسعة إخوة له كلُّهم أعمام النبيء ﷺ ، كانوا أَشَدَّ الناس له نفعًا في العلانية ذبًّا على نسبهم، وبأَنَّ ما قبل ذلك من الآيات في ذمِّ طريقتهم، فليكن هذا كلُّه في ذمِّها لا في ذمِّها بالنأي عن تصديقه ومدحهم بالنهي عن ضرِّه، لكن لا بأس بالذمِّ بالمجموع مشتملاً على شيء هو مدح، وبأنَّ ما بعد ذلك أيضًا في ذمِّهم

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/ ٢٣٠.

٣. وهو قوله تعالى:﴿وَإِنْ يُّهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ بالنهي عن تصديقه وبالبعد عنه؛ لأنَّ وبال ذلك راجع عليهم، ولا يخفى أنَّ هذا أولى من أن يقال: ﴿وَإِنْ يُّهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ بالبعد عن تصديقه ولو لم يهلكوها بالنهي عن ضرِّه، ولو كان وجهًا، عَبَّرَ بالإهلاك إشعارًا بأنَّ مرادهم إهلاكه بِالكُلِّيَّةِ لا منع الناس عنه فقط، ولا مطلق الضُّرِّ، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بإهلاكهم أنفسهم بذلك، وأنَّ ضرره يرجع عليهم لا ينالك ضرُّهم، ولا ينال القرآن، وشَرَح إهلاكَهم أنفسَهم بقوله: موقف المشركين أمام ربهم في الآخرة.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أي: لا يقنعون بما ذكر من تكذيبه، بل ينهون الناس عن استماعه، قال المهايميّ: وهم، لرؤيتهم حلاوة نظمه فوق نثرهم وشعرهم، مع متانة معاينة، يعرفون أن التدبر فيه يفيد التطلع على إعجازه، فيخافون تأثيره في قلوب الخلائق، لذلك ينهون عنه، أي: عن قراءته واستماعه، لئلا يدعوهم إلى التدبر فيه، فيفسد عليهم أغراضهم الفاسدة.

٢. ﴿وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ أي: يتباعدون عنه بأنفسهم، إظهارا لغاية نفورهم عنه، وتأكيدا لنهيهم عنه، فإن اجتناب الناهي عن المنهيّ عنه، من متممات النهي، ولعل ذلك هو السرّ في تأخير (النأي) عن (النهي) أفاده أبو السعود.

٣. ولما أشعر ذلك بكونهم يبغون الغوائل لرسول الله ﷺ وللمؤمنين، خوفا من قوة تأثير التنزيل في القلوب، أتبعه بأنه لا يحصل لهم هذا المطلوب، لأن الله متم نوره، ومظهر دينه، وإن الدائرة عليهم بقوله: ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ بتعريضها لأشد العذاب عاجلا وآجلا ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي بذلك.

٤. وفي (ينهون) و(ينأون) تجنيس بديع.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ ضمير (وهم) عائد إلى المشركين المعاندين للنبي ﷺ الجاحدين

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/ ٣٣٧.

(٢) تفسير المنار: ٧/ ٢٩٢

لنبوته الذين ورد هذا السياق بطوله فيه، لا إلى الفريق الذي ذكر أخيرا في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ والمعنى أنهم ينهون الناس عن سماع القرآن من النبي ﷺ وينأون أي يبعدون عنه ليكونوا ناهين منتهين، والنأي عنه يشمل الإعراض عن سماعه والإعراض عن هدايته، وقيل: إن المعنى ينهون عن النبي ﷺ أي ينهون العرب عن حمايته ومنعه وعن اتباعه والسماع له جميعا، ويبعدون عنه بعد جفاء وعداوة.

٢. ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وما يهلكون بذلك إلا أنفسهم وما يشعرون بذلك، بل يظنون أنهم يقضون عليه ﷺ، وهذا من معجزات القرآن وإخباره بالغيب فقد هلك جميع الذين أصروا على عداوة الرسول ﷺ بعضهم بالنقم الخاصة، وبعضهم في بدر، ثم في غيرها من الغزوات، ويلي هذا الهلاك الدنيوي هلاك الآخرة، ولفظ الآية يشملها وهو في هلاك الدنيا أظهر.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بين الله تعالى أن أمرهم لم يقتصر على حد الضلال، بل تعدوه إلى الإضلال وساروا فيه قدما فقال: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ أي وأولئك المشركون المعاندون للنبي الجاحدون لنبوته، لا يقنعون بتكذيبهم له وعدّه حديث خرافة، بل ينهون الناس عن استماعه، لئلا يقفوا على حقيقته فيؤمنوا به، ويتباعدون عنه بأنفسهم إظهارا لاشمئزازهم ونفورهم منه فيكونون ناهين منتهين.

٢. ثم ذكر أن عاقبة ذلك الوبال والنكال لهم فقال: ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وما يهلكون إلا أنفسهم بتعريضها لأشد العذاب وأفظعه وهو عذاب الضلال والإضلال، وما يشعرون بذلك بل يظنون أنهم يبغون الغوائل لرسول الله ﷺ.

٣. وهذا من معجزات القرآن وإخباره بالغيب؛ فقد هلك جميع الذين أصرّوا على عداوته ﷺ، بعضهم في نقم خاصة، وبعضهم في وقعة بدر وغيرها من الغزوات، ويتبع هذا الهلاك الدنيوي هلاك الآخرة، واللفظ يشملهما معا.

سيّد:

(١) تفسير المراغي ٧/ ١٠٠.

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. لقد كانوا كذلك ينهون الناس عن الاستماع إليه ـ وهم كبراؤهم ـ وينأون هم عن الاستماع خشية التأثر والاستجابة: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، لقد كانوا على يقين من أنه ليس أساطير الأولين، وأن مواجهته بأساطير الأولين لا تجدي لو ترك الناس يسمعون! وكان كبراء قريش يخافون على أنفسهم من تأثير هذا القرآن فيها كما يخافون على أتباعهم، فلم يكن يكفي إذن في المعركة بين الحق النفاذ بسلطانه القوي، والباطل الواهن المتداعي، أن يجلس النضر بن الحارث يروي للناس أساطير الأولين! ومن ثم كانوا ينهون أتباعهم أن يستمعوا لهذا القرآن؛ كما كانوا هم أنفسهم ينأون بأنفسهم ـ خوفا عليها أن تتأثر وتستجيب ـ وحكاية الأخنس بن شريق، وأبي سفيان بن حرب، وعمرو بن هشام وهم يقاومون جاذبية القرآن التي تشدهم شدا إلى التسمع في خفية لهذا القرآن حكاية مشهورة في السيرة.

٢. وهذا الجهد كله الذي كانوا يبذلونه ليمنعوا أنفسهم ويمنعوا غيرهم من الاستماع لهذا القرآن؛ ومن التأثر به والاستجابة له.. هذا الجهد كله إنما كانوا يبذلونه في الحقيقة لإهلاك أنفسهم ـ كما يقرر الله سبحانه: ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾! وهل يهلك إلا نفسه من يجاهد نفسه ويجاهد غيره دون الهدى والصلاح والنجاة، في الدنيا والآخرة؟

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾.. الضمير في (عنه) يعود إلى القرآن الكريم، الملحوظ في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾، وجناية هؤلاء المشركين هنا جناية غليظة، وجرمهم فظيع شنيع.. إذ لم يكتفوا بأن يكفروا بالقرآن، ويقولوا فيه ما يقولون، من زور وبهتان، وإنما وقفوا في وجه من يطلبون الهدى منه، وحالوا بينهم وبين النبيّ أن يلقوه وأن يسمعوا كلمات الله منه.

٢. وقدّم نهيهم الناس وصدّهم عن لقاء النبيّ والاستماع إليه، على نأيهم هم بأنفسهم عنه، وعزل

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/ ١٠٦٨.

(٢) التفسير القرآني للقرآن: ٤/ ١٥٢.

عقولهم وقلوبهم عن لقائه، وهم إنما صدّوا أولا وكفروا، ثم كانت فعلتهم بعد هذا هي نهى غيرهم، وضمهم إلى جانبهم ـ ولكن لما كان صدّهم الناس عن رسول الله أمرا واقعا، وحكما قاطعا، ولم يكن أمرا مستحدثا منهم، وإنما الذي استحدثوه بعد أن أخذوا هذا الموقف لأنفسهم، هو أنهم جاءوا إلى غيرهم ليأخذوا معهم هذا الموقف الذي هم فيه ـ فكان من الحكمة في لقاء المجرمين بجرمهم، أن يواجهوا أولا بما أحدثوا من جرم وهو صدّ الناس، ثم يساق إليهم بعد ذلك ما كان لهم من سابقة في هذا الباب، وهو صدّ أنفسهم.

٣. قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ كشف للمصير السيّئ الذي صيّرهم إليه هذا الموقف الذي ارتضوه لأنفسهم، من الصدود عن دعوة الإسلام، وصدّ الناس عنها.. إنهم أهلكوا بذلك أنفسهم، وأوردوها موارد البوار والخسران، وإن كانوا لا يشعرون أنهم إلى هذا المصير هم صائرون، لما استولى عليهم من غفلة، وما غشيهم من ضلال، ﴿إِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ نافية، بمعنى ما.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾، ضميرهم يعود إلى الذين عاندوا الحق حرصا على مصالحهم، وضمير عنه يعود إلى النبي ﷺ.. نهى المزيفون عن اتباع محمد ﷺ وأعرضوا عنه، بل حاولوا إثارة النقمة عليه، وجمعوا الجيوش لحربه، لا لشيء إلا لأنه كشف عن أسوائهم ووبائهم.

٢. ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، أرادوا الكيد للإسلام ونبيه، فدارت دائرة السوء على رؤوسهم، حيث هلك بعضهم يوم بدر، واستسلم آخرون أذلاء صاغرين يوم الفتح.. وهذا مصير كل من لج وتمادى في الغي والعناد.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(٢):

---

(١) التفسير الكاشف: ٣/ ١٧٨.

(٢) التحرير والتنوير: ٦/ ٦٠.

١. ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ عطف على جملة ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾، والضميران المجروران عائدان إلى القرآن المشار إليه باسم الإشارة في قولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥]

٢. معنى النهي عنه النهي عن استماعه، فهو من تعليق الحكم بالذات، والمراد حالة من أحوالها يعيّنها المقام، وكذلك الناي عنه معناه النأي عن استماعه، أي هم ينهون الناس عن استماعه ويتباعدون عن استماعه، قال النابغة:

لقد نهيت بني ذبيان عن أقر   وعن تربّعهم في كلّ أصفار

يعني نهيتهم عن الرعي في ذي أقر، وهو حمى الملك النعمان بن الحارث الغسّاني.

٣. بين قوله: ﴿يَنْهَوْنَ﴾ و﴿يَنْأَوْنَ﴾ الجناس القريب من التمام.

٤. القصر في قوله: ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ قصر إضافي يفيد قلب اعتقادهم لأنّهم يظنّون بالنهي والنأي عن القرآن أنّهم يضرّون النبي ﷺ لئلّا يتّبعوه ولا يتّبعه الناس، وهم إنّما يهلكون أنفسهم بدوامهم على الضلال وبتضليل الناس، فيحملون أوزارهم وأوزار الناس، وفي هذه الجملة تسلية للرسول ﷺ وأنّ ما أرادوا به نكايته إنّما يضرّون به أنفسهم، وأصل الهلاك الموت، ويطلق على المضرّة الشديدة لأنّ الشائع بين الناس أنّ الموت أشدّ الضرّ، فالمراد بالهلاك هنا ما يلقونه في الدنيا من القتل والمذلّة عند نصر الإسلام وفي الآخرة من العذاب.

٥. النأي: البعد، وهو قاصر لا يتعدّى إلى مفعول إلّا بحرف جرّ، وما ورد متعدّيا بنفسه فذلك على طريق الحذف والإيصال في الضرورة.

٦. عقّب قوله: ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ بقوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ زيادة في تحقيق الخطأ في اعتقادهم، وإظهارا لضعف عقولهم مع أنّهم كانوا يعدّون أنفسهم قادة للناس، ولذلك فالوجه أن تكون الواو في قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ للعطف لا للحال ليفيد ذلك كون ما بعدها مقصودا به الإخبار المستقلّ لأنّ الناس يعدّونهم أعظم عقلائهم.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، إن المشركين لا يكتفون بالإعراض عن الحجج الثابتة والبينات القاطعة، ولا يكتفون بالافتراء على الآيات تتلى عليهم، والاستهانة وقولهم إن هي إلا أساطير الأولين، لا يكتفون بذلك، بل يتعدى شرهم إلى غيرهم فهم ينهون الناس عن اتباع محمد ﷺ والقرآن الكريم هو آيات بينات، فهم لا يهتدون، ويمنعون الهداية عن غيرهم ينهونهم، ويثيرون السخرية عليهم إن اتبعوا الهدى واستقاموا على الطريقة المثلى، وينأون عن النبي أي يبتعدون عن النبي ﷺ، ويتجافون مجلسه، فهم يقومون بأعمال ثلاثة كلها انحراف عن الصراط المستقيم واتباع للغواية:

أ. أولها: الإعراض عن آيات الله تعالى وتكذيب النبي ﷺ.

ب. ثانيها: أنهم ينهون الناس عن اتباع الحق، فهم ضالون مضلون.

ج. الثالث: أنهم لكى يباعدوا بينهم وبين الحق، ولا يجعلون سبيلا لقلوبهم يجتهدون في ألا يلتقوا بالنبي ﷺ، فيتجافوا عن مجالسه لكيلا يكون منه منفذ للحق إلى قلوبهم، ففيهم غواية ولجاجة، وفى هذا التفسير يكون الضمير في (عنه) في الحالين يرجع إلى النبي ﷺ وما جاء به.

٢. في هذا التفسير يكون الضمير في (عنه) في الحالين يرجع إلى النبي ﷺ وما جاء به، وبعض المفسرين التابعين لبعض التابعين جعل الضمير في ينهون في الحالين يعود إلى عشيرة النبي ﷺ وأعمامه وكانوا عشرة، فهم للعصبية التي كانت قائمة يذبون عن النبي ﷺ وينهون المشركين عن أن ينالوه، وفى الوقت ينأون عن إجابته، ولعل أوضح مثل لذلك أبو طالب، فقد كان يمنع النبي ﷺ من أذاهم، ويمتنع عن اتباعه مع أنه في قرارة نفسه كان يظنه على حق، ولقد روى عنه شعر في ذلك، فقد روى أنه قال:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أوسّد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة ... وابشر بذاك وقر منه عيونا
ودعوتنى وزعمت أنك ناصح ... ولقد صدقت وكنت ثمّ أمينا
وعرضت دينا لا محالة إنه ... من خير أديان البرية دينا

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/ ٢٤٧٤.

لو لا الملامة أو حذارى سبة لوجدتنى سمحا بذاك مبينا

٣. وإن الأول هو المقبول المعقول؛ لأن القرآن لا ينزل في حكم الآحاد إلا إذا كان يؤدى إلى عموم، والأول أظهر وهو عام فيؤخذ به، وإنهم في إصرارهم وعنادهم ولجاجتهم في كفرهم ونهى الناس عن الاتباع، بل فتنتهم ـ يسيرون في طريق الفساد والضلال ولا يهلكون أحدا إلا أنفسهم؛ لأن الدعوة إلى الحق ماضية، فإن عوقها معوق فإلى حين؛ إذ الضالون لا يشعرون أنهم يسيرون في طريق الهاوية، ولو شعروا بها لتجنبوا، وكذلك أهل الضلال دائما.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ينهون عنه أي عن اتباعه، والنأي الابتعاد.

٢. والقصر في قوله: ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ من قصر القلب فإنهم كانوا يحسبون أن النهي عنه والنأي عنه إهلاك له وإبطال للدعوة الإلهية، ويأبى الله إلا أن يتم نوره فهم هم الهالكون من حيث لا يشعرون.

٣. في تفسير القمي في قوله تعالى: (وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ) الآية، قال: بنو هاشم كانوا ينصرون رسول الله ﷺ ـ ويمنعون قريشا، وينأون أي يباعدون عنه ولا يؤمنون.. والرواية تقرب مما روي عن عطاء ومقاتل: أن المراد أبو طالب عم النبي ﷺ ـ فإنه كان ينهى قريشا عن النبي ـ وينأى عن النبي ولا يؤمن به، والسياق يأبى ذلك فإن ظاهر الآية أن الضمير راجع إلى القرآن دون النبي ﷺ، على أن الروايات من طرق أهل البيت عليه السلام متظافرة بإيمانه، قال في المجمع: قد ثبت إجماع أهل البيت عليه السلام بإيمان أبي طالب، وإجماعهم حجة لأنهم أحد الثقلين الذين أمر النبي ﷺ بالتمسك بهما بقوله: (ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا)، ويدل على ذلك أيضا ما رواه ابن عمر: أن أبا بكر جاء بأبيه أبي قحافة ـ يوم الفتح إلى رسول الله ﷺ ـ فقال: ألا تركت الشيخ فآتيه؟ وكان أعمى، فقال أبو بكر: أردت أن يأجره الله تعالى،

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٧/ ٥٣.

والذي بعثك بالحق لأنا كنت بإسلام أبي طالب ـ أشد فرحا مني بإسلام أبي ـ ألتمس بذلك قرة عينك، فقال ﷺ: صدقت، وروى الطبري، بإسناده: أن رؤساء قريش لما رأوا ذب أبي طالب عن النبي ﷺ ـ اجتمعوا عليه وقالوا: جئناك بفتى قريش جمالا وجودا وشهامة ـ عمارة بن الوليد ندفعه إليك ـ وتدفع إلينا ابن أخيك الذي فرق جماعتنا، وسفه أحلامنا فنقتله، فقال أبو طالب ما أنصفتموني ـ تعطونني ابنكم فأغذوه، وأعطيكم ابني فتقتلونه ـ بل فليأت كل امرئ منكم بولده فأقتله، وقال:

منعنا الرسول رسول المليك ببيض تلألأ كلمع البروق

أذود وأحمي رسول المليك حماية حام عليه شفيق

وأقواله وأشعاره المنبئة عن إسلامه كثيرة مشهورة لا تحصى فمن ذلك قوله:

ألم تعلموا أنا وجدنا محمدا نبيا كموسى خط في أول الكتب

أليس أبونا هاشم شد أزره وأوصى بنيه بالطعان وبالحرب

وقوله من قصيدة:

وقالوا لأحمد أنت امرؤ خلوف اللسان ضعيف السبب

ألا إن أحمد قد جاءهم بحق ولم يأتهم بالكذب

وقوله في حديث الصحيفة وهو من معجزات النبي ﷺ:

وقد كان في أمر الصحيفة عبرة متى ما يخبر غائب القوم يعجب

محا الله منها كفرهم وعقوقهم وما نقموا من ناطق الحق معرب

وأمسى ابن عبد الله فينا مصدقا على سخط من قومنا غير معتب

وقوله في قصيدة يحض أخاه حمزة على اتباع النبي والصبر في طاعته:

صبرا أبا يعلى على دين أحمد وكن مظهرا للدين وفقت صابرا

فقد سرني إذ قلت إنك مؤمن فكن لرسول الله في الله ناصرا

وقوله من قصيدة:

أقيم على نصر النبي محمد أقاتل عنه بالقنا والقنابل

وقوله يحض النجاشي على نصر النبي ﷺ:

تعلم مليك الحبش أن محمدا وزير لموسى والمسيح بن مريم
أتى بهدى مثل الذي أتيا به وكل بأمر الله يهدي ويعصم
وإنكم تتلونه في كتابكم بصدق حديث لا حديث المرجم
فلا تجعلوا لله ندا وأسلموا وإن طريق الحق ليس بمظلم

وقوله في وصيته وقد حضرته الوفاة:

أوصى بنصر النبي الخير مشهده عليا ابني وشيخ القوم عباسا
وحمزة الأسد الحامي حقيقته وجعفرا أن يذودوا دونه الناسا
كونوا فدى لكم أمي وما ولدت في نصر أحمد دون الناس أتراسا

وأمثال هذه الأبيات مما هو موجود في قصائده المشهورة ووصاياه وخطبه يطول بها الكتاب.

٤. والعمدة في مستند من قال بعدم إسلامه بعض روايات واردة من طريق الجمهور في ذلك، وفي الجانب الآخر إجماع أهل البيت عليه السلام وبعض الروايات من طريق الجمهور، وأشعاره المنقولة عنه، ولكل امرئ ما اختار.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ملاحظات حول سبب النزول:

أ. جاء في أسباب النزول ـ للواحدي ـ بإسناده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ قال: نزلت في أبي طالب، كان ينهي المشركين أن يؤذوا رسول الله ﷺ ويتباعد عما جاء به، وهذا قول عمرو بن دينار والقاسم بن مخيمر.

ب. قال مقاتل: وذلك أن النبي ﷺ كان عند أبي طالب يدعوه إلى الإسلام، فاجتمعت قريش إلى أبي طالب يردون سؤال النبي ﷺ، فقال أبو طالب:

والله لا وصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا

(١) من وحي القرآن: ٩/ ٦١.

فاصدع بأمرك لا عليك غضاضة وأبشر وقرّ بذاك منك عيونا

وعرضت دينا لا محالة أنه من خير أديان البرية دينا

لو لا الملامة أو حذاري سبّة لوجدتني سمحا بذاك مبينا

فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ الآية.

ج. وقال محمد بن الحنفية والسدي والضحاك: نزلت في كفار مكة كانوا ينهون الناس عن اتباع محمد ﷺ ويتباعدون بأنفسهم عنه، وهو قول ابن عباس في رواية الوالبي.

د. الظاهر أن الرواية الأخيرة هي الأرجح لأن سياق الآية ـ كما يقول صاحب مجمع البيان ـ يوحي بأنها واردة في ذم الكفار والمعاندين للنبي ﷺ، لأنها معطوفة على ما تقدّمها، وما تأخر عنها معطوف عليها، كما أنها لا تتناسب مع الروايتين السابقتين:

• أولا، لأن الظاهر من كلمة ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ هو نهي الناس عن اتباعه و﴿وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ أي: يتباعدون عنه في موقف الرفض له ولرسالته، فلا تنسجم مع واقع أبي طالب ـ حسب الرواية: ـ الذي كان ينهى الناس عنه من خلال حمايته له من قريش، أمّا ينأون عنه فلا تتناسب مع الفكرة التي يريدون تأكيدها عنه، وهي النأي عن الإيمان به وبرسالته لعدم صحة نسبة النأي عنه إليه بالذات، هذا بالإضافة إلى أن الآية وردت بصيغة الجمع، وهي بالنسبة إلى أبي طالب في دائرة المفرد.

• هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن الدراسة الموضوعية لشخصية أبي طالب ورعايته للنبي ﷺ ووعيه الفكري ورجاحة عقله ومستوى درجته الرفيعة في السلم الاجتماعي المكي في زعامته لقريش أو لبني هاشم وأشعاره المرويّة عنه، كل ذلك لا يتناسب مع رفضه للإيمان برسول الله ﷺ وبقائه على الشرك، لو كان مشركا من الأساس، وهو أمر مشكوك فيه انطلاقا من الجو العائلي الإيماني الذي يحيط ببيت أبيه عبد المطلب.

• أمّا الحديث عن خوف الملامة أو محاذرة السبّة، فهو حديث لا يثبت أمام النقد لأن القضية ليست قضية مربوطة بالواقع الاجتماعي، بل هي مربوطة بالمصير الأخروي عند الله مما لا يمكن للإنسان الذي يعيش الإيمان بقلبه وعقله أن يبتعد عن الانتماء إليه.

• إنّ هذا كله يوحي بأن الإيمان ليس بعيدا عن عقل أبي طالب وقلبه، ولكن إذا كان هناك من كلام

يمكن إثارته في هذا المجال، فهو أنه كان يكتم إيمانه حماية للرسول ﷺ ليستطيع الدفاع عنه أمام قريش التي لم تكن تعتبره مسلما، وقد جاء في أحاديث أهل البيت عليهم السّلام ما يؤكد ذلك، وقد جاء في مجمع البيان أنه قد ثبت إجماع أهل البيت عليهم السّلام على إيمان أبي طالب، وإجماعهم حجة لأنهم أحد الثقلين اللذين أمر النبي ﷺ بالتمسك بهما بقوله: إن تمسكتم بهما لن تضلوا.

• ويدل على ذلك أيضا ما رواه ابن عمر أن أبا بكر جاء بأبيه أبي قحافة يوم الفتح إلى رسول الله ﷺ فأسلم، فقال ﷺ: ألا تركت الشيخ فآتيه وكان أعمى، فقال أبو بكر: أردت أن يأجره الله تعالى، والذي بعثك بالحق، لأنا كنت بإسلام أبي طالب أشد فرحا مني بإسلام أبي، ألتمس بذلك قرة عينك، فقال ﷺ: صدقت.

• قال صاحب الميزان: والعمدة في مستند من قال بعدم إسلامه بعض روايات واردة من طريق الجمهور في ذلك، وفي الجانب الآخر إجماع أهل البيت عليهم السّلام وبعض الروايات من طريق الجمهور، وأشعاره المنقولة عنه، ولكل امرئ ما اختار.

• وفي نهاية المطاف، يجدر القول إن أبا طالب في كل مراحل حياته بعد الرسالة كان الإنسان الألصق برسول الله ﷺ والأقرب إليه والأحب، وكان يجلس إليه صباحا ومساء ويتحادث معه في مختلف الأمور، لا سيّما في قضية الرسالة التي كانت تشغل وقته، باعتبار أنه كان يتحمّل مسئولية الدفاع عنها أمام سادة قريش، وقد كان الرجل عاقلا فهيما حكيما، فهل يتصور الإنسان أنه لم يستطع أن يصل إلى الحقيقة الإسلامية بعقله وقلبه، لا سيما أن القضية تتصل به من الجانب العقلي والعاطفي، في الوقت الذي وصل إليها الآخرون من المسلمين الذين أسلموا في بداية الدعوة ممن كان أبو طالب يتولى الدفاع عنهم كما عن النبي ﷺ؟ هل يملك إنسان يحترم عقله ورؤيته المتّزنة للأمور ووعيه لمفردات التاريخ أن يقول إن أبا طالب كان كافرا؟ إن أبا طالب قد أحرق كل أوراقه مع قريش بإصراره على الدفاع عن النبي محمد ﷺ وحمايته، فهل نتصور أنه يجاملهم في مسألة الإيمان بدينه الذي اقتنع بأنه (من خير أديان البرية دينا)!؟

٢. ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ فلا يكتفون بالإنكار الذاتي بل يعملون على محاربته وإبعاد الناس عنه، ﴿وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ ويبتعدون عنه بكل ما لديهم من الوسائل المادية والمعنوية، لأن المساحة الفاصلة بين طريقتهم في التفكير المتحركة في أجواء العبث، وبين طريقة النبي ﷺ المتحركة في خطّ المسؤولية، مساحة

كبيرة جدا، مما جعل من مسألة ابتعادهم عنه وإبعاد الناس عن دينه مسألة تمتد إلى عمق شخصيتهم وتفكيرهم في كل قضايا الحياة، ولكنهم لا يضرونه في ذلك كله، لأن الرسول لا يتحرك من حالة شخصية فيما يريد أن يتقدم فيه أو يتأخر، أو فيما يعمل عليه من جمع الناس من حوله، بل يتحرك من موقع رساليّ يتصل بحياة الآخرين من ناحية فكرية وعمليّة، فهو لا يحسّ بمشكلة الفراغ أو الامتلاء من ناحية ذاتية، فقد حسم المسألة قبل ذلك مع نفسه، باعتبار أنَّ الصلة بالله هي أساس القوّة، وقاعدة الاكتفاء، حيال ما يواجهونه به من عنت أو اضطهاد، ومن ترحيب وانتصار في كلمته المعبّرة (إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي) أو فيما حدثنا الله عنه في ليلة الهجرة: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] كما أنّ الله قد حسم القضية معهم في خطابه المواسي لرسوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]

٣. ولكنهم يهلكون أنفسهم، لأنهم يتلاعبون بمصيرهم في الدنيا والآخرة عندما يتلاعبون بالألفاظ التي يثيرونها، والأجواء التي يعقّدونها، فيبتعدون بذلك عما يصلح شأنهم ويعمّق إنسانيتهم ويرفع مستواهم الفكري والعملي، فيما تدعو إليه الرسالة أو فيما تحقّقه للحياة وللإنسان، ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ لأن حالة الاستعلاء والخيلاء والعبث واللامبالاة قد حجبت عنهم وضوح الرؤية للأشياء، فلم يمّيزوا بين حالة الإشراق وحالة الظلام، وبين مواقع الخير ومواقع الشرّ، فهلكوا وهم لا يشعرون وضلوا وهم لا يعلمون.

٤. ربما نستوحي من ذلك أن على العاملين في سبيل الدعوة إلى الله أن يواجهوا الجماعات المضادّة التي تريد إثارة الغبار في طريق الدعوة، من خلال أجواء اللّامبالاة التي يتصرفون بها تجاه الدعاة أو أساليب الاحتقار والتوهين في حديثهم عن الإسلام وعن القرآن وآياته، أو محاولة إبعاد الناس عن الدعوة بمختلف الوسائل.

٥. إن عليهم مواجهة ذلك بالطريقة الفضلى بالمزيد من مواقف القوة والثقة بالنفس، والتحدي لهم بمختلف الأساليب، تماما كما كان النبي محمد ﷺ في حركته في الدعوة في خط المواجهة، لأن هؤلاء لا يريدون إلا إضعاف روحيّة الداعية وإسقاط موقفه، وإنزال الهزيمة النفسية به، وإثارة الضباب حوله، مما يفرض الوقوف أمامهم بالقوة الرسالية، والصمود الحركي في ذلك كله.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَهُمْ﴾ أي المذكورون فيما مر كقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ فالضمير لهم ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ ﴿يَنْهَوْنَ﴾ عن الذي يقولون فيه: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ولو كان أساطير الأولين لكان واضح البطلان ولما احتاجوا إلى النهي عن استماعه، ولكنهم حين استمعوه سمعوه قرآناً عجباً فنهوا عن استماعه حذراً من إيمان من يستمع وقلبه سليم، ونهيهم عنه من جملة جرائمهم المذكورة في هذه السورة؛ لأنه صد عن سبيل الله.

٢. ﴿وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ يبعدون عنه، كراهةً لَه بعد ما سمعوه ووجدوه كلاماً لا يطيقه البشر ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ﴾ بالنهي عنه والنأي عنه ﴿إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ لأن وَبَالَ ذلك عليهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بسوء عاقبتهم لكفرهم، ولا يضرون بجدالهم ونهيهم ونأيهم دين الله ولا القرآن ولا الرسول ﷺ وإن ظنوا أنهم بذلك يضعفون الحق؛ لأن الله يظهر دينه وينصر رسوله وكتابه، وما يشعر الكافرون المذكورون فهم يهلكون أنفسهم ولا يدحضون الحق وما يشعرون بذلك، أي ما يعلمون.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. تذكر الآية الكريمة أنّ هؤلاء لا يكتفون بهذا، فهم مع ضلالهم يسعون جاهدين للحيلولة دون سلوك الباحثين عن الحقيقة هذا الطريق بما يشيعونه ويروجونه من مختلف الأكاذيب، ويمنعونهم أن يقتربوا من رسول الله ﷺ: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾، ويبتعدون عنه بأنفسهم: ﴿وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾، دون أن يدركوا أنّ من يصارع الحقّ يكن صريعه، وأخيرا، وبحسب قانون الخلق الثابت، يظهر وجه الحقّ من وراء السحب، وينتصر بماله من قوّة، ويتلاشى الباطل كما يتلاشى الزبد الطافي على سطح الماء، وعليه فإنّ مساعيهم سوف تتحطم على صخرة الإخفاق والخيبة وما يهلكون غير أنفسهم، ولكنّهم لا يدركون الحقيقة: ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾

---

(١) التيسير في التفسير: ٢/ ٤٣٠.

(٢) تفسير الأمثل: ٤/ ٢٤٦.

٢. يتّضح ممّا قيل في تفسير هذه الآية أنّها تتابع الكلام على المشركين المعاندين وأعداء رسول الله ﷺ الألداء، والضمير (هم) يعود بموجب قواعد الأدب واللغة ـ إلى الذين تتناولهم الآية بالبحث، أي الكفار المتعصبين الذين لم يدخروا وسعا في إيذاء النّبي ﷺ ووضع العثرات في طريق الدعوة إلى الإسلام، ولكن ـ لشديد الأسف ـ نرى بعض المفسّرين من أهل السنة يخالفون جميع قواعد اللغة العربية، فيقطعون الآية الثّانية من الآية الاولى ويقولون: إنّها نزلت في أبي طالب والد أمير المؤمنين علي عليه السّلام.

٣. إنّهم يفسرون الآية هكذا: هناك فريق يدافعون عن رسول الإسلام ﷺ ولكنّهم في الوقت نفسه يبتعدون عنه: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ وهم يستشهدون في توكيد رأيهم ببعض الآيات الأخرى من القرآن، ممّا سنتناوله في موضعه، مثل الآية من سورة التوبة والآية من سورة القصص، لكن جميع علماء الشيعة وجمع من علماء أهل السنة، ومثل ابن أبي الحديد شارح نهج البلاغة والقسطلاني في (إرشاد الساري) وزيني دحلان في حاشية السيرة الحلبية، ويعتبرون أبا طالب من مؤمني الإسلام، وهناك في المصادر الإسلامية الأصيلة دلائل كثيرة على هذا، ومن يطالع هذه الأدلة يندفع للتساؤل بدهشة: ما السبب الذي حدا ببعضهم إلى كره أبي طالب وتوجيه مثل هذا الاتهام الكبير إليه!؟ كيف يكون هدفا لمثل هذا الاتهام من كان يدافع بكل كيانه ووجوده عن رسول الله ﷺ ولطالما وقف هو وابنه في مواقع الخطر يدر آن عن حياة رسول الله ﷺ كل خطر!؟ هنا يرى المحققون المدققون أنّ التيار المناوئ لأبي طالب تيار سياسي ينطلق من عداء (شجرة بني أمية الخبيثة) لمكانة علي عليه السّلام.

٤. ذلك لأنّ أبا طالب ليس الوحيد الذي تعرض لمثل هذه الهجمات بسبب قرابته من أمير المؤمنين علي عليه السّلام، بل إنّنا نلاحظ على امتداد تاريخ الإسلام أنّ كل من كان له بأي شكل من الأشكال نوع من القرابة من أمير المؤمنين علي عليه السّلام لم ينج من هذه الحملات اللئيمة، وفي الحقيقة كان ذنب أبي طالب الوحيد أنّه والد الشخصية الإسلامية الكبرى علي عليه السّلام، ونذكر هنا بإيجاز مختلف الأدلة التي تثبت إيمان أبي طالب، تاركين التفاصيل للكتب المختصة في الموضوع.

أ. كان أبو طالب يعلم، قبل بعثة الرّسول الأكرم ﷺ، أنّ ابن أخيه سوف يصل إلى مقام النبوة، فقد كتب المؤرخون أنّه في رحلته مع قافلة قريش إلى الشام اصطحب معه ابن أخيه محمّدا البالغ يومئذ الثّانية عشرة من العمر، وفي غضون الرحلة رأى منه مختلف الكرامات، ثمّ عندما مرّت القافلة بالراهب

(بحيرا) الذي أمضى سنوات طوالا في صومعته على طريق القوافل التجارية، استلف محمّد ﷺ نظر الراهب الذي راح يدقق في وجهه وملامحه، ثمّ التفت إلى الجمع سائلا: من منكم صاحب هذا الصبي؟ فأشار الجمع إلى أبي طالب الذي قال له: هذا ابن أخي، فقال بحيرا: إنّ لهذا الصبي شأنا، إنّه النّبي الذي أخبرت به وبرسالته الكتب السماوية، وقد قرأت فيها تفاصيل ذلك كله، ولقد كان أبو طالب قبل ذلك قد أدرك من الوقائع والقرائن التي رآها من ابن أخيه أنّه سيكون نبي هذه الأمّة، وبموجب ما يذكره الشهرستاني صاحب (الملل والنحل) وغيره من علماء السنة أنّ سماء مكّة قد جست بركتها عن أهلها سنة من السنين، فواجه الناس سنة ـ جفاف شديد، فأمر أبو طالب أنّ يأتوه بابن أخيه محمّد، فأتوه به وهو رضيع في قماطه، فوقف تجاه الكعبة، وفي حالة من التضرع والخشوع أخذ يرمي بالطفل ثلاث مرات إلى أعلى ثمّ يتلقفه وهو يقول: يا ربّ بحق هذا الغلام اسقنا غيثا مغيثا دائما هطلا، فلم يمض إلّا بعض الوقت حتى ظهرت غمامة من جانب الأفق وغطت سماء مكّة كلّها وهطل مطر غزير كادت معه مكّة أن تغرق، ثمّ يقول الشهرستاني: هذه الواقعة، التي تدل على علم أبي طالب بنبوة ابن أخيه ورسالته منذ طفولته تؤكّد إيمانه به، وهذا أبيات أنشدها أبو طالب بعد ذلك بتلك المناسبة:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم فهم عنده في نعمة وفواضل
وميزان عدل لا يخيس شعيرة ووزان صدق وزنه غير عائل

إنّ حكاية إقبال قريش على أبي طالب رحمه الله عند الجفاف، واستشفاع أبي طالب إلى الله بالطفل قد ذكرها غير الشهرستاني عدد آخر من كبار المؤرخين، وقد أورد العلّامة الاميني قدس سرّه صاحب كتاب (الغدير) هذه الحكاية وذكر أنّه نقلها من (شرح البخاري) و(المواهب اللدنية) و(الخصائص الكبرى) و(شرح بهجة المحافل) و(السيرة الحلبية) و(السيرة النبوية) و(طلبة الطالب)»ـ (الغدير)، ج ٧، ص ٣٤٦،».

ب. إضافة إلى كتب التّأريخ المعروفة، فإنّ بين أيدينا شعرا لأبي طالب جمع في (ديوان أبي طالب)، ومنه الأبيات التّالية:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة وابشر بذاك وقر منك عيونا

ودعوتني وعلمت أنك ناصحي ولقد دعوت وكنت ثمّ أمينا

ولقد علمت بأنّ دين محمّد من خير أديان البرية دينا

كما قال أيضا:

ألم تعلموا أنا وجدنا محمّدا رسولا كموسى خط في أوّل الكتب

وإنّ عليه في العباد محبّة ولا حيف في من خصّه الله بالحبّ

يذكر ابن أبي الحديد طائفة كبيرة من أشعار أبي طالب (التي يقول عنها ابن شهر آشوب في (متشابهات القرآن) أنّها تبلغ ثلاثة آلاف بيت) ثمّ يقول: إن هذه الأشعار لا تدع مجالا للشك أنّ أبا طالب كان يؤمن برسالة ابن أخيه.

ج. ثمّة أحاديث منقولة عن رسول الله ﷺ تؤكّد شهادته بإيمان عمه الوفي أبي طالب، من ذلك ما ينقله لنا صاحب كتاب (أبو طالب مؤمن قريش) فيقول: عندما توفي أبو طالب رثاه رسول الله ﷺ وهو على قبره، قائلا: (وا أبتاه! وا أبا طالباه وا حزناه عليك! كيف أسلو عليك يا من ربيتني صغيرا، وأجبتني كبيرا، وكنت عندك بمنزلة العين من الحدقة والروح من الجسد)، وكثيرا ما كان رسول الله ﷺ يقول: (ما نالت منّي قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب)

د. من المتفق عليه أنّ رسول الله ﷺ قد أمر بقطع كل رابطة صحبة له بالمشركين، وكان ذلك قبل وفاة أبي طالب بسنوات، وعليه فإنّ ما أظهره رسول الله ﷺ من الحبّ والتعلق بأبي طالب يدل على أنّه كان يرى في أبي طالب تابعا لمدرسة التوحيد، وإلّا فكيف ينهى الآخرين عن مصاحبة المشركين، ويبقى هو على حبّه العميق لأبي طالب؟

هـ. في الأحاديث التي وصلتنا عن أهل البيت عليهم السّلام أدلة وافرة على إيمان أبي طالب وإخلاصه، ولا يسع المجال هنا لذكرها، وهي أحاديث تستند إلى الاستدلال المنطقي والعقلي، كالحديث المنقول عن الإمام زين العابدين عليه السّلام الذي قال ـ بعد أن سئل عن إيمان أبي طالب وأجاب الإيجاب ـ: (إنّ هنا قوما يزعمون أنّه كافر.. وا عجبا كل العجب! أيطعنون على أبي طالب أو على رسول الله ﷺ وقد نهاه الله أن تقرّ مؤمنة مع كافر في غير آية من القرآن (أي في أكثر من آية) ولا يشك أحد أن فاطمة بنت

أسد من المؤمنات السابقات، فإنّها لم تزل تحت أبي طالب حتى مات أبو طالب رضي الله عنه)

و. وإذا تركنا كل هذا جانبا، فإننا قد نشك في كل شيء إلّا في حقيقة كون أبي طالب كان على رأس حماة الإسلام ورسول الإسلام، وكانت حمايته تتعدى الحدود المألوفة بين أبناء العشيرة والعصبيات القبلية ولا يمكن تفسيرها بها، ومن الأمثلة الحيّة على ذلك حكاية (شعب أبي طالب) يجمع المؤرخون على أنّه عندما حاصرت قريش النّبي ﷺ والمسلمين محاصرة اقتصادية واجتماعية وسياسية شديدة وقطعت علائقها بهم، ظل أبو طالب الحامي والمدافع الوحيد عنهم مدّة ثلاث سنوات ترك فيها كل أعماله، وسار ببني هاشم إلى واد بين جبال مكّة يعرف بشعب أبي طالب فعاشوا فيه، وقد بلغت تضحياته حدا أنّه، فضلا عن بنائه الأبراج الخاصّة للوقوف بوجه أي هجوم قد تشنه قريش عليهم، كان في كل ليلة يوقظ رسول الله ﷺ من نومه ويأخذه إلى مضجع آخر يعده له ويجعل ابنه الحبيب إليه عليا عليه السّلام في مكانه، فإذا ما قال له ابنه علي عليه السّلام: يا أبة، إنّ هذا سيوردني موارد الهلكة، أجابه أبو طالب عليه السّلام: ولدي عليك بالصبر، كل حي إلى ممات، لقد جعلت فداء ابن عبد الله الحبيب، فيرد علي عليه السّلام: يا أبه، ما قلت لك ذلك خوفا من الموت في سبيل محمّد ﷺ، بل كنت أريدك أن تعلم مدى طاعتي لك واستعدادي للوقوف إلى جانب محمّد ﷺ.

٥. إنّنا نرى أن من يترك التعصب، ويقرأ ـ بغير تحيز ـ ما كتبه التّأريخ بحروف من ذهب عن أبي طالب، سيرفع صوته مع صوت ابن أبي الحديد منشدا:

ولولا أبو طالب وابنه ... لما مثل الدين شخصا وقاما

فذاك بمكّة آوى وحامى ... وهذا بيثرب جس الحماما

١٥. حسرة أهل النار عند الوقوف عليها

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [١٥] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧ ـ ٢٩]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

ابن مسعود:

روي عن عبد الله بن مسعود (ت ٣٢ هـ) أنّه قال: يردون النار، ويصدرون منها بأعمالهم[١].

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال:فأخبر الله سبحانه أنهم لو ردّوا لم يقدروا على الهدى، فقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾، أي: ولو ردّوا إلى الدنيا لحيل بينهم وبين الهدى، كما حلنا بينهم وبينه أول مرة وهم في الدنيا[٢].

٢. روي أنّه قال:كل شيء في القرآن ﴿وَلَوْ﴾ فإنّه لا يكون أبدا[٣].

الباقر:

روي عن الإمام الباقر (ت ١١٤ هـ) أنّه قال: إن الله قال لماء: كن عذابا فراتا أخلق منك جنتي وأهل طاعتي، وقال لماء: كن ملحا أجاجا أخلق منك ناري وأهل معصيتي، فأجرى الماءين على الطين، ثم قبض قبضة بهذه وهي يمين، فخلقهم خلقا كالذر، ثم أشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم وعليكم طاعتي؟ قالوا: بلى، فقال للنار: كوني نارا، فإذا نار تأجج، وقال لهم: قعوا فيها، فمنهم من أسرع، ومنهم

---

(١) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٧٨.

(٢) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٧٩.

(٣) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٧٩.

من أبطأ في السعي، ومنهم من لم يبرح مجلسه، فلما وجدوا حرها رجعوا، فلم يدخلها منهم أحد، ثم قبض قبضة بهذه، فخلقهم خلقا مثل الذر، مثل أولئك، ثم أشهدهم على أنفسهم مثل ما أشهد الآخرين، ثم قال لهم: قعوا في هذه النار، فمنهم من أبطأ، ومنهم من أسرع، ومنهم من مر بطرفة عين، فوقعوا فيها كلهم، فقال: اخرجوا منها سالمين، فخرجوا لم يصبهم شيء، وقال الآخرون: يا ربنا، أقلنا نفعل كما فعلوا، قال قد أقلتكم، فمنهم من أسرع في السعي، ومنهم من أبطأ ومنهم من لم يبرح مجلسه، مثل ما صنعوا في المرة الاولى، فذلك قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[1].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) أنّه قال: ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ من أعمالهم، ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ يقول: ولو وصل الله لهم دنيا كدنياهم التي كانوا فيها؛ لعادوا إلى أعمالهم أعمال السّوء التي كانوا نهوا عنها[2].

السّدّيّ:

روي عن إسماعيل السّدّيّ (ت ١٢٧ هـ) أنّه قال: ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾، يقول: بدت لهم أعمالهم في الآخرة التي أخفوها في الدنيا[3].

الصادق:

روي عن الإمام الصادق (ت ١٤٨ هـ) أنّه قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ إنهم ملعونون في الأصل[4].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١ . روي أنّه قال: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ يا محمد ﴿إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ يعني: كفار قريش؛ هؤلاء الرؤساء

(١) تفسير العيّاشي ١/ ٣٥٨.
(٢) عبد الرزاق ١/ ٢٠٧.
(٣) ابن جرير ٩/ ٢١٢.
(٤) تفسير العيّاشي ١/ ٣٥٨.

تمنوا، ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ يعني: القرآن بأنّه من الله، ﴿وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: المصدّقين بالقرآن[1].

٢. روي أنّه قال: ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾، وذلك أنّهم حين قالوا: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ أوحى الله إلى الجوارح فشهدت عليهم بما كتموا من الشرك، فذلك قوله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ﴾ يعني: ظهر لهم من الجوارح ﴿مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ بألسنتهم من قبل أن تنطق الجوارح بالشرك، فتمنّوا عند ذلك الرجعة إلى الدنيا، ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ إلى آخر الآية، فأخبر الله عنهم، فقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا﴾ إلى الدنيا كما تمنوا وعمّروا فيها ﴿لَعَادُوا لِمَا﴾ يعني: لرجعوا لما ﴿نُهُوا عَنْهُ﴾ من الشرك والتكذيب، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في قولهم حين قالوا: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالقرآن[2].

٣. روي أنّه قال: لمّا أخبر النبي ﷺ كفار مكة بالبعث كذّبوه، ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد الموت[3].

ابن العلاء:

روي عن أبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ) أنّه قال: ما سمعت أحدا من العرب يقول: أوقفت الشيء ـ بالألف ـ، قال إلا أنّي لو رأيت رجلا بمكان، فقلت: ما أوقفك هاهنا؟ ـ بالألف ـ لرأيته حسنا[4].

ابن زيد:

روي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢ هـ) أنّه قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ ﴿وَقَالُوا﴾ حين يردّون: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[5].

الماتريدي:

---

(١) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٦.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٧.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٧.

(٤) ابن جرير ٩/ ٢٠٧.

(٥) ابن جرير ٩/ ٢١٣.

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾:

أ. عن الحسن قال سترى إذ وقفوا على النار.

ب. وفي حرف ابن مسعود: (ولو ترى إذ عرضوا على النار) وكذلك في: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾، إذ عرضوا على ربهم، ولولا ما روي عن ابن مسعود وقفوا: عرضوا على النار، وإلا يجوز أن يحمل قوله: ﴿إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾، أي: عند النار، أو في النار على مكان (عند)، أو مكان (في)، وذلك جائز في اللغة، ولكن ما روي عن ابن مسعود أقنعنا عن ذلك.

٢. ثم يحتمل أن يكون هذا صلة قوله: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ كأنه يقول: ولو ترى يا مُحَمَّد إذ وقفوا على النار لرحمتهم؛ لما كان منهم من القول فيك ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، وهكذا الواجب على كل أحد أن يرحم عدوه إذا كان عاقبته النار والتخليد فيها، وألا يطلب الانتقام منه بما كان منه بمكانةٍ، وأن يقال: ولو تراهم إذ وقفوا على النار من الذل والخضوع لرحمتهم بما كان منهم من التكبر والاستكبار في الدنيا، وهو كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ الآية، أخبر عن ذلهم وخضوعهم في الآخرة بما كان منهم في الدنيا من الاستكبار والاستنكاف؛ فعلى ذلك يخبر نبيّه عما يصيبهم من الذلّ بتكبرهم في الدنيا.

٣. ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، تمنوا عند معاينتهم العذاب العود والرد إلى الدنيا، ثم فيه دليلان:

أ. أحدهما: أنهم عرفوا أن ما أصابهم إنما أصابهم، بتكذيبهم الآيات وتركهم الإيمان حيث قالوا: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾.

ب. الثاني: أن الإيمان هو التصديق الفرد لا غير؛ لأنهم إنما فزعوا عند معاينتهم العذاب فتمنوا الرد والعود إلى الدنيا؛ لأن يكونوا من المؤمنين، ولم يفزعوا إلى شيء آخر من الخيرات ـ دل أن الإيمان هو التصديق الفرد لا غير، وأنه ضد التكذيب، والتكذيب هو درد فعلى ذلك التصديق.

---

(١) تأويلات أهل السنة: ٤/ ٥٣.

٤. ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ قيل فيه وجوه:

أ. قال بعضهم: قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾، إنها نزل في المنافقين، يدل على ذلك قوله: ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾، وهو سمة أهل النفاق أنهم كانوا يظهرون الموافقة للمؤمنين، ويضمرون الخلاف، ويخفون العداوة لهم.

ب. ويحتمل قوله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ ورؤساؤهم كانوا عرفوا في الدنيا أنه رسول، وأن ما ﴿أَنْزَلَ﴾ عليه هو من ربه، وعرفوا أن البعث حق، لكنهم أخفوا ذلك على أتباعهم، وستروه، ثم ظهر ما كانوا يخفون على أتباعهم.

ج. وقيل: قوله: ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ وذلك أنهم حين قالوا: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾

٥. ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾:

أ. يحتمل قوله: ﴿وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ أي: حبسوا إذ لو وقف حبس، والنار لا يوقف عليها، بل يكون فيها ما قال عز وجل: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾، وقال: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾

ب. ويحتمل الوقف عندها قبل الدخول في حال الحساب للمساءلة؛ كقوله: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ الآية، ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ أي: لو ترى ذلهم وخضوعهم، كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ﴾

٦. لم يذكر جواب (لو) في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾:

أ. وقد يترك جواب ﴿لَوْ﴾ لما يعلم ربما يعلم بالتأمل أو بالذكر؛ كقوله: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾، بمعنى ظننتم، أو على ما ذكر في موضع آخر؛ نحو قوله: ﴿قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ وكذلك قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾، وغير ذلك، فلعل معناه: لو ترى ذلهم بعد استكبارهم لرحمتهم على ما هم عليه، ولهان عليك التصبر لأذاهم، ولأشفقت عليهم.

ب. ويحتمل قوله: ولو ترى ما ينزل بهم من نقمة الله، ويحل بهم من عذابه، لعلمت أن القوة لله

جميعًا، وأنه بحلمه ورحمته يملي لهم ويسترجعهم؛ كقوله: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لله جَمِيعًا﴾.

ج. ويحتمل أن يكون جوابه فيما ذكر من تمنيهم العود، وندامتهم على ما سلف منهم، وشدة تلهفهم على صنيعهم لرأيت ذلك أمرًا عظيمًا، وجزاء بالغًا، لما يكون ما ينزل بهم أعظم عندك مما تلقى منهم.

د. وقد يخرج الخطاب لرسول الله على تضمن تنبيه كل مميز وتبصير كل متأمّل.

٧. قوله عز وجل: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾:

أ. قيل: إلى الدنيا.

ب. وقيل: إلى المحنة من حيث لا يحتمل كون الدنيا بعد كون الآخرة، لكن هذا تكلف تحقيق مراد قوم ظهر سفههم، ولعله ليس عندهم هذا التمييز، أو يقولون سفها كما قالوا كذبًا بقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

٨. ﴿بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾:

أ. قال الحسن: بدين ربنا.

ب. وقال قوم: بحجج ربنا، فيكون في الآية اعتراف أنهم على التعنت كذبوا في الأوّل لا على الجهل، وإن كان ثم آيات عاندوها، وهم قوم قد سبق من الله الخبر عنهم مما فيه العناد منهم؛ كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَالله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وذلك يدل على تعنتهم في القول؛ ليتخلصوا عما بلوا بجميع ما يحتمل وسعهم، لا أن ذلك كذلك في قلوبهم؛ لذلك قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

٩. ثم دل قوله: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أنهم قد عرفوا أن الإيمان هو التصديق لوجهين:

أ. أحدهما: أنهم جعلوا الإيمان مقابل التكذيب؛ ليعلم أنه التصديق.

ب. الثاني: أنهم ذكروا الآيات، والآيات يكذب بها ويصدق لا أن يعمل.

١٠. وبعد، فإن الذي في حد إمكان الإتيان مما فات هو التصديق؛ إذ مشكلة الغير لو توهم الأمر ليوجد ما سبق من الترك والتصديق لو أمر، فهو لما سبق من التكذيب على أنه أجيع ألا يؤمر من آمن بقضاء شيء مما فات، فثبت أنهم أرادوا به التصديق، وفيه أنه اسم لذلك حتى عرفه أهله وغير أهله معرفة واحدة.

١١. ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ قيل فيه بوجوه:

أ. فقال بعضهم: إنه، يخرج على أوجه:

• أحدها: على أن الآية في أهل النفاق أظهرت ما قد أضمروا من الكفر.

• الثاني: أن تكون الآية في رؤساء الكفرة العلماء بالبعث، وبأن الرسل تكون من البشر، وألا شريك لله، فبدا للأتباع ما كان الرؤساء يخفون في الدنيا.

ب. ويحتمل: وبدا لهم من صنيعهم ما قد أسروه وأضمروه في أنفسهم ظنوا أنه لا يطلع على ذلك أحد، وذلك كقوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾، وقوله: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾، وغير ذلك.

ج. ويحتمل: ما كانوا يخفون من الخلق، أو بدا لهم ذلك بالجزاء.

١٢. ﴿وَلَوْ رُدُّوا﴾ أي: إلى ما تمنوا أن يردوا إليه، ﴿لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾، أخبر الله عن علمه بما قد أسروه في ذلك الوقت إنما كان في علمه أن يكون، وإن كان من حكمه ألا يردوا في ذلك وأن الآية لا تضطر صاحبها، ولا قوة إلا بالله:

أ. وقال قوم: إن الخلود يلزم في النار بما هم في علم الله أنهم يلزمون ما هم عليه لو مكثوا للأبد.

ب. وقال قوم: لم يجز لزوم العذاب بما يعلم الله من العناد من أحد لو امتحن بلا محنة ولا خلاف، فعلى ذلك أمر الخلاف، لكن الآية في خاص منهم، وهم الذين اعتدوا وعاندوا الحق بعد الوضوح، على ما ذكر في كثير من الكفرة أنهم لا يؤمنون أبدا، ثم أمهلهم على ذلك، وهذا يبين أنه ليس يمنع الإعادة لما يعودون له لو كان يحتمل في الحكمة الإعادة؛ إذ قد أمهل وأبقى على العلم بذلك، فعلى ذلك الإفادة، لكنه أخبر عن تعنتهم.

ج. ثم ظنت المعتزلة أن الله لو علم أنهم يؤمنون لردهم إلى ذلك وإذ بين أنهم لا يؤمنون فيستدلون بهذا على أنه ليس لله قبض روح مَنْ يعلم أنه لو لم يقبضه يؤمن يومًا من الدهر وقد بينا نحن أن ذلك لا يجب، وإن كان أُولَئِكَ في علم الله لن يعودوا إلى ذلك بما قد يترك في الدنيا من يعلم أنه يلزم الكفر، وينجي عن المهالك من يعلم أنه يعود، ثم قد يترك من يعود إلى الكفر على وجود ما به النجاة عنه.

١٣. وبعد، فإن الله تعالى قال: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ فبين أنه لم يبسط لئلا يبغوا، وقال: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ﴾ الآية، ثم قد جعل لكثير

ممن ضل بهم قوم نحو الفراعنة ولكثير منهم وقد بغوا في الأرض؛ إذ لو لم يكن البسط لفرعون لم يكن ليدعي الألوهية لكن الأول: طريق الفضل يفضل به، والثاني: طريق العدل وما يجوز في الحكمة، فعلى ذلك الإمهال، يبين لك ما كان الله يأمر بقتل من لعله يؤمن لو أمهل بما ندب إلى القتال، ولا يحتمل أن يأمر في قتل من ليس له قبض روحه، وقد يبقى من به يهلك ويضل، وإن قبض كثيرًا منهم بما يضل به لو أبقى؛ كما قال: ﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾.

١٤. وظنت الخوارج بهذه الآية أن كل من يرتكب كبيرة يظهر منه كذبه فيما وعد أنه لا يفعل إذ الله سماهم كذبة بما في علمه أنهم يعودون إلى ذلك، فإذا تقرر عندنا من أحد ركوب ما كان في عهده وإيمانه أنه لا يرتكب يظهر به كذبه، وذلك خطأ، لما لو كان كذلك لكان الصغائر والكبائر واحدًا، ومن كذب في أمر الصغائر في العهد أو رد يكفر، ومن ارتكب الصغيرة، لم يصر كذلك، فعلى ذلك الكبائر، لكن الآية تخرج على أوجه:

أ. أحدها: أنها في قوم أرادوا بذلك دفع العذاب لا أن عزموا على ما ذكروا، دليله فتنتهم بقوله: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

ب. الثاني: أنه ذكر كذبهم، أنطق الله جوارحهم، فشهدت عليهم بما كتموا من الشرك، فتمنوا عند ذلك العود والرد.

ج. ويحتمل: ﴿بَدَا لَهُمْ﴾: ظهر لهم ما كانوا يخفون من نعت مُحَمَّد ﷺ وصفته في الدنيا وكتموه.

١٥. ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ تعلق بظاهر هذه الآية الخوارج والمعتزلة:

أ. أما المعتزلة فإنهم قالوا: إنهم لما طلبوا الرد ولم يردهم لما علم أنه لو ردهم لعادوا إلى التكذيب ثانيًا، ولو علم منهم أنهم لا يعودون لكان يردهم، فدل أنه إنما لم يردهم لما علم منهم أنهم يعودون إلى ما كانوا من قبل، فيستدلون بظاهر هذه الآية على أن الله لا يفعل بالعبيد إلا الأصلح لهم في الدِّين، وقالوا: لو علم منهم الإيمان لكان لا يجوز له ألا يردهم، ومن قولهم: إنه إذا علم من كافر أنه يؤمن في آخر عمره لم يجز له أن يميته، وغير ذلك من المخاييل والأباطيل.

ب. وقالت الخوارج: أخبر أنه لو ردهم لعادوا لما نهوا عنه، وسماهم بالقول كاذبين بما في علمه أنهم لا يفعلون بما يقولون، فعلى ذلك كل صاحب كبيرة إذا كان في اعتقاده الذي أظهره أنه لا يأتي بها، فإذا

أتى بها يصير فيما اعتقده ألا يأتي بها كاذبًا؛ ولذلك يجعلون أصحاب الكبائر كذبة في القول الأول أنهم لا يأتون بها، وعلى ذلك كانت المبايعة بقوله عز وجل: ﴿يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللهِ﴾ الآية، فإذا سرقن صرن كاذبات في البيعة، كما جعل من ذكر كاذبًا في الوعد إذا أخلف، وعلى ذلك يجعلونه كافرًا.

١٦. ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾:

أ. يحتمل ﴿لَكَاذِبُونَ﴾ أي: ليكذبون لو ردوا، أو أنهم لكاذبون في قولهم: ﴿وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يضمرون أنهم لا يؤمنون؛ كقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾، يقولون: إنك لرسول الله، لكنهم لما أضمروا خلاف ذلك في قلوبهم سماهم كاذبين، فعلى ذلك هَؤُلَاءِ لما أضمروا في أنفسهم التكذيب وإن ردوا فهم كاذبون في ذلك، ﴿وَلَوْ رُدُّوا﴾: قيل: إلى الدنيا، ولكن لو ردوا إلى المحنة ثانيًا لعادوا لما نهوا عنه.

ب. الثاني: أنه ذكر كذبهم بما اعتادوا العناد، وظهر منهم الجحود في القديم، فبذلك سماهم كذبة، كما سمي أهل النار كفرة بما كان من كفرهم قبل أن يصيروا إليها؛ فعلى ذلك هذا.

ج. الثالث: أن يكون على الخبر عن عاقبتهم أنهم يصيرون كاذبين لو ردوا، وعرض عليهم ذلك، وبعث إليهم الرسل بالآيات، لا أن يكذبوا في ذلك الوعد.

١٧. ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾، قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ﴾ يحتمل ﴿هِيَ﴾: الحياة الدنيا، ويحتمل ﴿هِيَ﴾ الدنيا، ثم هذا القول:

أ. يحتمل أن يكون من الدهرية؛ لأنهم ينكرون البعث والحياة بعد الموت، ويقولون: إن هذا﴾ الخلق كالنبات ينبت ثَم يتلاشى؛ فعلى ذلك الخلق يموتون ويصيرون ترابًا، ثم يحيون في الدنيا؛ كقوله: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾.

ب. ويحتمل أن هذا القول كان من مشركي العرب لما لم يروا إلا الدهر، ولم يشاهدوا غيره، فظنوا أنه ليس يهلكهم إلا ذلك الدهر الذي تدور الدنيا عليه، فإن كان ذلك منهم، فإنما كان ذلك من كبرائهم ورؤسائهم على علم منهم بذلك، أي: بالبعث، يلبسون ذلك على السفلة والأتباع؛ ليكونوا أشد اتباعًا لهم وانقيادًا؛ لأنهم لو أعلموا الأتباع بالبعث بعد الموت لعلهم يتركون طاعتهم واتباعهم؛ لما يشتغلون بالاستعداد لذلك والعمل له، ففي ذلك ترك اتباعهم وطاعتهم.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ فيه ثلاثة أوجه:

أ. أحدها: عاينوها، ومن عاين الشيء فقد وقف عليه.

ب. الثاني: أنها كانت من تحتهم وهم فوقها، فصاروا وقوفاً عليها.

ج. الثالث: أنهم عرفوها بالدخول فيها، ومن عرف الشيء فقد وقف عليه.

د. وذكر الكلبي وجهاً رابعاً: أن معناه ولو ترى إذ حُبِسُوا على النار.

٢. ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تمنوا الرد إلى الدنيا التي هي دار التكليف ليؤمنوا ويصدقوا، والتمني لا يدخله صدق ولا كذب، لأنه ليس بخبر.

٣. ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ فيه ثلاثة أقاويل:

أ. أحدها: بدا لهم وبال ما كانوا يخفون.

ب. الثاني: بدا لهم ما كان يخفيه بعضهم عن بعض، قاله الحسن.

ج. الثالث: بدا للأتباع مما كان يخفيه الرؤساء.

٤. ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ يعني ولو ردوا إلى ما تمنوا من الدنيا لعادوا إلى ما نهوا عنه من الكفر، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيه قولان:

أ. أحدهما: أنه خبر مستأنف أخبر الله به عن كذبهم لا أنه عائد إلى ما تقدم من تمنّيهم، لعدم الصدق والكذب في التمنِّي.

ب. الثاني: ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ يعني في الإخبار عن أنفسهم بالإيمان إن رُدُّوا.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. قوله تعالى: ﴿إِذْ وُقِفُوا﴾ يحتمل ثلاثة أوجه:

---

(١) تفسير الماوردي: ٢/ ١٠٦.

(٢) تفسير الطوسي: ٤/ ١٠٨.

أ. أحدها: أن يكون عاينوها ووردوها قبل أن يدخلوها، ويجوز أن يكونوا أقيموا عليها نفسها.

ب. الثاني: أن يكونوا عليها وهي تحتهم.

ج. ثالثها: أن يكون معناه دخلوها فعرفوا مقدار عذابها كما يقول القائل: قد وقفت على ما عند فلان، أي فهمته وتبينته، قال الكسائي: يقال: وقفت الدابة وغيرها إذا حبستها ـ بغير ألف ـ وهي لغة القرآن، وهو الأفصح، وكذلك وقفت الأرض إذا جعلتها صدقة، وقال أبو عمرو ما سمعت أحداً من العرب يقول: أوقفت الشيء بالألف إلا أني لو رأيت رجلاً بمكان، فقيل له ما أوقفك هاهنا لرأيته حسناً.

٢. استدل أبو علي بهذه الآية:

أ. على أن القدرة قبل الفعل خلافاً للمجبرة بأن قال تمنوا الرد إلى دار الدنيا إلى مثل الحالة التي كانوا عليها، ولا يجوز من عاقل أن يتمنى أن يرد إلى الدنيا ويخلق فيه القدرة الموجبة للكفر، لأن ذلك لا يخلصه من العذاب بل يؤديه إلى حالته التي كان عليها، وهذا ضعيف، لأن لقائل أن يقول: إنهم تمنوا الرد ورفع التكذيب وحصول الإيمان بأن تحصل لهم قدرة الإيمان، ولا تحصل لهم قدرة التكذيب، وليس في الآية أنهم سألوا الرد إلى الحالة التي كانوا عليها، فلا متعلق في ذلك.

ب. واستدل أيضاً على أنه إذا كان المعلوم من حال الكافر أنه يؤمن وجب تبقيته بأن قال أخبر الله أنه إنما لم يردهم لأنهم ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ وظاهر ذلك يقتضى أنه لو علم أنه لو ردهم لآمنوا، لوجب أن يردهم، وإذا وجب أن يردهم إذا علم أنهم يؤمنون بأن يجب تبقيتهم إذا علم أنهم يؤمنون أولى، وهذا أيضاً ضعيف، لأن الظاهر أفاد أنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وليس فيه أنهم لو ردوا لآمنوا أو ما حكمهم بل هو موقوف على الدلالة، لأنه دليل الخطاب على أن غاية ما فيه أنه يفيد أنه لو علم من حالهم أنه متى ردهم آمنوا يردهم، فمن أين أن ذلك واجب عليه!؟ وهل هذا إلا كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ في أنه لا خلاف بين أهل العدل أنه كان يجوز له أن يعذب وإن لم يبعث رسولا بأن لا تقتضي المصلحة بعثته ويقتصر بهم على التكليف العقلي، فإنهم متى عصوا كان له أن يعذبهم فلا شبهة في الآية.

٣. ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾:

أ. معناه من عقاب الله فعرفوه معرفة من كانوا يسترونه عنه.

ب. وقال قوم: بدأ لبعضهم من بعض ما كان علماؤهم يخفونه عن جهالهم وضعفائهم مما في كتبهم

فبدا للضعفاء عنادهم.

ج. وقيل: معناه بل بدأ من أعمالهم ما كانوا يخفونه، فأظهره الله وشهدت به جوارحهم.

د. وقال الزجاج: ظهر للذين أتبعوا الغواة ما كان الغواة يخفونه من أمر البعث والنشور، لأن المتصل بهذا قوله: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ لنجزى على المعاصي.

٤. ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾:

أ. قال بعضهم: لو ردوا ولم يعاينوا العذاب لعادوا كأنه ذهب إلى أنهم لم يشاهدوا ما يضطرهم إلى الارتداع، وهذا ضعيف، لأن هذا القول يكون منهم بعد أن يبعثوا ويعلموا أمر القيامة ويعاينوا النار بدلالة قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ وهذه الآيات كلها في المعاندين، لأنه قال في أولها: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ ثم قال بعد ذلك ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾

ب. وقال أبو علي الجبائي: الآية مخصوصة بالمنافقين وظهر لهم ما كانوا يخفونه من كفرهم الذي كانوا يضمرونه، قال: والآية الأولى وإن كان ظاهرها يقتضي جميع الكفار والمنافقون داخلون فيهم فيجوز أن يخبر عنهم بهذا الحكم.

ج. قال: ويحتمل أن يكون أراد بها الكافرين الذين كان النبي يخوفهم بالعذاب على كفرهم فلم يؤمنوا بذلك لكن دخلهم الشك والخوف وأخفوه عن ضعفائهم وعوامهم، فإذا كان يوم القيامة ظهر ذلك وإن أخفوه في الدنيا فيتمنون حينئذ الرد إلى حال الدنيا.

د. وقيل: ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ معنى (يخفون) يجدونه خافياً، ومعنى (بل بدا) ليس تمنيهم الرجعة وإظهار الإنابة حقاً للإيمان الصحيح، بل لما شاهدوه من العذاب الأليم، وقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ معناه إنهم لو ردوا إلى حال التكليف والى مثل ما كانوا عليه في الدنيا من المهلة والتمكين من الإيمان والتوبة والقدرة على ذلك، لعادوا لمثل ما كانوا عليه من الكفر الذي نهوا عنه.

٥. ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾:

أ. قد بينا أن المراد به الحكاية عن حالهم في الدنيا وأنهم كانوا فيها كاذبين في كفرهم وتكذيبهم رسول الله والقرآن.

ب. وقال البلخي: هذا الكذب وقع منهم في الحال وإن لم يعلموه كذباً، لأنهم أخبروا عن عزمهم

أنهم لو ردوا لكانوا مؤمنين، وقد علم الله أنهم لو عادوا إلى الدنيا لعادوا إلى كفرهم، وكان إخبارهم بذلك كذباً، وإن لم يعلموه كذلك، لأن مخبره على خلاف ما أخبروه وهذا الذي ذكروه ضعيف، لأنهم إذا أخبروا عن عزمهم على الإيمان إن ردوا أو كانوا عازمين عليه لا يكونون كاذبين، لأن مخبر خبرهم العزم، وهو على ما أخبروا فكيف يكذبون فيه، والأول أقوى.

ج. فأما الكذب مع العلم بأنه ليس كذلك، فلا خلاف بين أبي علي وأبي القاسم أنه لا يجوز أن يقع منهم في الآخرة، لأن أهل الآخرة ملجؤون إلى ترك القبيح، لأنهم لو لم يكونوا ملجئين لوجب أن يكونوا مزجورين من القبيح بالأمر والنهي والثواب والعقاب، وذلك يوجب أن يكون ذاك التكليف، ولا خلاف أنه ليس هناك تكليف، وإن لم يزجروا ولم يلجئوا إلى تركه كانوا مغريين بالقبيح وذلك فاسد، فإذاً لا يجوز أن يقع منهم القبيح بحال.

د. قال بعض المفسرين سئل النبي ﷺ فقيل له: ما بال أهل النار عملوا في عمر قصير بعمل أهل النار فخلدوا في النار؟ وأهل الجنة عملوا في عمر قصير بعمل أهل الجنة فخلدوا في الجنة!؟ فقال: (إن الفريقين كان كل واحد منهما عازماً على أنه لو عاش أبداً عمل بذلك)

٦. ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أخبر الله تعالى في هذه الآية عن الكفار الذين ذكرهم في الآية الأولى، وبين أنهم قالوا لما دعاهم النبي ﷺ إلى الإيمان والإقرار بالبعث والنشور وخوفهم من العقاب في خلافه، وحذرهم عذاب الآخرة والحشر والحساب على سبيل الإنكار لقوله والتكذيب له ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ وعنوا أنه لا حياة لنا في الآخرة على ما ذكرت، وإنما هي هذه حياتنا التي حيينا بها في الدنيا وإنا لسنا بمبعوثين إلى الآخرة بعد الموت.

٧. قراءات ووجوه:

أ. قرأ حمزة ويعقوب وحفص (ولا نكذب.. وتكون) بالنصب فيهما، ووافقهم ابن عامر في (ونكون) الباقون بالرفع فيهما:

• فمن قرأ بالرفع احتملت قراءته أمرين:

● أحدهما: أن يكون معطوفاً على نرد، فيكون قوله: (نرد ولا نكذب.. ونكون) داخلاً في التمني ويكون قد تمني الرد وألا يكذب وأن يكون من المؤمنين، وهو اختيار البلخي والجبائي والزجاج.

• الثاني: أن يكون مقطوعاً عن الأول، ويكون تقديره يا ليتنا نرد ولا نكذب كما يقول القائل: دعني ولا أعود، أي فإني ممن لا يعود، فإنما يسألك الترك، وقد أوجب على نفسه ألا يعود ترك أو لم يترك، ولم يقصد أن يسأل أن يجمع له الترك وأن لا يعود، وهذا الوجه الذي اختاره أبو عمرو في قراءة جميع ذلك بالرفع، فالأول الذي هو الرد داخل في التمني وما بعده على نحو دعني، ولا أعود، فيكونون قد أخبروا على النيات أن لا يكذبوا ويكونوا من المؤمنين، واستدل أبو عمرو على خروجه من المتمني بقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فقال ذلك يدل على أنهم أخبروا بذلك عن أنفسهم، ولم يتمنوا، لأن التمني لا يقع فيه الكذب وإنما يقع في الخبر دون التمني.

• ومن نصب (نكذب.. ونكون) أدخلهما في التمني، لأن التمني غير موجب، فهو كالاستفهام والأمر والنهي والعرض، في انتصاب ما بعد ذلك كله من الأفعال إذا دخلت عليها الفاء أو الواو على تقدير ذكر المصدر من الفعل الأول، كأنه قال يا ليتنا يكون لنا رد، وانتفاء للتكذيب وكون من المؤمنين.

• ومن نصب (ونكون) فحسب، ورفع ﴿نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ﴾ يحتمل أيضاً وجهين:

أحدهما: أن يكون داخلاً في التمني، فيكون في المعنى كالنصب.

الثاني: أنه يخبر على النيات أن لا يكذب ردَّ أو لم يرد.

• ومن نصب ﴿وَلَا نُكَذِّبَ﴾ و﴿نَكُونَ﴾ جعلهما جميعاً داخلين في التمني كما أن من رفع وعطفه على التمني كان كذلك، سؤال وإشكال: كيف يجوز أن يتمنوا الرد إلى الدنيا وقد علموا عند ذلك أنهم لا يردون؟ قيل عن ذلك أجوبة:

• أحدها: قال البلخي: إنا لا نعلم أن أهل الآخرة يعرفون جميع أحكام الآخرة، وإنما نقول: أنهم يعرفون الله بصفاته معرفة لا يتخالجهم فيها الشك لما يشاهدونه من الآيات والعلامات الملجئة لهم إلى المعارف، وأما التوجع والتأوه والتمني للخلاص والدعاء بالفرج يجوز أن يقع منهم وأن تدعوهم أنفسهم إليه، وقال أبو علي الجبائي والزجاج: يجوز أن يقع منهم التمني للرد، ولأن يكونوا من المؤمنين، ولا مانع منه، وقال آخرون: التمني قد يجوز لما يعلم أنه لا يكون ألا ترى أن المتمني يتمنى أن لا يكون فعل ما قد فعله ومضى وقته، وهذا لا حيلة فيه، فعلى هذا قوله في الآية

• الثانية: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ يكون حكاية حال منهم في دار الدنيا، كما قال: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ

ذِرَاعَيْهِ﴾ وكما قال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وإنما هو حكاية للحالة الآتية.

ب. ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ أمال في الموضعين أبو عمرو وغيره وهي حسنة في أمثال ذلك، لأن الراء بعده الألف مكسورة وهو حرف كأنه مكرر في اللسان فصارت الكسرة فيه كالكسرتين، فحسن لذلك الإمالة.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. ﴿وُقِفُوا﴾ الوقف: مصدر وقَفَتِ الدابة وَوَقَفْتُها، فتتعدى مرة، ولا تتعدى أخرى، يقال: وقفت الدابة وقوفًا، وَقَفْتُها أنا وقفًا، ومنه: الوقف كأنه يوقف على حالة واحدة، ويُقال لمن يأتي شيئًا، ثم ينزع عنه: قد أوقف، قال الشيباني: كلمتهم أوقفت عنهم؛ أي سكت، وسمي الموقِف لوقوف الناس فيه، قال الطِّرِمَّاح:

جَامِحًا في غوايتي ثُمَّ أَوْقَفْ ... ت رضًا بالتُّقَى وذُوالْبِرِّ رَاضِي

أي: نزعت عنه.

ب. ﴿نُرَدُّ﴾ الرد: الرجوع إلى الحالة الأولى، ومنه: المرتد؛ لأنه يَرُدُّ نفسه إلى الكفر، والرد عماد الشيء الذي يرده به.

ج. ﴿بَدَا﴾ بدا يبدو، وفلان ذو بدوات إذا بدا له الرأي بعد الرأي، وبدا لي في هذا الأمر بدا، والبداء لا يجوز على الله تعالى؛ لأنه عالم بجميع الأشياء لم يزل ولا يزال.

د. ﴿يُخْفُونَ﴾ الإخفاء: خلاف الإظهار، وخفي الشيء يخفى، وأخفيته: إذا سترته إخفاء، وهو في خفية، ويقال: أخفيته: سترته، وخَفَيْتُهُ بغير ألف: أظهرته.

هـ. ﴿لَعَادُوا﴾ يقال: عاد: رجع، يعود عودًا وعودة، والمعاد: كل أمر يصير إليه، ومنه سميت القيامة معادًا، ومنه العادة؛ لأن صاحبها لا يزال عليها، ومنه العوادة: الطعام الذي أكل منه مرة، فأعيد

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/ ٥٢٦.

إليه، وعواد بمعنى عدة.

و. ﴿الدُّنْيَا﴾ الدَّنِيُّ: القريب غير مهموز، من دنا يدنو، وسميت الدنيا لدنوها، ودانيت بين الأمرين: قاربت بينهما.

ز. ﴿بِمَبْعُوثِينَ﴾ البعث: الإثارة، والبعث: النشأة الثانية: حين يبعث الله الخلق؛ أي يحييهم بعد موتهم.

٢. مما ذكر في علاقة الآية الكريمة بما قبلها:

أ. مما ذكر في علاقة قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ بما قبله:

- الآية تتصل بقوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾، عن الأصم.
- وقيل: بما قبله من الوعيد لهم، عن أبي مسلم.

ب. مما ذكر في علاقة قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بما قبله:

أ. قيل: بقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا﴾، على معنى: لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، ولقالوا: إن هي إلا حياتنا، وما بعثنا بعد الموت، عن ابن زيد، قال علي بن عيسى: وهذا لا يصح؛ لأنه لا يجوز مع كثرتهم جحد الضرورة، ويجوز أن يقال: لو رد كل واحد لقال ذلك، فيصح المعنى.

ب. وقيل: إنه يتصل بقوله: ﴿يُجَادِلُونَكَ﴾ وما بعده، وإنما يقولون ذلك ليكون مَنْ أجابهم إلى ما دعوا إليه أطوع في مخالفة الرسل إذا لم يخافوا معادًا، والرسل خوفوهم بذلك، في معنى قول الأصم.

ج. وقيل: الواو عطف، وهو يتصل بقوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ يعني يفعلون ذلك، ويقولون: لا دار غير الحياة الدنيا، عن أبي مسلم.

د. وقيل: إنه يتصل بما قبله حيث خوفهم النبي ﷺ بالحشر والعذاب، وبقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا﴾ ﴿فَقَالُوا﴾ على سبيل الإنكار ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾، عن أبي علي.

٣. مما روي في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾: قيل: إن النبي ﷺ خوفهم بالحشر والعذاب، فقالوا: إن هي إلا حياتنا، وأنكروا البعث، فنزلت الآية وما بعدها.

٤. بَيَّنَ عظم ما ينالهم في القيامة، وتمنيهم إلى الرجوع حسرةً على ما تقدم منهم، فقال سبحانه:

﴿وَلَوْ تَرَى﴾:

أ. قيل: يا محمد.

ب. وقيل: ولو ترى أيها السامع أو الإنسان.

٥. ﴿إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾:

أ. قيل: عاينوها، ومن عاين الشيء فقد وقف عليه.

ب. وقيل: وقوفهم عليها؛ لأنها مِنْ تحتهم وهم مِنْ فوقها.

ج. وقيل: عرفوا مالهم من العذاب بالدخول فيها، كما يقال، وقفت على ما عند فلان؛ أي: عرفته، ذكر الأوجه الثلاثة الزجاج.

د. وقيل ﴿عَلَى﴾ بمعنى ﴿فِي﴾، يعني وقفوا فيها.

هـ. وقيل: بمعنى ﴿عَلَى﴾؛ أي وقفوا على شفيرها، وهو وقوف جبر لا وقوف اختيار.

و. وقيل: حبسوا فيها.

٦. ﴿فَقَالُوا﴾ يعني الكفار حين عاينوا العذاب، ندموا على ما كانوا فعلوا وقالوا: ﴿يَالَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ إلى الدنيا ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ بحججه ﴿وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من المصدقين بالنبي ﷺ ودينه:

أ. قيل: يتمنون الرجوع ليسلموا من العذاب.

ب. وقيل: تمنوا أن لم يكونوا كذَّبوا.

٧. ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾:

أ. قيل: لم يتمنوا الإيمان على رغبة في ذلك، ولكن ظهر لهم الخفي من الثواب والعقاب، فأورثهم التمني.

ب. وقيل: لم يتمنوا عن صحة عزيمة لكن لما ظهر من وبال ضلالتهم، ومعنى قوله: ﴿بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ﴾ أي ظهر لهم ما كانوا يخفون.

ج. وقيل: ظهر على رؤوس الأشهاد ما كانوا يخفون من الكفر في الدنيا، وهم المنافقون، عن أبي علي.

د. وقيل: ظهر ما كان علماؤهم يخفون من حالهم، عن الأصم.

هـ. وقيل: ظهر لبعضهم من بعض ما كانوا يخفون، عن الحسن.

و. وقيل: ظهر من ثواب الله وعقابه ما كانوا يخفون عن بعضهم، فظهر ذلك اليوم، حكاه الأصم.

ز. وقيل: ظهر ما وجدوه خافيًا، عن أبي مسلم.

ح. وقيل: أظهر من عيوب أسرارهم ما كان يخفيه عليهم وقد علمه.

ط. وقيل: ظهر ما كانوا يخفون من أعمالهم جهلاً بها.

ي. وقيل: بدا لهم جزاء ما كانوا يخفون ووباله، عن المبرد.

ك. وقيل: بدا في الآخرة عنهم بأن نطقت جوارحهم، عن النضر بن شميل.

ل. وقيل: بدا لهم من أفعالهم بشهادة جوارحهم ما أخفوه في الآخرة بأن قالوا ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، عن أبي علي، وهذا لا يصح؛ لأنا قد بينا معناه، وأن أهل الآخرة لا يجوز عليهم الكذب، والمراد بالآية أنه ظهرت فضيحتهم، وتهتكت أستارهم، وبدا لهم سوء أعمالهم التي كانوا يخفونها في الدنيا.

٨. ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي لو ردوا إلى الدنيا من غير إلجاء لكان كالرد من النوم إلى اليقظة، فأما بعد المعاينة والعلم الضروري فلا يجوز الرد إلى حال التكليف للإلجاء الحاصل ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ من الكفر ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾:

أ. قيل: التمني لا يقع فيه الكذب، وإنما يقع في الخبر فالمعنى فيه أحد وجهين:

• أحدهما: إنهم لكاذبون لو أخبروا عن أنفسهم بالرجوع والإيمان.

• الثاني: إنهم لكاذبون فيما أخبروا به في الدنيا من تكذيب النبي ﷺ والقرآن؛ لأن أهل الآخرة لا يمكنون من الكذب، عن أبي علي، وهو اختيار القاضي.

ب. وقيل: إنهم أخبروا بذلك عن أنفسهم فكذبوا؛ لما ينالهم من الدهش، عن أبي بكر محمد بن علي وعلي بن عيسى، وقد بَيَّنَّا أنه غير صحيح.

٩. في أي شيء وقع التكذيب:

أ. أما على قراءة من قرأ بالرفع فلا نكذب ولا نؤمن خبران فكذبوا فيهما.

ب. وعلى قراءة من قرأ بالنصب: إن رُدِدنا لم نُكَذب، فهو بمعنى الخبر.

ج. وقيل: قالوا القولين، فكذبوا في أحدهما، وقد بينا أنه لا يجوز أن يكذبوا في الآخرة، والوجه ما

بَيَّنَّا من قبل.

١٠. ﴿وَقَالُوا﴾ يعني مَنْ تقدم ذكره من الكفار ﴿إِنْ هِيَ﴾:

أ. يعني لا حياة لنا في الآخرة كما وصف، وإنما حياتنا الدنيا التي حيينا فيها فقط، عن أبي علي.

ب. وقيل: لا شيء غير أمر الدنيا والحياة فيها، عن أبي مسلم.

١١. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ يعني، بعد الموت لا بعث ولا حشر.

١٢. تدل الآيات الكريمة على:

أ. أن الكافر يتمنى في الآخرة الرد إلى الدنيا والإيمان، وذلك يدل على أن تمني ما لا يكون يحسن ويقبح.

ب. أن الإيمان فعلهم، وأنهم قادرون عليه، لولا ذلك لما صح تمنيهم.

ج. أنهم لا يردون وأنهم لو ردوا لما آمنوا.

د. أنه لو علم منهم الإيمان عند الرد لردوا، وقد استدلّ شيخنا أبو علي بالآية على أن من يعلم أنه يؤمن يجب تيقنه على ما يذهب إليه في ذلك، وليس كذلك؛ لأن في الآية أنهم لو ردوا لعادوا، وليس فيها لو لم يعودوا هل يجب الرد أم لا، ولا خلاف أن تبقية مَنْ يعلم أنه يَكْفُرُ تجوز، وتبقية من يعلم أنه يؤمن اختلفوا فيه، هل يجب الرد أم لا؟ قال أبو علي: يجب، وقال أبو هاشم: لا؛ لأن ابتداء التكليف تَفَضُّل، سؤال وإشكال: كيف يجوز الرد مع حصول علم الضرورة؟ والجواب: ما هذا حاله لا يجوز أن يرد ولو رد من الموت إلى الحياة فلم يحصل لهم العلم بالدين ضرورة.

هـ. فساد قولهم في إنكار البعث، والتحذير عن مثل حالهم وأن يُنالَوا ما نالهم.

و. أن ذلك القول حادث من جهتهم حتى يصح توبيخهم فيصح قولنا في المخلوق.

١٣. قراءات ووجوه:

أ. قراءة العامة ﴿وُقِفُوا﴾ بضم الواو وكسر القاف على ما لم يسم فاعله من الوقف، وقرأ ابن السَّمَيْقَع ﴿وُقِفُوا﴾ بفتح الواو والقاف على أن الفعل مضاف إليهم من الوقوف.

ب. قرأ ابن عامر ﴿نُرَدُّ﴾ و﴿نُكَذِّبُ﴾ بالرفع فيهما، وقرأ الباقون في الثلاثة بالرفع، اتفقوا في رفع ﴿نُرَدُّ﴾، واختلفوا فيما بعده، أمَّا الرفع فعلى الاستئناف؛ أي: ونحن لا نكذب بآيات ربنا ونكون من

المؤمنين، رددنا أو لم نرد، قال سيبويه: ومثله دعني ولا أعود؛ أي: لا أعود على كل حال تركتني أو لم تتركني، وتصديقه ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، فأما النصب فعلى الصرف؛ أي: ليتنا اجتمع لنا الأمران: الرد وترك التكذيب مع الإيمان فيجوز أن يكونوا قالوه على الوجهين جميعًا فأكذبوا على الوجه الأول، وأجاز الزجاج أن يكون الواو جوابًا للتمني كالفاء، فيصير بمنزلة لو رددنا لم نكذب ولكنا من المؤمنين، فأكذبوا في هذا، وهو مذهب بعض الكوفيين، ومن البصريين من لا يجيز الجواب إلا بالفاء، فأما ابن عامر فإنه قال تمنوا الرد، وإن لم يكونوا من المؤمنين، وأخبروا أنهم لا يكذبون بآيات ربهم إن ردوا إلى الدنيا.

١٤. مسائل لغوية ونحوية:

أ. جاز ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ و﴿لَوْ﴾ للماضي لتحقيق الأمر فيه، كأنه قد وقع، ومثله قوله: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ و﴿رُبَمَا﴾ لما مضى.

ب. جواب ﴿لَوْ﴾ محذوف، تقديره: لو رأيتهم وقد وقفوا على النار، وتكاملت وجوه الحزن عليهم، ورؤية أهل الجمع إياهم لرأيت أسوأ حال، ورأيت حسرة يا لها من حسرة، وقيل: لرأيت حالهم ثَمَّ خلافَ حالهم ههنا، وقيل: لرحمتهم، وقيل: لرأيتهم ينوحون، ويقولون: يا ليتنا، وهو الأقرب.

ج. ﴿إِذِ﴾ لما مضى، و﴿إِذَا﴾ لما يستقبل، ثم جاز وضع ذلك موضعه لتحقيق الأمر، كأنه وقع كما قال أبو النجم: ثُمَّ جَزَاهُ اللهُ عَنَّا إِذْ جَزَى.

د. سؤال وإشكال: لِمَ جاز جواب التمني بالفاء، ولا يجوز بـ ﴿ثُمَّ﴾؟ والجواب: بعض البصريين يجوز بالواو لأنه يقرب من الفاء ولا يجوز بـ ﴿ثُمَّ﴾ لأنه للتراخي، والجواب إنما يجب الثاني فيه عقيب الأول بلا فصل، وبعض البصريين لا يُجَوِّز بالواو أيضًا، وكذلك بعض الكوفيين، ويجوز بالفاء بالاتفاق، تقول: ليت لي مالاً فأعطيك، ولا يقال: ليت لي مالاً ثم أعطيك، بل أضرب عن الأول إلى الثاني.

هـ. ﴿أَنْ﴾ على أربعة أوجه: جحد كما في هذه الآية، ومخففة من الثقيلة، كقوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ وجزاء كقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ وصلة للتأكيد.

و. سؤال وإشكال: على كم وجه تكون ﴿إِلَّا﴾ في إعراب الاسم بعدها؟ والجواب: على وجهين: مسلطة، وملغاة، والاسم بعد المسلطة نصب أبدًا، والغالب عليه الإيجاب نحو: سار القوم إلا زيدًا، والملغاة دخولها كخروجها في الإعراب كهذه الآية.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. ﴿وُقِفُوا﴾ يقال: وقفت الدابة وقوفا، ووقف غيره يقفه وقفا، وحكي عن أبي عمرو أنه أجاز ما أوقفك هاهنا؟ مع اخباره أنه لم يسمعه من العرب.

ب. بدا يبدو بدوا: إذا ظهر، وفلان ذو بدوات: إذا بدا له الرأي بعد الرأي، وبدا لي في هذا الأمر بداء، والبداء لا يجوز على الله سبحانه، لأنه العالم بجميع المعلومات، لم يزل، ولا يزال.

٢. بين سبحانه ما ينال هؤلاء الكفار يوم القيامة من الحسرة، وتمني الرجعة، فقال: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ يا محمد، أو يا أيها السامع ﴿إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ فهذا يحتمل ثلاثة أوجه:

أ. جائز أن يكون المعنى عاينوا النار.

ب. وجائز أن يكونوا عليها وهي تحتهم.

ج. قال الزجاج: والأجود أن يكون معناه: أدخلوها فعرفوا مقدار عذابها، كما تقول في الكلام: قد وقفت على ما عند فلان، تريد: قد فهمته وتبينته.

٣. هذا وإن كان بلفظ الماضي، فالمراد به الاستقبال، وإنما جاز ذلك لأن كل ما هو كائن يوما مما لم يكن بعد، فهو عند الله قد كان، وأنشد في مثله:

ستندم إذ يأتي عليك رعيلنا ... بأرعن جرار كثير صواهله

فوضع إذ موضع إذا، وقد يوضع أيضا إذا موضع إذ كما قال الشاعر:

وندمان يزيد الكأس طيبا ... سقيت إذا تعرضت النجوم

﴿فَقَالُوا﴾ أي: فقال الكفار حين عاينوا العذاب، وندموا على ما فعلوا ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ إلى الدنيا ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ أي: بكتب ربنا ورسله، وجميع ما جاءنا من عنده ﴿وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني من جملة المؤمنين بآيات الله.

---

(١) تفسير الطبرسي: ٤/ ٢٨.

٤. ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ اختلف فيه على أقوال:

أ. أحدها: إن معناه بل بدا لبعضهم من بعض ما كان علماؤهم يخفونه عن جهالهم وضعفائهم، مما في كتبهم، فبدا للضعفاء عنادهم.

ب. ثانيها: إن المراد بل بدا من أعمالهم ما كانوا يخفونه، فأظهره الله، وشهدت به جوارحهم، عن أبي روق.

ج. ثالثها: إن المعنى ظهر للذين اتبعوا الغواة، ما كان الغواة يخفونه عنهم، من أمر البعث والنشور، لأن المتصل بهذا قوله: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ الآية، عن الزجاج، وهو قول الحسن.

د. رابعها: إن المراد بل بدا لهم وبال ما كانوا يخفونه من الكفر، عن المبرد، وكل هذه الأقوال بمعنى ظهرت فضيحتهم في الآخرة، وتهتكت أستارهم.

٥. ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي: لو ردوا إلى الدنيا، وإلى حال التكليف، كما طلبوه، لعادوا إلى ما نهوا عنه من الكفر والتكذيب.

٦. ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ سؤال وإشكال: إن التمني كيف يصح فيه الكذب، وإنما يقع الكذب في الخبر؟ والجواب:

أ. إن من الناس، من حمل الكلام كله على وجه التمني، وصرف الكذب إلى غير الأمر الذي تمنوه، وقال: إن معناه هم كاذبون فيما يخبرون به عن أنفسهم في الدنيا من الإصابة، واعتقاد الحق.

ب. أو يكون المعنى: إنهم كاذبون إن خبروا عن أنفسهم، بأنهم متى ردوا آمنوا، وإن كان ما حكي عنهم من التمني، ليس بخبر.

ج. وقد يجوز أن يحمل على غير الكذب الحقيقي بأن يكون المراد أنهم تمنوا ما لا سبيل إليه فكذب أملهم وتمنيهم، وهذا مشهور في كلام العرب يقولون: كذبك أملك لمن تمنى ما لم يدرك، وقال الشاعر:

كذبتم وبيت الله لا تنكحونها ... بني شاب قرناها تصر وتحلب

وقال آخر:

كذبتم وبيت الله لا تأخذونها ... مراغمة ما دام للسيف قائم

والمراد ما ذكرناه من الخيبة في الأمل والتمني.

٧. سؤال وإشكال: كيف يجوز أن يتمنوا الرد إلى الدنيا، وقد علموا أنهم لا يردون؟ والجواب: من وجوه:

أ. أحدها: إنا لا نعلم أن أهل الآخرة يعرفون جميع أ حكام الآخرة، وإنما نقول: إنهم يعرفون الله معرفة لا يتخالجهم فيها الشك، لما يشاهدونه من الآيات الملجئة لهم إلى المعارف، وأما التوجع والتمني للخلاص، والدعاء للفرج، فيجوز أن يقع منهم ذلك، عن البلخي.

ب. ثانيها: إن التمني قد يجوز فيما يعلم أنه لا يكون، ولهذا قد يقع التمني على أن لا يكون ما قد كان، وأن لا يكون فعل ما قد فعله، وتقضى وقته.

ج. ثالثها: إنه لا مانع من أن يقع منهم التمني للرد، ولأن يكونوا من المؤمنين، عن الزجاج.

د. وفي الناس من جعل بعض الكلام تمنيا، وبعضه إخبارا، وعلق تكذيبهم بالخبر دون ﴿لَيْتَنَا﴾ وهذا إنما ينساق في قراءة من رفع ﴿وَلَا نُكَذِّبَ﴾ ﴿وَنَكُونَ﴾ على معنى: فإنا لا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين، فيكونون قد أخبروا بما علم الله أنهم فيه كاذبون، وإن لم يعلموا من أنفسهم مثل ذلك، فلهذا كذبهم، وذكر أن أبا عمرو بن العلاء استدلّ على قراءته بالرفع في الجميع، بأن قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيه دلالة على أنهم أخبروا بذلك عن أنفسهم، ولن يتمنوه، لأن التمني لا يقع فيه الكذب.

٨. ثم أخبر سبحانه عن الكفار الذين ذكرهم قبل هذه الآية، وإنكارهم البعث والنشور، والحشر، والحساب، فقال: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ﴾ أي: ما هي ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ عنوا بذلك أنه لا حياة لنا في الآخرة، وإنما هي هذه التي حيينا بها في الدنيا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أي: لسنا بمبعوثين بعد الموت.

٩. قراءات ووجوه: قرأ ﴿وَلَا نُكَذِّبَ﴾ ﴿وَنَكُونَ﴾، بالنصب: حفص عن عاصم، وحمزة، ويعقوب، وقرأ ابن عامر، ﴿وَنَكُونَ﴾ بالنصب، وقرأ الباقون بالرفع فيهن.. قال أبو علي: من قرأ بالرفع جاز فيه وجهان: أحدهما: أن يكون معطوفا على ﴿نُرَدُّ﴾ فيكون قوله: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ﴾ ﴿وَنَكُونَ﴾ داخلا في التمني دخول ﴿نُرَدُّ﴾ فيه، فعلى هذا تمنى الرد وأن لا نكذب، والكون من المؤمنين، ويحتمل الرفع وجها آخر، وهو أن تقطعه من الأول، ويكون التقدير يا ليتنا نرد ونحن لا نكذب، ونكون، وقال سيبويه: هو على قولك فإنا لا نكذب كما يقول القائل: دعني ولا أعود أي: فإني ممن لا يعود، فإنما يسألك الترك، وقد أوجب على نفسه أن لا يعود، ترك أو لم يترك، ولم يرد أن يسألك أن تجمع له الترك، وأن لا يعود، وحجة

من نصب فقال: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ﴾ ﴿وَنَكُونَ﴾: أنه أدخل ذلك في التمني غير موجب، لأن التمني غير موجب، فهو كالاستفهام، والأمر، والنهي، في انتصاب ما بعد ذلك كله من الأفعال، إذا دخلت عليها الفاء، أو الواو، على تقدير ذكر المصدر من الفعل الأول، كأنه في التمثيل: يا ليتنا يكون لنا رد وانتفاء التكذيب والكون من المؤمنين، ومن رفع ﴿وَلَا نُكَذِّبَ﴾ ونصب ﴿وَنَكُونَ﴾: فإن الفعل الذي هو لا نكذب يحتمل وجهين أحدهما، أن يكون داخلا في التمني، فيكون في المعنى كالنصب، والآخر: أن يخبر على البتات أن لا نكذب، رد أو لم يرد، ومن نصبهما جميعا جعلهما داخلين في التمني.

١٠. مسائل لغوية ونحوية:

أ. ﴿وَلَوْ تَرَى﴾: جوابه محذوف، وتقديره لرأيت أمرا هائلا، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ يريد: إسكان هذا القرآن، وهذه الأجوبة إنما تحذف لتعظيم الأمر وتفخيمه ومثله قول امرئ القيس:

وجئتك لو شيء أتانا رسوله سواك، ولكن لم نجد لك مدفعا

وتقديره: لو أتانا رسول غيرك، لما جئنا.

ب. سؤال وإشكال: لم جاز ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا﴾ وإذ هي للماضي؟ والجواب:: إن الخبر لصحته، وصدق المخبر به، صار بمنزلة ما وقع.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ في معنى ﴿وُقِفُوا﴾ ستّة أقوال.

أ. أحدها: حبسوا عليها، قاله ابن السّائب.

ب. الثاني: عرضوا عليها، قاله مقاتل.

ج. الثالث: عاينوها.

د. الرابع: وقفوا عليها وهي تحتهم.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٢/ ٢١.

هـ. الخامس: دخلوا إليها فعرفوا مقدار عذابها، تقول: وقفت على ما عند فلان، أي فهمته وتبيّنته، ذكر هذه الأقوال الثّلاثة الزّجّاج، واختار الأخير، وقال ابن جرير: ﴿عَلَى﴾ هاهنا بمعنى (في)

و. السادس: جعلوا عليها وقفا، كالوقوف المؤبّدة على سبلها، ذكره الماورديّ.

٢. الخطاب بهذه الآية للنّبي ﷺ، والوعيد للكفّار، وجواب (لو) محذوف، ومعناه: لو رأيتهم في تلك الحال، لرأيت عجبا.

٣. ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائيّ، وأبو بكر عن عاصم برفع الباء من (نكذب)؛ والنّون من (نكون)، قال الزّجّاج: والمعنى أنّهم تمنّوا الرّدّ، وضمنوا أنّهم لا يكذّبون، والمعنى: يا ليتنا نردّ، ونحن لا نكذّب بآيات ربنا، رددنا أو لم نردّ، ونكون من المؤمنين، لأنّا قد عاينّا مالا نكذّب معه أبدا، قال: ويجوز الرّفع على وجه آخر، على معنى (يا ليتنا نرد)، يا ليتنا لا نكذّب، كأنّهم تمنّوا الرّدّ والتوفيق للتصديق، وقال الأخفش: إذا رفعت جعلته على مثل اليمين، كأنّهم قالوا: ولا نكذّب ـ والله ـ بآيات ربّنا، ونكون ـ والله ـ من المؤمنين، وقرأ حمزة إلا العجليّ، وحفص عن عاصم، ويعقوب: بنصب الباء من (نكذب)، والنون من (نكون)، قال مكّي بن أبي طالب: وهذا النّصب على جواب التّمني، وذلك بإضمار (أن)، حملا على مصدر (نرد)، فأضمرت (أن) لتكون مع الفعل مصدرا، فعطف بالواو مصدرا على مصدر، وتقديره: يا ليت لنا ردّا، وانتفاء من التّكذيب، وكونا من المؤمنين، وقرأ ابن عامر برفع الباء من (نكذب)، ونصب النون من (نكون)؛ بالرّفع قد بيّنا علّته، والنصب على جواب التّمني.

٤. ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ (بل): ها هنا ردّ لكلامهم، أي: ليس الأمر على ما قالوا من أنّهم لو ردّوا لآمنوا، وقال الزّجّاج: (بل) استدراك وإيجاب بعد نفي؛ تقول: ما جاء زيد بل عمرو.

٥. في معنى الآية أربعة أقوال:

أ. أحدها: بدا ما كان يخفيه بعضهم عن بعض، قاله الحسن.

ب. الثاني: بدا بنطق الجوارح ما كانوا يخفون من قبل بألسنتهم، قاله مقاتل.

ج. الثالث: بدا لهم جزاء ما كانوا يخفونه، قاله المبرّد.

د. الرابع: بدا للأتباع ما كان يخفيه الرّؤساء، قاله الزّجاج.

٦. ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ قال ابن عباس: لعادوا إلى ما نهوا عنه من الشّرك، وإنّهم لكاذبون في قولهم: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، قال ابن الأنباريّ: كذّبهم الله في إخبارهم عن أنفسهم أنهم إن ردّوا آمنوا ولم يكذّبوا، ولم يكذّبهم في التّمني.

٧. ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ هذا إخبار عن منكري البعث، قال مقاتل: لما أخبر النبيّ ﷺ كفار مكة بالبعث، قالوا هذا، وكان عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يقول: هذا حكاية قولهم، لو ردّوا لقالوا.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. لما ذكر الله تعالى صفة من ينهى عن متابعة الرسول ﷺ، وينأى عن طاعته بأنهم يهلكون أنفسهم شرح كيفية ذلك الهلاك بهذه الآية.

٢. قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ يقتضي له جوابا وقد حذف تفخيما للأمر وتعظيما للشأن، وجاز حذفه لعلم المخاطب به وأشباهه كثيرة في القرآن والشعر، ولو قدرت الجواب، كان التقدير: لرأيت سوء منقلبهم أو لرأيت سوء حالهم وحذف الجواب في هذه الأشياء أبلغ في المعنى من إظهاره، ألا ترى: أنك لو قلت لغلامك، والله لئن قمت إليك وسكت عن الجواب، ذهب بفكره إلى أنواع المكروه، من الضرب، والقتل، والكسر، وعظم الخوف ولم يدر أي الأقسام تبغي، ولو قلت: والله لئن قمت إليك لأضربنك فأتيت بالجواب، لعلم أنك لم تبلغ شيئا غير الضرب ولا يخطر بباله نوع من المكروه سواه، فثبت أن حذف الجواب أقوى تأثيرا في حصول الخوف، ومنهم من قال جواب ﴿لَوْ﴾ مذكور من بعض الوجوه والتقدير ولو ترى إذا وقفوا على النار ينوحون ويقولون يا ليتنا نرد ولا نكذب.

﴿وُقِفُوا﴾ يقال وقفته وقفا، ووقفته وقوفا كما يقال رجعته رجوعا، قال الزجاج: ومعنى ﴿وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه:

أ. الأول: يجوز أن يكون قد وقفوا عندها وهم يعاينونها فهم موقوفون على أن يدخلوا النار.

ب. الثاني: يجوز أن يكونوا وقفوا عليها وهي تحتهم، بمعنى أنهم وقفوا فوق النار على الصراط،

---

(١) التفسير الكبير: ١٢، ص: ٥٠٩.

وهو جسر فوق جهنم.

ج. الثالث: معناه عرفوا حقيقتها تعريفا من قولك وقفت فلانا على كلام فلان؛ أي علمته معناه وعرفته.

د. وفيه وجه رابع: وهم أنهم يكونون في جوف النار، وتكون النار محيطة بهم، ويكونون غائصين فيها وعلى هذا التقدير فقد أقيم (على) مقام (في) وإنما صح على هذا التقدير، أن يقال: وقفوا على النار، لأن النار دركات وطبقات، بعضها فوق بعض فيصح هناك معنى الاستعلاء.

٣. سؤال وإشكال: لماذا قال: ﴿وَلَوْ تَرى﴾؟ وذلك يؤذن بالاستقبال ثم قال بعده إذ وقفوا وكلمة ﴿إِذْ﴾ للماضي ثم قال بعده: ﴿فَقَالُوا﴾ وهو يدل على الماضي؟ والجواب: أن كلمة (إذ) تقام مقام (إذا) إذا أراد المتكلم المبالغة في التكرير والتوكيد، وإزالة الشبهة لأن الماضي قد وقع واستقر، فالتعبير عن المستقبل باللفظ الموضوع للماضي، يفيد المبالغة من هذا الاعتبار.

٤. ﴿النَّارِ﴾ قال الزجاج: الإمالة في النار حسنة جيدة، لأن ما بعد الألف مكسور وهو حرف الراء، كأنه تكرر في اللسان فصارت الكسرة فيه كالكسرتين.

٥. ﴿يا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ يدل على أنهم قد تمنوا أن يردوا إلى الدنيا، ﴿وَلا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه قولان:

أ. أحدهما: أنه داخل في التمني والتقدير أنهم تمنوا أن يردوا إلى الدنيا ولا يكونوا مكذبين وأن يكونوا مؤمنين، سؤال وإشكال: هذا باطل لأنه تعالى حكم عليهم بكونهم كاذبين بقوله في آخر الآية: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾ والمتمني لا يوصف بكونه كاذبا، والجواب: لا نسلم أن المتمني لا يوصف بكونه كاذبا لأن من أظهر التمني، فقد أخبر ضمنا كونه مريدا لذلك الشيء فلم يبعد تكذيبه فيه، ومثاله أن يقول الرجل: ليت الله يرزقني مالا فأحسن إليك، فهذا تمن في حكم الوعد، فلو رزق مالا ولم يحسن إلى صاحبه لقيل إنه كذب في وعده.

ب. الثاني: أن التمني تمّ عند قوله: ﴿يا لَيْتَنا نُرَدُّ﴾ وأما قوله: ﴿وَلا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فهذا الكلام مبتدأ وقوله تعالى في آخر الآية: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾ عائد إليه وتقدير الكلام: يا ليتنا نرد، ثم قالوا: ولو رددنا لم نكذب بالدين وكنا من المؤمنين، ثم إنه تعالى كذبهم وبيّن أنهم لو ردوا لكذبوا

ولأعرضوا عن الإيمان.

٦. قرأ ابن عامر نرد ونكذب بالرفع فيهما ونكون بالنصب، وقرأ حمزة وحفص عن عاصم ﴿نُرَدُّ﴾ بالرفع، و﴿نُكَذِّبَ﴾ و﴿نَكُونَ﴾ بالنصب فيهما، والباقون بالرفع في الثلاثة، فحصل من هذا أنهم اتفقوا على الرفع في قوله ﴿نُرَدُّ﴾ وذلك لأنه داخلة في التمني لا محالة، فأما الذين رفعوا قوله ولا نكذب.. ونكون ففيه وجهان:

أ. الأول: أن يكون معطوفا على قوله ﴿نُرَدُّ﴾ فتكون الثلاثة داخل في التمني، فعلى هذا قد تمنوا الرد وأن لا يكذبوا وأن يكونوا من المؤمنين.

ب. الثاني: أن يقطع ولا نكذب وما بعده عن الأول، فيكون التقدير: يا ليتنا نرد ونحن لا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين، فهم ضمنوا أنهم لا يكذبون بتقدير حصول الرد، والمعنى يا ليتنا نرد ونحن لا نكذب بآيات ربنا رددنا أو لم نرد أي قد عاينا وشاهدنا ما لا نكذب معه أبدا، قال سيبويه: وهو مثل قولك دعني ولا أعود، فههنا المطلوب بالسؤال تركه، فأما أنه لا يعود فغير داخل في الطلب، فكذا هنا قوله: ﴿يا لَيْتَنا نُرَدُّ﴾ الداخل في هذا التمني الرد، فأما ترك التكذيب وفعل الإيمان فغير داخل في التمني، بل هو حاصل سواء حصل الرد أو لم يحصل.

ج. هذان الوجهان ذكرهما الزجاج والنحويون قالوا: الوجه الثاني أقوى، وهو أن يكون الرد داخلا في التمني، ويكون ما بعده إخبارا محضا، واحتجوا عليه بأن الله كذبهم في الآية الثانية، فقال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾ والمتمني لا يجوز تكذيبه، وهذا اختيار أبي عمرو، وقد احتج على صحة قوله بهذه الحجة، إلا أنا قد أجبنا عن هذه الحجة، وذكرنا أنها ليست قوية.

٧. أما من قرأ ﴿وَلا نُكَذِّبَ﴾، و﴿نَكُونَ﴾ بالنصب ففيه وجوه:

أ. الأول: بإضمار (أن) على جواب التمني، والتقدير: يا ليتنا نرد وأن لا نكذب.

ب. الثاني: أن تكون الواو مبدلة من الفاء، والتقدير: يا ليتنا نرد فلا نكذب، فتكون الواو هاهنا بمنزلة الفاء في قوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٨] ويتأكد هذا الوجه بما روي أن ابن مسعود كان يقرأ فلا نكذب بالفاء على النصب.

ج. الثالث: أن يكون معناه الحال، والتقدير: يا ليتنا نرد غير مكذبين، كما تقول العرب: (لا تأكل

السمك وتشرب اللبن) أي لا تأكل السمك شاربا للبن.

د. على هذه القراءة تكون الأمور الثلاثة داخلة في التمني، وأما أن المتمني كيف يجوز تكذيبه فقد سبق تقريره، وأما قراءة ابن عامر وهي أنه كان يرفع ولا نكذب وينصب ﴿وَنَكُونَ﴾ فالتقدير: أنه يجعل قوله وَلا نُكَذِّبَ داخلا في التمني، بمعنى أنا إن رددنا غير مكذبين نكن من المؤمنين.

٨. ﴿فَقالُوا يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ﴾ لا شبهة في أن المراد تمني ردهم إلى حالة التكليف لأن لفظ الرد إذا استعمل في المستقبل من حال إلى حال، فالمفهوم منه الرد إلى الحالة الأولى، والظاهر أن من صدر منه تقصير ثم عاين الشدائد والأحوال بسبب ذلك التقصير أنه يتمنى الرد إلى الحالة الأولى، ليسعى في إزالة جميع وجوه التقصيرات، ومعلوم أن الكفار قصروا في دار الدنيا فهم يتمنون العود إلى الدنيا لتدارك تلك التقصيرات، وذلك التدارك لا يحصل بالعود إلى الدنيا فقط، ولا بترك التكذيب، ولا بعمل الإيمان بل إنما يحصل التدارك بمجموع هذه الأمور الثلاثة فوجب إدخال هذه الثلاثة تحت التمني.

٩. سؤال وإشكال: كيف يحسن منهم تمني الرد مع أنهم يعلمون أن الرد يحصل لا ألبتة؟ والجواب: من وجوه:

أ. الأول: لعلّهم لم يعلموا أن الرد لا يحصل.

ب. الثاني: أنهم وإن علموا أن ذلك لا يحصل؛ إلا أن هذا العلم لا يمنع من حصول إرادة الرد كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ﴾ [المائدة: ٣٧] وكقوله: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾ [الأعراف: ٥٠] فلما صح أن يريدوا هذه الأشياء مع العلم بأنها لا تحصل، فبأن يتمنوه أقرب، لأن باب التمني أوسع، لأنه يصح أن يتمنى ما لا يصح أن يريد من الأمور الثلاثة الماضية.

١٠. ثم قال تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ معنى ﴿بَلْ﴾ هاهنا رد كلامهم، والتقدير: أنهم ما تمنوا العود إلى الدنيا، وترك التكذيب، وتحصيل الإيمان لأجل كونهم راغبين في الإيمان بل لأجل خوفهم من العقاب الذي شاهدوه وعاينوه، وهذا يدل على أن الرغبة في الإيمان والطاعة لا تنفع إلا إذا كانت تلك الرغبة رغبة فيه، لكونه إيمانا وطاعة، فأما الرغبة فيه لطلب الثواب، والخوف من العقاب فغير مفيد.

١١. المراد من قوله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾: أنه ظهر لهم في الآخرة ما أخفوه

في الدنيا، وقد اختلفوا في ذلك الذي أخفوه على وجوه:

أ. الأول: قال أبو روق: إن المشركين في بعض مواقف القيامة يجحدون الشرك فيقولون: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فينطق الله جوارحهم فتشهد عليهم بالكفر، فذلك حين بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل، قال الواحدي: وعلى هذا القول أهل التفسير.

ب. الثاني: قال المبرد: بدا لهم وبال عقائدهم وأعمالهم وسوء عاقبتها، وذلك لأن كفرهم ما كان باديا ظاهرا لهم، لأن مضار كفرهم كانت خفية، فلما ظهرت يوم القيامة لا جرم قال الله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾

ج. الثالث: قال الزجاج: بدا للأتباع ما أخفاه الرؤساء عنهم من أمر البعث والنشور، قال: والدليل على صحة هذا القول أنه تعالى ذكر عقيبه: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩] وهذا قول الحسن.

د. الرابع: قال بعضهم: هذه الآية في المنافقين، وقد كانوا يسرون الكفر ويظهرون الإسلام، وبدا لهم يوم القيامة، وظهر بأن عرف غيرهم أنهم كانوا من قبل منافقين.

هـ. الخامس: قيل بدا لهم ما كان علماؤهم يخفون من جحد نبوّة الرسول ونعته وصفته في الكتب والبشارة به، وما كانوا يحرفونه من التوراة مما يدل على ذلك.

و. واللفظ محتمل لوجوه كثيرة، والمقصود منها بأسرها أنه ظهرت فضيحتهم في الآخرة وانهتكت أستارهم، وهو معنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩]

١٢. ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ والمعنى أنه تعالى لو ردهم لم يحصل منهم ترك التكذيب وفعل الإيمان بل كانوا يستمرون على طريقتهم الأولى: في الكفر والتكذيب.

١٣. سؤال وإشكال: إن أهل القيامة قد عرفوا الله بالضرورة، وشاهدوا أنواع العقاب والعذاب فلو ردهم الله تعالى إلى الدنيا فمع هذه الأحوال كيف يمكن أن يقال: إنهم يعودون إلى الكفر بالله وإلى معصية الله، والجواب:

أ. قال القاضي: تقرير الآية ﴿وَلَوْ رُدُّوا﴾ إلى حالة التكليف، وإنما يحصل الرد إلى هذه الحالة لو لم يحصل في القيامة معرفة الله بالضرورة، ولم يحصل هناك مشاهدة الأهوال وعذاب جهنم، فهذا الشرط

يكون مضمرا لا محالة في الآية.

ب. إلا أنا نقول هذا الجواب ضعيف، لأن المقصود من الآية بيان غلوهم في الإصرار على الكفر وعدم الرغبة في الإيمان ولو قدرنا عدم معرفة الله تعالى في القيامة، وعدم مشاهدة أهوال القيامة لم يكن في إصرار القوم على كفرهم الأول مزيد تعجب، لأن إصرارهم على الكفر يجري مجرى إصرار سائر الكفار على الكفر في الدنيا، فعلمنا أن الشرط الذي ذكره القاضي لا يمكن اعتباره ألبتة.

١٤. قال الواحدي: هذه الآية من الأدلة الظاهرة على فساد قول المعتزلة، وذلك لأن الله تعالى أخبر عن قوم جرى عليهم قضاؤه في الأزل بالشرك، ثم إنه تعالى بين أنهم لو شاهدوا النار والعذاب، ثم سألوا الرجعة وردوا إلى الدنيا لعادوا إلى الشرك، وذلك القضاء السابق فيهم، وإلا فالعاقل لا يرتاب فيما شاهد، ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ سؤال وإشكال: وفيه سؤال وهو أن يقال: إنه لم يتقدم ذكر خبر حتى يصرف هذا التكذيب إليه، والجواب: أنا بينا أن منهم من قال الداخل في التمني هو مجرد قوله: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ أما الباقي فهو إخبار، ومنهم من قال بل الكل داخل في التمني، لأن إدخال التكذيب في التمني أيضا جائز، لأن التمني يدل على الاخبار على سبيل الضمن والصيرورة، كقول القائل ليت زيدا جاءنا فكنا تأكل ونشرب ونتحدث فكذا هاهنا.

١٥. ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ حصل في الآية قولان:

أ. الأول: أنه تعالى ذكر في الآية الأولى، أنه بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل فبين في هذه الآية أن ذلك الذي يخفونه هو أمر المعاد والحشر والنشر، وذلك لأنهم كانوا ينكرونه ويخفون صحته ويقولون ما لنا إلا هذه الحياة الدنيوية، وليس بعد هذه الحياة لا ثواب ولا عقاب.

ب. الثاني: أن تقدير الآية ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ولأنكروا الحشر والنشر، وقالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/٤٠٨.

١. ﴿إِذِ﴾ قد تستعمل في موضع ﴿إِذَا﴾ و﴿إِذَا﴾ في موضع ﴿إِذِ﴾ وما سيكون فكأنه كان، لأن خبر الله تعالى حق وصدق، فلهذا عبر بالماضي.

٢. معنى ﴿إِذْ وُقِفُوا﴾ حبسوا يقال: وقفته وقفا فوقف وقوفا، وقرأ ابن السميقع ﴿إِذْ وُقِفُوا﴾ بفتح الواو والقاف من الوقوف، ﴿عَلَى النَّارِ﴾:

أ. أي هم فوقها على الصراط وهي تحتهم.

ب. وقيل: ﴿عَلَى﴾ بمعنى الباء، أي وقفوا بقربها وهم يعاينونها.

ج. وقال الضحاك: جمعوا، يعني على أبوابها.

د. ويقال: وقفوا على متن جهنم والنار تحتهم، وفي الخبر: أن الناس كلهم يوقفون على متن جهنم كأنها متن إهالة، ثم ينادي مناد خذي أصحابك ودعي أصحابي.

هـ. وقيل: ﴿وُقِفُوا﴾ دخلوها ـ أعاذنا الله منها ـ فعلى بمعنى ﴿فِي﴾ أي وقفوا في النار.

٣. جواب ﴿لَوْ﴾ محذوف ليذهب الوهم إلى كل شي فيكون أبلغ في التخويف، والمعنى: لو تراهم في تلك الحال لرأيت أسوأ حال، أو لرأيت منظرا هائلا، أو لرأيت أمرا عجبا وما كان مثل هذا التقدير.

٤. ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالرفع في الأفعال الثلاثة عطفا قراءة أهل المدينة والكسائي، وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم بالضم، ابن عامر على رفع ﴿نُكَذِّبُ﴾ ونصب ﴿وَنَكُونَ﴾ وكله داخل في معنى التمني، أي لا تمنوا الرد وألا يكذبوا وأن يكونوا من المؤمنين، واختار سيبويه القطع في ﴿وَلَا نُكَذِّبَ﴾ فيكون غير داخل في التمني، المعنى: ونحن لا نكذب على معنى الثبات على ترك التكذيب، أي لا نكذب رددنا أو لم نرد، قال سيبويه: وهو مثل قوله دعني ولا أعود أي لا أعود على كل حال تركتني أو لم تتركني، واستدل أبو عمرو على خروجه من التمني بقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ لأن الكذب لا يكون في التمني إنما يكون في الخبر، وقال من جعله داخلا في التمني: المعنى وإنهم لكاذبون في الدنيا في إنكارهم البعث وتكذيبهم الرسل، وقرأ حمزة وحفص بنصب ﴿نُكَذِّبُ﴾ و﴿نَكُونَ﴾ جوابا للتمني، لأنه غير واجب، وهما داخلان في التمني على معنى أنهم تمنوا الرد وترك التكذيب والكون مع المؤمنين، قال أبو إسحاق: معنى ﴿وَلَا نُكَذِّبَ﴾ أي إن رددنا لم نكذب، والنصب في ﴿نُكَذِّبُ﴾ و﴿نَكُونَ﴾ بإضمار ﴿أَنْ﴾ كما ينصب في جواب الاستفهام والأمر والنهي والعرض، لأن

جميعه غير واجب ولا واقع بعد، فينصب الجواب مع الواو كأنه عطف على مصدر الأول، كأنهم قالوا: يا ليتنا يكون لنا رد وانتفاء من الكذب، وكون من المؤمنين، فحملا على مصدر ﴿نُرَدُّ﴾ لانقلاب المعنى إلى الرفع، ولم يكن بد من إضمار ﴿أَنْ﴾ فيه يتم النصب في الفعلين، وقرأ ابن عامر ﴿وَنَكُونَ﴾ بالنصب على جواب التمني كقولك: ليتك تصير إلينا ونكرمك، أي ليت مصيرك يقع وإكرامنا يقع، وأدخل الفعلين الأولين في التمني، أو أراد: ونحن لا نكرمك على القطع على ما تقدم، يحتمل، وقرأ أبي ولا نكذب بآيات ربنا أبدا)، وعنه وابن مسعود يا ليتنا نرد فلا نكذب) بالفاء والنصب، والفاء ينصب بها في الجواب كما ينصب بالواو، عن الزجاج، وأكثر البصريين لا يجيزون الجواب إلا بالفاء.

٥. ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ بل إضراب عن تمنيهم وادعائهم الإيمان لو ردوا، واختلفوا في معنى ﴿بَدَا لَهُمْ﴾ على أقوال بعد تعيين من المراد:

أ. فقيل: المراد المنافقون لأن اسم الكفر مشتمل عليهم، فعاد الضمير على بعض المذكورين، قال النحاس: وهذا من الكلام العذب الفصيح.

ب. وقيل: المراد الكفار وكانوا إذا وعظهم النبي ﷺ خافوا وأخفوا ذلك الخوف لئلا يفطن بهم ضعفاؤهم، فيظهر يوم القيامة، ولهذا قال الحسن: ﴿بَدَا لَهُمْ﴾ أي بدا لبعضهم ما كان يخفيه عن بعض.

ج. وقيل: بل ظهر لهم ما كانوا يجحدونه من الشرك فيقولون: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فينطق الله جوارحهم فتشهد عليهم بالكفر فذلك حين ﴿بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾، قاله أبو روق.

د. وقيل: ﴿بَدَا لَهُمْ﴾ ما كانوا يكتمونه من الكفر، أي بدت أعمالهم السيئة كما قال: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر]، قال المبرد: بدا لهم جزاء كفرهم الذي كانوا يخفونه.

هـ. وقيل: المعنى بل ظهر للذين اتبعوا الغواة ما كان الغواة يخفون عنهم من أمر البعث والقيامة، لأن بعده ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾

٦. ﴿وَلَوْ رُدُّوا﴾:

أ. قيل: بعد معاينة العذاب.

ب. وقيل: قبل معاينته.

٧. ﴿لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي لصاروا ورجعوا إلى ما نهوا عنه من الشرك لعلم الله تعالى فيهم أنهم

لا يؤمنون، وقد عاين إبليس ما عاين من آيات الله ثم عاند.

٨. ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾:

أ. إخبار عنهم، وحكاية عن الحال التي كانوا عليها في الدنيا من تكذيبهم الرسل، وإنكارهم البعث، كما قال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ﴾ [النحل] فجعله حكاية عن الحال الآتية.

ب. وقيل: المعنى وإنهم لكاذبون فيما أخبروا به عن أنفسهم من أنهم لا يكذبون ويكونون من المؤمنين، وقرا يحيى ابن وثاب ﴿وَلَوْ رُدُّوا﴾ بكسر الراء، لأن الأصل رددوا فنقلت كسرة الدال على الراء.

٩. ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ ابتداء وخبر و﴿إِنْ﴾ نافية، ﴿وَمَا نَحْنُ﴾ ﴿نَحْنُ﴾ اسم ﴿مَا﴾ بمبعوثين خبرها، وهذا ابتداء إخبار عنهم عما قالوه في الدنيا، قال ابن زيد: هو داخل في قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا أي لعادوا إلى الكفر، واشتغلوا بلذة الحال، وهذا يحمل على المعاند كما بيناه في حال إبليس، أو على أن الله يلبس عليهم بعد ما عرفوا، وهذا شائع في العقل.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من تتأتى منه الرؤية، وعبر عن المستقبل يوم القيامة بلفظ الماضي تنبيها على تحقق وقوعه كما ذكره علماء المعاني.

٢. ﴿وُقِفُوا﴾ معناه حبسوا، يقال: وقفته وقفا ووقف وقوفا؛ وقيل: معنى ﴿وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾: أدخلوها، فتكون على بمعنى في؛ وقيل: هي بمعنى الباء: أي وقفوا بالنار، أي بقربها معاينين لها، ومفعول ترى محذوف، وجواب لو محذوف ليذهب السامع كل مذهب، والتقدير: لو تراهم إذ وقفوا على النار لرأيت منظرا هائلا وحالا فظيعا.

٣. ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ أي إلى الدنيا ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ أي التي جاءنا بها رسوله ﷺ ﴿وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بها، العاملين بما فيها، والأفعال الثلاثة داخلة تحت التمني: أي تمنوا الرد، وأن لا

---

(١) فتح القدير: ٢/ ١٢٥.

يكذبوا، وأن يكونوا من المؤمنين برفع الأفعال الثلاثة كما هي قراءة الكسائي وأهل المدينة وشعبة وابن كثير وأبي عمرو، وقرأ حفص وحمزة بنصب نكذب ونكون بإضمار أن بعد الواو على جواب التمني، واختار سيبويه القطع في ﴿وَلَا نُكَذِّبَ﴾ فيكون غير داخل في التمني، والتقدير: ونحن لا نكذب على معنى الثبات على ترك التكذيب: أي لا نكذب رددنا أو لم نردّ، قال وهو مثل دعني ولا أعود: أي لا أعود على كل حال تركتني أو لم تتركني، واستدل أبو عمرو بن العلاء على خروجه من التمني بقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ لأن الكذب لا يكون في التمني.

٤. قرأ ابن عامر ﴿وَنَكُونَ﴾ بالنصب وأدخل الفعلين الأوّلين في التمني، وقرأ أبيّ ولا نكذّب بآيات ربّنا أبدا، وقرأ هو وابن مسعود يا ليتنا نردّ فلا نكذّب بالفاء والنصب، والفاء ينصب بها في جواب التمني كما ينصب بالواو كما قال الزجاج، وقال أكثر البصريين: لا يجوز الجواب إلا بالفاء.

٥. ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ هذا إضراب عما يدلّ عليه التمني من الوعد بالإيمان والتصديق: أي لم يكن ذلك التمني منهم عن صدق نية وخلوص اعتقاد بل هو لسبب آخر، وهو أنه بدا لهم ما كانوا يخفون: أي يجحدون من الشرك وعرفوا أنهم هالكون بشركهم فعدلوا إلى التمني والمواعيد الكاذبة؛ وقيل: بدا لهم ما كانوا يخفون من النفاق والكفر بشهادة جوارحهم عليهم؛ وقيل: بدا لهم ما كانوا يكتمون من أعمالهم القبيحة كما قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ وقال المبرد: بدا لهم جزاء كفرهم الذي كانوا يخفونه وهو مثل القول الأوّل؛ وقيل: المعنى أنه ظهر للذين اتبعوا الغواة ما كان الغواة يخفون عنهم من أمر البعث والقيامة.

٦. ﴿وَلَوْ رُدُّوا﴾ إلى الدنيا حسبما تمنوا ﴿لَعَادُوا﴾ لفعل ما نهوا عنه من القبائح التي رأسها الشرك كما عاين إبليس ما عاين من آيات الله ثم عاند ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي متصفون بهذه الصفة لا ينفكون عنها بحال من الأحوال ولو شاهدوا ما شاهدوا؛ وقيل المعنى: وإنهم لكاذبون فيما أخبروا به عن أنفسهم من الصدق والإيمان.

٧. قرأ يحيى بن وثاب ﴿وَلَوْ رُدُّوا﴾ بكسر الراء لأن الأصل رددوا فنقلت كسرة الدال إلى الراء، وجملة ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ معترضة بين المعطوف، وهو وقالوا: وبين المعطوف عليه، وهو لعادوا؛ أي لعادوا إلى ما نهوا عنه.

٨. ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أي ما هي إلا حياتنا الدنيا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد الموت، وهذا من شدّة تمرّدهم وعنادهم حيث يقولون هذه المقالة على تقدير أنهم رجعوا إلى الدنيا بعد مشاهدتهم للبعث.

أَطَّفَيِّش:

ذكر محمد أَطَّفَيِّش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِئَايَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُومِنِينَ﴾ لرأيت أمرًا هو غاية السوء يضيق عن قلبك وصفه، فحذف الجواب ليذهب السامع كلَّ مذهب ممكن فيه، ولو أظهر مخصوصًا لاقتصر عليه، أو مجملاً لم يفصِّله كلَّ تفصيل، و(لو) امتناعيَّة، والرؤية الآن غير واقعة، فـ (تَرَى) بمعنى رأيت، و(إِذْ) وما بعدها للمضيِّ لتحقُّق الوقوع بعده؛ أو (لو) بمعنى (إِنْ)، وجوابُها بلا لامٍ، ﴿إِذْ وُقِفُوا﴾ بمعنى إذا وُقِفوا للاستقبال كـ (تَرَى)، والخطاب له ﷺ ، أو لِكُلِّ من يصلح له، و(تَرَى) بَصَرِيَّة، أي: تراهم، أو تشاهد حالهم، أو بمعنى: تدبَّرت، فيكون الجواب: لازددت يقينًا.

٢. وَوَقْفُهم على النَّار إحضارُهم ليعاينوها، وإعلاؤهم عليها من خارج، وهي من داخل أسفل منهم؛ أو إدخالهم إِيَّاهَا؛ أو بيانُها لهم حتَّى يعرفوها حقًّا، كقولك: وقفت فلانًا على كلام فلان، بمعنى: عرَّفته إيَّاه حتَّى لا محيد له عنه؛ أو وقفُهم عليها: تصييرُهم واقفين فيها على أقدامهم؛ أو (عَلَى) بمعنى (في)، وهي محيطة بهم، قيل: وحكمة (عَلَى) مع أنَّها بمعنى (في): التلويحُ بأنَّهم في النَّار تحتها نارٌ هم عليها، فإنَّ كون نار فوق نار أشدُّ من كون نار على غير نار، كما أنَّ نارًا فوقها نار شديدة ولا سيما نار بين نارين، وهذا الوجه الأخير ضعيف، و(يَا) للتنبيه؛ أو يا قومُ، أو يا رسولَ الله، والمراد: الردُّ إلى الدُّنيا لنؤمن.

٣. و﴿لَا نُكَذِّبُ﴾ معطوف على ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ عطفَ إخبار على إنشاء، كأنَّه قيل: يا ليتنا نردُّ وقالوا: لا نكذِّب إن رُددنا، فليس داخلاً في التمنِّي؛ أو لا نكذب ولو لم نردد؛ أو معطوف على ﴿نُرَدُّ﴾، فيتسلَّط عليه التمنِّي كما تسلَّط على ﴿نُرَدُّ﴾، أو الواو للحال، قدِّر المبتدأ بعدها أو لم يُقَدَّر، فيكون للتمنِّي مقيَّدًا بعدم التكذيب، ففي هذا الوجه والذي قبله تمنَّوا ثلاثة أشياء: الردَّ للدنيا وعدم التكذيب والكون

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/ ٢٣٢.

من المؤمنين، فإنَّ قَيْدَ التمنِّي داخلٌ في التمنِّي، وترجَّح العطف على (يَالَيْتَنَا نُرَدُّ)، لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، فإنَّ التمنِّي إنشاء لا يقبل التكذيب إلَّا باعتبار أنَّهم لا يؤمنون ولو حصل الردُّ.

٤. والمراد بـ ﴿آيَاتِ رَبِّنَا﴾ آياتُه الدالَّة على النَّار وأحوالها وأهلها، لأنَّها الحاضرة، تحسَّروا على تفريطهم حتَّى كانوا من أهلها، وقد حضرت لهم، أو مطلقة الآيات الشاملة لهذه بالأولى، وليس تمنِّيهم عن عزيمة صادقة في الإيمان، فإنَّه لا رغبة لهم فيه، بل خافوا العقاب الحاضر، كما أشار إلى ذلك بقوله تعالى :

٥. ﴿بَلْ بَدَا﴾ ظهر ﴿لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ هو إشراك المنافقين، وأمر البعث، والشرك الذي أنكره المشركون في بعض مواقف القيامة، والصغائر والكبائر التي يخفونها في الدُّنيا ـ والمشركون مخاطبون بالفروع أيضًا ـ وإخفاء أهل الكتاب ما في التوراة والإنجيل من رسالته ﷺ ، والآية تَعُمُّ هؤلاء، وقيل: هو النَّار، فإنَّ جحودها إخفاء لها، أو الآيات الدالَّة عليها، فإنَّ إنكارها نفيٌ لها، أو الإشراك، أي: بدا جزاؤه وتَحَقَّقَ أنَّه إشراك يجازَوْن عليه بالنار بعدما قالوا: (وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)، إذ قالوا كذبا أو زعمًا بأنَّه غير شرك بل ليقرِّبهم إلى الله تعالى ، وعن المُبَرِّد: بدا لهم وبالُ ما كانوا يخفون، و(مَا) موصول اسميٌّ أو حرفيٌّ، أو نكرة موصوفة.

٦. ﴿وَلَوْ رُدُّوا﴾ إلى الدنيا بعد الوقوف على النَّار، ولو بدخولها ومضيِّ أحقاب، ﴿لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ إلى ما نهوا عنه من الشرك، وما دونه من المعاصي، ﴿وإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في وعدهم الإيمان الذي تضمَّنه تمنِّيهم له، ومن شأنهم الكذب على الإطلاق، ومنه هذا بالمشاهدة، أو بنطق جوارحهم، وكلٌّ من المشركين والمنافقين بإضمار الشرك واليهود والنصارى وغيرهم من أهل النَّار كلّهم يتمنَّون الردَّ إلى الدُّنيا ليجتنبوا ما أدخلهم النار، وكلُّ واحد بدا له تفريطه وبطلان ما كان يتوهَّمه، وقبح ما أضمر من تشهٍّ واعتقاد.

٧. والجملة عُطِفت على (لَوْ) وشرطِها وجوابِها عطفَ قصَّة على أخرى، والصحيح أنَّ وعد الكافرين الإيمان هو على طريق الإخبار، وقيل: إنشاء، فالكذب مبنيٌّ على الإخبار.

٨. ﴿وَقَالُواْ﴾ أي: منكرو البعث، عطف على (عَادُوا) فَمَعنَى (لَوْ) متسلِّط عليه، كأنَّه قيل: ولو رُدُّوا لعادوا لِمَا نُهُوا عنه ولقالوا كما قالوا قبلَ معاينة العذاب، وأجيز عطفها على (نُهُوا)، والعائد محذوف، أي: قالوه؛ أو على (كَاذِبُونَ)؛ أو على (إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) على أنَّ قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ كلام لهم في الدُّنيا قبل الموت، وأمَّا على أنَّه فيها بعد الموت والردِّ لو كان الردُّ فداخلٌ في حيِّز (لَوْ)، ليكون عطفَ خاصٍّ على

عامٍّ، فإنَّ ما ذكر الله عنهم من قوله: ﴿إِنْ هِيَ﴾ أي: الحياة المعهودة في الأذهان ذكرت مبهمةً وفسِّرت في قوله: ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ القريبة الزوال، أو الدنيئة، أو المتقدِّمة على الآخرة، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ من جملة ما نهوا عنه.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. لما أخبر تعالى أنهم يهلكون أنفسهم، شرح كيفيته مع بيان ما سيصدر عنهم في الآخرة، من القول المناقض لعقدهم الدنيويّ، بقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ أي: اطّلعوا عليها فعاينوها، يقال: وقف فلانا على ذنبه: أطلعه عليه، أو أدخلوها فعرفوا ما فيها من العذاب، يقال: وقفت على ما عند فلان، تريد: فهمته وتبينته، والوقف عليه مجازيّ، أو هو حقيقيّ بمعنى القيام.

٢. و(على) إما على حقيقتها، أي: أقيموا واقفين فوق النار على الصراط، وهو جسر فوق جهنم، أو هي بمعنى (في)، أي: أقيموا في جوف النار وغاصوا فيها، وهي محيطة بهم، وصحح معنى الاستعلاء حينئذ كون النار دركات وطبقات، بعضها فوق بعض.

٣. ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تمنوا الرجوع إلى الدنيا، حين لا رجوع، واعدين أن لا يكذبوا بما جاءهم، وأن يكونوا من المؤمنين، أي: بآياته، العاملين بمقتضاها، حتى لا نرى هذا الموقف الهائل، أو من فريق المؤمنين الناجين من العذاب، الفائزين بحسن المآب.

٤. جواب (لو) محذوف، تفخيما للأمر، وتعظيما للشأن، وجاز حذفه لعلم المخاطب به، وأشباهه كثيرة في القرآن والشعر، ولو قدرت الجواب، كان التقدير: لرأيت سوء منقلبهم، وحذف الجواب في ذلك أبلغ في المعنى من إظهاره، ألا ترى أنك لو قلت لغلامك: والله! لئن قمت إليك، وسكت عن الجواب، ذهب بفكره إلى أنواع المكروه من الضرب والقتل والكسر، وعظم الخوف، ولم يدر أيّ الأقسام تبغي، ولو قلت: لأضربنك، فأتيت بالجواب لأمن غير الضرب، ولم يخطر بباله نوع من المكروه سواه، فثبت أن حذف الجواب أقوى تأثيرا في حصول الخوف ـ أفاده الرازيّ ـ وملخصه: أن حذف الجواب ثقة بظهوره، وإيذانا

(١) تفسير القاسمي: ٤/ ٣٣٨.

بقصور العبارة عن تفصيله.

٥. ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ إضراب عما يدل عليه تمنيهم الباطل من الوعد، بالتصديق والإيمان، أي: ليس ذلك عن عزم صحيح، وخلوص اعتقاد، بل هو بسبب آخر، وهو أنه ظهر لهم ما كانوا يكتمون في أنفسهم من الكفر والشرك، بقولهم: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، وعرفوا أنهم هالكون بشركهم، فتمنوا لذلك، أو بشهادة جوارحهم عليهم، أو ما كانوا يكتمون في أنفسهم في الدنيا من صدق ما جاء به الرسول ﷺ، وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه، كقوله تعالى مخبرا عن موسى أنه قال لفرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، الآية ـ وقوله تعالى مخبرا عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، أو هذه الآية إخبار عن حال المنافقين، وأنه يظهر نفاقهم الذي كانوا يسرونه، ولا ينافي هذا كون السورة مكية، والنفاق إنما كان من بعض أهل المدينة، ومن حولها من الأعراب بعد الهجرة، لأن الله تعالى ذكر وقوع النفاق في سورة مكية وهي (العنكبوت) فقال: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١]:

أ. هذا ما ذكروه مما يمكن تنزيل اللفظ الكريم عليه لعمومه، وقد ناقش في ذلك كلّه العلامة أبو السعود، واعتمد أن المراد بـ (ما كانوا يخفونه في الدّنيا) النار التي وقفوا عليها، إذ هي التي سيق الكلام لتهويل أمرها، والتعجيب من فظاعة حال الموقوفين عليها، و(بإخفائها) تكذيبهم بها، فإن التكذيب بالشيء كفر به، وإخفاء له لا محالة، وإيثاره على صريح التكذيب الوارد في قوله عز وجل: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [الرحمن: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٤]، مع كونه أنسب بما قبله من قولهم: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ [الأنعام: ٢٧]، لمراعاة ما في مقابلته من البدو، هذا هو الذي تستدعيه جزالة النظم الكريم، ثم قال في الوجوه المتقدمة: (إنه بعد الإغضاء عما في كل منها من الاعتساف والاختلال، لا سبيل إلى شيء من ذلك أصلا، لما عرفت من أن سوق النظم الشريف لتهويل أمر النار، وتفظيع حال أهلها، وقد ذكر وقوفهم عليها، وأشير إلى أنه اعتراهم عند ذلك من الخوف والخشية والحيرة والدهشة ما لا يحيط به الوصف، ورتب عليه تمنيهم المذكور بـ (الفاء) القاضية بسببية ما قبلها لما بعدها، فإسقاط النار بعد ذلك من تلك السببية، وهي نفسها أدهى الدواهي، وأزجر

الزواجر، وإسنادها إلى شيء من الأمور المذكورة التي دونها في الهول والزجر، مع عدم جريان ذكرها، ثمّة ـ أمر يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله، وأما قيل من أن المراد جزاء ما كانوا يخفون، فمن قبيل دخول البيوت من ظهورها، وأبوابها مفتوحة، فتأمل)

ب. لا ريب في بلاغة ما قرره ونفاسته، لولا تكلفه حمل الإخفاء على ما ذكره، مما هو غير ظاهر فيه، وليس له نظائر في التنزيل الكريم، فمجازيته حينئذ من قبل المعمى، وفي الوجوه الأول إبقاؤه على حقيقته بلا تكلف، وشموله لها ـ غير بعيد، لأن في كل منها ما يؤيده، كما بيناه، غاية الأمر أن ما قرره وجه منها بديع، وأما كونه المراد لا غير، فدونه خرط القتاد ـ والله أعلم بأسرار كتابه ـ.

٦. ﴿وَلَوْ رُدُّوا﴾ أي عن موقفهم ذلك إلى الدنيا كما تمنوه، وغاب عنهم ما شاهدوه من الأهوال ﴿لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ من الكفر والشرك ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في وعدهم بالإيمان، أو ديدنهم الكذب في أحوالهم.

٧. ﴿وَقَالُوا﴾ عطف على (لعادوا) أو استئناف، ﴿إِنْ هِيَ﴾ أي ما الحياة، فالضمير لما بعده، ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أي: ليست الحياة التي يتوهم فيها البعث، والتي يتوهم فيه الرد إلا، حياتنا الأولى ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أي: بعد مفارقتنا هذه الحياة.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بين الله تعالى لنا في الآيتين اللتين قبل هاتين حال من فقدوا الاستعداد للإيمان من المشركين الظالمين لأنفسهم، وخص بالذكر طائفة منهم وهي التي تلقي السمع مصغية للقرآن ولا يدخل من باب سمعها إلى بيت قلبها شيء منه، لما على القلب من أكنة التقليد، والاطمئنان بالشرك التليد، والاستنكار لكل شيء جديد، فهم يستمعون ولا يسمعون، ولا يكتفون بذلك بل ينهون عنه وينأون وهم ناءون منتهون وما يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون، ثم بين في هاتين الآيتين بعض ما يكون من أمرهم وأمر أمثالهم يوم القيامة، وقفى عليه ببيان كنه حالهم في فقد الاستعداد للإيمان، وأنه بلغ مبلغا لا يؤثر فيه كشف

---

(١) تفسير المنار: ٧/ ٢٩٢

الغطاء ورؤية العيان.

٢. ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ (لو) شرطية حذف جوابها لتذهب النفس في تصوره كل مذهب، وذلك أبلغ من ذكره، ومنه المثل (لو غير ذات سوار لطمتني)

٣. ﴿وُقِفُوا﴾ بالبناء للمفعول أي وقفهم غيرهم، يقال: وقف الرجل على الأرض وقوفا، ووقف على الأطلال أي عندها مشرفا عليها، أو قاصرا همه عليها وعلى الشيء عرفه وتبينه، ووقف نفسه على كذا وقفا: حبسها كوقف العقار على الفقراء، ووقف الدابة وقفا جعلها تقف.

٤. والمعنى ولو ترى أيها الرسول أو أيها السامع بعينيك هؤلاء الضالين المكذبين إذ تقفهم ملائكة العذاب على النار فيقفون عندها مشرفين عليها من أرض الموقف وهي هاوية سحيقة أو مقصورين عليها لا يتعاونها، أو يقفون فوقها على الصراط، أو لو ترى إذ يدخلونها فيقفون على ما فيها من العذاب الأليم بذوقهم إياه و(من ذاق عرف) أي لو ترى ما يحل بهم حينئذ وما يكون من أمرهم، ومن ندمهم على كفرهم، ومن حسرتهم وتمنيهم ما لا ينال لرأيت أمرا عظيما لا تدركه العبادة ولا يحيط به الوصف.

٥. وقد ذكر ما يكون من وقفهم على النار وما يترتب عليه من قولهم بصيغة الماضي الواقع في حيز الشرط المستقبل للإعلام بتحقق وقوعه، على القول المشهور في مثله، وقال الرازي في تعليله: إن كلمة (إذ) تقام مقام (إذا) إذا أراد المتكلم المبالغة في التكرير والتوكيد وإزالة الشبهة لأن الماضي قد وقع واستقر، فالتعبير عن المستقبل باللفظ الموضوع للماضي يفيد المبالغة من هذا الاعتبار.

٦. ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ عطف بالفاء للدلالة على أن أول شيء يقع حينئذ في قلوبهم، ويسبق التعبير عنه إلى ألسنتهم، هو الندم على ما سلف منهم، وتمني الرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا.

٧. اختلف القراء في إعراب (نكذب ونكون) فرفعهما الجمهور ونصبهما حمزة وحفص عن عاصم، ونصب ابن عامر (نكون) فقط:

أ. فقرأ الجمهور بالعطف على (نرد) تفيد أنهم تمنوا أن يردوا إلى الدنيا، وألا يكذبوا بعد عودتهم إليها بآيات ربهم كما كذبوا من قبل، وأن يكونوا من المؤمنين بما جاء به الرسول، أي تمنوا هذه الثلاثة.

ب. وقيل: بل تمنوا الأول فقط، وقوله: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ﴾ معناه ونحن لا نكذب.. وعلى هذا يكون

الإيمان وعدم التكذيب غير داخلين في التمني، وشبهه سيبويه بقولهم: دعني ولا أعود، وهو طلب للترك فقط، والوعد بعدم العود مستأنف مقطوع عما قبله، والتقدير: وأنا لا أعود تركتني أم لم تتركني.

ج. وفيه وجه ثالث وهو أن قوله: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ﴾ جملة حالية: قال الزمخشري: (على معنى غير مكذبين وكائنين من المؤمنين فيدخل في حكم التمني)، وقد يتوهم أن دخوله في حكم التمني يجعله بمعنى الوجه الأول وليس كذلك، فإن معنى الوجه الأول أنهم يتمنون الرد وعدم التكذيب والإيمان على سواء، ومعنى الثاني أنهم يتمنون الرد فقط ويعدون بالإيمان وعدم التكذيب بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون وعدا خبريا مؤكدا غير مقيد بإجابتهم إلى ما يتمنون، وأما إذا جعلنا ﴿وَلَا نُكَذِّبَ﴾ إلخ جملة حالية وهو الوجه الثالث فإنها تصدق بحصول كل من عدم التكذيب والإيمان قبل الرد إلى الدنيا، فلا يكون التمني متعلقا بهما لذاتهما لأنهما حاصلان والحاصل لا يتمنى وإنما يكون متعلقا بالرد المصاحب لهما، الذي تمنى وقوعه بعد وقوعهما، وذلك وعد غير خبري ولا إنشائي بهما؛ لأن الحاصل لا يوعد به كما أنه لا يتمنى، وقد بينا في تفسير ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ ـ الآية ـ الفرق بين الحال المفردة والجملة الحالية وأن الأصل في مضمون الحالية أن يكون سابقا للفعل العامل في الحال، وهؤلاء رجعوا عن التكذيب عند وقفهم على النار وحصل لهم الإيمان القاطع بصدق الرسول فتمنوا أن يعودوا إلى الدنيا مصاحبين لذلك، فيصح أن يقال في الجملة إن عدم التكذيب والإيمان داخلان تحت حكم التمني من حيث اشتراطهما فيه، لا أنهما متمنيان كالرد سواء.

د. وأما قراءة حمزة وحفص بنصب الفعلين فقيل: إنه على جواب التمني، وقيل: إن الواو للحال كقولهم: لا تأكل السمك وتشرب اللبن، وقيل: إنها أجريت مجرى فاء السببية أو أبدلت منها وأيدوه بقراءة ابن مسعود (فلا نكذب) وقيل: إن العطف على مصدر متوهم، أي يا ليت لنا ردا وانتفاء تكذيب وكونا من المؤمنين، فعلى التوجيهين الأولين لهذه القراءة يدخل ما ذكر في حكم التمني على الوجه الذي وجهنا به جعل الجملة حالية في قراءة الجمهور، وظاهر التوجيه الثالث تعلق التمني بالأمور الثلاثة على سواء، وقد علم من توجيه هذه القراءة توجيه قراءة ابن عامر أيضا.

٨. لعل حكمة اختلاف القراءات بيان اختلاف أحوال أولئك المشركين في تمنيهم:

أ. بأن يكون منهم من يتمنى أن يرد إلى الدنيا وأن يكون فيها غير مكذب بآيات الله الكونية والمنزلة

وأن يكون من المؤمنين.

ب. ومنهم من يتمنى الرد مصاحبا لما حدث له في الآخرة من الندم على التكذيب ومن الإيمان بما جاء به الرسول، إذ لا تلازم بين الرد وبقاء ذلك الأمر الحادث.

ج. ومنهم من يتمناه ليكون سببا للإيمان وعدم التكذيب.

د. ومنهم من يعد بذلك وعدا.

هـ. وهذا الاختلاف في كيفيات ذلك التمني أقرب إلى الحصول من اتفاق أولئك الكفار الكثيرين على كيفية واحدة مما يدل عليه اختلاف القراءات، لأنه هو المعهود من البشر، ولعلهم يتمنون ذلك جاهلين أنه محال، على أن الناس يتمنون المحال ولو على سبيل التحسر.

٩. قال تعالى مبينا كنه حالهم وما يظهر لهم منه في الآخرة وما يقتضي أن يكونوا عليه في الدنيا لو ردوا إليها: ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ قالوا: إن الإضراب في هذه الآية إضراب عما يدل عليه تمنيهم من إدراكهم لقبح الكفر وسوء مغبته، ولحقيقة الإيمان، وحسن عاقبته، وعزمهم على الإيمان وترك التكذيب لو أعطوا ما تمنوا من الرد إلى الدنيا، ووعدهم بذلك نصا أو ضمنا، كأنه يقول: ليس الأمر كما يوهمه كلامهم في التمني، بل ظهر لهم ما كانوا يخفونه في الدنيا، وفيه أقوال:

أ. أنه أعمالهم السيئة وقبائحهم الشائنة ظهرت في صحائفهم، وشهدت بها عليهم جوارحهم.

ب. أنه أعمالهم التي كانوا يغترون بها، ويظنون أن سعادتهم فيها إذ يجعلها الله تعالى هباء منثورا.

ج. أنه كفرهم وتكذيبهم الذي أخفوه في الآخرة من قبل أن يوقفوا على النار كما تقدم حكايته عنهم في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾

د. أنه الحق أو الإيمان الذي كانوا يسرونه ويخفونه بإظهار الكفر والتكذيب عنادا للرسول واستكبارا عن الحق، وهذا إنما ينطبق على أشد الناس كفرا من المعاندين المتكبرين الذين قال في بعضهم: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾

ه. أنه ما كان يخفيه الرؤساء عن أتباعهم من الحق الذي جاءت به الرسل بدا للأتباع الذين كانوا مقلدين لهم، ومنه كتمان بعض علماء أهل الكتاب لرسالة نبينا ﷺ وصفاته وبشارة أنبيائهم به.

و. أنه ما كان يخفيه المنافقون في الدنيا من إسرار الكفر وإظهار الإيمان والإسلام.

ز. أنه البعث والجزاء ومنه عذاب جهنم، وأن إخفاءهم له عبارة عن تكذيبهم به، وهو المعنى الأصلي لمادة الكفر.

ح. أن في الكلام مضافا محذوفا، أي بدا لهم وبال ما كانوا يخفونه من الكفر والسيئات، ونزل بهم عقابه فتبرموا وتضجروا، وتمنوا التقصي منه بالرد إلى الدنيا وترك ما أفضى إليه من التكذيب بالآيات وعدم الإيمان، كما يتمنى الموت من أمضه الداء العضال لأنه ينقذه من الآلام لا لأنه محبوب في نفسه.

ط. ونحن لا نرى رجحان قول من هذه الأقوال، بل الصواب عندنا قول آخر، وهو أنه يظهر يومئذ لكل من أولئك الذين ورد الكلام فيهم ولأشباههم من الكفار ما كان يخفيه في الدنيا مما هو قبيح في نظره أو نظر من يخفيه عنهم، فالذين كفروا عنادا واستكبارا كالرؤساء الذين ظهر لهم الحق كانوا يخفون ذلك الحق ومنهم بعض علماء أهل الكتاب والمنافقون الذين أظهروا الإيمان جبنا وضعفا أو مكرا وكيدا كانوا يخفون الكفر عن المؤمنين، وأصحاب الأعمال القبيحة من الفواحش والمنكرات يخفونها عمن لا يقترفها معهم والذين يعتذرون عن ترك الواجبات بالأعذار الكاذبة يخفون حقيقة حالهم عمن يعتذرون إليهم، والمقلدون يخفون في أنفسهم ما يلوح فيها أحيانا من برق الدليل المظهر لما كمن في أعماق الفطرة من الحق، سواء أومض ذلك البرق من آيات الله في الآفاق، وألسنة حملة الحجة والبرهان، أو من آيات الله في أنفسهم، قبل أن تحيط بهم خطيئتهم ويختم على قلوبهم، وهؤلاء المقلدون العميان هم الذين بينت الآيات حالهم في الدنيا، وإنما جعلنا ما تلا ذلك من بيان حالهم في الآخرة عاما لكل من مات على الكفر لتساويهم فيه وعدم استفادة أحد منهم من استعداده للإيمان، لعدم استعمالهم لذلك الاستعداد.

١٠. وقد يعم الإخفاء للشيء ما كان منه بالقصد إليه والإرادة له في ذاته، وما كان ظاهرا في نفسه وخفي عن أهله بأعمال وتقاليد لهم عدوا بها مخفين له، كالعقائد والفضائل التي أودعت في الفطرة، ودلت عليها آيات الله البينة، وأعرض عنها الضالون والتزموا ما يضادها فأخفوها بذلك حتى عن أنفسهم، فإذا كان يوم الله الذي تبلى فيه السرائر، وتنكشف جميع الحقائق، وتشهد على الناس الأعضاء والجوارح، إذ تنشر كتب الأعمال التي كانت مطوية في زوايا الأرواح، فتتمثل لكل فرد أعماله النفسية والبدنية كلها، في كتابه الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، كما تتمثل الوقائع المصورة، في المنظرة التي يعرض فيها ما يعرف الآن بالصور المتحركة، فإن حفظ ألواح الأنفس المدركة لما ترسمه وتطبعه العقائد والأعمال فيها

أقوى وأثبت من حفظ ألواح الزجاج الحساسة لما يرسمه ويطبعه نور الشمس عليها، وعرض الصور الشمسية في الدنيا دون عرض الصور النفسية في الآخرة، وبهذا البيان تعلم أن كل أحد يظهر له في الآخرة كل ما كان خفيا عنه من خير نفسه وشرها ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ أي لا تخفى على أنفسكم، فضلا عن خفائها على ربكم، وقد خص بالذكر هنا بدو ما كان يخفيه الكفار، ولكل مقام مقال.

١١. بين الله تعالى لنا أن تمني أولئك الكفار لما تمنوا لا يدل على تبدل حقيقتهم، بل بدا لهم ما كان خفيا عنهم منها، بإخفائهم إياه عن الناس أو عنها: (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون)، فتمنوا الخروج مما حاق بهم ولكن الحقيقة لا تتغير، وإنما يكون لها أطوار، تختلف باختلاف الأحوال والأوطار.

١٢. ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ من الشرك والكفر والنفاق والكيد والمكر والمعاصي، لأن مقتضى ذلك من أنفسهم ثابت فيها، وما دامت العلة ثابتة فإن أثرها وهو المعلول لا يتخلف عنها.

١٣. ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما تضمنه تمنيهم من الوعد بترك التكذيب بآيات الله، وبالكون من المؤمنين بالله ورسوله سواء علموا حين تمنوا ووعدوا أنهم كاذبون في هذا الوعد أم لم يعلموا، فلو ردوا إلى الدنيا لرد المعاند المستكبر منهم مشتملا بكبره وعناده، وكل من الماكر والمنافق مرتديا بمكره ونفاقه، والمقلد مقيدا بتقليده لغيره وعدم ثقته بفهمه وعلمه، والشهواني ملوثا بشهواته المالكة لرقه.

١٤. وأما ما ظهر لهم إذ وقفوا على النار من حقيقة ما جاء به الرسل، فإنما مثله كمثل ما كان يلوح لهم في الدنيا من البينات والعبر، ألم تر كيف يكابرون فيها أنفسهم ويغالطون عقلهم ووجدانهم، ويمارون مناظريهم وأخدانهم؟ يشرب الفاسق الخمر فيصدع، أو يلعب القمار فيخسر، ويأكل المريض أو ضعيف البنية الطعام الشهي أو يكثر منه فيتضرر ويروى غير هؤلاء من المخالفين لشرع الله المنزل بالحق، أو لسننه الثابتة التي أقام بها نظام الخلق، ما حل من الشقاء بغيره ممن سبقه إلى مثل عمله فيندم كل واحد ممن ذكرنا، ويتوب ويعزم على ألا يعود، وإنما يكون هذا عند فقد داعية العمل، ووجود داعية الترك، فإذا عادت الداعية إلى العمل عاد إليه خضوعا لما اعتاد وألف، وترجيحا لما يلذ على ما ينفع.

١٥. ومن وقائع العبر في ذلك ما حدث لأخ لي عملت له عملية جراحية خدر قبلها بالبنج (كلورفورم) فكان من تأثيره فيه أنه شعر بأن روحه تسل من بدنه وأنه قادم على ربه وقد طال الأمد على

اندمال جرحه، وكان قبل ظهور أمارات الشفاء منه يخاف أن يذهب بنفسه فيندم على ما فات ويتحسر على ما كان منه من التفريط والتقصير في الواجبات وإضاعة الأوقات الطويلة في البطالة واللهو وإن كان من المباحات وعزم على الجد والتشمير فيما بقي من عمره، إن عافاه الله من مرضه، حتى عزم على الاستمرار على ترك شرب الدخان، الذي منعه الطبيب منه في أثناء أخذه بالعلاج، ولكنه لما عاد إلى مثل ما كان عليه من الصحة على أنها لم تكن سابغة عاد كذلك لجميع أعماله وعاداته السابقة، على أنه تذكر من تلقاء نفسه هذه الآية: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ وعد ما وقع له شاهدا لها ومثالا تعرف به حقيقة تفسيرها.

١٦. ويستنبط من الآية أن الطريقة المثلى لإقامة الناس على صراط الحق والفضيلة إنما هي حملهم على ذلك بالعمل والتعويد، مع التعليم وحسن التلقين، كما يربى الأطفال في الصغر، وكما يمرن الرجال على أعمال العسكر، وأن من أكبر الخطأ أن يسمح للأحداث بطاعة شهواتهم، واتباع أهوائهم، بشبهة تربيتهم على الحرية والاستقلال، الذي يهديهم إلى الحق والفضيلة بما يفيدهم العلم في سن الرشد من الاقتناع بطرق الاستدلال، أقول: إن هذا من أكبر الخطأ وأنا عالم بفضل التربية الاستقلالية ومن الدعاة إليها لأنه قلما يوجد في الناس من يتبع هواه وشهواته في الصغر ثم يرجع عن ذلك كله في الكبر، بعد أن يصير ملكة وعادة له، لقيام الدليل عنده على أنه ينافي الحق أو العدل والفضيلة، وإنما يقع مثل هذا من أفراد من الناس خلقوا مستعدين للحكمة، بما أوتوا من سلامة الفطرة وقوة العزيمة، أو من اتباع الرسل في زمن البعثة، وأكثر البشر مسخرون لعادتهم، منقادون لما ألفوا في أول نشأتهم، لا يخالفون ذلك إلا قليلا، يتكلفون المخالفة تكلفا عند عروض ما يقتضي ذلك، فإذا زال المقتضى عادوا إلى عادهم وشنشنتهم، وعملوا على سابق شاكلتهم وإنما تربية الصغار على ما عرف من الحق، وتقرر من أصول الفضيلة والأدب، كتربيتهم على النظافة ومراعاة قوانين الصحة، لا يشترط فيها أن يعرفوا من أول النشأة فائدة ذلك بالدليل والبرهان، وتأخير تلقينهم هذه الفائدة إلى وقت الاستعداد لها في الكبر لا ينافي تربية الاستقلال، وأوضح الشواهد والأمثلة المعروفة على ما قلنا فشو السكر في أمم الإفرنج ومقلدتهم من الشرقيين، فإن أكثرهم يعلمون أنه ضار قبيح، ولا يكاد يوجد في مائة الألف منهم واحد يتركه بعد أن اعتاده وأدمنه لاقتناعه بضرره مما ثبت من الدلائل الطبية والتجارب القطعية.

١٧. ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾، بين الله تعالى لنا في هذه الآيات شأنا

آخر من شئون الكفار المكذبين بآياته في الدنيا وهو غرورهم بها، وافتتانهم بمتاعها، وإنكارهم البعث والجزاء، وما يقابله من حالهم في الآخرة يوم يكشف الغطاء، وهو ما يكون من حسرتهم وندمهم على تفريطهم السابق، وغرورهم بذلك المتاع الزائل، وقفى عليه ببيان حقيقة الدنيا والمقابلة بينها وبين الآخرة، فقال عز من قائل: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ قيل: إن هذه الآية تتمة لما سبقها، وإن (قالوا) فيها معطوف على (عادوا) فيما قبلها، أي لو رد أولئك إلى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه من الكفر وسيء الأعمال، وصرحوا ثانية بما كانوا عليه من إنكار البعث والجزاء، والظاهر المختار ما بيناه آنفا فالعطف فيه عطف جمل مستأنف، و﴿إِنْ﴾ في ابتداء مقول القول نافية بمعنى (ما) أي وقال أولئك المشركون: ما الحياة إلا حياتنا الدنيا لا حياة بعدها، وما نحن بمبعوثين بعد الموت، وسنذكر ما يستلزمه هذا الاعتقاد من الشر والفساد في آخر تفسير هذه الآيات.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بين الله في الآية السابقة حال طائفة من المشركين تلقى السمع مصغية للقرآن لكن لا يدخل القلب شيء مما تسمع، لما عليه من أكنة التقليد، والاستنكار لكل شيء جديد، فهم يستمعون ولا يسمعون؛ وبين في هاتين الآيتين بعض ما يكون من أمرهم يوم القيامة وتمنيهم العودة إلى الدنيا ليعملوا صالح العمل ويكونوا من المؤمنين حقا ثم كذبهم فيما يقولون وأنهم لو ردوا لعادوا لما كانوا فيه لفقد استعدادهم للإيمان، وأن حالهم بلغ مبلغا لا يؤثّر فيه كشف الغطاء ورؤية الفزع والأهوال.

٢. ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ أي ولو ترى أيها السامع ما يحل بأولئك المكذبين من الفزع والهول حين تقفهم ملائكة العذاب على النار مشرفين عليها من أرض الموقف، وندمهم على كفرهم وحسرتهم على ما فرط منهم في جنب الله وتمنيهم ما لا سبيل للحصول عليه ـ لرأيت ما لا يحيط به الوصف ولا يقدر على التعبير عنه اللسان، ولا يبلغ تصويره البيان، ولو أوتى المتكلم بلاغة سحبان.

٣. ثم ذكر ما يحدث منهم حينئذ فقال: ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ

---

(١) تفسير المراغي ٧/ ١٠١.

الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يقول هؤلاء المشركون بربهم إذا حبسوا على النار: ليتنا نرد إلى الدنيا حتى نتوب ونعمل صالحا ولا نكذب بآيات الله وحججه التي نصبها دلالة على وحدانيته وصدق رسله، بل نكون من المصدقين به وبرسله ومن المتبعين لأمره ونهيه.

٤. والخلاصة - إنهم حين عاينوا الشدائد والأهوال بسبب تقصيرهم تمنّوا الردّ إلى الدنيا ليسعوا في إزالة ذلك التقصير ويتركوا التّكذيب بالآيات ويعملوا صالح العمل، وتمنى هذا الرد إلى الدنيا بناء على جهلهم بأنه محال، أو أنهم مع علمهم باستحالته لا مانع من تمنيه على سبيل التحسر، لأنه يصح أن يتمنى ما لا يكون.

٥. ثم بين أن هذا التمني لم يكن لتغير حالهم، بل لأنه بدا لهم ما كان خفيا عنهم فقال: ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي بدا لهم سوء عاقبة ما كانوا يخفونه من الكفر والسيئات ونزل بهم عقابه فتبرموا وتضجروا وتمنّوا الخلاص منه بالرد إلى الدنيا وترك ما أفضى إليه من التكذيب بالآيات وعدم الإيمان كما يتمنى الموت من أنهكه المرض وأضناه الداء العضال لأنه ينقذه من الآلام لا لأنه محبوب في نفسه ولا مرجوّ لذاته.

٦. بيان هذا أنه إذا جاء ذلك اليوم الذي تبلى فيه السرائر وتنكشف جميع الحقائق، وتشهد على الناس الأعضاء والجوارح، وتتمثل لكل فرد أعماله النفسية والبدنية في كتابه الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها كما تتمثل الوقائع مصوّرة في آلة الصور المتحركة (فلم السينما): فكل أحد يظهر له في الآخرة ما كان خافيا عليه من خير في نفسه وشر ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ أي فهي لا تخفى على أنفسكم فضلا عن خفائها على ربكم.

٧. والخلاصة - إنه تعالى بين لنا أن تمنى أولئك الكفار لما تمنّوا لا يدل على تبدل حقيقتهم، بل بدا لهم ما كان خافيا عليهم من أحوالهم بإخفائهم إياه على الناس أو عليهم ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فتمنوا الخروج مما حاق بهم، ولكن الحقيقة لا تتغير، وإنما يكون للنفوس أطوار وأحوال.

٨. ثم بين أنهم كاذبون في هذا الندم فقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ من الكفر والنفاق والكيد والمكر والمعاصي فإن ذلك من أنفسهم، ثابت فيها لخبث طينتهم وسوء استعدادهم، ومن ثم لا

ينفعهم مشاهدة ما شاهدوا ولا سوء ما رأوا.

٩. ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما تضمنه تمنيهم من الوعد بترك التكذيب بآيات الله، وبالكون من المؤمنين بالله ورسوله، فلو ردوا إلى الدنيا لرد المعاند المستكبر منهم مشتملا بكبره وعناده، والمنافق مرتدا بمكره ونفاقه، والشهواني ملوّثا بشهواته القابضة على زمامه.

١٠. وأما ما ظهر لهم إذ وقفوا على النار من حقيقة ما جاء به الرسول، فما مثله إلا مثل ما يلوح لهم في الدنيا من الآيات والعبر، فهم يكابرون فيها أنفسهم، ويغالطون عقولهم ووجداناتهم، ألا ترى شارب الخمر والمقامر يريان ما حل بغيرهما من الشقاء فيظهران الندم على ما فرط منهما ويتوبان ويعزمان على ألا يعودا إلى مثل ما عملا، ثم لا يلبثان أن يرجعا سيرتهما الأولى خضوعا لما اعتادا وألفا، وترجيحا للذة العاجلة على المنفعة الآجلة.

١١. ومن هذا يستبين لك أن الطريقة المثلى لتعويد الناس الفضيلة، هي حملهم عليها بالعمل والمران وحسن التلقين والتعليم كما يمرّن الأطفال الصغر والرجال على أعمال الجندية، ولا ينبغي أن يسمح للأحداث بإطاعة شهواتهم واتباع أهوائهم، ظنا أن هذا يعوّدهم الحرية والاستقلال فيهديهم ذلك إلى الحق والفضيلة، إذ قلما يوجد من يتبع شهواته في الصغر ثم يعدل عن ذلك في الكبر بعد أن يصير طبيعة وعادة، فما مثل تربية الأطفال على الآداب والفضائل إلا مثل تربيتهم على النظافة ومراعاة القوانين الصحية فإنا نعوّدهم ذلك في الصغر ثم هم يعرفون فوائد ذلك في الكبر.

١٢. ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أي لو ردوا إلى الدنيا لعادوا إلى ما نهوا عنه من الكفر وسيئ الأعمال، ولأنكروا البعث والحساب والجزاء، وقالوا لا ثواب ولا عقاب في الدار الآخرة.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. إنهم مساكين أولئك الذين يجعلون همهم كله في الحيلولة بين أنفسهم والناس معهم وبين هدى

(١) في ظلال القرآن: ٢/ ١٠٦٨.

الله! مساكين! ولو تبدوا في ثياب الجبابرة وزي الطواغيت! مساكين فهم لا يهلكون إلا أنفسهم في الدنيا والآخرة، وإن بدا لهم حينا من الدهر وبدا للمخدوعين بالزبد أنهم رابحون مفلحون، ومن شاء أن يرى فلينظر في الصفحة الأخرى المواجهة لهذه الصفحة الأولى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾! إنه المشهد المقابل لمشهدهم في الدنيا.. مشهد الاستخذاء والندامة والخزي والحسرة، في مقابل مشهد الإعراض والجدال والنهي والنأي والادعاء العريض! ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾

٢. لو ترى ذلك المشهد! لو تراهم وقد حبسوا على النار لا يملكون الإعراض والتولي! ولا يملكون الجدل والمغالطة! لو ترى لرأيت ما يهول! ولرأيتهم يقولون: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فهم يعلمون الآن أنها كانت (آيات ربنا)! وهم يتمنون لو يردون إلى الدنيا، وعندئذ فلن يكون منهم تكذيب بهذه الآيات، وعندئذ سيكونون من المؤمنين! ولكنها ليست سوى الأماني التي لا تكون! على أنهم إنما يجهلون جبلتهم، فهي جبلة لا تؤمن، وقولهم هذا عن أنفسهم: إنهم لو ردوا لما كذبوا ولكانوا مؤمنين، إنما هو كذب لا يطابق حقيقة ما يكون منهم لو كان لإجابتهم من سبيل! وإنهم ما يقولون قولتهم هذه، إلا لأنه تكشف لهم من سوء عملهم وسوء مغبتهم ما كانوا من قبل يخفونه على أتباعهم ليوهموهم أنهم محقون، وأنهم ناجون، وأنهم مفلحون.

٣. ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ إن الله يعلم طبيعتهم؛ ويعلم إصرارهم على باطلهم؛ ويعلم أن رجفة الموقف الرعيب على النار هي التي أنطقت ألسنتهم بهذه الأماني وهذه الوعود.. ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾

٤. ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ قضية البعث والحساب والجزاء في الدار الآخرة من قضايا العقيدة الأساسية، التي جاء بها الإسلام؛ والتي يقوم عليها بناء هذه العقيدة بعد قضية وحدانية الألوهية، والتي لا يقوم هذا الدين ـ عقيدة وتصورا، وخلقا وسلوكا، وشريعة ونظاما ـ إلا عليها.. وبها..

٥. إن هذا الدين الذي أكمله الله، وأتم به نعمته على المؤمنين به، ورضيه لهم دينا ـ كما قال لهم في كتابه الكريم ـ هو منهج للحياة كامل في حقيقته، متكامل متناسق في تكوينه.. (يتكامل) ويتناسق فيه

تصوره الاعتقادي مع قيمه الخلقية، مع شرائعه التنظيمية.. وتقوم كلها على قاعدة واحدة من حقيقة الألوهية فيه وحقيقة الحياة الآخرة.

٦. فالحياة ـ في التصور الإسلامي ـ:

أ. ليست هي هذه الفترة القصيرة التي تمثل عمر الفرد؛ وليست هي هذه الفترة المحدودة التي تمثل عمر الأمة من الناس؛ كما أنها ليست هي هذه الفترة المشهودة التي تمثل عمر البشرية في هذه الحياة الدنيا، إن الحياة ـ في التصور الإسلامي ـ تمتد طولا في الزمان، وتمتد عرضا في الآفاق، وتمتد عمقا في العوالم، وتمتد تنوعا في الحقيقة.. عن تلك الفترة التي يراها ويظنها ويتذوقها من يغفلون الحياة الآخرة من حسابهم ولا يؤمنون بها.

ب. إن الحياة ـ في التصور الإسلامي ـ تمتد في الزمان، فتشمل هذه الفترة المشهودة ـ فترة الحياة الدنيا ـ وفترة الحياة الأخرى التي لا يعلم مداها إلا الله؛ والتي تعد فترة الحياة الدنيا بالقياس إليها ساعة من نهار! وتمتد في المكان، فتضيف إلى هذه الأرض التي يعيش عليها البشر؛ دارا أخرى: جنة عرضها كعرض السماوات والأرض؛ ونارا تسع الكثرة من جميع الأجيال التي عمرت وجه الأرض ملايين الملايين من السنين! وتمتد في العوالم، فتشمل هذا الوجود المشهود إلى وجود مغيب لا يعلم حقيقته كلها إلا الله؛ ولا نعلم نحن عنه إلا ما أخبرنا به الله، وجود يبدأ من لحظة الموت، وينتهي في الدار الآخرة، وعالم الموت وعالم الآخرة كلاهما من غيب الله، وكلاهما يمتد فيه الوجود الإنساني في صور لا يعلمها إلا الله.

ج. وتمتد الحياة في حقيقتها؛ فتشمل هذا المستوي المعهود في الحياة الدنيا، إلى تلك المستويات الجديدة في الحياة الأخرى.. في الجنة وفي النار سواء.. وهي ألوان من الحياة ذات مذاقات ليست من مذاقات هذه الحياة الدنيا.. ولا تساوي الدنيا ـ بالقياس إليها ـ جناح بعوضة!

٧. والشخصية الإنسانية ـ في التصور الإسلامي ـ يمتد وجودها في هذه الأبعاد من الزمان، وفي هذه الآفاق من المكان، وفي هذه الأعماق والمستويات من العوالم والحيوات.. ويتسع تصورها للوجود كله؛ وتصورها للوجود الإنساني؛ ويتعمق تذوقها للحياة؛ وتكبر اهتماماتها وتعلقاتها وقيمها، بقدر ذلك الامتداد في الأبعاد والآفاق والأعماق والمستويات.. بينما أولئك الذين لا يؤمنون بالآخرة، يتضاءل تصورهم للوجود الكوني، وتصورهم للوجود الإنساني؛ وهم يحشرون أنفسهم وتصوراتهم وقيمهم

وصراعهم في ذلك الجحر الضيق الصغير الضئيل من هذه الحياة الدنيا! ومن هذا الاختلاف في التصور يبدأ الاختلاف في القيم، ويبدأ الاختلاف في النظم.. ويتجلى كيف أن هذا الدين منهج حياة متكامل متناسق؛ وتتبين قيمة الحياة الآخرة في بنائه: تصورا واعتقادا، وخلقا وسلوكا، وشريعة ونظاما.. إن إنسانا يعيش في هذا المدى المتطاول من الزمان والمكان والعوالم والمذاقات، غير إنسان يعيش في ذلك الجحر الضيق، ويصارع الآخرين عليه، بلا انتظار لعوض عما يفوته، ولا لجزاء عما يفعله وما يفعل به..

٨. إلا في هذه الأرض ومن هؤلاء الناس! إن اتساع التصور وعمقه وتنوعه ينشئ سعة في النفس وكبرا في الاهتمامات ورفعة في المشاعر! ينشأ عنها هي بذاتها خلق وسلوك، غير خلق الذين يعيشون في الجحور وسلوكهم! فإذا أضيف إلى سعة التصور وعمقه وتنوعه، طبيعة هذا التصور، والاعتقاد في عدل الجزاء في الدار الآخرة، وفي ضخامة العوض عما يفوت ونفاسته؛ استعدت النفس للبذل في سبيل الحق والخير والصلاح الذي تعلم أنه من أمر الله، وأنه مناط العوض والجزاء؛ وصلح خلق الفرد واستقام سلوكه ـ متى استيقن من الآخرة كما هي في التصور الإسلامي ـ وصلحت الأوضاع والأنظمة، التي لا يتركها الأفراد تسوء وتنحرف، وهم يعلمون أن سكوتهم على فسادها لا يحرمهم صلاح الحياة الدنيا وحدها وخيراتها؛ ولكنه يحرمهم كذلك العوض في الآخرة، فيخسرون الدنيا والآخرة!

٩. والذين يفترون على عقيدة الحياة الآخرة فيقولون: إنها تدعو الناس إلى السلبية في الحياة الدنيا؛ وإلى إهمال هذه الحياة؛ وتركها بلا جهد لتحسينها وإصلاحها؛ وإلى تركها للطغاة والمفسدين تطلعا إلى نعيم الآخرة.. الذين يفترون هذا الافتراء على عقيدة الآخرة يضيفون إلى الافتراء الجهالة! فهم يخلطون بين عقيدة الآخرة ـ كما هي في التصورات الكنسية المنحرفة ـ وعقيدة الآخرة كما هي في دين الله القويم.. فالدنيا ـ في التصور الإسلامي ـ هي مزرعة الآخرة، والجهاد في الحياة الدنيا لإصلاح هذه الحياة، ورفع الشر والفساد عنها، ورد الاعتداء عن سلطان الله فيها، ودفع الطواغيت وتحقيق العدل والخير للناس جميعا.. كل أولئك هو زاد الآخرة؛ وهو الذي يفتح للمجاهدين أبواب الجنة، ويعوضهم عما فقدوا في صراع الباطل، وما أصابهم من الأذى.. فكيف يتفق لعقيدة هذه تصوراتها أن يدع أهلها الحياة الدنيا تركد وتأسن، أو تفسد وتختل، أو يشيع فيها الظلم والطغيان، أو تتخلف في الصلاح والعمران.. وهم يرجون الآخرة، وينتظرون فيها الجزاء من الله؟

١٠. إن الناس إذا كانوا في فترات من الزمان يعيشون سلبيين؛ ويدعون الفساد والشر والظلم والطغيان والتخلف والجهالة تغمر حياتهم الدنيا ـ مع ادعائهم الإسلام ـ فإنما هم يصنعون ذلك كله أو بعضه لأن تصورهم للإسلام قد فسد وانحرف؛ ولأن يقينهم في الآخرة قد تزعزع وضعف! لا لأنهم يدينون بحقيقة هذا الدين؛ ويستيقنون من لقاء الله في الآخرة، فما يستيقن أحد من لقاء الله في الآخرة، وهو يعي حقيقة هذا الدين، ثم يعيش في هذه الحياة سلبيا، أو متخلفا، أو راضيا بالشر والفساد والطغيان.

١١. إنما يزاول المسلم هذه الحياة الدنيا، وهو يشعر أنه أكبر منها وأعلى، ويستمتع بطيباتها أو يزهد فيها وهو يعلم أنها حلال في الدنيا خالصة له يوم القيامة، ويجاهد لترقية هذه الحياة وتسخير طاقاتها وقواها وهو يعرف أن هذا واجب الخلافة عن الله فيها، ويكافح الشر والفساد والظلم محتملا الأذى والتضحية حتى الشهادة وهو إنما يقدم لنفسه في الآخرة.. إنه يعلم من دينه أن الدنيا مزرعة الآخرة؛ وأن ليس هنالك طريق للآخرة لا يمر بالدنيا؛ وأن الدنيا صغيرة زهيدة ولكنها من نعمة الله التي يجتاز منها إلى نعمة الله الكبرى..

١٢. وكل جزئية في النظام الإسلامي منظور فيها إلى حقيقة الحياة الآخرة؛ وما تنشئه في التصور من سعة وجمال وارتفاع؛ وما تنشئه في الخلق من رفعة وتطهر وسماحة ومن تشدد في الحق وتحرج وتقوى؛ وما تنشئه في النشاط الإنساني من تسديد وثقة وتصميم.

١٣. من أجل ذلك كله لا تستقيم الحياة الإسلامية بدون يقين في الآخرة، ومن أجل ذلك كله كان هذا التوكيد في القرآن الكريم على حقيقة الآخرة.. وكان العرب في جاهليتهم ـ وبسبب من هذه الجاهلية ـ لا تتسع آفاقهم التصورية والشعورية والفكرية للاعتقاد في حياة أخرى غير هذه الحياة الدنيا؛ ولا في عالم آخر غير هذا العالم الحاضر: ولا في امتداد الذات الإنسانية إلى آماد وآفاق وأعماق غير هذه الآماد المحسوسة.. مشاعر وتصورات أشبه شيء بمشاعر الحيوان وتصوراته.. شأنهم في هذا شأن الجاهلية الحاضرة.. (العلمية) كما يصر أهلها على تسميتها! ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾..

١٤. وكان الله سبحانه يعلم أن الاعتقاد على هذا النحو يستحيل أن تنشأ في ظله حياة إنسانية رفيعة كريمة.. هذه الآفاق الضيقة في الشعور والتصور، التي تلصق الإنسان بالأرض، وتلصق تصوره بالمحسوس منها كالبهيمة.. وهذه الرقعة الضيقة من الزمان والمكان، التي تطلق السعار في النفس،

والتكالب على المتاع المحدود، والعبودية لهذا المتاع الصغير، كما تطلق الشهوات من عقالها تعربد وحدها بلا كابح، ولا هدنة، ولا أمل في عوض، إن لم تقض هذه الشهوات الهابطة الصغيرة، التي لا تكاد تبلغ نزوات البهيمة!.. وهذه الأنظمة والأوضاع، التي تنشأ في الأرض منظورا فيها إلى هذه الرقعة الضيقة من الزمان والمكان؛ بلا عدل ولا رحمة، ولا قسط ولا ميزان.. إلا أن يصارع الأفراد بعضهم بعضا، وتصارع الطبقات بعضها بعضا، وتصارع الأجناس بعضها بعضا.. وينطلق الكل في الغابة انطلاقا لا يرتفع كثيرا على انطلاق الوحوش والغيلان! كما نشهد اليوم في عالم (الحضارة).. في كل مكان.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، هو ردّة أخرى لهؤلاء المكذبين الضالين، إلى موقف الحساب والجزاء في الآخرة.. وفي كل مرّة يواجهون في الآخرة، التي حشروا إليها حشرا وهم أحياء في ديارهم وبين أهليهم ـ يواجهون مرحلة من مراحل الحساب في هذا اليوم العظيم..

٢. ففي المرّة الأولى: ووجهوا بشركهم: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.. ففي هذه المواجهة كشف لهم عن التهمة، وعن تلبّسهم بها، دون أن يستمعوا إلى الحكم وإلى العقوبة التي يؤخذون بها.. ثم ردّوا إلى الدنيا مرّة أخرى، ليواجهوا النبيّ من جديد بكفرهم وعنادهم وليصلوا ما انقطع، بهذه الرحلة التي حشروا فيها للحساب والمساءلة، وليلقوا النبي بما كانوا يلقونه به من تكذيب واستهزاء..

٣. ثم هؤلاء هم يردّون مرة ثانية إلى موقف الحساب يوم القيامة، ولكن لا ليحاسبوا من جديد، فقد حوسبوا من قبل، وأسقط في أيديهم، وقامت الحجة عليهم، وإنما ليستمعوا إلى الحكم في جنايتهم التي جنوها على أنفسهم.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾.. فها هم أولاء على

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/ ١٥٤.

حفير جهنم، يساقون إليها سوقا عنيفا.. ولكنهم ما إن يعاينوا هذا البلاء الذي يفتح فاه ليبتلعهم، حتى يضطربوا ويفزعوا، ويقولون: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾؟ وأنّى لهم أن يردّوا؟ ثم ماذا تنفعهم الرّدّة إلى الحياة مرة أخرى؟ ألم يكن فيما عرض الله عليهم من موقف الحساب والجزاء، وهم في دنياهم التي كانوا فيها ـ ألم يكن في هذا تجربة لهم، لو أنهم أحسنوا النظر إليها، وانتفعوا بمعطياتها؟

٤ . إنهم لن يرجعوا أبدا عما هم فيه من ضلال.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى في الآية الواردة بعد هذا في قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾

٥ . سؤال وإشكال: في قوله تعالى: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ ما يسأل عنه.. وهو: ما وجه النصب للفعل (ولا نكذب) مع عطفه على الفعل المرفوع قبله: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾؟ والجواب: القراءة المشهورة: (ولا نكذب بالنصب) وقد قرئ (ولا نكذب) بالرفع عطفا على (نردّ)، ووجه النصب أن (ليت) تفيد التمني، بمعنى نتمنى أن نردّ، ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين.. فسلّطت على الفعل (نردّ) باعتبار، لفظها، ثم سلطت على الفعل (نكذب) باعتبار معناها!

٦ . ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ هو إضراب على أمانيّهم التي تمنوها، وتيئيس لهم منها، لأنها أمان لم تجىء إلا عن خوف وهلع من هذا الموقف الذي هم فيه، حين انكشف لهم ما كانوا يخفون من شرك بالله، وما يجرّهم إليه هذا الشرك من مصير مشئوم، وعذاب أليم..

٧ . ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ هو فضح لكلماتهم الكاذبة، التي أجراها على ألسنتهم سوء الموقف، ولفح السعير!

٨ . ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾، هكذا كان دينهم في الحياة الدنيا، دين يقطع أصحابه عن النظر فيما وراء هذه الحياة الدنيا التي استغواهم فيها الغيّ، وركبهم الضلال، فأضافوا وجودهم كله إلى هذه الأيام التي يعيشونها من مولدهم إلى موتهم.. ومن هنا أخذوا كل ما قدروا على أخذه في الحياة، بحق أو باطل، وأغرقوا أنفسهم فيما وقع لأيديهم من مطعوم أو مشروب، حلالا كان أو حراما.. إنهم أشبه بالجنود ليلة الحرب.. يقضونها ليلة صاخبة معربدة، ينفقون فيها كل درهم معهم، ثم يغدون إلى الحرب مفلسين، إذ لا ينتظرون حياة بعد يومهم هذا!

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾، عاد سبحانه إلى الحديث عن أحوال المكذبين يوم القيامة، وانهم حين يرون ما أعد لهم من العذاب، وما أعد للمؤمنين من الثواب يقولون: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ إلى الدنيا ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي نتوب ونعمل صالحا.. ولكن الحسرات والعبرات لا تغني شيئا إلا إذا كانت خوفا من الله وعذابه قبل أن يقع، أما بعد الوقوع فهي بكاء على الأموات ولهفة على ما فات.

٢. ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾، لا ينجو غدا من عذاب الله إلا من كان واضحا صريحا في هذه الحياة، تنسجم أقواله مع أفعاله، وهما معا انعكاس عن ذاته وواقعه، حتى كأن الجميع شيء واحد عند الله والناس، أما الغامض المبهم الذي يعرف الخالق منه ما لا يعرفه المخلوق من الرياء والنفاق، أما هذا فسوف يبدو له جزاء ريائه ونفاقه، وتذهب نفسه حسرات على إساءته، ويتمنى الخلاص بالرد إلى الدنيا، ولكن هيهات.

٣. ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في قولهم: يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين.. ولقد قرأنا عن عشرات المجرمين أنهم تابوا وهم في غياهب السجن، حتى إذا خرجوا عادوا إلى اجرامهم، وآثامهم، ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء.

٤. ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾، أي لو ردوا إلى حياتهم الأولى: لقالوا ما قالوه من قبل: لا بعث ولا حساب ولا جزاء.

٥. سؤال وإشكال: كيف ينكرون، وقد شاهدوا الهول الأكبر، وعرضوا عليه، وتوسلوا للخلاص منه، وقطعوا عهدا على أنفسهم أن لا يعودوا إلى ما كانوا عليه، والجواب: أنهم يعرفون جيدا أن الحساب والعذاب واقع لا محالة، ولكنهم يعرفون أيضا أنهم لو أعلنوا الحق وخضعوا له لفاتتهم المغانم والمكاسب، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾

---

(١) التفسير الكاشف: ٣/ ١٧٩.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. الخطاب للرسول ﷺ لأنّ في الخبر الواقع بعده تسلية له عمّا تضمّنه قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦] فإنّه ابتدأ فعقّبه بقوله: ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ [الأنعام: ٢٦] ثم أردفه بتمثيل حالهم يوم القيامة، ويشترك مع الرسول في هذا الخطاب كلّ من يسمع هذا الخبر.

٢. ﴿لَوْ﴾ شرطية، أي لو ترى الآن، و﴿إِذِ﴾ ظرفية، ومفعول ﴿تَرَى﴾ محذوف دلّ عليه ضمير ﴿وُقِفُوا﴾، أي لو تراهم، و﴿وُقِفُوا﴾ ماض لفظا والمعنيّ به الاستقبال، أي إذ يوقفون، وجيء فيه بصيغة الماضي للتنبيه على تحقيق وقوعه لصدوره عمّن لا خلاف في خبره.

٣. معنى: ﴿وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ أبلغوا إليها بعد سير إليها، وهو يتعدى بـ ﴿عَلَى﴾، والاستعلاء المستفاد بـ ﴿عَلَى﴾ مجازي معناه قوّة الاتّصال بالمكان، فلا تدلّ (على) على أنّ وقوفهم على النار كان من أعلى النار، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠]، وأصله من قول العرب: وقفت راحلتي على زيد، أي بلغت إليه، فحبست ناقتي عن السير، قال ذو الرمّة:

وقفت على ربع لميّة ناقتي فما زلت أبكي عنده وأخاطبه

فحذفوا مفعول (وقفت) لكثرة الاستعمال، ويقال: وقفه فوقف، ولا يقال: أوقفه بالهمزة.

٤. عطف عليه ﴿فَقَالُوا﴾ بالفاء المفيدة للتعقيب، لأنّ ما شاهدوه من الهول قد علموا أنّه جزاء تكذيبهم بإلهام أوقعه الله في قلوبهم أو بإخبار ملائكة العذاب، فعجّلوا فتمنّوا أن يرجعوا.

٥. وحرف النداء في قولهم: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ مستعمل في التحسّر، لأنّ النداء يقتضي بعد المنادى، فاستعمل في التحسّر لأنّ المتمنّى صار بعيدا عنهم، أي غير مفيد لهم، كقوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ﴾ [الزمر: ٥٦]

٦. ومعنى ﴿نُرَدُّ﴾ نرجع إلى الدنيا؛ وعطف عليه ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ برفع الفعلين بعد (لا) النافية في قراءة الجمهور عطفا على ﴿نُرَدُّ﴾، فيكون من جملة ما تمنّوه، ولذلك لم

---

(١) التحرير والتنوير: ٦/ ٦١.

ينصب في جواب التمنّي إذ ليس المقصود الجزاء، ولأنّ اعتبار الجزاء مع الواو غير مشهور، بخلافه مع الفاء لأنّ الفاء متأصّلة في السببية، والردّ غير مقصود لذاته وإنّما تمنّوه لما يقع معه من الإيمان وترك التكذيب، وإنّما قدّم في الذكر ترك التكذيب على الإيمان لأنّه الأصل في تحصيل المتمنّى على اعتبار الواو للمعية واقعة موقع فاء السببية في جواب التمنّي.

٧. قراءات ووجوه: قرأه حمزة والكسائي ﴿وَلَا نُكَذِّبَ﴾ ـ و﴿نَكُونَ﴾ ـ بنصب الفعلين ـ، على أنّهما منصوبان في جواب التمنّي، وقرأ ابن عامر ﴿وَلَا نُكَذِّبُ﴾ ـ بالرفع ـ كالجمهور، على معنى أنّ انتفاء التكذيب حاصل في حين كلامهم، فليس بمستقبل حتى يكون بتقدير (أن) المفيدة للاستقبال، وقرأ ﴿وَنَكُونَ﴾ ـ بالنصب ـ على جواب التمنّي، أي نكون من القوم الذين يعرفون بالمؤمنين، والمعنى لا يختلف.

٨. قوله: ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ إضراب عن قولهم ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، والمعنى بل لأنّهم لم يبق لهم مطمع في الخلاص، وبدا الشيء ظهر، ويقال: بدا له الشيء إذا ظهر له عيانا، وهو هنا مجاز في زوال الشكّ في الشيء كقول زهير:

بدا لي أنّي لست مدرك ما مضى ولا سابق شيئا إذا كان جائيا

٩. لمّا قوبل ﴿بَدَا لَهُمْ﴾ في هذه الآية بقوله: ﴿مَا كَانُوا يُخْفُونَ﴾ علمنا أنّ البداء هو ظهور أمر في أنفسهم كانوا يخفونه في الدنيا، أي خطر لهم حينئذ ذلك الخاطر الذي كانوا يخفونه، أي الذي كان يبدو لهم، أي يخطر ببالهم وقوعه فلا يعلنون به فبدا لهم الآن فأعلنوا به وصرّحوا معترفين به، ففي الكلام احتباك، وتقديره: بل بدا لهم ما كان يبدو لهم في الدنيا فأظهروه الآن وكانوا يخفونه، وذلك أنّهم كانوا يخطر لهم الإيمان لما يرون من دلائله أو من نصر المؤمنين فيصدّهم عنه العناد والحرص على استبقاء السيادة والأنفة من الاعتراف بفضل الرسول وبسبق المؤمنين إلى الخيرات قبلهم، وفيهم ضعفاء القوم وعبيدهم، كما ذكرناه عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ في هذه السورة [٥٢]، وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ في سورة الحجر [٢]، وهذا التفسير يغني عن الاحتمالات التي تحيّر فيها المفسّرون وهي لا تلائم نظم الآية، فبعضها يساعده صدرها وبعضها يساعده عجزها وليس فيها ما يساعده جميعها.

١٠. ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ ارتقاء في إبطال قولهم حتى يكون بمنزلة التسليم الجدلي في

المناظرة، أي لو أجيبت أمنيتهم وردّوا إلى الدنيا لعادوا للأمر الذي كان النبي ينهاهم عنه، وهو التكذيب وإنكار البعث، وذلك لأنّ نفوسهم التي كذّبت فيما مضى تكذيب مكابرة بعد إتيان الآيات البيّنات، هي النفوس التي أرجعت إليهم يوم البعث فالعقل العقل والتفكير التفكير، وإنّما تمنّوا ما تمنّوا من شدّة الهول فتوهّموا التخلّص منه بهذا التمنّي فلو تحقّق تمنّيهم وردّوا واستراحوا من ذلك الهول لغلبت أهواؤهم رشدهم فنسوا ما حلّ بهم ورجعوا إلى ما ألفوا من التكذيب والمكابرة، وفي هذا دليل على أنّ الخواطر الناشئة عن عوامل الحسّ دون النظر والدليل لا قرار لها في النفس ولا تسير على مقتضاها إلّا ريثما يدوم ذلك الإحساس فإذا زال زال أثره، فالانفعال به يشبه انفعال العجماوات من الزّجر والسّوط ونحوهما، ويزول بزواله حتّى يعاوده مثله.

١١. ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ تذييل لما قبله، جيء بالجملة الاسمية الدالّة على الدوام والثبات، أي أنّ الكذب سجيّة لهم قد تطبعوا عليها من الدنيا فلا عجب أن يتمنّوا الرجوع ليؤمنوا فلو رجعوا لعادوا لما كانوا عليه فإنّ الكذب سجيّتهم، وقد تضمّن تمنّيهم وعدا، فلذلك صحّ إدخاله في حكم كذبهم دخول الخاصّ في العامّ، لأنّ التذييل يؤذن بشمول ما ذيّل به وزيادة، فليس وصفهم بالكذب بعائد إلى التمنّي بل إلى ما تضمّنه من الوعد بالإيمان وعدم التكذيب بآيات الله.

١٢. ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ يجوز أن يكون عطفا على قوله: ﴿لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] فيكون جواب ﴿لَوْ﴾، أي لو ردّوا لكذّبوا بالقرآن أيضا، ولكذّبوا بالبعث كما كانوا مدّة الحياة الأولى، ويجوز أن تكون الجملة عطفت على جملة ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥]، ويكون ما بين الجملتين اعتراضا يتعلّق بالتكذيب للقرآن.

١٣. ﴿إِنْ هِيَ﴾ (إن) نافية للجنس، والضمير بعدها مبهم يفسّره ما بعد الاستثناء المفرّغ، قصد من إبهامه الإيجاز اعتمادا على مفسّره، والضمير لمّا كان مفسّرا بنكرة فهو في حكم النكرة، وليس هو ضمير قصّة وشأن، لأنّه لا يستقيم معه معنى الاستثناء، والمعنى إن الحياة لنا إلّا حياتنا الدنيا، أي انحصر جنس حياتنا في حياتنا الدنيا فلا حياة لنا غيرها فبطلت حياة بعد الموت، فالاسم الواقع بعد ﴿إِلَّا﴾ في حكم البدل من الضمير.

١٤. جملة: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ نفي للبعث، وهو يستلزم تأكيد نفي الحياة غير حياة الدنيا، لأنّ

البعث لا يكون إلّا مع حياة، وإنّما عطفت ولم تفصل فتكون موكّدة للجملة قبلها لأنّ قصدهم إبطال قول الرّسول ﷺ أنّهم يحيون حياة ثانية، وقوله تارة أنّهم مبعوثون بعد الموت، فقصدوا إبطال كلّ باستقلاله.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ذكر الله تعالى حال المشركين في الدنيا في لجاجتهم في الكفر، بإعراضهم عن الآيات البينات، وجحودهم للنبوة، ونهيهم غيرهم عن اتباعه ومجافاتهم له، وكان لا بد من المقابلة بين هذه الحالة المنحرفة المتجافية عن الهداية، وحالهم يوم القيامة إذ يعرضون على النار، ويقفون عليها، فذكر سبحانه مخاطبا النبي إنك أيها النبي لو اطلعت عليهم ورأيت حالهم إذ وقفوا على النار واطلعوا عليها ورأوها تستقبلهم بلهيبها وسعيرها ـ لرأيت هولا عظيما يدفعهم لأن يتمنوا أن يعودوا إلى الدنيا ولا يكذبوا بآيات خالقهم ومنشئهم وكالئهم وحاميهم ويكونوا من المؤمنين.

٢. وفى الآية الكريمة إشارات بيانية، بذكرها نقرب ما في الآية من بلاغة رائعة:

أ. الأولى: التعبير بـ (إذ) التي تدل على الماضي بدل (إذا) التي تدل على المستقبل، وذلك لتأكيد الوقوع، وليستبين المستقبل حاضرا قائما، ويتصور على أساس أنه موجود لا على أنه سيوجد.

ب. الثانية: أنه عبر بـ (على) بدل (في) للإشارة إلى أن مجرد الاطلاع عليها، والعلم بها بالعيان يلقى في النفس بهولها وشدتها، فما بالك بالوقوع فيها.

ج. الثالثة: أن (لو) شرطية والجواب محذوف وتقديره ـ لو رأيتهم في هول وفزع وشدة فتمنوا أن يعودوا ويصلحوا.

د. الرابعة: أن التمني كان بالنداء لصيغته وهي (ليت) كأنه يقول: (يا ليت) أقبلي فهذا وقتك الذى نستغيث بك فيه؛ إذ لا نملك إلا التمني فهو أداتنا الوحيدة، وإن كانت أداة العاجزين.

هـ. الخامسة: أن قوله تعالى: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه قراءتان ـ إحداهما ـ بنصب الباء والنون على أنها جواب التمني بإضمار محذوفه، الثانية: بضمها على تقدير محذوف، وتقدير

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/ ٢٤٧٦.

الكلام هكذا: ليتنا نرد ونحن لا نكذب، ونكون أول المؤمنين، ويكون فيها فضل توكيد بذكر وعدهم بعدم التكذيب، وبأن يكونوا من المؤمنين.

و. السادسة: توكيد إيمانهم بأنهم يخرجون من صف أهل الشرك والكفر إلى صف المؤمنين الصادقين.

٣. ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، (بل) هنا للإضراب، والرد على ما يتمنونه، والغاية التي يريدونها، والمعنى أن أولئك لا يتمنون الذى يتمنونه لأجل الهداية، بل ذلك لهول ما يرون والفزع لما يستقبلهم، ولأنه بدا لهم الأمر الذى كانوا يخفونه، ويصح أن يكون الإضراب هنا للانتقال من مقام تمنيهم إلى مقام آخر، وهو بيان أنهم لو عادوا في الدنيا وخلقت فيهم الشهوات والأهواء وعبثت بهم، واستولت عليهم لعادوا لما نهوا عنه.

٤. سؤال وإشكال: ما الذى بدا لهم وكانوا يخفونه من قبل؟ والجواب: اختلف المفسرون على آراء كلها محتملة، وهي تنته إلى رأيين:

أ. أولهما: ما كانوا يخفونه في طوايا نفوسهم وأعمالهم في الدنيا قد بدا عيانا لهم، وأحسوا فيه بقبح ما فعلوا، فبدا لهم ما كانوا يخفون من مفاسد، وبدا أن كفرهم ليس لنقص في الاستدلال، ولكن لعناد، ولإعراض بدا لهم ما كانوا عليه من عنجهية جاهلية، وأنها جوفاء في الآخرة، وأنها التي دفعتهم إلى الكفر، وليس نقص الدليل، وبدا لهم أن إعراضهم عن الآيات لم يكن لنقصها، ولكن لنقص في نفوسهم وإذعانهم.

ب. الثاني: أن الذى بدا لهم هو عذاب الآخرة، وهولها، وشدائدها، وقد كانوا ينكرونها، فظهر ما كانوا يجحدون، سؤال وإشكال: ولكن كيف يكون ذلك قد أخفوه، وهل الإنكار المعلن إخفاء؟ والجواب: أن الفطرة الإنسانية توجب التصديق إذا قام الدليل، وأن المعاندة حيث قام الدليل إخفاء لما يقتضيه، وقد قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل]، فجحودهم كان إخفاء لموجبات الإيمان وأن شهوة السلطان والعصبية، وغلبة الدنيا والفساد عليهم جعل الحق يختفى عليهم، ويخفونه هم بالمعاندة والمكابرة، والمماراة، فلما كانت الآخرة، وكانت القيامة بأهوالها بدا ما كان مختفيا، وأخفت الأهواء والمعابث، وظهرت الحقائق وأحسب أن المعنيين مستقيمان، ولا مانع من جمعهما، فالنص يعمهما.

٥. ولقد ادعوا في تمنياتهم أنهم يعودون ليكونوا في ضمن المؤمنين، ولا يكذبوا بآيات ربهم الذى خلقهم وكونهم وحماهم، فبين سبحانه أنهم لو ردوا إلى الدنيا بزخارفها وعصبياتها، وأهوائهم وشهواتهم، وحب الغلب لعادوا لما نهوا عنه من الإعراض عن الآيات، والمكابرات في المعجزات، والاستهانة بالإيمان والمؤمنين، ووقعوا في كل المخابث التي كانت منهم، وذلك لأن السبب في الجحود هو سيطرة الهوى والشهوة والعصبية الجاهلية، فإن عادوا إلى الدنيا بمتعها البراقة فسيستولى عليهم بريقها، ويكون منهم ما كان أولا.

٦. ولقد أكد الله سبحانه كذبهم في أمنياتهم ونتائج تمنياتهم فقال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ والكذب هنا خاص بما يمكن أن يقع منهم، وما أرادوا في تمنيهم الأماني فتمنياتهم كاذبة لا يمكن أن تحقق، ولو عادوا لكان منهم ما وقع أولا؛ إذ إنهم يعودون بما كانوا يحملون من ركائز في نفوسهم، فالتكذيب لما يكون منهم في المستقبل، وقد أكد سبحانه تكذيبهم بـ (أن) وبالجملة الاسمية، وباللام المؤكدة.

٧. ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾، الحياة التي تسمى حياة في نظرهم ولا شيء سواها حياة الدنيا، هذه الجملة تفيد ثلاث فوائد:

أ. أولها: نفى وجود أي حياة غير الحياة التي يعيشونها، ولو كانت هذه الحياة هي الدنيا وليست العالية القويمة.

ب. الثانية: أنهم ينسبون الحياة إليهم لاستمتاعهم فيها وما فيها من لهو ينغمسون فيه، وعبث يعبثونه.

ج. الثالثة: إنكارهم صراحة لبعثهم وتأكيد النفي بالباء، وبالجملة الاسمية.

٨. لقد قالوا ذلك القول في الدنيا بلا ريب، ولكن كلمة (قالوا) في هذا النص؛ أهي معطوفة على كلمة (لعادوا)، وقولهم هذا يكون على فرض عودتهم، وهذا هو الظاهر، ويكون قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ جملة اعتراضية مؤكدة لمعنى عودتهم إلى ما كانوا عليه إن عادوا إلى الدنيا؛ إذ هي تكذيب ادعاء أنهم لا يكذبون بآيات ربنا، ويكونون من المؤمنين، ويصح أن تكون ﴿وَقَالُوا﴾ كلام سيق مستأنفا للمقابلة بين حالهم التي يرونها في الآخرة؛ إذ يرون الهول عيانا، وقد ينكرون البعث، ويؤكدون الإنكار له، وها هم أولاء يرونه، ويتمنون ما يتمنون.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ إلى آخر الآيتين، بيان لعاقبة جحودهم وإصرارهم على الكفر والإعراض عن آيات الله تعالى.

٢. ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾، على قراءة النصب في ﴿نُكَذِّبُ﴾ و﴿نَكُونَ﴾ تمن منهم للرجوع إلى الدنيا والانسلاك في سلك المؤمنين ليخلصوا به من عذاب النار يوم القيامة، وهذا القول منهم نظير إنكارهم الشرك بالله وحلفهم بالله على ذلك كذبا من باب ظهور ملكاتهم النفسانية يوم القيامة فإنهم قد اعتادوا التمني فيما لا سبيل لهم إلى حيازته من الخيرات والمنافع الفائتة عنهم، وخاصة إذا كان فوتها مستندا إلى سوء اختيارهم وقصور تدبيرهم في العمل، ونظيره أيضا ما سيجيء من تحسرهم على ما فرطوا في أمر الساعة، على أن التمني يصح في المحالات المتعذرة كما يصح في الممكنات المتعسرة كتمني رجوع الأيام الخالية وغير ذلك قال الشاعر:

ليت وهل ينفع شيئا ليت ليت الشباب بوع فاشتريت

٣. ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾، ظاهر الكلام أن مرجع الضمائر أعني ضمائر ﴿لَهُمْ﴾ و﴿كَانُوا﴾ و﴿يَخْفَوْنَ﴾ واحد وهو المشركون السابق ذكرهم، وأن المراد بالقبل هو الدنيا فالمعنى أنه ظهر لهؤلاء المشركين حين وقفوا على النار ما كانوا هم أنفسهم يخفونه في الدنيا فبعثهم ظهور ذلك على أن تمنوا الرد إلى الدنيا، والإيمان بآيات الله، والدخول في جماعة المؤمنين.

٤. ولم يبد لهم إلا النار التي وقفوا عليها يوم القيامة فقد كانوا أخفوها في الدنيا بالكفر والستر للحق والتغطية عليه بعد ظهوره لهم كما يشير إليه نحو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، وأما نفس الحق الذي كفروا به في الدنيا مع ظهوره لهم فهو كان بادئا لهم من قبل والسياق يأبى أن يكون مجرد ظهور الحق لهم مع الغض عن ظهور النار وهول يوم القيامة باعثا لهم على هذا التمني، ويشعر بذلك بعض ما في نظير المقام من كلامه تعالى كقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٧/ ٥٣.

إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الجاثية: ٣٣]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الزمر: ٤٨]

٥. وقد ذكروا في الآية أعني قوله: ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ وجوها كثيرة أنهاها في المنار إلى تسعة أوجه هي:

أ. الأول أنه أعمالهم السيئة وقبائحهم الشائنة ظهرت لهم في صحائفهم، وشهدت بها عليهم جوارحهم.

ب. الثاني: أنه أعمالهم التي كانوا يفترون بها ويظنون أن سعادتهم فيها إذ يجعلها الله تعالى هباء منثورا.

ج. الثالث: أنه كفرهم وتكذيبهم الذي أخفوه في الآخرة من قبل أن يوقفوا على النار كما تقدم حكايته عنهم في قوله تعالى: (ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا وَاللهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ)

د. الرابع: أنه الحق أو الإيمان الذي كانوا يسرونه ويخفونه بإظهار الكفر والتكذيب عنادا للرسول واستكبارا عن الحق، وهذا إنما ينطبق على أشد الناس كفرا من المعاندين المتكبرين الذين قال في بعضهم: (وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا)

هـ. الخامس: أنه ما كان يخفيه الرؤساء عن أتباعهم من الحق الذي جاءت به الرسل بدا للأتباع الذين كانوا مقلدين لهم، ومنه كتمان بعض أهل الكتاب لرسالة نبينا ﷺ وصفاته وبشارة أنبيائهم به.

و. السادس: أنه ما كان يخفيه المنافقون في الدنيا من أسرار الكفر وإظهار الإيمان والإسلام.

ز. السابع: أنه البعث والجزاء ومنه عذاب جهنم، وأن إخفاءهم له عبارة عن تكذيبهم به، وهو المعنى الأصلي لمادة الكفر.

ح. الثامن: أن في الكلام مضافا محذوفا أي بدا لهم وبال ما كانوا يخفونه من الكفر والسيئات ونزل بهم عقابه فتبرموا وتضجروا وتمنوا التفصي منه بالرد إلى الدنيا، وترك ما أفضي إليه من التكذيب بالآيات وعدم الإيمان كما يتمنى الموت من أمضه الداء العضال لأنه ينقذه من الآلام لا لأنه محبوب في نفسه.

ط. ونحن لا نرى رجحان قول من هذه الأقوال بل الصواب عندنا قول آخر، وهو: التاسع: أنه يظهر يومئذ لكل من أولئك الذين ورد الكلام فيهم ولأشباههم من الكفار ما كان يخفيه في الدنيا ما هو قبيح في نظره أو نظر من يخفيه عنهم.

٦. ثم عمم في المنار الكلام لرؤساء الكفار وأتباعهم المقلدة وللمنافقين والفساق ممن يقترف الفواحش ويخفيها عن الناس أو يترك الواجبات ويعتذر بأعذار كاذبة ويخفي حقيقة الحال في كلام طويل، وبالرجوع إلى ما قدمناه من الوجه والتأمل فيه يظهر ما في كل واحد من هذه الأقوال من وجوه الخلل فلا نطيل.

٧. ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ تذكير لفعل ما تقرر في نفوسهم من الملكات الرذيلة في نشأة الدنيا فإن الذي بعثهم إلى تمني الرجوع إلى الدنيا والإيمان فيها بآيات الله والدخول في جماعة المؤمنين إنما هو ظهور الحق المتروك بجميع ما يستتبعه من العذاب يوم القيامة، وهو من مقتضيات نشأة الآخرة المستلزمة لظهور الحقائق الغيبية ظهور عيان، ولو عادوا إلى الدنيا لزمهم حكم النشأة، وأسدلت عليهم حجب الغيب، ورجعوا إلى اختيارهم، ومعه هوى النفس ووسوسة الشيطان وقرائح العباد والاستكبار والطغيان فعادوا إلى سابق شركهم وعنادهم مع الحق فإن الذي دعاهم وهم في الدنيا إلى مخالفة الحق والتكذيب بآيات الله تعالى هو على حاله مع فرض ردهم إلى الدنيا بعد البعث، فحكمه حكمه من غير فرق.

٨. ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي في قولهم: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾، والتمني وإن كان إنشاء لا يقع فيه الصدق والكذب إلا أنهم لما قالوا: ﴿نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ﴾ أي ردنا الله إلى الدنيا ولو ردنا لم نكذب، ولم يقولوا: نعود ولا نكذب، كان كلامهم مضمنا للمسألة والوعد أعني مسألة الرد ووعد الإيمان والعمل الصالح كما صرح بذلك في قوله: ﴿وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]، وقوله: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الفاطر: ٣٧]

٩. وبالجملة قولهم: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ﴾، في معنى قولهم ربنا ردنا إلى الدنيا لا نكذب بآياتك ونكن من المؤمنين، وبهذا الاعتبار يحتمل الصدق والكذب، ويصح عدهم كاذبين، وربما وجه نسبة الكذب

إليهم في تمنيهم بأن المراد كذب الأمل والتمني وهو عدم تحققه خارجا كما يقال: كذبك أملك، لمن تمنى ما لا يدرك، وربما قيل: إن المراد كذبهم في سائر ما يخبرون به عن أنفسهم من إصابة الواقع واعتقاد الحق، هو كما ترى.

١٠. ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ إلى آخر الآيتين، ذكر لإنكارهم الصريح للحشر وما يستتبعه يوم القيامة من الإشهاد وأخذ الاعتراف بما أنكروه.

١١. في تفسير العياشي، عن خالد عن أبي عبد الله عليه السلام، قال ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه إنهم ملعونون في الأصل، وفيه، عن عثمان بن عيسى عن بعض أصحابه عنه عليه السلام، قال: (إن الله قال للماء: كن عذبا فراتا أخلق منك جنتي وأهل طاعتي، وقال للماء: كن ملحا أجاجا ـ أخلق منك ناري وأهل معصيتي ـ فأجرى المئين على الطين ـ ثم قبض قبضة بيده وهي يمين فخلقهم خلقا كالذر ـ ثم أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم وعليكم طاعتي؟ قالوا: بلى، فقال للنار: كوني نارا ـ فإذا نارا تأجج، وقال لهم: قعوا فيها ـ فمنهم من أسرع، ومنهم من أبطأ في السعي، ومنهم من لم يبرح مجلسه ـ فلما وجدوا حرها رجعوا فلم يدخلها منهم أحد، ثم قبض قبضة بيده فخلقهم خلقا مثل الذر مثل أولئك ـ ثم أشهدهم على أنفسهم مثل ما أشهد الآخرين، ثم قال لهم: قعوا في هذه النار ـ فمنهم من أبطأ، ومنهم من أسرع ـ ومنهم من مر بطرف العين فوقعوا فيها كلها، فقال: اخرجوا منها سالمين فخرجوا لم يصبهم شيء ـ. وقال الآخرون: يا ربنا أقلنا نفعل كما فعلوا، قال قد أقلتكم ـ فمنهم من أسرع في السعي، ومنهم من لم يبرح مجلسه ـ مثل ما صنعوا في المرة الأولى، فذلك قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾)، هذه الرواية والتي قبلها من روايات الذر وسيأتي استيفاء البحث عنها في سورة الأعراف في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾) الآية، ومحصلها أنه كما أن لنظام الثواب والعقاب في الآخرة ارتباطا تاما بنشأة أخرى قبلها وهي نشأة الدنيا من حيث الطاعة والمعصية كذلك للطاعة والمعصية في الدنيا ارتباط تام بنشأة أخرى قبلها رتبة، وهي عالم الذر، فالمراد بقوله في الرواية: فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا﴾، أن معنى الآية ولو ردوا من عرصات الحشر إلى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون من عالم الذر إذ كذبوا الله فيه، وهذا هو المراد بعينه بقوله عليه السلام في الرواية الأولى: ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه إنهم ملعونون في الأصل أي في عالم الذر لكذبهم

فيه، وعلى هذا فالروايتان تشتملان على وجه رابع في تفسير الآية غير الوجوه الثلاثة المتقدمة في البيان السابق.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. تتلاحق مشاهد القيامة في القرآن في أساليب متنوّعة، لتجسّد أمام الناس في الدنيا قضيّة المصير، عبر النماذج القلقة التي تواجه العقيدة في حياتها الفكرية والعملية مواجهة اللامبالاة، فتنكرها وفقا لمزاج يقتضي ذلك، وتلفّ وتدور وتشاغب وتقف في وجه العاملين في سبيل الله، استجابة لهوى النفس وطمعها.

٢. إن الله يحدثنا عن هؤلاء في مواقف القيامة، كما حدثنا عن بعض مواقفهم في الدنيا، وقد انطلق حديث القرآن عن مواقف الناس يوم القيامة، من منهج تربوي عرضه لإثارة التفكير في القضايا من داخلها، فيما تختزنه طبيعتها الذاتية من خصائص ومقوّمات، أوّلا، وفي نتائجها السلبيّة والإيجابية، فيما تمثّله قضية المصير، ثانيا، لأن ذلك يدفع الإنسان إلى مواجهة القضايا بطريقة موضوعيّة من أجل الوصول إلى القناعة المحدّدة، ليؤمن أو لا يؤمن، وقد يواجهها بطريقة شعوريّة من أجل أن يصل إلى نتائجها العملية ليخاف أو ليأمن، وربما كانت الطريقة الثانية سبيلا للاهتمام بالقضايا على خطّ الطريقة الأولى.

٣. ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ هؤلاء الذين كذبوا الرسول وأنكروا الرسالة، وكانوا ينهون أو ينأون عنه، ليأخذوا حريتهم في فعل ما يطيب لهم، إنك لن تجد أيَّ جهد في العثور عليهم، فهم بارزون أمام كل ناظر، فيمكن لكل من يملك عينين مفتوحتين أن يراهم حين يوقفون على النار ليدخلوها، جزاء أعمالهم في الدنيا، وهنا تبرز صورتهم من الخارج ومن الداخل، فها هم يواجهون الموقف الصعب بالتراجع عن كل مواقفهم السابقة، من تكذيب الرسل، وإنكار الإيمان وقد أراد الله إظهار ذلك، فترك لهم حريّة الكلمة الأخيرة المعبّرة عن حالة السقوط النفسي المهين بإطلاق التمنيات اليائسة الذليلة، بأن يردّوا إلى الدنيا، ليرفضوا عندها تكذيب آيات ربّهم، ويلتزموا خط الإيمان.. فقد اتضح الأمر لديهم وبان، ولم يبق لديهم أيّة شبهة حول الإيمان ونتائجه، وهكذا كان.

---

(١) من وحي القرآن: ٩/ ٦٧.

٤. ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولكن هل هذا الموقف ناتج عن قناعة مرتكزة على أساس ثابت بعيدا عن الأجواء الطارئة الضاغطة على المشاعر، أم أنّ الموقف هو موقف الصدمة المفاجئة التي تهزّ المشاعر، حتى إذا أفاق الإنسان منها رجع إلى مواقعه السابقة كما لو لم يكن حصل أيّ شيء في حركة الموقف، وفي مستوى المسؤولية!؟ قد لا تستطيع الحالة السريعة أن تعطينا فكرة عن هذا أو ذاك، ولكن ما يكمن في خلفية الشخصية وعمقها وامتدادها يمكن أن يكشف عن الحقيقة الكامنة في الداخل، فنكتشف ـ من خلالها ـ أنّ هؤلاء لا يعيشون الجدية في مواجهة المسؤولية، بل يقابلونها باللّامبالاة الوجدانيّة، ولذلك جمّدوا فكرهم أمام كل مواقع الإثارة الفكرية والعملية، فلم يتوقفوا عند علامات الاستفهام العريضة التي كانت تخاطب فكرهم عندما كانوا في الدنيا، بالرغم من كل المؤثرات والدلائل التي كانت تفرض التوقف عندها، بل كل ما فعلوه أنهم خضعوا للأجواء المثيرة المنفعلة بالجوّ الطارئ فيما يوحيه ويثيره، حتى إذا ابتعد عنهم ـ من جديد ـ أو ابتعدوا عنه، عادوا إلى سيرتهم الأولى.

٥. وهذا ما أوضحه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ فهم لم يكتشفوا فيما شاهدوه شيئا جديدا، بل كانوا يتوهمون الحقائق قبل ذلك ويخفونها لئلا تقوم عليهم الحجة أمام الآخرين، فينكرونها من موقع القناعة بها، ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ لأنهم لم ينحرفوا لشبهة عرضت لهم، ولا لخطأ وقعوا فيه، بل كان ذلك لاستسلامهم أمام شهواتهم وأطماعهم بما كان يدفعهم إلى الإنكار في مواقع الحقيقة وإلى التمرّد في مقتضيات الطاعة، وإلى التسويف في مواقف التوبة، ولذلك فإن الصدمة أمام أهوال النار سوف تتضاءل عندما ينفصلون عن الجو تدريجيا، ويبتعدون عن تهاويله في الزمان والمكان، فيرجعون إلى ما كانوا عليه، لأن شخصيتهم لا تحتمل التأثر بالفكرة العميقة، بل تتحرك تبعا لظروف الجو ومزاجية الرأي.

٦. وقد يكون هذا اللون من أوضاع الشخصية الإنسانية، يمثل طبيعة الظاهرة في أكثر من مجتمع، سواء في ذلك مجتمع الكافرين، أم المجتمع الذي يتبنّى الإيمان كعقيدة، فقد نلجأ في حالات المرض والخوف إلى الله ونتوب إليه مما أسلفنا من ذنوبنا، ونعزم على تصحيح الموقف أملا في الشفاء من المرض والأمن من الخوف، فإذا كشف الله عنا ذلك كله، نسينا كل ما التزمنا به لله من موقف أو عمل، وعدنا إلى ما كنا فيه.

٧. إن القضية التي تحكم هذه الظاهرة في الوجه السلبي أو الإيجابي منها هي أن هناك فرقا بين أن

تكون خطوات الإنسان العملية منطلقة من قاعدة أساسية في طريقة التفكير والانتماء والعمل، وبين أن تكون خاضعة للأجواء الطارئة التي يعيشها الإنسان:

أ. ففي الحالة الأولى، نجد الثبات والصلابة والتركيز في الفكر والموقف بالرغم من كل ما يهز الفكر أو يثير الشعور، حيث يزداد الموقف في هذا الحال قوّة في الأجواء الملائمة، ويزداد توتّرا في الأجواء غير الملائمة، فيشعرهم بالحاجة إلى مواجهة التحدي بقوة ضاغطة.

ب. وفي الحالة الثانية، نجد الاهتزاز والضعف والانسحاق أمام أيّة حالة جديدة، ممّا يوحي إليهم بالانتقال إلى مواقع جديدة مضادّة لمواقعهم الحقيقية، في الفكر والانتماء والعمل.

٨. وربما كان من الضروري للإنسان المؤمن أن يختبر نفسه ليعرف في أيّ اتجاه يسير، ومن أيّة قاعدة ينطلق، ليحدّد لنفسه وللآخرين مسار تنمية القدرة الروحية والعملية في الخط الصحيح، فإنّ إهمال ذلك قد يجعل الرؤية غير واضحة وينتهي بالموقف إلى غير وجهته الطبيعية في الحياة، إن علينا أن ندخل هذا الجانب في حركة بناء الشخصية الإنسانية، فلا نتعلق بالسطح الظاهر بل نحاول دائما النفاذ إلى الأعماق، فإن الله يريد منا صناعة الشخصية التي تخلق الأجواء ولا تحاول الخضوع للأمر الواقع وتبريره مهما كان لونه.

٩. ويختم الله الآية بالنتيجة الحاسمة لموقفهم الحقيقي: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في كل ما يثيرونه من جوٍّ يوحي بأنهم سيتراجعون عما كانوا فيه.

١٠. ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ قالوا ـ وهم في الدنيا ـ إن الحياة ليست إلا صدفة ضائعة في الفراغ تماما كالفقاقيع التي تنتفخ في نطاق الظروف التي توحي بالانتفاخ وتستمر باستمرارها ثم لا تلبث أن تنفجر وتتلاشى كما لو كانت شيئا لم يكن من دون أن تخلّف وراءها أيّ شيء أو تستقبل أمامها أيّ واقع جديد.

١١. هذه هي فكرة مادّية الحياة والإنسان، حيث الوجود يتحرك بين عدمين، فلا وجود بعدها، كما لا وجود قبلها.. وبذلك لم تعد الرسالات تمثل لديهم شيئا فيما تفرضه المسؤولية على الإنسان من أعمال ومواقف، بل كل ما هناك، أن للحياة حاجات لا بد من استكمالها والحصول عليها بأيّ ثمن، بعيدا عن أيّة قيمة روحية، أو أيّ تفكير غيبيّ، ولهذا لم يكلّفوا أنفسهم عناء التفكير بالغيب الذي حدّثهم الأنبياء عن

آفاقه ارحبة، فيما يمثله اليوم الآخر، وتمثله الجنة والنار، وما يعيشه الإنسان من رضوان الله ورحمته وعفوه وغفرانه، فالحياة باعتقادهم لا تحمل أي معنى، وهي في كل مظاهرها وأوضاعها لا تجسد أو تعكس أية حقيقة أخرى، فهي تبدأ هنا وتنتهي هنا، وليس وراءها أي شيء إطلاقا، واعتقادهم هذا يعبر عن أمنياتهم وليس عن الواقع كما هو في الحقيقة.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بيّن تعالى بعض وخامة كفرهم وهلاكهم به فقال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ حالهم بعد تكذيبهم وجرائمهم في الدنيا حين أشرفوا على دخول النار وعاينوها فقالوا متمنّين ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ إلى دار التكليف والعمل ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ﴾ فيها ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لننجو من النار.

٢. ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ ﴿بَلْ﴾ تجلَّت الحقيقة وكشف الغطاء وعلموا علماً ضرورياً أن الحق هو الإيمان وأن الباطل ما كانوا عليه، كما قال تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ [النحل:٣٩] وقد كان هؤلاء المتمردون الذين فيهم السياق يعرفون الحق، كما قال في بعضهم: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ [البقرة:١٤٦] ولكنهم كانوا في غفلة وكبر وهوى حَالَ بينهم وبين الإيمان وكانوا يخفون معرفتهم؛ لأنهم ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ فكيف يعترفون به ولم يتمنوا ذلك الذي تمنوه رغبةً في الحق ولكن حبّاً لأنفسهم وخوفاً من النار التي قد أشرفوا عليها ـ نعوذ بالله ـ فهم مجدُّون في التمني.

٣. ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ لأنهم يتبعون هوى أنفسهم، فلو﴿رُدُّوا﴾ ورجع الابتلاء والإختبار لمالوا عن الحق لتلك الأسباب الأولى: ولأمّلوا أنهم إن رجعوا إلى الله مرة أخرى ردّهم إلى دار الخيار كما ردهم أول مرة فاتخذوها تجربة لإمكان الرد، أو أن بعضهم يؤمل أن سيتوب في آخر عمره حتى يجيئه الموت وهو على كفره، والحاصل: أن الله علام الغيوب قد أخبر بأنهم لو ردوا لعادوا لما نهو عنه، وهو

---

(١) التيسير في التفسير: ٢/ ٤٣٠.

أصدق القائلين.

٤. ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في زعمهم الذي يفهم من كلامهم أنهم لو ردوا لتَرَكوا التكذيب بآيات الله ولآمنوا، وفي هذه الآية: دلالة على أن الكذب ما خالف الواقع وإن طابق الإعتقاد، وإنما لا يقال لبعض القائلين المعتقدين للصدق تأدباً وتجنباً للإيهام.

٥. ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ ﴿وَقَالُوا﴾ عطف على أقوالهم التي مرّ ذكرها، كقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، وقولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أي ما الحياة إلا حياتنا الدنيا أي ليس بعدها حياة ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد الموت كفراً منهم بالبعث والجزاء.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. في هاتين الآيتين إشارة إلى بعض مواقف عناد المشركين، وفيهما يتجسد مشهد من مشاهد نتائج أعمالهم لكي يدركوا المصير المشؤوم الذي ينتظرهم فيستيقظون، أو تكون حالهم ـ على الأقل ـ عبرة لغيرهم، فتقول الآية: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ لتبيّن لك مصيرهم السيئ المؤلم، إنّهم في تلك الحال على درجة من الهلع بحيث أنّهم يصرخون: ليتنا نرجع إلى الدنيا لنعوض عن أعمالنا القبيحة، ونعمل للنجاة من هذا المصير المشؤوم، ونصدق آيات ربّنا، ونقف إلى جاب المؤمنين.

٢. ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ينبغي الانتباه إلى نقطة مهمّة في الآية: في القراءة المشهورة التي بين أيدينا (نردّ) مرفوعة و(ولا نكذب) و(نكون) منصوبتان، مع أنّ الظاهر يدل على أنّهما معطوفتان على (نردّ) وخير تعليل لذلك هو القول بأنّ (نردّ) جزء من التمني، و(ولا نكذب) جواب التمني، و(الواو) هنا بمنزلة (الفاء) ومعلوم أن جواب التمني إذا وقع بعد الفاء كان منصوبا، إن مفسرين كالفخر الرازي والطبرسي وأبي الفتوح الرازي أوردوا تعليلات أخرى، ولكن الذي قلناه أوضح الوجوه، وعليه فهذه الآية تكون شبيهة بالآية من سورة الزمر: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ

---

(١) تفسير الأمثل: ٤/ ٢٥٣.

الْمُحْسِنِينَ﴾

٣. الآية التّالية تؤكّد أن ذلك ليس أكثر من تمن كاذب، وإنّما تمنوه لأنّهم رأوا في ذلك العالم كل ما كانوا يخفونه ـ من عقائد ونيات وأعمال سيئة ـ مكشوفا أمامهم، فاستيقظوا يقظة مؤقتة عابرة: ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ غير أن هذه اليقظة ليست قائمة ثابتة، بل إنّها قد حصلت لظروف طارئة، ولذلك فحتى لو افترضنا المستحيل وعادوا إلى هذه الدنيا مرّة أخرى لفعلوا ما كانوا يفعلونه من قبل وما نهوا عنه: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ لذلك فهم ليسوا صادقين في تمنياتهم ومزاعمهم ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾

٤. يتبيّن من ظاهر ﴿بَدَا لَهُمْ﴾ أنّهم لم يكونوا يخفون كثيرا من الحقائق عن الناس فحسب، بل كانوا يخفونها حتى عن أنفسهم، فتبدوا لهم جلية يوم القيامة، وليس في هذا ما يدعو إلى العجب، فالإنسان كثيرا ما يخفي عنه نفسه الحقائق ويغطي على ضميره وفطرته لكي ينال شيئا من الراحة الكاذبة.. إنّ قضية مخادعة النفس وإخفاء الحقائق عنها من القضايا التي تعالجها البحوث الخاصّة بنشاط الضمير، فقد نجد الكثيرين من الذين يتبعون أهواءهم يتنبهون إلى أضرار ذلك عليهم، ولكنّهم لكي يواصلوا أعمالهم تلك بغير أن تنغصها عليهم ضمائرهم ـ يحاولون إخفاء هذا الوعي فيهم بشكل من الأشكال، غير أنّ بعض المفسّرين ـ دون الالتفات إلى هذه النكتة ـ فهموا من (لهم) ما ينطبق على الأعمال التي أخفاها المشركون عن الناس.

٥. قد يقال إنّ التمني ليس من الأمور يصح فيها أن تكون صادقة أو كاذبة، فهي مثل (الإنشاء) الذي لا يحتمل الصدق والكذب، إلّا أنّ هذا القول بعيد عن الصواب، وذلك لأنّ (الإنشاء) كثيرا ما يصاحبه (الإخبار) ممّا يحتمل الصدق والكذب، فقد يقول قائل أتمنى أن يعطيني الله مالا وفيرا فأعينك، هذا من باب التمني بالطبع، ولكن مفهومه هو أنّه إذا أعطاني الله مالا وفيرا فاني سوف أساعدك، وهذا مفهوم خبري يحتمل أن يكون صادقا أو كاذبا، فإذا كنت تعرف بخل المتمني وضيق نظرته فأنت تعرف أنّه كاذب حتى إن أعطاه الله ما يشاء من المال (هذا الموضوع مشهور كثيرا في الجمل الإنشائية)

٦. إنّ سبب ذكر الآية أنّهم لو عادوا إلى الدنيا لعادوا إلى تكرار أعمالهم السابقة هو أن كثيرا من الناس عندما يشاهدون نتائج أعمالهم بأعينهم، أي حينما يصلون إلى مرحلة الشهود، يستنكرون ما فعلوا ويندمون آنيا ويتمنون لو يتاح لهم أن يجبروا ما كسروا، إلّا أنّ هذه تمنيات عارضة تنشأ من مشاهدة نتائج الأعمال عيانا، وتعرض لكل إنسان يشهد بأم عينه ما ينتظره من عذاب وعقاب، ولكن ما إن تغيب تلك

المشاهد عن نظره حتى يزول تأثيرها عنه، ويعود إلى سابق عهده، شأنهم في ذلك شأن عبدة الأصنام الذين دهمهم طوفان عظيم في البحر ورأوا أنفسهم على عتبة الهلاك، فنسوا كل شيء سوى الله، ولكن ما أن هدأت العاصفة ووصلوا إلى ساحل الأمان حتى عاد كل شيء إلى ما كان عليه.

٧. ينبغي الالتفات إلى أنّ هذه الحالات تخص جمعا من عبدة الأصنام الذين مرّت الإشارة إليهم في الآيات السابقة لا كلهم، لذلك كان لا بدّ لرسول الله ﷺ أن يواصل نصح الآخرين لإيقاظهم وهدايتهم.

٨. ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ في تفسير الآية احتمالان:

أ. الأوّل: أنّها استئناف لأقوال المشركين المعاندين المتصلبين الذين يتمنون ـ عندما يشاهدون أهوال يوم القيامة ـ أن يعودوا إلى دار الدنيا ليتلافوا ما فاتهم، ولكن القرآن يقول إنّهم إذا رجعوا لا يتجهون إلى جبران ما فاتهم، بل يستمرون على ما كانوا عليه، وأكثر من ذلك فإنّهم يعودون إلى إنكار يوم القيامة ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾

ب. الثّاني: أنّ الآية تشرع بكلام جديد يخصّ نفرا من المشركين ممّن كفروا بالمعاد كليا، فقد كان بين مشركي العرب فريق لا يؤمنون بالمعاد، وفريق آخر يؤمنون بنوع من المعاد.

١٦. حسرة أهل النار بين يدي الله وخسارتهم

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [١٦] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٠ ـ ٣٢]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

أبو هريرة:

روي عن أبي هريرة (ت ٥٨ هـ) أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: (إنّ الكافر إذا خرج من قبره مثّل له عمله في أقبح صورة رآها قط، أقبحه وجها، وأنتنه ريحا، وأسوأه لفظا، فيقول: من أنت؟ أعوذ بالله منك؛ فما رأيت أقبح منك وجها، ولا أنتن منك ريحا، ولا أسوأ منك لفظا، فيقول: أتعجب من قبحي؟ فيقول: نعم، فيقول: أنا ـ والله ـ عملك الخبيث، وإنك كنت تركبني في الدنيا، وإنّي ـ والله ـ لأركبنّك اليوم، فيركبه، فلا يرى شيئا يهوله ولا يروعه إلا قال أبشر، يا عدوّ الله، أنت الذي تراد، وأنت الذي تعنى، وهو قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ الآية(١).

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال:الحسرة: الندامة(٢).

٢. روي أنّه قال: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾: بئس الحمل حملوا(٣).

---

(١) يحيى بن سلام ١/ ٢٧٧.

(٢) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٨٠.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ١٣٩.

٣. روي أنّه قال: ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾، يقول: باقية[١].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: كانت عليهم حسرة استهزاؤهم بالرسل[٢].

٢. روي أنّه قال: كلّ لعبٍ لهو[٣].

عكرمة:

روي عن عكرمة (ت ١٠٥ هـ) أنّه قال: ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ﴾، يقول: الجنة[٤].

البصري:

روي عن الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) أنّه قال: ﴿تَكْفُرُونَ﴾، تجحدون[٥].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) أنّه قال: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾، ما يعملون[٦].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) أنّه قال: ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾ معناه آثامهم.. واحدها وزر[٧].

السّدّيّ:

روي عن إسماعيل السّدّيّ (ت ١٢٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿يَا حَسْرَتَنَا﴾ ندامتنا ﴿عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ ضيّعنا من عمل الجنة[٨].

---

(١) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٨٢.

(٢) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٨١.

(٣) نسبه السيوطي إلى ابن أبي حاتم، وفيه ٤/ ١٢٨٢.

(٤) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٨٢.

(٥) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٨٠.

(٦) عبد الرزاق ١/ ٢٠٧.

(٧) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٣.

(٨) ابن جرير ٩/ ٢١٥.

٢. روي أنّه قال: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾، ليس من رجلٍ ظالمٍ يموت فيدخل قبره إلا جاءه رجل قبيح الوجه، أسود اللون، منتن الريح، عليه ثياب دنسة، حتى يدخل معه قبره، فإذا رآه قال له: ما أقبح وجهك! قال كذلك كان عملك قبيحا، قال ما أنتن ريحك! قال كذلك كان عملك منتنا، قال ما أدنس ثيابك! فيقول: إنّ عملك كان دنسا، قال من أنت؟ قال أنا عملك، قال فيكون معه في قبره، فإذا بعث يوم القيامة قال له: إني كنت أحملك في الدنيا باللّذات والشهوات، فأنت اليوم تحملني، فيركب على ظهره، فيسوقه حتى يدخله النار، فذلك قوله تعالى: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾[1].

ابن قيس:

روي عن عمرو بن قيس الملائي (ت ١٤٦ هـ) أنّه قال: إنّ المؤمن إذا خرج من قبره استقبله عمله في أحسن صورة، وأطيبه ريحا، فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: لا، إلا أنّ الله قد طيّب ريحك، وحسّن صورتك، فيقول: كذلك كنت في الدنيا، أنا عملك الصالح، طالما ركبتك في الدنيا، فاركبني أنت اليوم، وتلا: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥]، وإنّ الكافر يستقبله أقبح شيءٍ صورة، وأنتنه ريحا، فيقول: هل تعرفني؟ فيقول: لا، إلا أنّ الله قد قبّح صورتك، ونتّن ريحك، فيقول: كذلك كنت في الدنيا، أنا عملك السيّئ، طالما ركبتني في الدنيا، فأنا اليوم أركبك، وتلا: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾[2].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: فأخبر الله بمنزلتهم في الآخرة، فقال: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ يا محمد ﴿إِذْ وُقِفُوا﴾ يعني: عرضوا ﴿عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾ إنّه الحق، ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بالعذاب بأنّه غير كائن، نظيرها في الأحقاف[3].

٢. روي أنّه قال: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ﴾ يعني: بالبعث، ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ﴾

---

(١) ابن جرير ٩/ ٢١٧.

(٢) ابن جرير ٩/ ٢١٦.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٧.

يعني: يوم القيامة ﴿بَغْتَةً﴾ يعني: فجأة[1].

٣. روي أنّه قال: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾، وذلك أنّ الكافر إذا بعث في الآخرة أتاه عمله الخبيث في صورة حبشيٍّ أشوه، منتن الريح، كريه المنظر، فيقول له الكافر: من أنت؟ فيقول: أنا عملك الخبيث، قد كنت أحملك في الدنيا بالشهوات واللذات، فاحملني اليوم، فيقول: وكيف أطيق حملك؟ فيقول: كما حملتك، فيركب ظهره، فذلك قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾[2].

٤. روي أنّه قال: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾، يعني: ألا بئس ما يحملون[3].

٥. روي أنّه قال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ﴾ يعني: إلا باطل، ﴿وَلَهْوٌ﴾ يكون في الدنيا[4].

٦. روي أنّه قال: ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾، يثني على الجنة، يقول: ولدار الجنة أفضل من الدنيا[5].

٧. روي أنّه قال: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الشرك، ﴿أَفَلَا﴾ يعني: فهلّا ﴿تَعْقِلُونَ﴾ أنّ الدار الآخرة أفضل من الدنيا؛ لأنّها بعد دار الدنيا، وإنّما سمّيت: الدنيا؛ لأنها أدنى إلينا من دار الآخرة[6].

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[7]:

١. ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: لربهم؛ كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وكقوله تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾، أي: للنصب، وأصله: ما روي في حرف ابن مسعود: (ولو ترى إذ وقفوا إذ عرضوا على ربهم)

٢. ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾:

---

(١) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٧.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٧.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٨.

(٤) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٨.

(٥) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٨.

(٦) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٨.

(٧) تأويلات أهل السنة: ٤/ ٦٦.

أ. يحتمل قوله: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾، أي: البعث بعد الموت؛ لأنهم كانوا ينكرون البعث، ويقولون: إنه باطل.

ب. ويحتمل: بما كانوا أوعدوا العذاب إن لم يؤمنوا، فكذبوا ذلك، فقال: أليس ما أوعدتم في الدنيا حقًا، فأقروا فقالوا: ﴿بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾: في الدنيا.

٣. ﴿كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ﴾:

أ. يحتمل: كذبوا لقاء وعد الله ووعيده في الدنيا وعلى هذا يخرج قوله: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ﴾، أي: يرجو لقاء وعد الله في الدنيا، ووعيده خسروا في الآخرة بتكذيبهم ذلك في الدنيا، وعلى ذلك يخرج ما روي في الخبر: (من أحبَّ لقاء الله) أي: أحب لقاء ما أعد الله له (ومن كره لقاء الله) أي: كره لقاء ما أعد له، وأصله: من أَحبَّ الرجوع إلى الله أحب الله رجوعه، ومن كره الرجوع إلى الله كره الله رجوعه إليه، والمحبة لله اختيار أمره وطاعته؛ وعلى ذلك ما روي في الخبر عن رسول الله ﷺ قال (الدنيا جنة الكافر، يلعب فيها ويركض في أمانيها، وسجن المؤمن، وراحته بالموت)، وأصله: أنها سجن المؤمن؛ لأن المؤمن يمنعه دينه من قضاء شهواته لما يخاف هلاكه، ويحذره مما يفضي به إلى الهلاك، والكافر لا يمنعه شيء من ذلك عما يريد من قضاء شهواته في الدنيا، فتكون له كالجنة، وللمؤمن كالسجن، على ما ذكرنا.

ب. ويحتمل وجهًا آخر: وهو أن الكافر عند الموت يعاين مكانه وما أعدَّ له في النار، فتصير عند ذلك الدنيا كالجنة له يكره الرجوع، والمؤمن يعاين موضعه في الجنة، فتصير كالسجن له.

٤. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾:

أ. قيل: سميت القيامة ساعة لسرعتها، ليست كالدنيا؛ لأن في الدنيا يتغير فيها على المرء الأحوال، يكون نطفة، ثم يصير علقة، ثم مضغة، ثم يصير خلقًا آخر، ثم إنسانا ثم يكون طفلا ثم رجلا يتغير عليه الأحوال، وأما القيامة فإنها لا تقوم على تغير الأحوال فسميت الساعة لسرعتها بهم.

ب. وقيل: سميت القيامة الساعة لأنها تقوم في ساعة، وهو كقوله: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾.

ج. وقيل: سميت الساعة لما تقوم ساعة فساعة.

٥. ﴿بَغْتَةً﴾ أي: فجأة.

٦. ﴿يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾:

أ. قيل: التفريط: هو التضييع، فيحتمل قوله: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾، أي: ما ضيعنا في الدنيا من المحاسن والطاعات.

ب. ويحتمل: ما ضيعنا في الآخرة من الثواب والجزاء المجزيل بكفرهم في الدنيا.

٧. ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ هو على التمثيل، ليس على التحقيق، وهو يحتمل وجهين:

أ. يحتمل: أنه أخبر أنهم يحملون أوزارهم على ظهورهم بما لزموا أوزارهم وآثامهم، لم يفارقوها قط، وصفهم بالحمل على الظهر، وهو كقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾، لما لزم ذلك صاروإنه في عنقه.

ب. الثاني: إنما ذكر الظهر؛ لما بالظهر يحمل ما يحمل، فكان كقوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، و﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، لأن الكفر لا يكتسب بالأيدي ولا يقدم بها، لكن اكتساب الشيء وتقديمه لما كان باليد ذكر اكتساب اليد وتقديمها، وكقوله: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾، أنهم لما تركوا العمل به والانتفاع، صار كالمنبوذ وراء الظهر؛ لأن الذي ينبذ وراء الظهر هو الذي لا يعبأ به ولا يكترث إليه.

ج. ويحتمل وجهًا آخر: ما ذُكر في بعض القصة أنه يأتيه عمله الخبيث على صورة قبيحة، فيقول له: كنت أحملك في الدنيا باللذات والشهوات، وأنت اليوم تحملني، فيركب ظهره؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

٨. ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ يحتمل أن يكون هذا صلة قوله: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ قال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾، أي: الحياة الدنيا للدنيا خاصة؛ لأن العمل إذا لم يكن لعاقبة تتأمل فهو عبث، كبانٍ يبني بناء لا لعاقبة تتأمل وتقصد ببنائه فهو لعب، وعبث، فعلى ذلك الحياة الدنيا، لا لدار أخرى يتأمل ويرجى بها الثواب والعقاب فهذا ليس بحكمة، وإنما هو لعب ولهو؛ وعلى ذلك يخرج قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ الآية، أخبر أن خلقه إياهم إذا لم يكن للرجوع إليه فهو عبث، فعلى ذلك الحياة الدنيا، إذا لم يكن هناك بعث ولا حياة بعد الموت للثواب والعقاب، فهي لعب ولهو، واللهو: ما يقصد به قضاء الشهوة خاصة، لا يقصد به العاقبة، واللعب: هو

الذي لا حقيقة له ولا مقصد.

٩. ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، أي: الدار الآخرة خير للذين يتقون الشرك والفواحش كلها من الحياة الدنيا، وأصله: أن الحياة الدنيا على ما عند أُولَئِكَ الكفرة لعب ولهو؛ لأن عندهم أن لا بعث، ولا ثواب، ولا عقاب، فإذا كانت عندهم هكذا فتصير لعبًا ولهوًا؛ لأنه يحصل إنشاء لا عاقبة له، فيكون كبناء البناء الذي ذكرنا إذا كانت عاقبته غير مقصودة، فهو لا انتفاع به.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾ أي بلى وحق ربنا، على سبيل القسم بربهم، وذلك عند تبكيت الله لهم، وتوقيفهم على كذبهم وجهلهم.

٢. ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ أي يحملون ذنوبهم على ظهورهم، وهذا مثل مضروب بالأحمال على الظهور، إذ هي أتعب ما يكون من الأمور، وأفظع وأنكى لأهل الفجور، إذ يحملون ما لا طاقة لهم به من الشرور.

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(٢):

١. ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ أي عاينوها ومن عاين شيئاً فقد وقف عليه وتحققوا سوء أعمالهم ﴿فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تمنوا الرد إلى الدنيا التي هي دار التكليف ليؤمنوا ويصدقوا والتمني لا يدخله صدق ولا كذب لأنه يخبر بسر ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي بدا لهم ما كانوا يخفونه ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ من المعاصي والكفر ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ بما أخبروا من أنفسهم من الإيمان.

٢. ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ فأما عمل الصالحات فهو من عمل الآخرة فخرج من أن يكون لهواً ولعباً، ولأن الحياة في الدنيا قصيرة المدة منقبضة اللذة فأشبهت اللهو واللعب لقصر مدتها،

---

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/ ١٨٦.

(٢) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/ ٢٣٩.

وأهل الآخرة بخلافهم لأن مدتهم باقية ولذتهم غير زائلة.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ فيه ثلاثة أقاويل:

أ. أحدها: وما أمر الدنيا والعمل لها إلا لعب ولهو، فأما عمل الصالحات فيها فهو من عمل الآخرة، فخرج من أن يكون لعباً ولهواً.

ب. الثاني: وما أهل الحياة الدنيا إلا أهل لعب ولهو لاشتغالهم بها عما هو أولى منها، قاله الحسن.

ج. الثالث: أنهم كأهل اللعب واللهو لانقطاع لذاتهم وقصور مدتهم، وأهل الآخرة بخلافهم لبقاء مدتهم واتصال لذتهم.

٢. وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ لأنه قَدْ دام لهم فيها ما كان منقطعاً في غيرها، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن ذلك خير لكم، وذكر بعض الخاطرية قولاً رابعاً: أنها لعب لمن جمعها، لهو لمن يرثها.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. خاطب الله تعالى نبيه ﷺ فقال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾:

أ. يعني على ما وعدهم ربهم من العذاب الذي يفعله بالكفار في الآخرة والثواب الذي يفعله بالمؤمنين، وعرفوا صحة ما كان أخبرهم به من الحشر والحساب، وقال لهم ربهم عند مشاهدتهم ووقوفهم عليه ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾ مقرين بذلك مذعنين له وإن كانوا قبل ذلك في الدنيا ينكرونه، قال حينئذ ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بذلك.

ب. ويحتمل أن يكون معنى ﴿إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ أنهم حبسوا ينتظر بهم ما يأمر كقول القائل: احبسه على أمره به.

---

(١) تفسير الماوردي: ٢/ ١٠٧.

(٢) تفسير الطوسي: ٤/ ١١٤.

ج. وقد ظن قوم من المشبهة أن قوله: ﴿إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ أنهم يشاهدونه، وهذا فاسد، لأن المشاهدة لا تجوز إلا على الأجسام أو على ما هو حال في الأجسام، وقد ثبت حدوث ذلك أجمع، فلا يجوز أن يكون تعالى بصفة ما هو محدث، وقد بينا أن المراد بذلك: وقوفهم على عذاب ربهم وثوابه، وعلمهم بصدق ما أخبرهم به في دار الدنيا دون أن يكون المراد به رؤيته تعالى ومشاهدته، فبطل ما ظنوه، وأيضاً فلا خلاف أن الكفار لا يرون الله، والآية مختصة بالكافرين فكيف يجوز أن يكون المراد بها الرؤية! فلا بد للجمع من التأويل الذي بيناه.

د. ويجوز أن يكون المراد بذلك إذا عرفوا ربهم، لأنه سيعرفهم نفسه ضرورة في الآخرة، وتسمى المعرفة بالشيء وقوفاً عليه يقول القائل: وقفت على معنى كلامك، والمعنى علمته، وإذا كان الكفار لا يعرفون الله في الدنيا وينكرونه، عرفهم الله نفسه ضرورة، فذلك يكون وقوفهم عليه، فإذا عرفوه قال لهم: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ يعني ما وعدهم به، فيقولون (بلى) لأنهم شاهدوا العقاب والثواب ولم يشكوا فيهما.

٢. ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ﴾ أخبر الله تعالى أنه خسر هؤلاء الكفار ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ﴾ يعني الذين كذبوا بما وعد الله به من الثواب والعقاب وجعل لقاءهم لذلك لقاء له تعالى مجازاً، كما يقول المسلمون لمن مات منهم: قد لقي الله وصار إليه، وإنما يعنون: لقي ما يستحقه من الله وصار إلى الموضع الذي لا يملك الأمر فيه سواه، كما قال: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ والموت لا يشاهد، وإنما أراد إنكم كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوا أسبابه، فقد رأيتم أسبابه وأنتم تنظرون، فجعل لقاء أسبابه لقاءه.

٣. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ كل شيء أتى فجأة، فقد بغت يقال: قد بغتة الأمر يبغته بغتاً وبغتة إذا أتاه فجأة قال الشاعر:

ولكنهم ماتوا ولم أخش بغتة   وأفظع شيء حين يفجؤك البغت

٤. ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ قد علم أن الحسرة لا تدعى وإنما دعاؤها تنبيه للمخاطبين، و(الحسرة) شدة الندم حتى يحسر النادم كما يحسر الذي تقوم به دابته في السفر البعيد، قال الزجاج: العرب إذا اجتهدت في المبالغة في الإخبار عن أمر عظيم يقع فيه جعلته نداء، فلفظه لفظ ما ينبه، والمنبه به غيره، كقوله: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾، وقوله: ﴿يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ﴾ و﴿يا ويلتا أَأَلِدُ وأنَا

عَجُوزٌ﴾ و﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا﴾، فهذا أبلغ من أن يقول: أنا أتحسر على العباد وأبلغ من أن يقول: الحسرة علينا في تفريطنا، قال سيبويه: إذا قلت يا عجباه فكأنك قيل: احضر وتعال يا عجب، فإنه من أزمانك، وتأويل ﴿يَا حَسْرَتَنَا﴾ انتبهوا على أنا قد خسرنا.

٥. ﴿عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾:

أ. يعني قدمنا العجز.

ب. وقيل معناه ما ضيعنا فيها يعني في الساعة، وإنما يحسروا على تفريطهم في الإيمان والتأهب لكونها بالأعمال الصالحة.

٦. ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾:

أ. يعني ثقل ذنوبهم، وهذا مثل جائز أن يكون جعل ما ينالهم من العذاب بمنزلة أثقل ما يتحمل، لأن الثقل قد يستعمل في الوزن وقد يستعمل في الحال تقول في الحال: قد ثقل علي خطاب فلان، ومعناه كرهت خطابه كراهة اشتدت علي.

ب. ويحتمل أن يكون المراد بالأوزار العقوبات التي استحقوها بالذنوب والعقوبات قد تسمى أوزاراً، فبين أنه لثقلها عليهم يحملونها على ظهورهم، وذلك يدل على عظمها.

ج. و(الوزر) الثقل في اللغة واشتقاقه من الوزر، وهو الجبل الذي يعتصم به، ومنه قيل: وزير، كأنه يعتصم الملك به، ومنه قوله: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي﴾ وقال: ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾

٧. ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾:

أ. يعني بئس الشيء شيئاً يزرونه أي يحملونه، وقد بينا عمل (بئس، ونعم) فيما مضى، ومثله ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ﴾ ومعناه ساء مثلاً مثل القوم.

ب. وقال بعضهم: معنى ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ وصف افتضاحهم في الموقف بما يشاهدونه من حالهم وعجزهم عن عبور الصراط كما يعبره المخفون من المؤمنين، ومعنى قوله: ﴿أَلَا سَاءَ﴾ ما ينالهم جزاء لذنوبهم وأعمالهم الردية إذ كان ذلك عذاباً ونكالاً.

ج. وقوله: (يزرون) من وزر يزر وزراً إذا أثم، وقيل أيضاً: وزر، فهو موزور إذا فعل به ذلك،

ومنه الحديث في النساء يتبعن جنازة قتيل لهن (أرجعن موزورات غير مأجورات) والعامة تقول مأزورات.

٨. ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بين الله تعالى في هذه الآية أن ما يتمتع به في الدنيا بمنزلة اللعب واللهو، اللذين لا عاقبة لهما في المنفعة ويقتضي زوالهما عن أهلها في أدنى مدة وأسرع زمان، لأنه لا إثبات لهما ولا بقاء، فأما الأعمال الصالحات، فهي من أعمال الآخرة وليست بلهو ولا لعب، وبين أن الدار الآخرة وما فيها من أنواع النعيم والجنان خير للذين يتقون معاصي الله، لأنها باقية دائمة لا يزول عنهم نعيمها ولا يذهب عنهم سرورها.

٩. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن ذلك كما وصفت لهم فيزهدوا في شهوات الدنيا ويرغبوا في نعيم الآخرة بفعل ما يؤديهم إليه من الأعمال الصالحة، ومن قرأ (يعقلون) بالياء، فلأنه قد تقدم ذكر الغيبة في قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ والتقدير أفلا يعقل الذين يتقون أن الدار الآخرة خير لهم من هذه الدار فيعملوا بما ينالون به من النعيم الدائم، ومن قرأ بالتاء قصد خطاب جميع الخلق المواجهين به.

١٠. العقل هو الإمساك عن القبيح وقصر النفس وحبسها على الحسن والحجا أيضاً احتباس وتمكث، قال الشاعر: فهن يعكفن به إذا حجا، وأنشد الأصمعي:

حيث يحجا مطرق بالفالق حجا أقام بالمكاره

والحجا مصدر كالشبع، ومنه الحجيا اللغز للتمكث الذي يلقى عليه حتى يستخرجها، قال أبو زيد: جمع حجى حجيات، فجاءت الحجيا مصغرة كالثريا والجديا، والنهى يحتمل أن يكون جمعاً بدلالة قوله: ﴿لِأُولِي النُّهَى﴾ لأنه أضافه إلى الجمع، ويجوز أن يكون مفرداً في موضع الجمع، وهو في معنى ثبات، وحسن، ومنه النهي، والنهى والتنهية للمكان الذي ينتهي إليه الماء فينتقع فيه لتسفله ويمنعه ارتفاع ما حوله من أن يسيح فيذهب على وجه الأرض.

١١. قراءات ووجوه: قرأ ابن عامر (ولدار الآخرة) بلام واحدة مع تخفيف الدال، وخفض (الآخرة) على الإضافة، الباقون بلامين وتشديد الدال وضم الآخرة، وقرأ أهل المدينة وابن عامر وحفص ويعقوب (تعقلون) بالتاء هاهنا وفي (الأعراف ويوسف) وافقهم يحيى والعليمي في (يوسف)، ومن قرأ بلامين وشدد الدال جعل (الآخرة) صفة لـ (وللدار)، وأجراها في الإعراب مجراها، واستدل على كونها صفة (للدار) بقوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ فأقامتها مقامها يدل على أنها هي وليس غيرها،

فيجوز أن يضيف إليها، وقووا ذلك بقوله: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾، وقوله: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ ومن قرأ بلام واحدة وخفف الدال فإنه لم يجعل (الآخرة) صفة (للدار) لأن الشيء لا يضاف إلى نفسه لكنه جعلها صفة للساعة، وكأنه قال: ولدار الساعة الآخرة، وجاز وصف الساعة بـ (الآخرة) كما وصف اليوم بالآخر في قوله: (وارجوا اليوم الآخر) وحسن إضافة (الدار) إلى الآخرة ولم يقبح من حيث استقبح إقامة الصفة مقام الموصوف، لأن الآخرة صارت كالأبطح والأبرق، ألا ترى أنه قد جاء ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ واستعملت استعمال الأسماء ولم تكن مثل الصفات التي لم تستعمل استعمال الآخرة، ومثل (الآخرة) في أنها استعملت استعمال الأسماء قولهم: الدنيا، لما استعملت استعمال الأسماء حسن أن لا تلحق لام التعريف في نحو قول الشاعر: في سعي دنيا طال ما قد مدَّت وقال الفراء: جعلت (الدار) ها هنا اسماً و(الآخرة) صفتها، وأضيفت في غير هذا الموضع، ومثله مما يضاف إلى مثله قوله: (حق اليقين) والحق هو اليقين، ومثله قولهم بارحة الأولى، ويوم الخميس، فيضاف الشيء إلى نفسه إذا اختلف اللفظ، وإذا اتفق لم يجز ذلك، لا يقولون حق الحق ولا يقين اليقين، لأنهم يتوهمون إذا اختلفا في اللفظ أنهما مختلفان في المعنى.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الذوق: مصدر ذقت الشيء أذوقه ذوقًا، وذقت ما عند فلان: اختبرته، قال الخليل: [كل ما] نزل بإنسان من مكروه فقد ذاقه.

ب. الخُسْرُ والخسران بمعنى، نحو: كفر وكفران، وفرق وفرقان، وخسرت الشيء وأخسرته: نقصته، وخسِرت في البيع بكسر السين، وأصل الباب: النقصان، وقيل: أصله الهلاك، وكل ما نقصته فقد أخسرته..

ج. اللقاء: من لقيته لقاء إذا رأيته، وكل شيء صادف شيئًا، أو استقبله فقد لقيه، تقول: لقيت فلانًا

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/ ٥٣٣.

لُقِيًّا ولُقْيَانًا، وهو الأصل في الباب، ثم يستعمل في الرؤية توسعًا، يقال: لقيت فلانًا، ولقي قتادة الحسن يعني أدرك زمانه وإن لم يره، ولقي فلان الداهية، ولقيت الحرب، ولا يراد به الرؤية، وهذا مطرد.

د. البغتة: الفجأة، وهو ورود الشيء على [صاحبه بغير] علمه بوقته، يقول: بَغَتُّهُ بغتة أخذته فجأة.

هـ. التفريط: التقصير، وأصله التقدم في تجاوز الحد، والتفريط: التقدم في التقصير، والفرط الفارط: المتقدم في طلب الماء، ومنه في دعاء الصبي: اللهم اجعله لنا فرطًا) أي أجرًا متقدمًا، وتكلم فلان فِرَاطًا إذا اشتقت منه نوادر الكلام، وفراط القطا متقدماتها إلى الوادي، وفرس فرط: يسبق الخيل.

و. الوزر: الثقل من الإثم، وجمعه: أوزار وهو الأثقال من الإثم، يقال: وزر الرجل يزر وزرًا إذا أثم، وهو وازر؛ أي آثم، ووُزِرَ يُوزرُ أثم، وأصله: الثقل، ومنه ﴿تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي أثقالها من السلاح.

ز. الساعة: القيامة سميت بذلك لسرعة الحساب فيها كأنه قيل: ما هي إلا ساعة الحساب للجزاء حتى يستقر أهل كل دار في داره، يقال: عاملته مسارعة نحو قولهم: مياومة.

ح. اللعب والعبث من النظائر لعب يلعب لعبًا فهو لاعب، ولاعبه ملاعبة، واللهو: صرف النفس من الجد إلى الهزل، وأصله الصرف عن الشيء لهيت عنه صُرفْت، ومنه ﴿أَلْهَاكُمُ﴾ ومنه: اللهاة لانصراف الطعام منها إلى الجوف، وكل ما شغلك فقد ألهاك، ولهوت من اللهو، ولهيت عنه: شغلت عنه.

٢. مما ذكر في علاقة الآية الكريمة بما قبلها:

أ. قيل: يتصل قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ بقوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾، ثم قال ولو ترى حالهم يَوْمَئِذٍ وما قالوا، عن الأصم، وقال أبو مسلم: ذكر في الآية الأولى: وقوفهم على النار، ومعاينتهم أهوالها وما قالوه عندها، وذكر في هذه الآية وقوفهم للحساب، وتبكيت الله إياهم على ما قالوا.

ب. وقيل: لما تقدم الحكاية عنهم جحدهم البعث وقولهم: لا حياة إلا الدنيا، بين أنهم إذا وقفوا على ما وعدوا من العقاب، وعاينوا البعث تيقنوا بطلان جحدهم واعترفوا بذنبهم.

٣. ﴿وَلَوْ تَرَى﴾:

أ. قيل: يا محمد.

ب. وقيل: يا أيها الإنسان.

٤. ﴿إِذْ وُقِفُوا﴾ يعني حبسوا أي هَؤُلَاءِ المكذبين بالبعث، وذكر ﴿إِذِ﴾ لتحقيق ذلك كأنه واقع، ﴿عَلَى رَبِّهِمْ﴾:

أ. قيل: على حكمه وقضائه يوم القيامة.

ب. وقيل: على مسألة ربهم، وتقرير ما عملوا عليهم، وتوبيخهم على ما سلف من جحودهم فخرج الكلام مخرج ما جرت العادة به من وقوف العبد بين يدي سيده لمسألته بها في ذلك من الفصاحة والبلاغة مع الإفصاح بالمعنى والتنبيه على عظم الشأن.

ج. وقيل: وقفوا على ربهم أي علموه ضرورة، عن أبي علي.

د. وقيل: وقفوا على الثواب والعقاب، فأشار إلى ما يلحقهم من الفضيحة عند المحاسبة ومعاينة النار والجزاء، وما تنطق به جوارحهم، وتشهد عليهم الحفظة تحذيرًا من مثل حالهم واستعدادًا لذلك المقام.

٥. ﴿قَالَ﴾:

أ. يعني الله تعالى لهم، وجاء على لفظ الماضي للتحقيق، كأنه واقع.

ب. وقيل: تقول الخزنة لهم بأمر الله تعالى.

٦. ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ كما قالت الرسل، وهذا سؤال توبيخ وتقريع لا سؤال استخبار، وهذا إشارة إلى الجزاء والثواب والعقاب والحساب والبعث.

٧. ﴿قَالُوا﴾ يعني هَؤُلَاءِ الكفار أقروا مذعنين ﴿بَلَى﴾ هو حق ﴿وَرَبِّنَا﴾ قَسَمٌ ذَكَرُوهُ أكدوا اعترافهم به، عن أبي مسلم ﴿قَالَ﴾ الله تعالى، أو الملك بأمره ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ إنما قال ذوقوا لأنهم في كل حال يجدونه وجدان الذائق في شدة الإحساس ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي جزاء كفركم.

٨. ﴿قَدْ خَسِرَ﴾:

أ. قيل: هلك.

ب. وقيل: بخس حظه ونقصه.

ج. وقيل: خسرت صفقته؛ أي غبن حيث باع سلامتها بهلاكها ونعيم الحياة الدنيا مع عذاب الأبد.

٩. ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا﴾ يعني هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أنكروا البعث وقالوا: ما هي إلا حياتنا الدنيا ﴿بِلِقَاءِ اللهِ﴾:

أ. أي: بالبعث بعد الموت، وهو توسع؛ لأن في الدنيا تنفذ أحكام الأمراء والملوك، وفي القيامة لا ينفذ إلا حكمه وأمره، فكأنه لا يلقى إلا الله تعالى، فذكر لقاءه وأراد لقاء تلك الأمور.

ب. وقيل: كانوا بلقاء الله إياهم على ما هم عليه من الكفر والعصيان.

ج. وقيل: كذبوا بلقاء موعود الله، فحذف المضاف، وأقام المضاف إليه مقامه، كقوله: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ فليس اللقاء من الرؤية في شيء فلا تعلق للمشبهة بالآية.

١٠. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ﴾ القيامة ﴿بَغْتَةً﴾ أي فجأة من غير أن علموا وقتها، ﴿قَالُوا﴾ عند معاينة القيامة وأهوالها، ومنازل أهل الثواب، وأهل العقاب وسائر أحوالهم ﴿يَا حَسْرَتَنَا﴾ يعني تحسروا وندموا على ما فاتهم ﴿عَلَى مَا فَرَّطْنَا﴾ قصرنا ﴿فِيهَا﴾:

أ. قيل: في الدنيا فلم نعمل للآخرة.

ب. وقيل: في الساعة فلم نقدم لها عملاً صالحًا.

ج. وقيل: في الاستعداد ليوم القيامة.

د. وقيل: في عمل الجنة.

١١. ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ آثامهم ﴿عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾:

أ. قيل: معناه: أن أوزارهم لا تزايلهم يعني جزاءها، كما يقال: شخصك نصب عيني، عن الزجاج.

ب. وقيل: المؤمن إذا خرج من قبره جاء عمله، فيركبه المؤمن، فذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ والكافر إذا خرج من قبره جاء عمله فيركب ظهر الكافر، فذلك قوله تعالى: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ ولا شبهة أن الأعمال أعراض قد عدمت، ولا يجوز عليها الإعادة، والحمل والركوب إنما يصح على الجواهر، فإن أراد أن الله تعالى يجعل جسمًا علامة لأعمال المؤمن، وجسمًا علامة لأعمال الكافر، كما تقول في وزن الأعمال فذلك يصح، وإلا لم يصح.

ج. وقيل: هو توسع، وأراد أن آثامهم تشق وتثقل عليهم، كالحمل الذي يحمل الإنسان على ظهره، فيشق عليه، فشبه ذلك به، عن أبي علي، وهذا هو الوجه.

د. وقيل: يحملون جزاء أوزارهم، حكاه الأصم، وهذا أيضًا توسع؛ لأنه ليس بشيء محمول، وإنما

هو عقاب والآلام تحل جميع بدنه، والمراد أنه يشق عليه ذلك.

١٢. ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي بئس ما يحملون ويعملون.

١٣. ثم رد عليهم قولهم: ما هي إلا حياتنا الدنيا، فقال سبحانه: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾:

أ. يعني باطلاً وغرورًا إذا لم يجعل ذلك طريقًا إلى الآخرة، وإنما أراد بذلك عمل الدنيا؛ لأن نفس الدنيا وحياتها فِعْلُ الله تعالى، ولا توصف باللعب، والطاعات وما فيه رضا الله من عمل الآخرة، وليس بلعب ولهو، ولأن اللعب ما لا يوجب نفعًا، أو يعقب ضرًا، وهذا إنما يتصور في المعاصي وأعمال الدنيا.

ب. وقيل: معناه: ما أهل الحياة الدنيا إلا أهل لعب ولهو عن الحسن.

١٤. ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ﴾:

أ. قيل: الجنة.

ب. وقيل: نفع الدار الآخرة، وسميت آخرة لتأخرها عن الدنيا.

١٥. ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي أفضل للمتقين؛ لأنها تنال بالتقوى فهو خير لهم دون الكفار والعصاة لأنهم يعاقبون فيها، وإنما خص المتقين؛ لأن لهم معظم المنافع من الثواب والعوض، والتفضل، ومن في الجنة من غيرهم تبع لهم، ولأن الغرض ذكر أحوال المتقين.

١٦. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾:

أ. قيل: أفلا تستعملون عقولكم بالتفكر فيما ذكر لكم كما تقول للرجل: أفلا تعقل.

ب. وقيل: تبكيت على لفظ الاستفهام؛ أي: لو تفكروا لعقلوا، عن أبي مسلم.

ج. وقيل: أفلا تعقلون أن الآخرة خير من الدنيا، وهو توبيخ.

د. وقيل: أفلا تعقلون جهلهم بهذه الأحوال في الدارين، وفيه تسلية للفقراء بما حرموا من الدنيا، وتقريع للأغنياء حيث ركنوا إليها، ولم يعملوا لغيرها.

١٧. تدل الآية الكريمة على:

أ. بطلان قول الْمُجْبِرَةِ في المخلوق والاستطاعة من وجوه، لأن تحسرهم وتمنيهم الرد، وسؤالهم ذلك يدل على أن ما قصروا فيه فعلهم، وأنهم كانوا قادرين على خلافه؛ إذ لو لم يكن فعلهم ولم يقدروا عليه

لم يكن لذلك معنى، عن أبي علي، وقيل: قوله: ﴿فَرَّطْنَا﴾ يدل على أنهم كانوا مُمَكَّنِين؛ لأنه لا يوصف مفرطًا فيما لا يقدر عليه، ولا فيما هو فِعْلٌ لغيره، وكذلك التحسر والتمني، عن القاضي.

ب. قوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، دل أن الكفر فعلهم لا خلقه، وكذلك قوله: ﴿كَذَّبُوا﴾، وكذلك قوله: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ وكذلك قوله: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ فكل ذلك يبطل قولهم في المخلوق والاستطاعة.

ج. أن الدنيا وأمورها ليس لها عاقبة محمودة، وأن المحمود هي الدار الآخرة وعملها.

د. أن الجنة تنال بالتقوى، ١٨. سؤال وإشكال: لِمَ خص المتقين بأن الآخرة خير لهم؟ والجواب: فيه قولان:

- أحدهما: لأنهم اختصوا بأنهم أهلها المنتفعون بأعظم نعيمها، وهو الثواب.
- وقيل: لأن الكفار يعاقبون فيها، فلا تكون خَيرًا لهم.

هـ. أن العقاب يكون جزاء على الأعمال؛ لذلك تجسروا، ولذلك قال: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ فيبطل قول المُجْبِرَةِ بأنها ليست بجزاء على الأعمال.

١٩. قراءات ووجوه:

أ. قرأ ابن عامر ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ مضافًا بلام واحدة لاختلاف اللفظين، كقولهم: مسجد الجامع، وربيع الأول، وقرأ الباقون ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ بلامين ﴿الْآخِرَةِ﴾ بالرفع على أنها نعت الدار.

ب. قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر ويعقوب ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بالتاء ههنا وفي سورة ﴿الْأَعْرَافِ﴾، وسورة ﴿يُوسُفُ﴾، وسورة ﴿يُونُسَ﴾، وقرأ حفص عن عاصم في ﴿يس﴾ بالياء والباقي بالتاء، وقرأ عاصم في رواية يحيى في ﴿يُوسُفُ﴾ بالتاء، والباقي بالياء، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وعاصم في رواية الأعشى في جميع ذلك بالياء والتاء على الخطاب، والياء على أن الخطاب للغائب، وهم الكافرون.

٢٠. مسائل لغوية ونحوية:

أ. جواب ﴿لَوْ﴾ في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ محذوف يدل عليه تعظيم شأن الوقوف، وتقديره: لرأيت أشد حال في النكال، وقال: الأولى: جواب ﴿إِذِ﴾، والثانية: جواب السؤال، والثالثة جواب الإقرار.

ب. سؤال وإشكال: ما معنى ﴿حَتَّى﴾ في قوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ﴾؟، وما عامل الإعراب فيها؟ والجواب: معناها منتهى تكذيبهم بالحسرة يومِ القيامة، وعامل الإعراب فيها ﴿كَذَّبُوا﴾، كأنه قيل: كذبوا إلى أن ظهرت الساعة بغتة، فَأَتَوْا بالندامة يوم لا تنفع الندامة.

ج. سؤال وإشكال: لِمَ جاز نداء الحسرة، وهي مما لا يعقل؟ والجواب: فيه قولان:

• الأول: لأنه بمنزلة الاستغاثة بها كأنه قيل: يا حسرة تعالي، فهذا أوانك، استغاثة المكروب بالبكاء والنحيب، فنودي توسعًا.

• الثاني: أنه خرج مخرج النداء لها عن النداء لغيرها ـ والمعنى على النداء لغيرها ـ تنبيهًا على عظم شأنها، وقال: بلى، ولم يقل: نعم؛ لأن ﴿بَلَى﴾ تكون في كلام تقدم فيه النفي، كقولك: ألم تذهب؟ فيقول: بلى.

د. قوله: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ ﴿لَيْسَ﴾ من حروف الجحد، ودخلت عليها ألف الاستفهام.

هـ. الضمير في قوله: ﴿فَرَّطْنَا فِيهَا﴾:

• قيل: يرجع على الساعة، عن الحسن وأبي علي وأبي مسلم، أي فرطنا في التقدمة لها.

• وقيل: على الصفة المدلول عليها في الكلام؛ لأن قوله: ﴿خُسْرٍ﴾ يدل على الصفة، عن ابن جرير، قال علي بن عيسى: وهذا لا يصح؛ لأنه إذا صح العائد إلى مذكور لم يجز غيره؛ لأنه عدول عن الظاهر.

• وقيل: يعود على الطاعة أي: ما فرطنا في عمل الطاعة.

• وقيل: على الدنيا؛ أي: ما فرطنا في الدنيا من أعمال الآخرة.

• وقيل: على الجنة، يعني ما ضيعنا من عمل الجنة، عن السدي، والصحيح الأول؛ لأنه مذكور يقرب من الكناية.

و. ﴿الْحَيَاةَ﴾ رفع بـ ﴿مَا﴾ وخبره ﴿إِلَّا لَعِبٌ﴾، إلا أنك رفعت خبر ﴿مَا﴾ لإدخالك عليه ﴿إِلَّا﴾ كقولك: ما زيد إلا ذاهب، ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ أدخلت هذه اللام على الدار؛ لأنها لام الابتداء، وهي لام التوكيد، كقولك: لزيد أفضل من عمرو.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبرِسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. ﴿بَغْتَةً﴾ كل شيء أتى فجاءة فقد بغت، يقال بغته الأمر يبغته بغتة، قال الشاعر:

ولكنهم باتوا، ولم أخش بغتة وأفظع شيء حين يفجأك البغت

ب. الحسرة: شدة الندم، حتى يحسر النادم، كما يحسر الذي تقوم به دابته في السفر البعيد.

ج. التفريط: التقصير، وأصله التقديم، والإفراط: التقديم في مجاوزة الحد، والتفريط: التقديم في العجز والتقصير.

د. الوزر: الثقل في اللغة، واشتقاقه من الوزر، وهو الحبل الذي يعتصم به، ومنه قيل، وزير، كأنه يعتصم الملك به، ومثله قوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾، ويزرون: يفعلون، من وزر يزر وزرا: إذا أثم. وقيل: وزر فهو موزور: إذا فعل به ذلك، ومنه الحديث في النساء يتبعن جنازة قتيل لهن: (ارجعن موزورات غير مأجورات)، والعامة تقول: مأزورات.

هـ. العقل، والنهى، والحجى، متقاربة المعنى:

• فالعقل: الإمساك عن القبيح، وقصر النفس وحبسها، عن الحسن، قال الأصمعي: وبالدهناء خبراء يقال له معقلة، قال وتراها سميت معقلة لأنها تمسك الماء كما يعقل الدواء البطن.

• والنهى: لا يخلو أن يكون مصدرا كالهدى، أو جمعا كالظلم، وهو في معنى ثبات وحبس، ومنه النهي والتنهية للمكان الذي ينتهي إليه الماء، فيستنقع فيه، لتسفله، ويمنع ارتفاع ما حوله من أن يسيح على وجه الأرض.

• والحجى: أصله من الحجو، وهو احتباس وتمكث، قال: (فهن يعكفن به إذا حجا)، وحجيت بالشيء وتحجيت به، يهمز ولا يهمز أي: تمسكت، عن الأزهري، قال أبو علي: فكأن الحجى مصدر، كالشبع، ومن هذا الباب الحجيا للغز لتمكث الذي يلقى عليه، حتى يستخرجه.

٢. خاطب سبحانه نبيه ﷺ فقال: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ يا محمد ﴿إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ ليس يصح في هذه

---

(١) تفسير الطبرسي: ٤/ ٣٢.

الآية شيء من الوجوه التي ذكرناها في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ إلا وجها واحدا:

أ. وهو أن المعنى: عرفوا ربهم ضرورة، كما يقال: وقفته على كلام فلان أي: عرفته إياه.

ب. وقيل أيضا: إن المعنى: وقفوا على ما وعدهم ربهم من العذاب الذي يفعله بالكفار، والثواب الذي يفعله بالمؤمنين، في الآخرة، وعرفوا صحة ما أخبرهم به من الحشر والحساب.

ج. ويجوز أن يكون المعنى: حبسوا على ربهم ينتظر بهم ما يأمرهم به، وخرج الكلام مخرج ما جرت به العادة من وقوف العبد بين يدي سيده، لما في ذلك من الفصاحة، والإفصاح بالمعنى، والتنبيه على عظم الأمر.

٣. ﴿قَالَ﴾:

أ. أي: يقول الله تعالى لهم، وجاء على لفظ الماضي، لأنه لتحققه كأنه واقع.

ب. وقيل: معناه تقول الملائكة لهم بأمر الله تعالى.

﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ كما قالت الرسل، وهذا سؤال توبيخ وتقريع، وقوله: ﴿هَذَا﴾ إشارة إلى الجزاء، والحساب، والبعث ﴿قَالُوا﴾ أي فيقول هؤلاء الكفار مقرين بذلك، مذعنين له ﴿بَلَى﴾ هو حق ﴿وَرَبِّنَا﴾ قسم ذكروه، وأكدوا اعترافهم به.

٤. ﴿قَالَ﴾ الله تعالى أو الملك بأمره ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: بكفركم، وإنما قال: ﴿ذُوقُوا﴾ لأنهم في كل حال يجدون ذلك وجدان الذائق المذوق في شدة الإحساس، من غير أن يصيروا إلى حال من يشم بالطعام في نقصان الإدراك.

٥. ثم أخبر سبحانه عن هؤلاء الكفار، فقال: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ﴾:

أ. يعني بلقاء ما وعد الله به من الثواب والعقاب، وجعل لقاءهم لذلك، لقاء له تعالى، مجازا، عن ابن عباس، والحسن.

ب. وقيل: المراد ﴿بِلِقَاءِ﴾: جزاء الله كما يقال للميت: لقي فلان عمله أي: لقي جزاء عمله، ونظيره ﴿إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ﴾

٦. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ﴾ أي: القيامة ﴿بَغْتَةً﴾ أي: فجأة من غير أن علموا وقتها ﴿قَالُوا﴾ عند معاينة ذلك اليوم وأهواله، وتباين أحوال أهل الثواب والعقاب ﴿يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾:

أ. أي: على ما تركنا وضيعنا في الدنيا من تقديم أعمال الآخرة، عن ابن عباس.

ب. وقيل: إن الهاء يعود إلى ﴿السَّاعَةِ﴾ عن الحسن، والمعنى على ما فرطنا في العمل للساعة والتقدمة لها.

ج. وقيل: إن الهاء يعود إلى الجنة أي: في طلبها والعمل لها، عن السدي، يدل عليه ما رواه الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد عن النبي ﷺ في هذه الآية قال: يرى أهل النار منازلهم من الجنة، فيقولون: يا حسرتنا.

د. وقال محمد بن جرير: الهاء يعود إلى الصفقة، لأنه لما ذكر الخسران دل على الصفقة.

هـ. ويجوز أن يكون الهاء يعود إلى معنى ما في قوله: ﴿مَا فَرَّطْنَا﴾ أي: يا حسرتنا على الأعمال الصالحة التي فرطنا فيها، فعلى هذا الوجه يكون ﴿مَا﴾ موصولة بمعنى الذي، وعلى الوجوه المتقدمة يكون ﴿مَا﴾ بمعنى المصدر، ويكون تقديره على تفريطنا.

٧. ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ أي: أثقال ذنوبهم ﴿عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾:

أ. قال ابن عباس: يريد آثامهم وخطاياهم.

ب. وقال قتادة والسدي: إن المؤمن إذا خرج من قبره، استقبله أحسن شيء صورة، وأطيبه ريحا، فيقول: أنا عملك الصالح، طال ما ركبتك في الدنيا، فاركبني أنت اليوم، فذلك قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ أي: ركبانا، وإن الكافر إذا خرج من قبره، استقبله أقبح شيء صورة، وأخبثه ريحا، فيقول: أنا عملك السيء، طال ما ركبتني في الدنيا، فأنا أركبك اليوم، وذلك قوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾

ج. وقال الزجاج: هذا مثل جائز أن يكون جعل ما ينالهم من العذاب، بمنزلة أثقل ما يحمل، لأن الثقل كما يستعمل في الوزن، يستعمل في الحال أيضا، كما تقول: ثقل علي خطاب فلان، ومعناه: كرهت خطابه كراهة اشتدت علي، فعلى هذا يكون المعنى: إنهم يقاسون عذاب آثامهم، مقاساة تثقل عليهم، ولا تزايلهم، وإلى هذا المعنى أشار أمير المؤمنين عليه السلام في قوله: (تخففوا تلحقوا فإنما ينتظر بأولكم آخركم)

٨. ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾:

أ. أي: بئس الحمل حملهم، عن ابن عباس.

ب. وقيل: معناه ساء ما ينالهم جزاء لذنوبهم وأعمالهم السيئة، إذ كان ذلك عذابا ونكالا.

٩. ثم رد عليهم قولهم ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ وبين سبحانه أن ما يتمتع به من الدنيا يزول ويبيد فقال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي: باطل وغرور، إذا لم يجعل ذلك طريقا إلى الآخرة:

أ. وإنما عنى بالحياة الدنيا أعمال الدنيا، لأن نفس الدنيا لا توصف باللعب، وما فيه رضا الله من عمل الآخرة لا يوصف به أيضا، لأن اللعب ما لا يعقب نفعا، واللهو ما يصرف من الجد إلى الهزل، وهذا إنما يتصور في المعاصي.

ب. وقيل: المراد باللعب واللهو: إن الحياة تنقضي وتفنى، ولا تبقى، فتكون لذة فانية عن قريب، كاللعب واللهو.

١٠. ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ وما فيها من أنواع النعيم والجنان ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ معاصي الله، لأنها باقية دائمة لا يزول عنهم نعيمها، ولا يذهب عنهم سرورها، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن ذلك كما وصف لهم، فيزهدوا في شهوات الدنيا، ويرغبوا في نعيم الآخرة، ويفعلوا ما يؤديهم إلى ذلك من الأعمال الصالحة.

١١. في هذه الآية تسلية للفقراء بما حرموا من متاع الدنيا.. وتقريع للأغنياء إذا ركنوا إلى حطامها، ولم يعملوا لغيرها.

١٢. قراءات ووجوه:

أ. قرأ ابن عامر ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ بلام واحدة، وجر ﴿الْآخِرَةِ﴾ على الإضافة والباقون بلامين، ورفع ﴿الْآخِرَةِ﴾.. من قرأ ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ فلأن الآخرة صفة للدار، يدل على ذلك قوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾، ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾، و﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا﴾، ومن أضاف دارا إلى الآخرة، لم يجعل الآخرة صفة للدار، فإن الشيء لا يضاف إلى نفسه، لكنه جعلها صفة للساعة، فكأنه قال ولدار الساعة الآخرة، وجاز وصف الساعة بالآخرة، كما وصف اليوم بالآخر، في قوله: ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾، قال أبو علي: إنما حسن إضافة الدار إلى الآخرة، ولم يقبح من حيث استقبح إقامة الصفة مقام الموصوف، لأن الآخرة قد صارت كالأبطح والأبرق، الا ترى أنه قد جاء ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ فاستعملت استعمال الأسماء، ولم يكن مثل الصفات التي لم تستعمل استعمال الأسماء، ومثل

﴿الْآخِرَةِ﴾ في أنها استعملت استعمال الأسماء قولهم: الدنيا لما استعملت استعمال الأسماء، حسن أن لا يلحق لام التعريف في نحو قوله: (في سعي دنيا طال ما قد مدت)

ب. قرأ أهال المدينة، وابن ذكوان عن ابن عامر، ويعقوب، وسهل ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بالتاء ههنا، وفي الأعراف، ويوسف، وياسين، ووافقهم حفص إلا في ياسين، وحماد، ويحيى، عن أبي بكر، في يوسف، وقرأ الباقون جميع ذلك بالياء.. وجه القراءة بالياء في ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ هو أنه قد تقدم في ذكر الغيبة في قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ ووجه القراءة بالتاء أنه يصلح أن يكون خطابا متوجها إليهم، ويصلح أن يكون المراد الغيب والمخاطبون فيغلب الخطاب.

١٣. مسائل لغوية ونحوية:

أ. سؤال وإشكال: ما معنى الغاية في قوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ﴾ وما عامل الإعراب فيها؟ والجواب: إن معناها منتهى تكذيبهم الحسرة يوم القيامة، والعامل فيها كذبوا أي: كذبوا إلى أن ظهرت الساعة بغتة، فندموا حيث لا ينفعهم الندامة.

ب. سؤال وإشكال: ما معنى دعاء الحسرة، وهي مما لا يعقل؟ والجواب:

• إن العرب إذا اجتهدت في المبالغة في الإخبار عن أمر عظيم، تقع فيه، جعلته نداء، فلفظه لفظ ما ينبه، والمنبه غيره، مثل قوله: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾، وقوله: ﴿يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ﴾، و﴿يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ﴾ وهذا أبلغ من أن تقول أنا أتحسن على التفريط قاله الزجاج، وقال سيبويه: إنك إذا قلت: يا عجباه فكأنك قلت أحضر وتعال يا عجب، فإنه من أزمانك، وتأويل يا حسرتاه: انتبهوا على أننا قد حسرنا، فخرج مخرج النداء للحسرة، والمعنى على النداء لغيرها، تنبيها على عظم شأنها.

• وقيل: إنها بمنزلة الاستغاثة فكأنه قيل: يا حسرتنا تعالي فهذا أوانك، كما يقال: يا للعجب.

ج. قوله: ﴿سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ تقديره بئس الشيء شيء يزرونه، وقد ذكرنا عمل نعم، وبئس، فيما مضى.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ قال مقاتل: عرضوا على ربّهم ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا﴾ العذاب ﴿بِالْحَقِّ﴾، وقال غيره: أليس هذا البعث حقّا؟ فعلى قول مقاتل: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بالعذاب، وعلى قول غيره: ﴿تَكْفُرُونَ﴾ بالبعث.

٢. ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ﴾ إنها وصفوا بالخسران، لأنهم باعوا الإيمان بالكفر، فعظم خسرانهم، والمراد بلقاء الله: البعث والجزاء؛ والسّاعة: القيامة؛ والبغتة: الفجأة، قال الزّجّاج: كلّ ما أتى فجأة فقد بغت؛ يقال: قد بغته الأمر يبغته بغتا وبغتة: إذا أتاه فجأة، قال الشاعر:

ولكنّهم بانوا ولم أخش بغتة وأفظع شيء حين يفجؤك البغت

٣. ﴿يَا حَسْرَتَنَا﴾ الحسرة: التّلهّف على الشيء الفائت، وأهل التفسير يقولون: يا ندامتنا.

٤. سؤال وإشكال: ما معنى دعاء الحسرة، وهي لا تعقل؟ والجواب: أنّ العرب إذا اجتهدت في المبالغة في الإخبار عن عظيم ما تقع فيه، جعلته نداء، فتدخل عليه (يا) للتنبيه، والمراد تنبيه النّاس، لا تنبيه المنادى، ومثله قولهم: لا أرينّك ها هنا، لفظه لفظ النّاهي لنفسه، والمعنى للمنهيّ؛ ومن هذا قولهم: يا خيل الله اركبي، يراد: يا فرسان خيل الله، وقال سيبويه: إذا قلت: يا عجباه، فكأنك قلت: احضر وتعال يا عجب، فهذا زمانك.

٥. التّفريط هو: التّضييع، قال الزّجّاج: التّفريط في اللغة: تقدمة العجز.

٦. في المكنّى عنه بقوله: (فيها) ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: أنها الدّنيا، فالمعنى: على ما ضيّعنا في الدّنيا من عمل الآخرة، قاله مقاتل.

ب. الثاني: أنها الصّفقة، لأن الخسران لا يكون إلّا في صفقة، وترك ذكرها اكتفاء بذكر الخسران؛ قاله ابن جرير.

ج. الثالث: أنها الطّاعة؛ ذكره بعض المفسّرين.

٧. فأما الأوزار، فقال ابن قتيبة: هي الآثام، وأصل الوزر: الحمل على الظّهر، وقال ابن فارس:

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٢/ ٢٢.

الوزر: الثّقل، سؤال وإشكال: هل هذا الحمل حقيقة؟ والجواب: فيه قولان:

أ. أحدهما: أنه على حقيقته، قال عمير بن هانئ: يحشر مع كل كافر عمله في صورة رجل قبيح، كلما كان هول عظّمه عليه، وزاده خوفا، فيقول: بئس الجليس أنت، ما لي ولك؟ فيقول: أنا عملك، طالما ركبتني في الدّنيا، فلأركبنّك اليوم حتى أخزيك على رؤوس الناس، فيركبه ويتخطّى به الناس حتى يقف بين يدي ربّه، فذلك قوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ وهذا قول السّدّيّ، وعمرو بن قيس الملائي، ومقاتل.

ب. الثاني: أنه مثل، والمعنى: يحملون ثقل ذنوبهم، قاله الزّجّاج، قال فجعل ما ينالهم من العذاب بمنزلة أثقل ما يتحمّل.

٨. معنى ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾: بئس الشيء شيئا يزرونه، أي يحملونه.

٩. ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: وما الحياة الدّنيا في سرعة انقطاعها، وقصر عمرها؛ إلّا كالشيء يلعب به.

ب. الثاني: وما أمر الدّنيا والعمل لها إلا لعب ولهو، فأما فعل الخير، فهو من عمل الآخرة، لا من الدّنيا.

ج. الثالث: وما أهل الحياة الدّنيا إلا أهل لعب ولهو، لاشتغالهم عمّا أمروا به، واللعب: ما لا يجدي نفعا.

١٠. ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ اللام: لام القسم، والدّار الآخرة: الجنّة ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فيعملون لها، قرأ ابن كثير، وأبو عمرو؛ وحمزة، والكسائيّ، (يعقلون) بالياء، في الأنعام والأعراف ويوسف ويس، وقرؤوا في القصص بالتاء، وقرأ نافع كل ذلك بالياء، وروى حفص، عن عاصم كلّ ذلك بالتاء، إلّا في يس ﴿فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾، بالياء وقرأ ابن عامر الذي في يس بالياء، والباقي بالتاء.

الرّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

---

(١) التفسير الكبير: ١٢/ ٥١٢.

١. لما حكى الله تعالى عنهم في الآية السابقة إنكارهم للحشر والنشر والبعث والقيامة بيّن في هذه الآية كيفية حالهم في القيامة، فقال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾

٢. سؤال وإشكال: تمسك جماعة من المشبهة بهذه الآية، وقالوا ظاهر هذه الآية يدل على أن أهل القيامة يقفون عند الله وبالقرب منه، وذلك يدل على كونه تعالى بحيث يحضر في مكان تارة ويغيب عنه تارة أخرى، والجواب: هذا خطأ وذلك لأن ظاهر الآية، يدل على كونهم واقفين على الله تعالى، كما يقف أحدنا على الأرض، وذلك يدل على كونه مستعليا على ذات الله تعالى وأنه بالاتفاق باطل، فوجب المصير إلى التأويل وهو من وجوه:

أ. الأول: هو أن يكون المراد ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى﴾ ما وعدهم ربهم من عذاب الكافرين وثواب المؤمنين وعلى ما أخبرهم به من أمر الآخر.

ب. الثاني: أن المراد من هذا الوقوف المعرفة، كما يقول الرجل لغيره وقفت على كلامك أي عرفته.

ج. الثالث: أن يكون المراد أنهم وقفوا لأجل السؤال فخرج الكلام مخرج ما جرت به العادة، من وقوف العبد بين يدي سيده والمقصود منه التعبير عن المقصود بالألفاظ الفصيحة البليغة.

٣. المقصود من هذه الآية أنه تعالى حكى عنهم في الآية السابقة، أنهم ينكرون القيامة والبعث في الدنيا، ثم بيّن أنهم في الآخرة يقرون به فيكون المعنى أن حالهم في هذا الإنكار سيئول إلى الإقرار وذلك لأنهم شاهدوا القيامة والثواب والعقاب، قال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾

٤. سؤال وإشكال: هذا الكلام يدل على أنه تعالى يقول لهم: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾؟ وهو كالمناقض لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ﴾ [البقرة: ١٧٤] والجواب: يحمل قوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ﴾ أي لا يكلمهم بالكلام الطيب النافع، وعلى هذا التقدير يزول التناقض.

٥. ثم إنه تعالى بيّن أنه إذا قال لهم ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾؟ قالوا: ﴿بَلَى وَرَبِّنَا﴾ المقصود أنهم يعترفون بكونه حقا مع القسم واليمين، ثم إنه تعالى يقول لهم ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وخص لفظ الذوق لأنهم في كل حال يجدونه وجدان الذائق في قوة الاحساس وقوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي بسبب كفركم.

٦. ما ذكر الله تعالى هذا الكلام احتجاجا على صحة القول بالحشر والنشر لأن ذلك الدليل قد

تقدم ذكره في أول السورة في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ [الأنعام: ٢] على ما قررناه وفسرناه، بل المقصود من هذه الآية الردع والزجر عن هذا المذهب والقول.

٧. ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ المقصود من هذه الآية شرح حالة أخرى من أحوال منكري البعث والقيامة وهي أمران:

أ. أحدهما: وهو المراد من قوله: ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾، وهو حصول الخسران، وتقريره أنه تعالى بعث جوهر النفس الناطقة القدسية الجسماني وأعطاه هذه الآلات الجسمانية والأدوات الجسدانية وأعطاه العقل والتفكر لأجل أن يتوصل باستعمال هذه الآلات والأدوات إلى تحصيل المعارف الحقيقية والأخلاق الفاضلة التي يعظم منافعها بعد الموت، فإذا استعمل الإنسان هذه الآلات والأدوات والقوة العقلية والقوة الفكرية في تحصيل هذه اللذات الدائرة والسعادات المنقطعة ثم انتهى الإنسان إلى آخر عمره فقد خسر خسرانا مبينا لأن رأس المال قد فنى والربح الذي ظن أنه هو المطلوب فنى أيضا وانقطع فلم يبق في يده لا من رأس المال أثر ولا من الربح شيء فكان هذا هو الخسران المبين، وهذا الخسران إنما يحصل لمن كان منكرا للبعث والقيامة وكان يعتقد أن منتهى السعادات ونهاية الكمالات هو هذه السعادات العاجلة الفانية، أما من كان مؤمنا بالبعث والقيامة فإنه لا يغتر بهذه السعادات الجسمانية، ولا يكتفي بهذه الخيرات العاجلة بل يسعى في إعداد الزاد ليوم المعاد فلم يحصل له الخسران فثبت بما ذكرنا أن الذين كذبوا بلقاء الله وأنكروا البعث والقيامة قد خسروا خسرانا مبينا وأنهم عند الوصول إلى موقف القيامة يتحسرون على تفريطهم في تحصيل الزاد ليوم المعاد.

ب. الثاني: وهو المراد من قوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾، وهو حمل الأوزار العظيمة، وتقرير الكلام فيه أن كمال السعادة في الإقبال على الله تعالى والاشتغال بعبوديته والاجتهاد في حبه وخدمته وأيضا في الانقطاع عن الدنيا وترك محبتها وفي قطع العلاقة بين القلب وبينها، فمن كان منكرا للبعث والقيامة، فإنه لا يسعى في إعداد الزاد لموقف القيامة، ولا يسعى في قطع العلاقة بين القلب وبين الدنيا، فإذا مات بقي كالغريب في عالم الروحانيات، وكالمنقطع عن أحبابه وأقاربه الذين كانوا في عالم الجسمانيات فيحصل له الحسرات العظيمة بسبب فقدان الزاد وعدم الاهتداء إلى المخالطة بأهل ذلك العالم

ويحصل له الآلام العظيمة بسبب الانقطاع عن لذات هذا العالم والامتناع عن الاستعداد بخيرات هذا العالم.

٨. ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ﴾ المراد منه الذين أنكروا البعث والقيامة، وقد بالغنا في شرح هذه الكلمة عند قوله: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦] وإنما حسنت هذه الكناية لأن موقف القيامة موقف لا حكم فيه لأحد إلا لله تعالى، ولا قدرة لأحد على النفع والضر والرفع والخفض إلا لله.

٩. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ كلمة (حتى) غاية لقوله: ﴿كَذَّبُوا﴾ لا لقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ﴾ لأن خسرانهم لا غاية له ومعنى (حتى) هاهنا أن منتهى تكذيبهم الحسرة يوم القيامة، والمعنى أنهم كذبوا إلى أن ظهرت الساعة بغتة.

١٠. سؤال وإشكال: إنما يتحسرون عند موتهم، والجواب: لما كان الموت وقوعا في أحوال الآخرة ومقدماتها جعل من جنس الساعة وسمي باسمها ولذلك قال رسول الله ﷺ: (من مات فقد قامت قيامته)

١١. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ﴾ المراد بالساعة القيامة، وفي تسمية يوم القيامة بهذا الاسم وجوه:

الأول: أن يوم القيامة يسمى الساعة لسرعة الحساب فيه كأنه قيل: ما هي إلا ساعة الحساب.

الثاني: الساعة هي الوقت الذي تقوم القيامة سميت ساعة لأنها تفجأ الناس في ساعة لا يعلمها أحد إلا الله تعالى، ألا ترى أنه تعالى قال: ﴿بَغْتَةً﴾ والبغت والبغتة هو الفجأة والمعنى: أن الساعة لا تجيء إلا دفعة لأنه لا يعلم أحد متى يكون مجيئها، وفي أي وقت يكون حدوثها وقوله: ﴿بَغْتَةً﴾ انتصابه على الحال بمعنى: باغتة أو على المصدر كأنه قيل: بغتتهم الساعة بغتة.

١٢. ثم قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا﴾ قال الزجاج: معنى دعاء الحسرة تنبيه للناس على ما سيحصل لهم من الحسرة والعرب تعبر عن تعظيم أمثال هذه الأمور بهذه اللفظة كقوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ [يس: ٣٠] و﴿يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ﴾ [الزمر: ٥٦] ﴿ يا ويلتا أألِدُ﴾ [هود: ٧٢]، وهذا أبلغ من أن يقال: الحسرة علينا في تفريطنا ومثله ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤] تأويله يا أيها الناس تنبهوا على ما وقع بي من الأسف فوقع النداء على غير المنادى في الحقيقة، وقال سيبويه: إنك إذا قلت يا عجباه فكأنك قلت يا عجب احضر وتعال فإن هذا زمانك.

١٣. حصل للنداء ﴿يَا حَسْرَتَنَا﴾ هاهنا تأويلان:

أ. أحدهما: أن النداء للحسرة، والمراد منه تنبيه المخاطبين وهو قول الزجاج.

ب. الثاني: أن المنادى هو نفس الحسرة على معنى: أن هذا وقتك فاحضري وهو قول سيبويه.

١٤. ﴿عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ قال أبو عبيدة يقال: فرطت في الشيء أي ضيعته فقوله: ﴿فَرَّطْنَا﴾ أي تركنا وضيعنا وقال الزجاج: فرطنا أي قدمنا العجز جعله من قولهم فرط فلان إذا سبق وتقدم، وفرط الشيء إذا قدمه، قال الواحدي: فالتفريط عنده تقديم التقصير.

١٥. في الضمير في قوله: ﴿فِيهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾، وإلى ماذا يعود وجوه:

أ. الأول: قال ابن عباس في الدنيا والسؤال عليه أنه لم يجر للدنيا ذكر فكيف يمكن عود هذا الضمير إليها، وجوابه: أن العقل دل على أن موضع التقصير ليس إلا الدنيا، فحسن عود الضمير إليها لهذا المعنى.

ب. الثاني: قال الحسن المراد يا حسرتنا على ما فرطنا في الساعة، والمعنى: على ما فرطنا في إعداد الزاد للساعة وتحصيل الأهبة لها.

ج. الثالث: أن تعود الكناية إلى معنى ما في قوله: ﴿مَا فَرَّطْنَا﴾ أي حسرتنا على الأعمال والطاعات التي فرطنا فيها.

د. الرابع: قال محمد بن جرير الطبري: الكناية تعود إلى الصفقة لأنه تعالى لما ذكر الخسران دل ذلك على حصول الصفقة والمبايعة.

١٦. ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾:

أ. المراد من قولهم ﴿يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ إشارة إلى أنهم لم يحصلوا لأنفسهم ما به يستحقون الثواب.

ب. وقوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ إشارة إلى أنهم حصلوا لأنفسهم ما به استحقوا العذاب العظيم، ولا شك أن ذلك نهاية الخسران.

١٧. ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾ قال ابن عباس: الأوزار الآثام والخطايا قال أهل اللغة: الوزر الثقل وأصله من الحمل يقال وزرت الشيء أي حملته أزره وزرا، ثم قيل للذنوب أوزار لأنها تثقل ظهر من عملها، وقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [فاطر: ١٨] أي لا تحمل نفس حاملة، قال أبو عبيدة: يقال للرجل إذا بسط

ثوبه فجعل فيه المتاع أحمل وزرك وأوزار الحرب أثقالها من السلاح ووزير السلطان الذي يزر عنه أثقال ما يسند إليه من تدبير الولاية أي يحمل، قال الزجاج: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ أي يحملون ثقل ذنوبهم.

١٨. اختلفوا في كيفية حملهم الأوزار:

أ. فقال المفسرون: إن المؤمن إذا خرج من قبره استقبله شيء هو أحسن الأشياء صورة وأطيبها ريحا ويقول: أنا عملك الصالح طالما ركبتك في الدنيا فاركبني أنت اليوم فذلك قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥] أي ركبانا، وأن الكافر إذا خرج من قبره استقبله شيء هو أقبح الأشياء صورة وأخبثها ريحا فيقول: أنا عملك الفاسد طالما ركبتني في الدنيا فأنا أركبك اليوم فذلك قوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ وهذا قول قتادة والسدي.

ب. وقال الزجاج: الثقل كما يذكر في المنقول، فقد يذكر أيضا في الحال والصفة يقال: ثقل علي خطاب فلان، والمعنى كرهته فالمعنى أنهم يقاسون عذاب ذنوبهم مقاساة ثقل ذلك عليهم.

ج. وقال آخرون: معنى قوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ أي لا تزايلهم أوزارهم كما تقول شخصك نصب عيني أي ذكرك ملازم لي.

١٩. ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ والمعنى بئس الشيء الذي يزرونه أي يحملونه والاستقصاء في تفسير هذا اللفظ مذكور في سورة النساء في قوله: ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [سورة النساء: ٢٢]

٢٠. ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ المنكرون للبعث والقيامة تعظم رغبتهم في الدنيا وتحصيل لذاتها، فذكر الله تعالى هذه الآية تنبيها على خساستها وركاكتها، مع العلم أن نفس هذه الحياة لا يمكن ذمها لأن هذه الحياة العاجلة لا يصح اكتساب السعادات الأخروية إلا فيها، فلهذا السبب حصل في تفسير هذه الآية قولان:

أ. الأول: أن المراد منه حياة الكافر، قال ابن عباس: يريد حياة أهل الشرك والنفاق، والسبب في وصف حياة هؤلاء بهذه الصفة أن حياة المؤمن يحصل فيها أعمال صالحة فلا تكون لعبا ولهوا.

ب. الثاني: أن هذا عام في حياة المؤمن والكافر، والمراد منه اللذات الحاصلة في هذه الحياة والطيبات المطلوبة في هذه الحياة، وإنما سماها باللعب واللهو، لأن الإنسان حال اشتغاله باللعب واللهو يلتذ به، ثم عند انقراضه وانقضائه لا يبقى منه إلا الندامة، فكذلك هذه الحياة لا يبقى عند انقراضها إلا

الحسرة والندامة.

٢١. تسمية هذه الحياة باللعب واللهو فيه وجوه:

أ. الأول: أن مدة اللهو واللعب قليلة سريعة الانقضاء والزوال، ومدة هذه الحياة كذلك.

ب. الثاني: أن اللعب واللهو لا بدّ وأن ينساقا في أكثر الأمر إلى شيء من المكاره ولذات الدنيا كذلك.

ج. الثالث: أن اللعب واللهو، إنما يحصل عند الاغترار بظواهر الأمور، وأما عند التأمل التام والكشف عن حقائق الأمور، لا يبقى اللعب واللهو أصلا، وكذلك اللهو واللعب، فإنهما لا يصلحان إلا للصبيان والجهال المغفلين، أما العقلاء والحصفاء، فقلما يحصل لهم خوض في اللعب واللهو، فكذلك الالتذاذ بطيبات الدنيا والانتفاع بخيراتها لا يحصل، إلا للمغفلين الجاهلين بحقائق الأمور، وأما الحكماء المحققون، فإنهم يعلمون أن كل هذه الخيرات غرور، وليس لها في نفس الأمر حقيقة معتبرة.

د. الرابع: أن اللعب واللهو ليس لهما عاقبة محمودة، فثبت بمجموع هذه الوجوه أن اللذات والأحوال الدنيوية لعب ولهو وليس لهما حقيقة معتبرة.

٢٢. ولما بيّن تعالى ذلك قال بعده: ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ وصف الآخرة بكونها خيرا، ويدل على أن الأمر كذلك حصول التفات بين أحوال الدنيا وأحوال الآخرة في أمور:

أ. أحدها: أن خيرات الدنيا خسيسة وخيرات الآخرة شريفة بيان أن الأمر كذلك وجوه:

• الأول: أن خيرات الدنيا ليست إلا قضاء الشهوتين، وهو في نهاية الخساسة بدليل أن الحيوانات الخسيسة تشارك الإنسان فيه، بل ربما كان أمر تلك الحيوانات فيها أكمل من أمر الإنسان، فإن الجمل أكثر أكلا، والديك والعصفور أكثر وقاعا، والذئب أقوى على الفساد والتمزيق، والعقرب أقوى على الإيلام.

• ومما يدل على خساستها أنها لو كانت شريفة لكان الإكثار منها يوجب زيادة الشرف، فكان يجب أن يكون الإنسان الذي وقف كل عمره على الأكل والوقاع أشرف الناس، وأعلاهم درجة، ومعلوم بالبديهة أنه ليس الأمر كذلك بل مثل هذا الإنسان يكون ممقوتا مستقذرا مستحقرا يوصف بأنه بهيمة أو كلب أو أخس.

• ومما يدل على ذلك أن الناس لا يفتخرون بهذه الأحوال بل يخفونها، ولذلك كان العقلاء عند

الاشتغال بالوقاع يختفون ولا يقدمون على هذه الأفعال بمحضر من الناس، وذلك يدل على أن هذه الأفعال لا توجب الشرف بل النقص.

• ومما يدل على ذلك أيضا أن الناس إذا شتم بعضهم بعضا لا يذكرون فيه إلا الألفاظ الدالة على الوقاع، ولولا أن تلك اللذة من جنس النقصانات، وإلا لما كان الأمر كذلك.

• ومما يدل عليه أن هذه اللذات ترجع حقيقتها إلى دفع الآلام، ولذلك فإن كل من كان أشد جوعا وأقوى حاجة كان التذاذه بهذه الأشياء أكمل له وأقوى، وإذا كان الأمر كذلك ظهر أنه لا حقيقة لهذه اللذات في نفس الأمر.

• ومما يدل عليه أيضا أن هذه اللذات سريعة الاستحالة سريعة الزوال سريعة الانقضاء، فإن جميع الخلق إذا تخيلوا في الإنسان كثرة العلم وشدة الانقباض عن اللذات الجسمانية، فإنهم بالطبع يعظمونه ويخدمونه ويعدون أنفسهم عبيدا لذلك الإنسان وأشقياء بالنسبة إليه، وذلك يدل على شهادة الفطرة الأصلية بخساسة اللذات الجسمانية، وكمال مرتبة اللذات الروحانية.

ب. الثاني: في بيان أن خيرات الآخرة أفضل من خيرات الدنيا، هو أن نقول: هب أن هذين النوعين تشاركا في الفضل والمنقبة، إلا أن الوصول إلى الخيرات الموعودة في غد القيامة معلوم قطعا، وأما الوصول إلى الخيرات الموعودة في غد الدنيا فغير معلوم بل ولا مظنون، فكم من سلطان قاهر في بكرة اليوم صار تحت التراب في آخر ذلك اليوم، وكم من أمير كبير أصبح في الملك والإمارة، ثم أمسى أسيرا حقيرا، وهذا التفاوت أيضا يوجب المباينة بين النوعين.

ج. الثالث: هب أنه وجد الإنسان بعد هذا اليوم يوما آخر في الدنيا، إلا أنه لا يدري هل يمكنه الانتفاع بما جمعه من الأموال والطيبات واللذات أم لا؟ أما كل ما جمعه من موجبات السعادات، فإنه يعلم قطعا أنه ينتفع به في الدار الآخرة.

د. الرابع: هب أنه ينتفع بها إلا أن انتفاعه بخيرات الدنيا لا يكون خاليا عن شوائب المكروهات، وممازجة المحرمات المخوفات، ولذلك قيل: من طلب ما لم يخلق أتعب نفسه ولم يرزق، فقيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: (سرور يوم بتمامه)

هـ. الخامس: هب أنه ينتفع بتلك الأموال والطيبات في الغد، إلا أن تلك المنافع منقرضة ذاهبة

باطلة، وكلما كانت تلك المنافع أقوى وألذ وأكمل وأفضل كانت الأحزان الحاصلة عند انقراضها وانقضائها أقوى وأكمل كما قال الشاعر المتنبي:

أشد الغم عندي في سرور   تيقن عنه صاحبه انتقالا

٢٣. فثبت بما ذكرنا أن سعادات الدنيا وخيراتها موصوفة بهذه العيوب العظيمة، والنقصانات الكاملة، وسعادات الآخرة مبرأة عنها، فوجب القطع بأن الآخرة أكمل وأفضل وأبقى وأتقى وأحرى وأولى.

٢٤. ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ قرأ ابن عامر ولدار الآخرة بإضافة الدار إلى الآخرة، والباقون ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ على جعل الآخرة نعتا للدار، أما وجه قراءة ابن عامر فهو أن الصفة في الحقيقة مغايرة للموصوف فصحت الإضافة من هذا الوجه، ونظيره قولهم بارحة الأولى، ويوم الخميس وحق اليقين، وعند البصريين لا تجوز هذه الإضافة، قالوا لأن الصفة نفس الموصوف، وإضافة الشيء إلى نفسه ممتنعة، وهذا بناء على أن الصفة نفس الموصوف وهو مشكل لأنه يعقل تصور الموصوف منفكا عن الصفة، ولو كان الموصوف عين الصفة لكان ذلك محالا، ولقولهم وجه دقيق يمكن تقريره، إلا أنه لا يليق بهذا المكان، ثم إن البصريين ذكروا في تصحيح قراءة ابن عامر وجها آخر، فقالوا لم يجعل الآخرة صفة للدار، لكنه جعلها صفة للساعة، فكأنه قال ولدار الساعة الآخرة، سؤال وإشكال: فعلى هذا التقدير الذي ذكرتم تكون قد أقيمت الآخرة التي هي الصفة مقام الموصوف الذي هو الساعة وذلك قبيح، والجواب: لا يقبح ذلك إذا كانت الصفة قد استعملت استعمال الأسماء ولفظ الآخرة قد استعمل الأسماء، والدليل عليه: قوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: ٤] وأما قراءة العامة فهي ظاهرة لأنها تقتضي جعل الآخرة صفة للدار وذلك هو الحقيقة ومتى أمكن إجراء الكلام على حقيقته فلا حاجة إلى العدول عنه.

٢٥. اختلفوا في المراد بالدار الآخرة في قوله تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ على وجوه:

أ. قال ابن عباس: هي الجنة، وإنها خير لمن اتقى الكفر والمعاصي.

ب. وقال الحسن: المراد نفس الآخرة خير، وقال الأصم: التمسك بعمل الآخرة خير.

ج. وقال آخرون: نعيم الآخرة من نعيم الدنيا، من حيث إنها كانت باقية دائمة مصونة عن الشوائب آمنة من الانقضاء والانقراض.

٢٦. ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ فبيّن أن هذه الخيرية إنما تحصل لمن كان من المتقين من المعاصي والكبائر، فأما الكافر والفاسق فلا! لأن الدنيا بالنسبة إليه خير من الآخرة على ما قال رسول الله ﷺ: (الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر)

٢٧. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قرأ نافع وابن عامر ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بالتاء هاهنا وفي سورة الأعراف ويوسف ويس، وقرأ حفص عن عاصم في يس بالياء والباقي بالتاء، وقرأ عاصم في رواية يحيى في يوسف بالتاء والباقي بالياء، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وعاصم في رواية الأعشى والبرجمي جميع ذلك بالياء، قال الواحدي: من قرأ بالياء معناه: أفلا يعقلون الذين يتقون أن الدار الآخرة خير لهم من هذه الدار؟ فيعملون لما ينالون به الدرجة الرفيعة والنعيم الدائم فلا يفترون في طلب ما يوصل إلى ذلك، ومن قرأ بالتاء، فالمعنى: قل لهم أفلا تعقلون أيها المخاطبون أن ذلك خير؟

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ ﴿وُقِفُوا﴾ أي حبسوا ﴿عَلَى رَبِّهِمْ﴾:

أ. أي على ما يكون من أمر الله فيهم.

ب. وقيل: ﴿عَلَى﴾ بمعنى ﴿عِنْدَ﴾ أي عند ملائكته وجزائه، وحيث لا سلطان فيه لغير الله تعالى، تقول: وقفت على فلان أي عنده.

٢. جواب ﴿لَوْ﴾ محذوف لعظم شأن الوقوف، ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾:

أ. تقرير وتوبيخ أي أليس هذا البعث كائنا موجودا!؟ ﴿قَالُوا بَلَى﴾ ويؤكدون اعترافهم بالقسم بقولهم: ﴿وَرَبِّنَا﴾

ب. وقيل: إن الملائكة تقول لهم بأمر الله أليس هذا البعث وهذا العذاب حقا؟ فيقولون: ﴿بَلَى وَرَبِّنَا﴾ إنه حق، ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

٣. ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ﴾:

(١) تفسير القرطبي: ٦/ ٤١١.

أ. قيل: بالبعث بعد الموت وبالجزاء، دليله قوله ﷺ: (من حلف على يمين كاذبة ليقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان) أي لقي جزاءه، لأن من غضب عليه لا يرى الله عند مثبتي الرؤية، ذهب إلى هذا القفال وغيره.

ب. قال القشيري: وهذا ليس بشيء، لأن حمل اللقاء في موضع على الجزاء لدليل قائم لا يوجب هذا التأويل في كل موضع، فليحمل اللقاء على ظاهره في هذه الآية، والكفار كانوا ينكرون الصانع، ومنكر الرؤية منكر للوجود!

٤. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ سميت القيامة بالساعة لسرعة الحساب فيها، ومعنى ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة، يقال: بغتهم الأمر يبغتهم بغتا وبغتة، وهي نصب على الحال، وهي عند سيبويه مصدر في موضع الحال، كما تقول: قتلته صبرا، وأنشد:

فلأيا بلأي ما حملنا وليدنا　　　على ظهر محبوك ظماء مفاصله

ولا يجيز سيبويه أن يقاس عليه، لا يقال: جاء فلان سرعة.

٥. ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا﴾:

أ. وقع النداء على الحسرة وليست بمنادى في الحقيقة، ولكنه يدل على كثرة التحسر، ومثله يا للعجب ويا للرخاء وليسا بمنادين في الحقيقة، ولكنه يدل على كثرة التعجب والرخاء، قال سيبويه: كأنه قال يا عجب تعال فهذا زمن إتيانك، وكذلك قولك يا حسرتي [أي يا حسرتا] تعالي فهذا وقتك، وكذلك ما لا يصح نداؤه يجري هذا المجرى، فهذا أبلغ من قولك تعجبت، ومنه قول الشاعر: فيا عجبا من رحلها المتحمل

ب. وقيل: هو تنبيه للناس على عظيم ما يحل بهم من الحسرة، أي يا أيها الناس تنبهوا على عظيم ما بي من الحسرة، فوقع النداء على غير المنادى حقيقة، كقولك: لا أرينك ها هنا، فيقع النهي على غير المنهي في الحقيقة.

٦. ﴿عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ أي في الساعة، أي في التقدمة لها، عن الحسن، و﴿فَرَّطْنَا﴾:

أ. معناه ضيعنا وأصله التقدم، يقال: فرط فلان أي تقدم وسبق إلى الماء، ومنه (أنا فرطكم على الحوض)، ومنه الفارط أي المتقدم للماء، ومنه ـ في الدعاء للصبي ـ اللهم اجعله فرطا لأبويه، فقولهم:

﴿فَرَّطْنَا﴾ أي قدمنا العجز.

ب. وقيل: ﴿فَرَّطْنَا﴾ أي جعلنا غيرنا الفارط السابق لنا إلى طاعة الله وتخلفنا.

٧. ﴿فِيهَا﴾ أي في الدنيا بترك العمل للساعة، وقال الطبري: (الهاء) راجعة إلى الصفقة، وذلك أنهم لما تبين لهم خسران صفقتهم ببيعهم الإيمان بالكفر، والآخرة بالدنيا ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ أي في الصفقة، وترك ذكرها لدلالة الكلام عليها، لأن الخسران لا يكون إلا في صفقة بيع، دليله قوله: ﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾ [البقرة]، وقال السدي: على ما ضيعنا أي من عمل الجنة، وفي الخبر عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في هذه الآية قال: (يرى أهل النار منازلهم في الجنة فيقولون: يا حسرتنا.

٨. ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ أي ذنوبهم جمع وزر، ﴿عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ مجاز وتوسع وتشبيه بمن يحمل ثقلا، يقال منه: وزر يزر، ووزر يوزر فهو وازر وموزور، وأصله من الوزر وهو الجبل، ومنه الحديث في النساء اللواتي خرجن في جنازة (ارجعن موزورات غير مأجورات) قال أبو عبيد: والعامة تقول: (مأزورات) كأنه لا وجه له عنده، لأنه من الوزر، قال أبو عبيد: ويقال للرجل إذا بسط ثوبه فجعل فيه المتاع احمل وزرك أي ثقلك، ومنه الوزير لأنه يحمل أثقال ما يسند إليه من تدبير الولاية: والمعنى أنهم لزمتهم الآثام فصاروا مثقلين بها.

٩. ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي ما أسوأ الشيء الذي يحملونه.

١٠. ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي لقصر مدتها كما قال:

ألا إنما الدنيا كأحلام نائم ... وما خير عيش لا يكون بدائم

تأمل إذا ما نلت بالأمس لذة ... فأفنيتها هل أنت إلا كحالم

وقال آخر:

فاعمل على مهل فإنك ميت ... واكدح لنفسك أيها الإنسان

فكأن ما قد كان لم يك إذ مضى ... وكان ما هو كائن قد كانا

١١. ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾:

أ. قيل: المعنى متاع الحياة الدنيا لعب ولهو، أي الذي يشتهونه في الدنيا لا عاقبة له، فهو بمنزلة اللعب واللهو، ونظر سليمان بن عبد الملك في المرآة فقال: أنا الملك الشاب، فقالت له جارية له:

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى غير أن لا بقاء للإنسان

ليس فيما بدا لنا منك عيب كان في الناس غير أنك فاني

ب. وقيل: معنى ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ باطل وغرور، كما قال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران]

١٢. المقصد بالآية تكذيب الكفار في قولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾، واللعب معروف، والتلعابة الكثير اللعب، والملعب مكان اللعب، يقال: لعب يلعب، واللهو أيضا معروف، وكل ما شغلك فقد ألهاك، ولهوت من اللهو، وقيل: أصله الصرف عن الشيء من قولهم: لهيت عنه، قال المهدوي: وفيه بعد، لأن الذي معناه الصرف لامه ياء بدليل قولهم: لهيان، ولام الأول واو.

١٣. ليس من اللهو واللعب ما كان من أمور الآخرة، فإن حقيقة اللعب ما لا ينتفع به واللهو ما يلتهى به، وما كان مرادا للآخرة خارج عنهما، وذم رجل الدنيا عند الإمام علي فقال علي: (الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار نجاة لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها)، وقال محمود الوراق:

لا تتبع الدنيا وأيامها ذما وإن دارت بك الدائرة

من شرف الدنيا ومن فضلها أن بها تستدرك الآخرة

وروى أبو عمر بن عبد البر عن أبي سعيد الخدري، قال قال رسول الله ﷺ: (الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان فيها من ذكر الله أو أدى إلى ذكر الله والعالم والمتعلم شريكان في الأجر وسائر الناس همج لا خير فيه)، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: (من هوان الدنيا على الله ألا يعصى إلا فيها ولا ينال ما عنده إلا بتركها)، وقال رسول الله ﷺ: (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء)، وقال الشاعر:

تسمع من الأيام إن كنت حازما فإنك منها بين ناه وآمر

إذا أبقت الدنيا على المرء دينه فما فات من شيء فليس بضائر

ولن تعدل الدنيا جناح بعوضة ولا وزن زف من جناح لطائر

فما رضي الدنيا ثوابا لمؤمن ولا رضي الدنيا جزاء لكافر

وقال ابن عباس: (هذه حياة الكافر لأنه يزجيها في غرور وباطل، فأما حياة المؤمن فتنطوي على

أعمال صالحة، فلا تكون لهوا ولعبا)

١٤. ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ أي الجنة لبقائها، وسميت آخرة لتأخرها عنا، والدنيا لدنوها منا، وقرأ ابن عامر ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ بلام واحدة، والإضافة على تقدير حذف المضاف وإقامة الصفة مقامه، التقدير: ولدار الحياة الآخرة، وعلى قراءة الجمهور ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ اللام لام الابتداء، ورفع الدار بالابتداء، وجعل الآخرة نعتا لها والخبر ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ﴾ يقويه ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ [القصص] ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت]، فأتت الآخرة صفة للدار فيهما، ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي الشرك، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قرئ بالياء والتاء، أي أفلا يعقلون أن الأمر هكذا فيزهدوا في الدنيا.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ قد تقدّم تفسيره في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ أي حبسوا على ما يكون من أمر ربهم فيهم؛ وقيل: على بمعنى عند، وجواب لو محذوف؛ أي لشاهدت أمرا عظيما، والاستفهام في ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ للتّقريع والتّوبيخ: أي أليس هذا البعث الذي ينكرونه كائنا موجودا، وهذا الجزاء الذي يجحدونه حاضرا.

٢. ﴿قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾ اعترفوا بما أنكروا وأكدوا اعترافهم بالقسم ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ الذي تشاهدونه وهو عذاب النار ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي بسبب كفركم به أو بكل شيء مما أمرتم بالإيمان به في دار الدنيا.

٣. ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ﴾ هم الذين تقدّم ذكرهم، والمراد من تكذيبهم بلقاء الله: تكذيبهم بالبعث، وقيل: تكذيبهم بالجزاء، والأوّل أولى، لأنهم الذين قالوا قريبا ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾

٤. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي القيامة، وسمّيت ساعة لسرعة الحساب فيها، ومعنى بغتة: فجأة، يقال: بغتهم الأمر يبغتهم بغتا وبغتة، قال سيبويه: وهي مصدر في موضع الحال، قال ولا يجوز

---

(١) فتح القدير: ٢/ ١٢٧.

أن يقاس عليه، فلا يقال جاء فلان سرعة، و﴿حَتَّى﴾ غاية للتكذيب لا للخسران، فإنه لا غاية له.

٥. ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا﴾ هذا جواب إذا جاءتهم، أوقعوا النداء على الحسرة، وليست بمنادى في الحقيقة، ليدلّ ذلك على كثرة تحسرهم، والمعنى: يا حسرتنا احضري فهذا أوانك، كذا قال سيبويه في هذا النداء وأمثاله كقولهم: يا للعجب، ويا للرجل، وقيل: هو تنبيه للناس على عظم ما يحلّ بهم من الحسرة، كأنهم قالوا: يا أيها الناس تنبهوا على عظيم ما بنا من الحسرة، والحسرة: الندم الشديد.

٦. ﴿عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ أي على تفريطنا في الساعة: أي في الاعتداد لها، والاحتفال بشأنها، والتصديق بها، ومعنى فرّطنا ضيعنا، وأصله التقدّم، يقال فرط فلان: أي تقدّم وسبق إلى الماء، ومنه قوله ﷺ: (وأنا فرطكم على الحوض)، ومنه الفارط: أي المتقدم فكأنهم أرادوا بقولهم: ﴿عَلَى مَا فَرَّطْنَا﴾ أي على ما قدّمنا من عجزنا من التصديق بالساعة والاعتداد لها، وقال ابن جرير الطبري: إن الضمير في فرّطنا فيها يرجع إلى الصفقة، وذلك أنهم لما تبين لهم خسران صفقتهم ببيعهم الإيمان بالكفر، والدنيا بالآخرة ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا﴾ في صفقتنا، وإن لم تذكر في الكلام فهو دالّ عليها، لأن الخسران لا يكون إلا في صفقة؛ وقيل: الضمير راجع إلى الحياة: أي على ما فرّطنا في حياتنا.

٧. ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ هذه الجملة حالية: أي يقولون تلك المقالة، والحال أنهم ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ أي ذنوبهم، جمع وزر: يقال: وزر يزر، فهو وازر وموزور، وأصله من الوزر، قال أبو عبيدة: يقال للرجل إذا بسط ثوبه فجعل فيه المتاع: احمل وزرك: أي ثقلك، ومنه الوزير، لأنه يحمل أثقال ما يسند إليه من تدبير الولاية، والمعنى: أنها لزمتهم الآثام فصاروا مثقلين بها، وجعلها محمولة على الظهور تمثيل، ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي بئس ما يحملون.

٨. ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي وما متاع الدنيا إلا لعب ولهو، على تقدير حذف مضاف، أو ما الدنيا من حيث هي إلا لعب ولهو، والقصد بالآية تكذيب الكفار في قولهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ واللعب معروف، وكذلك اللهو، وكل ما يشغلك فقد ألهاك؛ وقيل: أصله الصرف عن الشيء وردّ بأن اللهو بمعنى الصرف لامه ياء، يقال: لهيت عنه، ولام اللهو واو، يقال: لهوت بكذا.

٩. ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ سميت آخرة لتأخرها عن الدنيا: أي هي خير للذين يتقون الشرك والمعاصي، أفلا تعقلون ذلك، قرأ ابن عامر (ولدار الآخرة) بلام واحدة

وبالإضافة، وقرأ الجمهور باللام التي للتعريف معها، وجعل الآخرة نعتا لها والخبر خير، وقرئ تعقلون بالفوقية والتحتية.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ مثل ما مَرَّ إلَّا أنَّ الوقوف على رَبِّهم كنايةٌ عند من لم يشترط في الكناية إمكانَ الحقيقة؛ أو استعارةٌ مركَّبة من تشبيه أشياء بأشياء لجامع شبه إحضارهم وإذلالهم وسؤالهم وتوبيخهم في موقف الحساب بإحضار السيِّد عبده وإذلاله، وسؤاله وتوبيخه على ما فعل، كما يقال أوقف السيِّد عبده عليه، أو الوقف بمعنى المعرفة، أو عرفوه تحقيقًا، كما تقول: اطَّلعت على كذا، أي: تحقَّقته، وكما يقال: وقفت فلانًا على كلامك، أو المعنى: وُقِفوا على جزاء رَبِّهم وقضائه، وسؤاله أو ملَكِه.

٢. كما قال: ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ﴾ أي: قال مَلَكُه، وهذا جواب سؤال محذوف، أي: ماذا قال لهم إذ وقفوا عليه؟، أو حال من (رَبِّ)، والإشارة إلى البعث للحساب؛ أو إلى الحساب؛ أو إليهما معًا؛ أو إليهما وإلى الثواب والعقاب بتأويل الواقع؛ وقيل: إلى العقاب، ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ أي: إنَّه لَحَقٌّ.

٣. وليست الجملة مُقَدَّرَة بعد (بَلَى) أو (نَعم)، بل هما أفادتا معناها، فلو ذُكِرت لكانت تأكيدًا لمعناهما، بخلاف (لَا) فإنَّ الجملة مُقَدَّرَة بعدها؛ لأنَّها تدخل على الجملة فتنفي، بخلاف (نَعم) فإنَّها ليست موضوعة لنفي جملة بعدها أو إثباتها، مثل أن يقال: نَعَم قام زيد، بمعنى: ما قام أو قام، بل لإقرارِ نفيٍ سبقها أو إثبات، وكذا (بَلَى) لم توضع لنفي جملة تدخل عليها، بل لنفي النفي قبلها، وإنَّما أقسموا إظهارًا للنشاط المؤذن بالطمع في التخلُّص بقبول ندمهم.

٤. ﴿قَالَ﴾ مثل الأوَّل ﴿فَذُوقُواْ الْعَذَابَ﴾ عطف على محذوف عطف إنشاء على خبر، أي: قد أقررتم فذوقوا العذاب، فالفاء لترتيب التعذيب على إقرارهم بحقِّيَّة ما كفروا به في الدُّنيا، على أنَّ مدار التعذيب كفرهم الموجب للإقرار، لا خصوص إقرارهم، فإنَّ لهم العذاب ولو لم يقرُّوا، والذوقُ عبارةٌ عن أوَّلِ مباشرةِ شيءٍ، هكذا مطلقًا، أو إشارة إلى أنَّ عذاب كلِّ وقتٍ بالنسبة لزيادة الشدَّة في الوقت بعده

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/ ٢٣٥.

كالذوق، أي: أُدخُلوا العذاب الذي لا يزال تزيد شدَّته!.

٥. ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ لسبب كونكم تكفرون بذلك العذاب وبالله وآياته، أو بسبب كفركم الذي تكفرونه، على إسقاط الكون، أو ذوقوه لكونكم تكفرون بذلك الذوق.

٦. ﴿قَدْ خَسِرَ﴾ منازلَ في الجنَّة وأزواجًا والأنفس، بمنازل في النَّار ﴿الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ اللهِ﴾ بالبعث والجزاء، على أنَّ لقاء الله استعارة تمثيليَّة عن البعث وما بعده، وقد قدَّر بعض مضافًا، أي: بلقاء جزاء الله.

٧. ﴿حَتَّى إِذَا جَآءَتْهُمُ السَّاعَةُ﴾ القيامة؛ لأنَّ الموت مبدَؤُها وباب لها، قال ﷺ: (مَن مَاتَ فقد قامت قيامته)، و(حَتَّى) غاية للتكذيب ولو كانت ابتدائيَّة كما مَرَّ بيانه؛ ولا يخفى أنَّ التكذيب ينقطع بالموت، فليسوا باقين في التكذيب حتَّى يبعثوا، أو غاية للخسران، أي: خسر المكذِّبون إلى قيام الساعة بأنواع البلاء، وإذا قامت وقعوا فيما ينسيهم هذا الخسران، والساعةُ: قطعةٌ من الزمان، وغلبت على الوقت المعلوم، كالنجم للثريَّا، وسمِّي ساعة لقلَّته بالنسبة إلى الخلود، أو لسرعة الحساب فيه؛ وفسَّره بعض بوقت الموت هنا.

٨. ﴿بَغْتَةً﴾ حال، أي: نفس البغتة مبالغة، أو ذاتُ بغتةٍ، أو باغتةٌ، أو مبغوتين بها، أو (جَاءَتْ) بمعنى: بغتت، كقمت وقوفًا؛ أو باغتةٌ بغتةً، أو تبغتهم بغتةً، والبغتة: المفاجأة من غير استعدادٍ ولا جعْلِه ببالٍ، ولو جعل ببال لم يعد بغتة ولو لم يستعدَّ له، وفي التعبير عن القيامة بالساعة تلويحٌ إلى سرعة الحساب، وإيذان بِأَنَّهَا شهرت حتَّى لا ينصرف عنها لفظ الساعة عَلَمًا بالغلبة، فكيف يُغفَل عن الاستعداد لها!؟.

٩. ﴿قَالُواْ﴾ جواب (إِذَا)، ومن زعم أنَّ (حَتَّى) جارَّة قال: استئناف، ﴿يَاحَسْرَتَنَا﴾ نَدَمَنا وتلهُّفَنا، احْضُرِي فَهَذَا وقتك إن كان لك وقت، والمراد: شدَّة التحسُّر، وتصريحهم بإهمال أنفسهم عن الحقِّ، حتَّى نادوا الحسرة، والحسرة لا تَسمع وتُقبِل، وقد قيل: كأنَّهم ذهلوا حتَّى نادوها، ويقال: هذا التحسُّر وإن كان عند الموت لَكِنَّ الموت من مقدِّمات الآخرة، فجعل من جنس الساعة وسمِّي باسمها، أو جعل مجيء الساعة بعد الموت كالواقع باتِّصال.

١٠. ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ (مَا) مصدريَّةٌ، أي: على تفريطنا في الدُّنيا، وإن لم يَجْرِ لها ذكر لعِلْمِها من المقام، وتقدَّر في أخرى ومجرورها، أي: في الإيمان والعمل الصالح، لجواز تعليق اسم الزمان ومجرور

(في) بعامل واحد ولو بلا تَبَعِيَّة، والدنيا زمان، فكما يجوز: قُمت زمانًا في مكان كذا أو في عمل كذا، يجوز: قمت في زمان في مكان أو في عمل، ويجوز عود الضمير إلى الأعمال لعلمها من المقام، فلا تقدَّر في أخرى، أي: في الدُّنيا، أو تقدَّر وتعلَّق في الأعمال كما قيل بعوده إلى (مَا)، على أنَّ (مَا) اسم واقع على الأعمال، أي: على الأعمال التي قصَّرنا فيها؛ وقيل: يعود الضمير إلى الساعة، أي: فرَّطنا في مراعاة حقِّ يوم القيامة المعبَّر عنه بالساعة؛ وقيل: إلى الجنَّة، أي: فرَّطنا في طلبها؛ وقيل: إلى الصِّفة، لدلالة الخسران عليها، وهي أقوال بعيدة.

١١. ويقولون: يا حسرتنا على ما فرطنا فيها حال حملهم الوزر كما بيَّنه بواو الحال في قوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ ذنوبهم ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ سَمَّى الذنوب أوزارًا لثقلها ثقلاً معنويًّا، وهو شدَّة العذاب عليها، أو حسِّـيًّا كما هو معنويٌّ أيضًا، كما روي: (إن المؤمن إذا خرج من قبره استقبله أحسن شيءٍ صورةً، وأطيبه ريحًا، فيقول: هل تعرفني؟ فيقول: لا، فيقول: أنا عملك الصالح فاركبني، فقد طال ما ركبتك في الدُّنيا، فذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥]، يعني ركبانًا، وأمَّا الكافر فيستقبله أقبحُ شيء صورةً وأنتنه ريحًا فيقول: هل تعرفني؟ فيقول: لا، فيقول: أنا عملك الخبيث طال ما ركبتني في الدنيا فأنا اليوم أركبك، فذلك قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾، وقيل: يدخل معه قبره في أقبح وجه وأسوده، وانتن ريح وأدنس ثوب، ويقول: من أنت؟ ما أقبحك! فيقول: أنا عملك في الدنيا، وإذا خرج وجده أيضًا، ويركبه حتَّى يدخله النار)

١٢. والصحيح أنَّ الأعمال لا تجسَّم، فيحمل الحديث والقرآن على التمثيل، وخصَّ الظهر لأنَّه يطيق من الحمل ما لا يطيقه غيره من الجسد، وهو الأصل في الحمل، كما أنَّ الكسب في الأكثر بالأيدي، وهي الأصل فيه.

١٣. ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي: ما يذنبون، أي: يكسبونه من الذنوب، أو يحملونه، والمخصوص بالذمِّ محذوف، أي: حملهم ذلك، أو ذنوبهم تلك، و(سَاءَ) من باب نِعْمَ وبِئْسَ، فَحُوِّل من الفتح إلى الضمِّ واللزوم؛ أو مستعمل في التعجُّب كذلك؛ أو باق على الفتح والتعدية، أي: ساءهم، و(مَا) موصول اسميٌّ؛ أو نكرة موصوفة؛ أو مَصْدَرِيَّة، ولا حمل في الآية بل تمثيل لاستحقاقهم العقاب، لأنَّ الذنوب أعراض لا أجسام.

١٤. ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ ما أعمال الحياة الدُّنيا التي هي معاص أو مكروهات وما لا يعني، والمباحات التي لم تصرف إلى الطَّاعة بنيَّةٍ إلَّا لعبٌ، وهو ما لا نفعَ فيه ولا جِدَّ بل هزلٌ، وإلَّا لهوٌ، وهو اشتغال عمَّا يهمُّ مِمَّا ينفع أو يُتوهَّم نفعه، وأخرج بعضهم عن اللهو واللعب ما هو من ضرورة المعاش ولم تقصد به معصية، وقيل: اللعب ما يشغل النفس عمَّا تنتفع به، واللهو صرفها عن الجدِّ إلى الهزل، فالدنيا ذُمَّت من هذا الوجه، ومُدحت من حيث إنَّ الطاعة ـ ومنها المباح المصروف إليها ـ تكتسب فيها، فَنِعْمت المطيَّةُ، والكلام من التشبيه البليغ، ولو لم يُقَدَّر المضاف وهو (أعمال) وجعلت الدنيا نفسها لعبًا ولهوا مبالغةً لصَحَّ، وقيل: اللهو صرف الهمِّ بما لا يَصِحُّ أن يصرف به، واللعب: طلب المسرَّة بما لا يحسن أن تطلب به، وقيل: اللعب ما قصد به تعجيل المسرَّة، واللهو: ما شغل من هوى وطرب، وقيل: ما قُدِّم من غير ترك للآخر لعب، وما تُرك به الآخر ونسيه لهو، وقيل: هما في الشيء الواحد باعتبارين، فإذا أقبل على الباطل أعرض عن الحقِّ فإقباله لعب، وإعراضه لهو.

١٥. وَقَدَّمَ اللهو في سورة العنكبوت ـ والله أعلم ـ لأنَّ المقام فيها لقصر الحياة الدنيا، واللهو مِمَّا يقصر به الزمان، وأيَّام السرور قصار، والمقام هنا للردِّ على الكفرة في إنكار الآخرة، والمراد مسرَّة الدنيا وهي كلاشيء، فقدَّم (لعبٌ)؛ أو قدَّمه لإقبالهم على الباطل قولاً وفعلاً؛ أو لأنَّ اللعب مقدَّم خارجًا على اللهو، أجاب قولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الآية: ٢٩] بقوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ وبقوله: ﴿وَلَلدَّارُ الاَخِرَةِ خَيْرٌ﴾ لدوامها وعدم تكدُّر لذَّاتها من الدُّنيا لعنائها وتكدُّر لذَّاتها، ونقص لذَّاتها، أو (خَيْرٌ) بمعنى منفعة.

١٦. ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الشرك والمعاصي، أو أفضل لهم مِمَّا لهم في الدنيا، وأمَّا الكفَّار فما لهم في الدُّنيا منفعة لهم لا ما في الآخرة وما ليس من أعمال المتَّقين لهو ولعب لا يؤدِّي إلى سعادة، واللام للابتداء مُتَّصِل بألف (ال) التي حذفت وبقيت اللام بعدها، ومقتضى قوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أن يقال: (وما الدار الآخرة إلَّا جدٌّ وحقٌّ)، لكن أقيم مقامه مسبّبه وَهُوَ الخيريَّة للذين يتَّقون.

١٧. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ خطاب للحاضرين، أو تغليب لهم على الغائبين، فيكون توبيخهم منطوقًا به كالحاضرين، أي: ألا تتفكَّرون فلا تعقلون؟ أو أتغفلون فلا تعقلون أنَّ الدار الآخرة خير وأنَّ الدُّنيا لعب ولهو؟

١٨. قيل: اللهو واللعب مترادفان، وَإِنَّهُمَا ما يلهو به الصبيان ويجتمعون عليه ساعة مبتهجين ويتفرَّقون، وذلك صرف الهمِّ بما لا يحسن صرفه به، أو طلب الفرح بما لا يحسن أن يطلب، واختار بعض أنَّ كلَّ لعب لهو ولا عكس، فبينهما عموم وخصوص مطلقًا؛ لأنَّ اللهو يشمل المباح والحرام دون اللعب؛ لأنَّ كلَّ لعب حرام، وما استثني منه فهو في صورة اللعب، فالأخصُّ يستلزم الأعمَّ، فذِكرُ الأعمِّ بعده يحتاج إلى عناية، وهي أنَّهم يلعبون به ويلهيهم ذلك اللعب، فحينئذ يحسن الأعمُّ بعد ذكر الأخصِّ، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥١، ٥٤]، أي: أرسله إليهم فأنبأهم عنه؛ ولذلك قُدِّم مع أنَّه أخصُّ، وأمَّا تقديم اللهو في بعض الآيات فعلى الأصل من تقديم الأعمِّ؛ لأنَّ العامَّ لا شعور له بأخصّ مُعَيَّن، والأصل في العطف التغاير فهما غير مترادفين.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ قال الجلال: أي عرضوا عليه، وقال ابن كثير: أي وقفوا بين يديه، ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا﴾ أي المعاد ﴿بِالْحَقِّ﴾ تقريعا لهم، وردّا لما يتوهمون عند الردّ ﴿قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾ أي: إنه لحق، وليس بباطل، كما كنا نظن، أكدوا اعترافهم باليمين إظهارا لكمال يقينهم بحقيّته، وإيذانا بصدور ذلك عنهم بالرغبة والنشاط، طمعا في نفعه، ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

٢. ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ﴾ أي: ببلوغ الآخرة وما يتصل بها، أو هو مجرى على ظاهره، لأن منكر البعث منكر للرؤية ـ قاله النسفيّ ـ والثاني هو الصواب، وإن اقتصر كثيرون على الأول، وجعلوه استعارة تمثيلية لحالهم بحال عبد قدم على سيده بعد مدة، وقد اطّلع السيد على أحواله، فإما أن يلقاه ببشر لما يرضى من أفعاله، أو بسخط لما يسخط منها ـ فإنه نزعة اعتزالية، ولا عدول إلى المجاز ما أمكنت الحقيقة، وفي كلام النسفي إشعار بأن اللقاء معناه الرؤية، وهو ما في القاموس، قال شارحه الزبيديّ: وهو مما نقدوه، وأطالوا فيه البحث، ومنعوه، وقالوا: لا يلزم من الرؤية اللقيّ، كالعكس، وقال الراغب: هو مقابلة الشيء ومصادفته معا، ويعبّر به عن كل منهما، ويقال ذلك في الإدراك بالحسّ والبصر.

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/ ٣٤١.

٣. قال الخفاجي في (العناية): قيل: روي عن عليّ أنه نظم أبياتا على وفق هذه الآية، وفي معناها وهي:

زعم المنجم والطبيب، كلاهما لا تحشر الأجساد، قلت: إليكما

إن صحّ قولكما فلست بخاسر أو صحّ قولي، فالخسار عليكما

قال الخفاجي: لا أدري من أيهما أعجب؟ الرواية أم الدراية؟ فإن هذا الشعر لأبي العلاء المعرّى في ديوانه وهو:

قال المنجم والطبيب، كلاهما: لا تحشر الأجساد، قلت: إليكما

إن صحّ قولكما فلست بخاسر أو صحّ قولي، فالخسار عليكما

أحي التّقى والشر يصطرعان في الدّ نيا، فأيهما أبرّ لديكما

طهّرت ثوبي للصلاة وقبله جسدي، فأين الطهر من جسديكما

وذكرت ربي في الضمائر مؤنسا خلدي بذاك، فأوحشا خلديكما

وبكرت في البردين أبغي رحمة منه، ولا ترعان في برديكما

إن لم تعد بيدي منافع بالذي آتي، فهل من عائد بيديكما

برد التقيّ، وإن تهلهل نسجه، خير، بعلم الله، من برديكما

قال ابن السيد في (شرحه): (هذا منظوم مما روي عن عليّ، أنه قال لبعض من تشكك في البعث والآخرة: إن كان الأمر كما تقول من أنه لا قيامة، فقد تخلصنا جميعا، وإن لم يكن الأمر كما تقول، فقد تخلصنا وهلكت، فذكروا أنه ألزمه فرجع عن اعتقاده، وهذا الكلام، وإن خرج مخرج الشك، فإنما هو تقرير للمخاطب على خطابه، وقلة أخذه بالنظر والاحتياط لنفسه، مع أن المناظر علي ثقة من أمره، وهو نوع من أنواع الجدل، وقوله: (إليكما) كلمة يراد بها الردع والزجر، ومعناها: كفّا عما تقولان، وحقيقته: قولكما مصروف لكما، لا حاجة لي به)، ومن له معرفة بقرض الشعر، يعلم أنه شعر مولد.

٤. ثم نبه الخفاجيّ على أن هذا النوع يسمى استدراجا، قال في (المثل السائر): (الاستدراج نوع من البالغة استخرجته من كتاب الله تعالى، وهو مخادعات الأقوال التي تقوم مقام مخادعات الأفعال،

يستدرج الخصم حتى ينقاد ويذعن، وهو قريب من المغالطة، وليس منها، كقوله تعالى: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨]، ألا ترى لطف احتجاجه على طريقة التقسيم بقوله: (إن يك كاذبا فهذه عائد عليه، وإن يصدق يصبكم بعض ما وعدكم به)، ففيه من الإنصاف والأدب ما لا يخفى، فإنه نبيّ صادق، فلا بد أن يصيبهم كل ما وعد به، لا بعضه، لكنه أتى بها هو أذعن لتسليمهم وتصديقهم، لما فيه من الملاطفة في النصح، بكلام منصف غير مشتطّ مشدّد، أراهم أنه لم يعطه حقه، ولم يتعصب له، ويحام عنه، حتى لا ينفروا عنه، ولذا قدم قوله: ﴿كَاذِبًا﴾، ثم ختم بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي﴾، يعني: أنه نبيّ على الهدى، ولو لم يكن كذلك ما آتاه الله النبوة وعضده، وفيه من خداع الخصم واستدراجه ما لا يخفى)

٥. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي: جاءتهم القيامة فجأة، وسميت القيامة (ساعة)، لأنها تفجأ الناس بغتة في ساعة لا يعلمها أحد إلا هو تعالى، والمعنى: جاءتهم منيّتهم، على أن المراد بالساعة، الصغرى، قال الراغب: الساعة الكبرى بعث الناس للمحاسبة، والصغرى موت الإنسان، فساعة كل إنسان موته، وهي المشار إليها بقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾، ومعلوم أن الحشر ينال الإنسان عند موته)، و(بغتة) مصدر في موضع الحال، لأي: مباغته، أو مصدر لمحذوف، أي تبغتهم، أو للمذكور، فإنّ (جاءتهم)، بمعنى (بغتتهم)

٦. ﴿قَالُوا﴾ يعني: منكري البعث، وهم كفار قريش، ومن سلك سبيلهم في الكفر والاعتقاد، ﴿يَا حَسْرَتَنَا﴾ أي: يا ندامتنا! والحسرة: التلهف على الشيء الفائت، وذكرت على وجه النداء للمبالغة، والمراد: تنبيه المخاطبين على ما وقع بهم من الحسرة، ﴿عَلَى مَا فَرَّطْنَا﴾ أي: قصرنا ﴿فِيهَا﴾ أي: في الحياة الدنيا، أضمرت وإن لم يجر ذكرها، للعلم بها، أي: على ما ضيعنا فيها، إذ لم نكتسب من الاعتقادات والأخلاق والأعمال ما ينجينا، أو الضمير للساعة، أي: على ما فرطنا في شأنها، ومراعاة حقها، والاستعداد لها، وبالإيمان بها، واكتساب الأعمال الصالحة.

٧. وقال ابن جرير: الضمير يعود إلى الصفقة التي دل عليها قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ﴾، إذ الخسران لا يكون إلا في صفقة بيع قد جرت، قال والمعنى: قد وكس الذين كذبوا بلقاء الله، ببيعهم الإيمان الذي

يستوجبون به من الله رضوانه وجنته، بالكفر الذي يستوجبون به منه سخطه وعقوبته، ولا يشعرون ما عليهم من الخسران في ذلك، حتى تقوم الساعة، فإذا جاءتهم الساعة بغتة، فرأوا ما لحقهم من الخسران في بيعهم، قالوا حينئذ تندما: ﴿يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾

٨. ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ حال من فاعل ﴿قَالُوا﴾، فائدته الإيذان بأن عذابهم ليس مقصورا على ما ذكر من الحسرة على ما فات وزال، بل يقاسون، مع ذلك، تحمل الأوزار الثقال، والإيماء إلى أن تلك الحسرة من الشدة، بحيث لا تزول ولا تنسى بما يكابدونه من فنون العقوبات ـ قاله أبو السعود ـ.

٩. والأوزار: جمع ورز، وهو في الأصل: الحمل الثقيل، سمي به الذنب لثقله على صاحبه، قيل: جعلها محمولة على الظهور استعارة تمثيلية، مثل لزومها لهم، على وجه لا يفارقهم، بذلك، وخص الظهر، لأنه المعهود حمل الأثقال عليه، كما عهد الكسب بالأيدي، وقيل: هو حقيقة، لما روي عن السّدي أنه قال: ليس من رجل ظالم يموت فيدخل قبره، إلا جاءه رجل قبيح الوجه، أسود اللون، منتن الريح، عليه ثياب دنسة، حتى يدخل معه قبره، فإذا رآه قال له: ما أقبح وجهك! قال كذلك كان عملك قبيحا، قال ما أنتن ريحك! قال كذلك كان عملك منتنا، قال ما أدنس ثيابك! قال فيقول: إن عملك كان دنسا، قال من أنت؟ قال أنا عملك، قال فيكون معه في قبره، فإذا بعث يوم القيامة قال له: إني كنت أحملك في الدنيا باللذات والشهوات، وأنت اليوم تحملني، قال فيركب على ظهره فيسوقه، حتى يدخله النار، فذلك قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ﴾ الآية.

١٠. قال الخفاجي: (ولعل هذا تمثيل أيضا، وقريب منه ما قيل: من قال بالميزان، واعتقد وزن الأعمال، لا يقول إنه تمثيل)

١١. ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي: بئس ما يحملونه.

١٢. ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ﴾ أي: هزل، وعمل لا يجدي نفعا ﴿وَلَهْوٌ﴾ أي: اشتغال بهوى وطرب، وما لا تقتضيه الحكمة، وما يشغل الإنسان عما يهمه مما يلتذ به ثم ينقضي، ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ لدوامها، وخلوص منافعها ولذاتها عن المضارّ والآلام، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ذلك حتى تتقوا ما أنتم عليه من الكفر والمعاصي، ولا تؤثرون الأدنى الفاني، على الأعلى الباقي، وهاهنا.

١٣. قال الخفاجي: جمع اللهو واللعب في آيات، فتارة يقدم اللعب، كما هنا، وتارة قدم اللهو كما في العنكبوت، ولهذا التفنن نكتة مذكورة في (درة التأويل) ملخصها: أن الفرق بين اللهو واللعب، مع اشتراكهما في أنهما الاشتغال بما لا يعني العاقل ويهمه من هوى أو طرب، سواء كان حراما أم لا، أن اللهو أعم من اللعب، فكل لعب لهو، ولا عكس، فاستماع الملاهي لهو، وليس بلعب، وقد فرقوا بينهما أيضا بأن اللعب ما قصد به تعجيل المسرة، والاسترواح به، واللهو كل ما شغل من هوى وطرب، وإن لم يقصد به ذلك، كما نقل عن أهل اللغة، قالوا: واللهو، إذا أطلق، فهو اجتلاب المسرة بالنساء، كما قال امرؤ القيس:

ألا زعمت بسباسة اليوم أنني كبرت وأن لا يحسن اللهو أمثالي

وقال قتادة: اللهو، في لغة اليمن (المرأة)، وقيل: اللعب طلب: المسرة والفرح بما لا يحسن أن يطلب به، واللهو: صرف الهم بما لا يصلح أن يصرف به، ولما كانت الآية ردّا على الكفرة في إنكار الآخرة، وحصر الحياة في الحياة الدنيا، وليس في اعتقادهم إلا ما عجل من المسرة بزخرف الدنيا الفانية ـ قدم اللعب الدال على ذلك، وتمم باللهو، وأما في العنكبوت فالمقام لذكر قصر مدة الحياة وتحقيرها، بالقياس إلى الآخرة، ولذا ذكر باسم الإشارة المشعر بالتحقير، والاشتغال باللهو، مما يقصر به الزمان، وهو أدخل من اللعب فيه، وأيام السرور قصار، كما قال:

وليلة إحدى الليالي الزّهر لم تك غير شفق وفجر

١٤. في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ تنبيه على أن ما ليس من أعمال المتقين، لعب ولهو.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ تقدم تفسير مثل هذا التعبير قريبا، ووقفهم على ربهم عبارة عن وقف الملائكة إياهم في الموقف الذي حاسبهم فيه ربهم، وإمساكهم فيه إلى أن يحكم بما شاء فيهم، فهو من قبيل وقوفا بها صحبي علي مطيهم أي يقفون مطيهم عندي وقوفا، ولا يشترط في هذا أن يكونوا في مكان أعلى من المكان الذي هو فيه، أو المعنى يحبسونها علي بإمساكها عندي، وإنما عدى الوقف والوقوف

(١) تفسير المنار: ٧/ ٢٩٩

الذي بهذا المعنى بعلي وكذا الحبس والإمساك الذي فسر به لدلالته على معنى القصر، قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ أي مما أمسكته الجوراح مقصورا عليه فلم تأكل منه لأجلكم، وكذلك حبس العقار ووقفه على الفقراء وسائر وجوه البر فيه معنى قصره على ذلك، والذين تقفهم الملائكة وتحبسهم في موقف الحساب امتثالا لأمر الله تعالى فيهم: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ يكونون مقصورين على أمر الله تعالى، أو يكون أمرهم مقصورا على الله تعالى لا يتصرف فيه غيره ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾

٢. إنما أطلت في بيان كون استعمال (وقف) هنا متعديا بعلى بمعنى ما تقدم قريبا في تفسير قوله تعالى: ﴿وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ لأن المفسرين اضطربوا في التعدية هنا فحمل الكلام بعضهم على التمثيل، وبعضهم على الكناية، وبعضهم على مجاز الحذف أو على غيره من أنواع المجاز، وجعله بعضهم من الوقوف على الشيء معرفة وعلما وجاء بعضهم بتأويلات أخرى لا حاجة إلى ذكرها.

٣. بينا آنفا في تفسير ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ أن جواب (لو) حذف لتذهب النفس في تصوره كل مذهب يقتضيه المقام، وللإيذان بأنه لا يحيط به نطاق الكلام، ومن شأن السامع لمثل هذا أن ينتظر بيانا لما يقع في تلك الحال، فإن لم يوافه المتكلم به توجهت نفسه إلى السؤال عنه، فلهذا جاء البيان جوابا لسؤال مقدر وهو قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ إدخال الباء على الحق يفيد تأكيد المعنى، أي قال لهم ربهم أليس هذا الذي أنتم فيه من البعث هو الحق الذي لا ريب فيه؟

٤. ﴿قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾ أي بلى هذا الحق الذي لا ريب فيه ولا باطل يحوم حوله، اعترفوا وأكدوا اعترافهم باليمين، فشهدوا بذلك على أنفسهم أنهم كانوا كافرين، فبماذا أجابهم رب العالمين؟ ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي إذا كان الأمر كذلك، فذوقوا العذاب الذي كنتم به تكذبون، بسبب كفركم الذي كنتم عليه دائمون.

٥. ثم قفى على ذكر ما ربحوا من الشقاء والعذاب، ببيان ما خسروا من السعادة والثواب وإنما هو خسر على خسر فقال: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ أي خسر أولئك الكفار الذين كذبوا بلقاء الله تعالى كل ما ربحه وفاز به المؤمنون بلقائه من ثمرات الإيمان وعبادة الله ومناجاته في الدنيا، كالقناعة والإيثار والرضاء من الله في كل حال، والشكر له عند النعمة والصبر والعزاء والطمأنينة عند المصيبة، وغير ذلك من المزايا التي تصغر معها المصائب والشدائد، ويكبر قدر النعم والمواهب، ومن ثمرات الإيمان في

الآخرة من الحساب اليسير، والثواب الكبير والرضوان الأكبر، وهو (ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) كل ذلك مما يخسره المكذبون بلقاء الله بسبب تكذيبهم؛ لأنهم يخسرون في الحقيقة أنفسهم، وإنما حذف مفعول (خسر) للدلالة على ذلك كله، وجعل فاعله موصولا لدلالة صلته على سبب الخسران، لأن التكذيب بلقاء الله تعالى يستلزم ما سيأتي بيانه من الأعمال والأحوال التي تفسد النفس، ومن خسر نفسه بفسادها خسر كل شيء.

٦. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي كذبوا إلى أن جاءتهم الساعة مباغتة مفاجئة، وقيل: إن الغاية للخسران بقصره على ما كان منه في الدنيا، والساعة في أصل اللغة الزمن القصير المعين بعمل يقع فيه، يقال: جلست إليه ساعة، وغاب عني ساعة، وأطلق في كتب الدين على الوقت الذي ينقضي به أجل هذه الحياة ويخرب هذا العالم، وإنما يكون ذلك في زمن قصير، وعلى ما يلي ذلك من البعث والحساب وهو يوم القيامة، فإن كان إطلاقه عليه بالتبع لإطلاقه على ساعة خراب العالم فذاك، وإلا كان وجه تسميته ساعة باعتبار سرعة الحساب فيه أو بالإضافة إلى ما بعده قولان: وهذه الساعة ساعة هذا العالم كله، ومن دونها ساعة كل فرد وقيامته، وهو الوقت الذي يموت فيه ويقدم على ذلك العالم، وكذا ساعة الأمة أو الجيل؛ ولذلك قالوا: إن القيامة ثلاث: كبرى ووسطى وصغرى، وقد تقدم هذا البحث.

٧. فسر الراغب الساعة هنا بالقيامة الصغرى، إذ هو الذي ينطبق على الكفار الذين نزلت فيهم هذه الآيات، والقيامة الكبرى إنما تقوم على آخر من يكون من الخلق على هذه الأرض، والجمهور يفسرونها بالقيامة الكبرى وهي باعتبار غايتها ـ وهو يوم يقوم الناس لرب العالمين ـ تصدق على من نزلت الآية، فيهم وعلى غيرهم، وباعتبار بدايتها تصدق على آخر من يعيش في الدنيا فقط، ويرون أن البغتة لا تظهر في موت الأفراد لما يكون له في الغالب من المقدمات والعلامات التي يعرف بها وقته في الجملة.

٨. وقد ذكر مجيء الساعة بغتة في عدة آيات غير هذه يتعين أن يكون المراد بها القيامة الكبرى العامة، وهي التي ورد في الكتاب والسنة أن الله تعالى أخفى علمها عن كل أحد حتى الرسل والملائكة، وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ فلا يدل على مجيء الموت بغتة، ولا على جهل كل أحد بوقته، فقد يعرف بأسبابه كالأمراض والجروح وقد يقال: إن المرض ونحوه لا يدل على الموت مهما يكن شديدا، فكم من مريض جزم الأطباء بأنه لا يعيش إلا أياما أو ساعات قد شفي من مرضه ذاك وعاش

بعده عدة أعوام، على أن المريض لا ييئس من الحياة ما دام فيه رمق، فبهذا الاعتبار يصح أن يقال فيه ـ إن مات في مرضه ـ: أن الموت جاءه بغتة، وإن كان هذا لا يعد في العرف من موت الفجأة، ومن لم يجئه الموت فجأة جاءه المرض الذي يعقبه الموت فجأة، ولات حين استعداد، ولا رجوع عن شرك وإلحاد، بل يموت المرء على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه، ويندر أن يظهر لأحد في مرض مماته ضلاله الذي عاش عليه طول حياته، ولا ينكشف الغطاء عن الإنسان ويعلم أنه فارق هذه الحياة إلى العالم الآخر إلا عند خروج روحه من بدنه، حينئذ يتحسر المفرطون، ويندم المجرمون، ثم تتجدد الحسرة في موقف الحساب، وتتضاعف عند حلول العذاب.

٩. ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾:

أ. هذا جواب (إذا) أي: قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وأصروا على ذلك، حتى إذا جاءتهم منيتهم وهي بالنسبة إليهم مبدأ الساعة العامة والمرحلة الأولى من مقدمات القيامة، مفاجئة لهم من حيث لم يكونوا ينتظرونها، ولا يحسبون حسابا ولا يعدون عدة لمجيئها، قالوا: يا حسرتنا على تفريطنا!.

هذا أوانك فاحضري وبرحي بالأنفس ما شئت أن تبرحي

ب. والحسرة ـ كما قال الراغب ـ الغم على ما فات والندم عليه، كأن المتحسر قد انحسر (أي زال وانكشف) عنه الجهل الذي حمله على ما ارتكبه، أو انحسرت عنه قواه من فرط الغم، أو أدركه إعياء عن تدارك ما فرط منه.

ج. ونداء الحسرة فسره سيبويه بالمعنى الذي بيناه آنفا، وقال الزجاج: إن معنى حرف النداء تنبيه المخاطبين، وقيل: بل المراد به تنبيه المتكلم لنفسه، وتذكيرها بسبب ما حل به.

د. والتفريط التقصير ممن قدر على الجد والتشمير، وهو من الفرط بمعنى السبق ومنه الفارط والفرط: الذي يسبق المسافرين لإعداد الماء لهم، والتضعيف فيه للسلب والإزالة كجلدت البعير إذا سلخت جلده وأزلته عنه، فيكون معنى التفريط الحقيقي عدم الاستعداد لما ينفع في المستقبل كتقديم الفرط، أي يا حسرتنا وغمنا وندمنا على ما كان من تفريطنا فيها، أي في حياتنا الدنيا التي كنا نزعم أن لا حياة لنا بعدها، أو في الساعة أو ما هي مفتاح له من الدار الآخرة وهي تشمل الجنة والنار، وقد جعلها بعضهم مرجعين مستقلين، أي على تفريطنا في شأنها بعدم الاستعداد لها بالإيمان والعمل الصالح.

٥. وقيل: إن الضمير للأعمال الصالحات المفهومة من كلمة (فرطنا) لأن التقصير إنما يكون في العمل، وقيل: للصفقة المفهومة من كلمة (خسر) وهي بيعهم الآخرة بالدنيا، وهذا أضعف الأقوال، وأقواها أولها، وهو مروي عن ابن عباس.

و. ومن غرائب غفلات المفسرين ما نقله بعض أذكيائهم عن بعض من دعوى أن مرجع الضمير في هذا القول غير مذكور في كلامهم، على كونه هو المذكور فيه دون سواه من المراجع الثلاثة الأخرى، ولكنهم ذهلوا عن قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾، وعن كون ما بعده بيانا لعاقبته وما ترتب عليه لا سياقا جديدا مستقلا، وأما الساعة فهي مذكورة فيما حكاه الله من شأنهم لا عنهم، فكان عود الضمير عليها في المرتبة الثانية من القوة.

١٠. ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ الأوزار: جمع وزر، وهو بالكسر الحمل الثقيل، ووزره (بوزن وعده) حمله على ظهره، ويطلق الوزر على الإثم والذنب؛ لأن ثقله على النفس كثقل الحمل على الظهر، وهو المراد في الآية، وجعل الذنوب محمولة على الظهور مجاز من باب التمثيل بالاستعارة؛ لأن حالة الأنفس فيما تقاسيه من سوء تأثير الذنوب فيها وما يترتب على ذلك من التعب والشقاء والآلام يشبه هيئة الأبدان في حال نوئها بالأحمال الثقيلة، وما تقاسيه في ذلك من التعب والجهد والزحير، أو هو محمول على القول بتجسم المعاني والأعمال في الآخرة، وتمثلها هي ومادتها بصور تناسبها في الحسن أو القبح، كما ورد في الغلول والمال الذي لا تؤدى زكاته، وروى ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي وعمرو بن قيس الملائي أن الأعمال القبيحة تتمثل بصورة رجل حسن أو صورة حسنة تحمل صاحبها يوم القيامة، ويجوز أن يكون هذا القول من قبيل التمثيل أيضا، والمعنى أنهم ينادون الحسرة التي أحاطت بهم أسبابها وهم في أسوأ حال بما يحملون من أوزارهم على ظهورهم.

١١. وقد بين الله تعالى سوء تلك الحال التي تلابسهم عند اللهج بذلك المقال بقوله: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ فبدأ هذه الجملة بألا الافتتاحية التي يراد بها العناية بما بعدها وتوجيه ذهن السامع إليه، يفيد المبالغة في تقريره وتأكيد مضمونه ووجوب الاهتمام بالاعتبار به و﴿سَاءَ﴾ فعل ذم أشرب معنى التعجب أو التعجيب، أي: ما أسوأ حملهم ذاك! أو: ما أسوأ تلك الأثقال التي يحملونها، وقيل: إن ﴿سَاءَ﴾ هنا الفعل المتعدي، أي ساءهم وأحزنهم حملهم لتلك الأوزار، أو ساءتهم تلك الأوزار التي يحملونها، والأول

أبلغ.

١٢. ثم بين تعالى حقيقة ما يغر الناس من الحياة الدنيا وهو التمتع الخاص بها، والمقابلة بين ذلك وبين حظ المتقين لله فيها من الدار الآخرة، إثر بيان ما يلقاه أولئك المفتونون بالأولى عندما يصيرون إلى الثانية التي كانوا يكذبون بها فقال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾:

أ. اللعب: هو الفعل الذي لا يقصد به فاعله مقصدا صحيحا من تحصيل منفعة أو دفع مضرة، كأفعال الأولاد الصغار التي يتلذذون بها لذاتها، فما يعالجونه من كسر حبة بقل أو إزالة غشاء عن قطعة حلوى لأجل أكلها لا يسمى لعبا.

ب. واللهو: ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه، ويعبر عن كل ما به استمتاع باللهو، كذا قال الراغب، وفي اللسان: اللهو ما لهوت به، ولعبت به، وشغلك من هوى وطرب ونحوها، ثم قال: يقال لهوت بالشيء ألهو به لهوا وتلهيت به ـ إذا لعبت به وتشاغلت وغفلت به عن غيره، وأقول: إن الأصل في اللهو إذا أطلق يراد به ما يشغل الإنسان من لعب وطرب ودواعي سرور، وارتياح عما يتعبه ويشق عليه من الجد أو يحزنه أو يسوءه من خطوب الدنيا ونكباتها، ثم توسع به فصار يطلق أحيانا على ما يسر ويلذ وإن لم يقصد به التشاغل عن أمور الجد، كمغازلة النساء والاستمتاع بهن، ومنه قول امرئ القيس:

ألا زعمت بسباسة اليوم أنني... كبرت وألا يحسن اللهو أمثالي.

وقد يطلق أيضا على جد يتشاغل به عن جد آخر، ولكن الذي عرف استعماله في ذلك الفعل لا المصدر، فلا يقال: إن هذا الفعل لهو، بل يقال لهوت بكذا عن كذا، أو تلهيت أو التهيت به عنه، ومنه ﴿فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ وإنما تشاغل رسول الله ﷺ عن الأعمى بالتصدي لدعوة كبراء قريش إلى الإسلام لا بشيء فيه طرب ولا سرور نفسي يسمى لهوا بإطلاق.

ج. والمعنى أن هذه الحياة الدنيا التي قال الكفار: إنه لا حياة غيرها ـ وهي ما يتمتعون به من اللذات المقصودة عندهم لذاتها، أو الملهية لهم عن همومها وأكدارها ـ ليست إلا لعبا ولهوا أو كاللعب واللهو في عدم استتباعها لشيء من الفوائد والمنافع يكون في حياة بعدها، أو هي دائرة بين عمل لا يفيد في العاقبة ـ فهو كلعب الأطفال ـ وبين عمل له فائدة عاجلة سلبية، كفائدة اللهو هو دفع الهموم والآلام، ويوضح هذا قول بعض الحكماء: (إن جميع لذات الدنيا سلبية؛ إذ هي إزالة الآلام)، فلذة الطعام مزيلة لألم الجوع وبقدر

هذا الألم تعظم اللذة في إزالته، ولذة شرب الماء مزيلة لألم العطش كذلك، وأما شرب المنبهات والمخدرات؛ كالخمر والحشيش والدخان، فإنه يكون أولا بالتكلف واحتمال المكروه والألم، فإن هذه الأشياء كلها مكروهة بالطبع كما أخبر المجربون، وإنما يتكلفونه طلبا للذة متوهمة يقلد بها الشارب غيره، ثم يصير المؤلم بالتعود ملائما بإزالته للألم المتولد منه إزالة مؤقتة، ذلك بأن هذه الأشياء سموم مكروهة في نفسها، ومتى أثر سمها في الأعصاب بالتنبيه الزائد وغيره أعقب ذلك ضده من الفتور والألم، وهما يطاردان بالعود إلى الشرب، كما قال أشعر السكيرين وأقدرهم على تمثيل تأثير السكر: (وداوني بالتي كانت هي الداء)، وقال:

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

وهذه اللذة الأولى التي ذكرها وهمية كما قلنا؛ لأنه لم يكن ذاقها بل توهمها، وقلد بها المفتونين بالسكر، وقد يقصد بالسكر إزالة آلام أخرى غير ألم سم الخمر كالهموم والأكدار، فإن السكران يغيب عن عقله ووجدانه فلا يشعر بآلامها في تلك الحال، وقد يتضاعف عليه ألم الشعور والوجدان، وكثيرا ما يقع في آلام أخرى بدنية كالصداع والغثيان، أو نفسية كالتي فر منها، أو ما هو شر منها، ويصدق عليه في كل حال قول أبي الطيب:

إذا استشفيت من داء بداء فأقتل ما أعلك ما شفاكا

وقد قيل: إن سماع الغناء وآلات الطرب لا يدخل في عموم هذه القاعدة؛ لأنها لذة روحية لا تعد داعيتها من الآلام، ومن دقق النظر في هذه المسألة علم أن السماع ليس من ضروريات الحياة الشخصية ولا النوعية؛ ولذلك كانت داعيته ضعيفة ليست كداعية الغناء والوقاع، فكان فقده غير مؤلم إلا لمن اشتد ولوعه به، وهذا يدخل في عموم القاعدة، ولذة السماع عند غيره ـ وهم الجمهور ـ ضعيفة بقدر ضعف الداعية، فالسماع لا يعد من أركان هذه الحياة، ولا من مقاصدها الذاتية للناس، وإنما يستروح إليه أكثر أهله لترويح النفس من آلام الحياة لا من ألم الداعية إليه، وإنما غلب اسم (اللهو) عليه واسم (الملاهي) على آلاته؛ لأنه غير مقصود لذاته.

١٣. وفي الآية وجه آخر يصح جمعه مع الأول، وهو أن متاع هذه الحياة الدنيا الخاص بها متاع قليل، أجله قصير، لا يصح أن يغتر به العاقل الراشد، فهو ليس إلا كلعب الأطفال في قصر مدته من حيث إن الطفل يسرع إليه الملل من كل لعبة، أو من حيث إن زمن الطفولة قصير، كله غفلة، أو كلهو المهموم في

قصر مدته، على كونه غير مطلوب لذاته.

١٤. ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ هذا خبر مؤكد بلام القسم، يفيد بمقابلته أن نعيم الآخرة ليس كنعيم الدنيا لعبا ولهوا يعبث به العابثون، أو يتشاغلون ويتسلون به عن الأكدار والهموم، بل هو مما يقصده العاقل لفوائده ومنافعه الثابتة الدائمة ـ وأن تلك الدار للذين يتقون الشرك والشرور المحرمة خير من هذه الدار للمشركين المنكرين للبعث الذين لا حظ لهم من حياتهم إلا التمتع الذي هو من اللعب في قصر مدته، وعدم فائدته، أو من قبيل اللهو في كونه دفعا لألم الهم والكدر، أو ضجر الشقاء والتعب، دع ما يستلزمه من المعاصي المفضية إلى عذاب الأخرة، ذلك بأن نعيم الآخرة البدني أعلى وأكمل من نعيم الدنيا في ذاته، وفي دوامه وثباته، وفي كونه إيجابيا لا سلبيا، وفي كونه غير مشوب ولا منغص بشيء من الآلام، وفي كونه لا يعقبه ثقل، ولا مرض، ولا إزالة أقذار، فما القول بنعيمها الروحاني من لقاء الله ورضوانه، وكمال معرفته المعبر عنه عند أهل السنة برؤيته؟ أي أتغفلون فلا تعقلون هذا الفرق أيها المكذبون بالآخرة؟ أما لو عقلتم لآمنتم:

قال المنجم والطبيب كلاهما ... لا تبعث الأموات قلت إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر ... أو صح قولي فالخسار عليكما

١٥. قرأ ابن عامر ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ بإضافة الصفة للموصوف لمغايرتها له، ولا نزاع بين النحاة في وقوع مثل هذا في الكلام العربي، وحسبك وروده في الكتاب العزيز، وإنما اختلف الكوفيون والبصريون في اطراده وطريقة إعرابه، فالأولون يعربونه بغير تأويل، والآخرون يرون أنه لم يرد إلا بمسوغ، وهو هنا استعمال (الآخرة) استعمال الأسماء في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ أو مراعاة مضاف محذوف تقديره: ولدار الحياة الآخرة؛ لأنه في مقابلة الحياة الدنيا، ويصح تقدير النشأة أيضا، وقرأ بعض القراء (يعقلون) بالياء التحتية مراعاة للغيبة، وبعضهم بالتاء الفوقية للخطاب.

١٦. من مباحث نكت البلاغة: أنه ورد في معنى هذه الآية قوله تعالى في (سورة محمد): ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ وقوله في (سورة الحديد): ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ وقد قدم في الآيات الثلاث اللعب على اللهو، وقال تعالى في (سورة العنكبوت): ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ

وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ وقد قدم في هذه ذكر اللهو على اللعب:

أ. وأكثر المفسرين لا يعنون ببيان نكتة لذلك؛ لأن العطف بالواو لا يفيد ترتيبا، بل مطلق الجمع بين المعطوف والمعطوف عليه، ومنهم من يرى أن مثل هذا لا يقع في كتاب الله تعالى إلا لفائدة، وقد نقل السيد الألوسي في (روح المعاني) كلاما ركيكا في الفرق بين الاستعمالين عزاه إلى الدرة، وقال في آخره: (قاله مولانا شهاب الدين فليفهم)، وهو أمر بما لا يستطاع من فهم ذلك الكلام المضطرب المبهم.

ب. والذي يظهر لنا في نكتة ذلك أن تقديم اللعب على اللهو لا يحتاج إلى تعليل؛ لأنه الأصل المقدم في الوجود، وقد فصلت آية الحديد متاع الحياة الدنيا بحسب ترتيبه الذي تقتضيه الفطرة البشرية، فقدم فيها اللعب لأن أول عمل للطفل يلذ له هو اللعب المقصود عنده لذاته، وذكر بعده اللهو لما فيه من القصد الذي لا يأتي من الطفل؛ لأنه لا يحصل إلا لذي الفكر وبعده الزينة التي هي شأن سن الصبا، وبعده التفاخر الذي هو شأن الشبان، وبعده التكاثر في الأموال والأولاد الذي هو شأن الكهول والشيوخ، فالنكتة ينبغي أن تلتمس في آية العنكبوت لا في آيتي محمد والأنعام، وهي قد وردت في سياق إقامة الحجج العقلية على المشركين، فذكر فيها اللهو قبل اللعب على طريقة التدلي المؤذن بالانتقال من الشيء إلى ما هو دونه في نظر العقلاء، فإن اللعب من العاقل الذي لا يليق به العبث أقبح من اللهو؛ إذ اللهو تقصد به فائدة ولو سلبية، واللعب هو العبث الذي لا تقصد به فائدة ألبتة، فهو شأن الأطفال لا العقلاء العالمين بالمصالح، الذين يقصدون بكل عمل من أعمالهم، إما دفع بعض المضار، وإما تحصيل بعض المنافع؛ ولذلك بين جهلهم بقوله: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ وقال في الحجة التي قبلها ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ولا حاجة إلى مثل هذا التدلي في آية الأنعام التي نفسرها، فإنها لم ترد في سياق حجج الإيمان العقلية التي يراد بها بيان ضعف نظر المشركين وجهلهم، وإن ذيلت بالتوبيخ على عدم عقل ما قرر فيها وفي هذا التذييل، بل وردت في بيان حقيقة الدنيا بعد الإعلام بما يصيب المفتونين بها في الآخرة بحصر همهم في لذاتها، وتلاه بيان المقابلة بينهم وبين المؤمنين الذين يتقون الله فيها، ففي مثل هذا السياق ـ كآية (سورة محمد) ـ يحسن الترتيب الوجودي، بتقديم اللعب على اللهو الذي هو طريق الترقي؛ لأنه انتقال من عبث ليس له عاقبة نافعة إلى لهو فائدته سلبية عاجلة؛ ولذلك بين بعده أن عمل المؤمنين المتقين فيها ـ ومنه تمتعهم بلذاتها ـ يؤجرون عليه في الآخرة، وأنها بسبب اعتصامهم فيها بالتقوى، خير لهم من العاجلة الدنيا.

ج. هذا وإنني عند بلوغي هذا البحث ظفرت بكتاب (درة التنزيل وغرة التأويل) لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي، فراجعته بعد استقرار فهمي على ما تقدم، فعلمت أنه هو الذي نقل الألوسي عن الشهاب عنه ما لا يكاد يفهم، وما ذلك إلا للنقل بالمعنى دون النص، الذي يكثر بسببه الخطأ في النقل، وقد ذكر الإسكافي هذا البحث عند ذكر الآية الثامنة مما أورده من (سورة الأنعام) وهي الآية الواردة في اتخاذ الكفار دينهم لعبا ولهوا ـ مع ما يقابلها في (سورة الأعراف) من اتخاذهم دينهم لهوا ولعبا، وبهذه المناسبة ذكر آيتي الحديد والعنكبوت اللتين بينهما مثل هذا الاختلاف، ونسي ذكر الآية التي نحن بصدد تفسيرها، وسيأتي ذكر اتخاذ الدين لعبا ولهوا في محله، وقد اعتمد الخطيب في تفسير اللهو في الآيات أنه اجتلاب المسرة بمخالطة النساء وهو مخطئ في ذلك، وقال في تعليل تقديم اللعب على اللهو في (سورة الحديد): إن الحياة الدنيا لمن اشتغل بها ولم يتعب لغيرها مقسومة من الصبا وهو وقت اللعب، وبعده اللهو وهو الترويح عن النفس بملاعبة النساء، ويتبع ذلك أخذ الزينة لهن ولغيرهن، ومن أجل الزينة نشأت مباهاة الأكفاء، ومفاخرة الأشكال والنظراء، ثم بعده المكاثرة بالأموال والأولاد، فترتبت الحياة على هذه الأحوال، فوجب تقديم حال اللعب على اللهو)، ثم قال في آية العنكبوت: (إنه لا يراد بها أن الحياة الدنيا كلها لعب ولهو)، ثم قال ما نصه: (بل المراد المبالغة في وصف قصر مدة الدنيا بالإضافة إلى مدة الأخرى، فكأنه قال: ما أمد الحياة الدنيا إلا كأمد أزمنة اللهو واللعب، وهي أزمنة تستقصر لشغل النفس بحلاوة ما يستعجل، كما قال القائل:

شهور ينقضين وما شعرنا بأنصاف لهن ولا سرار

وقال المتأخر:

وليلة إحدى الليالي الغر لم تك غير شفق وفجر

والدليل على أن المراد ما ذكرت قبل: ما ذكره الله بعد من قوله: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ أي إن حياتها تبقى أبدا، ولا تعرف أبدا، وإنما قدم اللهو هنا على اللعب لأن الأزمنة التي يقصرها اللهو أكثر من الأزمنة التي يقصرها اللعب؛ لأن التشاغل به أكثر، فلما كانت معظم ما يستقصر وجب تقديم ما يكثر على ما هو دونه في الكثرة؛ لأن ذلك آخذ بالشبه، وأبلغ في وصف المشبه، ولا خلاف أن الناس أزمنتهم المشغولة باللهو أكثر من أزمنتهم المشغولة باللعب، وأن طيبها لهم يخيل قصرها إليهم، ويتفاوت

طيبها على حسب تفاوت ميل النفس إلى محبوبها، فمعظم ما ترى الزمان الطويل قصيرا زمان اللهو بالنساء، وهو الذي نشأت منه فتنة الرجال وهلاك أهل الحب)، وما قلناه أقرب من اللفظ نسبا، وأشد ارتباطا بالمعنى وأقوى سببا.

١٧. هذا وإننا قد وعدنا بأن نبين في آخر تفسير هذه الآيات ما يترتب على إنكار البعث والجزاء من فساد الفطرة البشرية المفضي إلى الشرور الكثيرة، فنقول(١):

أ. إن الكفر بالبعث والجزاء واعتقاد أنه لا حياة بعد هذه الحياة يجعل هم الكافر محصورا في الاستمتاع بلذات الدنيا وشهواتها البدنية والنفسية؛ كالجاه والرياسة والعلو في الأرض ولو بالباطل وهو ما يسمونه الشرف، ومن كان كذلك يكون في اتباع هواه ولذاته الشهوانية أسفل من البهائم كالبقر والقردة والخنازير، وفي اتباعه لهواه في لذاته الغضبية أضرى وأشد أذى من الوحوش الضارية المفترسة كالذئاب والنمور، وفي اتباعه لهواه ولذته النفسية شرا من الشياطين يكيد بعضهم لبعض ويفترس بعضهم بعضا، لا يصدهم عن باطل ولا شر يهوونه إلا العجز، ولا يرجعون إلى حكم يفصل بينهم إلا القوة التي جعلوها فوق الحق، وطالما غشوا أنفسهم وفتنوا غيرهم في هذا الزمان بما كان من تأثير التوازن في القوى من منع كثير من البغي والعدوان الذي كان يصول به قوي الأمم على ضعيفها، والحكومات الجائرة على رعيتها، فزعموا أن الحضارة المادية والعلوم والفنون البشرية هي التي تفيض روح الكمال على الإنسان إذا لم يؤمن بالبعث والجزاء، ولا بالإله الديان، واستدلوا على ذلك بما أجمعت عليه أممهم ودولهم من ذم الحرب، والتفاخر ببناء سياستهم على أمتن قواعد السلم، وزعموا أن الباعث على ذلك حب الإنسانية، والرغبة في العروج بجميع البشر إلى قنة السعادة المدنية، فإن قيل: فما بالكم تسابقون إلى استذلال الأمم الضعيفة في الشرق وتسخرونها لمنافعكم وتوفير ثروتكم بغير حق؟ قالوا: كلا إنما نريد أن نخرجها من ظلمات الهمجية والجهل لتشاركنا فيما نحن فيه من نور الحضارة والعلم، فإن قيل: فما بالنا نراها لم تنل من علومكم إلا بعض القشور، ولم تستفد من مدنيتكم إلا الفسق والفجور، قالوا: إنما ذلك لضعف الاستعداد، وما تمكن في نفوس هذه الشعوب من الفساد، على أننا خير لها من حكامها الأولين بما قمنا به من حفظ الأمن وتوفير

(١) تقسيم الفروع هنا ليس منهجيا، وإنما من باب التبسيط فقط

أسباب النعيم للعاملين! ذلك شأنهم، لا تقام عليهم حجة إلا يقابلونها بشبهة تؤيدها القوة.

ب. وقد قوضت الحرب المشتعلة نارها في أوربا هذه الأعوام، جميع ما بنيت عليه هذه الشبهات من المزاعم والأوهام، إذ رأينا فيها أرقى أهل الأرض في الحضارة والعلوم والفلسفة يخربون بيوتهم بأيديهم، ويقوضون صروح مدينتهم بمدافعهم، ويستعينون بكل ما ارتقوا إليه من العلوم والفنون والصناعات والحكمة والنظام، لإهلاك الحرث والنسل وتخريب العمران، بمنتهى القسوة والشدة، التي لا تشوبها عاطفة رأفة ولا رحمة، ولو كان من بأيديهم أزمة الأمور منهم يؤمنون بالله واليوم الآخر وما فيه من الحساب والجزاء بالحق، لما انتهوا في الطغيان إلى هذا الحد، نعم، إن هذه الشعوب كانت تتقابل لنصر المذهب أو الدين في القرون التي كانت تعمل فيها كل شيء باسم الدين، ولكنها لم تصل في التقتيل والتخريب في ذلك الزمان إلى عشر معشار ما هي عليه الآن، وإن كانوا يسمون هذا العصر عصر النور وتلك العصور بعصور الظلمات، على أن الرؤساء كانوا يتخذون اسم الدين وتأويل نصوصه وسيلة لأهوائهم التي ليست من الدين في شيء، كما يعلم جميع علماء هذا العصر.

ج. ومن العجائب أن أقسى أهل هذه الحرب وأشدهم تخريبا وتدميرا هم الذين يزعمون أنهم يحاربون لله وأن الله معهم على أعدائهم، وإنما الحرب الدينية الصحيحة حرب الأنبياء والخلفاء الراشدين، ومن على مقربة من سيرتهم من الملوك الصالحين، ولم يكن يستحل فيها في عصر الإسلام ما يستحل الآن من القسوة والتخريب ولا ما نقل عن أنبياء وملوك قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبإ المرسلين وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين بني إسرائيل، وقد فصلنا في المنار القول في المقابلة بين هذه الحرب المدنية وحروب المسلمين الدينية، التي كانت دفاعا عن النفس وتقريرا للحق والعدل، والمساواة في الحقوق بين أصناف الخلق، يسيرون فيها على القواعد الشرعية العادلة في الضرورات ككونها تبيح ما ضرره دون ضررها وكونها تقدر بقدرها، وتراعى فيها الرحمة لا العدل وحده، وقد شهد بذلك لسلفنا أعلم حكماء الإفرنج بتاريخنا (غوستاف لوبون) فقال كلمة حق حقيقة بأن تكتب بماء الذهب، وهي: (ما عرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب)

د. وجملة القول أن شبهات المفتونين بالمدنية المادية قد دحضت بهذه الحرب الساحقة الماحقة وقويت بها حجة أهل الدين عليهم، بل تنبه بها الشعور الديني في الجم الغفير من الأوربيين حتى الفرنسيس منهم، بعد أن كانوا قد نبذوه وراء ظهورهم، وآثروا عليه الشهوات البدنية الحقيرة، حتى ضاقت بهم المعابد التي كانت مهجورة قلما تفتح أبوابها، وقلما يلم بها أحد إن فتحت، وذلك شأن المسرفين في أمرهم من الناس، لا يتوجهون إلى خالقهم إلا عند الشدة والبأس: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١ . بعد أن ذكر سبحانه في الآيات السالفة إنكارهم في الدنيا للبعث والجزاء ـ بين هنا حالهم في الآخرة يوم يكشف عنهم الغطاء، فيتحسرون ويندمون على تفريطهم السابق وغرورهم بذلك المتاع الزائل، ثم أردفه ذكر حقيقة الدنيا مقابلا بينها وبين الآخرة وموازنا بين حاليها لدى المتقين والعاصين.

٢. ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ أي ولو ترى هؤلاء الضالين المكذبين حين تقفهم الملائكة في الموقف الذي يحاسبهم فيه ربهم، ويمسكونهم إلى أن يحكم الله فيهم بما يشاء ـ لهالك أمرهم واستبشعت منظرهم ورأيت ما لا يحيط به وصف.

٣. وجعلهم موقوفين على ربهم لأن من تقفهم الملائكة وتحبسهم في موقف الحساب امتثالا لأمر الله فيهم كما قال: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ يكون أمرهم مقصورا عليه لا يتصرف فيهم غيره: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾

٤. ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ أي حينئذ يقول لهم ربهم: أليس هذا الذي أنتم فيه من البعث هو الحق الذي لا شك فيه ولا ريب؟ لا باطل كما كنتم تزعمون.

٥. ﴿قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾ أي قالوا بلى هو حق لا يحوم حوله الباطل، وقد أكدوا اعترافهم باليمين فشهدوا بذلك على أنفسهم أنهم كانوا كافرين.

---

(١) تفسير المراغي ٧/ ١٠٥.

٦. ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ عبر بالذوق عن ألم العذاب للإشارة إلى أنهم يجدونه وجدان الذائق في قوة الإحساس به أي إذا كان الأمر كما اعترفتم فذوقوا العذاب الذي كنتم به تكذبون بسبب كفركم الذي دأبتم عليه واتخذتموه شعارا لكم لا تتركونه.

٧. ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ﴾ أي قد خسر أولئك الكفار الذين كذبوا بما وعد الله به ـ كل ما ربحه وفاز به المؤمنون من ثمرات الإيمان في الدنيا كرضا الله وشكره حين النعمة، والصبر والعزاء وقت المصيبة، ومن ثمرات الإيمان في الآخرة من الحساب اليسير والثواب العظيم، والرضوان الأكبر والنعيم المقيم، بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

٨. وما سبب هذا إلا أن إنكار البعث والجزاء يفسد الفطرة البشرية ويفضى إلى الشرور والآثام، فإن الاعتقاد بأن لا حياة بعد هذه الحياة يجعل همّ الكافرين محصورا في الاستمتاع بلذات الدنيا وشهواتها البدنية والنفسية كالجاه والرئاسة والعلو في الأرض ولو بالباطل، ومن كانوا كذلك كانوا شرا من الشياطين يكيد بعضهم لبعض ويفترس بعضهم بعضا لا يصدهم عن الشر إلا العجز ولا تحكم بينهم إلا القوة، وشاهدنا على ذلك أن أرقى أهل الأرض في الحضارة والعلوم والفلسفة هم الذين يقوّضون صروح المدنية بمدافعهم ودباباتهم وطياراتهم وبكل ما أوتوا من فن واختراع، ويهلكون الحرث والنسل ويخرّبون العامر من المدن ودور الصناعات بمنتهى القسوة والشدة، ويهلكون ملايين الأنفس ما بين قتيل وجريح دون أن تستشعر قلوبهم عاطفة رحمة ولا رأفة، ولو كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر وما فيه من الحساب والجزاء لما انتهوا في الطغيان إلى هذا الحد الذي نراه الآن.

٩. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي كذبوا إلى أن جاءتهم الساعة مباغتة مفاجئة ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقد ورد في الكتاب والسنة أن الله تعالى أخفى علمها على كل أحد حتى الرسل والملائكة.

١٠. ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ أي قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وأصرّوا على هذا التكذيب حتى إذا جاءتهم منيّتهم وهي بالنسبة إليهم مبدأ الساعة ومقدمات القيامة، مفاجئة لهم من حيث لم يكونوا ينظرونها ولا يعدّون العدّة لمجيئها، قالوا يا حسرتنا على تفريطنا في الحياة الدنيا التي كنا نزعم أن لا حياة بعدها.

١١. ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ أي وهم يحملون ذنوبهم وخطاياهم كما روى عن ابن عباس، وفى ذلك إيماء إلى أن عذابهم ليس مقصورا على الحسرة على ما فات وزال، بل يقاسون مع ذلك تحمل الأوزار الثقال، وإشارة إلى أن تلك الحسرة من الشدة والهول بحيث لا تزول ولا تنسى بها يكابدونه من صنوف العقوبات، روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدى أن الأعمال القبيحة تتمثل بصورة رجل قبيح يحمله صاحبها يوم القيامة والصالحة بصورة رجل حسن يحمله صاحبها يوم القيامة، والخلاصة - إنهم ينادون الحسرة التي أحاطت بهم أسبابها وهم في أسوأ حال بها يحملون من أوزارهم على ظهورهم.

١٢. وقد بين الله تعالى سوء تلك الحال التي تلابسهم حينما يلهجون بذلك المقال فقال: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي ما أسوأ تلك الأثقال التي يحملونها يوم القيامة على ظهورهم.

١٣. ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾:

أ. أي وما هذه الحياة الدنيا التي قال الكفار إنه لا حياة غيرها إلا لهو ولعب، فهي دائرة بين عمل لا يفيد في العاقبة كلعب الأطفال، وعمل له فائدة عاجلة سلبية كفائدة اللهو وهو دفع الهموم والآلام، ومن ثم قال بعض الحكماء: إن جميع لذات الدنيا سلبية إذ هي إزالة للآلام، فلذة الطعام في إزالة ألم الجوع، وبقدر هذا الألم تعظم اللذة في إزالته، ولذة شرب الماء هي إزالة العطش وهكذا.

ب. وفى الآية وجه آخر، وهو أن متاع هذه الدنيا متاع قليل، قصير الأجل لا ينبغي أن يغتر به العاقل، فما هو إلا كلعب الأطفال قصير المدة، فإن الطفل سريع الملل لكل ما يقدّم إليه من أصناف اللعب، أو أن زمن الطفولة قصير كله غفلة، أو كلهو المهموم في قصر مدته، على كونه غير مقصود لذاته.

١٤. ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الكفر والمعاصي، لخلو لذاتها من المضار والآلام وسلامتها من التقضي والانصرام، من هذه الدار للمشركين المنكرين للبعث الذين لا حظ لهم من حياتهم إلا التمتع الذي هو من قبيل اللعب في قصر مدته وعدم فائدته، أو من قبيل اللهو في كونه دفعا لألم الهم والكدر.

١٥. والخلاصة - إن نعيم الآخرة خير من نعيم الدنيا، فالبدنى منه أعلى وأكمل من نعيم الدنيا في ذاته وفى دوامه وثباته وفى كونه إيجابيا لا سلبيا، وفى كونه غير مشوب ولا منغّص بشيء من الآلام، وفى كونه لا يعقبه ثقل ولا مرض ولا إزالة أقذار، والروحاني منه كلقاء الله ورضوانه وكمال معرفته يجلّ عنه

الوصف والتحديد ولا شبيه له في نعيم الدنيا.

١٦. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أتغفلون عن هذا فلا تعقلون أن الحياة الدنيا لعب ولهو وأنتم ترون من يموت، ومن تنوبه النوائب، وتفجعه الفواجع؟ ففي ذلك مزدجر عن الركون إليها، واستعباد النفوس لها، ودليل على أن لها مدبرا يلزم الخلق عبادته وعدم إشراك غيره معه في ذلك التدبير والنظام وإخلاص العبادة والطاعة له.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. يدعهم السياق في هذا المشهد البائس، وهذا الرد يصفع وجوههم بالمهانة والتكذيب! يدعهم ليفتح صفحتين جديدتين متقابلتين كذلك؛ ويرسم لهما مشهدين متقابلين: أحدهما في الدنيا وهم يجزمون بأن لا بعث ولا نشور، ولا حساب ولا جزاء، وثانيهما في الآخرة وهم موقوفون على ربهم يسألهم عما هم فيه: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾، السؤال الذي يزلزل ويذيب.. فيجيبون إجابة المهين الذليل: ﴿بَلَى وَرَبِّنَا﴾، فيجبهون عندئذ بالجزاء الأليم بما كانوا يكفرون.. ثم يمضي السياق يرسم مشهدهم والساعة تأخذهم بغتة، بعد ما كذبوا بلقاء الله، فتنتابهم الحسرة؛ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم! وفي النهاية يقرر حقيقة وزن الدنيا والآخرة في ميزان الله الصحيح.

٢. كان الله سبحانه يعلم هذا كله؛ ويعلم أن الأمة التي قدر أن يعطيها مهمة الإشراف على الحياة البشرية، وقيادتها إلى القمة السامقة التي يريد أن تتجلى فيها كرامة الإنسانية في صورة واقعية.. أن هذه الأمة لا يمكن أن تؤدي واجبها هذا إلا بأن تخرج بتصوراتها وقيمها من ذلك الجحر الضيق إلى تلك الآفاق والآماد الواسعة.. من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.. ولهذا كان ذلك التوكيد على حقيقة الآخرة.. أولا لأنها حقيقة، والله يقص الحق، وثانيا لأن اليقين بها ضرورة لاستكمال إنسانية الإنسان: تصورا واعتقادا، وخلقا وسلوكا، وشريعة ونظاما، ومن ثم كانت هذه الإيقاعات العنيفة العميقة التي نراها في هذه الموجة من نهر السورة المتدفق.. الإيقاعات التي يعلم الله أن فطرة الإنسان تهتز لها وترجف؛ فتتفتح

(١) في ظلال القرآن: ٢/ ١٠٦٩.

نوافذها، وتستيقظ أجهزة الاستقبال فيها، وتتحرك وتحيا، وتتأهب للتلقي والاستجابة.. ذلك كله فضلا على أنها تمثل الحقيقة:

٣. ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.. هذا مصير الذين قالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيا وما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.. وهذا هو مشهدهم البائس المخزي المهين؛ وهم موقوفون في حضرة ربهم الذي كذبوا بلقائه، لا يبرحون الموقف، وكأنما أخذ بأعناقهم حتى وقفوا في هذا المشهد الجليل الرهيب.

٤. (قالَ: أَلَيْسَ هذا بِالْحَقِّ؟).. وهو سؤال يخزي ويذيب! (قالُوا: بَلى ورَبِّنا).. الآن، وهم موقوفون على ربهم، في الموقف الذي نفوا على سبيل التوكيد أن يكون! وفي اختصار يناسب جلال الموقف، ورهبة المشهد، وهول المصير، يجيء الأمر العلوي بالقضاء الأخير: (قالَ: فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ).. وهو مصير يتفق مع الخلائق التي أبت على نفسها سعة التصور الإنساني وآثرت عليه جحر التصور الحسي! والتي أبت أن ترتفع إلى الأفق الإنساني الكريم، وأخلدت إلى الأرض، وأقامت حياتها وعاشت على أساس ذلك التصور الهابط الهزيل! لقد ارتكست هذه الخلائق حتى أهلت نفسها لهذا العذاب؛ الذي يناسب طبائع الكافرين بالآخرة؛ الذين عاشوا ذلك المستوي الهابط من الحياة! بذلك التصور الهابط الهزيل!

٥. ويستكمل السياق المشهد الذي ختمه هناك بهذا القضاء العلوي تنسيقا له مع الجلال والروعة والهول.. يستكمله بتقرير حقيقته: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾.. فهي الخسارة المحققة المطلقة.. خسارة الدنيا بقضاء الحياة فيها في ذلك المستوي الأدنى.. وخسارة الآخرة على النحو الذي رأينا.. والمفاجأة التي لم يحسب لها أولئك الغافلون الجاهلون حسابا: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾.. ثم مشهدهم كالدواب الموقرة بالأحمال: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾

٦. بل الدواب أحسن حالا، فهي تحمل أوزارا من الأثقال، ولكن هؤلاء يحملون أوزارا من الآثام! والدواب تحط عنها أوزارها فتذهب لتستريح، وهؤلاء يذهبون بأوزارهم إلى الجحيم، مشيعين بالتأثيم: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾

٧. وفي ظلال هذا المشهد الناطق بالخسارة والضياع، بعد ذلك المشهد الناطق بالهول والرهبة.. يجيء الإيقاع الأخير في هذا المقطع؛ بحقيقة وزن الدنيا ووزن الآخرة في ميزان الله؛ وقيمة هذه الدنيا وقيمة الآخرة في هذا الميزان الصحيح: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾..

٨. هذه هي القيمة المطلقة الأخيرة في ميزان الله للحياة الدنيا وللدار الآخرة.. وما يمكن أن يكون وزن ساعة من نهار، على هذا الكوكب الصغير، إلا على هذا النحو، حين توازن بذلك الأبد الأبيد في ذلك الملك العريض، وما يمكن أن تكون قيمة نشاط ساعة في هذه العبادة إلا لعبا ولهوا حين تقاس إلى الجد الرزين في ذلك العالم الآخر العظيم..

٩. هذا تقييم مطلق.. ولكنه في التصور الإسلامي لا ينشئ ـ كما قلنا ـ إهمالا للحياة الدنيا ولا سلبية فيها ولا انعزالا عنها.. وليس ما وقع من هذا الإهمال والسلبية والانعزال وبخاصة في بعض حركات (التصوف) (والزهد) بتابع من التصور الإسلامي أصلا، إنما هو عدوى من التصورات الكنسية الرهبانية؛ ومن التصورات الفارسية، ومن بعض التصورات الإشراقية الإغريقية المعروفة بعد انتقالها للمجتمع الإسلامي! والنماذج الكبيرة التي تمثل التصور الإسلامي في أكمل صورة، لم تكن سلبية ولا انعزالية.. فهذا جيل الصحابة كله؛ الذين قهروا الشيطان في نفوسهم، كما قهروه في الأنظمة الجاهلية السائدة من حولهم في الأرض؛ حيث كانت الحاكمية للعباد في الإمبراطوريات.. هذا الجيل الذي كان يدرك قيمة الحياة الدنيا كما هي في ميزان الله، هو الذي عمل للآخرة بتلك الآثار الإيجابية الضخمة في واقع الحياة، وهو الذي زاول الحياة بحيوية ضخمة، وطاقة فائضة، في كل جانب من جوانبها الحية الكثيرة.

١٠. إنما أفادهم هذا التقييم الرباني للحياة الدنيا وللدار الآخرة، أنهم لم يصبحوا عبيدا للدنيا، لقد ركبوها ولم تركبهم! وعبدوها فذللوها لله ولسلطانه ولم تستعبدهم! ولقد قاموا بالخلافة عن الله فيها بكل ما تقتضيه الخلافة عن الله من تعمير وإصلاح، ولكنهم كانوا يبتغون في هذه الخلافة وجه الله، ويرجون الدار الآخرة، فسبقوا أهل الدنيا في الدنيا، ثم سبقوهم كذلك في الآخرة!

١١. والآخرة غيب، فالإيمان بها سعة في التصور، وارتقاء في العقل، والعمل لها خير للمتقين يعرفه الذين يعقلون: (وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ).. والذين ينكرون الآخرة اليوم لأنها

(غيب) إنما هم الجهال الذين يدعون العلم.. فالعلم علم الناس ـ (كما سنذكر فيما بعد) لم يعد لديه اليوم حقيقة واحدة مستيقنة له إلا حقيقة الغيب وحقيقة المجهول!

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. هذا مشهد آخر من مشاهد القيامة، يساق إليه المشركون، وهم أحياء في دنياهم التي آمنوا بها وأنكروا ما وراءها.. من بعث، وحساب وجزاء.. وهم في هذا المشهد يتقلّبون في النار، التي حكم عليهم بها، في المشهد السابق، حيث قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾.. الآية، وحيث كان لهم قبل مشهد الحكم مشهد آخر، هو مشهد المحاكمة، في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، فهم وقد انتهى بهم المطاف إلى النار، يصلون سعيرها، ويذوقون عذابها ـ لن يتركوا هكذا وما هم فيه من بلاء، بل يسألون سؤال تأنيب، وتعذيب: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ أي أليس هذا اليوم وما تلقون فيه، قد جاءكم بالحق الذي كنتم تكذبون به؟

٢. وفي حسرة قاتلة، وفي أنفاس لاهثة مبهورة، وفي كلمات حزينة متقطعة دامية، تتحرك شفاههم بها في إعياء وتثاقل ـ يجيء منهم هذا الصوت الخفيض في أنين ذليل: ﴿بَلَى وَرَبِّنَا﴾.. هذا هو جوابهم، وهذا هو ما استطاعوا أن يحركوا شفاههم به.. كلمتان من أخف الكلمات، وأقلها حروفا، ولو استطاعوا النطق لأكثروا من القول والاعتذار في هذا المقام، ولوجدوها فرصة في إظهار النّدم، والاستعطاف! ولكن أنّى لهم ذلك وهم في هذا البلاء العظيم؟

٣. ﴿بَلَى وَرَبِّنَا﴾ هكذا جوابهم.. نبرتان هامستان، يخطفانهما من كيانهم خطفا، ثم يعودون إلى أنفسهم في لهفة، حتى لكأنهم يحاولون إطفاء النار المشتملة عليهم..! ولكنهم ما يكادون ينصرفون إلى أنفسهم، يعالجون الهمّ الذي هم فيه، حتى يقرعهم صوت الحق: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، وإذا النار تشتد سعيرا، وتعلوا لهيبا، لتذيقهم العذاب الذي آذنها به الله سبحانه وتعالى أن تذيقهم إياه!

٤. وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ هو مقابل لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/ ١٥٦.

عَلَى النَّارِ﴾ فالمراد بالوقوف هنا الحبس المقيم، يقال وقف فلان نفسه على هذا الأمر، أي لزمه، ولم يتحوّل عنه ـ ومنه قول امرئ القيس:

وقوفا بها صحبى عليّ مطيّهم يقولون لا تهلك أسى وتجمل

٥. ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ الله حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ هو تقرير عن هذا الموقف، الذي انكشف فيه للكافرين ما كانوا فيه من غفلة وضلال، وفي هذا التقرير، يرى كل ضال غافل، المصير الذي ينتهى به ضلاله وغفلته إليه، وهو الخسران والضياع والهلاك..

٦. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي فجأة على غير انتظار، إذ كانوا على تكذيب قاطع بهذا اليوم، فإذا طلع عليهم كان ذلك مباغتا لهم ومفاجئا..

٧. ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ وإنها لحسرة تطول، لا نهاية لها، حيث أفلت من أيديهم ما كان يمكن أن يعدّوه لهذا اليوم الذي أنكروه، ولم يعملوا له حسابا.. والتفريط: التقصير، بخلاف الإفراط، الذي هو المبالغة في المطلوب، وتجاوز الحدّ فيه.

٨. والضمير في قوله تعالى: ﴿فِيهَا﴾ يعود إلى الساعة، وهي يوم القيامة قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾، الأوزار: جمع وزر، وهو الحمل الثقيل.. أي أنهم يجيئون إلى يوم القيامة محملين بأحمال ثقيلة، من الآثام، تنوء بها ظهورهم.. ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ فما أشأم ذلك الحمل، وما أسوأه، إذ كان هو الجريمة التي تدين حامله، والشهادة التي تشهد عليه، وتجرّه إلى النار..

٩. ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ هو تعقيب على هذا الحكم الذي حكم به سبحانه على أهل الضلال والكفر.. فقد غرّتهم الحياة الدنيا، وألهتهم عن الآخرة، فلم يعملوا لها ولم يقدموا ليومها، زادا ينفعهم في هذا الموقف العصيب.. وهكذا هي الدنيا، لعب ولهو، إذا وقف الإنسان نفسه عليها، وحبس وجوده على مظاهرها، دون أن يلتفت إلى ما بعدها، من لقاء الله، وموقف الحساب بين يديه.. ولكنه إن التفت إلى الآخرة التي وراء هذه الحياة الدنيا، لم تكن هذه الحياة الدنيا لعبا ولهوا، وإنما تكون حياة جادّة عاملة، تجمع الدنيا والآخرة معا، وبهذا تتفتح أمام الإنسان آفاق فسيحة للعمل الطيب المثمر، الذي إن فاته حظّه منه في الدنيا، فلن يفوته ثوابه العظيم منه في الآخرة.. ومن هنا كانت حياة المؤمنين بالله واليوم الآخر، حياة عامرة بالعمل والكفاح والجهاد.. إذ كان على المؤمن أن يملأ بوجوده وكفاحه دنياه وآخرته

جميعا.. أما الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، فإن حياتهم فراغ في فراغ، يدورون فيه حول أنفسهم، كما يدور الأطفال في لهوهم ولعبهم.

١٠. ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ إذ عملوا لها، وآثروها على الدنيا، وقدّموا ما يبقى على ما يفنى، فكانت عاقبتهم السلامة والعافية، والخلود في جنّات النعيم..

١١. في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ إثارة لذوى العقول أن ينظروا لأنفسهم، وأن يزنوا أمرهم مع الدنيا على ميزان سليم.. فإنهم لو فعلوا لعرفوا أن الدار الآخرة خير وأبقى!

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ بعد أن كذبوا بلقائه ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾؟، قلنا في تفسير الآية الرابعة من هذه السورة: إن الله يدعو إلى الايمان بالحق، مع إقامة الدليل عليه، فإن جحده جاحد لزمته الحجة، وهذه الآية تؤكد ذلك، وتذكر بالدلائل والبينات التي أنكروها وكذبوا بها.

٢. ﴿قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾، الآن، وقد فات ما فات، ولم يبق إلا الجزاء العادل، والعذاب لمن كفر وأنكر ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، هذا جزاء كل من آثر العاجلة على الآجلة، وكتم الحق لهوى في نفسه.

٣. سؤال وإشكال: إن قوله تعالى للكافرين: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾، وقوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ لا يتفق مع الآية ١٧٤ من سورة البقرة: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؟ والجواب: المراد أن الله لا يكلمهم بما يسرهم، بل بما يسوؤهم كما في هذه الآية، وكما في الآية ١٠٩ من المؤمنين: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾

٤. ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ﴾ وفاز من آمن به ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾، قال الإمام علي: (ثمرة التفريط الندامة، وثمرة الحزم السلامة)

٥. ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾، الأوزار الذنوب والآثام، وحملها

---

(١) التفسير الكاشف: ٣/ ١٨٠.

على الظهر كناية عن ملازمتها لأصحابها، يقال ركبه الشيطان، أي لا يفارقه، والمعنى أن المكذبين بالحق هم أسوأ الناس حالا في الآخرة، قال بعض المفسرين الجدد: بل الدواب أحسن حالا، فهي تحمل أوزارا من الأثقال، ولكن هؤلاء يحملون أوزارا من الآثام، والدواب تحط عنها أوزارها، فتذهب وتستريح، وهؤلاء يذهبون بأوزارهم إلى جهنم مشيعين بالتأثيم.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. لمّا ذكر إنكارهم البعث أعقبه بوصف حالهم حين يحشرون إلى الله، وهن حال البعث الذي أنكروه، والقول في الخطاب وفي معنى ﴿وُقِفُوا﴾ وفي جواب ﴿لَوْ﴾ تقدّم في نظريتها آنفا.

٢. وتعليق ﴿عَلَى رَبِّهِمْ﴾ بـ ﴿وُقِفُوا﴾ تمثيل لحضورهم المحشر عند البعث، شبّهت حالهم في الحضور للحساب بحال عبد جنى فقبض عليه فوقف بين يدي ربّه، وبذلك تظهر مزية التعبير بلفظ ﴿رَبِّهِمْ﴾ دون اسم الجلالة.

٣. وجملة: ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ استئناف بياني، لأنّ قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا﴾ قد آذن بمشهد عظيم مهول فكان من حقّ السامع أن يسأل: ماذا لقوا من ربّهم، فيجاب: ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ الآية.

٤. والإشارة إلى البعث الذي عاينوه وشاهدوه، والاستفهام تقريري دخل على نفي الأمر المقرّر به لاختبار مقدار إقرار المسئول، فلذلك يسأل عن نفي ما هو واقع لأنّه إن كان له مطمع في الإنكار تذرّع إليه بالنفي الواقع في سؤال المقرّر، والمقصود: أهذا حقّ، فإنّهم كانوا يزعمونه باطلا، ولذلك أجابوا بالحرف الموضوع لإبطال ما قبله وهو﴿بَلَى﴾ فهو يبطل النفي فهو إقرار بوقوع المنى، أي بلى هو حقّ، وأكّدوا ذلك بالقسم تحقيقا لاعترافهم للمعترف به لأنّه معلوم لله تعالى، أي نقرّ ولا نشكّ فيه فلذلك نقسم عليه، وهذا من استعمال القسم لتأكيد لازم فائدة الخبر.

٥. وفصل ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ على طريقة فصل المحاورات، والفاء للتفريع عن كلامهم، أو

---

(١) التحرير والتنوير: ٦/ ٦٤.

فاء فصيحة، أي إذ كان هذا الحقّ فذوقوا العذاب على كفركم، أي بالبعث، والباء سببية، و(ما) مصدرية، أي بسبب كفركم، أي بهذا، وذوق العذاب استعارة لإحساسه، لأنّ الذوق أقوى الحواسّ المباشرة للجسم، فشبّه به إحساس الجلد.

٦. ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ﴾ استئناف للتعجيب من حالهم حين يقعون يوم القيامة في العذاب على ما استداموه من الكفر الذي جرّأهم على استدامته اعتقادهم نفي البعث فذاقوا العذاب لذلك، فتلك حالة يستحقّون بها أن يقال فيهم: قد خسروا وخابوا، والخسران تقدّم القول فيه عند قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ في هذه السورة [١٢]، والخسارة هنا حرمان خيرات الآخرة لا الدنيا.

٧. والذين كذّبوا بلقاء الله هم الذين حكي عنهم بقوله: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ فكان مقتضى الظاهر الإضمار تبعا لقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧] وما بعده، بأن يقال: قد خسروا، لكن عدل إلى الإظهار ليكون الكلام مستقلا وليبنى عليه ما في الصلة من تفصيل بقوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾

٨. لقاء الله هو ظهور آثار رضاه وغضبه دون تأخير ولا إمهال ولا وقاية بأسباب عادية من نظام الحياة الدنيا، فلمّا كان العالم الأخروي وهو ما بعد البعث عالم ظهور الحقائق بآثارها دون موانع، وتلك الحقائق هي مراد الله الأعلى الذي جعله عالم كمال الحقائق، جعل المصير إليه مماثلا للقاء صاحب الحق بعد الغيبة والاستقلال عنه زمانا طويلا، فلذلك سمّي البعث ملاقاة الله، ولقاء الله ومصيرا إلى الله، ومجيئا إليه، في كثير من الآيات والألفاظ النبوية، وإلّا فإنّ الناس في الدنيا هم في قبضة تصرّف الله لو شاء لقبضهم إليه ولعجّل إليهم جزاءهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ [يونس: ١١]، ولكنّه لمّا أمهلهم واستدرجهم في هذا العالم الدنيوي ورغّب ورهّب ووعد وتوعّد كان حال الناس فيه كحال العبيد يأتيهم الأمر من مولاهم الغائب عنهم ويرغّبهم ويحذّرهم، فمنهم من يمتثل ومنهم من يعصي، وهم لا يلقون حينئذ جزاء عن طاعة ولا عقابا عن معصية لأنّه يملي لهم ويؤخّرهم، فإذا طوي هذا العالم وجاءت الحياة الثانية صار الناس في نظام آخر، وهو نظام ظهور الآثار دون ريث، قال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩]، فكانوا كعبيد لقوا ربّهم بعد أن غابوا وأمهلوا،

فاللقاء استعارة تمثيلية: شبّهت حالة الخلق عند المصير إلى تنفيذ وعد الله ووعيده بحالة العبيد عند حضور سيّدهم بعد غيبة ليجزيهم على ما فعلوا في مدّة المغيب، وشاع هذا التمثيل في القرآن وكلام الرسول ﷺ، كما قال: (من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه)، وفي القرآن ﴿لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥]

٩. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ (حتّى) ابتدائية، وهي لا تفيد الغاية وإنّما تفيد السببية، كما صرّح به ابن الحاجب، أي فإذا جاءتهم الساعة بغتة، ومن المفسّرين من جعل مجيء الساعة غاية للخسران، وهو فاسد لأنّ الخسران المقصود هنا هو خسرانهم يوم القيامة، فأمّا في الدنيا ففيهم من لم يخسر شيئا، وقد تقدّم كلام على (حتّى) الابتدائية عند قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ في هذه السورة [٢٥]، وسيجيء لمعنى (حتى) زيادة بيان عند قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ إلى قوله ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ في سورة الأعراف [٣٧]

١٠. والساعة: علم بالغلبة على ساعة البعث والحشر، والبغتة فعلة من البغت، وهو مصدر بغته الأمر إذا نزل به فجأة من غير ترقّب ولا إعلام ولا ظهور شبح أو نحوه، ففي البغت معنى المجيء عن غير إشعار، وهو منتصب على الحال، فإنّ المصدر يجيء حالا إذا كان ظاهرا تأويله باسم الفاعل، وهو يرجع إلى الإخبار بالمصدر لقصد المبالغة.

١١. وقوله: ﴿قَالُوا﴾ جواب (إذا)، و﴿يَا حَسْرَتَنَا﴾ نداء مقصود به التعجّب والتندّم، وهو في أصل الوضع نداء للحسرة بتنزيلها منزلة شخص يسمع وينادي ليحضر كأنّه يقول: يا حسرة احضري فهذا أوان حضورك، ومنه قولهم: يا ليتني فعلت كذا، ويا أسفي أو يا أسفا، كما تقدّم آنفا.

١٢. أضافوا الحسرة إلى أنفسهم ليكون تحسّرهم لأجل أنفسهم، فهم المتحسّرون والمتحسّر عليهم، بخلاف قول القائل: يا حسرة، فإنّه في الغالب تحسّر لأجل غيره فهو يتحسّر لحال غيره، ولذلك تجيء معه (على) التي تدخل على الشيء المتحسّر من أجله داخلة على ما يدلّ على غير التحسّر، كقوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ فأمّا مع (يا حسرتي، أو يا حسرتا) فإنّما تجيء (على) داخلة على الأمر الذي كان سببا في التحسّر كما هنا ﴿عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾، ومثل ذلك قولهم: يا ويلي ويا ويلتي، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا﴾ [الكهف: ٤٩]، فإذا أراد المتكلّم أنّ الويل لغيره قال ويلك، قال تعالى: ﴿وَيْلَكَ آمِنْ﴾ [الأحقاف: ١٧] ويقولون: ويل لك.

١٣. الحسرة: الندم الشديد، وهو التلهّف، وهي فعلة من حسر يحسر حسرا، من باب فرح، ويقال: تحسّر تحسّرا، والعرب يعاملون اسم المرّة معاملة مطلق المصدر غير ملاحظين فيه معنى المرّة، ولكنّهم يلاحظون المصدر في ضمن فرد، كمدلول لام الحقيقة، ولذلك يحسن هذا الاعتبار في مقام النداء لأنّ المصدر اسم للحاصل بالفعل بخلاف اسم المرّة فهو اسم لفرد من أفراد المصدر فيقوم مقام الماهية.

١٤. ﴿فَرَّطْنَا﴾ أضعنا، يقال: فرّط في الأمر إذا تهاون بشيء ولم يحفظه، أو في اكتسابه حتى فاته وأفلت منه، وهو يتعدّى إلى المفعول بنفسه، كما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، والأكثر أن يتعدّى بحرف (في) فيقال فرّط في ماله، إذا أضاعه.

١٥. ﴿مَا﴾ موصولة ما صدقها الأعمال الصالحة، ومفعول ﴿فَرَّطْنَا﴾ محذوف يعود إلى ﴿مَا﴾، تقديره: ما فرّطناه وهم عامّ مثل معاده، أي ندمنا على إضاعة كلّ ما من شأنه أن ينفعنا ففرّطناه، وضمير ﴿فِيهَا﴾ عائد إلى الساعة، و(في) تعليلية، أي ما فوّتناه من الأعمال النافعة لأجل نفع هذه الساعة، ويجوز أن يكون في للتعدية بتقدير مضاف إلى الضمير، أي في خيراتها، والمعنى على ما فرّطنا في الساعة، يعنون ما شاهدوه من نجاة ونعيم أهل الفلاح، ويجوز أن يعود ضمير ﴿فِيهَا﴾ على الحياة الدنيا، فيكون (في) للظرفية الحقيقية.

١٦. جملة: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿قَالُوا﴾، أي قالوا ذلك في حال أنّهم يحملون أوزارهم فهم بين تلهّف على التفريط في الأعمال الصالحة والإيمان وبين مقاساة العذاب على الأوزار التي اقترفوها، أي لم يكونوا محرومين من خير ذلك اليوم فحسب بل كانوا مع ذلك متعبين مثقلين بالعذاب.

١٧. الأوزار جمع وزر ـ بكسر الواو ـ، وهو الحمل الثقيل، وفعله وزر يزر إذا حمل، ومنه قوله هنا ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وأطلق الوزر على الذنب والجناية لثقل عاقبتها على جانيها.

١٨. ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ تمثيل لهيئة عنتهم من جرّاء ذنوبهم بحال من يحمل حملا ثقيلا، وذكر ﴿عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ هنا مبالغة في تمثيل الحالة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، فذكر الأيدي لأنّ الكسب يكون باليد، فهو يشبه تخييل الاستعارة

ولكنّه لا يتأتّى التخييل في التمثيلية لأنّ ما يذكر فيها صالح لاعتباره من جملة الهيئة، فإنّ الحمل على الظهر مؤذن بنهاية ثقل المحمول على الحامل.

١٩. من لطائف التوجيه وضع لفظ الأوزار في هذا التمثيل؛ فإنّه مشترك بين الأحمال الثقيلة وبين الذنوب، وهم إنّما وقعوا في هذه الشدّة من جرّاء ذنوبهم فكأنّهم يحملونها لأنّهم يعانون شدّة آلامها.

٢٠. جملة: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ تذييل، و(ألا) حرف استفتاح يفيد التنبيه للعناية بالخبر، و﴿سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ إنشاء ذمّ، و﴿يَزِرُونَ﴾ بمعنى ﴿يَحْمِلُونَ﴾، أي ساء ما يمثّل من حالهم بالحمل، و﴿مَا يَزِرُونَ﴾ فاعل ﴿سَاءَ﴾، والمخصوص بالذمّ محذوف، تقديره: حملهم.

٢١. ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ لمّا جرى ذكر الساعة وما يلحق المشركين فيها من الحسرة على ما فرّطوا ناسب أن يذكّر الناس بأنّ الحياة الدنيا زائلة وأنّ عليهم أن يستعدّوا للحياة الآخرة:

أ. فيحتمل أن يكون جوابا لقول المشركين: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩]، فتكون الواو للحال، أي تقولون إن هي إلّا حياتنا الدنيا ولو نظرتم حقّ النظر لوجدتم الحياة الدنيا لعبا ولهوا وليس فيها شيء باق، فلعلمتم أنّ وراءها حياة أخرى فيها من الخيرات ما هو أعظم ممّا في الدنيا وإنّما يناله المتّقون، أي المؤمنون، فتكون الآية إعادة لدعوتهم إلى الإيمان والتقوى، ويكون الخطاب في قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ التفاتا من الحديث عنهم بالغيبة إلى خطابهم بالدعوة.

ب. ويحتمل أنّه اعتراض بالتذييل لحكاية حالهم في الآخرة، فإنّه لما حكى قولهم: ﴿يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١] علم السامع أنّهم فرّطوا في الأمور النافعة لهم في الآخرة بسبب الانهماك في زخارف الدنيا، فذيّل ذلك بخطاب المؤمنين تعريفا بقيمة زخارف الدنيا وتبشيرا لهم بأنّ الآخرة هي دار الخير للمؤمنين، فتكون الواو عطفت جملة البشارة على حكاية النذارة، والمناسبة هي التضادّ، وأيضا في هذا نداء على سخافة عقولهم إذ غرّتهم في الدنيا فسوّل لهم الاستخفاف بدعوة الله إلى الحق، فيجعل قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ خطابا مستأنفا للمؤمنين تحذيرا لهم من أن تغرّهم زخارف الدنيا فتلهيهم عن العمل للآخرة.

٢٢. وهذا الحكم عامّ على جنس الحياة الدنيا، فالتعريف في الحياة تعريف الجنس، أي الحياة التي يحياها كلّ أحد المعروفة بالدنيا، أي الأولى والقريبة من الناس، وأطلقت الحياة الدنيا على أحوالها، أو على

مدّتها.

٢٣. واللعب: عمل أو قول في خفّة وسرعة وطيش ليست له غاية مفيدة بل غايته إراحة البال وتقصير الوقت واستجلاب العقول في حالة ضعفها كعقل الصغير وعقل المتعب، وأكثره أعمال الصبيان، قالوا ولذلك فهو مشتقّ من اللّعاب، وهو ريق الصبي السائل، وضدّ اللعب الجدّ.

٢٤. واللهو: ما يشتغل به الإنسان ممّا ترتاح إليه نفسه ولا يتعب في الاشتغال به عقله، فلا يطلق إلّا على ما فيه استمتاع ولذّة وملائمة للشهوة.

٢٥. وبين اللهو واللعب العموم والخصوص الوجهي، فهما يجتمعان في العمل الذي فيه ملاءمة ويقارنه شيء من الخفّة والطيش كالطرب واللهو بالنساء، وينفرد اللعب في لعب الصبيان، وينفرد اللهو في نحو الميسر والصيد.

٢٦. أفادت صيغة ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ قصر الحياة على اللعب واللهو، وهو قصر موصوف على صفة، والمراد بالحياة الأعمال التي يحبّ الإنسان الحياة لأجلها، لأنّ الحياة مدّة وزمن لا يقبل الوصف بغير أوصاف الأزمان من طول أو قصر، وتحديد أو ضدّه، فتعيّن أنّ المراد بالحياة الأعمال المظروفة فيها، واللعب واللهو في قوة الوصف، لأنّهما مصدران أريد بهما الوصف للمبالغة، كقول الخنساء: (فإنّما هي إقبال وإدبار)

٢٧. وهذا القصر ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ ادّعائي يقصد به المبالغة، لأنّ الأعمال الحاصلة في الحياة كثيرة، منها اللهو واللعب، ومنها غيرهما، قال تعالى: ﴿أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: ٢٠]، فالحياة تشتمل على أحوال كثيرة منها الملائم كالأكل واللذات، ومنها المؤلم كالأمراض والأحزان:

أ. فأمّا المؤلمات فلا اعتداد بها هنا ولا التفات إليها لأنّها ليست ممّا يرغب فيه الراغبون، لأنّ المقصود من ذكر الحياة هنا ما يحصل فيها ممّا يحبّها الناس لأجله، وهو الملائمات.

ب. وأمّا الملائمات فهي كثيرة، ومنها ما ليس بلعب ولهو، كالطعام والشراب والتدفّي في الشتاء والتبرّد في الصيف وجمع المال عند المولع به وقرى الضيف ونكاية العدوّ وبذل الخير للمحتاج، إلّا أنّ هذه لمّا كان معظمها يستدعي صرف همّة وعمل كانت مشتملة على شيء من التعب وهو منافر، فكان معظم ما

يحبّ الناس الحياة لأجله هو اللهو واللعب، لأنّه الأغلب على أعمال الناس في أول العمر والغالب عليهم فيما بعد ذلك، فمن اللعب المزاح ومغازلة النساء، ومن اللهو الخمر والميسر والمغاني والأسمار وركوب الخيل والصيد.

ج. فأمّا أعمالهم في القربات كالحجّ والعمرة والنذر والطواف بالأصنام والعتيرة ونحوها فلأنّها لمّا كانت لا اعتداد بها بدون الإيمان كانت ملحقة باللعب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥]، وقال: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأعراف: ٥١]

د. فلا جرم كان الأغلب على المشركين والغالب على الناس اللعب واللهو إلّا من آمن وعمل صالحا، فلذلك وقع القصر الادّعائي في قوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾

٢٨. وعقّب بقوله: ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، فعلم منه أنّ أعمال المتّقين في الدنيا هي ضدّ اللعب واللهو، لأنّهم جعلت لهم دار أخرى هي خير، وقد علم أنّ الفوز فيها لا يكون إلّا بعمل في الدنيا فأنتج أنّ عملهم في الدنيا ليس اللهو واللعب وأنّ حياة غيرهم هي المقصورة على اللهو واللعب.

٢٩. والدار محلّ إقامة الناس، وهي الأرض التي فيها بيوت الناس من بناء أو خيام أو قباب، والآخرة مؤنّث وصف الآخر ـ بكسر الخاء ـ وهو ضدّ الأول، أي مقرّ الناس الأخير الذي لا تحوّل بعده.

٣٠. ﴿خَيْرٌ﴾ تفضيل على الدنيا باعتبار ما في الدنيا من نعيم عاجل زائل يلحق معظمة مؤاخذة وعذاب.

٣١. ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ تعريض بالمشركين بأنّهم صائرون إلى الآخرة لكنّها ليست لهم بخير ممّا كانوا في الدنيا، والمراد بـ ﴿الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ المؤمنون التابعون لما أمر الله به، كقوله تعالى: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، فإنّ الآخرة لهؤلاء خير محض، وأمّا من تلحقهم مؤاخذة على أعمالهم السيئة من المؤمنين فلمّا كان مصيرهم بعد إلى الجنّة كانت الآخرة خيرا لهم من الدنيا.

٣٢. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ عطف بالفاء على جملة: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ إلى آخرها لأنّه يتفرّع عليه مضمون الجملة المعطوفة، والاستفهام عن عدم عقلهم مستعمل في التوبيخ إن كان خطابا للمشركين، أو في التحذير إن كان خطابا للمؤمنين، على أنّه لمّا كان استعماله في أحد هذين على وجه الكناية صحّ أن يراد

منه الأمران باعتبار كلا الفريقين، لأنّ المدلولات الكنائية تتعدّد ولا يلزم من تعدّدها الاشتراك، لأنّ دلالتها التزامية، على أنّنا نلتزم استعمال المشترك في معنييه.

٣٣. في قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ تأييس للمشركين.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا﴾، ولو ترى إذ وقفوا على النار كانت في بيان ما يستقبلهم من عذاب مادى رهيب يقرع إحساسهم قرعا شديدا مزعجا، وفى هذا الموضع، ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ هي بيان عقاب معنوي توبيخي وبيان كذبهم في الدنيا وكفرهم بآيات ربهم، ولو ترى يا محمد أو لو ترى يا قارئ القرآن إذ وقفوا أي حبسوا مطلعين على تجلى ربهم، وسلطانه وكمال عزته البارزة لهم التي حاولوا إخفاءها في أنفسهم في الدنيا، وإن لم تكن خفية في ذاتها، لقد تجلى عليهم ربهم بسؤال المستنكر لحالهم في الدنيا، وبحجتهم في قولهم: ﴿وما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ أَلَيْسَ هذا بِالْحَقِّ﴾ أي هذا البعث الذى تعاينونه وتشهدون أهواله ثابتا بالحق، فقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ متعلق بمحذوف، وأو نقول إن (الباء) زائدة، ويكون المعنى أليس هذا البعث هو الحق الذى لا ريب فيه، وتكون (الباء) لتأكيد معنى الإنكار الذى هو بمعنى النفي وقد دخل على نفى، ونفى النفي إثبات.

٢. ولقد كانت إجابتهم مصدقين؛ لأن الواقع يحملهم على التصديق والإذعان لما يدعو إليه رب العالمين بقولهم كما حكى ربهم؛ ﴿بَلَى﴾ وبلى لنفى ما يكون بعد الاستفهام، أي لنفى (ليس هذا بالحق)، نفى ما تضمنته ليس النافية هو تصديق أنه الحق.

٣. وإذا كان ذلك ثابتا بحكم قولهم وعيانهم، فلا بد أن يتجلى الله تعالى عليه بذكر ما يستحقون، فقال تعالت كلماته: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي فانغمسوا في العذاب ذائقين لآلامه محسين بها، فالذوق هنا كناية عن الإحساس الشديد بعد الانغماس فيه، والأمر هنا أمر تكويني يحكى الواقع الحق، وقد يكون مع ذلك أمر قولي لا اختيار لهم فيه، بل إنه مجاب بالاضطرار، و(الباء) هنا للسببية أي بسبب

(١) زهرة التفاسير: ٥/ ٢٤٧٩.

كفرهم بالبعث، وإنكارهم له، و(الفاء) في قوله: ﴿فَذُوقُوا﴾ فاء الإفصاح، أي إذا كنتم تفترون أنه الحق فذوقوا عذابه بما أنكرتم، اللهم هبنا الإيمان بالغيب وامنحنا اليقين.

٤. ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ﴾ الكلام موصول في الكفر باليوم الآخر وأثره النفسي والاعتقادى، وما يترتب على الكفر باليوم الآخر جحود النبوات.

٥. ولقد ابتدأ سبحانه بما يتصل بما قبله، فقال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾، بين الله سبحانه وتعالى في هذا النص أن الذين يكذبون باليوم الآخر تصيبهم خسارة، وخسرانهم أولا لأنهم يفقدون العزاء الروحي الذى يصيب كل إنسان مما يعانى في الحياة، فلو كانت الحياة الدنيا لا حياة بعدها يكون الشقاء النفسي المقيم لكل من يصيبه ألم فيها، أو يقع في نفسه أنه في شقاء لأنها فيها السعادة في زعمه، ولأنه بفقد معانى الإنسانية؛ إذ يكون كالحيوان الذى يأكل ليعيش، ويعيش ليأكل فيفقد كل المعنويات العالية، ولأنه ثالثا، يرتع في الشهوات الموبقة، ولأنه رابعا يكون في تناحر مستمر، إذ لا يخشى الله ولا يرهب عقابه، وأخيرا يخسر بتلقي العذاب الذى يقع عليه يوم تقوم القيامة، وعبر عن قيام القيامة واليوم الآخر بلقاء الله تعالى تشريفا لذلك اليوم، ولأنه له الولاية الحق في ذلك، فلا ولاية ولو ظاهرية لغيره ولا ملك لغيره ولو كان ظاهريا، وفيه ترغيب في الإيمان باللقاء، وترهيب من تكذيبه، وإنهم إذ يكذبون يستمرون في ضلالهم حتى تجيئهم الساعة بغتة أو فجأة من غير أن يكونوا على أهبة لها، وهنا يرد للنظر أمور.

أ. أولها: ما معنى ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ﴾، أي ما مقام (حتى) أهي للغاية أم للتفريع؟ وإذا كان للغاية فمن أين الابتداء؟ يقول الزمخشري إنها متعلقة بـ (يكذبون) أي أنهم يستمرون في تكذيبهم وغلوائهم حتى تجيء إليهم الساعة وهم في غيهم يعمهون.

ب. ثانيها: ما المراد بالساعة؟ واضح أنها القيامة فذلك تعبير قرآني عنها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان]، وسميت القيامة ساعة؛ لأنها تحمل أشد الأهوال، ولأنها فاصلة بين نوعين من الحياة، حياة فانية وأخرى باقية، حياة عمل، وحياة جزاء.

ج. الثالثة: الساعة تجيء من غير علم بوقتها للجميع فكيف تكون بغتة للذين كذبوا بلقاء الله دون

غيرهم، والجواب عن ذلك أن الذين آمنوا بلقاء الله تعالى يتوقعونها، وإن لم يعلموا وقتها، أما الذين كذبوا فهم يكفرون بها فيفاجئون بها، وإن الذين آمنوا يرجون لقاء ربهم، ويرجون رحمته، وأما الذين كفروا بلقاء الله تعالى فلا رجاء عندهم، أولئك الذين تجيئهم القيامة ولقاء ربهم بغتة ويرون العذاب، تصيبهم حسرة، أي غم شديد، وقد قال الأصفهاني في تفسير الحسرة ما نصه: (الحسرة الغم على ما قاله والندم عليه كأنه انحسر عنه الجهل الذى حمله على ما ارتكبه، وانحسرت قواه إذا انحسرت قواه من فرط غم أو أدركه إعياء عن تدارك ما فرط منه)، والتفريط هو الإهمال وعدم العناية والغفلة عما يجب للأمر.

٦. والضمير في قوله تعالى: ﴿فِيهَا﴾ يعود إلى الحياة عند بعض العلماء ولكن ليس لها مذكور سابق إلا أن يكون ما ذكروه من قبل، وقولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام]، والحق في نظري أنه يعود إلى الساعة وتفريطهم فيها هو عدم التفاتهم لها، وغفلتهم عن ذكرها، فكانوا يعملون غير مرتقبين لها، بل غافلين عنها.

٧. ونادوا الحسرة مضافة إليهم قائلين ﴿يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ لبيان أنهم في حال غم وحزن، وينادون حسرتهم التي تلازمهم كأن هذا وقتها ولا وقت ألزم وأنسب لها من هذا الوقت.

٨. ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ الوزر الحمل الثقيل، وسمى به الإثم والذنب؛ لأنه أثقل الأحمال النفسية التي تنوء به القوة، والجملة استعارة تمثيلية لما يثقلون به يوم القيامة من أثقال الآثام، فقد شبهت حال من يحمل الآثام الثقال الكثيرة بحال من يحمل الأحمال الثقال على ظهره وينوء بها؛ لأن كليهما ثقيل، الآثام لوباءتها وعذابها، وقد رشح سبحانه للمشبه به في قوله تعالى: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ فإن هذا بيان لسوء ما يحملون، وقد ابتدأ بـ ﴿إِلَّا﴾ الدالة على التنبيه، ثم التعجب من شدة ما يحملون، وساء وأساء: تستعمل للتعجب، فمعنى ﴿سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ ما أسوأ ما يزرون وما يحملون لسوء عاقبته، وما وراءه من عذاب.

٩. ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ في هذا النص تكون المقابلة بين الحياة الدنيا والآخرة، أو الحياة العاجلة والحياة الآجلة، أو بالأحرى بين من يطلب الحياة الدنيا من غير نظر إلى ما وراءها من حياة أخرى، ومن يطلب الحياة الآخرة، وأيهما أمثل؛ ولذلك كان حصر الحياة الدنيا في أنها لهو ولعب، فإن هناك حصرا بالنفي والإثبات، فهي مقصورة على اللهو واللعب، وذلك

لمن يطلبها من غير نظر إلى ما وراءها من حياة أخرى، فإنه حينئذ لا ينظر إلا إلى لذائذها وشهواتها، ولا تكون حينئذ إلا لهوا ولعبا، واللهو واللعب هما الاشتغال بما لا يجدى في ذاته، ولكن قد يختلفون في حقيقتهما مع قربهما في المعنى، فاللعب العمل الذى لا مقصد منه إلا تزجية الفراغ وقضاء الوقت، وقد يكون عبثا، واللهو طلب ما يلهى عن الجد من الأمور من ملاذ وأهواء وشهوات، والفرق بينهما غير محدود، بل هما متقاربان يستعمل أحدهما في موضع الآخر، ومهما يكن فإن الاشتغال بكل واحد منهما لغير غاية مجدية مذمة لا تجوز من عاقل، وإذا قصد بأحدهما الاسترواح حتى يقوى على الجد من غير سأم ولا إملال فربما لا يكون قبيحا، وإن قصر الحياة على اللهو واللعب إنما هو لمن أهمل ما وراءها، أما من عنى بما وراءها وقام بالجد من الأمور، فإنها الطريق إلى الآخرة، وهي طريق الذين يتقون، وكانت المقابلة للدلالة على موضوع القصر؛ فإن الذين يتقون هم من الذين يعيشون في الدنيا، ولكن لم تكن لهم كل شيء بل ما نظروا إليها إلا ليطلبوا الآخرة بها والله على كل شيء قدير.

١٠. وقوله: ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ في هذه مقابلة بين الذين يطلبون الدنيا لذاتها، والذين يطلبون بها الآخرة؛ إذ الأولون تكون عندهم لعبا ولهوا، والآخرون تكون عندهم جدا، يطلبون ما في الدنيا لغاية وراءها، ولا يطلبونها لذاتها، وهذه المقابلة فهمت بالصراحة في الكلام بشأن الأولى، وهو الخسران، وفهمت بذات المقابلة في الثانية، وهناك مقابلة أخرى، وهو أن عاقبة الآخرين خير، وهذه فهمت بصراحة في الثانية، وبالمقابلة ذاتها في الأولى وهو الخسران أيضا، وقد أكد الله تعالى الخيرية لأهل التقوى فأكد باللام المؤكدة.

١١. ثم خاطب الله تعالى الناس فقال تعالت كلماته: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام هنا للحث على التفكر والتدبر، والمقابلة بين اللذات العاجلة السريعة الفانية، واللذات الآجلة الدائمة الباقية.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَقالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٧/ ٥٦.

وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، ذكر لإنكارهم الصريح للحشر وما يستتبعه يوم القيامة من الإشهاد وأخذ الاعتراف بما أنكروه، والوثنية كانت تنكر المعاد كما حكى الله عنهم ذلك في كلامه غير مرة، وقولهم بشفاعة الشركاء إنما كان في الأمور الدنيوية من جلب المنافع إليهم ودفع المضار والمخاوف عنهم، فقوله: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ﴾ حكاية لإنكارهم أي ما الحياة إلا حياتنا الدنيا لا حياة بعدها، وما نحن بمبعوثين بعد الممات، وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا﴾ كالجواب وهو بيان ما يستتبعه قولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا﴾، للنبي ﷺ في صورة التمني لمكان قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ وهو أنهم سيصدقون بما جحدوه، ويعترفون بما أنكروه بقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ إذ يوقفون على ربهم فيشاهدون عيانا هذا الموقف الذي أخبروا به في الدنيا، وهو أنهم مبعوثون بعد الموت فيعترفون بذلك بعد ما أنكروه في الدنيا.

٢. ومن هنا يظهر أن الله سبحانه فسر البعث في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ بلقاء الله، ويؤيده أيضا قوله في الآية التالية: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ﴾، حيث بدل الحشر والبعث والقيامة المذكورات في سابق الكلام لقاء ثم ذكر الساعة أي ساعة اللقاء.

٣. ﴿أَلَيْسَ هَذَا﴾ أي أليس البعث الذي أنكرتموه في الدنيا وهو لقاء الله ﴿بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ به وتسترونه.

٤. ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ إلى آخر الآية، قال في المجمع: (كل شيء أتى فجأة فقد بغت يقال: بغته الأمر يبغته بغتة)، وقال الراغب في المفردات: (الحسر كشف الملبس عما عليه يقال: حسرت عن الذراع، والحاسر من لا درع عليه ولا مغفر، والمحسرة المكنسة ـ إلى أن قال ـ والحاسر المعيا لانكشاف قواه ـ إلى أن قال ـ والحسرة الغم على ما فاته والندم عليه كأنه انحسر عنه الجهل الذي حمله على ما ارتكبه أو انحسر قواه من فرط غم أو أدركه إعياء عن تدارك ما فرط منه)، وقال: (الوزر (بفتحتين) الملجأ الذي يلتجأ إليه من الجبل، قال: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ والوزر (بالكسر فالسكون) الثقل تشبيها بوزر الجبل، ويعبر بذلك عن الإثم كما يعبر عنه بالثقل، قال: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً﴾ الآية كقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾)

٥. والآية تبين تبعة أخرى من تبعات إنكارهم البعث وهو أن الساعة سيفاجئهم فينادون بالحسرة على تفريطهم فيها ويتمثل لهم أوزارهم وذنوبهم وهم يحملونها على ظهورهم وهو أشق أحوال الإنسان

وأردؤها ألا ساء ما يزرون ويحملونه من الثقل أو من الذنب أو من وبال الذنب.

٦. والآية أعني قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ بمنزلة النتيجة المأخوذة من قوله: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ إلى آخر الآيتين، وهي أنهم بتعويضهم راحة الآخرة وروح لقاء الله من إنكار البعث وما يستتبعه من أليم العذاب خسروا صفقة.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾، تتمة للكلام فيه بيان حال الحياتين: الدنيا والآخرة والمقايسة بينهما فالحياة الدنيا لعب ولهو ليس إلا فإنها تدور مدار سلسلة من العقائد الاعتبارية والمقاصد الوهمية كما يدور عليه اللعب فهي لعب، ثم هي شاغلة للإنسان عما يهمه من الحياة الأخرى الحقيقية الدائمة فهي لهو، والحياة الآخرة لكونها حقيقية ثابتة فهي خير ولا ينالها إلا المتقون فهي خير لهم.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ينتقل القرآن بنا إلى جوٍّ آخر، نواجه فيه هؤلاء الأشخاص، وهم يعيشون الحوار مع الله، حيث يواجههم الله بالأسئلة الحاسمة التي تصدمهم بالحقيقة، ولا يملكون إلا أن يجيبوا عنها بالحق، إذ لا مجال لهم لغير ذلك أمام الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

٢. ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ في الموقع الذي يواجهون فيه الحساب بين يدي الله، ليقدموا حساب أعمالهم، وليكشف الله ـ من خلال ذلك ـ ما يختزنونه من أفكار، وما كانوا يثيرونه من أقاويل وأفكار لا تعبّر عن قناعة حقيقية.

٣. ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ فقد كنتم تنكرون هذا كله في الدنيا، ولكنكم تقفون الآن مع الحقيقة التي تفرض نفسها على أبصاركم وأفكاركم، فماذا أنتم قائلون؟ هل هناك ظلال شك تغشي عيونكم الآن؟ ﴿قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾ إنهم يعترفون بالحق اعترافهم بالله الذي يقسمون به لتأكيد قناعتهم بما يشاهدون.

٤. ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فقد قامت عليكم الحجة من خلال الرسالات التي جاء بها الرسل، ولكنكم تمردتم واستكبرتم وكفرتم، من دون عذر، فماذا تنتظرون إلا العذاب الذي هو

---

(١) من وحي القرآن: ٩/ ٧٤.

الجزاء الإلهي العادل لموقفكم المنكر؟ فقد أخبركم الرسل بذلك كله، فيما حدثوكم به عن مستقبل المسؤولية في جانب الثواب والعقاب.

٥. ولا يطيل الله الحديث معهم، لأن القضية الواضحة لا تحتمل جدلا وحوارا، بل تقف في مواجهة الحجة لتسجل الموقف الحق في اللحظة الحاسمة.. ليتحرك التنفيذ من خلال ذلك.. وتلك هي اللحظة التي ينبغي للإنسان أن يحسب حسابها في الموقف الصعب أمام الله، فهناك يشعر بأنه مكشوف بكل فكره وشعوره وعمله، فالله لا يعزب عن علمه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء.

٦. ثم أراد الله أن يبيّن لهم الحقيقة على مستوى القاعدة، ليتأمل الإنسان ويعيد النظر في حسابات الربح والخسارة في عمله أمام الله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ﴾ لأنهم لم يستعدوا لذلك، انطلاقا من إنكارهم له، فعاشوا الغفلة كل الغفلة لما ينتظرهم من حساب الله وعقابه.

٧. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ من دون انتظار، وهم سادرون في غيّهم ولهوهم وعبثهم وغفلتهم ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ أخذوا يشعرون بالحسرة التي تثقل وجدانهم وتضغط على مشاعرهم، وتثير انفعالاتهم.. فقد فرّطوا في يوم القيامة، فلم يعملوا على ربح الموقف فيه، من خلال سلامة الموقف في الدنيا.

٨. ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ فهم لم يكتفوا بترك العمل للجنة، بل أثقلوا ظهورهم بالأحمال الثقيلة بكفرهم وعصيانهم وانحرافهم وتمردهم، وذلك هو مغزى التعبير بالأوزار على الظهور، للإيحاء بأن الانحراف عن خط الله في العقيدة والعمل يثقل روح الإنسان وضميره وحياته ومصيره.. فاستعار الثقل المادي للثقل المعنويّ.

٩. ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ وأيّ سوء أشد من العناء الذي يلاقيه الإنسان من أحمال ثقيلة ينوء بها، ثم تلقي به ـ بعد ذلك ـ في أعماق الهاوية، من دون أن يجني من تعبه إلّا الخسران والعذاب!؟ وتلك هي الحسرة الكبرى التي يواجه فيها الإنسان ـ بعد العناء الطويل ـ الخسران الكبير.

١٠. ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ إنها حقيقة الحياة العارية، بعيدا عن كل الزخارف التي تلونها، إذ ماذا يوجد خلف الصراعات والخلافات والشهوات والأطماع والحركات الخاصة والعامة، إذا جرد الإنسان نفسه من الأهداف التي تربطه بالدار الآخرة؟ ماذا يبقى منها؟ لا شيء سوى اللهو الذي

يشغلكم ويملأ فراغ أنفسكم وأوقاتكم، ثم لا يبقى منه شيء بعد انقضاء الوقت والاستسلام للنوم، ولا شيء بعد ذلك، سوى اللعب الذي يمارس فيه الإنسان بعضا من الحركات والأوضاع المثيرة المعجبة التي تحرّك الأعضاء والأفكار والمشاعر، ثم ينتهي كل شيء عندما تهدأ الساحة وينتهي اللاعبون، إن الشيء الذي يجعل لحركة الإنسان معنى، إنما هو السعي باتجاه الهدف الذي يحكم حياته ويربط مصيره.. أمّا إذا فرّغها من ذلك كله كما يفعل الماديون ولم يلتق فيها بالله ولم يستهدف الدار الآخرة ـ كغاية ـ فإنه لا يزيد عن أن يكون لاهيا لاعبا.. فيما يعنيه اللهو واللعب من البعد عن ربط العمل بقضية المصير.

١١. ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فهي لا تمثل مكانا يقضي فيه الإنسان عمره، ويستريح فيه من عناء التعب، بل تمثل القيمة الروحية التي تجعله يعيش السعادة المطلقة في رحاب الله، وبذلك كانت الآخرة خطا للعمل في حركة المتّقين في الحياة الدنيا، يتحركون ـ من خلاله ـ إلى الله في كل أقوالهم وأفعالهم، فهو الهدف الذي يحكم كل توجهاتهم وتطلعاتهم، وهو النور الذي يشرق في قلوبهم، فيبعث الإشراق في حياتهم، فإذا فكروا في مواقفهم، فكروا في انسجامها مع محبّة الله، وإذا فكروا في الجنة رأوا فيها المظهر لرضى الله، وإذا فكروا في النار رأوا فيها المظهر لسخط الله، وهكذا يلتقي الخط بالهدف، وترتبط التقوى بالدار الآخرة، وهكذا نفهم العمل الأخروي شيئا يرتبط بالهدف الكبير للمؤمن، وهو الله، وعلى ضوء هذا كانت الصلاة التي يأتي بها المصلي رياء عملا دنيويا، وكان العمل من أجل العيال عملا أخرويّا ـ تبعا لابتعاد الأول عن الارتباط بالله وارتباط الآخر به.

١٢. إن الدار الآخرة حين يعيشها الإنسان في الدنيا من خلال غايات العمل، ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ لأنها تعطي لحياتهم معنى وامتدادا فيما يحملونه من وعي روحي عميق، وهي خير لهم عندما يتركون هذه الدنيا وينالون جزاء تقواهم، جنّة عرضها السماء والأرض، ورضوانا من الله أكبر حيث السعادة المطلقة التي لا حدّ لها وخلودا في النعيم الروحي والجسدي أمام الله.. إن الله يخاطب عقول الناس، لتتحرك في عملية موازنة ومقارنة بين الدنيا والآخرة، لتنطلق عملية الاختيار من موقع التفكير، لا من موقع التقليد والمحاكاة، بوصفه ـ أي التفكير ـ الأساس الذي ترتكز عليه قاعدة المعرفة الإيمانية، التي يريد القرآن أن يبنيها في الإنسان.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بيّن الله عاقبة هذا الكفر بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ عند ربهم وبين يديه ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فبين ذلتهم في الآخرة، وإقرارهم بالحق وقسمهم عليه بالله ربهم، ثم لم يفدهم ذلك شيئاً، بل قال تعالى لهم: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ تفريعاً بـ (الفاء) على ما أقروا به ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وهنالك يندمون حين لا ينفع الندم، وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾!؟ إشارة إلى البعث وإرجاعهم إلى الله إلى موقف السؤال والحساب والحكم من الله فيهم.

٢. ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ الله حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ ﴿قَدْ خَسِرَ﴾ تحقيق لوقوع الخسارة العظمى، كقوله تعالى: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ في تحقيق الرحمة العظمى، وهذه الخسارة عند بلوغهم غاية التكذيب بلقاء الله، وهي ﴿إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ﴾ فجأة ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ انقلبت الحال في قدر لمح البصر وانكشفت الحقيقة بمجيء الساعة، فعند ذلك قالوا: ﴿يَا حَسْرَتَنَا﴾ تحولوا من التكذيب بها إلى التحسر على ما فرطوا فيها.

٣. والحسرة: الغم الشديد، قال في (لسان العرب): (وحسر، يحسر، حسراً، وحسرة: إذا اشتدت ندامته على أمر فاته) باختصار، وقال: (والحسرة: أشد الندم حتى يبقى النادم كالحسير من الدواب الذي لا منفعة فيه)، وقولهم: ﴿يَا حَسْرَتَنَا﴾ كقولهم: ﴿يَاوَيْلَنَا﴾ فهو دعاء للحسرة والغرض تنبيه السامع، وذلك تقوية للدلالة على الحسرة وتنويه بها، قال الشرفي في (المصابيح): (قال أبو عبيدة: يقال فرطت في الشيء أي ضيعته، فقوله: ﴿فَرَّطْنَا﴾ أي تركنا وضيعنا، وقال الزجاج: ﴿فَرَّطْنَا﴾ أي قدمنا العجز، جعله من قولهم: فَرَط فلان إذا سبق وتقدَّم، قال الواحدي: فالتفريط عنده تقديم التقصير)، وكلام أبي عبيدة أقوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ [يوسف:٨٠] فالتفريط لا يختص بالعجز.

٤. ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ أي ذنوبهم ﴿عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ قد لزمتهم ذنوبهم لم تنفك عنهم ولم يستطيعوا طرحها عن ظهورهم على ثقلها وعارها عليهم ووبالها ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ ساء ما يحلمون

(١) التيسير في التفسير: ٢/ ٤٣٢.

يومئذ في ذلك الموقف الشديد ساء ما يزرون ما أسوأه، وقوله: ﴿أَلَا﴾ تنبيه للسامع، ليصغي لهذه الجملة، فما أسوأ تلك الأحمال الثقيلة الوبيلة التي تؤديهم إلى نار جهنم، وهذا تمثيل لسوء حالهم في موقف السؤال والحساب بسبب ذنوبهم، فهم يتحسرون من تفريطهم في الساعة وهم يحملون ذنوبهم لا تنفك عنهم.

٥. ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ فلم يكن ينبغي لهم أن يؤثروها على الحذر من النار وعلى السعي للدار الآخرة؛ لأن أغراض الدنيا منتهية بلا فائدة، فهي أشبه باللعب واللهو الذي لذته إنما هي في وقته ثم ينتهي بلا ثمرة، قال الراغب الأصبهاني: (اللهو: ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه)، وصواب العبارة: ما ينشغل به ليفيد الاختيار له ويخرج ما شغله اضطراراً كالوجع الشديد فلا يسمى لهواً، وعبارة (الصحاح): ولهوت بالشي، ألهو، لهواً: إذا لعبتَ به وتلهيت به مثله، وقال في (الصحاح): (وألهاه: أي شغله)، فجعل الشغلَ تفسيرَ الإلهاء لا تفسير اللهو.

٦. ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الدار الآخرة هنا: الجنة ﴿خَيْرٌ﴾ من الدنيا؛ لأن نعيمها دائم وسعادتها دائمة فلا قيمة للدنيا في جنبها، لأنها تفنى مع قلّتها وما فيها من المنغصات والمحن ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ حين تتركون الخير العظيم الدائم من أجل القليل الفاني، فمن شأن العاقل أن يتدبر العواقب ويختار الخير العظيم الدائم على القليل الفاني الذي يسبب لَه العذاب الدائم.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. الآية الكريمة تشير إلى مصيرهم يوم القيامة، يوم يقفون بين يدي الله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾، فيكون جوابهم أنّهم يقسمون بأنّه الحقّ: ﴿قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾ عندئذ: ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

٢. لا شك أنّ (الوقوف بين يدي الله) لا يعني إنّ لله مكانا، بل يعني الوقوف في ميدان الحساب للجزاء، كما يقول بعض المفسّرين، أو أنّه من باب المجاز، مثل قول الإنسان عند أداء الصّلاة أنّه يقف بين يدي الله وفي حضرته.

---

(١) تفسير الأمثل: ٤/ ٢٥٧.

٣. الآية التي بعدها فيها، إشارة إلى خسران الذين ينكرون المعاد، فتقول: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ الله﴾، إنّ المقصود بلقاء الله هو ـ كما قلنا من قبل ـ اللقاء المعنوي والإيمان الشهودي (الشهود الباطني)، أو هو لقاء مشاهد يوم القيامة والحساب والجزاء.

٤. ثمّ تبيّن الآية أنّ هذا الإنكار لن يدوم، بل سيستمر حتى قيام يوم القيامة، حين يرون أنفسهم فجأة أمام مشاهده الرهيبة، ويشهدون بأعينهم نتائج أعمالهم، عندئذ ترتفع أصواتهم بالندم على ما قصروا في حق هذا اليوم: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾

٥. (الساعة) هي يوم القيامة، و(بغتة) تعني فجأة وعلى حين غرة، إذ تقوم القيامة دون أن يعلم بموعدها أحد سوى الله تعالى، وسبب إطلاق (الساعة) على يوم القيامة إمّا لأنّ حساب الناس يجري سريعا فيها، أو للإشارة إلى فجائية حدوث ذلك، حيث ينتقل الناس بسرعة خاطفة من عالم البرزخ إلى عالم القيامة.

٦. (التحسر) هو التأسف على شيء غبر أنّ العرب عند تأثرهم الشديد يخاطبون (الحسرة) فيقولون: (يا حسرتنا)، فكأنّهم يجسدونها أمامهم ويخاطبونها.

٧. ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ (الأوزار) جمع (وزر) وهو الحمل الثقيل، وتعني الأوزار هنا الذنوب، ويمكن أن تتخذ هذه الآية دليلا على تجسد الأعمال، لأنّها تقول إنّهم يحملون ذنوبهم على ظهورهم، ويمكن أيضا أن يكون الاستعمال مجازيا كناية عن ثقل حمل المسؤولية، إذ أنّ المسؤوليات تشبه دائما بالحمل الثقيل.

٨. ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ في هذه الآية جرى الكلام على خسران الذين ينكرون المعاد، والدليل على هذا الخسران واضح، فالإيمان بالمعاد، فضلا عن كونه يعد الإنسان لحياة سعيدة خالدة، ويحثه على تحصيل الكمالات العلمية والعملية، فإن له تأثيرا عميقا على وقاية الإنسان من التلوث بالذنوب والآثام، وهذا ما سوف نتناوله ـ إن شاء الله ـ عند بحث الإيمان بالمعاد وأثره البناء في الفرد والمجتمع.

٩. ثمّ لبيان نسبة الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ فهؤلاء الذين اكتفوا بهذه الحياة، ولا يطلبون غيرها، هم أشبه بالأطفال الذين يودون أن لو يقضوا العمر كلّه في اللعب واللهو غافلين عن كل شيء إن تشبيه الحياة الدنيا باللهو واللعب يستند إلى كون اللهو

واللعب من الممارسات الفارغة السطحية التي لا ترتبط بأصل الحياة الحقيقية، سواء فاز اللاعب أم خسر، إذ كل شيء يعود إلى حالته الطبيعية بعد اللعب.

١٠. كثيرا ما نلاحظ أنّ الأطفال يتحلقون ويشرعون باللعب، فهذا يكون (أميرا) وذاك يكون (وزيرا) وآخر (لصا) ورابع يكون (قافلة)، ثمّ لا تمضي ساعة حتى ينتهي اللعب ولا يكون هناك (أمير) ولا (وزير) ولا (لص) ولا (قافلة)! أو كما يحدث في المسرحيات أو التمثيليات، فنشاهد مناظر للحرب أو الحبّ أو العداء تتجسد على المسرح، ثمّ بعد ساعة يتبدد كل شيء والدنيا أشبه بالتمثيلية التي يقوم فيها الناس بتمثيل أدوار الممثلين، وقد تجتذب هذه التمثيلية الصبيانية حتى عقلاءنا ومفكرينا، ولكن سرعان ما تسدل الستارة وينتهي التمثيل.

١١. (لعب) على وزن (لزج) من (اللعاب) على وزن (غبار) وهو الماء الذي يتجمع في الفم ويسيل منه، فإطلاق لفظة (اللعب) على اللهو والتسلية جاء للتشابه بينه وبين اللعاب الذي يسيل دون هدف.

١٢. ثمّ تقارن الآية حياة العالم الآخر بهذه الدنيا، فتقول: ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتلك حياة خالدة لا تفنى في عالم أوسع وعلى أرفع، عالم يتعامل مع الحقيقة لا المجاز ومع الواقع، لا الخيال، عالم لا يشوب نعمه الألم والعذاب، عالم كلّه نعمة خالصة لا ألم فيه ولا عذاب.

١٣. ولكن إدراك هذه الحقائق وتمييزها عن مغريات الدنيا الخداعة غير ممكن لغير المفكرين الذين يعقلون، لذلك اتجهت الآية إليهم بالخطاب في النهاية، في حديث رواه هشام بن الحكم عن الامام موسى بن جعفر عليه السّلام قال: (يا هشام إنّ الله وعظ أهل العقل ورغبهم في الآخرة فقال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

١٤. غني عن القول أنّ هدف هذه الآيات هو محاربة الانشداد بمظاهر عالم المادة ونسيان الغاية النهائية، أمّا الذين جعلوا الدنيا وسيلة للسعادة فهم يبحثون ـ في الحقيقة ـ عن الآخرة، لا الدنيا.

١٧. العناد والتكذيب ونصر الله لرسله

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [١٧] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٣ ـ ٣٤]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

علي:

روي عن الإمام علي (ت ٤٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: قال أبو جهل للنبي ﷺ: إنّا لا نكذّبك، ولكن نكذّب بما جئت به، فأنزل الله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ﴾[١].

٢. روي أنّه قال: (فإنّهم لا يكذبونك) خفيفة، لا يجيئون بحقٍّ هو أحقّ من حقّك[٢].

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) أنّه قرأ: (فإنّهم لا يكذبونك) مخففة، قال: لا يقدرون على ألّا تكون رسولا، ولا على ألّا يكون القرآن قرآنا، فأمّا أن يكذّبوك بألسنتهم فهم يكذّبونك، فذاك الإكذاب، وهذا التكذيب[٣].

ابن جبير:

روي عن سعيد بن جبير (ت ٩٥ هـ) أنّه قال: (فإنّهم لا يكذبونك)، قال ليس يكذبون محمدا،

---

(١) الترمذي ٥/ ٣٠٤.

(٢) سعيد بن منصور (٨٧٧).

(٣) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٨٢.

ولكنهم بآيات الله يجحدون[1].

الضحاك:

روي عن الضحاك بن مزاحم (ت ١٠٢ هـ) أنّه قال: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ الآية، يعزّي نبيه ﷺ[2].

عكرمة:

روي عن عكرمة (ت ١٠٥ هـ) أنّه قال: يعني: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٠ ـ ١٧٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [غافر: ٥١]، وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١][3].

شراحيل:

روي عن أبي ميسرة عمرو بن شراحيل (ت ١٠٥ هـ)، قال: مرّ رسول الله ﷺ على أبي جهل، فقال: يا محمد، والله ما نكذّبك؛ إنّك عندنا لمصدّق، ولكنّا نكذّب بالذي جئت به، فأنزل الله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾[4].

البصري:

روي عن الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) أنّه قرأ عنده رجل: (فإنّهم لا يكذبونك) خفيفة، فقال الحسن: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾، وقال: إنّ القوم قد عرفوه، ولكنهم جحدوا بعد المعرفة[5].

باذام:

روي عن أبي صالح باذام (ت ١١١ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١ ـ روي أنّه قال في الآية: جاء جبريل إلى النبي ﷺ وهو جالس حزين، فقال له: ما يحزنك؟ فقال:

---

(١) ابن جرير ٩/ ٢٢٢.

(٢) ابن جرير ٩/ ٢٢٥.

(٣) تفسير الثعلبي ٤/ ١٤٥.

(٤) نسبه السيوطي إلى عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه.

(٥) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٨٣.

(كذّبني هؤلاء)، فقال له جبريل: إنّهم لا يكذّبونك، إنّهم ليعلمون أنّك صادق، ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾[1].

٢. روي أنّه قال: كان المشركون إذا رأوا رسول الله ﷺ بمكة قال بعضهم لبعضٍ فيما بينهم: إنّه لنبي، فنزلت هذه الآية: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾[2].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾، يعلمون أنّك رسول الله، ويجحدون[3].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا﴾، يعزّي نبيه ﷺ كما تسمعون، ويخبره أن الرسل قد كذّبت قبله، فصبروا على ما كذّبوا حتى حكم الله وهو خير الحاكمين[4].

القرظي:

روي عن محمد بن كعب القرظي (ت ١٢٠ هـ) أنّه كان يقرؤها: (فإنّهم لا يكذبونك) بالتخفيف، يقول: لا يبطلون ما في يديك[5].

السّدّيّ:

روي عن إسماعيل السّدّيّ (ت ١٢٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ لمّا كان يوم بدر قال الأخنس بن شريقٍ لبني زهرة: يا بني زهرة، إنّ محمدا ابن أختكم، فأنتمّ أحقّ من كفّ عنه، فإنّه إن كان نبيا لم تقاتلوه اليوم، وإن كان كاذبا كنتمّ أحقّ من كفّ عن ابن أخته، قفوا

---

(١) ابن جرير ٩/ ٢٢١.

(٢) نسبه السيوطي إلى أبي الشيخ.

(٣) عبد الرزاق ١/ ٢٠٧.

(٤) ابن جرير ٩/ ٢٢٥.

(٥) سعيد بن منصور (٨٧٦.

ههنا حتى ألقى أبا الحكم، فإن غلب محمد ﷺ رجعتم سالمين، وإن غلب محمد فإنّ قومكم لا يصنعون بكم شيئا، فيومئذ سمّي: الأخنس، وكان اسمه: أبيّا، فالتقى الأخنس وأبو جهل، فخلا الأخنس بأبي جهل، فقال: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب؟ فإنّه ليس ههنا من قريش أحد غيري وغيرك يسمع كلامنا، فقال أبو جهل: ويحك، والله، إنّ محمدا لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والحجابة والسقاية والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟ فذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ﴾، فآيات الله: محمد ﷺ[١].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ﴾، وآيات الله: هو محمد ﷺ[٢].

الكلبي:

روي عن محمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾، شقّ عليه وحزن، فأخبره الله عز وجل أنهم لا يكذبونك، وقد عرفوا أنك صادق، ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ﴾[٣].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ الله﴾، يعني: القرآن[٤].

الصادق:

روي عن الإمام الصادق (ت ١٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: قرأ رجل على الإمام علي: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ﴾ فقال: بلى والله لقد كذبوه أشد التكذيب، ولكنها مخففة: لا يكذبونك، أي لا يأتون بباطل يكذبون به حقك[٥].

٢. روي أنّه قال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ﴾ ولكنهم يجحدون بغير

---

(١) ابن جرير ٩/ ٢٢٢.

(٢) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٨٣.

(٣) ذكره يحيى بن سلام كما في تفسير ابن أبي زمنين ٢/ ٦٥.

(٤) تفسير الثعلبي ٤/ ١٤٥.

(٥) تفسير القمّي ٨/ ٢٠٠.

حجة لهم[1].

٣. روي أنّه قال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ لا يستطيعون إبطال قولك[2].

٤. عن حفص بن غياث، قال: قال الإمام الصادق: يا حفص، إن من صبر صبر قليلا، وإن من جزع جزع قليلا ـ ثم قال ـ عليك بالصبر في جميع أمورك، فإن الله بعث محمدا وأمره بالصبر والرفق، فقال: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ وقال: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌفصبر﴾ رسول الله ﷺ حتى نالوه بالعظائم، ورموه بها، فضاق صدره، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾، ثم كذبوه ورموه، فحزن لذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ فألزم ﷺ نفسه الصبر، فقعدوا وذكروا الله تبارك وتعالى بالسوء وكذبوه، فقال رسول الله ﷺ: لقد صبرت على نفسي وأهلي وعرضي، ولا صبر لي على ذكرهم إلهي، فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ فصبر رسول الله ﷺ في جميع أحواله، ثم بشر في الأئمة من عترته، ووصفوا بالصبر، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ فعند ذلك قال عليه السلام: الصبر من الإيمان كالرأس من البدن، فشكر الله ذلك له فأنزل الله عليه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ فقال رسول الله ﷺ: آية بشرى وانتقام، فأباح الله قتل المشركين حيث وجدوا، فقتلهم الله على يدي رسول الله ﷺ وأحبائه، وعجل الله له ثواب صبره، مع ما ادخر له في الآخرة من الأجر[3].

٥. روي أنّه قال: قال لي: ألم ينسبوه ـ يعني رسول الله ﷺ ـ إلى الكذب في قوله إنه رسول من الله إليهم، حتى أنزل الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ

---

(١) الكافي ١/ ٢٣٣.

(٢) تفسير العيّاشي ١/ ٣٥٩.

(٣) تفسير القمّي ١/ ١٩٦.

نَصْرُنَا﴾ قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ نزلت في الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف بن قصي، كان الحارث يكذّب النبي ﷺ في العلانية، فإذا خلا مع أهل ثقته قال: ما محمد من أهل الكذب، وإنّي لأحسبه صادقا، وكان إذا لقي النبي ﷺ قال: إنّا لنعلم أن هذا الذي تقول حق، وإنّه لا يمنعنا أن نتّبع الهدى معك إلا مخافة أن يتخطفنا الناس ـ يعني: العرب ـ من أرضنا إن خرجنا، فإنما نحن أكلة رأس، ولا طاقة لنا بهم، نظيرها في القصص: ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾، فأنزل الله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾[٢].

٢. روي أنّه قال: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ في العلانية بأنّك كذاب مفتر، ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ في السر بما تقول بأنّك نبي رسول، بل يعلمون أنك صادق، وقد جربوا منك الصدق فيما مضى[٣].

٣. روي أنّه قال: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾، يعني: بالقرآن بعد المعرفة[٤].

٤. روي أنّه قال: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾، وذلك قبل كفار مكة؛ لأنّ كفار مكة قالوا: يا محمد، ما يمنعك أن تأتينا بآية كما كانت الأنبياء تجيء بها إلى قومهم؟ فإن فعلت صدّقناك، وإلا فأنت كاذب، فأنزل الله يعزّي نبيه ﷺ؛ ليصبر على تكذيبهم إياه، وأن يقتدي بالرسل قبله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ في هلاك قومهم، وأهل مكة بمنزلتهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾[٥].

---

(١) الأمالي: ٩٢/٣.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٨.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٨.

(٤) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٨.

(٥) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٩.

٥. روي أنّه قال: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ وذلك قبل كفار مكة، ﴿فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ في هلاك قومهم، وأهل مكة بمنزلتهم فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾[1].

٦. روي أنّه قال: قوله تعالى: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾ يعني: لا تبديل لقول الله بأنّه ناصر محمد ﷺ، ألا وقوله حقّ كما نصر الأنبياء قبله، ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ﴾ يعني: من حديث المرسلين حين كذّبوا وأوذوا، ثم نصروا[2].

ابن جريج:

روي عن ابن جريج (ت ١٥٠ هـ) أنّه قال: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ الآية، يعزّي نبيه ﷺ[3].

الناصر:

ذكر الإمام الناصر بن الإمام الهادي (ت ٣٢٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[4]:

١. سؤال وإشكال: وسألت: عن قول الله عز وجل للنبي صلوات الله عليه: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾، فقلت: وأي تكذيب أشد مما كذبوه صلوات الله عليه؟ والجواب: إنما عنى تبارك وتعالى: أنهم لا يقدرون على تكذيبه بحجة يقهرونه بها، فيلزمه التكذيب.

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[5]:

١. ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ هذا إخبار منه نبيه ﷺ أنه عن علم منه بتكذيبهم إياك بعثك إليهم رسولا، وأمرك بتبليغ الرسالة إليهم، وكان عالمًا بما يلحقك من الحزن بتكذيبهم إياك، ولكن

---

(١) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٩.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٩.

(٣) ابن جرير ٩/ ٢٢٥.

(٤) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/ ٣٧٨.

(٥) تأويلات أهل السنة: ٤/ ٧٠.

بعثك إليهم رسولا مع علم منه بهذا كله لتبلغهم، يذكر هذا ليعلم رسوله ألا عذر له في ترك تبليغ الرسالة، وإن كذّبوه في تبليغها.

٢. ثم الذي يحمله على الحزن يحتمل وجوهًا:

أ. يحتمل: يحزنه افتراؤهم وكذبهم على الله.

ب. أو كان يحزن لتكذيب أقربائه وعشيرته إياه فإذا أكذبته عشيرته، انتهى الخبر إلى الأبعدين فيكذبونه، فيحزن لذلك.

ج. أو يحزن حزن طبع؛ لأن طبع كل أحد ينفر عن التكذيب.

د. أو كان يحزن إشفاقًا عليهم بما ينزل عليهم من العذاب بتكذيبهم إياه وآذاهم له؛ كقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ﴾ الآية، وكقوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾.

٣. ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ اختلف في تلاوته: قرأ بعضهم بالتخفيف، وبعضهم بالتشديد والتثقيل:

أ. فمن قرأ بالتخفيف: أي: لا يجدونك كاذبًا قط.

ب. ومن قرأ بالتثقيل: ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾، أي: لا ينسبونك إلى الكذب، ولا يكذبونك في نفسك.

ج. ويحتمل قوله: ولا يكذبونك في السر، ولكن يقولون ذلك في العلانية، والتكذيب هو أن يقال: إنك كاذب.

٤. ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ﴾، أي: عادة الظالمين التكذيب بآيات الله، و﴿الظَّالِمِينَ﴾ يحتمل وجهين:

أ. أحدهما: الظالمين على نعم الله عادتهم التكذيب بآيات الله.

ب. الثاني: والظالمين على أنفسهم؛ لأنهم وضعوها في غير موضعها.

٥. ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا﴾ يخبر نبيه ﷺ ويصبره على تكذيبهم إياه وأذاهم بتبليغ الرسالة، يقول: لست أنت بأول مكذب من الرسل، بل كذب إخوانك من قبلك على تبليغ الرسالة، فصبروا على ما كذبوا وأوذوا، ولم يتركوا تبليغ الرسالة مع تكذيبهم إياهم؛ فعلى ذلك لا عذر لك في ترك تبليغ الرسالة وإن كذبوك في التبليغ وآذوك، وهو ما ذكرنا أنه يخبره أنه بعثك رسولا على علم منه بكل الذي كان منهم من التكذيب والأذى.

٦. ﴿فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾، أخبر الله أنه نصر رسله، ثم يحتمل ذلك ﴿النَّصْرُ﴾ وجوهًا:

أ. أحدها: ينصرهم أي: أظهر حججه وبراهينه، حتى علموا جمعا أنها هي الحجج والبراهين، وأنهم رسل الله، لكنهم عاندوا وكابروا.

ب. ويحتمل: النصر لهم بما جعل آخر أمرهم لهم، وإن كان قد أصابهم شدائد في بدء الأمر.

ج. أو نصرهم لما استأصل قومهم وأهلكهم بتكذيبهم الرسل، وفي استئصال القوم وإهلاكه إياهم، وإبقاء الرسل نَصْرهم، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾، يخرج على الوجوه التي ذكرناها.

٧. ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ الله﴾:

أ. وهو ما ذكرنا من النصر لهم، واستئصال قومهم، وما أوعدهم من العذاب؛ فذلك كلمات الله.

ب. ويحتمل قوله: ﴿لِكَلِمَاتِ الله﴾: حججه وبراهينه؛ كقوله: ﴿وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾، أي: بحججه وآياته، وكقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾، أي: حجج ربي.

٨. ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾:

أ. يحتمل ما ذكرنا من إهلاك القوم وإبقاء الرسل، قد جاءك ذلك النبأ.

ب. ويحتمل من تكذيب قومهم لهم وأذاهم إياهم، فإن كان هذا ففيه تصبير رسول الله ﷺ.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ﴾ أي إنهم لا يأتون بحجة تكذب قولك، ولكنهم يجحدون.. ويحتمل وجهاً آجر: أن يكونوا لا يكذبونك بقلوبهم، ولكنهم يجحدون بألسنتهم، لعداوتهم لله وتكذيبهم وكفرهم.

٢. ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [أي ولقد جاءك بعض خبر المرسلين.

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/ ١٨٦.

الشريف المرتضى:

ذكر الشريف المرتضى (ت ٤٣٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. سؤال وإشكال: كيف يخبر عنهم بأنّهم لا يكذّبون نبيّه ﷺ، ومعلوم منهم إظهار التكذيب، والعدول عن الاستجابة والتصديق، وكيف ينفي عنهم التكذيب ثمّ يقول: إنّهم بآيات الله يجحدون؟ وهل الجحد بآيات الله إلّا تكذيب نبيه ﷺ؟ والجواب: قد ذكر في هذه الآية وجوه:

أ. أوّلها: أن يكون إنّما نفى تكذيبهم بقلوبهم تديّنا واعتقادا، وإن كانوا مظهرين بأفواههم التكذيب؛ لأنّا نعلم أنّه كان في المخالفين له ﷺ من يعلم صدقه، ولا ينكر بقلبه حقّه؛ وهو مع ذلك معاند؛ فيظهر بخلاف ما يبطن، وقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، وممّا يشهد لهذه الوجه من طريق الرواية ما رواه سلّام بن مسكين، عن أبي يزيد المدنيّ أنّ رسول الله ﷺ لقي أبا جهل فصافحه أبو جهل، فقيل له: يا أبا الحكم، أتصافح هذا الصّبيّ؟ فقال: والله إنّي لأعلم أنّه نبيّ؛ ولكن متى كنّا تبعا لبني عبد مناف! فأنزل الله الآية، وفي خبر آخر أنّ الأخنس بن شريق خلا بأبا جهل، فقال له: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد ﷺ، أصادق هو أم كاذب! فإنّه ليس هاهنا من قريش أحد غيري وغيرك يسمع كلامنا، فقال له أبو جهل: ويحك! والله إنّ محمدا لصادق، وما كذب محمد قطّ؛ ولكن إذا ذهب بنو قصيّ باللواء والحجابة والسّقاية والنّدوة والنبوّة، ماذا يكون لسائر قريش!.

ب. الثاني: أن يكون معنى ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أي لا يفعلون ذلك بحجّة، ولا يتمكّنون من إبطال ما جئت به ببرهان؛ وإنّما يقتصرون على الدعوى الباطلة؛ وهذا في الاستعمال معروف؛ لأنّ القائل يقول: فلان لا يستطيع أن يكذّبني ولا يدفع قولي؛ وإنّما يريد أنّه لا يتمكّن من إقامة دليل على كذبه، ومن حجّة على دفع قوله؛ وإن كان يتمكّن من التكذيب بلسانه وقلبه، فيصير ما يقع من التكذيب من غير حجّة ولا برهان غير معتدّ به، وروي عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام أنّه قرأ هذه الآية بالتخفيف: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾، ويقول: أنّ المراد بها أنهم لا يأتون بحقّ هو أحقّ من حقك، وقال محمد بن كعب القرظيّ: معناها لا يبطلون ما في يديك؛ وكلّ ذلك يقوّي هذا الوجه؛ وسنبيّن أنّ معنى هذه اللفظة مشدّدة ترجع

---

(١) نفائس التأويل: ٢/ ٢٦٣

إلى معناها مخفّفة.

ج. الثالث: أن يكون معنى الآية أنّهم لا يصادفونك ولا يلفونك متقوّلا؛ كما يقولون: قاتلته فما أجبنته، أي ما وجدته جبانا، وحادثته فما أكذبته؛ أي لم ألفه كاذبا؛ وقال الأعشى:

أثوى وقصّر ليلة ليزوّدا فمضى وأخلف من قتيلة موعدا

أراد أنّه صادف منها خلفا المواعيد، ومثله قولهم: أصممت القوم؛ إذا صادفتهم صمّا، وأخليت الموضع، إذا صادفته خاليا؛ وقال الشاعر:

أبيت مع الحدّاث ليلي فلم أبن فأخليت فاستجمعت عند خلائيا

أي أصبت مكانا خاليا.

ومثله لهميان بن أبي قحافة:

يسنّ أنيابا له لواحجا أوسعن من أشداقه المضارجا

يعني ب (أوسعن) أصبن منابت واسعة فنبتن فيها، وقال عمرو بن براق:

تحالف أقوام عليّ ليسمنوا وجرّوا عليّ الحرب إذ أنا سائم

يقال: أسمن بنو فلان، إذا رعت إبلهم فصادفوا فيها سمنا، وقال أبو النجم:

مستأسدا ذبابه في غيطل يقلن للرائد أعشبت أنزل

أي أصبت مكانا معشبا، وقال ذو الرمة:

تريك بياض لبّتها ووجها كقرن الشّمس أفتق ثمّ زالا

أي وجد فتقا من السحاب، وليس لأحد أن يجعل هذا الوجه مختصّا بالقراءة بالتخفيف دون التشديد؛ لأنّ في الوجهين معا يمكن هذا الجواب، لأنّ (أفعلت) و(فعلت) يجوزان في هذا الموضع، و(أفعلت) هو الأصل ثمّ شدّد تأكيدا وإفادة لمعنى التكرار؛ وهذا مثل أكرمت وكرّمت، وأعظمت وعظّمت، وأوصيت ووصّيت، وأبلغت وبلّغت؛ وهو كثير قال اللهّ تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾؛ إلّا أن التخفيف أشبه بهذا الوجه؛ لأنّ استعمال هذه اللفظة مخفّفة في هذا المعنى أكثر.

د. الرابع: ما حكى الكسائيّ من قوله: إنّ المراد أنّهم لا ينسبونك إلى الكذب فيما أثبت به؛ لأنّه كان أمينا صادقا لم يجرّبوا عليه كذبا؛ وإنّما كانوا يدفعون ما أتى به، ويدّعون أنّه في نفسه كذب؛ وفي الناس من

يقوّي هذا الوجه، وأنّ القوم كانوا يكذّبون ما أتى به، وإن كانوا يصدّقونه في نفسه بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِّ يَجْحَدُونَ﴾ وبقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ ولم يقل: وكذّبك قومك. وكان الكسائيّ يقرأ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ بالتخفيف ونافع من بين سائر السبعة، والباقون على التشديد؛ ويزعم أنّ بين أكذبه وكذّبه فرقا، وأنّ معنى أكذب الرجل، أنّه جاء بكذب، ومعنى كذّبته أنّه كذّاب في كلّ حديثه. وهذا غلط وليس بين (فعّلت) و(أفعلت) في هذه الكلمة فرق من طريق المعنى أكثر ممّا ذكرناه من أنّ التشديد يقتضي التكرار والتأكيد، ومع هذا لا يجوز أن يصدّقوه في نفسه، ويكذّبوا بما أتى به؛ لأنّ من المعلوم أنه ﷺ كان يشهد بصحّة ما أتى به وصدقه، وأنّه الدين القيّم، والحقّ الذي لا يجوز العدول عنه؛ وكيف يجوز أن يكون صادقا في خبره وكان الذي أتى به فاسدا! بل إن كان صادقا فالذي أتى به حقّ صحيح، وإن كان الذي أتى به فاسدا؛ فلا بدّ من أن يكون في شيء من ذلك كاذبا؛ وهو تأويل من لا يتحقق المعاني.

هـ. الخامس: أن يكون المعنى في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أن تكذيبك راجع إليّ، وعائد عليّ؛ ولست المختصّ به؛ لأنّه رسول فمن كذّبه فهو في الحقيقة مكذّب لله تعالى ورادّ عليه. وهذا كما يقول أحدنا لرسوله: امض في كذا فمن كذّبك فقد كذّبني، ومن دفعك فقد دفعني؛ وذلك من اللهّ على سبيل التسلية لنبيه ﷺ؛ والتعظيم والتغليظ لتكذيبه.

و. السادس: أن يريد: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ في الأمر الذي يوافق فيه تكذيبهم، وإن كذّبوك في غيره.

ز. ويمكن في الآية وجه سابع: وهو أن يريد تعالى أنّ جميعهم لا يكذّبونك وإن كذّبك بعضهم؛ فهم الظالمون الذين ذكروا في آخر الآية بأنّهم يجحدون بآيات اللهّ؛ وإنّما سلّى نبيه ﷺ بهذا القول وعزّاه؛ فلا ينكر أن يكون موسى ﷺ لما استوحش من تكذيبهم له وتلقّيهم إيّاه بالردّ؛ وظنّ أنّه لا متّبع له منهم، ولا ناصر لدينه فيهم أخبره اللهّ تعالى بأنّ البعض وان كذّبك فإنّ فيهم من يصدّقك ويتّبعك وينتفع بإرشادك وهدايتك؛ وكلّ هذا واضح والمنة للهّ.

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ أي من التكذيب لك والكفر بك ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ بحجة وإنما هو تكذيب بهت وعناد فلا يحزنك لأنه لا يضرك لأن تكذيبهم لك تكذيب لآياتي الدالة على صدقك الموجبة لقبول قولك، يدل على ذلك قوله: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي يكذبون.

٢. ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾ أي لا مبطل لحجته ولا دافع لبرهانه ولا راد لأمره فيما حكم به من نصر أوليائه وقهر أعدائه ولا تكذيب لأخباره فيما أعلمه وحكاه وأخبره وأنباه ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي من أخبارهم فيما صبروا عليه من الأذى وقوتلوا عليه من الصبر.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ يعني من التكذيب، لك، والكفر بي.

٢. ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ فيه أربعة أوجه:

أ. أحدها: فإنهم لا يكذبونك بحجة، وإنما هو تكذيب بهت وعناد، فلا يحزنك، فإنه لا يضرك، قاله أبو صالح، وقتادة، والسدي.

ب. الثاني: فإنهم لا يكذبون قولك لعلمهم بصدقك، ولكن يكذبون ما جئت به، قاله ناجية بن كعب.

ج. الثالث: لا يكذبونك في السر لعلمهم بصدقك، ولكنهم يكذبونك في العلانية لعداوتهم لك، قاله الكلبي.

د. الرابع: معناه أن تكذيبهم لقولك ليس بتكذيب لك، لأنك رسول مُبَلّغ، وإنما هو تكذيب لآياتي الدالة على صدقك والموجبة لقبول قولك.

٣. وقد بين ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي يكذبون.

٤. قرأ نافع والكسائي: ﴿لَا يُكْذِبُونَكَ﴾ وهي قراءة عن النبي ﷺ وتأويلها: لا يجدونك كاذباً.

---

(١) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/ ٢٣٩.

(٢) تفسير الماوردي: ٢/ ١٠٨.

٥. ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾ يحتمل أربعة تأويلات:

أ. أحدها: معناه لا مُبطِل لحُجَّتِهِ ولا دافع لبرهانه.

ب. الثاني: معناه لا رَادَّ لأمره فيما قضاه من نصر أوليائه، وأوجبه من هلاك أعدائه.

ج. الثالث: معناه لا تكذيب لخبره فيما حكاه من نصر مَنْ نُصِرَ وهلاك مَنْ أُهْلِكَ.

د. الرابع: معناه لا يشتبه ما تخرّصه الكاذبون عليه بما بلَّغه الأنبياء عنه، ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِىْ الْمُرْسَلِينَ﴾ فيما صبروا عليه من الأذى، وقُوبلوا عليه من النصر.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. لما علم الله تعالى أن النبي ﷺ يحزنه تكذيب الكفار له وجحدهم نبوته سلاه عن ذلك بأن قال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ ومن قرأ بالتخفيف قال معناه لا يلفونك كاذباً، كما يقولون: سألته فما أبخلته، وقاتلته فما أجبنته أي ما وجدته بخيلاً ولا جباناً، وقال أبو عبد الله عليه السلام معنى ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ لا يأتون بحق يبطلون به حقك، وقال الفراء: معنى التخفيف لا يجعلونك كذاباً، وإنما يريدون أن ما جئت به باطل، لأنهم لم يفتروا عليك كذباً، فيكذبوا لأنهم لم يعرفوه ﷺ وإنما قالوا: إن ما جئت به باطل لا نعرفه من النبوة، فأما التكذيب بأن يقال له كذبت، وقال بعض أهل اللغة: هذا المعنى لا يجوز، لأنه لا يجوز أن يصدقوه ويكذبوا ما جاء به، وهو أن الله أرسلني إليكم وأنزل عليَّ هذا الكتاب وهو كلام ربي، ومن قرأ بالتشديد احتمل وجوها:

أ. أحدها: أنهم لا يكذبونك بحجة يأتون بها أو برهان يدل على كذبك، لأن النبي ﷺ إذا كان صادقاً فمحال أن يقوم على كذبه حجة، ولم يرد أنهم لا يكذبونه سفهاً وجهلاً به.

ب. الثاني: أنه أراد فإنهم لا يكذبونك بل يكذبوني لأن من كذب النبي ﷺ فقد كذب الله، لأن الله هو المصدق له كما يقول القائل لصاحبه: فلان ليس يكذبك، وإنما يكذبني دونك، يريد أن تكذيبه إياك راجع إلى تكذيبي، لأني أنا المخبر لك وأنت حاك عني.

---

(١) تفسير الطوسي: ٤/ ١١٩.

ج. ثالثها: أن يكون أراد أنهم لا ينسبونك إلى الكذب لأنك كنت معروفاً عندهم بالأمانة والصدق فإنه ﷺ كان يدعى فيهم الأمين قبل الوحي، وكان معروفاً بينهم بذلك لكنهم لما أتيتهم بالآيات جحدوها بقصدهم التكذيب بآيات الله وجحدها لا لتكذيبك، قال أبو طالب: إن ابن آمنة الأمين محمداً.

د. رابعها: أن تكون الآية مخصوصة بقوم معاندين كانوا عارفين بصدقه ولكنهم يجحدونه عناداً وتمرداً، وقال الحسن: معناه ﴿نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ إنك ساحر وإنك مجنون فإنهم لا يكذبونك، لأن معرفة الله في قلوبهم بأنه واحد ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾.

هـ. خامسها: قال الزجاج: لا يكذبونك، لا يقدرون أن يقولوا لك فيما أنبأت به بما في كتبهم كذبت، قال أبو علي: يجوز أن يكون المعنى ـ فيمن ثقل ـ قلت له كذبت، مثل زنَّيته وفسَّقته إذا نسبته إلى الزنا والفسق، و(فعلت) جاء على وجوه نحو خطأته أي نسبته إلى الخطأ، وسقيته ورعيته، أي قلت له سقاك الله ورعاك، وقد جاء في هذا المعنى أفعلته، قالوا: أسقيته، أي قلت له سقاك الله، قال الشاعر:

وأسقيته حتى كاد مما أبثه　　　تكلمني أحجاره وملاعبه

فيجوز على هذا أن يكون معنى القراءتين واحداً، وإن اختلف اللفظان، كما تقول: قللت وكثرت وأقللت وأكثرت بمعنى واحد حكاه سيبويه، وقال الكميت:

فطائفة قد أكفروني بحبكم　　　وطائفة قالوا مسيء ومذنب

وحكى الكسائي عن العرب أكذبت الرجل إذا أخبرت أنه جاء بكذب، وكذبته إذا أخبرت أنه كذاب بقوله كذبته إذا أخبرت أنه جاء بكذب، كقولهم:

أكفرته إذا نسبوه إلى الكفر، وكذبته أخبرته أنه كذاب مثل فسقته إذا أخبرت أنه فاسق.

٢. ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ يعني هؤلاء الكفار ﴿بِآيَاتِ اللهِ﴾ يعني القرآن والمعجزات يجحدون ذلك بغير حجة، سفهاً وجهلاً وعناداً.

٣. ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ سلى الله تعالى بهذه الآية نبيه ﷺ بأن أخبر أن الكفار قد كذبوا رسلاً من قبلك، وصبر الرسل على تكذيبهم وعلى ما نالهم من أذاهم، وتكذيب الكفار لهم، حتى إذا جاء نصر الله إياهم على المكذبين، فمنهم من نصرهم عليهم بالحرب ومكنهم من الظفر بهم حتى قتلوهم،

ومنهم من نصرهم عليهم بأن أهلكهم واستأصلهم كما أهلك عاداً وثموداً وقوم نوح ولوط، وغيرهم، فأمر الله نبيه ﷺ بالصبر على كفار قومه وأذاهم إلى أن يأتيه نصره كما صبرت الأنبياء.

٤. ﴿لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾:

أ. معناه لا أحد يقدر على تكذيب خبر الله على الحقيقة، ولا على إخلاف وعده فإن ما أخبر الله به أن يفعل بالكفار، فلا بد من كونه لا محالة، وما وعدك به من نصره فلا بد من حصوله، لأنه لا يجوز الكذب في إخباره، ولا الخلف في وعده.

ب. وقيل: معناه أنه لا مبطل لحججه وبراهينه ولا مفسد لأدلته.

٥. ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ معناه أنه لا تبديل لخبر الله ولا خلف لذلك ولا تكذيب، وإن ما أخبر الله به أن ينزله بالكفار فإنه سيفعل بهم كما فعل بأمم من تقدم من الأنبياء الذين أنزل الله عليهم العذاب واستأصلهم بتكذيبهم أنبياءهم وعرفك أخبارهم على صحتها.

٦. قراءات ووجوه:

أ. قرأ نافع والكسائي والأعشى إلا النفار (لا يكذبوك) بسكون الكاف وتخفيف الدال، وهو المروي عن علي عليه السلام وعن أبي عبد الله عليه السلام، والباقون بفتح الكاف وتشديد الذال من التكذيب.

ب. وقرأ نافع (إنه ليحزنك) بضم الياء وكسر الزاي، الباقون بفتحها وضم الزاي، قال أبو علي الفارسي (فعل، وفعلته) جاء في حروف، والاستعمال في (حزنته) أكثر من (أحزنته) فإلى كثرة الاستعمال ذهب عامة القراء، وقال تعالى: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ ويقال حزن يحزن حزناً وحزناً، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ ثم قال: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ قال سيبويه: قالوا (حزن الرجل، وحزنته) قال وزعم الخليل: أنك حيث قلت (حزنته) لم ترد أن تقول جعلته حزيناً كما أنك حيث قلت أدخلته أردت جعلته داخلاً، ولكنك أردت أن تقول جعلت فيه حزناً كما قلت كحلته أي جعلت فيه كحلاً، ودهنته جعلت فيه دهناً، ولم يرد بـ (فعلته) هذا تعدية قوله حزن، ولو أردت ذلك لقلت أحزنته ومثل ذلك ستر الرجل وسترت عليه، فإذا أردت تغيير ستر الرجل قلت أسترت كما تقول فزع وأفزعته، وحجة نافع أنه أراد تغيير (حزن) فنقله بالهمزة، وقال الخليل: إذا أردت تغيير (حزن) قلت (أحزنته) فدل ذلك على أن

(أحزن) مستعمل وإن كان (حزَّنته) أكثر، وحكى أبو زيد: أحزنني الأمر إحزاناً، وهو يحزنني، ضموا الياء، وقال سيبويه: قال بعض العرب: أفنيت الرجل وأحزنته وارجعته واعورت عينه، أي جعلته حزيناً وفانياً، فغيروا ذلك كما فعلوا بالباب الأول، ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ﴾ إنما كسرت الهمزة، لأن في خبرها لا ما للتأكيد.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الكذب: خلاف الصدق، وهو خبر مُخْبَرُهُ بخلاف خبره، كَذَبَ كذبًا، وكذبَه: نسبه إلى الكذب، وأكذبه: وجده كاذبا، وهو كَذَّابٌ وكُذَبه.

ب. الجحود: ضد الإقرار، ولا يكون إلا مع علم الجاحد به، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ وعام جحد: إذا قل مطره.

ج. الصبر: أصله الحبس، وقيل: هو حبس النفس عما تدعو إليه من الجزع، وكل من حبسته لقتل أو يمين، فهو مصبور لذلك، وصبرت نفسي على الأمر أي حبستها، وأصبار الإناء: نواحيه؛ لأنه يحبس ما فيه، الواحد: صُبر، وصُبر الشيء أعلاه، وسدرة المنتهى: صبرة الجنة؛ أي أعلاها؛ لأنها تحبس عما وراءها، وفي الحديث: (نهى عن المصبورة ونهى عن قتل الدواب صبرًا ونهى عن صبر ذي الروح) كل ذلك في الحديث، ومعناه قال أبو عبيد: هو أن يحبس شيئًا ثم يرمي به حتى يقتل.

د. الأذى: ضرر لم يتناه في العظم، يقال: أَذِيَ يَأْذَى أذىً، ورجل أذى إذا كان شديد التأذي، وآذيت فلانًا أُوذِيهِ أَذِيَّةً وأذىً، وتأذى به تأذيًا.

هـ. النصر: المعونة على العدو، وقد يكون النصر بالحجة، وقد يكون بالغلبة في المحاربة، يقال: نصره ينصره نصرًا.

و. التبديل: التغيير برفع الشيء إلى خلافه، بدل تبديلاً، والبدل: الخلف من الشيء يقال: أبدل إبدالاً، وبادله مبادلة، وبدله تبديلاً.

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/ ٥٣٩.

ز. النبأ: الخبر، وجمعه: أنباء، فأما النبي فمن همزه فهو من هذا، ومن ترك الهمزة فهو من النبوة والنباوة، وهو الارتفاع.

٢. في سبب نزول الآية قولان:

أ. الأول: أنها نزلت في أبي جهل، ثم اختلفوا:

• فقال السدي: التقى الأخنس بن شريق وأبو جهل بن هشام فقال: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد أهو صادق أم كاذب، فليس ههنا أحد غيرنا؟ فقال أبو جهل: إنه لصادق، وما كذب محمد قط، لكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والنبوة فماذا يكون لسائر قريش؟ فنزلت الآية.

• وقيل: كان ذلك يوم بدر، وقال أبو زيد المدني: لقي رسول الله ﷺ أبا جهل فصافحه، فلقيه بعض الكفار فقالوا: صافحت محمدًا؟ فقال: والله إني لأعلم أنه نبي صادق، ولكنا متى كنا تبعًا لعبد مناف؟ فنزلت الآية.

• وقال ناجية بن كعب: قال أبو جهل للنبي ﷺ: ما نتهمك ولا نكذبك، ولكننا نتهم الذي جئت به ونكذبه، فنزلت الآية.

ب. الثاني: قال مقاتل: نزلت في الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف بن قصي بن كلاب يكذب النبي ﷺ في العلانية، وإذا خلا مع أهل بيته قال ما محمد بأهل للكذب، ولا أظنه إلا صادقًا، ويقول للنبي: نحن نعلم أنك صادق، وإنَّما لا نتبعك خوفًا من العرب، فنزلت الآية.

ج. وقال الأصم: قيل: الآية في المشركين.

د. وقيل: في أهل الكتاب، وهو الصحيح.

٣. مما ذكر في علاقة الآية الكريمة بما قبلها:

أ. قيل: لما تقدم ذكر تكذيبهم إياه بَيَّنَ تعالى أنه لا يمكنهم تكذيبه بحجة كما كذبهم فيما ادعوا بحجة، عن علي بن عيسى.

ب. وقيل: اتصل بما قبله تسلية له على تكذيبهم بعد إقامة الحجة عليهم، عن أبي مسلم.

ج. وقيل: لما تقدم ذكر تكذيبهم له، وذكر حزنه على ذلك بين أنهم يعلمون صدقك ويعلمون نبوتك، ولكن يجحدون يعني علماؤهم، وفي ذلك حجة عليهم، عن الأصم.

٤. ﴿قَدْ نَعْلَمُ﴾ نحن يا محمد ﴿إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ﴾ تكذيبهم وافتراؤهم على الله وعليك بتكذيبك ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ﴾ حججه ﴿يَجْحَدُونَ﴾

٥. وقد اختلفوا في معنى الآية.

أ. فأما على قراءة من قرأ بالتشديد:

أ. فقيل: لا يكذبونك بحجة، ولكن بغير حجة يجحدون آيات الله، عن أبي علي أنه قال: لا يُعْتَدُّ بتكذيبهم؛ لأنه لا حقيقة له، فجاء على النفي، كما جاء ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾

ب. وقال محمد بن كعب: لا يبطلون ما في يديك، وهذا قريب مما قاله أبو علي.

ج. وقيل: هذا في المعاندين، عن أبي صالح وقتادة والسدي والأصم، قال الأصم: وهم العلماء، كأنه قيل: لا يكذبونك؛ لأنهم يعلمون صدقك، ولكن مع العلم يجحدون آيات الله.

د. وقيل: إنهم لا يكذبونك ولكن يكذبون ما جئت به، عن ناجية بن كعب، أي لا يقولون إنك تعمدت الكذب؛ لأنهم يعرفونك بالصدق وعن قريب منه قال بعضهم: فإنهم لا يكذبونك ولكن يكذبوني وعيدًا لهم كما يقال: هو لا يفعل ذلك برسولي إنما يفعله بي.

هـ. وقيل: لا يكذبونك مع المعجزات الدالة على صدقك بل يكذبون أنفسهم في ما يجحدون من الآيات.

و. وقيل: لا يكذبونك أي لا يخصونك بالكذب، لكن يجحدون جميع آيات الله، والإكذاب والتكذيب بمعنى، عن أبي مسلم، وهذا أقرب ما قيل فيه.

ب. فأما على قراءة من قرأ بالتخفيف:

- فقيل: معناهما واحد.
- وقيل: ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ لا يجدونك كاذبا، ولكنهم يعرفون آيات الله كقولهم: سألناهم فما أبخلناهم أي ما وجدناهم بخلاء.
- وقيل: لا ينسبونك إلى الكذب، يقال: أَكْذَبَهُ إذا نسبه إلى الكذب، وأكفره إذا نسبه إلى الكفر، وأضله إذا نسبه إلى الضلال.

٦. ثم زاده في التسلي بما حثه على التأسي بالأنبياء قبله، وما نالهم من قومهم، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ

كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا﴾ عَلَى أداء الرسالة والوعظ، وعلى ما نالهم من الأعداء من الأذى، وعلى مَا كُذِّبُوا وعلى ما نالهم من الأذى من قومهم ﴿حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ وهو النصرة التي تكفل الله بها لأنبيائه.

٧. ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾ قيل: لا خلف لوعده بالنصر نحو قوله: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ فأمره بالصبر إلى وقت نزول النصر؛ لأنه أخبر ببعض ذلك دون بعض، على ما علم من المصالح، وكيف جاء نبؤهم:

أ. قيل: في القرآن كقوله: ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾

ب. وقيل: بالأخبار المتواترة، وكانوا يعرفون إبراهيم وإسماعيل وغيرهما، عن أبي مسلم.

٨. تدل الآية الكريمة على:

أ. في الآية تسلية للرسول ﷺ، وتقوية لقلبه، ووعد بالنصرة، وتأديب له، وأمر بالصبر.

ب. بطلان قول من كذبه، وأنه لم يكن عن حجة فلا يعتد به.

ج. أن الأنبياء صبروا حتى أتاهم النصر، وأمره بالاقتداء بهم.

د. أنه لا ينبغي للعالم أن يلتفت إلى قول العوام إذا كان بغير حجة؛ بل يجري على طريقه وعلمه.

٩. قراءات ووجوه:

أ. قرأ نافع ﴿لَيَحْزُنُكَ﴾ بضم الياء وكسر الزاي، الباقون بفتحها وضم الزاي، وهما لغتان، يقال: حزنني كذا وأحزنني، ومنه ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي﴾

ب. قرأ نافع والكسائي ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ خفيفة، وقرأ الباقون ﴿يُكَذِّبُونَكَ﴾ مشددة، فالأول من التكذيب، كذبه تكذيبًا، والتخفيف من أكذبه، يقال: أكذبته، واختلفوا، فقيل: معناهما واحد نحو: حزنته وأحزنته، وقيل: بينهما فرق، كذبته إذا قلت له: كذبت، وأكذبته إذا أريته أن ما أتى به كذب، عن الزجاج.

١٠. مسائل لغوية ونحوية:

أ. ﴿قَدْ﴾ تأكيد للكلام.

ب. سؤال وإشكال: لِمَ دخلت الباء في ﴿بِآيَاتِ اللهِ﴾ والجحد يتعدى بغير حرف إضافة؟

والجواب: لأنه بمعنى: يكذبون بآيات الله؛ لأن بهذا يطابق المعنى الأول، كأنه قيل: فإنهم لا يكذبونك، ولكن يكذبون بآيات الله.

ج. سؤال وإشكال: لم دخلت الفاء في قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ﴾؟ والجواب: لأن الكلام الأول يقتضي الثاني، كأنه قيل: إذا كان قد يحزنك الَّذِينَ يقولون، فاعلم أنه لا حقيقة له.

د. فاعل ﴿جَاءَكَ﴾ مضمر، تقديره: جاءك نبأ من نبأ المرسلين، فحذف لدلالة الكلام عليه، وقيل: لا يجوز أن يكون محذوفًا؛ لأن الفاعل إذا استغني عن إظهاره يضمر، ولا يحذف.

هـ. ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ صلة مؤكدة كقوله: ما أنا من أحد، وقيل: للتبعيض؛ أي نبأ من نبأ المرسلين.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. سلى سبحانه نبيه ﷺ على تكذيبهم إياه، بعد إقامة الحجة عليهم، فقال: ﴿قَدْ نَعْلَمُ﴾ نحن يا محمد ﴿إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ أي: ما يقولون إنك شاعر، أو مجنون، وأشباه ذلك ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾: دخلت الفاء في إنهم لأن الكلام الأول يقتضيه، كأنه قيل: إذا كان قد يحزنك قولهم، فاعلم أنهم لا يكذبونك، واختلف في معناه على وجوه:

أ. أحدها: إن معناه لا يكذبونك بقلوبهم اعتقادا، وإن كانوا يظهرون بأفواههم التكذيب عنادا، وهو قول أكثر المفسرين، عن أبي صالح، وقتادة، والسدي، وغيرهم، قالوا: يريد أنهم يعلمون أنك رسول الله،، ولكن يجحدون بعد المعرفة، ويشهد لهذا الوجه ما روى سلام بن مسكين، عن أبي يزيد المدني، أن رسول الله ﷺ لقي أبا جهل، فصافحه أبو جهل، فقيل له في ذلك، فقال: والله إني لأعلم أنه صادق، ولكنا متى كنا تبعا لعبد مناف فأنزل الله هذه الآية، وقال السدي: التقى أخنس بن شريق، وأبو جهل بن هشام، فقال له: يا أبا الحكم! أخبرني عن محمد، أصادق هو أم كاذب، فإنه ليس ههنا أحد غيري وغيرك يسمع كلامنا؟ فقال أبو جهل، ويحك! والله إن محمدا لصادق، وما كذب قط ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء،

(١) تفسير الطبرسي: ٤/ ٣٦.

والحجابة، والسقاية، والندوة، والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟

ب. ثانيها: إن المعنى: لا يكذبونك بحجة، ولا يتمكنون من إبطال ما جئت به ببرهان، ويدل عليه ما روي عن علي عليه السلام أنه كان يقرأ ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ ويقول: إن المراد بها إنهم لا يأتون بحق هو أحق من حقك

ج. ثالثها: إن المراد لا يصادفونك كاذبا، تقول العرب قاتلناكم فما أجبناكم أي: ما أصبناكم جبناء، قال الأعشى:

أثوى وقصر ليلة ليزودا فمضى وأحلف من قتيلة موعدا

أراد: صادف منها خلف الوعد، وقال ذو الرمة:

تريك بياض لبتها ووجها كقرن الشمس أفتق ثم زالا

أي: وجد فتقا من السحاب، ولا يختص هذا الوجه بالقراءة بالتخفيف دون التشديد، لأن أفعلت وفعلت يجوزان في هذا الموضع، وأفعلت هو الأصل فيه، ثم يشدد تأكيدا مثل: أكرمت وكرمت، وأعظمت وعظمت، إلا أن التخفيف أشبه بهذا الوجه.

د. رابعها: إن المراد لا ينسبونك إلى الكذب فيما أتيت به، لأنك كنت عندهم أمينا صدوقا، وإنما يدفعون ما أتيت به، ويقصدون التكذيب بآيات الله، ويقوي هذا الوجه قوله: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ قوله: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ ولم يقل وكذبك قومك وما روي أن أبا جهل قال للنبي ﷺ ما نتهمك ولا نكذبك، ولكنا نتهم الذي جئت به ونكذبه.

هـ. خامسها: إن المراد أنهم لا يكذبونك بل يكذبونني، فإن تكذيبك راجع إلي، ولست مختصا به، لأنك رسول الله، فمن رد عليك فقد رد علي، ومن كذبك فقد كذبني، وذلك تسلية منه سبحانه للنبي ﷺ.

٢. ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي بالقرآن والمعجزات يجحدون بغير حجة، سفها وجهلا، وعنادا، ودخلت الباء في ﴿بِآيَاتِ اللهِ﴾ والجحد يتعدى بغير الجار والمجرور، لأن معناه هنا التكذيب أي: يكذبون بآيات الله، وقال أبو علي: الباء تتعلق بالظالمين، والمعنى: ولكن الظالمين برد آيات الله، أو إنكار آيات الله يجحدون ما عرفوه من صدقك وأمانتك، ومثله قوله سبحانه ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي ظلموا بردها، أو الكفر بها.

٣. ثم زاد سبحانه في تسلية نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا﴾ أي: صبروا على ما نالهم منهم من التكذيب والأذى في أداء الرسالة، ﴿حَتَّى أَتَاهُمْ﴾: جاءهم، ﴿نَصْرُنَا﴾ إياهم على المكذبين، وهذا أمر منه سبحانه، لنبيه ﷺ بالصبر على كفار قومه، إلى أن يأتيه النصر، كما صبرت الأنبياء.

٤. ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾ معناه: لا أحد يقدر على تكذيب خبر الله على الحقيقة، ولا على إخلاف وعده، وإن ما أخبر الله به أن يفعل بالكفار، فلا بد من كونه لا محالة، وما وعدك به من نصره، فلا بد من حصوله، لأنه لا يجوز الكذب في اخباره، ولا الخلف في وعده، وقال الكلبي وعكرمة: يعني بكلمات الله: الآيات التي وعد فيها نصر الأنبياء، نحو قوله: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾

٥. ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: خبرهم في القران كيف أنجيناهم ونصرناهم على قومهم، قال الأخفش ﴿مِنْ﴾ هاهنا صلة مزيدة، كما تقول: أصابنا من مطر أي: مطر، وقال غيره من النحويين: لا يجوز ذلك، لأن ﴿مِنْ﴾ لا تزاد في الإيجاب، وإنما تزاد في النفي، و﴿مِنْ﴾ هنا للتبعيض، وفاعل جاء مضمر، يدل المذكور عليه، وتقديره: ولقد جاءك من نبأ المرسلين نبأ، فيكون المعنى أنه أخبره عليه وآله السلام، ببعض أخبارهم، على حسب ما علم من المصالح، ويؤيد ذلك قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾

٦. قراءات ووجوه:

أ. قرأ نافع ﴿لَيَحْزُنُكَ﴾ بضم الياء وكسر الزاي، والباقون ﴿يَحْزُنْكَ﴾ بفتح الياء وضم الزاي..
قال أبو علي: قال سيبويه، قالوا: حزن الرجل، وحزنته، وزعم الخليل أنك حيث تقول: حزنته، لم ترد أن تقول جعلته حزينا، كما أنك حيث قلت: أدخلته، أردت: جعلته داخلا، ولكنك أردت أن تقول: جعلت فيه حزنا، كما تقول كحلته: جعلت فيه كحلا، ودهنته: جعلت فيه دهنا، ولم ترد بفعلته هنا تعدي قوله حزن، ولو أردت ذلك لقلت: أحزنته، وحجة نافع إنه أراد أن يعدي حزن، فنقله بالهمزة، والاستعمال في حزنته أكثر منه في أحزنته فإلى كثرة الاستعمال ذهب عامة القراء.

ب. قرأ نافع، والكسائي، والأعشى، عن أبي بكر ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ خفيف، وهو قراءه علي عليه

السلام، والمروي عن جعفر الصادق عليه السلام، والباقون ﴿يُكَذِّبُونَكَ﴾ بفتح الكاف والتشديد.. أما قوله: ﴿يُكَذِّبُونَكَ﴾ فمن ثقل فهو من فعلته، إذا نسبته إلى الفعل، مثل زنيته، وفسقته، نسبته إلى الزنا والفسق، وقد جاء في هذا المعنى أفعلته: قالوا أسقيته أي: قلت له سقاك الله، قال ذو الرمة: وأسقيه حتى كاد مما أبثه تكلمني أحجاره وملاعبه فيجوز على هذا أن يكون معنى القراءتين واحدا، ويجوز أن يكون ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أي: لا يصادفونك كاذبا، كما تقول أحمدته: إذا أصبته محمودا، ويدل على الوجه الأول، قول الكميت: وطائفة قد أكفرتني بحبكم، وطائفة قالت: مسيء ومذنب أي: نسبتني إلى الكفر، قال أحمد بن يحيى: كان الكسائي يحكي عن العرب: أكذبت الرجل إذا أخبرت أنه جاءك بكذب، وكذبته: إذا أخبرت أنه كاذب.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١ . ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ في سبب نزولها أربعة أقوال:

أ. أحدها: أنّ رجلا من قريش يقال له: الحارث بن عامر، قال والله يا محمّد ما كذبتنا قطّ فنتّهمك اليوم، ولكنّا إن نتّبعك نتخطّف من أرضنا، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وقال مقاتل: كان الحارث بن عامر يكذّب النبيّ في العلانية، فإذا خلا مع أهل بيته، قال ما محمّد من أهل الكذب، فنزلت فيه هذه الآية.

ب. الثاني: أنّ المشركين كانوا إذا رأوا النبيّ ﷺ قالوا فيما بينهم: إنه لنبيّ، فنزلت هذه الآية؛ قاله أبو صالح.

ج. الثالث: أنّ أبا جهل قال للنبيّ ﷺ: إنّا لا نكذّبك، ولكن نكذّب الذي جئت به، فنزلت هذه الآية، قاله ناجية بن كعب، وقال أبو يزيد المدنيّ: لقي رسول الله ﷺ أبا جهل، فصافحه أبو جهل؛ فقيل له: أتصافح هذا الصّابئ؟ فقال: والله إني لأعلم أنه نبيّ، ولكن متى كنّا تبعا لبني عبد مناف؟ فأنزل الله هذه الآية.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٢/ ٢٣.

د. الرابع: أن الأخنس بن شريق لقي أبا جهل فقال الأخنس: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد، أصادق هو، أم كاذب؟ فليس ها هنا من يسمع كلامك غيري، فقال أبو جهل: والله إنّ محمدا لصادق، وما كذب قطّ، ولكن إذا ذهب بنو قصيّ باللواء، والسّقاية، والحجابة، والنّبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟ فنزلت هذه الآية، قاله السّدّيّ، ذكره الطبريّ مطوّلا.

٢. أما الذي يقولون، فهو التّكذيب للنبيّ ﷺ، والكفر بالله، وفي الآية تسلية للنبيّ ﷺ وتعزية عما يواجهونه به.

٣. ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ قرأ نافع، والكسائيّ: (يكذبونك) بالتخفيف وتسكين الكاف، وفي معناها قولان:

أ. أحدهما: لا يلفونك كاذبا؛ قاله ابن قتيبة.

ب. الثاني: لا يكذّبون الشيء الذي جئت به، إنما يجحدون آيات الله، ويتعرّضون لعقوباته، قال ابن الأنباريّ: وكان الكسائيّ يحتجّ لهذه القراءة بأن العرب تقول: كذبت الرجل: إذا نسبته إلى الكذب وصنعة الأباطيل من القول؛ وأكذبته: إذا أخبرت أنّ الذي يحدّث به كذب، ليس هو الصّانع له، قال وقال غير الكسائيّ: يقال: أكذبت الرجل: إذا أدخلته في جملة الكذّابين، ونسبته إلى صفتهم، كما يقال: أبخلت الرجل: إذا نسبته إلى البخل، وأجبنته: إذا وجدته جبانا، قال الشاعر:

فطائفة قد أكفروني بحبّكم وطائفة قالوا مسيء ومذنب

٤. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة وابن عامر: (يكذّبونك) بالتشديد وفتح الكاف؛ وفي معناها خمسة أقوال:

أ. أحدها: لا يكذّبونك بحجّة، وإنما هو تكذيب عناد وبهت، قاله قتادة، والسّدّيّ.

ب. الثاني: لا يقولون لك: إنك كاذب، لعلمهم بصدقك، ولكن يكذّبون ما جئت به، قاله ناجية ابن كعب.

ج. الثالث: لا يكذّبونك في السّرّ، ولكن يكذّبونك في العلانية، عداوة لك، قاله ابن السّائب، ومقاتل.

د. الرابع: لا يقدرون أن يقولوا لك فيما أنبأت به مما في كتبهم: كذبت.

أ. هـ. الخامس: لا يكذّبونك بقلوبهم، لأنهم يعلمون أنك صادق، ذكر القولين الزّجّاج.

ب. وقال أبو عليّ: يجوز أن يكون معنى القراءتين واحدا وإن اختلفت اللفظتان، إلّا أنّ (فعّلت): إذا أرادوا أن ينسبوه إلى أمر أكثر من (فعلت)، ويؤكّد أنّ القراءتين بمعنى، ما حكاه سيبويه أنهم قالوا: قلّلت، وأقللت، وكثّرت، وأكثرت بمعنى، قال أبو عليّ: ومعنى (لا يكذّبونك): لا يقدرون أن ينسبوك إلى الكذب فيما أخبرت به مما جاء في كتبهم، ويجوز أن يكون معنى الحقيقة: لا يصادفونك كاذبا، كما تقول: أحمدت فلانا: إذا أصبته محمودا، لأنهم يعرفونك بالصّدق والأمانة.

٥. ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ بألسنتهم ما يعلمونه يقينا، لعنادهم، وفي (آيات الله) ها هنا ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: أنها محمد ﷺ، قاله السّدّيّ.

ب. الثاني: محمد والقرآن، قاله ابن السّائب.

ج. الثالث: القرآن، قاله مقاتل.

٦. ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ هذه تعزية له على ما يلقى منهم، قال ابن عباس: ﴿فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا﴾ رجاء ثوابي، ﴿وَأُوذُوا﴾ حتى نشروا بالمناشير، وحرقوا بالنار ﴿حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ بتعذيب من كذّبهم.

٧. ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾ فيه خمسة أقوال:

أ. أحدها: لا خلف لمواعيده، قاله ابن عباس.

ب. الثاني: لا مبدّل لما أخبر به وما أمر به، قاله الزّجّاج.

ج. الثالث: لا مبدل لحكوماته وأقضيته النّافذة في عباده، فعبّرت الكلمات عن هذا المعنى، كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: وجب ما قضي عليهم، فعلى هذا القول، والذي قبله، يكون المعنى: لا مبدّل لحكم كلمات الله، ولا ناقض لما حكم به، وقد حكم بنصر أنبيائه بقول: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾

د. الرابع: أنّ معنى الكلام معنى النّهي، وإن كان ظاهره الإخبار؛ فالمعنى: لا يبدّلن أحد كلمات الله، فهو كقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾

هـ. الخامس: أنّ المعنى: لا يقدر أحد على تبديل كلام الله، وإن زخرف واجتهد، لأنّ الله تعالى صانه برصين اللفظ، وقويم الحكم، أن يختلط بألفاظ أهل الزّيغ، ذكر هذه الألفاظ الثلاثة ابن الأنباريّ.

٨. ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: فيما صبروا عليه من الأذى فنصروا، وقيل: إنّ (من) صلة.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. طوائف الكفار كانوا فرقا كثيرين:

أ. فمنهم من ينكر نبوّته لأنه كان ينكر رسالة البشر ويقول يجب أن يكون رسول الله من جنس الملائكة وقد ذكر الله تعالى في هذه السورة شبهة هؤلاء وأجاب عنها.

ب. ومنهم من يقول: إن محمدا يخبرنا بالحشر والنشر بعد الموت وذلك محال، وكانوا يستدلون بامتناع الحشر والنشر على الطعن في رسالته، وقد ذكر الله تعالى ذلك وأجاب عنه بالوجوه الكثيرة التي تقدم ذكرها.

ج. ومنهم من كان يشافهه بالسفاهة وذكر ما لا ينبغي من القول وهو الذي ذكره الله تعالى في هذه الآية.

٢. ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ اختلفوا في أن ذلك المحزن ما هو:

أ. فقيل: كانوا يقولون إنه ساحر وشاعر وكاهن ومجنون وهو قول الحسن.

ب. وقيل: إنهم كانوا يصرحون بأنهم لا يؤمنون به ولا يقبلون دينه وشريعته.

ج. وقيل: كانوا ينسبونه إلى الكذب والافتعال.

٣. قراءات ووجوه:

أ. قرأ نافع ﴿لَيَحْزُنُكَ﴾ بضم الياء وكسر الزاي والباقون بفتح الياء وضم الزاي وهما لغتان يقال حزنني كذا وأحزنني.

ب. قرأ نافع والكسائي ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ خفيفة والباقون يكذبونك مشددة وفي هاتين

---

(١) التفسير الكبير: ١٢/ ٥١٨.

القراءتين قولان:

• القول الأول: أن بينهما فرقا ظاهرا ثم ذكروا في تقرير الفرق وجهين:

● أحدهما: كان الكسائي يقرأ بالتخفيف، ويحتج بأن العرب تقول كذبت الرجل إذا نسبته إلى الكذب وإلى صنعه الأباطيل من القول وأكذبته إذا أخبرت أن الذي يحدث به كذب وإن لم يكن ذلك بافتعاله وصنعه، قال الزجاج: معنى كذبته قلت له كذبت ومعنى أكذبته أن الذي أتى به كذب في نفسه من غير ادعاء أن ذلك القائل تكلف ذلك الكذب وأتى به على سبيل الافتعال والقصد فكأن القوم كانوا يعتقدون أن محمدا عليه السلام ما ذكر ذلك على سبيل الافتعال والترويج بل تخيل صحة تلك النبوّة وتلك الرسالة، إلا أن ذلك الذي تخيله فهو في نفسه باطل، والفرق

● الثاني قال أبو علي: يجوز أن يكون معنى ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أي لا يصادفونك كاذبا لأنهم يعرفونك بالصدق والأمانة كما يقال أحمدت الرجل إذا أصبته محمودا فأحببته وأحسنت محمدته إذا صادفته على هذه الأحوال.

• القول الثاني: أنه لا فرق بين هاتين القراءتين، قال أبو علي: يجوز أن يكون معنى القراءتين واحدا لأن معنى التفعيل النسبة إلى الكذب بأن يقول له كذبت كما تقول ذنبته وفسقته وخطأته أي قلت له فعلت هذه الأشياء وسقيته ورعيته أي قلت له سقاك الله ورعاك وقد جاء في هذا المعنى أفعلته قالوا أسقيته أي قلت له سقاك الله، قال ذو الرمة:

وأسقيه حتى كاد مما أبثه ... تكلمني أحجاره وملاعبة

أي أنسبه إلى السقيا بأن أقول سقاك الله فعلى هذا التقدير يكون معنى القراءتين واحدا، إلا إن فعلت إذا أرادوا أن ينسبوه إلى أمر أكثر من أفعلت.

٤. ظاهر قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ يقتضي أنهم لا يكذبون محمدا ﷺ ولكنهم يجحدون بآيات الله واختلفوا في كيفية الجمع بين هذين الأمرين على وجوه:

أ. الأول: أن القوم ما كانوا يكذبونه في السر ولكنهم كانوا يكذبونه في العلانية ويجحدون القرآن والنبوّة، ثم ذكروا لتصحيح هذا الوجه روايات:

• إحداها: أن الحرث بن عامر من قريش قال يا محمد والله ما كذبتنا قط ولكنا إن اتبعناك نتخطف

من أرضنا فنحن لا نؤمن بك لهذا السبب.

• ثانيها: روي أن الأخنس بن شريق قال لأبي جهل: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب فإنه ليس عندنا أحد غيرنا، فقال له والله إن محمدا لصادق وما كذب قط؟ ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابة والنبوّة، فماذا يكون لسائر قريش فنزلت هذه الآية.

• ومعنى الآية على هذا التقدير أن القوم لا يكذبونك بقلوبهم ولكنهم يجحدون بنوّتك بألسنتهم وظاهر قولهم وهذا غير مستبعد ونظيره قوله تعالى في قصة موسى ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]

ب. الثاني: في تأويل الآية أنهم لا يقولون إنك أنت كذاب لأنهم جربوك الدهر الطويل والزمان المديد وما وجدوا منك كذبا ألبتة وسموك بالأمين فلا يقولون فيك إنك كاذب ولكن جحدوا صحة نبوّتك ورسالتك إما لأنهم اعتقدوا أن محمدا عرض له نوع خبل ونقصان فلأجله تخيل من نفسه كونه رسولا من عند الله، وبهذا التقدير: لا ينسبونه إلى الكذب أو لأنهم قالوا: إنه ما كذب في سائر الأمور، بل هو أمين في كلها إلا في هذا الوجه الواحد.

ج. الثالث: في التأويل: أنه لما ظهرت المعجزات القاهرة على وفق دعواه، ثم إن القوم أصروا على التكذيب فالله تعالى قال له إن القوم ما كذبوك، وإنما كذبوني، ونظيره أن رجلا إذا أهان عبدا لرجل آخر، فقال هذا الآخر: أيها العبد إنه ما أهانك، وإنما أهانني: وليس المقصود منه نفي الإهانة عنه بل المقصود تعظيم الأمر وتفخيم الشأن، وتقريره: أن إهانة ذلك العبد جارية مجرى إهانته، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾ [الفتح: ١٠]

د. الرابع: في التأويل وهو كلام خطر بالبال، هو أن يقال المراد من قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أي لا يخصونك بهذا التكذيب بل ينكرون دلالة المعجزة على الصدق مطلقا، وهو المراد من قوله: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ والمراد أنهم يقولون في كل معجزة إنها سحر وينكرون دلالة المعجزة على الصدق على الإطلاق فكان التقدير: إنهم لا يكذبونك على التعيين بل القوم يكذبون جميع الأنبياء والرسل.

٥. ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ أزال الله تعالى الحزن عن قلب رسوله في الآية السابقة بأن بين

أن تكذيبه يجري مجرى تكذيب الله تعالى فذكر في هذه الآية طريقا آخر في إزالة الحزن عن قلبه وذلك بأن بين أن سائر الأمم عاملوا أنبياءهم بمثل هذه المعاملة، وأن أولئك الأنبياء صبروا على تكذيبهم وإيذائهم حتى أتاهم النصر والفتح والظفر فأنت أولى بالتزام هذه الطريقة لأنك مبعوث إلى جميع العالمين، فاصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا.

٦. ثم أكد وقوى تعالى هذا الوعد بقوله: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ يعني أن وعد الله إياك بالنصر حق وصدق، ولا يمكن تطرق الخلف والتبديل إليه ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصفات: ١٧١]، وقوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١] وبالجملة فالخلف في كلام الله تعالى محال.

٧. ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي خبرهم في القرآن كيف أنجيناهم ودمرنا قومهم، قال الأخفش (من) هاهنا صلة، كما تقول أصابنا من مطر، وقال غيره: لا يجوز ذلك لأنها لا تزاد في الواجب، وإنما تزاد مع النفي كما تقول: ما أتاني من أحد، وهي هاهنا للتبعيض، فإن الواصل إلى الرسول ﷺ قصص بعض الأنبياء لا قصص كلهم كما قال تعالى: ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨] وفاعل (جاء) مضمر أضمر لدلالة المذكور عليه، وتقديره: ولقد جاءك نبأ من نبأ المرسلين.

٨. قوله تعالى: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ يدل على قولنا في خلق الأفعال لأن كل ما أخبر الله عن وقوعه، فذلك الخبر ممتنع التغير، وإذا امتنع تطرق التغير إلى ذلك الخبر امتنع تطرق التغير إلى المخبر عنه، فإذا أخبر الله عن بعضهم بأنه يموت على الكفر كان ترك الكفر منه محالا، فكان تكليفه بالإيمان تكليفا بما لا يطاق.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ كسرت ﴿إِنْ﴾ لدخول اللام، قال أبو ميسرة: إن رسول الله ﷺ مر بأبي جهل وأصحابه فقالوا: يا محمد والله ما نكذبك وإنك عندنا لصادق، ولكن نكذب ما جئت

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/ ٤١٦.

به، فنزلت هذه الآية ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾

٢. ثم آنسه بقوله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ الآية، وقرى ﴿يُكَذِّبُونَكَ﴾ مخففا ومشددا، قيل: هما بمعنى واحد كحزنته وأحزنته، واختار أبو عبيد قراءة التخفيف، وهي قراءة علي، وروي عنه أن أبا جهل قال للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به، فأنزل الله تعالى ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ قال النحاس: وقد خولف أبو عبيد في هذا، وروي: لا نكذبك، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾، ويقوي هذا أن رجلا قرأ على ابن عباس ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ مخففا فقال له ابن عباس: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ لأنهم كانوا يسمون النبي ﷺ الأمين.

٣. ومعنى ﴿يُكَذِّبُونَكَ﴾ عند أهل اللغة ينسبونك إلى الكذب، ويردون عليك ما قلت، ومعنى ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أي لا يجدونك تأتي بالكذب، كما تقول: أكذبته وجدته كذابا، وأبخلته وجدته بخيلا، أي لا يجدونك كذابا إن تدبروا ما جئت به، ويجوز أن يكون المعنى: لا يثبتون عليك أنك كاذب، لأنه يقال: أكذبته إذا احتججت عليه وبينت أنه كاذب، وعلى التشديد: لا يكذبونك بحجة ولا برهان، ودل على هذا ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾، قال النحاس: والقول في هذا مذهب أبي عبيد، واحتجاجه لازم، لأن عليا كرم الله وجهه هو الذي روى الحديث، وقد صح عنه أنه قرأ بالتخفيف، وحكى الكسائي عن العرب: أكذبت الرجل إذا أخبرت أنه جاء بالكذب ورواه، وكذبته إذا أخبرت أنه كاذب، وكذلك قال الزجاج: كذبته إذا قلت له كذبت، وأكذبته إذا أردت أن ما أتى به كذب.

٤. ﴿فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا﴾ أي فاصبر كما صبروا، ﴿وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ أي عوننا، أي فسيأتيك ما وعدت به، ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾ مبين لذلك النصر، أي ما وعد الله تعالى به فلا يقدر أحد أن يدفعه، لا ناقض لحكمه، ولا خلف لوعده، و﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد] ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر] ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات] ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة]

٥. ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ فاعل ﴿جَاءَكَ﴾ مضمر، المعنى: جاءك من نبإ المرسلين نبأ.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ هذا الكلام مبتدأ مسوق لتسلية رسول الله ﷺ عما ناله من الغمّ والحزن بتكذيب الكفار له، ودخول قد للتكثير فإنها قد تأتي لإفادته كما تأتي ربّ، والضمير في ﴿إِنَّهُ﴾ للشأن.

٢. وقرئ بفتح الياء من يحزنك وضمها، وقرئ ﴿يُكَذِّبُونَكَ﴾ مشدّدا ومخففا، واختار أبو عبيد قراءة التخفيف، قال النحاس: وقد خولف أبو عبيد في هذا.

٣. ومعنى ﴿يُكَذِّبُونَكَ﴾ على التشديد: ينسبونك إلى الكذب ويردّون عليك ما قلته، ومعنى المخفّف: أنهم لا يجدونك كذابا، يقال أكذبته: وجدته كذابا، وأبخلته: وجدته بخيلا، وحكى الكسائي عن العرب: أكذبت الرجل: أخبرت أنه جاء بالكذب، وكذّبته: أخبرت أنه كاذب، وقال الزجاج: كذبته إذا قلت له كذبت، وأكذبته: إذا أردت أن ما أتى به كذب، والمعنى: أن تكذيبهم ليس يرجع إليك فإنهم يعترفون لك بالصدق، ولكن تكذيبهم راجع إلى ما جئت به، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ ووضع الظاهر موضع المضمر لزيادة التوبيخ لهم والإزراء عليهم، ووصفهم بالظلم لبيان أن هذا الذي وقع منهم ظلم بين.

٤. ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ هذا من جملة التسلية لرسول الله ﷺ، أي أن هذا الذي وقع من هؤلاء إليك ليس هو بأوّل ما صنعه الكفار مع من أرسله الله إليهم، بل قد وقع التكذيب لكثير من الرسل المرسلين من قبلك فاقتد بهم ولا تحزن واصبر كما صبروا على ما كذبوا به وأوذوا حتى يأتيك نصرنا كما أتاهم فإنا لا نخلف الميعاد و﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾، ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾، ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾، ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾

٥. ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾ بل وعده كائن، وأنت منصور على المكذبين، ظاهر عليهم، وقد كان ذلك ولله الحمد ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ما جاءك من تجرّي قومهم عليهم في الابتداء وتكذيبهم

---

(١) فتح القدير: ٢/ ١٢٨.

لهم ثم نصرهم عليهم في الانتهاء، وأنت ستكون عاقبة هؤلاء المكذبين لك كعاقبة المكذبين للرسل، فيرجعون إليك، ويدخلون في الدين الذي تدعوهم إليه طوعا أو كرها.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿قَدْ نَعْلَمُ﴾ تحقَّق علمنا أو كثر، كقول زهير في مدح أبي حذيفة بن بدر:

أخا ثقة لا يتلف الخمر ماله ولكنَّه قد يهلك المال نائله

أي إعطاءُه، ومعنى كثرة علم الله كثرة أجزاء معلومه إذ عَلِمَ منه كُلَّ جزءٍ وإن دقَّ، وإلَّا فصفات الله ذاتيَّة، وهو لا يتَّصف بالأجزاء، أو: مِن أقلِّ معلوماتِنا إِحزَانُ الذي يقولونه إيَّاك، وذلك كما نُفَسِّرُ (قَدْ) في قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ [النور: ٦٤]، وقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ﴾ [الأحزاب: ١٨] بالتحقيق أو بتكثير معلوماته من ذلك، أو بتقليلها بالنسبة، والتحقيق أَنَّ (قَدْ) مع المضارع للتحقيق بالوضعِ، والكثرةُ أو القِلَّةُ إِنَّمَا هي من خارج، وقيل: هي للتقليل، واستعمالها في الكثرة استعارة أحد الضدَّين للآخر، والأَوْلى في قول سيبويه: أنَّ (قَدْ) كَـ (رُبَّ) أنَّها بمعناها في التقليل.

٢. ﴿إِنَّهُ لَيُحْزِنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ أي: الكلام الذي يقولونه، أو القول الذي يقولونه من أنَّك ساحر أو مجنون، أو شاعر أو تَتَكَلَّمُ بأساطير الأَوَّلِينَ، أو يعلِّمك بشر ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ علَّة لمحذوف، أي: لا تحزن لأَنَّهُمْ، أو دُمْ على الصبر لأنَّهم ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ مضارع (أَكْذَبَ)، فهو من (أَفْعَلَ) الذي للوجود، أي: لا يجدونك كاذبًا؛ أو للنسب، أي: لا ينسبونك إلى الكذب من قلوبهم، بل من ألسنتهم فقط؛ أو لا يصيِّرونك كاذبًا، بل أنت باق على الصدق.

٣. وهذا في الجملة، فإنَّ منهم من يُكْذِبه من قلبه ومنهم من يُكْذِبه بلسانه وقد عَلِم صدقه من قلبه لكنَّه جحد، كما قال: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِئَايَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾، أو لا يكذبونك لعلمهم بصدقك في طول عشرتك، ولكنَّهم يقولون: ما جئت به غير صحيح في نفسه، ولست مفتريًا له، كما روي أنَّ أبا جهل لعنه الله يقول: ما نُكْذِبك وَإِنَّكَ عندنا لصادق، وإِنَّمَا نكذِّب ما جئت به تظنُّ أنَّ مخبرك به صادق وليس صادقًا،

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/ ٢٤٢.

قيل: ولكن تغيَّر عقلك فقلت ما قلت لا بكذب منك.

٤. وقيل: لا يكذبونك كلُّهم، بل منهم من يصدِّقك، فنزلت الآية، كما روي أنَّ الأخنس قال لأبي جهل لعنهما الله تعالى: ليس معنا هُنَا أحد، فأخبرني عن محمَّد ﷺ، فقال: والله إنَّه لصادق وما يكذبك، لكن إذا ذهب بنو قصيٍّ باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوَّة فما لسائر قريش؟، وكان الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف بن قصي بن كلاب يُكْذِب النبيء ﷺ علانية ويقول لأهل بيته: ما محمَّد من أهل الكذب ولا أحسبه إلَّا صادقًا، ففي ذلك كُلِّه ونحوه نزلت الآية.

٥. أو لا يكذبونك في الحقيقة، بل كذَّبوا آيات الله، وذلك أنَّ الله صدَّقه بالإعجاز فكذَّبوا هذا التصديق، فهذه نصرة له ﷺ، إذ كان مكذِّبه مكذِّبًا لله تعالى، وتضمَّن ذلك وعدًا بالنصر، أو لا يكذبونك بقلوبهم بل بألسنتهم، ويجوز أن يكون (فَإِنَّهُمْ لَا يُكْذِبُونَكَ) علَّةً لـ (يُحْزِنُكَ)، أي: لَيُحْزِنُكَ الذي يقولون من التكذيب، لأنَّه ليس تكذيبًا لك خاصَّة، بل في تكذيبهم تكذيبٌ لله، كما روي أنَّه لا يحزن لنفسه ولا يغضب لنفسه، بل فيما كان لله جلَّ وعلا، ويجوز أن يكون الجحود: التكذيب، أي: ما كذَّبوك ولكن كذَّبوا آيات الله، أي: تكذيبك ليس منحصرًا فيك، بل فيه تكذيب الله في آياته، وذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾ [الفتح: ١٠]، ومقتضى الظاهر: ﴿ولكنَّهم بآيات الله يجحدون﴾ فوضع الظاهر موضع الضمير ليصفهم بالظلم، وليدلَّ على أنَّهم ظلموا بجحدهم، أو على أنَّهم جحدوا لتمرُّنهم على الظلم، وعلى ما مَرَّ من إبقاء الجحد على نفي الإنسان ما عَلِمه تكون الباء لتضمُّن الجحد معنى التكذيب.

٦. ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ وعموم البلوى مِمَّا يهوِّنها بعضَ تهوين ﴿فَصَبَرُواْ﴾ قبلك ﴿عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ هذا يدلُّ على أنَّ قوله: ﴿لَا يُكْذِبُونَكَ﴾ ليس نفيًا للكذب مطلقًا، بل نفيًا له بالنظر لبعضهم، أو باعتبار أنَّ قائله كَذِبَ لا أنت، أو باعتبار أنَّ الله قال لهم: إنَّ ذلك تكذيب لي، وكأنَّه قيل: ولقد كذِّبت رسل كثيرون عظام من قبل تكذيبك، أو رسلٌ كَذَلِكَ ثابتون قبلك، كما قَالَ الله تَعَالَىَ: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [فاطر: ٤]، فصبروا عَلَى تكذيبهم وإيذائهم حتَّى نصرناهم، فاصبر على تكذيب قومك وإيذائهم إيَّاك كما صبروا ننصرك كما نصرناهم، وذلك تسلية له ﷺ، ووعدٌ بالنصر وتفريعٌ بالنصر على الصبر، فإنَّ (حَتَّى) تفريع على (صَبَرُوا) لا على (أُوذُوا)، ويجوز

كونه تفريعًا عليهما وعلى (كُذِّبَتْ)، و(أُوذُوا) عطف على (كُذِّبُوا)، و(مَا) مَصْدَرِيَّة، وتنكير (رُسُلٌ) للتعظيم والتكثير، والمراد بالإيذاء: الضرب والخنق والرمي بالحجارة، أو تأثُّر مضرَّة الكذب فيهم فإنَّه ليس عين التكذيب، ومقتضى الظاهر: (نَصْرُهُ)، وقال: ﴿نَصْرُنَا﴾ بإشعار التَّكَلُّم بالعظمة.

٧. ﴿وَلَا مُبَدِّلَ﴾ لا أنا ولا غيري، على أنَّ المتكلِّم يدخل في عموم كلامه، وعلى عدم الدخول ينتفي عن الله تعالى أن يكون مبدِّلاً لكلامه لا وعده ولا وعيده؛ لأنَّ ذلك من شأن من يجهل العاقبة، ﴿لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾ الأشياء التي قضاها الله وتكلَّم بها لخلقه، وكذلك ما يخبرهم به لا يتبدَّل، فالنصر الموعود به لَا بُدَّ من وقوعه، إمَّا بالإهلاك بما شاء أو بالقتل، أو بالحجج بأن يكونوا أَوَّلاً على محسوسة بل معقولة ثمَّ تأتيهم محسوسة، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا﴾ [الصافَّات: ١٧١]، إلَّا أنَّه جمع هنا على الأصل من التعدُّد، وأفرد هنالك باعتبار الاتِّحاد في معنى واحد وهو القضاء، أو أراد بالكلمات: التلويح إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا﴾، وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ﴾ [المجادلة: ٢١]، ونحو ذلك.

٨. ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِ﴾ أي: خبر، وإنَّما يذكر فيما له شأن كما هنا، وقيل: للخبر مطلقًا، ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: جاءك هو، أي: هذا الخبر المذكور، أو جاءك النبأ ثابتًا من نبإ المرسلين، أو جاءك شيء ثابت من نبإ المرسلين، فناب عن الفاعل نعته، أو الفاعل (مِن)، بمعنى: بعض، مضافةً إلى (نبَإ)، أي: خبر المرسلين وما كابدوا أقوامهم، كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٢١٤، آل عمران: ١٤٢]

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ﴾ قرئ بفتح الياء وضمها، ﴿الَّذِي يَقُولُونَ﴾ أي: يقولون فيك، من أنك كاذب أو ساحر أو شاعر أو مجنون، قال أبو السعود: (استئناف مسوق لتسليته ﷺ عن الحزن الذي يعتريه، مما حكى عن الكفرة من الإصرار على التكذيب، والمبالغة فيه، ببيان أنه ﷺ بمكانة من الله عز وجل، وأن ما يفعلونه في حقه فهو راجع إليه تعالى في الحقيقة، وأنه ينتقم منهم أشد انتقام، وكلمة (قد)

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/ ٣٤٦.

لتأكيد العلم بما ذكر، المفيد لتأكيد الوعيد)

٢. ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ الفاء للتعليل، لأن قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ﴾ بمعنى لا تحزن، كما يقال في مقام المنع والزجر: نعلم ما تفعل! ووجّه التعليل في تسليته له ﷺ بأن التكذيب في الحقيقة لي، وأنا الحليم الصبور، فتخلق بأخلاقي.

٣. قال أبو السعود: وهذا يفيد بلوغه ﷺ في جلالة القدر، ورفعة المحل، والزلفى من الله عز وجل، إلى حيث لا غاية وراءه، حيث لم يقتصر على جعل تكذيبه ﷺ تكذيبا لآياته سبحانه، على طريقة قوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ [النساء: ٨٠]، بل نفي تكذيبهم عنه، وأثبت لآياته تعالى على طريقة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾ [الفتح: ١٠]، إيذانا بكمال القرب، واضمحلال شؤونه ﷺ في شأن الله عز وجل، وفيه استعظام لجنايتهم، منبئ عن عظم عقوبتهم، وقيل: المعنى: فإنهم لا يكذبونك بقلوبهم، ولكنهم يجحدون بألسنتهم، عنادا أو مكابرة، ويعضده ما روى سفيان الثوريّ عن أبي إسحاق عن ناجية عن عليّ قال: قال أبو جهل للنبيّ ﷺ: إنا لا نكذب، ولكن نكذب بما جئت به، فأنزل الله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ الآية - رواه الحاكم وصححه، وروى ابن جرير عن السدّي قال لما كان يوم بدر، خلا الأخنس بأبي جهل فقال: يا أبا الحكم! أخبرني عن محمد، أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هاهنا من قريش غيري وغيرك يستمع كلامنا، فقال أبو جهل: ويحك! والله إن محمد لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهبت بنو قصي باللواء والسقاية والحجابة والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟ فذلك قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ فآيات الله محمد ﷺ.

٤. قال الرازي: وهذا القول غير مستبعد، ونظيره قوله تعالى في قصة موسى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وقيل: المعنى فإنهم لا يكذبونك لأنك عندهم الصادق الموسوم بالصدق، ولكنهم يجحدون بآيات الله، كما يروى أن أبا جهل كان يقول لرسول الله ﷺ: ما نكذبك، وإنك عندنا لصادق، ولكننا نكذب ما جئتنا به.

٥. قال أبو السعود: وكأن صدق المخبر عند الخبيث، بمطابقة خبره لاعتقاده الأول هو الذي تستدعيه الجزالة التنزيلية.

٦. ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ افتنان في تسليته ﷺ، فإن عموم البلية ربما يهون أمرها بعض

تهوين، وإرشاد له ﷺ إلى الاقتداء بمن قبله من الرسل الكرام، في الصبر على ما أصابهم من أممهم، من فنون الأذية، وعدة ضمنية له ﷺ بمثل ما منحوه من النصر، وتصدير الكلام بالقسم، لتأكيد التسلية، وتنوين (رسل) للتفخيم والتكثير أفاده أبو السعود.

٧. قال الزمخشري: (في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ﴾ دليل على أن قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ ليس بنفي لتكذيبه، وإنما هو من قولك لغلامك: ما أهانوك، ولكنهم أهانوني!)، وناقشه الناصر في (الانتصاف) بأنه لا دلالة فيه، لأنه مؤتلف مع نفي التكذيب أيضا، وموقعه حينئذ من الفضيلة أبين، أي: هؤلاء لم يكذبوك، فحقك أن تصبر عليهم، ولا يحزنك أمرهم، وإذا كان من قبلك من الأنبياء قد كذبهم قومهم، فصبروا عليهم، وأنت إذ لم يكذبوك أجدر بالصبر، فقد ائتلف، كما ترى، بالتفسيرين جميعا، ولكنه من غير الوجه الذي استدلّ به، فيه تقريب لما اختاره، وذلك أن مثل هذه التسلية قد وردت مصرحا بها في نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فسلّاه عن تكذيبهم له، بتكذيب غيرهم من الأمم لأنبيائهم، وما هو إلا تفسير حسن مطابق للواقع، مؤيد بالنظائر.

٨. ﴿فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا﴾ أي على تكذيبهم وإيذائهم، فتأسّ بهم ﴿حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾ أي: لمواعيده، من قوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٢]، وقوله: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]

٩. ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي من خبرهم في مصابرة الكافرين، وما منحوه من النصر، فلا بد أن نزيل حزنك بإهلاكهم، وليس إمهالهم لإهمالهم، بل لجريان سنته تعالى بتحقق صبر الرسل وشكرهم.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. لا تنس أن هذه السورة نزلت في دعوة مشركي مكة إلى الإسلام ومحاجتهم في التوحيد والنبوة والبعث، وأنها تكثر فيها حكاية أقوالهم في ذلك بلفظ (وقالوا، وقالوا) وتلقين الرسول ﷺ الحجج بلفظ

---

(١) تفسير المنار: ٧/ ٣٠٩

(قل... قل...) حتى إن الأمر بالقول تكرر فيها عشرات من المرار، وقد سبق في الآيات التي فسرناها منها قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾، وقوله: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ وأمره تعالى بالرد على كل من القولين وإقامة الحجج في موضوعهما بما فيه بيان فقد بعضهم الاستعداد للإيمان ـ بعد هذا كله ذكر في هذه الآيات تأثير كفرهم في نفس النبي ﷺ وحزنه مما يقولون في نبوته، وسلاه عن ذلك ببيان سنته سبحانه وتعالى في الرسل مع أقوامهم وإيئاسه من إيمان الجاحدين المعاندين منهم ـ وقد تكرر هذا المعنى في السورة المكية.

٢. ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ الحزن ألم يلم بالنفس عند فقد محبوب أو امتناع مرغوب، أو حدوث مكروه، وتجب معالجته بالتسلي والتأسي وإن كان بالحق للحق كحزن الكاملين على إصرار الكافرين على الكفر، وقد أثبت الله تعالى لرسوله هذا الحزن إثباتا مؤكدا بتعلق علمه التنجيزي به في بعض الأحيان، أي عن ما كان يعرض له عليه السلام، وبأن مع ضمير الشأن وباللام، فكلمة (قد) على أصلها للتقليل، وقيل: إنها هنا للتكثير، وإنما القلة والكثرة في متعلقات العلم لا العلم نفسه، وقد نهاه تعالى عن هذا النوع من الحزن بقوله في (سورة يونس): ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وفي (سورة يس): ﴿فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ كما نهاه عن الحزن عليهم لعدم إيمانهم في (سورة الحجر) والنحل والنمل وتقدم تفسير الحزن والمراد بالنهي عنه، وأن لغة قريش فيه أن الثلاثي منه يتعدى بنفسه فيقال: حزنه الأمر، وتميم تقول: أحزنه ومنها قراءة نافع ﴿لَيُحْزِنُكَ﴾ بضم الياء وكسر الزاي.

٣. والمراد بالقول الذي يحزنه منهم هو ما كانوا يقولون فيه وفي دعوته ونبوته من تكذيب وطعن وتنفير للعرب، ومنه بالأولى ما حكاه عنهم في الآيات السابقة وسيأتي توضيحه، وروي عن أهل التفسير المأثور أن سبب نزول الآية أقوال خاصة من بعض رؤسائهم المستكبرين تنطبق على قوله في تتمة الآية: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: فإنهم لا يجدونك كاذبا ولا يعتقدون أنك كذبت على الله فيما جئت به وهم لم يجربوا عليك كذبا على أحد، ولكنهم يجحدون بالآيات الدالة على صدقك بإنكارها بألسنتهم فقط، كما جحد قوم فرعون من قبلهم بآيات الله لأخيك موسى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾، فالجحود كما قال الراغب: (نفي ما في القلب إثباته وإثبات ما في

القلب نفيه، يقال: جحد جحودا وجحدا)، وعبارة اللسان: (الجحد، والجحود ضد الإقرار كالإنكار، ثم نقل قول الجوهري فيه أنه الإنكار مع العلم، ويتعدى بنفسه وبالباء فيقال: جحده وجحد به)

٤. قال ابن كثير في تفسيره: يقول تعالى مسليا لنبيه ﷺ في تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ أي وقد أحطنا علما بتكذيبهم لك وحزنك وتأسفك عليهم كقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾، وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: لا يتهمونك بالكذب في نفس الأمر، ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، أي: ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم:

أ. كما قال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن ناجية بن كعب، عن علي قال: قال أبو جهل للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به، فأنزل الله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ ورواه الحاكم من طريق إسرائيل عن أبي إسحاق، ثم قال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

ب. وقال ابن أبي حاتم: عن أبي يزيد المدني، أن النبي ﷺ لقي أبا جهل فصافحه، فقال له رجل: ألا أراك تصافح هذا الصابئ؟ فقال: والله إني لأعلم أنه لنبي، ولكن متى كنا لبني عبد مناف تبعا؟ وتلا أبو يزيد: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾

ج. وقال أبو صالح وقتادة: يعلمون أنك رسول الله ويجحدون.

د. وذكر محمد بن إسحاق عن الزهري في قصة أبي جهل حين جاء يستمع قراءة النبي ﷺ من الليل هو وأبو سفيان صخر بن حرب والأخنس بن شريق، ولا يشعر أحد منهم بالآخر: فاستمعوها إلى الصباح، فلما هجم الصبح تفرقوا، فجمعتهم الطريق، فقال كل منهم للآخر ما جاء به، ثم تعاهدوا ألا يعودوا؛ لما يخافون من علم شبان قريش بهم لئلا يفتنوا بمجيئهم، فلما كانت الليلة الثانية جاء كل منهم ظنا أن صاحبيه لا يجيآن لما سبق من العهود، فلما أصبحوا جمعتهم الطريق فتلاوموا ثم تعاهدوا ألا يعودوا، فلما كانت الليلة الثالثة جاءوا أيضا، فلما أصبحوا تعاهدوا ألا يعودوا لمثلها ثم تفرقوا، فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك

فيما سمعت من محمد، قال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها، قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به، ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟ قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه، قال: فقام عنه الأخنس وتركه.

٥. وروى ابن جرير من طريق أسباط، عن السدي في قوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ لما كان يوم بدر قال الأخنس بن شريق لبني زهرة: يا بني زهرة، إن محمدا ابن أختكم، فأنتم أحق من ذب عن ابن أخته، فإنه إن كان نبيا لم تقاتلونه اليوم؟ وإن كان كاذبا فأنتم أحق من كف عن ابن أخته، قفوا هاهنا حتى ألقى أبا الحكم، فإن غلب محمد رجعتم سالمين، وإن غلب محمد فإن قومكم لا يصنعون بكم شيئا، فيومئذ سمي الأخنس، وكان اسمه أبيا، فالتقى الأخنس وأبو جهل، فخلا الأخنس بأبي جهل فقال: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد، أصادق هو أم كاذب، فإنه ليس هاهنا من قريش غيري وغيرك يستمع كلامنا؟ فقال أبو جهل: ويحك، والله إن محمدا لصادق وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهبت بنو قصي باللواء والسقاية والحجابة والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟ فذلك قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ فآيات الله محمد ﷺ.

٥. وما ذكر سببا لنزول الآية يصح أن يكون سببا لنزولها في ضمن السورة، ولا يصح نص في نزولها منفردة وإلا فهو من قبيل التفسير، كخبر الأخنس مع أبي جهل يوم بدر، وذلك بعد الهجرة قطعا، والسورة مكية قطعا، ولم يستثن أحد هذه الآية فيما يستثنى.

٦. في ﴿يُكَذِّبُونَكَ﴾ قراءتين: قراءة نافع والكسائي بضم الياء وتخفيف الذال من أكذبه، أي: وجده كاذبا أو نسبه إلى رواية الكذب بأن قال: إن ما جاء به كذب وإن لم يكن هو الذي افتراه بأن كان ناقلا له مصدقا به، وقراءة الجمهور بتشديد الذال، من التكذيب، وهو الرمي بالكذب، بمعنى إنشائه وابتدائه، وبمعنى نقله وروايته، وبهذا نجمع بين قول من قال: إن الصيغتين بمعنى واحد، ومن قال: إن معناهما مختلف، قال ثعلب: (أكذبه وكذبه بمعنى، وقد يكون (أكذبه) بمعنى بين كذبه أو حمله على الكذب،

وبمعنى وجده كاذبا)، قال في اللسان: (وكان الكسائي يحتج لهذه القراءة (أي قراءته) بأن العرب تقول: كذبت الرجل، إذا نسبته إلى الكذب، وأكذبته، إذا أخبرت أن الذي يحدث به كذب، قال ابن الأنباري: (ويمكن أن تكون (فإنهم لا يكذبونك) على معنى: لا يجدونك كذابا عند البحث والتدبر والتفتيش)، فعلم من هذه النقول أن الإكذاب يشترك مع التكذيب في معنى رواية الكذب، وينفرد التكذيب بمعنى الرمي بافتراء الكذب، إما مخاطبة كأن يقول له: كذبت فيما قلت، وإما بإسناده إليه في غيبته كأن يقول: كذب فلان وافترى، وينفرد الإكذاب بمعنى وجدان المحدث كاذبا فيما قاله، بمعنى أن خبره غير مطابق للواقع، لا بمعنى أنه افتراه، وبمعنى الإخبار بذلك، أي بعدم مطابقة الخبر للواقع، فعلى هذا يكون المراد من مجموع القراءتين أن أولئك الكفار لا ينسبون النبي ﷺ إلى افتراء الكذب ولا يجدونه كاذبا في خبر يخبر به بأن يتبين أنه غير مطابق للواقع؛ لأن جميع ما يخبر به من أمر المستقبل كنصر الله تعالى له، وإظهار دينه، وخذل أعدائه وقهرهم سيكون كما أخبر وكذلك كان، وإنما يدعون أن ما جاء به من أخبار الغيب ـ وأهمها البعث والجزاء ـ كذب غير مطابق للواقع، ولا يقتضي ذلك أن يكون هو الذي افتراه، فإن التكذيب قد يكون لكلام دون المتكلم الناقل، ولكن هذا النفي يصدق على بعض المشركين لا على جميعهم كما يأتي.

٧. ذكر الرازي في نفي التكذيب والإكذاب مع إثبات الجحود أربعة أوجه:

أ. أنهم ما كانوا يكذبونه ﷺ في السر، ولكنهم كانوا يكذبونه في العلانية ويجحدون القرآن والنبوة.

ب. أنهم لا يقولون له: إنك كذاب؛ لأنهم جربوه الدهر الطويل فلم يكذب فيه قط، ولكنهم جحدوا صحة النبوة والرسالة، واعتقدوا أنه تخيل أنه نبي وصدق ما تخيله فدعا إليه.

ج. أنهم لما أصروا على التكذيب مع ظهور المعجزات القاهرة على وفق دعواه ـ كان تكذيبهم تكذيبا لآيات الله المؤيدة له أو تكذيبا له سبحانه وتعالى، قال: فالله تعالى قال له: إن القوم ما كذبوك ولكن كذبوني، أي على معنى أن تكذيب الرسول كتكذيب المرسل المصدق له بتأييده، وذكر أنه على حد ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَّ﴾ ومثله ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَّ رَمَى﴾، قال ـ وهو كلام خطر بالبال ـ: إن المراد أنهم لا يخصونك بهذا التكذيب، بل ينكرون دلالة المعجزة على الصدق مطلقا، ويقولون في كل معجزة: إنها سحر، فكان التقدير أنهم لا يكذبونك على التعيين، ولكن يكذبون جميع الأنبياء والرسل.

٨. انتهى ملخصا بالمعنى غالبا وفيه قصور، وسكت عن أقوال أخرى قديمة:

أ. منها: قول بعضهم: فإنهم لا يكذبونك فيما وافق كتبهم، وإن كذبوك في غيرهن، وهو أضعف ما قيل؛ لأن الكلام في مشركي مكة ولا كتب عندهم.

ب. ومنها: قول بعضهم: فإنهم لا يتفقون على تكذيبك، ولكن يكذبك الظالمون منهم الذين يجحدون بآيات الله

ج. ومنها: أن المعنى: فإنهم لا يعتقدون كذبك، ولا يتهمونك به، ولكنهم يجحدون بالآيات لظلمهم لأنفسهم، وهذا أقواها كما ترى.

٩. تقدم أن المختار عندنا هو أن المراد هنا بما يحزنه ﷺ من قولهم ما تقدم في أوائل السورة من قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ وما في معناه، ويوضحه ما روي في موضوع الآية ونزولها، وهو المتبادر من النظم الكريم ـ فالكلام إذا في طائفة الجاحدين كبرا وعنادا كأبي جهل والأخنس وأضرابهما، وهؤلاء لم يكونوا يعتقدون كذب النبي ﷺ ولا يمكن أن يجدوه كاذبا في خبر يخبرهم به في المستقبل، كما أنهم لم يجدوه كاذبا في يوم من أيامه الماضية، بل عصمته من الكذب في المستقبل أظهر وأولى، ولكنهم ـ لظلمهم أنفسهم بالكبر والاستعلاء ـ يجحدون بآيات الله الدالة على نبوته ورسالته بمثل زعمهم أن القرآن نفسه سحر يؤثر، وهم لم يكونوا يعتقدون ذلك، وإنما يريدون صد العرب عنه، وأما إذا جعلت الآية عامة وأريد بما يحزنه ﷺ ما كان يقوله المشركون من ضروب الأقوال في إنكار التوحيد والبعث والنبوة وسائر مسائل الدين، ففي هذه الحالة يظهر اتجاه غير واحد من تلك الأقوال المنقولة بصدق بعضها على أناس وبعضها على آخرين، فإن نفي التكذيب إنما يصدق على بعضهم كالجاحدين المعاندين دون جمهور الضالين الجاهلين، وإنما كان الجحود من الرؤساء المستكبرين ظلما وعنادا على علم ومن المقلدين جهلا واحتقارا منهم لأنفسهم بترك النظر وغلوا في ثقتهم بكبرائهم وآبائهم ولا شك في أن بعض المشركين كان يكذب النبي ﷺ تكذيب الافتراء عن اعتقاد أو غير اعتقاد، قال تعالى في (سورة الفرقان): ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان: ٤] إلى قوله: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ولم تكن كل العرب تعرف من سيرته وصدقه ﷺ ـ ما كان يعرفه معاشروه من قريش، وسيأتي التصريح بتكذيبهم إياه في جمل شرطية من هذه السورة وغيرها كالشواهد التي تراها في تفسير الآية التالية.

١٠. ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا﴾ أكد الله تعالى لرسوله ﷺ بصيغة القسم أن الرسل الذين أرسلوا قبله قد كذبتهم أقوامهم فصبروا على تكذيبهم وإيذائهم لهم إلى أن نصرهم الله تعالى عليهم، أي: فإن كذبت فلك أسوة بمن قبلك، فلست بدعا من الرسل، وقد صرح بالشرطية في آيات أخرى كقوله تعالى في (سورة الحج): ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾، وقوله في (سورة فاطر): ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾، ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾

١١. والآية تسلية للرسول ﷺ بعد تسلية، وإرشاد له إلى سنته تعالى في الرسل والأمم أو هي تذكير بهذه السنة، وما تتضمنه من حسن الأسوة، إذ لم تكن هذه الآية أول ما نزل في هذا المعنى، وقد صرح بوجوب هذا الصبر عليه تأسيا في قوله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ واستقلالا في آيات كثيرة منها ما نزل قبل هذه السورة كقوله تعالى في (سورة المزمل): ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ وقد ثبت بالتجارب أن التأسي يهون المصاب ويفيد شيئا من السلوة، قالت الخنساء:

ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكون مثل أخي ولكن ... أعزي النفس عنه بالتأسي

١٢. ولولا أن دفع الأسى بالأسى من مقتضى الطبع البشري لما ظهرت حكمة تكرار التسلية بأمثال هذه الآية، فإن النبي ﷺ كان يتلو القرآن في الصلاة ولا سيما صلاة الليل، فربما يقرأ السورة ولا يعود إليها بعد أيام يفرغ فيها من قراءة ما نزل من سائر السور، فاحتيج إلى تكرار تسليته وأمره بالصبر المرة بعد المرة؛ لأن الحزن والأسف اللذين كانا يعرضان له ﷺ من شأنهما أن يتكررا بتكرر سببهما وبتذكره حتى عند تلاوة الآيات الواردة في بيان حال الكفار ومحاجتهم وإنذارهم.

١٣. (ما) في قوله تعالى: ﴿عَلَى مَا كُذِّبُوا﴾ مصدرية ﴿وَأُوذُوا﴾ عطف على ﴿كَذَّبُوا﴾ أي فصبروا على تكذيب أقوامهم لهم وإيذائهم إياهم، والإيذاء فعل الأذى، وهو ما يؤلم النفس أو البدن من قول أو فعل، وقد أوذي الرسول ﷺ بضروب من الإيذاء كما أوذي الرسل قبله، آذاه المشركون في مكة بأقوالهم وأفعالهم، واليهود والمنافقون في المدينة بقدر استطاعتهم.

١٤. قوله تعالى: ﴿حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ غاية للصبر، أي: صبروا على التكذيب وما قارنه من

الإيذاء إلى أن جاءهم نصرنا العظيم بالانتقام من أقوامهم، وإنجائنا إياهم هم ومن آمن معهم من أذاهم وكيدهم، وفيه بشارة للرسول مؤكدة للتسلية بأنه سينصره على المكذبين الظالمين من قومه، وعلى كل من يكذبه ويؤذيه من أمة البعثة، وإيماء إلى حسن عاقبة الصبر، فمن كان أصبر كان أجدر بالنصر إذا تساوت بين الخصمين سائر أسباب الغلب والقهر، وإضافة النصر إلى ضمير العظمة العائد على العزيز القدير تشعر بعظمة شأنه، وتشير إلى كونه من الآيات المؤيدة لرسله.

١٥. ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ في وعده ووعيده التي منها وعده للرسل بالنصر، وتوعده لأعدائهم بالغلب والخذلان، ولا في غير ذلك من الشرائع والسنن التي اقتضتها الحكمة، والمراد من هذه الكلمات هنا قوله في (سورة الصافات): ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾، اقرأ الآيات إلى آخر السورة، فنفي جنس المبدل لكلمات الله مثبت لكلمته في نصر المرسلين بالدليل، أي إن ذلك النصر قد سبقت به كلمة الله وكلمات الله لا يمكن أن يبدلها مبدل، فنصر الرسل حتم لا بد منه، وكلمات الله جنس يشمل كلمات الأخبار وإنشاء الأحكام كما سيأتي في تفسير ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ من هذه السورة، وإضافة الكلمات هنا إلى الاسم الأجل الأعظم تشعر بعلة القطع بأنه لا مبدل لها؛ لأن المبدل لكلمات غيره لا بد أن تكون قدرته فوق قدرته، وسلطانه أعلى من سلطانه.

١٦. والتبديل عبارة عن جعل شيء بدلا من شيء آخر وتبديل الأقوال والكلمات نوعان: تبديل ذاتها بجعل قول مكان قول، وكلمة مكان كلمة، ومنه ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ وتبديل مدلولها ومضمونها كمنع نفوذ الوعد والوعيد أو وقوعه على خلاف القول الذي سبق، والمتكلمون الذين يجوزون إخلاف الوعيد يقولون: إن لله أن يبدل ما شاء من كلماته، وإنما يستحيل ذلك على غيره، وتبديله إياها لا يشمله النفي في الآية، فإن قيل لهم: قد يشمله ما هو أعم منه في هذا المعنى كقوله تعالى في (سورة ق): ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ قالوا: إن النصوص الواردة في العفو تخصص العام من نصوص الوعيد، أو: لا نسلم أن العفو عن بعض المذنبين من قبيل التبديل، وسيأتي بسط هذا البحث في موضع آخر.

١٧. ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ هذا تقرير وتأكيد لما قبله، أي: ولقد جاءك بعض نبأ المرسلين

في ذلك، أو: ولقد جاءك ما ذكر أو ذلك الذي أشير إليه من خبر التكذيب والصبر والنصر من نبأ المرسلين الذي قصصناه عليك من قبل، والنبأ الخبر أو ذو الشأن من الأخبار لا كل خبر، وقد روي أن الأنعام نزلت بعد الشعراء والنمل والقصص وهود والحجر المشتملة على نبأ المرسلين بالتفصيل.

١٨. ومن العبرة في الآية أن الله تعالى وعد المؤمنين ما وعد المرسلين من النصر، فقال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾، وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهي نص في تعليل النصر بالإيمان، ولكننا نرى كثيرا من الذين يدعون الإيمان في هذه القرون الأخيرة غير منصورين، فلا بد أن يكونوا في دعوى الإيمان غير صادقين، أو يكونوا ظالمين غير مظلومين، ولأهوائهم لا لله ناصرين، ولسننه في أسباب النصر غير متبعين، وإن الله لا يخلف وعده ولا يبطل سننه، وإنما ينصر المؤمن الصادق وهو من يقصد نصر الله وإعلاء كلمته، ويتحرى الحق والعدل في حربه لا الظالم الباغي على ذي الحق والعدل من خلقه، يدل على ذلك أول ما نزل في شرع القتال قوله تعالى من (سورة الحج): ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، فأما الرسل الذين نصرهم الله ومن معهم فقد كانوا كلهم مظلومين، وبالحق والعدل معتصمين، ولله ناصرين، وقد اشترط مثل ذلك في نصر سائر المؤمنين، فقال في (سورة القتال): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧)﴾ والإيمان سبب حقيقي من أسباب النصر المعنوية، يكون مرجحا بين من تساوت أسبابهم الأخرى، فليس النصر به من خوارق العادات، وأما تأييد الله تعالى للرسل بإهلاك أقوامهم المعاندين فهو أمر آخر زائد على تأثير الإيمان في الثبات والصبر، والاتكال على الله تعالى عند اشتداد البأس وعروض أسباب اليأس، ومن كان حظه من صفات الإيمان ولوازمه أكبر كان إلى نيل النصر أقرب إذا كان مساويا لخصمه في سائر أسباب القتال ولا سيما حسن النظام وجودة السلاح، وقد سبق لنا كلام في هذه المسألة في مواضع من التفسير وغيره.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١ . نزلت هذه السورة في دعوة مشركي مكة إلى الإسلام ومحاجتهم في التوحيد والنبوة والبعث، وكثر فيها حكاية أقوالهم بلفظ ﴿وَقَالُوا﴾ ﴿وَقَالُوا﴾ نحو: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾، ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ إلى نحو ذلك ـ وتلقين الرسول ﷺ الرد عليهم مع إقامة الحجة والبرهان بلفظ ﴿قُلْ﴾ ﴿قُلْ﴾ نحو: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

٢ . بعد هذا الحجاج كله ذكر في هذه الآيات تأثير كفرهم في نفس النبي ﷺ وحزنه مما يقولون في نبوته وما يراه منهم من الإعراض عن دعوته، وسلاه على ذلك ببيان سنته سبحانه في الرسل مع أقوامهم وأن كثيرا منهم كذبوا فصبروا حتى جاءهم النصر المبين، وخذل الله أعداءهم الكافرين، روى ابن جرير عن السدّى أن الأخنس بن شريق وأبا جهل التقيا، فقال الأخنس لأبى جهل: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد: أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هاهنا أحد يسمع كلامك غيرى، قال أبو جهل: والله إن محمدا لصادق وما كذب قط، ولكن إذا ذهب بنو قصيّ باللواء والسقاية والحجابة والنّدوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش؟ فأنزل الله هذه الآية.

٣ . ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ القول الذي يحزنه منهم هو ما كانوا يقولونه فيه وفى دعوته ونبوته من تكذيب وطعن وتنفير للعرب منه، قال ابن كثير: يقول تعالى مسليا لنبيه ﷺ في تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه قد أحطنا علما بتكذيبهم لك وحزنك وأسفك عليهم كما جاء في قوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ ووفى قوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾

٤ . ثم بين أن هذا التكذيب منشؤه العناد والجحود لإخفاء الدليل فقال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي لا يتهمونك بالكذب في نفس الأمر، ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدودهم، روى سفيان الثوري عن على قال: قال أبو جهل للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به، فأنزل الله ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾، وروى ابن أبي

---

(١) تفسير المراغي ٧/ ١١٠.

حاتم عن أبي يزيد المدني أن النبي ﷺ لقى أبا جهل فصافحه، فقال له رجل: ألا أراك تصافح هذا الصابئ؟ فقال: والله إني لأعلم إنه لنبي ولكن متى كنا لبنى عبد مناف تبعا؟ وتلا أبو يزيد: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾

٥. والخلاصة ـ إنهم لا ينسبون النبي ﷺ إلى افتراء الكذب، ولا يجدونه كاذبا في خبر يخبر به بأن يتبين أنه غير مطابق للواقع، وإنما يدّعون أنّ ما جاء به من أخبار الغيب التي من أهمها البعث والجزاء كذب غير مطابق للواقع، ولا يقتضى ذلك أن يكون هو الذي افتراه، فإن التكذيب قد يكون للكلام دون المتكلم الناقل له.

٦. ثم لفت نظر رسوله لأن يقتدى بالرسل قبله في الصبر على التكذيب فقال: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ أي إن الرسل الذين أرسلوا قبلك، قد كذبتهم أقوامهم فصبروا على تكذيبهم وإيذائهم لهم إلى أن نصر الله الرسل بالانتقام من أعدائهم المكذبين لهم، ونظير هذه الآية قوله: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾، وقوله: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ الآية.

٧. وفى الآية تسلية للرسول ﷺ بعد تسلية، وإرشاد له إلى سننه تعالى في الرسل والأمم، وقد صرح بوجوب الصبر على هذا الإيذاء في قوله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾، وقوله: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾

٨. وقد دلت التجارب على أن التأسي يهوّن المصاب ويفيد شيئا من السلوى، ومن هذا تعلم حكمة تكرار التسلية بأمثال هذه الآية مع الأمر بالصبر المرة بعد المرة، لأن الحزن والأسف اللذين كانا يعرضان له ﷺ من شأنهما أن يتكررا بتكرر سببهما وبتذكره.

٩. وفى الآية بشارة للرسول ﷺ مؤكدة للتسلية بأن الله سينصره على المكذبين الظالمين من قومه، وعلى كل من يكذبه ويؤذيه من أمة الدعوة، كما أن فيها إيماء إلى حسن عاقبة الصبر، فمن كان أصبر كان حقيقا بالنصر إذا تساوت بين الخصمين وسائل الغلب والقهر.

١٠. ثم أكد هذا النصر بقوله: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾ أي إن ذلك النصر قد سبقت به كلمة الله، في مثل قوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾

وكلمات الله لا يمكن أن يبدّلها مبدّل، فنصر الرسل حتم لا بد منه، والتبديل جعل شيء بدلا من شيء آخر، وتبديل الكلمات والأقوال نوعان:

أ. تبديل ذاتها بجعل قول مكان قول وكلمة مكان أخرى، ومن هذا قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾

ب. تبديل مدلولها ومضمونها كمنع نفاذ الوعد والوعيد أو وقوعه على خلاف القول الذي سبق.

١١. ثم أكد سبحانه عدم التبديل بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي ولقد جاءك ذلك الذي أشير إليه من خبر التكذيب والصبر والنصر من نبأ المرسلين الذي قصصناه عليك من قبل؛ فقد روى أن سورة الأنعام نزلت بين سور الشعراء والنمل والقصص وهود والحجر المشتملة على نبأ المرسلين بالتفصيل.

١٢. وكما وعد الله رسله بالنصر وعد المؤمنين به نحو قوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ وفى قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فما بالنا نرى كثيرا ممن يدّعون الإيمان في هذا الزمان غير منصورين، فلا بد إذا من أن يكونوا في إيمانهم غير صادقين، ولأهوائهم متبعين، ولسنته في أسباب النصر جاهلين، فالله لا يخلف وعده ولا يبطل سننه، بل ينصر المؤمن الصادق الذي يتحرّى الحق والعدل في حربه لا الظالم الباغي من خلقه، والذي يقصد إعلاء كلمة الله ونصر دينه كما جاء في قوله: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. في هذه الموجة من موجات السياق المتدفق في السورة، يتجه الحديث إلى رسول الله ﷺ يطيب الله سبحانه خاطره في أوله، مما يلاقيه من تكذيب قومه له، وهو الصادق الأمين، فإنهم لا يظنون به الكذب، إنما هم مصرون على الجحود بآيات الله وعدم الاعتراف بها وعدم الإيمان لأمر آخر غير ظنهم به الكذب!

---

(١) في ظلال القرآن: ٢، ص: ١٠٧٤.

كما يواسيه بما وقع لإخوانه الرسل قبله من التكذيب والأذى، وما وقع منهم من الصبر والاحتمال، ثم ما انتهى إليه أمرهم من نصر الله لهم، وفق سنته التي لا تتبدل.

٢. حتى إذا انتهى من المواساة والتسرية والتطمين، التفت إلى النبي ﷺ يقرر له الحقيقة الكبرى في شأن هذه الدعوة.. إنها تجري بقدر الله وفق سنته، وليس للداعية فيها إلا التبليغ والبيان.. إن الله هو الذي يتصرف في الأمر كله، فليس على الداعية إلا أن يمضي وفق هذا الأمر، لا يستعجل خطوة ولا يقترح على الله شيئا، حتى ولو كان هو النبي الرسول! ولا يستمع إلى مقترحات المكذبين ـ ولا الناس عامة ـ في منهج الدعوة، ولا في اقتراح براهين وآيات معينة عليه.. والأحياء الذين يسمعون سيستجيبون، أما موتى القلوب فهم موتى لا يستجيبون، والأمر إلى الله إن شاء أحياهم وإن شاء أبقاهم موتى حتى يرجعوا إليه يوم القيامة.

٣. وهم يطلبون آية خارقة على نحو ما كان يقع للأقوام من قبلهم، والله قادر على أن ينزل آية، ولكنه سبحانه لا يريد ـ لحكمة يراها ـ فإذا كبر على الرسول إعراضهم فليحاول هو إذن بجهده البشري أن يأتيهم بآية!..

٤. إن الله سبحانه هو خالق الخلائق جميعا، وعنده أسرار خلقهم، وحكمة اختلاف خصائصهم وطباعهم، وهو يترك المكذبين من البشر صما وبكما في الظلمات، ويضل من يشاء ويهدي من يشاء وفق ما يعلمه من حكمة الخلق والتنويع..

٥. ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾، إن مشركي العرب في جاهليتهم ـ وخاصة تلك الطبقة التي كانت تتصدى للدعوة من قريش ـ لم يكونوا يشكون في صدق محمد ﷺ فلقد عرفوه صادقا أمينا، ولم يعلموا عنه كذبة واحدة في حياته الطويلة بينهم قبل الرسالة، كذلك لم تكن تلك الطبقة التي تتزعم المعارضة لدعوته تشك في صدق رسالته، وفي أن هذا القرآن ليس من كلام البشر، ولا يملك البشر أن يأتوا بمثله.. ولكنهم ـ على الرغم من ذلك ـ كانوا يرفضون إظهار التصديق، ويرفضون الدخول في الدين الجديد! إنهم لم يرفضوا لأنهم يكذبون النبي ﷺ ولكن لأن في دعوته خطرا على نفوذهم ومكانتهم.. وهذا هو السبب الذي من أجله قرروا الجحود بآيات الله، والبقاء على الشرك الذي كانوا فيه.

٦. والأخبار التي تقرر الأسباب الحقيقية لموقف قريش هذا وحقيقة ظنهم بهذا القرآن كثيرة:

أ. قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري: أنه حُدِّث، أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي، حليف بني زهرة، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الصبح تفرقوا، فجمعهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائهم لأوقعتم في نفسه شيئا، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك.. ثم تفرقوا.. فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها، وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها، قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به، ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه في بيته، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال ماذا سمعت؟ قال تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف.. أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه! قال فقام عنه الأخنس وتركه..

ب. وروى ابن جرير ـ من طريق أسباط عن السدي ـ في قوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾، لما كان يوم بدر، قال الأخنس بن شريق لبني زهرة: يا بني زهرة إن محمدا ابن أختكم، فأنتم أحق من ذب عن ابن أخته، فإن كان نبيا لم تقاتلوه اليوم، وإن كان كاذبا كنتم أحق من كف عن ابن أخته، قفوا حتى ألقى أبا الحكم، فإن غلب محمد رجعتم سالمين، وإن غلب محمد فإن قومكم لن يصنعوا بكم شيئا ـ فيومئذ سمي الأخنس وكان اسمه أبي ـ فالتقى الأخنس بأبي جهل، فخلا به، فقال: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد: أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هاهنا من قريش

غيري وغيرك يستمع كلامنا! فقال أبو جهل: ويحك! والله إن محمدا لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابة والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟ فذلك قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾

٧. ونلاحظ: أن السورة مكية، وهذه الآية مكية لا شك في ذلك؛ بينما الحادثة المذكورة كانت في المدينة يوم بدر.. ولكن إذا عرفنا أنهم كانوا يقولون أحيانا عن آية ما: (فذلك قوله: كذا..) ويقرنون إليها حادثا ما لا للنص على أنها نزلت بسبب الحادث الذي يذكرونه؛ ولكن بسبب انطباق مدلولها على الحادث، بغض النظر عما إذا كان سابقا أو لاحقا.. فإننا لا نستغرب هذه الرواية[1].

٨. فهذه الروايات كلها تبين أن هؤلاء المكذبين لم يكونوا يعتقدون أن رسول الله ﷺ يكذبهم فيما يبلغه لهم، وإنما هم كانوا مصرين على شركهم لمثل هذه الأسباب التي وردت بها الروايات، وما وراءها من السبب الرئيسي، وهو ما يتوقعونه من وراء هذه الدعوة من سلب السلطان المغتصب، الذي يزاولونه، وهو سلطان الله وحده، كما هو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله التي يقوم عليها الإسلام، وهم كانوا يعرفون جيدا مدلولات لغتهم؛ وكانوا لا يريدون أن يسلموا بمدلول هذه الشهادة، وهو إنما يمثل ثورة كاملة على كل سلطان غير سلطان الله في حياة العباد.. وصدق الله العظيم: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾، والظالمون في هذا الموضع هم المشركون، كما يغلب في التعبير القرآني الكريم.

٩. ويستطرد من تطييب خاطر الرسول ﷺ وبيان الأسباب الحقيقية لموقف المكذبين منه ومن دعوته، ومن آيات الله الناطقة بصدقه وصدق ما جاء به.. يستطرد من هذا إلى تذكيره بما وقع لإخوانه الرسل قبله ـ وقد جاءه من أخبارهم في هذا القرآن ـ ثم ما كان منهم من الصبر والمضي في الطريق، حتى جاءهم نصر الله، ليقرر أن هذه هي سنة الدعوات التي لا تتبدل، ولا يغير منها اقتراحات المقترحين، كما أنها لا تستعجل مهما ينزل بالدعاة من الأذى والتكذيب والضيق: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾

---

(١) ذكر هنا بعض الآثار، التي سبق ذكرها.

١٠. إن موكب الدعوة إلى الله موغل في القدم، ضارب في شعاب الزمن، ماض في الطريق اللاحب، ماض في الخط الواصب.. مستقيم الخطى، ثابت الأقدام، يعترض طريقه المجرمون من كل قبيل، ويقاومه التابعون من الضالين والمتبوعون، ويصيب الأذى من يصيب من الدعاة، وتسيل الدماء وتتمزق الأشلاء.. والموكب في طريقه لا ينحني ولا ينثني ولا ينكص ولا يحيد.. والعاقبة هي العاقبة، مهما طال الزمن ومهما طال الطريق.. إن نصر الله دائما في نهاية الطريق: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ الله وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾

١١. كلمات يقولها الله سبحانه لرسوله ﷺ.. كلمات للذكرى، وللتسرية وللمواساة، والتأسية.. وهي ترسم للدعاة إلى الله من بعد رسول الله ﷺ طريقهم واضحا، ودورهم محددا، كما ترسم لهم متاعب الطريق وعقباته، ثم ما ينتظرهم بعد ذلك كله في نهاية الطريق.. إنها تعلمهم أن سنة الله في الدعوات واحدة، كما أنها كذلك وحدة، وحدة لا تتجزأ.. دعوة تتلقاها الكثرة بالتكذيب، وتتلقى أصحابها بالأذى.. وصبر من الدعاة على التكذيب وصبر كذلك على الأذى.. وسنة تجري بالنصر في النهاية.. ولكنها تجيء في موعدها، لا يعجلها عن هذا الموعد أن الدعاة الأبرياء الطيبين المخلصين يتلقون الأذى والتكذيب، ولا أن المجرمين الضالين والمضلين يقدرون على أذى المخلصين الأبرياء الطيبين! ولا يعجلها كذلك عن موعدها أن صاحب الدعوة المخلص المتجرد من ذاته ومن شهواته إنما يرغب في هداية قومه حبا في هدايتهم، ويأسى على ما هم فيه من ضلال وشقوة، وعلى ما ينتظرهم من دمار وعذاب في الدنيا والآخرة.. لا يعجلها عن موعدها شيء من ذلك كله، فإن الله لا يعجل لعجلة أحد من خلقه، ولا مبدل لكلماته، سواء تعلقت هذه الكلمات بالنصر المحتوم، أم تعلقت بالأجل المرسوم، إنه الجد الصارم، والحسم الجازم، إلى جانب التطمين والتسرية والمواساة والتسلية..

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بعد أن عرض الله للنبيّ ﷺ هذا العرض الكاشف للمشركين، وما يلقون في موقف الحساب

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/ ١٥٩.

من خزى وهوان، وما يذوقون في جهنم من نكال وعذاب ـ بعد هذا العرض الذي يرى فيه النبيّ عاقبة المكذبين به ـ يلقى الله سبحانه النبيّ الكريم بهذه المواساة الكريمة، وهذا العزاء الجميل، لما يلقاه من قومه من تكذيب له، واستهزاء به.

٢. في قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ استجابة لشكاة النبيّ قبل أن يشكو، وفي هذا تطمين لقلبه، وتثبيت لقدمه، وأن الله يرعاه، ويعلم ما يجد في نفسه من حزن وألم، لما يرميه به قومه من باطل القول، وزور الكلم.. وهم يعلمون أنه الإنسان الذي لا يكذب أبدا..

٣. في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ ردّ اعتبار للنبيّ عند هؤلاء الذين اتهموه بالكذب زورا وبهتانا.. وقد كشف الله ما في نفوسهم عن النبي ورأيهم فيه.. فهم في دخيلة أنفسهم لا يكذبون (محمدا).. إنهم يعلمون عن يقين أنه ما قال ولن يقول كلمة الكذب، بل هو عندهم فوق مستوى الشبهة فيما يشين الناس، وينزل من قدرهم.

٤. ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾.. إنهم لظلمهم، وعنادهم يرون الحق ويستيقنونه، ثم لا تطاوعهم أنفسهم على الإقرار به، والولاء له.. ولو جاءتهم كل آية لا يؤمنون بها.. وهكذا يفعل العناد بأهله، ويقطع عليهم الطريق إلى الحق والهدى، ويحجزهم عنه الخير والفلاح.

٥. في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ تهديد ووعيد لهؤلاء المشركين.. إنهم لا يكذبون محمدا ولكنّهم يكذبون بآيات الله التي بين يديه.. فانظر كيف هذا التناقض العجيب منهم.. يؤمنون بمحمد وبصدقه كإنسان، ويأخذون شهادته على كل ما يقول فيما هو من شئون دنياهم.. فإذا جاءهم بآيات ناطقة من عند الله، وقال لهم إنها كلام الله، وأنه رسول الله بها إليهم، أنكروا عليه هذا القول بنسبتها إلى الله، وقالوا: إنها سحر ساحر، وتلقيات ممسوس! ولو عقلوا لما وجدوا لهذا القول مستندا من عقل أو منطق.. إذ كيف لا يتّهم إنسان بالكذب في حال، ثم يتهم به في حال أخرى؟ إن الإنسان وحدة متكاملة، في خلقه، فإمّا أن يكون صادقا لا يكذب، وإما أن يكون ممن لا يتحرّى الصدق في كلّ قول.. وقد عرفوا (محمدا) أنه صادق على وجه واحد، مدة حياته معهم، من مولده إلى مبعثه.. لم تجرب عليه كذبة قط.. فكيف يكذب بعد الأربعين؟ وكيف يكذب أشنع الكذب، وأفحشه، بتلك الدعوى التي يدعيها على الله ربّ العالمين؟ ذلك محال، بل وأكثر من محال، لأن شواهد الصّدق ودلائله ناطقة في كلام الله،

مستغنية عن صدق من يجيء إلى الناس بها ويعرضهم عليها.. فكيف إذا كان من يجيئهم بها ويعرضها عليهم، غير متّهم بكذب، أو مجرب عليه شهادة زور عندهم؟

٦. ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ هو عزاء بعد عزاء للنبيّ الكريم، ورحمات من ربّ رحيم تتنزّل عليه، وهو في مواجهة هذا العناد والعنت الذي يلقاه من قومه.. وفي هذا العزاء يرى النبي ﷺ مشاهد كثيرة لهذا المشهد الذي يعيش فيه.. فهناك رسل كثيرون من رسل الله قد كذّبوا من أقوامهم، وأوذوا في أنفسهم من سفهاء قومهم، ولكنهم اعتصموا بالصبر، واحتملوا الأذى في سبيل الرسالة الكريمة التي شرّفهم الله بها:

أ. فهذا نوح عليه السلام ـ يلقاه قومه بالنكير والاستهزاء، ويلاحقونه بالأذى والضرّ ـ وفي هذا يقول الله على لسانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هود: ٣٥]، وقد أخذهم الله بهذا المنكر.. فأغرقهم ونجّى نوحا ومن معه: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾ [الشعراء: ١١٩ ـ ١٢٠]

ب. وهذا هود عليه السلام يلقى قومه داعيا إلى الله، مبشرا ومنذرا بآياته، فتكون قولتهم له: ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٣ ـ ٥٤].. ثم كانت عاقبتهم عاقبة كل ظالم.. فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦ ـ ٨]

ج. وهكذا كان الشأن مع صالح، ولوط، ومع كلّ نبي أعنته قومه، وكذبوا بآيات الله التي بين يديه.. النجاة والسلامة للنبيّ والمؤمنين به، والهلاك والدّمار لمن كذبوا به، وبآيات ربه..

٧. وفي هذا أسوة للنبيّ وللمؤمنين معه.. فليحتمل الأذى، وليصبر على الضرّ، وليحتمل المؤمنون الأذى وليصبروا على الضرّ، فإنّ العاقبة له ولهم، وإن النصر للحق ولمن ينصرون الحق.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾ فتلك هي سنّة في الذين خلوا، ولن تتخلّف آثارها في حاضر أو مستقبل.. فإن أحكام الله لا تنقض وكلماته لن تتبدّل..

٨. ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ تذكير للنبيّ بما قصّ الله سبحانه عليه من قصص الأولين،

فليعد النبيّ إلى هذا القصص، ولينظر إلى ما فيه من عبر وعظات.. والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]، ويقول: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾، الخطاب للنبي ﷺ، وقد للتحقيق، ونعلم بمعنى علمنا، وضمير يقولون راجع إلى الذين كذبوا النبي ﷺ، أما الذي يقولون، بل قالوه بالفعل فهو ما أشار اليه سبحانه في الآية ١٤ من الدخان: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾، والآية ٢ من يونس: ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

٢. ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾، كل من حارب محقا، لأنه على حق فقد حارب الحق بالذات، وكل من استخف برسول، لأنه يحمل رسالة المرسل فقد استخف بمن أرسله، لا بشخص الرسول.. وكان مشركو مكة يسمون محمدا ﷺ الصادق الأمين قبل الرسالة، ولما جاءهم برسالة الله، وأقام عليهم الحجة تصدوا لحربه، وقالوا: ساحر مجنون.. فتكذيبهم له، والحال هذه، تكذيب لرسالة الله وآياته، ولا شيء أدل على ذلك من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح.

٣. ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾، يقول سبحانه لنبيه: أن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك، وأوذوا في سبيل رسالته، فصبروا على الإيذاء، حتى أتاهم النصر، فاصبر أنت كما صبروا، والله ينصرك كما نصرهم.

٤. هذا هو المحور الذي تدور عليه الحياة، صراع بين الخير والشر، والحق والباطل، ومحال أن يناصر الحق مناصر، ولا يلقى الأذى من أعداء الحق.. وأيضا لا ينتصر الحق إلا إذا وجد أنصارا يصبرون على الجهاد في سبيله، ويدفعون ثمنه من أنفسهم وأهلهم وأموالهم، سنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلا،

(١) التفسير الكاشف: ٣/ ١٨٢.

وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾

٥. ولا أعرف عصرا بلغ فيه المبطلون من القوة كهذا العصر الذي نعيش فيه، فقد أقاموا في كل بقعة قواعد للحرب، وأوكارا للتخريب، وتسلحوا بأشد الأسلحة فتكا، وأكثرها دمارا، وسيطروا على مقدرات الشعوب المستضعفة، والبنوك والمصارف، والصحف والمطابع، ودور النشر والتوزيع إلا ما ندر، حتى وجد المخلص الأمين نفسه معزولا منبوذا لا يستطيع أن ينشر مقالا حرا، أو يذيع من وسائل الاذاعة كلمة حق، أما الخائن فأين اتجه يجد الترحيب والإكبار.

٦. ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾، أي لقد قصصنا عليك من قبل ما لاقى الأنبياء من أقوامهم، وكيف صبروا على التكذيب والأذى، وأن النصر في النهاية كان لهم على المكذبين، وهذه السنة تجري عليك، تماما كما جرت عليهم.. ولا مبدل لكلمات الله.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ استئناف ابتدائي قصدت به تسلية الرسول ﷺ وأمره بالصبر، ووعده بالنصر، وتأييسه من إيمان المتغالين في الكفر، ووعده بإيمان فرق منهم بقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ إلى قوله ﴿يَسْمَعُونَ﴾ وقد تهيّأالمقام لهذا الغرض بعد الفراغ من محاجّة المشركين في إبطال شركهم وإبطال إنكارهم رسالة محمد ﷺ، والفراغ من وعيدهم وفضيحة مكابرتهم ابتداء من قوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٤] إلى هنا.

٢. ﴿قَدْ﴾ تحقيق للخبر الفعلي، فهو في تحقيق الجملة الفعلية بمنزلة (إنّ) في تحقيق الجملة الاسمية، فحرف (قد) مختصّ بالدخول على الأفعال المتصرّفة الخبرية المثبتة المجرّدة من ناصب وجازم وحرف تنفيس، ومعنى التحقيق ملازم له، والأصحّ أنّه كذلك سواء كان مدخولها ماضيا أو مضارعا، ولا يختلف معنى (قد) بالنسبة للفعلين، وقد شاع عند كثير من النحويّين أنّ (قد) إذا دخل على المضارع أفاد تقليل

---

(١) التحرير والتنوير: ٦/ ٧٢.

حصول الفعل، وقال بعضهم: إنّه مأخوذ من كلام سيبويه، ومن ظاهر كلام (الكشاف) في هذه الآية، والتحقيق أنّ كلام سيبويه لا يدلّ إلّا على أنّ (قد) يستعمل في الدلالة على التقليل لكن بالقرينة وليست بدلالة أصلية، وهذا هو الذي استخلصته من كلامهم وهو المعوّل عليه عندي، ولذلك فلا فرق بين دخول (قد) على فعل المضي ودخوله على الفعل المضارع في إفادة تحقيق الحصول، كما صرّح به الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ في سورة النور [٦٤]، فالتحقيق يعتبر في الزمن الماضي إن كان الفعل الذي بعد (قد) فعل مضيّ، وفي زمن الحال أو الاستقبال إن كان الفعل بعد (قد) فعلا مضارعا مع ما يضمّ إلى التحقيق من دلالة المقام، مثل تقريب زمن الماضي من الحال في نحو: قد قامت الصلاة، وهو كناية تنشأ عن التعرّض لتحقيق فعل ليس من شأنه أن يشكّ السامع في أنّه يقع، ومثل إفادة التكثير مع المضارع تبعا لما يقتضيه المضارع من الدلالة على التجدّد، كالبيت الذي نسبه سيبويه للهذلي، وحقّق ابن بري أنّه لعبيد بن الأبرص، وهو:

قد أترك القرن مصفرّا أنامله   كأنّ أثوابه مجّت بفرصاد

وبيت زهير:

أخا ثقة لا تهلك الخمر ماله   ولكنّه قد يهلك المال نائله

وإفادة استحضار الصورة، كقول كعب:

لقد أقوم مقاما لو يقوم به   أرى وأسمع ما لو يسمع الفيل
لظلّ يرعد إلّا أن يكون له   من الرسول بإذن الله تنويل

أراد تحقيق حضوره لدى الرسول ﷺ مع استحضار تلك الحالة العجيبة من الوجل المشوب بالرجاء، والتحقيق أنّ كلام سيبويه بريء ممّا حمّلوه، وما نشأ اضطراب كلام النحاة فيه إلّا من فهم ابن مالك لكلام سيبويه، وقد ردّه عليه أبو حيّان ردّا وجيها.

٣. فمعنى الآية علمنا بأنّ الذي يقولونه يحزنك محقّقا فتصبّر، وقد تقدّم لي كلام في هذه المسألة عند قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ في سورة البقرة [١٤٤]، فكان فيه إجمال وأحلت على تفسير آية سورة الأنعام، فهذا الذي استقرّ عليه رأيي.

٤. فعل ﴿نَعْلَمَ﴾ معلّق عن العمل في مفعولين بوجود اللام.

٥. المراد بـ ﴿الَّذِي يَقُولُونَ﴾ أقوالهم الدّالة على عدم تصديقهم الرسول ﷺ، كما دلّ عليه قوله بعده ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾ [الأنعام: ٣٤]، فعدل عن ذكر اسم التكذيب ونحوه إلى اسم الموصول وصلته تنزيها للرسول ﷺ عن ذكر هذا اللفظ الشنيع في جانبه تلطّفا معه.

٦. ﴿لَيَحْزُنُكَ﴾ يقال: أحزنت الرجل ـ بهمزة تعدية لفعل حزن، ويقال: حزنته أيضا، وعن الخليل: أنّ حزنته، معناه جعلت فيه حزنا كما يقال: دهنته، وأمّا التعدية فليست إلّا بالهمزة، قال أبو علي الفارسي: حزنت الرجل، أكثر استعمالا، وأحزنته، أقيس.

٧. ﴿الَّذِي يَقُولُونَ﴾ هو قولهم ساحر، مجنون، كاذب، شاعر، فعدل عن تفصيل قولهم إلى إجماله إيجازا أو تحاشيا عن التصريح به في جانب المنزّه عنه.

٨. الضمير المجعول اسم (إنّ) ضمير الشأن، واللام لام القسم، وفعل ﴿لَيَحْزُنُكَ﴾ فعل القسم، و﴿الَّذِي يَقُولُونَ﴾ فاعله، واللام في ﴿لَيَحْزُنُكَ﴾ لام الابتداء، وجملة ﴿لَيَحْزُنُكَ﴾ خبر إنّ، وضمائر الغيبة راجعة إلى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾

٩. الفاء في قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ يجوز أن تكون للتعليل، والمعلّل محذوف دلّ عليه قوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ﴾، أي فلا تحزن فإنّهم لا يكذبونك، أي لأنّهم لا يكذبونك، ويجوز كونها للفصيحة، والتقدير: فإن كان يحزنك ذلك لأجل التكذيب فإنّهم لا يكذبونك، فالله قد سلّى رسوله ﷺ بأن أخبره بأنّ المشركين لا يكذبونه ولكنّهم أهل جحود ومكابرة، وكفى بذلك تسلية، ويجوز أن تكون للتفريع على ﴿قَدْ نَعْلَمُ﴾، أي فعلمنا بذلك يتفرّع عليه أنّا نثبّت فؤادك ونشرح صدرك بإعلامك أنّهم لا يكذبونك، وإن نذكّرك بسنة الرسل من قبلك، ونذكّرك بأنّ العاقبة هي نصرك كما سبق في علم الله.

١٠. قراءات ووجوه: قرأ نافع، والكسائي، وأبو جعفر ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾، ـ بسكون الكاف وتخفيف الذال ـ وقرأه الجمهور ـ بفتح الكاف وتشديد الذال ـ، وقد قال بعض أئمة اللغة إنّ أكذب وكذّب بمعنى واحد، أي نسبه إلى الكذب، وقال بعضهم: أكذبه، وجده كاذبا، كما يقال: أحمده، وجده محمودا، وأمّا كذّب ـ بالتشديد ـ فهو لنسبة المفعول إلى الكذب، وعن الكسائي: أنّ أكذبه هو بمعنى كذّب ما جاء به ولم ينسب المفعول إلى الكذب، وأنّ كذّبه هو نسبه إلى الكذب، وهو معنى ما نقل عن الزجّاج معنى كذبته، قلت له: كذبت، ومعنى أكذبته، أريته أنّ ما أتى به كذب.

١١. ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ استدراك لدفع أن يتوهّم من قوله: ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ على قراءة نافع ومن وافقه أنّهم صدّقوا وآمنوا، وعلى قراءة البقية ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أنّهم لم يصدر منهم أصل التكذيب مع أنّ الواقع خلاف ذلك، فاستدرك عليه بأنّهم يجحدون بآيات الله فيظهر حالهم كحال من ينسب الآتي بالآيات إلى الكذب وما هم بمكذّبين في نفوسهم، والجحد والجحود، الإنكار للأمر المعروف، أي الإنكار مع العلم بوقوع ما ينكر، فهو نفي ما يعلم النافي ثبوته، فهو إنكار مكابرة.

١٢. وعدل عن الإضمار إلى قوله: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ ذمّا لهم وإعلاما بأنّ شأن الظالم الجحد بالحجّة، وتسجيلا عليهم بأنّ الظلم سجيّتهم.

١٣. وعدّي ﴿يَجْحَدُونَ﴾ بالباء كما عدّي في قوله: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [النحل: ١٤] لتأكيد تعلّق الجحد بالمجحود، كالباء في قوله تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، وفي قوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقول النابغة:

لك الخير إن وارت بك الأرض واحدا ... وأصبح جدّ الناس يظلع عاثرا

١٤. ثم إنّ الجحد بآيات الله أريد به الجحد بما جاء به الرسول ﷺ من الآيات، وجحدها إنكار أنّها من آيات الله، أي تكذيب الآتي بها في قوله: إنّها من عند الله، فآل ذلك إلى أنّهم يكذّبون الرسول ﷺ فكيف يجمع هذا مع قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ على قراءة الجمهور.

١٥. والذي يستخلص من سياق الآية أنّ المراد فإنّهم لا يعتقدون أنّك كاذب لأنّ الرسول ﷺ معروف عندهم بالصدق وكان يلقّب بينهم بالأمين، وقد قال النضر بن الحارث لمّا تشاورت قريش في شأن الرسول: (يا معشر قريش قد كان محمد فيكم غلاما أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا حتّى إذا رأيتم الشيب في صدغيه قلتم ساحر وقلتم كاهن وقلتم شاعر وقلتم مجنون وو الله ما هو بأولئكم)، ولأنّ الآيات التي جاء بها لا يمتري أحد في أنّها من عند الله، ولأنّ دلائل صدقه بيّنة واضحة ولكنّكم ظالمون، والظالم هو الذي يجري على خلاف الحقّ بدون شبهة، فهم ينكرون الحق مع علمهم بأنّه الحق، وذلك هو الجحود، وقد أخبر الله عنهم بذلك وهو أعلم بسرائرهم، ونظيرها قوله تعالى حكاية عن قوم فرعون ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] فيكون في الآية احتباك، والتقدير: فإنّهم لا يكذّبونك ولا يكذّبون الآيات ولكنّهم يجحدون بالآيات ويجحدون بصدقك، فحذف من كلّ لدلالة الآخر.

١٦. أخرج الترمذي عن ناجية بن كعب التابعي أنّ أبا جهل قال للنبي ﷺ: لا نكذّبك ولكن نكذّب ما جئت به، فأنزل الله ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ﴾، ولا أحسب هذا هو سبب نزول الآية، لأنّ أبا جهل إن كان قد قال ذلك فقد أراد الاستهزاء، كما قال ابن العربي في (العارضة): ذلك أنّه التكذيب بما جاء به تكذيب له لا محالة، فقوله: لا نكذّبك، استهزاء بإطماع التصديق.

١٧. ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا﴾ عطف على جملة ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أو على جملة ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ﴾، ويجوز أن تكون الواو واو الحال من الكلام المحذوف قبل الفاء، أي فلا تحزن، أو إن أحزنك ذلك فإنّهم لا يكذّبونك والحال قد كذّبت رسل من قبلك، والكلام على كلّ تقدير تسلية وتهوين وتكريم بأنّ إساءة أهل الشرك لمحمد ﷺ هي دون ما أساء الأقوام إلى الرسل من قبله؛ فإنّهم كذّبوا بالقول والاعتقاد وأمّا قومه فكذّبوا بالقول فقط، وفي الكلام أيضا تأسّ للرسول بمن قبله من الرسل.

١٨. لام القسم لتأكيد الخبر بتنزيل الرسول ﷺ منزلة من ذهل طويلا عن تكذيب الرسل لأنّه لمّا أحزنه قول قومه فيه كان كمن بعد علمه بذلك، و﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ وصف كاشف لـ ﴿رُسُلٌ﴾ جيء به لتقرير معنى التأسّي بأنّ ذلك سنّة الرسل.

١٩. في موقع هذه الآية بعد التي قبلها إيماء لرجاحة عقول العرب على عقول من سبقهم من الأمم، فإنّ الأمم كذّبت رسلها باعتقاد ونطق ألسنتها، والعرب كذّبوا باللسان وأيقنوا بصدق الرسول ﷺ بعقولهم التي لا يروج عندها الزيف.

٢٠. (ما) مصدرية، أي صبروا على التكذيب، فيجوز أن يكون قوله: ﴿وَأُوذُوا﴾ عطفا على ﴿كَذَّبُوا﴾ وتكون جملة ﴿فَصَبَرُوا﴾ معترضة، والتقدير: ولقد كذّبت وأوذيت رسل فصبروا، فلا يعتبر الوقف عند قوله: ﴿عَلَى مَا كُذِّبُوا﴾ بل يوصل الكلام إلى قوله: ﴿نَصْرُنَا﴾، وأن يكون عطفا على ﴿كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾، أي كذّبت وأوذوا، ويفهم الصبر على الأذى من الصبر على التكذيب لأنّ التكذيب أذى فيحسن الوقف عند قوله: ﴿عَلَى مَا كُذِّبُوا﴾

٢١. قرن فعل ﴿كَذَّبَتْ﴾ بعلامة التأنيث لأنّ فاعل الفعل إذا كان جمع تكسير يرجّح اتّصال الفعل بعلامة التأنيث على التأويل بالجماعة، ومن ثمّ جاء فعلا ﴿فَصَبَرُوا﴾ و﴿كَذَّبُوا﴾ مقترنين بواو الجمع، لأنّ

فاعليهما ضميران مستتران فرجح اعتبار التذكير.

٢٢. عطف ﴿وَأُوذُوا﴾ على ﴿كَذَّبَتْ﴾ عطف الأعمّ على الأخصّ، والأذى أعمّ من التكذيب، لأنّ الأذى هو ما يسوء ولو إساءة ما، قال تعالى: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١] ويطلق على الشديد منه، فالأذى اسم اشتقّ منه آذى إذا جعل له أذى وألحقه به، فالهمزة به للجعل أو للتصيير، ومصادر هذا الفعل أذى وأذاة وأذيّة، وكلّها أسماء مصادر وليست مصادر، وقياس مصدره الإيذاء لكنّه لم يسمع في كلام العرب، فلذلك قال صاحب (القاموس): لا يقال: إيذاء، وقال الراغب: يقال: إيذاء، ولعلّ الخلاف مبني على الخلاف في أنّ القياسي يصحّ إطلاقه ولو لم يسمع في كلامهم أو يتوقّف إطلاقه على سماع نوعه من مادّته، ومن أنكر على صاحب (القاموس) فقد ظلمه، وأيّا ما كان فالإيذاء لفظ غير فصيح لغرابته، ولقد يعدّ على صاحب (الكشاف) استعماله هنا وهو ما هو في علم البلاغة.

٢٣. ﴿حَتَّى﴾ ابتدائية أفادت غاية ما قبلها، وهو التكذيب والأذى والصبر عليهما، فإنّ النصر كان بإهلاك المكذّبين المؤذين، فكان غاية للتكذيب والأذى، وكان غاية للصبر الخاصّ، وهو الصبر على التكذيب والأذى، وبقي صبر الرسل على أشياء ممّا أمر بالصبر عليه.

٢٤. الإتيان في قوله: ﴿أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ مجاز في وقوع النصر بعد انتظاره، فشبّه وقوعه بالمجيء من مكان بعيد كما يجيء المنادى المنتظر، وتقدّم بيان هذا عند قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ في هذه السورة.

٢٥. جملة ﴿وَلَا مُبَدِّلَ﴾ عطف على جملة: ﴿أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾

٢٦. كلمات الله وحيه للرسل الدّالّ على وعده إيّاهم بالنصر، كما دلّت عليه إضافة النصر إلى ضمير الجلالة، فالمراد كلمات من نوع خاصّ، فلا يرد أنّ بعض كلمات الله في التشريع قد تبدّل بالنسخ؛ على أنّ التبديل المنفي مجاز في النقض، كما تقدّم في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ﴾ في سورة البقرة، وسيأتي تحقيق لهذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ في هذه السورة، وهذا تطمين للنبي ﷺ بأنّ الله ينصره كما نصر من قبله من الرسل، ويجوز أن تكون كلمات الله ما كتبه في أزله وقدره من سننه في الأمم، أي أنّ إهلاك المكذّبين يقع كما وقع إهلاك من قبلهم.

٢٧. ونفي المبدّل كناية عن نفي التبديل، أي لا تبديل، لأنّ التبديل لا يكون إلّا من مبدّل، ومعناه:

أنّ غير الله عاجز عن أن يبدّل مراد الله، وأن الله أراد أن لا يبدّل كلماته في هذا الشأن.

٢٨. ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ عطف على جملة: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾، وهو كلام جامع لتفاصيل ما حلّ بالمكذّبين، وبكيف كان نصر الله رسله، وذلك في تضاعيف ما نزل من القرآن في ذلك، والقول في ﴿جَاءَكَ﴾ كالقول في ﴿أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾، فهو مجاز في بلوغ ذلك وإعلام النبي ﷺ به.

٢٩. (من) في قوله: ﴿مِنْ نَبَإِ﴾ إمّا اسم بمعنى (بعض) فتكون فاعلا مضافة إلى النبأ، وهو ناظر إلى قوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾، والأحسن أن تجعل صفة لموصوف محذوف تقديره: لقد جاءك نبأ من نبأ المرسلين.

٣٠. والنبأ الخبر عن أمر عظيم، قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١، ٢]، وقال: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: ٦٧، ٦٨]، وقال في هذه السورة: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿قَدْ﴾ هنا للتحقيق وتأكيد العلم، وقد حاول بعض العلماء أن يجعلها للتكثير، ولكن التحقيق جاء من موضوعها لا من ذاتها، وإني أقول إني لا أعلم أنها جاءت في القرآن داخلة على المضارع إلا بمعنى التأكيد، وكتاب الله تعالى فوق ما يقرره علماء النحو واللغة.

٢. وإن النبي ﷺ كان يحزنه أن القوم لا يؤمنون، ويفترون الكذب عليه، ولقد نهاه الله تعالى عن أن يلج الحزن في نفسه لعدم إيمانهم، فقال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر]، وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء]، ولقد كان يحزن النبي ﷺ كفرهم، وما يقولون في هذا الكفر من رميهم له بالكذب والافتراء، وأنه ساحر، وأنه مجنون، وأن كتاب الله تعالى أساطير الأولين، ولقد ذكر الله تعالى أنهم لا يكذبون النبي ﷺ.

٣. و(الفاء) هنا تكشف عن محذوف يفيد السببية، تقديره مثلا فلا تحزن لأنهم لا يكذبونك،

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/ ٢٤٨٤.

﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ والجحود نفى ما في القلب ثبوته، وإثبات ما في القلب نفيه أي عدم الإذعان للحق، وقد قامت أدلته، وكثير من العرب كانوا يعتقدون صدق محمد ﷺ، ولكنهم يمارون في الحق، ولا يذعنون، ويجادلون في آياته، وقد روى أن طاغوت الشرك أبا جهل عوتب في أنه صافح النبي ﷺ مرة فقيل له في ذلك فقال: إني لأعلم أنه النبي ولكن متى كنا لبنى مناف تبعا!؟ وهذا على أساس أن الجحود في الآية منصبّ على نبوة النبي ﷺ إذ يعرفون صدقه، ولكن لا يذعنون له، فيكونون جاحدين، وهناك تخريج بياني آخر، وهو أن الجحود منصب على آيات الله تعالى وليس تكذيبا، فهو تعزية للنبي ﷺ من جهة أنهم لا يكذبونه، ولكن يقرّون في ذات أنفسهم، ولكن يجحدون بشهادة ربهم على صدقه، فهم أشد وبالا.

٤. وهنا إظهار في مقام إضمار إذ إنه سبحانه وتعالى قال: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ ولم يقل (ولكنهم) وذلك لبيان سبب الجحود وهو الظلم المستقر في نفوسهم، وفيه فوق ذلك تسجيل الظلم عليهم، وهم بذلك مستحقون للعقاب.

٥. ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ هذا تنبيه للنبي ﷺ وحث على الصبر، والانتظار لما وعد من النصر المؤزر، فالله سبحانه وتعالى يبين أنه ليس أول المكذبين، بل سبق إلى ذلك الرسل الصادقون الداعون، ولقد أكد الله سبحانه وتعالى الخبر بـ (اللام) وبـ (قد) لتأكيد التسلية، ولتأكيد طلب الصبر، وتأكيد الوعد بالنصر، ولم يكن التكذيب للرسل سببا للحزن، بل كان طريقه شحذ العزيمة بالصبر، وبتحمل الأذى، وبترقب النصر، والعمل عليه، فمع العزيمة المعززة بالصبر النصر، وليس مع اليأس قوة، فالصبر كان نتيجة التكذيب؛ ولذا كان العطف بالفاء التي تفيد الترتيب والتعقيب، وقوله: ﴿كُذِّبُوا وَأُوذُوا﴾ للبناء للمجهول وهو مع (ما) يكون المصدر المؤوّل منهما - فما للموصول الحرفي أي المصدرية، والمراد الصبر على تكذيبهم وإيذائهم، ودل على أن موضع الصبر هو تكذيبهم وإيذاؤهم، وكانوا صابرين حتى أتاهم نصر الله تعالى وأنه مع الصبر الأجر، ولقد قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة]، فالنصر إن شاء الله آت لا محالة، وهو العزيز الحكيم القادر العليم.

٦. ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ كلمات الله تعالى هي كلمات النصر الذى وعد الله تعالى به نبيه ﷺ ووعد به المرسلين، من قبله، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات]، وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة]، ومعنى تبديل كلمات الله تعالى أن يتخلف وعد الله، فلا يكون النصر المبين ما دامت الأسباب بأمر الله وتوفيقه مهيأة، وإنه وعد الله تعالى من كلمات الله لا تبديل فيها ولا تغيير ما دام الإيمان يملأ القلوب، والصبر يؤيد النفوس ويأخذون بالأسباب، فإن تغيرت النفوس فليس ثمة موضوع لوعد الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد]

٧. وفسر بعض العلماء كلمات الله تعالى بما هو أعم من النصر، وهو شرائعه، وآياته وتوحده، وصفاته، ونصره أي أنه إذا كان النبي ﷺ يشفق على رسالته أن يعروها تغيير بسبب تكذيبهم وإيذائهم فلا مبدل لكلمات الله تعالى، ونحن لهذا نميل.

٨. ولقد أكد سبحانه العظة والتسلية في أنباء المرسلين، فقال تعالت كلماته: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ولقد جاءك فيما قص عليك من قصص النبيين وأخبارهم وأنبائهم ما فيه العظة الكاملة، وفيه المثلات لأقوامهم والنصر لهم، وكما قال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف]

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. تسلية للنبي ﷺ عن هفوات المشركين في أمر دعوته، وتطييب لنفسه بوعد النصر الحتمي، وبيان أن الدعوة الدينية إنما ظرفها الاختيار الإنساني فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر فالقدرة والمشية الإلهية الحاتمتان لا تداخلان ذلك حتى تجبراهم على القبول، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى.

٢. ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ (قد) حرف تحقيق في الماضي، وتفيد في المضارع التقليل وربما استعملت فيه أيضا للتحقيق، وهو المراد في الآية، وحزنه كذا وأحزنه بمعنى واحد، وقد قرئ بكلا

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٧/ ٦٢.

الوجهين.

٣. ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ قرئ بالتشديد من باب التفعيل، وبالتخفيف، والظاهر أن الفاء في قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ للتفريع وكأن المعنى قد نعلم أن قولهم ليحزنك لكن لا ينبغي أن يحزنك ذلك فإنه ليس يعود تكذيبهم إليك لأنك لا تدعو إلا إلينا وليس لك فيه إلا الرسالة بل هم يظلمون بذلك آياتنا ويجحدونها:

أ. فما في هذه الآية مع قوله في آخر الآيات: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ في معنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [لقمان: ٢٣]، وقوله: ﴿فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [يس: ٧٦] وغير ذلك من الآيات النازلة في تسليته ﷺ، هذا على قراءة التشديد.

ب. وأما على قراءة التخفيف فالمعنى: لا تحزن فإنهم لا يظهرون عليك بإثبات كذبك فيما تدعو إليه، ولا يبطلون حجتك بحجة وإنما يظلمون آيات الله بجحدها وإليه مرجعهم.

٤. ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ كان ظاهر السياق أن يقال: ولكنهم، فالعدول إلى الظاهر للدلالة على أن الجحد منهم إنما هو عن ظلم منهم لا عن قصور وجهل وغير ذلك فليس إلا عتوا وبغيا وطغيانا وسيبعثهم الله ثم إليه يرجعون.

٥. ولذلك وقع الالتفات في الكلام من التكلم إلى الغيبة فقيل: ﴿بِآيَاتِ اللهِ﴾ ولم يقل: بآياتنا، للدلالة على أن ذلك منهم معارضة مع مقام الألوهية واستعلاء عليه وهو المقام الذي لا يقوم له شيء.

٦. وقد قيل في تفسير معنى الآية وجوه أخرى:

أ. أحدها: ما عن الأكثر أن المعنى: لا يكذبونك بقلوبهم اعتقادا، وإنما يظهرون التكذيب بأفواههم عنادا.

ب. ثانيها: أنهم لا يكذبونك وإنما يكذبونني فإن تكذيبك راجع إلي ولست مختصا به، وهذا الوجه غير ما قدمناه من الوجه وإن كان قريبا منه، والوجهان جميعا على قراءة التشديد.

ج. ثالثها: أنهم لا يصادفونك كاذبا تقول العرب: قاتلناهم فما أجبناهم أي ما صادفناهم جبناء، والوجه ما تقدم.

٧. ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا﴾ هداية له ﷺ إلى سبيل من تقدمه من

الأنبياء، وهو سبيل الصبر في ذات الله، وقد قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]

٨. ﴿حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ بيان غاية حسنة لصبرهم، وإشارة إلى الوعد الإلهي بالنصر.

٩. وفي قوله: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾ تأكيد لما يشير إليه الكلام السابق من الوعد وحتم له، وإشارة إلى ما ذكره بقوله: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧٢]

١٠. ووقوع المبدل في قوله: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾ في سياق النفي ينفي أي مبدل مفروض سواء كان من ناحيته تعالى بأن يتبدل مشيته في خصوص كلمة بأن يمحوها بعد إثباتها أو ينقضها بعد إبرامها أو كان من ناحية غيره تعالى بأن يظهر عليه ويقهره على خلاف ما شاء فيبدل ما أحكم ويغيره بوجه من الوجوه.

١١. ومن هنا يظهر أن هذه الكلمات التي أنبأ سبحانه عن كونها لا تقبل التبديل أمور خارجة عن لوح المحو والإثبات، فكلمة الله وقوله وكذا وعده في عرف القرآن هو القضاء الحتم الذي لا مطمع في تغييره وتبديله، قال تعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ [ص: ٨٤]، وقال تعالى: ﴿وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾ [الأحزاب: ٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ [يونس: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿لَا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠] وقد مر البحث المستوفى في معنى كلمات الله تعالى وما يرادفها من الألفاظ في عرف القرآن في ذيل قوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]

١٢. وقوله في ذيل الآية: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ تثبيت واستشهاد لقوله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾، ويمكن أن يستفاد منه أن هذه السورة نزلت بعد بعض السور المكية التي تقص قصص الأنبياء كسورة الشعراء ومريم وأمثالها، وهذه السور نزلت بعد أمثال سورة العلق والمدثر قطعا فتقع سورة الأنعام على هذا في الطبقة الثالثة من السور النازلة بمكة قبل الهجرة.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ملاحظات حول سبب النزول:

أ. جاء في أسباب النزول ـ للواحدي ـ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ قال السدّي: التقى الأخنس بن شريق وأبو جهل بن هشام، فقال الأخنس لأبي جهل: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هنا من يسمع كلامك غيري، فقال أبو جهل: والله إن محمدا لصادق وما كذب محمد قطّ، ولكن إذا ذهب بنو قصيّ باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

ب. وروى الترمذي والحاكم عن علي قال: قال أبو جهل للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب بما جئت به، فأنزل الله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ﴾

ج. وقال مقاتل: نزلت في الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف بن قصي بن كلاب كان يكذب النبي ﷺ في العلانية، وإذا خلا مع أهل بيته قال ما محمد من أهل الكذب ولا أحسبه إلا صادقا، فأنزل الله الآية.

د. ونلاحظ على هذه الروايات، أنها أكدت على محاولة الفصل في التكذيب بين النبي وما جاء به، كما في الرواية الثانية، بينما الرواية الأولى تؤكد صدق النبي بما جاء به مطلقا، ولكن التكذيب الظاهري كان من أجل أن لا تكون النبوة في بني قصيّ بالإضافة إلى ما لديهم من السقاية والحجابة والندوة، فليس هناك جحود بآيات الله ولا تكذيب للنبي في الواقع بل في الظاهر، وهذا ما تدل عليه الرواية الثالثة التي نسبت الكلام إلى الحارث بن عامر لا إلى أبي جهل، وهذا كله لا يتناسب مع سياق الآية التي تثير القضية على أساس الحديث مع النبي ﷺ الذي كان يعيش الحزن على رفض قومه لرسالته وتكذيبهم له، بادعائهم أن هذا التكذيب ليس موجها ضد النبي شخصيا ليعيش الحزن، بل هي موجهة إلى الله في جحودهم بآياته مما يجعل الجحود لوحيه وليس له بالذات، فإذا كانت المسألة ـ بهذا المستوى ـ فلا ضرورة للحزن، لأن الله الذي جحدوا وحيه سوف يتكفل بهم بما ينزل عليهم من العذاب في الدنيا والآخرة، وتلك هي قضية

---

(١) من وحي القرآن: ٩/ ٧٩.

الرسل الذين لا يمثلون أنفسهم في رسالتهم بل يمثلون الله في دعوته فيتركون الأمر إليه، فهو الذي يملك الأمر كله وهو الذي يواجه عباده بما يستحقّون ولن يضرّه ذلك في شيء ولذلك فإننا لا نلتقي مع سبب النزول لأنه لا ينسجم مع السياق العام للآية، بل هو ـ على الظاهر ـ اجتهاد من الرواة في تفسير السبب في مقارنتهم بين فهمهم للآية وبعض الأحداث الحاصلة في بداية الدعوة في الواقع التاريخي للسيرة.

هـ. إن هذه الروايات توحي بأن هناك من الناس من يؤمن بالدعوة سرّا وينكرها علنا لاعتبارات ذاتية أو عائلية أو غير ذلك، خاصة إذا كان اعتناقها يفترض الإيمان بأفكارها ومفاهيمها وصفائها على حساب ما عندهم على هدى قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل ١٤]، وقد جاء عن ابن إسحاق قال حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، أنه حدّث أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي، حليف بني زهرة، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أوّل مرّة، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألّا نعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا.. فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها، وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها، قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به.. ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه في بيته، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت؟ قال تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاذبنا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منّا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدّقه! قال فقام عنه الأخنس وتركه.. إن هذه الرواية بالإضافة إلى الروايات السابقة، توحي بأن هناك عقدة مستعصية كانت تعيش في

ذهنيات هؤلاء وتمنعهم من الإيمان برسول الله ﷺ، فلم تكن قضيتهم قضية كفر ينطلق من فكرة مسيطرة عليهم، بل من واقع منحرف يفرض نفسه على مواقعهم.

و. وهناك ـ في نهاية المطاف ـ نقطة مهمة، وهي أن هذه الآية مكية والسورة مكية، أما الروايات فموقعها ـ على الظاهر ـ المدينة في معركة بدر.

٢. سؤال وإشكال: هل كان الرسول ﷺ يشعر بالحزن الروحي على ما يواجهه به قومه من تكذيب؟ وهل كانت المسألة تمثل بالنسبة إليه حالة ذاتيّة ترهقه ليحتاج إلى التسلية التي تبعد الموضوع عن التحدي الذاتي، وتجعله بمنأى عن النتائج السلبيّة المؤثرة على المشاعر الخاصة وذلك بالإيحاء له بأن التكذيب ليس موجّها إليه، بل هو موجّه إلى الله من خلال ما يكذب به الظالمون من آيات الله؟ وهل أنّ مثل هذا الأسلوب يريح النبي محمدا ﷺ؟ وإذا كان الأمر على هذا الشكل، فهل يمكننا أن نفهم أنَّ انفعاله الشخصي يتجاوز انفعاله لله؟ وأخيرا، هل ينسجم ذلك مع شخصية النبيّ فيما نعرفه عن إخلاصه لرسالته لربّه؟ والجواب: هذه هي علامات الاستفهام التي قد ترتسم أمام القارئ لهذه الآيات عندما يواجه معانيها من خلال الفهم الحرفي لألفاظها:

أ. ولكننا نفهم منها أسلوبا قرآنيا يتحدّث عن تحليل الموقف الرسالي للرسول ولكل الرساليين الذين يتبعون خطاه، فيما يمكن أن يخضع له البشر من نوازع ذاتية أمام التحديات، فهو يوحي بوجود شيء من هذا القبيل، كفرضيّة قابلة للحدوث، ولكن ليس من الضروري أن تكون قد حدثت بالفعل، لينتقل، من خلال ذلك، إلى الإيحاء بأن الموضوع لا يتحمل أيّة صدمة انفعالية صعبة، تثقل حركة الذات في الدعوة، فإذا كانت صفة الرسالة هي التي تطبع شخصية الرسول فإن كل ردّة فعل سلبيّة أو إيجابية ترتبط بتلك الشخصية يجب أن تكون بعيدة عن الذات والذاتيات، وبهذا تكون القضية متعلقة بالله الذي لا يضيره شيء من تكذيبهم وجحودهم كما لا ينفعه شيء من إيمانهم وتصديقهم، لأنه الغنيّ عن ذلك كله، فلا مجال لأي انفعال لأن الذات لا علاقة لها بالموضوع، والرسالة المنزلة من الله لا تتأثر بذلك، إن الله فوق الانفعال، فماذا يبقى في الساحة؟

ب. إن المسألة ـ بكل بساطة ـ هي أن يواجه الرسول الموقف بعقليّة واقعيّة، وذهنيّة عمليّة مرنة، بعيدا عن كل الحالات الشعورية الذاتية، وبذلك تستمر القافلة الرسالية في سيرها الطبيعيّ، لتصل إلى

أهدافها الكبيرة في نهاية المطاف.

ج. وفي ضوء ذلك، تتحوّل هذه الآيات إلى خطة تربويّة للعمل الرسالي، يواصل من خلالها ذاك العمل طريقه بكل موضوعيّة وهدوء، تماما كأيّ عمل يرتبط بمسؤوليته ولا يرتبط بذاته، حيث يتحرك الداعية على أساس المعطيات الواقعية، ومدى انسجامها مع خط المسؤولية في عمله.. فيعيش التجرد من كل ما لا يرتبط بالعمل، مما يجعل للحركة فاعليّة قويّة، ويقود الموقف إلى خطوات الواقع، وهكذا تخرج القضية من النطاق الذاتي الشخصي، لتتّصل بالنطاق العام للرسالة وللرسول فلا تعود شيئا شخصيا للنبيّ، بل تتحوّل إلى قاعدة عامّة لكل الرسل والرسالات؛ ومن هنا، تتساقط كل علامات الاستفهام أمام شموليَّة القاعدة وثباتها.

د. إن القرآن يريد أن يؤكد الفكرة ـ الخط، في ضمير النبي ـ الداعية، ليفرّغ ذاته من الانفعال، فهناك حالة بشرية تحبّ التمرّد والمواجهة والهروب من المسؤوليّة، فلا بد من مواجهتها من منطق الواقع الذي يبحث في الأرض عن الإمكانيات الحاضرة والمستقبلة لانتصار الدعوة في حركتها الفاعلة، مما يفرض المزيد من الهدوء النفسي والاتّزان العاطفي والثبات العقلي، فالدعوة تمثل رسالة الله، والتكذيب يواجه هذه الرسالة.. فهو يواجه الله في النهاية، وليس هذا الأمر بدعا في التجربة الجديدة للرسول ـ الداعية، فهي حلقة من حلقات السلسلة التاريخيّة لمسيرة النبوّات في التاريخ، فقد كان هناك في المدى البعيد في الزمن الغابر أكثر من نبيّ جاء بالرسالة، فواجهه الآخرون بالتكذيب، فقد كان من سنّة الله أن ينطلق الرسل ضد التيار السائد فكريّا وأخلاقيّا وسياسيّا واقتصاديا، مما يفرض مواجهة التيار لهم بقوّة، ليضعفهم وليصرعهم، فلا بدَّ للذين يريدون أن يصارعوا التيّار ويصرعوه أن يملكوا الأعصاب القويّة الرساليّة التي لا تضعف ولا تثور، بل تمارس القوّة بهدوء وصمود، لتخفّف من اندفاع التيار في البداية، ثم تقهر اندفاعه في النهاية، ليبدأ ـ بعد ذلك ـ خلق التيّار الجديد، وهكذا يكون الصبر الذي يمثّل القيمة الأخلاقية المثلى في حركة التاريخ، شرطا حاسما في عملية الثبات والانتصار الكبير.. وهذا ما عبّرت عنه الآية التي تحمل تجربة الماضي إلى الحاضر ليحملها الحاضر إلى المستقبل.

٣. ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا﴾ بكل أنواع الأذى، فلم يتأففوا ولم يحزنوا، بل صمدوا في وجه القوى المضادّة، لأنهم وعوا الحقيقة العملية التي تقول: إن قضية صنع القوّة

تبدأ بثبات الإنسان أمام تحديات القوّة، لأنه بذلك يحصل على قوّة سلبيّة سوف تتحول إلى قوّة إيجابيّة فاعلة في الساحة الرسالية الكبرى، لأنه ـ بذلك ـ يفسح المجال للعوامل التي تضعف القوى الأخرى أن تعمل عملها، كما يعطي الفرصة للعوامل الجديدة التي تقوّي الأفكار القادمة لكي تخطو خطواتها الأولى في حركة الزمن، لأن انطلاقة التطور في عملية الهدم والبناء قد تحتاج إلى وقت طويل يحمل الكثير من الآلام والمتاعب والدموع في طريق الهدف الواعد الكبير.

٤. ﴿حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ لأن الله لا يحقق لنصر حركته إلا من خلال سننه الحتمية في الحياة، التي تواجه عاديات الزمن، وتلك هي كلمات الله التكوينيّة التي تتحول إلى سنن وقوانين في وعي الطبيعة ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ فليكن ذلك هو الهدى الذي تستهدي به في خطواتك الجديدة المتحركة أبدا نحو التغيير في كل شيء فإن الله قد أراد لكل رسول أن لا يبدأ من حيث يبدأ الآخرون، بل أن يواصل المسيرة من حيث ينتهي الآخرون في مسيرتهم، مما يجعل من الساحة ساحة تجارب تغييرية حقيقية.. وماذا بعد ذلك؟ إن الواقع لا يسمح إلا بالصبر والتقدم من مواقع الصبر، فذلك هو المنطلق الوحيد للانطلاق، لأن ذلك هو طبيعة الأسلوب الواقعي في الوصول إلى النتائج الحاسمة، فإذا لم يقتنع العاملون، أو لم يصبر الرسل والدعاة، فلينسحبوا من الساحة، أو ليقوموا بحركات واستعراضات تشنجيّة، أو ليدخلوا في تجارب غير معقولة، ليحققوا للمتمردين الجاحدين طلباتهم التعجيزيّة.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ من التكذيب بالآخرة وغيره، كقولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾، وقولهم: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾

٢. ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ قال الراغب: (الجحود: نفي ما في القلب إثباته، وإثبات ما في القلب نفيه) وفي (الصحاح): (الجحود: الإنكارُ مع العلم، فالمعنى: أنهم ينكرون آيات الله الدالة على صدقك كالقرآن وهم يعلمون أنها آيات الله صدَّقك بها، فلا تحزن مما يقولون

---

(١) التيسير في التفسير: ٢/ ٤٣٤.

فإنهم ﴿لاَيُكْذِبُونَكَ﴾ أما على قراءة نافع [بسكون الكاف وتخفيف الذال] فالمعنى: لا يجدونك كاذباً؛ لأن آيات الله قد صدقتك وهم قد علموا أنها آيات الله، وفي (الشافية) لابن الحاجب و(شرح الرضي) عليها في معاني (أَفْعَل): ولوجوده عليها أي لوجودك مفعول أفعل على صفة وهي كونه فاعلاً لأصل الفعل نحو: أكرمتَ فاربط أي وجدت فرساً كريماً، وأسمنتَ أي وجدتَ سميناً، وأبخلته أي وجدتَه بخيلاً) وأما على قراءة ﴿يُكَذِّبُونَكَ﴾ [بفتح الكاف، وتشديد الذال] فالمعنى: إنه تكذيب بألسنتهم وهم يعلمون أنك صادق فهو كَلا تكذيب؛ لأن الذي يهمك أن يعلموا أن الذي جئت به هو الحق من ربك، فقلوبهم مصدقة لك فلا يحزنك التكذيب بألسنتهم.

٣. ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أي ولكنهم ﴿بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ ولكنه أقام الظاهر مقام المضمر لإفادة أن ظلمهم جرأهم على هذا المنكر العظيم وأوردهم ذلك المورد الوخيم الذي لا يليق بعاقل منصف أن يرضاه لنفسه.

٤. ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا﴾ ﴿رُسُلٌ﴾ أرسلهم الله من قبلك ﴿فَصَبَرُوا عَلَى﴾ تكذيب المكذبين لهم وأذى الكافرين لهم ﴿حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾ كوعده رسله بالنصر فلا مبدل لوعده؛ لأنه لا مبدل لكلمات الله، وهي تعم الوعد والوعيد والحكم والقصص وغير ذلك فلا مبدل لها؛ لأنها صدق وعدل، ﴿وَاللهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد:٤١]

٥. ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ما فيه لك تسلية وتشجيع على الصبر، ووعد بالنصر، ونحو ذلك.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. لا شك أنّ رسول الله ﷺ في نقاشاته المنطقية ومحاوراته الفكرية مع المشركين المعاندين المتصلبين، كان يواجه منهم المعاندة واللجاجة والتصلب والتعنت، بل كانوا يرشقونه بتهمهم، ولذلك كله كان النّبي ﷺ يشعر بالغم والحزن، والله تعالى في مواضع كثيرة من القرآن يواسي النّبي ﷺ ويصبّره

---

(١) تفسير الأمثل: ٤/ ٢٦٠.

على ذلك، لكي يواصل مسيرته بقلب أقوى وجأش أربط، كما جاء في هذه الآية: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾، فاعلم أنّهم لا ينكرونك أنت، بل هم ينكرون آيات الله، ولا يكذبونك بل يكذبون الله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ﴾

٢. مثل هذا القول شائع بيننا، فقد يرى (رئيس) أنّ (مبعوثه) إلى بعض الناس عاد غاضبا، فيقول له: (هوّن عليك، فان ما قالوه لك إنّما كان موجها إليّ، وإذا حصلت مشكلة فأنّا المقصود بها، لا أنت) وبهذا يسعى إلى مواساة صاحبه والتهوين عليه.

٣. ثمّة مفسّرون يرون للآية تفسيرا آخر، لكن ظاهر الآية هو هذا الذي قلناه، ولكن لا بأس من معرفة هذا الاحتمال القائل بأن معنى الآية هو: إنّ الذين يعارضونك هم في الحقيقة مؤمنون بصدقك ولا يشكون في صحة دعوتك، ولكن الخوف من تعرض مصالحهم للخطر هو الذي يمنعهم من الرضوخ للحق، أو أنّ الذي يحول بينهم وبين التسليم هو التعصب والعناد.

٤. يتبيّن من كتب السيرة أنّ الجاهليين ـ بما فيهم أشدّ المعارضين للدّعوة ـ كانوا يعتقدون في أعماقهم بصدق الدعوة:

أ. ومن ذلك ما روي أنّ رسول الله ﷺ لقي أبا جهل فصافحه أبو جهل، فقيل له في ذلك، فقال: والله إني لأعلم أنّه صادق، ولكنا متى كنّا تبعا لعبد مناف! (أي أنّ قبول دعوته سيضطرنا إلى اتباع قبيلته)

ب. وورد في كتب السيرة أنّ أبا جهل جاء في ليلة متخفيا يستمع قراءة النّبي ﷺ، كما جاء في الوقت نفسه أبو سفيان والأخنس بن شريق، ولا يشعر أحد منهم بالآخر فاستمعوا إلى الصباح، فلمّا فضحهم الصبح تفرقوا، فجمعتهم الطريق، فقال كل منهم للآخر ما جاء به، ثمّ تعاهدوا أن لا يعودوا، لما يخافون من علم شبان قريش بهم لئلا يفتتنوا بمجيئهم، فلمّا كانت الليلة الثّانية جاء كل منهم ظانا أنّ صاحبيه لا يجيئان لما سبق من العهود، فلمّا أصبحوا جمعتهم الطريق مرّة ثانية فتلاوموا، ثمّ تعاهدوا أن لا يعودوا، فلمّا كانت الليلة الثالثة جاؤوا أيضا، فلما أصبحوا تعاهدوا أن لا يعودا لمثلها، ثمّ تفرقوا فلمّا أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثمّ خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال: اخبرني ـ يا أبا حنظلة ـ عن رأيك فيما سمعت من محمّد؟ قال يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها، وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء، ما عرفت معناها ولا ما يراد بها، قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به، ثمّ خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل

عليه بيته فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمّد؟ قال ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد المناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا (أي أعطوا الناس ما يركبونه) فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنّا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبدا، ولا نصدقه، فقام عنه الأخنس وتركه.

ج. وروي أنّه التقى أخنس بن شريق، وأبو جهل بن هشام فقال له: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمّد أصادق هو أم كاذب، فإنّه ليس هاهنا أحد غيري وغيرك يسمع كلامنا، فقال أبو جهل: ويحك والله إنّ محمّدا لصادق وما كذب قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والحجابة والسقاية والندوة والنّبوة فماذا يكون لسائر قريش؟

٥. يتبيّن من هذه الرّوايات وأمثالها أنّ كثيرا من أعداء رسول الله ﷺ الألداء كانوا في باطنهم يعترفون بصدق ما يقول، إلّا أنّ التنافس القبلي وما إلى ذلك، لم يكن يسمح لهم بإعلان ما يعتقدون، أو لم تكن لديهم الشجاعة على ذلك، وإنّنا نعلم أنّ مثل هذا الإعتقاد الباطني ما لم يصاحبه التسليم، لن يكون له أي أثر، ولا يدخل الإنسان في زمرة المؤمنين الصادقين.

٦. الآية الثّانية تستأنف مواساة الرّسول ﷺ وتبيّن له حال من سبقه من الأنبياء، وتؤكّد له أنّ هذا ليس مقتصرا عليه وحده، فالأنبياء قبله نالهم من قومهم مثل ذلك أيضا: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ ولكنّهم صبروا وتحملوا حتى انتصروا بعون الله: ﴿فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ وهذه سنة إلهية لا قدرة لأحد على تغييرها: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾ وعليه، فلا تجزع ولا تبتئس إذا ما كذبك قومك وآذوك، بل اصبر على معاندة الأعداء وتحمل أذاهم، واعلم أنّ الإمدادات والألطاف الإلهية ستنزل بساحتك بموجب هذه السنة، فتنتصر في النهاية عليهم جميعا، وإنّ ما وصلك من أخبار الأنبياء السابقين عن مواجهتهم الشدائد والمصاعب وعن ثباتهم وصبرهم وانتصارهم في النهاية، لهو شهادة بيّنة لك، ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾

٧. تشير هذه الآية ـ في الواقع ـ إلى مبدأ عام هو أنّ قادة المجتمع الصالحين الذين يسعون لهداية الشعوب عن طريق الدعوة إلى مبادئ وتعاليم بناءة، وبمحاربة الأفكار المنحطة والخرافات السائدة والقوانين المغلوطة في المجتمع، يواجهون معارضة شديدة من جانب فريق الانتهازيين الذين يرون في

انتشار تلك التعاليم والمبادئ البناءة خطرا يتهدد مصالحهم، فلا يتركون وسيلة إلّا استخدموها لترويج أهدافهم المشؤومة، ولا يتورعون حتى عن التوسل بالتكذيب والاتهام، والحصار الاجتماعي، والإيذاء والتعذيب، والسلب والنهب، والقتل، وبكل ما يخطر لهم من سلاح لمحاربة أولئك المصلحين، إلّا أنّ الحقيقة، بما فيها من قوة الجاذبية والعمق، وبموجب السنة الإلهية، تعمل عملها وتزيل من الطريق كل تلك الأشواك، إلّا أنّ شرط هذا الانتصار هو الصبر والمقاومة والثبات.

٨. تعبر هذه الآية عن السنن بعبارة (كلمات الله)، لأنّ الكلم والكلام في الأصل التأثير المدرك بإحدى الحاستين، السمع أو البصر، فالكلام مدرك بحاسة السمع، والكلم بحاسة البصر، وكلمته: جرحته جراحة بان تأثيرها، ثمّ كان توسع في إطلاق (الكلمة) على الألفاظ والمعاني وحتى على العقيدة والسلوك والسنة والتعاليم.

١٨. المعاندون والتكذيب بآيات الله

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [١٨] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٥ ـ ٣٧]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾، والنّفق: السّرب.. فتذهب فيه، فتأتيهم بآية، أو تجعل لهم سلّما في السماء، فتصعد عليه، فتأتيهم بآيةٍ أفضل مما أتيناهم به؛ فافعل[١].

٢. روي أنّ نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾، قال سربا في الأرض، فتذهب هربا، قال وهل تعرف العرب ذلك؟ قال نعم، أما سمعت عديّ بن زيد وهو يقول[٢]:

فدسّ لها على الأنفاق عمرا ... بشكّته، وما خشيت كمينا

٣. روي أنّه قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾، يقول الله سبحانه: لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين[٣].

---

(١) ابن جرير ٩/ ٢٢٦.

(٢) الطستي كما في مسائل نافع (٢٨٢).

(٣) ابن جرير ٩/ ٢٢٨.

٤. روي أنّه قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ الآية، إنّ رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى، فأخبر الله تعالى أنّه لا يؤمن إلا من قد سبق له من الله السعادة في الذّكر الأول[1].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) أنّه قال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ المؤمنون للذّكر، ﴿وَالْمَوْتَى﴾ الكفار حين يبعثهم الله مع الموتى[2].

البصري:

روي عن الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) أنّه قال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ المؤمنون، ﴿وَالْمَوْتَى﴾ الكفار[3].

الباقر:

روي عن الإمام الباقر (ت ١١٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال في قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾: كان رسول الله ﷺ يحب إسلام الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، دعاه رسول الله ﷺ وجهد به أن يسلم، فغلب عليه الشقاء، فشق ذلك على رسول الله ﷺ، فأنزل الله ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾ يقول: سربا[4].

٢. روي أنّه قال: ﴿إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً﴾ وسيريكم في آخر الزمان آيات، منها: دابة الأرض، والدجال، ونزول عيسى بن مريم عليه السلام، وطلوع الشمس من مغربها[5].

قتادة:

---

(١) ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٨٤.
(٢) تفسير مجاهد، ص ٣٢١.
(٣) ابن جرير ٩/ ٢٣٠.
(٤) تفسير القمي ١/ ١٩٧.
(٥) تفسير القمي ١/ ١٩٨.

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾ سربا، ﴿أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ﴾ يعني: الدّرج[١].

٢. روي أنّه قال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ هذا مثل المؤمن، سمع كتاب الله فانتفع به، وأخذ به، وعقله، فهو حيّ القلب، حيّ البصر[٢].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ﴾ معناه مصعد[٣].

٢. روي أنّه قال: ﴿تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾ معناه طريق وهو السّرب[٤].

٣. روي أنّه قال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ معناه المؤمنون الّذين يقبلون.. ﴿وَالْمَوْتَى﴾ الكفّار.. ﴿يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾ معناه يحييهم الله[٥].

السّدّيّ:

روي عن إسماعيل السّدّيّ (ت ١٢٧ هـ) أنّه قال: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ﴾، قال أمّا النفق فالسّرب، وأما السلم فالمصعد[٦].

الكلبي:

روي عن محمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦ هـ) أنّه قال: قال الحارث بن عامر: يا محمد، ائتنا بآية كما كانت الأنبياء تأتي بها، فإن أتيت بها آمنّا بك وصدّقناك، فأبى الله أن يأتيهم بها، فأعرضوا عنه، وكبر عليه ﷺ؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾[٧].

---

(١) عبد الرزاق ١/ ٢٠٧.

(٢) ابن جرير ٩/ ٢٣٠.

(٣) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٣.

(٤) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٣.

(٥) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٣.

(٦) ابن جرير ٩/ ٢٢٦.

(٧) تفسير الثعلبي ٤/ ١٤٥.

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ﴾ يعني: ثقل عليك إعراضهم عن الهدى، ولم تصبر على تكذيبهم إياك؛ ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: سربا، ﴿أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ﴾ أي: فإن لم تستطع فأت بسلّمٍ ترقى فيه إلى السماء، ﴿فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾؛ فافعل إن استطعت[١].

٢. روي أنّه قال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ الهدى، يعني: القرآن، ثم قال: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾ يعني: كفار مكة يبعثهم الله في الآخرة، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ يعني: يردّون، فيجزيهم[٢].

٣. روي أنّه قال: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا﴾ يعني: هلّا ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ﴾ محمد، كما أنزل على الأنبياء ﴿آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ﴾ للكفار: ﴿إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بأنّ الله قادر على أن ينزلها[٣].

الهادي إلى الحق:

ذكر الإمام الهادي إلى الحق (ت ٢٩٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٤]:

١. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، هذا إخبار من الله تبارك وتعالى لنبيه، عن الاقتدار على ما يشاء من خلقه، وأن إرادته فيهم نافذة، ومشيئته ماضية، وأنه لو جمعهم لم يجب ثواب لمثاب، ولا عقاب على معاقب، والله بريء عن جبر الخلق على المعصية، وإخراجهم من طاعته.

٢. سؤال وإشكال: سألت عن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾، فقلت: ما معنى دعاء من لا يسمع؟ والجواب: المعنى في ﴿يَسْمَعُونَ﴾ هو: يطيعون ويقبلون ما يأتيهم به من ربهم، فيستبصرون بنور الله ويهتدون، لا أنهم صم لا يسمعون؛ ألا ترى كيف تقول العرب لمن كان منها ذا عصيان: (ألا تسمع يا هذا قول فلان؛ فإنه ناصح شفيق، حريص عليك رفيق، مؤيد، تقبل قوله، وتصير إليه، لا تخالفن بعملك عليه.

---

(١) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٩.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٩.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٥٩.

(٤) تفسير الإمام الهادي: ١/ ١٩٣.

المرتضى:

ذكر الإمام المرتضى بن الهادي (ت ٣١٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١ . سؤال وإشكال: سألت: عن قول الله سبحانه: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ والجواب: هذا تسهيل من الله سبحانه على نبيه ﷺ؛ لما علم من غمه بإعراض الخلق عن الله سبحانه، ومعصيتهم له، ومخالفتهم لحكمه، فلما كبر ذلك على رسول الله صلى الله عليه وآله، وعظم عنده إعراضهم عن الله سبحانه، واشتد عليه ما يرى من شرارتهم ـ قال الله سبحانه: ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾، والنفق: فهو محتفر في الأرض، ﴿أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ﴾، يقول: ترقى في السماء، ﴿فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾، وهذا غاية الاجتهاد: الذهاب في الأرض والسماء، فقال: إنك قد جئتهم من الآيات والعلامات، والحجج الواضحات الباهرات، بما في أقل منه يؤمن من كان له قلب أو معرفة، ولم تترك غاية في حرص ونصيحة، واجتهاد وموعظة، فما تريد أن تعمل بهم بعد ذلك، أتذهب في الأرض أو في السماء، ولن تقدر على ذلك، ليس عليك من الأمر إلا ما قد فعلت؛ ألا تسمع كيف يقول مشركوا قريش: ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾، فذكروا أنه لو رقى في السماء لم يؤمنوا به؛ لشدة كفرهم، وعظيم عنادهم.

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١ . ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾:

أ. كان يشتد على رسول الله ﷺ ويشق عليه كفر قومه وإعراضهم عن الإيمان حتى كادت نفسه تتلف وتهلك لذلك إشفاقًا عليهم؛ كقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾، وقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾، ونحو ذلك من الآيات، يشفق عليهم بتركهم الإيمان لما يعذبون أبدًا في النار، فعلى ذلك قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾.

ب. أو كان يكبر عليه ويثقل إعراضهم لما كانوا يطلبون منه الآيات، حتى إذا جاء بها لا يؤمنون؛

---

(١) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/ ٣٧٨.

(٢) تأويلات أهل السنة: ٤/ ٧٣.

من نحو ما قالوا: ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾ وغير ذلك من الآيات التي سألوها، فطمع رسول الله ﷺ في إيمانهم إذا جاء بما سألوا من الآيات، فكان الله عالمًا بأنه وإن جاءتهم آيات لم يؤمنوا، وإنَّما يسألون سؤال تعنت لا سؤال طلب آيات لتدلهم على الهدى، فقال عند ذلك: ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ﴾.

ج. أو أن يكون قوله: ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾ ونهيًا عن الحزن عليهم، أي: لا تحزن عليهم كل هذا الحزن بما ينزل بهم، وقد تعلم صنيعهم وسوء معاملتهم آيات الله، وكذلك روي في القصة عن ابن عباسٍ أن نفرًا من قريش قالوا: يا مُحَمَّد، ائتنا بآية كما كانت الأنبياء تأتي قومها بالآيات إذا سألوهم: فإن أتيتنا آمنا بك وصدقناك، فأبى الله أن يأتيهم بما قالوا، فأعرضوا عنه، فكبر ذلك عليه وشق، فأنزل الله: ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ﴾، يقول: إن قدرت ﴿أَنْ تَبْتَغِيَ﴾ يقول: أن تطلب ﴿نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾ يقول: سربًا في الأرض كنفق اليربوع نافذًا أو مخرجًا فتوارى فيه منهم ﴿أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ﴾ يكون سببًا إلى صعود السماء، ﴿فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ التي سألوكها فافعل.

٢. ﴿نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾:

أ. قَالَ الْقُتَبِيُّ: النفق في الأرض: المدخل، وهو السرب، والسلم في السماء: المصعد.

ب. وقال أَبُو عَوْسَجَةَ: النفق: الغار، والأنفاق: الغيران، والغار واحد.

٣. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾:

أ. قال الحسن: أي: لو شاء الله لقهرهم على الهدى وأكرههم، كما فعل بالملائكة؛ إذ من قوله إن الملائكة مجبورون مقهورون على ذلك، ثم هو يفضل الملائكة على البشر ويجعل لهم مناقب، لا يجعل ذلك لأحد من البشر، فلو كانت الملائكة مجبورين مقهورين على ذلك، لم يكن في ذلك لهم كبير منقبة؛ ففي قوله اضطراب.

ب. وأما تأويله عندنا[1]: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾، أي: لجعلهم جميعًا بحيث اختاروا الهدى وآثروه على غيره، ولكن لما علم منهم أنهم يختارون الكفر على الهدى، لم يشأ أن يجمعهم على الهدى،

---

(١) يقصد أهل السنة، والماتريدية خصوصا

وقد ذكرنا هذا فيما تقدم ألا يكون الهدى في حال القهر والجبر، وإنما يكون في حال الاختيار.

ج. قال أبو بكر الكيساني في قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ أي: لو شاء الله ابتلاهم بدون ما ابتلاهم به ليخف عليهم، فيجيبون بأجمعهم، أو يقول: لو شاء الله، لوفقهم جميعًا للهدى فيهتدون، وهو قولنا، لكن لم يشأ؛ لما ذكرنا أنه لم يوفقهم لما علم منهم أنهم يختارون الكفر.

٤. قوله عز وجل: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، يحتمل وجوهًا:

أ. يحتمل: فلا تكونن من الجاهلين: من قضاء الله وحكمه.

ب. ويحتمل: لا تكونن من الجاهلين: من إحسانه وفضله، أي: من إحسانه وفضله يجعل لهم الهدى.

ج. ويحتمل: لا تكونن من الجاهلين أنه يؤمن بك بعضهم وبعضهم لا يؤمن.

د. وقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، بأن الله قادر لو شاء لجعلهم جميعًا مهتدين.

هـ. ثم معلوم أن رسول الله ﷺ كان معصومًا، لا يجوز أن يقال إنه يكون من الجاهلين أو من الشاكرين، على ما ذكر، ولكن ذكر هذا ليعلم أن العصمة لا ترفع الأمر والنهي والامتحان، بل تزيد؛ لذلك كان ما ذكر.

٥. ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ معناه إنما يستجيب الذين ينتفعون بما يسمعون، وإلا كانوا يسمعون جميعًا، لكن الوجه فيه ما ذكرنا أنه إنما يجيب الذين ينتفعون بما يسمعون، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ كان النبي ﷺ ينذر من اتبع الذكر ومن لم يتبع، لكن انتفع بالإنذار من اتبع الذكر، ولم ينتفع من لم يتبع، وهو ما ذكر عز وجل: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أخبر أن الذكرى تنفع المؤمنين ولا تنفع غيرهم.

٦. ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾ اختلف فيه:

أ. قال بعضهم: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾ أنه على الابتداء؛ يبعثهم الله ثم إليه يرجعون.

ب. وقال قائلون: أراد بالموتى الكفار، سمي الكافر ميتًا والمؤمن حيًّا في غير موضع من القرآن؛ كقوله: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾، فهو أن جعل لكل بشر سمعين وبصرين وحياتين؛ سمع أبدي في الآخرة، وبصر أبدي في الآخرة؛ وكذلك جعل لكل

أحد حياتين: حياة أبدية في الآخرة، وحياة منقضية وهي حياة الدنيا؛ وكذلك سمع أبدي وهو سمع الآخرة، وسمع ذو مدة لها انقضاء وهو سمع الدنيا، ثم نفى السمع والبصر والحياة عمن لم يدرك بهذا السمع والبصر والحياة التي جعل له في الدنيا، ولم يقصد سمع الأبدية وبصر الأبدية والحياة الأبدية؛ لأنه إنما جعل لهم هذا في الدنيا؛ ليدركوا بهذا ذاك؛ وكذلك العقول التي ركبت في البشر إنما ركبت ليدركوا بها ويبصروا ذلك الأبدي، وإلا لو كان تركيب هذه العقول في البشر لهذه الدنيا خاصة، لا لعواقب تتأمل للجزاء والعقاب - فالبهائم قد تدرك بالطبع ذلك القدر، وتعرف ما يؤتى ويتقى، وما يصلح لها؛ فدل أن تركيب العقول فيمن ركب إنما ركب لا لما يدرك هذا؛ إذ يدرك ذلك المقدار بالطبع من لم يركب فيه وهو البهائم التي ذكرنا.

٧. والسمع والبصر والحياة قد جعلت في الدنيا لمعاشهم ومعادهم؛ وكذلك جعل لهم اللسان؛ لينطق بحوائجهم في الدنيا، ويعرف بعضهم من بعض حاجته في الدنيا، ويدرك به الأزلي، فإذا لم ينتفعوا بذلك أزال عنهم ذلك وسماهم العُمْي والصم والبكم؛ ألا ترى أنه قال: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾، لما لم ينتفعوا بذلك!؟ ألا ترى أنه إذ لم يدرك الأزلي والأبدي من ذلك سماه أعمى؛ حيث قال: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾.

٨. والحياة حياتان: حياة مكتسبة: وهي الحياة التي تكتسب بالهدى والطاعات، وحياة منشأة: وهي حياة الأجسام؛ فالكافر له حياة الجسد وليس له حياة مكتسبة، وأما المؤمن: فله الحياتان جميعًا المكتسبة والمنشأة فيسمى كل بالأسماء التي اكتسبها فالمؤمن اكتسب أفعالا طيبة فسماه بذلك، والكافر اكتسب أفعالا قبيحة فسماه بذلك.

٩. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً﴾ هَؤُلَاءِ قوم همتهم العناد والمكابرة وإلا قد كان أنزل عليه آيات عقليات وسمعيات وحسيات:

أ. فأما الآيات العقليات: فهي ما ذكر: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ الآية.

ب. وأما الآيات السمعيات: فهي ما أنباهم عن أشياء كانت غائبة عنهم، من غير أن كان له اختلاف إلى من يعلمها وينبئه عنها.

ج. والآيات الحسيات: هي ما سَقى أقوامًا كثيرة بلبن قليل من قصعة، وما قطع مسيرة شهرين بليلة واحدة، ونطق العناق الذي شوي له، وحنين المنبر، وغير ذلك من الأشياء مما يكثر ذكرها، لكنهم عاندوا، وكانت همتهم العناد.

١٠. ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً﴾: التي سألوك، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: يحتمل وجهين:

أ. يحتمل: أن يكون أن أكثرهم لا يعلمون أنه إذا أنزل آية على أثر السؤال لأنزل عليهم العذاب واستأصلهم إذا عاندوا.

ب. ويحتمل قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أنه لا ينزل الآية إلا عند الحاجة أبهم، إليها.

ج. ويحتمل ألا يسألوا الآية ليعلموا، ولكن يسألون؛ ليتعنتوا.

د. أو إن أنزل آية، على أثر سؤال، فلم يقبلوها، ولم يؤمنوا بها؛ أهلكهم على ما ذكرنا من سنته في الأولين، لكنه وعد إبقاء هذه الأمة إلى يوم القيامة.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. معنى قوله: ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ أي فافعل إن قدرت ولكنه اختصر، وإنما أراد الله سبحانه بهذا الخطاب أن الرسول لا يقدر على ما طلبتم منه، وإنما الآيات من عند الله وعنه.. والنفق الذي ذكر: هو المدخل في الأرض والممر، قال العالم صلوات الله عليه:

يُهْدَى لدار البلاء عن غير مَقْلية   قد حُطّ في عَرْصَةٍ منها له نَفَقُ

٢. أو سُلَّمَاً في السماء: يريد أو مطلعاً إلى السماء، والسُّلَّم: أعواد موشجة يرقى بها إلى المرتفع من الجدر والبروج.

الشريف المرتضى:

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/ ١٨٧.

ذكر الشريف المرتضى (ت ٤٣٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿إِنَّ اللهَّ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إذا كان الفعل قد صحّ منه تعالى وجب أن يسمّى (قادرا)؛ لأن اللغة توجب وصف من صحّ منه الفعل بأنه قادر.

٢. ويجب أن نصفه بأنه قادر فيما لم يزل ولا يزال؛ لأن الفعل إذا صحّ منه تعالى لما يرجع إلى ذاته وما هو عليه في ذاته حاصل في كلّ حال، وإنّما لم يصحّ وجود الفعل فيما لم يزل لأمر يرجع إلى الفعل، كما أن أحدنا قادر على ما يوجد بعد أوقات كثيرة وان لم يصحّ وجود ذلك في الثاني لأمر يرجع إلى المقدور لا إلى الصفة المصحّحة لإيجاد الفعل.

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أي عن سماع القرآن واتباعك فيما جئت به ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي سرباً وهو المسلك النافذ فيها مأخوذ من نافق اليربوع ﴿أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ﴾ أي سرباً ومصعداً ومنه قول كعب بن زهير:

ولا لكما ملجأ عن الأرض وابغيا به نفقاً أو في السماوات سلما

٢. ﴿فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ يعني أفضل من آيتك في الكلام محذوف وتقديره فتأتيهم بآية فافعل ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي لا تجزع في مواطن الصبر فتصير بالأسف والتحسير مقارباً لأحوال الجاهلين.

٣. ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أي الذين يعلمون ويعقلون ويطلبون الحق والاستجابة هي القبول والفرق بينها وبين الجواب أن الجواب قد يكون قبولاً وغير قبول وأن الاستجابة قد تكون من الذين يسمعون طلباً للحق وأما من لا يسمع أو يسمع لكن لا يقصد الحق فلا يكون منه استجابة.

٤. ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾ وهذا مثل ضربه الله تعالى لنبيه ويكون معنى الكلام أن الموتى لا يستجيبون حتى يبعثهم الله وكذلك الذين لا يسمعون.

---

(١) نفائس التأويل: ٢/ ٢٦٧

(٢) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/ ٢٣٩.

٥. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ يعني آية تكون دليلاً على صدقه وصحة نبوته ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً﴾ يعني أنهم يجابون بها إلى ما سألوا ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون الصحة في نزول الآية.. الثاني: أن زيادة الآيات إذا لم يؤمنوا بها توجب الزيادة في عذابهم لكثرة تكذيبهم.

٦. سؤال وإشكال: فإن قيل فهذه الآية تدل على أن الله عز وجل لم ينزل إليهم آية تعودهم إلى التصديق فلم يلزمهم الإيمان والجواب: هذا خطأ لأن ما أظهره الله عز وجل من الآيات الدالة على صدق رسوله وصحة نبوته أظهر من أن تخفى وأكثر من أن تنكر فإن القرآن مع عجز من تحداهم الله عز وجل من الإتيان بمثله وما تضمنه من أخبار الغيوب وصدق خبره عما كان ويكون أبلغ الآيات المعجزات، وإنما اقترحوا أنهم سألوها إعناتاً فلم يجابوا مع قدرة الله تعالى على إنزالها لأنه لو أجابهم إليها لاقترحوا غيرها إلى ما لا نهاية له حتى يقطع الرسول بإظهار الآيات عن تبليغ الرسالة.. وإنما يلزمه إظهار الآيات في موضعين:

أ. أحدهما: عند بعثه رسولاً ليكون مع استدعائه لهم دليلاً على صدقه.

ب. الثاني: أنه يسألها من يعلم الله تعالى منه أنه إن أظهرها له آمن به، وليس يجب إظهارها في غير هذين الموضعين.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ فيه قولان:

أ. أحدهما: إعراضهم عن سماع القرآن.

ب. الثاني: عن استماعك.

٢. ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي سرباً، وهو المسلك فيها، مأخوذ من نافقاء اليربوع.

٣. ﴿أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ﴾ فيه ثلاثة أقاويل:

---

(١) تفسير الماوردي: ٢/ ١٠٩.

أ. أحدها: مصعداً، قاله السدي.

ب. الثاني: دَرَجاً، قاله قتادة.

ج. الثالث: سبباً، قاله الكلبي وقد تضمن ذلك قول كعب بن زهير.

ولا لَكُمَا مَنْجىً عَلَى الأرْضِ فَابْغِيَا ... به نَفَقاً أوْ في السَّمَوَات سُلَّماً

٤. ﴿فَتَأْتِيَهُم بِئَايَةٍ﴾ يعني أفضل من آيتك ولن تستطيع ذلك، لم يؤمنوا لك، فلا يحزنك تكذيبهم وكفرهم، قال الفراء: وفي الكلام مضمر محذوف وتقديره: فتأتيهم بآية فافعل.

٥. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ يعني بالإلجاء والاضطرار، قال ابن عباس: كل موضع قال الله فيه ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ﴾ فإنه لم يشأ.

٦. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ يعني تجزع في مواطن الصبر، فتصير بالأسف والتحسر مقارباً لأحوال الجاهلين.

٧. ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ الاستجابة هي القبول، والفرق بينها وبين الجواب: أن الجواب قد يكون قبولاً وغير قبول.

٨. ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ فيه تأويلان:

أ. أحدهما: يعني الذين يعقلون، قاله الكلبي.

ب. الثاني: الذين يسمعون طلباً للحق، لأن الاستجابة قد تكون من الذين يسمعون طلباً للحق، فأما من لا يسمع، أو يسمع لكن لا بقصد طلب الحق، فلا يكون منه استجابة.

٩. ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾ فيه قولان:

أ. أحدهما: أن المراد بالموتى هنا الكفار، قاله الحسن، وقتادة ومجاهد، ويكون معنى الكلام: إنما يستجيب المؤمنون الذين يسمعون، والكفار لا يسمعون إلا عند معاينة الحق اضطراراً حين لا ينفعهم حتى يبعثم الله كفاراً ثم يحشرون كفاراً.

ب. الثاني: أنهم الموتى الذين فقدوا الحياة، وهو مثل ضربه الله تعالى لنبيه ﷺ، ويكون معنى الكلام: كما أن الموتى لا يستجيبون حتى يبعثهم الله فكذلك الذين لا يسمعون.

١٠. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ يعني آية تكون دليلاً على صدقه وصحة نبوته، ﴿قُلْ إِنَّ

اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ يعني آية يجابون بها إلى ما سألوا.

١١. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يحتمل وجهين.

أ. أحدهما: لا يعلمون المصلحة في نزول الآية.

ب. الثاني: لا يعلمون أن زيادة الآيات إذا لم يؤمنوا بها، توجب الزيادة من عذابهم، لكثرة تكذيبهم.

١٢. سؤال وإشكال: هذه الآية لا تدل على أن الله لم ينزل عليهم آية تقودهم إلى التصديق فلم يلزمهم الإيمان، والجواب: هذا خطأ، لأن ما أظهره الله من الآيات الدالة على صدق رسوله وصحة نبوته، أظهر من أن يُخْفَى، وأكثر من أن ينكر، وأن القرآن مع عجز من تحداهم الله من الآيات بمثله، وما تضمنه من أخبار الغيوب وصدق خبره عما كان ويكون أبلغ الآيات وأظهر المعجزات، وإنما اقترحوا آية سألوها إعناتاً، فلم يجابوا مع قدرة الله تعالى على إنزالها، لأنه لو أجابهم إليها لاقترحوا غيرها إلى ما لا نهاية له، حتى ينقطع الرسول بإظهار الآيات عن تبليغ الرسالة، وإنما يلزمه إظهار الآيات في موضعين:

أ. أحدهما: عند بعثه رسولاً ليكون مع استدعائه لهم دليل على صدقه.

ب. الثاني: أن يسألها من يعلم الله منه أنه إن أظهرها له آمن به، وليس يلزمه إظهارها في غير هذين الموضعين.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. خاطب الله تعالى بهذه الآية نبيه ﷺ فقال له: ﴿إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ﴾ وعظم عندك (إعراضهم) أي إعراض هؤلاء الكفار عما أتيتهم به من القرآن والمعجزات وامتناعهم من اتباعك والتصديق لك وكنت حزيناً لذلك ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ﴾ وقدرت أو تهيأ لك أن تبتغي نفقاً أن تتخذ في جوف الأرض مسكناً وهو النفق (في الأرض) إذا كان له منفذ ﴿أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ﴾ أو أن تصعد إلى السماء بسلم.

٢. ﴿فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ يعني بآية تلجئهم إلى الإيمان وتجمعهم عليه وعلى ترك الكفر فافعل ذلك،

---

(١) تفسير الطوسي: ٤/ ١٢٣.

وحذف فافعل لدلالة الكلام عليه، كما تقول: إن رأيت أن تقوم ومعناه فقم، وإن أراد غير ذلك لم يجز أن يسكت إلا بعد أن يأتي بالجواب، لأنه إن أراد أن أردت أن تقوم تصب خيراً فلا بد من الجواب، ولم يرد بذلك آية يؤمنون عندها مختارين، لأنه تعالى فعل بهم الآيات التي تزاح علتهم بها ويتمكنون معها من فعل الإيمان لأنه لو علم تعالى أنه إذا فعل بهم آية من الآيات يؤمنون عندها مختارين وجب أن يفعلها بهم، وبيَّن أنه فعل بهم جميع ما لا ينافي التكليف وهم لا يؤمنون كما قال: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ الآية، وكما قال: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾:

أ. إنما لم يفعل ما يلجئهم إلى الإيمان، لأن ذلك ينافي التكليف ويسقط استحقاق الثواب الذي هو الغرض بالتكليف.

ب. وإنما أراد الله تعالى أن يبين لنبيه ﷺ أنه لا يستطيع هذا ولا يقدر عليه، فلا ينبغي أن يلزم نفسه الغم والجزع لكفرهم وإعراضهم عن الإيمان والتصديق به، وجعل ذلك عزاء لنبيه ﷺ وتسلية له ثم أخبر أنه لو شاء أن يجمعهم على الإيمان على وجه الإلجاء لكان على ذلك قادراً لكنه ينافي ذلك الغرض بالتكليف، وجرى ذلك مجرى قوله ﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ فإنه أراد بذلك الإخبار عن قدرته وانه لو شاء ألجأهم إلى الإيمان لكان عليه قادراً.

ج. ولا يدل ذلك على أنه لم يشأ منهم الإيمان على وجه الاختيار منهم أو لم يشأ أن يفعل ما يؤمنون عنده مختارين، لأن الله تعالى قد شاء منهم الإيمان على هذا الوجه وإنما أفاد نفي المشيئة لما يلجئهم إلى الإيمان، لأنه متى ألجأهم إليه لم يكن ذلك إيماناً يستحق عليه الثواب.

د. والغرض بالآية أن يبين تعالى أن الكفار لم يغلبوا الله بكفرهم ولا قهروه بخلافه وانه لو أراد أن يحول بينهم وبينه لفعل، لكنه يريد أن يكون إيمانهم على وجه يستحقون به الثواب، ولا ينافي التكليف.

٣. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ إنما هو نهي محض عن الجهل ولا يدل ذلك على أن الجهل كان جائزاً منه ﷺ بل يفيد كونه قادراً عليه، لأنه تعالى لا يأمر ولا ينهى إلا بما يقدر المكلف عليه، ومثله قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ وإن كان الشرك لا يجوز عليه لكن لما كان قادراً عليه جاز أن ينهاه عنه، والمراد ها هنا فلا تجزع ولا تحزن لكفرهم وإعراضهم عن الإيمان، وأنهم لم يجمعوا على التصديق بك فتكون في ذلك بمنزلة الجاهلين الذين لا يصبرون على المصائب، ويأثمون لشدة الجزع.

٤. ﴿نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ﴾ النفق: الطريق النافذ في الأرض والنافقاء ممدوداً وجر حجر اليربوع يحفره من باطن الأرض إلى جلدة الأرض فإذا بلغ الجلدة أرقها فإذا رابه ريب وقع برأسه هذا المكان وخرج منه، ومنه سمي المنافق منافقاً لأنه أبطن غير ما أظهر، والسلُّم مشتق من السلامة لأنه يسلمك إلى مصعدك.

٥. ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ الوقف عند قوله: ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ ومعنى الآية إنما يستجيب إلى الإيمان بالله وما أنزل إليك من يسمع كلامك ويصغي إليك، وإلى ما تقرأ عليه من القرآن وما تبين له من الحجج والآيات ويفكر في ذلك لأنه لا يتبين الحق من الباطل إلا لمن تفكر فيه واستدل عليه بما يستمع أو يعرف من الآيات والأدلة على صحته، وجعل من لم يتفكر ولم ينتفع بالآيات بمنزلة من لم يستمع كما قال الشاعر:

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

وكما جعله الشاعر بمنزلة الأصم في قوله: أصم عما ساءه سميع.

٦. ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾:

أ. معناه أن الذين لا يصغون إليك من هؤلاء الكفار ولا يسمعون كلامك إن كلمتهم، ولا يسمعون ما تقرأه عليهم وتبينه لهم من حجج الله وآياته، وينفرون عنه إذا كلمتهم بمنزلة الموتى، فكما أن الموتى لا يستجيبون لمن يدعوهم إلى الحق والإيمان، فكذلك هؤلاء الكفار لا يستجيبون لك إذا دعوتهم إلى الإيمان، فكما آيست أن يسمع الموتى كلامك إلى أن يبعثهم الله وإلى أن يرجعوا إليه، فكذلك فآيس من هؤلاء أن يسمعوا كلامك وأن يستجيبوا لك، وبين أن الموتى إذا بعثهم الله بمعنى أحياهم أنهم يرجعون بعد الحشر والبعث إلى الموضع الذي لا يملك الحكم فيه عليهم غير الله تعالى، ولا يملك محاسبتهم وضرهم ونفعهم غيره، فجعل رجوعهم إلى ذلك الموضع رجوعاً إلى الله وذلك مستعمل في اللغة.

ب. وقال مجاهد: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ يعني المؤمنين يسمعون الذكر ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾ يعني المشركين الصم يبعثهم الله فيحييهم من شركهم حتى يؤمنوا ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة.

٧. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، قرأ ابن كثير (ينزل) بالتخفيف، الباقون بالتشديد.

٨. معنى (وقالوا) إخبار عما قاله الكفار من أنهم قالوا (لولا) ومعناه: هلا ﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ يعني الآية التي سألوها واقترحوا أن يأتيهم بها من جنس ما شاءوا لما قالوا ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ يعنون فلق البحر وإحياء الموتى، وإنما قالوا ذلك حين أيقنوا بالعجز عن معارضته فيما أتى به من القرآن، فاستراحوا إلى أن يلتمسوا مثل آيات الأولين، فقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ وقال ها هنا قل يا محمد ﴿إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما في إنزالها من وجوب الاستئصال لهم إذا لم يؤمنوا عند نزولها، وما في الاقتصار بهم على ما أوتوا من المصلحة لهم، وبين في آية أخرى أنه لو أنزل عليهم ما أنزل لم يؤمنوا، وهو قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ إلى قوله: ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ أن يكرههم، وقال: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ يعني الآيات التي اقترحوها إنما لم نأتهم بها، لأنا لو أتيناهم بها ولم يؤمنوا وجب استئصالهم، كما وجب استئصال من تقدمهم ممن كذب بآيات الله، وقال في سورة العنكبوت ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ الآية، فبين أن الآيات لا يقدر عليها إلا الله، وقد أتاهم بما فيه كفاية وإزاحة لعلتهم وهو القرآن، وغيره مما شاهدوه من المعجزات والآيات، ولا يلزم إظهار المعجزات بحسب اقتراح المقترحين، لأنه لو لزم ذلك لوجب إظهارها في كل حال ولكل مكلف وذلك فاسد.

٩. سؤال وإشكال: طعن قوم من الملحدين، فقالوا: لو كان محمد قد أتى بآية لما قالوا له: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ ولما قال: ﴿إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً﴾، والجواب: قد بينا أنهم التمسوا آية مخصوصة وتلك لم يؤتوها وإن كان الله تعالى قادراً عليها، وإنما لم يؤتوها لأن المصلحة منعت من إنزالها، وإنما أتى بالآيات الأخرى التي دلت على نبوته من القرآن وغيره على ما اقتضته المصلحة، ولذلك قال فيما تلوناه ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ فبين أن في إنزال الكتاب كفاية ودلالة على صدقه وأنه لا يحتاج معه إلى أمر آخر فسقط ما قالوه.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الكبير: خلاف الصغير، والكُبَارُ: الكبير، وكذلك الكُبَّار بالتشديد والتخفيف، والكِبْر: العظمة، وهو الكبرياء، ورث القوم مجدهم كابرًا عن كابر؛ أي كبيرًا عن كبير في الشرف والعز، وأكبرت الشيء استعظمته، ومنه: [أَكْبَرْنَهُ أعظمنه]، و﴿تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾ الكِبْر: معظم الأمر؛ أي تولى معظم الإفك، ومنه قوله: ﴿لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ أي إحدى العظائم.

ب. النفق: السرب وهو المسلك النافذ الذي يمكن الخروج منه، وأصله الخروج، ومنه المنافق لخروجه من الإيمان إلى الكفر، ومنه النفقة لخروجها من اليد، والنافقاء موضع يرفعه اليربوع من جحره إذا أتي من قبل القاصعاء ضرب النافقاء برأسه، وانتفق أي خرج منه، يقال: نفق اليربوع من جحره، ومنه اشتقاق النفاق عند بعضهم.

ج. السُّلَّم: الدرج، وهو معروف، وهو مأخوذ من السلامة، قال الزجاج: لأنه الذي يسلمك إلى مصعدك.

د. الاستجابة: القطع بالأمر، وأصله جاب يجوب جوبًا إذا قطع، ومنه ﴿جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ ومنه المجبوب، وأجاب: قطع بالمعنى الذي علقه السائل، فهو مجيب، وهل عندك جائبة؛ أي خبر يجوب البلاد، والفرق بين يستجيب ويجيب: أن يستجيب فيه قبول لما دعي إليه، وليس كذلك يجيب؛ لأنه قد يجيب بالمخالفة، كقولك للسائل: أتوافق في هذا المذهب أم تخالف؟ فيقول المجيب: أخالف، عن علي بن عيسى، وقيل: أجاب واستجاب بمعنى.

هـ. العلم: اعتقاد الشيء على ما هو به مع سكون النفس، ونقيضه الجهل: اعتقاد الشيء على ما ليس به، والمَجْهَلَةُ الأمر يحملك على الجهل، والمَجْهَل: المفازة لا علم بها.

٢. مما روي في سبب نزول الآية الكريمة: قال الحارث بن عامر: يا محمد ائتنا بآية كما كانت الأنبياء تأتي بها لنصدقك؟ فلم يأتهم ما اقترحوا، فأعرضوا عنه فكبر ذلك عليه، فنزلت الآية، عن الكلبي.

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/ ٥٤٤.

٣. مما ذكر في علاقة الآية الكريمة بما قبلها:

أ. قيل: هذه تسلية للنبي ﷺ، وحث على الصبر، وتقديره: فإن حزنت بما يقولون، وكبر عليك واستطعت أن تأتيهم بآية تضطرهم إلى الإيمان فافعل، يعني لا تستطيع ذلك، ثم بين أنه القادر على ذلك ولا يكرههم، عن أبي مسلم.

ب. وقيل: لما ذكر حزنه على قومه بَيَّنَ أنه لا ينال من قومه ما يتمناه، وبين أنه إن استطاع أن يفعل ما ذكرنا، فإنهم لا يؤمنون، فَبَيَّنَ أنه لا سبيل إلى ذلك، وأنهم قط لا يؤمنون إلا أن يشاء الله أن يكرههم على ذلك، عن الأصم.

ج. وقيل: فيه بيان أنه لا أمر في مقدوره يأتي به فيقع منهم الإيمان إعذارًا له وإياسًا من إيمانهم، عن القاضي.

٤. ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ﴾ أي عظم واشتد ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾ انصرافهم عنك، وعن الإيمان بك وقبول دينك ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ﴾ قدرت ﴿أَنْ تَبْتَغِيَ﴾ تطلب ﴿نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي سربًا ﴿أَوْ سُلَّمًا﴾:

أ. قيل: مصعدًا، عن السدي.

ب. وقيل: درجًا، عن قتادة، فهما متقاربان.

٥. ﴿فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ حجة:

أ. قيل: آية تلجئهم إلى الإيمان فافعل، عن ابن عباس، أي لا آية أفضل وأظهر من ذلك.

ب. وقيل: آية يجتمعون على الهدى لأجلها فافعل، فبين أنه لا لطف يجمعهم على الإيمان.

٦. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ﴾ أراد ﴿لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ بالإلجاء وذلك يكون بوجوه:

أ. منها: شدة الخوف كما آمن فرعون.

ب. ومنها: أن يعلم أنه لو رام الكفر حيل بينه وبين ذلك.

ج. ومنها: أن يقوي دواعي الإيمان ولا يقابله داع إلى الكفر.

٧. وإنما لم يفعل الإلجاء لأنه يبطل التكليف، وغلط بعضهم فزعم أنه منعهم اللطف، وهذا لا يجوز؛ لأن منع اللطف في القبح بمنزلة منع التمكين، وقد قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾

٨. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾:

أ. قيل: لا تجزع في مواطن الصبر، فتقارب حال الجاهلين بأن تسلك سبيلهم، عن أبي علي.

ب. وقيل: لا تفعل فعلهم، ولا تطمع في هَؤُلَاءِ الكافرين أن يجمعوا على الإيمان عن أبي مسلم.

ج. وقيل: لا يحملنك الاغتمام بإعراضهم على أن تعصي الله، وتدع ما عليك من الإبلاغ، عن الأصم.

د. وقيل: هذا نفي للجهل عنه، أي لا تكن جاهلاً بعدما أتاك العلم بأحوالهم أي علمت أحوالهم أنهم لا يؤمنون، فعلى ذلك فاعمل معهم.

٩. ثم بين الوجه الذي لأجله لا يجتمعون على الإيمان فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾ أي يجيب، وقد يكون ذلك بالقبول، وقد يكون بالعمل به ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾:

أ. يعني يجيب مَنْ سَمِعَ الحق سماع مسترشد طلبًا للحق، فأما من لا يسمع، أو سمع منكرًا أو معاندًا، فإنه لا يؤمن.

ب. وقيل: لا يجيب من لا يسمع، وإنما المستجيب في الَّذِينَ يسمعون.

١٠. سؤال وإشكال: كيف اتصال قوله تعالى: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ بما قبله؟

والجواب:

أ. قيل: يتصل بما قبله تقديره: إنما يستجيب المؤمن السامع الحق، وأما الكافر فهو بمنزلة الموتى فلا يجيبون إلا أن يبعثهم الله يوم القيامة فيلجئهم إلى الإيمان

ب. وقيل: إنما يستجيب من كان قلبه حيًّا، فأما إذا كان قلبه ميتًا فلا، ثم وصف الموتى بأنه يبعثهم ويحكم فيهم.

ج. وقيل: إنه وعيد لهم أنهم كالموتى، ثم قال: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾ يعني: أنهم وإن كانوا في سماع الحق كالموتى، فسيحشرون ويجازون.

١١. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ أي إلى حكمه وجزائه، وإنما عطف الرجوع على البعث:

أ. قيل: يبعثهم من القبر ويحشرهم إلى موقف الحساب.

ب. وقيل: يبعثون إلى الحشر ثم يرجعون إلى الجزاء.

ج. وقال الحسن: يحييهم من شركهم حتى يؤمنوا عند حضور الموت في حال الإلجاء في الدنيا ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ في الحشر للجزاء.

د. وقيل: ثم إليه يرجع الجميع المؤمن والكافر.

١٢. واختلفوا في الموتى:

أ. قيل: أراد الكفار، عن الحسن وقتادة ومجاهد، يعني يستجيب المؤمن، فأما الكافر فيبعثهم بالاضطرار إلي إدراك الحق.

ب. وقيل: هم الأموات خلاف الأحياء.

١٣. ثُمَّ عاد إلى حكاية أقوال الكفار عطفًا على ما تقدم فقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا﴾ يعني الكفار، وقيل: الحارث بن عامر وأصحابه.

١٤. ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾:

أ. قيل: آية ينزلها من السماء وهم يعاينون نزولها.

ب. وقيل: آية تجمعهم على الإيمان عن الزجاج.

ج. وقيل: آية بحسب اقتراحهم.

د. وقيل: آية في إنزالها الاستئصال كما في عاد وثمود.

هـ. وقيل: آية تضطرهم إلى الإيمان.

١٥. ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّ اللهَ قَادِرٌ﴾ على إنزال ما سألوا من الآيات، ولكن ينزل ما فيه مصلحة، ولا ينزل ما فيه مفسدة، وهو العليم بالمصالح دونهم، وأنه لا يجب أن يُقَدِّر بحسب تدبير العباد، بل يدبر على ما تقتضيه حكمته تعالى.

١٦. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾:

أ. قيل: لا يعلمون ما عليهم من البلاء في إنزالها لو أنزلت ولم يؤمنوا فالأوجه ترك إنزالها.

ب. وقيل: لا يعلمون أنه قادر على إنزالها لا يقدر عليها غيره، عن أبي علي.

ج. وقيل: لا يعلمون ما يجوز أن يسألوا، وما لا يجوز.

د. وقيل: لا يعلمون ما يقتضيه سؤالهم من الهلاك.

هـ. وقيل: لا يعلمون أن الآية التي تجبرهم على الإيمان لا تنفعهم.

و. والذي يليق بالظاهر ما قاله أبو علي، [وإن كان] الجميع محتملاً.

١٧. تدل الآية الكريمة على:

أ. أن هَؤُلَاءِ الكفار لا لطف لهم يؤمنون عنده؛ إذ لو كان لفعل ولآمنوا خلاف قول أصحاب اللطف.

ب. أن ما اقترحوه من الآيات كان مفسدة، وإلا لأنزلها.

ج. أنه ينزل من الآيات ما فيه لطف، ولا ينزل ما فيه مفسدة، فيؤيد قولنا في اللطف.

د. أن المعارف ليست بضرورية لذلك صح طلب الآيات، وقوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾

هـ. أن الأعراض وما قالوا فعْلُهم خلاف قولهم: إنه خَلْق الله تعالى.

و. تعلق بعضهم بالآية بأنه تعالى لا يشاء منهم الإيمان والجواب أن المراد به مشيئة الإلجاء والإكراه، وعندنا أنه لم يرد ذلك، وإنما أراد أن يؤمنوا على سبيل الاختيار والطوع ليستحقوا الثواب.

١٨. مسائل لغوية ونحوية:

أ. الفرق بين ﴿أَنْ﴾ و﴿إِنَّمَا﴾ أن ﴿أَنْ﴾ قصر على المذكور بالصفة دون غيره كقولك: إن الأنبياء في الجنة، لا يمنع كون غيرهم فيها، و﴿إِنَّمَا﴾ فيه نفي وإثبات، كقوله: إنما الأعمال بالنيات) كأنه قيل: لا عمل إلا بالنية.

ب. جواب ﴿أَنْ﴾ محذوف، تقديره: إن استطعت أن تفعل ذلك فافعل، فحذف لعلم المخاطب به..

ج. ﴿فَتَأْتِيَهُمْ﴾ نصب لأنه عطف على [منصوب] ﴿أَنْ﴾ كأنه قيل: أن تأتيهم، وقد تقدم ذكر ﴿أَنْ﴾ في قوله: ﴿أَنْ تَبْتَغِيَ﴾

الطَبرِسي:

ذكر الفضل الطَبرِسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

(١) تفسير الطبرسي: ٤/ ٣٨.

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. النفق: سرب في الأرض له مخلص إلى مكان آخر، وأصله الخروج، ومنه المنافق لخروجه من الإيمان إلى الكفر، ومنه النفقة لخروجها من اليد.

ب. السلّم: الدرج وهو مأخوذ من السلامة، قال الزجاج: لأنه الذي يسلمك إلى مصعدك.

ج. الاستجابة من الجوب وهو القطع، وهل عندك جائبة خبر أي: تجوب البلاد، والفرق بين يستجيب ويجيب أن يستجيب فيه قبول لما دعي إليه، وليس كذلك يجيب لأنه يجوز أن يجيب بالمخالفة، كما أن السائل يقول: أتوافق في هذا المذهب أم تخالف؟ فيقول المجيب: أخالف عن علي بن عيسى، وقيل إن أجاب واستجاب بمعنى.

٢. بين سبحانه أن هؤلاء الكفار لا يؤمنون، فقال مخاطبا لنبيه ﷺ ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ﴾ أي: عظم واشتد ﴿عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ وانصرافهم عن الإيمان وقبول دينك، وامتناعهم من اتباعك وتصديقك ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ﴾ أي: قدرت وتهيأ لك ﴿أَنْ تَبْتَغِيَ﴾ أي: تطلب وتتخذ ﴿نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: سربا ومسكنا في جوف الأرض ﴿أَوْ سُلَّمًا﴾ أي: مصعدا ﴿فِي السَّمَاءِ﴾، ودرجا.

٣. ﴿فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾:

أ. أي: حجة تلجئهم إلى الإيمان وتجمعهم على ترك الكفر، فافعل ذلك.

ب. وقيل: فتأتيهم بآية أفضل مما اتيناهم به فافعل، عن ابن عباس، يريد لا آية أفضل وأظهر من ذلك.

٤. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ بالإلجاء وإنما أخبر، عز اسمه، عن كمال قدرته، وأنه لو شاء لألجأهم إلى الإيمان ولم يفعل ذلك، لأنه ينافي التكليف، ويسقط استحقاق الثواب الذي هو الغرض با لتكليف، وليس في الآية أنه سبحانه لا يشاء منهم أن يؤمنوا مختارين، أو لا يشاء أن يفعل ما يؤمنون عنده مختارين، وإنما نفى المشيئة لما يلجئهم إلى الإيمان ليتبين أن الكفار لم يغلبوه بكفرهم، فإنه لو أراد أن يحول بينهم وبين الكفر لفعل، لكنه يريد أن يكون إيمانهم على الوجه الذي يستحق به الثواب، ولا ينافي التكليف.

٥. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾:

أ. قيل: معناه فلا تجزع في مواطن الصبر فيقارب حالك حال الجاهلين بأن تسلك سبيلهم، عن الجبائي.

ب. وقيل: إن هذا نفي للجهل عنه، أي: لا تكن جاهلا بعد أن أتاك العلم بأحوالهم، وأنهم لا يؤمنون، والمراد: فلا تجزع، ولا تتحسر لكفرهم وإعراضهم عن الإيمان وغلظ الخطاب تبعيدا وزجرا عن هذه الحال.

٦. ثم بين سبحانه الوجه الذي لأجله لا يجتمع هؤلاء الكفار على الايمان فقال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ ومعناه: إنما يستجيب إلى الإيمان بالله وما أنزل إليك من يسمع كلامك، ويصغي إليك، وإلى ما تقرأه عليه من القرآن، ويتفكر في آياتك، فإن من لم يتفكر ولم يستدل بالآيات، بمنزلة من لم يسمع كما قيل:

لقد أسمعت لو ناديت حيا　　　ولكن لا حياة لمن تنادي

وقال الآخر (أصم عما ساءه سميع)

٧. ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾:

أ. يريد: إن الذين لا يصغون إليك من هؤلاء الكفار، ولا يتدبرون فيما تقرأه عليهم، وتبينه لهم من الآيات والحجج، بمنزلة الموتى، فكما أيست أن تسمع الموتى كلامك إلى أن يبعثهم الله، فكذلك فآيس من هؤلاء أن يستجيبوا لك، وتقديره: إنما يستجيب المؤمن السامع للحق، فأما الكافر فهو بمنزلة الميت، فلا يجيب إلى أن يبعثه الله يوم القيامة، فيلجئه إلى الإيمان.

ب. وقيل: معناه إنما يستجيب من كان قلبه حيا، فأما من كان قلبه ميتا فلا.

٨. ثم وصف الموتى بأنه يبعثهم، ويحكم فيهم ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى حكمه ﴿يَرْجِعُونَ﴾ وقيل: معناه يبعثهم الله من القبور، ثم يرجعون إلى موقف الحساب.

٩. ثم عاد سبحانه إلى حكاية أقوال الكفار، فقال عاطفا على ما تقدم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ هذا إخبار عن رؤساء قريش لما عجزوا من معارضته فيما أتى به من القرآن، اقترحوا عليه مثل آيات الأولين، كعصا موسى، وناقة ثمود، فقال سبحانه في موضع آخر: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ وقال ههنا: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً﴾:

أ. أي: آية تجمعهم على هدى، عن الزجاج.

ب. وقيل: آية كما يسألونها.

١٠. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾:

أ. ما في إنزالها من وجوب الاستئصال لهم إذا لم يؤمنوا عند نزولها، وما في الاقتصار بهم على ما أوتوه من الآيات من المصلحة.

ب. وقيل: معناه ولكن أكثرهم لا يعلمون أن فيما أنزلنا من الآيات مقنعا وكفاية لمن نظر وتدبر.

١١. سؤال وإشكال: اعترضت الملحدة على المسلمين بهذه الآية فقالوا: إنها تدل على أن الله تعالى لم ينزل على محمد آية، إذ لو نزلها لذكرها عند سؤال المشركين إياها! والجواب: يقال لهم: قد بينا أنهم التمسوا آية مخصوصة، وتلك لم يؤتوها، لأن المصلحة منعت عن ايتائها، وقد أنزل الآيات الدالة على نبوته من القرآن، وآتاهم من المعجزات الباهرة التي شاهدوها، ما لو نظروا فيها، أو في بعضها، حق النظر، لعرفوا صدقه، وصحة نبوته وقد بين في آية أخرى، أنه لو أنزل عليهم ما التمسوه، لم يؤمنوا فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ إلى قوله: ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾، وفي موضع آخر ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩] يعني في قدرة الله، ينزل منها ما يشاء، ويسقط ما اعترضوا به.

١٢. جواب ﴿إِنْ﴾ محذوف، وتقديره إن استطعت ذلك فافعل، قال الفراء: وإنما تفعله العرب في كل موضع يعرف فيه معنى الجواب، ألا ترى أنك تقول للرجل: إن استطعت أن تتصدق إن رأيت أن تقوم معنا، فتترك الجواب للمعرفة به، فإذا قلت: إن تقم تصب خيرا، فلا بد من الجواب، لأن معناه لا يعرف إذا طرح الجواب.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. سبب نزولها: أنّ الحارث بن عامر أتى رسول الله ﷺ في نفر من قريش فقال: يا محمّد، ائتنا بآية

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٢/ ٢٦.

كما كانت الأنبياء تأتي قومها بالآيات، فإن فعلت آمنّا بك، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

٢. ﴿كَبُرَ﴾: بمعنى (عظم)، وفي إعراضهم قولان:

أ. أحدهما: عن استماع القرآن.

ب. الثاني: عن اتّباع النبيّ ﷺ.

٣. ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ﴾ قال ابن قتيبة: النّفق في الأرض: المدخل، وهو السّرب، والسّلّم في السماء: المصعد، وقال الزّجّاج: النّفق: الطريق النّافذ في الأرض، والنّافقاء، ممدود: أحد جحرة اليربوع يخرقه من باطن الأرض إلى جلدة الأرض، فإذا بلغ الجلدة أرقّها، حتى إن رابه ريب، دفع برأسه ذلك المكان وخرج، ومنه سمّي المنافق، لأنه أبطن غير ما أظهر، كالنّافقاء الذي ظاهره غير بيّن، وباطنه حفر في الأرض، و(السّلّم) مشتق من السّلامة، وهو الشيء الذي يسلّمك إلى مصعدك، والمعنى: فإن استطعت هذا فافعل، وحذف (فافعل)، لأنّ في الكلام دليلا عليه، وقال أبو عبيدة: السّلّم: السّبب والمرقاة، تقول: اتّخذتني سلّما لحاجتك، أي: سببا.

٤. في قوله تعالى: ﴿فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ قولان:

أ. أحدهما: بآية قد سألوك إيّاها، وذلك أنهم سألوا نزول ملك الموت، ومثل آيات الأنبياء، كعصا موسى، وناقة صالح.

ب. الثاني: بآية هي أفضل من آيتك.

٥. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: لو شاء أن يطبعهم على الهدى لطبعهم.

ب. الثاني: لو شاء لأنزل ملائكة تضطرّهم إلى الإيمان ذكرهما الزّجّاج.

ج. الثالث: لو شاء لآمنوا كلّهم، فأخبر أنما تركوا الإيمان بمشيئته، ونافذ قضائه.

٦. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: لا تجهل أنه لو شاء لجمعهم على الهدى.

ب. الثاني: لا تجهل أنه يؤمن بك بعضهم، ويكفر بعضهم.

ج. الثالث: لا تكوننّ ممن لا صبر له، لأنّ قلّة الصّبر من أخلاق الجاهلين.

٧. ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أي: إنما يجيبك من يسمع، والمراد به سماع قبول.

٨. في المراد بالموتى قولان:

أ. أحدهما: أنهم الكفار، قاله الحسن، ومجاهد وقتادة، فيكون المعنى: إنما يستجيب المؤمنون؛ فأما الكفار، فلا يستجيبون حتى يبعثهم الله تعالى: ثم يحشرهم كفّارا، فيجيبون اضطرارا.

ب. الثاني: أنهم الموتى حقيقة، ضربهم الله تعالى مثلا؛ والمعنى: أنّ الموتى لا يستجيبون حتى يبعثهم الله، فكذلك الذين لا يسمعون.

٩. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ يعني: المؤمنين والكافرين، فيجازي الكلّ.

١٠. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ قال ابن عباس: نزلت في رؤساء قريش، و(لولا): بمعنى (هلّا)؛ وقد شرحناها في سورة النّساء، وقال مقاتل: أرادوا بالآية مثل آيات الأنبياء، وقال غيره: أرادوا نزول ملك يشهد له بالنّبوّة.

١١. في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: لا يعلمون بأنّ الله سبحانه وتعالى قادر على إنزال الآية.

ب. الثاني: لا يعلمون ما عليهم من البلاء في إنزالها، لأنهم إن لم يؤمنوا بها، زاد عذابهم.

ج. الثالث: لا يعلمون المصلحة في نزول الآية.

الرّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. المروي عن ابن عباس: أن الحرث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف أتى النبي ﷺ في نفر من قريش، فقالوا: يا محمد ائتنا من عند الله كما كانت الأنبياء تفعل فانا نصدق بك فأبى الله أن يأتيهم بها فأعرضوا عن رسول الله ﷺ فشق ذلك عليه، فنزلت هذه الآية.

٢. المعنى، وإن كان كبر عليك إعراضهم عن الإيمان بك، وصحة القرآن، فإن استطعت أن تبتغي

---

(١) التفسير الكبير: ١٢/ ٥٢١.

نفقا في الأرض أو سلما في السماء فافعل، فالجواب محذوف وحسن هذا الحذف لأنه معلوم في النفوس.

٣. ﴿أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا﴾ النفق سرب في الأرض له مخلص إلى مكان آخر، ومنه نافقاء اليربوع لأن اليربوع يثقب الأرض إلى القعر، ثم يصعد من ذلك القعر إلى وجه الأرض من جانب آخر، فكأنه ينفق الأرض نفقا، أي يجعل له منفذا من جانب آخر، ومنه أيضا سمي المنافق منافقا لأنه يضمر غير ما يظهر كالنافقاء الذي يتخذه اليربوع وأما السلم فهو مشتق من السلامة، وهو الشيء الذي يسلمك إلى مصعدك، والمقصود من هذا الكلام أن يقطع الرسول طمعه عن إيمانهم، وأن لا يتأذى بسبب إعراضهم عن الإيمان وإقبالهم على الكفر.

٤. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾:

أ. قال أهل السنة ـ ومن وافقهم ـ تقديره: ولو شاء الله هداهم لجمعهم على الهدى وحيث ما جمعهم على الهدى، وجب أن يقال: إنه ما شاء هداهم، وذلك يدل على أنه تعالى لا يريد الإيمان من الكافر بل يريد إبقاءه على الكفر، والذي يقرب هذا الظاهر أن قدرة الكافر على الكفر إما أن تكون صالحة للإيمان، أو غير صالحة له، فإن لم تكن صالحة له فالقدرة على الكفر مستلزمة للكفر، وغير صالحة للإيمان، فخالق هذه القدرة يكون قد أراد هذا الكفر منه لا محالة، وأما إن كانت هذه القدرة، كما أنها صلحت للكفر فهي أيضا صالحة للإيمان، فلما استوت نسبة القدرة إلى الطرفين امتنع رجحان أحد الطرفين على الآخر، إلا لداعية مرجحة، وحصول تلك الداعية ليس من العبد، وإلا وقع التسلسل، فثبت أن خالق تلك الداعية هو الله تعالى، وثبت أن مجموع القدرة مع الداعية الحاصلة موجب للفعل، فثبت أن خالق مجموع تلك القدرة مع تلك الداعية المستلزمة لذلك الكفر مريد لذلك الكفر، وغير مريد لذلك الإيمان فهذا البرهان اليقيني قوي ظاهر بهذه الآية، ولا بيان أقوى من أن يتطابق البرهان مع ظاهر القرآن.

ب. قال المعتزلة ـ ومن وافقهم ـ المراد ولو شاء الله أن يلجئهم إلى الإيمان لجمعهم عليه، قال القاضي: والإلجاء هو أن يعلمهم أنهم لو حاولوا غير الإيمان لمنعهم منه، وحينئذ يمتنعون من فعل شيء غير الإيمان ومثاله: أن أحدنا لو حصل بحضرة السلطان وحضر هناك من حشمة الجمع العظيم، وهذا الرجل علم أنه لو هم بقتل ذلك السلطان لقتلوه في الحال، فإن هذا العلم يصير مانعا له من قصد قتل ذلك السلطان، ويكون ذلك سببا لكونه ملجأ إلى ترك ذلك الفعل فكذا هاهنا، إذا عرفت الإلجاء فنقول: إنه

تعالى إنما ترك فعل هذا الإلجاء لأن ذلك يزيل تكليفهم فيكون ما يقع منهم كأن لم يقع، وإنما أراد تعالى أن ينتفعوا بما يختارونه من قبل أنفسهم من جهة الوصلة إلى الثواب، وذلك لا يكون إلا اختيارا.

ج. أجاب أهل السنة ـ ومن وافقهم ـ أنه تعالى أراد منهم الاقدام على الإيمان حال كون الداعي إلى الإيمان وإلى الكفر على السوية أو حال حصول هذا الرجحان، والأول: تكليف ما لا يطاق، لأن الأمر بتحصيل الرجحان حال حصول الاستواء، تكليف بالجمع بين النقيضين وهو محال، وإن كان الثاني: فالطرف الراجح يكون واجب الوقوع، والطرف المرجوح يكون ممتنع الوقوع، وكل هذه الأقسام تنافي ما ذكروه من المكنة والاختيار، فسقط قولهم بالكلية.

٥. قوله تعالى في آخر الآية: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ نهي له عن هذه الحالة، وهذا النهي لا يقتضي إقدامه على مثل هذه الحالة كما أن قوله: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ٤٨] لا يدل على أنه ﷺ أطاعهم وقبل دينهم، والمقصود أنه لا ينبغي أن يشتد تحسرك على تكذيبهم، ولا يجوز أن تجزع من إعراضهم عنك فإنك لو فعلت ذلك قرب حالك من حال الجاهل، والمقصود من تغليظ الخطاب التبعيد والزجر له عن مثل هذه الحالة.

٦. ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ بيّن الله تعالى السبب في كونهم بحيث لا يقبلون الإيمان ولا يتركون الكفر فقال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ يعني أن الذين تحرص على أن يصدقوك بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون، وإنما يستجيب من يسمع، كقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ [النمل: ٨٠]

٧. ﴿يَسْتَجِيبُ﴾ قال علي بن عيسى: الفرق بين يستجيب ويجيب، أن يستجيب في قبوله لما دعي إليه، وليس كذلك يجيب لأنه قد يجيب بالمخالفة كقول القائل: أتوافق في هذا المذهب أم تخالف؟ فيقول المجيب: أخالف.

٨. في قوله تعالى: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾ قولان:

أ. الأول: أنه مثل لقدرته على إلجائهم إلى الاستجابة، والمراد: أنه تعالى هو القادر على أن يبعث الموتى من القبور يوم القيامة ثم إليه يرجعون للجزاء، فكذلك هاهنا أنه تعالى هو القادر على إحياء قلوب هؤلاء الكفار بحياة الإيمان وأنت لا تقدر عليه.

ب. الثاني: أن المعنى: وهؤلاء الموتى يعني الكفرة يبعثهم الله ثم إليه يرجعون، فحينئذ يسمعون وأما قبل ذلك فلا سبيل إلى استماعهم.

٩. قرئ ﴿يُرْجَعُونَ﴾ بفتح الياء، ولا شك أن الجسد الخالي عن الروح يظهر منه النتن والصديد والقيح وأنواع العفونات، وأصلح أحواله أن يدفن تحت التراب، وأيضا الروح الخالية عن العقل يكون صاحبها مجنونا يستوجب القيد والحبس والعقل بالنسبة إلى الروح كالروح بالنسبة إلى الجسد، وأيضا العقل بدون معرفة الله تعالى وصفاته وطاعته كالضائع الباطل، فنسبة التوحيد والمعرفة إلى العقل كنسبة العقل إلى الروح، ونسبة الروح إلى الجسد فمعرفة الله ومحبته روح روح الروح فالنفس الخالية عن هذه المعرفة تكون بصفة الأموات، فلهذا السبب وصف الله تعالى أولئك الكفار المصرين بأنهم الموتى.

١٠. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذا النوع الرابع من شبهات منكري نبوّة محمد ﷺ، وذلك لأنهم قالوا: لو كان رسولا من عند الله فهلا أنزل عليه آية قاهرة ومعجزة باهرة!

١١. سؤال وإشكال: يروى أن بعض الملحدة طعن، فقال: لو كان محمد ﷺ قد أتى بآية معجزة لما صح أن يقول أولئك الكفار ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ ولما قال: ﴿إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً﴾، والجواب: أن القرآن معجزة قاهرة وبينة باهرة، بدليل أنه ﷺ تحداهم به فعجزوا عن معارضته، وذلك يدل على كونه معجزا.

١٢. سؤال وإشكال: إذا كان الأمر كذلك فكيف قالوا ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾، والجواب: من وجوه:

أ. الأول: لعلّ القوم طعنوا في كون القرآن معجزا على سبيل اللجاج والعناد، وقالوا: إنه من جنس الكتب، والكتاب لا يكون من جنس المعجزات، كما في التوراة والزبور والإنجيل، ولأجل هذه الشبهة طلبوا المعجزة.

ب. الثاني: أنهم طلبوا معجزات قاهرة من جنس معجزات سائر الأنبياء مثل فلق البحر واظلال الجبل وإحياء الموتى.

ج. الثالث: أنهم طلبوا مزيد الآيات والمعجزات على سبيل التعنت واللجاج مثل إنزال الملائكة

وإسقاط السماء كسفا وسائر ما حكاه عن الكافرين.

د. الرابع: أن يكون المراد ما حكاه الله تعالى عن بعضهم في قوله: ﴿اللهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] فكل هذه الوجوه مما يحتملها لفظ الآية.

١٣. ثم إنه تعالى أجاب عن سؤالهم فقوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً﴾ يعني أنه تعالى قادر على إيجاد ما طلبتموه وتحصيل ما اقترحتموه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ واختلفوا في تفسير هذه الكلمة على وجوه:

أ. الأول: أن يكون المراد أنه تعالى لما أنزل آية باهرة ومعجزة قاهرة وهي القرآن كان طلب الزيادة جاريا مجرى التحكم والتعنت الباطل، والله سبحانه له الحكم والأمر فإن شاء فعل وإن شاء لم يفعل، فإن فاعليته لا تكون إلا بحسب محض المشيئة على قول أهل السنة ـ ومن وافقهم ـ أو على وفق المصلحة على قول المعتزلة ـ ومن وافقهم ـ وعلى التقديرين: فإنها لا تكون على وفق اقتراحات الناس ومطالباتهم، فإن شاء أجابهم إليها، وإن شاء لم يجبهم إليها.

ب. الثاني: هو أنه لما ظهرت المعجزة القاهرة والدلالة الباهرة الكافية لم يبق لهم عذر ولا علة، فبعد ذلك لو أجابهم الله تعالى في ذلك الاقتراح فلعلّهم يقترحون اقتراحا ثانيا، وثالثا، ورابعا، وهكذا إلى ما لا غاية له، وذلك يفضي إلى أن لا يستقر الدليل ولا تتم الحجة، فوجب في أول الأمر سد هذا الباب والاكتفاء بما سبق من المعجزة القاهرة والدلالة الباهرة.

ج. الثالث: أنه تعالى لو أعطاهم ما طلبوه من المعجزات القاهرة، فلو لم يؤمنوا عند ظهورها لاستحقوا عذاب الاستئصال، فاقتضت رحمة الله صونهم عن هذا البلاء فما أعطاهم هذا المطلوب رحمة منه تعالى عليهم، وإن كانوا لا يعلمون كيفية هذه الرحمة، فلهذا المعنى قال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

د. الرابع: أنه تعالى علم منهم أنهم إنما يطلبون هذه المعجزات لا لطلب الفائدة بل لأجل العناد والتعصب وعلم أنه تعالى لو أعطاهم مطلوبهم فهم لا يؤمنون، فلهذا السبب ما أعطاهم مطلوبهم لعلمه تعالى أنه لا فائدة في ذلك، فالمراد من قوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هو أن القوم لا يعلمون أنهم لما طلبوا ذلك على سبيل التعنت والتعصب فإن الله تعالى لا يعطيهم مطلوبهم ولو كانوا عالمين عاقلين لطلبوا

ذلك على سبيل طلب الفائدة، وحينئذ كان الله تعالى يعطيهم ذلك المطلوب على أكمل الوجوه.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أي عظم عليك إعراضهم وتوليهم عن الإيمان ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ﴾ قدرت ﴿أَنْ تَبْتَغِيَ﴾ تطلب ﴿نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي سربا تخلص منه إلى مكان آخر، ومنه النافقاء لحجر اليربوع، وقد تقدم في (البقرة) بيانه، ومنه المنافق، وقد تقدم.

٢. ﴿أَوْ سُلَّمًا﴾ معطوف عليه، أي سببا إلى السماء، وهذا تمثيل، لأن السلم الذي يرتقى عليه سبب إلى الموضع، وهو مذكر، ولا يعرف ما حكاه الفراء من تأنيث السلم، قال قتادة: السلم الدرج، الزجاج: وهو مشتق من السلامة كأنه يسلمك إلى الموضع الذي تريد.

٣. ﴿فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ عطف عليه أي ليؤمنوا فافعل، فأضمر الجواب لعلم السامع، أمر الله نبيه ﷺ ألا يشتد حزنه عليهم إذا كانوا لا يؤمنون، كما أنه لا يستطيع هداهم.

٤. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾:

أ. أي لخلقهم مؤمنين وطبعهم عليه، بين تعالى أن كفرهم بمشيئة الله ردا على القدرية.

ب. وقيل المعنى: أي لأراهم آية تضطرهم إلى الإيمان ولكنه أراد تعالى أن يثيب منهم من آمن ومن أحسن.

٥. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾:

أ. أي من الذين اشتد حزنهم وتحسروا حتى أخرجهم ذلك إلى الجزع الشديد، وإلى ما لا يحل، أي لا تحزن على كفرهم فتقارب حال الجاهلين.

ب. وقيل: الخطاب له والمراد الأمة، فإن قلوب المسلمين كانت تضيق من كفرهم وإذايتهم.

٦. ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أي سماع إصغاء وتفهم وإرادة الحق، وهم المؤمنون الذين يقبلون ما يسمعون فينتفعون به ويعملون، قال معناه الحسن ومجاهد، وتم الكلام.

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/ ٤١٨.

٧. ثم قال: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾:

أ. وهم الكفار، عن الحسن ومجاهد، أي هم بمنزلة الموتى في أنهم لا يقبلون ولا يصغون إلى حجة.

ب. وقيل: الموتى كل من مات، ﴿يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾ أي للحساب، وعلى الأول بعثهم هدايتهم إلى الإيمان بالله وبرسوله ﷺ.

ج. وعن الحسن: هو بعثهم من شركهم حتى يؤمنوا بك يا محمد ـ يعني عند حضور الموت ـ في حال الإلجاء في الدنيا.

٨. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ قال الحسن: ﴿لَوْلَا﴾ ها هنا بمعنى هلا، وقال الشاعر:

تعدون عقر النيب أفضل مجدكم ... بني ضوطرى لولا الكمي المقنعا

وكان هذا منهم تعنتا بعد ظهور البراهين، وإقامة الحجة بالقرآن الذي عجزوا أن يأتوا بسورة مثله، لما فيه من الوصف وعلم الغيوب.

٩. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾:

أ. أي لا يعلمون أن الله تعالى إنما ينزل من الآيات ما فيه مصلحة لعباده، وكان في علم الله أن يخرج من أصلابهم أقواما يؤمنون به ولم يرد استئصالهم.

ب. وقيل: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله قادر على إنزالها.

ج. الزجاج: طلبوا أن يجمعهم على الهدى أي جمع إلجاء.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ كان النبي ﷺ يكبر عليه إعراض قومه ويتعاظمه ويحزن له فبين له الله سبحانه أن هذا الذي وقع منهم من توليهم عن الإجابة له، والإعراض عما دعا إليه هو كائن لا محالة، لما سبق في علم الله عزّ وجلّ، وليس في استطاعته وقدرته إصلاحهم وإجابتهم قبل أن يأذن الله بذلك.

---

(١) فتح القدير: ٢/ ١٣٠.

٢. ثم علّق ذلك بما هو محال، فقال: ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾ فتأتيهم بآية منه ﴿أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ منها فافعل، ولكنك لا تستطيع ذلك، فدع الحزن ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾، و﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾

٣. النفق: السّرب والمنفذ، ومنه النّافقاء لجحر اليربوع، ومنه المنافق، وقد تقدّم في البقرة ما يغني عن الإعادة، والسلم: الدرج الذي يرتقى عليه، وهو مذكر لا يؤنث، وقال الفراء: إنه يؤنث، قال الزجاج: وهو مشتق من السلامة، لأنه يسلك به إلى موضع الأمن.

٤. وقيل: إن الخطاب وإن كان لرسول الله ﷺ فالمراد به أمته، لأنها كانت تضيق صدورهم بتمرّد الكفرة وتصميمهم على كفرهم، ولا يشعرون أن لله سبحانه في ذلك حكمة لا تبلغها العقول ولا تدركها الأفهام، فإن الله سبحانه لو جاء لرسوله ﷺ بآية تضطرهم إلى الإيمان لم يبق للتكليف الذي هو الابتلاء والامتحان معنى، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ جمع إلجاء وقسر، ولكنه لم يشأ ذلك، ولله الحكمة البالغة.

٥. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فإنّ شدّة الحرص والحزن لإعراض الكفار عن الإجابة قبل أن يأذن الله بذلك هو صنيع أهل الجهل ولست منهم، فدع الأمور مفوّضة إلى عالم الغيب والشهادة فهو أعلم بما فيه المصلحة، ولا تحزن لعدم حصول ما يطلبونه من الآيات التي لو بدا لهم بعضها لكان إيمانهم بها اضطرارا.

٦. ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أي إنما يستجيب لك إلى ما تدعو إليه الذين يسمعون سماع تفهم بما تقتضيه العقول وتوجبه الأفهام، وهؤلاء ليسوا كذلك، بل هم بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون ولا يعقلون لما جعلنا على قلوبهم من الأكنة وفي آذانهم من الوقر، ولهذا قال: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾ شبههم بالأموات بجامع أنهم جميعا لا يفهمون الصواب ولا يعقلون الحق: أي أن هؤلاء لا يلجئهم الله إلى الإيمان وإن كان قادرا على ذلك، كما يقدر على بعثه الموتى للحساب ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ إلى الجزاء فيجازي كلا بما يليق به كما تقتضيه حكمته البالغة.

٧. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ هذا كان منهم تعنّتا ومكابرة حيث لم يقتدوا بما قد أنزله الله على رسوله من الآيات البيّنات التي من جملتها القرآن، وقد علموا أنهم قد عجزوا عن أن يأتوا بسورة

مثله، ومرادهم بالآية هنا، هي التي تضطرهم إلى الإيمان كنزول الملائكة بمرأى منهم ومسمع، أو نتق الجبل، كما وقع لبني إسرائيل، فأمره الله سبحانه أن يجيبهم بأن الله قادر على أن ينزل على رسوله آية تضطرهم إلى الإيمان ولكنه ترك ذلك لتظهر فائدة التّكليف الذي هو الابتلاء والامتحان، وأيضا لو أنزل آية كما طلبوا لم يمهلهم بعد نزولها بل سيعاجلهم بالعقوبة إذا لم يؤمنوا، قال الزّجاج: طلبوا أن يجمعهم على الهدى، يعني جمع إلجاء.

٨. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله قادر على ذلك، وأنه تركه لحكمة بالغة لا تبلغها عقولهم.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. روي أنَّه أتى بعض رؤساء قريش في نفر منهم، ويقال: الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، فقالوا: يا محمَّد ائتنا بآية من عند الله كما تفعل الأنبياء، فإنَّا نصدِّقك، فأبى الله أن يأتيهم بها، فأعرضوا عن رسول الله ﷺ ، فشقَّ ذلك عليه ﷺ ، فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اِسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الَارْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَآءِ فَتَاتِيَهُم بِئَايَةٍ﴾ يطلبونها تضطرُّهم إلى الإيمان فافعل ما استطعت من ذلك، وهذا أمر تعجيز.

٢. وفي الآية تضمُّن لمدح النبيء ﷺ بمبالغته في حبِّ الخير لهم، والحرص على إسلامهم مع أنَّهم جفوه وآذوه، ﴿لَعَلَّك بَاخِعٌ نَّفسَكَ﴾ [الشعراء: ٣]، وبأنَّه يغضب إذا غضب لله تعالى لا لنفسه.

٣. و(كَبُرَ): شقَّ، وإنَّما كان بـ (إِنْ) الموضوعة لغير المتحقِّق مع أنَّ شقَّ ذلك عليه متحقِّق نظرًا إلى إخفائه في قلبه، أو إلى ما يستقبل من الشقِّ عليه المحتمل بحسب الظاهر، ولو تحقَّق عند الله الأمر.

٤. وقيل: إنَّ نفس الصعود والدخول في النفق هو الآية، وَيَرُدُّه أنَّ قولهم: ﴿فَتَاتِيَهُم بِئَايَةٍ﴾ ينافيه، وأنَّ الآية غيرهما، ولا يصحُّ ذلك إلَّا على معنى: فتكون قد أتيتهم بآية، وهو تأويل يحتاج لدليل، واسم (كَانَ) ضمير الشأن، أو تنازع هو و(كَبُرَ) في (إِعْرَاضُ)، والمراد: إعراضهم عن الإيمان بك وبما جئت به، وجملةُ (إِنْ) وشرطها وجوابها المقدَّر جواب (إِنْ) الأولى.

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/ ٢٤٥.

٥. و(تَبْتَغِي): تطلب، والنفق: منفذ ينفذ فيه إلى جوف الأرض، وعن ابن عبَّاس: يهرب به، وأصله: نافقاء اليربوع، إذ يحفر إلى أسفل ثمَّ يصعد من جانب إلى الأعلى ليتخلَّص منه إذا طُلب، والسُّلَّم: المصعد، سُمِّيَ للسلامة به إلى ما يصعد إليه.

٦. و﴿فِي السَّمَاءِ﴾ نعت لـ (سُلَّمًا)، و(فِي الاَرْضِ) نعتُ (نَفَقًا)، أو يَتَعلَّقان بـ (نَفَقًا) و(سُلَّمًا) لتضمُّنهما معنى الحدث؛ لأنَّ المراد: أَنْ تَنفُذَ إلى جوف الأرض فتأتيهم من جوفها بآية، وتصعد إلى السماء فتدخلها فتأتيهم منها بآية، أو يَتَعلَّقان بـ (تَبْتَغِي)، ويضعف جعلهما حالاً من ضمير (تَبْتَغِي)، ويضعف ما قيل: إنَّ ذلك قطع لمطمعه عن إيمانهم، وأن لا يتأذَّى بكفرهم، ولو ناسبه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ اللهُ﴾ جَمْعَهُم على الهدى، ولو شاء الله هدايتهم، لأنَّها حاصل معنى جواب (لَوْ)

٧. ﴿لَجَمَعُهُم عَلَى الْهُدَىٰ﴾ بالتوفيق، لكن لم يشأ، فلا تذهبْ نفسُك عليهم حسراتٍ، فإنَّه لا يحدث شيء إلَّا بإرادة الله تعالى ومشيئته، فهو سبحانه مريد لكفرهم خالقٌ له ولداعيته، وقدرة العبد صالحة للضدَّين غير كافية في تعيين أحدهما، ولو قدر على التعيين لتسلسل، وقد بطل قول المعتزلة: إنَّ الله تعالى لا يريد من العبد إلَّا الإيمان والطَّاعة والمباح، فزعموا أنَّ معنى الآية: لو شاء الله أن يلجئهم إلى الإيمان يجمعهم عليه بأنْ يعلمهم أنَّه قد قضى أنَّهم لو حاولوا أن لا يؤمنوا لمنعهم من أن لا يؤمنوا فيؤمنوا فيكون إيمان اضطرار، وهو مناف للتكليف بالإيمان اختيارًا الذي يترتَّب عليه الجزاء، إذ لا جزاء في الإجبار، فلزم المعتزلةَ أن يكون الله مقهورًا، إذ وقع في ملكه ما لم يرده ـ حاشاه ـ، وزعموا أنَّه يجب على الله اللطف، وهو عبارة عمَّا يبعد عن المعصية، وأخطَؤُوا، إذ لا واجب على الله؛ لأنَّ الوجوب عليه فرع قهره ولا قاهر عليه، وقيل: يجمعهم على الهدى معكم.

٨. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ بالحرص على ما لا يكون بعد علمك أنَّ الله قضى في قوم مخصوصين أن لا يؤمنوا، وذلك أنَّ حرصه قبل ذلك ليس جهالة وهو بعد العلم غير حارص، فالمعنى: دم على أن لا تكون من الجاهلين بالحرص على إيمانهم، والجهالة: الذنب ولو علم صاحبه أنَّه ذنب لجريانه على غير مقتضى العلم، فكأنَّه لم يعلم، وقيل: المراد بالجاهلين: المقترحون الآية، بمعنى لا تساعدهم على اقتراحهم، وقيل المعنى: لا تجزع في موطن الصبر فيقارب حالك حال الجاهلين، وزاد تأكيدًا لنفي إيمانهم بقوله: رفض المشركين دعوة النبيء ﷺ.

٩. ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ سَمْعَ تأمُّلٍ، فينفعهم غير ذلك من السمع كالصمم، والمعنى: يجيبونك، (وهذا مِمَّا اتَّفق فيه استفعل وأفعل، ولا يطَّرد ما قيل: إنَّ (استجاب) للقبول و(أجاب) للعموم، ومن ذلك (أوقد) و(استوقد) بمعنى واحد، قال:

وادع دعاء من يجيب إلى الندا　　　فلم يستجبه عند ذاك مُجيب

فقابل (يستجب) بـ (مجيب)، كذا يقال، وليس لازما لجواز بقاء (مجيب) على عمومه، أي: لم يجبه أحد بما ينفع ولا بما لا ينفع، ولعلَّ هذا أرجح)

١٠. ﴿وَالْمُوْتَى﴾ الكفَّار يستجيبون بعد البعث ولا ينفعهم، لا هؤلاء، فـ (الْمُوْتَى) عطف على (الَّذِينَ) وهو شامل لهؤلاء، ﴿يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾ مستأنف، أو حال مُقَدَّرَة من (الْمُوْتَى)، والمعروف أنَّ (الْمُوْتَى) مبتدأ خبره (يَبْعَثُهُمُ اللهُ)، ونصبه على الاشتغال أنسب، إذ فيه عطف فعليَّة على فعليَّة، فيشير إلى أنَّ هؤلاء كالموتى كما لا يستجيب الموتى قبل البعث كذلك هؤلاء لا يُبعثون من موت الجهالة إلَّا يوم القيامة حيث لا ينفعهم، وإلى أنَّ الله قادر على إحياء قلب الكافر بالإيمان كما قدر على إحياء الموتى، والاستجابة أخصُّ؛ لأنَّ فيها القبول لما دُعِيَ إليه، والإجابة أَعَمُّ لأنَّه قد يجيب بالمخالفة أو بما لا يفيد، والمراد هنا الأخصُّ على ظاهره، ويجوز أن يكون المراد بالموتى هؤلاء الأحياء تشبيهًا في عدم انتفاعهم بأبدانهم على الاستعارة، وهو مبتدأ، أي: هؤلاء يبعثهم الله في جهلهم وشركهم، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ للجزاء فيسمعون.

١١. ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا﴾ تحضيض، أو توبيخ على عدم إنزال آية، ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ مضطرَّة لهم إلى الإيمان فيؤمنوا وَلَا بُدَّ، كنتق الجبل، أو آية معقبة للهلاك، كناقة صالح ومائدة عيسى عليه السلام، أو مطلق آية حسِّيَّة، مثل ذلك ومثل العصا وفلق البحر وتظليل الغمام والمنِّ والسلوى وإحياء الموتى، أو آية غير ملجئة غير الآيات الكثيرة التي أنزلت عليه وكفروا بها عنادًا، طلبوا أخرى يقترحونها، وإذا طلبوا غير الملجئة وأجيبوا بالملجئة كان الكلام من الأسلوب الحكيم، أو أجيبوا بما يستلزم مطلوبهم على الطريق الأقوى، وقالوا: ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾، ولم يقولوا: (من الله) تعريضًا بالربوبيَّة المشعرة بالمسارعة فيما يقوِّيه المترتِّب عليه من وراء ذلك أنَّه لو كان له من الله مكان لسارع في ذلك.

١٢. ﴿قُلِ اِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُّنَزِّلَ ءَايَةً﴾ كما أرادوه، وتنكير الآية في الموضعين للتنويع، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ليسوا مِمَّن يعلم لإهمالهم التدبير، فلم ينزِّل ما يقترحون كإفساح جبال مكَّة، وإحياء

بعض القدماء كقصيٍّ، لعلمه أنَّهم لا يؤمنون ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩]، ومن لم يؤمن بالآية الموجودة التي تخرُّ لها صمُّ الجبال، وتنقاد لها بكم التلال، لم يؤمن بغيرها، إذ لا فرق بين آية وأخرى، فهم لا يعلمون أيضًا أنَّ لهم فيها نزل كفاية، وأنَّه تعالى قادر على الإنزال، وبأنَّه لعلَّ إنزالها يوجب الإهلاك إذا لم يؤمنوا، فالنفي بـ(لَوْلَا) المشعر بعدم الوقوع وبذكر القدرة المشعرة بالإنزال بالإمكان لا بالفعل عائد على الإنزال بالأوجه المذكورة على مطلق الإنزال فإنَّه واقع، فبطل قول الملحد أنَّ الآية دلَّت على أنَّ الإنزال غير واقع، وأنَّه ﷺ ادَّعى النبوَّة والرسالة بلا حجَّة؛ وكلام الملحد متناقض، لأنَّه إقرار بأنَّ هَذِهِ الآية في حقِّه، وأنَّها نصرة له على دعواه، فهو نبيء ورسول بهذه الآية.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ﴾ أي: شق وثقل، ﴿عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أي: عن الإيمان بما جئت به من القرآن، ونأيهم عنه، ونهيهم الناس عنه، ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي سربا ومنفذا تنفذ فيه إلى ما تحت الأرض، حتى تطلع لهم آية يؤمنون بها، ﴿أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ﴾ أي مصعدا تعرج به فيها، ﴿فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ أي: مما اقترحوه، فافعل، وحسن حذف الجواب لعلم السامع به، أي: لكن لم يجعل الله لك هذه الاستطاعة، إذ يصير الإيمان ضروريا غير نافع.

٢. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ أي: ولكنه شاء بمقتضى جلاله وجماله، إظهار غاية قهره، وغاية لطفه، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ أي: بالحرص على إيمانهم، أو الميل إلى نزول مقترحهم ﴿مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي: بما تقتضيه شؤونه تعالى، التي من جملتها ما ذكر من عدم تعلق مشيئته تعالى بإيمانهم، إما اختيارا، فلعدم توجههم إليه، وإما اضطرارا، فلخروجه عن الحكمة التشريعية المؤسسة على الاختبار.

٣. في هذه الآية ما لا يخفى من الدلالة على المبالغة في حرصه ﷺ على إسلام قومه، وترامية عليه، إلى حيث لو قدر أن يأتيهم بآية من تحت الأرض، أو من فوق السماء، لأتى بها، رجاء إيمانهم، وشفقة عليهم.

---

(١) تفسير القاسمي: ٤/ ٣٤٩.

٤. قال الناصر في (الانتصاف): هذه الآية كافلة بالرد على القدرية في زعمهم أن الله تعالى شاء جمع الناس كلهم على الهدى فلم يكن، ألا ترى أن الجملة مصدرة بـ (لو)، ومقتضاها امتناع جوابها، لامتناع الواقع بعدها، فامتناع اجتماعهم علي الهدى، إذا إنما كان لامتناع المشيئة، فمن ثم ترى الزمخشريّ يحمل المشيئة على قهرهم على الهدى بآية ملجئة، لا يكون الإيمان معها اختيارا، حتى يتم له أن هذا الوجه من المشيئة لم يقع، وأن مشيئته اجتماعهم على الهدى على اختيار منهم، ثابتة غير ممتنعة، ولكن لم يقع متعلقها، وهذه من خباياه ومكامنه فاحذرها ـ والله الموفق ـ.

٥. لم يقل الله تعالى (لا تكن جاهلا) بل من قوم ينسبون إلى الجهل، تعظيما لنبيه ﷺ بأن لم يسند الجهل إليه، للمبالغة في نفيه عنه، وما فيه من شدة الخطاب، سرّه تبعيد جنابه الكريم عن الحرص على ما لا يكون والجزع في مواطن الصبر، مما لا يليق إلا بالجاهلين.

٦. ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ تقرير لما مرّ من أن على قلوبهم أكنة، وتحقيق لكونهم بذلك من قبيل الموتى، لا يتصور منهم الإيمان البتة، أي: إنما يستجيب لك، بقبول دعوتك إلى الإيمان الأحياء الذين يسمعون ما يلقى إليهم، سماع تفهم، دون الموتى الذين هؤلاء منهم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ [النمل: ٨٠]، وإن كانوا أحياء بالحياة الحيوانية، أموات بالنسبة إلى الإنسانية، لموت قلوبهم بسموم الاعتقادات الفاسدة، والأخلاق الرديئة.

٧. و﴿الْمَوْتَى﴾ مبتدأ، يعني: الكفار الذين لا يسمعون ولا يستجيبون، يبعثهم الله يوم القيامة، ثم إليه يرجعون، فيجزيهم بأعمالهم، فالموتى مجاز عن الكفرة كما قيل:

لا يعجبنّ الجهول بزّته   فذاك ميت ثيابه كفن

قيل: فيه رمز إلى أن هدايتهم كبعث الموتى،، فلا يقدر عليه إلا الله، ففيه إقناط للرسول ﷺ عن إيمانهم، وفي تسميتهم (موتى) من التهكم بهم، والإزراء عليهم، ما لا يخفى.

٨. ﴿وَقَالُوا﴾ يعني: مشركي مكة، بيان لنوع آخر من تعنتهم، إذ لم يقتنعوا بما شاهدوا من البينات التي تخرّ لها صمّ الجبال، ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي: خارق، على مقتضى ما كانوا يريدون ومما يتعنتون، كقولهم ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠]، الآيات.

٩. ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: إن اقتراحها جهل، لما أن في

تنزيلها قلعا لأساس التكليف، المبني على قاعدة الاختيار، أو استئصالا لهم بالكلية، فإن من لوازم جحد الآية الملجئة، الهلاك، جريا على سنته تعالى في الأمم السالفة، وتخصيص عدم العلم بأكثرهم، لما أن بعضهم واقفون على حقيقة الحال، وإنما يفعلون ما يفعلون مكابرة وعنادا.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ مما اقترحوه عليك من الآيات ليؤمنوا فافعل أو فأتهم بها، يقال كبر على فلان الأمر، أي عظم عنده وشق عليه وقعه، والإعراض: التولي والانصراف عن الشيء رغبة عنه أو احتقارا له، وهو من إبداء المرء عرض بدنه عند توليه عن الشيء واستدباره له، واستطعت الشيء: صار في طوعك منقادا لك باستيفاء الأسباب التي تمكنك من فعله، والابتغاء: طلب ما في طلبه كلفة ومشقة أو تجاوز للمعتاد أو للاعتدال، أو طلب غايات الأمور وأعاليها، لأنه افتعال من البغي وهو تجاوز الحد في الطلب أو الحق، ويكون في الخير كابتغاء رضوان الله وهو غاية الكمال، وفي الشر كابتغاء الفتنة وهو غاية الضلال، والنفق: السرب في الأرض وهو حفرة نافذة لها مدخل ومخرج، كنافقاء اليربوع، وهو جحره يجعل له منافذ يهرب من بعضها إذا دخل عليه من غيره ما يخافه، والسلم: المرقاة، مشتق من السلامة، قال الزجاج: لأنه الذي يسلمك إلى مصعدك، وتذكيره أفصح من تأنيثه، وإنما يؤنث بمعنى الآلة، وأتى ب (كان) فعلا للشرط؛ ليبقى الشرط على المضي ولا ينقلب مستقبلا كما قالوا، فإن (إن) لا تقلب (كان) مستقبلا لقوة دلالته على المضي، والنحوي يؤول مثل هذا التركيب بنحو: وإن تبين وظهر أنه كبر عليك إعراضهم، وجواب الشرط محذوف للعلم به، تقديره: فافعل كما تقدم.

٢. تقدم في أوائل السورة أنهم كانوا يقترحون الآيات على النبي ﷺ وكأنه كان يتمنى لو آتاه الله بعض ما طلبوا حرصا على هدايتهم، وأسفا وحزنا على إصرارهم على غوايتهم، وتألما من كفرهم وأذيتهم، ولكن الله تعالى يعلم أن أولئك المقترحين الجاحدين لا يؤمنون وإن رأوا من الآيات ما يطلبون وفوق ما

---

(١) تفسير المنار: ٣١٨/٧

يطلبون، كما تقدم شرحه في تفسير أوائل السورة.

٣. وقد أراد تعالى أن يؤكد لرسوله ما يجب من الصبر على تكذيب المشركين وأذاهم الدال عليه ما قبله، وأن يريح قلبه الرءوف الرحيم من إجابتهم إلى ما اقترحوا من الآيات؛ لما تقدم من حكمة ذلك، فقال له: وإن كان شأنك معهم أنه كبر عليك إعراضهم عن الإيمان وعن الآيات القرآنية والعقلية الدالة عليه ـ ومنها ما سبق في هذه السورة ـ وظننت أن إتيانهم بآية مما اقترحوا يدحض حجتهم، ويكشف شبهتهم، فيعتصمون بعروة الإيمان، عن بينة ملزمة وبرهان، فإن استطعت أن تبتغي لنفسك نفقا كائنا في الأرض ـ أو معناه: تطلبه في الأرض ـ فتذهب في أعماقها، أو سلما في جو السماء ترتقي عليه إلى ما فوقها، فتأتيهم بآية مما اقترحوه عليك منهما فائت بها يدخل في طوع قدرتك من ذلك، كتفجير ينبوع لهم في الأرض، أو تنزيل كتاب تحمله لهم من السماء، وقد كانوا طلبوا أحد النوعين كما حكاه الله تعالى عنهم بقوله في (سورة الإسراء): ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾

٤. وقد أمره الله تعالى أن يجيب عن ذلك بقوله عقب هذا: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ أي وليس ذلك في قدرة البشر وإن كان رسولا؛ لأن الرسالة لا تخرج الرسول عن طور البشر في صفاتهم البشرية كالقدرة والاستطاعة، فهم لا يستطيعون إيجاد شيء مما يعجز عنه البشر في صفاتهم البشرية كالقدرة والاستطاعة، فهم لا يستطيعون إيجاد شيء مما يعجز عنه البشر ولا يقدر عليه غير الخالق تعالى، والمراد من هذه الآية أنك لا تستطيع أيها الرسول الإتيان بشيء من تلك الآيات ولا ابتغاء السبل إليها في الأرض ولا في السماء، ولا اقتضت مشيئة ربك أن يؤتيك ذلك؛ لعلمه بأنه لا يكون سببا لما تحب من هدايتهم؛ ولأن من سنته أن يترتب على الجحود بعده إنزال العذاب عليهم، وتقدم بيان هذا في تفسير الآيتين السادسة والسابعة من هذه السورة.

٥. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ أي ولو شاء الله تعالى جمعهم على ما جئت به من الهدى لجمعهم عليه بجعل الإيمان ضروريا لهم كالملائكة، أو بخلقهم على استعداد واحد للخير والحق فقط، لا متفاوتي الاستعداد مختلفي الاختيار باختلاف العلوم والأفكار والأخلاق والعادات، كما اقتضته حكمته في خلق الناس، ولكنه شاء أن يخلق البشر على ما هم عليه من الاختلاف والتفاوت في الاستعداد، وما

يترتب عليه من اختلاف أسباب الاختيار، فإذا عرفت سنته هذه في خلق هذا النوع، وأنه لا تبديل لخلق الله.

٦. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ بسنن الله تعالى في خلقه الذين يتمنون ما يرونه حسنا ونافعا، وإن كان حصوله ممتنعا، لكونه مخالفا لتلك السنن التي اقتضتها الحكمة الإلهية، فالجهل هنا ضد العلم لا ضد الحلم، وليس كل جهل بهذا المعنى عيبا؛ لأن المخلوق لا يحيط بكل شيء علما، وإنما يذم الإنسان بجهل ما يجب عليه، ثم بجهل ما ينبغي له ويعد كمالا في حقه إذا لم يكن معذورا في جهله، قال تعالى في الفقراء المتعففين: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ فوصف الجاهل هنا غير ذم، وكان عدم علم خاتم الرسل بالكتابة من أركان آياته، وعدم علمه بالشعر من أدلة الوحي وبيناته، وكل ما يتوقف علمه على الوحي الإلهي لا يكون جهل الرسول إياه قبل نزوله عليه عيبا يذم به؛ إذ لا يذم الإنسان إلا بما يقصر في تحصيله وكسبه، وقد أمر الله تعالى رسوله بأن يسأله زيادة العلم، وكان يزيده كل يوم علما وكمالا بتنزيل القرآن وبفهمه، وبغير ذلك من العلم والحكمة، ولا يقتضي ذلك الذم قبل هذه الزيادة، وإنما الذي يذم مطلقا هو الجهل المرادف للسفه وهو ضد الحلم.

٧. ويشبه ما هنا قوله تعالى لنوح حين طلب نجاة ابنه الكافر بناء على أنه من أهله الذين وعده الله بإنجائهم معه: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] أي بإدخال ولدك الكافر في عموم أهلك المؤمنين، وإنما اقترن النهي هنا بالوعظ لأن عاطفة الرحمة الوالدية حملته على سؤال ما ليس له به علم اعتمادا على استنباط اجتهادي غير صحيح، ورحمة خاتم الرسل ﷺ كانت أعم وأشمل، وغاية ما تشير إليه الآية أنه تمنى ولكنه لم يسأل، ولو سأل لسأل آية يهتدي بها الضال من قومه، لا نجاة الكافر من أهله، فاكتفى في إرشاده بالنهي وحسن في إرشاد نوح التصريح بالوعظ.

٨. ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، بين لنا تعالى في الآية السابقة أنه لو شاء لجمع الناس على الهدى ولكنه لم يشأ أن يجعل البشر مفطورين على ذلك، ولا أن يلجئهم إليه إلجاء بالآيات القاسرة، بل اقتضت حكمته ومضت سنته في البشر بأن يكونوا متفاوتين في الاستعداد، عاملين

بالاختيار، فمنهم من يختار الهدى على الضلال، ومنهم من يستحب العمى على الهدى، ثم بين لنا في هاتين الآيتين أن الأولين هم الذين ينظرون في الآيات، ويعقلون ما يسمعون من البينات، وأن الآخرين لا يسمعون ولا ينظرون حتى كأنهم من الأموات.

٩. ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ يقال: أجاب الدعوة إذا أتى ما دعي إليه من قول أو عمل، وأجاب الداعي إذا لباه وقام بها دعاه إليه، ويقال: استجاب له، وهو في القرآن كثير، واستجاب دعاءه وكذا استجابه، نعرف منه قول كعب بن مرثد الغنوي في رثاء أخيه:

وداع دعا يا من يجيب إلى الندى فلم يستجبه عند ذاك مجيب

قالوا: إن الاستجابة بمعنى الإجابة، ولذلك قال: فلم يستجبه مجيب، وقال الراغب: (والاستجابة قيل: هي الإجابة، وحقيقتها هي التحري للجواب والتهيؤ له لكن عبر به عن الإجابة لقلة انفكاكها منها)، وهذا من دقائق تحديده للمعاني، ولكنه لم يحط به، وحقيقة الجواب والإجابة كما يؤخذ من قوله ـ قطع الصوت أو الشخص الجوب أو الجوبة وهي المسافة بين البيوت أو الحفرة، ووصوله إلى الداعي أي: وصول ما سأله إليه بالفعل، وأما الاستجابة فهي التهيؤ للجواب أو للإجابة أي المستلزم للشروع والمضي فيها عند الإمكان، وغايته الإجابة التامة عند عدم المانع، فالسين والتاء على معناهما.

١٠. ومن دقق النظر في استعمال الصيغتين في القرآن الحكيم يظهر له أن أفعال الإجابة كلها قد ذكرت في المواضع المفيدة لحصول السؤال كله بالفعل حقيقة أو ادعاء دفعة واحدة، ومنه الإجابة بالقول كقولك: نعم، وبلى، ولبيك، ولك ذلك، وأن الاستجابة قد ذكرت في المواضع المفيدة لحصول السؤال بالقوة أو التهيؤ والاستعداد له، ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا للهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ فهو قد نزل في تهيؤ المؤمنين للقتال في حمراء الأسد بعد أحد، أو بالفعل التدريجي، كاستجابة دعوة الدين التي تبدأ بالقبول والشهادتين، ثم تكون سائر الأعمال بالتدريج وشواهده كثيرة، والاستجابة من الله القادر على كل شيء إنما يعبر بها في الأمور التي تقع في المستقبل، ويكون الشأن فيها أن تقع بالتدريج كاستجابة الدعاء بالوقاية من النار، وبالمغفرة وتكفير السيئات وإيتاء ما وعد به المؤمنين في الآخرة، قال تعالى بعد حكاية هذا الدعاء بذلك عن أولي الألباب: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ﴾، وكاستجابته للمؤمنين في بدر بإمدادهم بالملائكة تثبتهم كما في (سورة الأنفال) ومن ذلك

استجابته لأيوب وذي النون وزكريا عليهم السلام كما في (سورة الأنبياء)، كل ذلك مما يقع بالتدريج في الاستقبال، وأما قوله تعالى لموسى وهارون حين دعوا على فرعون وملئه: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ فهو تبشير لهما بأنه تعالى قد قبلها بالفعل، وهذا من الإجابة القولية جاءت بصيغة الماضي للإيذان بتحقق مضمونها في المستقبل حتى كأنها أجيبت وانتهى أمرها، وهذا المعنى تؤديه مادة الإجابة دون مادة الاستجابة، ولو ذكرت هذه المسألة بصيغة الحكاية لعبر عن إعطائهما ما سألا بلفظ الاستجابة كما قال في شأن كل من أيوب وذي النون وزكريا ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ فيالله العجب من هذه الدقة والبلاغة في هذا الكلام الإلهي المعجز للبشر حتى في وضع مفرداته في مواضعها، دع بلاغة أساليبه، وجمله، وعلومه، وحكمه، وما فيه من أخبار الغيب، وغير ذلك من الآيات البينات، هذا تحقيق معنى الاستجابة، وقيل: إن الفرق بين الإجابة والاستجابة هو أن الاستجابة تدل على القبول ولا يعرف له أصل منقول ولا معقول.

١١. والسمع والسماع يطلق بمعنى إدراك الصوت، وبمعنى فهم ما يسمع من الكلام وهو ثمرة السماع، وبمعنى قبول ما يفهم منه والاعتبار به والعمل بموجبه، وهذه ثمرة الثمرة، فهي المرتبة الكاملة العليا من مراتب السماع، فمن سمع ولم يفهم، كان كمن لم يسمع، ومن فهم ولم يعمل كان كمن لم يفهم، وهذا القول أقرب إلى الحقيقة وأبعد عن قصد المبالغة من قول الشاعر:

خلقوا وما خلقوا لمكرمة ... فكأنهم خلقوا وما خلقوا
رزقوا وما رزقوا سماح يد ... فكأنهم رزقوا وما رزقوا

ذلك بأن للخلق والرزق ثمرات وغايات غير المكارم وسماح اليد، وأما سماع الكلام فلا فائدة له إلا فهمه، وفهمه لا فائدة له إلا الانتفاع به، ولأجل هذا أطلق القرآن على من لا يستفيدون من سماع الآيات والعلم النافع لفظ الصم ولفظ الموتى في آيات منها قوله فيهما معا: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ والآية التي نفسرها من هذا القبيل، فمعنى صدر الآية: إنما يستجيب لك أيها الرسول ـ أو لله ولرسوله ـ الذين يسمعون كلام الله الداعي إليه بآياته سماع فهم وتدبر، فيعقلون الآيات، ويذعنون لما عرفوا بها من الحق؛ لسلامة فطرتهم واستقلال عقولهم، دون الذين قالوا: سمعنا وهم لا يسمعون كالمقلدين الجامدين، ودون الذين قالوا: سمعنا وعصينا من المستكبرين الجاحدين، فكل أولئك من موتى القلوب والأرواح الذين هم أبعد عن الانتفاع من موتى الجسوم والأبدان.

١٢. ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ أي وموتى القلوب الذين لا يسمعون هذا السماع يخرجهم الله تعالى من قبورهم ويرسلهم إلى موقف الحساب، ثم ترجعهم الملائكة إليه فينالون ما استحقوه من الجزاء، فأصل البعث في اللغة: إثارة الشيء وتوجيهه، كما قال الراغب: يقال: بعثت بالبعير أي: أثرته من مبركه وسيرته إلى المرعى ونحوه، و﴿يَرْجِعُونَ﴾ مبني للمفعول من الرجع، و(رجع) جاء لازما ومتعديا، يقال: رجع فلان رجوعا، أي انصرف ورجعته رجعا، ومنه ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا﴾، و(أرجعته) لغة هذيل.

١٣. الظاهر مما تقدم أن المراد بالموتى هنا: الكفار الراسخون في الكفر، المطبوع على قلوبهم، الميئوس من سماعهم سماع فهم واعتبار تتبعه الاستجابة لداعي الإيمان، أي: والذين لا ترجى استجابتهم لأنهم كالموتى لا يسمعون السماع النافع ـ يترك أمرهم إلى الله فهو يبعثهم بعد موتهم، ثم يرجعون إليه فيجازيهم على كفرهم وأعمالهم، ولا يضرك أيها الرسول كفرهم، وليس في استطاعتك هدايتهم، فالواجب عليك أن تفوض إلى الله أمرهم، وقيل: إن لفظ الموتى على حقيقته، وأن الكلام تمثيل وتعريض بالإيماء إلى عدم قدرة الرسول على هدايتهم، كما أنه لا يقدر على إحياء الموتى، وهو بعيد وفيه ما لا يخفى من التكليف.

١٤. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي: وقال أولئك الظالمون لأنفسهم الذين يجحدون بآيات ربهم ويعاندون رسوله إليهم: هلا أنزل عليه ـ أي الرسول ـ آية من ربه من الآيات المخالفة لسننه تعالى في خلقه، مما اقترحنا عليه، وجعلناه شرطا لإيماننا به؟ وقيل: إن مرادهم آية ملجئة إلى الإيمان، والإلجاء اضطرار لا اختيار، فلا يوجه إليه الطلب ولا يعتد به إن حصل.

١٥. ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: قل أيها الرسول: إن الله تعالى قادر على تنزيل آية مما اقترحوا، وإنما ينزلها إذا اقتضت حكمته تنزيلها، لا إذا تعلقت شهوتهم بتعجيز الرسول بطلبها، فإن إجابة المعاندين إلى الآيات المقترحة لم يكن في أمة من الأمم سببا للهداية، وقد مضت سنته تعالى في الأقوام، بأن يعاقب المعجزين للرسل بذلك بعذاب الاستئصال، فتنزيل آية مقترحة لا يكون خيرا لهم، بل هو شر لهم، ولكن أكثرهم لا يعلمون شيئا من حكم الله تعالى في أفعاله، ولا من سننه في خلقه، ولا أنك أرسلت رحمة للعالمين، فلا يأتي على يديك سبب استئصال أمتك بإجابة المعاندين منها إلى ما اقترحوا عليك لإظهار عجزك، ولا يعلمون أيضا أن إجابة اقتراح واحد يؤدي إلى اقتراحات كثيرة لا

حد لها، ولا فائدة منها، وقد يعلم أفراد منهم بعض ذلك علما ناقصا لا يهدي إلى الاعتبار، ولا يصد صاحبه عن مثل هذا الاقتراح، ومن قال: إنهم اقترحوا آية ملجئة يقول: ولكن أكثرهم لا يعلمون أن تنزيلها يزيل الاختيار الذي هو أساس التكليف فلا يبقى لدعوة الرسالة فائدة.

١٦. قرأ ابن كثير ﴿يُنَزِّلُ﴾ بالتخفيف من الإنزال، والباقون بالتشديد من التنزيل الدال بصيغته على التدريج أو التكثير، وقال المفسرون: إن معناهما هاهنا واحد، والذي نراه هو أن كل صيغة منهما على أصل معناها، وأن الجمع بينهما لبيان أن بعضهم اقترح آية واحدة تنزل دفعة واحدة كنزول ملك من السماء عليهم أو عليه، وهو المشار إليه بقراءة ابن كثير، وبعضهم اقترح عدة آيات منها ما لا يكون إلا بالتدريج وهي المشار إليها بقراءة الجمهور، ولا ينافي إفراد الآية هنا طلب بعضهم لعدة آيات؛ إذ المراد بها آية مما اقترحوا، وقد صرح لفظ الجمع في آية العنكبوت الواردة بمعنى هذه الآية، وسيأتي نصها قريبا.

١٧. سؤال وإشكال: هذا وإن بعض الكفار وبعض الشاكين والمشككين في الإسلام يقولون: لو أن محمدا ﷺ أوتي آية بينة ومعجزة واضحة تدل على نبوته ورسالته لما طلب قومه الآية، وإن هذا الجواب بقدرة الله على تنزيل الآية ونفي العلم عن أكثرهم لا تقوم به الحجة عليهم المبطلة لحقية طلبهم، والجواب: عن هذه الشبهة:

أ. إن الآية الكبرى لخاتم الرسل ﷺ على نبوته هي القرآن، وإنها لآية مشتملة على آيات كثيرة، وقد احتج عليهم به وتحداهم بسورة من مثله فعجزوا، واحتج عليهم أيضا ببعض ما اشتمل عليه من الآيات كأخبار الغيب، ومما نزل في ذلك قبل (سورة الأنعام) فاكتفى فيها بالإحالة عليه قوله تعالى في (سورة العنكبوت): ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فالقرآن في جملته آية علمية، وفي تفصيله آيات كثيرة عقلية وكونية، وهي دائمة لا تزول كما زالت الآيات الكونية كعصا موسى مثلا، عامة لا تختص ببعض من كان في عصر الرسول كما كانت آية موسى الكبرى خاصة بمن رآها في عصره، وهي أدل على الرسالة من الآيات الكونية؛ لأن

موضوع الرسالة علمي، فهو علم موحى به غير مكسوب يقصد به هداية الخلق إلى الحق، فظهور علوم الهداية على لسان أمي كان هو وقومه أبعد الناس عن كل علم بعبارة أعجزت ببلاغتها قومه كما أعجزت غيرهم ـ على أنه لم يكن من قبل معدودا من بلغائهم ـ أدل على كون ذلك موحى به من الله عز وجل من عصا موسى على كون ما جاء به من التوراة موحى به منه تعالى، وهي غير معجزة في نفسها، وقد نشأ من جاء بها في دار ملك أربى على سائر ممالك الأرض بالعلوم والشرائع.

ب. فالآية العلمية القطعية لا يمكن المراء فيها كالمراء في الآية الكونية التي هي أمر غريب غير معتاد يشتبه بكثير من الأمور النادرة التي لها أسباب خفية كالسحر وغيره؛ ولذلك اختلف علماء المعقول في دلالة المعجزة على النبوة، هل هي عقلية أو عادية أو وضعية؟ وقد جاء في الفصل الثالث عشر من سفر تثنية الاشتراع أن من أتى بآية أو أعجوبة من نبي أو حالم وأمر بعبادة غير الله تعالى لا يسمع له، بل يجب قتله؛ لأنه تكلم بالزيغ، فالآيات الكونية إذا لا تدل على صدق كل من تظهر على يديه، بل تختلف دلالتها باختلاف أحوال من تظهر على أيديهم، وبذلك يقول كثير من المتكلمين.

ج. وأما طلبهم للآية والآيات مع وجود هذه الآيات البينات، فسببه محاولة تعجيز الرسول لا كونه هو الدليل الذي يرونه موصلا إلى المدلول، وقد قال تعالى لرسوله في هذه السورة: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وقال في أول (سورة القمر): ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾، وأكثرهم يقول مثل هذا في كل آية كونية عن اعتقاد، وأما قول بعضهم: إن القرآن سحر يؤثر فقد كان عن تضليل وعناد، على أن الله تعالى قد أيد رسوله بآيات أخرى غير الآيات التي اقترحها الجاحدون المعاندون ازداد بها المؤمنون إيمانا، والجاحدون عنادا وطغيانا، وقد سبق لنا بحث في هذه المسألة من قبل وسيجيء ما يقتضي العودة إليها بعد.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ

(١) تفسير المراغي ٧/ ١١٤.

﴿فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ من الآيات التي اقترحوها عليك ليؤمنوا فأتهم بها، ذاك أنهم كانوا يقترحون الآيات على النبي ﷺ وكان يتمنى لو آتاه الله بعض ما طلبوا حرصا على هدايتهم، وأسفا وحزنا على إصرارهم على غوايتهم، لكن الله يعلم أن أولئك المقترحين الجاحدين لا يؤمنون وإن رأوا من الآيات ما يطلبون وفوق ما يطلبون.

٢. والخلاصة ـ وإن كان إتيانك بآية مما اقترحوا يدحض حجتهم ويكشف شبهتهم فيؤمنون عن بينة وبرهان، فإن استطعت أن تبتغى لنفسك نفقا تطلبه في الأرض فتذهب في أعماقها، أو سلما في جو السماء ترقى فيه إلى ما فوقها، فتأتيهم بآية مما اقترحوا عليك فأت بها يدخل طوع قدرتك من ذلك، كتفجير ينبوع لهم من الأرض أو تنزيل كتاب تحمله من السماء وقد كانوا طلبوا ذلك كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ ـ إلى قوله ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾ وقد أمره الله أن يجيبهم عن ذلك بقوله عقب هذا: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ أي وليس ذلك في قدرة البشر وإن كان رسولا فالرسل لا يقدرون على شيء مما يعجز عنه البشر ولا يستطيع إيجاده غير الخالق.

٣. وخلاصة ذلك ـ إنك لن تستطيع الإتيان بشيء من تلك الآيات ولا ابتغاء السبل إليها في الأرض ولا في السماء، ولا اقتضت مشيئة ربك أن يؤتيك ذلك، لعلمه أنه لن يكون سببا لما تحبه من هدايتهم ثم أكد عدم إيمانهم فقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ أي ولو شاء الله تعالى جمعهم على ما جئت به من الهدى لجمعهم عليه؛ إما بأن يجعل الإيمان ضروريا لهم كالملائكة، وإما بأن يخلقهم على استعداد واحد للحق والخير لا متفاوتى الاستعداد مختلفي الاختيار باختلاف العلوم والأفكار والأخلاق والعادات، ولكنه شاء أن يجعلهم على ما هم عليه من الاختلاف والتفاوت وما يترتب على ذلك من أسباب الاختيار.

٤. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي إذا عرفت سننه تعالى في خلق الإنسان وأنه لا تبديل لخلق الله، فلا تكونن من الجاهلين لسننه في ذلك، فتتمنى ما تراه حسنا نافعا وإن كان حصوله ممتنعا لكونه مخالفا لتلك السنن التي اقتضتها الحكمة الإلهية، وخلاصة ذلك ـ لا تكونن بالحرص على إسلامهم والميل إلى الإتيان بمقترحاتهم من الجاهلين بدقائق شئونه تعالى في خلقه.

٥. ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾:

أ. القرآن الكريم استعمل أفعال الإجابة في المواضع التي تدل على حصول المسئول كله بالفعل دفعة واحدة، واستعمل أفعال الاستجابة في المواضع المفيدة لحصول المسئول بالتهيؤ والاستعداد كقوله: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا للهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ إذ الآية نزلت في وقعة حمراء الأسد بعد وقعة أحد فالمراد أنهم تهيئوا للقتال، أو المفيدة للدلالة على حدوث الفعل بالتدريج كاستجابة دعوة الدين التي تبدأ بالنطق بالشهادتين ثم بباقي أعماله بالتدريج، والاستجابة من الله يعبر بها في الأمور التي تقع في المستقبل ويكون من شأنها أن تقع بالتدريج كاستجابة الدعاء بالوقاية من النار بالمغفرة وتكفير السيئات وإيتاء ما وعد به المؤمنين في الآخرة كما قال: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ﴾ الآية.

ب. والسمع والسماع: يطلق على إدراك الصوت، وعلى فهم ما يسمع من الكلام وهو ثمرة السمع، وعلى قبول ما يفهم والعمل به وهذا ثمرة الثمرة.

ج. والمراد بالموتى هنا: الكفار الراسخون في الكفر المطبوع على قلوبهم الميئوس من سماعهم سماع تدبر تتبعه الاستجابة للداعي والبعث: لغة إثارة الشيء وتوجيهه يقال بعثت البعير أي أثرته من مبركه وسيّرته إلى المرعى ونحوه، ولولا كلمة تفيد الحث على حصول ما بعدها، والآية لمعجزة المخالفة لسنن الله في خلقه.

٦. بعد أن أبان سبحانه في الآية السابقة أنه لو شاء لجمع الناس على الهدى، ولكنه لم يشأ أن يجعل البشر مفطورين على ذلك، ولا أن يلجئهم إلجاء بالآيات التي تقسرهم على ذلك، بل اقتضت حكمته أن يكون البشر متفاوتين في الاستعداد مختارين في تصرفاتهم وأعمالهم، ومنهم من يختار الهدى على الضلال، ومنهم من يستحب العمى على الهدى، ذكر هنا أن الأولين هم الذين ينظرون في الآيات ويفقهون ما يسمعون من الحجج والبينات، وأن الآخرين لا يفقهون ولا يسمعون، فهم والأموات سواء.

٧. ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أي إنما يستجيب لله ولرسوله الذين يسمعون كلام الله سماع فهم وتدبر فيعقلون الآيات ويذعنون لما عرفوا بها من الحق، لسلامة فطرتهم وصفاء نفوسهم وطهارة قلوبهم، دون الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون؛ كالمقلدين الذين لا يفكرون في الأشياء بعقولهم، ودون الذين قالوا سمعنا وعصينا من المستكبرين الجاحدين، فهؤلاء وهؤلاء من موتى القلوب وأبعد الناس عن

الانتفاع بما يسمعون، أمرهم إلى الله فهو الذي يبعثهم بعد موتهم، ويرسلهم إلى موقف الحساب فينالون ما يستحقون على كفرهم وسيئ أعمالهم، فلا تبخع نفسك عليهم حسرات، إذ ليس في استطاعتك هدايتهم ولا إرجاعهم إلى محجة الرشاد.

٨. ثم ذكر شيئا من عنادهم الدال على عظيم جحودهم فقال: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي وقال الظالمون لأنفسهم الذين يجحدون بآيات ربهم ويعاندون رسوله إليهم: هلا أنزل عليه آية من ربه من الآيات التي اقترحناها عليه وجعلناها شرطا لإيماننا به.

٩. ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي قل لهم أيها الرسول إن الله تعالى قادر على تنزيل آية مما اقترحوا إذا اقتضت الحكمة تنزيلها، لا ما تتعلق شهواتهم بتعجيز الرسول بطلبها، فقد مضت سنة الله بأن إجابة المعاندين إلى ما اقترحوا لم تكن سببا للهداية في أمة من الأمم، بل كانت سببا في عقاب المعاجزين للرسل بعذاب الاستئصال، وتنزيل الآية لا يكون خيرا لهم بل هو شر لهم ولكن أكثرهم لا يعلمون شيئا من حكم الله تعالى في أفعاله ولا من سنته في خلقه.

١٠. والخلاصة ـ إن طلبهم للآية أو الآيات مع وجود هذه الآيات البينات إنما هو محاولة تعجيز الرسول لا أنه هو الدليل الذي يوصلهم إلى صدقه، يرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾، وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. يبلغ الجد الصارم مداه، في مواجهة ما عساه يعتمل في نفس رسول الله ﷺ من الرغبة البشرية، المشتاقة إلى هداية قومه، المتطلعة إلى الاستجابة لما يطلبونه من آية لعلهم يهتدون، وهي الرغبة التي كانت تجيش في صدور بعض المسلمين في ذلك الحين، والتي تشير إليها آيات أخرى في السورة آتية في السياق، وهي رغبة بشرية طبيعية، ولكن في صدد الحسم في طبيعة هذه الدعوة ومنهجها ودور الرسل فيها، ودور

(١) في ظلال القرآن: ٢/ ١٠٧٩.

الناس أجمعين، تجيء تلك المواجهة الشديدة في القرآن الكريم: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾

٢. وإنه للهول الهائل ينسكب من خلال الكلمات الجليلة.. وما يملك الإنسان أن يدرك حقيقة هذا الأمر، إلا حين يستحضر في كيانه كله: أن هذه الكلمات موجهة من رب العالمين إلى نبيه الكريم.. النبي الصابر من أولي العزم من الرسل.. الذي لقي ما لقي من قومه صابرا محتسبا، لم يدع عليهم دعوة نوح عليه السلام وقد لقي منهم سنوات طويلة، ما يذهب بحلم الحليم!.. تلك سنتنا ـ يا محمد ـ فإن كان قد كبر عليك إعراضهم، وشق عليك تكذيبهم، وكنت ترغب في إتيانهم بآية.. إذن.. فإن استطعت فابتغ لك نفقا في الأرض أو سلما في السماء، فأتهم بآية!.. إن هداهم لا يتوقف على أن تأتيهم بآية، فليس الذي ينقص هو الآية التي تدلهم على الحق فيما تقول..

٣. ولو شاء الله لجمعهم على الهدى: إما بتكوين فطرتهم من الأصل على أن لا تعرف سوى الهدى ـ كالملائكة ـ وإما بتوجيه قلوبهم وجعلها قادرة على استقبال هذا الهدى والاستجابة إليه، وإما بإظهار خارقة تلوي أعناقهم جميعا، وإما بغير هذه من الوسائل وكلها يقدر الله عليها.

٤. ولكنه سبحانه ـ لحكمته العليا الشاملة في الوجود كله ـ خلق هذا الخلق المسمى بالإنسان، لوظيفة معينة، تقتضي ـ في تدبيره العلوي الشامل ـ أن تكون له استعدادات معينة غير استعدادات الملائكة، من بينها التنوع في الاستعدادات، والتنوع في استقبال دلائل الهدى وموحيات الإيمان والتنوع في الاستجابة لهذه الدلائل والموحيات، في حدود من القدرة على الاتجاه، بالقدر الذي يكون عدلا معه تنوع الجزاء على الهدى والضلال..

٥. لذلك لم يجمعهم الله على الهدى بأمر تكويني من عنده، ولكنه أمرهم بالهدى وترك لهم اختيار الطاعة أو المعصية، وتلقي الجزاء العادل في نهاية المطاف.. فاعلم ذلك ولا تكن ممن يجهلونه، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، يا لهول الكلمة! ويا لحسم التوجيه! ولكنه المقام الذي يقتضي هول الكلمة وحسم التوجيه.

وبعد ذلك بيان للفطرة التي فطر الله الناس عليها، ولمواقفهم المختلفة في مواجهة الهدى، الذي لا

تنقصه البينة ولا ينقصه الدليل: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾، إن الناس يواجهون هذا الحق الذي جاءهم به الرسول من عند الله وهم فريقان:

أ. فريق حي، أجهزة الاستقبال الفطرية فيه حية، عاملة، مفتوحة.. وهؤلاء يستجيبون للهدى، فهو من القوة والوضوح والاصطلاح مع الفطرة والتلاقي معها إلى الحد الذي يكفي أن تسمعه، فتستجيب له: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾

ب. وفريق ميت، معطل الفطرة، لا يسمع ولا يستقبل، ومن ثم لا يتأثر ولا يستجيب.. ليس الذي ينقصه أن هذا الحق لا يحمل دليله ـ فدليله كامن فيه، ومتى بلغ إلى الفطرة وجدت فيها مصداقه، فاستجابت إليه حتما ـ إنما الذي ينقص هذا الفريق من الناس هو حياة الفطرة، وقيام أجهزة الاستقبال فيها بمجرد التلقي! وهؤلاء لا حيلة فيهم للرسول، ولا مجال معهم للبرهان، إنما يتعلق أمرهم بمشيئة الله، إن شاء بعثهم إن علم منهم ما يستحق أن يحييهم، وإن شاء لم يبعثهم في هذه الحياة الدنيا، وبقوا أمواتا بالحياة حتى يرجعوا إليه في الآخرة، ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾

٦. هذه هي قصة الاستجابة وعدم الاستجابة! تكشف حقيقة الموقف كله، وتحدد واجب الرسول وعمله، وتترك الأمر كله لصاحب الأمر يقضي فيه بما يريد.

٧. ومن خطاب رسول الله ﷺ بهذه الحقيقة، ينتقل السياق إلى حكاية ما يطلبه المشركون من إنزال خارقة، وإلى بيان ما في هذا الطلب من الجهالة بسنة الله، ومن سوء إدراك لرحمته بهم ألا يستجيب لهذا الاقتراح الذي في أعقابه التدمير لهم لو أجيبوا إليه! ويعرض جانبا من دقة التدبير الإلهي وإحاطته بالأحياء جميعا، يوحي بحكمة السنة الشاملة للأحياء جميعا، وينتهي بتقرير ما وراء الهدى والضلال من أسرار وسنن تجري بها مشيئة الله طليقة.

٨. لقد كانوا يطلبون آية خارقة كالخوارق المادية التي صاحبت الرسالات السابقة، ولا يقنعون بآية القرآن الباقية، التي تخاطب الإدراك البشري الراشد، وتعلن عهد الرشد الإنساني، وتحترم هذا الرشد فتخاطبه هذا الخطاب الراقي؛ والتي لا تنتهي بانتهاء الجيل الذي يرى الخارقة المادية؛ بل تظل باقية تواجه الإدراك البشري بإعجازها إلى يوم القيامة..

٩. وكانوا يطلبون خارقة، ولا يفطنون إلى سنة الله في أخذ المكذبين بالدعوة بعد مجيء الخارقة،

وإهلاكهم في الدنيا، ولا يدركون حكمة الله في عدم مجيئهم بهذه الخارقة، وهو يعلم أنهم سيجحدون بها بعد وقوعها ـ كما وقع من الأقوام قبلهم ـ فيحق عليهم الهلاك، بينما يريد الله أن يمهلهم ليؤمن منهم من يؤمن، فمن لم يؤمن استخرج الله من ظهره ذرية مؤمنة، ولا يشكرون نعمة الله عليهم في إمهالهم، وذلك بعدم الاستجابة لاقتراحهم، الذي لا يعلمون جرائره!

١٠. والقرآن يذكر اقتراحهم هذا، ويعقب عليه بأن أكثرهم لا يعلمون ما وراءه ولا يعلمون حكمة الله في عدم الاستجابة، ويقرر قدرة الله على تنزيل الآية، ولكن حكمته هي التي تقتضي، ورحمته التي كتبها على نفسه هي التي تمنع البلاء: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

١١. والآن بعد الانتهاء من استعراض هذه الموجة من السياق، نقف وقفة قصيرة لاستخلاص عبرة التوجيه فيها لكافة أصحاب الدعوة إلى هذا الدين في كل جيل، فإن مدى التوجيه فيها يتجاوز المناسبة التاريخية الخاصة، وينسحب على جميع الأجيال، وجميع الدعاة، ويرسم منهجا للدعوة إلى هذا الدين، لا يتقيد بالزمان والمكان، ونحن لا نملك هنا أن نفصل كل جوانب هذا المنهج، فنقف منه إذن عند معالم الطريق:

أ. إن طريق الدعوة إلى الله شاق، محفوف بالمكاره، ومع أن نصر الله للحق آت لا ريب فيه، إلا أن هذا النصر إنما يأتي في موعده الذي يقدره الله، وفق علمه وحكمته، وهو غيب لا يعلم موعده أحد ـ حتى ولا الرسول ـ والمشقة في هذا الطريق تنشأ من عاملين أساسيين: من التكذيب والإعراض اللذين تقابل بهما الدعوة في أول الأمر، والحرب والأذى اللذين يعلنان على الدعاة.. ثم من الرغبة البشرية في نفس الداعية في هداية الناس إلى الحق الذي تذوقه، وعرف طعمه، والحماسة للحق والرغبة في استعلانه! وهذه الرغبة لا تقل مشقة عن التكذيب والإعراض والحرب والأذى، فكلها من دواعي مشقة الطريق! والتوجيه القرآني في هذه الموجة من السياق يعالج هذه المشقة من جانبيها.. ذلك حين يقرر أن الذين يكذبون بهذا الدين أو يحاربون دعوته، يعلمون علم اليقين أن ما يدعون إليه هو الحق، وأن الرسول الذي جاء به من عند الله صادق، ولكنهم مع هذا العلم لا يستجيبون، ويستمرون في جحودهم عنادا وإصرارا، لأن لهم هوى في الإعراض والتكذيب! وأن هذا الحق يحمل معه دليل صدقه، وهو يخاطب الفطرة

فتستجيب له، متى كانت هذه الفطرة حية، وأجهزة الاستقبال فيها صالحة: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾، فأما الذين يجحدون فإن قلوبهم ميتة وهم موتى وهم صم وبكم في الظلمات، والرسول لا يسمع الموتى ولا يسمع الصم الدعاء، والداعية ليس عليه أن يبعث الموتى، فذلك من شأن الله.. هذا كله من جانب، ومن الجانب الآخر، فإن نصر الله آت لا ريب فيه.. كل ما هنالك أنه يجري وفق سنة الله وبقدر الله، وكما أن سنة الله لا تستعجل، وكلماته لا تتبدل، من ناحية مجيء النصر في النهاية، فكذلك هي لا تتبدل ولا تستعجل من ناحية الموعد المرسوم.. والله لا يعجل لأن الأذى والتكذيب يلحق بالدعاة - ولو كانوا هم الرسل - فإن استسلام صاحب الدعوة نفسه لقدر الله بلا عجلة، وصبره على الأذى بلا تململ، ويقينه في العاقبة بلا شك.. كلها مطلوبة من وراء تأجيل النصر إلى موعده المرسوم.

ب. ويحدد هذا التوجيه القرآني دور الرسول في هذا الدين - ودور الدعاة بعده في كل جيل - إنه التبليغ، والمضي في الطريق، والصبر على مشاق الطريق.. أما هدى الناس أو ضلالهم فهو خارج عن حدود واجبه وطاقته.. والهدى والضلال إنما يتبعان سنة إلهية لا تتبدل، ولا يغير منها رغبة الرسول في هداية من يحب، كما لا يغير منها ضيقه ببعض من يعاند ويحارب.. إن شخصه لا اعتبار له في هذه القضية، وحسابه ليس على عدد المهتدين، إنما حسابه على ما أدى وما صبر وما التزم، وما استقام كما أمر.. وأمر الناس بعد ذلك إلى رب الناس.. ﴿مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾، ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ وقد بينا من قبل علاقة مشيئة الله الطليقة في الهدى والضلال باتجاه الناس وجهادهم، بما فيه الكفاية.

ج. من هنا لا ينبغي لصاحب الدعوة إلى هذا الدين، أن يستجيب لاقتراحات المقترحين ممن يوجه إليهم الدعوة، في تحوير منهج دعوته عن طبيعته الربانية؛ ولا أن يحاول تزيين هذا الدين لهم وفق رغباتهم وأهوائهم وشهواتهم..

د. ولقد كان المشركون يطلبون الخوارق - وفق مألوف زمانهم ومستوى مداركهم كما حكى عنهم القرآن في مواضع منه شتى، منها في هذه السورة ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾، ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾، وفي السور الأخرى ما هو أشد إثارة للعجب من هذه الاقتراحات، ذلك كالذي حكاه عنهم في سورة الإسراء: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ

حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾، وكالذي حكاه عنهم في سورة الفرقان: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾

هـ. والتوجيه القرآني المباشر في هذه الموجة من السورة نهى رسول الله ﷺ والمؤمنين أن يرغبوا في إتيانهم بآية ـ أية آية ـ مما يطلبون، وقيل للرسول ﷺ: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾، وقيل للمؤمنين الذين رغبت نفوسهم في الاستجابة للمشركين في طلبهم آية عندما أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها! قيل لهم: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، ليعلموا أولا أن الذي ينقص المكذبين ليس هو الآية والدليل على الحق، ولكن الذي ينقصهم أنهم لا يسمعون، وأنهم موتى، وأن الله لم يقسم لهم الهدى ـ وفق سنة الله في الهدى والضلال كما أسلفنا ـ ثم ليعلموا كذلك أن هذا الدين يجري وفق سنة لا تتبدل، وأنه أعز من أن يصبح تحت رغبات المقترحين وأهوائهم!

و. وهذا يقودنا إلى المجال الأشمل لهذا التوجيه القرآني.. إنه ليس خاصا بزمن، ولا محصورا في حادث، ولا مقيدا باقتراح معين، فالزمن يتغير، وأهواء الناس تتمثل في اقتراحات أخرى، وأصحاب الدعوة إلى دين الله ينبغي ألا تستخفهم أهواء البشر.. إن الرغبة في الاستجابة لمقترحات المقترحين هي التي تقود بعض أصحاب الدعوة الإسلامية اليوم إلى محاولة بلورة العقيدة الإسلامية في صورة (نظرية مذهبية) على الورق كالذي يجدونه في النظريات المذهبية الأرضية الصغيرة، التي يصوغها البشر لفترة من الفترات؛ ثم يمضي الزمن فإذا كلها عورات وشطحات ومتناقضات!.. وهي التي تقود بعض أصحاب هذه الدعوة إلى محاولة بلورة النظام الإسلامي في صورة مشروع نظام ـ على الورق ـ أو صورة تشريعات مفصلة ـ على الورق أيضا ـ تواجه ما عليه أهل الجاهلية الحاضرة من أوضاع لا علاقة لها بالإسلام (لأن

أهل هذه الجاهلية يقولون: إن الإسلام عقيدة ولا علاقة له بالنظام العام الواقعي للحياة!) وتنظم لهم هذه الأوضاع؛ بينما هم باقون على جاهليتهم يتحاكمون إلى الطاغوت، ولا يحكمون أو يتحاكمون إلى شريعة الله.. وكلها محاولات ذليلة، لا يجوز للمسلم أن يحاولها استجابة لأزياء التفكير البشري المتقلبة، التي لا تثبت على حال، باسم تطور وسائل الدعوة إلى الله! وأذل من هذه المحاولة محاولة من يضعون على الإسلام أقنعة أخرى، ويصفونه بصفات من التي تروج عند الناس في فترة من الفترات.. كالاشتراكية.. والديمقراطية.. وما إليها.. ظانين أنهم إنما يخدمون الإسلام بهذه التقدمة الذليلة!.. إن (الاشتراكية) مذهب اجتماعي اقتصادي من صنع البشر؛ قابل للصواب والخطأ، وإن (الديمقراطية) نظام للحياة أو للحكم من صنع البشر كذلك، يحمل صنع البشر من القابلية للصواب والخطأ أيضا.. والإسلام منهج حياة يشمل التصور الاعتقادي، والنظام الاجتماعي الاقتصادي، والنظام التنفيذي والتشكيلي.. وهو من صنع الله المبرأ من النقص والعيب.. فأين يقف من الإسلام من يريد أن يستشفع لمنهج الله سبحانه عند البشر بوصفه بصفة من أعمال البشر؟ بل أين يقف من الإسلام من يريد أن يستشفع لله سبحانه عند العبيد بقول من أقوال هؤلاء العبيد!؟.

ز. لقد كان كل شرك المشركين في الجاهلية العربية أنهم يستشفعون عند الله ببعض خلقه.. يتخذونهم أولياء: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ فهذا هو الشرك! فما الوصف الذي يطلق إذن على الذين لا يستشفعون لأنفسهم عند الله بأولياء من عبيده، ولكنهم - ويا للنكر والبشاعة! - يستشفعون لله سبحانه عند العبيد بمذهب أو منهج من مذاهب العبيد ومناهجهم!؟ إن الإسلام هو الإسلام، والاشتراكية هي الاشتراكية، والديمقراطية هي الديمقراطية.. ذلك منهج الله ولا عنوان له ولا صفة إلا العنوان الذي جعله الله له، والصفة التي وصفه بها.. وهذه وتلك من مناهج البشر، ومن تجارب البشر.. وإذا اختاروها فليختاروها على هذا الأساس.. ولا ينبغي لصاحب الدعوة إلى دين الله، أن يستجيب لإغراء الزي الرائج من أزياء الهوى البشري المتقلب، وهو يحسب أنه يحسن إلى دين الله! على أننا نسأل هؤلاء الذين هان عليهم دينهم، ولم يقدروا الله حق قدره.. إذا كنتم تقدمون الإسلام اليوم للناس باسم الاشتراكية، وباسم الديمقراطية، لأن هذين زيان من أزياء الاتجاهات المعاصرة.. فلقد كانت الرأسمالية في فترة من الفترات هي الزي المحبوب عند الناس وهم يخرجون بها من النظام الإقطاعي!

كما كان الحكم المطلق في فترة من الفترات هو الزي المطلوب في فترة التجميع القومي للولايات المتناثرة كما في ألمانيا وإيطاليا أيام بسمرك وما تزيني مثلا! وغدا من يدري ماذا يكون الزي الشائع من الأنظمة الاجتماعية الأرضية وأنظمة الحكم التي يضعها العبيد للعبيد، فكيف يا ترى ستقولون غدا عن الإسلام؟ لتقدموه للناس في الثوب الذي يحبه الناس!؟ إن التوجيه القرآني في هذه الموجة التي نحن بصددها ـ وفي غيرها كذلك ـ يشمل هذا كله.. إنه يريد أن يستعلي صاحب الدعوة بدينه؛ فلا يستجيب لاقتراحات المقترحين؛ ولا يحاول تزيين هذا الدين بغير اسمه وعنوانه؛ ولا مخاطبة الناس به بغير منهجه ووسيلته.. إن الله غني عن العالمين، ومن لم يستجب لدينه عبودية له، وانسلاخا من العبودية لسواه، فلا حاجة لهذا الدين به، كما أنه لا حاجة لله سبحانه بأحد من الطائعين أو العصاة.

ح. ثم إنه إذا كان لهذا الدين أصالته من ناحية مقوماته وخصائصه، التي يريد الله أن تسود البشرية، فإن له كذلك أصالته في منهجه في العمل، وفي أسلوبه في خطاب الفطرة البشرية.. إن الذي نزل هذا الدين بمقوماته وخصائصه، وبمنهجه الحركي وأسلوبه، هو سبحانه الذي خلق الإنسان، ويعلم ما توسوس به نفسه..

ط. وفي هذه الموجة من السورة نموذج من مخاطبته للفطرة الإنسانية.. نموذج من نماذج متنوعة شتى.. فهو يربط الفطرة البشرية بالوجود الكوني، ويدع الإيقاعات الكونية تواجه الفطرة البشرية، ويثير انتباه الكينونة البشرية لتلقي هذه الإيقاعات.. وهو يعلم أنها تستجيب لها متى بلغتها بعمقها وقوتها: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾، والنموذج الذي يواجهنا في هذه الموجة هو: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وفي هذه الآية يحكي قول الذين يكذبون ويعارضون ويطلبون خارقة يراها جيلهم وتنتهي.. ثم يلمس قلوبهم بما يكمن وراء هذا الاقتراح لو أجيب! إنه الأخذ والتدمير! والله قادر على أن ينزل الآية.. ولكن رحمته هي التي اقتضت ألا ينزلها، وحكمته هي التي اقتضت ألا يستجيب لهم فيها.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. إذ استمع النبي إلى كلمات ربه، وما تحمل إليه من مواساة كريمة، وعزاء جميل، فقد وجب على النبي أن يطمئن قلبه، وتسكن نفسه ويذهب حزنه وحسرته، على ما يلقى من قومه.. فإذا كان قد بقي في نفس النبي شيء من تلك العوارض التي عرضت له من قومه، وإن كانت لا تزال به توازع الحزن والحسرة عليهم، فإن السماء ليس عندها ما تقدمه لهم من وسائل الإقناع، بعد أن قدمت لهم ما قدمت من آيات، وما ساقت إليهم من نذر! فإن وجد النبي القدرة من نفسه على أن يأتيهم بما يقنعهم، ويحملهم على التصديق به، وبما يدعوهم إليه، فليفعل! وهذه هي الأرض تحت قدميه، والسماء فوق رأسه، فإن استطاع أن يشق الأرض أو يرقى السماء بسلّم ليأتيهم بآية مقنعة، فليفعل وهيهات هيهات!

٢. ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ أي إن شقّ عليك إعراض قومك عنك، فحاول ـ إن استطعت ـ أن تشق الأرض، أو ترقى في السّماء، لتأتيهم بما يقترحون عليك من آيات! وليس هذا دعوة من الله سبحانه للنبيّ أن يفعل هذا، وإنما هو صرف له عن هذا اللغو الذي يلغو به قومه، من مقترحات يقترحونها عليه، وتيئيس لهم من أن يكون لهذا اللّغو قبول عنده..

٣. في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ إشارة إلى أن ما قدمته السّماء من آيات هو القدر المطلوب لهداية من فيه استعداد لقبول الحق، حين تلوح أماراته، وتظهر له دلائله.. وليس من حكمة السّماء أن تقهر الناس قهرا على الإيمان ولا أن تحملهم حملا على الهدى، فإن مثل هذا الإيمان الذي يجيء إليه الإنسان قهرا وقسرا، هو إيمان لا دخل لكسب الإنسان فيه، ولا جزاء له عليه، إذ أنه ليس من سعيه وكسبه، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ [النجم: ٣٩ ـ ٤١]

٤. ولو أراد سبحانه وتعالى أن يدخل الناس جميعا في الإيمان لفعل، ولوضع بين يدى المعاندين والكافرين والمشركين من الآيات القاهرة ما يحملهم على الإيمان حيث لا يجدون معها سبيلا إلى الإنكار

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/ ١٦٣.

والجحد.. ولكنّه سبحانه أراد أن يكون للإنسان تقديره وتفكيره، فيما يحمل إليه رسل الله من آيات، يرى فيها العقلاء دلائل الحق، وأمارات الهدى، ولا يرى فيها الضّالون والمعاندون شيئا يفتح لهم الطريق إلى الله.. وفي هذا ابتلاء وامتحان، ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾.. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ فما قوة في هذا الوجود تردّ مشيئة الله، ونفاذ ما يشاء.. ولكنّه سبحانه وضع الإنسان بهذا الوضع الذي يكون له فيه مجال للاختيار، ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]

٥. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ هو عزل للنبيّ عن أن يكون ممن يجهلون حكمة الله هذه، وسنّته في خلقه، وفي هذا وقاية للنبيّ من أن تطرقه طوارق الأسى والحسرة على من تخلّف عن الدعوة التي يدعو بها، ولوى وجهه عن الحق الذي بين يديه، من ذوى قرابته، ومن يريد لهم الخير ممن يحبّهم.. ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]

٦. في قوله تعالى في الآية ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ إشارة إلى أن هؤلاء الكافرين المعاندين، قد أضلّهم الله لعنادهم وكفرهم، وتركهم وما اختاروا من ضلال وشرك.. ذلك لأنهم عموا عن آيات الله، وأبوا أن يفتحوا عقولهم وقلوبهم لها.. وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ بيان لحال هؤلاء الكافرين المعاندين، وأنهم لن يسمعوا كلمة الحق، ولن يعطوها آذانا واعية، ولهذا كان من الحكمة ألا يلحّ عليهم أحد بما يدعوهم إليه من حقّ وهدى، فإنهم لن يسمعوا، ولو سمعوا ما استجابوا.

٧. ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أي الذين يسمعون سمعا عاقلا متدبرا.. يصغى، ويفكر، ويعقل.. أما هؤلاء وإن كانت لهم آذان يسمعون بها فإنها تصبح ثقيلة عند سماع الحق، كأن بها وقرا، لأن قلوبهم مريضة، وعقولهم سفيهة، ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]

٨. ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾ معطوف على قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أي أن هذين الأمرين من واد واحد، إذ هما ممكنان واقعان في قدرة الله: استجابة الذين يسمعون ويعقلون، لما يسمعونه ويعقلونه، وبعث لأموات من قبورهم يوم القيامة، وفي الجمع بين الأمرين دلالتان:

أ. أولاهما: أن الناس لهم كسب ولهم إرادة، وقدرة، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ

الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ وأن الله سبحانه وتعالى لم يكلّف الناس إلّا ما هو ملائم لطبيعتهم، مناسب لقدرتهم، أما ما فوق ذلك فلم يكلّفوا به، ولم يحاسبوا عليه، كبعث الموتى، الذي هو مما لله وحده (والموتى يبعثهم الله)

ب. وثانيتهما: أن الضّالين المعاندين من الناس، الذين لم يستمعوا للحق، ولم يستجيبوا له، قد وضعوا بذلك أنفسهم موضع العجز المطلق، أمام هذا الأمر الممكن الذي دعوا إليه، فكأنهم والأموات سواء.. فكما يستحيل على الأموات أن يبعثوا من تلقاء أنفسهم، كذلك يستحيل على هؤلاء الضالين المعاندين أن يستمعوا للهدى وأن يستجيبوا له بطبيعتهم.. والأموات يبعثون حين يريد الله بعثهم ودعوتهم إليه، والضالون الشاردون عن الله، يهديهم الله، إذا أراد لهم الهداية، ودعاهم إلى طريقه.. ولكن هؤلاء الضالين المعاندين لن يدعوهم الله إليه، ولن يهديهم إلى الحق، كما يقول سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾.. فهم وقد كان الإيمان بالله من الممكنات لهم، قد جعلوه بعنادهم وضلالهم مستحيلا يحتاج إلى قدرة فوق قدرتهم، هي قدرة الله تعالى، وإذ تخلّى الله عنهم وأخلاهم لقدرتهم، فلن يهتدوا إذن أبدا.. وإن الله سبحانه يبعث الموتى، ولكنه لا يهدى هؤلاء الضالين العاندين، وفي هذا تيئيس لهم، وخذلان مبين، وخزى فاضح، ووعيد بالحساب الشديد، والعذاب الأليم.

٩. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ الضمير في (يرجعون)، يعود إلى هؤلاء المعاندين، الذين لن يهتدوا أبدا، إلى أن يموتوا، ثم يبعثوا مع الموتى.. ثم يرجعون إلى الله، للحساب والجزاء.. وهذا هو سرّ العطف (بثم) الذي يفيد التراخي الزمنيّ.. فهم إذ خوطبوا كانوا أحياء.. (ثم يبعثون، ثم يحشرون)

١٠. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هو بيان لموقف هؤلاء الضالين المعاندين، الذين أبوا أن يستجيبوا لله ولرسوله، وأصبح قبولهم الإيمان أمرا مستحيلا في مواجهة ما جاءهم به النبيّ ولن يكون لهم نظر وكسب فيما كان يدعوهم إليه من إيمان، بعد أن تأتيهم الآيات التي يقترحونها.

١١. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ والآية التي يقترحونها هي معجزة مادية، يرونها بأعينهم، كما يقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾، وفي قولهم ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾ كفر صريح بالله، واتهام للنبيّ بأن له ربّا غير الرّبّ الذي يعرفونه، ويتقربون بالأوثان

إليه.

١٢. في قوله تعالى: ﴿نُزِّلَ﴾ إشارة إلى أن الآية التي يطلبونها هي آية حسّية، تتحرك بين الناس، ويتحرك الناس بين يديها.. فهي ـ والأمر كذلك ـ شيء مغاير للآيات القرآنية التي تنزل على النبيّ فلا يكون لها هذا الأثر الحسّى، الذي يبعث في الحياة هزّة، وثورة ظاهرتين للعيان!

١٣. ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً﴾ فليس أمام قدرة الله ما يعجز، وقد نزّل الله كثيرا من الآيات الحسّية كهذه الآيات التي يقترحونها، ولكن كثيرا من الناس كفر بها، وخادع حواسه وخان عقله فيها..

١٤. في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إشارة إلى جهل هؤلاء المكذبين، فوق ما هم فيه من ضلال وكفر.. ولو علموا لرأوا أن هذا المقترح الذي يقترحونه، فيه هلاكهم ودمارهم.. حيث ذلك هو الجزاء الذي يعقب التكذيب بالمعجزات الحسيّة، التي هلك المكذبون بها، حين جاءتهم على يد الأنبياء.. نوح، وهود، وصالح، ولوط، وموسى، وعيسى.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾، هذه الآية نظير قوله تعالى مخاطبا نبيه الأكرم: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ـ ٨ فاطر، كل منهما تصور الحرقة والألم الذي كان الرسول الأعظم يعانيه من اعراض المشركين عن دعوته، وكل منهما يهدف إلى التخفيف والتسرية عنه ﷺ.. لاقى النبي من قومه ما يذهب بحلم الحليم، فصبر واحتسب، ولم يدع عليهم، بل دعا لهم، وقال: اللهم اغفر لقومي، أنهم لا يعلمون ومع ذلك كان يتألم ويتوجع لكفرهم، فخاطبه الله بهذه الآية ليخفف عنه، وييأس منهم، ويصرف النظر عنهم، ثم ينتظر قليلا ليرى كيف تكون عاقبة المكذبين.

٢. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾، قال الرازي: (يدل هذا على انه تعالى لا يريد الايمان من

---

(١) التفسير الكاشف: ٣/ ١٨٤.

الكافر، بل يريد إبقاءه على الكفر)، ويلاحظ بأن هذا هو الظلم بعينه، والله سبحانه ليس بظلام للعبيد، والصحيح في معنى هذه الجملة أن الله سبحانه لا يريد أن يلجئ أحدا إلى الايمان به، بل يدع الخيار له بعد أن يقيم الحجة عليه بالدلائل والبينات، ولو أراد الايمان من عباده بإرادة ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ ما كفر واحد منهم، ولكن شاءت حكمته تعالى أن يتدخل في شئون الناس كآمر وناصح، لا كخالق وقاهر، وسبق التفصيل والتوضيح عند تفسير الآية ٢٦ من سورة البقرة.

٣. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، وكيف يكون الرسول الأعظم من الجاهلين، وأخلاقه أخلاق القرآن؟ وإنما ساغ هذا الخطاب لأشرف الخلق، لأنه من خالق الخلق، لا من النظير والمثيل.

٤. ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾، هذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾، والمعنى أن الذين تحرص على هداهم يا محمد لا يسمعون منك سماع فهم وتدبر، لأن حب الدنيا جعلهم كالموتى.. والموتى لا ينبغي أن يخاطبوا بشيء بل يتركوا وشأنهم إلى يوم القيامة، حيث يرون العذاب الذي لا يجدون عنه مهربا.

٥. سؤال وإشكال: كيف قالوا ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾،، مع أن الله قد أنزل على محمد ﷺ العديد من الآيات والبينات؟ والجواب: أن المراد بالآية هنا المعجزة التي اقترحوها، وجعلوها شرطا لإيمانهم بمحمد ﷺ، ولم يريدوا آية تقنع طالب الحق لوجه الحق، ولو أرادوها لكانوا في غنى عن قولهم: لولا نزل عليه آية.

٦. ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً﴾ من النوع الذي اقترحوه، ولكنه تعالى لا ينزلها تلبية للشهوات والأهواء، وانما ينزل الآيات على ما تقتضيه حكمته جل وعلا ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله ينزل الآية حسب حكمته، لا حسب أهواء الناس.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ عطف على جملة: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾،

______

(١) التحرير والتنوير: ٦/ ٧٨.

فإنّ رسول الله ﷺ كان يحزنه ما يقولونه فيه من التكذيب به وبالقرآن حزنا على جهل قومه بقدر النصيحة وإنكارهم فضيلة صاحبها، وحزنا من جرّاء الأسف عليهم من دوام ضلالهم شفقة عليهم، وقد سلّاه الله تعالى عن الحزن الأول بقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾، وسلّاه عن الثاني بقوله: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ الآية.

٢. ﴿كَبُرَ﴾ ككرم، كبرا كعنب: عظمت جثّته، ومعنى ﴿كَبُرَ﴾ هنا شقّ عليك، وأصله عظم الجثّة، ثم استعمل مجازا في الأمور العظيمة الثقيلة لأنّ عظم الجثّة يستلزم الثقل، ثم استعمل مجازا في معنى (شقّ) لأنّ الثقيل يشق حمله، فهو مجاز مرسل بلزومين.

٣. جيء في هذا الشرط بحرف (إن) الذي يكثر وروده في الشرط الذي لا يظنّ حصوله للإشارة إلى أنّ الرسول ﷺ ليس بمظنّة ذلك ولكنّه على سبيل الفرض.

٤. وزيدت (كان) بعد (إن) الشرطية بينها وبين ما هو فعل الشرط في المعنى ليبقى فعل الشرط على معنى المضي فلا تخلّصه (إن) الشرطيّة إلى الاستقبال، كما هو شأن أفعال الشروط بعد (إن)، فإنّ (كان) لقوّة دلالته على المضي لا تقلبه أداة الشرط إلى الاستقبال.

٥. والإعراض المعرّف بالإضافة هو الذي مضى ذكره في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام: ٤]، وهو حالة أخرى غير حالة التكذيب، وكلتاهما من أسباب استمرار كفرهم.

٦. وقوله: ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ﴾ جواب ﴿إِنْ كَانَ كَبُرَ﴾، وهو شرط ثان وقع جوابا للشرط الأول، والاستطاعة: القدرة، والسين والتاء فيها للمبالغة في طاع، أي انقاد.

٧. والابتغاء: الطلب، وقد تقدّم عند قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ﴾ في سورة آل عمران، أي أن تطلب نفقا أو سلّما لتبلغ إلى خبايا الأرض وعجائبها وإلى خبايا السماء، ومعنى الطلب هنا: البحث.

٨. وانتصب ﴿نَفَقًا﴾ و﴿سَلَّمًا﴾ على المفعولين لـ ﴿تَبْتَغِي﴾، والنفق: سرب في الأرض عميق.

٩. والسّلّم ـ بضمّ ففتح مع تشديد اللّام ـ آلة للارتقاء تتّخذ من حبلين غليظين متوازيين تصل بينهما أعواد أو حبال أخرى متفرّقة في عرض الفضاء الذي بين الحبلين من مساحة ما بين كلّ من تلك الأعواد بمقدار ما يرفع المرتقي إحدى رجليه إلى العود الذي فوق ذلك، وتسمّى تلك الأعواد درجات،

ويجعل طول الحبلين بمقدار الارتفاع الذي يراد الارتقاء إليه، ويسمّى السلّم مرقاة ومدرجة، وقد سمّوا الغرز الذي يرتقي به الراكب على رحل ناقته سلّما، وكانوا يرتقون بالسلّم إلى النخيل للجذاذ، وربما كانت السلاليم في الدور تتّخذ من العود فتسمّى المرقاة، فأمّا الدرج المبنيّة في العلالي فإنّها تسمّى سلّما وتسمّى الدّرجة كما ورد في حديث مقتل أبي رافع قول عبد الله بن عتيك في إحدى الروايات (حتّى انتهيت إلى درجة له)، وفي رواية (حتّى أتيت السلّم أريد أن أنزل فأسقط منه)

١٠. ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ صفة ﴿نَفَقًا﴾ أي متغلغلا، أي عميقا، فذكر هذا المجرور لإفادة المبالغة في العمق مع استحضار الحالة وتصوير حالة الاستطاعة إذ من المعلوم أنّ النفق لا يكون إلّا في الأرض.

١١. ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ وصف به ﴿سَلَّمًا﴾، أي كائنا في السماء، أي واصلا إلى السماء، والمعنى تبلغ به إلى السماء، كقول الأعشى: (ورقّيت أسباب السّماء بسلّم) والمعنى: فإن استطعت أن تطلب آية من جميع الجهات للكائنات، ولعلّ اختيار الابتغاء في الأرض والسماء أنّ المشركين سألوا الرسول ﷺ آيات من جنس ما في الأرض، كقولهم ﴿حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠]، ومن جنس ما في السماء، كقولهم: ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ﴾ [الإسراء: ٩٣]

١٢. ﴿بِآيَةٍ﴾ أي بآية يسلّمون بها، فهنالك وصف محذوف دلّ عليه قوله: ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾، أي عن الآيات التي جئتهم بها.

١٣. وجواب الشرط محذوف دلّ عليه فعل الشرط، وهو﴿اسْتَطَعْتَ﴾، والشرط وجوابه مستعملان مجازا في التأييس من إيمانهم وإقناعهم، لأنّ الله جعل على قلوبهم أكنّة وفي آذانهم وقرا وإن يروا كلّ آية لا يؤمنوا بها، ويتعيّن تقدير جواب الشرط ممّا دلّ عليه الكلام السابق، أي فأتهم بآية فإنّهم لا يؤمنون بها، كما يقول القائل للراغب في إرضاء ملحّ، إن استطعت أن تجلب ما في بيتك، أي فهو لا يرضى بما تقصر عنه الاستطاعة بله ما في الاستطاعة، وهو استعمال شائع، وليس فيه شيء من اللوم ولا من التوبيخ، كما توهّمه كثير من المفسّرين.

١٤. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ شرط امتناعي دلّ على أنّ الله لم يشأ ذلك، أي لو شاء الله أن يجمعهم على الهدى لجمعهم عليه؛ فمفعول المشيئة محذوف لقصد البيان بعد الإبهام على الطريقة المسلوكة في فعل المشيئة إذا كان تعلّقه بمفعوله غير غريب وكان شرطا لإحدى أدوات الشرط كما هنا،

وكقوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ [النساء: ١٣٣]

١٥. ومعنى: ﴿لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ لهداهم أجمعين، فوقع تفنّن في أسلوب التعبير فصار تركيبا خاصّيّا عدل به على التركيب المشهور في نحو قوله تعالى: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩] للإشارة إلى تمييز الذين آمنوا من أهل مكّة على من بقي فيها من المشركين، أي لو شاء لجمعهم مع المؤمنين على ما هدى إليه المؤمنين من قومهم، والمعنى: لو شاء الله أن يخلقهم بعقول قابلة للحقّ لخلقهم بها فلقبلوا الهدى، ولكنّه خلقهم على ما وصف في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥] الآية، كما تقدّم بيانه، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [هود: ١١٨]، وبذلك تعلم أنّ هذه مشيئة كليّة تكوينيّة، فلا تعارض بين هذه الآية وبين قوله تعالى في آخر هذه السورة: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ الآية، فهذا من المشيئة المتعلّقة بالخلق والتكوين لا من المشيئة المتعلّقة بالأمر والتشريع، وبينهما بون، سقط في مهواته من لم يقدّر له صون.

١٦. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ تذييل مفرّع على ما سبق، والمراد بـ ﴿الْجَاهِلِينَ﴾ يجوز أن يكون من الجهل الذي هو ضدّ العلم، كما في قوله تعالى خطابا لنوح ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]، وهو ما حمل عليه المفسّرون هنا، ويجوز أن يكون من الجهل ضدّ الحلم، أي لا تضق صدرا بإعراضهم، وهو أنسب بقوله: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾، وإرادة كلا المعنيين ينتظم مع مفاد الجملتين: جملة: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ وجملة ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾، ومع كون هذه الجملة تذييلا للكلام السابق فالمعنى: فلا يكبر عليك إعراضهم ولا تضق به صدرا، وأيضا فكن عالما بأنّ الله لو شاء لجمعهم على الهدى، وهذا إنباء من الله تعالى لرسوله ﷺ بأمر من علم الحقيقة يختصّ بحالة خاصّة فلا يطّرد في غير ذلك من مواقف التشريع.

١٧. وإنّما عدل على الأمر بالعلم لأنّ النّهي عن الجهل يتضمّنه فيتقرّر في الذهن مرتين، ولأنّ في النهي عن الجهل بذلك تحريضا على استحضار العلم به، كما يقال للمتعلّم: لا تنسى هذه المسألة، وليس في الكلام نهي عن شيء تلبّس به الرسول ﷺ كما توهّمه جمع من المفسّرين، وذهبوا فيه مذاهب لا تستبين.

١٨. ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ تعليل لما أفاده قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ إلى قوله ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ من تأييس من ولوج الدعوة إلى

أنفسهم، أي لا يستجيب الذين يسمعون دون هؤلاء الذين حرمهم فائدة السمع وفهم المسموع، ومفهوم الحصر مؤذن بإعمال منطوقه الذي يومئ إلى إرجاء بعد تأييس بأنّ الله جعل لقوم آخرين قلوبا يفقهون بها وآذانا يسمعون بها فأولئك يستجيبون.

١٩. ﴿يَسْتَجِيبُ﴾ بمعنى يجيب، فالسين والتاء زائدان للتأكيد؛ وقد تقدّم الكلام على هذا الفعل عند قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ في سورة آل عمران، وحذف متعلّق ﴿يَسْتَجِيبُ﴾ لظهوره من المقام لأنّ المقام مقام الدعوة إلى التوحيد وتصديق الرسول.

٢٠. ومعنى ﴿يَسْمَعُونَ﴾، أنّهم يفقهون ما يلقى إليهم من الإرشاد لأنّ الضالّين كمن لا يسمع، فالمقصود سمع خاصّ وهو سمع الاعتبار.

٢١. أمّا قوله: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾ فالوجه أنّه مقابل لـ ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾، ولذلك حسن عطف هذه الجملة على جملة: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾، فمعنى الكلام: وأمّا المعرضون عنك فهم مثل الموتى فلا يستجيبون، كقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ [النمل: ٨٠]، فحذف من الكلام ما دلّ عليه السياق، فإنّ الذي لا يسمع قد يكون فقدان سمعه من علّة كالصمم، وقد يكون من عدم الحياة، كما قال عبد الرحمن بن الحكم الثقفي:

لقد أسمعت لو ناديت حيّا ولكن لا حياة لمن تنادي

فتضمّن عطف ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾ تعريضا بأنّ هؤلاء كالأموات لا ترجى منهم استجابة، وتخلّص إلى وعيدهم بأنّه يبعثهم بعد موتهم، أي لا يرجى منهم رجوع إلى الحقّ إلى أن يبعثوا، وحينئذ يلاقون جزاء كفرهم.

٢٢. ﴿وَالْمَوْتَى﴾ استعارة لمن لا ينتفعون بعقولهم ومواهبهم في أهمّ الأشياء، وهو ما يرضي الله تعالى.

٢٣. و﴿يَبْعَثُهُمُ﴾ على هذا حقيقة، وهو ترشيح للاستعارة، لأنّ البعث من ملائمات المشبّه به في العرف وإن كان الحي يخبر عنه بأنه يبعث، أي بعد موته، ولكن العرف لا يذكر البعث إلّا باعتبار وصف المبعوث بأنّه ميّت، ويجوز أن يكون البعث استعارة أيضا للهداية بعد الضلال تبعا لاستعارة الموت لعدم قبول الهدى على الوجهين المعروفين في الترشيح ـ في فن البيان ـ من كونه تارة يبقى على حقيقته لا يقصد

منه إلّا تقوية الاستعارة، وتارة يستعار من ملائم المشبّه به إلى شبهه من ملائم المشبّه، كقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، فيكون على هذا الوجه في الكلام وعد للرسول ﷺ بأنّ بعض هؤلاء الضالّين المكذّبين سيهديهم الله تعالى إلى الإسلام، وهم من لم يسبق في علمه حرمانهم من الإيمان فعلى الوجه الأول يكون قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ زيادة في التهديد والوعيد، وعلى الوجه الثاني يكون تحريضا لهم على الإيمان ليلقوا جزاءه حين يرجعون إلى الله، ويجوز أن يكون الوقف عند قوله تعالى: ﴿يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾، وتمّ التمثيل هنالك، ويكون قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ استطرادا تخلّص به إلى قرع أسماعهم بإثبات الحشر الذي يقع بعد البعث الحقيقي، فيكون البعث في قوله: ﴿يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾ مستعملا في حقيقته ومجازه، وقريب منه في التخلّص قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى﴾ في سورة البقرة.

٢٤. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ عطف على جملة: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ [الأنعام: ٣٥] الآيات، وهذا عود إلى ما جاء في أول السورة من ذكر إعراضهم عن آيات الله بقوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ثم ذكر ما تفنّنوا به من المعاذير من قولهم: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨]، وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ [الأنعام: ٢٥] أي وقالوا: لولا أنزل عليه آية، أي على وفق مقترحهم، وقد اقترحوا آيات مختلفة في مجادلات عديدة، ولذلك أجملها الله تعالى هنا اعتمادا على علمها عند الرسول ﷺ والمؤمنين، فقال: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾

٢٥. فجملة: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ وقع عطفها معترضا بين جملة ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦] وجملة ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨] إلخ، وفي الإتيان بفعل النزول ما يدلّ على أنّ الآية المسئولة من قبيل ما يأتي من السماء، مثل قولهم ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨]، وقولهم: ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾ [الإسراء: ٩٣] وشبه ذلك.

٢٦. وجرّد ﴿نَزَّلَ﴾ من علامة التأنيث لأنّ المؤنّث الذي تأنيثه لفظي بحت يجوز تجريد فعله من علامة التأنيث؛ فإذا وقع بين الفعل ومرفوعه فاصل اجتمع مسوّغان لتجريد الفعل من علامة التأنيث،

فإنّ الفصل بوحده مسوّغ لتجريد الفعل من العلامة، وقد صرّح في (الكشاف) بأنّ تجريد الفعل عن علامة التأنيث حينئذ حسن.

٢٧. ﴿لَوْلَا﴾ حرف تحضيض بمعنى (هلّا)، والتحضيض هنا لقطع الخصم وتعجيزه، كما تقدّم في قوله تعالى آنفا ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨]

٢٨. وتقدّم الكلام على اشتقاق ﴿آيَةً﴾ عند قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ في سورة البقرة [٣٩]

٢٩. وفصل فعل ﴿قُلْ﴾ فلم يعطف لأنّه وقع موقع المحاورة فجاء على طريقة الفصل التي بيّنّاها في مواضع كثيرة، أولها: قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ في سورة البقرة.

٣٠. وأمر الله رسوله أن يجيبهم بما يعلم منه أنّ الله لو شاء لأنزل آية على وفق مقترحهم تقوم عليهم بها الحجّة في تصديق الرسول، ولكنّ الله لم يرد ذلك لحكمة يعلمها؛ فعبّر عن هذا المعنى بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً﴾ وهم لا ينكرون أنّ الله قادر، ولذلك سألوا الآية، ولكنّهم يزعمون أنّ الرسول ﷺ لا يثبت صدقه إلّا إذا أيّده الله بآية على وفق مقترحهم، فقوله: ﴿إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً﴾ مستعمل في معناه الكنائي، وهو انتفاء أن يريد الله تعالى إجابة مقترحهم، لأنّه لمّا أرسل رسوله بآيات بيّنات حصل المقصود من إقامة الحجّة على الذين كفروا، فلو شاء لزادهم من الآيات لأنّه قادر.

٣١. ففي هذه الطريقة من الجواب إثبات للردّ بالدليل، وبهذا يظهر موقع الاستدراك في قوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فإنّه راجع إلى المدلول الالتزامي- أي ولكن أكثر المعاندين لا يعلمون أنّ ذلك لو شاء الله لفعله، ويحسبون أنّ عدم الإجابة إلى مقترحهم يدلّ على عدم صدق الرسول ﷺ وذلك من ظلمة عقولهم، فلقد جاءهم من الآيات ما فيه مزدجر، فيكون المعنى الذي أفاده هذا الردّ غير المعنى الذي أفاده قوله: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨] فإنّ ذلك نبّهوا فيه على أنّ عدم إجابتهم فيه فائدة لهم وهو استبقاؤهم، وهذا نبّهوا فيه على سوء نظرهم في استدلالهم.

٣٢. وبيان ذلك أنّ الله تعالى نصب الآيات دلائل مناسبة للغرض المستدلّ عليه كما يقول المنطقيّون: إنّ المقدّمات والنتيجة تدلّ عقلا على المطلوب المستدلّ عليه، وإنّ النتيجة هي عين المطلوب في الواقع وإن كانت غيره في الاعتبار؛ فلذلك نجد القرآن يذكر الحجج على عظيم قدرة الله على خلق الأمور

العظيمة، كإخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي في سياق الاستدلال على وقوع البعث والحشر، ويسمّى تلك الحجج آيات كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٨]، وكما سيجيء في أول سورة الرعد ﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ وذكر في خلال ذلك تفصيل الآيات إلى قوله: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥]، وكذلك ذكر الدلائل على وحدانية الله باستقلاله بالخلق، كقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ إلى قوله ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ [الأنعام: ١٠١ ـ ١٠٥] إلخ، وكقوله في الاستدلال على انفراده بأنواع الهداية ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ولمّا كان نزول القرآن على الرسول ﷺ حجّة على صدقه في إخباره أنّه منزل من عند الله لما اشتمل عليه من العلوم وتفاصيل المواعظ وأحوال الأنبياء والأمم وشرع الأحكام مع كون الذي جاء به معلوم الأمية بينهم قد قضى شبابه بين ظهرانيهم، جعله آية على صدق الرسول ﷺ فيما أخبر به عن الله تعالى، فسمّاه آيات في قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ [الحج: ٧٢] فلم يشإ الله أن يجعل الدلائل على الأشياء من غير ما يناسبها.

٣٣. أمّا الجهلة والضّالون فهم يرومون آيات من عجائب التصاريف الخارقة لنظام العالم، يريدون أن تكون علامة بينهم وبين الله على حسب اقتراحهم بأن يجيبهم إليها إشارة منه إلى أنّه صدّق الرسول فيما بلّغ عنه، فهذا ليس من قبيل الاستدلال ولكنّه من قبيل المخاطرة ليزعموا أنّ عدم إجابتهم لما اقترحوه علامة على أنّ الله لم يصدّق الرسول ﷺ في دعوى الرسالة، ومن أين لهم أنّ الله يرضى بالنزول معهم إلى هذا المجال، ولذلك قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي لا يعلمون ما وجه الارتباط بين دلالة الآية ومدلولها، ولذلك قال في الردّ عليهم في سورة الرعد [٧] ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾ فهم جعلوا إيمانهم موقوفا على أن تنزّل آية من السماء، وهم يعنون أنّ تنزيل آية من السماء جملة واحدة، فقد قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]، وقالوا: ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾ [الإسراء: ٩٣]، فردّ الله عليهم بقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾ [الرعد: ٧]، أي لا علاقة بين الإنذار وبين اشتراط كون الإنذار في

كتاب ينزّل من السماء، لأنّ الإنذار حاصل بكونه إنذارا مفصّلا بليغا دالّا على أنّ المنذر به ما اخترعه من تلقاء نفسه، ولذلك ردّ عليهم بما يبيّن هذا في قوله: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ إلى قوله ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٤٨ ـ ٥١]، أي فما فائدة كونه ينزل في قرطاس من السماء مع أنّ المضمون واحد، وقال في ردّ قولهم: ﴿حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾ [الإسراء: ٩٣] ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣]، نعم إنّ الله قد يقيم آيات من هذا القبيل من تلقاء اختياره بدون اقتراح عليه، وهو ما يسمّى بالمعجزة مثل ما سمّى بعض ذلك بالآيات في قوله: ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾ [النمل: ١٢]، فذلك أمر أنف من عند الله لم يقترحه عليه أحد، وقد أعطى نبيّنا محمدا ﷺ من ذلك كثيرا في غير مقام اقتراح من المعرضين، مثل انشقاق القمر، ونبع الماء من بين أصابعه، وتكثير الطعام القليل، ونبع الماء من الأرض بسهم رشقه في الأرض، هذا هو البيان الذي وعدت به عند قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ في هذه السورة [٨]

٣٤. ومن المفسّرين من جعل معنى قوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّهم لا يعلمون أنّ إنزال الآية على وفق مقترحهم يعقبها الاستئصال إن لم يؤمنوا، وهم لعنادهم لا يؤمنون، إلّا أنّ ما فسّرتها به أولى لئلّا يكون معناها إعادة لمعنى الآية التي سبقتها، وبه يندفع التوقّف في وجه مطابقة الجواب لمقتضى السؤال حسبما توقّف فيه التفتازانيّ في تقرير كلام (الكشاف)

٣٥. وقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ تنبيه على أنّ فيهم من يعلم ذلك ولكنّه يكابر ويظهر أنّه لا يتمّ عنده الاستدلال إلّا على نحو ما اقترحوه.

٣٦. وإعادة لفظ ﴿آيَةً﴾ بالتنكير في قوله: ﴿أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً﴾ من إعادة النكرة نكرة وهي عين الأولى، وهذا يبطل القاعدة المتداولة بين المعربين من أنّ اللفظ المنكّر إذا أعيد في الكلام منكّرا كان الثاني غير الأول، وقد ذكرها ابن هشام في (مغني اللبيب) في الباب السادس ونقضها، وممّا مثّل به لإعادة النكرة نكرة وهي عين الأولى: لا غيرها قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم: ٥٤]، وقد تقدّم ذلك عند قوله تعالى: فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير في سورة النساء [١٢٨]

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١ . بين الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة من أول السورة أنهم متعنتون طلبوا أن يكون مع الرسول ملك، وبين الله سبحانه في ذلك أنهم معرضون عن الآيات، وأن الكفر قد سبق إلى قلوبهم، فانسدت عليهم كل مسالك الإيمان فلا يشرق فيهم نور اليقين، ولو نزل عليهم قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها، وأنهم معرضون عن الحق، وإن الآية التي نزلت عليك كافية لإيمانهم إن أرادوا إرشادا، وابتغوه، ولم يبتغوا غيره، وإن النبي ﷺ كان حريصا على إيمانهم، وكان يكبر عليه إعراضهم عن الدعوة الحق التي يدعو إليها، والحجة الدامغة التي يثبت بها صحة دعوته، وكأنه يود إيمانهم حتى ولو كان يتحقق بآيات أخرى، فالله سبحانه وتعالى يبين له أنه لا جدوى في آية جديدة؛ لأنهم سيعرضون عنها لا محالة، ويكون المعنى: إن استطعت أن تبتغى نفقا في الأرض أي مسلكا عميقا في جوفها، أو سلما أي مرقاة ترتقى بها إلى السماء لتأتيهم بآية فلن يجدى ذلك؛ لأنهم لا يريدون حجة لنقص الحجة التي بين أيديهم، ولكن يريدون العنت ولو جاءتهم آية ما آمنوا، فالنص الكريم لبيان أنه لا سبيل لإيمانهم إلا أن يجمعهم الله على الإيمان ويقذف بالحكمة في قلوبهم، والله تعالى لم يكتب ذلك، إنك لا تهدى من أحببت، ولكن الله يهدى من يشاء.

٢ . ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، إن النبي ﷺ كان حريصا على أن يؤمن كل الذين يدعوهم إلى دعوته، ويظن أن الحجة وحدها كافية لاستجابتهم، فبين سبحانه وتعالى أن حكمته اقتضت أن يكون في الوجود أشرار وأخيار من الناس، حتى يبتلى الأخيار بالأشرار، وأن سنته في خلقه اقتضت أن يكون في الخلق إبليس يوسوس في صدور الناس ويكون الكفاح بينهم، وأن يبلوهم بالشر والخير فتنة، ولو شاء سبحانه أن يكونوا جميعا مهديين لجمعهم على الهدى والتقوى، ولكنه لم يشأ، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس]

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/ ٢٤٨٧.

٣. وما دامت إرادة الله تعالى لا بد أن يكون في عباده أخيار يصدقون ويؤمنون، ومعرضون جاحدون، فادع إلى سبيل الله وانتظر أن يكون المناوئ والمجيب، ولا تكونن من الجاهلين بحكمة الله تعالى، وليس الجهل بأمر شرعي حتى لا يكون محلا للنهى، إنما هو تنبيه إلى أمر تكويني كان التنبيه للنبي ﷺ مؤكدا، وهو تنبيه لغيره بالأولى، الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

٤. ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ الكلام في شأن المشركين وعرض الآيات عليهم، وطلبهم آيات أخرى، وهم معرضون عن كل الآيات بقلوبهم لأنها في أكنة، ولا يسمعون الحق لأن آذانهم فيها وقر لانصرافها، وقد أكد سبحانه وتعالى ذلك وذكر وجوب اليأس من المشركين الذين يعرضون عن آيات الله مدعين أن ما سيق لهم لا يكفى لإقناعهم، والاستجابة هنا هي الإجابة بعد التفكر والإمعان وتقدير الأمر، فهي إجابة محكمة دقيقة، وهذا ما تدل عليه (السين)، فهي إجابة بعد استقراء الدليل على وجوبها، وقد حصر سبحانه وتعالى الاستجابة بأنها لا تكون إلا للذين يسمعون ولا يعرضون، وينفذون إلى لباب ما يستمعون إليه، ولا ينأون عنه، وفى الكلام تشبيه الذين يعرضون عن الدين ولا يستمعون سماع وعى وإدراك وتفهم بحال الصم الذين لا يسمعون؛ لأن السمع لا قيمة له إذا لم يصل بصاحبه إلى التفهم والهداية.

٥. وقد قال تعالى من بعد ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾، وقيل: إن الموتى هم موتى الأحياء الذين لا يدركون الحق، ومعنى بعثهم إيمانهم وهدايتهم، أي أن الله تعالى قادر على هداية موتى التفكير الذين لا يستجيبون، وقيل المراد بالموتى الكفرة الأموات، ومعنى البعث ليس الإيمان إنما المراد أنه سبحانه وتعالى سيبعثهم ثم يحاسبهم على كفرهم، والرأي عندي أن تكون كلمة الموتى على حقيقتها والبعث على حقيقته، ويكون نسق النص الكريم هكذا: إنما يستجيب للحق ويذعن له الذين لا يعرضون عن الآيات، ثم بين بعد ذلك حال الذين لا يجيبون بإثبات قدرة الله بأن الله تعالى سيبعثهم مع الموتى، ثم يكون الحساب والعقاب ويرون ما لم يؤمنوا به، ويستمعون إلى ما أعرضوا عنه وكفروا.

٦. ولذا قال سبحانه من بعد ذلك: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ أي ثم إليه وحده يعودون راجعين ليجازيهم المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ولا يستوى المحسن والمسيء.

٧. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾،

فقد دأبوا على الإنكار، لأنهم دأبوا على الإعراض ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾، ولكنهم مع ذلك الإعراض يدعون أن إنكارهم لنقص الدليل، وليس للعنت ومجرد الجحود، ولقد كرروا القول في ذلك، وما أرادوا معجزة مطلقة بل معجزة حسية تلفت أنظارهم وقد ذكر القرآن الكريم بعض ما طلبوا، فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِالله وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء]، قالوا بصيغة الطلب الذى يشبه التمني والتحريض فعبر بـ (لو لا) الدالة على التحريض والتمني وكأنهم يتمنون الإيمان بتمنى الآية وهم في ذلك منحرفون عن الغاية، وقالوا لولا أنزل عليه، أي على النبي ﷺ وذلك التنزيل آت من قبل ربه وعبروا بالمجهول وبربه وهما يفيدان أن الطلب ليس منه، ولكنه من ربه، فإذا كان رسولا من عنده، فليجب ذلك الطلب الذى نتمناه، ونكون من بعده مؤمنين.

٨. وقد رد الله سبحانه وتعالى بأمرين:

أ. أولهما: أنه سبحانه قادر عليه فهو المالك للسماوات والأرض ومن فيها، وهو القادر على أن ينزل عليهم تلك الآية، فلن يعجزه شيء في الأرض، ولكن الآيات التي تكون مع النبيين لإثبات رسالتهم تكون على مقتضى حكمته، وتكون مناسبة لشريعتهم فتكون خالدة بخلودها.

ب. الثاني: الذى أجابهم سبحانه وتعالى هو أن أكثرهم لا يعلمون، وهذا يفيد أنه سبحانه وتعالى مع قدرته على ما يطلبون لن يجيبهم، لأنهم لا يعلمون أنهم لا يؤمنون، ولو جاءهم بالآيات؛ لأنهم سبقوا إلى الإنكار والجحود، فيكفرون بهذه الآية كما كفروا بالقرآن، ولأن القرآن حجة في ذاته وهو أقوى حجة تناسب شريعة محمد ﷺ؛ لأن الآيات المادية وقائع حسية تنته بانتهاء زمنها، ولا يعرفها إلا الذين يرونها، أما القرآن فهو باق خالد معجز في كل الأعصار والدهور فناسب شريعة خالدة باقية إلى يوم القيامة.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾:

أ. قال الراغب: (النفق الطريق النافذ والسرب في الأرض النافذ فيه قال: ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾، ومنه نافقاء اليربوع، وقد نافق اليربوع ونفق، ومنه النفاق وهو الدخول في الشرع من باب والخروج عنه من باب، وعلى ذلك نبه بقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي الخارجون من الشرع، وجعل الله المنافقين شرا من الكافرين فقال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾، ونيفق السراويل معروف)

ب. وقال: (السلم ما يتوصل به إلى الأمكنة العالية فيرجى به السلامة ثم جعل اسما لكل ما يتوصل به إلى شيء رفيع كالسبب قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾، وقال: ﴿أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ﴾، وقال الشاعر: ولو نال أسباب السماء بسلم)

ج. وجواب الشرط في الآية محذوف للعلم به، والتقدير كما قيل: وإن استطعت أن تبتغي كذا وكذا فافعل.

٢. المراد بالآية في قوله تعالى: ﴿فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾:

أ. الآية التي تضطرهم إلى الإيمان فإن الخطاب عنى قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾، إنما ألقي إلى النبي ﷺ من طريق القرآن الذي هو أفضل آية إلهية تدل على حقية دعوته، ويقرب إعجازه من فهمهم وهم بلغاء عقلاء فالمراد أنه لا ينبغي أن يكبر ويشق عليك إعراضهم فإن الدار دار الاختيار، والدعوة إلى الحق وقبولها جاريان على مجرى الاختيار، وأنك لا تقدر على الحصول على آية توجب عليهم الإيمان وتلزمهم على ذلك فإن الله سبحانه لم يرد منهم الإيمان إلا على اختيار منهم فلم يخلق آية تجبر الناس على الإيمان والطاعة، ولو شاء الله لآمن الناس جميعا فالتحق هؤلاء الكافرون بالمؤمنين بك فلا تبتئس ولا تجزع بإعراضهم فتكون من الجاهلين بالمعارف الإلهية.

ب. أما ما احتمله بعضهم: أن المراد: فتأتيهم بآية هي أفضل من الآية التي أرسلناك بها أي القرآن

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٧/ ٦٥.

فلا تلائمه سياق الآية وخاصة قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ فإنه ظاهر في الاضطرار.

٣. ومن هنا يظهر أن المراد بالمشية أن يشاء الله منهم الاهتداء إلى الإيمان فيضطروا إلى القبول فيبطل بذلك اختيارهم هذا ما يقتضيه ظاهر السياق من الآية الشريفة:

أ. لكنه سبحانه فيما يشابه الآية من كلامه لم يبين عدم مشيته ذلك على لزوم الاضطرار كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣] يشير تعالى بذلك إلى نحو قوله: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾: [ص: ٨٥] فبين تعالى أن عدم تحقق مشيته لهداهم جميعا إنما هو لقضائه ما قضى تجاه ما أقسم عليه إبليس أنه سيغويهم أجمعين إلا عباده منهم المخلصين.

ب. وقد أسند القضاء في موضع آخر إلى غوايتهم قال تعالى في قصة آدم وإبليس: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٤٣] وقد نسب ذلك إليهم إبليس أيضا فيما حكى الله سبحانه من كلامه لهم يوم القيامة: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ - إلى أن قال ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢]

ج. فالآيات تبين أن المعاصي ومنها الشرك تنتهي إلى غواية الإنسان والغواية تنتهي إلى نفس الإنسان، ولا ينافي ذلك ما يظهر من آيات أخر أن الإنسان ليس له أن يشاء إلا أن يشاء الله منه المشية كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ لِمَنْ﴾ ﴿شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]

د. فمشية الإنسان في تحققها وإن توقفت على مشية الله سبحانه إلا أن الله سبحانه لا يشاء منه المشية إلا إذا استعد لذلك بحسن سريرته، وتعرض منه لرحمته، قال تعالى: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧] أي انعطف ورجع إليه، وأما الفاسق الزائغ قلبه المخلد إلى الأرض المائل إلى الغواية فإن الله لا يشاء هدايته ولا يغشاه برحمته كما قال: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة:

٢٦]، وقال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦]

هـ. وبالجملة فالدعوة الدينية لا تسلك إلا سبيل الاختيار، والآيات الإلهية لا تنزل إلا مع مراعاة الاختيار، ولا يهدي الله سبحانه إليه إلا من تعرض لرحمته واستعد لهدايته من طريق الاختيار.

و. سؤال وإشكال: وبهذا تنحل شبهة أخرى لا تخلو عن إعضال، وهي أنا سلمنا أن إنزاله تعالى آية تجبرهم على الإيمان وتضطرهم إلى قبول الدعوة الدينية ينافي أساس الاختيار الذي تبتني عليه بنية الدعوة الدينية لكن لم لا يجوز أن يشاء الله إيمان الناس جميعا على حد مشيته إيمان من آمن منهم بأن يشاء من الجميع أن يشاءوا كما شاء من المؤمنين خاصة أن يشاءوا ثم ينزل آية تسوقهم إلى الهدى، وتلبسهم الإيمان من غير أن يبطل بذلك اختيارهم وحريتهم في العمل، والجواب: ذلك أنه وإن أمكن ذلك بالنظر إلى نفسه لكنه ينافي الناموس العام في عالم الأسباب، ونظام الاستعداد والإفاضة فالهدى إنما يفاض على من اتقى الله وزكى نفسه وقد أفلح من زكاها ولا يصيب الضلال إلا من أعرض من ذكر ربه ودس نفسه وقد خاب من دساها، وأصابه الضلال هو أن يمنع الإنسان الهدى قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠] أي ممنوعا فالله سبحانه يمد كل نفس من عطائه بما يستحقه فإن أراد الخير أوتيه وإن أراد الشر أوتيه أي منع من الخير، ولو شاء الله لكل نفس صالحة أو طالحة أن تشاء الخير وتنكب على الإيمان والتقوى من طريق الاختيار كان في ذلك إبطال النظام العام وإفساد أمر الأسباب، وتؤيد ما ذكر الآية التالية أعني قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ إلى آخر الآية على ما سيجيء من معناها.

٤. ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ الآية كالبيان لقوله: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ إلى آخر الآية فإن ملخصه أنك لا تستطيع صرفهم عن هذا الإعراض، والحصول على آية تسوقهم إلى الإيمان فبين في هذه الآية أنهم بمنزلة الموتى لا شعور لهم ولا سمع حتى يشعروا بمعنى الدعوة الدينية ويسمعوا دعوة الداعي وهو النبي ﷺ، فهذه الهياكل المتراءات من الناس صنفان: صنف منهم أحياء يسمعون، وإنما يستجيب الذين يسمعون، وصنف منهم أموات لا يسمعون

وإن كانوا ظاهرا في صور الأحياء وهؤلاء يتوقف سمعهم الكلام على أن يبعثهم الله، وسوف يبعثهم فيسمعون ما لم يستطيعوا سمعه في الدنيا كما حكاه الله عنهم بقوله: ﴿وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُو رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾: [السجدة: ١٢] فالكلام مسوق سوق الكناية، والمراد بالذين يسمعون المؤمنون وبالموتى المعرضون عن استجابة الدعوة من المشركين وغيرهم، وقد تكرر في كلامه تعالى وصف المؤمنين بالحياة والسمع، ووصف الكفار بالموت والصمم كما قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [النمل: ٨١] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، وقد تكرر في بعض الأبحاث السابقة معنى آخر لهذه الأوصاف التي حملها الجمهور من المفسرين على الكناية والتشبيه، وأن لها معنى من الحقيقة فليراجع.

٥. وفي الآية دلالة على أن الكفار والمشركين سيفهمهم الله الحق ويسمعهم دعوته في الآخرة كما فهم المؤمنين وأسمعهم في الدنيا، فالإنسان مؤمنا كان أو كافرا لا مناص له عن فهم الحق عاجلا أو آجلا.

٦. في تفسير القمي، قال: وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان رسول الله ﷺ يحب إسلام الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، دعاه رسول الله ﷺ وجهد به أن يسلم فغلب عليه الشقاء، فشق ذلك على رسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾، يقول: سربا.. والرواية على ما بها من ضعف وإرسال لا تلائم ظاهر الروايات الكثيرة الدالة على نزول السورة دفعة، وإن كان يمكن توجيهها بوقوع السبب قبل نزول السورة ثم الإشارة بالآية إلى السبب المحقق بعنوان الانطباق.

٧. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ﴾، تحضيض منهم على تنزيل الآية بداعي تعجيز النبي ﷺ، ولما صدر هذا القول منهم وبين أيديهم أفضل الآيات أعني القرآن الكريم الذي كان ينزل عليهم سورة سورة وآية آية، ويتلى عليهم حينا بعد حين تعين أن الآية التي كانوا يقترحونها بقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ هي آية غير القرآن، وأنهم كانوا لا يعدونه آية تقنعهم وترتضيه نفوسهم بما لها من المجازفات والتهوسات.

٨. وقد حملهم التعصب لآلهتهم أن ينقطعوا عن الله سبحانه كأنه ليس بربهم، فقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ ولم يقولوا: من ربنا أو من الله ونحوهما إزراء بأمره وتأكيدا في تعجيزه أي لو كان ما يدعيه ويدعو إليه حقا فليغر له ربه الذي يدعو إليه ولينصره ولينزل عليه آية تدل على حقية دعواه.

٩. والذي بعثهم إلى هذا الاقتراح جهلهم بأمرين:

أ. أحدهما: أن الوثنية يرون لآلهتهم استقلالا في الأمور المرجوعة إليهم في الكون مع ما يدعون لهم من مقام الشفاعة فإله الحرب أو السلم له ما يدبره من الأمر من غير أن يختل تدبيره من ناحية غيره، وكذلك إله البر وإله البحر وإله الحب وإله البغض وسائر الآلهة، فلا يبقى لله سبحانه شأن يتصرف فيه فقد قسم الأمر بين أعضاده وإن كان هؤلاء شفعاءه وهو رب الأرباب، فليس يسعه تعالى أن يبطل أمر آلهتهم بإنزال آية تدل على نفي ألوهيتها، وكان يحضهم على هذه المزعمة ويؤيد هذا الاعتقاد في قلوبهم ما كانوا يتلقونه من يهود الحجاز أن يد الله مغلولة لا سبيل له إلى تغيير شيء من النظام الجاري، وخرق العادة المألوفة في عالم الأسباب.

ب. ثانيهما: أن الآيات النازلة من عند الله سبحانه إذا كانت مما خص الله به رسولا من رسله من غير أن يقترحه الناس فإنما هي بينات تدل على صحة دعوى الرسول من غير أن يستتبع محذورا للناس المدعوين كالعصا واليد البيضاء لموسى وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وخلق الطير لعيسى، والقرآن الكريم لمحمد ﷺ، لكن الآية لو كانت مما اقترحها الناس فإن سنة الله جرت على القضاء بينهم بنزولها فإن آمنوا بها وإلا نزل عليهم العذاب ولم ينظروا بعد ذلك كآيات نوح وهود وصالح وغير ذلك، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على ذلك، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨]، وقوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩]

ج. وقد أشير في الآية الكريمة أعني قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، إلى الجهتين جميعا، فذكر أن الله قادر على أن ينزل أي آية شاء، وكيف يمكن أن يفرض من هو مسمى باسم (الله) ولا تكون له القدرة المطلقة، وقد بدل في الجواب لفظة (الرب) إلى اسم (الله) للدلالة على برهان الحكم، فإن الألوهية المطلقة تجمع كل كمال من غير أن تحد بحد

أو تقيد بقيد فلها القدرة المطلقة، والجهل بالمقام الألوهي هو الذي بعثهم إلى اقتراح الآية بداعي التعجيز، على أنهم جهلوا أن نزول ما اقترحوه من الآية لا يوافق مصلحتهم، وأن اجتراءهم على اقتراحها تعرض منهم لهلاك جمعهم وقطع دابرهم، والدليل على أن هذا المعنى منظور إليه بوجه في الكلام قوله تعالى في ذيل هذه الاحتجاجات: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٨]

١٠. في قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ﴾ و﴿يُنَزِّلُ﴾ مشددين من التفعيل دلالة على أنهم اقترحوا آية تدريجية أو آيات كثيرة تنزل واحدة بعد واحدة كما يدل عليه ما حكي من اقتراحهم في موضع آخر من كلامه تعالى كقوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ ـ إلى أن قال ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾ الآيات: [الإسراء: ٩٣]، وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١]، وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]، وروي عن ابن كثير أنه قرأ بالتخفيف.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ عنك، فلم تقدّر الظروف الموضوعية المحيطة بك من خلال الأشخاص والأوضاع، ولم تحاول أن تصبر على ذلك في انتظار نضوج التجربة، وانطلاقة المستقبل في خطّ الدعوة، وعشت الشعور بالسقوط الداخلي تحت تأثير حالة المرارة واليأس، أمام ما يقترحون من طلبات، ويطالبون به من معجزات، مما لم يرد الله أن يخضع مسيرة الدعوة له، أو يشغل حركة الأنبياء به.

٢. ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ تلتقطها من أعماق الأرض، أو تتلقفها من آفاق السماء، بعد أن فقدت القدرة على الإتيان بها من سطح الأرض.. فافعل، ولكنك لن تجد شيئا هناك لو استطعت بلوغ ذلك لأن الله لم يشأ للناس أن يؤمنوا به، إلا من حيث أراد وقدّر، فيما أوحى به إلى الأنبياء، وفي ما أنزله من معجزات، بعيدا عن اقتراحات المقترحين وعن طلبات

(١) من وحي القرآن: ٩/ ٨٦.

المعجّزين.

٣. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ بطريقة إلهيّة تكوينيّة كما ألهم الأشياء الكونية قوانينها وسننها الطبيعيّة.. وكما خلق الناس على أشكال معيّنة في اللون والحجم والشكل، ولكنه شاء للإرادة الإنسانية أن تتحرك من موقع الاختيار لينطلق الإنسان بالإيمان من موقع الحريّة في حركة العقيدة في الحياة، فسر في طريقك على هدى الله، ولا تصغ إليهم، وأعرض عنهم فذلك هو الخط الأصيل في فكرة العمل الرسالي وأسلوبه..

٤. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ الذين يفكرون في ردّ التحديات انطلاقا من اللحظة الحاضرة والانفعالات السريعة، بدلا من التخطيط للمستقبل الذي يرصد نهايات الأمور عندما يفكرون في بداياتها، لأن القضية ليست في أن تربح هتافات الإعجاب في حماس المتحمّسين، بل القضية هي في أن تثير النتائج العميقة البعيدة المدى في تفكير المفكرين وجهاد المجاهدين.

٥. ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ من موقع الوعي للفكرة، فهم الذي يعرفون مداها في الحياة، وهم الذين يعون عمقها في الزمن، وامتدادها في النفس والعقل والضمير، وهؤلاء هم الأحياء الذين تتفجر الحياة فيهم فكرا وشعورا وحركة.

٦. ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾ وهم الذين لا يعيشون مسئولية السمع والبصر والإحساس، فلا يستفيدون منها فيما يعرفون أو ينكرون.. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ ليواجهوا نتائج المسؤولية من خلال الحجة التي أقامها الله عليهم في أنفسهم وفي الكون، وفي وحي الرسالات.

٧. ونستوحي من ذلك كله أن على العاملين في سبيل الدعوة إلى الله أن لا ينطلقوا من حالة ذاتية في مشاعرهم السلبية أمام التحديات الموجهة إليهم بالتكذيب لدعوتهم ليشعروا بالحزن والإحباط والسقوط النفسي، بل إن عليهم التفكير الدائم بأنهم يتحركون من خلال دين الله الذي يريدون للناس أن يرتبطوا به ليتقربوا إلى الله بذلك انطلاقا من الروح الرسالية التي تدفعهم إلى ذلك، ولذا فإن عليهم أن يتابعوا الطريق في مواصلة التجربة من دون انفعال ذاتي، لأنَّ التحدي ليس موجها إليهم بل إلى الله الذي يعلم كل شيء ويسيطر على كل شيء فلا يضرونه شيئا، إن يضرون إلا أنفسهم ولا يشعرون.

٨. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً﴾، وهذا هو الطلب الملحّ

الذي يحاول تسجيل نقطة على النبوّة والنبيّ، فقد جاء الرسول ليخاطب العقل فيهم، وكانت آيته ـ القرآن ـ منسجمة مع ذلك الخطّ، ولكن الناس يريدون الآيات المثيرة التي تهزّ المشاعر والأفكار، وتسحر العيون، وكان الجواب أن القضية متعلقة بالله، وهو القادر على أن ينزل أيّة آية يشاء، لأنه قادر على كل شيء ولكنه يخضع كل شيء لحكمته في نطاق الحاجة الرسالية والإنسانية إليها، ولا يجعل ذلك كله خاضعا لمزاج إنسان معقّد، مهما اختلفت الكلمات، واهتزت التحديات.. فإذا لم ينزل على رسوله شيئا مما يريدون أو يقترحون، فليس ذلك لنقص في مكانة الرسول أو ضعف في موقفه، أو عجز في قدرة الله، ولكن لحكمة في تقديره الأشياء.

٩. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم لا يفكرون تفكيرا عميقا يعرّفهم بدايات الأمور، ونهاياتها وعمقها وامتدادها.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ قال في (الصحاح): (والنفق: سرب في الأرض لَه مخلص إلى مكان)، وقال الراغب: (والسُّلَّم ما يتوصل به إلى الأمكنة العالية فيرجى به السلامة ثم جعل اسماً لكل ما يتوصل به إلى شيء رفيع كالسبب) المراد، وفي (الصحاح): (السلم واحد السلاليم التي يرتقى عليها)، ولم يزد: ثم جعل اسماً.. قال الشرفي في (المصابيح): (قال المرتضى عليه السلام هذا تسهيل من الله سبحانه على نبيه ﷺ لِمَا علم من غمه بإعراض الخلق عن الله سبحانه ومعصيتهم له ومخالفتهم لحكمه، فلما كبر ذلك على رسول الله وعظم عنده إعراضهم عن الله سبحانه واشتد عليه ما يرى من شرارتهم، قال الله سبحانه: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أي عظُم عليك إعراض المشركين وعدم إيمانهم وتوهَّمت لرغبتنا في إيمانهم أن كثرة الآيات توثر فيهم ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ﴾ يقول ترقى في السماء فتأتيهم بآية وهذا غاية الاجتهاد في الذهاب في الأرض والسماء، فقال: إنك قد جئتهم من الآيات والعلامات والحجج

(١) التيسير في التفسير: ٢/ ٤٣٦.

الواضحات الباهرات بما في أقل منه يؤمن من كان له قلب أو معرفة، ولم تترك غاية في حرص ونصيحة واجتهاد أو موعظة، فما تريد أن تعمل بهم بعد ذلك أتذهب في الأرض أو في السماء وليس تقدر على ذلك؟ ليس عليك من الأمر إلا ما قد فعلت)، وقوله: وتوهمت لرغبتنا في إيمانهم، أقول: أظن الأصل لرغبتك في إيمانهم؛ لأن السياق في حرص النبي ﷺ على إيمانهم، فالراجح أن قوله: لرغبتنا، تصحيف من بعض النساخ.

٢. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ وهذه تسلية لرسول الله ﷺ لأنها تدل على أن الله تعالى قد شاء أن يتركهم وشأنهم؛ لاستحقاقهم الخذلان مع أنه لو شاء لجمعهم على الهدى؛ لأنه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٠] وهو الذي يتولى إظهار دينه ونصر رسوله، فكِل أمرَك وأمرهم إلى الله ولا تبال بهم.

٣. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ بمحاولة أن يؤمنوا أكثر مما قد فعلت أو بالطمع في أن يؤمنوا وهو طمع فيما لا يكون أو بمحاولة الإتيان بآية كما يقترحون، وحكمة الله تأبى ذلك؛ لأنهم لا يؤمنون ولو جاء ما اقترحوه، قال الشرفي في (المصابيح): (وهذا النهي لا يقتضي إقدامه على مثل هذه الحالة، كما أن قوله: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب:١] لا تدل على أنه ﷺ أطاعهم وقَبِل دينهم..) يعني أن النهي لا يدل على أنه يقع منه المنهي لولا النهي، ولقائل أن يقول: أن ذلك النهي من التثبيت والعصمة، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٧٤] فليس معنى العصمة استغناءه عن النهي والتحذير.

٤. ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ و﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ هم الذين يريدون الحق، فهم الذين يسمعون سماعاً يعتدُّ به لأنه السماع الذي ينتفعون به، أما المعرض الكاره للحق فهو وإن سمع فسماعه كلا سمع؛ لأنه معرض عن طلب الحق وكاره، فالذي يسمع سماع طلب للصواب، هو الذي يستجيب لله ورسوله، أما الكاره للحق المعرض عنه المخذول فهو كالميت الذي لا يسمع، فقراءة القرآن عليه بمنزلة درس عند ميت، ولكن عاقبته أن يبعثه الله من الموت الحقيقي، ثم إلى الله وحده يرجع ليحاسبه ويوفيه حسابه، وهناك يسمع حين لا يفيده السمع شيئاً.

٥. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي هلاَّ أنزل عليه ﴿آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ إن كان أرسله كما يدعي، وهذا من كفرهم بآيات الله، واعتبارهم لها أنها ليست آيات، وقد ردَّ الله عليهم في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ

أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت:٥١]

٦. ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ﴾ فلم يترك ذلك، إلا لأنه قد بيَّن صدق الرسول ولا تقتضي الحكمة إجابتكم إلى ما تقترحون، ولولا ذلك لنزله، لأنه قادر على تنزيله، ولكن أكثر هؤلاء الكافرين ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله قادر على ذلك لجهلهم بالله واستبعادهم لقدرته سبحانه على ما يقترحون.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. هاتان الآيتان استمرار لمواساة النّبي ﷺ التي بدأت في الآيات السابقة لقد كان رسول الله ﷺ يشعر بالحزن العميق لضلال المشركين وعنادهم، وكان يود لو أنّه استطاع أن يهديهم جميعا إلى طريق الإيمان بأية وسيلة كانت.

٢. ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾، أي إذا كان إعراض هؤلاء المشركين يصعب ويثقل عليك، فشق أعماق الأرض أو ضع سلّما يوصلك إلى السماء للبحث عن آية ـ إن استطعت ـ ولكن اعلم أنّهم مع ذلك لن يؤمنوا بك.

٣. (النفق) في الأصل (النقب) وهو الطريق النافذ، والسرب في الأرض النافذ فيها، ومنه النفاق، وهو الدخول في الشرع من باب والخروج عنه من باب، أي أنّ للمنافق سلوكا ظاهرا وآخر خفيا.

٤. في هذه الآية يخبر الله نبيّه بأن ليس في تعليماتك ودعوتك وسعيك أي نقص، بل النقص فيهم لأنّهم هم الذين رفضوا قبول الحقّ، لذلك فانّ أي مسعى من جانبك لن يكون له أثر فلا تقلق.

٥. ولكن لكيلا يظن أحد أنّ الله غير قادر على حملهم على التسليم يقول: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ أي لو أراد حملهم على الاستسلام والرضوخ لدعوتك والإيمان بالله لكان على ذلك قديرا، غير أنّ الإيمان الإجباري لا طائل تحته، إنّ خلق البشر للتكامل مبني على أساس حرية الاختيار والإرادة، ففي حالة حرية الاختيار وحدها يمكن تمييز (المؤمن) من (الكافر)، و(الصالح) من (غير الصالح)

---

(١) تفسير الأمثل: ٤/ ٢٦٤.

و(المخلص) من (الخائن) و(الصادق) من (الكاذب)، أمّا في الإيمان الإجباري فلن يكن ثمّة اختلاف بين الطيب والخبيث، وعلى صعيد الإجبار تفقد كل هذه المفاهيم معانيها تماما.

٦. ثمّ يقول سبحانه لنبيّه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، أي لقد قلت هذا لئلا تكون من الجاهلين، أي لا تفقد صبرك ولا تجزع، ولا يأخذك القلق بسبب كفرهم وشركهم، وما من شك أنّ النّبي ﷺ كان يعلم هذه الحقائق ولكن الله ذكرها له من باب التطمين وتهدئة الروع، تماما كالذي نقوله نحن لمن فقد ابنه: لا تحزن فالدنيا فانية، سنموت جميعا، وأنت ما تزال شابا ولسوف ترزق بابن آخر، فلا تجزع كثيرا، فلا ريب أنّ فناء دار الدنيا، أو كون المصاب شابا ليسا مجهولين عنده، ولكنها أمور تقال للتذكير.

٧. على الرّغم من أنّ هذه الآية من الآيات التي تنفي الإجبار والإكراه، فإنّ بعض المفسّرين كالرّازي، يعتبرها من الأدلة على (الجبر) ويستند إلى ﴿وَلَوْ شَاءَ﴾ ويقول: يتّضح من هذه الآية أنّ الله لا يريد للكفار أن يؤمنوا! ولكنّه غفل عن أنّ الإرادة والمشيئة في هذه الآية هما الإجباريتان، أي أنّ الله لا يريد الناس أن يؤمنوا بالإجبار والإكراه، بل يريدهم أن يؤمنوا باختيارهم وإرادتهم، وعليه فانّ هذه الآية دليل قاطع يدحض مقوله: (الجبريين)

٨. في الآية التي تليها استكمال لما سبق ومزيد من المواساة للرسول الكريم ﷺ، فتقول الآية ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أمّا الذين هم في الواقع أشبه بالأموات فأنّهم لا يؤمنون حتى يبعثهم الله يوم القيامة: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ من حيث الاعراب (الموتى) مبتدأ، و(يبعثهم الله) خبر، ومعنى ذلك هو أنّ هؤلاء لا يطرأ على حالهم أي تغيير حتى يبعثهم الله يوم القيامة فيرون الحقائق.. يومئذ، وبعد أن يروا مشاهد يوم القيامة يؤمنون، إلّا أنّ إيمانهم ذاك لا ينفعهم شيئا، لأنّ رؤية مناظر يوم القيامة العظيمة تحمّل كل مشاهد على الإيمان فيكون نوعا من الإيمان الاضطراري.

٩. ومن نافلة القول أنّ (الموتى) في هذه الآية لا تشير إلى الموت الجسماني في الأفراد، بل الموت المعنوي، فالحياة والموت نوعان: حياة وموت عضويان، وحياة وموت معنويان، كذلك أيضا السمع والبصر، عضويان ومعنويان فكثير ما نصف المبصرين السامعين الأحياء الذين لا يدركون الحقائق بأنّهم عمي أو صم أو حتى أموات، إذ إنّ رد الفعل الذي يصدر عادة من الإنسان الحي البصير السامع إزاء الحقائق لا يصدر من هؤلاء.

١٠. أمثال هذه التعبيرات كثيرة في القرآن، ولها عذوبة، وجاذبية خاصّة، بل إنّ القرآن لا يعير أهمية كبيرة للحياة المادية البايلوجية التي تتمثل في (الأكل والنوم والتنفس) وإنّما يعني أشد العناية بالحياة الإنسانية المعنوية التي تتمثل في تحمل التكاليف والمسؤولية والإحساس واليقظة والوعي.

١١. لا بدّ من القول أيضا: إنّ المعنوي من العمى والصمم والموت ينشأ من ذات الأفراد، لأنّهم ـ لاستمرارهم في الإثم وإصرارهم عليه وعنادهم ـ يصلون إلى تلك الحالة، إنّ من يغمض عينيه طويلا يصل إلى حالة يفقد فيها تدريجيا قوة البصر، وقد يبلغ به الأمر إلى العمى التام، كذلك الذي يغمض عين روحه عن رؤية الحقائق طويلا يفقد بصيرته المعنوية شيئا فشيئا.

١٢. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ تشير هذه الآية إلى واحد من الأعذار التي يتذرع بها المشركون، فقد جاء في بعض الرّوايات أنّه عندما عجز بعض رؤساء قريش عن معارضة القرآن ومقابلته، قالوا لرسول الله ﷺ: كل هذا الذي تقوله لا فائدة فيه، إذا كنت صادقا فيما تقول: فأتنا بمعجزات كعصا موسى وناقة صالح، يقول القرآن بهذا الشأن: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾

١٣. من الواضح أنّ أولئك لم يكونوا جادين في بحثهم عن الحقيقة، لأنّ الرّسول ﷺ كان قد جاء لهم من المعاجز بما يكفي، وحتى لو لم يأت بمعجز سوى القرآن الذي تحداهم في عدة آيات منه ودعاهم بصراحة إلى أن يأتوا بمثله فعجزوا عن ذلك، لكان فيه الكفاية لإثبات نبوته، غير أنّ هؤلاء المزيفين كانوا يبحثون عن عذر يتيح لهم إهانة القرآن من جهة، والتملص من قبول دعوة الرّسول ﷺ من جهة أخرى، لذلك كانوا لا يفتؤون يطالبونه بالمعجزات، ولو أنّ رسول الله ﷺ استجاب لمطاليبهم لأنكروا كل ذلك بقولهم ﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ كما جاء في آيات أخرى من القرآن.

١٤. لذلك يأمر الله رسوله أنّ: ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً﴾ إلّا أنّ في ذلك أمرا أنتم عنه غافلون، وهو أنّه إذا حقق الله مطاليبكم التي يدفعكم إليها عنادكم، ثمّ بقيتم على عنادكم ولم تؤمنوا بعد مشاهدتكم للمعاجز، فسوف يقع عقاب الله عليكم جميعا، وتفنون عن آخركم، لأنّ ذلك سيكون منتهى الاستهتار بمقام الألوهية المقدس وبمبعوثه وآياته ومعجزاته، ولهذا تنتهي الآية بالقول: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

١٥. سؤال وإشكال: يتبيّن من تفسير (مجمع البيان) أنّ بعض مناوئي الإسلام قد اتّخذوا من هذه الآية ـ منذ قرون عديدة ـ دليلا يستندون إليه في الزعم بأنّه لم تكن لرسول الله ﷺ أية معجزة، لأنّه كلما طلبوا منه معجزة كان يكتفي بالقول: إنّ الله قادر على ذلك، ولكن أكثركم لا تعلمون، وهذا ما نهجه بعض الكتاب المتأخرين فأحيوا هذه الفكرة البالية مرّة أخرى، والجواب:

أ. أوّلا: يبدو أنّ هؤلاء لم يمعنوا النظر في الآيات السابقة والتّالية لهذه الآية، وإلّا لأدركوا أنّ الكلام يدور مع المعاندين الذين لا يستسلمون للحق مطلقا، وإنّ موقف هؤلاء هو الذي منع رسول الله ﷺ من إجابة طلبهم، فهل نجد في القرآن أنّ طلاب الحقيقة سألوا الرّسول ﷺ أن يحقق لهم معجزة فامتنع؟ الآية من هذه السورة نفسها تتحدث عن أمثال هؤلاء فتقول: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾

ب. ثانيا: تفيد الرّوايات أنّ هذا الطلب تقدم به بعض رؤساء قريش، وكان هدفهم من ذلك إهانة القرآن والإعراض عنه، فمن الطبيعي أن لا يستجيب رسول الله ﷺ لطلب يكون دافعه بهذا الشكل.

ج. ثالثا: إنّ أصحاب هذا الإشكال قد أغفلوا سائر آيات القرآن الأخرى التي تصرّح بأنّ القرآن نفسه معجزة خالدة، وكثيرا ما دعت المخالفين إلى معارضته، وأثبتت ضعفهم وعجزهم عن ذلك، كما أنّهم نسوا الآية الأولى من سورة الإسراء التي تقول بكل وضوح: إنّ الله أسرى بنبيّه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في ليلة واحدة.

د. رابعا: ليس من المعقول أن يكون القرآن مليئا بذكر معاجز الأنبياء وخوارق عاداتهم ويدّعي النّبي ﷺ أنّه خاتم الأنبياء وأرفعهم منزلة، وأنّ دينه أكمل من أديانهم ثمّ ينكص عن إظهار معجزة استجابة لطلب الباحثين عن الحقّ والحقيقة، أفلا يكون هذا نقطة غامضة في دعوته في نظر المحايدين وطلاب الحقيقة؟ فلو لم تكن له أية معجزة، لكان عليه أن يسكت عن ذكر معاجز الأنبياء الآخرين لكي يتمكن من تمرير خطّته ويغلق طريق الاعتراض والانتقاد عليه، ولكنّه لا يفتأ يتحدث عن إعجاز الآخرين ويعدد خوارق العادات عند موسى بن عمران وعيسى بن مريم وإبراهيم وصالح ونوح عليهم السّلام، وهذا دليل بيّن على ثقته التامّة بمعاجزه، إنّ كتب التّأريخ الإسلامي والرّوايات المعتبرة ونهج البلاغة تشير بما يشبه التواتر إلى خوارق عادات رسول الله ﷺ.

١٩. الكائنات والأمم والكتاب والحشر

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [١٩] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

أبو ذر:

روي عن أبي ذرٍّ (ت ٥٨ هـ) أنّه قال: انتطحت شاتان عند النبي ﷺ، فقال لي: (يا أبا ذرٍّ، أتدري فيما انتطحتا؟)، قلت: لا، قال: (لكنّ الله يدري، وسيقضي بينهما)، [حديث] قال أبو ذر: لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يقلّب طائر جناحيه في السماء إلا ذكّرنا منه علما[١].

أبو هريرة:

روي عن أبي هريرة (ت ٥٨ هـ) أنّه قال: قال ما من دابة ولا طائر إلا سيحشر يوم القيامة، ثم يقتصّ لبعضها من بعض، حتى يقتصّ للجلحاء من ذات القرن، ثم يقال لها: كوني ترابا، فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبأ: ٤٠]، وإن شئتم فاقرؤوا: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يُحْشَرُونَ﴾[٢].

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾، يعني: ما تركنا شيئا إلا وقد كتبناه في أمّ الكتاب[٣].

---

(١) أحمد ٣٥/ ٣٤٥.

(٢) ابن جرير ٩/ ٢٣٥.

(٣) ابن جرير ٩/ ٢٣٤.

٢. روي أنّه قال: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾، موت البهائم حشرها، وفي لفظ قال يعني بالحشر: الموت[١].

جابر:

روي عن جابر بن عبد الله (ت ٧٣ هـ) أنّه قال: قلّ الجراد في سنة من سني عمر التي ولي فيها، فسأل عنه، فلم يخبر بشيء، فاغتمّ لذلك، فأرسل راكبا إلى كذا، وآخر إلى الشام، وآخر إلى العراق يسأل: هل رؤي من الجراد شيء أم لا؟ فأتاه الراكب الذي من قبل اليمن بقبضة جراد، فألقاها بين يديه، فلما رآها كبّر ثلاثا، ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: خلق الله عز وجل ألف أمّة، منها ستمائة في البحر، وأربعمائة في البر، وأول شيء يهلك من هذه الأمم الجراد، فإذا هلكت تتابعت مثل النظام إذا قطع سلكه[٢].

أنس:

روي عن أنس بن مالك (ت ٩٣ هـ) أنّه سئل: من يقبض أرواح البهائم؟ فقال: ملك الموت، فبلغ الحسن البصري، فقال: صدق، إنّ ذلك في كتاب الله، ثم تلا: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[٣].

الضحاك:

روي عن الضحاك بن مزاحم (ت ١٠٢ هـ) أنّه قال: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ يعني بالحشر: الموت[٤].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) أنّه قال: ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾، أصنافا مصنّفة تعرف باسمها[٥].

عطاء:

---

(١) ابن جرير ٩/ ٢٣٤.

(٢) أبو الشيخ في العظمة ٥/ ١٧٨٣.

(٣) نسبه السيوطي إلى أبي الشيخ.

(٤) ابن جرير ٩/ ٢٣٥.

(٥) ابن جرير ٩/ ٢٣٣.

روي عن عطاء بن أبي رباح (ت ١١٤ هـ) أنّه قال: ﴿أَمْثَالَكُمْ﴾ في التوحيد، والمعرفة[١].

ابن أبي بزّة:

روي عن القاسم بن أبي بزّة (ت ١١٥ هـ) أنّه قال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾، يؤتى بهم، والناس وقوف، فيقضى بينهم، حتى إنّه ليؤخذ للجمّاء من القرناء لقهرها إياها، وحتى يقاد للذرّة من الذرّة، ثم يقال لهم: كونوا ترابا، قال ثم يقول الكافر: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبأ: ٤٠][٢].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾، يقول: الطير أمة، والإنس أمة، والجنّ أمة[٣].

٢. روي أنّه قال: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾، من الكتاب الذي عنده[٤].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ معناه أجناس[٥].

٢. روي أنّه قال: ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ معناه أصناف مصنفة تعرف بأسمائها[٦].

٣. روي أنّه قال: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ معناه ما ضيّعنا[٧].

السّدّيّ:

---

(١) تفسير الثعلبي ٤/ ١٤٦.

(٢) ابن أبي الدنيا في كتاب الأهوال، موسوعة ابن أبي الدنيا ٦/ ٢٣١.

(٣) عبد الرزاق ١/ ٢٠٨.

(٤) عبد الرزاق ١/ ٢٠٧.

(٥) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٣.

(٦) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٣.

(٧) تفسير الإمام زيد، ص ١٣٣.

روي عن إسماعيل السّدّيّ (ت ١٢٧ هـ) أنّه قال: ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾، خلق أمثالكم[(١)].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ ولا في برٍّ، ولا في بحر، ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ يعني: خلقا أصنافا مصنّفة تعرف بأسمائهم[(٢)].

٢. روي أنّه قال: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ﴾، يعني: ما ضيّعنا في اللوح المحفوظ من شيء[(٣)].

٣. روي أنّه قال: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ في الآخرة، ثم يصيرون من بعد ما يقتصّ بعضهم من بعض ترابا، يقال لهم: كونوا ترابا[(٤)].

ابن جريج:

روي عن ابن جريج (ت ١٥٠ هـ) أنّه قال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ الذرّة فما فوقها من ألوان ما خلق الله من الدواب[(٥)].

ابن زيد:

روي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢ هـ) أنّه قال: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾، لم نغفل الكتاب، ما من شيءٍ إلا وهو في ذلك الكتاب[(٦)].

البكري:

روي عن عبيد الله بن زيادة البكري قال: دخلت على ابني بسرٍ المازنيّين صاحبي رسول الله ﷺ، فقلت: يرحمكما الله، الرجل يركب منّا الدابّة، فيضربها بالسوط، أو يكبحها باللّجام، فهل سمعتما من رسول الله ﷺ في ذلك شيئا؟ فقالا: لا، قال عبيد الله: فنادتني امرأة من الداخل، فقالت: يا هذا، إنّ الله

---

(١) ابن جرير ٩/ ٢٣٣.

(٢) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٠.

(٣) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٠.

(٤) تفسير مقاتل ابن سليمان ١/ ٥٦٠.

(٥) ابن جرير ٩/ ٢٣٣.

(٦) ابن جرير ٩/ ٢٣٤.

يقول في كتابه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾، فقالا: هذه أختنا، وهي أكبر منّا، وقد أدركت رسول الله ﷺ[1].

الرضا:

روي عن الإمام الرضا (ت ٢٠٣ هـ) أنّه قال: إن الله عز وجل لم يقبض نبينا ﷺ حتى أكمل له الدين، وأنزل عليه القرآن فيه تبيان كل شيء، بين فيه الحلال والحرام، والحدود والأحكام، وجميع ما يحتاج إليه الناس كملا، فقال عز وجل: ﴿ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ﴾[2].

الناصر:

ذكر الإمام الناصر بن الإمام الهادي (ت ٣٢٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[3]:

١. سؤال وإشكال: سألت عن قوله تعالى: ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾، وقلت: إن الطيران لا يكون إلا بجناحين، وإن العرب تستغني بذكر الطائر، وتكتفي باسمه عن ذكر جناحين فما معنى ذلك؟ والجواب: هذا تأكيد للكلام، وهذا موجود في لغة العرب، يقول الرجل لصاحبه: (قد جئتك بنفسي، ومشيت إليك برجلي، وكلمتك بلساني، ونظرت إليك بعيني، وسمعتك بأذني، وأعطيتك بيدي)، وكل هذا كان سيجزي فيه كلمة واحدة؛ لو قال: (جئتك) أجزأ عن قوله: (بنفسي)، ولو قال: (مشيت إليك) أجزأه عن قوله: (برجلي)، ولو قال: (كلمتك) أجزأه عن قوله: (بلسانه)، وكذلك سائر الكلام على هذا المثل؛ فافهمه إن شاء الله تعالى.. وقال الله عز وجل: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾، فقد علموا أن ثلاثة وسبعة عشرة.

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[4]:

١. ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ يشبه أن يكون هذا صلة

---

(١) أحمد في مسنده ٢٩/ ٢٣٠.

(٢) الكافي ١/ ١٥٤.

(٣) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/ ٣٨٠.

(٤) تأويلات أهل السنة: ٤/ ٨٠.

قوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً﴾؛ لأنه ذكر (دابة)، والدابة: كل ما يدب على وجه الأرض من ذي الروح، وذكر الطائر، وهو: اسم كل ما يطير في الهواء، لما كان قادرًا على خلق هذه الجواهر المختلفة، وسوق رزق كل منهم إليهم، فهو قادر على أن ينزل آية؛ ولو أنزل آية لاضطروا جميعًا إلى القبول لها والإقرار بها، ولكنه لا ينزل لما ليست لهم الحاجة إليها، والآيات لا تنزل إلا عند وقوع الحاجة بهم إليها، وعلى هذا يُخَرَّجُ مخرج قوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٢. من الناس من استدلّ بهذه الآية على أن البهائم والطير ممتحنات؛ حيث قال: ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾، ثم قال: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.

٣. ثم اختلف في قوله تعالى: ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾:

أ. عن أبي هريرة قال في قوله تعالى: ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾: أي: إلا سيحشرون يوم القيامة كما تحشرون، ثم يقتص البهائم بعضها من بعض، ثم يقال لها: كوني ترابًا، فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾؛ كالبهائم.

ب. وعن ابن عباسٍ قال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾؛ أي: يفقه بعضها من بعض كما يفقه بعضكم من بعض، وأمم أمثالكم في معرفة ما يؤتى ويتقى.

ج. ويحتمل: ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ في الكثرة، والعدد، والخلق، والصنوف تعرف بالأسامي كما تعرفون أنتم، وأصله: إن ما ذكر من الدواب والطير ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾: سخرها لكم لم يكن منها ما يكون منكم من العناد والخلاف، والتكذيب للرسل والخروج عليهم، بل خاضعين لكعمم مذللين تنتفعون بها.

د. ويحتمل قوله: ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾: في حق معرفة وحدانيته وألوهيته، أو حق الطاعة لله؛ كقوله ـ تعالَى ـ: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾.

قوله عز وجل: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾، اختلف فيه:

أ. قال بعضهم: ﴿مَا فَرَّطْنَا﴾ أي: ما تركنا شيئا إلا وقد ذكرنا أصله في القرآن.

ب. وعن ابن عباسٍ ما قال ما تركنا شيئًا إلا قد كتبناه في أم الكتاب: وهو اللوح المحفوظ.

ج. وقيل: ﴿مَا فَرَّطْنَا﴾: ما ضيعنا في الكتاب مما قد يقع لكم الحاجة إليه أو منفعة إلا قد بيناه لكم في القرآن.

٤. ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾:

أ. قيل: الطير والبهائم يحشرون مع الخلق.

ب. وقيل: ﴿إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾: يعني بني آدم.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. معنى قوله عز وجل: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ الآية، يريد عز وجل أنه ليس من دآبة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا سيبعث، لأنهم أمم وقبائل مثلكم، خلقناهم للرحمة كما خلقناكم، وجعلناهم للنعمة والثواب كما جعلناكم.

٢. معنى قوله: بجناحيه: فهذا توكيد وبيان مثل قول القائل: أتيت إليك بنفسي، وجئت أمشي على قدمي.

٣. معنى قوله: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي لم نتوان في شيء في الكتاب، ولكنا جعلنا فيه أصول جميع الأسباب، ولم نتوان في الخبر عن رحمتنا حتى ذكرنا البهائم والطيور والدواب، ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ أي يجمعون في ذلك اليوم إلى الله وينشرون.

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(٢):

١. ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني ما دب على الأرض من حيوان ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ يعني في الهواء جميعاً بين ما هو على الأرض فيها ومرتفع عنها.

٢. ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ والأمم الجماعات والأجناس وليس يريد أمثالكم في التكليف كما جهل قوم اشتبه الظاهر عليهم وتعلقوا مع اشتباه الظاهر برواية أبي ذر قال انتطحت شاتان عند النبي ﷺ ثم قال: (يا أبا ذر أتدري فيما انتطحتا) قلت: لا، قال: (لكن الله يدري وسيقضي بينهما) قال أبو ذر: لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يقلب طائر جناحيه في السماء إلا ذكر منه علماً.. لأنه إذا كان العقل سبباً للتكليف فإن

---

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/ ١٨٧.

(٢) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/ ٢٤١.

عدمه موجب لارتفاع التكليف والمراد بقوله: امثالكم أي مخلوقة مثلكم لا تظلم ومرزوقة لا تحرم.

٣. ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني من أمور الدين إما مفصلاً يستغني عن التفسير أو مجملاً جعل إلى تفسيره سبيلاً ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ أي يبعثون بعد الموت.

٤. سؤال وإشكال: فإن قيل: فإذا كانت غير مكلفة فلم تبعث يوم القيامة، والجواب: ليس التكليف علة للبعث لأن الأطفال والمجانين يبعثون وإن كانوا في الدنيا غير مكلفين إنما يبعثها ليعوض ما يستحق التعويض منهم بالآلام أو ظلم ثم يجعل ما يشاء منها تراباً وما يشاء دواب الجنة يتمتع المؤمنون بركوبها وبرؤيتها.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ دابة بمعنى ما يدب على الأرض من حيوان كله، ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ يعني في الهواء، جميع بين ما هو على الأرض وفيها وما ارتفع عنها.

٢. ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ في الأمم تأويلان:

أ. أحدهما: أنها الجماعات.

ب. الثاني: أنها الأجناس، قاله الفراء.

٣. ليس يريد بقوله: ﴿أَمْثَالَكُمْ﴾ في التكليف كما جعل قوم اشتبه الظاهر عليهم وتعلقوا مع اشتباه الظاهر برواية أبي ذر، قال: انتطحت شاتان عند النبي ﷺ، فقال: يا أبا ذر أتدري فيم انتطحتا؟ قلت: لا، قال: (لَكِنَّ اللهَ يَدْرِي وَسَيَقْضِي بَيْنَهُمَا) قال أبو ذر: لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يقلب طائر بجناحيه في السماء إلا ذكّرنا منه علماً، لأنه إذا كان العقل سبباً للتكليف كان عدمه لارتفاع التكليف.

٤. المراد بقوله: ﴿أَمْثَالَكُمْ﴾ وجهان:

أ. أحدهما: أنها أجناس وتتميز في الصور والأسماء.

ب. الثاني: أنها مخلوقة لا تُظلَم، ومرزوقة لا تُحْرَم.

---

(١) تفسير الماوردي: ٢/ ١١٢.

٥. ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فيه تأويلان:

أ. أحدهما: ما تركنا خلقاً إلا أوجبنا له أجلاً، والكتاب هنا هو إيجاب الأجل كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨] قاله ابن بحر وأنشد لنابغة بني جعدة:

بلغو الملوك وأدركوا ال   كتاب وانتهى الأجل

ب. الثاني: وهو قول الجمهور: أن الكتاب هو القرآن الكريم الذي أنزله، ما أخل فيه بشيء من أمور الدين، إما مُفَصَّلاً يَسْتَغْنِي عن التفسير، أو مجْمَلاً جعل إلى تفسيره سبيلاً.

ج. يحتمل تأويلاً ثالثاً: ما فرطنا فيه بدخول خلل عليه، أو وجود نقص فيه، فكتاب الله سليم من النقص والخلل.

٦. ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ فيه تأويلان:

أ. أحدهما: أن المراد بالحشر الموت، قاله ابن عباس.

ب. الثاني: أن الحشر الجمع لبعث الساعة.

٧. سؤال وإشكال: إذا كانت غير مُكَلَّفَةٍ فلماذا تبعث يوم القيامة؟ والجواب: ليس التكليف علة البعث، لأن الأطفال والمجانين يبعثون وإن كانوا في الدنيا غير مكلفين، وإنها يبعثها ليعوض ما استحق العوض منها بإيلام أو ظلم، ثم يجعل ما يشاء منها تراباً، وما شاء من دواب الجنة يتمتع المؤمنون بركوبه ورؤيته.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ابتدأ الله تعالى بهذه الآية فأخبر بشأن سائر الخلق، وبإزاحة علة عباده المكلفين في البيان ليعجب عباده في الآية التي بينها من الكفار وذهابهم عن الله تعالى فقال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ فجمع جميع الخلق بهذين اللفظين، لأن جميع الحيوان لا يخلو من أن يكون مما يطير بجناحيه أو يدب.

---

(١) تفسير الطوسي: ٤/ ١٢٨.

٢. ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ أي هم أجناس وأصناف كل صنف يشتمل على العدد الكثير والأنواع المختلفة وأن الله خالقها ورازقها، وانه يعدل عليها فيما يفعله، كما خلقكم ورزقكم وعدل عليكم، وأن جميعها دالة وشاهدة على مدبرها وخالقها وأنتم بعد ذلك تموتون والى ربكم تحشرون، فبين بهذه العبارة أنه لا ينبغي لهم أن يتعدوا في ظلم شيء منها، فإن الله خالقها وهو الناهي عن ظلمها والمنتصف لها.

٣. في قوله تعالى: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ أقوال:

أ. أحدها: أن قوله ﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾ تأكيد كما يقولون: رأيت بعيني، وسمعت بأذني، وربما قالوا: رأت عيني وسمعت أذني، كل ذلك تأكيد، وقال الفراء: معنى ذلك أنه أراد ما يطير بجناحيه دون ما يطير بغير جناحين، لأنهم يقولون قد مر الفرس يطير طيراً وسارت السفينة تطير طيراً، فلو لم يقل (بجناحيه) لم يعلم أنه قصد إلى جنس ما يطير بجناحيه دون سائر ما يطير بغير جناحين.

ب. وقال قوم: إنما قال: ﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾ لأن السمك عند أهل الطبع طائر في الماء، ولا أجنحة لها، وإنما خرج السمك عن الطائر، لأنه من دواب البحر، وإنما أراد ما في الأرض وما في الجو، ولا حيوان موجود غيرهما.

ج. وقال قوم: إنما قال ذلك ليدل على الفرق بين طيران الطيور بأجنحتها وبين الطيران بالإسراع تقول: طرت في جناحين، إذا أسرعت، قال الشاعر:

فلو أنها تجري على الأرض أدركت   ولكنها تهفو بتمثال طائر

وأنشد سيبويه:

فطرت بمنصلي في يعملات   دوام الأيدي يخبطن السريحا

وقال المغربي: أراد أن يفرق بين الطائر الذي هو الفائز الفالج في القسم، وقال مزاحم العقيلي:

وطير بمخراق أشم كأنه   سليل جياد لم تنله الزعانف

أي فوزي واغنمي.

٤. ﴿مَا فَرَّطْنَا﴾:

أ. قيل: معناه ما تركنا.

ب. وقيل: ما قصرنا.

٥. في الكتاب في قوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ قولان:

أ. أحدهما: أنه أراد الكتاب المحفوظ عنده من آجال الحيوان وأرزاقه وآثاره ليعلم ابن آدم أن عمله أولى بالإحصاء والاستقصاء، ذكره الحسن.

ب. الثاني: ما فرطنا في القرآن من شيء يحتاج إليه في أمور الدين والدنيا إلا وقد بيناه إما مجملاً أو مفصلاً، فما هو صريح يفيد لفظاً، وما هو مجمل بيَّنه على لسان نبيه وأمر باتباعه في قوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ ودل بالقرآن على صدق نبوته ووجوب اتباعه، فإذاً لا يبقى أمر من أمور الدين والدنيا إلا وهو في القرآن ـ وهذا الوجه اختاره الجبائي ـ وقال البلخي: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي لم ندع الاحتجاج بما يوضح الحق ويدعو إلى الطاعة والمعرفة ويزجر عن الجهل والمعصية، وتصريف الأمثال وذكر أحوال الملائكة وبني آدم وسائر الخلق من أصناف الحيوان، وكل جنس من الحيوان أمة، لأن الأمة الجماعة ويقال للصبيان: أمة وإن لم يجب عليهم التكليف.

٦. ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ معناه يحشرون إلى الله بعد موتهم يوم القيامة كما يحشر العباد، فيعوض الله تعالى ما يستحق العوض وينتصف لبعضها من بعض، فإذا عوضها:

أ. قال قوم: إنها تصير تراباً فحينئذ يتمنى الكافر فيقول: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾

ب. وقال قوم: يديم الله أعواضها ويخلقها على أحسن ما يكون من الصور فيسر بها المثابون ويكون ذلك من جملة ما ينعمون به، ذكره البلخي.

ج. وقال قوم: ﴿يُحْشَرُونَ﴾ معناه يموتون ويفنون وهذا بعيد، لأن الحشر في اللغة هو بعث من مكان إلى غيره، وهاهنا لا معنى للحشر الذي هو الفناء وإنما معناه أنهم يصيرون إلى ربهم ويبعثون إليه.

٧. استدل قوم من التناسخية بهذه الآية على أن البهائم والطيور مكلفة، لأنه قال: ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ وهذا باطل، لأنا قد بينا من أي وجه قال إنها ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ ولو وجب حملها على العموم لوجب أن تكون أمثالنا في كونها ناساً وفي مثل صورنا وأخلاقنا:

أ. فمتى قالوا لم يقل أمثالنا في كل شيء قلنا: وكذلك الامتحان والتكليف، على أنهم مقرون بأن الأطفال غير مكلفين ولا ممتحنين، فما يحملون به امتحان الصبيان بعينه نحمل بمثله امتحان البهائم، وكيف يصح تكليف البهائم والطيور وهي غير عاقلة، والتكليف لا يصح إلا لعاقل، على أن الصبيان

أعقل من البهائم ومع هذا فليسوا مكلفين، فكيف يصح تكليف البهائم!؟

ب. أما قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ فانه مخصوص بالمكلفين العقلاء من البشر والجن، والملائكة بدلالة أن الأطفال أمم وليس فيها نذيره.

٨. استدل أبو القاسم البلخي بهذه الآية على أن العوض دائم بأن قال: بيَّن الله تعالى أنه يحشر الحيوان كلها ويعوضها، فلو كان العوض منقطعاً لكان إذا أماتها استحقت أعواضاً أخر على الموت وذلك يتسلسل، فدل على أنه دائم وهذا ليس بشيء لأنه يجوز أن يميت الله الحيوان على وجه لا يدخل عليهم الألم، فلا يستحقون عوضاً ثانياً، فالأولى أن يقول: إن دام دام تفضلاً منه تعالى.

٩. ﴿وَلَا طَائِرٍ﴾ فإنه جرَّ، عطف على دابة وتقديره ولا من طائر، وكان يجوز أن يقرأ بالرفع حملاً على المعنى، كما تقول: ما جاءني من رجل ولا امرأة، وتقديره ما جاءني رجل ولا امرأة ومثله قوله: ﴿وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ﴾ في موضع بالنصب وفي موضع آخر بالرفع على ما قلناه.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

أ. الدابة: الحيوان الذي من شأنه أن يدب أي يمشي، وأصله الصِّفَةُ من دب يدب دبيبًا، فهو داب: إذا مشى مشيًا فيه تقارب خطو، فكلُّ ماشٍ على الأرض دابةٌ، وفي الحديث: (لا يدخل الجنة دَيْبُوبٌ ولا قَلَّاعٌ) فالديبوب: النمام، ولأنه يدب بالنميمة، والقلاع: الواشي بالرجل ليقلعه، وناقة دبوب: لا تكاد تمشي من سمنها، وطعنة دبوب: تدب بالدم، وفي الحديث: (لَيْتَ شعري أيتكن صاحبة الجمل الأدبب، تخرج كِلابُ حَوْأَبٍ) والأدبّ: الكثير الشر، فأظهر التضعيف.

ب. الجناح: أحد ناحيتي الطير التي يتمكن بها من الطيران في الهواء، وأصله الميل إلى ناحية من النواحي، ومنه: جنحت السفينة؛ أي مالت إلى ناحية الأرض.

ج. الأمة: الجماعة، وأصله القصد من أمَّ يؤم أمًّا إذا قصد، ومنه: الأمُّ؛ لأن الولد يؤمها، وأم القرى: مكة لقصد الناس إياها، والأمة: جماعة يقصدون أمرًا واحدًا.

---

(١) التهذيب في التفسير: ٣/ ٥٤٩.

د. المِثْلُ والنظير والشبيه من النظائر، وجمعه: الأمثال، والمثل: ما يسد مسد الشيء في ما يرجع إلى ذاته.

هـ. التفريط: التقصير عن التقدم في ما يحتاج فيه إلى التقدم، وأصله: التقدم، ومنه الحديث: (أنا فرطكم على الحوض) أي متقدمكم.

و. الحشر: الجمع.

١. مما ذكر في علاقة الآية الكريمة بما قبلها:

أ. قيل: اتصال الآية بما قبلها اتصال الدليل بالمدلول؛ لأنه تعالى بين أنه قادر على أن ينزل آية فعقبه بذكر ما يدل على كمال قدرته، وحسن تدبيره في خلقه، عن علي بن عيسى.

ب. وقيل: ذكر في أول السورة خلق السماوات والأرض، وخلق البشر من الطين، وما قضى من الآجال، ثم ذكر الحِجَاج مع الكفار في تلك الجملة، ثم ذكر أصناف الخلق ههنا من الدواب والسباع والطيور، وأعلم أنها مثلهم في خلقه إياها، وتبقيتها إلى أجل، ثم يحشرون كما يحشر الإنسان، عن أبي مسلم.

٢. ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ يعني قل لهم: ما من حيوان يمشي على وجه الأرض من الدواب والسباع، وإنما خص دواب الأرض؛ لأن الحجاج يقتضيه من وجهين:

أ. أحدهما: الإحالة في الدليل على ما هو أظهر.

ب. والآخر: على ما حاجته أشد؛ ولذلك لم يذكر تدبير الجماد.

٣. سؤال وإشكال: لِمَ قال: ﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾ والطائر لا يطير إلا بجناحيه؟ والجواب:

أ. قيل: إنه تأكيد على ما تقدم.

ب. وقيل: لأن العرب تذكر الطائر، وتريد غيره، ويقولون: ما بالدار طائر، يعني أحدًا، ويقولون: لو استطعت لطرت إليك، قال شاعرهم: (طاروا إليه زرافات ووحدانا)، وقال آخر:

عوى الذئب فاستأنستُ بالذئب إذ عَوَى ... وصَوَّت إنسان فكدتُ أطيرُ

فذكر الجناح ليعلم أنه أراد الطير المعروف، وأزال الإبهام.

ج. وقيل: لأن الملائكة تطير بأكثر من جناحين، فبين أن الطائر يطير بجناحين.

د. وقيل: لأن من الطير ما يَثِبُ.

٤. ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾:

أ. أشباهكم في إبداع الله تعالى إياها وخلقه لها، ودلالتها على أنها مفعولة، ولها صانع.

ب. وقيل: في شدة الحاجة إلى مدبر يدبرهم في أحوالهم، وأغذيتهم.

ج. وقيل: أمثالكم في أنهم يحشرون ويقضى بينهم، فيما لهم وعليهم، وأنها آجال معلومة، عن أبي مسلم.

د. وقيل ﴿أَمْثَالُكُمْ﴾ في أنهم يتألمون ويتلذذون، فيجب ألّا يظلموا تحذيرًا من ظلمهم، ومنعًا من إيلامهم، إلا فيما ورد الشرع.

هـ. وقيل: مثلكم في الآجال والأرزاق.

و. وقيل: مثلكم في أن لها توالدا، وفيهم ذكور وإناث وأجناس.

ز. وقيل: أمثالكم في أنه أحصى أعمالها في اللوح المحفوظ كما أحصى أعمالكم.

ح. وقيل: أمثالكم في أنها خلقت لغرض صحيح نفيًا لظن من ظن أن الحشرات والسباع المؤذية لا فائدة فيها، ولا يجوز حمله على أنهم مكلفون؛ لأن نقصان عقولهم يمنع من ذلك، وكذلك لا يحمل على ما يحكى عن عطاء أنها أمثالكم في المعرفة والتوحيد.

٥. سؤال وإشكال: أي فائدة في خلقها؟ والجواب: إذا علمنا أنه تعالى حكيم لا يفعل الفعل إلا لغرض صحيح، وعلمنا أن المنافع والمضار لا تجوز عليه فلا بد أن يكون خلقها لنفع الغير، ولما كانت غير مكلفة لم يصح أن تكون مقصودة، فعلمنا أنه خلقها لمنافع المكلفين إما دينًا أو دنيا، ثم لا يجب علينا معرفة تفاصيله، وبعد، فلا شيء إلا وفيه نفع عاجل، أو اعتبار آجل.

٦. سؤال وإشكال: فإن كان فيها مصلحة ونفع فَلِمَ أَمَرَ بقتل بعضها، وذبح بعضها؟ والجواب: خلقها لنفع، وأمر بقتلها لنفع آخر خصوصًا في المؤذيات، ففيه تحذير من العذاب، وفي قتله تنبيه على التحرز من المعصية.

٧. سؤال وإشكال: فأي عبرة أن جعلها أممًا؟ والجواب: لأنه صور كل جنس على صورة عجيبة، ثم جعل بعضها يمشي، وبعضها يطير، ثم دبر أرزاقها وآجالها على ما تقتضيه الحكمة، من غير أن كان لها ضرع أو زرع أو اكتساب أو سبب للرزق.

٨. ﴿مَا فَرَّطْنَا﴾ ما قصرنا في البيان ﴿فِي الْكِتَابِ﴾:

أ. قيل: في اللوح المحفوظ، الذي كتب فيه الآجال والأرزاق والكائنات مصلحة للملائكة، حكاه الأصم.

ب. وقيل: القرآن؛ لأنه ذكر فيه جميع ما يحتاج إليه مجملاً أو مفصلاً أو نصًّا أو فحوى، أو استدلالاً أو تنبيهًا، أو تجويزًا، أو إحالة على سُنَّةٍ أو إجماع أو قياس أو اجتهاد، عن أبي علي والأصم، واختاره القاضي.

ج. وقيل: الكتاب: الأجل؛ أي ما تركنا شيئًا إلا وأوجبنا إليه أجلا ثم يحشرون جميعًا، عن أبي مسلم.

٩. ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾:

أ. قيل: يجمعون إلى الموقف يوم القيامة للجزاء بحيث لا يملك النفع والضر إلا الله، عن أبي ذر وأبي هريرة والحسن وأبي علي.

ب. وقيل: حشرها موتها، عن ابن عباس والضحاك.

١٠. سؤال وإشكال: الآية تدل على أنها تحشر كما يحشر مَنْ يعقل.فلماذا تحشر؟ والجواب: ليوفر عليها الأعواض المستحقة، ولينتصف للمظلوم من الظالم، والمروي عن النبي ﷺ أنه قال: (تحشر البهائم والدواب، ويقتص للجماء من القرناء، ثم يقول: كوني ترابًا، فعند ذلك يقول الكافر: يا ليتني كنت ترابا)

١١. سؤال وإشكال: هل كان يجوز ألا يحشروا؟ والجواب:

أ. أما عند أبي هاشم فلو وفر عليها الأعواض في الدنيا أو كان بحيث لم يكن لها عوض كان يجوز ألا تحشر؛ لأن العوض منقطع، فيجوز أن يوفر عليها في الدنيا إلا أن السمع دل أن جميعها تحشر.

ب. فأما عند أبي علي فالأعواض دائمة فلا بد من الحشر، فأما ما لا عوض له فيجوز ألَّا يحشر عقلاً عنده إلا أن السمع دل على أنه يحشره.

١٢. سؤال وإشكال: الأعواض دائمة أو منقطعة؟ والجواب: دائمة عند أبي علي وأبي الهذيل وجماعة، ثم رجع أبو علي، وقال: منقطعة، وهو قول أبي هاشم وأصحابه.

١٣. سؤال وإشكال: إذا كان الصحيح أنها منقطعة فإذا وفر عليها ماذا تفعل بها؟ والجواب: يجوز أن يبطل حياتها بحيث لا يلحقها غم؛ لأن تبقيتها غير واجبة، ويجوز تبقيتها.

١٤. سؤال وإشكال: أيوفر عليها الأعواض، وهم عقلاء أم لا؟ والجواب: يجوز الوجهان، وإبقاء الأعواض لا يوجب كونها عاقلاً، فيجوز أن يصيروا عقلاء ويضطروا إلى المعرفة، ويجوز ألَّا يكونوا عقلاء فيوفر عليهم كالمجانين، ولا يقال: يجب أن يعلموا ما يوفر عليهم؛ لأنه لا يجب أن تعلم الأعواض ومقاديرها بخلاف الثواب فإنه يستحق على وجه التعظيم فلا بد أن يعلم قصد المثيب فيما يعطي.

١٥. سؤال وإشكال: أي فائدة في إماتتهم؟ والجواب:

أ. قيل: لا بد من فائدة، وإن لم يعلم تفاصيلها.

ب. وقيل: الفائدة يجوز أن تكون ما يلحق الكافر من الغم والحسرة حتى يتمنوا مثل حالهم، ويجوز أن يكون فيه سرور لأهل التفضل من الأطفال وغيرهم، ولا يكون عبثًا.

١٦. سؤال وإشكال: فلو بقَّاهم فأي فائدة فيها؟ والجواب: يجوز في كثير منهم أن يبقيهم ثوابا لأهل الجنة لحسن صورهم وأصواتهم، أو عقابًا لأهل النار كالمؤذيات.

١٧. سؤال وإشكال: فَمَنْ المكلَّف مَنْ يجب حشره عقلاً وسمعًا؟ والجواب: من استحق الثواب فلا بد من حشره عقلاً، فأما أهل العقاب فيجوز ألَّا يحشرهم لأنه حق له فيجوز أن يسقطه، فأما من له عوض فعلى ما ذكرنا.

١٨. سؤال وإشكال: فإذا كان المقصود من الحشر الانتصاف، فلو قدرنا ظالمًا لا عوض له فكيف يكون حاله؟ والجواب: فيه ثلاثة أقوال:

أ. الأول: يعطيه الله تعالى من فضله.

ب. الثاني: أنه لا يمكنه من الظلم إلا ويعلم أنه يأتي يوم القيامة مستحقًا من الأعواض ما يرضي خصومه.

ج. الثالث: لا يُمَكنُه إلا وهو في الحال مستحق للعوض.

١٩. سؤال وإشكال: لا يجوز أن يموت حيوان لا عوض له؟ والجواب: يجوز بأن يموت من غير ألم.

٢٠. سؤال وإشكال: فالمكلف ما الذي يجب أن يحشر منه؟ والجواب: اختلفوا فيه:

أ. قيل: على هيئته.

ب. وقيل: الاعتبار بالأجزاء التي يكون بها مُبَيّنًا من غيره، ولا اعتبار بالأطراف.

ج. وقيل: الأجزاء والتآليف.

د. وقيل: الأجزاء والحياة.

٢١. تدل الآية الكريمة على:

أ. أن الحيوانات أمم كالإنس.

ب. أنه يحشر غير المكلفين كما يحشر المكلف.

ج. أن الكتاب ورد بجميع ما يحتاج إليه المكلف.

د. وعيد المكذب وكيفية حشره، وكل واحد من هذه الفضول يشتمل على مسائل مفيدة(١)، والصحيح أن المراد بها أجناس مدبرة مخلوقة دالة على صانع قديم، والتشبيه لا يقتضي أن يكون جميع ما في المشبه به يحصل في المشبه؛ لهذا قلنا: لا يقتضي أن يكون عارفًا أو مكلفًا، يدل عليه أنه يتعذر عليها معرفة الأمور الجلية والاستدلال، فكيف يحصل لها المعرفة بالغوامض، ولأن من شرط التكليف كمال العقل، ولم يحصل فيها، ولأن الإجماع حصل على أنه لا تكليف عليها.

هـ. تدل الآية أنه تعالى أزاح العلة للمكلف بالكتاب؛ لأن الظاهر يقتضي ذلك، سؤال وإشكال: كيف ذلك؟ وكثير من المسائل يُحتاج إليها، وليست بمذكورة فيه؟ والجواب: ذلك على وجوه:

- منها: ما يعلم بالكتاب نصًّا.
- ومنها: ما يعلم بفحواه.
- ومنها: ما يعلم استدلالاً.
- ومنها: ما نبه على الرجوع إلى الإجماع.
- ومنها: ما دل على صحة القياس والاجتهاد، وإذا تدبرت هذه الأشياء وجدت [أنها] لا تخرج جميع مسائل الشرع أصولها وفروعها، دقيقها وجليلها عن ذلك.

و. أنه لا زيادة في الكتاب ولا نقصان، ولا تحريف؛ لأنه لو كان كذلك لما صح وصفه بما وصفه،

---

(١) سبق ذكرها ضمن الإشكالات

سؤال وإشكال: إنه أطلق الشيء وكثير من الأشياء لم تذكر فيه، ولا نبه عليه!؟ والجواب: أن ذلك مما لا يحتاج إليه فلا يعد تفريطًا.

٢٢. كُسِرَ ﴿طَائِرٍ﴾ عطفًا على دابة، وذكر جناحيه) تأكيدًا، كقولهم: مشيت على رجلي، وعملته بيدي، قوله: ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ تقديره: هم صم بكم.

الطَبَرِسي:

ذكر الفضل الطَبَرِسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الدابة: كل ما يدب من الحيوان، وأصله الصفة من دب يدب دبيبا إذا مشى مشيا فيه تقارب خطو، والدبوب والديبوب: النمام، وفي الحديث: (لا يدخل الجنة ديبوب، ولا قلاع)، فالديبوب: النمام لأنه يدب بالنميمة والقلاع: الواشي بالرجل ليقتلعه، قال الأزهري: تصغير الدابة دويبة، الباء مخففة، وفيها إشمام الكسر، وفي الحديث: (أيتكن صاحبة الجمل الأدبب تنبحها كلاب الحوأب)، أراد: الأدب، فأظهر التضعيف، وهو الكثير الوبر، وقد دب يدب دبيبا.

ب. الجناح: إحدى ناحيتي الطير اللتين يتمكن بهما من الطيران في الهواء، وأصله: الميل إلى ناحية

٢. لما بين سبحانه أنه قادر أن ينزل آية، عقبه بذكر ما يدال على كمال قدرته، وحسن تدبيره وحكمته، فقال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ما من حيوان يمشي على وجه الأرض ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ جمع بهذين اللفظين جميع الحيوانات لأنها لا تخلو إما أن تكون مما يطير بجناحيه، أو يدب.

٣. سؤال وإشكال: لم قال: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾، وقد علم أن الطير لا يطير إلا بالجناح؟ والجواب:

أ. إن هذا إنما جاء للتوكيد، ورفع اللبس، لأن القائل قد يقول: طر في حاجتي أي: أسرع فيها، وقال الشاعر:

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدانا

وأنشد سيبويه:

(١) تفسير الطبرسي: ٤/ ٤١.

فطرت بمنصلي في يعملات ودوامي الأيد يخبطن السريحا

ب. وقيل: إنما قال: ﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾ لأن السمك تطير في الماء، ولا أجنحة لها، وإنها خرج السمك عن الطائر، لأنه من دواب البحر، وإنها أراد سبحانه ما في الأرض وما في الجو.

٤. ﴿إِلَّا أُمَمٌ﴾ أي: أصناف مصنفة تعرف بأسمائها يشتمل كل صنف على العدد الكثير، عن مجاهد ﴿أَمْثَالُكُمْ﴾:

أ. قيل: إنه يريد أشباهكم في إبداع الله إياها، وخلقه لها، ودلالتها على أ ن لها صانعا.

ب. وقيل: إنما مثلت الأمم من غير الناس بالناس، في الحاجة إلى مدبر يدبرهم، في أغذيتهم، وأكلهم ولباسهم، ونومهم، ويقظتهم، وهدايتهم إلى مراشدهم، إلى ما لا يحصى كثرة من أحوالهم، ومصالحهم، وأنهم يموتون، ويحشرون، وبين بهذه الآية أنه لا يجوز للعباد أن يتعدوا في ظلم شيء منها، فإن الله خالقها وا المنتصف لها.

٥. ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾:

أ. أي: ما تركنا.

ب. وقيل: معناه ما قصرنا.

٦. اختلف في معنى الكتاب على أقوال:

أ. أحدها: إنه يريد بالكتاب القرآن، لأنه ذكر جميع ما يحتاج إليه من أمور الدين والدنيا، إما مجملا، وإما مفصلا، والمجمل قد بينه على لسان نبيه ﷺ، وأمرنا باتباعه في قوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، ويروى عن عبد الله بن مسعود أنه قال: (مالي لا ألعن من لعنه الله في كتابه، يعني الواشمة والمستوشمة، والواصلة والمستوصلة ـ فقرأت المرأة التي سمعت ذلك منه جميع القرآن، ثم أتته وقالت: يا ابن أم عبد! تلوت البارحة ما بين الدفتين، فلم أجد فيه لعن الواشمة! فقال: لو تلوتيه لوجدتيه قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾، وإن مما أتانا رسول الله أن قال: (لعن الله الواشمة والمستوشمة)، وهو قول، أكثر المفسرين، وهذا القول اختيار البلخي.

ب. ثانيها: إن المراد بالكتاب ههنا الكتاب الذي هو عند الله عز وجل، المشتمل على ما كان

ويكون، وهو اللوح المحفوظ، وفيه آجال الحيوان، وأرزاقه، وآثاره، ليعلم ابن آدم أن عمله أولى بالإحصاء والاستقصاء، عن الحسن.

ج. ثالثها: إن المراد بالكتاب الأجل أي: ما تركنا شيئا إلا وقد أوحينا له أجلا، ثم يحشرون جميعا، عن أبي مسلم وهذا الوجه بعيد.

٧. ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ معناه: يحشرون إلى الله بعد موتهم يوم القيامة، كما يحشر العباد، فيعوض الله تعالى ما يستحق العوض منها، وينتصف لبعضها من بعض:

أ. وفيما رووه عن أبي هريرة أنه قال: يحشر الله الخلق يوم القيامة: البهائم والدواب والطير، وكل شيء فيبلغ من عدل الله يومئذ أن يأخذ للجماء من القرناء، ثم يقول، كوني ترابا، فلذلك يقول الكافر يا ليتني كنت ترابا.

ب. وعن أبي ذر قال بينا أنا عند رسول الله ﷺ إذ انتطحت عنزان، فقال النبي ﷺ: أتدرون فيما انتطحا؟ فقالوا: لا ندري، قال لكن الله يدري وسيقضي بينهما.

ج. وعلى هذا فإنما جعلت أمثالنا في الحشر والاقتصاص، واختاره الزجاج، فقال: يعني ﴿أَمْثَالَكُمْ﴾ في أنهم يبعثون ويؤيده قوله: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾

٨. معنى ﴿إِلَى رَبِّهِمْ﴾ إلى حيث لا يملك النفع والضر إلا الله سبحانه وتعالى، إذ لم يمكن منه كما مكن في الدنيا.

٩. استدلت جماعة من أهل التناسخ بهذه الآية على أن البهائم والطيور مكلفة لقوله: ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾: وهذا باطل، لأنا قد بينا أنها من أي وجه تكون أمثالنا، ولو وجب حمل ذلك على العموم، لوجب أن تكون أمثالنا في كونها على مثل صورنا وهيآتنا وخلقتنا وأخلاقنا، وكيف يصح تكليف البهائم، وهي غير عاقلة، والتكليف لا يصح إلا مع العقل.

١٠. مسائل لغوية ونحوية:

أ. ﴿مِنْ﴾ مزيدة، وتأويله وما دابة.

ب. يجوز في غير القرآن، ﴿وَلَا طَائِرٍ﴾ بالرفع، عطفا على موضع من دابة.

ج. قوله: (من شيء): من زائدة أيضا، وتفيد التعميم أي: ما فرطنا شيئا ما.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: يريد كلّ ما دبّ على الأرض، قال الزّجّاج: وذكر الجناحين توكيد، وجميع ما خلق لا يخلو إما أن يدبّ، وإمّا أن يطير.

٢. ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ قال مجاهد: أصناف مصنّفة، وقال أبو عبيدة: أجناس يعرفون الله ويعبدونه، وفي معنى ﴿أَمْثَالُكُمْ﴾ أربعة أقوال:

أ. أحدها: أمثالكم في كون بعضها يفقه عن بعض، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

ب. الثاني: في معرفة الله، قاله عطاء.

ج. الثالث: أمثالكم في الخلق والموت والبعث، قاله الزّجّاج.

د. الرابع: أمثالكم في كونها تطلب الغذاء، وتبتغي الرّزق، وتتوقّى المهالك، قاله ابن قتيبة.

٣. قال ابن الأنباريّ: وموضع الاحتجاج من هذه الآية أنّ الله تعالى ركّب في المشركين عقولا، وجعل لهم أفهاما ألزمهم بها أن يتدبّروا أمر النبيّ ﷺ ويتمسّكوا بطاعته، كما جعل للطّير أفهاما يعرف بها بعضها إشارة بعض، وهدى الذّكر منها لإتيان الأنثى، وفي كل ذلك دليل على نفاذ قدرة المركّب ذلك فيها.

٤. ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ في الكتاب قولان:

أ. أحدهما: أنه اللوح المحفوظ، روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس: ما تركنا شيئا إلّا وقد كتبناه في أمّ الكتاب، وإلى هذا المعنى ذهب قتادة، وابن زيد.

ب. الثاني: أنه القرآن، روى عطاء عن ابن عباس: ما تركنا من شيء إلّا وقد بيّناه لكم، فعلى هذا يكون من العامّ الذي أريد به الخاصّ، فيكون المعنى: ما فرّطنا في شيء بكم إليه حاجة إلا وبيّناه في الكتاب، إمّا نصّا، وإما مجملا، وإمّا دلالة، كقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: لكلّ شيء يحتاج إليه في أمر الدّين.

٥. ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ فيه قولان:

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٢/ ٢٧.

أ. أحدهما: أنه الجمع يوم القيامة، روى أبو ذرّ قال: (انتطحت شاتان عند النّبيّ ﷺ فقال: يا أبا ذرّ، أتدري فيما انتطحتا؟ قلت: لا، قال لكنّ الله يدري، وسيقضي بينهما)، وقال أبو هريرة: يحشر الله الخلق يوم القيامة، البهائم والدّواب والطّير وكلّ شيء فيبلغ من عدله أن يأخذ للجمّاء من القرناء، ثم يقول: كوني ترابا، فيقول الكافر: يا ليتني كنت ترابا.

ب. الثاني: أن معنى حشرها: موتها، قاله ابن عباس، والضّحّاك.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. مما ذكر في علاقة الآية الكريمة بما قبلها وجهان:

أ. الأول: أنه تعالى بيّن في الآية السابقة: أنه لو كان إنزال سائر المعجزات مصلحة لهم لفعلها ولأظهرها إلا أنه لما لم يكن إظهارها مصلحة للمكلفين، لا جرم ما أظهرها، وهذا الجواب إنما يتم إذا ثبت أنه تعالى يراعي مصالح المكلفين ويتفضل عليهم بذلك فبيّن أن الأمر كذلك، وقرره بأن قال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ في وصول فضل الله وعنايته ورحمته وإحسانه إليهم، وذلك كالأمر المشاهد المحسوس فإذا كانت آثار عنايته واصلة إلى جميع الحيوانات؛ فلو كان في إظهار هذه المعجزات القاهرة مصلحة للمكلفين لفعلها ولأظهرها ولامتنع أن يبخل بها مع ما ظهر أنه لم يبخل على شيء من الحيوانات بمصالحها ومنافعها وذلك يدل على أنه تعالى إنما لم يظهر تلك المعجزات، لأن إظهارها يخل بمصالح المكلفين، فهذا هو وجه النظم والمناسبة بين هذه الآية وبين ما قبلها.

ب. الثاني: قال القاضي: إنه تعالى لما قدم ذكر الكفار وبين أنهم يرجعون إلى الله ويحشرون بين أيضا بعده بقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ في أنهم يحشرون، والمقصود: بيان أن الحشر والبعث كما هو حاصل في حق الناس فهو أيضا حاصل في حق البهائم.

٢. الحيوان إما أن يكون بحيث يدب أو يكون بحيث يطير فجميع ما خلق الله تعالى من الحيوانات، فإنه لا يخلو عن هاتين الصفتين، إما أن يدب، وإما أن يطير، وفي الآية سؤالات:

---

(١) التفسير الكبير: ١٢/ ٥٢٤.

أ. سؤال وإشكال: من الحيوان ما لا يدخل في هذين القسمين مثل حيتان البحر، وسائر ما يسبح في الماء ويعيش فيه، والجواب: لا يبعد أن يوصف بأنها دابة من حيث إنها تدب في الماء أو هي كالطير، لأنها تسبح في الماء، كما أن الطير يسبح في الهواء، إلا أن وصفها بالدبيب أقرب إلى اللغة من وصفها بالطيران.

ب. سؤال وإشكال: ما الفائدة في تقييد الدابة بكونها في الأرض؟ والجواب: من وجهين:

• الأول: أنه خص ما في الأرض بالذكر دون ما في السماء احتجاجا بالأظهر لأن ما في السماء وإن كان مخلوقا مثلنا فغير ظاهر.

• الثاني: أن المقصود من ذكر هذا الكلام أن عناية الله تعالى لما كانت حاصلة في هذه الحيوانات فلو كان إظهار المعجزات القاهرة مصلحة لما منع الله من إظهارها، وهذا المقصود إنما يتم بذكر من كان أدون مرتبة من الإنسان لا بذكر من كان أعلى حالا منه، فلهذا المعنى قيد الدابة بكونها في الأرض.

ج. سؤال وإشكال: ما الفائدة في قوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾؟ مع أن كل طائر إنما يطير بجناحيه، والجواب: من وجوه:

• الأول: أن هذا الوصف إنما ذكر للتأكيد كقوله نعجة أنثى وكما يقال: كلمته بفي ومشيت إليه برجلي.

• الثاني: أنه قد يقول الرجل لعبده طر في حاجتي والمراد الإسراع وعلى هذا التقدير: فقد يحصل الطيران لا بالجناح، قال الحماسي: (طاروا إليه زرافات ووحدانا)، فذكر الجناح ليتمحض هذا الكلام في الطير.

• الثالث: أنه تعالى قال في صفة الملائكة ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [فاطر: ١] فذكر هاهنا قوله: ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ ليخرج عنه الملائكة فإنا بينا أن المقصود من هذا الكلام إنما يتم بذكر من كان أدون حالا من الإنسان لا بذكر من كان أعلى حالا منه.

د. سؤال وإشكال: كيف قال: ﴿إِلَّا أُمَمٌ﴾ مع إفراد الدابة والطائر؟ والجواب: لما كان قوله: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ و﴿لا طائِرٍ﴾ دالا على معنى الاستغراق ومغنيا عن أن يقول: وما من دواب ولا طيور لا جرم حمل قوله: ﴿إِلَّا أُمَمٌ﴾ على المعنى.

٣. ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ قال الفرّاء: يقال إن كل صنف من البهائم أمة وجاء في الحديث: (لو لا أن

الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها) فجعل الكلاب أمة، والآية دلت على أن هذه الدواب والطيور أمثالنا، وليس فيها ما يدل على أن هذه المماثلة في أي المعاني حصلت ولا يمكن أن يقال: المراد حصول المماثلة من كل الوجوه وإلا لكان يجب كونها أمثالا لنا في الصورة والصفة والخلقة وذلك باطل فظهر أنه لا دلالة في الآية على أن تلك المماثلة حصلت في أي الأحوال والأمور، وقد اختلف الناس في تعيين الأمر الذي حكم الله تعالى فيه بالمماثلة بين البشر وبين الدواب والطيور وذكروا فيه أقوالا:

أ. الأول: نقل الواحدي عن ابن عباس أنه قال: يريد، يعرفونني ويوحدونني ويسبحونني ويحمدونني، وإلى هذا القول ذهب طائفة عظيمة من المفسرين وقالوا: إن هذه الحيوانات تعرف الله وتحمده وتوحده وتسبحه واحتجوا عليه بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] وبقوله في صفة الحيوانات ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٤١] وبما أنه تعالى خاطب النمل وخاطب الهدهد، وقد استقصينا في تقرير هذا القول وتحقيقه في هذه الآيات:

- وعن أبي الدرداء أنه قال: أبهمت عقول البهائم عن كل شيء إلا عن أربعة أشياء: معرفة الإله، وطلب الرزق، ومعرفة الذكر والأنثى، وتهيؤ كل واحد منهما لصاحبه.
- روي عن النبي ﷺ أنه قال: (من قتل عصفورا عبثا جاء يوم القيامة يعج إلى الله يقول يا رب إن هذا قتلني عبثا لم ينتفع بي ولم يدعني آكل من خشاش الأرض)

ب. الثاني: المراد إلا أمم أمثالكم في كونها أمما وجماعات وفي كونها مخلوقة بحيث يشبه بعضها بعضا، ويأنس بعضها ببعض، ويتوالد بعضها من بعض كالإنس إلا أن للسائل أن يقول حمل الآية على هذا الوجه لا يفيد فائدة معتبرة لأن كون الحيوانات بهذه الصفة أمر معلوم لكل أحد فلا فائدة في الاخبار عنها.

ج. الثالث: المراد أنها أمثالنا في أن دبرها الله تعالى وخلقها وتكفل برزقها وهذا يقرب من القول الثاني في أنه يجري مجرى الاخبار عما علم حصوله بالضرورة.

د. الرابع: المراد أنه تعالى كما أحصى في الكتاب كل ما يتعلق بأحوال البشر، من العمر والرزق والأجل والسعادة والشقاوة فكذلك أحصى في الكتاب جميع هذه الأحوال في كل الحيوانات، قالوا: والدليل عليه قوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وليس لذكر هذا الكلام عقيب قوله: ﴿إِلَّا أُمَمٌ

﴿أَمْثَالُكُمْ﴾ فائدة إلا ما ذكرناه.

هـ. الخامس: أراد تعالى أنها أمثالنا في أنها تحشر يوم القيامة يوصل إليها حقوقها، كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: (يقتص للجماء من القرناء)

و. السادس: ما اخترناه في نظم الآية، وهو أن الكفار طلبوا من النبي ﷺ الإتيان بالمعجزات القاهرة الظاهرة، فبين تعالى أن عنايته وصلت إلى جميع الحيوانات كما وصلت إلى الإنسان، ومن بلغت رحمته وفضله إلى حيث لا يبخل به على البهائم كان بأن لا يبخل به على الإنسان أولى، فدل منع الله من إظهار تلك المعجزات القاهرة على أنه لا مصلحة لأولئك السائلين في إظهارها، وأن إظهارها على وفق سؤالهم واقتراحهم يوجب عود الضرر العظيم إليهم.

ز. السابع: ما رواه أبو سليمان الخطابي عن سفيان بن عيينة، أنه لما قرأ هذه الآية قال: (ما في الأرض آدمي إلا وفيه شبه من بعض البهائم، فمنهم من يقدم إقدام الأسد، ومنهم من يعدو عدو الذئب، ومنهم من ينبح نباح الكلب، ومنهم من يتطوس كفعل الطاووس ومنهم من يشبه الخنزير فإنه لو ألقي إليه الطعام الطيب تركه وإذا قام الرجل عن رجيعه ولغ فيه، فكذلك نجد من الآدميين من لو سمع خمسين حكمة لم يحفظ واحدة منها، فإن أخطأت مرة واحدة حفظها، ولم يجلس مجلسا إلا رواه عنه)، ثم قال: (فاعلم يا أخي إنك إنما تعاشر البهائم والسباع، فبالغ في الحذار والاحتراز)، فهذا جملة ما قيل في هذا الموضع.

٤. ذهب القائلون بالتناسخ إلى أن الأرواح البشرية إن كانت سعيدة مطيعة لله تعالى موصوفة بالمعارف الحقة وبالأخلاق الطاهرة، فإنها بعد موتها تنقل إلى أبدان الملوك، وربما قالوا: إنها تنقل إلى مخالطة عالم الملائكة، وأما إن كانت شقية جاهلة عاصية فإنها تنقل إلى أبدان الحيوانات، وكلما كانت تلك الأرواح أكثر شقاوة واستحقاقا للعذاب نقلت إلى بدن حيوان أخس وأكثر شقاء وتعبا، واحتجوا على صحة قولهم بهذه الآية فقالوا: صريح هذه الآية يدل على أنه لا دابة ولا طائر إلا وهي أمثالنا، ولفظ المماثلة يقتضي حصول المساواة في جميع الصفات الذاتية أما الصفات العرضية المفارقة، فالمساواة فيها غير معتبرة في حصول المماثلة، ثم إن القائلين بهذا القول زادوا عليه، وقالوا: قد ثبت بهذا أن أرواح جميع الحيوانات عارفة بربها وعارفة بما يحصل لها من السعادة والشقاوة، وأن الله تعالى أرسل إلى كل جنس منها رسولا من جنسها، واحتجوا عليه بأنه ثبت بهذه الآية أن الدواب والطيور أمم، ثم إنه تعالى قال: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا

نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] وذلك تصريح بأن لكل طائفة من هذه الحيوانات رسولا أرسله الله إليها، ثم أكدوا ذلك بقصة الهدهد، وقصة النمل، وسائر القصص المذكورة في القرآن، والقول بالتناسخ قد أبطلناه بالدلائل الجيدة في علم الأصول، وأما هذه الآية فقد ذكرنا ما يكفي في صدق حصول المماثلة في بعض الأمور المذكورة، فلا حاجة إلى إثبات ما ذكره أهل التناسخ.

٥. ثم قال تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وفي المراد بالكتاب قولان:

أ. الأول: المراد منه الكتاب المحفوظ في العرش وعالم السموات المشتمل على جميع أحوال المخلوقات على التفصيل التام، كما قال ﷺ: (جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة)

ب. الثاني: أن المراد منه القرآن، وهذا أظهر لأن الألف واللام إذا دخلا على الاسم المفرد انصرف إلى المعهود السابق، والمعهود السابق من الكتاب عند المسلمين هو القرآن، فوجب أن يكون المراد من الكتاب في هذه الآية القرآن.

٦. سؤال وإشكال: كيف قال تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ مع أنه ليس فيه تفاصيل علم الطب وتفاصيل علم الحساب، ولا تفاصيل كثير من المباحث والعلوم، وليس فيه أيضا تفاصيل مذاهب الناس ودلائلهم في علم الأصول والفروع؟ والجواب: أن قوله: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ يجب أن يكون مخصوصا ببيان الأشياء التي يجب معرفتها، والإحاطة بها وبيانه من وجهين:

أ. الأول: أن لفظ التفريط لا يستعمل نفيا وإثباتا إلا فيما يجب أن يبين لأن أحدا لا ينسب إلى التفريط والتقصير في أن لا يفعل ما لا حاجة إليه، وإنما يذكر هذا اللفظ فيما إذا قصر فيما يحتاج إليه.

ب. الثاني: أن جميع آيات القرآن أو الكثير منها دالة بالمطابقة أو التضمن أو الالتزام على أن المقصود من إنزال هذا الكتاب بيان الدين ومعرفة الله ومعرفة أحكام الله، وإذا كان هذا التقييد معلوما من كل القرآن كان المطلق هاهنا محمولا على ذلك المقيد، أما قوله إن هذا الكتاب غير مشتمل على جميع علوم الأصول والفروع، فنقول: أما علم الأصول فإنه بتمامه حاصل فيه لأن الدلائل الأصلية مذكورة فيه على أبلغ الوجوه، فأما روايات المذاهب وتفاصيل الأقاويل، فلا حاجة إليها، وأما تفاصيل علم الفروع فنقول: للعلماء هاهنا قولان:

• القول الأول: أنهم قالوا ان القرآن دل على أن الإجماع وخبر الواحد والقياس حجة في الشريعة

فكل ما دل عليه أحد هذه الأصول الثلاثة، كان ذلك في الحقيقة موجودا في القرآن، وذكر الواحدي لهذا المعنى أمثلة ثلاثة:

● المثال الأول: روي أن ابن مسعود كان يقول: مالي لا ألعن من لعنه الله في كتابه يعني الواشمة، والمستوشمة، والواصلة، والمستوصلة، روي أن امرأة قرأت جميع القرآن، ثم أتته فقالت: يا ابن أم عبد، تلوت البارحة ما بين الدفتين، فلم أجد فيه لعن الواشمة والمستوشمة فقال: لو تلوتيه لوجدتيه، قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧] وإن مما أتانا به رسول الله أنه قال: (لعن الله الواشمة والمستوشمة) وأقول: يمكن وجدان هذا المعنى في كتاب الله بطريق أوضح من ذلك لأنه تعالى قال في سورة النساء: ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا لَعَنَهُ اللهُ﴾ [النساء: ١١٧، ١١٨] فحكم عليه باللعن، ثم عدد بعده قبائح أفعاله وذكر من جملتها قوله: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ﴾ [النساء: ١١٩] وظاهر هذه الآية يقتضي أن تغيير الخلق يوجب اللعن.

● المثال الثاني: ذكر أن الشافعي كان جالسا في المسجد الحرام فقال: (لا تسألوني عن شيء إلا أجبتكم فيه من كتاب الله تعالى) فقال رجل: ما تقول في المحرم إذا قتل الزنبور؟ فقال: (لا شيء عليه) فقال: أين هذا في كتاب الله؟ فقال: قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ ثم ذكر إسنادا إلى النبي ﷺ أنه قال: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين[1] من بعدي) ثم ذكر إسنادا إلى عمر أنه قال للمحرم قتل الزنبور، قال الواحدي: فأجابه من كتاب الله مستنبطا بثلاث درجات، وأقول: هاهنا طريق آخر أقرب منه، وهو أن الأصل في أموال المسلمين العصمة، قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال: ﴿وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٦]، وقال: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] فنهى عن أكل أموال الناس إلا بطريق التجارة فعند عدم التجارة وجب أن يبقى على أصل الحرمة، وهذه العمومات تقتضي أن لا يجب على المحرم الذي قتل الزنبور شيء وذلك لأن التمسك بهذه العمومات يوجب الحكم بمرتبة واحدة، وأما الطريق الذي ذكره الشافعي: فهو تمسك بالعموم على أربع درجات:

(١) ليس هناك دليل شرعي على أن المراد بهم هنا من اصطلح عليهم في التاريخ بذلك

○ أولها: التمسك بعموم قوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧] وأحد الأمور الداخلة تحت هذا أمر النبي عليه السلام بمتابعة الخلفاء الراشدين.

○ ثانيها: التمسك بعموم قوله ﷺ: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي)

○ ثالثها: بيان أن عمر كان من الخلفاء الراشدين.

○ رابعها: الرواية عن عمر أنه لم يوجب في هذه المسألة شيئا، فثبت أن الطريق الذي ذكرناه أقرب.

● المثال الثالث: قال الواحدي: روي في حديث العسيف الزاني أن أباه قال للنبي ﷺ: اقض بيننا بكتاب الله فقال ﷺ: (والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله) ثم قضى بالجلد والتغريب على العسيف، وبالرجم على المرأة إن اعترفت، قال الواحدي: (وليس للجلد والتغريب ذكر في نص الكتاب، وهذا يدل على أن كل ما حكم به النبي ﷺ فهو عين كتاب الله)، وهذا المثال حق، لأنه تعالى قال: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] وكل ما بينه الرسول ﷺ كان داخلا تحت هذه الآية.

● فثبت بهذه الأمثلة أن القرآن لما دل على أن الإجماع حجة، وأن خبر الواحد حجة، وأن القياس حجة، فكل حكم ثبت بطريق من هذه الطرق الثلاثة، كان في الحقيقة ثابتا بالقرآن، فعند هذا يصح قوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ هذا تقرير هذا القول، وهو الذي ذهب إلى نصرته جمهور الفقهاء.

● حاصل هذه الوجه أن القرآن لما دلّ على خبر الواحد والقياس حجة، فكل حكم ثبت بأحد هذين الأصلين كان في الحقيقة قد ثبت بالقرآن إلا أنا نقول: حمل قوله: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ على هذا الوجه لا يجوز لأن قوله: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ذكر في معرض تعظيم هذا الكتاب والمبالغة في مدحه والثناء عليه، ولو حملنا هذه الآية على هذا المعنى لم يحصل منه ما يوجب التعظيم، وذلك لأنا لو فرضنا أن الله تعالى قال اعلموا بالإجماع وخبر الواحد والقياس، كان المعنى الذي ذكروه حاصلا من هذا اللفظ والمعنى الذي يمكن تحصيله من هذا اللفظ القليل لا يمكن جعله واجبا لمدح القرآن والثناء عليه لسبب اشتمال القرآن عليه، لأن هذا إنما يوجب المدح العظيم والثناء التام لو لم يمكن تحصيله بطريق آخر أشد اختصارا منه، فأما لما بينا أن هذا القسم المقصود يمكن حمله وتحصيله باللفظ المختصر الذي ذكرناه علمنا أنه لا يمكن ذكره في تعظيم القرآن، فثبت أن هذه الآية مذكورة في معرض تعظيم القرآن، وثبت أن المعنى الذي ذكروه لا يفيد تعظيم القرآن، فوجب أن يقال؛ إنه لا يجوز حمل هذه الآية على هذا

المعنى، فهذا أقصى ما يمكن أن يقال في تقرير هذا القول.

• القول الثاني: في تفسير هذه الآية قول من يقول: القرآن واف ببيان جميع الأحكام وتقريره أن الأصل براءة الذمة في حق جميع التكليف، وشغل الذمة لا بدّ فيه من دليل منفصل والتنصيص على أقسام ما لم يرد فيه التكليف ممتنع، لأن الأقسام التي لم يرد التكليف فيها غير متناهية، والتنصيص على ما لا نهاية له محال بل التنصيص إنما يمكن على المتناهي مثلا لله تعالى ألف تكليف على العباد وذكره في القرآن وأمر محمدا ﷺ بتبليغ ذلك الألف إلى العباد، ثم قال بعده: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فكان معناه أنه ليس لله على الخلق بعد ذلك الألف تكليف آخر، ثم أكد هذه الآية بقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] وبقوله: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] فهذا تقرير مذهب هؤلاء، والاستقصاء فيه إنما يليق بأصول الفقه.

٧. ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ قال الواحدي (من) زائدة كقوله: ما جاء لي من أحد، وتقريره ما تركنا في الكتاب شيئا لم نبينه، وأقول: كلمة (من) للتبعيض فكان المعنى ما فرطنا في الكتاب بعض شيء يحتاج المكلف إليه، وهذا هو نهاية المبالغة في أنه تعالى ما ترك شيئا مما يحتاج المكلف إلى معرفته في هذا الكتاب.

٨. ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ فالمعنى أنه تعالى يحشر الدواب والطيور يوم القيامة، ويتأكد هذا بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥] وبما روي أن النبي ﷺ قال: (يقتص للجماء من القرناء) وللعقلاء فيه قولان:

أ. الأول: أنه تعالى يحشر البهائم والطيور لإيصال الأعواض إليها وهو قول المعتزلة ـ ومن وافقهم ـ وذلك لأن إيصال الآلام إليها من سبق جناية لا يحسن إلا للعوض، ولما كان إيصال العوض إليها واجبا، فالله تعالى يحشرها ليوصل تلك الأعواض إليها.

ب. الثاني: قول أهل السنة ـ ومن وافقهم ـ أن الإيجاب على الله تعالى محال، بل الله تعالى يحشرها بمجرد الإرادة والمشيئة ومقتضى الإلهية، واحتجوا على أن القول بوجوب العوض على الله تعالى محال باطل بمجموعة حجج:

• الأولى: أن الوجوب عبارة عن كونه مستلزما للذم عند الترك وكونه تعالى مستلزما للذم محال، لأنه تعالى كامل لذاته والكامل لذاته لا يعقل كونه مستلزما للذم بسبب أمر منفصل، لأن ما بالذات لا

يبطل عند عروض أمر من الخارج.

• الثانية: أنه تعالى مالك لكل المحدثات، والمالك يحسن تصرفه في ملك نفسه من غير حاجة إلى العوض.

• الثالثة: أنه لو حسن إيصال الضرر إلى الغير لأجل العوض، لوجب أن يحسن منا إيصال المضار إلى الغير لأجل التزام العوض من غير رضاه وذلك باطل، فثبت أن القول بالعوض باطل.

٩. بعض التفاريع التي ذكرها المعتزلة[١] ـ ومن وافقهم ـ في هذا الباب:

أ. الأول: قال القاضي: كل حيوان استحق العوض على الله تعالى بما لحقه من الآلام، وكان ذلك العوض لم يصل إليه في الدنيا، فإنه يجب على الله حشره عقلا في الآخرة ليوفر عليه ذلك العوض والذي لا يكون كذلك فإنه لا يجب حشره عقلا، إلا أنه تعالى أخبر أنه يحشر الكل، فمن حيث السمع يقطع بذلك، وإنما قلنا إن في الحيوانات من لا يستحق العوض ألبتة، لأنها ربما بقيت مدة حياتها مصونة عن الآلام، ثم إنه تعالى يميتها من غير إيلام أصلا، فإنه لم يثبت بالدليل أن الموت لا بدّ وأن يحصل معه شيء من الإيلام، وعلى هذا التقدير فإنه لا يستحق العوض ألبتة.

ب. الثاني: كل حيوان أذن الله تعالى في ذبحه فالعوض على الله، وهي أقسام: منها ما أذن في ذبحها لأجل الأكل ومنها ما أذن في ذبحها لأجل كونها مؤذية، مثل السباع العادية والحشرات المؤذية، ومنها آلمها بالأمراض، ومنها ما أذن الله في حمل الأحمال الثقيلة عليها واستعمالها في الأفعال الشاقة وأما إذا ظلمها الناس فذلك العوض على ذلك الظالم وإذا ظلم بعضها بعضا فذلك العوض على ذلك الظالم، سؤال وإشكال: إذا ذبح ما لا يؤكل لحمه على وجه التذكية فعلى من العوض؟ والجواب: أجاب القاضي بأن ذلك ظلم والعوض على الذابح، ولذلك نهى النبي ﷺ عن ذبح الحيوان إلا لمأكلة.

ج. الثالث: المراد من العوض منافع عظيمة بلغت في الجلالة والرفعة إلى حيث لو كانت هذه البهيمة عاقلة وعلمت أنه لا سبيل لها إلى تحصيل تلك المنفعة إلا بواسطة تحمل ذلك الذبح فإنها كانت ترضى به، فهذا هو العوض الذي لأجله يحسن الإيلام والإضرار.

---

(١) هذه التفاريع ذكرها القاضي

د. الرابع: مذهب القاضي وأكثر معتزلة البصرة أن العوض منقطع، قال القاضي: وهو قول أكثر المفسرين، لأنهم قالوا إنه تعالى بعد توفير العوض عليها يجعلها ترابا، وعند هذا يقول الكافر: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾، قال أبو القاسم البلخي: يجب أن يكون العوض دائما:

• احتج القاضي على قوله بأنه يحسن من الواحد منا أن يلتزم عملا شاقا والأجرة منقطعة، فعلمنا أن إيصال الألم إلى الغير غير مشروط بدوام الأجرة.

• واحتج البلخي على قوله، بأن قال إنه لا يمكن قطع ذلك العوض إلا بإماتة تلك البهيمة، وإماتتها توجب الألم وذلك الألم يوجب عوضا آخر، وهكذا إلى ما لا آخر له، والجواب: أنه لم يثبت بالدليل أن الإماتة لا يمكن تحصيلها إلا مع الإيلام.

هـ. الخامس: أن البهيمة إذا استحقت على بهيمة أخرى عوضا، فإن كانت البهيمة الظالمة قد استحقت عوضا على الله تعالى فإنه تعالى ينقل ذلك العوض إلى المظلوم، وإن لم يكن الأمر كذلك فالله تعالى يكمل ذلك العوض، فهذا مختصر من أحكام الأعواض على قول المعتزلة ـ ومن وافقهم ـ

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ تقدم معنى الدابة والقول فيه في (البقرة) وأصله الصفة، من دب يدب فهو داب إذا مشى مشيا فيه تقارب خطو، ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ بخفض ﴿طَائِرٍ﴾ عطفا على اللفظ، وقرأ الحسن وعبد الله بن أبي إسحاق ﴿وَلَا طَائِرٍ﴾ بالرفع عطفا على الموضع، و﴿مِنْ﴾ زائدة، التقدير: وما دابة.

٢. ﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾ تأكيد وإزالة للإبهام، فإن العرب تستعمل الطيران لغير الطائر، تقول للرجل: طرفي حاجتي، أي أسرع، فذكر ﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾ ليتمحض القول في الطير، وهو في غيره مجاز، وقيل: إن اعتدال جسد الطائر بين الجناحين يعينه على الطيران، ولو كان غير معتدل لكان يميل، فأعلمنا أن الطيران بالجناحين و﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللهُ﴾ [النحل]، والجناح أحد ناحيتي الطير الذي يتمكن به من الطيران في

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/ ٤١٩.

الهواء، وأصله الميل إلى ناحية من النواحي، ومنه جنحت السفينة إذا مالت إلى ناحية الأرض لاصقة بها فوقفت، وطائر الإنسان عمله، وفي التنزيل ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الاسراء]

٣. ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾:

أ. أي هم جماعات مثلكم في أن الله تعالى خلقهم، وتكفل بأرزاقهم، وعدل عليهم، فلا ينبغي أن تظلموهم، ولا تجاوزوا فيهم ما أمرتم به، ز﴿دَابَّةٍ﴾ تقع على جميع ما دب، وخص بالذكر ما في الأرض دون السماء لأنه الذي يعرفونه ويعاينونه.

ب. وقيل: هي أمثال لنا في التسبيح والدلالة، والمعنى: وما من دابة ولا طائر إلا وهو يسبح الله تعالى، ويدل على وحدانيته لو تأمل الكفار.

ج. وقال أبو هريرة: هي أمثال لنا على معنى أنه يحشر البهائم غدا ويقتص للجماء من القرناء ثم يقول الله لها: كوني ترابا، وهذا اختيار الزجاج فإنه قال: ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ في الخلق والرزق والموت والبعث والاقتصاص، وقد دخل فيه معنى القول الأول أيضا.

د. وقال سفيان بن عيينة: أي ما من صنف من الدواب والطير إلا في الناس شبه منه، فمنهم من يعدو كالأسد، ومنهم من يشره كالخنزير، ومنهم من يعوي كالكلب، ومنهم من يزهو كالطاوس، فهذا معنى المماثلة، واستحسن الخطابي هذا وقال: فإنك تعاشر البهائم والسباع فخذ حذرك.

هـ. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ أصناف لهن أسماء تعرف بها كما تعرفون.

و. وقيل غير هذا مما لا يصح من أنها مثلنا في المعرفة، وأنها تحشر وتنعم في الجنة، وتعوض من الآلام التي حلت بها في الدنيا وأن أهل الجنة يستأنسون بصورهم.

ز. والصحيح ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ في كونها مخلوقة دالة على الصانع محتاجة إليه مرزوقة من جهته، كما أن رزقكم على الله، وقول سفيان أيضا حسن، فإنه تشبيه واقع في الوجود.

٤. ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾:

أ. أي في اللوح المحفوظ فإنه أثبت فيه ما يقع من الحوادث.

ب. وقيل: أي في القرآن أي ما تركنا شيئا من أمر الدين إلا وقد دللنا عليه في القرآن، إما دلالة مبينة مشروحة، وإما مجملة يتلقى بيانها من الرسول ﷺ، أو من الإجماع، أو من القياس الذي ثبت بنص

الكتاب، قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل]، وقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل]، وقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر] فأجمل في هذه الآية وآية ﴿النَّحْلِ﴾ ما لم ينص عليه مما لم يذكره، فصدق خبر الله بأنه ما فرط في الكتاب من شي إلا ذكره، إما تفصيلا وإما تأصيلا، وقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة]

٥. ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾:

أ. أي للجزاء، كما سبق في خبر أبي هريرة، وفي صحيح مسلم عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لتودن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء)، ودل بهذا على أن البهائم تحشر يوم القيامة، وهذا قول أبي ذر وأبي هريرة والحسن وغيرهم.

ب. وروي عن ابن عباس، قال ابن عباس في رواية: حشر الدواب والطير موتها، وقاله الضحاك.

ج. الأول أصح لظاهر الآية والخبر الصحيح، وفي التنزيل ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير] وقول أبي هريرة فيما روى جعفر بن برقان عن يزيد ابن الأصم عنه: (يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة، البهائم والدواب والطير وكل شي، فيبلغ من عدل الله تعالى يومئذ أن يأخذ للجماء من القرناء ثم يقول: كوني ترابا) فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبأ: ٤٠]، وقال عطاء: فإذا رأوا بني آدم وما هم عليه من الجزع قلن: (الحمد لله الذي لم يجعلنا مثلكم، فلا جنة نرجو ولا نار نخاف، فيقول الله تعالى لهن: كن ترابا) فحينئذ يتمنى الكافر أن يكون تراب.

د. وقالت جماعة: هذا الحشر الذي في الآية يرجع إلى الكفار وما تخلل كلام معترض وإقامة حجج، وأما الحديث فالمقصود منه التمثيل على جهة تعظيم أمر الحساب والقصاص والاعتناء فيه حتى يفهم منه أنه لا بد لكل أحد منه، وأنه لا محيص له عنه، وعضدوا هذا بما في الحديث في غير الصحيح عن بعض رواته من الزيادة فقال: حتى يقاد للشاة الجلحاء من القرناء، وللحجر لما ركب على الحجر، وللعود لما خدش العود، قالوا: فظهر من هذا أن المقصود منه التمثيل المفيد للاعتبار والتهويل، لأن الجمادات لا يعقل خطابها ولا ثوابها ولا عقابها، ولم يصر إليه أحد من العقلاء، ومتخيله من جملة المعتوهين الأغبياء، قالوا: ولأن القلم لا يجري عليهم فلا يجوز أن يؤاخذوا.

هـ. الصحيح القول الأول لما ذكرناه من حديث أبي هريرة، وإن كان القلم لا يجري عليهم في الأحكام ولكن فيما بينهم يؤاخذون به، وروي عن أبي ذر قال: انتطحت شاتان عند النبي ﷺ فقال: (يا أبا ذر هل تدري فيما انتطحتا؟) قلت: لا، قال لكن الله تعالى يدري وسيقضي بينهما) وهذا نص، وقد زدناه بيانا في كتاب التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ الدابة: من دبّ يدبّ فهو دابّ: إذا مشى مشيا فيه تقارب خطو، وقد تقدّم بيان ذلك في البقرة ﴿وَلَا طَائِرٍ﴾ معطوف على ﴿دَابَّةٍ﴾ مجرور في قراءة الجمهور، وقرأ الحسن وعبد الله بن أبي إسحاق ﴿وَلَا طَائِرٍ﴾ بالرفع عطفا على موضع من دابة على تقدير زيادة من.

٢. ﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾ لدفع الإبهام، لأنّ العرب تستعمل الطّيران لغير الطير كقولهم: طر في حاجتي: أي أسرع، وقيل: إنّ اعتدال جسد الطائر بين الجناحين يعينه على الطيران، ومع عدم الاعتدال يميل، فأعلمنا سبحانه أن الطيران بالجناحين؛ وقيل: ذكر الجناحين للتأكيد كضرب بيده وأبصر بعينيه ونحو ذلك، والجناح: أحد ناحيتي الطير الذي يتمكن به من الطيران في الهواء، وأصله الميل إلى ناحية من النواحي، والمعنى: ما من دابة من الدواب التي تدبّ في أيّ مكان من أمكنة الأرض، ولا طائر يطير في أيّ ناحية من نواحيها.

٣. ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ أي جماعات مثلكم خلقهم الله كما خلقكم، ورزقهم كما رزقكم، داخلة تحت علمه وتقديره وإحاطته بكل شيء وقيل: أمثالنا في ذكر الله والدّلالة عليه، وقيل: أمثالنا في كونهم محشورين، وروي ذلك عن أبي هريرة، وقال سفيان ابن عيينة: أي ما من صنف من الدوابّ والطير إلا في الناس شبه منه، فمنهم من يعدو كالأسد، ومنهم من يشره كالخنزير، ومنهم من يعوي كالكلب، ومنهم من يزهو كالطاووس؛ وقيل: ﴿أَمْثَالَكُمْ﴾ في أن لها أسماء تعرف بها، وقال الزّجاج: ﴿أَمْثَالَكُمْ﴾ في الخلق

(١) فتح القدير: ٢/ ١٣١.

والرزق والموت والبعث والاقتصاص، والأولى: أن تحمل المماثلة على كل ما يمكن وجود شبه فيه كائنا ما كان.

٤. ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي ما أغفلنا عنه ولا ضيعنا فيه من شيء والمراد بالكتاب: اللوح المحفوظ، فإنّ الله أثبت فيه جميع الحوادث؛ وقيل: إنّ المراد به القرآن؛ أي ما تركنا في القرآن من شيء من أمر الدين إما تفصيلا أو إجمالا، ومثله قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾، وقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، ومن جملة ما أجمله في الكتاب العزيز قوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ فأمر في هذه الآية باتباع ما سنة رسول الله ﷺ، فكل حكم سنه الرسول لأمته قد ذكره الله سبحانه في كتابه العزيز، بهذه الآية وبنحو قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ وبقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، و﴿مِنَ﴾ في ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ مزيدة للاستغراق.

٥. ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ يعني الأمم المذكورة، وفيه دلالة على أنها تحشر كما يحشر بنو آدم، وقد ذهب إلى هذا جمع من العلماء، ومنهم أبو ذرّ وأبو هريرة والحسن وغيرهم، وذهب ابن عباس إلى أن حشرها موتها، وبه قال الضحاك، والأوّل أرجح للآية، ولما صح في السنة المطهرة من أنه يقاد يوم القيامة للشاة الجلحاء من الشاة القرناء، ولقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾، وذهبت طائفة من العلماء إلى أن المراد بالحشر المذكور في الآية حشر الكفار، وما تخلل كلام معترض، قالوا: وأما الحديث فالمقصود به التمثيل على جهة تعظيم أمر الحساب والقصاص، واستدلوا أيضا: بأن في هذا الحديث خارج الصحيح عن بعض الرواة زيادة، ولفظه (حتى يقاد للشاة الجلحاء من القرناء، وللحجر لم ركب على الحجر؟ والعود لم خدش العود؟) قالوا: والجمادات لا يعقل خطابها ولا ثوابها ولا عقابها.

أَطَّفَيِّش:

ذكر محمد أَطَّفَيِّش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. أشار الله تعالى إلى كمال قدرته على الإنزال وعلى كُلِّ شيء، وشمول علمه وتدبيره بقوله: ﴿وَمَا

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٤/ ٢٥٠.

مِن دَآبَّةٍ فِي الَارْضِ﴾ أي: وما من دَابَّة تمشي في الأرض، كما ذكر ﴿يَطِيرُ﴾ في مقابلها؛ وسواء علَّقنا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ بـ (تمشي) أو بـ (دَابَّة) أو بمحذوف نعت لـ (دَابَّة)، أي: ثابتة في الأرض، وذكر الأرض زيادة في الاستغراق، أي: في قطر مَّا من أقطار الأرض، وفي ظهرها وجوفها، وقال السكَّاكيُّ: (ذَكَرَ (فِي الَارْضِ) مع (دَآبَّةٍ) و(يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ) مع (طَآئِرٍ) لبيان أنَّ القصد بدابَّةٍ وطائرٍ الجنسان وتقريرهما)، ﴿وَلَا طَآئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ أي: في الهواء كما ذكر (فِي الَارْضِ) في مقابله، أي: في ناحية من نواحي الجوِّ، فلزيادة هذا الاستغراق ذكر (يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ)، وأيضًا ذكره لئلَّا يتوهَّم أنَّ المراد بالطيرانِ السرعةُ على التجوُّز.

٢. ﴿إِلَّآ أُمَمٌ﴾ خبر (دَابَّة)، ﴿اَمْثَالُكُم﴾ بمعنى أنَّ كلَّ نوع من أنواع الدوابِّ في الأرض، وكلَّ نوع من أنواع الطير هو أُمَّة قَدرَ اللهُ على إيجاده وإبقائه ورزقه وحفظه وأجله، وكيف لا يقدر على إنزال آية؟ وَمَعنَى المماثلة أنَّ سائر الحيوان مثلكم، فكما أقررتم على أنفسكم بجريان قضاء الله عليكم فكذا جرى على غيركم، وفي أنَّها تنسج كالعنكبوت، وتدَّخر كالنمل، وتعرف الله وتسبِّحه وتعبده، ويألف بعضها بعضًا، ويفهم بعض عن بعض، ويتعارف الذكر والأنثى، وَيَتَزَوَّجُ الطير في الربيع وتُبعث للحساب.

٣. وجمع الأمَّة لإرادة النوع كما رأيت، ولا يكفي أن تقول: جَمَعَ لأنَّ النكرة في سياق السلب تَعُمُّ؛ لأنَّ هذا بمجرَّده يفيد أنَّ كلَّ فردٍ أمَّةٌ، وليس كذلك، والمراد بالأرض ما ليس بجوٍّ، فشملت الماء، فدخل حيوان الماء، فتنقُّله في الماء كتنقُّل الحيوان في الأرض، كما أنَّها شاملة للجبال والشجر، وذكر الطائر مع أنَّه يدبُّ في الأرض لزيادته بالطيران، ولأنَّ من الطير ما خلق في الهواء، ولا ينزل للأرض، وألحق بعضهم الحوت بالطير إذ يسبَح في الماء كالطائر في الهواء، وذكر (بِجَنَاحَيْهِ) تأكيدًا، وقيل لئلَّا يتوهَّم أنَّ المراد بالطيران مطلق السرعة، [قلت] وهو توهُّم بعيد، مع أنَّه لا يقطع التوهُّم رأسًا، لجواز أن يكون ترشيحًا لطيران مستعار للسرعة، ولو عملنا بهذا التوهُّم انفتحت إليه كلُّ حقيقة فتدخل في المجاز، وقيل: ذكر (فِي الَارْضِ) و(يَطِيرُ) للدلالة على أنَّ المراد الاستغراق الكلِّيُّ لا عموم دوام أرض مخصوصة وطير جوٍّ مخصوص عمومًا عرفيًّا، وخصَّ الأرض دون السماء لأنَّها المشاهدة، ثمَّ إنَّه لو لم يشمل عمومها بعضًا لجاز لأنَّ المراد الدلالة على كمال القدرة ولو بذكر أحوال بعض الممكنات، ألا ترى أنَّه لم يذكر ما يدبُّ في السماوات؟

٤. ﴿مَا فَرَّطْنَا﴾ ضيَّعنا أو تركنا ﴿فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ ما ضيَّعنا شيئًا بترك كتابته في اللوح

المحفوظ، وسمِّي محفوظًا لأنَّه حُفظ عن الشيطان، ومن تغييره، ولا خفاء في العموم الحقيقيِّ (إلَّا أنَّه لا يشمل عموم أمور الآخرة لأنَّهَا لا تنقضي) بخلاف ما إذا فَسَّرنَا (الكتاب) بالقرآن، فالعموم فيه عرفيٌّ بحسب ما يحتاج إليه المُكَلَّف، إمَّا تفصيلاً وإمَّا إجمالاً يفصِّله على لسان رسول الله ﷺ ، أو بالقياس، أو بحسب الإيماء، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿فَاعْتَبِرُوا يَآ أُولِي الاَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢] ونحو هذا، فإنَّه إذْنٌ في القياس لأهله، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]، فإنَّه إشارة إلى الحديث، وقد قال ابن مسعود: (لعنت الواشمة والمستوشمة والواصلة والمستوصلة) في القرآن، فقالت امرأة: تلوته البارحة وليس فيه ذلك، فقال: (لعنهنَّ رسول الله ﷺ ، ومصداقه: ﴿وَمَآ ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧])، ولو شاء أجاب بقوله تعالى: ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ﴾ [النساء: ١١٩]، وقال الشافعيُّ في المسجد الحرام: لا تسألوني عن شيء إلَّا أجبتكم بكتاب الله تعالى ، فقال رجل: أيحلُّ للمحرم قتل الزنبور؟ فقال: نعم، قال ﷺ : (عليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء الراشدين من بعدي)، وذكر إسنادًا إلى عمر أنَّه قال: (للمحرم قتل الزنبور)، فذلك إجابة بالقرآن على ثلاث درجات، ولو شاء لأجاب بالقرآن بلا واسطة على مذهبه في: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ﴾ [المائدة: ٩٦]، والزنبور ليس صيدًا فليس مِمَّا حرِّم، ولو شاء لأجاب بقوله ﷺ : (اقتلوا كلَّ مؤذ في الحلِّ والحرم)، مع قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]، ففي القرآن كلُّ ما يحتاج إليه وزيادة، يَستخرجُ بعضَه مستخرِجُه بقوَّة فهمِه بإذن الله، ومنه: منعُ ضربِ القدمين بقوله تعالى: ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]، إذ كان إغراء بالأشدِّ في الهلاك، وعدَّى (فَرَّطَ) للمفعول لتضمُّنه معنى ضيَّع أو ترك أو أهمل، ويجوز أن يكون (شيء) مفعولا مطلقًا، أي: مَا فرطنا تفريطًا، فالعموم في التفريط لا في كُلِّ الأشياء ولا في الأمر المكلَّف به.

٥. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ أي: يحشرُ الأمم إلى رَبِّهم للجزاء، حتَّى يأخذ للجمَّاء من القرناء، ثمَّ يقول، لهم: كونوا ترابًا، وذكر الدوابَّ والطير بضمير العقلاء وهو (هم) والواو تغليبًا للعقلاء؛ وإن أريد بالدابَّة غير العقلاء فلإجرائها وإجراء الطير مجرى العقلاء في وجوه المماثلة المذكورة في قوله: ﴿أَمْثَالُكُمْ﴾، ومِن المماثلةِ حشرُها وحسابُها كما رأيتَ، ولفظ مسلم: (لتؤدُّون الحقوق إلى أهلها حتَّى يقاد للشاة الجماء من القرناء)، وليس هذا جزاء تكليف خلافًا لمن زعم أنَّ للحيوانات رسلاً منها، ولعلَّ منشأ ذلك التوهُّم من قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]، وذلك خطأ، ونسب للجاحظ وغيره، وأخطأ

من قال ذلك ومثلَه من تكليف الحيوانات ونحوه، وإنَّما يلهمها الله ما يشاء من تمييز، كصنعة النحل والعنكبوت، وأمَّا قوله ﷺ للأنصار إذ ازدحموا على زمام ناقته حين هاجر: (دعوها فإنَّها مأمورة)، فمعناه أنَّ زمامها في يد ملَك يجرُّها إلى موضع قضى الله تعالى بالنزول فيه وسكناه، ويسوقها ملك إليه، وإذا وصلته أناخها، أو إذا وصلته أبركها الله تعالى بالتكوين، وعن ابن عبَّاس : حشْرُ الحيواناتِ موتُها، وحمل الآيات على عموم العدل، رَدَّه حديث: (حتَّى يقاد للجمَّاء)، إلَّا أن يقال بالترشيح.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: مستقرة فيها، لا ترتفع عنها ﴿وَلَا طَائِرٍ﴾ يرتفع عنها إذ ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ أي: أصناف مصنفة في ضبط أحوالها، وعدم إهمال شيء منها، وتدبير شؤونها، وتقدير أرزاقها.

٢. ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ﴾ أي: ما تركنا، وما أغفلنا، في لوح القضاء المحفوظ، ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: جليل أو دقيق، فإنه مشتمل على ما يجري في العالم، لم يهمل فيه أمر شيء والمعنى: أن الجميع علمهم عند الله، لا ينسى واحدا منها من رزقه وتدبيره، كقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦]، أي: مفصح بأسمائها وأعدادها ومظانّها، وحاصر لحركاتها وسكناتها، ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ يعني: الأمم كلها، من الدوابّ والطير، فينصف بعضهم من بعض، حتى يبلغ من عدله أن يأخذ للجمّاء من القرناء، وإيراد ضميرها على صيغة جمع العقلاء، لإجرائها مجراهم.

٣. سؤال وإشكال: فما الغرض في ذكر ذلك؟ والجواب:

أ. قال الزمخشري: الدلالة على عظم قدرته، ولطف علمه، وسعة سلطانه، وتدبيره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس، المتكاثرة الأصناف، وهو حافظ لما لها وما عليها، مهيمن على أحوالها، لا يشغله شأن عن شأن، وأن المكلفين ليسوا بمخصوصين بذلك دون من عداهم من سائر الحيوان.

(١) تفسير القاسمي: ٤/ ٣٥١.

ب. وقال الرازي: المقصود أن عناية الله حاصلة لهذه الحيوانات، فلو كان إظهار آية ملجئة مصلحة، لأظهرها، فيكون كالدليل على أنه تعالى قادر على أن ينزل آية.

ج. وقال القاضي: إنه تعالى لما قدم ذكر الكفار، وبيّن أنهم يرجعون إلى الله ويحشرون، بيّن بعده بقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾.. إلخ، أن البعث حاصل في حق البهائم أيضا.

٤. زيادة (من) في قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ لتأكيد الاستغراق، و(في) متعلقة بمحذوف هو وصف لـ ﴿دَابَّةٍ﴾ مفيد لزيادة التعميم، كأنه قيل: وما فرد من أفراد الدواب يستقر في قطر من أقطار الأرض، وكذا زيادة الوصف في قوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾

٥. قال في الانتصاف: في وجه زيادة التعميم، أن موقع قوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ و﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ موقع الوصف العام ـ وصفة العام عامة ـ ضرورة المطابقة، فكأنه مع زيادة الصفة، تضافرت صفتان عامتان.

٦. سؤال وإشكال: كيف قيل (الأمم) مع إفراد الدابة والطائر؟ والجواب: قال الزمخشري: لمّا كان قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ﴾ دالا على معنى الاستغراق، ومغنيا عن أن يقال: وما من دوابّ ولا طير، حمل قوله: ﴿إِلَّا أُمَمٌ﴾ على المعنى.

٧. دلت الآية الكريمة على أن كل صنف من البهائم أمة، وجاء في الحديث: (لولا أن الكلاب أمة من الأمم، لأمرت بقتلها) رواه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن مغفل.

٨. ما ذكرناه في معنى مماثلة الأمم لنا، من تدبيره تعالى لأمورها، وتكفله برزقها، وعدم إغفال شيء منها، مما يبيّن شمول القدرة، وسعة العلم ـ هو الأظهر، موافقة لقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] الآية ـ والقرآن يفسر بعضه بعضا، ونقل الواحديّ عن ابن عباس أن المماثلة هي في معرفته تعالى، وتوحيده وتسبيحه وتحميده، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقوله: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٤١]، وعن أبي الدرداء قال: (أبهمت عقول البهائم عن كل شيء إلا عن أربعة أشياء: معرفة الإله، وطلب الرزق، ومعرفة الذكر والأنثى، وتهيؤ كل واحد منهما لصاحبه)، وقيل: المماثلة في أنها تحشر يوم القيامة كالناس.. ولا شك في صحة الوجهين بذاتها، وصدق المثلية فيهما، ولكن الحمل عليهما يبعده عدم ملاقاته للآية الأخرى، فالأمسّ، تأييدا

للنظائر، ما ذكرناه أولا.

٩. ما بيناه في معنى (الكتاب) من أنه اللوح المحفوظ في العرش، وعالم السموات المشتمل على جميع أحوال المخلوقات على التفصيل التام ـ هو الأظهر، لملاقاته للآية التي ذكرناها تأييدا للنظائر القرآنية، ولم يذكر ابن كثير سواه، على توسعه، وقيل: المراد منه القرآن كقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]:

أ. قال الخفاجيّ: قيل: حمله على القرآن لا يلائم ما قبله وما بعده، ويدفع بأن المعنى لم نترك شيئا من الحجج وغيرها إلا ذكرناه، فكيف يحتاج إلى آية أخرى مما اقترحوه، ويكذب بآياتنا؟ فالكلام بعضه آخذ بحجز بعض بلا شبهة.

ب. وقال أبو السعود: أي ما تركنا في القرآن شيئا من الأشياء المهمة التي من جملتها بيان أنه تعالى مراع لمصالح جميع مخلوقاته.

ج. قال الشهاب في قول البيضاوي (فإنه قد دوّن فيه ما يحتاج إليه من أمر الدين مفصلا أو مجملا): (يشير إلى أن ما ثبت بالأدلة الثلاثة ثابت بالقرآن، لإشارته بنحو قوله: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]، إلى القياس، وقوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]، إلى السنّة، بل قيل: إنه بهذه الطريقة يمكن استنباط جميع الأشياء منه، كما سأل بعض الملحدين بعضهم عن طبخ الحلوى، أين ذكر في القرآن؟ فقال: في قوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣])

د. واستظهر الرازي أن المراد (بالكتاب) القرآن، واحتج بأن الألف واللام إذا دخلا على الاسم المفرد، انصرف إلى المعهود السابق، والمعهود السابق من الكتاب عند المسلمين هو القرآن، فوجب أن يكون المراد من (الكتاب) في هذه الآية القرآن، إذا ثبت هذا، فلقائل أن يقول: كيف قال تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ مع أنه ليس فيه تفاصيل علم الطب، وتفاصيل علم الحساب، ولا تفاصيل كثير من المباحث والعلوم، وليس فيه أيضا تفاصيل مذاهب الناس ودلائلهم في علم الأصول والفروع[1]؟

١٠. وبالجملة، فالقرآن الكريم كلية الشريعة، والمجموع فيه أمور كليات، لأن الشريعة تمت بتمام

(١) سبق ذكر الإشكال وجوابه.

نزوله، فإذا نظرنا إلى رجوع الشريعة إلى كلياتها، وجدناها قد تضمنها القرآن على الكمال، وقد جوّد البحث في هذه المسألة المهمة، العلامة الشاطبيّ في (الموافقات) في الطرف الثاني، في الأدلة على التفصيل، فارجع إليه.

١١. قال أبو البقاء: ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ زائدة، و(شيء) هنا واقع موقع المصدر، أي: تفريطا، وعلى هذا التأويل لا يبقى في الآية حجة لمن ظن أن الكتاب يحتوي على ذكر كل شيء صريحا، ونظير ذلك: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠] أي ضررا، وقد ذكرنا له نظائر، ولا يجوز أن يكون ﴿شَيْئًا﴾ مفعولا به، لأن ﴿فَرَّطْنَا﴾ تتعدى بنفسها، بل بحرف الجر، وقد عديت بـ (في) إلى ﴿الْكِتَابِ﴾، فلا تتعدى بحرف آخر، ولا يصح أن يكون المعنى: ما تركنا في الكتاب من شيء لأن المعنى على خلافه، فبان أن التأويل ما ذكرنا.

١٢. وقال الخفاجي: التفريط التقصير، وأصله أن يتعدى بـ (في) وقد ضمن هنا معنى (أغفلنا وتركنا)، فـ ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ في موضع المفعول به، و﴿مِنَ﴾ زائدة، والمعنى: ما تركنا في الكتاب شيئا يحتاج إليه من دلائله الألوهية والتكاليف، هذا ما ارتضاه أبو حيان والزمخشريّ، وعدل عنه البيضاوي، لأنه لا يتعدى، فجعل التقدير (تفريطا) فحذف المصدر، وأقيم شيئا مقامه، وتبع فيه أبا البقاء، إذ اختار هذا، وأورد عليه في (الملتقط) أنه ليس كما ذكر، لأنه إذا تسلط النفي على المصدر، كان منفيا على جهة العموم، ويلزمه نفي أنواع المصدر، ونفي جميع أفراده، وليس بشيء لأنه يريد أن المعنى حينئذ: أن جميع أنواع التفريط منفية عن القرآن، وهو مما لا شبهة فيه، ولا يلزمه أن يذكر فيه كل شيء كما لزم على الوجه الآخر، حتى يحتاج إلى التأويل، كما أن نفي تعديه لا يضر من قال إنه مفعول به على التضمين، كما مر، وأما ما قيل: إن (فرط) يتعدى بنفسه، لما وقع في القاموس (فرط الشيء وفرط فيه تفريطا ضيعه وقدم العجز فيه وقصر) فلا نسلم أنه يتعدى بنفسه، وتفرد صاحب القاموس بأمر، لا يسمع في مقابلة الزمخشري وغيره، مع أنه يحتمل أن تعديته المذكورة فيه ليست وضعية، بل مجازية، أو بطريق التضمين)

١٣. ما للمجد في القاموس، ليس من تفرداته وعندياته، إذ اللغة مرجعها السماع، لا الاجتهاد، وموازنته بين الزمخشريّ وغيره، من باب معرفة الحق بالرجال، الذي الصواب عكسه، على أنه ليس في (الكشاف) ما يقتضي ما زعمه، وقد استشهد شارح القاموس، الزبيديّ شاهدا على تعديته بنفسه، تأييدا

لكلام المجد، قول صخر الغي:

ذلك بزّي فلن أفرّطه   أخاف أن ينجزوا الذي وعدوا

قال ابن سيده: يقول، لا أضيعه، وقوله: بزي، أراد سلاحي، ثم قال الزبيديّ: وقال أبو عمرو: فرطتك في كذا وكذا، أي تركتك، وبه فسر أيضا قول صخر.

١٤. وأنشد أبو السعود قول ساعدة بن جؤيّة: (معه سقاء لا يفرّط حمله) أي: لا يتركه، وبه يعلم سقوط ما لأبي البقاء، وسقوط دعوى أن أصله أن يتعدى بـ (في) ودعوى التضمين السابقة، وتكليف كون ﴿شَيْءٍ﴾ واقعا موقع المصدر، هذا وقرئ فرطنا بالتخفيف، وهو بمعنى المشدّد، وإنما توسعنا فيما روي على القول الثاني في معنى الكتاب، لشهرة الآية في هذا المعنى، وإن كان الأظهر الأول، لما ذكرناه، ولأن السورة مكية، والأحكام فيها لم تتم.

١٥. دلت الآية الكريمة على حشر الدوابّ والبهائم والطير كلها، أي: بعثها يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]:

أ. روى أحمد عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ (رأي شاتين تنتطحان)، فقال: (يا أبا ذر! هل تدري فيم تنتطحان؟ قال لا، قال لكن الله يدري، وسيقضي بينهما)، ورواه عبد الرازق وابن جرير، وزاد: ولقد تركنا رسول الله ﷺ، وما يقلّب طائر جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علما.

ب. روى عبد الله ابن أحمد في مسند أبيه عن عثمان أن رسول الله ﷺ قال: إن الجماء لتقصّ من القرناء يوم القيامة.

ج. روى عبد الرازق عن أبي هريرة في هذه الآية قال: يحشر الخلق كلهم يوم القيامة: الدوابّ والبهائم والطير وكل شيء فيبلغ من عدل الله يومئذ أن يأخذ للجماء من القرناء، ثم يقول: كوني ترابا! فلذلك يقول الكافر: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾، وقد روي هذا مرفوعا في حديث الصور، أفاده ابن كثير.

د. روى أحمد، والبخاري في (الأدب المفرد) ومسلم والترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (لتؤدنّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء، من الشاة القرناء، تنطحها)

هـ. وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة عن ابن عباس في الآية قال: حشرها الموت، وروي عن مجاهد والضحاك مثله، والأول أظهر.

١٦. (في الإكليل): استدلّ بهذه الآية على مسألة أخرى، أخرجه أبو الشيخ عن أنس أنه سئل: من يقبض أرواح البهائم؟ قال: ملك الموت، فبلغ الحسن فقال: صدق! وإن ذلك في كتاب الله، ثم تلا هذه الآية؟

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. في علاقة الآية الكريمة بما قبلها:

أ. إن هاتين الآيتين مؤيدتان لما قبلهما ومتممتان له، فإنه بين في الآيات قبلهما أن الظالمين من مشركي مكة جحدوا بآيات الله جحود عناد لا تكذيب، وضرب لهم مثل الذين كذبوا الرسل من قبل ولم يهتدوا بما أوتوا من الآيات المقترحة ولا غيرها، بعد هذا بين في هاتين الآيتين أنواعا من آياته تعالى في أنواع الحيوان، وأن المكذبين بآيات الله لم يهتدوا بها، بل ظلوا في ظلمات جهلهم حتى كأنهم لم يروها ولم يسمعوا بها.

ب. وذكر الرازي في وجه النظم ومناسبة الآية الأولى لما قبلها وجهين:

• الْأَول: أنه تعالى بين في الآية الأولى أنه لو كان إنزال سائر المعجزات مصلحة لفعلها ولأظهرها، إلا أنه لما لم يكن إظهارها مصلحة للمكلفين لا جرم ما أظهرها، وهذا الجواب إنما يتم إذا ثبت أنه تعالى يراعي مصالح المكلفين، ويتفضل عليهم بذلك، فبين أن الأمر كذلك، وقرره بأن قال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ في وصول فضل الله وعنايته ورحمته وإحسانه إليهم، وذلك كالأمر المشاهد المحسوس، فإذا كانت آثار عنايته واصلة إلى جميع الحيوانات، فلو كان في إظهار هذه المعجزات القاهرة مصلحة للمكلفين لفعلها ولأظهرها، ولامتنع أن يبخل بها، مع ما ظهر أنه لم يبخل على شيء من الحيوانات بمها ومنافعها، وذلك يدل على أنه تعالى إنما لم يظهر تلك المعجزات؛ لأن إظهارها يخل بمصالح المكلفين، فهذا هو وجه النظم والمناسبة بين هذه الآية وبين ما قبلها.

• الثاني: قال القاضي: إنه تعالى لما قدم ذكر الكفار وبين أنهم يرجعون إلى الله ويحشرون، بين أيضا

---

(١) تفسير المنار: ٧/ ٣٢٥

بعده بقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ في أنهم يحشرون والمقصود بيان أن الحشر والبعث كما هو حاصل في حق الناس فهو أيضا حاصل في حق البهائم.

ج. القارئ يرى أن الوجه الثاني الذي اعتمده القاضي من كبار مفسري المعتزلة ليس مبنيا على مسألة خاصة بهم، وأما الوجه الأول الذي اعتمده الرازي من كبار مفسري الأشعرية ومتكلميهم فهو مبني على مذهب المعتزلة وفريق من أهل السنة دون الأشعرية في رعاية مصلحة المكلفين في أحكام الباري تعالى وأفعاله المتعلقة بشئونهم، والرازي قد أثبت المصلحة هنا وفي مواضع أخرى، ولكنه كثيرا ما يردها أو يرد ما بني عليها، والذي عليه المحققون أن مسألة الصلاح والأصلح ثابتة لا ريب فيها، وأن الخطأ والضلال إنما هو في قولهم: إن ذلك واجب عليه سبحانه وتعالى، وليس عندنا نقل صحيح صريح عن المعتزلة في ذلك، ونقل المخالف لا يعتد به كما قال الفقهاء، وإنما يقال في كل ما ثبت له من صفات الكمال وما تتعلق به من الأفعال المطردة أنها واجبة له عليه؛ لأنه سبحانه هو الأعلى، فلا يعلوا عليه شيء من شيء، ومذهب الأشعرية أن مراعاة المصلحة ليس من الكمال الواجب له تعالى، ويحتجون على ذلك بأمراض الأطفال والبهائم، وفي هذه الحجة بحث لا محل له هنا، وقد أشار الرازي بقوله: (ويتفضل عليهم بذلك) إلى أن مراعاة المصلحة تفضل لا يجب اطراده، فهو مما يجوز في حقه لا مما يجب في حقه تعالى.

د. وقال أبو السعود في أول تفسير الآية: (كلام مستأنف مسوق لبيان كمال قدرته عز وجل وشمول علمه وسعة تدبيره ليكون كالدليل على أنه تعالى قادر على تنزيل الآية، وإنما لا ينزلها محافظة على الحكم البالغة)، ونقل الألوسي مثله عن الطبرسي، وقد أخذه أبو السعود من البيضاوي.

٢. ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ (الدابة) ما يدب على الأرض من الحيوان، والدب والدبيب المشي الخفيف ـ زاد بعضهم ـ مع تقارب الخطو، و(الطائر) كل ذي جناح يسبح في الهواء وجمعه طير، كراكب وركب و﴿الْأُمَمِ﴾ جمع أمة، وهي الجيل أو الجنس من الأحياء، وهذا أحد معاني اللفظ، وقال الراغب: (الأمة كل جماعة يجمعهم أمر ما؛ إما دين واحد أو زمان واحد أو مكان واحد سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيرا أو اختيارا، وجمعها أمم)، وذكر بعده الآية وكان ينبغي أن يزيد: أو صفات وأفعال واحدة.

٣. والمعنى أنه لا يوجد نوع ما من أنواع الأحياء التي تدب على الأرض ولا من أنواع الطير التي

تسبح في الهواء إلا وهي أمم مماثلة لكم أيها الناس:

أ. كما يقول العالم بالنبات: ما من شجرة قامت على ساقها وتشعبت في الهواء أغصانها، ولا نجم نبت في هذه الأرض إلا فصائل لها صفات وخواص مشتركة يمتاز بها بعضها عن بعض، فالدابة والطائر هنا مفرد اللفظ مراد به الجنس اللغوي؛ تقول: طائر الحمام وطائر النحل، ودابة الحمير ودابة الأرض، كما تقول: شجرة التين وشجرة الزقوم، وناهيك بوصف الدابة بكونها في الأرض.

ب. ووصف الطائر بكونه يطير بجناحيه فهو يشعر بذلك وإن كان في وصف الطائر بما ذكر تنصيص على الحقيقة، وسد لطريق المجاز، فقد تجوزوا بالطيران عن السرعة، كما قال الحماسي:

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم   طاروا إليه زرافات ووحدانا

ولاحتمال التجوز بدون القيد المذكور مناسبة قوية وهي عطف الطائر على الدابة إذ هي من الدب الذي هو المشي الخفيف كما تقدم، ويقابله السريع الذي يشبه بالطيران، وذكر بعضهم لوصف الطائر بما ذكر نكتة أخرى وهي تصوير هيئة الطيران الغريبة الدالة على قدرة الباري وحكمته لذهن السامع والقارئ، وهو حسن لا ينافي ما تقدم، ولا تزاحم بين النكت المتفقة، ولا بين الحكم المؤتلفة، ويرى الكثيرون أنه لا مانع من جعل كلمتي دابة وطائر على أصل معناهما وهو الدلالة في سياق النفي على استغراق الأفراد، وإنما أخبر عنها بالأمم باعتبار الحمل على معنى الجمعية المستفاد من العموم.

ج. وأما السمك فهو أقرب إلى الطير منه إلى الدواب، وله أجنحة قد تسمى الزعانف أكثرها صغير، ومنها ما هو كبير كجناح الخفاش، وهو يطير في الماء غالبا وعلى سطحه أحيانا، وقد يسف إلى قاعه فيلاصق أرضه في سيره فيكون أشبه بالزاحف منه بالطائر، ولعل حكمة ترك التصريح به قلة من كان يراه ممن نزلت السورة في مخاطبتهم قبل كل أحد بالدعوة إلى الإسلام وإقامة الدلائل عليهم وهم مشركو مكة، ولمثل هذا المعنى خص دواب الأرض بالذكر؛ لأنها هي التي يراها المخاطبون عامة، ويدركون فيها معنى المماثلة دون دواب الأجرام السماوية، القابلة للحياة الحيوانية، التي أعلمنا بوجودها في قوله ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ فهي قد ذكرت هنا بالتبع لذكر خلق السماوات والأرض، فكان الإعلام بها نافلة وفائدة زائدة على ما يقوم به دليل الآية، وهي من أخبار عالم الغيب وردت بعبارة تشعر بما يدل عليها من القياس على عالم الشهادة، وإنما تظهر صحة هذا

القياس حتى لغير المؤمن بالقرآن بعد البحث وسعة العلم بالهيئة الفلكية، وقد علم أهل هذا العلم من المتأخرين أن بعض هذه الكواكب (كالمريخ) فيه ماء ونبات[١]، فلا بد أن يكون فيه أنواع من الحيوان، بل فيه أمارات على وجود عالم اجتماعي صناعي كالإنسان، منها ما يرى على سطحه بالمرآة المقربة (المرقب ـ التلسكوب) من الجداول المنظمة والخلجان.

٤. فالآية التي نفسرها ترشدنا بهذا وبوصف أنواع الحيوان بأنها أمم أمثالنا إلى البحث في طبائع الأحياء لنزداد علما بسنن الله تعالى وأسراره في خلقه، ونزداد بآياته فيها إيمانا وحكمة وحضارة وكمالا، ونعتبر بحال المكذبين بها الذين لم يستفيدوا مما فضلهم الله به على الحيوان شيئا فكانوا أضل من جميع أنواعه التي لا تجني على نفسها ما يجنيه الكافر على نفسه.

٥. وقد اختلف المفسرون في وجه المماثلة بين الدواب والطير وبين الإنسان، ففي الدر المنثور عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ قال: أصنافا مصنفة تعرف بأسمائها، وعن قتادة: الطير أمة والإنس أمة والجن أمة، وعن السدي: خلق أمثالكم، فالأولان على أن المماثلة بالصفات المشتركة التي يتميز بها بعض الأنواع والأصناف عن بعض، وهي التي نسميها المقومات والمشخصات، والثالث: على أن المماثلة في أصل الخلق، أي كونها مخلوقة مثلنا، ويتبع ذلك ما يلازمه من حكمة الله وتدبيره فينا وفيها، ونقل الواحدي عن ابن عباس أن المراد بالمماثلة أنها تعرف الله وتوحده وتسبحه وتحمده كما يفعل المؤمنون منا، وتوسع بعض الصوفية في هذا وما قبله، فقالوا: إنها عاقلة ومكلفة، وأن لها رسلا منها، وقيل: إن المماثلة إحصاء الكتاب لجميع الأحوال المتعلقة بحياتها وموتها كالبشر، وقيل: إنها بحشر الله تعالى إياها كما يحشرنا، وحسابه لها كما يحاسبنا، واختار الرازي أنها بعناية الله تعالى ورحمته بها وفضله عليها، كما تقدم في وجه النظر ومناسبة الآية لما قبلها، ونقل عن سفيان بن عيينة أنه لما قرأ الآية قال: (ما في الأرض آدمي إلا وفيه شبه من بعض البهائم فمنهم من يقدم إقدام الأسد، ومنهم من يعدو عدو الذئب، ومنهم من ينبح نباح الكلب، ومنهم من يتطوس (أي يتزين) كفعل الطاووس، ومنهم من يشبه الخنزير؛ فإنه لو ألقي إليه الطعام الطيب تركه، وإذا قام الرجل عن رجيعه ولغ فيه، فكذلك نجد من الآدميين من لو سمع خمسين

---

(١) هذه المعلومات ثبت أنها غير صحيحة، ولا علاقة لما ذكره بالآية الكريمة

حكمة لم يحفظ واحدة منها، فإن أخطأت مرة واحدة حفظها ولم يجلس مجلسا إلا رواه عنك ـ ثم قال ـ فاعلم يا أخي أنك إنما تعاشر البهائم والسباع، فبالغ في الحذار والاحتراز)، وهذا القول ـ إذا صح دخوله في ضمن الصفات الحيوانية المشتركة بين الإنسان والحيوان ـ لا يصح أن يكون هو المراد من الآية، وإن جعل الخطاب بها للمشركين خاصة؛ لأن السياق هنا ليس لتحذرهم شر الناس بل لبيان عدم استعمال عقولهم وحواسهم في آيات الله كقوله: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ وقوله: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾

٦. والمختار عندنا أن الله تعالى أرشدنا إلى أن أنواع الحيوان أمم أمثال الناس، ولم يبين لنا وجه المماثلة بينهما؛ لأجل أن نستعمل حواسنا وعقولنا في البحث الموصل إلى ذلك كما قلنا آنفا، وللمماثلة وجوه كثيرة اهتدى بعض العلماء إلى بعضها، ويجوز أن يهتدي غيرهم إلى غير ما اهتدوا إليه، ولا سيما في هذا العصر الذي كثر فيه الأخصائيون في كل علم وفن وتيسرت فيه أسباب البحث، إذ يوجد في بلاد العلم والحضارة بساتين لتربية أنواع السباع والحشرات والبهائم الوحشية والآنسة والطير والسمك، فالعلماء الذين يعنون بتربيتها ودرس غرائزها وطباعها وأعمالها في تلك البساتين وفي غيرها قد وصلوا إلى علم جم، ووقفوا على أسرار غريبة، ومما ثبت من مشابهة النمل للناس أنه يغزو بعضه بعضا، وأن المنتصر يسترق المنكسر، ويسخره في حمل قوته وبناء قراه، وغير ذلك، وقد صارت أمم العلم والحضارة تحرص على بقاء كل نوع من أنواع الحيوان، فإذا رأت بعض ما يصاد من الطير وغيرها قل في بلادها وخشي انقراضه منها تحرم على الناس صيده، ولهذا العمل أصل في السنة عندنا، فقد روي أن النبي ﷺ كان أحب أن تقتل الكلاب في المدينة لمثل السبب الذي تقتل به حكومة مصر وغيرها الكلاب الضالة، بل كان أمر بذلك ثم نهى عنه وقال: (لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها كلها، فاقتلوا منها الأسود البهيم) رواه أحمد وأصحاب السنن، وصححه الترمذي عن عبد الله بن مغفل، وعلل قتل الكلب الأسود البهيم في حديث آخر عند أحمد ومسلم بأنه شيطان، أي ضار مؤذ، فإن اسم الشيطان يطلق لغة على العارم الخبيث من الإنس والجن والحيوان، وقد سأل المنصور العباسي عمرو بن عبيد عن سبب هذا الحديث فلم يعرف، فقال المنصور: لأنه ينبح الضيف، ويروع السائل.

٧. ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ التفريط في الأمر التقصير فيه وتضييعه حتى يفوت ـ كما في

الصحاح ـ ويقال: فرطه وفرط فيه كما في القاموس ولسان العرب، ومنه قول صخر الغي: (وذلك بزي فلن أفرطه) البز هنا السلاح، ويقال: فرط فلانا ـ إذا تركه وتقدمه، روي عن ابن عباس تفسير الكتاب هنا بأم الكتاب، وفسروا أم الكتاب بأنه أصله وجملته، وقالوا: إنه اللوح المحفوظ، وهو خلق من عالم الغيب أثبت الله تعالى فيه مقادير الخلق ما كان منها وما يكون بحسب النظام المعبر عنه بالسنن الإلهية، ومنهم من يفسر الكتاب هنا ـ وكذا أم الكتاب في آيتي الرعد والزخرف ـ بالعلم الإلهي المحيط بكل شيء، شبه بالكتاب بكونه ثابتا لا يسنى، وقال بعضهم: إن المراد بالكتاب هنا القرآن، ولا يصح أن يكون القرآن أم الكتاب؛ لأن أم الكتاب شامل له ولغيره من كتب الله تعالى ومن مقادير خلقه، قال تعالى بعد ذكر القرآن في أول الزخرف: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾

٨. ومعنى الجملة: ما تركنا في الكتاب شيئا لم نثبته فيه تقصيرا وإهمالا، بل أحصينا فيه كل شيء أو جعلناه تبيانا لكل شيء، فإذا أريد بالكتاب العلم الإلهي أو اللوح المحفوظ فالاستغراق على ظاهره، وإذا أريد به القرآن فالمراد بقوله: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ ـ الدال على العموم ـ الشيء الذي هو من موضوع الدين الذي يرسل به الرسل وينزل به الكتب وهو الهداية؛ لأن العموم في كل شيء بحسبه، أي ما تركنا في الكتاب شيئا، ما من ضروب الهداية التي ترسل الرسل لأجلها إلا وقد بيناه فيه، وهي أصول الدين وقواعده وأحكامه وحكمها، والإرشاد إلى استعمال القوى البدنية والعقلية في الاستفادة من تسخير الله كل شيء للإنسان، ومراعاة سننه تعالى في خلقه التي يتم بها الكمال المدني والعقلي، فالقرآن قد بين ذلك كله بالنص أو الفحوى، ومنه ما أرشد إليه هنا في علم الحيوان الذي يهدي إلى كمال المعرفة والإيمان، وقد بينا وجه اشتمال الكتاب على جميع أمر الدين في تفسير ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، وتفسير ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾

٩. من الناس من قال: إن القرآن قد حوى علوم الأكوان كلها، وأن الشيخ محيي الدين بن العربي وقع عن حماره فرضت رجله فلم يأذن للناس بحمله إلا بعد أن استخرج حادثة وقوعه ورض رجله من (سورة الفاتحة)، وهذا القول لم يقل به أحد من الصحابة، ولا علماء التابعين، ولا غيرهم من علماء السلف الصالحين، ولا يقبله أحد من الناس إلا من يرون أن كل ما كتبه الميتون في كتبهم حق وإن كان لا يقبله عقل، ولا يهدي إليه نقل، ولا تدل عليه اللغة، بل قال أئمة السلف: إن القرآن لا يشتمل على جميع فروع

أحكام العبادات الضرورية بدلالة النص ولا الفحوى، وإنما أثبت وجوب اتباع الرسول فصار دالا على كل ما ثبت في السنة، وأثبت قواعد القياس الصحيح وقواعد أخرى، فصار مشتملا على جميع فروعها وجزئياتها، ولا يخرج شيء من الدين عنها، وأن قبول الناس للخرافة المروية عن ابن العربي هي التي جرأت مثل مسيح الهند أحمد القادياني على ذلك التفسير الذي فسر به الفاتحة وزعم أنه معجزته الدالة على كونه هو المسيح المنتظر، وكله لغو وهذيان، ومن أغربه زعمه أن اسم الرحمن في الفاتحة دليل على بعثة خاتم الرسل محمد ﷺ واسم الرحيم دليل على بعثته هو.

١٠. ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ أي ثم يبعث أولئك الأمم من الناس والحيوان يوم القيامة ويساقون مجتمعين إلى ربهم المالك لأمرهم لا إلى غيره، فيحاسب كلا على ما فعل، ويقتص للمظلوم ممن ظلم، وإنما حسن عود ضميري الغيبة في ربهم وفي يحشرون إلى الدواب والطير والناس جميعا؛ لأنه خبر من الله تعالى عطف على خطاب الناس وغلب فيه ضمير الأشرف، وإذا جعل من جملة الخطاب تعين رجوع الضميرين إلى الدواب والطير، ونكتة جعلهما من ضمائر العقلاء حينئذ تشبيه أممهما بأمم البشر، وذلك إجراء لهما مجرى العقلاء ويؤيد حشر تلك الأمم كلها:

أ. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾

ب. وحديث أبي ذر عند أحمد وعبد الرزاق وابن جرير (أن رسول الله ﷺ رأى عنزين ينتطحان، فقال: يا أبا ذر، هل تدري فيم ينتطحان؟ قال: لا، قال: لكن الله يدري وسيقضي بينهما) وفي رواية (أتدرون فيم انتطحا؟ قلنا: لا) وزاد في رواية ابن جرير عن أبي ذر: ولقد تركنا رسول الله ﷺ وما يقلب طائر جناحيه إلا ذكر لنا منه علما، والحديث مروي من طريق منذر الثوري وهو ثقة، ولكن رواه أحمد عن شيوخ لم يسمعوا، وفيه حجة على كون علم الحيوان من علم الهداية المشروعة في الإسلام لما ذكرنا من فائدته آنفا.

ج. وروى البيهقي في شعب الإيمان والخطيب في تالي التلخيص وابن عساكر عن عبيد الله بن أبي زيادة البكري قال: دخلت على ابني بشر المازنيين صاحبي رسول الله ﷺ فقلت: يرحمكما الله، الرجل منا يركب الدابة فيضربها بالسوط أو يكبحها باللجام، فهل سمعتما من رسول الله ﷺ في ذلك شيئا؟ فقالا: لا، قال عبيد الله: فنادتني امرأة من الداخل، فقلت له: يا هذا، إن الله يقول في كتابه ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ﴾ الآية، فقالا هذه أختنا، وهي أكبر منا، وقد أدركت رسول الله ﷺ، فهذه الصحابية

استدلت بالآية على وجوب الرفق والرحمة بالدواب وغيرها من الحيوان، وأنه تعالى يحاسب الناس على ظلمهم لها يوم يحشرهم إليه جميعا.

د. ويؤيده ما ورد في ذلك من الأحاديث كحديث (ما من إنسان يقتل عصفورا فما فوقها بغير حقها إلا سأله الله عز وجل عنها يوم القيامة) وذكر أن حقها أكلها، رواه النسائي والحاكم وصححه.

هـ. وفي معناه حديث آخر عند النسائي وابن حبان في صحيحه، وحديث (إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته) رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن الأربعة من حديث شداد بن أوس مرفوعا.

و. وأخرج رواة التفسير المأثور والحاكم وصححه عن أبي هريرة في تفسير الآية (إن الله يحشر هذه الأمم يوم القيامة ويقتص لبعضها من بعض حتى يقتص للجلحاء من ذات القرن) وفي رواية (للجماء من القرناء) وغلط الألوسي فعزاه إلى حديث الصحيحين.

ز. ولكن روى مسلم والترمذي عنه مرفوعا (لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء)

ح. ونقل عن المعتزلة أن العقل يدل على وجوب إعادة الحيوان كالإنسان للتعويض على كل، لا لمحض العقاب على الجناية، فكل حي أصابه ألم يجب أن ينال عوضا عنه، فإذا كان الألم بفعل الله أو بشرعه كالذي يذبح ليؤكل أو يقتل اتقاء ضرره فالله يعوضه عن ذلك.

ط. وروى ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ قال: موت البهائم حشرها، وفي لفظ قال: يعني بالحشر الموت، قال السيد الألوسي: ومراده على ما قيل إن قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾: مجموعه مستعار على سبيل التمثيل للموت، كما ورد في الحديث (من مات فقد قامت قيامته) فلا يرد عليه أن الحشر بعث من مكان إلى آخر، وتعديته بإلى تنصيص على أنه لم يرد به الموت مع أن الموت أيضا نقل من الدنيا إلى الآخرة، وصوب ابن جرير أن المراد الحشران جميعا حشر الموت وحشر البعث، وعلله بأن الحشر في كلام العرب: الجمع، وهو يشملها، ولا مرجع لأحدهما من كتاب ولا سنة، هذا محصل قوله، والصواب أن الحشر جمع وبعث، أو كما قال الراغب: إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم إلى الحرب ونحوها، ففيه معنى الجمع؛ لأنه لا يطلق على الواحد، ومعنى الحشر

بالموت: سوق الأحياء إليه حتى يكون هو غايتهم.

١١. أحسن ما قاله ابن جرير في تفسير الآية بيان وجه العبرة والموعظة فيها، قال: يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ قل لهؤلاء المعرضين عنك المكذبين بآيات الله: أيها القوم، لا تحسبن الله غافلا عما تعملون، أو أنه غير مجازيكم على ما تكسبون، وكيف يغفل عن أعمالكم، أو يترك مجازاتكم، وهو غير غافل عن عمل شيء دب على الأرض صغيرا أو كبيرا، ولا عمل طائر طار بجناحيه في الهواء، بل جعل ذلك كله أجناسا مجنسة، وأصنافا مصنفة، تعرف كما تعرفون، وتتصرف فيما سخرت له كما تتصرفون، ومحفوظ عليها ما عملت من عمل لها وعليها، ومثبت كل ذلك من أعمالها في أم الكتاب، ثم إنه ـ تعالى ذكره ـ مميتها، ثم منشرها ومجازيها يوم القيامة جزاء أعمالها، يقول: فالرب الذي لم يضيع حفظ البهائم والدواب في الأرض، والطير في الهواء حتى حفظ عليها حركاتها وأفعالها، وأثبت ذلك منها في أم الكتاب، وحشرها ثم جازاها على ما سلف منها في دار البلاء، أحرى ألا يضيع أعمالكم ولا يفرط في حفظ أفعالكم التي تجترحونها أيها الناس حتى يحشركم فيجازيكم على جميعها؛ إن خيرا فخير وإن شرا فشر؛ إذ كان قد خصكم من نعمه، وبسط عليكم من فضله ما لا يعم غيركم في الدنيا، وكنتم بشكره أحق وبمعرفة واجبه عليكم أولى، لما أعطاكم من العقل الذي به بين الأشياء تميزون، والفهم الذي لم يعطه البهائم والطير الذي به بين مصالحكم ومضاركم تفرقون.

١٢. مسائل مستنبطة من الآية منقولة عن (روح المعاني) للألوسي وتقدم ذكر بعضها:

أ. الاستدلال بها على التناسخ: قال الألوسي بعد تفسير الآية: هذا ورسالة في المعاد لأبي علي: قال المعترفون بالشريعة من أهل التناسخ: إن هذه الآية دليل عليه؛ لأنه سبحانه قال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾، وفيه الحكم بأن الحيوانات الغير الناطقة أمثالنا وليسوا أمثالنا بالفعل، فيتعين كونهم أمثالنا بالقوة ضرورة صدق هذا الحكم وعدم الواسطة بين الفعل والقوة، وحينئذ لا بد من القول بحلول النفس الإنسانية في شيء من تلك الحيوانات وهو التناسخ المطلوب، ولا يخفى أنه دليل كاسد على مذهب فاسد.

ب. البهائم والنفوس ناطقة: ومن الناس من جعلها دليلا على أن للحيوانات بأسرها نفوسا ناطقة كما لأفراد الإنسان، وإليه ذهب الصوفية وبعض الحكماء الإسلاميين، وأورد الشعراني في (الجواهر والدرر) لذلك أدلة غير ما ذكر:

• منها: أنه ﷺ لما هاجر وتعرض كل من الأنصار لزمام ناقته قال عليه الصلاة والسلام: (دعوها فإنها مأمورة) ووجه الاستدلال بذلك أنه ﷺ أخبر أن الناقة مأمورة، ولا يعقل الأمر إلا من له نفس ناطقة، وإذا ثبت أن للناقة نفسا كذلك ثبت للغير، إذ لا قائل بالفرق،

• منها: ما يشاهد في النحل وصنعتها أقراص الشمع، والعناكب واحتيالها لصيد الذباب، والنمل وادخاره لقوته على وجه لا يفسد معه ما ادخره، وأورد بعضهم دليلا لذلك أيضا: النملة التي كلمت سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ بما قص الله تعالى لنا عنها مما لا يهتدي إلى ما فيه إلا العالمون، وخوف الشاة من ذئب لم تشاهد فعله قبل، فإن ذلك لا يكون إلا عن استدلال، وهو شأن ذوي النفوس الناطقة، وعدم افتراس الأسد المعلم مثلا صاحبه، فإن ذلك دليل على اعتقاد النفع ومعرفة الحسن وهو من شأن ذوي النفوس.

ج. القول بتكليف البهائم: وأغرب من هذا دعوى الصوفية ونقله الشعراني عن شيخه علي الخواص أن الحيوانات مخاطبة مكلفة من عند الله تعالى من حيث لا يشعر المحجوبون، ثم قال:

• ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ حيث نكر سبحانه وتعالى الأمة والنذير وهم من جملة الأمم، ونقل عن ابن عباس أنه كان يقول: جميع ما في الأمم فينا؟ حتى أن فيهم ابن عباس مثلي.

• وذكر في (الأجوبة المرضية) أن فيهم أنبياء، وفي (الجواهر) أنه يجوز أن يكون النذير من أنفسهم وأن يكون خارجا عنهم من جنسهم، وحكى شيخه عن بعضهم أنه قال: إن تشبيه الله تعالى من ضل من عباده بالأنعام في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ ليس لنقص فيها وإنما هو لبيان كمال مرتبتها في العلم بالله تعالى حتى حارت فيه، فالتشبيه في الحقيقة واقع في الحيرة لا في المحار فيه، فلا أشد حيرة من العلماء بالله تعالى، فأعلى ما يصل إليه العلماء بربهم ـ سبحانه وتعالى ـ هو مبتدأ البهائم الذي لم تنتقل عنه ـ أي عن أصله ـ وإن كانت متنقلة في شئونه بتنقل الشئون الإلهية؛ لأنها لا تثبت على حال؛ ولذلك كان من وصفهم الله عز وجل من هؤلاء القوم أضل سبيلا من الأنعام؛ لأنهم يريدون الخروج من الحيرة من طريق فكرهم ونظرهم ولا يمكن ذلك لهم، والبهائم علمت ذلك، ووقفت عنده، ولم تطلب الخروج عنه، وذلك لشدة علمها بالله تعالى،.

• قال: ونقل الشهاب عن ابن المنير أن من ذهب إلى أن البهائم الهوام مكلفة لها رسل من جنسها فهو من الملاحدة الذين لا يعول عليهم كالجاحظ وغيره، وعلى إكفار القائل بذلك نص كثير من الفقهاء، والجزاء الذي يكون يوم القيامة للحيوانات عندهم ليس جزاء تكليف، على أن بعضهم ذهب إلى أن الحيوانات لا تحشر يوم القيامة، وأول الظواهر الدالة على ذلك وما نقل عن ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ ما لا أصل له والمثلية في الآية لا تدل على شيء مما ذكر.

د. القول بأن كل موجود حي: قال: وأغرب الغريب عند أهل الظاهر أن الصوفية جعلوا كل شيء في الوجود حيا دراكا يفهم الخطاب، ويتألم كما يتألم الحيوان، وما يزيد الحيوان على الجماد إلا بالشهوة، ويستندون في ذلك إلى الشهود، وربما يستدلون بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ وبنحو ذلك من الآيات والأخبار، والذي ذهب إليه الأكثرون من العلماء أن التسبيح حالي لا قالي ونظير ذلك: (شكا إلي جملي طول السرى) و(امتلأ الحوض وقال قطني) وما يصدر عن بعض الجمادات من تسبيح قولي كتسبيح الحصى في كفه الشريف ﷺ مثلا إنما هو عن خلق إدراك إذ ذاك، وما يشاهد من الصنائع العجيبة لبعض الحيوانات ليس كما قال الشيخ الرئيس مما يصدر عن استنباط وقياس، بل عن إلهام وتسخير؛ ولذلك لا تختلف ولا تتنوع، والنقض بالحركة الفلكية لا يرد بناء على قواعدنا، وعدم افتراس الأسد المعلم مثلا صاحبه ليس عن اعتقاد، بل هناك هشة أخرى نفسانية، وهي أن كل حيوان يحب بالطبع ما يلذه، والشخص الذي يطعمه محبوب عنده فيصير ذلك مانعا عن افتراسه، وربما يقع هذا العارض عن إلهام إلهي مثل حب كل حيوان ولده، وعلى هذا الطراز يخرج الخوف مثلا الذي يعتري بعض الحيوانات.

١٣. قال الألوسي: وقد أطالوا الكلام في هذا المقام، وأنا لا أرى مانعا من القول بأن للحيوانات نفوسا ناطقة، وهي متفاوتة الإدراك حسب تفاوتها في أفراد الإنسان، وهي مع ذلك كيفما كانت لا تصل في إدراكها وتصرفها إلى غاية يصلها الإنسان والشواهد على هذا كثيرة، وليس في مقابلتها قطعي يجب تأويلها لأجله، وقد صرح غير واحد أنها عارفة بربها جل شأنه، وأما أن لها رسلا من جنسها فلا أقول به ولا أفتي بكفر من قال به، وأما أن الجمادات حية مدركة فأمر وراء طور عقلي، والله تعالى على كل شيء قدير، وهو العليم الخبير)

١٤. تعقيبات على ما ذكره الألوسي:

أ. أما مذهب التناسخ، فهو من الأساطير الخرافية، التي ولدتها الخيالات الشعرية، فلا نضيع الوقت بالخوض في بيان بطلانها.

ب. وأما قول من قال: إن للحيوانات أنفسا ناطقة، فإن أريد به أنها كنفس الإنسان فتحقيقه يتوقف على معرفة كنه هذه النفس، وأين من يدعي هذا ويثبت دعواه؟ ولا ينكر من له أدنى إلمام بعلم الحيوان ما أوتيه بعض أنواعه من أنواع الإدراك الذي يفوق ببعضه إدراكات الناس، ولكنها تنحصر في مناطق ضيقة جدا؛ لأنها متعلقة بحفظ حياته الفردية والنوعية، وهي محدودة ضيقة، ولعلنا نفصل القول فيها في تفسير آية أخرى، وإدراك البشر لا تنحصر أنواعه ولا أفراده، وإنما كان استعداده العلمي غير محدود بحد؛ لأنه خلق لحياة غير محدودة بحد، وهي حياة الآخرة.

ج. ودعوى تكليف الحيوان الأعجم وبعثة رسل منه في كل أمة من أممه والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات من يشإ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم لا يدل عليها عقل ولا نقل، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ نزل في سياق الكلام عن البشر.

د. وأما القول بحياة الجماد فهو منقول عن بعض الفلاسفة المتقدمين والمتأخرين، وعن بعض الطبيعيين والكيماويين، ولهم عليه دلائل علمية ونظرية، ويتوقف بيان ذلك على تعريف الحياة ومظاهرها وخواصها كالتغذي والنمو والتولد والموت، وفي تلك الجمادات ولا سيما الأجسام المتبلورة شيء من ذلك، وكان شيخنا الأستاذ الإمام يعتقد أن الحياة منبثة في العالم كله، ولعلنا نعود إلى هذا البحث بعد.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. بعد أن أبان سبحانه فيما سلف أنه قادر أن ينزل الآيات إذا رأى من الحكمة والمصلحة إنزالها، ولا ينزلها للتشه والهوى كما يراه المقترحون من أولئك الضالين المكذبين ـ ذكر ما هو كالدليل على ذلك، فأرشد إلى عموم قدرته تعالى وشمول علمه وتدبيره، وأن كل ما يدب على وجه الأرض أو يطير في الهواء

(١) تفسير المراغي ٧/ ١١٨.

فهو مشمول بفضله ورحمته، فلو كان في إظهار هذه المعجزات مصلحة للمكلفين لفعلها، ولامتنع أن يبخل بها، إذ أنكم ترون أنه لم يبخل على شيء من الحيوان بمنافعها ومصالحها.

٢. ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ أي لا يوجد نوع من أنواع الأحياء التي تدب على الأرض ولا من أنواع الطير التي تسبح في الهواء إلا وهي أمم مماثلة لكم أيها الناس؛ وقد أثبت الإخصائيّون الباحثون في طباع الحيوان الذين تفرغوا لدرس غرائزها وأعمالها أن النمل مثلا يغزو بعضه بعضا وأن المنتصر يسترقّ المنكسر ويسخّره في حمل قوته وبناء قراه، إلى نحو أولئك من الأعمال التي تخصه؛ وقد حرصت الأمم المتدينة على تحريم اصطياد بعض أنواع الحيوان، فإذا رأت بعض ما يصاد من الطير وغيرها قلّ في بلادها وخشي انقراضه منها حرمت صيده.

٣. خص دواب الأرض بالذكر لأنها هي التي يراها المخاطبون عامة ويدركون فيها معنى المماثلة، دون دواب الأجرام السماوية القابلة للحياة الحيوانية التي أعلمنا الله بوجودها في قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ وهذا من أخبار الغيب التي دل العلم الحديث على صدقها؛ فقد أثبت الباحثون من علماء الفلك[1] أن بعض الكواكب كالمرّيخ فيه ماء ونبات فلا بد أن يكون فيه أنواع من الحيوان، بل فيه أمارات على وجود عالم اجتماعي صناعى كالإنسان، منها ما يرى على سطحه بالمرقب (التلسكوب) من جداول منظمة وخلجان وجبال ووديان إلى نحو أولئك.

٤. وهذه الآية الكريمة ونحوها ترشدنا إلى البحث في طباع الأحياء ليزداد علما بسنن الله وأسراره في خلقه ونزداد بآياته فيها إيمانا وحكمة وكمالا وعلما ونعتبر بحال المكذبين بها الذين لم يستفيدوا مما فضلهم الله به على الحيوان فكانوا أضل من جميع أنواعه التي لا تجنى على نفسها ما يجنيه الكافر على نفسه.

٥. ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فسر ابن عباس الكتاب هنا بأم الكتاب: وهو اللوح المحفوظ، وهو خلق من عالم الغيب أثبت الله تعالى فيه مقادير الخلق ما كان منها وما يكون بحسب السنن الإلهية، وقيل الكتاب هنا علم الله المحيط بكل شيء شبه بالكتاب لكونه ثابتا لا ينسى، وقيل هو القرآن أي ما تركنا

---

(١) هذه المعلومات ثبت أنها غير صحيحة، ولا علاقة لما ذكره بالآية الكريمة

في القرآن شيئا من ضروب الهداية التي نرسل من أجلها الرسل إلا بيناه فيه فقد ذكرت فيه أصول الدين وأحكامه وحكمها والإرشاد إلى استعمال القوى البدنية والعقلية التي سخرها الله للإنسان، قال ابن كثير: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي الجميع علمهم عند الله لا ينسى واحدا من جميعها من رزقه سواء كان بريا أو بحريا كقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي مفصح بأسمائها وأعدادها ونظامها وحاصر لحركاتها وسكناتها.

٦. ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ أي ثم يبعث أولئك الأمم من الناس والحيوان يوم القيامة ويساقون مجتمعين، وروى ابن جرير عن ابن عباس: أن المراد بحشر البهائم موتها كما ورد في الحديث (من مات فقد قامت قيامته)

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. يأخذ السياق القرآني طريقه إلى قلوبهم من مدخل آخر لطيف، ويوقظ فيها قوى الملاحظة والتدبر لما في الوجود حولهم من دلائل الهدى وموحيات الإيمان لو تدبروه وعقلوه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾

٢. إن الناس ليسوا وحدهم في هذا الكون، حتى يكون وجودهم مصادفة، وحتى تكون حياتهم سدى! إن حولهم أحياء أخرى، كلها ذات أمر منتظم، يوحي بالقصد والتدبير والحكمة، ويوحي كذلك بوحدة الخالق، ووحدة التدبير الذي يأخذ به خلقه كله..

٣. إنه ما من دابة تدب على الأرض ـ وهذا يشمل كل الأحياء من حشرات وهوام وزواحف وفقاريات ـ وما من طائر يطير بجناحيه في الهواء ـ وهذا يشمل كل طائر من طير أو حشرة غير ذلك من الكائنات الطائرة.. ما من خلق حي في هذه الأرض كلها إلا وهو ينتظم في أمة، ذات خصائص واحدة، وذات طريقة في الحياة واحدة كذلك.. شأنها في هذا شأن أمة الناس.. ما ترك الله شيئا من خلقه بدون تدبير يشمله، وعلم يحصيه.. وفي النهاية تحشر الخلائق إلى ربها.. فيقضي في أمرها بما يشاء..

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/ ١٠٨١.

٤. إن هذه الآية القصيرة ـ فوق تقريرها الحاسم في حقيقة الحياة والأحياء ـ لتهز القلب بما ترسم من آفاق الإشراف الشامل، والتدبير الواسع، والعلم المحيط، والقدرة القادرة، لله ذي الجلال.. وكل جانب من هذه الجوانب لا نملك التوسع في الحديث عنه حتى لا نخرج عن منهج الظلال، فنجاوزه إذن لنتمشى مع السياق.. إذ المقصود الأول هنا هو توجيه القلوب والعقول، إلى أن وجود هذه الخلائق بهذا النظام، وشمولها بهذا التدبير، وإحصاءها في علم الله، ثم حشرها إلى ربها في نهاية المطاف.. توجيه القلوب والعقول إلى ما في هذه الحقيقة الهائلة الدائمة من دلائل وأمارات، أكبر من الآيات والخوارق التي يراها جيل واحد من الناس!

٥. فجأة ينقلهم من هذا الركن الضيق في التصور والتفكير، إلى الكون الواسع، إلى الآيات الكبرى من حولهم، الآيات التي تتضاءل دونها تلك الآية التي يطلبونها، الآيات الباقية في صلب الكون للأجيال كلها من قبلهم ومن بعدهم تراها: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾، وهي حقيقة هائلة.. هي حقيقة تستطيع ملاحظتهم وحدها حينذاك ـ حيث لم يكن لهم علم منظم ـ أن تشهد بها.. حقيقة تجمع الحيوان والطير والحشرات من حولهم في أمم.. لها سماتها وخصائصها وتنظيماتها كذلك..

٦. وهي الحقيقة التي تتسع مساحة رؤيتها كلما تقدم علم البشر، ولكن علمهم لا يزيد شيئا على أصلها! وإلى جانبها الحقيقة الغيبية الموصولة بها، وهي إحاطة علم الله اللدني بكل شيء وتدبير الله لكل شيء.. وهي الحقيقة التي تشهد بها تلك الحقيقة المشهودة.. فأين تذهب الخارقة المادية التي كانوا يطلبون، أمام الخارقة الكبرى التي يرونها حيثما امتدت أبصارهم وملاحظتهم وقلوبهم فيما كان وفيما سيكون؟

٧. إن المنهج القرآني ـ في هذا النموذج ـ لا يزيد على أن يربط الفطرة بالوجود، وأن يفتح النوافذ بين الوجود والفطرة، وأن يدع هذا الوجود الهائل العجيب يوقع إيقاعاته الهائلة العميقة في الكيان الإنساني.. إنه لا يقدم للفطرة جدلا لاهوتيا ذهنيا نظريا، ولا يقدم لها جدلا كلاميا (كعلم التوحيد) الغريب على المنهج الإسلامي، ولا يقدم لها فلسفة عقلية أو حسية، إنما يقدم لها هذا الوجود الواقعي ـ بعالميه عالم الغيب وعالم الشهادة ـ ويدعها تتفاعل معه وتتجاوب، وتتلقى عنه وتستجيب، ولكن في ظل منهج ضابط لا يدعها ـ وهي تتلقى من الوجود ـ تضل في المتاهات والدروب.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ إشارة إلى أن عالم الأحياء، من إنسان، وحيوان، وطير، يرجع إلى أصل واحد، كانت منه جميع هذه المخلوقات، في أنواعها وأجناسها..

٢. في قوله تعالى: ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ تسوية بين عالم الإنسان، وعالم الحيوان، في إقامة كل جنس من أجناس الحيوان، على نظام في حياته، وفي أسلوب معيشته، وتوالده، وصلات أفراده بعضها ببعض أو صلاته بالقريب والبعيد منه من أجناس الحيوان ـ أشبه بنظام المجتمع الإنساني فكما أن الناس يمسكهم نظام، ويضبط حياتهم سلوك، وتربط بينهم عادات، وتحكمهم قوانين، فكذلك كل جنس من أجناس الحيوان، وكل نوع من أنواعه.. له عالمه الذي يعيش فيه، وله تقاليده، وعاداته، ولغته التي يتفاهم بها، وله سلطانه الذي يأخذ به الخارجين على نظام الجماعة، المتمردين على أوضاعها المستقرة فيها..

٣. سؤال وإشكال: في قوله تعالى: ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ ـ ما يسأل عنه: لماذا كان ذكر الجناحين هنا، مع أن الطائر لا يطير إلا بجناحيه؟ وهل هناك طائر يطير بغير جناحين؟ وإذا كان من الطير ما يطير بلا جناحين، فهل يخرج من هذا الحكم الذي قضى الله به على الدواب والطير؟ والجواب: أن أجناس الطير كثيرة، متفاوتة القدر، مختلفة الحجم والصورة، من النّسر، والصقر، إلى البعوضة، والذرّة.. وكلها ذات جناحين تطير بهما، ومن هذه الطيور ما لا ترى العين جناحيه، ولا يكاد يتصور العقل أنه يحمل أجنحة، وفي ذكر القرآن للأجنحة التي لكل طائر، ما يدعو الإنسان إلى إعادة النظر وإمعانه في هذه المخلوقات الضئيلة، وفي دقة تركيبها، وروعة بنائها، وأنها ـ على صغر جرمها ـ عالم متكامل، في تكوينه، قد أودعت يد القدرة فيه من الأجهزة، والحواس، ما أودعته في أرقى الكائنات الحية، من قوى، ومشاعر، ومدركات..

٤. وفي القرآن الكريم كشوف رائدة، رائعة، عن عالم الحيوان، وما أودع الخالق العظيم فيه من قوّى وأسرار، لا تقلّ روعة وإحكاما، عما في الإنسان، الذي ينظر إلى وجوده بين هذه المخلوقات وكأنه

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٤/ ١٦٨.

إله، وكأنها هي من نافلة الحياة، أو من نفاياتها بالنسبة له! فهذه النملة ـ على صغر جرمها، وضآلة شأنها.. تقف من سليمان موقف الندّ للندّ، وتتصدى له، وهو في بهاء ملكه، ومظاهر عظمته، وقد حشر له الجنّ والإنس والطير، في مظاهرة ولاء، واستعراض انقياد وخضوع، وإذا النملة التي يمرّ بها سليمان، فلا يأبه لها، ولا يحفل بها، بل ولا يكاد يذكر عن أمرها شيئا، وهو متخم بهذا السلطان العظيم الذي بين يديه ـ إذا هذه النملة تلقى سليمان لقاء مثيرا، وتحاجّه في منطق قاهر، لا يقلّ عن منطق سلطانه القوى المبين، فيعجب لهذا الذي يأتيه من قبل أضعف المخلوقات شأنا، وأهونها قدرا، وإذا سلطانه الذي بين يديه يهتزّ، ثم يتهاوى، وإذا هو والنملة على سواء.. إنها تقوم على دولة لا تقلّ عن دولته، نظاما وإحكاما وروعة، وإنها لتقوم على رعية تسوسها بالرأفة والحكمة، وتحوطها بالرّعاية والعناية، وتوفر لها الأمن والسلامة، بما لا يكون إلا من القلّة القليلة من أصحاب الحكم والسلطان..! ونستمع إلى قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٧ ـ ١٩] وإذا نستمع إلى كلمات الله هذه، نكاد ننصرف بأبصارنا ومشاعرنا عن سليمان، عليه السلام، وحشوده الحاشدة، من الجنّ والإنس والطير، إلى هذا المجتمع الضئيل من النمل، وإلى هذه النملة التي تقوم على سياسته، وتدبير أمره.. بل إن سليمان نفسه، لينصرف عن حشوده تلك، حين تلقاه النملة هذا اللقاء المثير، وإذا هو منها بين يدى قدرة القدير، وحكمة الحكيم، فلا يملك إلا أن يتوجه بكيانه كله إلى الله، ضارعا بالحمد والشكر: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾.. وليس ببعيد أن تكون النملة ـ فيما رأى سليمان ـ ممن عدّهم من عباد الله الصالحين، الذين دعا الله أن يلحقه بهم، ويدخله في زمرتهم!

٥. والهدهد، وقصته مع سليمان، لا تقل روعة وعجبا من قصة النملة، فقد جاء إلى سليمان، وهو في أبّهة ملكه، وعظمة سلطانه، وبين يديه ما سخّر الله له من الجن والإنس والطير ـ جاءه وهو في هذا السلطان العظيم، ليلقاه بهذا الخبر، وليلقى به إليه في صورة من هو أكثر منه علما، وأكبر سلطانا، وإن كان ـ فيما يظهر منه ـ ضئيل الشأن، باهت القدر، فيقول لسليمان: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾! هكذا المتمكّن من

نفسه الواثق من وجوده، يقول قولة الحق، في غير خوف أو تردد! وكأن الهدهد إنما يثأر بهذا لنفسه، وللجماعة المسخرة لسليمان، حين توعّد الهدهد على ملأ منها بقوله: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾.. فجاءه بهذا الجواب القوىّ المبين!

٦. ففي هذه النملة التي تمثّل الدوابّ على الأرض، وهذا الهدهد الذي يمثل ما طار بجناحيه في السماء، شاهدان يشهدان بأن هذه الكائنات التي تعيش معنا على هذا الكوكب الأرضي من دواب الأرض، وطير السماء، هي أمم مثل الأمة الإنسانية، في وحدة التكوين والتنظيم، والمشاعر، والمدارك، وغيرها، من تلك التي لا تكون الأمة أمة إلا بها..

٧. فالأمة لا تسمى أمة، إلا إذا كان بناؤها الذي تقوم عليه ينتظم جميع الأفراد الذين يدخلون في حسابها، وينتسبون إليها، بمعنى أن يكون بين أفراد الأمة من قوى التلاحم والترابط ما يجمع بعضهم إلى بعض، ويؤلّف منهم جسدا اجتماعيا أشبه بجسد الكائن الحىّ وما بين أعضائه، من ترابط، وتساند، وانسجام!

٨. ومن هنا يمكن أن تتغير نظرة الإنسان إلى عالم الحيوان، وأن يفتح له العلم الحديث آفاقا جديدة في دراسة علم الحيوان، فلا يقف عند حدود دراسة جسدية له، تدور حول الوظائف العضوية وما يتصل بها، بل ينبغي أن يتجاوز العلم هذه الدراسة إلى دراسات نفسية، وعقلية أيضا.. بحيث يكون من موضوعات هذه الدراسات: لغة الحيوان.. بجميع أجناسه وأنواعه، وعن طريق التعرف إلى هذه اللغة يمكن التعرّف على معارف عالم الحيوان، ونظرته إلى الكون، وصراعه مع الطبيعة، ووسائله التي بلغها في التغلب عليها.. ولربما يقع للعلم في هذه الدراسات، من أسرار وعجائب، ما لم يقع له إلى اليوم من أسرار وعجائب!.

٩. وإنّ عجزا من الإنسان، وقصورا في علمه، هو الذي وقف به على شاطئ هذا المحيط العظيم من عالم الحيوان، فلم يعرف كيف يتفاهم مع الحيوانات، ويترجم مشاعرها وإحساسها، ويفسّر حركاتها وسكناتها.. وليس بغير العلم تنفتح مغالق هذه العوالم.. ويوم يبلغ الإنسان من العلم ما يستطيع به الالتحام مع عالم الحيوان والتفاهم معه، يومئذ يكون الإنسان بحق هو سيد هذا العالم الأرضي وخليفة الله فيه، وإلا فهو ليس بالسيد ولا بالخليفة، إذ لا سيادة لمن لا يعرف كيف يخاطب المسودين له، ولا خلافة لمن

لا يحسن الفهم عمن هو خليفة عليهم.. وإنه ما انقادت تلك الجماعات من الجن والإنس والطير لسليمان، إلا بعد أن أوتى من العلم ما أقدره على فهم هذه الجماعات، والتفاهم معها..

١٠. ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾، اختلف في الكتاب هنا: أهو اللوح المحفوظ، أم هو القرآن الكريم..؟ ولعل الأقرب إلى مفهوم الآية الكريمة هنا، هو (القرآن الكريم) حيث يبيّن في آياته هذه أصولا، وأحكاما، ومقررات تندرج تحتها جميع المعارف الإنسانية، التي بلغها العقل، والتي في مقدوره أن يبلغها يوما ما.. وإذا لم يكن القرآن الكريم قد كشف الغطاء عن هذه المعارف، فإنما ذلك ليثير في الإنسان دوافع النظر والبحث، وليترك لعقله مجال الحركة والصراع، فينتصر حينا، وينهزم حينا، وهو في انتصاراته وهزائمه، سيّد نفسه، وقائد سفينة حياته، وحسب القرآن الكريم في هذا أن يومئ إليه من بعيد إلى مواطن الصيد، التي يلقى بشباكه فيها، فتجيء إليه بصيد وفير.

١١. ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ الضمير في ربهم يعود إلى هذه المخلوقات كلها، من دواب الأرض، وطيور السماء.. وقد اختلف في حشر هذه الكائنات من حيوان ووحش وطير.. وهل تحاسب؟ وإذا حوسبت فهل تعذّب أو تنعّم، كما يحاسب الإنسان ويعذب أو ينعم؟ ولا شك في أنها ستحشر إلى الله، فهذا صريح بنص القرآن في هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكرير: ٥].. أما ما وراء هذا فأمره إلى الله، وعلمه عند علام الغيوب.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾، بيّن سبحانه في هذه الآية أن بيننا وبين الدواب والطيور نوعا من الشبه، ولكنه لم يصرح بهذا النوع: هل تشبهنا الدواب والطيور في أنها مخلوقة لله، أو في إيمانها به، وتسبيحها بحمده، أو في أنها أصناف مصنفة تعرف بأسمائها، كما تعرف الأسر والقبائل، أو في تدبير معاشها، وتصريف الأمور وفقا لمصالحها؟

٢. وعلى أية حال، فقد تفرغ كثير من العلماء لدرس طبائع الحيوانات والحشرات والطيور،

(١) التفسير الكاشف: ٣/ ١٨٦.

وغرائزها وأعمالها، ووقفوا على أسرار غريبة تشهد بوجود مدبر حكيم، نذكر منها على سبيل المثال أن الفيلة تعقد المحاكم للمخالفات التي تقع من بعضها، وتصدر المحكمة حكمها على الفيل المذنب بالنفي عن الجماعة ليعيش وحيدا في عزلته، والغراب إذا أحس بالخطر على الغربان أنذرها بصوت خاص، أما في حال المرح فإنه يخرج صوتا قريبا من القهقهة.

والجواب: ما هي الفائدة في قوله تعالى: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ مع أن كلمة طائر بذاتها تدل على ذلك؟

والجواب: لا فائدة ـ فيما نعلم ـ سوى فصاحة الكلام.

٣. ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ قيل: المراد بالكتاب هنا اللوح المحفوظ المشتمل على ما كان ويكون، وقول ثان: انه كناية عن علم الله بنوايا الإنسان وأقواله وأفعاله، وثالث: انه القرآن، وأن الله سبحانه بيّن فيه كل ما يجب بيانه للناس من أصول الدين وفروعه، وما يتعلق بهما، واخترنا هذا القول.

٤. ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾، ظاهر الكلام يدل على أن الله يحشر الدواب والطيور يوم القيامة، تماما كما يحشر الناس، وكذلك الآية ٥ من التكوير: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾، وقال كثير من العلماء بذلك استنادا إلى ظاهر الآيتين، وإلى حديث: (ان الله يقتص غدا للجماء من القرناء)، ونحن مع ابن عباس الذي قال المراد بحشر البهائم موتها، كما ورد في حديث: (من مات فقد قامت قيامته) لأن الحساب والعقاب إنما يكون بعد التكليف، ومخالفته، ولا تكليف إلا مع العقل، ولا عقل للدواب والطيور فلا تكليف، وبالتالي فلا حشر للحساب، ولو حوسب الدواب لحوسب الأطفال بطريق أولى، أما حديث (يقتص للجماء) فهو كناية عن عدل الله تعالى، وانه لا يغادر كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها.. وإذا كان الله يعاقب القرناء إذا نطحت الجماء فبالأولى أن يحرم علينا ذبح الحيوان.. أما قول من قال أن الله يعوض غدا الحيوان عن آلامه فهو قول على الله بغير علم.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. معنى هذه الآية غامض بدءا، ونهايتها أشدّ غموضا، وموقعها في هذا السياق خفي المناسبة،

---

(١) التحرير والتنوير: ٦/ ٨٧.

فاعلم أنّ معنى قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ إلى قوله ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ أنّ لها خصائص لكلّ جنس ونوع منها كما لأمم البشر خصائصها، أي جعل الله لكلّ نوع ما به قوامه وألهمه اتّباع نظامه وأنّ لها حياة مؤجّلة لا محالة، فمعنى ﴿أَمْثَالُكُمْ﴾ المماثلة في الحياة الحيوانية وفي اختصاصها بنظامها، وأمّا معنى قوله: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ أنّها صائرة إلى الموت، ويعضّده ما روي عن ابن عباس: حشر البهائم موتها، أي فالحشر مستعمل في مجاز قريب إلى حقيقته اللغوية التي في نحو قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ﴾ [النمل: ١٧]

أ. فموقع هذه الآية عند بعض المفسّرين أنّها بمنزلة الدليل على مضمون قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧]، فيجوز أن تكون معطوفة على جملة ﴿إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً﴾ [الأنعام: ٣٧] على أنّها من جملة ما أمر النبي بأن يقوله لهم.

ب. ويجوز أن تكون معطوفة على جملة: ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ﴾ [الأنعام: ٣٧] على أنّها من خطاب الله لهم، أي أنّ الذي خلق أنواع الأحياء كلّها وجعلها كالأمم ذات خصائص جامعة لأفراد كلّ نوع منها فكان خلقها آية على عظيم قدرته لا يعجزه أن يأتي بآية حسب مقترحكم ولكنّكم لا تعلمون الحكمة في عدم إجابتكم لما سألتم، ويكون تعقيبه بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ [الأنعام: ٣٩] الآية واضح المناسبة، أي لا يهتدون إلى ما في عوالم الدواب والطير من الدلائل على وحدانية الله.

ج. وأمّا قوله: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ فإن نظرنا إليه مستقلا بنصّه غير ملتفتين إلى ما نيط به من آثار مروية في تفسيره؛ فأول ما يبدو للناظر أنّ ضميري ﴿رَبِّهِمْ﴾ و﴿يُحْشَرُونَ﴾ عائدان إلى ﴿دَابَّةٍ﴾ و﴿طَائِرٍ﴾ باعتبار دلالتهما على جماعات الدّواب والطير لوقوعهما في حيّز حرف (من) المفيدة للعموم في سياق النفي، فيتساءل الناظر عن ذلك وهما ضميران موضوعان للعقلاء، وقد تأولوا لوقوع الضميرين على غير العقلاء بوجهين:

- أحدهما أنّه بناء على التغليب إذ جاء بعده ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾
- الثاني أنّهما عائدان إلى ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾، أي أنّ الأمم كلّها محشورة إلى الله تعالى.

- وأحسن من ذلك تأويلا أن يكون الضميران عائدين إلى ما عادت إليه ضمائر الغيبة في هذه الآيات التي آخرها ضمير ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾، فيكون موقع جملة ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾

موقع الإدماج والاستطراد مجابهة للمشركين بأنّهم محشورون إلى الله لا محالة وإن أنكروا ذلك.

د. فإذا وقع الالتفات إلى ما روي من الآثار المتعلّقة بالآية كان الأمر مشكلا، فقد روى مسلم عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: (لتؤدّنّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتّى يقاد للشّاة الجلحاء (التي لا قرن لها، وفي رواية غيره: الجماء) من الشاة القرناء)، وروى أحمد بن حنبل وأبو داوود الطيالسي في (مسنديهما) عن أبي ذرّ قال انتطحت شاتان أو عنزان عند رسول الله ﷺ فقال: يا أبا ذر أتدري فيم انتطحتا، قلت: لا، قال لكن الله يدري وسيقضي بينهما يوم القيامة، فهذا مقتض إثبات حشر الدوابّ ليوم الحساب، فكان معناه خفي الحكمة إذ من المحقّق انتفاء تكليف الدوابّ والطير تبعا لانتفاء العقل عنها، وكان موقعها جلي المناسبة بما قاله الفخر نقلا عن عبد الجبّار بأنّه لّما قدّم الله أنّ الكفّار يرجعون إليه ويحشرون بيّن بعده أنّ الدوابّ والطير أمم أمثالهم في أنّهم يحشرون، والمقصود بيان أنّ الحشر والبعث كما هو حاصل في الناس حاصل في البهائم، وهذا ظاهر قوله: ﴿يُحْشَرُونَ﴾ لأنّ غالب إطلاق الحشر في القرآن على الحشر للحساب، فيناسب أن تكون جملة: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية عطفا على جملة: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾، فإنّ المشركين ينكرون البعث ويجعلون إخبار الرسول ﷺ به من أسباب تهمته فيما جاء به، فلمّا توعّدهم الله بالآية السابقة بأنّهم إليه يرجعون زاد أن سجّل عليهم جهلهم فأخبرهم بما هو أعجب ممّا أنكروه، وهو إعلامهم بأنّ الحشر ليس يختصّ بالبشر بل يعمّ كلّ ما فيه حياة من الدّوابّ والطير، فالمقصود من هذا الخبر هو قوله: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾، وأمّا ما قبله فهو بمنزلة المقدمة له والاستدلال عليه، أي فالدّوابّ والطير تبعث مثل البشر وتحضر أفرادها كلّها يوم الحشر، وذلك يقتضي لا محالة أن يقتصّ لها، فقد تكون حكمة حشرها تابعة لإلقاء الأرض وما فيها وإعادة أجزاء الحيوان.

هـ. وإذا كان المراد من هذين الحديثين ظاهرهما فإنّ هذا مظهر من مظاهر الحق يوم القيامة لإصلاح ما فرط في عالم الفناء من رواج الباطل وحكم القوة على العدالة، ويكون القصاص بتمكين المظلوم من الدوابّ من ردّ فعل ظالمه كيلا يستقرّ بالباطل، فهو من قبيل ترتّب المسبّبات على أسبابها شبيه بخطاب الوضع، وليس في ذلك ثواب ولا عقاب لانتفاء التكليف ثم تصير الدواب يومئذ ترابا، كما ورد في رواية عن أبي هريرة في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبأ: ٤٠]، قال المازري في المعلم: واضطرب العلماء في بعث البهائم، وأقوى ما تعلّق به من يقول ببعثها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ

حُشِرَتْ﴾ وقد قيل: إنّ هذا كلّه تمثيل للعدل، ونسبه المازري إلى بعض شيوخه قال هو ضرب مثل إعلاما للخلق بأن لا يبقى حقّ عند أحد.

٢. والدابّة مشتقّة من دبّ إذا مشى على الأرض، وهي اسم لكلّ ما يدبّ على الأرض.

٣. ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ صفة قصد منها إفادة التعميم والشمول بذكر اسم المكان الذي يحوي جميع الدوابّ وهو الأرض.

٤. وكذلك وصف ﴿طَائِرٍ﴾ بقوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ قصد به الشمول والإحاطة، لأنّه وصف آيل إلى معنى التوكيد، لأنّ مفاد ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ أنّه طائر، كأنّه قيل: ولا طائر ولا طائر، والتوكيد هنا يؤكّد معنى الشمول الذي دلّت عليه (من) الزائدة في سياق النفي؛ فحصل من هذين الوصفين تقرير معنى الشمول الحاصل من نفي اسمي الجنسين، ونكتة التوكيد أنّ الخبر لغرابته عندهم وكونه مظنّة إنكارهم أنّه حقيق بأن يؤكّد، ووقع في (المفتاح) في بحث اتباع المسند إليه بالبيان أنّ هذين الوصفين في هذه الآية للدلالة على أنّ القصد من اللفظين الجنس لا بعض الأفراد وهو غير ما في (الكشاف)، وكيف يتوهّم أنّ المقصود بعض الأفراد ووجود (من) في النفي نصّ على نفي الجنس دون الوحدة، وبهذا تعلم أن ليس وصف ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ واردا لرفع احتمال المجاز في ﴿طَائِرٍ﴾ كما جنح إليه كثير من المفسّرين وإن كان رفع احتمال المجاز من جملة نكت التوكيد اللفظي إلّا أنّه غير مطّرد، ولأنّ اعتبار تأكيد العموم أولى، بخلاف نحو قولهم: نظرته بعيني وسمعته بأذني، وقول صخر: (شر واتّخذت من شعر صدارها) إذ من المعلوم أنّ الصّدار لا يكون إلّا من شعر.

٥. ﴿أُمَمٍ﴾ جمع أمّة، والأمّة أصلها الجماعة من الناس المتماثلة في صفات ذاتية من نسب أو لغة أو عادة أو جنس أو نوع، قيل: سمّيت أمة لأنّ أفرادها تؤمّ أمما واحدا وهو ما يجمع مقوّماتها، وأحسب أنّ لفظ أمّة خاصّ بالجماعة العظيمة من البشر، فلا يقال في اللغة أمّة الملائكة ولا أمّة السباع، فأمّا إطلاق الأمم على الدّوابّ والطير في هذه الآية فهو مجاز، أي مثل الأمم لأنّ كلّ نوع منها تجتمع أفراده في صفات متّحدة بينها أمما واحدة، وهو ما يجمعها وأحسب أنّها خاصّة بالبشر.

٦. ﴿دَابَّةٍ﴾ و﴿طَائِرٍ﴾ في سياق النفي يراد بهما جميع أفراد النوعين كما هو شأن الاستغراق، فالإخبار عنهما بلفظ ﴿أُمَمٍ﴾ وهو جمع على تأويله بجماعاتها، أي إلّا جماعاتها أمم، أو إلّا أفراد أمم، وتشمل

الأرض البحر لأنّه من الأرض ولأنّ مخلوقاته يطلق عليها لفظ الدابّة، كما ورد في حديث سرية سيف البحر قول جابر بن عبد الله: فألقى لنا البحر دابّة يقال لها العنبر.

٧. المماثلة في قوله: ﴿أَمْثَالُكُمْ﴾ التشابه في فصول الحقائق والخاصّات التي تميّز كلّ نوع من غيره، وهي النظم الفطرية التي فطر الله عليها أنواع المخلوقات، فالدّواب والطير تماثل الأناسي في أنّها خلقت على طبيعة تشترك فيها أفراد أنواعها وأنّها مخلوقة لله معطاة حياة مقدّرة مع تقدير أرزاقها وولادتها وشبابها وهرمها، ولها نظم لا تستطيع تبديلها.

٨. وليست المماثلة براجعة إلى جميع الصفات فإنّها لا تماثل الإنسان في التفكير والحضارة المكتسبة من الفكر الذي اختصّ به الإنسان، ولذلك لا يصحّ أن يكون لغير الإنسان نظام دولة ولا شرائع ولا رسل ترسل إليهن لانعدام عقل التكليف فيهنّ، وكذلك لا يصحّ أن توصف بمعرفة الله تعالى، وأما قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] فذلك بلسان الحال في العجماوات حين نراها بهجة عند حصول ما يلائمها فنراها مرحة فرحة، وإنّما ذلك بما ساق الله إليها من النعمة وهي لا تفقه أصلها ولكنّها تحسّ بأثرها فتبتهج، ولأنّ في كل نوع منها خصائص لها دلالة على عظيم قدرة الله وعلمه تختلف عن بقية الأنواع من جنسه والمقصد من هذا صرف الأفهام إلى الاعتبار بنظام الخلق الذي أودعه الله في كلّ نوع، والخطاب في قوله: ﴿أَمْثَالُكُمْ﴾ موجّه إلى المشركين.

٩. وجملة: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ معترضة لبيان سعة علم الله تعالى وعظيم قدرته، فالكتاب هنا بمعنى المكتوب، وهو المكنّى عنه بالقلم المراد به ما سبق في علم الله وإرادته الجارية على، وفقه كما تقدّم في قوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾، وقيل الكتاب القرآن، وهذا بعيد إذ لا مناسبة بالغرض على هذا التفسير، فقد أورد كيف يشتمل القرآن على كلّ شيء وقد بسط فخر الدين بيان ذلك لاختيار هذا القول وكذلك أبو إسحاق الشاطبي في (الموافقات)

١٠. والتفريط: الترك والإهمال، وتقدّم بيانه آنفا عند قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١]

١١. والشيء هو الموجود، والمراد به هنا أحوال المخلوقات كما يدلّ عليه السياق فشمل أحوال الدّواب والطير فإنّها معلومة لله تعالى مقدّرة عنده بما أودع فيها من حكمة خلقه تعالى.

١٢. وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ تقدّم تفسيره آنفا في أوّل تفسير هذه الآية.

١٣. وفي الآية تنبيه للمسلمين على الرفق بالحيوان فإنّ الإخبار بأنّها أمم أمثالنا تنبيه على المشاركة في المخلوقية وصفات الحيوانية كلّها، وفي قوله: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ إلقاء للحذر من الاعتداء عليها بما نهى الشرع عنه من تعذيبها وإذا كان يقتصّ لبعضها من بعض وهي غير مكلّفة، فالاقتصاص من الإنسان لها أولى بالعدل، وقد ثبت في الحديث الصحيح: أنّ الله شكر للذي سقى الكلب العطشان، وأنّ الله أدخل امرأة النار في هرّة حبستها فماتت جوعا.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾، ذكر في الآية السابقة بيان قدرة الله تعالى على أن ينزل أي آية يريدونها، ولكنه لا ينزلها؛ لأنهم لا يعلمون ولا يفهمون ما يناسبهم، والله تعالى لا يسير وراء أهوائهم، وفى هذه يؤكد قدرته وعلمه، وسعة إحاطته بالأحياء جميعا، وقد قال الزمخشري في ذلك: (الغرض من ذكر ذلك سعة الدلالة على عظم قدرته ولطف علمه، وسعة سلطانه وتدبيره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس المتكاثرة الأصناف، وهو حافظ لما لها وما عليها مهيمن على أحوالها لا يشغله شأن عن شأن، وأن المكلفين ليسوا بمخصوصين بذلك دون من عداهم من سائر الحيوان)

٢. ومؤدى هذا الكلام إثبات أن علم الله تعالى الواسع كان من مقتضاه ألا يجيب ما طلبوا؛ لأنهم لا يعلمون المآل، وهو يعلمه، كما يعلم كل حيوان من دابة تدب، وطائر يطير، ويعرف ما يحتاج إليه وما لا يحتاجه، لقد بين الله سبحانه وتعالى عظم خلق الحيوان، وأنها جماعات وطوائف مخصوصة، كل طائفة تكون جنسا قائما، وقد فسرها الأصفهاني بقوله: (قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ أي كل نوع منها على طريقة قد سخرها الله عليها بالطبع، فهي من ناسجة كالعنكبوت، وبانية كالشرنقة، ومدخرة كالنمل، ومعتمد على قوت وقته كالعصفور والحمام، إلى غير ذلك من الطبائع

---

(١) زهرة التفاسير: ٥/ ٢٤٩١.

التي يخصص بها كل نوع، والنص فيه تعميم للأنواع كلها لأن اجتماع (ما)، و(من) يدل على الاستغراق للجماعات والآحاد معا، فهي في علم الله تعالى جماعات وأجناس وطبائع مختلفة مثلكم.

٣. قوله تعالى: ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ لإفادة التعميم في أن علمه تعالى يشمل الطائر في الجو، كما يشمل الدابة التي تدب في الأرض، والطائر الذى يطير، فذكر الذى يطير بجناحيه يدل على علم الله تعالى على ما في الأرض من دواب تدب، وأسماك ولآلئ تسبح، وما في الجو من طيور تطير، وكل هذه أجناس ذات طبائع مختلفة، وذكر الجناحين في الطير لتوجيه الأنظار إلى الإبداع في الصنع مع جمال التكوين والقدرة، وفى ذلك بيان لقدرة الله تعالى، وبيان لأن الإنسان لا يصح أن يعلو ويستكبر فأمثاله من الأحياء عدد كثير، وليس عددا قليلا.

٤. ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾، ما تركنا شيئا لم يحص في الكتاب أي في المكتوب المسجل بعلم الله وهو اللوح المحفوظ، فالكتاب هو اللوح المحفوظ، وقد ذكر ذلك صراحة في آية أخرى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود]، أي مفصح ذاكر لأسمائها وأعدادها وأنواعها، وهذا أوضح تفسير لمعنى ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وقال بعض المفسرين: الكتاب هو القرآن ومعنى التفريط أنه لم يغادر شيئا من الأحكام إلا بينه، وأسرف آخرون فقالوا: إن القرآن ما ترك علم شيء قط من الشرائع أو غيرها من الأشياء والأحياء، والأبين هو ما ذكرناه أولا ـ لأنه المتفق مع النصوص الأخرى، وثانيا لأنه المناسب لذكر الأحياء.

٥. ولقد ذكر الله تعالى من بعد ذلك أن كل الأحياء يحشرون إلى ربهم، فقال تعالت كلماته: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ أي يجمعون إلى ربهم الذى خلقهم من عدم، والتعبير بـ (ثم) للإشارة إلى أنهم أعداد لا تحصى في علمنا، وجمعهم ليس يسيرا في ذاته، وإن كان بالنسبة لله تعالى أمرا ميسرا، وفيه أيضا بيان لبعد الموت عن البعث والقيامة، وإشارة لاستغراقهم جميعا.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٧/ ٧٣.

١. ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾:

أ. الدابة كل حيوان يدب على الأرض وقد كثر استعماله في الفرس، والدب بالفتح والدبيب هو المشي الخفيف.

ب. والطائر ما يسبح في الهواء بجناحيه، وجمعه الطير كالراكب، والركب.

ج. والأمة هي الجماعة من الناس يجمعهم مقصد واحد يقصدونه كدين واحد أو سنة واحدة أو زمان واحد أو مكان واحد، والأصل في معناها، القصد يقال: أم يؤم إذا قصد.

د. والحشر جمع الناس بإزعاج إلى الحرب أو جلاء ونحوه من الأمور الاجتماعية.

٢. الظاهر أن توصيف الطائر بقوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ محاذاة لتوصيف الدابة بقوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ فهو بمنزلة قولنا: ما من حيوان أرضي ولا هوائي، مع ما في هذا التوصيف من نفي شبهة التجوز فإن الطيران كثيرا ما يستعمل بمعنى سرعة الحركة كما أن الدبيب هو الحركة الخفيفة فكان من المحتمل أن يراد بالطيران حيث ذكر مع الدبيب الحركة السريعة فدفع ذلك بقوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾

٣. كلام في المجتمعات الحيوانية:

أ. الخطاب في الآية للناس، وقد ذكر فيها أن الحيوانات أرضية كانت أو هوائية هي أمم أمثال الناس، وليس المراد بذلك كونها جماعات ذوات كثرة وعدد فإن الأمة لا تطلق على مجرد العدد الكثير بل إذا جمع ذلك الكثير جامع واحد من مقصد اضطراري أو اختياري يقصده أفراده، ولا أن المراد مجرد كونها أنواعا شتى كل نوع منها يشترك أفراده في نوع خاص من الحياة والرزق والسفاد والنسل والمأوى وسائر الشئون الحيوية فإن هذا المقدار من الاشتراك وإن صحح الحكم بمماثلتها الإنسان لكن قوله في ذيل الآية: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ يدل على أن المراد بالمماثلة ليس مجرد التشابه في الغذاء والسفاد والإيواء بل هناك جهة اشتراك أخرى تجعلها كالإنسان في ملاك الحشر إلى الله، وليس ملاك الحشر إلى الله في الإنسان إلا نوعا من الحياة الشعورية التي تخد للإنسان خدا إلى سعادته وشقائه، فإن الفرد من الإنسان يمكن أن ينال في الدنيا ألذ الغذاء وأوفق النكاح وأنضر المسكن ولا يكون مع ذلك سعيدا في حياته لما ينكب عليه من الظلم والفجور أو أن يحيط به جماع المحن والشدائد والبلايا وهو سعيد في حياته مبتهج بكمال الإنسانية ونور العبودية.

ب. بل حياة الإنسان الشعورية وإن شئت فقل: الفطرة الإنسانية وما يؤيدها من دعوة النبوة تسن للإنسان سنة مشروعة من الاعتقاد والعمل إن أخذ بها وجرى عليها ووافقه المجتمع عليه سعد في الحياتين: الدنيا والآخرة، وإن استن بها وحده سعد بها في الآخرة أو في الدنيا والآخرة معا، وإن لم يعمل بها وتخلف عن الأخذ ببعضها أو كلها كان في ذلك شقاؤه في الدنيا والآخرة.

ج. وهذه السنة المكتوبة له تجمعها كلمتان: البعث إلى الخير والطاعة، والزجر عن الشر والمعصية، وإن شئت قلت: الدعوة إلى العدل والاستقامة، والنهي عن الظلم والانحراف عن الحق فإن الإنسان بفطرته السليمة يستحسن أمورا هي العدل في نفسه أو غيره، ويستقبح أمورا هي الظلم على نفسه أو غيره ثم الدين الإلهي يؤيدها ويشرح له تفاصيلها.

د. وهذا محصل ما تبين لنا في كثير من الأبحاث السابقة، وكثير من الآيات القرآنية تفيد ذلك وتؤيده كقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣]

هـ. والإمعان في التفكر في أطوار الحيوانات العجم التي تزامل الإنسان في كثير من شئون الحياة، وأحوال نوع منها في مسير حياتها وتعيشها يدلنا على أن لها كالإنسان عقائد وآراء فردية واجتماعية تبني عليها حركاتها وسكناتها في ابتغاء البقاء نظيره ما يبني الإنسان تقلباته في أطوار الحياة الدنيا على سلسلة من العقائد والآراء.

و. فالواحد منا يشتهي الغذاء والنكاح أو الولد أو غير ذلك، أو يكره الضيم أو الفقر أو غير ذلك فيلوح له من الرأي أن من الواجب أن يطلب الغذاء أو يأكله أو يدخره في ملكه، وأن يتزوج وأن ينسل وهكذا، وأن من الممنوع المحرم عليه أن يصبر على ضيم أو يتحمل مصيبة الفقر وهكذا فيتحرك ويسكن على طبق ما تخدّ له هذه الآراء اللائحة لنفسه من الطريق، كذلك الواحد من الحيوان ـ على ما نشاهده ـ يأتي في مبتغيات حياته من الحركات المنظمة التي يحتال بها إلى رفع حوائج نفسه في الغذاء والسفاد والمأوى بما

لا نشك به في أن له شعورا بحوائجه وما يرتفع به حاجته، وآراء وعقائد ينبعث بها إلى جلب المنافع ودفع المضار كما في الإنسان، وربما عثرنا فيها من أنواع الحيل والمكائد للحصول على الصيد والنجاة من العدو من الطرق الاجتماعية والفردية ما لم يتنبه إليه الإنسان إلا بعد طي قرون وأحقاب من عمره النوعي، وقد عثر العلماء الباحثون عن الحيوان في كثير من أنواعه، كالنمل والنحل والأرضة على عجائب من آثار المدنية والاجتماع، ودقائق من الصنعة ولطائف من السنن والسياسات لا تكاد توجد نظائرها إلا في الأمم ذوي الحضارة والمدنية من الإنسان.

ز. وقد حث القرآن الكريم على معرفة الحيوان والتفكر في خلقها وأعمالها عامة كقوله تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٤] ودعا إلى الاعتبار بأمر كثير منها كالأنعام والطير والنحل والنمل.

ح. وهذه الآراء والعقائد التي نرى أن الحيوان على اختلاف أنواعها في شئون الحياة ومقاصدها تبنى عليها أعمالها إذا لم تخل عن الأحكام الباعثة والزاجرة لم تخل عن استحسان أمور واستقباح أمور، ولم تخل عن معنى العدل أو الظلم، وهو الذي يؤيده ما نشاهده من بعض الاختلاف في أفراد أي نوع من الحيوان في أخلاقها، فكم بين الفرس والفرس وبين الكبش والكبش وبين الديك والديك مثلا من الفرق الواضح في حدة الخلق أو سهولة الجانب ولين العريكة، وكذا يؤيده جزئيات أخرى من حب وبغض وعطوفة ورحمة أو قسوة أو تعد وغير ذلك مما نجدها بين الأفراد من نوع وقد وجدنا نظائرها بين أفراد الإنسان، ووجدناها مؤثرة في الاعتقاد بالحسن والقبح في الأفعال، والعدل والظلم في الأعمال ثم إنها مؤثرة أيضا في حياة الإنسان الأخروية، وملاكا لحشره ومحاسبة أعماله والجزاء عليها بنعمة أو نقمة أخروية.

ط. وببلوغ البحث هذا المبلغ ربما لاح لنا أن للحيوان حشرا كما أن للإنسان حشرا فإن الله سبحانه يعد انطباق العدل والظلم والتقوى والفجور على أعمال الإنسان ملاكا للحشر ويستدل به عليه كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨] بل يعد بطلان الحشر في ما خلقه من السماء والأرض وما بينهما بطلانا لفعله وصيرورته لعبا أو جزافا كما في الآية السابقة على هذه الآية: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]

ي. سؤال وإشكال: هل للحيوان غير الإنسان حشر؟ والجواب: قوله تعالى في الآية: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ يتكفل الجواب عنه، ويقرب منه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [كورت: ٥]، بل هناك آيات كثيرة جدا دالة على إعادة السماوات والأرض والشمس والقمر والنجوم والجن والحجارة والأصنام وسائر الشركاء المعبودين من دون الله، والذهب والفضة حيث يحمى عليهما في نار جهنم فتكوى بها جباه مانعي الزكاة وجنوبهم إلى غير ذلك في آيات كثيرة لا حاجة إلى إيرادها، والروايات في هذه المعاني لا تحصى كثرة.

ك. سؤال وإشكال: هل يماثل حشره حشر الإنسان فيبعث وتحضر أعماله ويحاسب عليها فينعم أو يعذب بها والجواب: أن ذلك لازم الحشر بمعنى الجمع بين الأفراد وسوقهم إلى أمر بالإزعاج، وأما مثل السماء والأرض وما يشابههما من شمس وقمر وحجارة وغيرها فلم يطلق في موردها لفظ الحشر كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لله الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، وقوله: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]، وقوله: ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [القيامة: ٩]، وقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا﴾ [الأنبياء: ٩٩]، على أن الملاك الذي يعطيه كلامه تعالى في حشر الناس هو القضاء الفصل بينهم فيما اختلفوا فيه من الحق قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة: ٢٥]، وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عمران: ٥٥] وغير ذلك من الآيات، ومرجع الجميع إلى إنعام المحسن والانتقام من الظالم بظلمه كما ذكره في قوله: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢]، وقوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُوانتِقامٍ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ وَبَرَزُوا لله الْواحِدِ الْقَهَّارِ﴾: [إبراهيم: ٤٨] وهذان الوصفان أعني الإحسان والظلم موجودان في أعمال الحيوانات في الجملة، ويؤيده ظاهر قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾، فإن ظاهره أن ظلم الناس لو استوجب المؤاخذة الإلهية كان ذلك لأنه ظلم والظلم شائع بين كل ما يسمى دابة: الإنسان وسائر الحيوانات فكان ذلك مستعقبا لأن يهلك الله تعالى كل دابة على ظهرها هذا وإن ذكر بعضهم: أن المراد بالدابة في الآية خصوص الإنسان، ولا يلزم من شمول الأخذ والانتقام يوم القيامة

لسائر الحيوان أن يساوي الإنسان في الشعور والإرادة، ويرقى الحيوان العجم إلى درجة الإنسان في نفسياته وروحياته، والضرورة تدفع ذلك، والآثار البارزة منها ومن الإنسان تبطله، وذلك أن مجرد الاشتراك في الأخذ والانتقام والحساب والأجر بين الإنسان وغيره لا يقضي بالمعادلة والمساواة من جميع الجهات كما لا يقتضي الاشتراك في ما هو أقرب من ذلك بين أفراد الإنسان أنفسهم أن يجري حساب أعمالهم من حيث المداقة والمناقشة مجرى واحدا فيوقف العاقل والسفيه والرشيد والمستضعف في موقف واحد، على أنه تعالى ذكر من بعض الحيوان من لطائف الفهم ودقائق النباهة ما ليس بكل البعيد من مستوى الإنسان المتوسط الحال في الفقه والتعقل كالذي حكى عن نملة سليمان بقوله: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨] وما حكاه من قول هدهد له عليه السلام في قصة غيبته عنه: ﴿فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى آخر الآيات: [النمل: ٢٤] فإن الباحث النبيه إذا تدبر هذا الآيات بما يظهر منها من آثار الفهم والشعور لها ثم قدر زنته لم يشك في أن تحقق هذا المقدار من الفهم والشعور يتوقف على معارف جمة وإدراكات متنوعة كثيرة من بساط المعاني ومركباتها، وربما أيد ذلك ما حصله أصحاب معرفة الحيوان بعميق مطالعاتهم وتربياتهم لأنواع الحيوان المختلفة من عجائب الأحوال التي لا تكاد تظهر إلا من موجود ذي إرادة لطيفة وفكر عميق وشعور حاد.

ل. سؤال وإشكال: هل الحيوان يتلقى تكليفه في الدنيا برسول يبعث إليه ووحي ينزل عليه؟ وهل هذا الرسول المبعوث إلى نوع من أنواع الحيوان من أفراد ذلك النوع بعينه؟ والجواب: عالم الحيوان إلى هذا الحين مجهول لنا مضروب دونه بحجاب فالاشتغال بهذا النوع من البحث مما لا فائدة فيه ولا نتيجة له إلا الرجم بالغيب، والكلام الإلهي على ما يظهر لنا من ظواهره غير متعرض لبيان شيء من ذلك، ولا يوجد في الروايات المأثورة عن النبي والأئمة من أهل بيته ﷺ ما يعتمد عليه في ذلك.

م. فقد تحصل أن المجتمعات الحيوانية كالمجتمع الإنساني فيها مادة الدين الإلهي ترتضع من فطرتها نحو ما يرتضع الدين من الفطرة الإنسانية ويمهدها للحشر إلى الله سبحانه كما يمهد دين الفطرة الإنسان للحشر والجزاء، وإن كان المشاهد من حال الحيوان بالقياس إلى الإنسان ـ وتؤيده الآيات القرآنية الناطقة

بتسخير الأشياء للإنسان وأفضليته من عامة الحيوان ـ أن الحيوان لم يؤت تفاصيل المعارف الإنسانية ولا كلف بدقائق التكاليف الإلهية التي كلف بها الإنسان.

٤. لنرجع إلى متن الآية فقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ يدل على أن المجتمعات الحيوانية التي توجد بين كل نوع من أنواع الحيوان إنما تأسست على مقاصد نوعية شعورية يقصدها كل نوع من الحيوان على اختلافها بالشعور والإرادة كالإنسان، وليس ذلك مقصورا على المقاصد الطبيعية أعني مقاصد التغذي والنمو وتوليد المثل المحدودة بهذه الحياة الدنيا بل ينبسط ذيله على ما بعد الموت ويتهيأ به إلى حياة أخرى ترتبط بالسعادة والشقاوة المرتضعتين من ثدي الشعور والإرادة.

٥. سؤال وإشكال: ربما اعترض عليه أن القوم تسلموا أن غير الإنسان من أنواع الحيوان محروم من موهبة الاختيار، ولذلك يعد أفعال الحيوان كأفعال النبات طبيعية غير اختيارية لما يشاهد من حالها أنها لا تملك نفسها من الإقدام على الفعل إذا صادف ما فيه نفعها المطلوب كالهرة إذا رأت فأرة أو الأسد إذا رأى فريسته، والهرب إذا صادف ما يخافه من عدو غالب كالفأرة إذا رأت هرة أو الغزالة إذا شاهدت أسدا فلا معنى للسعادة والشقاوة الاختياريتين في الحيوان غير الإنسان، والجواب:

أ. التأمل في معنى الاختيار والحالات النفسية التي يتوسل بها الإنسان إلى إتيان أفعاله الاختيارية يدفع هذه الشبهة وذلك أن الشعور والإرادة الذين يتم بهما فعل الإنسان الاختياري بالحقيقة إنما أودعا في الإنسان مثلا لأنه نوع شعوري يتصرف في المادة الخارجية للانتفاع بها في بقاء وجوده بتمييز ما ينفعه مما يضره، ولذلك جهزته العناية الإلهية بالشعور والإرادة فهو يميز بشعوره الحي ما يضره مما ينفعه فإذا تحقق النفع أراد ففعل فما كان من الأمور بين النفع ولا يحتاج في الحكم بكونه مما ينتفع به إلى أزيد من وجدانه وحصول العلم به إرادة من فوره وفعله وتصرف فيه من غير توقف كما في موارد الملكات الراسخة غالبا مثل التنفس، وأما ما كان من الأمور غير بين النفع موسوما بنقص من الأسباب أو محفوفا بشيء من الموانع الخارجية أو الاعتقادية لم يكف مجرد العلم بتحققه في إرادته وفعله لعدم الجزم بالانتفاع به، فهذه الأمور هي التي يتوقف الانبعاث إليها إلى التفكر مثلا فيها من جهة ما معها من النواقص والموانع والتروي فيها ليميز بذلك إنها هل هي من قبيل النافع أو الضار؟ فإن أنتج التروي كونها نافعة ظهرت الإرادة متعلقة بها

وفعلت كما لو كانت بينة النفع غير محتاجة إلى التروي فيها، وذلك كالإنسان الجائع إذا وجد غذاء يمكنه أن يسد به خلة الجوع فربما شك في أمره أنه هل هو غذاء طيب صالح لأن يتغذى به أو أنه غير صالح فاسد أو مسموم أو مشتمل على مواد مضرة؟ وأنه هل هو ماله نفسه ولا مانع من التصرف فيه كاحتياج مبرم مستقبل أو صوم ونحوه أو مال غيره ولا يجوز التصرف فيه؟

ب. وحينئذ يتوقف عن المبادرة إلى التصرف فيه، ولا يزال يتروى حتى يقطع بأحد الطرفين فإن حكم بالجواز كان مصداقا لما ينتفع فلا يتوقع بعد ذلك دون أن يريد فيتصرف فيه، وإن لم يشك في أمره وكان بينا عنده من أول الأمر أنه طيب صالح للتغذي إرادة إذا علم بوجوده من غير ترو أو تفكر، ولم ينفك العلم به عن إرادة التصرف فيه قطعا.

ج. فمحصل حديث الاختيار أن الإنسان إذا لم يتميز عنده بعض الأمور التي يتصرف فيها أنها نافعة أو ضارة ميز ذلك بالتروي والتفكر فاختار أحد الجانبين أو الجوانب، وأما لو تميز من أول الأمر إرادة ففعله من غير مهل ولم يحتج إلى ترو أصلا فالإنسان يختار ما يرى نفعه بترو أو من غير ترو ولا تروي إلا لرفع الموانع عن الحكم.

د. ثم إنك إذا تأملت حال أفراد الإنسان المختارين في أفعالهم وجدتهم ذوي اختلاف شديد في مبادئ اختيارهم أعني الصفات الروحية والأحوال الباطنية من شجاعة وجبن وعفة وشره ونشاط وكسل ووقار وخفة، وكذا في قوة التعقل وضعفه وإصابة النظر وخطائه فكثيرا ما يرى الشره نفسه مضطرة مسلوبة الاختيار في موارد يشتهي الانهاك فيها لا يعبأ بأمرها العفيف المتطهر، وربما يرى الجبان أدنى أذى يصيبه في مهمة أو مقتلة عذرا لنفسه ينفي عنه الاختيار، ولا يرى الشجاع الباسل الآبي عن الضيم الموت الأحمر وأي زجر بدني أمرا فوق الطاقة، ولا يرى لأي مصيبة هائلة في سبيل مقاصده من بأس، وربما اختار السفيه خفيف العقل بأدنى تصور، واه ولا يرى العاقل اللبيب ترجيح الفعل بأمثال تلك المرجحات إلا تلهيا ولعبا، وأفعال الصبيان غير المميزين اختيارية معها بعض التروي ولا يعبأ بها وبأمرها البالغ الرشيد، وكثيرا ما نعد في محاوراتنا فعلا من أفعالنا اضطراريا أو إجباريا إذا قارن أعذارا اجتماعية غير ملزمة بحسب الحقيقة كشارب الدخان يعتذر بالعادة، والنومة يعتذر بالكسل والسارق أو الخائن يعتذر بالفقر.

هـ. وهذا الاختلاف الفاحش في مبادئ الاختيار وأسبابه والعرض العريض في مستوى الأفعال

الاختيارية هو الذي بعث الدين وسائر السنن الاجتماعية أن يحدوا الفعل الاختياري بما يراه المتوسط من أفراد المجتمع الإنساني اختياريا، ويبنوا على ذلك صحة تعلق الأمر والنهي والعقاب والثواب ونفوذ التصرف وغير ذلك، ويعذروا من لم يتحقق فيه ما يتحقق في الفعل الاختياري الذي يأتي به الإنسان المتوسط من المبادي والأسباب، وهو المتوسط من الاستطاعة والفهم.

و. فهذا الوسط المعدود اختيارا النافي لاختيارية ما دونه إنما هو كذلك بحسب الحكم الديني أو الاجتماعي المراعى فيه مصلحة الدين أو الاجتماع وإن كان الأمر بحسب النظر التكويني أوسع من ذلك.

ز. والإمعان فيما تقدم يعطي أن يجزم بأن الحيوان غير الإنسان غير محروم من موهبة الاختيار في الجملة وإن كان أضعف مما نجده في المتوسط من الناس من معنى الاختيار وذلك لما نشاهده في كثير من الحيوانات وخاصة الحيوانات الأهلية من آثار التردد في بعض الموارد المقرونة بالموانع من الفعل وكذا الكف عن الفعل بزجر أو إخافة أو تربية، فجميع ذلك يدل على أن في نفوسها صلاحية الحكم بلزوم الفعل والترك، وهو الملاك في أصل الاختيار وإن كان التروي ضعيفا فيها جدا غير بالغ حد ما نجده في الإنسان المتوسط.

ح. وإذا صح أن الحيوان غير الإنسان لا يخلو عن معنى الاختيار في الجملة وإن كان ضعيفا فمن الجائز أن يجعل الله سبحانه المتوسط من مراتب الاختيار الموجودة فيها ملاكا لتكاليف مناسبة لها خاصة بها لا نحيط بها، أو يعاملها بما لها من موهبة الاختيار بنحو آخر لا معرفة لنا به إلا أنه فيها بنحو يصحح الإنعام عليها عند الموافقة، ومؤاخذتها والانتقام منها عند المخالفة بما الله سبحانه أعلم به.

٦. ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ جملة معترضة، وظاهرها أن المفرط فيه هو الكتاب، ولفظ ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ بيان للفرط الذي يقع التفريط به، والمعنى لا يوجد شيء تجب رعاية حاله والقيام بواجب حقه وبيان نعته في الكتاب إلا وقد فعل من غير تفريط، فالكتاب تام كامل.

أ. والمراد بالكتاب إن كان هو اللوح المحفوظ الذي يسميه الله سبحانه في موارد من كلامه كتابا مكتوبا فيه كل شيء مما كان وما يكون وما هو كائن، كان المعنى أن هذه النظامات الأممية المماثلة لنظام الإنسانية كان من الواجب في عناية الله سبحانه أن يبني عليها خلقة الأنواع الحيوانية فلا يعود خلقها عبثا ولا يذهب وجودها سدى، ولا تكون هذه الأنواع بمقدار ما لها من لياقة القبول ممنوعة من موهبة الكمال،

فالآية على هذا تفيد بنحو الخصوص ما يفيده بنحو العموم، قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]، وقوله: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]

ب. وإن كان هو القرآن الكريم وقد سماه الله كتابا في مواضع من كلامه، كان المعنى أن القرآن المجيد لما كان كتاب هداية يهدي إلى صراط مستقيم على أساس بيان حقائق المعارف التي لا غنى عن بيانها في الإرشاد إلى صريح الحق ومحض الحقيقة لم يفرط فيه في بيان كل ما يتوقف على معرفته سعادة الناس في دنياهم وآخرتهم كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]

ج. من الممكن أن يشار في الآية إلى كلا المعنيين فيراد في الكتاب مطلق الكتاب، ويكون المعنى أن الله سبحانه لا يفرط فيما يكتب من شيء أما في كتاب التكوين فإنه يقضي ويقدر لكل نوع ما في استحقاقه أن يناله من كمال الوجود كالأنواع الحيوانية هيأ لكل منها من سعادة الحياة الأممية الاجتماعية ما هيأه للإنسان لما رأى من صلوحها لذلك فلم يفرط في أمرها، وأما في كتابه الذي هو كلامه الموحى إلى الناس فإنه يبين فيه ما في معرفته خير الناس وسعادة عاجلهم وآجلهم ولا يفرط في ذلك، ومن ذلك أنه لم يفرط في أمر الأمم الحيوانية، وبين في هذه الآية حقيقة ما وهبه لها من نوع السعادة الوجودية التي جعلتهم أمما حية سائرة بوجودها إلى الله سبحانه محشورة إليه كالإنسان.

٧. مما يجب أن يعرفه الناس في سبيل تفقه أمر المعاد أن يتبينوا كيفية ارتباط الحشر وهو البعث يوم القيامة على نهج الاجتماع بالتشكل الأممي في الدنيا، وأن ذلك هو الذي يجدونه بين أنفسهم ويجدونه بين سائر الأنواع الحيوانية، ويترتب عليه دون ذلك فوائد أخرى كالتبصر في توحيد الله تعالى ولطيف قدرته وعنايته بأمر الخليقة والنظام العام الجاري في العالم، ومن أهم فوائده معرفة أن الموجود آخذ في سلسلته من النقص إلى الكمال، وبعض قطعاتها المشتملة على حلقات الحيوان الشامل للإنسان وما دونه مراتب مختلفة مترتبة آخذة من المراتب القاطنة في أفق النبات إلى المراتب المجاورة لمرتبة الإنسان ثم الإنسان.

٨. وقد ندب الله سبحانه الناس إلى معرفة الحيوان والنظر في الآيات المودعة في وجوده أبلغ الندب، وعد ذلك موصلا إلى أفضل النتائج العلمية الملازمة للسعادة الإنسانية وهو اليقين بالله سبحانه حيث قال: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٤] والآيات في الحث على النظر في أمر الحيوان كثيرة في القرآن الكريم.

٩. ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ بيان لعموم الحشر لهم وأن حياتهم الموهوبة نوع حياة تستتبع الحشر إلى الله كما أن الحياة الإنسانية كذلك، ولذلك أرجع الضمير المستعمل في أولي الشعور والعقل، فقال: ﴿إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ إشارة إلى أن أصل الملاك وهو الأمر الذي يدور عليه الرضا والسخط والإثابة والمؤاخذة موجود فيهم.

١٠. وقد وقع في الآية التفات من الغيبة إلى التكلم مع الغير ثم إلى الغيبة بالنسبة إليه تعالى، والتدبر فيها يعطي أن الأصل في السياق الغيبة وإنما تحول السياق في قوله: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ إلى التكلم مع الغير لكون المعترضة خطابا خاصا بالنبي ﷺ فلما فرغ منه رجع إلى أصل السياق.

١١. ومن عجيب ما قيل في الآية استدلال بعضهم بها على التناسخ وهو أن تتعلق نفس الإنسان بعد مفارقتها البدن بالموت ببدن واحد من الحيوان يناسبها في الخلق الرذيل الذي رسخ فيها كأن تتعلق نفس المكار بدن ثعلب، ونفس المفسد الحقود ببدن الذئب، ونفس من يتبع سقطات الناس وعوراتهم ببدن خنزير، ونفس الشره الأكول ببدن البقر، وهكذا ولا تزال تنتقل من بدن إلى بدن وتعذب بذلك هذا إن كانت شقية ذات أخلاق رذيلة، وإن كانت سعيدة تعلقت بعد الموت ببدن سعيد منعم بسعادته من أفاضل أفراد الإنسان ومعنى الآية على هذا: ما من حيوان من الحيوانات إلا أمم إنسانية أمثالكم انتقلت بعد الموت إلى صور الحيوانات، وقد ظهر مما تقدم أن الآية في معزل من هذا المعنى، على أن ذيل الآية: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ لا يلائم هذا المعنى، على أن أمثال هذه الأقاويل من وضوح الفساد بحيث لا طائل في التعرض لها والبحث عن صحتها وسقمها.

١٢. ومن عجيب ما قيل فيها أيضا: إن المراد بحشر الحيوان موتها فلا بعث بعد ذلك أو مجموع الموت والبعث، أما الأول فينفيه ظاهر قوله: ﴿إِلَى رَبِّهِمْ﴾ إذ لا معنى للموت إلى الله، وأما الثاني فهو من الالتزام بما لا يلزم إذ لا موجب لضم الموت إلى البعث في المعنى، ولا أن في الآية ما يستوجبه.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

---

(١) من وحي القرآن: ٩/ ٨٨.

١. في هذه الآية حديث عن نقطتين مهمّتين تتعلقان بالحيوان، وما يتميز به في مجتمعاته التي يتجمع فيها أفراده، وفي ما ينتهي إليه أمره من الحشر إلى الله.

٢. ففي النقطة الأولى، توجّهنا الآية إلى كل دابّة في الأرض من ذوات الأربع أو من الزواحف والحشرات، وربّما أيضا إلى حيوانات البحر، باعتبارها من الدواب في الماء، بطريقة السباحة، إذا صح التعبير، وإلى كل طائر يطير بجناحيه، وتدعونا إلى دراسة خصائصها الذاتية، وعلاقاتها ببعضها البعض وطريقتها في ممارسة حياتها، وتنظيم أمورها، وتوزيع أدوارها على أفرادها مما يجعل لها شخصية الأمّة التي تتمثل في نوع معين من الترابط الاجتماعي، والتوازن الذاتي، المرتكزين على ما أودعه الله فيها من خصائص الغرائز الدقيقة التي تنظم لها حياتها بشكل دقيق متوازن، بما ألهم فيها كل نفس هداها، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾

٣. وقد تكون الغاية من هذه الإشارة إلى طبيعة شخصية الأمة في الحيوان، هي توجيه الإنسان إلى أن يدرس طبيعة المجتمعات الحيوانيّة، ليراقب طريقتها في النمو، وفي العلاقات، وفي ممارسة غرائزها وحاجاتها وفي أسلوبها المتنوع في الدفاع عن نفسها في مواجهة الأوضاع الطبيعية، أو الحالات الطارئة التي تشهد وجودها وذلك ليخرج الإنسان من خلال هذه الدراسة الشاملة بفهم كيفيّة التعامل مع الحيوان، وطريقة الاستفادة من خصائصه وأساليبه في العيش وبناء العلاقات، فإن الله يريد للإنسان أن يفهم كل ما حوله ليتعلم منه دروس الحياة، ولينطلق في هذه الرحلة الكونيّة الحيّة، ليعرف منها عظمة الخالق من خلال عظمة المخلوق، لتلتقي، لدى الإنسان المعرفة الكونيّة بالمعرفة الإلهيّة.. وهذا هو الأسلوب القرآني المميّز الذي يوحي للإنسان باللّاهوت من خلال حركة الحياة من حوله، لا من خلال الطريقة التجريديّة في التفكير، فلا تنفصل العقيدة عن الحياة، بل تتعمَّق بها، وتنمو في حيويّتها وتطوّرها.

٤. سؤال وإشكال: قد يتساءل متسائل عن طبيعة هذه المماثلة بيننا وبين الحيوانات التي تدبّ في الأرض أو تطير في الهواء، فهل لها تفكير وعقل وإرادة، كما لنا ذلك كله؟ وهل نستطيع اكتشاف ذلك من خلال التنظيم الدقيق الذي يحكم أفرادها ومجتمعاتها وينظم علاقاتها ببعضها البعض، أم أنَّ ذلك يتحرك في حياتها بطريقة غريزيّة تلقائيّة لا أثر فيها للاختيار المتنوّع والإرادة المعقّدة؟ والجواب: قد نتصوّر المماثلة في هذا التكوين الاجتماعي الذي يجعل لكل فرد أو جماعة دورا محدّدا في حركة الأفراد، مما يوحي بالدقّة في

الخلق والتنظيم الإلهي للكون، وربما كان هذا الاحتمال أقرب إلى مدلول كلمة (أمم) التي تمثل المضمون الاجتماعي في معناها الدقيق.

٥. وفي هذا الجوّ، قد ينبغي للعاملين في حقل التربية الإسلامي، أن يجعلوا من علم الحيوان مادّة ثقافيّة تربويّة، تربط الإنسان بالله، من خلال انفتاحه على الكائنات الحيّة التي تعيش معه وتتحرك من حوله، وتوحي له بالاستفادة من خصائصها الذاتيّة في توجيهه إلى الدقّة في التنظيم، والدأب في العمل، كما نلاحظه في الحديث عن مجتمع النمل والنحل.

٦. سؤال وإشكال: نتساءل عن معنى قوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ والمراد بها في الكتاب، هل هو اللوح المحفوظ، أو هو القرآن، أو كتاب الأعمال، أو كتاب الوجود التكويني؟ والجواب:

أ. ربما يخطر في البال المعنى الأوّل، فيما إذا ربطنا الفقرة بما قبلها من الحديث عن الدوابّ والطيور والنّاس، من خلال الإيحاء بإحاطة علم الله بكل شيء فيما أودعه في كتابه الذي يشمل كل شيء وقد يجد البعض في تعقيب الفقرة بالحديث عن الحشر، ما يوحي بالمعنى الثالث، وذلك بملاحظة أن الله يحصي على المخلوقات كل أعمالهم كما جاء في الآية الكريمة: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ١٢]

ب. ولكن بعض الأحاديث الواردة عن أئمة أهل البيت عليه السّلام توحي بالمعنى الثاني، وهو القرآن، الذي أبان الله فيه كل ما يحتاجه الناس ممّا يدخل في نطاق مسئوليتهم، فيما أحلّه وحرّمه، وبذلك يتناسب مع الحديث عن الحشر، وما يمثّله من الموقف الذي يواجه فيه الناس نتائج المسؤولية.. وربما كان هذا المعنى أقرب إلى جوّ الآية من المعاني الأخرى، لأنّ الحديث العام يتحرك في أجواء الرسالة والرسول وما يلتقي مع الحجة التي أقامها الله على العباد، فيما أنزله على رسوله من وحي يملأ فراغ حياتهم بالمفاهيم والتشريعات التي تعمّق لهم روح الالتزام وتخطط لهم

٧. وقد حاول البعض أن يفهم من هذه الفقرة أن الله بيّن في القرآن كل شيء من أسرار الكون وقضايا الوجود وآفاق التشريع، وبذلك كان القرآن شاملا لكل شيء في الوجود، فلا حقيقة كونيّة ولا اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية، إلا وللقرآن فيها بيان وبرهان.. فهو كتاب الوجود والتشريع وحركة الحياة، ولكنّ مثل هذا الاتجاه في هذه الفقرة، لا يلتقي بالواقع القرآني الذي يتميّز بالتأكيد على القضايا المتصلة بالجانب الروحي والفكري والعملي للإنسان، وبالانطلاق في الأمور الكونيّة، بالإيحاء بالمنهج

الذي يغري الإنسان بالبحث والتأمّل والفكر، بعيدا عن الدخول في التفاصيل، وإذا كانت هناك بعض الأحاديث عن بعض الأمور العلميّة، فإنها لا تتعدى جانب التلميح، لا التفصيل، فيما تفرضه ضرورة العرض لبعض الظواهر الحياتية والإنسانيّة التي توحي بالاستنتاج، ولعلّ ما ذكرناه، يلوح من التركيز على وصف القرآن بأنه نور وهدى يهدي به الله من اتّبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط العزيز الحميد، فهو كتاب التخطيط للمسؤوليّة الإنسانيّة أمام الله في حركة الحياة، لا كتاب التحليلات العلمية لأسرار الكون والحياة، وبهذا نستوحي من شمول الكتاب لكل شيء الشمول في الجانب الفكري والروحي والعملي فيما يحتاجه الإنسان في قضايا الانتماء والعقيدة والسلوك والحركة في الحياة الفردية والجماعية، وهذا ما أشارت إليه بعض الأحاديث التي ألمحنا إليها آنفا، وقد جاء في الكافي بإسناد فيه رفع إلى الرضا عليه السّلام قال: (إن الله عزّ وجلّ لم يقبض نبيّه ﷺ حتى أكمل له الدين وأنزل عليه القرآن فيه تبيان كل شيء بين فيه الحلال والحرام والحدود والأحكام وجميع ما يحتاج إليه الناس فقال عز وجل: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ﴾

٨. ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ من هم هؤلاء؟ هل هي الحيوانات؟ ولماذا يحشرها الله يوم القيامة؟ وهل هي مسئولة عن أعمالها ليكون الحشر لها، تماما كما هو الحشر لأفراد الإنسان من أجل مواجهة نتائج المسؤولية؟ وكيف تكون المسؤولية لمن لم يزوَّد بالإرادة من الفكر والعقل اللذين لا يتصف بهما الحيوان الذي يتحرك بالغريزة ـ فيما نعرف من مفهومنا عن الحيوان؟ هذه بعض علامات الاستفهام التي قد لا نملك عليها جوابا محدّدا فيما نملك من وسائل المعرفة، فقد لا يستبعد البعض من الباحثين أن يكون للحيوانات بعض العقل وبعض الإرادة فيما يلاحظونه من قابليتها للتعلم والتكيّف والتصرّف، ولو بطريقة التقليد والمحاكاة، مما يلتقي بإمكانيّة المسؤوليّة في بعض الأشياء، وقد يتأكّد ذلك بما ورد في بعض الأحاديث المأثورة، إن الله يقتص للشاة الجمّاء من الشاة القرناء يوم القيامة، كما يقتصّ لأيّ ظالم من أيّ مظلوم، وربّما تأيّد ذلك بالآية الكريمة: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]

٩. ولكن قد يلاحظ المتأمّل، أن الحشر قد يكون مظهرا من مظاهر التجميع للكائنات الحيّة في الأرض لعلاقتها ببعضها البعض في الأمور المتصلة بالإنسان، وبذلك لا يعبّر عن حالة أصليّة في مسئولية الحيوان، بل يكون حالة تبعيّة من حيث علاقته بمسؤوليّة الإنسان ودوره، وقد تكون هناك بعض الأسرار

الخفيّة التي يعلمها الله، مما لم نحط بعلمه، فلنترك علم ذلك لله.

١٠. وقد يقول بعض المفسرين، إن الحشر للناس، وإن أسلوب الآية قد تحوّل بطريق الالتفات، من الخطاب إلى الغيبة، كما في الكثير من الآيات القرآنيّة، ويؤيّد ذلك بالأجواء المحيطة بالآية قبلها وبعدها من مسئولية الناس عن كفرهم وضلالهم، وبالتفسير الوارد لكلمة الكتاب، بأن المراد به القرآن الذي بيّن فيه الله كل ما شرّعه للناس من الحلال والحرام، فإن ذلك مختص بالإنسان لاختصاص الشريعة به، وبالجنّ، دون الحيوان، وقد يكون هذا الرأي قريبا إلى الاعتبار، ولكن لا سبيل إلى الجزم به، والله العالم بحقائق آياته.

١١. هذا كله إذا فسّرنا الحشر بالجمع في يوم القيامة، أمّا إذا فسرناه بها فسّره بعض المفسرين من الإماتة، فمعنى يحشرهم، أي يجمعهم لديه ويميتهم بعد ذلك، فإن الآية تتجه اتجاها آخر لا يثير أيّة مشكلة من المشاكل التي ألمحنا إليها، ولكننا لا نجد هذا التفسير قريبا إلى جوّ الآية وسياقها، ولعل هذا المفسّر ارتأى ذلك هربا من الوقوع في المشاكل الفكرية التي يثيرها التفسير الأوّل فيما ألمحنا إليه من حديث.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ هذا بيان لقدرة الله وسعة علمه تعالى بأن جعل كل دابة تدب في الأرض أمماً كل نوع منها أمّة، وجعل سبحانه كل ﴿طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ صغيراً أم كبيراً أمماً كل نوع أمة يجمعها تدبيره لمعاشها وما يتوقف عليه من كمال خلقها الذي به صلحت للمعاش وتدبيره تعالى لتناسلها وتقديره لأعمارها وتدبيره لأسباب سلامتها من أضدادها فيما قدر من حياتها، فمنها: ما يستطيع الدفاع عن نفسه بما خلق لَه من آلة الدفاع وقوّته، ومنها: ما هو سريع الفرار والإختفاء، ومنها: ما بيته ضيق لا يتسع لضده، ومنها: ما يحتال للسلامة بإيهام أنه قد مات كما يفعل الثعلب، أو بإعداد مخرج من بيته للفرار من غير بابه كما يفعل اليربوع، أو بالسكون مكانه كما تفعل الدويبة الصغيرة التي تدل عليها حركتها فإذا سكنت اختفت.. فهذه الأنواع وسائر أنواع الحيوانات والطيور لكلٍ منها تدبير معيشته ورعايته، لا يخفى على الله تعالى ولا يشغله شأن عن شأن، فهي في رعايته سبحانه كما

(١) التيسير في التفسير: ٢/ ٤٣٩.

الإنسان في رعايته على كثرة الأنواع، ولكل نوع ما يختص به من العادات المعيشية وطلب الرزق والمسكن والمحافظة على الحياة، فهو أمّة وحده لاجتماعه على ما خصه من بين سائر الأنواع، قال في (الصحاح): (والأمة: الجماعة ـ ثم قال ـ: وكل جنس من الحيوان أمة)، وفي (مفردات الراغب): (والأمة: كل جماعة يجمعهم أمرٌ ما)

٢. ﴿أَمْثَالُكُمْ﴾ أي في أن كل أمة لها أسباب معيشتها ولها خلقها ورزقها ورعايتها وآجالها وغير ذلك.

٣. ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): (وقوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ قال في (البرهان): يعني من أمور الدين إما مفصلاً يستغني عن التفسير أو مجملاً جعل إلى تفسيره سبيلاً، قال الحسين بن القاسم عليهما السلام: معنى ﴿مَا فَرَّطْنَا﴾ أي لم نتوانَ في شيء في الكتاب ولكنا جعلنا فيه أصول جميع الأسباب، ولم نتوانَ في الخبر عن رحمتنا حتى ذكرنا البهائهم والطير والدواب ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ أي يجمعون في ذلك اليوم إلى الله وينشرون) والحشر في هذه الآية: إحياء الحيوانات والطير، وسوقها إلى حيث تجمع لإعطاء كل منها ما يستحقه، بسبب ما لحقه في الدنيا من مشقة أو ألم.

٤. ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ فيه تنزيل الحيوانات والطير منزلة العقلاء، ولعل السر فيه أنها حين تحشر تعطى من الفهم ما تعرف به عدل الله في قضائه، وأنها قد وُفيت ما تستحقه من الأعواض والأجور على ما سخرت لَه من نفع الإنسان وغيره، وعلى ما ألهمت من ذكر الله ونحوه، وقد قيل: إن لها تكليفاً بقدر معين تفهمه.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. لاتساع البحث حول هذه الآية، سنبدأ بشرح ألفاظها، ثمّ نفسّرها بصورة إجمالية، ثمّ نتناول سائر جوانبها بالبحث:

(١) تفسير الأمثل: ٤/ ٢٧١.

أ. (الدّابة) من (دبّ) والدبيب المشي الخفيف، ويستعمل ذلك في الحيوان والحشرات أكثر، وقد ورد في الحديث (لا يدخل الجنّة ديبوب) وهو النمام الذي يمشي بين الناس بالنميمة.

ب. (الطائر) كل ذي جناح يسبح في الهواء، وقد يوصف بها بعض الأمور المعنوية التي تتقدم بسرعة واندفاع، والآية تقصد الطائر الذي يطير بجناحيه.

ج. (أمم) جمع أمّة، وهي كل جماعة يجمعهم أمر ما، كالدين الواحد أو الزمان الواحد أو المكان الواحد.

د. (يحشرون) من (حشر) بمعنى (الجمع)، والمعنى الوارد في القرآن يقصد به يوم القيامة، وخاصة لأنّه يقول: ﴿إِلَى رَبِّهِمْ﴾

٢. هذه الآية تستأنف ما جاء في الآيات السابقة من الكلام مع المشركين وتحذيرهم من مصيرهم يوم القيامة، فتتحدث عن (الحشر) وبعث عام يشمل جميع الكائنات الحية والحيوانات، فتقول أولا: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ يتّضح من هذا أنّ فصائل الحيوان والطيور أمم مثل البشر، غير أنّ للمفسّرين أقوالا مختلفة بشأن وجه الشبه في هذا التمثيل:

أ. بعض يقول: إنّ التشابه يختص بأسرار خلقتها العجيبة التي تدل على عظمة الخالق سبحانه.

ب. وبعض آخر يرى التشابه في حاجاتها الحياتية المختلفة وفي طرق سد تلك الحاجات وإشباعها.

ج. ومنهم من يعتقد أنّ التشابه كائن في تشابه الإدراك والفهم والمشاعر، أي أنّ للحيوان والطير أيضا ـ إدراكه ومشاعره في عالمه الخاص، ويعرف الله ويسبح له ويقدسه بحسب طاقته، وإن تكن قوّة إدراكه أدنى ممّا في الإنسان، ثمّ إنّ ذيل هذه الآية ـ كما سيأتي بيانه ـ يؤيد هذا الرأي الأخير.

٣. ثمّ تقول الآية: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾:

أ. لعل المقصود بالكتاب هو القرآن الذي يضم كل شيء (ممّا يتعلق بتربية الإنسان وهدايته وتكامله) يبيّنه مرّة بيانا عاما، كالحث على طلب العلم مطلقا، ومرّة بيانا تفصيليا كالكثير من الأحكام الإسلامية والقضايا الأخلاقية.

ب. ثمّة احتمال آخر يقول: إنّ المقصود بالكتاب هو (عالم الوجود) إذ أنّ عالم الخليقة مثل الكتاب الضخم، يضم كلّ شيء ولا ينسى شيئا.

ج. ليس ثمّة ما يمنع من أن تشمل الآية كلا التّفسيرين، فالقرآن لم يترك شيئا تربويا إلّا وذكره بين دفتيه، كما أنّ عالم الخليقة يخلو من كل نقص وعوز.

٤. وتختم الآية بالقول: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ يظهر أنّ ضمير (هم) يعود إلى الدواب والطير على اختلاف أنواعها وأصنافها، أي أنّ لها ـ أيضا بعثا ونشورا، وثوابا وعقابا، وهذا ما يقول به معظم المفسّرين، إلّا أنّ بعض المفسّرين ينكرون هذا، ويفسّرون هذه الآية والآيات المشابهة تفسيرا آخر، كقولهم: إنّ معنى (الحشر إلى الله) هو الموت والرجوع إلى نهاية الحياة.

٥. ظاهر الآية يشير ـ كما قلنا ـ إلى البعث والحشر يوم القيامة، من هنا تنذر الآية المشركين وتقول لهم: إنّ الله الذي خلق جميع الحيوانات ووفر لها ما تحتاجه، ورعى كل أفعالها، وجعل لها حشرا ونشورا، قد أوجد لكم دون شك بعثا وقيامة، وليس الأمر كما تقول تلك الفئة من المشركين من أنّه ليس ثمّة شيء سوى الحياة الدنيا والمات.

٦. سؤال وإشكال: هل هناك بعث للحيوانات؟ والجواب:

أ. ما من شك أنّ الشّرط الاوّل للمحاسبة والجزاء هو (العقل والإدراك) ويستتبعهما (التكليف والمسؤولية) يقول أصحاب هذا الرأي: إنّ لديهم ما يثبت أن للحيوانات إدراكا وفهما بمقدار ما تطيق، ومن ذلك أن حياة كثير من الحيوانات تجري وفق نظام دقيق ومثير للعجب.

ب. ويدلّ على ارتفاع مستوى إدراكها وفهمها، فمن ذا الذي لم يسمع بالنمل والنحل وتمدّنها العجيب ونظامها المحير في بناء بيوتها وخلاياها، ولم يستحسن فهمها وإدراكها؟ فعلى الرغم من أنّ بعضهم يعزوا ذلك كله إلى نوع من الإلهام الغريزي، فليس ثمّة دليل على أنّ هذه الأعمال تجري بصورة غريزية لا عقلية، ما الدليل على أنّ هذه الأعمال ـ حسبما يدل ظاهرها ـ ليست ناشئة عن تعقل وإدراك؟ كثيرا ما يحدث أنّ الحيوان يبتكر ـ استجابة لظرف من الظروف ـ شيئا لم يسبق له أن مرّ به وجربه، فالشاة التي لم يسبق لها أن رأت ذئبا في حياتها تفرغ منه أوّل ما تراه وتدرك خطره عليها، وتتوسل بكل حيلة لدرء خطره عنها.

ج. إن العلاقة التي تتكون بين الحيوان وصاحبه تدريجيا دليل آخر على هذا الأمر، فكثير من الكلاب المفترسة الخطرة تعامل أصحابها ـ بل وحتى أطفالهم ـ كما يعاملهم الخادم العطوف، ويحكى الكثير عن وفاء الحيوانات وعن تقديمها كثيرا من الخدمات الإنسانية ولا شك أنّ هذه أمور ليس من السهل

اعتبارها ناشئة بدافع الغريزة، إذ إنّ الغريزة تنشأ عنها أعمال رتيبة من طراز واحد باستمرار، أمّا الأعمال التي تقع في ظروف خاصّة كردود فعل لحوادث طارئة غير متوقعة، فهذه تكون إلى التعقل والإدراك أقرب منها إلى الغريزة.

د. نشاهد اليوم أنّ حيوانات مختلفة يجري تدريبها لأغراض متنوعة، فالكلاب البوليسية تدرب للقبض على المجرمين، والحمام الزاجل لنقل الرسائل، وحيوانات أخرى ترسل لابتياع بعض الحوائج من السوق، وحيوانات أخرى للصيد، وهي كلها تؤدي مهماتها بكل دقة وإتقان (حتى أنّهم افتتحوا مؤخرا مدارس خاصّة لتعليم مختلف الحيوانات)! فضلا عن ذلك كلّه، فإنّ هناك بعض الآيات التي تدل ـ بوضوح ـ على أنّ للحيوانات فهما وإدراكا، من ذلك حكاية هروب النمل من أمام جيش سليمان، وحكاية ذهاب الهدهد إلى منطقة سبأ باليمن ورجوعه بأخبار مثيرة لسليمان.

هـ. ثمّة أحاديث إسلامية كثيرة حول بعث الحيوانات، من ذلك ما روي عن أبي ذر قال: بينا أنا عند رسول الله ﷺ إذ انتطحت عنزان، فقال رسول الله ﷺ: (أتدرون فيما انتطحتا؟) فقالوا: لا ندري، قال: (ولكن الله يدري وسيقضي بينهما)، وفي رواية بطرق أهل السنة عن رسول الله ﷺ في تفسير هذه الآية أنّه قال: (إنّه يحشر هذه الأمم يوم القيامة ويقتص من بعضها لبعض حتى يقتص للجماء من القرناء)

و. وفي الآية من سورة التكوير يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ وهي دليل آخر على ذلك.

٧. سؤال وإشكال: تطرح هنا مسألة يتوقف فهم الآية عليها، وهي هل أن مقولة تكليف الحيوانات معقولة، مع أنّ من شروط التكليف العقل، ولهذا لا يكون الطفل والمجنون مكلّفين؟ فهل للحيوانات ذلك العقل الذي يؤهلها للتكليف؟ وهل يمكن أن نعتبر الحيوان أكثر عقلا وإدراكا من الصبي غير البالغ ومن الجنون؟ فإذا لم يكن له مثل هذا العقل والإدراك، فكيف يجوز أن يكلّف، وبأي تكليف؟

والجواب: للتكليف مراحل ودرجات، وكل مرحلة تناسب درجة معينة من العقل والإدراك، وإنّ التكاليف الكثيرة المفروضة في القوانين الإسلامية على الإنسان تتطلب مستوى رفيعا من العقل والإدراك لإنجازها، ولا يمكن أن نفرض مثل تلك التكاليف على الحيوانات طبعا، لأنّ الشرط المطلوب لإنجازها غير متوفر في الحيوانات، إلّا أنّ مرحلة من التكاليف البسيطة التي يكفي لها ما يناسبها من الفهم والإدراك

يمكن تصورها وقبولها في الحيوان ولا يمكن إنكارها، بل من الصعب أن نرفض كل تكليف بشأن الأطفال والمجانين القادرين على فهم بعض المسائل، فالصبي الذي لم يبلغ سن الرشد ـ كأن يكون عمره ١٤ ـ سنة مثلا ـ لو ارتكب جريمة قتل، وهو عالم بكل أضرار هذا العمل، فلا يمكن اعتباره بريئا، والقوانين الجزائية في العالم تضع عقوبات على بعض جرائم الأطفال غير البالغين، وإن كانت العقوبات أخف طبعا، وعليه، فإنّ البلوغ واكتمال العقل من شروط التكليف في المراحل العليا المتكاملة، أمّا في المراحل الأدنى، أي في الذنوب التي لا يخفى قبحها حتى على من هم أدنى مرتبة، فان البلوغ والتكامل العقلي ليسا شرطا لازما، فإذا أخذنا اختلاف مراحل التكليف واختلاف مراتب العقل بنظر الاعتبار، يمكن حل قضية الحيوانات أيضا بهذا الشأن.

٨. سؤال وإشكال: من العجيب أن بعض مؤيدي فكرة (التناسخ) الخرافية يتخذون من هذه الآية دليلا على صحة فكرتهم، ويقولون: يفهم من الآية أنّ الحيوانات أمم مثلكم، مع أنّنا نعلم أنّها ذاتيا ليست مثلنا، فيمكن إذن القول بأن أرواح البشر التي تفارق أبدانها تحل في أبدان الحيوانات، وبهذا الشكل تنال الأرواح المذنبة العقاب، والجواب: على الرغم من أنّ فكرة التناسخ تناقض (قانون التكامل) ولا تتفق مع منطق العقل، وتستوجب إنكار (المعاد) (كما سبق شرحه في موضعه)، فإنّ هذه الآية لا تدل على التناسخ مطلقا، إذ إنّ المجتمعات الحيوانية ـ كما قلنا ـ تشبه المجتمعات البشرية، وهو شبه بالفعل لا بالقوّة، لأن للحيوانات نصيبها من الفهم والإدراك، ونصيبها من المسؤولية أيضا، ومن ثمّ نصيبها من البعث والحساب، أنّها تشبه الإنسان في هذه الحالات.

٩. ينبغي أن نعرف أنّ التكاليف والمسؤوليات الملقاة على الحيوانات في مرحلة خاصّة لا تعني أنّ لها إماما وقائدا وشريعة ودينا كما ذهب إليه بعض أصحاب التصوف، فهي لا يقودها سوى إدراكها الباطني، أي أنّها تدرك بعض الأمور، فتكون مسئولة عنها بقدر إدراكها لها.